

تاريخ العلاقات الدولية

في العصور الحديثة

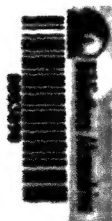
دكتور

جمال يحيى

١٩٨٢



دار المعارف



تاريخ العلاقات الدوليّة

في العصور الحديثة

دكتور

جلال يحيى



دار المعارف

مقدمة

كنت قد ذكرت في مقدمة المجلد الأول من هذه المجموعة ، كيف أن المكتبة العربية عامة ، والمكتبة التاريخية خاصة ، تفتقر إلى كثير من المراجع التي يصعب على قراء اللغات الأجنبية الإستغناء عنها . وفي ميدان التاريخ الحديث والمعاصر ، والتاريخ الأوربي منه ، علينا أن نعترف بضرورة إعتادنا على ما كتبه الأساتذة المتخصصون في هذا الفرع ، ومعظمهم من الأوربيين .

ولقد شعرت بهذا النقص في المكتبة العربية ، وفي ميدان عمل ، رغم تقل بعض الكتب إلى العربية . وزاد شعوري بمسؤوليتي ، وبأن أقدم للقارئ العربي عادة يقيّمها زملاؤه في كل مكان من العالم ؛ فكان أن إخترت هذا الكتاب ، وهو موسوعة في ثمانية مجلدات ، كتبها عدد من الأساتذة المتخصصين : جان شوف Francoia-L. Gonshof الأستاذ بجامعة جاند في بلجيكا عن فترة العصور الوسطى ، وزيلر Gaston Zeller الأستاذ بجامعة باريس ، عن العصور الحديثة في جزئين ، وهما موضوع هذا المجلد الآن ، وفوجيه Andre Fugier ، الأستاذ بجامعة ليون ، عن فترة الثورة الفرنسية والإمبراطورية النابوليونية ، ورونوفان Pierre Renouvin ، الأستاذ بجامعة باريس ، وعضو المجمع ، والمشرّف على الموسوعة ، وذلك عن فترة القرن التاسع عشر ، وفي مجلدين ، وعن أزمنة القرن العشرين في مجلدين آخرين .

وبعد تعريف المجلدات التي كتبها الأستاذ العلامة نير ونوفان ، الخائض والسادس في المجموعة عن القرن التاسع عشر ، والسابع والثامن عن أزمنة القرن العشرين ، أعود الآن إلى المجلدين الثاني والثالث ، عن تاريخ العلاقات الدولية في العصور الحديثة وهما المجلدين اللذين قام بكتابتها الأستاذ جانشوز زيلر ، لكن

أقوم بتحريرها ، استكمالا للجهود السابق ، وتعميما للفائدة . وليس لي فضل فيها سوى نقلها إلى العربية . ولقد التزمت بما كتبه المؤلف ، وإن كنت قد قسمت الباب الأول إلى بايتين ، وحولت بعض أجزاء الفصول الكبيرة إلى فصول مستقلة ، داخل نفس الفصل . الذي تحول إلى باب .

والأستاذ جاستون زيلر معروف في ميدان البحث التاريخي ، وهو من رجال المدرسة التحليلية . والكتاب ، في طبعته الفرنسية ، ينقسم إلى مجلدين (الثاني والثالث من المجموعة) ، ويحملان عناوين ثانوية : I — من كرسنوف كولومب إلى كرومويل ، و II — من لوى الرابع عشر إلى ١٧٨٩ ؛ تحولاً في هذا الكتاب إلى قسمين . ويضم القسم الأول ثلاثة أبواب : عن القرن السادس عشر ، وعن منافسات الدول العظمى ، وعن القرن السابع عشر ، حتى عام ١٦٦٠ . أما القسم الثاني فيضم بايتين إثنتين : عن القرن السابع عشر ، بعد عام ١٦٦٠ ، وعن القرن الثامن عشر . أى أن هذا القسم يضم ما يسمى بعصر لوى الرابع عشر ، والقرن الثامن عشر ؛ وأن كان القرن الثامن عشر قد تقلص في حجمه ، مادامت أطرفه ، في بدايته ونهايته ، قد اقتطعت منه : فترة ١٧٠٠ — ١٧١٥ لكي تنضم إلى عصر لوى الرابع عشر ، وفترة ١٧٨٩ — ١٨٠٠ ، وهي جزء أساسي في فترة الثورة الفرنسية التي لها مجلد خاص ، مع الإمبراطورية النابوليونية ، في هذه المجموعة .

ولقد قام المؤلف ، في القسم الأول من هذا الكتاب ، بتقسيم أوروبا إلى قطاعات جغرافية كبيرة ؛ ثم ترك هذا التقسيم في القسم الثاني منه ، أى بعد عام ١٦٦٠ ؛ وذلك أن الأهمية بدأت تتركز منذ ذلك الوقت حول عدد صغير من الدول العظمى ، والتي كانت تقوم بالدور الدبلوماسي والعسكري ، وزاد أقول نجم الدول الأقل أهمية ، وبتزايد مستمر ؛ أو وصلت إلى الظروف التي إعتاد

الناس في منتصف القرن العشرين أن يصغوا بها الدول التابعة . وكانت هذه بنوع خاص هي حالة هولندا ، وحالة البرتغال ، والتي كان لكل منها دوراً في غاية الأهمية ، في الفترة السابقة .

أما كلمة «السيطرة» *Prépondérance* فقد استخدمت لكي تمثل الموقف المسيطر لدولتين عظميتين في أوروبا ، في القرن السادس عشر ، والنصف الأول من القرن السابع عشر : فرنسا وإسبانيا . وأخذت هذه الكلمة معناها الأكثر قوة في عصر لوى الرابع عشر .

وفي الفترة السابقة ، كانت ملكية فيليب الثاني ، قد أظهرت قوة ضخمة ، على البر وعلى البحر ، حتى يمكننا أن نقسب إليها بسهولة أهداف « السيطرة » . وكان اسم ملك إسبانيا ، والبرتغال ، وممتلكاتها فيها وواه البحار ، قد رن في جميع أنحاء أوروبا ، وكأهم لامر ليس له منافس ؛ وفي وسعنا أن يفرض رغباته على جميع أنحاء العالم . ولكن إسبانيا كانت ، من جهة النظر الأوروبية ، على حافة القارة ؛ وكان عدد سكانها لا يزال غير كاف ، وبشكل لا يسمح لقوتها بأن تكون أكثر من تهديد معلق فوق رؤوس خصومها كما ظهر في مرحلة الأرمادا .

ولسوف نصل إلى مستوى جديد من العظمة ، مع فرنسا في عهد لوى الرابع عشر . ولقد تطلب الأمر مجهودات حروب وفاقات عديدة ، من أجل وقف مجهودات توسعها ، ثم إجبارها على التراجع . وظلت طوال فترة نصف قرن كلمة هي من حكر السياسة ، في نفس الوقت الثقافة ، الأدبية . وظل إهتمام أوروبا مركزاً ، وبقاى شديد ، على كل ما تقوم به . ولذلك فإننا سنبدأ بأن نركز حول فرنسا على ما نرغب في أن نشرحه بشأن أوروبا الغربية ، وأوروبا الوسطى . وبعد ذلك ، تظهر أيلم لوى الرابع عشر ، شخصية كيرة ثانية ، هي شخصية شارل الثاني عشر ، والتي سوف تبطينا مركزاً ألمانيا للإهتمام ، في شمال

شرق القارة. وسوف نشاهد ، مع شارل الثاني عشر ، زيادة قوة السويد ، مرة ثانية ، حتى القمة ، ثم إنهارها ؛ وذلك في الوقت ، الذي يرتفع فيه أحد القادمين الجدد ، وهو دولة روسيا ، يبطئ ، ويفرض نفسه على إنتباه العالم المنحصر . أما العنوة التي إقتصادها بكل كرم ، من مقدرات فرنسا ، والسويد ، وروسيا ، فإننا ستوجه صوب مصائر الدول الأقل أهمية .

ومع ذلك فإننا نجد إنجلترا ، بين هذه الدول الأخيرة . وكانت إنجلترا قد تمكنت ، خلال هذه الفترة ، من أن تحتل مكاناً تزايد أهميته ، حتى أنها أصبحت ، شيئاً فشيئاً ، هي الدولة المسيطرة على غرب أوروبا ، وعلى البحار . ولذلك فإننا سوف نهتم بها ، وأكثر من غيرها ، وبخاصة في الوقت الذي يقترب فيه عصر لوى الرابع عشر من النهاية . ولكن عظمتها الجديدة لن تسجل إلا على هامش جارتها . وسوف تمثل العقبة الكؤود التي ستصطدم بها دولة لوى الرابع عشر ، حين يحتل توازنها .

وفي الوقت الذي تأخذ فيه إنجلترا ، كقوة إقتصادية في المكان الأول ، في الصعود ، يمكننا أن نظهر أهمية الإقتصاد في تاريخ العلاقات الدولية في هذا العصر : فلقد ظهرت القوة التجارية لإنجلترا على أنها القاعدة القوية لذلك الدور المتزايد الذي سوف تلعبه في الشؤون السياسية .

وعليه أن يشر إضاءة جارية - وإن كانت معلومة لها أهميتها بالنسبة لمن يقوم بدراسات وإبحاث - على تلك الأرشيفات ، أو دور الوثائق ، ومع الخطوات التي نتقدم بها ، وفي بعض الحالات فبما ، ابتداء من بعض الأوراق ، لطبع أكثر وفرة ، وتمتع مادة أكثر لمن يرغب في الاستفادة منها . وبالنسبة لفرنسا بنوع خاص ، كانت بداية حكم لوى الرابع عشر هي الفترة التي بدأ فيها تنظيم حفظ الوثائق الدبلوماسية ، ولذلك فإن الدراسات التفصيلية أصبحت أكثر عدداً

وأصبحت في الغالب مليئة بالتفاصيل . ولذلك فإنه أصبح من الصعب الوصول إلى
الكمال . أما فيما عدا ذلك ، فلا يمكن للتاريخ الدبلوماسي أن يدعى أنه يمثل أكثر
من مظهر واحد من مظاهر التاريخ العام للعلاقات الدولية ، كما نعالجه هنا .
وأرجو أن أكون موقفاً في إختيار هذا الكتاب ، وموقفاً في نقله إلى القارئ
العربي ، في روحه وإتجاهاته .

وعلى الله قصد السبيل ؟

الاسكندرية في أول نوفمبر ١٩٨١ .

دكتور

جلال يحيى

القسم الأول

من كرسوف كولومب الى كرومويل

البَابُ الْأَوَّلُ

القرن السادس عشر

الفصل الأول

المميزات العامة

كان عصر النهضة عصر تجديد ، ويمثل نقطة بداية لإطلاقة كبيرة . وكانت العلاقات بين الشعوب والدول حتى ذلك الوقت محدودة . تقريباً ، على الجوار ؛ ولسكنها امتدت بعد ذلك عبر العالم ، ودخل الاوربيون ، الذين بدأوا في غزو البحار ، في علاقات مع أجواء كانت غير معروفة لهم سابقاً من العالم ، أو يعرفون القليل عنها ، في الأمريكتين ، وإفريقية الإستوائية والجنوبية ، وأقصى الشرق الآسيوي . وسرعان ما أصبح شبكة الاتصالات الدولية مستعدة لضم العالم كله .

١- المسيحية والامم : نمو الاتجاهات القومية :

إن ما يميز هذه الفترة بشكل رئيسي في غرب أوروبا ، والذي سيظل طوال المصور الحديثة في مركز هذه الدراسة ، هو أولاً ما يمكننا أن نسميه بنمو الاتجاهات القومية .

فتفتت الوحدة المسيحية ، تحت تأثير حركة الإصلاح الديني ، يظهر على أنه السبب أو النتيجة لذلك ، حسب وجهة النظر التي نقتنع بها . فالمسيحية لم تعد ، إلا فيما يتعلق بعلاقاتها مع الإسلام ، سوى مجرد كلمة . وإن ما يهم وحده بعد ذلك ، هي هذه الدول العديدة والمختلفة . والتي أصبحت تقتسم المجتمع المسيحي فيها بينها وأصبحت كل دولة من هذه الدول ، تتمايز مع أمة ، والتي صككت «وغيرها» في اللقب . ورغبتنا في الحماية تقتل على بظواهر الانانية الجماعية ، والتي يمكن تفسيرها بذلك التي خلق من أجلها القرن التاسع عشر ، عند نهايته ، كلمة الاتجاهات القومية .

وتحت الشكل القوي ، نجد أن الإتجاه القوي يتقابل في كل مكان وفي كل البلاد نجد أن اللغة اللاتينية ، والتي كانت هي اللغة العالمية ، تفقد مكانتها . ونجد لها من يعمل على تجريدها حتى بين رجال الحركة الإنسانية ، والكتاب ، والشعراء . ولقد قال رونسار Ronsard : إنها جريمة في حق صاحب الجلالة أن تتخلى عن لغة البلاد ، الحية والمدمرة ، لكي نحاول أن نخرج من القبر أي أثر الأسلاف... . وفي روما ، تسبب شارل الخامس ، في عام ١٥٣٦ ، في نوع من الفضيحة ، حين ألقى خطبة باللغة الأسبانية أمام مجمع من الكرادلة والسفراء برئاسة البابا . وظهر إرزم الكبير ، والذي رفض دائماً بالفلسفة لنفسه أن يستخدم لغة حية ، على أنه معول من عصره ، وعلى أنه متخلف .

ومن ذلك التعلق العام الذي أظهرته الشعوب بلغاتها القومية ، نجد أن رجال حركة الإصلاح الديني ، وأولهم لوتر ، قد إستخدموا هذه اللغات كوسائل لهم . وتعمقت الصكائس الجديدة عدم إستخدام اللغة اللاتينية وهذا الإتجاه القوي القوي يترجم - أو يدعم - إتجاه الانطلاق على النفس الذي ظهر في نفس العبرة عند معظم شعوب الغرب .

وكان التطور واضحاً بنوع خاص في الشؤون الاقتصادية وفي هذا الميدان علينا أن نذكر إعترا قبل غيرها . فلم يحدث في أي وقت أن أفكار سيطرة الدولة على الاقتصاد كانت لها سيطرة على التشريع التجاري يمثل هذه القوة . وكانت القواعد الأساسية للتشريع والتي تستوحي من هذه الأفكار تتمثل في إيجابيات التجار الأجانب على إعادة إستخدام أسعار مبيعاتهم في شراء السلع الوطنية ، وفي منع التجار الانجليز من إستخدام السفن الأجنبية من أجل الإستيراد أو التصدير ، ما دام هناك سفن متوفرة في البلاد . وإحتظر التجار الفرنسيون ، الذين وجدوا أن الضرائب كانت تفرض عليهم في أشكال متنوعة يجنب بتاجرون مع

جيرانهم ، إلى أن يعضوا الأمة الإنجليزية ، وعلى أساس أنها أقل الدول ضيافة في أوروبا .

وكانت السياسة الاقتصادية لإسبانيا في عهد الملوك الكاثوليك تستوحى من تفكير مشابه لذلك . ومنذ قبل اكتشاف العالم الجديد ، لم يكن يسمح للأجانب بالحضور والشراء في موانئها إلا في المنتجات الزراعية أو الحرفية البلاد . وكان هناك منع عام في هذه الفترة على تصدير الذهب والفضة . وهذا المنع سوف يحدد مرات عديدة حين يبدأ وصول الثروات المادية للعالم الجديد . وسيستج عن ذلك حركة تهريب مستمرة عبر جبال البرانس .

وهذا الإلحاح القوي الذي يتزايد ، يمكنه أن يتحول بسهولة إلى تعصب . وكان هذا هو الحال في بداية الحكم الإسباني لشارل الخامس . فلقد غضب الناس من هذا العدد الكبير من الفلنكيين الذين كان الملك الشاب قد أسخرهم منه ، وإتهمهم بنهب الميراثية ، وبالتالي تكليفهم أعباء ضرائفية أثقل .

وعطينا أخيراً أن نذكر أبناء البندقية ، والذين كانوا من بين الأكثر ارتباطاً بحماية مصالحهم المصادية الأتية . ولقد عملوا بكل الوسائل من أجل الاحتفاظ بالأجانب بعيدين عن أعمالهم ، سواء التجارية أو الصناعية ، وكانوا يعاقبون بشدة أولئك الذين ، من البنادقة ، كانوا يفشون أسرار صناعاتهم ، وبخاصة صناعة الزجاج ، وكانوا يتمتعون عن كل ما يدل على التضامن مع الأمم الأخرى ، وكان ما لا يجبرونه ضميرهم ربما على الإعراف به ، يملونه بصوت عال ، حينما كانوا يهتمون بالازدواج الحركة السليبية ، وبالتوردد الكبير للأراكان : « إنا بنادقة أولاً ... Siamo Veneziani poi Cristiani » . ولذلك فإن تموين البندقية كان يعتمد إلى حد بعيد على حسن نية موظفي السلطان في تركهم حبوب جنوب شرق أوروبا غير ، وفي المنع للرعي .

٢ - التقاليد الدولية والقانون الدولي :

ولقد إدعو لفترة طويلة - ولا يزال البعض يدعى حتى الآن - أن القانون الدولي يرجع إلى بداية الصور الحديثة : وهكذا يرجعون ميلاده عند بعض الكتاب ، وبعض أصحاب النظريات ، وعند ذلك الذي يستبر أشهرهم ، بداية القرن السابع عشر ، وهو جروسيسوس Grotius الهولندي ، مؤلف « من الحرب المشروعة إلى السلم ، De Jure belli ac Pacis ، والذي كانت مرجعاً لفترة طويلة . ولكن ذلك ليس حقيقياً ، إذ أن المصور الوسطى قد عاشت بدون مبادئ قانونية في هذا المجال . وفي كل المصور ، كانت العلاقات بين الدول ، سواء في حالة الحرب ، أو في حالة السلم ، تخضع لعدد من القواعد التي تقبلها الأمم المتحضرة . وفي أوروبا ، أعطوا لهذه القواعد شكلاً محدداً ، ولم يقتنوها ، إلا ابتداء من القرن السادس عشر (١) . فكان عمل جروسيسوس وسابقة إذن ، في أساسه ، يتمثل في وضع قانون مكتوب ؛ مكان قانون تقليدي . وكان هذا التطور يظهر على أنه يشبه إلى حد بعيد ، ذلك الذي حدث ، حوالي نفس الفترة ؛ القانون المدني ، في عدد كبير من البلاد .

ولتوافق إذن ، مع مؤرخي القانون الدولي ، على أن هذا القانون قد حصل ، في عصر النهضة ؛ على بعض الخصائص الأساسية التي كانت تنقصه . فالتنظيم

(١) ولعلنا أن نستثنى من ذلك هين الفصول ، التي تتلاقى بالعمل في المواثيق قانها كانت ، منه مايجو قبل نهاية المصور الوسطى ، موهوماً لكتابات جزئية . ففها يعلق بالسواحل المسيحية الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، كانت هناك مجموعة تسمى « قنصالية البحر » تعتبر مرجعاً في هذا الميدان . وكانت كذلك « تقاليد أوليرون » تعود في كل سواحل فرنسا المطلة على الخليج . وكانت قد طبقت ، بأشكال مختلفة شيئاً ما ، وأسماء « تقاليد أيستردام » ، و « تقاليد ويهي » ومن جانب بني دول للفلان .

التسلسل العالم، وتمت السلطة ازدوجة البابا والامبراطور، لم تترك استقلالاً كافياً للدول - حتى من الناحية النظرية - تمكنهم من الاعتراف بمخوضهم لقانون، حتى وأن كان الجميع قد وافق على مبادئه باختيارهم. وهذا الشرط الضروري لإكمال إبتداء من الوقت الذي ترك فيه عملياً مبدأ الوحدة المسيحية القديمة، واستمر رجال القرن السادس عشر يتحدثون في بعض الحالات، وبحكم العادة، عن الجمهورية المسيحية. ولكنهم كانوا، بالفعل، لا يمتدنون في ذلك.

وكان القانون الدولي المطبق في عصر النهضة قانوناً تصعب معرفته، بسبب كونه قانوناً غير مدون، وكذلك بسبب كونه لم يخضع لدراسة منظمة. وعلينا أن نشير هنا إلى ما كان يميزه بشكل خاص عن معتقدات وتطبيقات عصرنا (١).

في وقت السلم، كانت المعاملة الخاصة بالأجانب تستوحى من الليبرالية واسعة. وكان الإسباني فرانيسكو دي فيتوريا Francisco de Vittoria، رجل الدين والقانون الشهير، قد أصلى عدى للأفكار التي كانت واسعة الانتشار، حين درس أن حق الذهاب والعودة من دولة لدولة أخرى - وهو ما سماه «حق الإتصال» - كان موروثاً في نفس وجود المجتمعات الإنسانية: فليس على أية دولة أن تغلق حدودها في وجه أولئك الذين يرغبون في عبور حدودها، سواء أكان ذلك من أجل السفر، أو من أجل القيام بنشاط «غير مؤذ».

أباً في وقت إعلان الحرب، فغالباً ما تؤخذ الإجراءات ضد رعايا الدولة المادية. ففي فرنسا، يمكن أن يواجههم قرار طرد، وفي عام ١٥٢٨، ثم في عام ١٥٤٢، أجبرت حكومة فرانسوا الأول رعايا الإمبراطور الذين يقطنون

(١) لا تزال المادة لم تخضع لدراسة كافية، الأمر الذي يدفعنا إلى أخذ أمثلة من الدول الكبرى المعاصرة فقط.

المملكة على أن يتزوجوا بفرنسيات في مدة شهر ، إذا لم يكرنوا يرغبون في أن يطردوا . وفي عام ١٥٥١ رأى رعايا الإمبراطورية ، في نفس الوقت الذي طلب إليهم فيه ترك البلاد ، أن يمتلكاتهم قد صودرت . وردت الحكومة الإمبراطورية على ذلك باتخاذ إجراءات مشابهة ضد الفرنسيين المقيمين في الأراضي المنخفضة . وإحدى الميزات الأكثر وضوحاً لمجتمع الدول الأوروبية تتمثل في قلة أهمية الحدود ، باستثناء أوقات الحروب . وكانت أقل في عددها بكثير عنها في الوقت الحاضر . وفي كل وقت ، كانت هناك حواجز ضرائبية تسير ، ومكوس تدفع ، بالنسبة للتجارة والسلح المنتقلة ، وكذلك بالنسبة للمسافرين . ولكنه لم يكن هناك شيء يميز يدل على العبور من دولة ذات سيادة إلى دولة أخرى . وإذا كان الأمر يتعلق بالأفراد أو بالسلح ، فإن الضرائب المدفوعة كانت لها نفس الصفة ، وكان المندوبون المكلفون بتصيلها يشبهون أولئك الذين تقابلهم في أى مكان آخر : وكذلك فإن العلامات التي كانت تحدد الدول لم تكن مختلفة . وكان الخط الذي يحدد الحدود نفسها يبقى هنا وهناك ، غير محدد . وفيما بين مملكة فرنسا والإمبراطورية ، كانت هناك أكثر من منطقة سيادة متنازع عليها ، وكانت نظم الحدود التي توضع من وقت لآخر تحتاج باستمرار إلى إعادة النظر فيها ، وإلى مراجعتها .

ومنه الحدود ، والتي كانت غالباً غير محددة ، وغير مرسومة بوضوح . كانت تبدو على أنها بداية ومقدمة للحدود المعروفة الآن . ولم يكن هناك شيء يوق تلك التيارات المختلفة للاتصال ، والتي كانت تدفع إليها ، ومن آخر أوروبا إلى طرفها الآخر ، الرغبة في زيادة سوق ، أو الاشتراك في عملية حج إلى مكان مشهور ، أو الوصول إلى جامعة لها شهرتها . ولذلك فإن معاملة الأجانب كانت تستوحى ، وعلى الأقل في أوقات السلم ، من اتجاه متحرر إلى درجة كبيرة .

ومع ذلك فإن أعباء كثيرة كانت تفرض عليهم : ففي فرنسا - وحيث كانوا قد سموا في الماضي « بالأغراب » - كان أشد هذه الأعباء ثقلا هو بلا شك ما يفتح عن قانون الأغراب Ubaine ، فكان ميراث من يتوفى أثناء إقامته فيها يصادر ، ولصالح الملك . وكانت قيمة بعض الضرائب ، وبعض الرسوم ، أعلى بالنسبة للأغراب عنها بالنسبة لآبناء الإقليم . ووجدوا أنه من الطبيعي أن يدفع الأجنبي بعض الملع وبعض الخدمات أعلى من غيره : وكان هذا المبدأ هو الذي يؤثر ، في فرنسا في القرن السادس عشر ، في رسوم البريد الناشئة :

وكان التجار الأجانب يخضعون لمراقبة حادة . وفي بعض الحالات لنظام استثنائي فكانوا لا يقولون في هذا المكان إلا في أعداد محدودة ، ويحرمون في مكان آخر من مثل هذا النشاط أو ذاك . وكان العداء الذي تظهره لهم بعض المدن المتاجرة يعتبر إمتداداً لذلك العداء الذي كانت المدن من قبل ذلك تظهره قوماً مضى لكل غريب Forain أى لكل من لم يكن من عندهم . ومع ذلك ، فلم يكن هذا العداء يظهر باستمرار : فلم نلاحظه إلا في فترات الصعوبات الاقتصادية . ففي فرنسا ، أثناء حكم لوى الحادى عشر ، وعند نهاية القرن الخامس عشر ، حاولوا على العكس من ذلك أن يجذبوا الأجانب ، وأعطوهم كل أنواع الإعفاءات والميزات : وفي كثير من المدن ، وحتى في كل أراضى إقليم مثل لا نيجدوك ، ألغى قانون الأغراب (مصادر ميراث المتوفى الأجنبي في صالح الملك) . وحين جاءت أزمة القرن السادس عشر ، لم يتحدث الناس سوى عن الإحتفاظ بهم بيدين ، ورعاية مصالح الوطنيين على حسابهم . وكانت بعض توصيات مجلس طبقات الأمة Etats - Generaux في عام ١٥٦٠ و ١٥٧٠ لها لون واضح من التعصب .

وفي كل البلاد ، وفي المراكز الكبرى التبادل ، كان الأجانب ، حين يصبح

عدهم كبيراً ، يتجمعون في أوطان أو أمم ، كانت تعيش حياتها الخاصة بها ، وعلى هامش الدولة المستعينة لها . وكانوا يشكلون جمهوريات صغيرة ، تحت إشراف أحد القناصل ، ، الذي كانوا يقتخبونه أو تعيينه حكومة بلادهم . وستحدث عن ذلك فيما بعد ، حين نتحدث عن التنظيم القتالية .

وقاليد الحرب ، التي نعرفها من التواريخ والمذكرات ، تشير دهشتنا ولقطة إنسانيتها بنوع خاص .

فكان من الممكن إعدام الأسرى وكان هذا يحدث في أغلب الأحيان ، وعلى الأقل بالنسبة لوثلك الذين كانوا لا يأملون في الحصول على فدية محترمة لهم . وكان من الضروري ، من أجل أن يحصل المدافعون عن أحد الأماكن ويسلمون على الإبقاء على حياتهم ، أن يوافق رئيسهم على شروط التسليم . وحين يقتاذل المنتصر عن ممارسة كل حقوقه بأكلها ، فإنه لا يحتفظ بالأسرى ؛ بل يرسلهم إلى بلادهم ، بعد أن يزع سلاحهم ، إلا إذا ما كانت لديه سفن يجهفون عليها . وكان الاسبانيون يجهرونهم على القسم بعدم العودة لمل السلاح في أثناء الحرب القائمة . وعند أواسط القرن ، ظهرت ممارسة الحرب الطيبة . فإذا ما إهتق الجيشان المتواجهان على التعامل بها ، فإن الأسرى لا ينفذ فيهم الإعدام ؛ وحسب الحالة ، فإنهم إما أن يفك أسرى ببساطة ، أو يتم تبادلهم بين الطرفين ، وبأعداد متساوية ؛ وتوضع فئات محددة لمستوى الفدية ، التي كانت تختلف في أنواع مختلفة من المسامات . ويبدو أن هذه الحرب الطيبة ، قد مارسها أولا السويسريون ، حين كانوا يواجهون الألمان . ولا ندر على أمثلة لها في فرنسا إلا في أثناء حكم هنري الثاني .

وفي مناطق المارك ، كانت أقصى أنواع العنف تستخدم ضد الأعمال الذين يسكنونها ، وحين يتكاثرون . وكانت الأوامر تصدق ، في بعض الحالات ، بعدم

ترك أى شيء يسمح العدو بأن يتزود به : فكانوا يأخذون الموائى ، ويحرقون المحاصيل ؛ وكان ذلك نظاماً عند الألمان : فكانت كل فرقة من فرق الجيش تضم ضابطاً يسمى رئيس الحريق *Braunmister* . ولم يكن الضحايا ، بعد نهاية الحرب ، أى حق بطبيعة الحال ، فى أى نوع من أنواع التعويض ؛ وكان فى وسعهم ، على الأكثر ، أن يلتمسوا بعض الإعفاءات من الضرائب .

وإذا كانت حدود الحركة تتغير ببطء ، فإن ذلك كان يسمح للألمان غير المسلحين بأن يصلحوا خصماً مهدداً : فكانوا يخرجون لمقابلته ويعرضون عليه الأموال . وكان هذا هو أساس نشأة « معاهدات الفردة » أو « الجزية » التى كانت تمقد بين القادة وبين مثل سكان القرى أو المدن . ومما كانت شروطها فإن هذا النوع من الاتفاقيات كان ينتج عنه وضع الحاضمين تحت حماية من يطالبهم بالأموال .

وحين تؤخذ المدينة عنوة ، كانت تنهب ، فى غالب الأحيان . وكان الأمل الموجود عند المحاصرين ، فى الحصول على الأسلاب ، لا يمكن أن يخيب دون خطر كبير على الطاعة وعلى النظام وكان المشاة هم الذين يقع على كاهلهم عبء عمليات الحصار ، ويخدمون الجيوش ، ويقومون بعمليات الحمل والجر ، وكانوا يعرضون خدماتهم على من يدفع أكثر ؛ وستكون مهمتهم بالنسبة إليهم غير مجدية إذا ما فقدت تلك الميزات الخاصة بالأسلاب .

وفى دول مختلفة ، كان جنود المشاة من الأجانب . وكان هناك نوع من السوق الدولى للجنود ، يمكن لكل أمير أن يتزود منه . وكانت أحسنهم هم السويسريون : وكانت سمعتهم فى هذا الميدان ترجع إلى زمن سابق . ولابد أن من الربع الثانى للقرن السادس عشر ، بدأ الألمان فى منافستهم ، وكان حجبهم للنظام ، ومنافستهم فيما بينهم ، تظهرهم أقل نظراً من غيرهم بالنسبة لأجودهم .

وكانت جيوش الامبراطورية تأخذ فرسانها الخفيفة من المجر. وكان سادة البندقية، ولفس الغرض، يستقدمون الرجال من ألبانيا. وبعد نهاية فترة الحروب الإيطالية، أصبحت الجيوش تضم أعداداً أقل من العناصر الأجنبية. ومع ذلك، فإن فرنسا، في أثناء الحرب الدنيّة، كانت لا تزال تطلب فرساناً من ألمانيا. وظلت تحتفظ، طوال العهد القديم، (أي حتى نشوب الثورة الفرنسية بفرقة من السويسريين في خدمتها.

وكانت الحرب البحرية تقاليدها الخاصة. وكانت أهم خصائصها هي ممارسة حق الإنتقام بواسطة الخطابات المبسوطة. وكان الملك هو الذي يقدم هذه الخطابات، ومن حق المستفيد بها أن يستخدم كل الوسائل الموجودة لديه من أجل أن يعرض نفسه عن الأضرار التي تكون قد وقعت له بواسطة رعايا دولة أخرى. فمن حقه أن يمارس ضدهم حرب «السباق البحري» Course وهذا الذي يقوم بالسباق البحري Courseire يعتبر على أنه متحارب، وهو محمي، نظرياً، وعلى الأقل من العقوبات التي قد تنزل بقاطع الطريق البحري Pirate.

وإلى جانب قانون الحرب، كان قانون الميادين يمثل دائماً جزءاً هاماً في القانون الدولي. وكانت فكرة الحياد مألوفة عند رجال عصر النهضة، ولكن مضمونها لم يكن هو نفس المضمون الذي نعرفه الآن. وكان على الميادين بطبيعة الحال ألا يتدخلوا بأي شكل في العمليات الحربية. ولكنه لم يكن ممنوعاً عليهم تقديم خدمات للمتحاربين، مثل تزويدهم بالمواد الغذائية. ومن الواجب علاوة على ذلك، عدم قصر خدماتهم على طرف واحد فقط من الطرفين المتحاربين. فذكرت خطابات الحياد التي منحها فرانسوا الأول لدوقيات اللورين، في عام ١٥٢٨ وبشكل واضح: «فإذا كان هذا هو ما يقومون به لطرف، فليعلم أن يقوموا به للطرف الآخر، حتى يتم المحافظة على المساواة». ولذلك فإنهم إذا كانوا

يرغبون في التعامل مع أحد المتحاربين ، فليهم أن يحافظوا على سلامة الميزان مع خصمه . وعلى العكس من ذلك ، كان من حقهم التعرف به ، وبالإجماع ، لهم التمرض بالمقاساة من أضرار الحرب . وكانوا يميلون إلى قبول فكرة أنه من المشروع بالنسبة لأحد الجيوش أن يستمر إقليم محايد ، بشرط عدم المخاربة فيه وعدم البقاء فيه لفترة طويلة دون ضرورة حتمية ، وعدم طلب أى شيء من الأهل الذين يسكنونه إلا نظير دفع ثمن مناسب . وهكذا تظهر شيئا فشيئا ملامح تلك النظرة التي سيمسها رجال القانون بعد ذلك بحق العبور بدونهم . ومع ذلك فإن هذا المبدأ لم يتم الموافقة عليه في كل مكان . فكان فالكنتونات السويسرية كانت ترفضه . وحينما وافق ملك فرنسا على طلب كونت بورجاندى بإعلان الحياد ، حرم اتفاق عام ١٥٣٢ ، والذي تجدد مرات عديدة أثناء ذلك القرن ، رسميا حق العبور .

وتمت التجارة في وقت الحرب بنوع من الحياد الدائم . فليس فقط أن غير المتحاربين كانوا يستمرون في القيام بأنشطتهم في حرية ؛ ولكن الحال كان يصل أحيانا إلى أن إعلان الحرب لا يتسبب في قطع العلاقات التجارية . وكانت بعض التعاملات تبدو على أنها على درجة من الأهمية ، ودرجة من الحيوية ، يجعلهم يترددون في قطعها . وفي بعض الحالات كان الملك يقتنع بأن يمنع ، ونظير المال ، تصريجات لبعض الخاصة . وفي حالات أكثر ، كان التصريح بالانحياز عاما . وعلى الأقل لا يمكننا أن نميز إلا قويا بين السلع : فالغلال ، ومواد المدافعية ، والذخائر كان لا يمكن تصديرها . وتحدثوا في ذلك المصراعين الهدنة التجارية أو هدنة اتصالات ، ففيها بين فرنسا وانجلترا كانت هناك هدنة ، صيد ، مصحوبة في غالب الأحيان بهدنة تجارية ؛ إذ أن الصيد كان نشاطا اقتصاديا آخر يصعب التفكير في منعه .

٣ - السفارات الدائمة :

وانجبت سرعة العلاقات بين الدول الغربية الكبرى نحو الزيادة بدرجة أن أجهزة الحرب والدبلوماسية في هذا المجال اضطرت ، من أجل قيامها بواجباتها ، إلى أن يصيها بعض التغيير . فذ نهاية القرن الخامس عشر ، يحدثنا التاريخ عن وجود جيوش دائمة ، وسفارات دائمة .

ولن نقوم هنا برسم خطوط التطور صوب الجيوش الدائمة فكانت لها أصولها عند نهاية العصور الوسطى ، وتدخل من ناحية أخرى في التاريخ الداخلي لكل دولة . يكفينا ذكر كلة عن هذا التقارب الموجود بين هاتين المنظمين .

وكانت طريقة السفارات الدائمة قد ولدت في إيطاليا ، ثم إنتشرت بعد ذلك في كل الغرب . وكانت الدول الإيطالية العديدة في القرن الخامس عشر تفصل بينها منافسات ، وبشكل جعلها تشعر بالحاجة لمراقبة بعضها بعضاً باستمرار . وكانت أقل محاولة من جانب إحدى هذه الدول لتغيير الوضع القائم ، في صالحها ، تقسب في عداة بقية الدول . وطاشوا في حالة من التوتر الدائم . وعملت الدبلوماسية في نشاط مستمر من أجل التوفيق بين المهادنات والمخالفات وبين موقف متحرك ومتغير باستمرار . ونتجت من ذلك الحاجة إلى تعيين سفراء في مراكز ثابتة . وأصبح هذا التقليد طاماً تقريباً في كل شبه الجزيرة حوالي عام ١٤٨٠ .

وحين عبر شارل الثامن جبال الألب من أجل الحصول على تاج نابولي ، مرعان ما تشبه بالأمراء الإيطاليين ، والذين كان يحاول خطب ودهم . فترك لنفسه مثلاً لدى كل منهم . وفي العام التالي ، وحين نشأ التكتل ضده ، تدخلت دولا أخرى ، إسبانيا ثم الإمبراطورية ، في إيطاليا . وأخذت كل منهما ،

بدورها ، تلعب اللعبة الدبلوماسية ، على الطريقة الإيطالية . ولم يبق الكرسي البابوي متخلفاً عن ذلك لوقت طويل ففي عهد البابا ليون العاشر ، وفي وقت عصبة كامراي ، كان هناك مندوبون دائمون البابوية في العواصم الكبرى ، إلى جانب السفارات الدائمة . أما إنجلترا ، والتي لم تكن لها مصالح في إيطاليا ، فإنها لم تطبق هذا التقليد الجديد إلا بعد فترة من الوقت ؛ ولم تقرر ذلك إلا بعد وصول شارل الخامس إلى العرش فيمكننا إذن أن نقرر أن ابتداء عهد السفارات الدائمة قد حدث في هذا الوقت ، وقبل الربع الثاني من القرن ، بقليل .

ويصعب علينا أن نؤكد أن كل المراكز كانت ، منذ هذه الفترة ، مشغولة بطريقة مستمرة ، إما لأن الوثائق تنقصنا ، وإما لأنه كانت هناك حلول من أجل الاستمرار . ولكن حدث أن بعضها ، من وقت لآخر ، قد ظل شاغراً ، وإن لم يكن ذلك إلا لفترة مؤقتة .

وعلياً أن نحدد أن لفظ السفير لم يكن مستخدماً بشكل عام . وفي بداية الفترة كان ينافسه لفظ « خطيب » أو « واعظ » Orateur الذي كان قد ساد أثناء العصور الوسطى . ثم استقطب به بعد ذلك للمندوبين غير العاديين ، واكبار الشخصيات الذين سيمدون فخامتهم في العواصم الأجنبية ، مكلفين ببعض المهمات التي لها طابع المراسم ، مثل حملهم التهنيتي بمناسبة الأحداث السعيدة ، من زواج أو ميلاد . أما المندوبون المرسلون إلى مركز ثابت فإنهم يحملون لقب « مقيم » Resident . وكانت الإحترامات الواجبة لهم ، والهيبة التي تحيط بأشخاصهم ، لا يمكن موازنتها بذلك التي كانت السفراء الحقيقيين . فكانوا شخصيات من درجة أقل ؛ وكان دورهم يقتصر على الملاحظة والابلاغ ، بشكل أساسي . والفرق بين هؤلاء وأولئك يشبه ذلك الموجود بين المندوبين Nonces والقاصدين légats الرسولين : فكان القاصد الرسولي يمثل شخص البابا ،

ويتحدث ويتفاوض باسمه ، ومزود بسلطات تامة ، أما المندوب البايوى فعليه أن يرجع باستمرار إلى روما .

ولم يصل التنظيم الدبلوماسى الحديث فى أى مكان إلى نفس الدرجة التى وصل إليها فى البندقية . وكان له هناك ، فى حقيقة الامر ، تزايد موجودة منذ وقت بعيد . وكان تمثيل الجمهورية فى الخارج يعبر على أنه من أكبر خدمات الدولة : ولم يكن حق من يقع عليه الاختيار له أن ينسحب منه . وإن أخذت الإجراءات من أجل إبعادهم عن الإصرافات التى قد تعرضهم لما مناصبهم : فكان عليهم ، مثلاً ، أن يتعهدوا بأن يسلوا للجلس الكبير ، عند هودتهم ، كل الهدايا التى يكرتوا قد إستلوهها وكانت الرسائل التى يبلغون بها حكومتهم يوماً بيوم ، والتقارير الأكثر دراسة ، والاحسن كتابة ، والتى كانوا يقرأونها أمام مجلس الشيوخ بعد إتمام مهمتهم ، تعتبر مصدراً وثائقياً من الدرجة الأولى بالنسبة لتاريخ السياسة الأوربية ، وبالنسبة للحياة الدخلية فى الدول المختلفة .

ولقد أشادوا فى بعض الأحيان ببداية الدبلوماسية القائمة على أنها تمثل تقدماً فى حياة العلاقات الدولية . ويمكننا أن نجد كثيراً هذا الموضوع عند المؤرخين الإنجليز : فالإستفاظ بمتدوين مستعدين دائماً للتفاوض يؤدى إلى إضماى ميل الحكومات إلى الالتجاء إلى الأسلحة دون سبب سريع ، وكل زيادة للروح القانونية تتضمن وتترجم بتراجع إستخدام القوة الناشئة . ومثل وجهات النظر هذه تشتمل على كثير من التناقض . فالنظام الجديد ليس له بالتأكيد مجرد النتائج السعيدة فقط ولتوافق على أنه قد ساعد ، فى بعض الحالات ، على سيادة التفاهم المشترك بين الدول ، ولكن ماذا نقول عن المساوىة الناتجة عن ضيق التفكير ، والشكوك ، وأخطام بعض الدبلوماسيين ! إننا نرى

أن بعض الخلطات غير المهيئة تتضاعف بواسطة بعضهم ، في الوقت الذي كان دورهم يحتم تسويتها ودياً .

وفي نفس الوقت كان على « المقيمين » الأرائل ، في بعض الأحيان ، أن يبذلوا جهداً من أجل القضاء على عدم الثقة التي كانت تفتح عن وجودهم وبدا أمام بعض الحكومات التي تشك فيهم أنه ستنظم حولهم ، كضيوف غير مرغوب فيهم ، مراكز مؤامرات ، وحتى مراكز تجسس . وأعلن فرد يناند الكاثوليكي أنه لا يرغب في إستضافتهم . واقترح هنري السابع ، وهو دلي فرائش الموت ، وحسباً ذكر أحد كاتبي تاريخ حياته ، أن يمنح إقامتهم في إنجلترا وهناك أسباب أخرى حملت على أن تؤخر إلى فترة طويلة زيادة عدد السفارات الدائمة . فالدول الصغيرة - مثل البرتغال واسكتلندا - لم تكن ترغب في تحمل نفقات بعثات كانت فائدتها المباشرة غير واضحة أمامهم . ولذلك ، فإن معاملة المثل لم تكن تراعى بشكل دائم . وكان لفرنسا . في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، مقيمين في كوبنهاجن وفي كراكوفيا ، دون أن ترى الدانمرك وبولندا ضرورة وجود ممثلين لها في باريس . وفي نفس الفترة ، بينما كانت البندقية وإسبانيا وفرنسا ممثلة بشكل دائم في القسطنطينية ، كانت البعثات الثمانية لدى هذه الدول المسيحية مؤقتة وإستثنائية .

وكان بلاط فيينا لا يرغب في زيادة عدد السفراء الرسميين . وكان يمثلهم في عواصم الشرق ، في صكراكوفيا والقسطنطينية ، شخصيات بمستوى أقل ، وكانوا يعملون لقب « مندوب » *Interzone* .

وعند الأتراك ، أخيراً ، نجد أن هذا المنح قد ظل لفترة طويلة موجوداً ضد السفراء الأجانب وكانوا يرون فيهم جواسيس لهم ميزات . وكانوا يراقبون حركاتهم عن قرب ، وكانوا في أوقات الصعوبات ، يمالونهم على

أنهم رهاقن فلقد قبض على جيرودم لاسكى Jérôme Lasky . سفير ملك الرومانيين ،
فى عام ١٥٤٠ ، بعد إستقباله الأول مباشرة . وإحتفظ به السلطان سليمان قريباً
منه ، وأثناء تفتلاته خلال كل فترة حملته على المجر ، ولم يطلق سراحه إلا بعد ما
يزيد على عام ، وحين عاد إلى يودا .

٤ - القناصل والقنصليات :

رغم أن النظام القنصلى كان موجوداً منذ فترة بعيدة ، إلا أنه كان لا يزال
غير كامل التحديد .

وكان له ، من حيث المبدأ ، صفة تجارية أساسية ، وكان من يحملون لقب
قنصل هم من التجار ، يختارون بواسطة زملائهم ، ويمثون بواسطة الملك أو
بواسطة ممثل معتمد له . ولكنه كان يحدث لهم ، فى بعض المدن ، وفى بعض
الظروف ، أن يضطروا إلى القيام بنور المنسوب الدبلوماسى . وكانت هذه
الحالة واضحة بشكل خاص فى الامبراطورية العثمانية وحيث لم تحتفظ الدول
المسيحية ببعثة نظامية دائمة إلا فى وقت متأخر . وكانوا يمارسون سلطات
قضائية ومالية فى نفس الوقت . ولذلك فإنه من الممكن إعتبارهم كرؤساء لهذه
الجمهوريات الصغيرة التى تكونها هذه المجموعات الصغيرة من أبناء مواطنهم
المقيمين إلى جوارهم . وكانت سلطتهم لا تمارس إلا عليهم ، وإلا فى حالة
حصول دعايا أجاناب آخرين على حق رعايتهم لهم . وكانوا حريصين ، فى
علاقاتهم مع السلطات المحلية ، على إحترام الحقوق التى اعترفت بها لهم المعاهدات
أو التقاليد الدولية .

وكان مركز القناصل يبدو متغيراً إلى حد بعيد من بلد آخر . وسنعود لذكر
ما يحدث لهم فى البلاد الاسلامية . أما فى أوروبا ، فلا يمكننا أن نتحدث بثقة
نسبة عنهم سوى فى ليون وأفريس .

والحالة في أغرمر كانت إمتداداً لما كانت بروج قد عرفته في أثناء القرن الخامس عشر : فكان هناك ، رمايا ، البرتغال ، ولاسيانيا ، وألمانيا العليا ، وجنوا ، وفلورنسا ، وتوسكانيا ، والبندقية . وفي ليون إتسع هذا النظام في نفس الوقت الذي تأكد فيه إزدهار الأسواق ، أى قرب نهاية القرن الخامس عشر . وكان الإيطاليون هم أول من وصل وظل عددهم هو الأكثر من غيرهم . وكان النظام الموضوع من أجل الاحتفالات الرسمية ، وحيث يحضر القنصل ، يضع قنصل توسكانيا في المقدمة ، ثم قنصل جنوا ، قنصل فلورنسا ، قنصل ميلانو ، ثم الألمان (ألمانيا العليا وألمانيا السفلى) ، ثم أضيف إليهم الهولنديون عند نهاية القرن .

وكانت بعض المدن المتاجرة لا تقبل بسهولة وجود موظفين ومستولين أجااب يتولون القضاء داخل أسوارها ، ولعشيتهم منافسين ، ومضايقين لها . ففى بوردو مثلاً ، عارض الأميرال دى جويان De Guyenne وجودهم حتى منتصف القرن السابع عشر .

وكان للملك فرنسا قنصل فى عدد من المدن الأسبانية ، والبرتغالية ، والإيطالية . وكان مركزهم القانونى غير ثابت ، حتى أن فليب الثانى ، حين أصبح ملكاً للبرتغال فى عام ١٥٨٢ وفى نفس الوقت ملكاً لإسبانيا ، وبدلاً من أن يعطى إصترافه بالقنصل الموجودين ، قام بتعيين غيرهم ، ولم يكونوا من الفرنسيين : وكان هذا سبباً فى نشأة الخلافات مع حكومة هنرى الثالث ، وبخاصة من أجل مركز لصيرة .

وقرب هذا الوقت ، بدأوا فى فرنسا فى بيع مناصب القنصل ، كما كانوا يبيعون غالبية المناصب العامة . وعند ذلك الوقت كان الملك ، عندما يعطى موافقة على تعيينهم ، يتأكد فقط من شخصية المشتري ومن قدراتهم .

٥ - المفارقة :

كانت مسيحية العصور الوسطى تمثل، في نظر العصور الحديثة، وحدة إقتصادية كبيرة . ولم تكن حدودها السياسية تمشي مع حدودها الجغرافية . وعاش الناس تحت نظام حرية عامة للتبادل . وحتى في إثناء عصر النهضة كان مبدأ التبادل *intercourse* كثيراً ما تشهده الحكومات وكانت الحرب توقف تطبيقه ، ويبدأ العمل به وقت السلم ، وفي بعض الأحيان بإعلان رسمي .

فهل معنى ذلك أن نقول أن حرية التبادل كانت كاملة ؟ لم يكن هناك مبدأ ، وحتى إذا ما كان الأمر مقبولا بشكل عام ، فإنه كان يخضع لبعض حالات المنع ، والتي لم تكن تمثل إستثناء من القاعدة . فكان منع الاستيراد أو التصدير ، هنا وهناك ، يصيب هذه السلة أو تلك . والتي كان إقتصاد الأهالي يخشى من منافستها ، أو التي كان يرغب في الاحتفاظ بها السوق الوطني . وكان هذا ، مثلاً ، هو حالة الحبوب . فخوفاً من المجاعة ، كانت غالبية الدول لا تترك القمح يخرج منها إلا بتصريح خاص ، وصالح لمحصل واحد فقط . ولكن المنع ، في مجموعة ، كان لا يمثل إلا إستثناءات .

وفي بداية العصور الحديثة ، بدا أن التبادلات قد أصبحت مهددة فكانت الدول العظمى المركزية قد نشأت . وطلبت الشبهة المتزايدة للأموال منها أن تفرض الضرائب على الأشكال المختلفة لأنشطة رعاياها ، وكانت في أولها للتجارة مع الخارج ، والتي كانت مورداً رئيسياً للنظام الرأسمالي النقدي .

وكانت عملية تنظيم الانظمة الجبركية المتكاملة ، والمنشأة ، مع تعريفات مختلفة ، في مجموعها ، من نتاج القرن السادس عشر . ويعني هذا أنه لم تكن هناك ضرائب جبركية قبل ذلك ، ولكن حدودها ، الذي كان نسبيا قليل الإرتفاع ، وخصائصها التي كانت غالباً عليية ، كانت تسمح بعزل تمييز واضح بين هذه

الضرائب في القرن الخامس عشر . والسادس عشر ، وحتى الخاصة بالقرن الثالث عشر ، وبين الضرائب التي ستقوم دعاتها المتتالية والمتزايدة ببناء سور حقيقي وقوى حول الدول العظمى التبرية .

وكانت الرسوم الجركية قد فرضت ، وجمعت ، قبل غيرها عند حدود البحر ، وفي الموانئ . ويبدو أن الكثير من بينها ، إن لم تكن غالبيتها ، كان سببها ومهدفها هو إما تغطية مصاريف المحافظة على مفتحات الموانئ ، وإما ضمان الحماية للتجار والسفن في المياه الإقليمية من قطاع الطرق البحرية *pirates* . فيمكننا إذن أن نضمها إلى الموائد *péages* . وفي موانئ إنجلترا ، وحيث كانت متعددة وقديمة بشكل خاص ، كان من الصعب التمييز بينها . هذا علاوة على أن كلمة *coutumes* التي سوف تستخدم عبر القرون لتمييز الجمارك الانجليزية *customs* ، قد استمر استخدامها في فرنسا ، خلال كل القرن السادس عشر ، لبعض الموائد المحلية .

وبدت إنجلترا ، التي تميزت بمائها الجهورية ، على أنها قد سبقت كل الدول الأخرى في هذا الميدان . ولفترة طويلة ، ظل لكل ميناء نظامه الخاص . وكانت الإجراءات الأولى للتوحيد بين هذه النظم ترجع إلى عهد الملك هنري الثامن : فظهرت تعريفات عامة في الربع الثاني من هذا القرن . ثم أكل النظام في عهد ماري تيودور . عن طريق إنشاء ضرائب جديدة ، وعن طريق نشر تعريفات جديدة ، في عام ١٥٥٨ ، وبعد فقد كالية ، كانت أكثر ارتفاعاً من التعريفات السابقة .

وفي إسبانيا ، كانت الرسوم الجركية عند نهاية العصور الوسطى تحمل اسم « المشور » *dimes* ، مثل الضرائب الكفسية تماماً ولكنهم أخذوا في نفس الوقت في استخدام كلمة « ديوان » *donnas* ، التي أخذوها من الشرق التركي أو العربي .

فأصبحوا يقولون « عشور الديوان » *diezmos de aduana* ، ويمكننا أن نرجح بدرجة أكثر أن أصل هذه الكلمة قد أخذ من كلمة « عدوة » العربية ، والتي تدل على الثغور البحرية ، والبحرية والتي لا تزال تستخدم في المغرب الأقصى حتى اليوم . إلى جانب « عشور البحر » التي كانت تعني في الموالي ، والتي كانت بلا شك الأكثر قدماً ، كانت هناك عشور الثغور البرية التي تدفع عند الحدود البرية . وكانت تفرض بلا تمييز على كل السلع ، عند الخروج وعند الدخول . ولذلك فإنها كانت تمثل بالفعل نوعاً من العشور مفروضاً على التجارة الخارجية . ولابتداء من عهد « الملوك الكاثوليك » ، خضعت الواردات والصادرات لمعاملات مختلفة وإستمرت عملية التعديلات في الضرائب والتمريفات . وظهرت سنة ١٥٨٠ ، والتي تمثل أزمة مالية سادة ، على أنها كانت في إسبانيا ، وكما كانت في إنجلترا (كان فيليب الثاني Philippe II في هذا التاريخ ملكاً لإسبانيا وإنجلترا) في غاية الأهمية بالنسبة لتأريخ النظام الجمركي .

ولم تحذف فرنسا حدود إنجلترا وإسبانيا إلا مع بعض التأخير . وكانت قد وجدت نفسها مشغولة بمشكلات وصعوبات لم تعرفها أي من جاراتها . نتيجة لطول حدودها البرية ، وسهولة عبورها . ولقد قنمت لفترة طويلة بفرض الضرائب على الصادرات فقط ، ولم تكن هذه الضرائب تدفع عند الخروج من المملكة ، ولكن في أماكن شحن السلع : وعند الاقتراب من خط الحدود ، لم يكن على التجار سوى أن يظهرُوا إيصالات ما دفعوا الحرس « الموالي والممرات » . وظهرت أول ضرائب على الواردات فيها عند نهاية القرن الخامس عشر ، أو بداية القرن السادس عشر . وكانت تدفع على السلع ذات القيمة المرتفعة . وعلى التوابل ، والحرير ولنفس السبب — صعوبة تنظيم الدفع وعمليات الإشراف — كانت هذه الضرائب لا تدفع إلا في بعض الموالي ، أو بعض المدن ، والتي كان من اللازم

المروء فيها . ولم تعمم هذه الضرائب إلا في عام ١٥٨١ . ولذلك فإن فرنسا لم يصبح لها نظاماً جمركياً من طراز حديث إلا عند نهاية القرن السادس عشر فقط . وعند هذا الوقت دخلت كلمة *Donane* ، والتي كانت مستخدمة في ليون منذ عام ١٥٤٤ ، في اللغة المستخدمة .

وعند نهاية تطور الضرائب الجمركية ، في هذه الدول الثلاث ، تغيرت صفاتها . فن مجرد حاجة ضرائفية ، أصبحت وسيلة لسياسة إقتصادية معينة . وسيلة لتكشف شيئاً فنيئاً موهونتها الكبيرة . ففي مواجهة التجارة الأجنبية لم يكن هناك مجرد موقفين يمكن فقط : فتح الباب ، أو إغلاقه . فلقد تمكنوا ، بواسطة التعريفات الجمركية ، من ترك نصف مفتوح ؛ وأصبح في وسعهم بنوع خاص أن يفتحوه على مصراعيه في وجه بعض السلع ، وإغلاقه تماماً في وجه غيرها .

وفي مجال العلاقات الدولية ، كانت النتيجة الرئيسية لسياسة المواجه الجمركية هي أنه ، بدلاً من نظام الإحتيازات التي تمنح التجار ، وغالباً ما تكون بدون معاملة المثل ، وبالتالي يمكن سحبها ، سيأخذ مكانها نظام الإتفاقيات الثنائية ، والإتفاقيات المعقدة بين الدول في شكلها العادي . وستكون شروطها ، في غالب الأحيان ، هي التوازن بين الميزات التي يمنحها هذا الطرف أو ذاك ، ومعاملة المثل لتجار الدولتين . وهكذا فإن الشؤون التجارية ستأخذ مكاناً تزايد أهميته في الدبلوماسية . ويزداد عدد المعاهدات التجارية . ويتفاوضون فيها على قيمة الضرائب وفتاتها ، ووسائل الدفع ، وحالات الإعفاء ، وتخزين البضائع ، وسلطات القناصل ، إلى غير ذلك . وفي حالة قطع هذه التسهيلات ، سنعهد أنفسنا أمام حرب تعريفات جمركية .

وفي خارج هذه الدول الكبرى الغربية الثلاث ، لم يظهر النظام الجمركي في القرن السادس عشر إلا في الأراضي المنخفضة ، والأقاليم المتحدة . وبعد عام ١٥٧٢ ؛

أصبحت الرسوم الجمركية تؤخذ من التصاريح المطاعة من جانب حكومة بروكسل ،
تظهر المال ، تهرباً من القاعدة التي كانت تمتنع كل تجارة مع الأقاليم الشائرة .
وجد الهولنديون ، والذين كان مطبقاً لديهم منماً مماثلاً ، أن من مصلحتهم أن
يستخدموا نفس الطريقة من أجل تمويل خزائنتهم . وفي هاتين الدولتين ، عموماً ،
في أثناء القرن السابع عشر ، تلك الضرائب التي كانت تجمع بهذه المناسبة ؛ وستأخذ
بدورها صفة جمركية محنة .

أما الإمبراطورية ، فإنها لم تعرف جمارك للدولة ، وظل كل سيد لإقليم
سراً في تنظيم مرور السلع كما يرغب . هذا علاوة على أن الضرائب التي كانت
تدفع عند حدود الأقاليم كانت لا تختلف أبداً عن الرسوم : وظلت نفس الكلمة
Zoll تدل على الواحدة ، وعلى الأخرى .

وفي بولندا لم تطرح مسألة إنشاء شبكة مستمرة من الجمارك ، ورجع ذلك
لعدم إتمام بناء الدولة ، ولطول الحدود البرية الكبيرة ، وكانت الرسوم تجمع
فقط عند الدخول والخروج من المدن التجارية القريبة من نهاية الأراضي . وكما
كان عليه الحال في الإمبراطورية ، وفي أوروبا الشرقية بشكل عام ، فإن الوضع
كان تقريباً هو استمرار لنفس نظام العصور الوسطى .

الفصل الثاني

الأعضاء الرئيسيون في المجتمع الدولي

وأسس سياستهم الخارجية

كانت خريطة أوروبا ، في بداية العصور الحديثة ، تمثل بعض أنواع التبسيط بالنسبة للفترة السابقة، فقلت حدة ذلك التفتيت الذي كان يعود إلى الماحى الإقطاعى . ومال التطور العام صوب إنشاء الوحدات القومية الكبرى ، المؤسسة على الوحدة المشتركة للأصل ، واللغة والحضارة . وكان هذا تمهيداً نسبياً ، بلاشك ، ولكنه كان تمهيداً لاشك فيه . ولكى تقدر على تمييز هذه التكوينات السياسية المستديمة ، من غيرها الكثير ، والذي كان في بعض الحالات بسيطاً ، كاحداث قبل ذلك ، فليتنا أن نرجع إلى آخر من إحتفى من بينها : دولة يورجاندى للتناضة ، التى أنشأتها أسرة حاكمة من أصل فرنسى ، على هامش دولة فرنسا والإمبراطورية المقدسة ، دون أصول تاريخية ، أو جغرافية ، أو بشرية . فالدول القومية في القرن السادس عشر كانت على التقيض منها تماماً .

١ - الدول القومية الكبرى :

كانت الدول الثلاث القومية الأولى ، والرئيسية ، قد نشأت في الغرب . وكانت هذه الدول الثلاث مرشحة للسيطرة على أوروبا : وهى فرنسا ، وإسبانيا ، وإنجلترا ؛ وسيمارسون هذا الدور بالتناوب خلال القرون التالية . وكانت فرنسا ، بدون أى شك هى الدولة الأكثر تقدماً على طريق الوحدة الوطنية . وكانت وحدتها المعنوية قد تكونت يعطى في القلوب أثناء فترة حرب المائة عام . أما من وحدتها الإقليمية ؛ فإنها إجتازت فيها مرحلتين هامتين توحد

مدن الموم ودوقية بوجاندى عند موت شارل الجسور (١٤٧٧) ، ونوحيد كونية بروفانس عند موت شارل صاحب آنبو (١٤٨١) وكانت الحدود القديمة « الأناضول الأربع » (الأسكوت ، والليز ، والساقون ، والرون) قد تم التوسع فيها وراءها في الجنوب ، وعلى نهر الرن . وفي الشمال ، وعلى نهر الاسكوت ، كان الاحتفاظ بها لا يتم إلا بصعوبة ؛ ولم تحتفظ إلا بوجود نظرى . وكانت كونيات الفلاندر وآرتوالا تزالان عاضمتين للحقوق الفرنسية ، ولكنها كانتا قد أصبحتا عملياً مستقلتين ، وفي أيدى أسرة هابسبورج بوجانديا .

وأخذت إسبانيا ، ببطء ، مكان الدول الإسبانية التي كانت موجودة أثناء المصور الوسطى . وكانت الوحدة قد مهد لها زواج فرديناند صاحب أرجوانه بإيزابيلا ملكة قشتالة . ولكن فرديناند لم يكن ملكاً في قشتالة ، إلا بصفته زوجاً لإيزابيلا ، وحتى موتها في عام ١٥٠٤ . وفي أرجوانه ، كان يحكم فعلاً بمفرده . وبصبح شارل الخامس ، أو شار لكان ، حفيدهما ، ووريثهما المشترك ، أول من يلقب « بملك إسبانيا » . وفي النهاية الجنوبية لشبه الجزيرة ، كان هناك آخر مظهر للحكم الإسلامى ، وهو سلطنة غرناطة ، التي كانت تدفع الجزية لقشتالة . وكانت الخلافات الداخلية بين أمهر غرناطة وبين منافسيه هي التي سهلت حماية الفوز وقام « للوك الكاثوليك » ضد المسلمين بحرب استمرت عشر سنوات . وبعد ملقة ، التبر الرئيس الذي تم إحتلاله في عام ١٤٨٦ ، سلبت غرناطة ، العاصمة ، وآخر معاقل المسلمين في الأندلس في عام ١٤٩٢ . وزاد عدد سكان قشتالة بما يتراوح بين ٣٠٠.٠٠٠ و ٤٠٠.٠٠٠ مسلم ، تحويلهم رسمياً ، وتصهرهم ، قبل نهاية القرن ، وأصبحوا يسمون « الموريكيون » ، وبقيت مملكتنا البرتغال ، ونافار ، وحدثهما ، خارج الوحدة الأيبيرية .

وفي إنجلترا ، كانت لحرب المسبالة عام نفس النتائج التي حدثت في فرنسا :

قامت عملية الزحذة المعنوية للأمة. ولكن مجموع الجزر البريطانية لم يكن قد خضع بعد لنفس السيطرة . ففي الغرب ، كانت الروابط التي تربط إمارة ويلز بالملك ، غير وثيقة وفيما قبل ذلك ، كانت مشكلة ويلز مصدرًا لمشغولية مستمرة بالفلسفة بالحكومة الإنجليزية. وكان إرتقاء الملك هنري السابع (تدور) العرش قد سهل أمر الوصول إلى حل : ولن يحصلوا عليه بشكل نهائي إلا بعد نصف قرن ، وعن طريق قانون الاتحاد في عام ١٥٣٥ . أما بالفلسفة لايرلندا فإن حالتها كانت هي حالة إحدى المستعمرات ، التي يسكنها أهال من جنس مختلف ، وشديدي العداء لآدابهم ، والذين كانوا يخشون دائماً من وجود روح الثورة عندهم ،

٤ - الامبراطورية والبابوية :

أما عن الامبراطورية والبابوية ، والثنان كانتا ، خلال العصور الوسطى قد إحتلتا وقت طويل المركز الأول على المسرح الدولي ، فإنها لم تعدا تمارسان نفس السلطة العالمية ، ولم يعد لهما نفس الإشعاع . وكان أحد المظاهر الرئيسية والمؤكدة لفقدان منزلتهما النسبية ، هو أنهما فقدتا صفتيهما « فوق الوطنية » ،

• Supra — National

ولم تعد الإمبراطورية هي الإمبراطورية الرومانية المقدسة : بل أصبحت ، عند نهاية القرن الخامس عشر الإمبراطورية الرومانية المقدسة للأمة الألمانية *Heiliges romisches Reich - Deutscher Nation* . ولم يعد المنتخبون ينتابون رؤسائهم إلا على الأسر الألمانية ، ودائماً نفس الأسر . ولم تعد صلاحية إنتخابات فرانكفورت تعتمد بعد ذلك على تصديق الكرسي البابوي. وكان شارل الخامس هو آخر من يستلم التاج من أيدي البابا . ولم تعد منطلق توسع السلطة الإمبراطورية تعتمد بعد ذلك ، بالعمل إن لم يكن بالقانون ، الأقاليم الجرمانية

نفسها . وحصلت الأراضي المنخفضة ، ودوقيات اللورين ، في إنشاء هذا القرن على امتيازات جعلت روابطها بالامبراطورية مجرد خيال . وإنسحبت الكانتونات السويسرية منذ عام ١٤٩٩ : ولم يعد ينظر إليها إلا على أساس أنها من الأملاك ، ومن الأقرباء ، *Verwandte* . ومع ذلك فإن الإمبراطورية ظلت تحتفظ ، في الأسرة الدولية ، بأولوية شرفية ، لم يكن في وسع أحد أن يناقشها فيها . وفي كل مكان ، كان يمثلونها يتقدمون كل على الملوك الآخرين . ولفترة من الوقت - وإن كان وقتاً قصيراً لأن فرانسوا الأول سيعمل على التجديد في هذه النقطة - كان الإمبراطور وحده هو الذي يلقب بصاحب « الجلالة » .

وفي روما ، أصبح أعضاء مجلس الكرادلة لا يقتضون سوى إيطالي الجلس على كرسي القديس بطرس ، الكرسي البابوي : وكان آخر أجني تولى هذا المنصب ، في عهد شارل الخامس ، هو واعظه الفيلسوف أديان السادس ويولوكيم في الشؤون الإيطالية أصبح البابوات يسوون أنفسهم بمستوى الأمراء الزميين . ومع ذلك ، فإن هذا ينقص من قدر البابوية ، وإمكانياتها ، والتي كانت فريدة في نوعها . ولا يمكن مقارنة غيرها بها . وكان كل الملوك والأمراء المسيحيون - وصرحاً ما يتعلق الأمر فقط بالملوك الكاثوليك - يقدمون لها ، وقت وصولهم إلى السلطة ، مظاهر الطاعة ، أي مظاهر الخضوع . وظلت معظم الدول - والإمبراطورية المقدسة جانباً ، وكذلك فرنسا - تدفع لها « نفوذ القديس بطرس » . وتخلت عن أن تتقدم رسمياً بإعطائها الخاصة بملكية التيجان وأصبح لا تصدر أحكام الحرمان إلا عند كبار المرافقة . ولكنها أكدت ، على العكس من ذلك ، سيادتها على الأراضي التي لم يتم اكتشافها ، وحققها في تقرير مصرها . والتجأت إلى وسائل قليلة القيمة للاحتفاظ بسلطانها السيادية الشرعية أمام الرأي العام . فكانت ترغب في أن تميز أمام العالم أجمع هؤلاء الأمراء الذين كان من

الواجب إتخاذ جدارتهم مثلاً عاماً ؛ وكانت تهديهم ، كوسام ، جوهره ، قامت بباركتها ، وهى التى كانت تسمى « بالوردة الذهبية » . وكان إختيارها يقع ، فى كل عام ، على شخصية جديدة ، أحد الملوك ، أو أحد أمراء الأسر المالكة : وكانت لها فى غالب الأحيان صفة سياسية : فلقد إستلم شارل الثامن هذه الوردة الذهبية وقت إعدادة حملته ضد نابول ، ومانيويل صاحب البرتغال حين قدم إليها كل الأقاليم التى غزاها فيها وراء البحار ؛ ومارى ستيوارت ، أرملة فرانسوا الثانى ، حين كانت ترغب فى الذهاب إلى مملكة إسكتلندا .

وإذا كانت ألمانيا موجودة كمجموعة من الدول ذات الاستقلال الذاتي والمرتبطة ببعضها برابط إتحادى غير وثيق فإن إيطاليا لم تكن سوى تعبير جغرافى . فالوحدة ، هنا ، كان لا يمكن تصورهما إلا تحت إدارة الكرسى البابوى . ولكن الدول المختلفة فى شبه الجزيرة كانت كلها متفقة على رفض ذلك . ورغم وجود هذه الفكرة المسبقة للاستقلال ، فلم تكن بينهم أفكار عامة مشتركة . وكانت الطموحات للتنافس بعضهم دائماً مشتبكين مع بعضهم ، وبخاصة الأربعة دول الكبرى من بينهم : فى الشمال جمهورية البندقية ودوقية ميلانو ، وفى الوسط الدول الخاضعة للكنيسة ، وفى الجنوب مملكة نابول . وكانت البندقية تحكم مجموعة من الممتلكات ، قرية وبعيدة ، تمثل بقايا إمبراطورية بحرية ونجح دوق ميلانو فى فرض سيطرته على جنوا ، التى لم تعد تحتفظ من عظمتها السابقة إلا بقوة مالية إستثنائية . وكانت مملكة نابول فى أيدي أحد فروع أسرة أنجو . وكانت كل من صقلية وسردينيا خاضعة خضوعاً مباشراً لتاج أروجوانه .

٣ - بقية الدول :

وفى هذا العصر ، كما هو الحال فى التاريخ المعاصر ، يمكننا أن نميز ، سياسياً وإقتصادياً ، بين نوعين من الدول الأوروبية : الأول أكثر اهتماماً على طريق التنظيم

والثروة ، والثاني متأخر عنه بشكل واضح . وهذا التناقض يتضح ، في الشرق ، باستمرار وجود نظام الإقتصاد الأسرى ، وقلة قيمة الملكية العقارية ، وقوة نظام السادة الذي بقي تقريباً كما هو ؛ وفي الغرب ، بفشاط كبير في ميدان التبادل ، وبازدهار الرأسمالية ، وبمنو النظام الملكي المطلق .

ووضعت الرأسمالية ونظام الحكم المطلق في أيدي ملوك الغرب وسائل قوية للعمل في الخارج : خزائن ممثلة ، وجيوش من المرتزقة دائماً مستعدة للحرب ، ومدافع يتزايد عددها باستمرار . وكانت الروح القومية قد نمت بدوية تضمن التمازج الداخلي في البلاد تجاه الأجانب . وفي الشرق ، وفيها وراء ألمانيا أخذت التكوينات السياسية نمطاً آخر . نظام ملكي إنتخابي في أغلبها — وعلى أى حال عدد إلى درجة كبيرة بالسلطات المعترف بها لطبقة النبلاء — وحيث كانت مجالس الطبقات ، تقوم الدولة كما ترغب ، وحيث كان الملك يجد صعوبات كبيرة في جمع الضرائب ، وليست له قوات دائمة ، ولا مدفعية ، أو بعض قطع بسيطة منها . وكانت الصدامات المسلحة تأخذ أكثر منها في أى مكان آخر شكل المنافسات بين الأمراء أو الأسر الحاكمة . وكانت الأمة في غالبية الأحيان لا تشترك فيها ، إلا إذا كان الأمر يتعلق بهد الأتراك .

ونلاحظ كذلك نقطة أخرى للتمييز عن الغرب عند إقترابنا من موسكويا ومن الامبراطورية العثمانية . فحينما نتحدث عن التابع ، Vassal وعن المصاحب ، Suzerain نعب عنهما خطأ ، نتيجة الخلط بين الالفاظ ، فملاقات النتيجة لا ترجع أبداً إلى النظام الإقطاعي . وهما يحتفظان بالشكل الموروث عن الأجداد العجوزية التي يدفعها الأمير الأقل قوة للأمير الأكثر قوة . والجوية المفروضة عند الأتراك على العرلة المهرومة تمثل نوعاً مع القرامة الحرية الدائمة . وهذا الأمر لا يستتبع

بالضرورة وجود شروط سياسية معها ، ومما وصل بها الحال ، فإنها تعتبر نظام
حماية من بعد .

وكانت بولندا هي الدولة الرئيسية في الشرق . وكان ملك بولندا يحمل في
خالب الأحيان ، وعلاوة على لقبه ، لقب جراندوق ليتوانيا ، الذي كان يحصل
عليه عن طريق الانتخاب وكانت داتريج جمهورية لها استقلال ذاتي . ولكنها مرتبطة
بدولة بولندا ، وتخضع لحمايتها ، ولكن إتساع أراضي هذه الدولة — والتي كانت
تتد من سواحل بحر البلطيق حتى سواحل البحر الأسود — كان لا يتناسب مع
القوة الفعلية لها . فالأمير الذي كان يحكم في كراكوفيا لم يكن سوى مندوب مغفوض
للبلاء الذين ينتخبونه . ولم يكن له من وسائل الحكم ما يريد حماة كان الملك فرنسا
في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر .

وحصلت ممالك المجر وبوهيميا ، بعد مجموعة من الأسر الحاكمة الأجنبية ،
الواحدة والأخرى بالتناوب ، على ملوك وطنيين ولكن التطور الذي ظهر لم يستمر
لفترة طويلة . فعند موت جورج بودبراد George Podiebrad في بوهيميا عام
١٤٧١ ، وكذلك عند موت مانياس كورفان Mathias Corvin في المجر في عام
١٤٩٠ ، انتخبوا أحد أبناء ملك بولندا لهذا المنصب . وأسرة جاجيلاون Jagellon
الجديدة حين تحققت ، بعد نصف قرن ، ستترك مكانها ، في براغ ، وفي بودابست ،
لأسرة أجنبية أخرى ، هي أسرة هابسبورج Habsbourg النموية .

وملك الدانمرك ، الذي كان يحدد السلطة كذلك بواسطة الهايك ، وحيث
كانت الطبقات العليا هي التي تحكم ، كان له ثلاثة تيجان : للدانمرك ، والسويد ،
والنرويج . وهنا تسجل الروح القومية أحد الانتصارات : فتفصل السويد نهائياً
عن الدانمرك في بداية القرن السادس عشر .

وفي أقصى الحدود الشرقية للقارة الأوروبية ، كانت المصير مع آسيا متحركة .

وغير ثابتة . فكانت تتراجع في أقاليم روسيا المقبلة ، وتتقارب في البلاد الدانوبية . وكان آخر المغول الذين أقاموا في روسيا ، الكبتشاك Kiptchak من فصيلة دالحصة الذهبية ، قد قعدوا قوتهم في نفس الوقت الذي قعدوا فيه وحدتهم . وإنفصلت د غانات ، كثيرة عنهم ، وبخاصة غانات القرم ؛ والتي كانت مسيطرة على السواحل الشمالية للبحر الأسود ، وخضعت للقسطنطينية ؛ ودفعتم الجزية للسلطان . وظلت الدولة الموسكوفية — إذا كان في وسعنا أن نعطي هذه التسمية لمجموع السادة الذين خضعوا لموسكو — دولة قارية تماما . وفي الشمال ، كانت ممتلكات السويد ، (فنلندا ، وكاريليا ، وإنجريا) تتصل بممتلكات الجماعة التوتونية (ليفونيا ، وإستونيا ، وكورلاند) ؛ وكانت تشكل حلقة حول شرق بحر البلطيق . وفي الجنوب كانت روسيا القيصرية تفتي عند بداية أوكرانيا البولندية وأقاليم الإستيس ، التي كان يسكنهم أهالي يحبون الحرب ، ومستقلين ، وشبة مستقلين ، وهم القرزاق . وتقدم الأتراك بسهولة أكثر على القارة — وحيث قائلتهم دول ذات مساحة صغيرة ، ودون وسائل دفاع — عن تقدمهم في البحر المتوسط ، وحيث كان عليهم أن ينازحوا دولة البندقية موقعا بعد آخر . وعلى الدنيستر والدانوب الأدنى ، كانت إمارات الأفلاق وبلغدان تمثل موقعا أمامية لبولندا . وفيما وراء نهر الساف ، كان الدفاع عن العالم المسيحي يقع على كامل الجمر ، الذين كانوا يحتفظون ببلجراد . ولم يبق أي شيء من الدولة الصربية الكبيرة التي كانت موجودة في القرن الرابع عشر . وفي هلماشيا ، وفي إستيريا ، أصبح الغزاة على اتصال بالبنادنة .

وكانت الإمبراطورية العثمانية محدة من الشمال الشرقي بالخانات الروسية التنائية ، والشرق بايران ، وكانت هناك غانات أخرى ، إسلامية ، من أصل مغولي ، أو تركي مغولي ، منتشرة في آسيا الوسطى . وكانت الجند عبارة عن عدد كبير من الإمارات المتجاورة . ففي الشمال ، وحيث ساد الإسلام — زاد إنتشاره

في أثناء القرن الخامس عشر - كانت القوة الرئيسية هي تلك التي كانت عاصمتها دلي . ولكنها لم تكن سوى ظل لتلك الإمبراطورية التي كانت قد مدت سيطرتها في القرون السابقة حتى أقاليم البنغال والذين . ولانفصلت عنها أقاليم كثيرة ، عليها . وفي الجنوب ، كانت السيطرة لملكة نارسينج Narasingh الهندية - وهو الاسم الذي أعطاه البرتغاليون لإمارة فيجايا ناجار Vijayanagar التي كانت مدمرة إقتصاديا ، ولها قوة عسكرية نسبية .

وكان هناك عالم يختلف تماما عن العالم المسيحي والعالم الاسلامي يبدأ فيها وراء بامير والتبت . وكانت ديانة بوذا Bonalaha ، وفي نفس الوقت تأثير الحضارة الصينية تعطيه نوعا من الوحدة . وعاشت الصين ، تحت حكم أسرة مينج Ming ، في هدوء ، وفي حماية ذلك الحائط الكبير ؛ الذي كانوا قد بنوه منذ عصور قديمة ضد هجمات المغول ، والذي إستمر في حمايتهم من الهجمات . وكانت اليابان مقسمة بصراعات داخلية بين كبار السادة ولم تكن السلطة المركزية مطاعة . وكانت تمارس بدلا من الإمبراطور وفي مكانه ، ولكن بموافقته ، عن طريق ما يشبه الوصي ، أو الوزير ، أو حاجب القصر . وتمكن هؤلاء الحجاب من أسرة أشيكاجا Ashikaga من أن يفتشوا أسرة حاكمة فعلية ، ظلت تحكم حتى عام ١٥٧٣ .

٤ - عوامل سياسة الدول :

من بين العوامل التي تؤثر على السياسة الخارجية الدول ، هناك عوامل عامة ، ودائمة لا نعالجها هنا : إنها العوامل المرتبطة بالجنسافيا . وهناك عوامل أخرى ، ترجع أصولها إلى الأحوال السكانية (الديموجرافية) أو الإقتصادية ، ولها طابع شبه دائم ؛ فيمكن أن يحدث لها تغير ، من فترة لأخرى ، له مدى معين . وهذه العوامل هي التي سنحاول إلقاء الضوء عليها . فالعامل المالى ، له أهميته الكبيرة ؛ ولكنه يخضع خضوعا كبيرا للعوامل السابقة ، حتى أنه يبدو في غالبية الأحيان

على أنه مجرد نتيجة لما ؛ ولذلك فإنه لا يتطلب تكميات طويلة . وعلى العكس من ذلك ، فيجب علينا ألا نهمل شرح العامل النفسى ، وهو أكثر العوامل تنيراً .

وفى الفترة التى ندرسها ، نجد أن كل الدول التى تلعب دوراً على المسرح الأوروبى ، وباستثناء الهندية والكاثونيات السويسرية ، هى دول ملكية . ونجد أن الملك - أو « الأمير » - حسب قول مكيافيل - كان لا يفرق بسهولة بين مصالح الدولة ومصالحه الشخصية . وكان يعتقد - أو يجهلونه - يعتقد - أنه من الواجب أن تقدم مشغوليات هيئته الشخصية ، وسمته ، بتوجيهه فى عملية لإختيار أهداف ووسائل سياسته الخارجية . وإذا ما كان شاباً عند وصوله إلى السلطة ، فإنه كان يشعر بأنه مضطر إلى إظهار ما يدل على كفاءته وكان مقياس الكفاءة عند الأمراء وعند عدد من كبار القوم ، هى الطريقة التى يسلكها فى الحرب ولذلك فإن السؤال الوحيد الذى كان يطرح نفسه كان هو : ضد من نقوم بالحرب ؟ ولذلك فإن تغيير الحكم كان فى غالب الأحيان حدثاً فى غاية الأهمية : ونجد كل إجماعات السياسة الخارجية نفسها مرتبطة به . وكانت للزيجات بين الأمراء ، هى كذلك ، وفى بعض الحالات ، تأثيراً حاسماً : وكانت تستخدم فى حالات كثيرة من أجل بدء أو تدعيم تحالف . ولم توجد فترة لم يستخدم فيها هذا التقليد . وكان رجال الدولة لا يجدون وسيلة أكثر ضماناً من أجل التوحيد بين بلدين من عقد الروابط بين الأمرين الحاكمتين فى كل منهما ، واللتين كانتا تمثلانها فى أعين الأجانب . وكانت القلة البسيطة من بين مفاوضات الصلح هى التى لا تشتمل على شروط تتعلق بالزواج . ومن هو ، أو هى ، ذلك أو تلك الابن أو الابنة لملك الذى لم يتفق على خطوبته أو خطوبتها ، مع الخارج ، ولاسيباب سياسية ، وهم لا يزالون فى سن الصبا ؟

ويظهر دور كل العوامل المختلفة من العرض التالى . وفى هذا الفصل سنحاول فقط إعطاء الميزات العامة لمجموع سياسة كل من الدول الرئيسية ، الأمر الذى لن

يمنعنا من العودة بعد ذلك إليه بالتفضيل . وستكون هذه طريقة لمعالجة النقص فيما يتعلق بتوزيع الموضوعات التي تعالجها . وحتى تتمكن من إظهار الاستقلال الذاتي لعدد معين من القطاعات الجغرافية التي تميزت بوضوح .

فمنذ نهاية القرن الخامس عشر كان لفرنسا مييزات واضحة على جيرانها القريبين منها . فليس فقط أنها كانت ، بسكانها الذين بلغ عددهم أربعة عشر أو خمسة عشر مليوناً ، أكثر سكاناً . بل إن مواردها كانت ، علاوة على ذلك ، تنطوي إحتياجاتها . وكانت لا تعتمد على أحد في أمور تموينها . وكان العمل الوطني على درجة من الانتاجية ، وكان الرعاء عاماً ، حتى أن النظام الملكي لم يجد صعوبة في جمع الضرائب ولم يتراجع عن رفع معدلاتها ، ولا عن تنويع أشكالها . وإذا ما أخذنا بما ذكره أحد الماوك الأجانب ، مثل الإمبراطور مكسميليان Maximilien فإنه كان في وسع ملك فرنسا أن يعمل في رعيته ما يرغب .

وعند موت الملك لوى الحادى عشر ، بدأ أن الهدف الأول لسياسة الملكية كان هو أن ينازعوا أسرة هابسبورج في ذلك الجزء من مهادت يوربانيا ، والذي كان قد ضاع منهم في عام ١٤٧٧ . وبقرار غير متوقع ، فضل شارل الثامن أن يدخل إلى المعاركات في إيطاليا . وتمت تأثير مجموعة النبلاء ، الذين كانوا يشغلون إلى المملكات ، وإلى الحروب ، عمل خلفائه على التشبه به . ومع ذلك ، ففي هذا الوقت . كانت حدود العالم المعروف قد أخذت في التراجع للوراء ، وفتحت إمكانيات جديدة أمام الحاجة إلى التوسع ، والتي كانت الامة تميل إليها . ولكن فرنسا أصمت أذنيها عن نداءات تطارها وبحارها ، وأهملت هذه الفرص في صد ملوك الفانارا . وهذه الأفضلية لشئون القارة ستستمر كأحدى المظاهر الواضحة لعملها الخارجي طوال فترة التاريخ الحديث :

وبمجرد مرور نشوة الحروب الأولى في إيطاليا ، فرض إنشاء إمبراطورية

إسبانية ألمانية على الفرنسيين أن يدخلوا في صراعات طويلة ، هجومية ودفاعية في نفس الوقت ، وبعبارة تماماً عن كل مشروع من مشاريع المصلحة الوطنية . ولم ينتج عن ذلك إمبراطورية شارل الخامس ، تحريرهم من كل خطر ، إذ أن هابسبورج مدريد كان لهم في ذلك الوقت قوة لا مثيل لها ، في الوقت الذي رأى الفرنسيون فيه قوتهم تضعف بشكل خطير ، نتيجة الحرب الأهلية . وسيكون كل طموحهم هو أن يواجهوا هذا الجار المهدد ، ويستمر ذلك لعدة أجيال . ولن يظهروا بعد ذلك ، ونتيجة لذلك ، إلا بعض نيات البدء في الحرب من أجل الأراضي المنخفضة ، والتي كان نقصها ، وضرورتها ، لا تغيب على السياسات المستقرة ، مثل سياسة مغرى الرابع .

وإسبانيا ، كان سكانها يمثلون تقريباً في عددهم نصف سكان فرنسا . ومع ذلك فإنها لم تكن تفتح ما يكفي غذاءها . وكان عليها أن تلجأ لموارد قح صقلية ؛ وغالباً ما كانت تستهلك فائض الإنتاج الفرنسي . وقبل شارل الخامس ، لم تكن تشكل دولة ، ولكن رابطة ، أو مشروع لدولة . ووجدت بعض الصعوبة في أن توفى بين مطالب سياسيين ، متجهتين إلى اتجاهين مختلفين . وبينما كانت قشتالة تنظر صوب المحيط ، فصرح للأحداث الكبرى ، وصوب إفريقيا ، وحيث كانت الحروب مستمرة ضد المخاربة ، كانت أراجوناً تنجس صوب البحر المتوسط ، ومشغولة بالاحتفاظ بسيطرتها على صقلية ، التي كانت تمثل مخازن حبوب شبه الجزيرة . وتعارض فرنسا في مشروعاتها الإيطالية . ومع ذلك فإن طموحاً مشتركاً دفع « الملوك الكاثوليك » إلى الاستيلاء على نافار ، والتي كان استقلالها يشكل ثغرة في حاجز جبال البرانس ، والتي كانت الأطماع الفرنسية تحيط بها .

ومنذ الوقت الذي تم فيه الإتحاد المتناقض للإمبراطورية المقدسة مع المملكة الإسبانية ، أصبح من الممكن القيام بسياسة قوة حقيقية . وكان توارث الثروات

من العالم الجديد يعطى وسائل العمل اللازمة لذلك. ولم يتم شارل الخامس بعملية إختيار بين البحر المتوسط وبين القارة ؛ بل وجه مجهوده على التوالى من هذا القطاع إلى ذلك . أما فيليب الثانى ، الملك الكاثولىكى بمعنى الكلمة ، ووارث تلك الإمبراطورية التى أصبحت فى ذلك الوقت تمتد إلى الأراضى المنخفضة ، وإلى جزء من إيطاليا ، فإنه رسم سياسته العامة بالقوة حسب رغبته ورضى أن يلعب دور الرئيس الزمنى للعالم الكاثولىكى . ولكنه كان يحتاج إلى أن يعاونه الكرسى البابوى فى ذلك . ولكن بابوات القرن السادس عشر ، والذين كانوا كلهم من الإيطاليين ، وبشكل لا يحصى يمكنهم من التغلب على تلك العداوة الغريبة التى أصبح بنو وطنهم يشعرون بها تجاه السيطرة الإسبانية ، لم يظهروا أى ميل لهذا الاتجاه التسلسلى (الإمبريالى) الجديد . ومن ناحية أخرى ، ورغم ذهب أمريكا وفضتها ، كانت الخواص الملكية فى مشكلات لا تقطع ، الأمر الذى يمكن بالترجيح تفسيره بتقدير الملك ، وبعدد كفاءة الإدارة وإحترافات القائمين عليها . والتاريخ المسالى لفترة حكمه تميز بمجموعة من الأفلاسات الجريئة .

ويمكن الشعور بدور إنجلترا من ضعف قوتها السكانية والمالية . فعدد سكانها الذى زاد عن أربعة ملايين نسمة فى أول القرن ، وصل إلى ما يقل عن خمسة ملايين قرب نهايته . ولم يكن لدى ملكها ، كما كان عليه الحال بالنسبة للملك فرنسا ، أن يطلب الأموال من رعاياه كلما رغب فى ذلك : إذ أن البرلمان كان يصوت على الضرائب ، ويقم حراسة جيدة حول المصروفات العامة . ولذلك فإن الحرب كانت بالنسبة إليه موضوعاً كالياً لا يمكنه أن يسمح لنفسه به إلا فى الظروف الاستثنائية ، وبموافقة الأمة . وهكذا كانت فرص الدخول إلى حرب لا تأتى كثيراً . ومنذ أن انخفضت حدة العداوة مع فرنسا ، أصبحت الصعوبات مع جاراتها الإسكتلندية هى التى تمثل طريق التاريخ الخارجى لإنجلترا . وفى لندن ، كانوا

يرغبون في إقامة إجماع بين المملكتين . وبدأ أنهم قد قابروا من الوصول إلى ذلك حين كانت ماري ستيوارت ، ومنذ ميلادها ، قد خطبت إلى من سيصبح إدوارد السادس ولكن تمسك أسرة ستيوارت بالكاثوليكية كان يمثل عقبة أمكن التغلب عليها مؤقتاً . وعملت فرنسا ، نتيجة التقاليد ، ونزيجة لهدائها للإصلاح الديني ، على إثارة روح الإستقلال عند الإسكتلنديين . وفي مثل هذه الظروف ، مالت إنجلترا إلى الاعتماد عن الصدمات التي حدثت في غرب أوروبا . ومارست في عهد هنري الثامن جياداً مطبقاً . وعمل الملك على القيام بدور الحكم ، بأخذه موقف ، إذا ما تطلب الأمر ذلك ، في صالح أقل الخصمين خطراً . وفكرة التوازن ، التي كانت توجيى باتخاذ مثل هذه السياسة ، وجدت صيغتها في عهد إليزابيث . فذكروا أن دولة إنجلترا يمكن تشبيها بمعود الميزان والذي كانت كفتيه تعملان على التوازن فرنسا وإسبانيا وبينما كان النظريون يفكرون بهذه الطريقة ، أخذت الأمة المتاجرة ، والتي كانت ترغب في ذلك الوقت في التوسع ، موقفاً واضحاً : فاندفعت في الصراع ضد إسبانيا والتي كانت السيدة المطلقة والقيورة عن العالم الجديد . وفي هذا الوقت ، وفي السنوات الأخيرة من القرن ، وجدت مشكلة إسكتلندا حلاً لها . وعلى الأقل كانت في سبيلها إلى الوصول إلى مثل هذا الحل مادامت الملكة إليزابيث لم يكن لها وريثاً مباشراً . فعند موتها ، في عام ١٦٠٣ ، يعود التاج بطبيعة الحال إلى ابن ابنة عمها ، ماري ستيوارت ، إلى جيمس الرابع ، ملك اسكتلندا .

وبصلت الأميرة الملكة النمساوية على عظمتها الفاتحة في فترة من الزمن نتيجة لسياسة الزيجات . وإذا كانت ، بتزويجها عادة أبنائها وبناتها ، لم تقم إلا بما قامت به كل الأميرة الحاكمة الأخرى ، فبليتنا أن نعترف بأنها كانت بحظوظة بشكل خاص . فأحدى الزيجات سمحت لها بأن تحصل ، عند نهاية القرن الخامس عشر ، على الجزء الأكبر من دهرات بورجونيا وبذلك أصبحت أخرى سمحت لها ، في أثناء القرن السادس

عشر، ونتيجة لمصاهرة تاج إسبانيا، بالأولوية المطلقة في الغرب، وأصبحت المصالح الكثيرة التي كان عليها بعد ذلك أن تدافع عنها، موجودة من كل جانب. ونجحت في التوفيق بينها، بطريقة أو بأخرى. وسارت على سياسة تمثل الهبة الإمبراطورية، وأغاية الأمراء. وحين كنت تدخل الحرب ضد الأتراك، كانت تقوم بالدفاع عن حدود الإمبراطورية، وعن حدود البلاد التي يصل إمرؤها بها أسرياً في نفس الوقت، والتي سيضاف إليها في وقت قريب ممالك المجر وبوهيميا. وإذا كانت في الغرب تحارب فرنسا، فإن ذلك كان يرجع إلى عدم رغبتها في التدخل من الحقوق القديمة للإمبراطورية على إيطاليا، وإلى رغبتها في نفس الوقت في تأكيد إدهائها على كل ممالك أوروبا. وتمكنت، خلال ما يزيد على نصف قرن، من أن تقوم بدور يتناسب مع قوتها الإقليمية ومع طموحها، نتيجة لسيادتها على الأراضي المنخفضة الفنية. وبعد عام ١٥٥٦، أي بعد تنازل شارل الخامس وتقسيم إمبراطوريته، وحرمانها من الموارد التي كانت تحصل عليها منها، وكذلك من ذهب أمريكا تخلت عن الاحتفاظ بدورها في مجموعة الدول الكبرى. فانطلقت على نفسها، وفي خلال نصف قرن آخر لم تعد تشغل نفسها إلا بمصالحها، وبمصالح الإمبراطورية في أوروبا الوسطى.

وكانت إحدى نقط الضعف عند أسرة هابسبورج أنه لم يكن في وسعها، في صراعها مع فرنسا، أن تعتمد على ألمانيا، وكان الفرنسيون والألمان قد احتفظوا بعلاقات ودية تقليدية فيما بينها. ولم يكن هناك، في ذلك الوقت، ما يمارض هذه السياسة. وكان رؤساء الكاثوليك، الذين يتحدثون السلطة الإمبراطورية يتجهون بطبيعة الحال صوب التحالف مع فرنسا. وكان هذا، بنوع خاص، هو وضع منتخب البلاتينات. وكانت زيجات شارل السابع، ولوى الحادي عشر قد ساعدت على توثيق روابط القرى بين أسرة فالوا وأسرة ويتلباخ Wittelsbach. وكانوا

يسمون أنفسهم بأبناء الممومة . وفي عام ١٤٩٢ ، أصبح منتخب البلايينات ، صهر ملك فرنسا ، وحليفه ، وضيغه ، علاوة على ذلك وقبل منتصف القرن ، وسجين تبدأ في الإمبراطورية فترة الحروب الدينية ، مستجد فرنسا أن أعداد أصدقائها قد زادت . وستزداد أواصر العلاقات مع أمراء الجزء الغربي من ألمانيا ، والذين انضموا إلى حركة الإصلاح الديني ، في البلايينات ، وهيس ، وفرتمبورج .

الفصل الثالث

مشكلات البحر : المحيط

ينفتح التاريخ الحديث بالرحلات الكبرى للكشوف الجغرافية ، ولذلك فإنه سيكون من الطبيعي أن تبدأ دراستها بفهم تلك المشكلات المختلفة التي طرحت نفسها ، بين الدول ، نتيجة لضم العالم المعروف حينئذ لإمبريكا من ناحية ، ولجوء من الشرق الأقصى من ناحية أخرى .

١ - رحلات الكشوف الكبرى وأصولها :

لقد كتبوا كثيراً ، وناقشوا عن أصول الرحلات البحرية الكبرى ، وعن دوافع المستكشفين . وإن ما كان يوجههم ، لم يكن بالتأكيد هو الفضول والرغبة في زياده نصيب المعارف الانسانية ، رغم أنه يجب علينا ألا ننقص من أهمية هذا العامل ، وفي عصر النهضة ، لذلك التحطش العام للعرفه والفهم ، وهو الذي يجعلنا مدينين لهم فيه باختراع الطباعة . ومن وقت بعيد ، كانوا قد قدعوا الرغبة في أن يجدوا طريقاً ، يبعد عن سيطرة المسلمين ، ويسمح لهم بالوصول إلى البلاد التي تنتج التوابل ، والمنتجات الثمينة ، وحتى المواد النادرة ، وذلك في وقت لم يكن الأوروبيون قد تعلموا فيه بعد استخدام المشروبات الكحولية من أجل فتح شهيتهم حين تكسل أو تزهق . ولقد تم إقباط ، رغم كل ما قد جكتب في هذا الموضوع ، أن تجارة التوابل ، عن طريق المحيط الهندي ، والبحر الأحمر ومصر ، والتي كان يقوم بها وبشكل تقليدي البحارة العرب ، والتي تستمر في البحر المتوسط بواسطة البنادقة ، لم تتوقف ، ولم تهدد حتى أبداً

بشكل جاد في أثناء القرن الخامس عشر، وأن الإمكانات للتزود منها لم تكن أبداً أقل من الاحتياجات . وكان في وسع الخوف ، الذي تفاوتت درجة تبريره ، من أن تتوقف هذه التجارة في يوم من الأيام ، أن يلعب دوراً : ولكنه لم يكن وبكل تأكيد هو الدور المقرر الخامس .

ولن ما نتفق عليه اليوم حين نتحدث عن السبب الأول لهذه العملية التي لم تسبقها غيرها ، هو شيء يختلف عن الجوع الإقراضى للتوابل ، هو ما نسمينه . وبكلمة تستحق أن تظل وتبقى ، «التعطش إلى الذهب» .

وكان هناك مرض إقتصادى ذفين قد أصاب الغرب عند نهاية القرن الخامس عشر . وكانت زيادة المبادلات ، والتي سهّلها ذلك البدو النسي الذي كان يسود العلاقات بين الدول منذ نهاية حرب المائة عام ، قد اصطدمت الآن بنقص متزايد في المعادن الثمينة . وظهر أن الموارد المعدنية لأوروبا لم تعد كافية : وأصبحت الطلبات عليها تزيد باستمرار على العرض . وفي ألمانيا ، وهي بلاد المعادن قبل غيرها ، بدأوا في إستغلال جديد للناجم التي كانت قد أهملت ونحوها عنها منذ عهد الرومان . وفي فرنسا ، شجع لوى الحادى عشر عملية التنقيب ؛ وأخذ المال يبحثون عن التبر في رمال أنهار جبال البرانس . وفي إيطاليا ، وبخاصة في جنوا ، زاد إهتمامهم بالتبر ، والذي كان يصل من المناطق السودانية بالقوافل إلى موانئ مصر أو بلاد المغرب . وكانوا مشغوفين بمعرفة موطنه الأصلي ، بالتحديد ، وذهب بعض الرحالة من أجل ذلك صوب وسط إفريقيا : مثل مالفانت Malfante الذى ذهب ، في أثناء إحدى الرحلات عبر الصحراء ، حتى توات ، ولكنه ، وبسبب التكتّم الشديد للأمال ، لم ينجح في أن يحدد أن الذهب يجمع من منطقة تقع إلى الجنوب من ذلك ، وعلى شواطئ نهر النيجال .

وكان كريستوف كولومب Christophe Colomb ، هو أيضاً ، من أبناء جنوا وكان في شبابه يعمل في خدمة شركة كبيرة. هي شركة سنثريون Centurione - للأصراف والمراير - وهي نفسها التي كانت قد دفعت مصاريف الرحلة لمالغانت . ولذلك فإنه قد عاش في ذلك الوسط الذي كانت تشغله بنوع خاص مسألة المعادن النفيسة . ولا شك في أن تفكيره قد إنشغل منذ وقت مبكر بتلك المسائل التي كانوا يطرحونها بهذا الشأن ، وأنه كان ، منذ وقت إقامته الأولى في البرتغال ، من ١٤٧١ إلى ١٤٨٤ ، مهتماً بنوع خاص بالبحث عن الذهب ، وبالمكانيات لإكتشاف مناجم جديدة له عبر العالم .

ومنذ خمسين عام قبل ذلك ، كان البرتغاليون قد عملوا على غزو ، ومحاولة تصير الأقاليم الإفريقية القريبة منهم . وكانوا قد تمكنوا ، منذ عام ١٤١٥ ، من إحتلال سبته على الساحل الشالي لإفريقية ، وفي الغرب . وقاموا في عام ١٤١٨ بلاحتيال ماديرا ، ووصلوا في عام ١٤٣٤ إلى رأس بوجادور ، وعملوا من عام ١٤٢١ حتى عام ١٤٥٣ على إخضاع جزر الغالابات (آزور) ، ثم وصلوا إلى الرأس الأخضر في عام ١٤٤٥ ، وإحتلوا جزر الرأس الأخضر في عام ١٤٥٦ ، ووصلوا إلى خليج غينيا في عام ١٤٧٠ . ورغم أن البرتغاليين قد إدعوا أن أهدافهم كانت دينية وعسكرية ، وتلخص في عارية الإسلام ، وبشر الدين المسيحي ، فإن العامل الإقتصادي لم يكن محتفياً ، وزاد ظهوره مع الأيام . ومرهان ما قام البرتغاليون بتنظيم التجارة مع الأقاليم التي خضعت لهم ، أو التي إستكشفوها . فنظموا تجارة الرقيق السود ، التي أصبحت لشبونة سوقاً كبيراً لها ؛ وبعض التوابل الإفريقية ، كما أدخلوا زراعة قصب السكر في ماديرا ، وأصبحوا منذ منتصف القرن الخامس عشر يجمعون العمل الأسود الناتج عنه في كل من لشبونة ، وبروج ، وأنفريس .

وحصل البرتغاليون في عام ١٤٥٥ ، وبمرسوم من البابا ، على مينة إحتكار النعاب والقررد على هذه المناطق والإنجار معها . وطرح مسألة نفسها نتيجة لذلك، وتنزيدها الرحلات التالية أهمية ضخمة ، وهى مسألة معرفة ملكية الأراضى الجديدة ، المكتشفة أو التى سوف تكتشف .

ثم حدث ، فى عام ١٤٨٤ ، أمر إنشاء ، وإلى الجنوب أكثر من ذلك ، وعلى ساحل جامبيا ، مركز المينا ، أو ميناء سان جورج ، وحيث سيتم شراء التبر من الأهالى الذين يحصلون عليه فى الأنهار القريبة ؛ وفى عام ١٤٨٧ تمكنت الحملة التى يقودها باثولميو دياز ، والذي وصل إلى أقصى القارة ، وحتى رأس العواصف الشهير ، وبعد أن مر بعدها ، من أن يسميها رأس الرجاء الصالح . وهكذا ، ومع فاسكو داجاما ، بدأ ذلك الإلتحام مع المحيط ، والذي أوصل البرتغاليين إلى الهند بطريق لم يتبعه أحد من قبل . وعاد الفضل فى ذلك إلى الملك مانيويل المخطوط (١٤٩٥ - ١٥٢١) ، وإلى حد كبير : فكان قد أعد لذلك باستخدامه لجنة محض العلماء ، وهى مجموعة الرياضيين ، والتي كان الملك السابق قد أمر بتكوينها . ومع ذلك فقد كانت الوسائل متواضعة : أربع سفن ذات حوالة متواضعة ، وعليها ما يقرب من مائة وخمسين بحاراً . وعبروا حول إفريقيا من طريق ساحل نائال (وأعطى هذا الإسم نتيجة لوقوفهم فيه فى عيد الميلاد) . ثم توقفوا فى موزمبيق ؛ ثم فى ممبسة ، قرب زنجبار ، وحيث قاموا بإنشاء أعمدة من الأحجار تحمل شعار الملك ، والتي كانت تدل على عملية الاستيلاء التى تمت بإسمه . وأخيراً ، وإلى الشمال أكثر من ذلك ، وفى مالتدى ، تمكنوا من إصطحاب أحد الرابطة العرب ، وكان ملاحاً قديراً ، وحاذقاً فى استخدام الإصطربلاب ، وتمكنوا نتيجة لذلك من الوصول بعد ثلاثة أسابيع إلى قاليقوت ، فى ٢٠ مايو ١٤٩٨ . وقاموا ، وغماً عن معارضة السلطان المحلى ، والذي كان يخشى من عدا

زبائنه الماديون ، وهم العرب له ، بشحن السفن بالتوابل وبمشتجات البلاد ، ثم لم يتأخروا عن أخذ طريق العودة . وهكذا دخل الطريق البحري إلى الهند في التاريخ .

ولقد تم اكتشاف أمريكا في خلال السنوات العشر التي تفصل بين رحلة بارثولوميو دياز وبين رحلة فاسكو داجاما . وكانت الأحداث قد أعدت يده كريسطوف كولومب للدور الذي سيقوم به . فبقاؤه في البرتغال ، تعرف على بعض التقاليد شبه الخرافية ، والتي تتحدث عن وجود جزيرة أسما أنتيلا ، بعيداً . وفي بحر جزر الهند ، كانوا يرون أن البرتغاليين في الأزمان السابقة ، الذين كانوا مضطرين إلى ترك بلادهم ، يجدون ملجأ لأنفسهم فيها . وعرض على ملك البرتغال أن يجهز حمة من أجل العثور على هذه الجزيرة . ولكنهم وجدوا أن شروطه كانت باهظة ، وأخرجوه من حضرة الملك . وأدى ذلك إلى ذهابه إلى إسبانيا . سعيًا وراء حظه . وذهب لمقابلة الملكة في قرطبة ، وحصل على حق عرض مشروعاته على لجنة تتشكل من البحارة ومن العلماء . ولكنهم اضطروه إلى الانتظار سنوات عديدة ، ولكي يعطوه في النهاية إجابة سلبية . وبعد هذا الفشل ، فكر في إحدى الملاحظات في الاتجاه إلى ملك فرنسا ، الأمر الذي كان بلا شك يؤدي إلى تغيير مجرى التاريخ بالنسبة لدول غرب أوروبا إذا ما كان قد نفذ ما فكر فيه ، واستمع إليه أقوى ملك في غرب أوروبا في ذلك الوقت . وهذا يمثل موضوعاً يجبر المؤرخ على التوقف ، ولكي يشمن .

وتقرر المصير بشكل آخر . فكل كولومب قد تعرف في ذلك الوقت على بينزون Pinzon الذي أصبح شريكه وزميلة في رحلته ، وكان بحاراً مغامراً وغنياً . فعاد إلى بالوس بمرعة ، وأخذ في أن يعد معه لذلك المشروع الكبير . ثم ذهب لمقابلة الملكة في سانتا في ، وتحت أسوار غرناطة ، التي كانوا قد بدأوا في

عملية حصارها . ولما كان قد أنقص من مطالبه ، وقام شريكه في نفس الوقت بضمانه ، انتهى به الأمر إلى أن يحصل من إيزابيلا وفرديناند على وعد باعطائه ثلاث سفن (كارافيل) ، ولقب أمير البحر (أميرال) ، وتقويضه السلطة التي يحتاج إليها من أجل أن يتصرف باسمها . وسبق إتفاق سانتا في (١٧ أبريل ١٤٩٢) بخصمة أسايح فقط السفر من بالوس .

ولأنه الأسطول الصغير (ثلاث سفن كارافيل) - والتي كان طول أكبرها ٣٤ متراً - صوب جزر كناريا ، قبل أن يدخل في عرض المحيط . وبعد ما يقل عن شهر وصلوا إلى الأرض ، وليس في فوريدا إذا ما كانوا قد إتبعوا باستمرار خط العرض الذي كان كولومب قد إختاره ، ولكن في إحدى جزر البهاما ، وبعد أن كان خط الملاحه قد انحرف صوب الجنوب أكثر بطلب من بينزون . وكانت المسافة المقطوعة تزيد عن طول المسافة التي قدرها كولومب بالنسبة لموقع أتيلان : الأمر الذي أدى إلى موافقته على حجج بينزون ، والذي كان ، منذ الإقلاع ، يفكر في الوصول إلى شيبانجو التي تحدث عنها اركوبولو ، أي إلى اليابان . ولا شك في أنه لم يكن سعيداً أمام هذه الخفنة شبه المجورة من الجزر ، والتي كان قد نزل إليها . ولم يتمكن من الحصول على إجابة مرضية عن أحد أسئلته الأولى التي طرحتها على الوطنيين بشأن وجود الذهب في البلاد . وبعد أن انضم إلى وجهة نظر بينزون ، بدأ في إستكشاف ما اعتقدوا أنه كان أرخبيل اليابان . ووصلوا ، من جزيرة لأخرى ، إلى كوبا ، ثم إلى هايتي ، التي سموها " هسبانيولا " . وكان عليهم بعد ذلك أن يعودوا إلى إسبانيا وكانت رحلة العودة ، في شهر يناير ١٤٩٣ ، صعبة للغاية ؛ ولم يصلوا إلى بالوس إلا بعد مرورهم ، بحرين ، على جزر المالديفات ، ثم على لشبونة .

وأخذ كولومب يتحدث ، في ذلك الوقت فقط ، عن الهند ، ويدعي أنه

اكتشف طريقاً جديداً يوصل إليها وقام الملكان الكاثوليكيان بتجسيد هذا التفكير حينما أسماه « ناثونا وحاكم الجزر المكتشفة في بلاد الهند » *en las Indias* وبعد وقت طويل، وسين يتأكدون من أن أهالي القرن الخامس عشر قد أخطأوا، سيحدثون كذلك عن الهند الغربية، لتمييزها عن الهند الفعلية، الهند الموجودة في الشرق.

وبعد وصوله بقليل، أخذ كولومب في الإعداد لرحلة جديدة، حصل بالنسبة لها على التأييد الكامل من الملك والملكة. وأطلق في العام التالي، على رأس أسطول كامل، يضم ثلاث سفن كبيرة، وإثنى عشر كرافيل، عليها مايتراوح بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ رجل. ووصل إلى هسبانيولا، بعد أن كان قد شاهد في ممروره جزراً أخرى كثيرة، ومن بينها جزيرة جواديلوب. وكان مضطراً إلى الاستمرار في التنقل، مادام مشغولاً دائماً بالبحث عن المعدن النفيس. وأخذ في إستكشاف كوبا؛ والتي جعلته أبعادها المتسعة يعتقد أنه قد وصل إلى حافة القارة الآسيوية. وحينما عاد إلى إسبانيا، في عام ١٤٩٦، أي بعد عدة سنوات، لم يكن معه شيئاً من الذهب.

ويمكننا أن نوقف هنا تاريخ هذه الرحلات: فلن تعلمنا الكثير هذا علاوة على أن الكثيرين من غيره كانوا قد أخذوا، في ذلك الوقت؛ في إكتشاف البحار، وبعد ذلك أراضى العالم الجديد. وكانت الملكة قد تراجعت عن وعودها السابقة، وأعلنت حرية الملاحة والتجارة في البلاد التي إكتشفت أخيراً. ورأى الناس اعداداً كبيرة من السفن تسير في أعقاب ككولومب. وكانت تلب خيالهم خرافة تتعلق بوجود أحد البلاد المليئة بالذهب، وهي الالودادو *Eldorado* الشهيرة. والى تذكر الروايات أنها موجودة في مكان ما في الجنوب:

وفي أثناء ذلك الوقت ، قابل البرتغاليون أنباء اكتشافات كولومب بمشاعر مضطربة . وأعلن الملك يوحنا عاليا ، وكان حائقا من تركه جيروانه يأخذون هذه الفرصة العظيمة التي كانت قد عرضت عليه من قبل ، وبمجرد معرفته بنتائج الرحلة الأولى ، أن الأراضي الجديدة تدخل في نطاق المنطقة التي استغلت بها المراسم البابوية البرتغال . واتخذ حتى موقفا معاديا ، وأعد أسطولا من أجل منع سفن قشتالة من الوصول إلى الهند . ولكن الملوك الكاثوليك ، لم يتركوا هذه المواقف تؤثر عليهم . وكانوا يعرفون ، من وقت طردهم المسلمين من غرناطة ، أنه يمكنهم الاعتماد على تأييد البابا . وبناء على طلبهم ، منحه البابا اسكندر السادس مرسوماً مشابهاً لذلك الذي يفتد اليه البرتغاليون (٩ مايو ١٤٩٣) . ولكن هذا المرسوم كتب في تشرح ، حتى أنهم اضطروا ، ومن أجل مواجهة الاحتجاجات البرتغالية المباشرة ، إلى أن يتبعوه ، بعد شهر ، بمرسوم آخر ، مكتوب بأسلوب مختلف قليلا ، ويحمل تاريخاً سابقاً للآخر ، أي ٤ مايو ، ثم بعد خمسة أشهر ، وبعد بحث معمق ، بمرسوم ثالث ، عدل قليلا من المرسومين السابقين (٢٦ سبتمبر) . وبالأجمال ، فإن الباب أعطى قشتالة كل الأراضي الواقعة فيما وراء خط يرسم من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي ، ويقع على بعد مائة فرسخ إلى الغرب من جزر الخالدات والرأس الأخضر ولكن يوحنا الثاني لم يقبل القرار البابوي إلا بتحفظ . واستمر في معادلاته المباشرة مع مدريد ، وحصل على أن تزداد مسافة المائة فرسخ إلى مسافة ٣٧ فرسخاً إلى الغرب من الجزر البرتغالية : وكان الرقم الجديد يمثل نصف المسافة ، كما قدروها في ذلك الوقت ، بين هذه الجزر وبين الأراضي التي اكتشفت حديثاً . وكانت هذه هي المادة الرئيسية في معاهدة توردسيلاس Tordesillas التي عقدت في ٧ يونيو ١٤٩٤ . وستكون من نتائجها أن تمنح البرتغاليين ملكية البرازيل . والذين كانوا لا يعرفون

في ذلك الوقت وجودها ، والتي قام أحد البرتغاليين ، وهو كابرال Cabral ، باكتشافها عن طريق الصدفة في عام ١٥٠٠ .

وسمحت إتفاقيات ١٤٩٣ و ١٤٩٤ بالتحدث عن تقسيم العالم بين البرتغاليين والاسبانيين . وإذا ما أخذناها من الناحية اللفظية ، فإنها لم تحدد سوى مصر الجور ، وحتى القارات التي سوف تكشف . ولكن الحكومتين بنتا عليها نتائج ، بأن كل منها كانت ، في قطاعها ، مالكة وصاحبة سيادة على البحار ، مثلها في ذلك مثل الاراضى وكما كان البرتغاليون يحتفظون لأنفسهم باحتكار الملاحة والتجارة على سواحل إفريقية ، إدعى الاسبانيون بإحتفاظهم بها لأنفسهم فيما وراء حد ال ٣٧٠ فرسخ . وإمتنعت الدول الأخرى عن الاحتجاج . وكانت الدولة الوحيدة من بينها ، والتي تقدر في ذلك الوقت على إسماع صوتها هي فرنسا ، ولكن شارل الثامن كان مشغولاً تماماً في إيطاليا ، وبشكل لايسمح له باشتراك في مثل هذه المناظرة

ومع ذلك ، فبعد بضع سنوات ، وسين طلبوا بظهور المعدن النفيس في العالم الجديد ، تحركت لشعرب بطرقها الخاصة . فمن كل الموانئ المطلة على المحيط ، إندفعوا صوب السفن الآتية من أمريكا وعليها شحناتها من الممان النفيسة . وأصبحت المناطق المحيطة بجزر الخالدات أماكن الالتقاء الرئيسية لقطاع الطرق البحرية والقراصنة ، من فرنسيين ، وإنجليز ، وبطيبة الحال من المغاربة من ميناء سلا ، وكانوا الأكثر جرمه من بين كل سكان شمال إفريقية . ومن ناحية أخرى ، قام بعض التجار المغامرين ، بجمع الاعتراف بالمواقع ، وإتجهوا صوب العالم الجديد . وكان الناس قد تعرفوا عليهم منذ وقت بعيد في موانئ تورماندى ، مثل ديب وهو نفلير ، وحيث كانت العلاقات مربوطة مع السكان من الأهالي في البرازيل حتى قبل وصول البرتغاليين . أما أولئك الذين صمموا على إرتداد

هذه المناطق ، فانهم قاموا بذلك على مسئوليتهم الخاصة . وفي عام ١٥١٦ أصدر الملك مانويل البرتغالي أمراً بالبحث عن الأماكن التي تقوم بحركة التهرب ، وبإعدام كل الفرنسيين الذين ينجون بها .

ومع ذلك ، فلم تحدث حركات انتقام رسمية : فلم يرغب فرانسوا الأول في إهضاب ملك البرتغال ، والذي كان في وسع معرفته له أن تكون ذات قيمة ضد عدوهما المشترك ، ملك إسبانيا . ولذلك فإن رعاياه قد اضطروا إلى الاعتماد على أنفسهم فقط . وقام أنجو Angelo الشهير ، أكثر أصحاب السفن في ديب ثروة بإدارة العمليات . ولكن الملك منحه شرف إعطائه ، وخطابات مبسوطة ، في عام ١٥٣٠ . ونصت مقدمة الوثيقة على أن ملك فرنسا كان يعطي ملك البرتغال لقب الصديق والحليف . وهكذا فإن معاهدة تحالف وسمى (ليون ، ١٤ يوليو ١٥٣٦) قد ربطت بينهما خلال سنوات طويلة . ولم يفكر ملك فرنسا أبداً في أن يقطع العلاقات مع لشبونة . وأصدر حتى أمراً ، في عام ١٥٣٧ ، بمنح حل رعاياه الذهاب إلى البرازيل وإلى الأراضي الأخرى التي اكتشفها البرتغاليون . ولقد جدد هذا هنري الثاني بمجرد إحتلاله العرش ، وانتهى الأمر برجال ديب إلى أنهم فقدوا الأمل ومع ذلك فإنهم كانوا قد أنزلوا خسائر فادحة بتجارة البرتغال . وسيطر القمص على منامرات أنجو ، وظلوا يروون لفترة طويلة أن قد ذهب ، في أحد الأيام ، إلى حد قيامه بحصار ميناء لشبونة بسفنه وعالج كريغنون Crignon ، عالم الخرائط ، والمراسلات الإنسانية ، والشاعر ، هذا الموضوع ، وقال عن البرتغاليين ، في عام ١٥٣٥ : « أنه من حسن حظ هؤلاء الأهل أن ملك فرنسا يستخدم حيالهم كل هذه الغنيات الحسنة وحسن المعاملة . إذ أنه إذا ما أراد أن يرخي ثمنان قليلاً للتجار الفرنسيين ، فانهم كانوا في أقل من أربع أو

خمس سنوات سيصلون له على صداقة ، ويضمنون له خضوع أهالي هذه
الأراضي الجديدة .

ولم يشمر فرانسوا الأول باستمداده لإظهار مطالبه إلا إذ كان عليه أن يواجه
مشكلات مع اسبانيا . ولسبوا اليه ، في عام ١٥٤١ ، منه الجملعة البليغة ردأ على
سفير شاول الخامس : « أن الشمس تشرق على كما تشرق على كل الآخرين .
أنى أرغب في أن أرى تلك الفقرة من وصية آدم التى حرمتى من نصيبى في
أقتسام العالم ، وسين وعد الامبراطور ، في معاهدة كريبي (١٥٤٤) بدم اثارته
للمشكلات ضده في ممتلكاته في الهند ، حصل في نظره ذلك على الحق ، السفن
الفرنسية ، « بالذهاب للتجارة في جزر الهند » . ولقد أثير الموضوع من جديد
في أثناء المفاوضات التى سبقت عقد معاهدات كاتو (١٥٥٩) وفرنان (١٥٩٨)
ولكن نص هذه المعاهدات لايشتمل على أى أثر لذلك . ويبدو أن الحل الوسط
الذى ماشوا عليه خلال مايزيد على قرن من الزمان كان في شكل مجرد اتفاقية
شفهية . ولقد تفاهموا على أنه فيما وراء حد معين ، و متميز عن ذلك الحد الذى
كان قد رسم في توديسلاس ، ان يكون في وسع السفن الفرنسية أن تغامر
دون أن تصبح مهددة بأن تعامل على أنها سفن معادية . وفي أثناء ذلك الوقت
فان الأعمال المدروانية التى ترتكب تجاهها لن تستتبع قطع علاقات السلم بين
التاجين . وكانت التحديدات التى فكروا فيها تسقند في نفس اوقت على خط
الطول الذى يمر بجزر الخالقات ، وعلى مدار السرطان . وهى الخطوط التى
تسميها وثائق النصف الثانى من القرن السادس عشر ، وبداية القرن السابع عشر
« بخطوط السلم » أو « خطوط الصداقة » .

ومنذ قرون . كانت توابع الشرق الاقصى تصل الى موانئ العالم الادنى
بواسطة العرب . وكانت سفنهم تذهب لاجتازها من الهند ، ومن سواحل

مالابار ، وتحملها إلى مصر عن طريق البحر الأحمر ، أو تحملها إلى موانئ الشام عن طريق الخليج وكان المهدف الرئيسى للبرتغاليين هو أن يأخذوا مكان التجار العرب . ومنذ عام ١٤٩٩ ، كان الملك مانويل ، وهو يكتب اليابا ، قد أسمى نفسه سيد غينيا ، وملاحة وتجارة ، إثيوبيا ، وبلاد العرب ، والهند . لقد كانت عملية كبيرة .

ولقد بدأت عملية مطاردة السفن العربية منذ الرحلة الثانية لفاسكو داجاما ، في سنوات ١٥٠٢ — ١٥٠٣ واستخدموا العنف ضد الأمراء ، مثل الزامورين في قاليقوت ، ومع كل الأمراء الذين رفضوا أن يقطعوا علاقاتهم مع صلاتهم التقليدية . ولذلك فإن أول مركز تجارى برتغالى قد أسسه فاسكو داجاما على مسافة كبيرة صوب الجنوب ، في كوشين ، ودائماً على ساحل مالابار (أو ساحل التوابل) . وكانت ضرورات الصراع الموجود مى التى اضطرت البرتغاليين إلى استخدام وسائل الارهاب الذى وصل إلى درجة كبيرة من القسوة . ووصل بهم الحال إلى تعذيب الأسرى .

وتم في عام ١٥٠٥ تعيين أول نائب الملك ، وهو فوانشيسكو دى ألميدا Francisco de Almeida ، لكي يمارس السلطة في كل المراتى التى أنشئت حديثاً . كوشين ، وقاليقوت ، وكانانور ، في بلاد الهند ، وكلوة ، وسوقالا في إفريقيا . وبدأ تحت إدارته الصراع الحاسم مع المصريين ، والذين شعروا بضرورة التدخل من أجل الاحتفاظ بهذه التجارة التى كانوا يرجعون منها مثلاً بربح العرب . وقام أسطولهم ، بالتعاون مع أسطول أحد أمراء الهند ، في عام ١٥٠٧ ، بمفاجأة أسطول بقيادة ابن نائب الملك ، وانزل به مريعة فادحة . وقام ألميدا بعد عامين بالانتقام من ذلك ، وحطم الأسطول المصرى أمام ديو ، إلى الشمال من ساحل مالابار .

وبعتبر ألفونسو دي البوكيرك Alfonso de Albuquerque (١٥٠٩ - ١٥١٥) ، خليفة ألميدا ، على أنه المؤسس الحقيقي للإمبراطورية البرتغالية في آسيا . ولقد أمضى وقته في الدفاع عن الفزوات التي تمت وفي الاستعداد للقيام بفزوات جديدة . وكان ، منذ عهد ألميدا ، قد تميز بوضعه مشروعا شجاعا للاستيلاء على جزيرة هرون ، كيناء هام للتجارة العربية داخل الخليج الفارسي : وقام بالاستيلاء عليها ، دون حصوله على أوامر بذلك ، وحصل على خضوع السلطان المحلي ، ولكنه اضطر إلى أن ينسحب منها بسرعة ، حتى لا يتخل عنه رؤسائه ، الذين رأوا أن هذا الموقع كان بعيدا جداً عن الهند ، ومن المحال أن يدافعوا عنه .

وإنقل منه مركز الممتلكات البرتغالية من كوشين إلى جوا ، في جزيرة قريبة من الساحل ، والتي تم إنشاء قلعة قوية فيها في عام ١٥١٠ . ولم يتم ذلك دون عناء . ذلك أن الفزاة طردوا في أول الأمر من الجزيرة ، ولم يعودوا إليها إلا بعد معركة راح فيها الكثير من القتل ، واستخدمت فيها أقصى درجات القسوة والهشاشة . وإفتخر البوكيرك في إحدى رسائله للملك مانويل : « لقد أحرقت المدينة ، وقتلت الجميع بالسيف ولم نعط الحياة لأى مسلم ، وكنا نملأ بهم المساجد ، ثم نشعل فيها النار . »

وبعد أن ضمن ملكية جوا ، قام البوكيرك بإخضاع ملقا ، ذلك الموقع القوي ، الذي انتصر عليه نتيجة لإستخدامه المدافع ، وحيث وضع أسس إنشاء قلعة جديدة . وسجن حاد صوب الغرب ، أخذ في مهاجمة عدن ، التي تتحكم في مدخل البحر الأحمر . ولكن هذا الموقع كان محصناً ، وتمكن من رد الهجمات . وعلينا أن نذكر ، في هذا الاتصال ، أن البرتغاليين كانوا يستندون إلى سوق قمرية ،

التي كانوا قد احتلوها في عام ١٥٠٩ ، ولم يزلوا إلى عدن إلا لفترة قصيرة من الوقت فقط ، في عام ١٥٥١ .

وإنهى التاريخ العسكر لالبيوكيرك في نفس المكان الذي كان قد بدأ فيه ، أمام هرمز . وكان قد أصبح حراً ، هذه المرة ، في حركاته ، وأجبر السلطان على أن يعترف بخضوعه للملك البرتغال وأصبح لؤلؤ الخليج الفارسي برتغاليا ، لفترة تزيد على قرن من الزمان .

وكانت الإقامة في جزر التوابل ، من عمل الخلفاء المباشرين لالبيوكيرك . وأصبحت ترنات ، في شمال الأرنخيل ، أو موقع برتغال . ولم يصلوا إلى جاوا وسومطرة إلا فيما بعد . ومنذ ذلك الوقت ، ضمنت البرتغال لنفسها السيطرة على المحيط الهندي . وإقتصرت غزواتهم على نقط الإرتكاز البسيطة هذه . وكان من البادر أن تستند الامبراطوريات إلى هذا الدعم القارى البسيط . وكان من البادر كذلك أن تسيطر دولة على هذه الدرجة من الصغر على مثل هذه الامبراطورية الشاسعة .

٣ - الغزو الاسباني في العالم الجديد :

وكان للامبراطورية الاسبانية في أمريكا طيمة مختلفة تماماً . فالسيطرة على الطرق المؤدية إليها لم تطرح مشكلات تتعلق بملكيتها . وكان يكفى ، من أجل إبعاد المنافسين المحتملين ، الاحتفاظ بقوة بحرية قوية . وبدأ الغزو لإبتداء من القواعد التي احتوزها في أول الأمر في جزر الأنتيل ، هسبانيولا (هايتي) ، ثم من كوبا : هذا علاوة على أن الأنظار لم تركز بشدة على القارة المجاورة إلا بعد مضي ما يقرب من عشرين عاماً ، وبعد أن تأكدوا من أن الكنوز موجودة فيها بالفعل . وظهرت المؤسسات الأولى على سواحل خليج داريان . وفي عام

١٥١٣ اكتشف بالبار Balbao ، وهو يعبر برزخ بنما ، المحيط الهادى ، وأسماء « بحر الجنوب » .

وبدأوا فى الإنصال بقيابل المايا على ساحل المكسيك ؛ منذ عام ١٥١٨ .
ومنذ العام التالى ، نزل فرناند كورتيز Fernand Cortez ، ونظم معسكراً محصناً فى نفس المكان الذى ستنشأ فيه من بعد مدينة فيراكروز ، ثم بدأ فى غزو إمبراطورية الأزاتكة . وكان جيشه يتكون مما يقرب من ثلاثمائة من الاسبانين ، وألف وثلاثمائة من الوطنيين . وسيتمتعهم عدده فى أثناء السير بتلك المجموعات التى أخذت من القبائل المحررة من سيطرة الأزاتكة . وميزت القسوة الفائقة ، والتى تهدف إرهاب الأهالى ، مرور البيض فى المدن الرئيسية التى قابلتهم على الطريق . وتم دخول مكسيكو دون مقاومة . ولم تبدأ المشكلات إلا بعد ذلك . وكانت شراهية الجنود ، الذين يبحثون عن المعادن النفيسة ، تدفعهم إلى استخدام أشد أنواع القسوة . وانتهى الأمر إلى نشوب ثورة عامة بعد ذلك . وأعلنت العاصمة من القوات ، ولم يتمكنوا من إعادة احتلالها إلا فى عام ١٥٢١ ، وبعد حصار دام لمدة ستة أشهر . وانتظمت حولها ، ومن أحد البحار حتى البحر الآخر ، مستعمرة اسبانيا الجديدة . وعلمت ثرواتها الضخمة على أن تجتذب إليها مريماً أعداداً كبيرة من المهاجرين . وكان التمرکز على الساحل الشمالى لخليج المكسيك قد حدث فى وقت متأخر . واسطلم المحتلون الأوائل بعداء الوطنيين . ولكنهم راحوا ضحية الحيات بنوع خاص . ولم يتمكنوا من أخذ فلوريدا إلا ابتداء من عام ١٥٦٥ ، وبعد طرد مستعمرة صغيرة الهيجينوت الفرنسيين ، كانت قد قامت فى العام السابق ، ونحت إشراف أحد قبائله ديب ، وهو ريبو Ribent بالإقامة هناك .

وفى الجزء الجنوبي من القارة ، تطلعت حملة غزو إمبراطورية الإنكا ، وهى

أكثر إنساعاً وأكثر تدعياً في بنائها من امبراطورية الأزانكة ، بمجهودات أطول أمداً ، ولقد حاول ييزارو pizarro ، الذى عاد اليه فضل الانتصار عليها ، القيام بحملة أولى في عام ١٥٢٤ ، ولكنه لم يتمكن إلا في عام ١٥٣٣ فقط ، وبعد أن كان قد ذهب لكي يحصل من اسبانيا على تشجيعات وتأييد شارل الخامس ، من أن يقوم بتنفيذ مشروعه . ولم تكن وسائله تزيد عن تلك التى كانت موجودة عند كورتيز . وإستخيم ، هو كذلك ، الإرهاب . وقاموا بإلقاء القبض على الرئيس الإسمى ، أو على « الإنكا الكبير » بطريق القدر ، ثم حكموا عليه بالإعدام ونفذوا فيه الحكم . وكانت البلاد التى قاموا بنزوها تشتمل على الأراضى الحالية لجمهورية الاكوادور ، وبيرو ، وبوليفيا ، والجزء الشمالى من شيل ، وعلى جزء من الأرجنتين . وكانت العاصمة كوزكو Cuzco كبيرة البعد عن الساحل ، فأبدلها ييزارو بمدينة جديدة هى كويدادى لوس رايىس Ciudad de los Reyes والتى سوف تسمى ليما ، فيها بعد .

واستمرت عملية الغزو ، كما حدث في المكسيك ، عن طريق حملات متتالية توجهت عند الأهالى المجاورين . وفي المنطقة التى تقع إلى الجنوب أكثر من ذلك تمكنت قبائل أدوكانو Arraucoans من أن يهزموا القوات الإسبانية ، وحتى نهاية القرن . أما السهول الشرقية ، والتى لم تكن توجد فيها معادن نفيسة ، فانها لم تكن كبيرة الإغراء بالنسبة للجن . وكان التوغل في هذه المناطق بطيئاً . وعلى مصب ريو دى لا بلاتا ، الذى وصلوا اليه في عام ١٥٣٥ ، أقاموا مركزاً أسموه بويئس آيرس ، وكان ضعيفاً . وظلت مدينة « الصعود » التى أسست بعد عامين من ذلك ، وفي داخل الأرض وعلى نهر باراجواى ، ما يقرب من نصف فرن وهى مركز المؤسسات الإسبانية . أما مدينة بويئس آيرس الجديدة ، والتى ولدت في عام ١٥٨٠ ، فإنها لن ترتفع إلى المكان الأول إلا ببطء .

وعلى الساحل الشمالى ، والذي ظلوا يعرفونه منذ الفترة الأولى للكشوف باسم
« الأرض الثابتة » . لم ينزل الاسبانين . إلا فى فزويلا . وأقاموا هناك إحدى
المؤسسات فى عام ١٥٢٧ . ولما كانت البداية صعبة فإن شارل الخامس تفاوض
فى عام ١٥٣٠ مع الألمان من أسرة فلسر Welser ، وكافوا من كبار رجال
الأموال فى أوجزبورج ، ومنحهم حق إستغلال هذه البلاد : وكان الألمان
يتمتعون بصفة أنهم متخصصون فى إستغلال المناجم ، وهو أحد الفروع الرئيسية
للعمل الصناعى فى بلادهم ، وإعتقدوا أنهم سوف ينجحون أكثر من غيرهم فى
عملية التنقيب اللازمة . والواقع أن جماعة فلسر أصابها كل خيبة أمل ممكنة ،
ولم تجده الممدن إلا بكليات ضئيلة . ولذلك فأنها تخلت عن فزويلا فى
عام ١٥٥٦ .

وفى أمريكا الشمالية وظل الجزء الأكبر من القارة ، بالفعل بعيدا من سيطرة
الغزاة الإسبانيين ، ولقد أفاد منافسهم من ذلك ، وكانت فرنسا قد ظلت تظفر
اللامبالاة بشكل غريب وعلى الأقل عند الأوساط الحاكمة ، تجاه تلك المنافسات
الأولى التى كانت تهدف العالم الجديد . وكانت قد تمركزت الإيبيريين يقتسمون
تلك القارة ، التى كان بحارتها أول من وضعوا أقدامهم عليها . ولكنها خرجت
من عدم حركتها فى عام ١٥٣٥ . وكان هذا نتيجة تغير مفاجئ . كانت أموره
مرتبطة بتطور الحالة فى أوروبا . ففرانسوا الأول ، الذى كان قد صمد منتصرا
أمام هجمات الدولة الإسبانية الألمانية ، بدأ فى فقد الثقة فى المستقبل . وأصبح
يعتقد أهمية أقل عما كان عليه الحال فى الماضى بالنسبة للضمان الذى تعطيه له ، وعند
شارل الخامس ، صداقته مع البرتغال ، وكان قد قلل من تشده ضد الثوماندين ،
الذين كانوا ، بذهابهم للتجارة على سواحل البرازيل ، يشهرون الصعوبات ضد
حكومة لشبونة ، وفى عام ١٥٢٤ ، وبعد أن كان قد حصل من البابا على براءة

ضمانات تتعلق بتطبيق مرسوم عام ١٤٩٣، أرسل جاك كارتيه Jacques Cartier البحث عن إكتشاف الذهب في المناطق القريبة من جزيرة الأرض الجديدة ، (نيوفاوندلاند) ، ومر كارتيه على مصب نهر سان لورانس ، وأعلن خضوعه لسيادة الملك ، سيده . ولا يبدو أن شاول الخامس قد أزعجه ذلك وربما رجس ذلك إلى أنه في حقيقة الأمر لم يبلغه أحد بذلك . ولم تبدأ الرحلة الثانية لكارتيه ، في عام ١٥٣٥ ، أى ضجة أكثر مما أعطته الرحلة الأولى . وكانت حلة عام ١٥٤١ وحدها ، والتي اشترك فيها دوبرفال Roberval مع كارتيه ، هي التي سميت في احتجاجات وتهديدات . والواقع أن الأمر كان يتعلق ، هذه المرة بالبدء في عملية احتلال . ودون تمكنه من أن يحصل على تأييد البابا وملك البرتغال ، وجد شاول الخامس أن أحدا لا يستمع إليه ، ولن يتأخر به الحال إلى أن يعرف أن المحاولات الفرنسية قد انتهت ، في نهاية الأمر ، إلى الفشل .

ولم يكن الانجليز قد دخلوا بعد إلى ميدان التنافس مع الإسبانين ، وكانت لبحارتهم البحرية قليلة الأهمية ، وكان بحارتهم أقل بأسا من البحارة الفرنسيين . وكانوا طوال الوقت يعملون في قطع الطرق البحرية ، وفي القرصنة ، إن كانت قرصنة محدودة على البحار المجاورة . ولم تكن تجارة الدول الاستعمارية الجديدة تقامى منهم إلا حين كانت تستخدم مياه أنفوس . وبدأوا ، قرب منتصف القرن ، في خرق قرارات المنع البرتغالية على طول سواحل غينيا . وشجعهم على ذلك وجود الاتحاد المؤقت بين تاج إنجلترا ، وتاج إسبانيا ، في عهد حكم ماري تيودور Mary Tudor ، ثم جاء عهد إليزابيث Elizabeth مع الحملات الكبرى عبر المحيط . وكانت الحملات الأولى ، وهي حملات هوكينز Hawkins ، قد أفادت من عدم مبالاة ، وحتى من مشاركة الإسبان؛ إذ أن هدفهم كان يتركز في مجرد أن يصنعوا إلى سجن الهند الغربية زنجيا كانوا قد جمعوا من إفريقيا ، أو أخذوا من

تجار برتغاليين . ولكنهم كانوا يعودون من هناك بكل أنواع السلع ، وأعطت حكومة فيليب الثاني أمراً بعدم قبول السفن الانجليزية في الموانئ الأمريكية ، وسافر هوكينز ، الذى لم يكن يرغب فى أن يتغذ رغباتهم ، مرة ثالثة ومع سفن عديدة مسلحة من أجل الحرب ، وبعد أن هاجمه عند سان جان دولوا ، قرب فيراكروز نائب الملك فى المكسيك ، فقد جزءاً من أسطوله (٢٠ سبتمبر ١٥٦٨) ، وأمام اعتراضات سفير فيليب الثاني . أجابت الملكة اليزابيث فى كلمات مشابهة للكلمات التى كان فرانسوا الأول قد إستخدمها من قبل . ويجب أن يكون إستخدام البحر والبحر مشتركاً بالنسبة للجميع ، وبحرية تمير من كان قد إتفق على الكنيسة ، أضافت أنها لا تعترف للإسبانيين بأى حق خاص بالملكية . ينتج عن تلك الحجة التى أعطاهامهم وأسقف روما ، وقرب هذا الوقت أخذ الملك دون سباستيان Don Sebastian . ملك البرتغال ، موقفاً مهدداً . فاضطروا إلى الدخول فى مفاوضات . وفى نطلع فتح ماديرا وجزر المالديف للتجارة الانجليزية ، حصلت البرتغال على إعتراف رسمى باحتكارها للتجارة الإفريقية .

ووصلت منتجات هنانج بيريو بالبحر ، وصيرت على ظهر البغال برزخ بنما لكي تصل إلى السفن الراسية فى خليج المكسيك وفى عام ١٥٧٢ ، قام أحد من ملاح هوكينز ، وهو دريك Drake ، بمفاجأة ، عند مخرج ميناء نو، بر دى ديوس ، قافلة ذاهبة إلى أوروبا ، واستولى عليها ، ويمكن من أن يحضر إلى إنجلترا كل أسلحته ، ولكن هذا النجاح لم يتكرر ، فقد كان على الإسبانيين ، منذ ذلك الوقت ، أن يحسنوا عملية رقابتهم ، ولكن دريك عاد من جديد ، فى عام ١٥٧٧ حوب الغرب ، ووصل إلى سواحل بيرو . عن طريق مضيق ماجلان ، ونشر الرعب فى ليا ، واكتشف كاليفورنيا . وزالوا يتناقشون لمعرفة ما إذا كان يهتدف أمر الاستيلاء عليها باسم الملك . ، وجبر المحيط الهادى ، وجعل سلطان ترغوات ،

وهو أحد سلاطين جزر ملقة ، يقبل الحماية الإنجليزية ، وعاد منتصراً بعد أن كان قد قام بالسفر حول العالم (١٥٨١) . وفي هذه الفترة ، تدهورت العلاقات بين إنجلترا وبين أسبانيا ، وكانوا يسعون صوب القطيعة . فلم يعد هناك مجال لاحترام ذلك التصور القانوني والتي كانت الأحداث البحرية ، نتيجة له . تهدد العلم بالخطر ، وخاصة إذا ما نشأت هذه الأحداث فيما وراء الخطوط . ولم يتردد القراصنة الإنجليز في الذهاب ومهاجمة السفن قرب السواحل الأسبانية . وقاموا بذلك ، وبدون أى تخرج خلال تلك الفترة التي كانت الحرب فيها معلنة ، منذ عام ١٥٨٥ وحتى عام ١٦٠٤ . وفي أثناء ذلك الوقت استمر دريك في القيام بهجماته الشجاعة على المنشآت الموجودة في أمريكا ، ومات وهو يقوم بذلك ، في عام ١٥٩٥ ، عند يورتو ميلو (وزخ بنما) .

ولم يكن في وسع القراصنة ، على المدى البعيد ، أن تكفى لإرضاء طموحات شعب في كامل النمو من أجل القوة . وقبل نهاية القرن ، سنجد أن روح الاستعمار قد بدأت في الظهور ففي عام ١٥٨٣ أقام همفري جيلبرت Humphrey Gilbert في الأرض الجديدة أول مجموعة من المهاجرين ، وفي عام ١٥٨٥ . أسس والتر رايلي Walter Raleigh . وقرب فلوريدا الإسبانية ، دوزعة ، أولى لفرجينيا . وأسماءها كذلك نيمتا بالملك ، المذراء . ولقد هجرها بعد ثلاث سنوات . وكانت الثانية ، والتي أنشئت في عام ١٦٠٧ . وعاصمتها جيمس تاون ، هي التي ستصبح أساساً لإنجلترا الجديدة .

وفي نفس هذه الفترة ، ولدت فرنسا جديدة ، عند مصبات نهر سان لورانس . وكان ذلك نتيجة لتلك التنمية التي حدثت لتجارة فراء الكاستور . والتي كان أهالي روان ، ودييب ، وسان مالو ، يزودون إحتياجهم بها منذ عام ١٥٨٠ . وشهدت السنوات الأخيرة من القرن محاولات عديدة للتوطن هناك وبميج إثنان

بعد أن كان غيرهم من التورماندين قد فشلوا . ويعود إلى دي مونس de Monts
أمر إنشاء بورت رويال ، في أكاديا عام ١٦٠٥ ، وإلى سامويل شامبلان
Samuel Champlain أمر إنشاء كويك في عام ١٦٠٨ .

٣ - خطوات التوسع البرتغالي :

وعفاً عن أن البرتغاليين والاسبانيين كانوا ، بطريقة ما ، قد إقتسموا العالم ،
إلا أنهم لم ينجحوا في إيجاد أسباب سوء التفاهم من بينهم ، وفي عام ١٥٢١ وضع
الوفاق بينهم في موضع الاختبار نتيجة لوصول ماجلان Magellan إلى الهند
الشرقية . وكان السؤال الذي طرحه هذا الحدث . بالضرورة ، هو السؤال
الخاص بحق البرتغاليين في إمتلاك جزر التوابل . ومادامت الأرض كروية
- وكان ماجلان قد أثبت ذلك - قال طريقة التقسيم التي كانت قد إبتعت في
تورديسيلاس ظهرت على أنها غير صالحة . وكانوا قد إختاروا أحد خطوط
الطول لكي يحددوا الممتلكات الخاصة بكل من البرتغال وإسبانيا ؛ ولكن الأمر
كان يحتاج لحطين . وأكد ملك البرتغال أن ملقة توجد إلى شرق خط الطول هذا ،
بينما أكد ملك إسبانيا أنها كانت تقع إلى غربه . وكان كل منهما على صواب ،
وبهذا الخلاف على أنه لا يمكن إيجاد حل له . ودعوا إلى عقد مؤتمر عن علماء
الخرائط الجغرافية ، والرباية إلى تقرير هذا الأمر ، ولكن المؤتمر فشل وبدأت
العمليات الحربية قرب المناطق المتنازع عليها ؛ فتم الاستيلاء على تيدور وقنصها ،
بروسطة البرتغاليين وعندئذ إخطر شارل الخامس الذي كان مشتبكاً مع فرنسوا
الأول في أوروبا ، إلى أن يقبال . وكانت أخته قد تزوجت ملك البرتغال الجديد ،
يوحنا الثالث . ولم تكن الهدوءة قد دفعت بعد . وفي تظهر تنازله عن مطالباته ،
إستمر يوحنا الثالث ، طبقاً لماهدة ليريدا (٢٣ أبريل ١٥٢٩) ، في ملكيته
لملقة . وهكذا كسبت البرتغال .

وبعد ذلك ، تسببت إقامة الإسبانيين في الفلبين ، نتيجة حملة لريز دى ليجازبي Lopez de Legazpi ، والتي كانت قد حضرت عن إسبانيا الجديدة (١٥٦٥) ، في نشأة صدام سريع مع البرتغاليين الموجودين في إندونيسيا ، ومع ذلك فإن غزو الأرخبيل لم يكن أكثر بطلا . ولم تحتل جزيرة لوسون ، أكبر الجزر ، والأكثر وقوعا إلى الشمال ، مع ماينلا ، العاصمة المقبلة . إلا في عام ١٥٧١ . وحاول اليابانيون بلا جدوى أن يستولوا على ماينلا في عام ١٥٨١ . ومنذ ذلك الوقت نشأت العلاقات التجارية . وعن طريق الفلبين ، بين إسبانيا الجديدة وبين الصين ، التي أصبحت الممر الوارء منها تحمل بصفة سنوية صبر المحيط الهادى حتى ميناء أكابولكو .

وفي هذه الفترة . في النصف الثانى من القرن ، إجمعه التوسع البرتغالى بنوع خاص صوب إفريقيا . فأصبحت أنجولا مستعمرة حقيقية . وفي منطقة موزمبيق ، بدلو المجهودات من أجل التوغل في داخل البلاد ، بحثا عن مناجم الذهب . وفي المغرب ، كانت القوات البرتغالية أقل نجاحا ، ذلك أنها اضطرت ، تحت ضغط المغاربة ، إلى إخلاء المواقع التي كانت قد إحتلتها في أثناء القرن الخامس عشر ، وفي بداية القرن السادس عشر ، الموقع بعد الآخر ، وفي عام ١٥٥٠ ، وبعد فقد أصيلة ، لم يبق لها سوى ثلاث مواقع سيته . وطنجة ، وموگان . أما الحملة الكبيرة التي أرسلوها إلى هناك في عام ١٥٧٨ فإنها إنتهت بكارثة عند التقصر الكبير ، وحيث قتل الملك دون سياسقيان . (موقعة الملوك الثلاث) .

ومن الجانب الآخر من المحيط ، فإن عملية إستكشاف البرتغال لم تبدأ بالكاد إلا بعد تأسيس باهيا ، في عام ١٥٤٩ ، وبعده الجزويت (اليسوعيين) الذين أحضرهم أول حاكم عام . وحتى ذلك الوقت ، كان الموجودين الوحيدين من المجلس الأبيض هناك هم من صدرت عندهم أحكام القانون العام . واستمرت

بعض السفن الفرنسية في الإبحار مع الرطنيين : ورغم المطاردة التي كانوا يقومون بها حيال هذه السفن ، فانهم لم ينجحوا أبداً في منبها .

وفي عام ١٥٥٥ قامت مجموعة صغيرة من المغامرين بقيادة للشيفالينة دى فيلجانبون de Villegagnon بالإقامة في خليج ريو دى جانيرو . ونجحوا في الإقامة هناك مدة خمس سنوات : وجزيرة الفرنسيين ، التي لم تسقط ، في عام ١٥٦٠ ، إلا بعد عملية حصار منظمة . وسيبدأوا في إقامة العاصمة قرب هذا المكان ، ابتداء من عام ١٥٦٧ .

وفي الهند ، لم يكن البرتغاليين علاقات مع دول الجنوب لفترة طويلة . وكانت الأحداث الكبرى التي هزت شمال ووسط شبه القارة - غزو بابر وإنشاء امبراطورية المغول - لم تؤثر عليهم . ومع ذلك فإن القرصة سحنت لهم للفادة من ذلك . ذلك لأن تهديد القزاة كان هو السبب الذي دفع أحد السلاطين المحليين إلى أن يسمح للبرتغاليين بالإقامة في ديو (١٥٤٦) . وستكون ديو أكثر ممتلكاتهم وقوعاً في الشمال . وكانت أكثر الممتلكات التي يتنازعونهم فيها : ففي مرتين ، وفي خلال فترة ثلاثين عاماً . وصلت الأساطيل المتتالية من البحر الأحمر ، وحاولت طردهم منها ، ولكن بلا جدوى . وفي جوا ، من ناحية أخرى ، كان عليهم أن يواجهوا الهجمات الآتية من الداخل : وفي عام ١٥٦٩ قام هذا الموقع بدفع هجمات جيش هندي زاد عدده على مائة ألف رجل .

وفي الصين ، إصطدمت عملية التوغل البرتغالية بعقبات ، لم تتمكن من التغلب عليها إلا بكل صعوبة . وكانت التجارة الصيفية نشطة في ملقة ، التي كانت عاصمة من قبل لامبراطورية داين السماء . وكانوا يجدون هناك الفلفل ، وكذلك المعادن والاحجار النفيسة . والبرتغاليون ، منذ أن أصبحوا على اتصال

بالتجار الصينيين ، لم يفكروا إلا في منازعتهم هذه التجارة ، والتي كانوا يعملون .
أنها مربحة تماماً . ولذلك فإن دولارات الصين ، كانت قد بدأت منذ عهد البوكسك
وصرحوا في عام ١٥١٧ لأحد القباطنة البرتغاليين بإقامة مستودع في إحدى
جزر خليج كاتون . ولكن التجربة لم تكن موفقة ، نتيجة للاهانات ثم أعمال
العنف التي كان القادمون الجدد مسؤولين عنها . ودعت بكين البرتغاليين إلى
الابتعاد ، وأجبرت على ذلك ، تحت التهديد ، في عام ١٥٢١ . ونتج عن ذلك
وجود حالة حرب فعلية بين الجانبين مدة عدة سنوات . ولم يعد هناك مكاناً إلا
لتجارة تم في السرمع المقاطعات الواقعة في أقصى الجنوب ، ونتيجة لمشاركة
كبار رجال الصين المحليين هناك . ثم امتدت هذه الحركة التجارية ، شيئاً فشيئاً ،
إلى كل الصين الوسطى . وقرب عام ١٥٤٠ شارك أهالي كاتون أنفسهم في هذه
التجارة ، رغم منعتها رسمياً .

ومن مثل هذه العلاقات الضعيفة ، نشأ بالضرورة حوادث . فهنا ، وهناك ،
كانوا يطردون التجار البرتغاليين . ومع مضي الوقت ، وفي ظروف غير معروفة
تماماً ، نجحوا في أن يقبلوا هناك . واستخدموا جزيرة صغيرة ، تسمى ماكاو ،
كقاعدة لهم . وفي عام ١٥٥٧ ، أقاموا فيها ، نظرية دفعهم مبلغاً سنوياً ؛ وبدأت
إحدى المدن في الظهور ، شيئاً فشيئاً . وبعد عشرين عام من ذلك ، حصلوا على
تصريح بالإقامة لمدة ثلاثة أسابيع متتالية ، في كل عام ، في كاتون . وأخذت
الإمبراطورية في الانفتاح ، بدرجة أقل أمام بعثات التصدير . وكان التجار
الإيطاليون هم أول من دخل إلى كاتون ، بعد التجار . ولكنهم لم يتمكنوا ، خلال
نصف قرن ، من الخروج منها . ولم يتمكن بعضهم ، إلا ابتداء من عام
١٥٨١ فقط من النجاح في توسيع ميدان عملهم . ونتيجة لحكمة وإصرار الأب
ديتشى ، الذى كان قد أنشأ إحدى البعثات في نانكين في عام ١٥٩٥ ، توج

النجاح بمجوداتهم في آخر الأمر. وفي عام ١٦٠١ قابل الإمبراطور الأب ريتشى رسمياً. وسرعان ما حظى بثقتة ، وسيتمكن بعد ذلك من الاستمرار في القيام بعمله ، في العاصمة ، وعند وفاته ، في عام ١٦١٠ ، كان هناك عبدة مئآت من الكنائس المسيحية في الصين .

أما اليابان ، والتي كانت أكثر بعداً ، فإنها لم تدخل في منطقة عمل البرتغاليين إلا قبل أواسط القرن بقليل . وكان بحارتها لا ينامرون كثيراً بالملاحة فيها وراء مضيق فرمودا ، ولم تكن لديهم فرصة للاتصال بالبرتغاليين ، ومن جانبهم ، قام البرتغاليون ، بعد أن تمزقوا على ديوكيو ، بالوصول إلى أولى جزر الأرخبيل الياباني في عام ١٥٤٣ . ولم يقابل الجزويت ، الذين كان التجار قد مهدوا لهم الطريق ، أى عدا ، من حيث المبدأ : وأفادوا حتى من ذلك الفضول الذي أثاره كل ما كان البيض يعملونه من جديد ، وتمكنت الفترة التي قضوها فرائسوا إيجوافيه François - Xavier — على قصرها ، مادام قد وصل في عام ١٥٤٩ ، وتوفي في عام ١٥٥٢ . من أن ثلثت هناك مسيحية وطنية . وسار العمل ، الذي واصله غيره من بعده ، في طريق سليم ، حتى أن البعض تلباً ، منذ عام ١٥٨٠ ، ويتفاؤل ، بتحول اليابان إلى المسيحية ، ولم يكن في وسع أحد أن يصرف ما سيأتى به المستقبل القريب . ففي عام ١٥٨٧ ، وضحوا ديانة دياسو (المسيح) على القائمة ، ودعوا كل رجال بعثات التنصلي إلى السفر في فترة عشرين يوماً . ولم تكن هذه إلا البداية . ففي عام ١٦٠٤ ، صدرت الأوامر ، ولجأة ، بالقضاء على المسيحية ، وبتعقب من تحول إليها ، وطردهم ، وحتى تعذيبهم .

أما السيطرة البرتغالية في المحيط الهندي ، فإنها لم تصبح مهددة ، بطريقة فعالة ، إلا قرب نهاية القرن ، وذلك بواسطة القامعين الجدد ، الهولنديين . أما مع

الاسبانيين ، فقد كان هناك وفاق واضح ، ولكنه وفاق سطحي ، جاء بعد حصول فيليب الثاني . في عام ١٥٨٠ ، على تاج البرتغال . ولم تستمر المنافسة القديمة بينها إلا في اليابان ، وبنوع خاص في ميدان التصدير . وكان الفرنسيون ، الذين أتوا من الفلبين ، يمثلون ، في مواجهة الجرويت ، والذين كانوا هناك منذ بعض الوقت ، رأس حربة التجارة الإسبانية .

و في عام ١٥٨٤ ، حرم فيليب الثاني على رعاياه الثايرين في الأقاليم المتحدة الوصول إلى لشبونة وإلى بقية الموانئ البرتغالية الأخرى . وبعد عشر سنوات من ذلك ، قاموا في أمستردام بتنظيم أولى الحملات لكي تنهب وتأتى بالتوايل مباشرة من الهند . وفي خليج غينيا ، قام رجال هذه الحملة باحتلال جزيرة سان تومي ، والتي كانت مركزاً السيطرة البرتغالية في إفريقيا . وفي السنوات التالية تمكن الهولنديون من تثبيت أقدامهم في سومطرة ، وحيث لم يكن البرتغاليين أية مشاة . وقاموا ، من هناك ، بحرب عنيفة ضد السفن الإسبانية والبرتغالية ، وإلى حد أنهم قد أبدؤهم بشكل كامل تقريباً من الجهات القريبة من جزر التوابل . وفي عام ١٦٠٢ ، تم تأسيس شركة قوية الهند الشرقية في أمستردام ، وذلك عن طريق إنضمام شركات مختلفة لبعضها ، كانت حتى ذلك الوقت تتنافس فيما بينها .

أما الإنجليز ، فقد أغرتهم هذه التجربة الهولندية ، وما كانت تحقته من أرباح طائلة . فاقبلوا بدورهم على طريق المحيط الهندي ، ولما كانت البرتغال قد انضمت إلى إسبانيا ، لم يكن في وسعهم أن يتصوروا إقدامهم تحت سيطرة عديمهم الرئيسى ، ملك إسبانيا ، من أجل تمويههم بممتلكات المستعمرات . وأصابوا في أول الأمر نجاحاً يقف عن نجاح الهولنديين : وكانت حملاتهم الأولى ، في

عام ١٥٩١ وعام ١٥٩٦ ، فاشلة . ومع ذلك ، فإن لندن أصبحت لها شركتها الخاصة بالهند الشرقية ، قبل أمستردام ، في عام ١٦٠١ . وفي عام ١٦٠٥ ، تم تأسيس أول منشأة إنجليزية في باتنام ، في جزيرة جاوة ، وستعلا المنافسة بين الشركتين ، الهولندية والإنجليزية ، سنوات للقرن السابع عشر .

٤ - ذهب وفضة أمريكا في أوروبا :

جد البرتغاليون عن طيب خاطر أعمال بحارتهم وجنودهم في أثناء القرن السادس عشر . وعلينا أن نذكر جيداً أن هذه الأعمال كانت مصحوبة ، خلال بعض الوقت ، بساوك لا إنساني ، كان مشيناً لكل الأوربيين ، وبخاصة في آسيا . وحصل البرتغاليون بنوع خاص ، وعلى كل البحار ، ونقطة الطريقة التي كان البحارة البرتغاليين يعاملون بها خصومهم ، سواء أكانوا من القراصنة أو لم يكرتوا ، على سمعة أنهم أكثر المتبربرين من بين الشعوب المتحضرة . ولذلك فإن كلمة ومغامرات ، تصاح لمعاملاتهم أكثر من كلمة «خزوات» وهي العمليات التي قادت بها هذه المجموعة الخاوة العادة ، من ذلك الشعب الصغير ، والذي تمكن رغم قلة عدده — يزيد قليلاً على مليون من الأهالي في ذلك الوقت — من أن يجعل اسمه معروفاً ، ومهاباً ، في فترة نصف قرن ، وحتى نهاية العالم المسكون .

وعلينا أن نلاحظ هنا ، من ناحية أخرى ، أن الاتجاه التجاري الماركانتي الذي كان يوجه الفزاة الأول ، لم يكن يستبعد الرغبة في العمل من أجل مجد المسيحية عن طريق كسب أنصار جدد لها . ويمدح أحد الإسبانيين من هذه الفقرة فاسكو داجالفا وأتباعه على أنهم قد « فتحوا أمام المسيحيين طرق البحر ، وأمام الكفار طريق الصلوة » . وهذا المنح لا يطبق إلا على الجهود التي بذل

في البلاد غير الإسلامية . ونعرف أنه يصعب على الوعظ المسيحي أن يتوغل في العالم الاسلامي : وهدف المجهود البرتغالي مجرد أن يقطع علاقات المسلمين ببلاد التوايل . وفي بلاد الهند الشرقية والقرية لم تواجه عملية التتصير بمقبات مشابهة ؛ فاستمروا في القيام بطريقة تلقائية ، وفي غالب الأحيان عن طريق الإرغام ، وفي أشكال مختلفة تبعاً للناطق . ومنذ عام ١٤٩٩ أعطى مرسوم بابوي لملك البرتغال ملكية Patronat كل الأقاليم الافريقية التي أقام البرتغاليون فيها . إمتد هذا الإمتياز في عام ١٥١٤ إلى تلك الأقاليم التي تقع فيما وراء رأس بونجادور ونون ، وحتى الهند ، ثم إلى كل الأقاليم التي سوف يتم غزوها بعد ذلك وكانت فترة الازدهار الكبير في عمليات التنصير هي فترة أواسط القرن ، وعين قامت جماعة الجوزيت بأخذ هذه العملية في أيديها .

وسمحت إقامة البرتغاليين خلف بلاد الإسلام بدخول إحدى البلاد ، التي لم يكن العالم يعرف الكثير عنها ، إلى مجتمع الدول المسيحية ، وبعد إقطاع منذ قرون ، حتى أن العصور الوسطى اعتقدت أنه يمكن اعتبارها بلاد ديو حنا الراعي ، الشهيرة في القصص : وهي الحبشة . وكانت كنيسة إثيوبيا تمثل جزءاً من الكنيسة القبطية ، وكانت قد انفصلت بأهلها على حضاب الامهرة المرتفعة . وكانت كثيرة الإضطدام بعداوة الأهالي المجاورين وسين إنتشرت أنباء نجاح البرتغاليين في المحيط الهندي ، أرسل التجاشي سفيراً إلى لشبونة لكي يقترح تحالفاً ضد المسلمين . ولم يجب أحد على هذا العرض ، خاصة وأن البرتغاليين كانوا يتمتعون بالبحر قبل أي شيء آخر ، ولم يكن للحبشة واجهة على البحر . ومع ذلك فإن العلاقات التي بدأت في عام ١٥٢٠ لم تنقطع ، وفي عام ١٥٤١ بدأت قوات برتغالية لمعونة الأحباش ضد السلطان المجاور ، في الصومال . كما أن الكرسي البابوي في روما إهتم بهؤلاء المسيحيين الذين يعيشون في عزلة : ألم

يكونوا يقبلوا ، في مثل هذه الحالة ، أن ينضموا إلى روما ؟ وحصل بعض
الجزويت البرتغاليين ، الذين إختيروا للعمل هناك ، على إذن بالإقامة .
وسيقوموا خلال فترة ثلاثة أرباع قرن بالوعظ من أجل المنهب الكاثوليكي .
واعتقدوا في قرب نجاحهم ، ولكن الموقف تغير فجأة ، في عام ١٦٢٣ ، وأجبرهم
على ترك البلاد .

ولقد أعطى التوسع الأوربي ومنذ بدايته — التوسع الأيبيري — نتائجه
الأكثر أهمية في ميادين أخرى ، وبخاصة في الميدان الإقتصادي .
فن جانب الهند الغربية ، إحتاج المعمرون من وقت مبكر لليد العاملة
السوداء من أجل العمل في مزارع قصب السكر والقطن . وكانت تجارة الرقيق
الأسود موجودة قبل فترة الاكتشاف الكبرى ، ويمارسونها إما عن طريق
المسلمين في الأندلس وإما عن طريق البنادقة ، الذين كانوا يزودون بعض
بلاد البحر المتوسط بالعبيد القادمين من منطقة النيجر عبر الصحراء وبلاد
شمال إفريقية . ولكن البرتغاليين أعطوا هذه التجارة توسعاً لم تشهده من
قبل . فاصبحت جزيرة سان تومي ، على ساحل غامبيا ، بالنسبة إليهم ومنذ
بداية القرن ، المركز الرئيسي لتجارة العبيد . وخلال فترة من الوقت ، كانوا
ينقلون الزنوج إلى جزر الأنتيل فقط : أما في البرازيل ، فقد فضلوا في أول الأمر
استخدام الأيدي العاملة من الوطنيين . ولكن سرعان ما تأكدوا ، في كل مكان ،
من ضعف المقاومة الجثائية عند الهنود الحمر . وساد الاعتقاد في أن عمل أحد
الزنوج يساوي عمل أربعة من الهنود . ولذلك فإن تجارة الرقيق قد ازدهرت
منذ قبيل وسط القرن . وسيفتد بدأت تلك العملية الضخمة لنقل السكان ، وهي
من أكبر العمليات التي ذكرها التاريخ ، وكانت عبارة عن نقل مستمر للبداء
خلال عدة قرون بين إفريقية وأمريكا .

ومن الرجال نمر الآن إلى السلع وإلى النقود. ولما كانت تجارة التوابل قد غيرت طرقها صوب لشبونة ، فإن نشاط البندقية قد أصيب إصابة خطيرة . وأدى ذلك إلى أن تموت ، شيئاً فشيئاً ، تلك التيارات التجارية التي كانت البندقية تشعها ، عبر جبال الألب ، صوب وسط القارة وقرب عام ١٥٤٥ ، وحين بدأ في يور إستغلال مناجم بوتوسي ، وهي أكبر وأغنى مناجم عرفها العالم ، بدأت كميات الفضة التي تصل إلى إسبانيا ، في الانتشار سريعاً فيما وراء حدودها. وبعد أن كانت أوروبا قد إشتكت من نقص المعادن النفيسة ، أصبح لديها أكثر مما تحتاجه . وقاست بدرجة أكبر من زيادة وفرة هذه المعادن عما قاسته من نقصها . وكان الارتفاع العام للأسعار ، والذي نتج عن ذلك ، وبدرجات متفاوتة ، مصدر خوف للدول والأفراد أثناء كل النصف الثاني من القرن السادس عشر .

وكانت قوة الشراء ، التي ليس لها مثيل ، والتي حصل عليها سكان شبه جزيرة أيبيريا ، وبصفتهم مسيطرين على سوق الذهب والفضة في نفس الوقت الذي يسيطرون فيه على سوق التوابل ، يجذب اليهم السلع من كل البلاد . وأصبحت شبه الجزيرة مركزاً يستوى كل التجارة الأوروبية . وعمل ارتفاع الأسعار في نفس الاتجاه . إذ أنه كان ، بطبيعة الحال ، قد بنا فيها : أما في البلاد الأخرى ، فإنه كان أقل وضوحاً ، وكان أكثر تأخرأ ، زمنياً ، بنوع خاص . ونتج عن ذلك لاختلاف واضح بين الأسعار التي يمارسون بها البيع والشراء في الدول المختلفة . وكان الأمر ملوساً بصفة خاصة في شرق وفي شمال القارة ، إذ أن موجة ارتفاع الأسعار كانت تنتشر ببطء ابتداء من الجنوب الغربي . وهذا يشرح ، جزئياً على الأقل ، تلك الأهمية التي حصلت عليها ، قرب نهاية القرن ، تجارة البلاد المطلة على بحر البلطيق مع إسبانيا ودول البحر المتوسط ، وبخاصة تجارة المنيوب .

وهذه التجارة سوف يستول عليها الهولنديون في نفس الوقت الذي يستولون فيه على تجارة التوابل .

ولم تكن التجارة مع البلاد البعيدة تشتمل على مزايا فقط. ذلك أن الآسيويين كالوا من المغرمين بجمع الكنوز وبدا ، في الربع الأخير من القرن ، أن الشرق الأقصى كان قد أصبح ، وعلى حد قول أحد المؤرخين ، مقبرة أو مدفن المعادن النفيسة . فذلك العملات التي كانت ترسل إلى الفلبين لدفع أثمان المشتريات التي تتم على القارة — وبخاصة من الحرير — لم تكن ترجع أبداً . وبعد فترة من الزمن ، وفي السنوات الأخيرة من القرن ، اضطر فيليب الثاني إلى أن يحد من تصدير المعدن الأبيض ، والذي كان هو المعدن الوحيد تقريباً الذي يستعمل في التبادل مع آسيا .

الفصل الرابع

مشكلات البحر المتوسط

إن إسبانيا ، التي كانت في طريقها إلى الحصول على الطرق الرئيسية في المحيط ، هي كذلك إحدى الدول العظمى الرئيسية التي تهتم بالصراع الذي يحدث في البحر المتوسط . ولكنها لم تكن المرة الأولى ، وعلى الأقل في بداية القرن . وكانت قواتها البحرية مشغولة إلى درجة كبيرة في أماكن أخرى ، وبشكل لا يسمح لها بأن تمارس في البحر المتوسط عملاً حاسماً ، ولذلك فإن الدور سوف يتم بين البندقية والعثمانيين ، وهو الدور الذي يتوقف عليه مصير السواحل ، والجزر ، وإلى درجة ما ، مصير أوروبا كلها .

١ - البندقية والدولة العثمانية :

كانت البندقية تتمتع بأولوية ، وبدون نقاش ، في ميدان الشؤون البحرية . وبعدد سفنها — الحرية وسفن النقل — التي كان في وسعها أن تصفها ، كانت تتفوق ، ويكثر ، على منافستها القديمة ، جنوا ، وعلى عدوتها في كل وقت ، الإمبراطورية العثمانية . وفي بحر إيجة ، وعلى القارة ، وفي المورة ، كان قد وصل بها الأمر إلى موقف الدفاع عن نفسها ، وأخذت في التراجع والانحسار ، خطوة بعد خطوة . ولكنها كانت لا تزال صامدة في بحر الأدرياتيك ، وكانت تحتفظ بكل المواقع الهامة على الساحل الشرقي ، من سبالانو وزارا حتى الجزر الإيونية . وكانت تشعر ، هناك ، بأنها في أملاكها فكانت أشياءها ، وخليجها . وكانت تدعى أنها تحكم هناك ، وبفردتها . وكان هذا هو ما يدل عليه ذلك الإحتفال التقليدي « لتزواج » الزواج مع البحر . ذلك أن كل درج جديد

«تتخبط كان يركب سفينة فخمة ، يجهزها على حسابها ، وينهب بها إلى نهاية بحر البدو ، والذي يؤدي إلى أعالي البحر ، وهناك يلتقي بين أمواج البحر غاما ، أو حلقة . من الذهب ، قائلا هذه العبارة : « إننا نتزوج بك . أيها البحر ، كدليل على السيطرة الفعلية والدائمة ، وكان البنادقة يسمحون لأنفسهم حتى بأن يشعروا سيطرتهم عن طريق إجبار السفن ، التي تنافر بالدخول إلى بحر الأديرياتك دون الحصول على تصريح منهم ، بفرض الضرائب عليها . وكان جيرانهم الذي يمكننا أن نذكر من بينهم ، وفي أول مكان ، جمهورية راجوزة المستقلة والصغيرة ، ينحنون ، وغما عنهم » أمام هذا الطغيان الشامل .

وكانت البندقية ، القابضة وراء المياه الضحلة . نقاسى من مشكلات التكوين التي كان من نتائجها أن تضعها تحت رحمة أعدائها ، وكانت ممتلكاتها القارية — أو على الأرض الصلبة — قليلة الإحسان ، ولم تكن تكفي ، ومن بعيد ، باعطائها الحبوب التي كان شعبها الكبير يحتاج إليها . ورغم الغزوات المسائية ، فإنها لم تكف عن إحضارها ، وبالنسبة لـ « من جنوب روسيا ، أو من البلاد البلقانية . وكان منع التصدير ، في وقت الحرب ، يهددها بخاطر المجاعة . وكان هذا هو سبب الحذر الكبير الذي كان البنادقة يظهرونه في علاقاتهم مع القسطنطينية ، وحيث كانوا يحتفظون بأحد القناصل ، « البابل » ، والذي كان يعتبر مثلا دبلوماسيا دائما لهم هناك ، ولم يكن الاغراء يؤثر فيهم لكي تسيطر عليهم فكرة الحروب الصليبية ؛ فلم يعد لهذه الفكرة قواعد عندهم ، وكان أولئك الذين لا يجبرونهم بتهموتهم بأنهم قد اتفقوا مع المسائين (الكفار) . وكان الكرسي البابوي هو أولهم ، أو من بين الأولين منهم ، الذين وجها إليهم هذا الإنهام . وكانت هناك ، في حقيقة الأمر ، أسبابا خاصة للحق منهم : إذ أنه في متعلقة رومانيا ، المجاورة لممتلكات البندقية ، كان البابا يشكو باستمرار من اعتداءاتها ، وعلى حساب حقوق سيادته .

وكان لعمانيون أكثر تمودا على القيام بالحرب على البر من قيامهم بها على البحر ، وكانت جيوشهم أكثر تفوقا من أساطيلهم ، وكانت أكثر تدريبا ، وأكثر نزودا بالمدفعية ، ولذلك ، فإن تقدمهم في البحر المتوسط كان أكثر بطئا من تقدمهم على القارة ، وعند نهاية القرن الخامس عشر ، وفي الوقت الذي كانوا قد وصلوا فيه إلى نهر الساف والدانوب ، وإستلوا فيه على البانيا وحلباشيا ، وكانوا يحاولون فيه الاستيلاء على السواحل القربية ، من البنادقة . كانوا لم يسيطروا بعد إلا على جزء صغير من الجزر (كانت ناكسوس ، وأندروس تابعة لأسر من البندقية ، وكانت خيوس تابعة لأسرة من جنوا) . أما الجزر الأخرى الأكثر وقوعا إلى الجنوب . فكانت لاتزال مسيحية . فكانت رودس تابعة لجماعة فرسان القديس يوحنا ، وقبرص وكريت تابعة للبندقية . وإذا ما قاموا ببعض الحملات البحرية ، فإن الروح التي تحركهم كانت هي روح القراصنة أكثر من كونها روح النزاة ؛ فكانوا يهتمون بالقيام بمحملات سريعة على المناطق الساحلية ، وبنوع خاص في إيطاليا ، والتي كان يمكن العودة منها بالانتقام والأسلاب . وكانت الأقاليم التي يمثلونها في أوروبا درجة من الثروة وبشكل لا يجهلهم يشعرون بضرورة العمل على زيادة عدد هذه الأقاليم أو زيادة مساحتها ، وكان الانكشافية ، الذين يمثلون العصب الأساسي في قواتهم المسلحة ، جنود لهم مطالبهم ، ولا يحملون إلا بالنزو واللب ، وكان بقاءهم بدون عمل ينمى فيهم غرائز اضطراب خطيرة . وعلاوة على ذلك ، فقد كانت هناك الاحتياجات الداخلية للدول ، كما كانت هناك الميلو الخاصة بكل سلطان ، أو بكل صدر أعظم ، والذي كان يقرر ما يلزم بالنسبة للسياسة الخارجية ، وفي اتجاه السلم أو الحرب .

والإمبراطورية العثمانية ، رغم العناء ، من حيث المبدأ ، والذي كان يضمه

لها العالم المسيحي ، نجحت في أن تقبل في مجتمع الدول الأوروبية . فدخلت الدول العظمى ، الواحدة بعد الأخرى ، في علاقات معها ، من أجل المحافظة على مصالحها الخاصة . والكروسي البابوي ، والذي كان في منتهى القسوة مع البنادقة ، لم يحرم نفسه مع ذلك ، وحين كانت الفرصة تسنح ، من أن يستوحى من سلوك هذه الدول وقام كل من إنوسنت الثامن ، وإسكندر السادس بتحييد السلطان بايزيد بكل حكمة . باستقبالهم في روما أخاه جم ، والذي كان فيما مضى منافساً خطيراً له ، والذي لم يكن قد تخلى عن كل أطماعه في السلطنة . ولما كان بايزيد يخشى من روية عودته في الشرق ، فإنه حصل من البابا على أن يحتفظ به عن قرب . ودفع معاشاً سنوياً للاحتفاظ به . وبهذه الطريقة تمكنتا من أن نرى ، في عام ١٤٩٠ ، ولأول مرة ، سفيراً عثمانياً يستقبل في الفاتيكان . ولم يتوقف إسكندر السادس في هذا الطريق . بل لقد وصل به الأمر إلى أن يوصي السلطان بمصالح ملك نابولي ، والتي كانت مشروعات شارل الثامن تهددها .

أما الفرنسيون فإنه لم يعد لهم ، في البحر المتوسط ، ذلك المكان الذي كانوا يحتلونه وقت الحروب الصليبية . وكانوا قد تركوا قوتهم البحرية تنهار . واضطر شارل الثامن ، من أجل أن يتمكن من تموين جيشه في نابولي ، إلى أن يستعير بعض السفن من أبناء جنوا ، ومن البرتغاليين . أما التجارة البسيطة التي كانت موجودة مع الخارج في موانئ لانجدوك وبروفانس فإنها كانت في أيدي البنادقة . أما ألبج مورت ، فإنها بدأت في فقد مكانتها ، وفي صالح مرسيليا ، التي كانت قد انضمت إلى المملكة منذ وقت قريب .

٢- مصر وشمال إفريقيا - الجهاد البحري :

بينما كانت المحيطات تفتح أمام الغزاة الجدد ، استمر البحر المتوسط في أن

يكون ، كما كان دائماً ، صلة ربط بين سكان السواحل المهلة عليه ومركزاً كبيراً للمبادلات الدولية . ومع ذلك فإنه مال ، أكثر عما سبق ، إلى أن يصبح ميداناً للمعارك . وكان إندفاع نشاط رجال الجهاد البحري من شمال إفريقيا يساعد على تقليل أهمية الأنشطة السلية .

وكان رجال شمال إفريقيا قد احتفظوا دائماً في موانئهم ، وبخاصة في بجاية ، بسفن خفيفة ، كانت مهمتها أن تقوم بإبعاد سفن المسيحيين ، وعاربهم . ولقد زاد عدد رجال البحر ، والجهاد البحري بنوع خاص عند السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر ، كنتيجة لسقوط غرناطة . وكان أولئك المغاربة الذين إختاروا أن يتركوا الأرض الاندلسية قد التجؤوا إلى السواحل القريبة منهم . واستمر الكثيرون من بينهم في الكفاح ضد العدو التقليدي ، وذلك بتعقب سفن التي تسافر في البحر ، وبمحاولة إنقاذ الباقين من بينهم ، والذين خرجوا من ديارهم . وتقبهم الاسبان في سفنهم . وقاموا علاوة على ذلك بتنظيم هجمات على سواحل شبه الجزيرة الأيبيرية (١) . وحين ظم بعض رجال الجهاد البحري ، من أصل هثاني ، بتدعيم تمركزهم في الجزائر ، في عام ١٥١٦ ، التجأ اليهم الكثير من البحارة ورجال الجهاد البحري من المراتي والسواحل المجاورة . ونشأت دولة جديدة قوية بامكانياتها البحرية ، وأنشأت أسطولا جعل منها دولة عظمى بحرية ، في البحر المتوسط . ولقد طلبت وحصلت على إنضمامها إلى الدولة العثمانية ، وأصبحت العصف الأول في خط النار للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر

(١) لزيادة الاطلاع أنظر : هـ. جلال يحيى : العرب الكبير ، الجزء الثالث ، الجلد

الأول ، الباب الأول .

الإسكندرية ، الدار القومية ، ١٩٦٦ .

المتوسط . وظلت في هذا الاتحاد معا ، ومن أجل الجهاد ، لمدة ثلاثة قرون ، حتى وإن كانت سيادة السلطان العثماني قد أصبحت أسمية في بعض الفترات .

وكان ظهور هذه الدولة على السواحل الإفريقية ، وبصفتها قوة بحرية ، يثير خوف وحقد المتطرفين من بين المسيحيين . فبعد أن طردوا المسلمين من الأندلس وجاء رد الفعل هذا ، وجدوا أن أمن ملاحظتهم قد اضطرب في البحر المتوسط . وانتشرت الهجمات والاضربات في كل مكان . وزاد عدد الأسرى من المسيحيين في مدن طرابلس ، وتونس ، والجزائر . وكانت على هؤلاء الأسرى أن ينتظروا قيام أقربائهم بدفع الفدية المحددة لكل منهم ، أو أن يقرم رجال الدين ، من آباء الرحة ، بالمجىء والقيام ببعض عمليات الشراء الجماعية من بينهم . أما الأسرى من المسلمين ، فكانوا يجبرون على التجديف في سفن الدول المسيحية ، وكانت كل دولة تحتفظ بعدة آلاف منهم ، وترفض مبادلتهم بالأسرى المسيحيين ، إذ أنهم كانوا لا يمكن الإستثناء عنهم بالنسبة لهذه الأساطيل .

وفي الوقت الذي كان العالم المسيحي يشعر فيه بضرورة الوصول إلى وحدة كلمته ، واتحاد قواه ضد المسلمين ، كان يجد نفسه منقسما على بعضه ، وأكثر من أي وقت مضى . أما أولئك الذين كانوا ، في الماضي ، يقدمون الحملات الصليبية أكبر عدد من اليهود ، فأنهم كانوا يقيسون قوتهم ضد بعضهم في حروب لا تنتهي من أجل السيطرة على إيطاليا . ولذلك فإن البندقية لم تتمكن من أن تعتمد على أية معونة حين هاجمها العثمانيون في عام ١٤٩٨ . وكان من الضروري أن يتوغل الغزاة ويصلون حتى أسوار البندقية ، لكي توافق روما على أن يصيهاا التلق . وعندئذ صدر النداء التقليدي بضرورة القيام بحرب صليبية ، ونجاوبت أصداءه نواحي العالم الغربي المسيحي . وكان ملك واحد وهو ملك فرنسا ، هو الذي انتهى

به الأمر إلى الاستجابة لهذا النداء . وفي عام ١٤٠١ ، شارك الأسطول الذي أرسله لوى الثانى عشر فى الهجوم الفاشل على ميقلين ، عاصمة جزيرة ليسبوس . وكانت هذه هى المحاولة الأخيرة للقيام بحرب صليبية ، قبل هبة ١٥٧٠ وموقعة ليبانتو . وكذلك فى عام ١٥١٦ وعد فرانسوا الأول البابا ليون العاشر بالقيام بصملة صليبية . وقاموا باستعدادات ضخمة فى ممتلكات روما . ولكن الظروف المضطربة فى ذلك الوقت شلت كل نية حسنة للعمل .

وسعى ذلك الوقت ، كان العثمانيون يشقون قطع ، وفى البحر المتوسط ، مع البنادقة ، ومع ممتلكاتهم . وكانت الحرب التى إنتهت فى عام ١٥٠٣ قد أعطتهم مودون ، وكورون ، وهما قاعدتين هامتين فى شبه جزيرة المورة . ولكنهم سيتجهون فى عهد سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) صوب الجنوب . وسيحصون هناك على نجاح ضخم : بشرد مصر ، وفرض حمايتهم على الجزائر .

وكانت حكومة مصر مستقلة ، وتحت حكم سلاطين المماليك . وكان العثمانيون والمماليك قد تواجعا من قبل ، فى عام ١٤٨١ ، وفى عام ١٤٩١ ، ولكن بدون نتيجة حاسمة . وبدأ الصراع النهاى فى عام ١٥١٦ . ومات السلطان الفرعى فى موقعة مرج دابق التى فتحت أمام العثمانيين أقاليم الشام . ولم تعد هناك مقاومة ممكنة من جانب المماليك إلا قرب القاهرة . وأصبحت مصر ، وأقاليمها التابعة لها من أقاليم الدولة العثمانية (١) . كما خضعت بلاد العرب ، والحجاز ، مع مدن مكة

(١) تربية الاطلاع أنظر :

د. جلال يحيى : مصر الحديثة . الجزء الاول (١٥١٧ - ١٨٠٠) .

الإسكندرية ، منشأة الماروف ، ١٩٦٨ .

والمدينة ، لسيادة السلطان . وأصبح السلطان العثماني يعين أحد الباشاوات ، من إستانبول ، لحكم مصر .

وأصبحت سواحل البحر المتوسط هثمانية ، في ثلثيها : ومن بين كل البلاد الإسلامية ، واحتفظ المغرب وحده ، وبكل غيرة ، باستقلاله . وكان المغرب منقسما على نفسه إلى إمارات وسلطنات . ولكن سرعان ما يقوم بتوحيد بلاده تحت حكم أسرة جديدة أتت من الجنوب ، وهي أسرة الشرفاء السعديين .

وكان البرتغاليون قد وضعوا أقدامهم في المغرب منذ أواسط القرن الخامس عشر . وكانوا قد إستلوا أولا سبتة ، المواجهة لجبل طارق ، ثم أصيلة ، وطنجة ، والرائش . وفي السنوات الأولى من القرن السادس عشر ، استقروا في مواقع مختلفة على سواحل المحيط الأطلسي ، وحيث نشأت ، من بعد مدن أغادير ، وموجادور . وكان إنشاء قلعة في آسفي ، في عام ١٥٠٧ ، يمثل نهاية نجاحهم . أما أولئك الأسبانيين الذين تولوا بعدهم على سواحل المغرب ، فإنهم إستمروا لعدة سنوات أخرى . وكانوا مرتبطين معهم بماهدة ١٤٩٧ ، فلم يتدخلوا في المغرب ، الذي احتفظ به جيرانهم لأنفسهم ، ولكنهم تدخلوا إلى الشرق أكثر من ذلك . وكانت مليلة ، منذ عام ١٤٩٧ ، هي أول مركز *Presidio* لإفريق لهم . ثم كان بعد ذلك المرسى الكبير في عام ١٥٠٥ ، وهران في عام ١٥٠٩ ، وبجاية وطرابلس في عام ١٥١٠ . ولكي يرهبوا رجال الجزائر قاموا في عام ١٥١٥ ببناء قلعة في الجزيرة الصغيرة القريبة من الساحل ، والتي تتحكم في مدخل الميناء ، ووضعوا حامية إسبانية فيها . وعندئذ دعا أبناء الجزائر ، ورجال الجهاد البحري ، المجاهد البحري عروج لتولى السلطة في الجزائر . وكان عروج من

رؤساء البحر المجاهدين ، وكانت قاعدته في جزيرة جربة ، على الساحل التونسي ، وكانت له مراكز في جيجل ، في المغرب الأوسط .

وبضربة سريعة ، قام عروج بالاستيلاء على تلسان ، عاصمة سلطنة صغيرة في الداخل ، وقرب حدود المغرب الأقصى ، بعد أن كانت قد قبلت الحماية الإسبانية عليها . ولكنه قتل في معركة مع حامية وهران الإسبانية قرب تلسان . وتولى أخوه خير الدين ، المعروف بأسم يراروسا (أى ذى الحية الحمراء) السلطة من بعده . ولكي يتمكن من الوقوف في وجه الأسبانيين ، إستجند بالدولة العثمانية ، وعلى أساس إتحاد الجزائر معها في جهادها الاسلامى ضد الدول المسيحية . وحصل على لقب بككريك (أى بك البكوات) ، الذى جعله ممثلا للسلطان في كل أقاليم شمال إفريقيا . وكانت الصعوبات تواجهه في أول الأمر . ولكنه تمكن في عام ١٥٢٠ . من أن يمرر مدينة الجزائر بجيش أتى به من الداخل ثم أعاد المدينة إلى سلطته في عام ١٥٢٥ . وفي عام ١٥٢٩ فشلت أساطيل شارل الخامس في منع الجزائريين من الاستيلاء على الجزيرة الصغيرة المواجهة للساحل ، وعدم الحصن الذى بنى عليها . وكان هذا الفشل الذريع من جانب الأسبان لا يمكن علاجه .

وبينما فشل الامبراطور بهذه الطريقة فى إحتواء وفى ضرب قوة أخطر رجال الجهاد البحرى فى شمال إفريقيا ، نجح على العكس من ذلك فى تدهيم السيطرة الإسبانية على شبه الجزيرة الإيطالية لفترة طويلة .

وكان مصير جنوا هو الذى قرر الأمر . فكانت جنوا ، كدولة فقدت قوتها ، لا تزال تحتفظ بأساطيلها ، التى كان فى وسعها أن تعاون أولئك الذين كانوا يرغبون فى تدهيم الموقف فى الحوض الغربى للبحر المتوسط . ومنذ عام

١٤٩٩ ، كانت هذه الجمهورية قد دخلت في مجموع عملاء ، أو حتى التابعين لفرنسا . وبين قام الاسبانين بالاستيلاء عليها ، في عام ١٥٢٢ ، قام أمير البحر الشهير ، أندريا دوريا Andria Doria ، بالعمل لحساب فرانسوا الأول ، مع السفن التابعة له . واستمر لمدة ست سنوات في خدمة المصالح الفرنسية في إيطاليا : فكان يحارب ضد الاسبانين ، دون أن يتوقف عن محاربة أعدائه التقليديين ، ريجان الجهاد البحري في شمال إفريقيا . ثم ترك نفسه ، في عام ١٥٢٨ ، يخضع لإغراء هروم . شارل الخامس : ودخل في خدمته . ونتيجة لتأييد وتدعيم السفن الحربية الخاصة بجنوا ، أصبحت الأساطيل الاسبانية تسيطر منذ ذلك الوقت على كل الطرق البحرية المؤدية إلى إيطاليا . وكان هناك جيش فرنسي ، بقيادة لوتريك Lantrec يحتفظ بتايولي المحاصرة ولكنه اضطر إلى الانسحاب ، وأول به خسائر فادحة في أثناء عملية التمهق .

وكان تحول أندريا دوريا يمثل منطف واضح في تاريخ الحروب الإيطالية . وسمح دوريا لفرانسوا الأول بالبقاء في بعض مواقع شبه الجزيرة . وقال برانوم Bratome : « ما دام في خدمته ، فإن الملك كان سيد البحر ، بنفس درجة سيادة الامبراطور ، ومنذ ذلك الوقت ، وربما بدرجة أفضل : إذ أن من لا يسيطر على جنوا ، ويوجد على البحر لا يمكنه أبدا أن يحكم إيطاليا . ولكي يعيدوا إصلاح الأوضاع التي تأثرت ، كان من الضروري أن يجدوا في مكان آخر تلك القوات البحرية التي لم تكن موجودة عند المملكة ، ولم يكن في وسعهم أن يلتجئوا إلا القسطنطينية أو إلى الجزائر : فالبنديقية التي كانت أراضيها في فريول ، تجاور أراضي الهابسبورج ، لم يكن في وسعها أن تقاتل بإغضب الامبراطور . وكانت هناك بعض اتصالات قد تمت بين فرنسا وبين السلطان .

وزادت في عددها بعد عام ١٥٢٩ . ورأى خير الدين باشا في نفس الوقت بدأ مفاوضات معه ، من جانب الدبلوماسية الفرنسية : ووافق في عام ١٥٢٤ على عقد هدنة لمدة ثلاث سنوات . وفي العام التالي ، حصل السفير جان دي لا فورست Jean de La Forest على الوعد ، الذي طال إنتظاره ، بتعاون العثمانيين وأنباعهم من رجال شمال افريقية ضد الاسبانيين . ومن ناحية أخرى ، لم يكن هناك تحالف رسمي . فكانوا لا يرضون فيه ، من هذا الجانب أو ذاك ، والأسباب معنوية ، يسهل معرفتها ؛ وكان من الواجب عدم وجوده أبداً . ولكن هذا الامر لم ينقص من ضخامة هذا النجاح بالنسبة للفرنسيين ، حتى فيما يتعلق بأنهم من يصطدموا بعد ذلك بعداوة الأساطيل الإسلامية ، وبأنهم سيحصلون على تأييد هذه الأساطيل لهم في الوقت المناسب . وسترى ، في أثناء الحرب الجديدة بين فرنسا والإمبراطورية ، والتي بدأت في عام ١٥٣٦ ، ولأول مرة ، أن السفن الفرنسية تشترك مع سفن رجال البحر الجزائريين في الهجوم على جزر البليارد وعلى سواحل إسبانيا .

وكان السلطان العثماني ، سليمان ، قد عين خير الدين قبطان باشا أى قائداً عاماً على أمراء البحر في الإمبراطورية العثمانية ، وذلك وقت زيارته لإستانبول في عام ١٥٢٣ . وتبعاً لتوجهات خير الدين باشا ، زادت قوة الاسطول العثماني . وكان أمره الكبير يتمثل في أن يسيطر على تونس ، وتمكن من تحقيقه في عام ١٥٢٤ . وكان الموقع في منتهى الأهمية ، وكان رد الفعل مباشراً ، وقبل أن يمر عام على ذلك ، قام شارل الخامس على رأس حملة أعادت سلطان بنى حفص المزعزوع إلى سلطنته . وترك حامية إسبانية في حلق الراد . لكي تدافع عنه . وكان هذا النجاح الكبير هو أول نجاح يحرزه الإمبراطور على رجال البحر في شمال إفريقيا . ولم تسنح له أية فرصة لقياس قوته بقوة العثمانيين أنفسهم .

٣ - العثمانيون والاسبان :

عرفت القوة العثمانية ، في عصر السلطان سليمان ، نشاطاً لم تعرفه من قبل . وكبدية العملية ، قام السلطان الجديد باستيلاء على رودس . وتمكن بمساعدة سفن الأسطول المصرى من أن يسيطر على عاصمة جماعة الفرسان بمدحصار دام مدة ستة أشهر (١٥٢٢) . ووجدت الجماعة ملجأ ، ونتيجة لكرم شارل الخامس ، في إحدى الجزر شبه المهجورة ، والتي كانت تابعة لمملكة نابولي ، في مالطة ، وحيث ظلت موجودة لفترة تقرب من ثلاثة قرون . وفي أثناء السنوات التالية ، وبينما كانت جيوش سليمان تغزوا المجر ، وعبرت مرتين الحدود النمساوية ، إمتنعوا عن القيام بأية مشروعات جديدة على البحر . وبعد ذلك ، وإبتداء من عام ١٥٣٧ ، إنتهت فترة العمليات الكبرى على القارة ، ونشطت جبهة البحر من جديد . ومرة جديدة نجد أن الدولة العثمانية تحاول التوسع على حساب البندقية . وتمثل المرحلة الرئيسية للمعركة في لقاء ، عند مدخل خليج آرنا ، وأمام قلعة بريفيزا (٢٧ سبتمبر ١٥٣٨) بين القوات العثمانية وقوات شمال إفريقيا من جانب ، وقوات البندقية التي تساعدها بعض وحدات من البابوية والإمبراطورية ، من الجانب الآخر . وكان إندريا دوريا هو قائد المسيحيين وإضطروا إلى أن ينسحب من أمام خصمه العتيق ، خير الدين باشا ، وإضطروا البنادقة إلى التفاوض في عام ١٥٤٠ ، وتخلوا عن المواقع الأخيرة التي كانت قد بقت لهم في الأرشيبيل (باثموس ، سيما ، باروس وغيرها) ، وفي المودة (توفلى ومونغاسيا) .

وفي هذا الوقت كان فرانسوا الأول قد تصالح مع شارل الخامس ، أو إعتد في ذلك على الأقل . وإحتفظ بنفسه ، وعصمته ، بعيداً عن هذا الصدام بين العثمانيين والبنادقة ، إن لم يكن ذلك بهدف التدخل كوسيط بينها . ولكنه وجد نفسه ، منذ عام ١٥٤٢ ، في حرب مرة أخرى ، والحربة الرابعة . وكانت هذه فرصة تسمح

لاصدقاته المجدد بأن يظهر ما يقدرون عليه . وفي العام الأول ، قاد خير الدين باشا بعض السفن الحربية إلى ساحل بروفانس . ثم قام بجيش وأسطول عثمانيين ، ودائماً تحت قيادة خير الدين باشا ، في شتاء ١٥٤٣ - ١٥٤٤ ، بالاشتراك في الاستيلاء على نيس ، والتي كانت تابعة لساقل ، ثم جاهدوا للأقامة في طولون . وظلت المدينة ، التي كانت قد أخذت مسبقاً من كل سكانها ، تحت تصرفهم خلال بضعة أشهر ، أمام دهشة كل العالم المسيحي . وتم التوصل إلى الصلح في عام ١٥٤٤ ، ولم تتجدد مثل هذه الظاهرة الخاصة برفقة الأسلمة الفرنسية والعثمانية بعد ذلك .

وفي إفريقية ، استمر الصراع بين الأسبانيين وبين رجال المغرب الإسلامي . وساول كل من الخصوم أن يسجل ، بدوره ، بعض النقاط . فالإمبراطور ، وبعد إعادة غزو تونس ، اعتقد في أنه من الممكن فصل خير الدين باشا عن السلطان سليمان ، ووضع اتفاق إسباني إفريقي في مواجهة نظام فرانسوا الأول من سليمان . وتفاوض بطريق غير رسمي في هذا الاتجاه ولمدة عدة سنوات . وسين تبين عدم جدوى جهوداته ، قرر أن يفيد من الصلح المقود مؤقتاً على القارة من أجل العمل على الاستيلاء على مدينة الجزائر . ولكن العملية التي بدأت في الخريف ، فشلت (١٥٤١) . وبعد عشر سنوات ، كانت مسألة إفريقية ، أو المهدية ، وكان هذا الموقع الحصين من الساحل التونسي في أيدي طرغوت ، أحد أمراء الجهاد البحري ، والذي كان يتخذ جزيرة جربة ، مثله في ذلك مثل عروج ، قاعدة له . وكان يحظ أنديرا دوريا هنا أحسن منه في تونس : فاستولى على الموقع بسرعة . ولن يمر وقت طويل قبل أن يقوم باخلائه ، وهدمه ، بأمر من شارل الخامس . وفي العام التالي سيتمكن خليفة خير الدين باشا من إخضاع حاكم تلسان ، الجزائر ، بعد أن كان يدفع الجزية لاسبانيا . ويمكن من الاستيلاء على بجاية في

عام ١٥٥٥ وقضى على أحدا لجيوش الاسبانية عند مستغانم في عام ١٥٥٨ :
وظلت فرنسا في عهد هنري الثاني ، وكما كانت عليه في عهد فرانسوا الاول ،
مرتبطة بالصدقة مع الدولة العثمانية . ورغم أنها كانت ، للمرة الأولى منذ بداية
القرن ، قد أخذت في بناء عدد كبير من السفن ، إلا إنها استمرت في الاستعانة
بالأساطيل العثمانية . وكانت الحرب الجديدة ضد شارل الخامس ، وهي الأخيرة ،
والتي بدأت في عام ١٥٥٢ بالاستيلاء على ميژوتول وفردان ، تشمل على مجموعة
من العمليات في البحر المتوسط وكان هناك عدم تجاوب في أثناء العام الأول منها :
ذلك أن الأسطول الفرنسي المكلف بالتعاون مع العثمانيين عند سواحل إيطاليا ،
وأخذ في البحث عنهم لفترة طويلة . ثم تقابل معهم بعد ذلك عند الجزر الايونية ،
قرر أن يقضى فصل الشتاء في جزيرة خيوس . وفي عام ١٥٥٣ توجهت كل
القوات التي أعيد تجميعها حول جزيرة كورسيكا ، وكانت من أملاك جنوا ،
والتي تم الاستيلاء عليها في مدة شهر . وكانت هذه العملية تدل على نجاح عمليات
مشتركة ، ومع ذلك فإن طرغوت كان يشك من أنه لا يقدر على القيام بالعمليات
كما يرضى ؛ وكان قد أصبح قبطاناً باشا بعد خير الدين . وسجن عاد إلى الظهور
من جديد ، في عام ١٥٥٥ ، انسحب بعد بضعة أسابيع . وكذلك في عام ١٥٥٨ ،
وللمرة الأخيرة قبل عقد الصلح ، حضر اسطول عثماني هام في زيارة ودية لميناء
طولون ، ولم يتم أية عملية حربية .

ومع صلح كاتو كامبريسيس (١٥٥٩) انتهت مرحلة من مراحل تاريخ البحر
المتوسط وتاريخ القارة الاوربية . واضطر الفرنسيون إلى إعادة كورسيكا لجنوا
وأصبح الاسبانيون هم سادة شبه الجزيرة . وكانوا يسيطرون ، في غربها ، على
كل المواقع البحرية الهامة : صقلية ومرديفيا ، ومملكة نابولي ، ومراكو توسكانيا .
وكانوا قد أصبحوا أحراراً في حركاتهم بعد الصلح ، وفي وسعهم بدء الهجوم

مُند البلاد الإسلامية العُثمانية . وجاء دورهم لنفخ قواعدهم إلى نقاط أبعد ، وفي اتجاه السواحل الممادية لهم .

وقام فيليب الثاني بالبدء في استعداداته منذ اليوم التالي للتوقيع على الصلح . وكان قد قلق من التهديد الذي يحوم حول نابولي . وكان فرسان القديس يوحنا قد قاموا ، في عام ١٥٥١ ، بصد إحدى الهجمات . ولكنهم فقدوا طرابلس . والتي كان شارل الخامس قد أعطاهم لهم ، في نفس الوقت الذي أعطاهم فيه مالطة . وعين السلطان سليمان ، طرغوت باشا والياً على طرابلس . فقام فيليب الثاني بإرسال أسطول ، في عام ١٥٦٠ ، ضد طرابلس ، وكان يضم سفناً إسبانية ، وبابوية ، ومن جنوا ، وفلورنسا ، ونابولي ومالطة . ومع ذلك فإن الأمن لم يتطور إلى ما هو أبعد من ذلك ، خاصة وأنهم وجدوا أن طرابلس تتمتع بنظام دفاعي قوي . فعادوا بعد ذلك صوب جربة ، والتي نزلوا إليها دون عناء كبير . وجاء الاسطول العثماني بجأة : فقتل على النزاة ، وهم متفرقون ، قضاءاً تاماً .

وبدا أن الملك الكاثوليكي كان يرغب في الإفادة ، ويتعلم من هذه الكارثة : فأعطى كل صناعته ، ولفترة من الوقت ، لعملية إنشاء السفن . وقام في عام ١٥٦٤ بالاستيلاء على الجزيرة الصغيرة المواجهة لميناء الحسيمة . وفي العام التالي ، وجه الاسطول العثماني هجوماً جديداً على مالطة ، وتمكن من الاستيلاء على بعض المواقع فيها ؛ ولكن شرعان مظهر أسطول إسباني ، وأبحر العثمانيون على الانسحاب . وانتشر في هذا الوقت اسم دي لا فاليت ، رئيس جماعة الفرسان ، وكان فرنسياً ، وهو الذي أشرف على عمليات الدفاع . وجه السلطان سليمان جهوده إلى ما بقي من جزر الإرجيل في ملكية أسر البندقية ناكوسو وأندروس (أو أسر جنوا (خيوس) ، وضمها إلى السلطنة . ثم أرسل أسطولاً إلى بحر الادرياتيك ، بحيث

قام بهجمات عديدة على سواحل نابولي، وإن كانت الحماير قد ظلت بسيطة.

ولقد قام سليم الثاني، ابن السلطان سليمان وخليفته، بتحويل مجهوده صوب قبرص، القريب منه. وفتح بذلك أزمة خطيرة بالنسبة للدولة العثمانية. ذلك أن البندقية لم تكن وحدها في هذه المرة، بل لقد كانت متحالفة مع إسبانيا، خاصة وأن ثورات الموريسكيين الأخيرة كانت تلتقي تشجيعاً من إسبانيول. حقيقة أنه كان هناك شك، وحتى آخر وقت، في إمكانية إتمام الوفاق بين هاتين الدولتين، اللتين كانت مصالحهما تتعارض في الحوض القريب البحر المتوسط، والتين كانت كل منهما تنظر إلى الأخرى بعين شدة واضحة. وكتب سفير فيليب الثاني في باريس في بداية المفاوضات أن الفرنسيين كانوا يأملون في عدم نجاح المفاوضات، وكانوا يعتقدون أن البنادقة سيكفونوا من كبار الأفيياء إذا ما وقعوا على مثل هذه الاتفاقية، وإذا لم يحافظوا على كامل حريتهم من أجل الاتفاق مع عدوهم الكبير، الدولة العثمانية. وأن كل الفرنسيين كانوا يحاولون عرقلة أعمال العصابة، ولكن الجهود المستمرة من جانب البابا نجحت في أثناء ذلك الوقت في التغلب على كل الصعوبات، وتم عقد ميثاق العصابة المقدمة، في روما يوم ٢٠ مايو ١٥٧١. وكانت مقترحة، لكي يتضمن إليها الجميع. ولكن غالبية الدول أبايت سلباً على نداء يوم الخامس، الذي انضمت سفته، وحدها السفن الإسبانية والبنادقة.

وكانت الحرب قد بدأت منذ صيف عام ١٥٧٠. واستمر حصار فماجوستا، وهو أقوى موقع في جزيرة قبرص. لمدة عام كامل (من أغسطس ١٥٧٠ حتى أغسطس ١٥٧١). وبينما كانوا لا يزالون يناقشون في روما، وقبل أن يتفقوا على شروط العمل الذي سيقومون به، أسرح أحد الأساطيل بالقيام بمظاهرة هيبائية في بحر إيجة. وكان تحت قيادة يارك انطون كولونا، أحد سادة روما.

ولكن شرف قيادة الأسطول الكبير ، الأرمادا ، الذى كان يتم إعداده ببطء فى صقلية عاد إلى أمير من أمراء إسبانيا ، وهو دون جوان صاحب النمسا ، وهو أخ غير شقيق لفيليب الثانى وأن يكون عليه أن يذهب للبحث عن العثمانيين فى داخل بحارهم . ذلك أن العثمانيين ، وبصفتهم أصحاب سيادة على البحر ، كانوا قد تقدموا حتى بحر الادرياتيك ، وأخذوا فى مهاجمة السواحل والجزر الموجودة هناك . ثم أمرهم ، قائدهم ، على باشا ، بإعطائهم فترة راحة عند مدخل خليج كورنت ، حين وصلت الأساطيل المتحالفة . وفى هذا المكان وقعت موقعة ليبانتو الخامسة (٧ أكتوبر ١٥٧١) . وكانت نصرا مدوياً للدول المسيحية ، ولكنها كانت قد وقعت فى وقت متأخر وبشكل جعلهم يفشلون ، مع قدوم الشتاء ، فى التمكن من إستغلالها . هذا علاوة على أن قبرص كانت قد وقعت ، فكان من الضروري إعادة غزوها ، وكان هذا الأمر يتطلب التفكير . ولقد فكروا فى ذلك أثناء كل فصل الشتاء ، وفى الربيع ، قرروا العودة للسفر فى إتجاه الشرق . ولكن العمليات كانت غير منظمة ، ولم تعط أية نتيجة ، خاصة وأن العثمانيين تهربوا من المعركة فى معارك . وفى عام ١٥٧٣ كان البنادقة قد فقدوا الأمل ، ووافقوا على صلح مزمزمين : فتخلوا فى نفس الوقت عن قبرص ، وعن المواقع التى كان العثمانيون قد أخذوها منهم ، فى ألبانيا وعلى سواحل دالماتيا .

ولم يتخل فيليب الثانى عن الصراع . ولكنه أعطاه مدفاً آخر ، لم يكن قد نحل عنه ، بينما كانت العنزة المقدمة ، مستعرة فى مداولاتها : وهو غزو تونس . وفى عام ١٥٦٩ ، كان الجزائريون تحت قيادة العليج حل ، بكلريك افرقية الجديد . قد أفادوا من الصعوبات التى تواجه خصمهم الكبير ، والذى كان شغولاً بشورات الموريسكيين ، لكى طردوا من تونس ذلك الأمير الذى كان تحت الحماية الإسبانية ، ويطرأوا حاميه لهم هناك . وعند نهاية عام ١٥٧٣ وصل دون جوان

على رأس أسطول، وإحتل تونس . وهذه المرة ترك فيها حامية إسبانية ، كما هو الحال في سلق الواد . ولكم لم يحسبوا حساب العثمانيين ، وإعتقدوا أنهم مشغولين بالعمل على التخلص من الضربات التي كانت قد نزلت بهم في ليبيا . وفي صيف عام ١٥٧٤ . وقيل أن يكون دون جوان قد إستمد للمركة ، حوضر أسطول ، مع جيش ، وإستولى على تونس وعلى حلق الواد . وكانت أوروبا ، في دهشتها ، بتفطر رد فعل إسباني سريع . ولكن فيليب الثاني كان يختلف عن شارل الخامس . وكان من أولئك الذين يستسلمون حين يكون الحظ في غير جانبهم ؛ وسيطر ذلك أكثر من مرة . وقد انقلب المسيحي تونس ، وبشكل نهائي .

ومنذ ذلك الوقت . ولفترة طويلة ، لم تعد القوات البحرية التي تبعد عن بعضها البعض ، تسير في البحر المتوسط . وإتفق الحصان الكبيران ، العثمانيون والاسبانيون . على وضع حد لهذا الصراع الذي لا يسطى شيئا ، والذي كلف كل منها من الخسائر أكثر مما أعطاه من إتصارات . وتم عقد هدنة في عام ١٥٧٧ . وسيجددونها مرات عديدة حتى عام ١٥٩٣ . وإستمر البابوات ، بمفردهم ، في التفكير في حملات صليبية . وإفتخر البابا جريجوري الثامن في بعض المحطات ، بأنه سيحصل على معونة لإيران الرقيب .

وفي خلال كل هذه الفترة ، إستمرت فرنسا في رعاية الصداقة العثمانية ، ومن أجل المزايا الكبيرة لمصالحها التجارية . وكانت قد أبرأت من كل تضامن مع إسبانيا . ورفضت في عام ١٥٧٠ الإشتراك في سياسة الحملة الصليبية . وإعتقدت حتى في أنه يمكنها الإفادة من المخاوف التي تسببت فيها معركة ليبانتو في إفريقيا . لكي تعرض على الجزائريين ملكا ، مودوق آلمجو ، أخو الملك . ولكن رفض إستانبول جعل المشروع يولد ميتا . وأصبحت العلاقات مشدودة . بهددام ١٥٨٥ ، بعد إتصاليه والصليبية ، وسيطرة المتاجرين الجزائريين لإسبانيا على الحكومة . وفي ذلك

الوقت بدأ الجزائريون في مهاجمة سواحل يروفانس . وأصبحت الملاحة على درجة من الصعوبة حتى أنها توقفت بشكل نهائى تقريبا . وعندما انتهى عهد العصابة ، تغير الموقف من جديد : ورأينا ، في عام ١٥٩٥ ، ونتيجة لنداء هنرى الرابع ، أن سفن أمراء البحر الجزائريين كانت تقوم بدوريات أمام مرسيليا لتنميع الاسبانين من الوصول إليها .

وفي هذا التاريخ عادت العمليات الحربية من جديد ، من جانب العثمانيين ، على القارة ، وفي البحر المتوسط في نفس الوقت . ولم تكن تمثل عمليات كبيرة ، بل كانت هناك هجمات على سواحل نابول تقيها عمليات انتقام إسبانية على سواحل المورة ، وكان بحر الإديريك قد وجد من يدافعون عن المسيحية بجماعة أكثر من البنادقة ، وذلك في مجزعة من الأمازيغ السلاف قرب سواحل دلمشينا . والذين كان النزول العثماني قد طردهم حتى إستريا ، وحيث تركوا حول ميناء سيجنا . فعاثوا على القرصنة ، وبدأوا بمطاردة العثمانيين ، ثم قاموا ، بعد حرب ١٥٧٠ - ١٥٧٣ بحمارة البنادقة كذلك . وقاموا . في عام ١٥٩٦ بالاستيلاء على قلعة كليسا من العثمانيين ، مما تسبب في إنتشار ضجة كبيرة في أوروبا . أما البندقية ، التي كانت تخشى دائما من غضب السلطان ، فإنها ساعدت العثمانيين من أجل إستعادة كليسا ، وذلك بحراستها السواحل لهم ، فكانت هذه فرصة جديدة يقوم فيها أعداؤها بفضح إشراكها مع المسلمين .

٤ - التبادل التجارى :

من الناحية السياسية ، لم تشهد وضعية البحر المتوسط سوى عدد بسيط من التعديلات ، في أثناء القرن السادس عشر . وعلى العكس من ذلك فإننا ، إذا ما نظرنا إلى المبادلات التجارية ، وطبيعتها ، وأهميتها وبخاصة نوعية أولئك الذين كانوا

يسمون فيها، نجد أن هذه اللوحة تمثل تناقضاً واضحاً بين بدايات نهاية هذا القرن ،
وحين بدأت العصور الحديثة ، كانت البندقية هي دائماً ملكة البحر المتوسط .
وكانت تجارة شرق البحر المتوسط في شبه إحتكار بين أيديها . وكانت سفنها
هي التي تذهب لإحضار التوابل من الاسكندرية ، وتذهب لإحضار الحراير
والمسوجات القطنية ، ومسوجات الوبر وشعر الماعز والسجاجيد وغيرها من
قبرص ، ومن موانئ الشام وآسيا الصغرى . وكانت تحمل إليها منتجات الصناعة
الفنية ، ومسوجات الفلاندر وفلورنسا ، التي كانت تصل إليها عن طريق البحر ،
والمعادن والأدوات المصنوعة من ألمانيا ، والتي كانت تصل إليها عبر جبال
الألب ، وتخزن في حوانيتها في حي الألمان ، والذي أسموه ، وعلى مثال الفنادق
الشرقية ، فندق الألمان *Fondaco dei Tedeschi* . وهنا وهناك ، في موانئ شرق
شرق البحر المتوسط ، كان التجار البنادقة يكونون جاليات ، لا تخضع للتشريعات
الإسلامية ، وتخضع لإدارة قناصلها . وفي الاسكندرية ، وحيث كانوا قد
تمتعوا من وقت طويل بوضعية متميزة ، لأنهم كانوا يحصرون إلى هناك لكي يأتيوا
بترابيل الشرق الأقصى ، تخلوا قريباً عن هذا المكان بعد فتح عام ١٥١٧ .

أما منافسهم ، أبناء جنوا ، فلم تكن لهم إلا علاقات متباعدة مع شرق البحر
المتوسط . فكانت يبراء ، وهي إحدى ضواحي إستانبول ، لاتوال مع ذلك تحتفظ ،
وإلى جانب جالية البندقية ، بجالية من أبناء جنوا ، وكذلك جالية من فلورنسا .
أما أبناء كتالونيا فإنهم كانوا لا يوجدون في الغالب إلا قرب مصر وقرب سوريا .
أما في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، فإننا نجد ، على العكس من ذلك ، أن أبناء
جنوا وأبناء كتالونيا ، كانوا يسيطرون على الطرق التجارية : فكانوا يتقسمون
حركة تجارة الحبوب مع صقلية ، وكذلك مسوجات فلورنسا . أما الفرنسيون
فإنهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت يقومون بدور له أهمية إلا مع مصر . وتدهورت

أحوال ميناء إيج مورت ذلك الميناء الهام في الماضي على البحر المتوسط ، وكل يوم أكثر من اليوم السابق : فدرست الممرات المائية الموصلة إليه ، وبطريقة لا يمكن إصلاحها . أما مرسيها ، ذلك الميناء الكبير في المستقبل ، والذي لم يكن قد انضم إلى فرنسا إلا من وقت قصير ، فإنه كان ينمو ببطء . وكانت علاقاته مع الخارج ، في غالبيتها ، في أيدي أبناء جنوا وأبناء البندقية .

وكانت البندقية ، وعن طريق ممتلكاتها الجزرية ، وكطعام إمبراطورية ، كانت قد امتدت في الماضي حتى داخل البحر الأسود ، وعن طريق قبرص وكريت تحتفظ مع شرق أوروبا ، بنوع خاص بتجارة ليست هي تجارة صبور . فكانت لقبرص مزارع هامة للقصب ، وكان السكر الذي تصدره ينافس سكر جزر الخالدات في كل القسم الشرقي من القارة . وكانت كريت ، التي كانوا يسمونها في ذلك الوقت « كنديا » ، على اسم عاصمتها ، تنتج بنوع خاص الأبنية الحلوة ، والتي كانت لها سمعة ضخمة في الغرب . وكان أشهر هذه الأبنية هو مالفوازي ، وهو تحريف لإسم مونتقازيا ، ذلك الميناء الصغير في أقصى الجنوب الشرقي للمورة وحيث كانوا يزرعون نفس الكروم : وكانت مونتقازيا من جانب آخر لا تزال من الممتلكات الخاصة بالبندقية وكانت موانئ أخرى ، مثل نوفل ، في قاع الخليج ، تستخدم كمحطة السفن التي تذهب إلى القسطنطينية . وأخيراً ، وعند مدخل ، وعلى ساحل بحر الأدرياتيك ، كانت هناك سلسلة مستمرة من المواقع التابعة للبندقية : من الجنوب صوب الشمال ، زانتى . وسيفالونيا ، وكورفور ، أكبرها ، ثم إلى الشمال أكثر من ذلك المدن الألبانية مثل دورازو ، واسكودار ، وأخيراً الجزء الأكبر من ساحل دلماشيا ، مع كاتارو ، ومصباتها في سيالاتو وزارا .

وعلمنا أن ننتقل الآن إلى سنوات ١٥٧٣ ، وفي الوقت الذي توقفت فيه الحملات الحربية نتيجة لعقد الهدنة ، فأخذت تجارة شرق البحر المتوسط في

الإزدهار من جديد. وعلينا أن نتحدث عن ذلك من فرنسا بنوع خاص .
إذ أن ساعة مرسيليا كانت قد حانت . وحتى ذلك الوقت كانت تجارتها ، والتي
كانت متواضعة للغاية ، لاتزال في أساسها في أيدي الأجانب . وحتى في عام
١٥٧٢ لاحظ سفير الملك في جنوا أنها كانت مدينة فقيرة للغاية . أولئك
الذين يسيطرون على طرقها هم من الأجانب ، من جنوا ، ومن ميلانو ،
ويعودون إلى بلادهم بعد أن يكونوا الثروات ، ويأخذون غيرهم لأخذ مكانهم .
وكانت تجارة مرسيليا قد سجلت نجاحها الأول مع شمال إفريقيا . وكان الإخوة
لينش *Lenche* ، من أصل كورسيكي ، قد حصلوا من حكومة الجزائر ، في
عام ١٥٥٢ ، على امتياز صيد الأصداف على بعد ٢٠٠ كيلو متر تقريباً إلى الشرق
من عنابة . وكانوا قد بنوا هناك مركزاً على شكل قلعة ، سُمي فيما بعد
بقلعة فرنسا *Bastion de France* . وبعد قليل ، ظهرت مؤسسة أخرى
مشابهة ، أبعد منها بقليل ، في ميناء القال ، والتي كانت منذ فترة طويلة سوقاً
للأصداف . وكانت الأصداف تلقى تقديرًا كبيراً من الأمويين ، وبخاصة
الهنود ، وتمثل عنصرًا هاماً للتبادل في أيدي التجار الذين كانوا يحصلون على
توابل الشرق الأقصى . وفي وقت قصير ، تمكن صائدي الأصداف أن يمدوا
إلى جوارهم بعض التجار ، الذين نجحوا ، رغم المنع الرسمي ، في تصدير الحبوب
من شمال إفريقيا . وفي عام ١٥٧٦ ، نشأ على الساحل التونسي مركزاً فرنسياً
آخر ، هو مركز رأس العبيد . وبداية قرن من ذلك ، تسببت زيادة التعصب
في بلاد المغرب العربي ، في عام ١٦٠٤ ، في تعطيل وتغريب المراكز الثلاث .
وفي اتجاه شرق البحر المتوسط ، وقرب عام ١٥٦٠ ، لم تكن أكثر من خمس
أو ست سفن تذهب إلى هناك كل عام . ولقد عملت سرب قبرص ، وبقيضاتها
على حركة البنادقة ، لفترة من الوقت ، على أن تعطى أبناء مرسيليا الفرصة ، التي

كانوا مستعدين لها . فوصلوا في أعداد لا بأس بها إلى هذه الموانئ ، مسلحين بالميزات التي كان شاول التاسع قد حصل عليها في ذلك الوقت من السلطان العثماني . ودخلوا يهدوء في أماكن منافسيهم ، وعملوا على أن يحلوا عليهم في الأسواق التي كانت البندقية تسيطر عليهم منذ أجيال . وإن تزايد أرقام رسوم الدخول التي تدفع في مرسيليا تدل على الأهمية الخاصة لسنوات ١٥٧٠ . وفي شرق البحر المتوسط ، وأكثر من موانئ شمال إفريقية ، سيعمل الفرنسيون باستمرار على الإفادة من العلاقات الودية التي يحافظ عليها الولاء مع الأقاليم الإسلامية .

ونعرف الأسباب السياسية لهذه العلاقات الودية . وكانت ترجع أساساً إلى عدم الثقة ، وحتى الحقد الذي كان يشعر به المسلمون تجاه السياسة الكاثوليكية المنصبة للملكة الإسبانية . وهذه العلاقات الدبلوماسية وجهت إلى جانبها الآن ، وفي غلط مواز لها ، ذلك النح لإمميزات من كل الأنواع ، وخاصة في الميادين التجارية ؛ والتي تسببت في نشأة كلفة و الامتيازات الأجنبية . Capitulation . ومنذ القرن السابق ، كانت هناك بعض التسهيلات التي منحت من أجل الإقامة أو التجارة في موانئ الدولة العثمانية ، وكان شرطها الأساسي الحصول على وثيقة يقدمها السلطان ، وتكتب فيها الإمتيازات المعترف بها لرعايا هذه الدولة أو تلك وكان الفرنسيون قد قنعوا بتلك التي كان قد منحهم إياها ؛ وتمثلاً بسلاطين استانبول ، سلاطين المماليك في مصر : وكان آخرها هو دخلى شريف ، في عام ١٥٢٨ كان يجدد الأكثر منها قدماً . وعلى نفس نمط هذه الوثائق ، قام سليم الثاني ، في عام ١٥٦٩ ، بالتوقيع على « إمتيازات » ، وحسب طلب السفين الذي أرسله شاول التاسع ، وبفتح أنصاف الامبراطورية العثمانية ، من أجل تسوية الخلافات التجارية (١) . وفيها بين هذه الميزات التي منحتها هذه الوثيقة الشهيرة ، كانت هناك

(١) أن بمثابة « الإمتيازات » الشهيرة لعام ١٥٢٥ يمكنها أن توضح بكل إمكانية =

واحدة نذكر أن فرنسا سيكون من حقها وحدها حق تمثيل مصالح الأجانب الذين يكونون من دولة ليس لها امتيازات - ولم يكن هناك حتى ذلك الوقت دولة لها هذا الحق إلا البندقية وجنوا - ويقومون بالتجارة في هذه الموانئ . ولذلك فإن د راية ، فرنسا سوف ترفع منذ ذلك الوقت على أكبر عدد من السفن المسيحية التي تسير في البحار العثمانية .

وعليها أن تشير إلى تحول جديد ، قرب هذا الوقت ، في تاريخ توأبل الشرق الأقصى . وكان البنادقة ، قبل منتصف القرن ، قد تغلبوا على الأزمة التي نتجت عن اقفال السوق المصري . وكانوا قد نجحوا في إعادة فتح طريق قديم للحركة التجارية ، لم يكن تحت رحمة البرتغاليين ، إذ أنه كان يأتي من إيران ، ويصل عبر العراق ، إلى حلب وبيروت . وكانوا قد تمكنوا من الاستمرار في تمهين أوروبا الوسطى ، في الوقت الذي كانت فيه التوأبل البرتغالية تصل من لشبونة إلى انفرنس ومن انفرنس إلى آر جزبورج ، تأتي وتتأصل التوأبل التي كانت تصل عبر جبال الألب . وحينما حدث ، في عام ١٥٨٠ ، أن سقطت البرتغال في أيدي فيليب الثاني ، قام السيد الجديد بتضحية مصالح البلاد شيئاً ما . وفي نفس الوقت حدث نوح من الإرتقاء في الرقابة البرتغالية لطريق المحيط الهندي ؛ وبدأ أن هذا الشعب الصغير قد تصب من حراسة المناطق القريبة من البحر الأحمر . وعادت الحياة من جديد إلى الطريق القديم الخاص بالتبادل ، وساعد ذلك على عودة ازدهار الإسكندرية .

وبعد القرنين ، أي في الربع الأخير من القرن ؛ قام منافسون آخرون بالسفر في البحار التي كانت من قبل محجوزة لتجارة البندقية ، وهم الانجليز والهولنديون .

على مضاف الحرافة التأريخية . ولد النس الموجود في فرنسا لا يحمل أي توقيع . ولا شك في أنه كان مجرد مشروع وجد بين أوراق السفير لافروست . ولم تذكره أية وثيقة أخرى .

ولما كانوا قد أتوا من قواعد بعيدة ، فأنهم كانوا في حاجة إلى قواعد للتزود منها وهم في طريقهم إلى شرق البحر المتوسط . وظهر ميناء جديد في الموضع الغربي للبحر المتوسط ، كان يعطيهم التسهيلات اللازمة للرسو ، والتخزين : وهو ليفورنو ، الذي أنشاه كوزموى ميديتشى ، وهو أول ذلك الخط الذى حمل لقب دوق توسكانيا العظيم . وفي سنوات ١٥٦٠ حصلت ليفورنو على المكانة الأولى على الساحل الايطالى للبحر المتوسط ، وورثت بذلك بيزا . وكان نظامها الحرف قد جذب اليها الأجانب من كل ناحية ، وبخاصة اليهود الذين كانوا من أصل أسباني أو برتغالى ، والذين كانوا قد طردوا من شبه جزيرة أيبيريا .

وكان الانجليز قد ظهروا في البحر المتوسط في القرن السابق . وكانوا يحضرون اشراء العنب المجفف من موافى الارخبيل ، وكانت هذه السلعة لازمة لصناعة فطائرهم ؛ كما كانوا يشترون الألبدة الحلوة من كريت . وفي النصف الأول من القرن السادس عشر كان هناك قصصا لانهجلا في خيوس . وأصبح لهم قصصا آخر هناك ، في عام ١٥٠٣ ، في القسطنطينية ، وأجر في كنديا في عام ١٥٢٠ . ولكن الحركة التجارية ظلت حتى توقفت تماماً عند منتصف القرن : وكانت آخر رحلة مسجلة قد تمت في عام ١٥٥٣ . وكانت عودة العلاقات التجارية ، بعد عشرين عام من ذلك ، بطيئة . وتم ذلك في نفس وقت نهاية حرب قبرص : فكان البريطانيون ، مثلهم في ذلك مثل جهاتهم الفرنسيين ، قد أتتوا فرصة غياب البنادقة المؤقت . ونصل إلى اللحظة الحاسمة ، وهي وقت وصول أثنين من تجار لندن إلى القسطنطينية ، من طريق يولندا والبلقان ؛ وقد حصلوا في عام ١٥٨٠ من السلطان أحمد الأول على امتيازات تشبه امتيازات القرنين . ويمكننا أن نلاحظ بسهولة تلك الحجج التي تقدموا بها : فأكنت بلادهم أنها كانت ، وأكثر من أى وقت مضى ، العدو الرئيسى لاسبانيا ، وأنه سرطان ما تدخل الحروب

ضدها ؛ وأنها كانت من جانب آخر من أكبر الدول المنتجة للتصدير ، ذلك المعدن الذى كانت يزداد احتياج السلطنة العثمانية إليه . منذ الهزيمة التى كانت قد لحقت بها فى ليبانتو ، والى اجبرتها على زيادة صناعتها للدفاع .

ومنذ ذلك الوقت أخذ سيتاجر الانجليز فى الشرق تحت علمهم الخاص بدولتهم . وسيكون لهم بدورهم جاليات وقناصل فى الموانئ الرئيسية . وستبدأ منافسة قوية بينهم وبين اعدائهم على المستوى الدبلوماسى وعلى مستوى الأعمال . واجبرتهم الامتيازات الجديدة التى منحت للفرنسيين فى عام ١٥٨١ على استخدام علم منافسهم . ولكنهم شعروا بأنهم على درجة من القوة تساعد على عدم الخضوع لذلك ، وظلت احتجاجات الفرنسيين فى القسطنطينية بدون جدوى . ولم يتمكن هنرى الرابع ، وقت تجديد الامتيازات الثانى فى عام ١٥٩٧ ، إلا من الحصول على الميزة التى كانت قد تأكدت من قبل . وتأكد من جديد حق الانجليز رسمياً من جانب السلطان فى عام ١٦٠٠ . وبلغت مرحلة أخيرة من هذا التنافس الانجليزى الفرنسى فى شرق البحر المتوسط فى عام ١٦٠٤ : فنجح الفرنسيون فى جعل العثمانيين يصعدون حكماً على ادعاءات منافسيهم ، وذلك بواسطة الامتيازات الجديدة التى منحوها لهم . ولكننا وصلنا فى هذا الوقت إلى نقطة لم تعد فيها النصوص قيمة كبيرة . أمام حالة فعلية تم قبولها لفترة طويلة من الزمن . وتمتع الانجليز منذ ذلك الوقت ، وبأيدى من الحكومة العثمانية ، وبدون معارضة ، بكل الميزات التى كانت تفيد منها : فى الماضى تجارة البنادق وتجارة الفرنسيين . ومنذ عام ١٥٨٢ ، احتفظت الملكة اليزابيث بسفير دائم فى القسطنطينية ، مثلها فى ذلك مثل ملك فرنسا . وقرب هذا الوقت ، ظهر قناصل انجليز فى الاسكندرية ، والقاهرة ، ودمشق ، وحلب ، وطرابلس ، والجواهرية .

ووصل الهولنديون إلى البحر المتوسط بعد فترة قصيرة من وصول الانجليز .
وكان ظروفاً خاصاً هو الذى جذبهم إلى هناك فى سنوات ١٥٨٨ - ١٥٩٠ .
فكانت صقلية منذ بضعة قرون تمثل مخزن غلال الحوض الغربى للبحر المتوسط .
وكانت اسبانيا ، مثلها فى ذلك مثل إيطاليا ، تتزود فيها ؛ ويضرب لنا هذا الأمر
تشدد سياسة أراجونه فى عدم ترك فرنسا تسبقها إلى إيطاليا فى أثناء حروب
النصف الأول من القرن . ولكن سوق القمح فى صقلية قلت أهميتها شيئاً فشيئاً ،
ولأسباب غير واضحة تماماً . فلم يكن السكان قد قل عددهم — سكان يعملون
فى غالبيتهم فى الزراعة — ولكن على العكس من ذلك زاد عددهم . ولكن
الأحوال الجوية كانت سيئة فى فترات عديدة ؛ رغم أن أحداً لم يتحدث من
تغيرات ملوية فى المناخ . ومهما كانت أصول هذه الأزمة ، فإنها وصلت إلى
درجة من الحدة اجبرت المشترين العاديين لقمح صقلية على التزود به من مكان
آخر . وهكذا اضطروا دون توسكانيا ، ونتيجة لعدم تمكنه من الاتهام إلى الشبانين ،
كما كانت قد فعلت جمهورية البندقية فى هذا الموقف ، إلى أن يدخل فى عادات
مع التجار الهولنديين ، والذين كانوا وجددهم هم القادريين على أن يحضروا إلى
البحر المتوسط المحبوب من البلاد المطلة على بحر البلطيق ، وكانت غالبيتها تأتي
من هولندا ، وكانت أهم ميزاتها ، بالنسبة لهذا المضارب بالقرية مادام من أسرة
ميديتشى ، هى أنها لم تكن مرتفعة الثمن . ووصلت السفن الهولندية الأولى المحملة
بالحبوب الآتية من الشمال فى دانزيج ، ولوبيك وحتى فى هامبورج ، إلى موانئ
ليفورنو فى عام ١٥٨٢ ، ولم يكن ذلك إلا البداية . فلم يكن عددهم يزيد على ثلاثين
سفينة فى العام الأول ، ومنذ عام ١٥٨٢ سيمثل عددهم إلى ما يقرب من المائة :
وأصبحت لاسبانيا ، وفى نفس الوقت الذى أصبحت فيه إيطاليا من جراء عملية
توقف عمليات صقلية . ولم يكن فى وسعها أن تلجئ إلى الهولنديين ، الذين

كانوا بالنسبة إليها رعايا قانون. ولذلك فإنها إلتجأت مباشرة إلى هولندا . وكتب فيليب الثاني خطاً إلى زميله، الملك سيجموند الثالث، طالباً فيه امتياز التصدير . ووصله الرد ، المشين ، يذكر أن الاسبانين لا يمتلكون اسطولا على درجة من الامة يسمح لهم باستيراد كل ما تنتجه هولندا . فكان عليه إذن أن يفتح بما يمكنه أن يقوم به تجار الهانسا ومع ذلك، فعلينا أن نعرف أن الهولنديين، ونتيجة لمركبة تهريب منظمة ، قد أسهموا رغم كل شيء بنصيب في تموين شبه الجزيرة الايبيرية . وتعلم الهولنديون ، مثلهم في ذلك مثل الانجليز ، كيف يتعاملون عن طريق ليفورنوا . ولان يقسو ذلك ، وفي السنوات الأولى للقرن السابع عشر ، ستأخذ التوابل البرتغالية ، عن طريقهم ، نفس طريق القمح . وسرعان ما وصلوا إلى أبعد من ذلك ، وحتى موافق شرق البحر المتوسط . وسيتطلبون في أول الأمر ، مثل غورم ، حماية الياة الفرنسية . ثم تصبح « جمهورية الأقاليم المتحدة » ، في عام ١٦١٢ على درجة من القوة والامة في الخارج بشكل يسمح لها بأن تحصل بدورها على امتيازات .

وكان الانجليز والهولنديون بطبيعة الحال منافسين الفرنسيين ، ولبناء مرسيليا . ومع ذلك فإن السيطرة الفرنسية ظلت موجودة في شرق البحر المتوسط في عصر هنري الرابع، في الوقت الذي أدت فيه الاضطرابات التي قامت بها العصابة في اعطاء نتائجها . وأصبحت هناك جاليات فرنسية في ذلك الوقت في كل الموانئ الهامة . وكان ملك فرنسا يحتفظ بعدد من القناصل أكبر من عدد قناصل شركة شرق البحر المتوسط الانجليزية . وكان هناك قناصل فرنسيين موجودين في تونس وقاس في عام ١٥٧٧ وفي الجزائر في عام ١٥٧٩ . ولمرتين في أقل من عشر سنوات ، ونتيجة لنهر حكم السلاطين في القسطنطينية، تجددت الامتيازات التي كان سليم الثاني قد أعطاهما ، وأكدهما مراد الثالث من بعده ، وزادت درجة

محمديدا ، في عام ١٥٩٧ بواسطة محمد الثالث وفي عام ١٦٠٤ بواسطة أحمد الأول . واعطت امتيازات عام ١٦٠٤ ، ولأول مرة ، للفرنسيين الاعتراف بحق الحماية ، والذي كانوا يمنحونه لأنفسهم منذ وقت طويل ، على رجال الدين اللاتينيين في الأراضي المقدسة . ومنذ ذلك الوقت لن يتوقف سفير ملك فرنسا عن التدخل في الاصطدامات التي كانت تقع بين عملي الكنائس المستقلة — اليونانيين ، والأرمن ، والأقباط ، والقضاة ، والجرجوريين ، والمارونيين — وبين الفرنسيين والذين كانوا مكلفون من جانب روما بحراسه الأماكن المقدسة .

العصل الخامس

مشكلات البحر : البلطى

بدأت سواحل بحر البلطيق ، مثلها فى ذلك مثل سواحل البحر المتوسط ، عند بداية القرن السادس عشر ، على أنها تحدد عالم منفرد مغلق ، تسيطر عليه قوة عظيمة ، إقتصادية وسياسية فى نفس الوقت . فكانت الهانسا الجرمانية تتمتع فى الشمال بمكانة تشبه تلك التى كانت تحتلها بها جمهورية القديس مرقس (البندقية) فى الجنوب .

وتاريخ هذين البحرين المنقلين — وهما مغلقين بكيفية غير متساوية ، إذ أنه يسهل إقفال بحر البلطيق بسهولة أكثر ، ويكثر من مضيق جبل طارق — يمثل فى هذه الفترة تشابهاً غريباً . فترى من هذا الجانب ومن ذاك ، وفى الربع الأخير من القرن ، أن الدول المسيطرة قد أصبحت ؛ أو على الأقل نزحت إلى المرتبة الثانية ، بواسطة قادمين جدد ، هم الهولنديون والانجليز ، الذين بدأوا عملية غزو أسواق الجنوب الشرقى ، وللشمال الشرقى للقارة ، والتى كان الغريبيون لا يصلون إليها فى ذلك الوقت إلا بصعوبة . ومن هذا الجانب ومن ذاك ، كذلك ، كانت الفترة الخامسة هى فترة سنوات ١٥٧٠ : فكان مؤتمر ستين Stettin يمثل تاريخاً ماماً بالنسبة لقطاع بحر البلطيق كما كان غزو العثمانيين لقرص يمثل هذه الاممية بالنسبة لقطاع البحر المتوسط .

١- الهانسا وضعها :

كانت هناك مراحل بسيطة ، إذا ما فُحصت بالمستوى الأدنى ، تكون

التاريخ السيامي لبحر البلطيق . ولذلك فإننا نتحدث أولاً عن الاقتصاد . أى أننا سنبداً بالمانسا ، وبصفتها القوة الوحيدة في هذه الفترة والتي كان لعملها الإقتصادي طبيعة دولية واضحة .

وكانت طبيعتها الجرمانية واضحة إلى درجة أنها كانت لم تعد تشمل إلا على مدن تخضع اسماً للإمبراطورية المقدسة ، مدن « وينديه » كما كانوا يسمونها في هذا العصر ، وذلك باستخلام كلمة تيمين تماماً ، وعن طريق التناقض ، في الماضي ، بينها وبين المدن التي كان سكانها من أصل سلافي أو عقلي . وكانت لويك هي أكثرها أهمية ، وكانت تتمدد في الخارج على أنها عاصمة هذه الرابطة أو العصبة . ويمكننا أن نذكر إلى جانبها أسماء سترانسوند ، وروستوك ، وفيسمار ، ولونبرج وأخيراً داننبرج وهامبورج ، والثلاث سنهتهم بهما تنوع خاص . أما كروليا فإنها لم تحافظ على مكانتها إلا فترات قصيرة .

وكانت سفن المانسا هي التي تعمل من الغرب تلك المنتجات التي كانت اللؤلؤ المطلة على بحر البلطيق تحتاجها ، وكان الملح يحتل المكان الأول من بينها . وكانت البحار الشمالية أقل ملوحة نسبياً من غيرها ؛ كما أن درجة الحرارة المنخفضة لم تكن تسمح باستغلالها للملح الموجود بها بشكل مريح . فكان من الضروري إذن الإتجاه إلى السواحل الضحلة المليئة بالملح في فرنسا ، من وقت لآخر إلى ملاحات البرتغال . وكان الملح الذي يستخرج من خليج بوزيف معروف في كل أوروبا الشمالية ، حتى إن الملح الفرنسي كان يباع ، في البلاد المطلة على بحر البلطيق وكذلك في إنجلترا ، باسم « ملح الخليج » . وكانت الأبنية الفرنسية ، مثلها في ذلك مثل الملح ، تشحن وتصدر صوب بلاد الشمال على سفن المانسا . وكانت المنسوجات هي أكثر المنتجات الصناعية الغريبة

وأهمها . وفي الإتجاه الآخر ، كانت المواد الأولية التي تأتي من غابات الشمال هي التي تستخدم للتبادل بشكل رئيسي — أخشاب من أجل صناعة الصواري وبناء السفن ، وكذلك القار ، والمواد اللزجة ، ويمكننا أن نضيف إلى ذلك الجلود وكذلك الفراء .

وكانت الهانسا ، في فترة عظمتها ، وحتى صوب نهاية القرن الخامس عشر ، تمتلك مراكز هامة في نوفجورود في روسيا ، وفي برلين في الفرويغ ، وفي بروج وفي لندن . وكان تجارها قد حصلوا هناك على إمتيازات عديدة ، سجلت في الوثائق التي كان الملوك يؤكدونها أو يجهدونها من وقت لآخر .

وكانت هذه الإمتيازات تعادل ، في بعض الحالات ، حق إحتكار فعلي ؛ فاشتملت على الحق الكامل في القيام بعمليات التوريد أو التصدير عن طريق البحر . وكان هذا بنوع خاص هو حالة لندن : فكان مركز تجار الهانسا ، الذين يسيطرون على أحد الأشياء الذي يستخدمونه للتخزين ، قد تدعم بواسطة هنري السابع في عام ١٤٩٨ رغم حركة متعصبة من جانب الرأي العام .

ولكن إزدهار الهانسا أصيب بدوجة واحدة ، قرب هذه الفترة ، نتيجة لإغلاق مركزها في نوفجورود . وفيما بين الروس والألمان لم تكن العلاقات سهلة في أي وقت من الأوقات . وكانت عدم الثقة سائدة من هذا الجانب ومن ذاك ؛ وكانوا يتهمون بعضهم بسهولة بسوء النية ؛ كما كانت أحداث متتالية تساعد على الاحتفاظ بروح العداء . ونتيجة لأن جمهورية نوفجورود كانت تحصل على رشايتها من الأجانب ، لم يحاول أبناؤها قطع علاقاتهم هؤلاء الأجانب . ولكن حينما قام القيصر إريوان الثالث بالاستيلاء عليها وضمها للدولة الموسكوفية ، انفتحت هذه الاتجاهات : فقاموا بطرد تجار جامعة الهانسا في عام ١٤٩٤ . ومنذ ذلك الوقت تحولت

التجارة مع الدولة الموسكوفية إلى مدن الجماعة النيوتونية ، مع مدن ريفال ،
وحديرات ، وريجا ، التي كانت تشارك فيها منذ وقت طويل. وأعاد الهولنديون
من ذلك . وكانوا قد قاموا بإتصالات مباشرة ، أنشئوها منذ بعض الوقت ، بين
موانئهم وبين موانئ ليفونيا أو إستونيا ، وزادت منافساتهم التجارية مع رجال
الهانسا .

وفي أثناء ذلك الوقت زاد ظهور العداء الذي كان موجوداً بين الدانمرك
وبين المسيطرين على البلاد المطلة على بحر البلطيق ، وأدى الأمر إلى وقوع
إشتباكات بينهم . وكان إتحاد التيجان الثلاثة الدانمرك ، والسويد والنرويج ،
والذي تحقق في إتحاد كولمار في عام ١٣٩٧ ، قد ظل ضعيفاً . وأظهر السويديون
بنوع خاص عدم إستعدادهم لإحترامه . وكان كل تشديد في الحكم يؤدي
إلى وقوع أزمة . وهكذا لم يتمكن يوحنا الثاني ، ملك الدانمرك في عام ١٤٨١
من أن ينتخب في السويد قبل عام ١٤٩٧ . وجاءت بعد ذلك ثورات جديدة
لكن تعمل على إفضال سلطته . وينتج عن ذلك عمليات حرية ، إشتبك فيها رجال
ومدن الهانسا إلى جانب السويديين . وكانت الدانمرك تسيطر على الأراضي
الواقعة على جانبي مدخل بحر البلطيق ، وتشرف بهذه الطريقة على كل المواصلات
مع الغرب . وقام يوحنا الثاني برفع تعريضة الرسوم ، الأمر الذي أدى
إلى اغضب جيرانه . وكان قد وجد الإمكانيات اللازمة لبناء أسطول ، يسمح
له بقياس قوته بقوة رجال الهانسا . وقامت سفته بإحراق ضواحي لوبيك ،
وتمكن في العام التالي من فرض شروطه على خصومه في جلب مالو : وأصبح على
رجال الهانسا أن يدفعوا غرامة حرية ، وأن يتعهدوا بتأييد السويديين في
٢٣ أبريل ١٥١٢ .

وصحب وصول كريستيان الثاني ، ابن يوحنا الثاني ، إلى الملك في عام ١٥١٣ نفس الصعوبات . ومن أجل تأديب رجال الهانسا ، الذين حاولوا تأييد ثورات السويد ، شعر الملك الجديد بضرورة الحصول على تحالف الهولنديين . وكانت هذه الية هي التي قربت بينه وبين الإمبراطور مكسيمليان . وحصل على يد خفيذه ، ايرايلا ، أخت شارل الخامس ، مع دويلة ضخمة . وكان الإمبراطور لا يمتلك نفوذاً ، الأمر الذي أغضب كريستيان ، وجعله يمارس عمليات إنتقام على سفن الأراضي المنتفضة حتى يحصل على جزء من قيمة هذه الدويلة . وفي العام التالي تمكن أخيراً من أن يتوج نفسه ملكاً على السويد .

وعندئذ توجهت طموحاته إلى اتجاه الجنوب ؛ صوب دوقيات شليزفيغ وهولشتاين ، اللتين كانتا في الماضي مناطق نفوذ دانمركية . وإلتجأ إلى نسييه ، شارل الخامس ، الذي كان قد وصل إلى عرش الإمبراطورية منذ بعض الوقت . فتمحه فراراً حاماً أكد فيه الحقوق التي كان الملوك السابقين له قد مارسوها بالأقدمية في الإمبراطورية . وفي هاتين الدوقيتين ، وكما كانت عليه الحال في الدانمرك ، كان الملك يصل إلى الحكم عن طريق الانتخاب . وفي الماضي ، كان الملك يوحنا قد إنتخب بالاشتراك مع أخيه فردريك . وعند موته ، ظل فريدريك وحده دوقاً . وحين علم بإتفاق ابن أخيه مع الإمبراطور ، وبما يجعله ذلك من تهديد ، نجح في مواجهة ذلك عن طريق إختياره وقت مناسب لإشعال نار الثورة بين نبلاء الدانمرك . وبعد طرد الرعايا لكريستيان ، قاموا بإنتخابه في مكانه .

ويتميز عام ١٥٢٣ بدء لازمة طويلة ، سيقوم فيها السويديون ، الذين كانوا يرغبون في الحصول على إستقلالهم ، بجنى ثمارها . وقاموا بالثورة مرة جديدة

في عام ١٥٢١ ، وكانوا قد صمموا على جعل جوستاف قلزا ، وهو الرئيس الذي كان قد أوصلهم إلى النصر ، يتولى الملك وتمكنوا من أن يقضوا نهائياً على السيطرة الدانمركية . وكان أهالي لوبيك ، الذين كانوا يخشون من سياسة كريستيان التوسعية ، قد أرسلوا إليهم سفناً ، ومواد تموين ، وبعض الحاربيين . وتدخل سفراء الهانسا من أجل التوسط ومن أجل تسهيل إعادة إقامة العلاقات السلمية بين ملك الدانمرك وملك السويد الجديد . وفي أثناء ذلك الوقت تحول عدد من المخلصين لكريستيان . وإشتهروا بأعمال القراصنة : وإحتاج الأمر إلى سنوات طويلة لتنظيف بحر البلطيق منهم . واستقر أفواهم وتمركز في أوديسى ، في جزيرة جوتلاند ، وهي قلعة قديمة الهانسا ، كانت قد غرقت منذ فترة ، وحينئذ قام رجال لوبيك بالاستيلاء على أوديسى ، وإعطائها للدانمرك ، حصلوا على جزيرة بورفولم الكبيرة لمدة خمسين عاماً .

٢ - تدخل الدول الغربية :

أخذ كريستيان ، في الأراضي المنخفضة التي كان قد التجأ إليها ، في الإستعداد لفترة طويلة لإعادة غزو مملكته . وفي عام ١٥٢١ ، نزل إلى أوصلو على رأس عشرة آلاف رجل وسرعان ما ظهر أسطول دانمركي ومن سفن الجامعة الهانسية أمام المدينة ، بينما تدخل السويديون عن طريق البر . وسرعان ما جاء حل وسط يوقف هذه العمليات الحربية : فوافق كريستيان على الإعتراف بملكه فريدريك ، بشرط أن يعلن أنه كوارث لنتاج . ولكن موت هذا الأخير في العام التالي يجعل هذا الإفتاق كأن لم يكن . ولم يكن في وسع كريستيان أن يعود إلى الحرب ؛ إذ أن فريدريك ، الذي تراجع في وعده ، قد قبض عليه وإحتجزه أسيراً حتى وفاته . وفي نفس الوقت كان الهولنديون ، مثلهم في ذلك مثل كريستيان ، هم

المنهزمين في هذه المعامرة ؛ إذ أنه ، كعقاب لهم على المعونة التي قدموها ، منعوا منذ عام ١٥٢٣ من عبور المضيق للزدي إلى بحر البلطيق ؛ ومنذ هذا الوقت اضطرت سفن عديدة إلى البقاء بدون عمل ، ودفعت الرغبة في إنهاء هذا الوضع الحاكم ، الجديدة للأراضي المنخفضة ، ماريا صاحبة النمرك إلى أن تترك مصير كريستيان للقد ، وتتفاوض مع فريدريك ، وأظهر الدانمركيون إستعدادهم لإعادة فتح المضائق المؤدية إلى بحر البلطيق ؛ وعقدت معاهدة بهذا الشأن في جاند بدوفاة فريدريك بوقت قصير (١٥٢٣) .

وكان من نتيجة تقارب الدانمرك مع الأراضي المنخفضة عودة حدة العداء مع الهانسا . وحاولت لوبيك ، التي كانت في ذلك الوقت تحت حكم وولنفير Wallenwewer ، المنهج الشعبي أن تسيطر على المملكة المجاورة ، حتى تتمكن من أن تسوى مسألة مدخل بحر البلطيق لصالحها ، وتضمن السيطرة النهائية على بحر البلطيق ، وعلى حساب الهولنديين . وعند كريستيان الثالث ، ابن وخليفة فريدريك ، أبدت لوبيك بعد ذلك أنصار كريستيان الثاني ، الذي كان لا يزال في السجن ، وأرسلوا القوات إلى هولشتاين ، ثم إلى الجزر ، من أجل دفع الفلاحين إلى الثورة . وقاموا بإحتلال كوبنهاجن نفسها . وإنتهت المحاولة بالفشل نتيجة لتدخل السويديين . وكان جوستاف فاذا يخشى بنوع خاص من عودة كريستيان الثاني . ورغم ما كان يحتفظ به لأصدقائه رجال الهانسا ، من صلات ود ومعونة سابقة ، اضطر إلى أن يقف في وجههم في هذه المرة . ورأت لوبيك نفسها محاصرة في عام ١٥٢٤ بأسطول دانمركي . ومنحه كريستيان الثالث الصلح ؛ ولكنه إحتفظ حول نفسه بعدد كبير من أسراء شمال ألمانيا ، الذين كانوا يخشون عدوى الآراء الديمقراطية ، وصمموا على عدم ترك السلاح قبل أن يتصرفوا على وولنفير . وحينما تحطم أسطول لوبيك في نهاية الأمر في معركة

سويندبورج في ٥ يونيو ١٥٢٥ بواسطة القوات المتحدة للدانمرك ،
والسويد ، وشليزنج هولشتاين ، اضطروا ولنفيير إلى التخلي عن السلطة .
وكان هذا ، في نهاية الأمر ، هو الصلح بين الدانمركيين ورجال لوبيك
في ١٤ فبراير ١٥٢٦ .

وتحطمت القوة السياسية والعسكرية الهانسا بشكل نهائي ، ولن تتأخر قواتها
الاقتصادية عن أن تتأثر بدورها . وسينتج من التدخل السويدي أخطر النتائج
بالنسبة لمصدر بحر البلطيق . فساعد أولا على زيادة نمو عمليات القرصنة ، وأصبح
على رجال جامعة الهانسا أن يدافعوا عن أنفسهم أمام هذا الخطر الجديد ولكنهم
كانوا غير مستعدين لذلك كل الاستعداد ؛ فلم يكن هؤلاء التجار يستندون إلى
قوات بحرية لها أهميتها ؛ وبناء خاص لم تكن السفن التي يستخدمونها الحراسة
مسلحة بالدفعية الضرورية لحماية الطرق فمالة ؛ ولم يتأخر الهولنديون ، الذين
اضطروا إلى الدخول إلى هذه الحرب ، من الإفادة من تفوقهم الواضح عليهم في
هذا الميدان . ومن جانب آخر ، كان وقت تفوق الدانمرك قد إنتهى ، فمكان
الدانمركيون في الماضي يعلنون بسهولة أنهم أصحاب وسادة بحر البلطيق ، كما كان
يفعل البنادقة في بحر الإندرياتيك . واستمروا لفترة طويلة يحددون تعريفات
ورسوم البضائع كما يرغبون على من يعبر المضائق . أما الآن فإنهم سيجدون
أنفسهم مرتبطين بإحتياجات دولية .

أما كريستيان الثالث فإنه بعد أن إستعاد عاصمته من كوت أولدنبرج ، وهو
حليف لرجال مدن الهانسا واستمر في الحرب ، أخذ في الإعداد وبالإتفاق مع
خصومه السابقين للقيام بالحرب ضد الأراضي المنخفضة . وكانوا يستمرون
في تلقيه هناك ، ونتيجة لولائه لشارل الخامس « بدوق هولشتاين الذي يسمى
نفسه ملك الدانمرك » ، وأرسل خذم شارل إيجمونت ، دوق جيلدر ؛ ثم أصبح ،

بعد التوقيع على معاهدة مونتنابلو في ١٩ نوفمبر ١٥٤١ ، يعمل ضد الامبراطور وبصفته حليفا لفرانسوا الاول ، والذي عقد معه في العام التالي اتفاقيات تجارية. وفي عام ١٥٤٣ قام اسطول داتمركي مع اسطول فرنسي بمظاهرة بحرية ضد سواحل زيلندا ، وذلك في الوقت الذي قام به فان روسم ، مارشال جيلدر ، بريا ، بقيادة جيش من الفرنسيين والدانمركيين وأبناء مقاطعة جيلدر .

وسيكون من نتائج تدخل الدولة الثرية في ذلك الصراع اعادة إقامة ما يمكن تسميته بـ «نظام تعاقدى» ، للحد من المضايق . وعلت معاهدة إسبير ، التي فرضها شارل الخامس على الدانمرك في ٢٣ مايو ، ١٥٤٤ ، وقبل عقد صلح كريبي مع فرانسوا الاول بقليل ، على تعديل المضايق ، وذلك بإعلانها أن هذه المضايق لا يمكن إغلاطها في وجه أى شخص ، وبتقريرها التعريفات التي تفرض على سفن كل دولة . وهكذا سيتمكن الهولنديون ، ونجت نهاية الدول الموقعة على المعاهدة ، من عودة الظهور في بحر البلطيق . ولن يتعارض أى شيء بعد ذلك عملية نمو تجارتهم .

٣ - ليفونيا والروس :

ونتقل الآن إلى الشمال الشرقي لبحر البلطيق ، وحيث تأخذ مسأله ليفونيا المكان الاول بين الأحداث بعد منتصف القرن .

وكانت الممتلكات المختلفة للفرسان المحاربين تشتمل أولا على ليفونيا نفسها ، مع مركز ويجا الكبير ، ثم إستونيا إلى الشمال ، وكورلاند إلى الجنوب . وكانت تتبع في نفس الوقت كل من الامبراطورية المقدسة ومن كنيسة روما . ولكن هذا الرباط المزدوج كان قد أصبح غير محكم بدرجة كافية ، ولن يجد أحد أن من مصالحه توثيق غراه . وفي أثناء بعض الوقت انضم هؤلاء الفرسان المحاربون

إلى جيوشهم الفرسان الثيوتون . ثم استعادوا استقلالهم منذ عام ١٥٢٥ وحين قام البرت صاحب براندبورج ، والسيد الأعظم للجماعة الثيوتونية ، بإعتناق مذهب لوتر وأعلن نفسه دوقا على بروسيا تحت السيادة البولندية . وكانت أيامهم قد أصبحت معدودة ؛ وكانوا قد تأثروا بأراء الإصلاح ، كما كانوا معرضين من الخارج ، وبدون دفاع ، لمشروعات الدولة الموسكوفية التي كانت تتوسع بقوة في ذلك الوقت .

وكان الهدف الأول لأمراء موسكو، ومنذ الوقت الذي ضموا فيه جمهورية نوجورود ، هو نارفا : وكانت إستونيا وحدها هي التي تفصل بينها وبين البحر الحر . ومنذ عام ١٤٩٢ ، وفي مواجهة قلعة نارفا ، على النهر الذي تسيطر على مصباته . بنى إيوان الثالث قلعة أخرى أسماها بإسمه ، وهي إيفانجورود . وبدأ الهجوم في عام ١٥٠١ . ولكنه هزم وصده السيد الأكبر للجماعة . ولم يكن ذلك إلا فاتحة لعمليات ذات مدى أوسع ستكون ، بعد خمسين عام من ذلك ، من المظاهر الأساسية لحكم إيوان الرهيب (١٥٣٣ - ١٥٨٤) .

وبدا إيوان الحرب في عام ١٥٥٨ ، وبعد أن كان قد حاول بلا جدوى إرهاب خصومه : فكانت الجماعة قد رفضت دفع الجزية التي طلبها منها نظير الاعتراف بسيادته على مدينة دوربات ، والتي كانت في الماضي تابعة لأمراء من الروس . ومنذ حلته الأولى تمكن من إحتلال نارفا ، وكانت الميناء الرئيسي لدخول السلع الآتية من الغرب . وكان رجال الهانسا هم أول من ظهر قلقهم . وبناء على طلبهم قام دايت الامبراطورية بالتشاور في هذه المسألة : وقرر اتخاذ إجراءات للقيام بعملية حصار اقتصادي . وفي جميع أنحاء بحر البلطيق زادت عمليات القرصنة بشكل واضح ضد السفن الروسية . وأظهر البولنديون بنوع خاص شدة بأسهم . وسرعان ما أخذ السويديون والبولنديون في الدفاع عن

مصالح الغربان الذين كانوا أشد أعداء الروس ، وقاموا بميليات البعض على حدود فنلندا ، والآخرين في ليتوانيا . وتمكن جوستاف فازا من إعادة غزو جزء من إستونيا . أما سيسموند اغسطس ، ملك بولندا ، فإنه كانت له قوة عسكرية تسمح له بفرض شروطه : فسيتمتع عن الدفاع عن البلاد إلى أن يترفوا له بحق الحماية (١٥٥٩) عليها . وبعد ذلك بقليل ألغى إريوان الهدنة ، التي كان قد وافق عليها نتيجة مضايقة جيرانه من التار له . وتمكن من انزال هزيمة ساحقة جديدة بالتبوتونين . وأفاد البولنديون من ذلك لكي يطالبوا بالسيادة الكاملة على ليفونيا . وأخطر السيد الأعظم للجماعة إلى أن يوافق على ما كان لا يقدر ان يتفاداه : فأزل شاراته ، واعترف بإعتماد ليفونيا مع دوقية ليتوانيا العظمى . وتبع المثل الذي كان البرت صاحب براندبورج قد اعطاه من قبل ، وحصل على تنازل على لقب اقطناع مؤقت في كورلاند ، سيحو له بالتالي إلى دوقية وراثية تحت سيادة بولندا في عام ١٥٦١ .

ومرغان ما سيظهر ، من آخر ، تقارب وثيق بين بولندا وليتوانيا : كنتيجة للخطر الذي شعروا به بطريقة متوازية في كل من كراكوفيا وفي فيلنا . وفي مجلس عقد في لوبلين ، في عام ١٥٦٩ ، قرروا توهم ان الدولتين لن يشكلتا منذ هذا الوقت إلا دجسما واحدا ، لا يقبل التقسيم ، ومتألف ، وجمهورية واحدة ومشاركة ، مع ملك واحد ودايت واحد . ولقد استمر « اتحاد لوبلين » لمدة قرنين من الزمن .

وفي أثناء ذلك الوقت ، كان إريوان قد رد على هذا التكتل البولندي السويدي بالاتفاق مع الدانمرك وأبناء لويك ، والذين حكاهم مصالهم قد اضريت بالسياسة السويدية التي أنتجت صوب منح كل تجارة بحرية مع نارفا سقي تحفظ بالأكاسب لنفسها . وتجت عن ذلك حرب بحرية : أسماها أبناء السواحل

أن تعفى السفن السويدية من دفع الرسوم عند عبورها المضيق . وبالأجلى ، فإن
السويديين والبولنديين كانوا هم المتصرفون . ولكن السيطرة على بحر البلطيق ،
والتي كان كل من الحلفاء يحلم بها ، لم تصبح لأى أحد .

وإحضر الروس إلى أن يقتنعوا بالتوقيع على هدنات . ولم يستوفوا طبيعة
الحال بهذه الوسيلة الجديدة . واعتقد إيوان أنه وجد الوسيلة التي تضمن له
الحصول على المهرات الجرمانى : فأقام ماجنوس صاحب الدانمرك ، وأحد أبناء
كريستيان الثالث ، والمقزوج إحدى قريباته ، هي أنه ملك ليفونيا . أما
خصومه ، المتكئين ، فإنهم استنصروا من معاربه ، ووافقوا على عقد هدنة جديدة
معه ، واستمرت لمدة سبعة أعوام . وسين عادت العمليات الحربية من جديد ، في
عام ١٥٧٨ ، سقطت مملكة فزرا تحت ضربات البولنديين . ولم يعد الأمر يتعلق
بمسألة ليفونيا وحدها ، بل كذلك بمسألة ليتوانيا . وسوف نشرح ذلك في
فصل آخر . ولنقل من الآن أنه منذ عام ١٥٨٢ ، إخطر إيوان ، الذي هزم ،
إلى أن يتخلى عن كل إدعاءات على البلاد المطلة على بحر البلطيق . وفي هذا التاريخ ،
ستكون روسيا قد رأت ، ولعدة قرن ، إغلاق النافذة الضيقة التي كانت قد نجحت
في فتحها على بحر البلطيق .

٤ - انتقال مراكز التبادل صوب الغرب :

لم يبق لنا ، في القطاعات الأخرى الخاصة ببحر البلطيق ، إلا أن نقبح ،
خلال هذا الجزء الأخير من القرن السادس عشر ، مصر الهانسا ، ثم مصر
بولندا .

فقد يعني الوقت ؛ إنجي مركز الأنشطة التجارية إلى أن يتقبل صوب

الغرب ، وفي صالح الدول المنافسة لها في نفس الوقت ، أى في صالح الهولنديين والانجليز ، وفي صالح هامبورج ، الميناء الأكثر وقوعاً إلى الغرب في مجال الهانسا . ويمكننا أن نرى في ذلك نتائج الصعوبات التي كثرت في الشرق أمام الهانسا ، والضعف المستمر لقواتها في مواجهة المنافسين الذين تزيد عددهم باستمرار .

ويرجع لإزدهار ميناء هامبورج ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، بنوع خاص إلى بحرى الانجليز . وكان دورها حتى ذلك الوقت بسيطاً . وكانوا يصنعون فيها أنواعاً لها شهرتها من البيرة ، وكانوا يرون فيها قطعاً من التسيج الخام آتية من إنجلترا . ولكن هامبورج أصبحت مركزاً كبيراً للتجارة البحرية ، إلى درجة أنها أصبحت تنافس لوبيك ، مركز الهانسا . ذلك أن الاضطرابات التي وقعت في الأراضي المنخفضة دفعت بالشركة الانجليزية الخاصة بالتجارة المغاربية ، إلى البحث عن قاعدة أخرى غير أنفوس من أجل عملياتهم على القارة . فأقاموا في هامبورج في عام ١٥٦٧ . وانتقلت إليها « عملة » التجارة الانجليزية رسمياً بعد عامين ؛ وسبق فيها لمدة عشرين سنة . ولكن الرأي العام الألماني ، وتحت تأثير هذه الوطنية الاقتصادية التي تلاحظ مظاهرها في هذه الفترة ، وفي أكثر من دولة ، وقف بقوة ضد الانجليز . ولم ينجح هؤلاء الاخيريون في تجديد امتيازاتهم ، بعد العشر سنوات الاولى . ومع ذلك فانهم عاندوا وأصروا على البقاء . ولم يقبلوا ما لا بد منه إلا بعد عشر سنوات أخرى ، كانت الملكة اليزابيث قد أبدت بلا جدوى فيها طلباتهم المقدمة إلى الإمبراطور . ولذلك فانهم نقلوا ، في عام ١٥٨٧ ، « عملة » المنسوجات ، إلى ستاد ، الميناء الأماهى لهامبورج . ثم مرت عشر سنوات أخرى . وهذه المرة خضع الإمبراطور نفسه لضغط الرأي العام ، وأعلن طردهم من أراضي الراين .

ولقد غضبت الملكة إليزابيث من ذلك . وفي عام ١٥٩٨ ، منعت نهائياً كل نشاط لتجار الهانسا في الأراضي البريطانية . وكان مركزهم الموجود في لندن ، والمسمى « ساحة الصلب » ، قد أقفل مرة أولى في عام ١٥٥٩ ، ومرة ثانية في عام ١٥٧٨ . وبدأ هذا الاجراء ، الآن ، على أنه لا يمكن الرجوع فيه ، ونقلت محطة المنسوجات إلى هولندا ، في ميناء ميدلبورج ، وحيث ظلت حتى عام ١٦١١ .

وفي أنفوس ، أفضت مؤسسة رجال الهانسا — ولذين كان الفلنكيون يسمونهم بالآسترلينج — بعد أخذ الاسبان لهذه المدينة في عام ١٥٨٤ . فاضطروا إلى الانتقال إلى أمستردام ، ، أى عند منافسهم : ولا شك في أنهم لم يجدوا الترحيب الكافي بهم . وفي سنوات ١٥٩٠ فقدوا كذلك الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها في الباترك . ولذلك فإن تراجعهم كان عاماً ، عند نهاية القرن . وسيزيد ذلك الامر في أثناء القرن السابع عشر ، وفي نفس الوقت الذي ستستمر فيه الانشطة البحرية الهولنديين في النمو .

وكانت هولندا حتى ذلك الوقت دولة قارية بشكل رئيسي . وكانت واجهتها البحرية محدودة على ذلك القطاع الواقع بين مصب نيمن ، وبين مصب النسيغولا . وكانت الطرق الرئيسية لتجارتها هي تلك الطرق التي كانت تأتي من ألمانيا العليا وتصل إلى أوكرانيا والبحر الأسود وأصبحت في النصف الثاني من القرن السادس عشر إحدى الدول الرئيسية من ذلك العالم الصغير المحيط ببحر البلطيق . وكان إستيلاؤها على هذا الاقليم الصغير المطل على البحر ، والمسمى ليفونيا ، يدل على قنهم عام في إنتاجها العام ، والذي كان من أسبابه الرئيسية البحث عن تصدير الحبوب عن طريق البحر .

وكانت سهول بولندا ، وخاصة الجنوبية ، دائماً من بين كبار منتجي الحبوب . وفيما مضى ، وفي القرون الأخيرة من المصور الوسطى ، كانت في حالات كثيفة نزود بالقمح مناطق الغرب الأكثر تحولا إلى الصناعة ، مثل الأراضي المنخفضة . وصوب أواسط القرن السادس عشر ، مالت هذه التجارة صوب توسع كبير . ذلك أن القمح والحبوب التي كانت تلتجها كانت تتحمل بسهولة كل منافسة مع حبوب أية دولة أخرى . فكانوا ، أولا ، يستخدمون في هذه المناطق التي تشمل على ممتلكات كبار السادة ، أيدي عاملة من التابعين ، وكانت بالتالي رخيصة . ومن ناحية ثانية ، وكان الارتفاع العام في الأسعار ، الناتج عن وصول المعادن النفيسة من أمريكا ، قد إنتشر يبطه من الجنوب الغربي صوب الشمال الشرقي ، وشعروا به بعد وقت في هذا الطرف البعيد من القارة . ولقد رأينا أن دول الحوض الغربي للبحر المتوسط قد أصبحت ، منذ سنوات ١٥٨٧ ، من كبار المستهلكين ، وأصبحوا يتمنون عن الهولنديين . ولذلك فإن دانونج لن تتأخر عن أن تظهر في الخارج على أنها أهم موانئ بحر البلطيق وأصبحت ثلاثة أرباع تجارة بحر البلطيق تتم فيها . وعلمنا أن نلاحظ ، من ناحية أخرى ، أن عدد السفن البولندية التي كانت تشارك في هذه الحركة كان بسيطاً للغاية .

وكان سوق الحبوب وكذلك تجارة بحر البلطيق في ذلك الوقت ، وبشكل عام ، في أيدي الهولنديين والانجليز . وأعطى الهولنديون أنفسهم الدور الرئيسي في تموين أوروبا الغربية ودول البحر المتوسط . أما الانجليز الذين وصلوا حتى البحر الأبيض وتوغلوا في روسيا من الشمال — وستود إليهم — فانهم أنشأوا ، في عام ١٥٧٩ ، ومن أجل تجارة بحر البلطيق ، شركة الأراضى الشرقية Eastland Co. على غرار شركة موسكوفا . وكان مركز هذه

الشركة في دانوبج في أول الأمر ؛ ثم انتقل في عام ١٥٨١ ، وبعد نشأة الصعوبات مع حكومة بولندا ، إلى ميناء البنج المجاور .

وكان أبناء دانوبج ، الفخوريين بازدهار مدينتهم — يسمونها يوموه بندقية الشال — يظهرون روح إستقلال ، تجعل علاقاتهم صعبة مع بولندا . وكان إهتمامهم إلى حركة الإصلاح الديني قد جعلهم يشعرون بوضوح بكل ما يفصل بينهم وبين جيرانهم ، وإدعوا ، في أثناء حرب ليفونيا ، أنهم يعترفون بمزايا الحياد ، وحينما التجأ إليهم القراصنة ، مرضين إياهم لعمليات إنتقام من جانب الأجناب الذين كانوا يقاسون من أعمال القراصنة ، أساءوا معاملتهم . وأخذ الهولنديون في إظهار إستقارم ، وفي تهديدهم . ومع ذلك فإن الصدام لم ينشأ إلا بعد نهاية الحرب ، حين رفضوا ، في عام ١٥٧٦ ، الاعتراف بأثنين بانوري ، الملك الذي كان قد إنتخب أخيراً . وإضطرب هذا الملك إلى أن يحاصر مدينتهم ، حتى يرجع إليهم صوابهم ، دون أن يخشى من ظهور أسطول دانمركي .

وبعد ذلك ، وفي عام ١٥٩٥ ، إفتخر فيليب الثاني ، ملك إسبانيا ، بأنه قد حصل من الملك سيجسموند ، الخاضع لنفوذ اليسوعيين (الجهوديت) ، على قاعدة بحرية في بحر البلطيق ، يمكنه أن يقوم منها وبفاعلية بعملياته الحربية ضد تجارده الهولنديين والانجليز ؛ ولكن المشروع فشل نتيجة لمقاومة الأوساط ذات المصلحة في تصدير الحبوب .

وكان تحالف السويد وبولندا ، الذي أعطى أمثلة على قوته أثناء حرب ليفونيا ، قد أعطى ميزات كثيرة للدولتين ، التي تفكرتا ، مرات عديدة ، في إقامة إتحاد أسري . ولم يتحقق ذلك — وبطريقة ضيقة ومؤقتة — إلا قرب نهاية القرن السادس عشر .

وعند أصول مشروعات الاتحاد يوجد زواج أحد إخوة أميرك الرابع ، ملك السويد ، والذي أصبح هو نفسه ملكاً في عام ١٥٦٨ باسم يوحنا الثالث . وكانت زوجته ، كاترين جاجيلون إحدى أخوات سيجموند أغسطس . ونلاحظ ، منذ وصوله إلى العرش ، إتزاناً في الاتجاه صوب روما . وصحروا لليسوعيين (الجوزيت) بالاقامة في السويد . وفي اليوم التالي لعقد صلح ستين فكر الملك في التخلص من أسطوله ، وبشمن بنس ، وهو الأسطول الذي كان يرغب في الحصول عليه كل من ملك إسبانيا ، وملكة إنجلترا ، وأمه أورانج ؛ وأظهر أنه يفضل إعطائه لفيليب الثاني . ولكن المفاوضات لم تصل إلى ما هو أبعد من ذلك ، إذ أن هذا الملك الأخير رفض أن يدفع الثمن المطلوب . ولكن البابا جريجوري الثالث عشر كان يقدر أمالاً كبار على ذلك التقارب بين إسبانيا وإسبانيا والسويد . ولم يكن يوحنا الثالث يرغب في تضييق مته ، وكان حلاوة على ذلك يتمتع بلا مبالاة في الشؤون الدينية . وحاول في عام ١٥٧٤ ، وبتأييد من روما ، الحصول على تاج بولندا ، والذي كان ذهاب دوق آنجو قد تركه خالياً ؛ ولكن توشحه فشل أمام فرص إثنين باتوري .

وكانت مسألة عودة السويد إلى المذهب الكاثوليكي مطروحة بوضوح في هذه الفترة . وإذا كان الأمر لا يتعلق إلا بملكها ، فإن الإصلاح المضاد كان سيحصل على ذلك التناجح الكبير الذي كان يبحث عنه بلا جدوى منذ أن كانت الملكة البرازيت قد غيرت في إنجلترا ما كانت ماري تيودور قد قامت به . ولكنه كان لمنهجه في ذلك المذهب الكاثوليكي ، الذي كان شديد التمسك بالمذهب الكاثوليكي . وفي عام ١٥٧٨ ، سافر أحد السفراء من طرفي هذا التناجح ليرى الملك فيليب ، ولما جاء إلى البلاط في باريس على ذلك بإرسال الأب بوسفيتو ، وهو من اليسوعيين . ولما جاء إلى البلاط

بعد شهر يحمل القرار : بعد أن استمع إلى اعتراف الملك ، وأعلن القديس في حضوره ، ومنحة البركة . فسادت الفرحة في القنايين ؛ ولكنها كانت لوقت قصير : إذ أن يوحنا الثالث ، خشي من النتائج الممكنة لسلوكه ، فطلب مهلة قبل إعلان نموه ، واستند إلى ضرورة تهيئة الرأي العام لذلك ، ثم تهرب ، في نهاية الأمر : وبعد أن كان تاج السويد هو الذي حاول بلا جدوى أن ينضم إلى بولندا ، نجد أن تاج بولندا ، عند نهاية القرن ، هو الذي يحاول أن يضم نفسه إلى السويد .

وبعد المملكة الضعيفة لمزى صاحب فالوا ، أخو ملك فرنسا ، وبعد ملكة إيتين باتوري ، أمير ترانسلفانيا ، والتي ستمود إليها في أحد الفصول التالية ، لانتخب البولنديون ، في عام ١٥٨٦ ، سيجموند فاذا ، ابن يوحنا الثالث ، وكارين جاجيلون ، وبالتالي وريث الأسرتين ، ملكاً عليهم . وكان قد نشأ وترى في ديانة والده ، وسيظهر أنه كاثوليكي متعصب . ولذلك فإنهم لقبوه « ملك اليسوعيين » . ونظراً لحالة التفكير الموجودة في السويد ، فإنه إصطدم بمقاومة شديدة حين حاول ، عند وفاة والده في عام ١٥٩٢ ، أن يحصل على تاج السويد . وتول عنده أحد أمهامه ، وبصفته مرشحاً وطنياً ، ومن أنصار لومر المخلصين . وحاربه سيجموند في معركة داخل الأراضي السويدية . ولكنه هزم ، واضطر إلى الإفلاح على إحدى السفن . وأخذ مناقسه ، بمعمونة مجلس التاج ، تاج السويد باسم شارل التاسع في عام ١٥٩٩ .

ومن هذه العلاقة الضعيفة ، التي كان في وسعها في أن تمهد مصير بولندا لوقت طويل ، لم يبق أي شيء — سوى ربما تلك المشاعر بالصفحة بين البولنديين والسويديين ، ونقل عاصمة بولندا من كراكوفيا إلى وارسو ، الأمر الذي رجع إلى رغبة سيجموند في تهريب مكان إقامته الرئيسي من شواطئ بحر البلطيق .

البَابُ الثَّانِي

مناقصات الدول العظمى

مقدمة الباب الثاني

علينا أن نحتفظ ، في كتابتنا ، بالمكان الأول ، والأكثر إنساعاً ، لتاريخ الغرب . ففي هذا المكان ، وفي ذلك الوقت ، كما حدث في أوقات أخرى ، تقرر مصير العالم المتحضر .

ومنذ قرون ، كان إنباء أوروبا الثقيلة يلتفت صوب الشرق ، وحيث كانت تنسب ، من وقت لآخر ، حركات للغزو . وحتى في أثناء القرن الخامس عشر ، إرتجف أمام العثمانيين . وظل الخطر موجوداً ، وإن كان في مجموعة أقل خطراً مما كان عليه في فترات أخرى . فلقد تهرود الناس عليه . ولم تعد الدول الغربية تشعر بأنها تعرض له بطريق مباشر . وبدورها ، قامت هذه الدول بالخروج من حدودها ، وحاولت أن تجد ، قريباً أو بعيداً عنها ، تلك المناطق التي تصلح لتوغلها بطريقة مناسبة .

ولقد رأينا ما كانت البحار تمثله من إجتذاب ، إبتداء من البحار الأكثر بعداً ، وبامكانية غزو ثرواتها الذهبية ، ثم البحار الأكثر قرباً بعد ذلك ، والتي كانت معروفة من وقت بعيد ، وتسير فيها السفن ، وحيث كانت المواقع التي يحتلها أبناء السواحل المجاورة قد شهدت هجمات ، وغزوات ، قام بها منافسون جاءوا من الغرب .

وكانت لمحاولات التوسع على القارة نتائج أقل إنساعاً ، وأقصر عمراً ، ولكنها جعلت عدداً أكبر من الدول تشبك مع بعضها في حروب . وتسببت في صدامات دموية ، ولا تفتي .

وتحتل فرنسا دائماً المكان الأول في هذه الصدمات . وتنسب في نشأة منافسات بين الدول العظمى ، وتقوم لفترة طويلة بتحريك العوامل الدبلوماسية والعسكرية : فكانت مبادراتها هي التي تقرر الحرب أو الصلح . وهذا ، في نظرنا ، سبباً هاماً يدفعنا إلى دراسة هذه الفترة بانتباه خاص .

الفصل السادس

التفوق الفرنسي

حد حدود المملكة التي وصلت إليها ممتلكات لوى الحاذى عشر ، - برجلنديا ، ويكلوديا ، وبروفانس - ظلت دولتنا خارج الدول القومية العظمى التي تكونت ، دولتان متسعتان ، وهيتان ، وكاتنا الأكثر قوة في التصنيع في ذلك الوقت : الأرض المنخفضة ، وإيطاليا . وسوف تنجبه حركة المد في الغزو ، والخاص بالأمة الفرنسية ، صوب هذين الاتجاهين . وسوف تصير بالقسمة لإيطاليا ، بشكل واضح ، ولن تترك هذا الاتجاه ، إلا بعد نصف قرن من المحاولات ، ، ورضاً عنها .

١ - مسأمة بريتانى كمقدمة للحروب :

كانت إيطاليا في سنوات القرن الخامس عشر تمثل نوعاً من أنواع الممالك ، ويرجع ذلك لفضيلة واحدة تتمثل في نبوغها وحضارتها . ولم يكن شرق القارة ، مثله في ذلك مثل غربها ، يتمكن من التهرب من الإلتفات إليها . ففي بولندا ، وفي كراكوفيا ، تم بناء قصر واويل في عصر سيجسموند الأول بميلادين من فلورنسا . وفي موسكويا البعيدة ، وحيث لم يكن الفن القوطي قد تمكن من الوصول ، قام فنانون وفنيون إيطاليون ، إستخدام إيمان التاك ، بالعمل في الكرملين .

ولن ما كان يشير الأطلاع في شبه القارة ، لم يكن يتمثل في إشباع فيها ، ولا في الاتجاه الانساني الذي توطن فيها ، ولا حتى تلك الثروات التي كانت مكدسة في مدنها . بل كان يتمثل في أنها ، على العكس من الدول المجاورة لها ، لم

تمكن قد دخلت بعد في طريق الوحدة . وظلت منقسمة على نفسها ، وبعمق . فكان في وسع كل واحد أن يجد لنفسه فيها أصدقاء وحلفاء ولذلك فإنها كانت تمثل أرضاً جيدة لمناقصات الدول العظمى ، وفريسة مغرية لذلك الذي تحرك روح الغزو والسيطرة .

وكانت فرنسا قد جربت قوتها على مسرح صغير . وكانت في نفس الوقت أو على التوالي تصطدم بعداوة الأسرة الحاكمة في النمسا ، والأسرة الحاكمة في اسبانيا ، وفي إنجلترا ، ونجحت في الانتصار عليها . ورغم أن مسألة وراثته بريثاني ترجع إلى التاريخ الداخلي لفرنسا ، أكثر مما ترجع إلى تاريخ علاقاتها بالدول الأخرى - خاصة وأن دوق بريثاني كان قد ظل نظرياً تابعاً للملك فرنسا - إلا أنه علينا أن نقف هنا قليلاً ؛ إذ أن هذه الحالة تمثل من بعض أوجهها المثل الواضح للآزمات التي استدفع الدول العظمى ، في خلال القرن السادس عشر والقرون التالية ، إلى أن تتواجه مع بعضها وعلى أكبر المساح .

ولقد كانت هناك أسباب جادة تدفع بالسياسة الفرنسية إلى أن تنظر إلى ناحية بريثاني قبل أن تعلن إهتمامها بإيطاليا . فكانت هناك أسباب سياسية في أول الأمر : إذ أن الأمر كان يتعلق بإقليم كان كثيراً ما خضع ، خلال الحروب مع إنجلترا ، كباب لدخول العدو . وكذلك أسباب إقتصاديته ؛ إذ أن أبناء بريثاني كانوا قد أعطوا أنفسهم خلال النصف قرن الأخير دور الوسطاء البحريين ، وسطاء بين الدول العظمى التبرية ، وهو نفس الدور الذي سيقوم به الهولنديون فيما بعد . ويذكر لنا أحد المؤرخين ، قبيل ضم الإقليم للملكة . « إن أبناء بريثاني في خدمة كل العالم ، ويعملون في الوساطة والنقل البحري . ويجرون سفنهم السفر في أي اتجاه ، ويسمى كل من الفلنكيين ، والإنجليز ، والباريسيين ،

وأبناء تولوز ، وروان ، وبوردو ، وقشتالة ، والبرتغال ، إليهم ومن أجل خدماتهم .

وتمثل مسألة بريتاني نفس المصالح المحققة والمتداخلة مثل الحروب الإيطالية ، وإن كان ذلك بدون تنوع الارتباطات : فهي في نفس الوقت عاتمة الحروب الإنجليزية ، ومقدمة الحروب بين فرنسا وبين الاسرة الحاكمة في النمسا .

وكان مكسيميليان آل هابسبورج ، سيد الأراضي المنخفضة ، والامبراطور المقبل ، قد فعل كل شيء ، بعد وفاة لوى العاشر عشر ، من أجل خلق المشكلات لأن دى بوجيه ، الوصي باسم أخيه شاول الثامن ، وذلك بأمل إضغاف فرنسا ، وإستعادته لدوقية برجانديا . وخرج في عام ١٤٨٦ الحرب ، ولكنه انهزم في آرتوا . وعلى هذا الأساس ثار الفلنكيون عنده ، وحصلوا على تشجيع لهم من باريس . ونتيجة لنداء مكسيميليان ، إلتف حوله البريتون - في شكل عصبة إقطاعية وتمكث في نفس الوقت - وذلك مع كل أعداء ملك فرنسا . وكانت أول حرب في بريتاني ، وقعت في عام ١٤٨٧ ، وسميت « بالحرب المجنونة » . أرسل مكسيميليان ألف وخمسة رجل الهجوم على سان مالو . وعبر كذلك بضع مئات من المتطوعين الإنجليز إلى القارة ، وقم المنع القاطع من جانب هنري السابع ، الذي كان كان نجولا من الفرنسيين ؛ وبعد أن كانوا قد حاولوه على إستعادة حرشه . وانهزم جيش البريتون مع أنصاره في عام ١٤٨٨ ، هزيمة ساحقة . ومع ذلك ، فإن معاهدة فرجييه لم تفرض أى إلتزام على الدوق فرانسوا الثاني إلا فيما يتعلق بعدم تزويج إبنته دون حصوله على موافقة الملك : شرط هام ، إذ أن مكسيميليان كان قد تقدم لطلب يد الوارثة .

ووفق الفوق ، بعد التصديق على المعاهدة مباشرة ، وأصبحت مسألة بريتاني أكثر إشغالا عما كانت عليه في أي وقت مضى : واضطر هنري السابع ، رغم

مجهوداته من أجل البقاء على الحياد ، إلى أن يستجيب لنداءات دعاياه ، الذين كانوا قد ظلوا من أنصار الفرنسيين ، والذين طالبوا بضرورة مساعدة البريتون . فأرسل حملة صغيرة ، عسكريت في مودليه ، وكونكزنو . وكان هناك بعض الألمان ، ولكن بأعداد أقل ، يتجهون الانحياز عن قرب ، وكذلك بضعة آلاف من الأسبانيين الذين كان فرناند صاحب أراجونيه قد أرسلهم ، وكانوا يأملون في إفضال جهودات فرنسا التي كانت تنازعهم روسيليون ، وكرداني . وفي عام ١٤٨٩ ، تهدد ملك إنجلترا ، وملك رومانيا ، بمعاهدة فرانكفورت بعدم ترك أي أحد يتعرض لاستقلال بريتاني . وفي العام التالي ، تم عقد التحالف مع الملوك الكاثوليك . وأخيراً ، تم عقد الزواج الذي كان مشروعه موجوداً منذ وقت طويل ، بين مكسيميليان وبين آن صاحبة برتاني : واحتفل بقرعه في دين ، ويتوكل ورأى الفرنسيون في ذلك تقصداً لمعاهدة فرجييه . ولذلك فإن الحرب بدأت وعاد ظهور الجنود البريطانيين بعد أن كانوا قد ركبوا سفينهم ، وجمعت الأنباء عن وصول قوة من الألمان ، ولكنها لم تصل في الوقت المناسب . وكان الاستيلاء على دين ، بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، يتوج انتصار الفرنسيين . واضطرت الدوقة الصخرة إلى ترك زوجها البرجاندي وإلى قبول خطيبها الفرنسي - الملك - الذي تقدم لها في ظروف غير متوقعة . ومعاهدة لوتيجية ، في عام ١٤٩١ ، تم اتحاد الإقليم مع مملكة فرنسا ، وبشكل نهائي . ومنذ هذا الوقت لم تطرح مسألة برتاني على الصعيد الدولي .

٤ - التدخل الفرنسي في إيطاليا (الحروب الإيطالية) :-

كان لوى الحادى عشر قبل هويته قد وعد بتزويج وريثه من مارجريت النمساوية ، أخته مارى صاحبة بروينديا ، ومكسيميليان . وهذا الاتحاد ، الذي لم يتم ، كان سيصل مملكة أدريا وفرنسي كوتيه ، أجزاء هامة من ميراث

بورجنديا . فوحدات الخطية الشابة إلى بروكسل . ولما كانوا قد تباطؤوا في إعادة
الأنظمة التي كانت الممونة الخاصة بها ، والتي كانت قد تم احتلالها مقدماً . فإن
مكسيميليان قد اضطر إلى العودة لأخذ هذه الممتلكات بالقوة .

وبدا أن الحرب سوف تفسأ . ولكن شارل الثامن ، بعد أن بلغ من الرشد
كانت له مشروعات أخرى : فكان يرغب في الإذهاب لمحاربة المسلمين ، ويبدأ ذلك
بالإستيلاء على مملكة نابولي ، وبصفها موقفاً متقدماً في اتجاه الأراضي
القدس . وإستند إلى حقوق ، تزيد أو تقل درجة صحتها ، وجمعا في ميقات أسرة
آلهم ، كذرائع له . وكان معظراً ، من أجل السهر في هذه السياسة ،
إلى تصفية المشكلات السابقة . وقام بذلك على خطوات ثلاث ، وبواسطة ثلاث
معاهدات ، تالت في أقل من عام واحد . فمعاهدة إيتاب (٢ نوفمبر ١٤٩٢)
أعادت العلاقات الودية مع إنجلترا . وكان هنري السابع ، بالإتفاق مع مكسيميليان ،
قد أرسل بعض القوات لمحاصرة بولونيا . ولكنه إحتاج إلى المال : فجهله شارل
الثامن يفك هذا الحصار نظيره تمهده له بأن يدفع له تلك المبالغ التي كانت حكومة
بريتاني ستقدمها له . وكانت لمعاهدة برشلونة (١٩ يناير ١٤٩٣) نفس النتائج
من ناحية جبال البرانس . وكانت فرنسا تدير كورتنيات روسيليون وكرداني ،
الذي كان أحد ملوك أراجونته في الماضي قد درهنا عند لوى الحادى عشر وكثبان
لسلفة ١٠٠.٠٠٠ جنيه ذهب ، وأعادها شارل الثامن دون أن يطالب بإعادة دفع
المبلغ المقرض . وأخيراً كانت هناك معاهدة سترل (٢٣ مايو ١٤٩٣) التي جعلت
مكسيميليان ينهى الحرب . ولقد حاول ملك الرومانيين أن يهيج الرأي العام في ألمانيا
على الأراضي المنخفضة ، ضد ذلك الذي كان قد أخذ منه زوجته ولكنه فشل في
أن يجد الرجال والاموال . وكان سقيداً لأن شارل الثامن تنازل رسمياً عن دوقية
مارجريت .

وهكذا أصبح الجو سيئاً، وأصبح في وسع الملك أن يتفرغ للاعداد لمشروعه. وبدأ أن كل شيء كان يعمل في صالحه. فكان البابا أنوسنت الثامن قد جدد طلباً سابقاً لبابا سابق لهي لوى الحادى عشر، طالباً تدخله عند ملك نابولى، وبصفته من التابعين المناوئين. وكان ضيان تأييد الكنيسة للمشروع أمراً كبير الأهمية: حقيقة أن أنوسنت الثامن توفى، وأن خليفته، إسكندر السادس يورجيا سيأخذ موقفاً مختلفاً تماماً. فكان دبلوماسياً بطبيعته، وكان ينوى إستخدام التهديد الفرنسى كوسيلة تسمح له بفرض رغباته على ملك نابولى، وإن كان قد إقتصر على مجرد التهديد. أما شارل الثامن فإنه لم يراما هو أبعد من التشجيعات التى كان الكرمى البابوى يرسلها إليه. وبعد موت ملك نابولى في شهر يناير ١٤٩٤، إتفق خليفته مع إسكندر السادس؛ فقام هذا الأخير بالتوصية رسمياً بإلغاء الحلة ولكن الفرصة كانت قد أفلتت.

ومنذ أن تمركز الجيش في شهر سبتمبر في ١٤٩٤ أعطى شارل الثامن لنفسه، رسمياً وغلنياً، لقب «ملك صقلية وديت المقدس»، والذي كان ملوك نابولى من أسرة أنجو يحملونه. ونتيجة لتأخير الفرع الناتج عن تلك المدفعية التى لم يكونوا قد رأوا مثلاًها مع أحد الجيوش المحاربة، كان التقدم سهلاً وصريماً. وتقدم الجيش بدون مقاومة تقريباً، ووصل إلى نابولى قبل نهاية شهر فبراير ١٤٩٥. وحصد البابا عن مقاومة مروءة، ولكنه كان قد إستمر في إظهار عدم موافقته على العملية. وكان شارل الثامن قد حصل من الولوث الأخير للإمبراطور البيزنطى في القسطنطينية، من أسرة باليولوج، على تنازل عن حقوقه، نظهر دخل لمدى الحياة؛ وأصبح من حقه إذن أن يحمل التاج الإمبراطورى وفي نفس الوقت تاج نابولى. ويفسر لنا هذا الأمر هذين الإحتفالين الذين شاهدهما أبناء

نابولي يوم ١٢ مايو ١٤٩٥، والذين نتج عنها إتهام، من جانب معظم المعاصرين
بجنون العظمة، وهم يجهلون ما كانوا يشاهدون.

وبعد ثمانية أيام اضطّر الجيش إلى التقهقر، ولم يترك في نابولي إلا حامية
بسيطة. وكان قد أصبح مهددا بالقضاء عليه، وكأنه في مصيدة، وتمكّن الغزو
الفرنسي من أن يحقق الوحدة المعنوية لإيطاليا. فكانت البندقية والحرس
البابوي على علاقات سيئة ببعضهما منذ وقت طويل، واضطرا إلى التصالح. أما
الإمبراطور، والملوك الكاثوليك، فإنهم وعدوا بالعمل سويا من أجل
الحفاظ على السلم، أي من أجل طرد أولئك الذين جاءوا من أجل الحرب.
واشتركت كل الدول والامارات الإيطالية تقريبا، وباستثناء فلورنسا التي
كانت حليفة تهابدية لفرنسا، الواحدة بعد الأخرى، في عصبة البندقية.
وعسكر جيش المعاهدين، والذي كان في غالبية من البنادقة، في سهل نهر يو.
وبعد معركة فورنو العنيفة في ٦ يوليو ١٤٩٥، نجح الفرنسيون رغم كل شيء
في التخلص من أعدائهم، وفتحوا لأنفسهم ممرات صوب الشمال.

ولقد رفض شارل الثامن الاعتراف بأنه كان قصير النظر، وأخذ في
الاستعداد للانتقام. وفي هذه المرة سيكون معه فرديناند صاحب أراجونته،
الذي إستبهره فكرة تقسيم مملكة نابولي إلى قسمين. وتفاوض معه في عام ١٤٩٧.
وإستمر في إستعداداته حتى توفي فجأة. وكما كان خيالها ومغامرا، كان خليفته
لوي الثاني عشر حريصا ويحسب حسابا لكل شيء. ومع ذلك، فإنه سيتبع
نفس الطريق الملىء بالمفاجآت. ذلك أن إيطاليا التي رأى أعوان شارل الثامن
منها بعض الأجزاء كان من الصعب نسيان ذكرياتها. وكانت فكرة العودة إليها
تستهوهم. ولا شك في أنهم ضغظوا على الملك الجديد حتى يتقدم بها مرة
أخرى.

وكان لوى الثانى عشر من سلاة فيسكوتى ، والذين كانت أسرة سفورزا قد أخذت منهم الملك فى أواسط القرن الخامس عشر؛ فكان من حقّه أن يتقدم ببعض الادعاءات بشأن ميلانو . ومنذ وصوله إلى العرش اسمى نفسه « ملك فرنسا ودوق ميلانو » . وكان ذلك يحمل ، ضمنا ، اعلان الحرب على لودفيج سفورزا ، الدوق الحاكم هناك . وبطريق مباشر لم تكن المخاطر كبيرة . ذلك أن البنادقة ، جيران ميلانو ، كانوا أعداء لهذه الدوقية : ويمكن ملك فرنسا من ضمان معاناتهم بالمعاهدة التى عقدها معهم فى لوسرن فى ١٦ مارس ١٤٩٩ . ومن جانب آخر ظهر أن الوفاق مع فرديناند صاحب أراجونه كان قويا . وتأكد ذلك فى معاهدة ماركوس فى ٥ أغسطس ١٤٩٨ . وكان من الضرورى فقط حمل حساب الموقف العدائى من جانب مكسميليان . ذلك أن لودفيج سفورزا كان قد حصل على تأييد ذلك « الامبراطور المفلس » ، والذى كان نظريا صاحب السيادة عليه ، وذلك بحمله يتزوج ابنة أخيه ، ييانكا سفورزا ، والتى كانت دوطنتها الملكية تصل إلى ٤٠٠.٠٠٠ دوق ، وجعل نفسه بهذه الطريقة مولاه . ولكن مكسميليان كان بعيدا ، وكان منذ عام ١٤٩٥ قد أظهر أكثر من مرة ما يدل على ضعفه . وكان قد بدأ عمليات حربية ضد الفرنسيين على حدود برجنديا ، ولم يحصل منها إلا على الهزائم . وفى مدة شهرين (أغسطس — سبتمبر ١٤٩٩) قامت قوات ملك فرنسا بغزو كل أراضى ميلانو . أما لودفيج سفورزا فإنه لم يحصل إلا على ثلاثمائة جندى ألماني ، فالتجأ إلى الأراضى القسوية ، وتمكن من الحصول على قوات أخرى فى الأشهر الأخيرة من السنة ، وإستخدم بعض السويسريين ، ثم بدأ الهجوم فى أثناء الشتاء . وتمكن من إستعادة أراضى ميلانو فى شهر فبراير عام ١٥٠٠ ، ثم قتلها فى شهر أبريل . وفى هذه المرة وقع الدوق فى الأسر : وسيبوت فى فرنسا بعد سنوات صعبة كأسير . أما جمهورية

جنوه ، والتي كان مصيرها مرتبطاً بأراضي ميلانو ، فإنها قبلت ، وبحرية نسبية ، سلطة ملك فرنسا .

وفي اليوم التالي لهذا النجاح ، عاد لوى الثانى عشر من جديد لمشروعات شارل الثامن المتمثلة بـ نابولي . وكان قد حصل على رد إسكندر السادس عن طريق منحه الهدايا لابنه المفضل قيسر يورجيا . وبدأوا يتحدثون بطريقة جدية عن حملة صليبية . وبدأ هذا الملك المسيحى على أنه الأمير الوحيد الذى يقدر على بذل مجهود فعال ، والوحيد الذى يمكن أن يهدوا إليه بإدارة مثل هذا المشروع . ولكن يضمن معونته ، أعطاه البابا سلطة مطلقة ضد ملك نابولي ، الذى أتهم فى ذلك الوقت بأنه يعمل فى صالح المسلمين . وكان ملك فرنسا قد قام بالاتفاق مع الاسبانين بوضع مشروع الغزو المشترك ، وذلك فى معاهدة غرناطة فى ١١ نوفمبر عام ١٥٠٠ . وفى الصيف التالى ، وبينما كانت القوات البحرية تستعد للإقلاع صوب الشرق ، قام جيش فرنسى وجيش آخر إسباني بالاستيلاء على مملكة نابولي . ولكن هذا الإحتلال الثانى كان قصير الأمد ، مثله فى ذلك مثل الإحتلال الأول . ف وقعت أحداث ، ثم إصطدامات ؛ بين الجيشين . ولما كانت الحكومتان قد فضلتا فى التقام على شروط التقسيم ، فإن حلفاء الامس وجدوا أنفسهم إبتداء من وسط عام ١٥٠٢ فى حالة إعتداءات مستمرة .

وإضطرب الفرنسيون الموجودين فى نابولي إلى أن يفسحبوا ويتجهوا صوب الشمال . ولقد قاموا لمدة بضعة أشهر فى جايئا . وفى هذا الوقت توفى البابا إسكندر السادس وكانت الإمكانيات الجديدة التى قد تحدث تهجرهم على البقاء لأشهر طويلة قرب روما ، خاصة وأن الكاردينال جورج هامبواز ، المستشار الرئيس للملك لوى الثانى عشر ، كان يعتقد أن فى وسعه التأثير على الانتخابات البابوية القادمة .

وفي شهر ديسمبر لإنهات هذه الآمال ، وحاد النشاط العسكري إلى منطقة جاينا التي ظهر فيها تفوق بيار . وتمكن الإسبانيون ، الذين كانوا يتمولون من نابولي ، من الإبتصار . وفي الأيام الأولى من شهر يناير عام ١٥٠٤ انسحبت حامية جاينا من مواقعها ، بعد أن سمحوا لها بالرجوع إلى فرنسا عن طريق البحر . وكان هذا نهاية السيطرة الفرنسية في بلاد نابولي أما مملكة الصقليتين ، التي أعادوا لإنشائها في صالح المنتصرين ، فإنها ستصبح من الممتلكات الإسبانية لفترة تزيد على قرنين ، وحتى عام ١٧١٣ .

٣ - الخلاف بين فرنسا والبابا :

فيا بين عامي ١٥٠٤ ، ١٥٠٨ عرف الغرب بضع سنوات من السلم ، استمرت خلالها الدبلوماسية في العمل .

وبدأت جولة فيا بين لوى الثاني عشر ومكسميليان ، ولعب فيها فيليب انجمل ، إين الإمبراطور ، وسيد الأراضي المنخفضة ، دوراً هاماً . وكانت سياسته سلبية تحت تأثير مستشاريه البلجيكيين . وأظهر ذلك في أول الأمر تجاه إنجلترا : فوضع بذلك حداً لذلك الخلاف الذي كان قد استمر بين البلدين لعدة أعوام . ودل على التكامل بينهما تلك الإتفاقيات المتتالية الخاصة بالمدفوعات في عام ١٤٩٩ ثم في عام ١٥٢٢ والتي كانت تنص على الحرية والأمن الخاص بالتبادل من كلا الجانبين . وكان فيليب قد أعاد العمل بها بمعاهدة ١٤٩٦ . وكان يحلم من الجانب الفرنسي ، بأن ينهى بطريقة مشابهة على ذلك التوتر المستمر والذي كان قد نشأ نتيجة لسوء التفاهم بين الملك والإمبراطور . وبناء على توجيهاته ، قرر مكسميليان أن يسع على طريق التقارب رغم أنه كان لا يزال يشك في لوى الثاني عشر وعلى أساس أنه يرغب في أخذ الإمبراطورية منه (أو

كان على الأقل يتهموه بذلك حتى يحاول التأخير في الرأي العام في ألمانيا) . وتم وضع اتفاقية في ليون في شهر أغسطس في عام ١٥٠١ ، ثلثها معاهدة وقع عليها كلودينال دامبواز بإمام ملكة في تراث يوم ٣ أكتوبر ١٥٠١ . و رسم ذلك أمر أصلاء ميلانو لشارل ، ابن فيليب الجليل ، الذي سيتزوج بإبنة لوى الثاني عشر الوحيدة ، وبشرط ألا يكون لها أخ : ولكن الملك كان يأمل في أن يولد له ابن . وتمهد مكسيميليان بأن يعطى لشارل مباشرة مرسوماً بحكم ميلانو . ولكنه أصر على ضرورة بقاء هذه التسوية سرية . ولما فشل في الحصول على مثل هذا الوعد ، ترك المعاهدة بدون تنفيذ .

ولذلك فإن فيليب الجليل قد اضطر إلى بدء مجيوداً من جديد . وعادت المفاوضات ، وانتهت في عام ١٥٠٤ بمعاهدة بلوا ، و اضيفت بوجنديا إلى دويلة كلود ، ابنة لوى الثاني عشر ، وكان مرسوم حكم ميلانو سيمتخ في فترة ثلاثة أشهر لحطيبها ، أو إلى الملك في حالة حصوله على ابن ذكر . وجاء تنفيذه آخر في السياسة الفرنسية لكي يلقى كل نتائج هذه المفاوضات الطويلة . ذلك أن لوى الثاني عشر قرر أن يتخلى عن الأمل في الحصول على ابن ، وسأول أن ينظم أمر خلافته ، فأعلن خطوبة ابنته كلود إلى أقرب أقربائه ، وهو الذي سيده من بعده : فرانسوا صاحب النجوليم : وكان ذلك يستبر الفاء لتمديدات بلوا . وثار مكسيميليان لذلك : وأخذ في الاستعداد العسكري ، وحين توفي فيليب الجليل فجأة ، في شهر سبتمبر ١٥٠٦ ، حول إتباعه صوب الأراضي المنخفضة . وكانت العملية هامة ، إذ أنه فيليب ، الذي كان يحصل على حقوقه عن طريق والدته ، لم يكن يمارس أقل سلطة على ميرات بوجنديا . وسيتغير الموقف بشكل تام . فكان حفيده ، شارل لا يزال قاصراً ، وكان الأمر يتطلب وضعه تحت الوصاية . ونجح في أن يحصل على هذه الوصاية من مجلس طبقات الأمة . وأرسل ابنته مارجریت

أرملة دوق سافرا ، إلى بروكسل ، لكي تمثله هناك . وقامت مارجريت ، التي كانت
مخلصة تماماً لوالدها ، بتأييد مشروعاته إلى حد بعيد ، مع آخر رعاياه من الفلمنكيين .
وكانت الحاكمة الجديدة للأراضي المنخفضة لا تقل عن أخيها فيليب في الرغبة
في السلم ، سواء كان ذلك بالضرورة ، أو نتيجة لميلها الشخصي . وكانت فكرتها
تتمثل في أن تعمل على ربط الملك والإمبراطور وتشركها في عمل مشترك ، وهو
القيام بحملة صليبية . وعلى هذا الأساس بدأت المحادثات مع كاردينال أمراز في
كامبراي . وسرعان ما تحدثوا عن البنادقة الذين كانوا على علاقات وثيقة مع
العثمانيين ، في الوقت الذي كانوا لا ينفذون فيه مصالح ، ولا يعترفون فيه بحقوق
الكرسي البابوي في إقليم رومانيا . وانتهى الأمر بالاتفاق على ضرورة إعطائهم
درساً . وكان مكسميليان على علاقات حذرة معهم بشأن تملكاته على سواحل بحر
الادرياتيک ، وبنوع خاص بشأن كونتية جورنيس ؛ وحين ذهب إلى إيطاليا ،
في الوقت الأخير ، بقصد الذهاب لتتويج نفسه في روما ، نفذت عمليات عدوانية ؛
وسقطت تريستا وفيومي في ايدي البنادقة ؛ وكانت الهدنة التي اضطر إلى التوقيع
عليها قد تركتهم سادة لهذه المواقع . وبدت هذه المناسبة فرصة مواتية للانتقام .
ولذلك فإنه كان على ملك فرنسا أن يعيد احتلال ذلك القطاع من أراضي ميلانو
الذي كان قد دفع ثمناً له ، في عام ١٤٩٩ ، حياد البندقية . واستحصل البابوية على
إعادة فرض سيادتها على مدن رومانيا التي كانت قد انتزعت منها في القرن الماضي .
وستعطى مملكة نابولي ميناتي برنديزي وترانت الذين كانوا قد تم التخلي عنها في عام
١٤٩٥ وقت إنشاء عصبة البندقية . وكان هذا هو محتوى الفقرات السرية التي تم
الاتفاق عليها في كامبراي في ١٠ ديسمبر ١٥٠٨ ؛ أما المعاهدة العلنية فإنها لم
تتحدث إلا عن تعاون من أجل الدفاع عن المسيحية ضد العثمانيين .
ووافق البابا يوليوس الثاني ، بعد تفكير عميق . وكان لا يوافق على وجود

الفرنسيين في شبه الجزيرة : وكان قد أظهر ذلك حين ذهب إلى جنوه ، لوى الثاني
حضر وقع حركة استقلال ، وكان البابا من مواليد جنوه . ولكن الأمر كان يتعلق
في ذلك الوقت بإعادة سلامة أراضي البايوية ، وبمقابلة البنادقة ، والذين كان
غروهم وإماناتهم قد فاقوا الحدود : ومن أجل هذا الهدف وافق على المخاطرة
بأن يأتى إلى إيطاليا ، ومرة جديدة ، بنهران الحرب وأصدر قراراً بحرمان
البندقية ، التى إستسلمت بسرعة : وهزمت قواتها المرتزقة في أول معركة عند
أجناديل في ١٤ مايو ١٥٠٩ . ولم تثبت البندقية بموقف معين ، بل دخلت بسرعة
في معادلات مباشرة مع روما ، وحصلت فى مدة تقل عن شهرين بعد ذلك على
وعد بإلغاء الحرمان : وأعدت بماهدة ١٢ فبراير ١٥١٠ معظم المدن التى كان
يطالب بها الكرسي البايوى مثل رافينا وريميني وغيرها . ولم يكن بينهما بعد ذلك
أن يحضر مكسيكيان ، والذى كان قد تأخر ، ويظهر من جديد في إيطاليا مع جيشه ،
ويلهث في محاولته أخذ بادوا . ومنذ هذه اللحظة تم إنقاذ الجمهورية . وصدر لها
القرار البايوى برفع الحرمان في ٢٤ فبراير ١٥١١ . وأنهى يوليوس الثاني أعماله
بقلب الأوضاع وأخذ موقفاً ضد حلفاء اليوم السابق ، وإنهمهم بالوحشية
والبربرية . ولقد قرر هذا البابا الإيطالى ، أن الوقت قد حان لكي ينتهى مع
الأجانب . وكان الأجانب الأكثر تهديداً لإيطاليا هم الفرنسيين . وعمل على أن يشد
ضد كل جيرانهم . وسيقوم أحد هؤلاء الجيران بالدخول إلى هذه اللعبة دون
أى تحفظ ؛ وبمنحه تأييداً كبيراً : وكان هذا يتمثل في كاتونات سويسرا .

ولعب السويسريون خلال عدة سنوات الدور الرئيسى والذى لا يشرحه قريبهم
من ميدان العمليات العسكرية إلا بشكل جزئى . وكانت مسألة ميلانو تهجم بشكل
خاص ، إذ أنهم كانوا يستوردون من لومبارديا جزءاً هاماً من القمح الذى
يحتاجون إليه ، وكانت لهم مع فرنسا ، التى كانت تجند لديهم قواتها من المشاة ،

علاقات حسنة منذ وقت بعيد . وكانوا قد أصبحوا حتى حلفاء لها بمعامدة ١٦ مارس ١٤٩٩ . ولكن لوى الثانى عشر كان ملكا مقتصدا ، وبذل مجهودا من أجل الإستغناء عنهم ، وذلك عن طريق تنظيمه لقوات من « المغامرين » (أى من المشاء) من الفرنسيين ؛ وتنج عز ذلك فتور فى العلاقات بين الجانبين . وأخيرا فإن كاتونات سويسرا لم تكن ترغب فى رؤية ميلانو تقع فى أيدي دولة عظمى ، يصعب عليهم أن يدافعوا عن أنفسهم عندما إذا ما هاجمت تمويهم . وحاول يوليوس الثانى أن يغير من هذا التفكير الجديد مع أنظر عدو يمكن لفرنسا أن تجده فى سويسرا ، مع ماثياس شينر ، أسقف سيون ، الذى سيصبح كاردينالا . وتم عقد ميثاق فى عام ١٥١٠ ، ولمدة خمسة أعوام : فكلما أصبحت الكنيسة أو رئيسها أو أراضيا مهددة ، سترسل الكاتونات البابا ستة آلاف رجل .

وحاول لوى الثانى عشر أن يحارب هذا العمل المهدد من جانب دبلوماسية البابا بنفس طريقته ، وبمؤونة رجال الدين فى فرنسا ، وعن طريق مجمع بيزا ، وهو مجمع بدون وجود البابا فيه ، والذى سيتقرر فيه ، ضد البابا أمر اصلاح الكنيسة . وحصل بسهولة من رجال الدين الفرنسيين ، والذين كانوا غاليلين إلى حد بعيد ، على ذلك التأييد المعنوى الذى كان فى حاجة اليه . وفى نفس الوقت إستدار صوب الامبراطور ، وقام بالاتفاق معه ، ونشر فى ميلانو قرارا يستدعون فيه إلى بيزا ، يوم أول سبتمبر ١٥١١ ، يمثل الكنيسة العالمية ، وتبما الصيغة التى اتفقوا عليها وهى فى رئيسها وفى أعضائها . وكان هذا سلاحا خطيرا . وأداره البابا ضد خصومه ، بإستدعائه مجما آخر ، وكان عليه أن يجتمع فى اللاتيران . وفى هذه المعركة القرية المجامع سيكون البابا هو الذى سيتنصر ، خاصة وأن ملوك اسبانيا واطلقتا كانوا قد رفضوا ان يتبعوا لوى الثانى عشر ومكسميليان . أما المجمع الذى أشرف عليه خصوم روما فإن وجوده سيكون ضميما ، وتقل

على التوالي ، وبسبب عداء الأهل أو الضرورات العسكرية ، من بيزا إلى ميلانو ثم إلى أوستي ، وبعد ذلك إلى ليون . وعلى العكس من ذلك كان مجمع اللاتيران الذي رأسه يوليوس الثاني يمثل انتصاراً فعلياً لسياسة .

وبعد بضعة أسابيع من الافتتاح علم الناس أن عصبة مقدسه ، قد تكونت ، وأنها تضم الكرسي البابوي ، والبندقية ، وأسبانيا ، من أجل الدفاع عن وحدة الكنيسة وسلامة الملكات البابوية في ٥ أكتوبر ١٥١١ : وأعلنت أنها مفتوحة لكي ينضم إليها كل الملوك المسيحيين ، وانضمت إليها انجلترا هنري الثامن ، وعملوا على الحصول على انضمام مكسيميليان عن طريق مصالحته مع البندقية . وفي خلال ذلك الوقت عرف البابا وحلفائه أوقاناً عصيبة . فلقد حدث هجوماً فرنسياً مفاجئاً في وسط الشتاء ، وأدى إلى انتصار كبير في رافنا على قوات البندقية والقوات الأسبانية والبابوية في عيد الفصح عام ١٥١٢ . وعندئذ حارب وقت السويسريين . ووصلوا وبلغ تعدادهم ١٨.٠٠٠ رجل ، بينما كانت أعداد الفرنسيين قد ضمنت نتيجة لانسحاب بعض الألمان من صفوفهم ، وهودتهم إلى ألمانيا . وكان عدم التناسب بين القوات الموجودة من الجانبين قد وصل إلى حد يجعل المقاومة بدون جدوى . وبعد الاستيلاء على بافيا ، لم يعد على السويسريين إلا أن يطرّدوا أمامهم حرس المؤخرة من الفرنسيين . واتفق أهل جنوة فرصة هذه الأحداث ، وقاموا بالثورة ، وحرروا أنفسهم . وكان نهاية شهر يونيو عام ١٥١٢ هو نهاية الحكم الفرنسي في إيطاليا ، لفترة من الزمن .

وكان ميكافيللي ملاحظاً ومنتقياً كثيراً وقد تأثر كثيراً بأحداث عام ١٥١٢ وفي مقاله عن صورة لفرنسا ، التي كتبها في ذلك الوقت ، ذكر أن الفرنسيين لم يعد عليهم أن يحشّوا أي شيء على الإنجليز ، أعدائهم السابقين ، ولا من الأسبانيين ، ولا من التلمذيين ، بل عليهم على العكس من ذلك أن يحترسوا من السويسريين ، الذين

يمكنهم أن يهاجموه في أى وقت ، والذين لهم مشاه منتظمى النظر .
وأصابت هيئة فرنسا ضربه شديدة . اما الامبراطور فإنه تمكن من جانيه
من ان ينسحب من هذه المغامرة دون خسارة كبيرة . وعمل على التقرب من البابا
قبل نهاية مجمع اللاتيران الذى اشترك فيه سفيره . وأفاد من الظروف الموجودة
لعقد علاقات وثيقة مع ليون العاشر .

وفي وقت وفاة يوليوس الثاني في ٢٠ فبراير ١٥١٣ ، كانت الوضعية السياسية
قد تغيرت تماماً . فكان لوى الثانى عشر قد أصبح معزولا . اما الامبراطور فإنه
دخل في صفوف خصومه السابقين ، وتفاوض مع ملوك اسبانيا ، وانجلترا
وكذلك مع البابا . ونحت تأثير إيفته ، مارجرىت النمسية ، علم انه هو أيضاً ، له
«ميراث» يطالب به ، وهو ميراث أدواق برجنديا ، ميراث الشجاع . ولقد وعد
بتأييد هنرى الثامن ، الذى كان يرغب في التدخل في فرنسا من أجل توسيع رأس
جسر كاليه . ولذلك فإن جيشاً مشتركاً من الانجليز وقوات الامبراطورية جاء
يهدد إقليم بيكاردى . وبينما كان مكسليان ، كما هو الحال دائماً ، غير قادر على أن
يعمل بقوة ، وترك جنوده بدون تعب على الحدود ، تمكن الانجليز الذين
انتصروا في جينجات من أن يستولوا على تورناى ، وبدأوا في حصار تروان .
اما فرديناند صاحب أراجونه ، فإنه فزا ملكة نافار وحيث كان هناك صراع على
السلطة منذ سنوات بين الفرنسيين وبين الاسبانين . وفشل جيش فرنسى ذهب
إلى ماوراء البرانس امام بامبيلونه ، واضطر إلى الانسحاب .

وفي اثناء ذلك الوقت ، لم يكن لوى الثانى عشر قد قبل أمر فقد أراضي
ميلانو . ومرة جديدة ، عبرت قواته جبال الألب ، ومرة جديدة ، نزل السويسريون
من جبالهم ، ومسحوا سهل البو ، وطردوا الفرنسيين بعد معركة سريعة أمام
توفنار في شهر يونيو ١٥١٣ . ولم يقتنعروا على ذلك . بل قاموا بهجوم آخر

صوب الغرب في اتجاه ديجون . واضطر القائد الذي يدافع عن ديجون إلى أن يتفاوض بسرعة مع السويسريين . ولكن الشروط التي كتبت لم يصدق عليها الملك . ومن حسن حظ فرنسا أن هذا التكتل كان غير مترابط بطريقة فعالة ، وترك نفسه يتفكك بسهولة أثناء عام ١٥١٤ ، العام الأخير من حكم الملك . وقام البابا الجديد ، ليون العاشر ، بعقد الصلح ، نظير تهدؤى الثاني عشر بالتخلي عن التجمع . أما فرديناند فإنه سقط تحت إغراء إمكانية إعطاء ميلانو لأحد أحفاده ، الذي سيتزوج إحدى أميرات فرنسا . وأخيرا فإن هنرى الثامن ، والذي كان في حاجة إلى المال ، قد حصل على مبالغ كبيرة من أجل الخروج من الحرب : فسيحصل من ملك فرنسا على معاش سنوي ، وفي نظير ذلك يعطيه يد أخته ماري . واضطر مكسيميليان ، الذي أصبح ميرولا ، إلى إستدعاء قواته . وكان السلم قد عاد منذ وقت قصير حين توفي لوى الثاني عشر ، فى أول يناير ١٥١٥ :

٤ - موقعة مارينيان (١٥١٥) والسلم :

قامت فرنسا ، فى عهد شارل الثامن ، ولوى الثاني عشر ، بتنفيذ سياسة لها اتجاه توسعى . وهى تحمل ، بطريق غير مباشر ، مسؤولية ذلك الاتجاه القسطنطينى (الامبريالى) الجديد ، الذى سيثير الفوضى فى الغرب ، والتي ستكون هى نفسها فريسة له ، وهو الاتجاه القسطنطينى لشارل الخامس . والواقع أن الإتحاد بين الامبراطورية وإسبانيا سوف يفتح عن زواج عقد ، فى عام ١٤٩٤ ، وتمت تأخير النجاح الأول لشارل الثامن فى إيطاليا . وكان الملك الكاثوليك ، قد وجدنا أنه من الأوفق الاتحاد بطريق وثيق مع مكسيميليان ، وفرنا أن يتزوج ابنها ووريثها ، جوان ، ابنة الامبراطور ، وان تزوج ابنتها ، جوانا ، فيليب الرابع ، ابن مكسيميليان . ولكن جوان توفي فى عام ١٤٩٧ دون أن يترك وريثا . ولم يكن له سوى أخوات : فورتته جوانا . وولد من هذا الزواج ابناً هو

شارل . ومنذ مولده كان من السهل التنبؤ بأنه سيحمل في يوم من الأيام ، وفي نفس الوقت ، تاج الإمبراطورية وكذلك تاج قشتالة وأراجون . وسوف يتم ذلك في عام ١٥١٩ ، وفي الوقت الذي تكون فيه الشعوب قد نعمت بمرأيا السلم . وفي السنوات السابقة ، كانت المجهودات السلبية لمبرجريت النسوية تلغيها الانجازات المشتملة والكثيرة المطالب لبوليس الثاني . ومنذ عام ١٥١٣ ، كان يحتل مرش القديس بطرس البابا ليون العاشر ، وكان وجلا عتقلاً تماماً ، وأكثر مرونة وبكثير ، وأكثر واقعية . وتوقفت السياسة البابوية عن عملية الانفخ في النهران الموجودة في إيطاليا ، وأثبتت حكمتها في إتفاقها مع تلك الرغبة القوية للتوسع التي كانت تحرك الفرنسيين .

وكان فرانسوا الأول ، منذ وصوله إلى العرش ، قد قاد بدوره جيشاً عبر الجبال . أما السويسريين ، الذين إستدعاهم مكسميليان سفورزا ، فإنهم لم يتمكنوا من وقفه عند مارييفان ، في ١٤ سبتمبر ١٥١٥ . والمرة الثالثة في خلال فترة خمسة عشر عاماً ، شهدت ميلانو الدخول المنتصر للفزاة . وعندئذ قرر ليون العاشر ، الذي أسف على أنه قد أخذ موقفاً مع فرديناند ومكسميليان في صالح حقوق سفورزا ، على أن يذهب لمقابلة المنتصرين ، وأن يتفاهم معهم . وكانت مقابلة بولونيا ، في شهر ديسمبر ١٥١٥ نثبت للعالم أن الحرب قد إنتهت في إيطاليا . وبدأوا في العمل من أجل تحقيق المشروع العظيم ، الخاص بالحملة الصليوية . وقطع فرانسوا الأول على نفسه تمهيدات رسمية في هذا الشأن . وفي نفس الوقت كانت المسألة المثيرة بشأن العلاقات بين كنيسة فرنسا ، وبين الكرسي البابوي ، والتي كانت معلقة منذ بضعة أجيال ، موضوعاً للنسوية من حيث المبدأ ، ستخرج منها الكرنكوردات .

ولم يكن الناس قد تمحدثوا في أي وقت مضى عن السلم يمثل هذه الآمال الكبار ،

كما حدث في السنوات التي جاءت بعد ما يبيان . وعند كل المتحاربين بالأسس ، لم يكن هناك موضوع سوى الاتحاد من أجل الحرب الصليبية . وكرر البابا التذات . وأخذ في إعداد أسطول ، وفي جمع الأموال ، ووضع خطة لحملة بواسطة مجلس كرادلة . واعتقد أنه على وشك النجاح ؛ ولكن سرعان ما اضطر إلى الاعتراف بأنه قد أخطأ . ذلك أن كل أمير وجد أسباباً جيدة لتأجيل اتخاذ القرار الخاص بمشاركته التي كان البابا قد طلبها : أما ملك فرنسا ، من ناحيته ، فكان لا يلتفت سوى لألمانيا ، وحيث كانت مسألة خلافة مكسيميليان على العرش لا تتأخر كثيراً عن طرح نفسها . ومع ذلك ، ومن أجل عدم رغبته في جعل الرأي العام يفقد الأمل ، أعلن أنه ، في حالة انتخابه ، سيكون قبل مضي ثلاث سنوات في القدمطليبية ، أو تكون سياته قد انتهت .

وطلب ليون العاشر عقد هدنة لمدة خمس سنوات . وذهب ضيره إلى ما هو أبعد من ذلك . وفي إنجلترا ، كان هنري الثامن ووزيره ، الكردينال وولسي ، يحلمان بالوصول إلى سلم عام ، يكونون هم يحكمين من أجل الوصول إليه ، وبندوجة أحسن من تحكم البابا ، إذ أنه لم تكن لهم مصالح في إيطاليا . وعملت الظروف على التقارب بين ملك فرنسا وملك إسبانيا : فكانت فرديناند قد توفي في عام ١٥١٦ ، وقام خليفته ، وهو حفيده شارل آل هابسبورج ، بالاتفاق مع فرانسوا الأول من أجل إعلان دفن كل الخلافات السابقة ، وذلك في معاهدة نيون في ١٨ أغسطس عام ١٥١٦ . أما مكسيميليان ، فإنه ، برغبته أو رغماً عنه ، قد تبع هذه الحركة ، ووافق على أن يوقع مع ملك فرنسا على إتفاقية يضمندان بها ممتلكات الواحد والآخر من بينهما (معاهدة كامبراي ، في ١١ مارس ١٥١٧) . وكانت ، كقائمة العملة الصليبية المقترحة ، عبارة عن إنهاء عام لمشاكل الماضي . وكذلك إنجلترا ، فإنها قاست من ناحيتها بتقديم نصيبها من أجل إقامة السلام . وكان

ورلى التموخ يرغب فى أن يكون الحجر الذى يقدمه ، هو حجر قمة العقد ،
وجاءت معاهدة لندن ، فى ٤ أكتوبر ١٥١٨ ، لى تكون فى أساسها تسوية مع
فرنسا ، تسوى الخلافات السابقة ، وتعيد مورناى ، وتمد باهطاء ولى عهد فرنسا
يدمارى-نيودور ، ابنة هنرى الثامن . ولكنهم أسموه ، وبكل تضخيم ، السلم
الدائم ، ، تشبهاً بذلك الصلح الذى عقده فرانسوا الأول مع ~~ال~~سكانتونات
السويسرية ، فى ٢٧ نوفمبر ١٥١٦ . وكان عليه أن يظل مقترحاً لى ينضم اليه
كل الأمراء الآخرين عن لهم رغبة صادقة فى السلم .

ونظر البابا بنوع من الحقد لهذه المحاولة الانجليزية ، التى حرمته من ميزة
تهدئة أوروبا ، ولكنه مع ذلك لم يقدر إلا على أن ينضم اليها ، بالاتفاق مع شارل ،
ملك اسبانيا الجديد . وفى نفس الوقت ، توفى مكسيميليان ، فى شهر يناير ١٥١٩ .

الفصل السابع

امبراطورية شارل الخامس

كان انتخاب شارل ملك أسبانيا للامبراطورية ، في ٢٨ يونيو ١٥١٩ ، ضربة شديدة للشعوب ، ولأمالها العامة. وصرعان ما يؤدي ذلك إلى قلقة الهدوء . وعلينا أن نترف بأنه إذا كان ملك فرنسا قد نجح في الانتخابات فرانكفورت ، وبدأ في إحدى الحظرات أن إمكانيات ذلك كانت كبيرة ، فإن ذلك كان سيؤدي إلى فائدة كبيرة بالنسبة للسلم . ولم يكن من السهل عليه بعد ذلك أن يتهرب من مشروع الله العليية . وكان هذا سيؤدي بطبيعة الحال إلى أن تنتهي الحروب الإيطالية تلقائيا . وكانت فرنسا ستستمر في ممارسة تفوقها ، والذي كان يضمه لها كبر حجم سكانها ، وعضامة إمكانياتها المالية ، وتقدمها على طريق الوحدة ، ومركزية السلطة المطلقة .

١ - شارل الخامس :

كان الرجل الذي نجح في هذه المهمة الضخمة ، ولكي يحكم إسبانيا ، والعالم الجديد ، والامبراطورية ، بلاشك على مستوى هذه المسؤولية . وكانت له الميزات التي تتطلبها ممارسة هذه السلطة العليا . عزيمته قوية ، يحركها ذكاء كبير ، وعناية ضخمة في القيام بواجباته ، ويساند لها الشعور بالواجب والمسؤوليات . ومع ذلك فإن فترة حكمه التي بلغت أربعين عاما سوف تنتهي بفشل مزعج .

ربما كان من الصعب تقاضي الفضل . ومع ذلك فإنه لم يرجع إلى شخصية شارل الخامس في مجموعه . ورغم أنه كان قد أمضى شبابه في أوروبا التي كانت قد تأثرت بروح النهضة ، فإنه كان قد غلغ من رجال العصور الوسطى . ولم يكن

قد فهم تماماً معنى العصر الحديث . وبينما تزايدت وتكاثرت الدوله التي نشأت طبقاً لمبدأ القوميات ، ظل مخلصاً المثل الأعلى الذى يتمثل فى اتجاه عالمى كان قد انتهى . واستمر فى التحدث عن الجمهورية المسيحية ، وعن حروب الصليبية ، لأمرءاء كانت لهم مشغوليات أخرى ، ومختلفة تماماً عن ذلك ، ولم يكشف معنى ذلك التناقض الخطير بالنسبة لهذه المغامرة التي كان قد دخل فيها : إعادة إقامة ذلك الصرح شبه المهدم — الامبراطورية المقدسة — والتي كان ظلها وحده يكتفى لإثارة كل جهاتها . وكان عليه أن يواجه تلك الانهزامات التي وجهت إليه بأنه يرغب فى الوصول إلى ملك العالم . ولقد اتحد إليه ذلك روح واتجاه أسلافه الكبار ، مثل برباروسا وفريدريك الثاني .

وكان عليه أن يواجه عقبة بينما ، لم يكن فى وسعه أن يتنبأ بها ، من بين كل العقبات التي ستواجهه : أنها هرطقة الاتجاه الجديد الذى كان لوثر قد أهدى له . وكانت هذه الحركة الحامية بالإصلاح الدينى لاتزال فى بداياتها الأولى فى الوقت الذى وصل فيه إلى ألمانيا . ولكنها انتشرت بسرعة ، وعملت على نشر الفكرة داخل كل البلاد . وكانت يات الكرسي البابوى فى الماضى قد عملت على شل الكثير من طموحات الامبراطورية . ولم يكن أحد يفكر فى أنها سوف تظهر من جديد على ارضية المفاقع الدينى فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه فى مسألة إيطاليا . وكان ذلك يمثل وضع العقبات فى طريق كل المجهودات التي تبذل من أجل التقارب بين المسيحيين . وكان الباباوات قد فقدوا ذلك المعنى الهام للمصالح العامة للعالم المسيحى ، والذي كان يمثل بدرجة كبيرة شخصية الامبراطور . ولم يكن ليون العاشر ، الذى توفى فى عام ١٥٢٢ ، وبعد أن كان قد أصدر قراراً بالحرمان ضد لوثر بقليل ، استثناءً للقاعدة . وكان هناك الكثير ، على طريقته ، من رجال عصر النهضة ، والبعض منهم قد تأثر باتجاه إرزم ، وكانت

غالبيتهم المعظمي تخضع للمشغوليات الزمنية . وكانوا يظهرون الإحتقار تجاه ذلك المجتمع العام الذي فرضته الظروف الحظيرة في ذلك الوقت ، والذي طالما طالب الامبراطور ببقده ، وأن كان يمكنه أن يقف في وجه انتباهاتهم المطلقة ، وعملوا على تأجيل انعقاده من عام لعام آخر . ومن ناحية أخرى ، ظلوا غلاصين لخطتهم السياسي العام ، وأظهروا عداوتهم لإتساع السيطرة الامبراطورية على شبه الجزيرة الإيطالية ، كما كانوا قد اظهروا نفس العداء فيما مضى تجاه السيطرة الفرنسية وأخيرا ، وعلى ميادين المعارك في إيطاليا وفي الاراضي المنخفضة ، سوف يصطدم شارل الخامس بالفرنسيين ، الذين كانوا مهددين بطريق مباشر بوحدة ألمانيا وإسبانيا تحت نفس الصولجان . ولن يلتفت إلى قوة حركتهم صوب الغزو ، ولا لبيئة ملوكهم .

وكان الصراع ضد فرنسا تحت حكم فرانسوا الاول ، ثم هنري الثاني ، يمثل الخطر الاساسي بالنسبة لحكمه في الخارج . وكانت الاهداف المباشرة لهذا الخطر تتمثل من ناحية في اراضي اقليم ميلانو ، والتي كانت غاضمة فيما مضى للامبراطورية ، ومن ناحية أخرى في دوقية بوجنديا ، وبصفتها ذلك الجزء الذي فضل من مراث شارل الجسور . وكان هذا الخطر يشتمل على ما لا يقل عن خمسة حروب متتالية ، تفصلها فترات هدنة ، تطول أو تقصر ، وتبدو فيها مظاهر التصالح .

وبدا التحصين في الدخول في العمليات الحربية في عام ١٥٢١ . وانتهت المعركة الأولى بعد أربع سنوات ياتتصار صاحب للامبراطورية ، اعتقدوا في أنه كان انتصارا حاسماً .

وكان عام ١٥٢٠ هو عام الدبلوماسية . وكان فرانسوا الاول قد تقابل

مع هنرى الثامن ، وأعطوه كل المظاهر الممكنة الصداقة بينها . ولكن الانجليز قاموا ، بعد بضعة أيام من ذلك ، بمحاولة أخرى مع شارل الخامس ، وتبادلوا معه نفس الكلمات الحلوة كما أن فرانسوا الأول لم ينجح فى الحصول على ارتباط أقوى من ذلك مع البابا ليون العاشر ، وكان تجاهه الوحيد يتمثل فى علاقته مع الكاثوليك بفصلهم عن اعتراف بمقوق سيادته على ميلانو وعلى جنوه ، وعلى تمديد بمعونته بالدفاع عن نفسه بتزويده بالجنود .

وبدأت العمليات العسكرية فى فصل الربيع ، وعلى كل الجبهات فى نفس الوقت . وعلى جبهة الاراضى المنخفضة ، وفيما عدا محاصرة ميونيخ التى ظهرت فيها كفاءة بايار . لم تكن هذه العمليات سوى هجمات ، وحملات للنهب . وعلى جبهة البرانس كان موضوع الصراع مركزا حول ملكية نافار . ومنذ عام ١٥١٢ كان الاسبانيون يحتلون ذلك الجزء من نافار الذى يقع فيما وراء الجبال . وحاول ألبرت وأمرته بذلك بمجهود أخير المتمركز هناك بجيش ملكى . ولكنهم لم ينجحوا إلا لوقت قصير . وعلى الجبهة الإيطالية ، لم تبدأ التحركات حتى ذلك الوقت ، إذ أن رجال الامبراطورية لم يكونوا قد استعدوا بعد . وكانت الرغبة فى الدخول إلى الحرب لاتزال غير ثابتة حتى أنهم قد انفقوا منذ أواسط فصل الصيف ، على البحث عن شروط حل وسط . وناقش مستشار فرانسوا الأول ، مع مستشار شارل الخامس سويا فى كاليه ، وفى حضور وولسى كممثل لهنرى الثامن ، وكوسيط ، ولصكن بلا جندى . ولكن الأوامر لم تصدر بوقف العمليات . وتوغلت قوات الامبراطورية فى إيطاليا ، وأصططبت معا فرانسوا فورزا ، الذى أحادوا تصليه فى ميلانو . وأكد شارل الخامس بذلك أنه كان الأكثر قوة . وسرعان ما وقف إلى جانبه ملك انجلترا والبابا ؛ وبثم عقد تحالف انجليزى امبراطورى ضد فرنسا فى بروج فى ٢٥ أغسطس ١٥٢١ . وفى

كالية ، وبمجرد قطع المفاوضات ، تحول هذا التحالف إلى حصبة ثلاثية مع الكرسي الباجوى فى ٢٤ نوفمبر .

ويمكن الفرنسيون من اتمام أخذ أراضي ميلانو بعد هزيمة جيش لوتريك ومعهم السويسريين فى لايبكوك فى ٢٩ أبريل ١٥٢٢ . ودخلوا إلى هناك فى عام ١٥٢٢ ، ووصلوا حتى أسوار ميلانو ، ثم أعيد اخراجهم منها فى العام التالى ، اما الانجليز ، الذين تولوا بعد ذلك فى كاليه ، فأنهم عملوا مع قوات الإمبراطور فى إقليم آرتوا ، ووجهوا رأس حربة فى اتجاه باريس ، ثم قاموا بعد ذلك بالترجع صوب الحدود . وفى عام ١٥٢٤ وقع هجوم على جنوب فرنسا بقوات إسبانية ألمانية ، وبقيادة أحد الحونة الفرنسيين الذين انضموا إلى الاعداء . ورات مرسيليا العدو يسكر تحت أسوارها لفترة بضعة أيام . وحينما انتهى الخطر ، قام الملك بنفسه بقيادة جيشه ، وعبر جبال الألب مرة جديدة ، وهجم على ميلانو وإستقر فيها . ولكن قوات الإمبراطور لم تجبر على إخلاء إيطاليا وظلت فى أماكن عديدة منها ، وكانت بافيا هى مركزها الرئيسى والذى حاصره فرانسوا الأول ابتداء من شهر أكتوبر . وهنا وقعت كارثة ٢٥ فبراير ١٥٢٥ : ذلك أن جيش اتهاذ أنى من الشمال ، وهاجم الفرنسيين والسويسريين من الخلف ، وقضى عليهم ؛ وكان الملك نفسه من بين الأسرى .

وبدا أن فرنسا قد أصبحت تحت رحمة الغزاة . فاهو السبب الذى لم يدفعهم للإفادة من هذا الموقف ؟ لقد كان السبب ماليا قبل أى شئ : فقد كان شارل الخامس مضطر إلى الاسراع فى تسريح جنوده لأنه لم يكن لديه وسائل دفع مرتباتهم . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن استعدادات الثمانيين على حدود البحر كانت تقل على قرب هجومهم من الشرق : فأصبح الهدف الأول إذن يتمثل فى عقد إتحاد بين الأمراء المسيحيين من أجل القيام بحرب مقدسة .

أما عن الصعوبات التي واجهت المفاوضات التي بدأت في مدريد فإن موقف إنجلترا كان له وزنه . وكانت السياسة الانجليزية قد وجدت طريقها : فهي ترفض قيام أى سيطرة معينة على كل أوروبا . فأصبح هنرى الثامن . وولسى قانون للغاية بالنسبة لشارل الخامس ، وذلك بسبب ضخامة إنصاره . وتراجع في مسألة زواجه من ماري تيودور ، التي كانت قد تقررت في عام ١٥٥١ ، وفي الوقت الذي كانوا قد قطعوا فيه العلاقات مع فرنسا . هذا علاوة على أن للمالية الملكية لم تكن في حالة تسمح لها بدفع مبلغ الـ ٦٠٠.٠٠٠ دوقى التي كانوا قد وعدوا بها كدعوى للأخير . ووافقوا إذن على حل الإمبراطور من إرتباطه ؛ الأمر الذي سيسمح له بالتزوج بعد وقت قصير بإحدى الأميرات البرتغاليات والتي سوف يحصل هذه المرة على دوطتها مباشرة ، وكانت تبلغ هذه المرة مليون دوقى . وفي نفس الوقت ، استمعوا إلى إقتراحات الوصية . لروى دى سافوا ، والده فرانسوا الأول ، التي كانت قد اتجهت منذ الأيام الأولى صوب لندن . وفي معاهدة مور في ٢٠ أغسطس ١٥٢٥ سبيع هنرى الثامن تحالفه : ذلك أنه سوف يتسلم ولدى الحياة ٢٠٠.٠٠٠ جنيه ذهبي في العام .

أما أسير مدريد فإنه قاوم لفترة طويلة ، وحاول بعد ذلك أن يلعب بلا جدوى مسرحية التنازل عن العرش لابنته ، ثم وافق بعد ذلك على شروط شارل الخامس : التخل عن كل مطالباته في ميلانو وبقية الأقاليم الإيطالية ، والتخلي عن كل تورناى ، وكذلك عن السيادة الفرنسية على الفلاندر وهول آندرا ، وأخيراً على إعادة برجنديا ، وهذه الفقره الأخيرة أثارت نغمة . فرغم القسم المتبادل على ضرورة التصديق على معاهدة مدريد في شهر يناير ١٥٢٦ ، لم ينفذ ذلك إلا شفاهة . واحتج على ذلك سرا ، وأمام بعض الشهود ، وعلى أساس استخدام البنيق معه لإستخلاص هذا القسم . وأعلن بمجرد عودته لفرنسا بأنه

سينفذ كل شروط المعاهدة . ما عدا هذا الشرط . وعلمنا أن نلاحظ بأن هناك الكثيرون الذين كانوا يوافقون على هذا الخط في خارج فرنسا : فكان وولسي قد نصحه رسمياً بعدم التخلي عن برجنديا . ويفسر ذلك لنا السهولة التي جمع بها تحالفاً جديداً ، وهو التحالف للتمثل في عصبة كونيكا في شهر مايو ١٥٢٦ ، والذي ضم خصوم السيطرة الإمبراطورية على إيطاليا ، وهم البابا ، وجمهورية البندقية وفلورنسا ، ودوق ميلانو . ودعى كل الأمراء للمسيحيين الدخول في هذه العصبة ، وحصل ملك إنجلترا على لقب « حامي العصبة » .

واعتقد فرانسوا الأول أن مجرد التهديد بيده الحرب من جديد سيكون لإجبار الإمبراطور على التناغم . وفي الوقت الذي استمر فيه في التفاوض ، ترك حلفاءه الإيطاليين يقومون بالعمليات العسكرية بدونه . ولكن سادساً ظهر متوقع ، وله أهميته ، إعطاء الدافع للتدخل المباشر : ذلك أن عصابات تتشكل في غاليليتها من الألمان ، من أنصار لوثر ، أجبروا رئيسهم على قيادتهم للوحف على روما ، واستولوا عليها ونهبوها ، وقاموا فيها بكل المساوئ ، في شهر مايو عام ١٥٢٧ . ونتج عن ذلك تأخير مباشر لعملية نهب روما أثر في قرارات ملك فرنسا . وأعطى درس بافيا القاسم نتائج . فتردد الملك ، وعهد إلى الدبلوماسيين بالوصول إلى حل . وطلب النصح من مجمع النبلاء . وفجأة حصل على ضمانات من جانب إنجلترا ، عن طريق تقديم تحالفه مع هنري الثامن (اتفاقيات ويستمنستر وإيمان في ٣٠ أبريل ١٥٢٧) . وقرر في شهر يناير ١٥٢٨ أن يرسل إلى الإمبراطور بإعلان الحرب . وعندئذ انفجر غيظ شارل الخامس ووصف تصرف الملك ، حين رفض التصديق على تعهدات مدريد ، بأنه كان جباناً وموياً النية . وأجلب الفرنسيون على ذلك بأن شارل كان كاذباً : وهاء ذلك من مجموعة ساحبت على إظهار للسأفة في شكل تحدي واضح . وتوقع

الجميع وقوع معركة بين الملك والامبراطور ، وتحدثوا عن ذلك لمدة أشهر .
ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وأخذت الحرب نفس الطريق الذى كانت الحرب السابقة قد سلكته :
فكانت مسارحها الرئيسية هي اراضى ميلانو وملكة نابولى . ولكن إيطاليا
كانت تمثل أرضاً غير ثابتة من ناحيته ملكيتها . فحدثت عمليات إنسحاب ، مثل
عملية إنسحاب قائد جنوا البحرى ، أندريا دوريا ، وقام اسطوله ، مع اسطول
البابا كليمنت السادس ، بإجبار الفرنسيين على التوقف . أما مرجريت النمساوية ،
والتي كانت تتحدث باسم الاراضى المنخفضة التي كانت ترغب في السلم ، فإنها
كانت قد بدأت المحادثات مع لوردي سافرا ، ومهدت محادثات لصالح كامبراي
أو د صلح السيدات ، في ٨ أغسطس ١٥٢٩ . ولم يكن هناك أى ذكر لمسألة
برجنديا ؛ ولذلك فإن السياسة الفرنسية كانت قد وصلت إلى هدفها الرئيسى .
ولكن معاهدة مدريد تأكدت في كل كل فقراتها وشروطها الأخرى : فكان من
الضرورى التخلي من جديد عن كل الممتلكات الإيطالية ، وأصبحت الفلاندر
وآرتوا خارج سيادة ملك فرنسا ، والمملكة ، وبشكل نهائى ، ويدل هذا على أن
نتائج بافيا لم تكن قد عمت . وتفاوض هنرى الثامن منفرداً مع شارل الخامس ،
وعلى أساس الوضع القائم .

وبدأت فترة هدوء تقرب من سبعة أعوام ، ابتداء من عام ١٥٢٧ . وساد
السلم الامبراطورى في كل الغرب . وأصبح شارل الخامس في أوج قوته .
وبعد أن تصالح مع البابا ، استلم من يديه ، في بولونيا ، تاج دوك لومبارديا .
وتاج إقليم رومانيا في عام ١٥٣٠ . وكان مصمماً على أن يكون ملكاً لاسبانيا قبل
كل شيء آخر ، فساعد على انتخاب اخته ، فرديناند ، ملكاً على الاقاليم الرومانية ،
وتخلى له عن إدارة بعضي اقاليم الاسرة .

حقبة أن فرديناند كان في حاجة إليه من أجل دفع هجمات جيوش السلطان سليمان العثماني . وكان من الضروري تغطية فينا ، التي إنقذت بالكاد في المرة الأولى في عام ١٥٢٩ ، وكانت حملة عام ١٥٣٢ ، والتي تولى القيادة فيها الإمبراطور بنفسه ، حاسمة . وسوف يمتد الخطر العثماني عن الحدود الألمانية لمدة أجيال .

٢ - الحرب من أجل ميلانو - الحرب الثالثة ومعاهدة كريبي :

كان ملك فرنسا ، بتزوجه من إليانورا ، أخت شارل الخامس ، قد بدأ على أنه قد أصبح تحت سيطرة خصمه ، الذي كان صاحب الفكرة الأولى لهذا الزواج (والذي نصوا عليه من قبل في معاهدة مدريد) والذي كان يرى فيه ضيقاً لحسن العلاقات بينها . ولكن ملك فرنسا لم يكن مستعداً في نفس الوقت للمرافقة على خضوع فرنسا للدولة الإمبراطورية ، وسرعان ما بدأ يفكر في مشروعات للانتقام . وتمكن من ترتيب أموره المالية . وتمكن من إنشاء وسائل جديدة للحرب ، برية وبحرية . وبعده تحالفه مع هنري الثامن ، في مقابله معه في بولويا ؛ في شهر أكتوبر ١٥٣٢ ، وزاد من إتصالاته الدبلوماسية مع الخصوم الدائمين لأمة هابسبورج : السلطان العثماني ، والأمراء المسيحيين في ألمانيا ، ومنتخب ترنسلفانيا ، الذي كان يحكم بموافقة العثمانيين على جزء من البحر . وكان البابا كليمنت السابع لا يزال يتردد بين الخصمين ، فبمجرد أن قام بمقابلة مع الإمبراطور وأعطاه وعداً بشأن الجمع ، وافق على تقارب مع ملك فرنسا ، وأرسل إليه ابنة أخيه ، كاترين دي ميديسيس ، التي وعدوا بها الإبن الثاني لفرانسوا الأول . وكانت أعياد موسيليا في شهر أكتوبر ١٥٣٣ . وتملاً صدر شارل الخامس بالحق . وفي نفس الوقت جاءت هزة أولى من ألمانيا تعلن أن عصر الحروب الأهلية لن يتأخر كثيراً . وعمل دوق بافاريا ، وكان عدواً لأمة هابسبورج ، على أن يستنخم ضد جيرانه تلك القوى

المعادية ، والتي كانت حركة الإصلاح الدينى قد تسببت في نشأتها في أنحاء الإمبراطورية . وتقام مع حاكم هيس ، وكان من أنصار لوتر ، من أجل إعادة دوق فرنبورج إلى عرشه ، بعد أن كان قد أخذ منه هذا العرش في عام ١٥٢٢ وأعطى لفرديناند آل هابسبورج ويمكن بمعونة فرنسا من أن يقضى جيشاً يمكن من هزيمة القوات النمساوية ، ومن إعادة فرنبورج إلى أمهرها الشرعى .

وفي أثناء ذلك الوقت لم يتخل الإمبراطور عن الخط الذى كان قد رسمه لنفسه . فأخذ في الإستعداد للذهاب وعارية رجال شيال إفريقيا ، مقدراً أن الظروف كانت تجبره على ذلك . أما فرانسوا الأول ، والذى كان يخشى من هجوم الرأى العام عليه ، فإنه إمتنع عن التدخل . وبعد نهاية حملة تونس بقليل ، توفى فرانسوا سفورزا دون أن يترك وريثاً . فأعيد فتح مسألة ميلانو ، وإحتفظت ذريعة العودة إلى العمليات العسكرية : فطالب فرانسوا الأول بالدوقية لابنه دوق أورليان ، وقبل أن يدخل في حرب ضد الإمبراطور عمل على تسوية مشكلة كانت تشغله منذ بضعة سنوات ، وهى مسألة العلاقات مع سافوا .

وكان أدواق سافوا يعتبرون على أنهم ، حراس جبال الالب ، ، وكانت دولتهم تشتمل على يدمونت ، والفالاية ، وعلى أراضي القود ، وجنوا وكرنتية ليس : فكانت تقف إذن على طول الحدود بين فرنسا وإيطاليا ، وفي فترات الحرب ، لم تكن هذه الدولة تبحث عن أمتها ، كما كانت تفعل دوقيات اللورين ، بإعتقادها موقف حياد قانونى يضمه المحاربون . ورغم تحركات الإمبراطورية؛ فإن هذه الدولة كانت تقف دائماً إلى جانب الأكثر قرباً منها ، والأكثر قوة من جيرانها ، أى إلى جانب الفرنسيين . وكان الدوق فيليبون قد إرتبط بمعامدة مع

لوى الثانى عشر . وقام الدوق شارل الثانى بالسير على نفس الطريق ، وإن كان قد
إبتعد عنه فيما بعد ، ولقد أكد رغبته فى عدم التدخل فى حرب مع شارل الخامس ،
الذى لم يكن له سيادة عليه ، وإن كان قد أصبح تسييه بعد أن تزوج
إحدى الأميرات البرتغاليات ، وفى عام ١٥٢٣ ، رفض إعطاء مدينة نيس لتكون
محل مقابلة بين كليمنت السابع وبين فرانسوا الأول ، حتى لا يغضب
الإمبراطور .

واعتبرت هذه المسألة على أنها إمانة للملك : ومنذ هذا الوقت قرر
أن يستخدم القوة . أما شارل الثانى فإنه بعد ، أن شعر بالتهديد ، لم يكن سراً فى
التراجع ، حتى يتمكن من المحافظة على مصالحه . وكانت الظروف فى غير صالحه
بشكل عام . فكان منذ سنوات فى صراع مع جنيف ، التى فقد كل سيطرة له
عليها . وأخذ هذا الصدام ، الذى زاء خطورة نتيجة لانتشار حركة الإصلاح
الدينى ، شكل أزمة حادة . وإستمد أبناء ، برن لمحاولة جنيف حتى تحصل على
إستقلالها الكامل . ودخلوا إليها فى شهر فبراير ١٥٢٦ ، فى نفس الوقت الذى
أمر فيه فرانسوا الأول قواته بالزحف صوب بروج وشامبهي . وجاء كالفن
إلى هناك فى الصيف التالى . وبمجرد إتمام عملية غزو سافوا ، أعطى الملك نفسه
لقب دوق سافوا ، مستنداً فى ذلك إلى إدعاءات لقانون الروانة من جانب والده ،
لويزى سافوا .

وأعلن شارل الخامس إستعداده للدفاع عن تابعه . فرد على ذلك بمعية
غزو إقليم بروغانس . ولكنه إستلم بمقدمات ضخمة فى تلك الأقاليم التى كان
خصمه قد أخلاها ، وبشكل أجبره على العودة إلى الحدود بعد بضعة أسابيع .
وظهر أن قوات الإمبراطورية كانت أكثر حظاً على حدود الأراضى المنخفضة ؛
فوصلت تقريباً أمام يرون . ولم يكن هنرى الثانى يقدر على معاونتهم على السيطرة

على الموقف ، إذ أنه كان قد ابتعد عن شئون القارة نتيجة للإقسام الذي جاء بعد حادثة طلاقه ، وتوجه من جديد . ولم يكن فرانسوا الأول قد بذل مجهودات كافية معه للحصول على تناونه في هذه المرة ؛ فظل فرانسوا الأول وحيداً . ويبدو أن إستيلاء على سافوا كان قد أعطاه ثقة في نفسه بدرجة لم تحدث من قبل . وشر في ذلك الوقت ، ومهما حدث ، أن طريق جبال الألب سوف يظل مفتوحاً أمام قواته . وكان في وضعية تسمح له بالتفاوض مع شارل الخامس على قدم المساواة .

ولما كانت القوات متعادلة على مسرحي العمليات ، فإن وقف العمليات الحربية جاء على التوالي بالنسبة لشمال في شهر يوليو ١٥٢٧ ، ثم بالنسبة للجنوب الشرقي في شهر نوفمبر . ولم يكن هناك إلتصار لهذا الجانب أو ذاك . وكان كل من الطرفين قد شعر بالارهاق . وكانت لكل منها مشغوليات دينية خطيرة . ولذلك فإن البايا وجد أن الفرصة مواتية من أجل التدخل . وكان ما اقترحه بطريق مباشر في بداية عام ١٥٢٨ ، هو إطالة فترة الهدنة المزدوجة التي عقدت في العام السابق ، وكان ذلك تمهيداً للدخول في مفاوضات أوسع . وحصل من الملكين ، في نيس ، في ١٨ يونيو ١٥٢٨ — واللذين كانا من ناحية أخرى يتفاوضان عن طريق أشخاص آخرين ، كما لو كانا شخصيان من أن يتقابلا — على هدنة لمدة عشر سنوات . وكانت فكرة الصلح قد إزدادت في أثناء هذا الوقت . وفي الشهر التالي ، ذهب كل من الملك والامبراطور ، برغبتهما ، إلى المقابلة التي إنفقا عليها في ١٤-١٦ يوليو .

ولقد عامل كل منهما الآخر معاملة الصديق ، وتحدّثا عن القيام بعملية صليبية ضد العثمانيين ، أو ضد أنصار لوتر . ووضعنا أسس حل وسط فيما يتعلق بمسألة

ميلانو: وستزوج الإبن الأصغر الملك ، ذوق أورليان ، ابنة الإمبراطور ، أو إحدى بنات أخواته ، والتي ستحل محلها إقام ميلانو ، كدفعة لها . وبدا هذا التصالح على أنه قد تم . كانت عقد زيجة أخرى : وهي زواج فيليب ابن الإمبراطور من مارجريت ابنة فرانسوا الأول . وفي خلال عامين قريبا ، سيسود الاعتقاد في أن السلم مضمون . ونحن نسمح لشارل الخامس بعبور فرنسا والاعجاب لمعاقبة ثورته . نشبت عند أهالي جانده ، تم استقباله رسمياً في باريس في شهر يناير ١٥٤٠ .

ولكنها كانا في حقيقة الأمر غير متفقين . ذلك أن فرانسوا الأول كان يرغب في الاحتفاظ بإقليم سافوا ، وكان شارل الخامس ينوي عدم ترك الإقليم . لذلك فإن الاتفاق بينهما سيصل إلى أزمة . ذلك أن الإمبراطور قد أصلى منذ شهر أكتوبر ١٥٤٠ حكم ميلانو لابنه فيليب وعرض على ملك فرنسا أن يعيد إليه إقليم الفلاندر بدلا من إقليم ميلانو . فوجد فرانسوا الأول أن آماله قد خابت ، وكان شديد التعلق بإيطاليا . وأخذوا في الاستعداد من جديد لكي يقوم السلاح بإيجاد حل لهذا الخلاف ، وذلك في الوقت الذي كان الإمبراطور يقرده فيه بنفسه حملته الفاشلة ضد مدينة الجزائر .

ومادام الفرنسيون قد تركوا بقوة على جانبي جبال الألب ، فإن حرية حركة القوات الإمبراطورية في إيطاليا قد أصبحت محدودة . وسينتقل مركز الصراع إلى حدود الالين وحدود الأراضي المنخفضة . وستشهد شتو ألمانيا الانتباه بنوع خاص . فلنكن يعمل على فشل الإمبراطور في بلاده نفسها ، لن يقوم فرانسوا الأول بتوجيه التنداء إلى أمراء الدول البروتستانتية المجمعين منذ عام ١٥٢٨ في عصبة سمالكالده ، ولكنه سيوجه نداه إلى أحد الكاثوليك ، وهو ويليام دي لا مارك دوق كليف وبرج ، والذي كان يملكه قوات كيهة على الراين الأدنى .

وكان جزاء مباشراً للأراضي المنخفضة : وكان قد استول على دوقية جلدر ، وهي إحدى الاقاليم السابقة لبرجنديا ، والتي كان صاحبها قد تخلى له عنها حتى ينقذها من أطاع شارل الخامس . ووقع ويليام على معاهدة تحالف مع فرانسوا الأول في ١٧ يوليو ١٥٤٠ ، واتفقا على زواج الدوق بإحدى الأميرات الفرنسيات . وكان ملك فرنسا قد أصبح على علاقة نسب منح هينري الثامن ، الذي كان قد تزوج منذ بعض الوقت بالأميرة آن . فأعلنوا يتحدثون في ذلك الوقت في نشأة عصبة جديدة ، معادية لآل هابسبورج ، ينضم إليها الامراء الرئيسيون من عصبة ميالكاد .

وفي ذلك الوقت عقد فرانسوا الأول في فونتينبلو معاهدة تحالف أخرى يوم ٢٩ نوفمبر ١٥٤١ ، مع الملك كريستيان الثالث ، ملك الدانمرك . وتسم اعلان الحرب على الامبراطور في الصيف التالي . وهذه المرة ، سيكون هنري الثامن مشتركا في الحرب ، ولكن في غير الجانب المتوقع . فكان قد طلق آن ، واتفق مع شارل الخامس منذ ١١ فبراير ١٥٤٢ . ووصل شارل الخامس من اسبانيا لكي يقود قواته . وبدأ في أول الامر بمهاجمة أخفى خصومه ، وهو دوق كليف : فهزمه ، وأجبره على عقد الصلح ، على أن يتنازل له عن جلدر . ثم انتقلت إلى الفرنسيين الذين كانوا يبنلون مجهوداتهم حول لكسمبورج . ودعم التعاون الالمانى الانجليزى - وان كان الانجليز لا يتحركون أمام بولونيا - كان النجاح موزعا بين الجانبين . فكانت جيوش فرانسوا الأول قد فشلت أمام برينيان ؛ واحتلت لكسمبورج بشكل مؤقت . ولم يتأكد حقوق الامبراطور إلا في عام ١٥٤٤ ، حين حصل في دايت سيده ، وعلى وعد من كل رعاياه الألمان ، بما فيهم انصار لوتر ، بأنهم سيعاونونه ضد ملك فرنسا ، صديق وحليف المسلمين إلى

حد استجبالهم في ميناء طولون . ودخل إلى إقليم شمبانيا ووصل إلى شاونويجي .
ورأى الملك أن عاصمته قد أصبحت مهددة ، فأمرع بالتفاوض في كريبي في ١٨
سبتمبر ١٥٤٤ .

ومع ذلك فإنه لم يتفاوض على أنه مهزوم : إذ أن القوات الإمبراطورية
كانت قد نزلت بها هزيمة ساحقة في إيطاليا ، في كريبول يوم ١٤ أبريل وعادوا
إلى إرتباطات عام ١٥٣٨ . وكان الحل الوسط الذي فكروا فيه له نفس الطبيعة ،
ولكن الشروط جاءت مختلفة قليلا . فإذا ما كان دوق أورليان سيتزوج ابنة
الإمبراطور نفسها ، فإنه سيتولى على الأراضي المنخفضة وعلى فرائش كونتيه ؛
وإذا ما تزوج من ابنة فرديناند ، فإن أراضى ميلانو وستكون هي دوطته
وس يكون على شارل الخامس أن يختار في فترة أربعة أشهر فيما بين هذين الخيارين .
وهذه المرة ، إلتهم فرانسوا الأول ، وبدون تحفظ ، سياسة المصالحة : ويمكنه
إذا ما تطلب الأمر أن يتخلى عن إيطاليا . وتعهد بشروط سرية ، تم التوقيع
عليها في ميدون يوم ١٩ سبتمبر ، حتى على أن يعطى معونته للإمبراطور ضد
المراطقة الألمان

وكان المصير يختلف عن ذلك : ففي العام التالي ، وقبل أن يقوم شارل الخامس
بالتقرير بين «الديليين» ، توفي الأمير الشاب فجأة في ٨ سبتمبر ١٥٤٥ وتطلب الأمر
إعادة النظر في المسألة ، من جديد . أما مسألة إعادة يدمونت وسافوا ، المرتبطة
بالزواج ، فإنها تأجلت إلى أجل غير مسمى .

٤ - تحالف هنري الثاني مع أمراء الإصلاح الديني :

إذا كانت فترة السلم قد امتدت لفترة سبعة أعوام فإن ذلك كان نتيجة المال

الذى أصاب الطرفين ، كما كان يرجع إلى أسباب خارجة عن ذلك الصراع الموجود في إيطاليا . ذلك أن شارل الخامس كانت تضايقه لزيادة خطوره المسألة الدينية . وفي عام ١٥٤٦ قررت عصبة مجالس الكالدة المودة لحل السلاح . وهزمت قواته في مودرج في ٢٤ أبريل ١٥٤٧ ، ووقع أكبر أعوانه ، وهما منتخب هيس ومنتخب ساكس ، في الاسر . أما المحم الذي كان الجميع ينتظرونه فإنه انعقد أخيراً في عام ١٥٤٥ . وكان انتقاله المفاجيء إلى بولونيا قد أدى إلى إساءة العلاقات ، وإلى ما يشبه الصدام ، مع الكرسي البابوي . وأخيراً قامت النظام الإنتقال ، ، والذي قام على أساس حل وسط ، وقرضه الامبراطور على الألمان الكاثوليك والبروتستانت في نفس الوقت في عام ١٥٤٨ ، فإنه كان يتطلب تطبيقاً عمداً ، الأمر الذي كان يستتبع رقابة بشكل مستمر .

أما فرانسوا الأول ، فإنه كان قد تدخل قبل وفاته ، في حرب مجالس الكالدة وقدم تشجيعات ومعونات البروتستانتين ، ورجع ذلك بدون شك إلى أن وعود معاهدة كربي كانت شديدة الوطأة عليه ، أكثر من كون علاقاته مع إنجلترا كانت صعبة . أما هنري الثامن فإنه بعد أن أخذ بولونيا ، فإنه أظهر رغبته في عدم تركها نظير حصوله على السلم . ولقد استخدمت كل الوسائل لإغرائه على تركها . وقاموا بتجميع أسطول ضخم عند مصب نهر السين ، تمهيداً لعملية قزله في إنجلترا ، ولكن هذا الأسطول عاد إلى الميناء بعد اشتباكات صغيرة قرب جزيرة وايت . وأخيراً جاءت معاهدة أوردز في ٧ يونيو ١٥٤٦ ، ونصت على إعادة بولونيا ، وإن كانت قد أخضعت ذلك لدفع مبلغ ٨٠٠.٠٠٠ جنيه ذهب على مائتي ستوات . هذا علاوة على أن الصلح قد أصبح ضعيفاً نتيجة لولاء فرنسا لتحالفها مع اسكتلندا ، رغم الوعود المكتوبة في المعاهدة . وقامت أجرة بيجن ، التي كانت صاحبة نفوذ كبير منذ وصول هنري الثاني إلى الحكم ، بإتمام

ذلك للوضوح حين تفاوض بشأن زواج فرانسوا، ابن الملك بحارى ستيوارت،
التي كانت والفتا من هذه الأسرة ، والتي كانت معروفة ، منذ ميلادها ، بأنها
ستكون ملكة . ولذلك فإتانا نصل منذ عام ١٥٤٨ ، إلى تجديد العمليات العسكرية
مرة أخرى . وقامت بعض القوات الفرنسية ، التي نزلت في اسكتلندا ، بتحويل
ذلك الصراع إلى أرض انجلترا نفسها . واضطرت حكومة إدوارد السادس
— وكان هنرى الثامن قد توفي قبل فرانسوا الأول بقليل — وهى غير قادرة
على أن تحصل على دعم من شارل الخامس ، إلى أن تتفاوض في بولونيا في ٢٤
مارس ١٥٥٠ : وتنازلت عن مطالبتها بفترة ثمانية أعوام قبل أن تعيد هذا الموقع
لفرنسا وقنعت بتحويل يبلغ ٤٠٠.٠٠٠ جنيه ، ودخل الاسكتلنديون طرفاً في
هذا الصلح .

ومع ذلك الوقت فقط سيبدأ عقد التحالف ، والذي كان في دور الاعداد
منذ سنوات ، بين ملك فرنسا وبين البروتستانتين في ألمانيا . وبدأت المحادثات ،
وكانت سرية للغاية ، وانتهت بمؤتمر لوشو بين سفير فرنسا وبين رؤساء العصبة
الجديدة التي تكونت ضد الإمبراطور . وتم التصديق على معاهدة لوشو ، التي
عقدت في ٥ أكتوبر ١٥٥١ ، بواسطة هنرى الثانى فى شامبور فى شهر يناير ١٥٥٢ .
ونصت هذه المعاهدة على تعاون عسكري لم تكن شروطه محددة : فالأمرام يتقنون
فى أن حليفهم القوى والكبير (ملك فرنسا) سيقوم بإمدادهم فى الوقت المناسب ؛
وتعهدوا بأن « يسيطروا » ، وذلك بصفة الإحتياط ، على مدن كامبراي ، ومييز ،
وتول ، وفردان والتي كانت عاصمة للإمبراطور .

ومنذ الصيف السابق كانت العمليات العسكرية قد بدأت من جديد في
إيطاليا ، وحيث كان الملك قد أخذ تحت حمايته أوكتاف فارتيز ، دوق بارما ،

والذى كان البابا يوليوس الثالث يهدده . وجمعت القوات الإمبراطورية لكي تتضمن قوات البابا وتحاصر بارما . وكانت الأزمة ، فى هذا المكان ، قصيرة المدى : فى شهر أبريل ١٥٥٢ ، تخلى يوليوس الثالث عن إعطاءاته ، بمعاهدة قام الإمبراطور بالتصديق عليها بعد خمسة عشر يوماً . وكان هذا هو الوقت الذى أعطى فيه هنرى الثانى الإشارة لبدء الجيش « برحلة ألمانيا » . وكان على هذا الجيش أولاً أن يعبر دوقيات اللورين ، وهى دول « محايدة » . وكانت العدة كريستين ، ابنة اخ شارل الخامس تقوم بالرعاية فى نانسى بإيم ابنها القاصر : فأبعدت عن السلطة ، وأرسل الأمير الصغير إلى فرنسا ، لكي يشرف على تربيته أحد المربين الفرنسيين . وبعد تول ، احتلوا ميتز ، بموافقة سكانها ؛ ثم توغّلوا إلى داخل الألزاس . أما الألمان ، الذين بدأوا عملياتهم الحربية فى نفس الوقت ، بقيادة منتخب ساكس ، فإنهم حملوا بسرعة فائقة ، وفاجأوا الإمبراطور الذى كان فى التيرول ، دون وسائل دفاع تقريباً . وأصبّحو الآن فى وضع يسمح لهم بأن يفرضوا عليه رغباتهم ؛ وبدأت محادثات مع ممثليهم ، انتهت بمعقد معاهدة باسو فى ٢ أغسطس ١٥٥٢ . وسين وصل الملك إلى ويسمبورج ، عرف بأنهم لا يحتاجون إليه فى ألمانيا . فكان عليه إذن أن يعود بمجيئه إلى فرنسا ، عن طريق بلاد السار ، مستولياً فى مروده على فردان . ولكن الحرب لن تتوقف هنا ؛ وكانت قد بدأت من أجل إمداد الألمان ، وستستمر بدورهم حتى عام ١٥٥٨ .

وستميز عملية هامة نهاية هذا العام : وهى عملية حصار ميتز من أكتوبر إلى ديسمبر ١٥٥٢ . ولقد حاول شارل الخامس أن يستمد هيبته ، التى أصيبت بكل قاسى بأحداث الربيع ، وذلك بمنازحته الفرنسيين أهم مدن الإمبراطورية التى كانوا قد احتلّوها . ولقد انتهت هذه العملية بفشل ذريع .

وكان في منتهى الارعاق والتعب حين وصل تحت أسوار ميتر في شهر أكتوبر، وكان قد أصابته الشيخوخة قبل أوأنا - وكان قد ولد مع ميلاد القرن، أى أنه لم يولد على الحسين بكثير - وأصابته هناك ضربة لن يشف منها. وقال المؤرخين المعاصرون أن الشتاء قد هزمه، . وكان قد اصطدم ببلد الجنود، ورغم كونهم متمسكين، فيما مضى، وأصابعهم للبل من الحرب، وأصبحوا لا يزالون بمصر الحرب الذي عجزوا عن فهم أهدافه: ولقد فشل حتى في أن يجعلهم يتركون الحادق من أجل محاولة القيام بهجوم ولذلك فإنه اعتزل معنوياً، وقرر عدم استخدام القوة من أجل تفهيد المصير المحتوم. وسرعان ما سينسحب إلى الاراضى المنخفضة، والتي كانت غريزة على نفسه منذ ذكريات الصبا، وذلك لكي ينهى ويضع حداً لتلك العمليات التي انتهت بالفشل، والتي كانت تؤثر على هيئته. وكانت المشكلات التي طرحتها حماية تنازله عن العرش على درجة من التعميد حتى إنها إحتاجت إلى أربع سنوات أخرى، بعد إنهاء الإستعدادات للتنازل، حتى يتمكن مع التوقيع الرسمي على الوثائق. ويبدأ، وهو دائماً في بروكسل، في القيام بالاحتفالات اللازمة لذلك.

وفي أثناء هذه السنوات التي قضيت في الانتظار، ظلت الأعين في كل أوروبا مركزة حول الأراضى المنخفضة، وحيث شعروا بأن احداثاً هامة كانت تقبلور هناك. وكانت هذه هي الفترة التي عرفت فيها أنفرس، ذلك المركز التجاري البلاد، أوج عظمتها. ورغم أنه لا يمكننا وضع العلاقات بشكل واضح بين الاحداث المختلفة، فإن علينا أن نتوقف هنا قليلاً.

وكانت ثروات أنفرس وعظمتها، وبصفتها مركزاً رئيسياً، صنع ليون، التجارة الدولية في الغرب، قد بدأت بعد السنوات الأولى من القرن بقليل،

حين أدت الزيادة المستمرة لحوة السفن إلى مرعة تدهور ميناء بروج ، والذي كان مربوطاً بطريقة سيئة بالبحر . وكان تفوق المصب المجاور ، والذي كانت تطهره تماماً تيارات المياه الخارجة من نهر الإسكوت ، وتجعله دائماً مفتوحاً للحركة ، قد تأكد في الوقت الذي أصبحت فيه نتائج الطرق البحرية الجديدة ، ثم بدء المبادلات مع الهند الشرقية والهند الغربية ، ملوثة وذات تأثير . وكان البرتغاليون ، ينقلهم من لشبونة إلى أنفريس ، ومنذ سنوات ١٥١٠ ، على بيع التوابل ، قد أسهموا بدرجة كبيرة في تأكيد رخاء هذا الميناء ، وذلك في الوقت الذي قام فيه الانجليز ، من جانبهم ، بنقل مركزهم الخاص بتجارة الصوف إلى هناك . وفي أواسط القرن ، كانت كل بلاد أوروبا مثلة هناك ، بواسطة منتجاتها الرئيسية سواء أكانت من الزراعة أو من الصناعة : ألمانيا يملسوجاتها الصوفية المخلوطة بالقطن وبخاماتها المعدنية وخاصة النحاس ، الذي يضاف إليه نحاس الجمر ؛ ودول بحر البلطيق بأخشابها ؛ وبولندا بحبوبها ؛ وفرنسا بملحها وببقية منتجاتها ، وكذلك الممتلكات البابوية .

وكما هو الحال في ليون ، في نفس الفترة ، زادت تجارة الفضة في خط متوازي مع تجارة السلع . وأصبحت بورصة أنفريس ، والتي بنى لها مينأ هاماً في عام ١٥٣١ ، تحتل في سوق رؤس الأموال مكانة قريبة من مكانة ليون . ومع مرور الوقت ، أخذت أهمية أكثر منها ، بسبب تجمع تجارها البحرية ، من جميع أنحاء العالم فيها . وأصبح لأكبر البيورات التجارية في القارة ، وبخاصة في ألمانيا ممثلين فيها . ومن كل مكان ، كانوا يستوفون فيها عن قيمة العملة في الأراضي المنخفضة ، ووجدت المضاربات على العملات فيها تسهيلات إلى أبعد حد . وزاد التدفق الدولي لأنفريس نتيجة لكون تجارة السلع ، مثله في ذلك

مثل تجارة الفضة ، كانت بشكل رئيسي في أيدي الأجانب ، خاصة وأن البحرية الخاصة بالأراضي المنخفضة كانت قليلة في عدد سفنها . وفي بداية الثلث الثاني ، كان بحارة هيرتافي هم الذين يقومون بدور الوسيط في المعادة بين أنفوس وبين عملاتها في أوروبا الغربية . ثم بدأت ، قرب عام ١٥٤٠ ، فترة البحرية الهولندية ، التي رأيناها ، قرب نفس الفترة ، تحمل شيئاً فشيئاً ، ونسباً في بحر البلطيق على منافسيها من رجال جملة الهانسا . وأن كان ذلك لم يمنع رجال الهانسا من أن يجدوا بعد ذلك مرات عديدة تلك الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها بشكل تقليدي في أنفوس ، ومن أن يبنوا فيها ، ابتداء من عام ١٥٣٨ ، مركزاً جديداً .

وكتب هنري بيرين عند معالجته للقرن السادس عشر : « أن الأراضي المنخفضة لا تمثل أكثر من ضواحي هذه المدينة الفريدة » . وعلينا أن نلاحظ ، مع ذلك ، أن الاطماع الأجنبية قد بدأت في تلك الفترة في تهديد أنفوس ، بينما بدأت منافسة بشأنها في الميدان الدبلوماسي والعسكري بين دول أوروبا الغربية وكان الفرنسيون ، وخاصة حينما كانوا يفكرون في نقل حدودهم صوب الشمال ، لا يصلون بأنظارهم إلى مثل هذا البعد . ذلك أن بلاد الفساون ، مع مصباتها البحرية ، كانت لا تزال بعيدة عن أيديهم : فلن يستولوا على كاليه إلا في عام ١٥٥٩ ؛ أما دنكرك ، والتي كانوا يحتلونها مؤقتاً ، فإنها ستصبح أسبانية لفترة تزيد على قرن من الزمان . ولن نخامر فكرة تحرير الأراضي المنخفضة وحتى مصب نهر الإسكوت أذهان بعض رؤسائها إلا في فترة لاحقة . وسيكون ذلك في الوقت الذي تنتهي فيه أهمية أنفوس .

٤ - استعمرات الحرب بين فرنسا وأسبانيا :

في المرحلة الأخيرة من هذا الصراع الكبير الذي كان قد بدأ في عام ١٥٢١

لا يبعد في مواجهة الدولة الفرنسية سوى دولة إسبانيا . فألمانيا قد رجعت إلى عزلتها تحت إمبراطورها الجديد ، فريدريك الأول . أما الأراضي المنخفضة ، والممتلكات الإيطالية لشارل الخامس فإنها انتقلت إلى ابنه ، ملك أسبانيا . وكان الفرنسيون مرتبطين بدرجة كبيرة بإيطاليا ، حتى أنهم أصبحوا لا يفكرون في ترك هذا الميدان للأسبانيين ، وبغض درجة تصميمهم فيما مضى على عدم تركه لرجال الإمبراطورية .

ولم تكن تسوية مسألة يارما ، في عام ١٥٥٢ ، قد أنت بصلح دائم ، أو حتى لوقت طويل . ذلك أنه في وقت حصار ميتر ، أتت قوات أسبانية من نابولي لإمداد قوات الإمبراطورية في إقليم ميلانو . وكان هدفهم هو سينا ، تلك الجمهورية الصغيرة التي كانت قد خضعت فيما مضى لشارل الخامس ، والتي كان الفرنسيون ، بعد أن كانوا قد حرروها ، قد تعهدوا باحترام استقلالها . ولم تكن القوات الفرنسية موافقة : ذلك أن القائد الفرنسي الذي حوصر فيها قد اضطر إلى التسليم بعد عمليات دفاع استمرت فترة ثمانية أشهر ، في شهر أبريل ١٥٥٥ . وسلمت سينا إلى أسرة ميديسيس . وعلى حدود بيكيارديا تم الوصول إلى توازن نسبي بين القوات الموجودة . فكان هناك إنتصار وفشل لكل من الجانبين . وبعد وساطة البابا وانجلترا ، بدأت محادثات الصلح ، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة ؛ وأن كان العام التالي قد شهد الاتفاق على هدنة لخمس سنوات ، في ٥ فبراير ١٥٥٦ . وكانت هذا هو الوقت الذي أتم فيه شارل الخامس كل إجراءاته ، وترك فيه بلجيكا إلى ملجئه الصغير حيث يتوفى بعد عامين من ذلك .

وكانت شئون إيطاليا هي التي تسببت في فشل هذه الهدنة . ففي هذا العالم الصغير ، والذي كان يحوطه متحركه ، جاءت عملية وصول البابا بول الرابع ،

وكان في الأصل من نابولي ، إلى الكرسي البابوي ، وكان عدواً لمطناً لاسبانيا ،
يمثل عاملاً جديداً للبياج وإثارة المشاعر في عام ١٥٥٥ . وأقادت الدبلوماسية
الفرنسية من ذلك . وجعلت الكرسي البابوي يوافق على تكوين عصبة هجومية
دفاعية ، يمكن لكل الأمراء أصحاب فرنسا الدخول إليها في ١٤ ديسمبر ١٥٥٥ .
وفكروا منذ الأيام الأولى في عملية غزو مملكة نابولي . وأسرع فيليب الثاني
بأخذ المبادرته . وفي شهر سبتمبر ١٥٥٦ انتشرت قواته في كل إقليم رومانيا .
وعندئذ كلف هنري الثاني الدوق دي جيز ، الذي كان قد انتصر في ميتر ،
بقيادة جيش لإنقاذ البابا . وتم إتيان رومانيا ، وبدأ بعدها الزحف صوب نابولي .
ولكنه اضطر بعد ذلك إلى العودة إلى فرنسا : ذلك أن جيشاً بقيادة دوق سافوا ،
إيمانويل فيليبرت ظهر إلى الشمال ، وهجم في اتجاه باريس ، واستولى على سان
كاتين في شهر أغسطس ١٥٥٧ . وإذا كان الاسبانيون قد تمكنوا من إتيان فرمة
إنتصارهم لتكنوا من كسب الحرب . ولكن صعوبات ضخمة كانت تجبرهم
على البقاء في أماكنهم ، وأجبرتهم بعد ذلك على العودة إلى الأراضي المنخفضة .
وتمكن سكان باريس من أن يقتفروا الصمداء . ومع ذلك فإن فرنسا لم تتمكن
من أن تمحو تماماً هزيمة سان كاتين ، كما كانت قد فعلت في الماضي في أن تسمى
آثار هزيمة بافيا .

وتمكن فيليب الثاني ، الذي روجته والدته من ماري تيريدور ، من أن يحصل
من الإنجليز ، التي عادت إلى المذهب الكاثوليكي ، على أن تتدخل إلى جانبه في
شهر يونيو ١٥٥٧ . وسحق وصل دوق دي جيز من إيطاليا بجيشه ، وكان سلباً
تقريباً ، أتيه صوب كاليه واستولى عليها بعد بضعة أيام في شهر يناير ١٥٥٨ .
وسمع هذا الانتصار الكبير بعد مفاوضات الصلح في ظروف مشرقة . وكان
هنري الثاني قلقاً من توغل أفكار الإصلاح الديني في مملكته ، فأظهر نيته لتصفية

الصعوبات الخارجية حتى يكرس كل وقته للصراع ضد الهرطقة في الداخل . وكان هذا اتجاهاً ديفياً يجبر فيليب الثاني على التماطل معه . ومع ذلك فإن الدبلوماسية الإسبانية لم تقم بأى شيء من أجل تمهيد الطريق ، بل ظهرت على العكس من ذلك على أنها متشددة . ولم تؤد بمبادل وجهات النظر الأولى إلا لعقد هدنة في شهر أكتوبر ١٥٥٨ ؛ ولكن روح التسامح التي اظهرها الفرنسيون أنهت بالتغلب على كل الصعوبات ، وتم عقد الصلح في ٢ أبريل ١٥٥٩ في كاتو ، قرب كامبراي .

وكان هنري الثاني قد أعلن كذلك ، في عام ١٥٥٢ ، وقت سفره في رحلة ألمانيا ، أنه سيجبر الامبراطور على الاعتراف بحقوقه في أقاليم ميلانو وناپولي ، وفي نفس الوقت بحقوقه في الفلاندر وآرتوا . وكان عليه أن يقلل من غلواء هذه التصريحات الكبيرة ، والتي كانت سابقة لأوانها ، في كاتو . ففيا يتعاضد بآرتوا وبالفلاندر ، تأكدت لصوص مدريد بنصوص كامبراي . ولم تطرح مسألة ناپولي وميلانو التي كانت في أيدي الاسبانين . أما ما بقي من الارض المفتوحة في إيطاليا فأنهم تناولوا عنها . وأما سافرا ويدمونت ، والتي كانت محنة منذ عام ١٥٣٦ ، فإنها عادت إلى ايمانويل فيليبرت ، أميرها الشرعي ، بإستثناء موقعين استراتيجيين . وأما جزيرة كورسيكا التي كانوا قد أخذوها في عام ١٥٥٣ من أبناء جنوا ، فإنها عادت إليهم . وبطبيعة الحال جاءت زيجة ملكية لكي تتوج أعمال الدبلوماسيين . ذلك أن فيليب الثاني ، الذي كان أورملا منذ بضعة أشهر نتيجة لوفاة ماري تيودور ، سيتزوج الابنة الكبرى لهنري الثاني . وكانت هذه هي الشروط الأساسية للمعاهدة . وكانت تطلب الكثير من فرنسا ، ولا تعطي شيئاً — سوى السلم — الذي كان ملكها في أشد الحاجة إليه . ويقولون بأن كثير من الفرنسيين لعنوه من أجل عقده مثل هذا الصلح . وبعد قرن من

ذلك ، سيتحدث فوبان ، وبكل فسوة ، عن صلح كانو هذا ، الذى لا يشرف
هنرى الثانى ، والذى أعتبر دائماً على أنه أشد صلح عقد حتى ذلك الوقت خجلاً ، .

ونصت معاهدة خاصة مع انجلترا ، ولللكة الزيانيث ، تم التوقيع عليها فى
كانو ، على ترك كاليه مؤقتاً لفرنسا ؛ وكان ذلك سيكلفها ٥٠٠.٠٠٠ جنيه إذا
مارضيت فى البقاء هناك بعد فترة الثمانية سنوات . الامبراطورية ، التى لم تكن
ممثلة فى مؤتمر الصلح ، فلم يتم عقد معاهدة معها . وستظل فرنسا تمتلك ميتز ،
وتول ، وفردان ، وبدون سند موثق وقانونى ، حتى عام ١٦٤٨ .

وهكذا تنهى تلك الفترة الطويلة من تاريخ الغرب ، والتى كانت تسمى فى
بعض الأوقات ، إستناداً إلى أحد مظاهرها الرئيسية ، بأنها فترة الحروب الإيطالية .
ولم تكن أسبانيا ، وبصفتها دولة ، هى التى لعبت فيها الدور الرئيسى . ومع ذلك ،
فإنها كانت هى الدولة التى حملت من هذا الصراع على أكبر المزايا . فلقد عادت
على توسيع نفوذها ، أو سيطرتها ، على الجزء الأكبر من إيطاليا ؛ واستولت على
نافار ؛ وورثت الاراضى المنخفضة ، التى محرومت من كل إعطاءات أجنبية . أما
بالنسبة لفرنسا ، وبصفتها صاحبة المصلحة الرئيسية فى تلك الصدمات التى تلا هذه
الفترة ، فأنها خرجت منها بأجزاء فقدتها ، وبمكاسب . ولكن الاستيلاء على كاليه ،
واحلال ميتز ، وتول ، وفردان ، لم تكن تعوض إلا بشكل غير كامل التخل عن
إيطاليا ، بالإضافة إلى التخل عن الفلاندر وآرتوا .

الفصل الثامن

التفوق الاسباني

يمثل الجزء الثاني من القرن السادس عشر ، وبعد ذلك التحول الكبير في عام ١٥٥٩ ، خصائص مختلفة تماماً عن خصائص الجزء الأول . ذلك أن منافسات الدول ، التي استمرت في وضع الدول الكبرى في مواجهة بعضها ، قد زادت تعقيداً ، بتلك العدواة الشديدة ، والتي كان لا يمكن القضاء عليها بين الكاثوليكية ومذاهب الإصلاح . أما الشراعية من أجل الإستحواذ على أراضي جديدة ، فإنها فقدت من أهميتها ، وزادت أهمية المظاهر الدينية ، وإحتلت المكان الأول . ومع ذلك فيسكون من المغالاة أن نقول بأن الانحياز الديني هو الذي أصبح يمحكم في غيره . ولكنه كان على الأقل يفرض شكله الخارجي عليها . وحتى إذا كانت هناك مشغوليات أخرى تدور في أذهان الرجال ، فإن هذه الإتهامات الدينية كانت تعطى لونها لنياتهم ، ولقد وافهم .

١ - الصدامات الدينية بين الكاثوليكية ومذاهب الإصلاح :

ليس هناك ما يدعو إلى أن ننظر إلى كل المشكلات ، وبدون تمييز بينها ، من وجهة نظر التعارض بين المعتقدات . ومع ذلك ، فإن الكثيرين من المؤرخين البروتستانتين قد مالوا ، في حالات كثيرة ، صوب المغالاة في تأثير الإصلاح الديني على الملكات الدولية . حقيقة أن الإصلاح الديني قد عمل على تغيير الحياة الداخلية للأمم ؛ وعلى الأقل البعض من بينها ، ولكنه لم يغير بدرجة ملحوظة طبيعة علاقاتها ، وإتهامات سياساتها الواحدة تجاه الآخرين ، ولا معنى واتجاه التطور الذي كان موجوداً منذ نهاية العصور الوسطى .

والحالة الوحيدة لملكات أوروبا المسيحية مع العالم الإسلامي يمكنها أن تكسب الشعور بذلك . فالانقسامات التي حطمت بشكل نهائي ، في بداية الصور الحديثة ، حركة مد الحملات الصليبية لم تولد من الصدمات الديفة الكبيرة في أثناء القرن السادس عشر ، بل لقد زاد فقد حدثها ، وتدعمت . وكانت فيما مضى ، وتحمت التأخير المتزايد للاتجاهات القومية ، قد أصبحت لا يمكن العودة إليها . ولا شك في أن شيئاً لم يكن قد أتى لكي يقلل من تلك المعارضة الأساسية الموجودة بين الصليب والحلال . ولكن أبناء المسيحية إنتهى بهم الأمر إلى أن تمودوا جهة المسلمين لهم . أما فكرة الحرب المقدسة ، حتى إذا ما كان يمكنها من وقت لآخر أن تدفعهم إلى الطرق المؤدية إلى الشرق ، فإنها لم تعد قادرة على أن تخلق حركات حقيقية وفعلية بين الجماهير .

وإذا ما تركنا المشكلة الكبرى للحملات الصليبية جانباً ، فإن هناك بعض المشكلات ، من بين تلك التي كانت تطرح نفسها أمام رجال القرن السادس عشر ، والتي كان في وسع أحكامهم عليها أن تكون مختلفة عما كانت عليه ، إذ لم يكن ذلك الاتجاه العدائي بين المعتقدات قد أثر في صيغتها .

وإذا كانت أوروبا قد أفلتت ، مرتين ، من أن تخضع لسيطرة الأسرة النمساوية الحاكمة ، فإن ذلك كان يرجع ، وإلى حد كبير ، إلى حركة الإصلاح الديني . ففي وقت شاول الخامس ، تم الاحتفاظ بقوة أسرة هابسبورج دون انتصار ، نتيجة لتوسع اتجاه أنصار لوثر في ألمانيا ، ثم نتيجة للحروب الأهلية ، التي اضطرت الإمبراطور إلى أن يضع كل قواته في مواجهتها . وفي وقت فيليب الثاني ، سيتأثر مستقبلها بانشقاق الأراضي المنخفضة ، الذي نشأ عن تلك المقاومة المريرة لانتصار كل من للاتجاه المطلق لذلك « الملك الكاثوليكي » .

وهذه ظواهر واضحة ، لمن يفكر فيها . وكيف يمكننا أن نقول بأن شكل أوروبا الغربية سيكون ، بدون حركة الإصلاح الديني ، عند نهاية القرن السادس عشر ، هو نفس الذي رأيناه قد تشكل بالأحداث ، وأخذت فيه حركة الإصلاح الديني مكاناً بارزاً ؟

ومع ذلك ، فمن هو الذي يمكنه أن يؤكد أنه بدون لوتر ، وبدون صبة سبالكاله ، وعصبة عام ١٥٥٢ ، كان يمكن لشارل الخامس ألا ينزوم ؟ لقد كانت الدولة الفرنسية ، وهي الدولة الأولى في كل أوروبا ، قبل أن يظهر ، مصممة تماماً على أن تستمر في الصراع عنده ، ولكل أطول وقت يمكن ، لكي تنمى من تحقيق طموحاته . وكانت إنجلترا بدورها لا توافق على توسعه بدون حدود . أما ألمانيا الأمراء ، والأقاليم ، والمدن الحرة ، فإنها قد أظهرت تمسكاً كبيراً بحرياتها حتى أنها كانت ستحمل السلاح لكي تدافع عنها . ولم تقم حركة الإصلاح الديني إلا بوضع بطاقة جديدة في لعبة خصوم أسرة هابسبورج . وحللة الأراضي المنخفضة في النصف الثاني من القرن ، تتضمن تفسيراً من نفس النوع . والثورة ، قبل أن ترفع علم الدين ، كانت لها طبيعة وطنية محنة . وهنا أيضاً ، هب الكاثوليك والبروتستانت من أجل الدفاع عن حرياتهم . وإذا ما كانت المسألة العقائدية لم تأخذ ، مع الزمن ، تلك الأهمية ، لما تم بطبيعة الحال ذلك الإقسام بين أقاليم الشمال وأقاليم الجنوب . وفي هذه الحالة ، ليس هناك من سبب لإقراض أن عمل الثوار ، مؤيداً بفرنسا — فرنسا التي لا تكون قد شلتها الحروب الدينية — لن يحصل على النتائج التي كان من الواجب أن يحصل عليها في نهاية الأمر الهولنديين وحدهم ، أى الاستقلال . وبالنسبة لاسبانيا ، كانت الكارثة ستكون إذن أكثر خطورة . وإذا كانت قد نجحت في الإحتفاظ بسيطرتها على جزء من رهاياها في الأراضي المنخفضة ، وهم سكان

الأقاليم الجنوبية ، فإن ذلك يرجع إلى أنها قد إستندت إلى حجة الخطر البروتستانتي .

وعلى العكس من ذلك ، فإذا كان شارل الخامس قد نشئ إلى أبعد درجة من حركة الإصلاح الديني ، فإن الإضطرابات التي تسببت في نشأتها في تفكير الناس كانت في بعض الحالات في مصلحته . فعند الفرنسيين ، ضعفت الرغبة في المقاومة في بعض الأوقات نتيجة لفكرة وجود تفاهم بين الملوك الكاثوليك ضد المهرطقة . وظلت هذه الفكرة موجودة وقت ذلك التقارب الذي ظهر في سنوات ١٥٣٨ - ١٥٤٠ ، وإنصرفت هذه الفكرة في اليوم التالي لحرب جديدة . وتأكدت في البروتوكول السري لعام ١٥٤٤ ، وتمكن الإمبراطور من أن يستعد وهو في متنى الأمان ، من أجل الصراع الحاسم مع أنصار لوتر في ألمانيا .

وهكذا نجد أن « الثورات الدينية » في القرن السادس عشر لم تكن في مصلحة دولة واحدة معينة ، وبشكل كامل ، ولا مجموعة من الدول ، على حساب غيرها . وإذا ما نظرنا إليها من إرتفاع ، ومن بعد ، نجد أنها قد قامت فقط بإدخال طاول جديد في تعارض المصالح بين الدول . وجعلت الصدامات التي تستمر ، أو التي سوف تنشأ بعد ذلك ، وفي غرب أوروبا ، أكثر تعقيدا .

٤ - نتائج الصدامات الدينية :

كان للإمبراطورية الإسبانية الألمانية ، التي ولدت في عام ١٥١٩ ، فرصا قليلة لكي تمر لفترة طويلة ، فكانت توحد بين دولتين لم تكن بينهما مصالح مشتركة من أى نوع ، لا سياسية ولا إقتصادية ؛ وبين شعبين يستعمل الظروف على الفصل بينهما بهوة سحيقة : فكان الأول هو الذي أخرجه أول مصلح ديني وإنضم ، جزئيا ، إلى المذهب الجديد ، وظل الثاني محافظا على ولائه ، وبإخلاص .

المذهب الكاثوليكي . وعند نهاية الحكم ، لم يكن الإسبان يون مكروهين فقط في ألمانيا على أساس كونهم أنصار روما . بل لقد حملوا كذلك نقل السدء الناتج عن الاتجاهاات المطلقة في حكم الامبراطور . وذلك الأمة ، التي كانت غيرة على والحريات الجرمانية ، فضحت ، وبكل إستقرار والعبودية الإسبانية ، التي تهددها . وكانت ترتد أمام فكرة أن تخضع ، وفي شخص الملك فيليب ، لملك آخر جاء من إسبانيا ، أجنيا ، أكثر من والد ، بالنسبة إليهم ، في لغته وفي عاداته . وكان الاتجاها القومي الألماني ، الذي كان لوثر قد أسهم إلى درجة بعيدة في تميمه ، قد رفض إستمرار مثل هذه التجربة ، التي كان قد عاشت لوقت طويل .

ولم يكن مجرد الشعور بهذا الاتجاها العدائي المتزايد فقط هو الذي جعل شارل الخامس يقرر تقسيم دولته ، حينما بدا له أن الوقت المناسب قد حان من أجل تحقيق الرغبة القوية التي كان يظهرها منذ وقت طويل من أجل التحرر من السلطة . بل لقد كانت هناك كذلك دوافع سياسية . فرغم معارضة أخيه ، ملك الرومان ، فإنه قد تم التوقيع في عام ١٥٥١ على إتفاقية أسروية ، إستفظت بتاج إقليم رومانا لفيليب : ولكن يكون مكسميليان ، ابن فرديناند ، في الامبراطورية ، سوى خليفة إبن عمه . وعاش الامبراطور ، منذ عام ١٥٥٣ ، في بروكسل ، في شبه عولة ، حينما وقع حادث مفاجيء أجبره على الرجوع فيما قرره إتفاقية عام ١٥٥١ . ذلك أن وفاة ادوارد السادس الشاب جعل تاج انجلترا يذهب إلى أخته ، ماري تيودور . وكانت هذه الأخيرة ، التي تربت في كنف الديانة الكاثوليكية ، ترغب في أن تزوج بأمر . يمكنه أن يفيدها ويعضدها في مجهودها من أجل ارجاع بلادها إلى مذهبها السابق . ورأى شارل الخامس ، حين عرض عليها إبنه فيليب ، ميزة الحصول بسهولة أكثر على تنازل هذا الأخير عن الامبراطورية : فلا شك في أن تاجاً ملكيا ثانيا كان يكتبه .

أما الملكية الثغابة ، والتي كانت تظهر كل ثقة وتقدير في ابن الخال هذا ، الذي إختارته كحام ومرشد لها ، فإنها وافقت بسرعه عليه . وبدا أن قلبه كان قانما تماما بالا يحكم بلاد سادت فيها اتجاهات الهرطقة ، ولم يكن قد حطى فيها بأى تجاوب .

وبعد أن إنتهت مراسم التخلل عن العرش ، تأخرت عملية نقل سلطة الإمبراطورية ، بطلب فرديناند نفسه ، ولم تحدث إلا في شهر مارس ١٥٥٨ ، وقبل بضعة أشهر من وفاة أخيه في ملجئه الإسباني .

وفي الوقت الذي تنازل فيه الإمبراطور عن العرش ، والذي كان يتم فيه التفارض في كاتو ، كان الموقف العام في غير صالح المذهب الكاثوليكي . وبدا أن كل أمل قد فقد في إرجاع المنشقين إلى حظيرة الكنيسة بالوسائل السلبية . ولم يكن من الممكن المناقشة مع ممثليهم في مجلس منتخب بحرية : فالجميع الذي سيعود إلى عقد جلساته في ترانت ، والتي كانت قد انقطعت منذ ما يقرب من عشر سنوات ، لن يشتمل إلا على الكاثوليك . أما في الإمبراطورية ، وفي الدايت الذي إجتمع في أوجزبرج برئاسة فرديناند في عام ١٥٥٥ ، فإن الأقلية من أنصار لوتر قد تمكنت من الحصول على إعترااف بالمساراة في الحقوق وأما في انجلترا ، فإن اليزايت ستعمل على عودة إحياء مذهب هنرى الثامن الأنجليكاني ، وفرنسه بشكل نهائى . وفي فرنسا ، وأخيرا ، فإن الهيجينوت ، والذي استمر نفوذهم بقوة في المجتمع وفي الدولة ، قد إستعدوا لاستخدام القوة من أجل ان يحصلوا ، وبواسطة وصاية على العرش ، وعلى صيغة شرعية .

وظلت إسبانيا ، وحدها من بين كل الدول المظلمى القومية ، بعيدة عن هذه العدوى . وكانت هي التي خرجت متضررة من الحروب الإيطالية ، والآتي .

وبعد أن انفصلت عن الإمبراطورية ، أصبح في وسعها أن تتركس كل مجهوداتها من أجل الدفاع عن مصالحها الخاصة ، وتركز كل قواها على المسارح التي تختارها وتطبقها في عمليات أخرى خلاف عبارة الألمان الهراطقة أو اللشائرين . وكانت قوية بوحدها المعنوية ، التي كانت مدعمة بتلك الثروات التي كانت تأتي إليها من أمريكا ، وبهؤلاء المشاة المنقطعي النظير ، ولم يكن أحد من خصومها له نفس حجمها .

وسياسات التفوق الاسباني عملياته في عالم دائم الغليان ، وتشغله في كل فترة ليران الحروب الأهلية وفيها وراء الحدود ، كانت الروابط تعقد بين الأقليات المضطهدة ، أو الأغليات التي تمارس اضطهاد غيرها . وشعر رجال الإصلاح في فرنسا أو في الأراضي المنخفضة أنهم أكثر قربا من أبناء مذهبهم من الانجليز أو الألمان منهم مع أبناء وطنهم من الكاثوليك . ولم يترددوا في طلب معرفتهم ، في نفس الوقت الذي أرسل فيه الكاثوليك في إنجلترا أو إسكتلندا ندامات لفرنسا أو لاسبانيا ومع ذلك ، فإن المواقف التقليدية بين الدول وبعضها لم تتغير بشكل كبير . فلم تزعزع إلا بالكاد ، ولوقت قصير . ولن تأخر الدوافع السياسية ، والتي كانت في إحدى المحطات قد مرت إلى الخط الثاني ، عن أن تتقدم من جديد على الدوافع الدينية .

وهكذا نجد ، أن كل تاريخ أوروبا الغربية ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، قد خضع لسيطرة الصناعات الدينية . ومن المؤكد أن شخصية أقوى ملوك هذا العصر قد لعبت فيه دوراً كبيراً . وعلينا أن نتعرف بسرعة على شخصية فيليب الثاني ، حتى نتبين من فهم تاريخ هذه الفترة .

فلم يكن فيليب الثاني ، على خلاف والده الذي كان يحبه . ولكنه لا يشبهه ، من الملوك المحاربين . فلن يقوم أبداً بالقيادة الفعلية لأحد الجيوش ؛ ولن يظهر

في ميادين الحرب . وكان ملكا من طراز جديد ، ملكا عجا للإدارة . وفي قصر الاسكودريال ، الذى بناه ، والذى سكنه ابتداء من عام ١٥٦٨ ، والذى لن يتركه تقريبا إلا عند وفاته ، أى لفترة تقرب من ثلاثين عاما ، كان يمضى وقته في الكتابة ، وفي تحرير الأوامر ، وإعطاء التعليمات ، وتوجيه الأسئلة . وفي الخارج ، كان يعمل بنوع خاص عن طريق الدبلوماسية . ولم يلجأ إلى السلاح إلا في حالات استثنائية . ولم يقرر الاتجاه إليها إلا حينما يجد أنه ليس في وسعه التصرف بطريقة أخرى ، دون أن ينصر هيئته ، وبعد أن يكون قد تردد لوقت طويل . وكان مسالما فسموه فيليب الحذر ، وبخاصة في إنجلترا .

وفي البداية ، لم تنقصه الأسباب بطبيعة الحال لكي يأخذ موقف ويعلن عن نفسه أمام أميين أوروبا أنه بطل المذهب الكاثوليكي . فتوفيت ماري تيودور بدون أولاد في عام ١٥٥٨ ، فانفصلت الوحدة بين تاجي إسبانيا وإنجلترا . وفكر فيليب لفترة من الوقت في إعادة هذه الوحدة عن طريق زواجته من البرايث . فطلب من أجل ذلك تصريحها من الحكرمى البابوي ، إذ أن الملكة الجديدة كانت أخت زوجته . أما هذه الأخيرة ، فإنها حاولت ، كما ستفعل طول حياتها ، وفي كل الظروف . وكانت مصممة تماما على الاحتفاظ بحريتها ، ولكنها مع ذلك إمتنعت عن تشيوط عزيمة هذا المتقدم لها ، القوي : فكانت تعمل على تأجيل ذلك الحكم الذى لن يتأخر عن أن يقع على رأسها ، من روما ، حين تأخذ جانب رجال الإصلاح . وفي أثناء ذلك الوقت ، هل سيقوم فيليب بتأييد ملكة إسكتلندا ، التى كانت في صراع من رجال الإصلاح الديني ، والذين كانت قواتهم تتزايد في كل يوم ؟ ذلك أن ماري ستيوارت التى تزوجت من الابن الأكبر لهنرى الثامن ؛ سوف تصبح ملكة على فرنسا ، في نفس الوقت

الذى كان فيه الفرنسيون والاسكتلنديون مرتبطين سويا برباط تحالف . وقام بالمناورات ، وبدون حقيق ، من أجل جعل النفوذ الاسباني يأخذ مكان النفوذ الفرنسى فى إسكتلندا . بحين عادت مارى ستيوارت أرملة فرانسوا الثانى ، إلى إسكتلندا ، قامت لفترة من الوقت بدور فى تنفيذ مشروع ترويجها من ابنها دون كارلوس ، وكان متخلفا .

وبدت السنوات الأولى التى تلت صلح عام ١٥٥٩ مباشرة على أنها سوف توجه سياسة الدول الغربية المختلفة فى اتجاه مخالف تماما عن ذلك الذى تسلكه فى نهاية الأمر . فى مؤتمرات كانو ، قامت حكومات فرنسا وإسبانيا ببادل الوعود بقيام وفاق تام ضد البرطقة . ونسجت خيوط تقارب بين التاجين ، وقرر أمر زواج ملك إسبانيا باليزابيث دى فالوا ، ابنة هنرى الثانى . وكان هذا يمثل نوعا من قلب نظام التحالفات الممكنة . فإسبانيا بعد أن اعتقدت فى أنها تسيطر على السياسة الانجليزية ، هل ستقوم بإدخال فرنسا فى لعبتها ؟ أنهم لن يسهروا طويلا فى هذا الطريق . فلا شك فى أن الملكة الجديدة لانيجلترا قد أكدت بصره من النيات الفعلية لكل من مدريد وروما ، فوافقت أولا على أن تساعد الهيجينوت الفرنسيين الذين كانوا قد حملوا السلاح ضد شارل التاسع : فبمعاودة تم التوقيع عليها فى هامبتون كورت فى ٢٠ سبتمبر ١٥٦٢ مع تمثيلهم ، قامت بتسليم ميناء الحافر الذى كان يعتمد فى إمكانية إستخدامه كرهينة من أجل إستعادة كاله . ولكن جنودها لن يبقوا هناك فترة طويلة . فستقوم القوات الملكية بطردهم من هناك فى العام التالى . وستقوم ، بعد ذلك بقليل ، بالتوقيع على صلح تروا ، فى ١٢ أبريل ١٥٦٤ .

أيا الصداقة الجديدة بين باريس ومدريد فانها لن تعمر بعد فقدان الأمل فى بعض المشروعات التى كانت كاترين دى ميدينىسى قد تقدمت بها فى مقابلة

بايون مع عثلى ملك إسبانيا فى شهر يونيو ١٥٦٥ . وستواجه الدولتان العرة الأولى فى إحدى المعارك الاستعمارية . فكان الهيجينوت الفرنسيون قد ذهبوا ، تحت قيادة الأميرال دى كوليبى ، لكن يفشوا مستعمرة قرب فلوريدا ، وسموها كارولينا ، تيمنا باسم شارل التاسع ، وبعد ما يقل عن العامين ، قامت جماعة من الاسبانيين بتغريب المستعمرة ، وللقضاء على كل سكانها : ورفض فيليب الثانى أن يتبرأ من المسئولين عن هذه المذبحة . وزاد التشبث الاسبانى من مهاجمات كاترين ولإنها لهذه السياسة الاسبانية . وسرطان مايصل هذا التوتر فى بلاط فرنسا إلى حد التفكير فى الحرب . ولن تقع الحرب . ولكن موضوع الصداقة مع إسبانيا ، سيكون قد انتهى ؛ هذا علاوة على أنه لم يكن فى حقيقة الأمر سوى واجهة ، تخفى شيئا آخر .

٣ - إنجلترا بين فرنسا وإسبانيا (الأرمادا) :

كانت المنافسة البحرية والتي نتج عنها إكتشاف أمريكا وإستغلال ثرواتها فى بداية هذا القرن ، بعيدة عن الأسباب العميقة لذلك التمارض بين فرنسا فى عهد آخر ملوك أسرة فالوا ، وإسبانيا فى عهد فيليب الثانى ، وهو التمارض الذى سرعان ما يؤدى إلى صدام مسلح . وكان الفرنسيون قد نجحوا فى أن يحولوا لصالحهم ، وعن طريق التجارة ، جزءا من أمواج هذا الذهب والفضة الذى كان يصل إلى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وكانت إقتصاديات هاتين الدولتين قد أصبحت متكاملة [إلى حد بعيد ، وكانت لإسبانيا ، والتي سوف تزدد مساحتها بعد قليل بضمها البرتغال ، والتي كانت على نفس درجة فقرها فى الحبوب ؛ تحب كل ترسيب بالحبوب الفرنسية كلما كانت فرنسا تسمح بتصديرها . وكانت تستوعب جزءا من إنتاج الأقمشة فى نورمالدى وبريتانى ، والذي كانت تزود به ، مع كل أنواع الأشياء العادية ؛ وتزودها بإمداداتها صوب العالم الجديد . ولما كانت لا تمتلك

الكثير الذي يمكنها أن تقدمه في تطوير ذلك ، وكانت ، في نفس الوقت ، كل عملية لتصدير المعادن النفيسة ممنوعة ، فإن ذلك أدى إلى نمو كبير لحركة سرية للذهب والفضة ، عن طريق البحر حين يكون ذلك ممكناً — وإن كانت الموانئ تخضع لمراقبة دقيقة — وغالباً عن طريق غمرات جبال البرانس .

وكانت السياسة ، في هذا العصر ، تزيد في أهميتها على الاقتصاد ، ونتيجة لتقسيم حركة الإصلاح الديني ، طرحت مسألة الأراضي المنخفضة وتبسيطها لآل هابسبورج . وزاد عدد الفرسيين الذين فكروا في إمكانية الاستفادة من هذه القضية . وقام البعض منذ عام ١٥٧٠ ، بالتحدث عن ذلك صراحة . وفي هذه الفترة ، كانت سياسة فرنسا ، وسياسة إنجلترا ، وهما تطلان مصلحتها المتشابهة من أجل العمل على إضمار النظام الملكي في إسبانيا ، قد عملتا أثناء فترة قصيرة في هذا الاتجاه .

وكانت الاضطرابات التي ظهرت في الأراضي المنخفضة ، والتي نتجت عن تمسك الأهل بـ بحرياتهم التقليدية ، والتي كان يهددها نظام الحكم المطلق لفيليب الثاني ، قد أخذت صفات سياسية ودينية في نفس الوقت ابتداء من عام ١٥٦٩ . وكان الرجال الذين انضموا إلى حركة الإصلاح كثيرين في أقاليم الشمال ، واشتركوا بنشاط في حركة المعارضة ، وأعطوها معان جديدة ، شيئاً فشيئاً ، أما جيرانهم فلم يتأخروا عن الشعور بإغراء التدخل وبدوجات متفاوتة ، في هذا الصراع ، وفي عام ١٥٦٧ وصل جيش أورسلي فيليب الثاني ، تحت قيادة الحسن بنجرالاه ، وهو دوق البيا . وظهرت بذلك ، أمام الجميع ، خطورة الموقف . وتلك فترة قصيرة من الاضطراب . وأكد أمير اورانج ، وكان من المنصار كلفن ، انه رئيس المعارضين ، أو حتى الثوار . وتمكن في العام التالي من أن يحصل على بضعة آلاف من المرتزقة الألمان الذين كان إخاءه لوى دي

ناسو ، قد جمعهم له . وهكذا بدأ الأجانب يتدخلون في الموضوع ، وبشكل يجعل قبح الحركة أكثر مرارة .

وبدأت المشاعر في التحرك ، في فرنسا وفي إنجلترا . وأصبحت المشاعر من أجل أمير أورانج واضحة وصريحة . ولكنها كانت تخضع لحوف الحكومات من قوة إسبانيا . واستمرت النزاعات في أظهار ودها لفيليب وكان لها كثير من الأعداء في الداخل وبشكل يمنعها من أن تهاطر في مشكلات خارجية . ورغم مصالح بعض رعاياها في الأراضي المنخفضة ، بخاجة في أنفوس ، وده المراكز ، — أي أنها كانت بالنسبة لها سوقاً مميّزاً — التي تعاملت في الأسواق الانجليزية على القارة ، فإنها لم تمرؤ على تشجيع الثائرين بشكل صريح ولكن أعمال القرصنة من جانب الانجليز أسهمت في زيادة خطورة الصعوبات الاقتصادية التي كان الاسبانويون يقاسون منها . وساءت العلاقات بين الطرفين ، وبشكل حاد ، في عام ١٥٦٨ . وكان رفض ترك السفير في مدريد يقيم شحاتر القداس في داره على طريقة رجال الإصلاح الديني قد أدت إلى سحبه ولم ترسل إنجلترا سفيراً آخرأ بدلا منه . وبعد ذلك قام الانجليز بعمليات انتقام : فأعلنوا إلغاء الاتفاقيات التجارية الموجودة ، وقاموا بالاستيلاء على السفن الاسبانية في بحر المانش . وتميزت الفترة الخاصة بالتوتر ، والتي نتجت عن ذلك ، بتزايد واضح في العلاقات التجارية بين إنجلترا والأراضي المنخفضة وبخاصة نتيجة لنقل « مرسو » الأسواق من أنفوس إلى هامبورج . وبدأ حتى أن صداماً سيكون قريباً حينما تهدد عرش إليزابيث في عام ١٥٧٠ بإحدى الثورات ، وتحدوا في مدريد عن إرسال مدد الثوار . وكانت هذه فرصة فريدة أمام عمليات القرصنة . وقام الانجليز بها بكل حماس في خليج المكسيك . وكان رجال البحر من هولندا وزيولندا ، والذين كانوا يجاربيون الإسبانين بطريقتهم ، يتجهون إلى مواني

السواحل الجنوبية لانجلترا . ونتيجة لطلب دوق ألبا ، وافقت البرايث بعد ذلك على طردهم من هناك في عام ١٥٧١ .

وكانت العودة الاجبارية هؤلاء الخارجين على القانون ، هي بداية إنطلاق الثورة المسلحة ضد إسبانيا . وبدأ أن المنطقة تصل إلى مشارف أزمة ضخمة . وعندئذ حدث تحرك في فرنسا . فتحت تأييد الامهال دى كولينى ، الرئيس الكبير لحزب الهيجونوت ، فكر شارل التاسع ، وإن كان ذلك مع تردد كبير ، فى أن يقوم بالحرب فى الأراضي المنخفضة . فعرض عينيه على تلك الاستعدادات العسكرية التى كانت تتم على قرب الحدود الشمالية ، وقابل لوى دى ناسو ، أخا أمير أورانج ؛ وببادل معه الوعود . وترك الملكة إليزابيث نفسها تدخل فى العملية ، رغم مقاومة أوساط رجال التجارة ، الذين كانوا يخشون من إمكانية إسقاط فرنسا على الأراضي المنخفضة وكانت تخشى ، قبل كل شيء ، من أن يقدم دوق ألبا وعوداً للكاثوليك الانجليز ، بتأييدهم ، وكانوا أصرار ماري ستوارت . ولذلك فإنها وافقت على أن تعقد فى بلوا ، مع شارل التاسع ، وفى ١٩ أبريل ١٥٧٢ ، معاهدة تحالف دفاعى ، مضافاً إليها نصوص تجارية . وقامت جماعات من المتطوعين الفرنسيين ، وبموافقة الحكومة الضمنية ، بالذهاب إلى جبهة هاینو وبالمعمل مع قوات لوى دى ناسو . ولكن كاترين دى ميديسيس فقدت صوابها ، إذ أنها كانت تخشى من القوات الاسبانية . وعملت على أن تمنع حدوث القطيعة بكل وسيلة ممكنة . ولكني تحتفظ بإبنتها على حافة الهاوية ، لم تجد لذلك من وسيلة سوى أن تدفعه إلى القيام بمذبة عامة البروتستانتين ، الذين كانوا قد حضروا إلى باريس من أجل الاشتراك فى حفلات زواج ابنتها الأخيرة بملك نافار . وكان هذا اليوم كافياً لإشهاد العالم على أن فرنسا أن تتدخل فى الأراضي المنخفضة .

وكانت اليزابيث قد ترددت لفترة طويلة في أخذ موقف. وكانت حركة الإلخاف المفاجئة التي قامت بها فرنسا بعد يوم ٢٤ أغسطس ١٥٧٢ تفرض عليها ضرورة الحذر . ولذلك فإنها عقدت إتفاقية ، مع دوق ألبا ، في ٤ أبريل ١٥٧٣ وكانت لها طبيعة تجارية بنوع خاص . وإن كان ذلك لم يمنع، من جانب آخر ، من تجديد المعاهدة الإنجليزية الفرنسية ، بعد وصول هنري الثالث إلى العرش .

وبعد هذه الخطوة غير الموقفة في عام ١٥٧٢ ، ترك الأجانب ، من جديد ، أيدي قبيلب الثاني حرة العمل في الأراضي المنخفضة . وهذه الحرب التي امتدت شيئاً فشيئاً إلى كل الأراضي المنخفضة ، احتفظت بطبيعتها، كحرب أهلية . وكانت العصابات التي تمهد في ألمانيا تستمر في الإشتراك فيها ، من وقت لآخر . أما فرنسا فإنها شغلت كل يوم بدرجة أكبر ، بالإضطرابات الداخلية فيها . أما إنجلترا في عهد اليزابيث ، فإنها ظلت على تحفظها ، وإنكفت بأن ترسل إلى الثوار بعض المعونات .

وعلى أن نحاول شرح طبيعه إنجلترا في هذا الوقت ، فكانت تكون في غالبيتها العظمى من الفلاحين ، ومن مربى الخراف والنساجين ، ولم تكن قد أظهرت بعد تطلعا إلى آفاق بعيدة ، ولا للعمل إلى المغارات . ولم تكن قد أسهمت إلا بقدر بسيط في رحلات الكشوف الجغرافية التي وقعت في أوائل القرن ، وكان جون كايوت قد قام بمجرد التعرف على منطقة ليرادور في عام ١٤٩٩ : وكان مع ذلك من أصل إيطالي ، وعمل في خدمة هنري السابع .

ولذلك فإن حب الإنجليز البحر ليس مرتبطاً بحالة بلادهم الجسورية ، أو على الأقل أنه لا يترتب عليها بالضرورة. وكان من الضروري من أجل شعورهم بذلك في أثناء القرن السادس عشر ، أن تعمل عمليات الغزو الإسبانية والبرتغالية

على هذا تفكيرهم ، وإلى أن تنج الثروات المعدنية للعالم الجديد شوائمهم . وظهر ذلك في أول الأمر مع نمو عمليات القراصنة .

وفي أثناء القرن السالف ، وأثناء حرب المائة عام ، كان القراصنة الإنجليز يفتشون الذعر على سواحل فرنسا وبريتاني . ووصل نطاق عملياتهم إلى سواحل شبه جزيرة أيبيريا بدأت الثروات المعدنية للعالم الجديد في عبور المحيط . أما الأضرار التي نتجت عن عملياتهم للاقتصاد الإسباني فإنها ستكون عند أصول بداية العداء ، والتي ستزيد المسألة الدبلوماسية بشكل متزايد من خطورتها ، حتى ينتج عنها ، في الربع الأخير من القرن ، حرباً معلنة بين مملكة البزايث ومملكة فيليب الثاني ، ومنذ عام ١٥٦٣ ، كانت مطالب الحكومات ذات المصلحة تعلمنا أن ٤٠٠ سفينة من سفن القراصنة كانت موجودة في بحر الشمال وفي الخليج الإنجليزي ؛ وكانت قد أُلقيت ، في عام واحد ، ما يزيد على ٧٠٠ سفينة فرنسية ، وفلمنكية وإسبانية . وكانت السفن التابعة للدولتين الأخيرتين هي الأكثر عدداً . ولم يكف فيليب الثاني عن الشكوى ، بالطرق الدبلوماسية . ولم يقتصر من بجانب آخر ، على الشكوى وعلى التهديد . فلما جعلهم يستمعون إليه بطريقة أفضل ، قام في بعض الحالات بالاعتداء على السفن الإنجليزية التي كانت موجودة في موانئ شبه الجزيرة . وفي وقت إعلان الحرب ، تحول كل هؤلاء القراصنة إلى حركة السباق البحري . أو الجهاد البحري *Courantiers* : أي أنهم سيحتلون بحماية القساوسة الدول ، في حالة وقوع أية حادثة . وفي عام ١٥٨٨ ، سيحتكون الأسطول الذي تجمع على السواحل البريطانية ، ولكن يواجه الأرمادا ، في غاليسية العظمى من سفن هذا السباق البحري .

وفي هذا النصف الثاني من القرن السادس عشر ، تحول المحيط الأطلسي كله إلى ميدان القراصنة ، وكان الرأي العام يهتم بعملياتهم ، وحصل أشجعهم على شعبية

واضحة عند الأهالي وكانت الحكومة تبرا منهم حين تعلبا إحتياجات ومعية . ولكنها لم تفكر في عرفة عملياتهم . وحدث أن الملكة نفسها قدمت الأموال لإدريك ، حتى تحصل على نصيب من الغنائم التي كان يعرود بها ومنحته درجة فارس رسمياً بمناسبة سفره حول العالم .

وكانت القرصنة ، في النصف الثاني من القرن ، تمهد الطريق أمام المستكشفين وأمام التجار . وكانت هناك طرقاً لا تزال غير معروفة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية . فقام الإنجليز بالمغامرات هناك . وإنهى شاميلور ، الذي كان يبحث عن طريق إلى الشمال الشرقي ، بالوصول ، في عام ١٥٥٣ ، إلى قاع البحر الأبيض . أما فرويشر ، الذي إتبع الطريق إلى الشمال الغربي ، فإنه إصطلم في عام ١٥٧٦ بأراضي الاسكيمو المغطاة بالثلوج ، أما هندسون فإنه إكتشف ، في عام ١٦٠٩ ، ذلك الخليج الواسع الذي سيجعل إسمه إلى الإزدهار . وجاءت عملية إنشاء وتكوين الشركات المختصة بالتجارة البعيدة في نفس هذا الوقت ، أو في السنوات التالية مباشرة لهذه المحاولات . وكانت هناك أولاً ، وفي عام ١٥٥٥ ، الشركة الموسكرية ، والتي أنشأها التجار المغامرون ، وحصلت من الملكة على حق إحتكار التجارة البعيدة ، في أوروبا ، وخارج أوروبا . وأدى نجاحها ، في عام ١٥٧٩ ، إلى إنشاء شركة مشابهة من أجل تجارة بحر البلطيق ، وهي إستلاند كومباني Eastland Co ، والتي كان مركزها في أول الامر في دانزيج . ثم كان ظهور شركة شرق البحر المتوسط أو شركة اليافان Levant Co في عام ١٥٨١ ، والتي كانت موجهة للعمل في البحر المتوسط ، وأخيراً شركة الهند الشرقية في عام ١٦٠٠ ، وهي التي ستنازع البرتغاليين والهولنديين أسواق توابل الشرق الأقصى .

وكان الأجانب حين ذلك الوقت هم المسيطرون على التجارة الخارجية

لانجلترا : ولكن دورهم سيختفي ، أو سيطردون ، وحتى السنوات الأولى من القرن ، كان أسطول البنادقة الذى ينهب فى كل عام إلى بروج ، يتوقف لبضعة أيام فى ساوثهامبتون . ولكن الصعوبات التى نشأت مع الدوق دفعت هنرى الثامن ، فى عام ١٥٣٤ ، إلى التدخل من أجل إبطال هذه العادة . والواقع أن العملية لم تتم بطريقة مفاجئة ، ومن وقت لآخر ، وخلال خمسين سنة أخرى ، كانت سفن البندقية تصل فى بعض الحالات إلى السواحل الإنجليزية . ولن يتخطوا كذلك إلا بعد بضع الوقت من رجال الهانسا الذين كانوا يقيمون عندهم ، فى قلب لندن . ولن يحدث ، وكما رأينا ، إلا فى عام ١٥٩٣ ، أن أوامر الملكة قد صدرت من أجل إغلاق مركزهم بشكل نهائى .

وهكذا ظهر البحارة الانجليز ، وفى خدمة التجار الانجليز ، فى كل مكان ، عند نهاية القرن السادس عشر ، سواء أكان ذلك على البحار القريبة ، أو فى البحار البعيدة وهذه اللفتة للنشطة البحرية والمفاجئة أعطت بصيانتها على عصر الزوايا ، فى المجالات الاقتصادية وإن ما يساعد بنوع خاص على شرح هذا الصدام الكبير ، والذي تفضج خلال وقت طويل ، مع إسبانيا ، لم يكن يتمثل فى ذلك الانضمام الأخير من جانب الأمة الإنجليزية إلى المذهب الانجليكانى ، كما كان يتمثل فى نمو ذلك التفكير الماركاتيل والرغبة فى التوسع ، التى نتجت عنه . وربما كان رجال الدين يظنون ، من فوق منايرهم ، ضد الديانة الكاثوليكية الرومانية ، وضد من يؤمن بها ، إذا ما كانت المنافسة بين المصالح ، فى المدينة ، وعلى جوانب التاير وفى كل موانئ المملكة ، تجد أسدأء أ لها ، وطوبى المدى ، على المحيط وعلى كل السواحل .

أما فرنسا فإنها بدت ، وبصورة متزايدة ، على أنها مشغولة بالحروب الدينية ، ولذلك فإن العداء الانجليزى الإسباني كان هو الذى يسيطر على الجزء الأخير من القرن .

وكانت السياسة الخارجية للملكة إليزابيث في بعض الحالات متروكة بنفس درجة تردد سياسة منافسها الكبير ، فيليب الثاني . ويمكن تفسير هذا التردد بطبيعة الملكة نفسها ، وكذلك بالظروف الخاصة التي كانت تحكم في أثنائها . وكانت مجبرة على أن تواجه أعداء كثيرين في الداخل ، وبخاصة الكاثوليك ، فاضطرت إلى أن تتحاور ، وتحقق سياستها خلال سنوات طويلة ، قيل أن تؤكد شخصيتها وتؤكد ما ترغب فيه . وبعد عام ١٥٧٢ ، وكما لو كانت آسفة على أنها قد شجعت بدون حذر الإطماع الفرنسية في الأراضي المنخفضة ، فإنها قد انتهكت سياسة وساطة بين فيليب وبين رعاياه النازحين . وأصررت خلال سنوات على أن تتحرج وساطتها على مدريد . وكان فيليب لا يرفض مثل هذا الأمر . ولكنه طالب بخضوع الثوار بدون قيد ولا شرط : الأمر الذي أدى إلى فشل هذه المحاولة . كما أن الاتفاقيات التجارية السابقة تمجددت بمعامدة ٥ أبريل ١٥٧٣ . وكذلك فإن مسائل الخلافات الأخرى ، والتي تتعلق بنوع خاص بالأراضي المنخفضة ، سويت باتفاقيات ١٥٧٤ و ١٥٧٥ . ومع ذلك فإن العلاقات الدبلوماسية العادية لم ترجع إلا في عام ١٥٧٨ ، وبعد عشر سنوات من القطيعة .

ولقد كان استمرار تضامن المصالح الفرنسية والإنجليزية ، وفي مواجهة إسبانيا القوية للغاية ، وكذلك صعوبة التوفيق بينها ، لها دورها خلف مشروعات الزواج التي تقاضمت عليها دبلوماسية الدولتين خلال فترة عشرين عاماً . وكانت هذه القصة الطويلة قد بدأت قبل وقوع مذبحة البروتستانتين في باريس . وكان الأمر يتعلق في ذلك الوقت بوزاج هنرى الثالث المقبل من إليزابيث . ولكن الشاب تهرب ، فلم تستمر المسألة لوقت طويل . ومن بعده ، جاء هنري أخيه الثاني ، هنري أليفسون ، أولاً ، ثم أخاه الثالث ، دوق أنجو ، وفي نفس المحاولة . ومع هذا الأخير سارت المسألة - أو المعركة - إلى حد بعيد . وكان لأغصام

اليزابيث دوراً في إطالة أمه المشروع . ولكنها شرعت بأن رعاياها كانوا لا يوافقون على زواجها ، من فرس (حريصين في ذلك على الهداء التقليدي أكثر من عدواتهم للمذهب الكاثوليكي) ، فعملت على تضييع الوقت .

واستمرت المسألة مهمة خاصة في سنوات ١٥٧٦ - ١٥٧٨ . وكان دون جوان التمسوي ، الأخ غير الشقيق لفيليب ، والذي كان قد تميم حاكماً عاماً على الأراضي المنخفضة ، يرغب في الحصول على وديت في إنجلترا ، حتى يتمكن من عزل الملكة الحريطة ، ويضع في محلها سجيبتها ، ماري ستوارت . ولكن الأمر زاد اضطراباً نتيجة لتجدد الاطماع الفرنسية في الأراضي المنخفضة . وقام دوق آنجو بعمل حساباته ، وعرف أن في وسعه أن تكون فرست أفضل لكي توافق لندن عليه ، إذا ما نجح في أن يفرض نفسه إمارة مستقلة . وقام بالمفاوضات في المنخفضة ، وإلى سياسة كوليني . وكان الوقت قد أحسن اختياره : ذلك أن مجلس طبقات الأمة فكر ، ولكن يتحاشى انفصال الاقاليم البروتستانتية ، في أن يستدعي شخصية محايدة ، أمير أجنبي . وأعطى الاتفاق السري الذي عقده دوق آنجو معهم لقب وحامي حريات الأراضي المنخفضة . وتضاقت البوايخ من ذلك كثيراً ، خاصة وأن حرب الحرب الذي كان عدده يتزايد باستمرار ، كان يدفعها إلى التدخل في كل مكان تكون فيه حركة الإصلاح الديني في خطر . واضطرت في عام ١٥٧٧ ، رغم معارضة بلوا إلى أن تترك المتطوعين والذخائر تذهب إلى لاروشيل ، التي كانت في خطر ؛ وكذلك اضطرت إلى إمداد جيش منتخب البلانتينات ، جان كازيمير الذي كان يعمل من إنقاذ الهيجونوت الفرنسيين . ووجد جان كازيمير ، بعد أن حصل على مونات من إنجلترا ، بالتدخل في الأراضي المنخفضة .

وقام دوق أنجو، في عام ١٥٧٨، وبالاتفاق مع مجلس طبقات الأمة بالدخول إلى مونس مع فرقة صغيرة من المتطوعين. ولكنه اضطر، نتيجة لنقص الأموال، إلى التخلي سريعاً عن المشروع. وتمكن جن كازيمير، من ناحيته، من الوصول حتى جاند؛ ولكنه اضطر كذلك إلى التقهقر بعد أن إنتهت المعركة الإنجليزية. وكانت المعارك قد وصلت إلى نقاط أكثر تقدماً، وإن كانت قد إنتهت كذلك إلى الفشل.

ولم تتأخر الازمة التالية كثيراً. ذلك أن ويليام أورانج، الذي كان من أكبر أعوان الدعم الفرنسي، حصل من مجلس طبقات الأمة على تصريح بالتفاهم مع أخى الملك. ووعده، بمعامدة شهر سبتمبر ١٥٨٠، بأن يسترف به، كأمر سيد، على الأراضي المنخفضة، وبأن يشارك في تكاليف حملته. وإذا كانت المغامرة قد فشلت، فإن ذلك كان يرجع إلى غروره وعدم توفيقه. إذ أن البرابيت كانت تأمل، هذه المرة، في نجاحه. وبعد أن نزل في زيلاند مع بعض القوات، وأظم في أنفوس. في القصر الملكي، لم يوافق على أن يحكم. تحت سيطرة مجلس طبقات الأمة وقررو، بعد بضعة أشهر، أن يحاول القيام بمحاولة لاستخدام القوة، ولكي يستول على السلطة التي كانوا يرفضون إعطائه إياها، ودون أية نتيجة سوى النسب في نشوب ثورة يضيع فيها جزء من هؤلاء الأهلالي، وتجبره على الهروب من البلاد. وسيموت، نتيجة لمرضه، في العام التالي.

وقبل بداية هذا الحكم الذي كان يقل عن عام (فبراير ١٥٨٢ - يناير ٥٨٣) كان أمر الانفصال قد أصبح نهائياً بين أقاليم الجنوب، والتي كان أغلب سكانها من الكاثوليك، والتي تصالحت مع إسبانيا، وبين أقاليم الشمال، والتي أسمت نفسها بالاقاليم المتحدة. وأعلنت استقلالها. وفي أثناء ذلك الوقت لم يكف ويليام أورانج عن التفكير في وضع أمير فرنسي على رأس هذه الدولة. ونتيجة

لمهوداته ، تمت اتصالات مع دوق أنجو . ولم تنهر وقاته ، في ١٠ يوليو ١٥٨٤ ووفاته دوق أنجو ، والذي سبقه بوضعة أسابيع ، عن موقف مجلس طبقات الامة فارسوا وفد إلى ملك فرنسا نفسه ، حاضراً عليه لقب والامير صاحب السيادة . ولكن هنري الثالث ، الذي كان يتهم في كل يوم من جانب العصابة بأنه شريك وحليف الهيجنوت ، لم يكن حراً في قبول مثل هذا العرض .

وبعد أن تراجع الفرنسيون ، اضطروا الهولنديون إلى الاتجاه صوب إنجلترا . وكانت استعادة الاسبانين لبيضاء أنفوس ، وبدد حصار استمر لفترة تقرب من عام ، قد انتهى بالتغلب على تردد البراييت . وكانت المعاهدة التي وافقت في آخر الامر على أن تعقدتها مع مجلس طبقات الامة ، في ٢٠ أغسطس ١٥٨٥ ، تجعلها تتمهد بأن ترسل اليهم جيشاً يظل هناك حتى نهاية العمليات العسكرية . ومع ذلك ، فإن موارثها لم تكون مجانية ؛ فسيضعون في أيديها عددا من موانئ زيلاند كضمان للتفقات التي ستكون قد قامت بها من أجل حرية هولندا . وكان الجيش الانجليزي الذي نزل هناك عند نهاية السنة يبلغ ستة آلاف جندي ، وألف فارس . وحصل قائده ، لبيستر ، من مجلس طبقات الامة ، على لقب حاكم وقائد عام . ولكن سرعان ما ظهر أنه غير موفق ، مشبه في ذلك مثل دوق أنجو ، من قبل . ولم يسط تعاونه مع الهولنديين أية نتيجة ، نذاعة وأن حرص الملكة لم يساعد في احتفاظ هذا الجيش بقوته كاملة . وضاعت صرامة لبيستر ، وحاد الى إنجلترا منذ نهاية عام ١٥٨٧ ، وانتهى التدخل الانجليزي بفشل ذريع .

ولم تحدث القلبية بين لندن ومدريد ، والتي كانت منذ فترة طويلة في الاتفاق ، إلا في عام ١٥٨٥ . ومع ذلك فإن احداث الاراضى المنخفضة لم تكن هي سببها الرئيسي .

فلقد كار، فيليب مصمماً ، منذ عام ١٥٧٩ ، على أن يسلك طريق الحرب . ولكنه كان يوجه ذلك ضد إنجلترا ، التي كانت قد غيرت منحها الكاثوليكي . وكان حامى المذهب الكاثوليكي قد أصم أذنيه عن نداءات جريجورى الثالث عشر ، الذى كان يدعو إلى انتهاز فرصة قيام الثورة فى أيرلندا ، لكى يرسل معونات مسلحة إلى الثوار . ولم يكن يعلم إلا بهضم البرتغال المجاورة ، وهى دولة كاثوليكية .

وكان موت الملك دون سياستيان ، الذى قتل فى موقعة الاباترة الثلاث ، فى المغرب الأقصى ، قد طرح مسألة خلافة على العرش . وكان الوريث الوحيد المباشر ، وهو أحد أعمام الملك المتوفى ، وكان شيخاً قد توفى بعد عامين من الحكم . ولذلك فإن فيليب الثانى ، الذى كان ابناً لأميرة برتغالية ، أخذ فى المطالبة بحقوقه فى هذا العرش . فأرسل جيشاً إلى لشبونة ، وجعل الكورتيز يملئه ملكاً على البرتغال فى عام ١٥٨٠ . ومن ذلك الوقت أصبح ككل المستعمرات الأسبانية ، والمستعمرات البرتغالية ، إمبراطورية واحدة . وبصبح اسطول فيليب الثانى مكلفاً بمسؤوليات جديدة ، وذلك فى الوقت الذى سيفتح فيه كل العالم المعروف فى ذلك الوقت لمشروعات خصومه . وكانت سنوات ١٥٨٠ وما تلتها هى العصر الذهبى للقرصنة الإنجليزية . وابتداء من عام ١٥٨٥ ، وحين تبدأ أخيراً العمليات الحربية بشكل رسمى ، سيقوم القراصنة ، الذين كانوا لا يزالون يهملون المطالبات المبصومة ، بمهاجمة سواحل شبه جزيرة أيبيريا نفسها . وفى الوقت الذى سيأخذ فيه فى إنشاء الأرمادا الكبيرة ابتداء من عام ١٥٨٨ ، سيقوم فيه دريك بالهجمات حتى قانس ، ويدخل إلى الميناء ، وسيحرق كل السفن التى سيجدها متجمعة هناك .

وكل غزو البرتغال قد أثار قلق كل من باريس ولندن. وقام دون أنطونيو، المطالب بمرش البرتغال، وأكثر أقرباء الملك المتوفى، بالالتجاء إلى إنجلترا، وحيث قاموا بتشجيعه وأعطوه مخصصات بنسخة. وفي فرنسا كان هنري الثالث مشغولاً بمداوات العصبة، فلم يتمكن من التدخل. ولكنه سمح لوالده بأن يطالب بحقوقه في ذلك التاج المتنازع عليه، وقام بتسليم أسطول سيذهب إلى جزر المالديف ويعمل مع خصوم فيليب من البرتغاليين ولكن الحملة البحرية، في عام ١٥٨٢، انتهت بالفشل.

وبعد أن استقر فيليب تماماً في لشبونة، وحقق بذلك إحدى طموحاته القالية، وجد أن الفرصة قد حانت من أجل أن يستخدم قوته ضد الهراطقة الخارجيين، الموجودين في إنجلترا، والموجودين في فرنسا. وقام في شهر يناير ١٥٨٥ بمقدار اتفاقية سرية، هي معاهدة جوافيل، مع دوق دي جيز، ألى مع رئيس العصبة. وفي أثناء الصيف التالي، إختمرت في ذهنه فكرة إرسال قوة بحرية، قوية، لغزو إنجلترا. وطلت الصرعات في إسبانيا ضد القراصنة: فأصبحت الأمة إذن مستعدة لدعم المجهود الذي سيطلب إليها تقديمه من أجل عقاب القراصنة. ولكن فيليب، على عادته، لم يصبر بالعمل. فنندما لأهم سفيره، ميندوزا، بالاتصال بالتأمرين ضد الملكة، وطرد من إنجلترا، بدأ الملك استعداداته في كل موانئ شبه جزيرة أيبيريا. وسيستمر في ذلك خلال عدة سنوات.

ولم تلعب عملية إعدام ماري ستيوارت، والتي حدثت قبل إتمام الاستعدادات، ذلك الدور الذي أسبوه إليها في غالب الأحيان. ولكنها كانت فرصة فريدة من أجل الدعاية، دون أن يكون من نتائجها تأكيد القرار الذي كان قد اتخذ من قبل. ولأنه يتوقف عند هذه المرحلة المأسوية من العلاقات بين إنجلترا

واسكتلندا . ذلك أن أسولها ترجع إلى فترة عشرين عاماً سابقة ، وحزن قامت الملكة الشابة ، التي هربت من بلادها الثائرة ، بالبحر دون حذر عند جيرانها . وكانت قد أصبحت ، منذ ذلك الوقت ، مركزاً لكل المؤامرات التي كان الكاثوليك يقومون بها ضد حكومة إلزابيث ، وحتى ضد شخصها . وكانت فرنسا قد إمتنعت ، وبكل حذر ، عن الاشتراك فيها . ولكن إسبانيا كانت أيديها دائماً هناك . وأسهمت بذلك بنصيب كبير ، في الوصول إلى هذه النتيجة . وسلمت ماري ستيوارت إلى الجلاد في شهر فبراير ١٥٨٧ . وسينظر إليها ككل العالم الكاثوليكي ، وعلى أنها شهيدة لعقيدتها . وكانت بدرجة أكثر من ذلك ضحية لقلة حذرها ، وضحية لمولدها : إذ أنه من الواجب ألا نفلس أنها كانت ، وبصفتها الحفيدة العشرى لهنري السابع ، هي الوارثة لتاج إنجلترا ، إذا لم تنجب إلزابيث مولوداً .

وكانت الأرمادا الإسبانية في عام ١٥٨٨ مستعدة للإفلاق : وكانت هناك مائة وثلاثون سفينة ، بقيادة دوق ميدينا سيدونيا ، تغطى في بحر المانش عمليات الإنزال . كانت هناك سفن مسلحة ، قد تجمعت على سواحل زيلندا ؛ لكي تنقل الجيش إلى إنجلترا . وكان الأسطول الإنجليزي ، له نفس هذا الحجم تقريباً . وكانت هناك بعض عمليات المعصابات قد سبقت بمشرة أيام ذلك اللقاء التاريخي بين الأسطولين قرب كاليه . وكان النفوق الاستراتيجي للإنجليز ، والذي ساعده في لحظة معينة شبوب عاصفة ، قد أدى إلى إنزال هزيمة ساحقة بالقوات المعتدية في ٨ أغسطس ١٥٨٨ .

أما إلزابيث فإنها لم تعتقد في أنه يمكن لهذا الإنتصار أن تكون له نتائج عسكرية . ومع ذلك ، فإنها لم ترفض في العام التالي لدريك أمر قيادة حملة موجهة ضد كيشبوتة : وعادت الحملة دون أن تنجح في الإنتصار على البرتغاليين .

٤ - فيليب الثاني وفرنا حتى صلح فرنان :

منذ قبل مسألة الأرمادا ، مال الصراع الذي استمر في الأراضي المنخفضة إلى أن يصبح العامل ، وربما الأكثر أهمية في التاريخ الدول لأوروبا . وكان فيليب الثاني قد إنتهى من إخضاع البرتغال . وكانت لديه القوات والأموال . وقام بمثله في بروكسل ، اسكندر فارنيز ، دوق بارما بحماسة الانفصال ، مستخدماً في ذلك القوة . وبعد أيام إخضاع جاندي ، بدأ في مهاجمة أنفريس ، والذي حصل حصارها على شد أعصاب الرأي العام لمدة تقرب من عام (سبتمبر ١٥٨٤ - أغسطس ١٥٨٥) . وكان قد أنفريس أمراً مؤثراً على الاتجاه الاقتصادي للدولة الهولندية . ذلك أن الميناء الكبير لنهر الاسكوت أتم ، بعد أن عاد إلى إسبانيا من جديد . فقد الدور المتفوق الذي كان له في أثناء الثلاثة أرباع قرن السابقة . وشكلت حركة بحارته الخارجية . وانتقلت أهم وظائفه إلى موانئ هولندا وزيلندا ، أي إلى فليسنج وإلى أمستردام ، وحيث ذهب أكبر رجال الأعمال من الفلمنكيين والاجانب ، باحثين عن ملجأ لهم . وفي خلال العشرين سنة التالية ستضع الخطوط العامة لشكل المستقبل التجاري والمالي لجمهورية الأقاليم المتحدة .

فبعد أولاً ، أدت العلاقات بين الدول المطلة على البحر المتوسط قد أخذت أهمية جديدة ، ورأينا ذلك في فصل سابق . ثم قامت السفن الهولندية بعملية غزو الأسواق الآسيوية . وفي هذا المجال كان التطور أكثر بقاءاً . ولم تطلق موانئ شبه الجزيرة الأيبيرية نفسها في وجه الانفصاليين من الأراضي المنخفضة مع أول يوم فلكان الإسبانيون والبرتغاليون في ذلك الوقت في حاجة شديدة إلى تجويز بحر البلطيق ، وبشكل لا يسمح للحكومة باتخاذ إجراءات متعددة . ولكن التسهيلات التقليدية التي كانت تسلي لتجارة الأراضي المنخفضة أخذت تقل شيئاً فشيئاً . وحينها تقرر في آخر الأمر أن يتمتعوا سفن هولندا وزيلندا من

الدخول إلى ميناء لشبونة ، تنظمت عملية التهريب على نطاق واسع للغاية ، وبصورة لم تحدث من قبل ، حتى أن الحركة لم تتوقف أبداً . وفي السنوات الأخيرة من القرن ، شاهد المحيط الهندي بدوره ظهور الأساطيل الهولندية . وقامت أربع سفن بالرحلة إلى جزر التوايل منذ عام ١٥٩٥ . وقامت عشرون سفينة أخرى بإقتفاء أثرها في عام ١٥٩٨ . ثم قرر التجار ، في عام ١٦٠٢ ، وتلبية لطلب مجلس طبقات الأمة ، أن يتجمعوا سوياً ، كما كان التجار الإنجليز قد فعلوا : وكان هذا هو الميلاد القوي لشركة الهند الغربية ، والتي كانت قاعدتها هي ميناء ميدلبرج .

وعند نهاية القرن السادس عشر ، وبداية القرن السابع عشر ، تمكنت الأقاليم المتحدة ، والتي كانت غنية بتجارها التي أصبحت عالمية ، من أن تؤكد مكانتها كقوة إقتصادية قادرة على أن تتنافس مع الدول الأكبر منها . وعلى المستوى السياسى ، ظلت علاقاتها مع إسبانيا ومع الأراضي المنخفضة الإسبانية هي علاقة الدول المتحاربة ، واستمرت بينها العمليات العسكرية ، من هذا الجانب ، ومن ذاك . وانشأت هناك ، وفيما بين فرنسا ، وألمانيا ، وانجلترا ، منطقة حساسة بشكل خاص على القارة ، بدأ في بعض الأوقات أن يصير أوروبا الغربية بأجمعها سوف يقرر فيها . ويمكننا أن نتأكد من ذلك بسهولة حين ندرس تفاصيل هذه الفترة غير المحددة ، والتي يسميها القليلون عصر هنرى الرابع ، والتي تتميز عند جيرانهم بوقوع تغيير مزدوج في الحكم : ذلك أن فيليب الثاني ، الذى توفى في عام ١٥٩٨ ، ترك مكانه لابنه ، فيليب الثالث ، وفي إنجلترا ، قام جيمس الاول ، ابن ماري ستيورات ، وكان ملكاً على إسكتلندا ، بإحتلال عرش قائلة أمه ، إليزابيث ، آخر ملوك أسرة تيودور .

وكان كل من الخصمين ، والذين كانت قواتها البحرية قد تراجعت في عام

١٥٨٨ ، لا يميل إلى الحرب ، ويتميز بالحذر ، وبشكل جعل مسألة الأرمادا لا تعطى نتائج عسكرية نالية عليها. وكان فيليب الثاني قد قبل الفشل الخاص بمشروعه العظيم ، بتواكل ذلك الشخص المسيحي ، وذلك أرجل الذي كان في خريف الحياة. ولم يحاول أن يسعى إلى انتقام . ولكنه وجد على الأرض الفرنسية فرصة للعمل من جديد من أجل إسبانيا ، ومن أجل الدين . في شهر أغسطس ١٥٨٩ . أدت وفاة هنري الثالث إلى تسليم المملكة لأحد المرافقة — من أنصار مذهب الإصلاح الديني . فأنضم جزء كبير من الرأي العام إلى العصبة وفهموا في مدريد أن الوقت المناسب قد حان وأصبح يسمع بالتدخل . وقامت القوات الإسبانية بعبور حدود الأراضي المنخفضة ، وانضمت عندروان إلى قوات العصبة ، ثم نجحت في إدخال بعض الامدادات إلى العاصمة . وقامت قوات أخرى ، وصلت بالبحر ، بالتدخل في إقليم لانجدوك ، وفي بريتاني . وكانت فكرة فيليب الثاني تتلخص في أن يضع على عرش فرنسا ابنه التي كانت قد ولدت له من زواجه باليزابيث دي فالوا ، أي ابنة أخ الملك المتوفى .

وكان في وسع مثل هذا المشروع أن ينجح ، ولكن بشرطين : الأول هو أن يقبله الكرسي البابوي ، ويدافع عنه ، ولكنهم كانوا في روما لا يهتمون بزيادة قوة إسبانيا على حساب فرنسا ، والثاني هو أن يتزوج الأميرة الإسبانية أحد الأمراء الفرنسيين ، ولكن فيليب الثاني كان يرغب ، رغم ذلك ، في زواجها من أحد أمراء آل هابسبورج . وكان ذلك أكثر مما كان في وسع المشاعر القومية أن تتحملة . فاجتمع مجلس طبقات الأمة ، إحتجاجاً خاصاً بهذه المناسبة ، ورفضوا القرار الذي كان يمس به في الأذان ، ورفضوا على آمال إسبانيا بديهم الفارضات مع هنري الرابع . وبهذا قامت مجموعة تقاتلوا قد انقضت ، فإن

الأمر كان هو الفضل بالنسبة لفيليب الثاني . وبدأت العداء الفرنسية الإسبانية تأخذ كل قوتها من جديد .

وبمجرد أن أتم هنري الرابع ترويجه ، بدأ في الاستعداد للحرب ، التي أعلنها في شهر يناير ١٥٩٥ . ولقد استمرت لمدة ثلاثة أعوام ، وكانت مسارحها هي حدود بيكاردي وبورجنديا : إذ أن فيليب لم يكن قد تعطل عن ذلك الأمل القديم ، والذي كان عند والده ، ويتمثل في إعادة التكوين الكامل لميراث شارل الجسور . ومنذ العام الأول ، وفي معركة فونتين فرانسيز ، تمكن الجيش الملكي من تحرير بورجنديا . وفي عام ١٥٩٧ ، بدأ أمام الفرنسيين ، أن فقد إميان يمثل حاداً خطيراً ، وأنه أصبح يهدد عاصمتهم ، ولكنها لم تكن أكثر من مجرد عملية الاستيلاء على إحدى المدن . وأدت الإجراءات السريعة التي قام الملك بإتخاذها إلى منع العدو من إستغلالها ، ونجحت باريس من الخوف . كما أن إعادة الاستيلاء على هذا الموقع ، وبعد حصار دام مدة ستة أشهر ، تم الاحتفال به كنصر حاسم . وجاه الصلح بعد ذلك بقليل . وكانت معاهدة فران (٢ مايو ١٥٩٨) هي عبارة عن إعادة كتابة لمعاهدة كانو ، ومع ذلك فإن ملك اسبانيا قد حصل على بعض الميزات التي لم تكن موجودة في المعاهدة الأولى : الإعتراف بحقوق الوراثة في دوقية بورجنديا ، ولكن حدثت قل ، وتم تحييدها عن طريق تعهد بعدم محاولة الحصول عليها إلا عن طريق القضاء .

وفيما بين انجلترا واسبانيا ، طالت العمليات الحربية من جديد في عام ١٥٩٦ . وكانت البرايت ، في الوقت الذي كان هنري الرابع يقوم فيه بعملية إعادة غزو مملكته واسترجاعها من العصبة وتخليصها من اسبانيا ، قد أرسلت إليه بعض المعونة ، من الرجال والأموال ، وكانت الملكة عند الكاثوليكية ، ولارت نتيجة لاتفاق هنري الرابع مع الكاثوليك . ولكنها عادت الى التناحيف

مع فرنسا نتيجة لكون الاسبانين قد استولوا على كاليه ، والتي كان التخل عنها ؛ منذ أربعين عام مضت ، قد رفض تماماً من جانب كل الرأى العام . ولكن التمهيدات التي وافقت عليها في معاهدة جريفتش (مايو ١٥٩٦) كانت مدرونة جيداً : فاشترت ، بأغنى ثمن ، وعداً بأن ملك فرنسا لن يوقع على المصلح قبل أن يتشاور معها ومع الأقاليم المتحدة وشهد نفس العام بحىء للفوزة البريطانية إلى قانس ، وبقيامهم خمسة عشر يوماً فيها ودخل اسوارها . حتى يتمكنوا من نهبها وإحراقها . وطالت فترة الضيف التي يمثلها حكم فيليب الثاني البلاد . وأمام إهانات الرأى العام له ، قام الملك العجوز بانتقاضه أخيرة : فرأى أنه مضطر إلى إعادة بناء أرمادا جديدة . وحاول الإنجليز ، أن يأتوا ويحرقوا ما يقوم به ، ولكنهم فشلوا ، وبدأ هو على أنه قد إنتصر . وتجددت المحاولة مرة جديدة في عام ١٥٩٧ . وأسرعوا بتسيير الأرمادا ، ولكن وحداتها توقفت في منتصف الطريق .

وتسبب صلح فورتان ، الذى عقد رغم تمهيدات عام ١٥٩٦ ، فى غضب الانجليز . ووجهوا إتهامات كثيرة إلى هنرى الرابع . ونشأت حوادث فى البحر . وظلت العلاقات سيئة بين الدولتين خلال السنوات الأخيرة من حكم الملك اليزابيث . وكانوا قد تفاهموا بالكاد على مسألة الأراضى المنخفضة . وفى أثناء أحداث بشأن هذا الموضوع ، فى عام ١٦٠١ ، حدثت الملكة أن على الدولتين ، وقد إتفقا على إخراج هذه البلاد من تحت السيطرة الاسبانية ، أن تتمتعان ، تقسيما ، عن إدعاء حقوق فيها ، كلياً وجزئياً . ولم يكن الوقت قد حان بعد لى يسمح للفرنسيين بالتكن من التفكير فى الاشتراك فى مثل هذا التصريح . وعند وصول جيمس الأول إلى العرش ، كافى سولى بالدهاب وبتهنة الملك الجديد ، وبأن يعرض عليه فى نفس الوقت إقامة تحالف وثيق ضد إسبانيا ؛ ولكنه لم يحمل معه فى عودته من لندن سوى ألفاظ منمقة .

وفي المجموع ، فإن فيليب الثاني قد فشل في كل مكان في سياسته الخاصة بحمارة الإصلاح الديني ولادعيم المذهب الكاثوليكي . فانهجرا ، التي كانت تمثل هدفه الأول ، ظلت غلظة لبدا الإصلاح . وحصل الهيجونوت الفرنسيون ، في نفس عام عقد صلح قرنان ، على وضعية تصميمهم من الإضطهاد ، بمقتضى نانت . وفي الأراضي المنخفضة ، التي تم تقسيمها نهائياً إلى قسمين ، لم يعد المذهب القديم يسيطر إلا على نصف البلاد . وكان فيليب الثاني يعتقد ، مثل والده ، في أن الله قد اختاره لكي يقوم بعمل ضخم . وكان فشله أقل كالا ، وبقتيل ، عن فشل شارل الخامس .

وإذا ما فكرنا في الأمر جيداً ، فإن السيطرة الإسبانية لم تنجح في البقاء في جزء من الأراضي المنخفضة إلا نتيجة السياسة الفرنسية والسياسة الانجليزية ، ونتيجة لعدم بلورة رغباتهما ، وبنوع خاص نتيجة لتعارضهما المستمر مع بعضهما . ولم يكن هناك ما يعادل تردد فيليب الثاني سوى تردد اليزابيث ، وآخر ملوك أسرة فالوا . وإذا كانت شعوب الغرب قد تمكنت من أن تهرب ، أثناء النصف الثاني من القرن السادس عشر ، من تلك الصدمات الدورية الكبرى التي كانت قد شهدتها خلال الفترة السابقة ، فإن ذلك كان يرجع إلى التردد ، وإلى عدم إضداد الاهداف ، ووضوحها .

٥ - هنري الرابع وسالفوا وألانيا :

لم يمثل صلح قرنان ، مثل صلح كاتو ، نهاية فترة . ولم يكن يحصل وعرضا بالتصالح . وفكرنا في حل تحالف أسرى جديد بين الأسرتين الحاكمين : ولكن الأمر لم يتحقق ، إذ أن فيليب الثاني ادعى أنه يضع به شرطاً لإعلان الحرب على الهولنديين . ومن جانب آخر لم يدخل فيه حلفاء فرنسا . ولذلك فإن العمليات العسكرية التي استمرت بعد عام ١٥٩٨ على مياه المحيط وفي الأراضي

المنخفضة. ويستتيز هنرى الرابع الفرصة لكي يسوى مع دوق سافوا خسرته
قديمة.

ولم تكن الملكات سافوا قد عادت بسهولة ، ولا كاملة ، لأميرها الشرعى
فى عام ١٥٥٩ - وإحتاج إيمانويل فيليبرت لمفاوضات طوال سنوات عديدة حتى
يحصل من أبناء يوران على إعادة التنازل لمن إقليم شابليه (معاهدة لوزان ١٥٦٤) .
وإضططر إلى أن يتنازل لهم بشكل نهائى عن إقليم الفود ، وذلك فى نفس الوقت
الذى ظلت فيه جنيف مرتبطة فيه مع يوران باتفاقية توحد بين سكان المدينتين ،
وتدافع عنها ضد تهديد هذا الأمير . وفى عام ١٥٧٣ أعطاه هنرى الثالث مجازاً
إقليم يننورل ، والذى عاد إليه من بولندا عبر البندقية ثم إلى يدومونت . إبنه
شارل إيمانويل الأول . فانه غضب من فرض فرنسا حمايتها على يوران وجنيف ،
فانضم إلى معسكر فيليب الثانى . وإنتصر فى عام ١٥٨٨ فرصة وقوع الإضطرابات
التي قامت بها العصبة . واستولى على ساوس. ولقى كات ، مفتاحاً ، آخر لإيطاليا ،
والتي كان الفرنسيون يعتقدون أهمية كبرى على إمتلاكهم لها . أما الأسبانيون ،
فانهم ، عند تفاوضهم فى فران ، لم يرغبوا فى منافسة هذه المسألة ، وتمطيل
الوصول إلى الصلح . وقرر الطرفان طرح هذا الموضوع على وساطة البابا .
ولكن البابا تخطى سريعاً عن مهمته ، واستمرت المفاوضات المباشرة التي تلت
ذلك لفترة سنوات عديدة .

وأظهر شارل إيمانويل ، الذى أتى بنفسه إلى باريس ، عدم قدرته لوقت
طويل على إتخاذ قرار ، وكان يتوقف مرة عند هذا الجزء ومرة أخرى عند
جزء آخر . وتوصلوا أخيراً إلى إتفاق من حيث المبدأ ، وعاد إلى بلاده ، ثم بدأ
فى التسويف . وأخذ يطالب بمهمة جديدة . ولكن يخيفه ، قرر الملك أن يذهب
إلى ليون ، ويقيم فيها مع قوايه . ظهراً إستعداده لاستخدام الفترة إذ ما دمت

الضرورة لذلك . وكانت بعض الصعوبات قد ظهرت داخل المملكة ، فشجع ذلك الدوق على عدم عقد الصلح . ووجد فجأة أن بلاده قد تم غزوها ، وأن مدينة شامبيرى قد تم إحتلالها . فطلب الأمر الالتجاء إلى وساطة روما . ونتيجة للماهدة ليون ، التى عقدت فى ١٢ يناير ١٦٠١ ، تنازل هنرى الرابع عن ساروس ، ولكنه حصل على تنازل عن برليس ، وبوجى ، وفالورى ، وجيكس ، وكل ممتلكات سافوا فيما وراء نهر الرين : واحتفظ الدوق بحقه فى جسر على النهر ، وبطريق تمكنه من الاتصال بحرية مع فرانك كونتية . وكان قرار الملك — الذى إنتقده بمرارة أنصار النزوات الإيطالية الذين كانوا لايزالون موجودين — يأخذ أهميته حين تلقى عليه الأضواء بالجل التى ذكرها بعد وقت قصير لوفد جاء له من برليس : « إنه من المعقول أنكم ، مادمتم تتحدثون بطبيعة الحال باللغة الفرنسية ، تصبحون رعايا الملك فرنسا . إتنى أفضل اللغة الاسبانية تظل للاسبانين ، واللغة الألمانية للألمان ، ولكن كل اللغة الفرنسية يجب أن تكون لى » . ولأول مرة فى تاريخ فرنسا نرى بهذه الطريقة تقديم نظرية القومية المبقية على أساس اللغة . ولفترة طويلة ، من ناحية أخرى ، وحتى عصر لوى الرابع عشر على الأقل ، سيظل هذا التأكيد دون إعطاء صدى له .

وفى العام التالى ، سيحاول شارل إيمانويل أن يعيد هيئته ، التى أصيبت ، وذلك عن طريق سيطرته ، بالقوة ، على جنيف . وكانت المزمعة التى وقعت له كافية لإجباره على الاعتراف ، فى آخر الأمر ودون تحفظ ، باستقلال الجمهورية . وفيما بين فرنسا واسبانيا ، عادت العلاقات التجارية ، التى كانت قد إنقطعت لفترة عدة سنوات ، وبسرعة ، خاصة وأن شبه الجزيرة كلها كانت فى حاجة إلى منتجات الصناعة الفرنسية ، وفى حاجة أكثر من ذلك إلى الحبوب الفرنسية ، بينما كان الفرنسيون يشعرون بأنهم جذاب صوب شبه الجزيرة ، نتيجة المعادن

التفيسة ، التي إستمر ورودها إلى هناك : وكتب أتران دى مونكريستان ، حين تحدث عن الاسبانين والبرتغاليين في رسالته عن « الإقتصاد السياسى » في عام ١٦١٣ ، هذه الجملة المعبرة تماماً عن الفترة السابقة : « فنحن أن وجدوا ذلك المورد من الذهب ، الذى يقودنا إليهم ، أشبعنا الجوع الذى كانوا يشعرون به . للخبز ، وحصلنا منهم على علاج لذلك الجوع للذهب والنضة ، والذى كان يعضنا كثيراً » . ونحدث بعد ذلك عن المزايا التي أقادت بها فرنسا من سكان إقليم بيارن على الحدود الإسبانية ، وبكل تحديد ، وعن الفترة التالية لمعاهدة فرنان : « ولقد جاءت فرنسا ، من جديد ، لكي تفرق إسبانيا بالقصح ، والمسلوجات ، والقصدير والآلات » .

أما ذلك الإتجاه العدواني الذى ظل موجوداً رغم ذلك بين الحكومتين ، فإنه تسبب في نشوب أزمة قصيرة ، في عام ١٦٠٩ . ذلك أهم قد اتهموا فرنسى لاروشيل بالعمل كوسطاء في التجارة التي كانت تتم ، سرّاً ، بين الهولنديين . وبين سادتهم السابقين : وهذه العادة التي تعودوا عليها ، لن يتخلوا عنها حتى حصار عام ١٦٢٧ . وبعد أن إتخذ فيليب الثالث إجراءات إنتقامية ، بدأت حرب تمريرات بحرية ، بدت على أنها مقدمة لقطع العلاقات بين الطرفين ، وصحبتها حرب دكاية . ويبدو أن البروتستانتين ، والذين كان عددهم كبيراً بين التجار ، قد أسهموا في إثارتها وفي تنفيذها . وكان أهالي بيارن على علاقات دائمة مع إسبانيا ، ولعبوا في هذه الحرب دوراً أساساً . وهذا أن الموقف قد أصبح مشهوداً للغاية . وبعد إعادة تكوين القوات المسلحة الفرنسية ، أصبح في وسع هنرى الرابع أن يبدأ من جديد الصراع في الأراضي المنخفضة من أجل الفلاندر وآرتوا . ولكنه إستمع في آخر الامر إلى صوت المحكمة . وإتسبى المدام في الصام للتالى نتيجة لوساطة إنجلترا .

أما جيمس الأول ، فإنه بدأ حكمه ، بدوره ، بتقيد الصلح مع إسبانيا ، وكان مجرد صلح على أساس احتفاظ بالوضع القائم ، مثل صلح فزان (١٦٠٤) . وكان وصول أحد ملوك أسرة سبوات إلى الحكم ، يعنى فى آخر الأمر الوحدة مع إسكتلندا . وسيظل الهدوء الناتج عن ذلك مسيطرأ على الأمة لفترة طويلة . وظهرت روح المصالحة بين الملوك وسادت على كل الميادين . واستمر التجار الفرنسيون فى الشكوى من تلك المعاملة التى كانوا يلقونها فى إنجلترا ، ووصفوا هذه البلاد بأنها لم تكن مضايقة وجعلت معاهدة عام ١٦٠٦ ، مع ضماناتها الجديدة ، تمثل تقدماً واضحاً على معاهدة ١٥٧٢ .

أما فى الأراضي المنخفضة ، فإن فيليب الثانى كان قد إفتخر ، قبل موته بقليل ، بأنه كان قد أخضع الهولنديين لطاعته ، وذلك بإنشاء دولة بروجندية متميزة عن الدولة الاسبانية وكان قد جعل من إبنه إيوايلا ، ومن زوجها الأرشيدوق ألبرت ، أمراء أصحاب سيادة ، على هذه الدولة الجديدة . ولكن سرعان ما سيجعل الأرشيدوقات (كما يسموهم فى بلجيكا) تحت سيطرة ملك إسبانيا . ولن يجد الهولنديون أقل إغراء لترك أسلحتهم ، من أجل الانضمام إليهم . وستنزل بهم البرائم على البحر . وعلى العكس من ذلك ، فإنهم سيتهمون أمر حصولهم على السيطرة على البحر ، ويقومون بعمل حركة المبادلات بين إسبانيا وبين جزر الهند الغربية . ولذلك فإن فيليب الثالث قرر ، فى عام ١٦٠٦ ، ضرورة إقتراح هدنة ، وبدء محادثات من أجل الصلح . وعقدت المؤتمرات فى لاهاي ، واشترك فيها ممثلون عن فرنسا وعن إنجلترا . وإنتهت بالتوقيع ، فى ٩ إبريل ١٦٠٩ ، على هدنة لمدة اثنتى عشر عاماً .

أما ألمانيا ، فإننا لم نتحدث عنها منذ عام ١٥٥٥ ، أى منذ صلح أوجسبورج . وبعد أن كانت ، مع لوتر ، قد أشعلت النيران فى المقييدة المسيحية . بدت على

أنها لا تتم بذلك الحريق الذي أشعلته . والذي استمر في إتهام الأقاليم المحيطة بها . ولقد ظلت ، على الأقل ، تقف على الحياد . ولم تكن تدخلاتها في الخارج تتمثل إلا في إرسال المرتزقة للأطراف المتشبكة في هذا الصراع . وكان البروتستانت في فرنسا وفي الأراضي المنخفضة هم المستفيدين من ذلك في غالب الأحيان .

وكانت التلاخلات الألمانية في فرنسا قد بدأت أثناء الحرب الأهلية الثانية . ففي عام ١٥٦٧ ، قام منتخب البلايينات ، وهو من أنصار كلفن ، بإرسال جيش صغير لإيقاظ كونديه . ومن جانبه ، قبل منتخب ساكس ، وهو من أنصار لوثو ، ونتيجة للمهادنة الموجد مع أنصار كلفن ، بقيادة بعض القوات في خدمة شارل التاسع . وفي عام ١٥٦٩ ، إستجاب أمير الماني آخر ، أقل أميه ، وهو دوق وولز جالنج ، لنداء اليجيونوت . ولقد مات في بداية الحملة ؛ ولكن قواته إشتربت في موقعة مونتسكوتور . ولقد أظهر أحد أبناء المنتخب في البلايينات ، وهو جان كلزيمير ، أنه متحمس بنوع خاص لفكرة أبناء مذهبه الديني في الخارج . وقبل أن يصل بالحملة التي ذكرناها إلى الأراضي المنخفضة ، كان قد قام بقيادة جيش صغير في فرنسا ، وحتى نهر اللوار ، وحصل ، بعد أن تم التوقيع على صلح بولييه (١٥٧٦) على ثمن كبير للمعونة التي قدمها . ووقعت حركة أخرى للغزو الألماني ، والذي كان يشه خوف الإهالي إلى أقصى درجة ، في عام ١٥٨٧ ، وتمت قيادة أحد قواد جان كلزيمير . ولم تعمل ، أكثر من سابقاتها . على تحقيق التوازن بين القوات ، بين الطرفين المتشبعين في هذا الصراع .

أما في داخل ألمانيا ، فإن الهدنة التي بدأت مع إتفاقية عام ١٥٥٥ ، قد إستمرت ، وبدرجات متفاوتة ، حتى السنوات الأولى من القرن السابع عشر . ولقد تسببت بعض المراحل فقط في جعل الناس يعتقدون في أنها لن تكون دائمة .

وكانت أكثرها وضوحاً ترجع ، في عام ١٥٨٢ ، إلى محول كبير اساففة كولونيا المنتخب إلى مذاهب الإصلاح الديني ورغم التبعات المقطوعة في أوجسبورج ، فإن بعض الأمراء البروتستانتين قد مالوا صوب العمل من أجل حلانية هذه الأسقفية ، وأملأها . ورأى فليب الثاني أن كولونيا كانت قريبة للغاية من أراضي المنخفضة ، وبشكل لا يسمح له بالبقاء على الحياد في ذلك الصراع الذي سيتشب بين أنصار وخصوم ذلك الأسقف ، الذي صدر ضده قرار كنسي بالحرمان . وطبقاً لأوامره ، قام دوق بارما ، حاكم الأراضي المنخفضة بارسال قواته إلى ألمانيا . ونتيجة لموتهم ، ظلت أسقفية كولونيا في أيدي الكاثوليك .

وبعد هذا النذير ، ظل الهدوء مسيطراً على ما وراء الراين لسنوات عديدة ، ولفترة تزيد على حياةجيل وهذه هي الفترة التي عرفت فيها أسواق فرانكفورت ، وفي نطاق الاقتصاد الدول ، العصر الأكثر إزدهاراً في حياتها . وكانت أهميتها تشبه أهمية أسواق ليون في بداية القرن . وكان هناك بينها ، علاوة على ذلك ، أكثر من وجه للتشابه . ففي هذه المدينة الأخرى التي تقع عند ملتقى المواصلات — الثهرية والبرية — كان للأجانب مركزاً متفوقاً . فكان هناك المملنكيون والفالون ، الذين اضطروا إلى ترك بلادهم بسبب الدين ، واليهود الذين خضعوا للاحتقار النصرى ، والذي لم يكن موجوداً فقط في شبه الجزيرة الايبيرية ، والايطاليون الذين كانوا يبيعون الحراير أو منتجات البحر المتوسط . وبمعدليون ، وبعد أقرس ، أصبحت فرانكفورت مركزاً كبيراً لتجارة الفضة . ومن هنا إستمر ظهور هذا الاستعداد الرأسمالي الذي يميز الاقتصاد الألماني في النصف الأول من القرن . .

ومنذ بداية القرن السابع عشر ، وفي هذه البلاد المنقسمة على نفسها ، ولكن التي كان يمكنها أن تستند في أنها قد وجدت ، وبشكل نهائي ، توازنها .

ستطالب روح الشيع والاقليات بحقوق لها ، وبمبدأ أحداث دموية في الوقوع
من جديد .

ذلك أن دوق كليف قد توفي في عام ١٦٠٩ ، دون أن يترك ورثاً مباشراً ،
وذلك في الوقت الذي كانت فيه امارته في كليف ، وبرج ، وجوليسر ، قد
انتشرت فيها مذاهب الإصلاح الديني . وكان كاثوليكيًا ؛ ولكن أكثر أقربائه
قرباً له كانوا من البروتستانتيين ، وزاد خوف الامبراطور رودلف الثاني :
فقرر فرض الحجز على هذه الدوقيات باسم الإمبراطورية ، ودعا البروتستانتين
إلى أن يقدموا له وثائق ملكيتهم ، وأمر بإحتلال قلعة جوليسر ، من باب الاحتياط .
وعندئذ قرر هنري الرابع ، وكان عاصماً للتقليد الفرنسي الخاص بالتحالف مع
رجال الإصلاح الديني في ألمانيا ، أن يتدخل . وكان هذا القرار مليء بالمخاطر ،
إذ أن ملك اسبانيا كان يهتم بطبيعة الحال بتلك البلاد التي كانت مجاورة للأراضي
المنخفضة . وكان من الممكن أن ينتج عن ذلك صدام مع آل هابسبورج ، ومن
الفرعين . ويبدو أن الملك كان قد قبل هذه الامكانية . وعقد في شهر فبراير
١٦١٠ اتفاقيات مع الاتحاد الايفانجيلي ، وهي رابطة أو عصبة بروتستانتية
كانت قد تشكلت آنحراً ، وذلك كظفر لتحدي التيات التي كان الامبراطور قد
أظهرها . وبدأ في تجميع قواته في فصل الربيع ، في شوابيا ، وبادن ، ودوقليه
واستمد لكي يذهب بنفسه ويأخذ قيادة الجيش الذي سيقوده إلى ألمانيا ، حين
وقعت حادثة اغتياله ؛ في ١٤ مايو ١٦١٠ .

وسرمان ما انفرجت الازمة : فلن تكون هناك ؛ في ذلك الوقت ، أية امكانية
لقيام بحرب ضد اسبانيا . وعملت حكومة الوصية على الرش ، مارى دى
ميديسيس ، على إنقاذ الموقف ، عن طريق إرسال فرقة صغيرة من الجنود لتستولي
باسم البروتستانتين ، على موقع جوليسر ، والذي يوافق الامبراطور ، وفي

نظير بعض الضمانات ، على تركه في صالح الكاثوليك . ومع ذلك فإن مسألة كيف لم تتم تسويتها . ولذلك فإنها ستشغل الرأي العام الألماني ، ولعدة سنوات ، ولن تجد حلا لها الا في عام ١٦١٤ .

٦ - الكنيسة واليسوعيون :

إن التعبير الذي استخدمناه ، وهو « التفوق الإسباني » ، لكي نميز به التاريخ السياسي لأوروبا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، له بعض الإساءة في الميدان الروحي . ففي نفس الوقت الذي غرست فيه السيطرة السياسية لإسبانيا في إيطاليا ، تأكد نفوذ جماعة اليسوع ، التي تركزت في إسبانيا ، وجمعت أول رجال لها من إسبانيا ، وبقوة ، في روما ، وفي كل الأقاليم الكاثوليكية الرومانية . وكانت إسبانيا هي ، وحدها في الغرب ، التي قامت برد هجمات الهرطقة . ولم يكن عليها أن تبذر طاقاتها في صراعات عقائدية . فقام أحد أبنائها بيلورة فكرة إنشاء ميليشيا تنهب إلى كل البلاد وتنتشر فيها وتحبس الغزائم وتطالب باعطاء المثل على ساحة معركة العقيدة ووجدنا عند إيمانوس دي لولا Ignace de Loyola وانصاره تلك العزيمة المتناحضة التي كانت قد حركت ، ولدة قرون ، عزيمة الحرب ضد المغاربة ، وبيجوش إعادة غزو reconquista شبه الجزيرة الأيبيرية .

ولقد قام بعض المؤرخين ، الذين أرادوا أن يشرحوا دور اليسوعيين ، بالتحدث عن صبح الكنيسة . في القرن السادس عشر ، بالصيغة الإسبانية : وعلمنا ان تأخذ هذا الموضوع مع بعض الحذر . فربما كانوا يريدون أولا في التحدث بنوع خاص عن الصيغة الإيطالية . ذلك ان مجمع ترانث هو الذي أعطى للكنيسة اتجاهها الجديد . وكان الإيطاليون ، من بين الآباء المحتمين في هذا المجتمع ، هم الأكثر عددا عن غيرهم ، وبكثير . وإذا كانت التأثير الإسباني على درجة من

الوضوح ، فإن التأثير الإيطالي هو الأكثر وضوحاً ، وبكثير . ومع كل ذلك ، فإن الواحد لا يبعد الآخر وهما يتوابعان في صورة لمجموع . مركبة ، وأكثر صدقاً : وكان من الطبيعي أن تظهر الكنيسة ، بعد حركة الإصلاح الهنري ، وقد انقطعت صلتها بجزء كبير من البلاد الجرمانية ، كما كانت صلتها قد انقطعت قبل ذلك بالبلاد السلافية واليونانية ، وبصورة متوايدة ، على أنها لائيقية في مجموعها ، وليس فقط في رئيسها (علينا أن نلاحظ أن البابوات كلهم ، منذ عام ١٠٢٣ ، كانوا إيطاليين) . ولكن كذلك في أعضائها ، وفي روحها .

وإذا كانت ، جماعة اليسوع ، ترتبط ، في أصولها ، بإسبانيا ، وإن تاذتها الأواثر ، مثل الأب لينز Lainez ، وسان فرانسوا بورجيا Saint François de Borgia ، كانوا ، مثل مؤسسها ، إسبانيين ، فإنها لم تتأخر عن أن تصبح دولية في تمهيدها لرجالها ، وبمنس طريقة كل الجماعات الدينية ، وكانت ، قبل أن تثبت نفسها على خط سير معين للكنيسة ، عن طريق هذا الباب أو ذاك ، قد ذهبت تبحث بنفسها عن مصالح لها في روما . وكانت مرتبطة بحكم تكوينها بخدمة الكرسي البابوي ، فاستمرت في إعلان نفسها أنها تابعة البابا ، وإنها تابعة لروما ومن هنا نشأت تلك المقاومة التي واجهتها في طرقها ، في فرنسا بنوع خاص . وحتى في إسبانيا . وكان فيليب الثاني يدعي أنه يسيطر على كل رجال الدين الموجودين في مملكته . ولكن اليسوعيين ، أولئك القادمين الجدد ، لم يربطوا أنفسهم بأي رباط قانوني مع كنيسة إسبانيا . وظلموا ، علاوة على ذلك ، بالدفاع عن اتجاه السلطة المطلقة لروما . وكان عليهم أن يحاربوا ، كما حدث في فرنسا ، قبل أن يوافقوا على وجودهم . وكما حدث في فرنسا ، فإنهم انتصروا . إذ إن زملائهم تمكنوا من أن يحصلوا مرياً على ود الطبقات العليا .

وكانت أنجمن الإرساليات لجهنم اليسوعيين هي بطبيعة الحال تلك البلاد

التي كانت تشتمل على مراقبة، كان عليهم أن يحاربوهم، وأن يعلموهم، وبخاصة ألمانيا. وظهر هابسبورج فيينا ترحيبا بهم أكثر من هابسبورج مدريد فاستدعى ملكهم إليه الأب كاتيسوس *Caotius* ، وهو أب من أصل هولندي ، وكان إجناس قد جعله ، واعيا إقليميا ، الجماعة على ألمانيا العليا . ولدة أربعين سنة ، سيقوم كاتيسوس بالنقل في ألمانيا في كل إجماع ، من أجل القيام بواجبات عمله ، وحظيت الجماعة بنفس الترحيب في بافاريا ، عند أسرة ويتلباخ وكانت الكلية التي أنشأها في عام ١٥٥٦ في مدينة إنجولستات الجامعة تبشر بأن تصبح ، وبسرعة ، أكثر شهرة من غيرها من الكليات في كل ألمانيا . وجاء إليها أمراء يمدون الحكم ، لكي يدروسوا فيها ، مثل أمير باد ، ودوق بافاريا ، وحتى أحد أمراء هابسبورج ، وهو الارشيدوق فرديناند صاحب ستيريا ، والذي سيصبح فيما بعد الامبراطور فرديناند الثاني . وفي ألمانيا الشمالية كانت القاعدة الرئيسية لعمليات اليسوعيين هي جامعة كولونيا . وكانوا قد وضعوا وبنوا أقدامهم هناك بقوة ، منذ منتصف القرن .

ولم يكونوا قد توغلوا بعد في إنجلترا حين قامت الملكة اليزابيث بارجاع بلادها إلى المذهب البروتستانتي . ومن أجل المهمة الخطيرة التي كانت تنتظرهم من هذه الناحية ، بدأوا بالتركز ، وبقوة ، في الأراضي المنخفضة ، وحين دخلوا في أول الأمر إلى جامعة لوفان . وكان هناك الكثيرون من الكاثوليك الإنجليز الذين كانوا قد انتجشوا إلى لوفان . وكان أحدهم ، وهو أحد رؤساء أكسفورد ، ويليام آلين *William Allen* ، قد أسس في دواي ، في عام ١٥٦٨ ، وهي مدينة جامعية أخرى ، وبمساعدة أحد الأساقفة من هذه المنطقة ، كلية من أجل إعداد دعاة، كان اخرتهم في المذهب ، والمضطهدين ، في ساحة إليهم . وأصبحت دواي بدورها مركزاً كبيراً يلتجئ إليه الكاثوليك الإنجليز على القارة . وأصبحت

دكتيتها الانجليزية ، جذيرة بالإسم الذى أطلقوه عليها ، وهو « سمنار الشهداء » . وإنتهت أهمية تلك المستعمرة ، والى تزايدت بسرعة ، إلى إثارة ردود فعل عدائية من جانب الأهالى الكاثوليك ومن جانب السلطات ، حتى أن آلين إكسبر ، فى عام ١٥٧٨ ، إلى أن ينقل مؤسسته إلى ديمس ، حتى تكون تحت حماية رئيس الاساقفة ، وكان من أسرة جيز . وفى نفس العام ، تم انشاء « سمنار » انجليزى فى روما ، وعلى طراز الكلية الجرمانية التى أنشأها إيجناس فى عام ١٥٥٢ ، واستمدى جريجورى الثالث عشر اليسوعيين حتى يقوموا بالإشراف عليه . ولكن يزودوا هذا « السمنار » بما يلزمه من دارسين ، أنشؤا ، بعد بضع سنوات ، أحد الدور ، فى سان أوينير ، وحيث كان الشباب الانجليزى يحصل على تعليمه الأول . وحين عادت كلية ديمس ، فى عام ١٥٩٨ إلى دواى ، أقاموا هناك ، وحصلوا سريعاً على كل السيطرة عليها . ومنذ ذلك الوقت عملت المؤسسات وفى اتحاد وثيق . وكان اليسوعيون هم روح « المؤامرة » الكبرى الكاثوليكية ، التى وقعت فى سنوات ١٥٨٢ - ١٥٨٣ بين فيليب الثانى ، وجريجورى الثالث عشر ، وهنرى دى جيز ، والتى تسببت فى انقطاع بين انجلترا واسبانيا ، فى عام ١٥٨٤ .

وحين نزلوا إلى بولندا ، فى عام ١٥٩٥ ، كان الموقف خطيراً ، وبدأ أن حركة الإصلاح الدينى كانت على وشك الانتصار فأقاموا فى أول الامر فى المنطقة التى كانت أكثر تعرضاً للخطر من غيرها . قرب بروسيا اللوثرية . وكانت كليتهم الأولى هى كلية برونزبرج ، والثانية هى كلية يوتوسك . ونتيجة لتأييد الملك ، تمكنوا بسرعة من أن يصبح لهم وجود فى كل الأقاليم . وامتثلت المناصب الكبرى فى الدولة بتلاميذهم السابقين ، وإنتمرت الكاثوليكية بشكل نهائى إبتداء من فترة حكم سيجموند الثالث ،

وكان اليسوعيون لا يقصرون وسائل عملهم على مجرد الوعظ ، والتعليم . ففي كل مكان كانوا يتسكنون من الوصول إليه ، كانوا يصبحون هم المستشارون المسموعى الكلكة عند الملوك ، فى النمسا ، وفى بولندا . وكان مجهودهم يسعى إلى محاربة مجهودات حركة الإصلاح الدينى . وعلى طول الحدود التى كانت تفصل بين العالم الكاثوليكي ، وبين العالم الذى تحول إلى مذهب الإصلاح الدينى ، ومن دواى إلى فيلنا ، وصبر إينجولستات وبراغ ، أصبحت كلياتهم تشبه قلاع خط ضخمة من أجل التمية ، يحاصر المواقع التى كان المدور يحتفظ بها . وبمسوة دافعهم ، لم تفكر المسيحية المناضلة إلا فى إستخدام قوتها ضد نفسها . وكانوا ملتفتين ، قبل كل شئ آخر ، ويمتنى الإنتباه من أجل الدفاع عن أنفسهم ضد مذاهب الإصلاح الدينى ، أى من أجل الإحتفاظ بالأسكان التقليدية للمسيحية ، فصرفوا إهتمامهم ، وبشكل متزايد ، عن الخطر الإسلامى ، الذى كان يهدد أرض المسيحية ، وحضارتها ، وروحها العامة ؛ وإنتهى بهم الأمر إلى العمل على إختفاء الروح الصليبية .

الفصل التاسع

شرق أوروبا ، وآسيا

كان دخول الموسكوفيين في حياة أوروبا أحد المظاهر الهامة لتاريخ العلاقات الدولية في عصر النهضة . ولقد إزدادت أهمية روسيا باستمرار منذ عهد إيوان الثالث ، وكان لها دوراً هاماً في علاقاتها مع بولندا ، ومع المغول . وزادت أهمية المجر نتيجة الصراع بين العثمانيين وبين النمساويين ؛ واستبقى الأمر تدخل شارل الخامس في هذا الصراع . واستمر توسع روسيا في عهد إيوان الرهيب ، في اتجاه الشرق ، والشمال ، والجنوب . أما بولندا فلأنها مرت بأزمات تتعلق بالأسرة الحاكمة فيها ، وخضعت لتهديدات من جانب الموسكوفيين ، ومن جانب السويديين . وعلينا أن نختم هذا الفصل بشرح العلاقات التي كانت موجودة بين العثمانيين وبين فارس ، وتلقى كذلك نظرة سريعة على ما كان يحدث في بقية الدول الآسيوية ، مثل إمبراطورية الهند ، والصين ، واليابان ، والهند الصينية وبورما ؛ ولا ننسى القارة الأفريقية ، وبخاصة إثيوبيا في هذا القرن .

١ - روسيا في عهد إيوان الثالث : بولندا والمغول :

كانت البلاد الروسية تحتل مكاناً غير عادي بشكل ثابت ، على حدود آسيا : ولم يكن ذلك فقط لأنها كانت ولفترة قرون ، فريسة المغول ، ولكن أيضاً لكون الأوروبيين الذين غاصروا بالوصول إليها شعروا بأنهم كانوا يتوغلون في عالم يختلف عن عالمهم . ومنذ العصور القديمة ، ومنذ بطليموس ، كان الرأي العام يستند أن تانائيس ، أي نهر الدون ، كان يفصل بين القارتين . وكتب أحد الألمان ، وهو البارون هيرستاتين ، والذي ذهب إلى موسكو في حاديديات

عديدة ، وصفاً لهذه البلاد ، في منتصف القرن السادس عشر ، قائلاً : « إذا مارسنا خطأ مستقيماً من مصبات تانايس إلى منابعه ، فيستتج عن ذلك أن تكون موسكو في آسيا ، وليس في أوروبا » . ومال البعض إلى أن يتقنوا الحدود التقليدية حتى نهر الفولجا . أما حدود الأورال وبحر قزوين فإنها لم تأخذ أهميتها قبل القرن السابع عشر .

وكان حكم إيران الثالث ، أو إيوان الكبير (١٤٦٢-١٥٠٥) هو الذي فرض القوة الموسكوفية على إنباه جيراته . وكان إيوان الثالث هو أكبر وجمع للأراضي الروسية . التي كانت قد قسمت فيما مضى في صالح كبار السادة ، أو وقعت في أيدي الأجانب . وكان عصر « الحصلة الذهبية » - هؤلاء المغول الذين كانوا قد سيطروا خلال قرون عديدة على شرق وجنوب روسيا - قد اقترب من نهايته . وكانت خانات كيبياق ، والتي كانت قد انحسرت في أراضي الفولجا والأورال ، قد تحطمت في عام ١٤٨١ . وفي نفس العام ، انتصرت حملة الموسكوفيين ضد قازان ، ووضعت بذلك نهاية الجزية السنوية التي كانوا يدفعونها لها .

وفي وسط سهول روسيا ، كانت هناك مجموعة من الإمارات المستقلة ، تحيط بموسكو . فأخذ إيوان في مهاجمة تلك الموجودة منها إلى الشمال ، وحيث كانت تمر الطرق الموصلة إلى بحر البلطيق ، مثل إمارة بوسكوف ، والتي كانت تجاور أراضي ليتوانيا ، وإمارة ياروسلاف ، وتيفر ، وفياتكا وغيرها ، وأجبرها على الإعراف بسلطته ، وفي عام ١٤٩٢ - ولقد أشرنا إليها عند حديثنا عن بحر البلطيق - قام ببناء قلعة إيفانجورود ، على الضفة اليمنى لنهر تارفا ، وفي مواجهة القلعة التي كانت تحمي حدود جماعة الفرسان التبتوتيين . ولقد قام السويديون بالاستيلاء عليها ، وهدموها ، بعد أربع سنوات .

وكان إيوان يلقب نفسه حتى ذلك الوقت ، وكما كان أسلافه يلقبون أنفسهم ،

بلقب أمير موسكو الكبير . ولكنه سوف يفرس في روسيا لقب « القيصر » ، وكان ذلك نتيجة زواجه ، في عام ١٤٧٢ ، وبعد إغراء أحد التجار الإيطاليين المقيمين في موسكو له على ذلك ، بإبنة أخ آخر إمبراطور القسطنطينية ، زوى ، المسماة صوفيا ، باليولوج وسرعان ما يدخل في شمار أسرته ذلك القسر ذا الرأسين ، والذي كان لا باطرة يزنطة . ولم تبق سوى خطوة بسيطة من ذلك إلى أن يطمع ، أو حتى يطالب ، بمهرات باليولوج .

ولم يكن إيوان قد وصل بعد إلى درجة من القوة تكفى له لكي يأخذ مثل هذه الخطوة . فاكتمى بأن يعدل من التقاليد الموجودة في الكرملين . فعزل نفسه بدرجة أكثر عن رعاياه ، وابتهج طريقة جديدة للحياة ، وأخذ في إرداء الملابس الضخمة ، وأصبح يستعرض نفسه على العرش حين كان يستقبل ، مثلا ، السفراء الأجانب ؛ إذ أنه تم في هذا الوقت أمر قيام ساحة روسيا بتبادل السفارات مع الدول الثرية . وبعد زواجه ، ونتيجة له ، دخل في علاقات من هذا النوع مع الأمراء الإيطاليين قبل غيرهم . وفي نفس وقت حضور صوفيا باليولوج ، حضرت جالية باكلها من الإيطاليين واليونانيين وأقامت في موسكو . واختار القيصر من بين هؤلاء المهاجرين ، والذين انقطعوا عن علاقاتهم بالغرب ، سفراءه الأول ، وهم أولئك الذين أرسلهم ، ابتداء من عام ١٤٧٤ ، وبخاصة بعد عام ٤٨٠ ، ولكي يعلن تحرره النهائي من السيطرة المخولية ، وأرسلهم إلى البندقية وميلانو ، وروما ، ونابلى . وأرسل معهم بعض الموسكوفيين ، حتى يتعلموا مهنة الدبلوماسية إلى جانبهم . وسرعان ما أظهروا إصرارهم الكامل على كل ما يتعلق بالإحترام الواجب لسيدهم . ففى ميلانو ، في عام ١٤٩٣ ، رفض سفير القيصر أن يحضر حفل زواج يونا سفورزا على مكسميليان ، حتى لا يقابل ممثلي الإمبراطورية ، وأسبانيا ، وفرنسا .

وهكذا يمكننا أن نقول بأن الغربيين قد بدأوا في التعرف على روسيا والروسين في نفس الوقت الذي كانوا قد بدأوا فيه بالدخول في علاقات مع الأمريكيتين . وكان إكتشاف إمبراطورية القياصرة قد تم في نفس وقت إكتشاف إمبراطورية الأتراك ، وإمبراطورية الإنكا .

وليس من حقنا أن نتكلم، منذ هذا الوقت ، عن إمبريالية (تساطلية) روسية . ومع ذلك ، فإنه الوقت الذي تبلورت فيه ، بين رجال الدين وبخاصة في الأديرة فكرة ، روما ثالثة ، عليها أن تحتل ذلك المكان الذي كانت تحتله القسطنطينية من قبل : وهذه روما الثالثة ستكون بطبيعة الحال هي موسكو . وكانت مثل هذه الأفكار تعمل بنوع خاص على تقوية الاتجاهات الموجودة عند الحكومة في اتجاه السلطة المطلقة . ولن تتأثر السياسة الخارجية بذلك إلا بعد فترة طويلة .

ولم تكن لدى إيوان طموحات للتوسع صوب الجنوب . وكان حتى قد تحالف مع ميتشل جبراسي ، خان القرم . وكان قد استعان بهذا الأمير التتاري من أجل القيام ؛ في الشرق ، بمحاربة بقايا الخصلة الذهبية ، وفي الغرب ، بمحاربة ليتوانيا وبولندا . أما إذا ما نسبنا إليه أمر المطالبة بميراث أباطرة بونطة ، فإن ذلك سيكون سبباً الزمن . ولا شك في أنه كانت هناك خلفيات سياسية في موضوع زواجه بصوقيا باليولوج . ولكن هذا كان يمثل فقط ، من جانبه ، طموحا لكي يحصل من البابا على لقب ملكي ، ومن جانب البابا ، رغبة لكي يكسب إلى فكرة الحرب الصليبية أميراً تأكدت قوته بكل وضوح . ولكن فكرة الحرب المقدسة لم يكن لها إغراء عند إيوان . فلقد حاولت بلاجدوى الدبلوماسية البابوية ، ودبلوماسية البندقية ، وهما أول من كان مثلاً في موسكو ، أن تتماونا في مجهوداتها من أجل كسبه ، ملوحين أمام أعينه بذلك الميراث الكبير الذي كان له الحق فيه ، نتيجة لوراجه ؛ ولكنه كان لا يفكر إلا في ليتوانيا . وكان مصمماً على ألا يسيء علاقاته

بالمشائين ، والذين كانت الكثير من المصالح المشتركة تهريبهم الواحد من الآخر . فأولا ، كان خان القرم ، حليفه ، تابعا للباب العالي . وبعد ذلك كانت التجارة الروسية مستمرة في استخدام موانئ كافا وآزوف ، وحيث كانت المجلود تتم مبادلتها بالمتسوجات والتوابل . ولن يقوم إيوان ، ولا خلفائه في القرن السادس عشر ، بتهديد الإمبراطورية العثمانية ، وذلك رغم الكلمات المنمقة ، وحتى الوعود ، بالمساعدة ، والتي كانوا لا يضمنون بها على روما ، ولا على البندقية ، حسب إحتياجات سياستهم في ذلك الوقت .

ولذلك ، فإن أردبا لن تكون في حاجة ، إلى تعديل الفكرة التي كانت قد بنتها نفسها عن الروس طوال العصور الوسطى : كأنصاف مقبردين ، يصعب تصور أنهم من المسيحيين . وفي الخطابات ، التي أرسلها شاول الخامس ، إلى ملك بولندا ، ومنحه بها قلادة « الفراء الذهبية » ، مدحه كذلك لكونه قاد المعركة « ضد أقصى أعداء الدين ، مثل الموسكوفيين ، والتتار ، والعرب والأتراك » .

وفي هذه الفترة ، لم تكن طموحات وبهجرات إمبراطورية القياصرة موجهة إلا صوب بحر البلطيق ، وفي اتجاه ليتوانيا . وكانت فترة حكم إيوان تعهد لتلك الصراعات التي خلال أجيال عديدة . ستجعل الروس يقفون في مواجهة البولنديين والسويديين . ولقد رأينا فيما سبق كيف كانت مشكلة بحر البلطيق تطرح نفسها . وعلينا الآن أن نتحدث عن ليتوانيا .

وكانت إمارة ليتوانيا تشمل ، علاوة على ليتوانيا نفسها ، على روسيا البيضاء كلها ، وإقليم الدنيبر ، مع كييف . وكانت تخضع فيما مضى لسادة كييف ، فطالب بها إرموان ، الذي أعلن أنه خليفتهم . ومنذ أواسط القرن الخامس عشر كان هناك إتحاد شخصي يربطها بملكة بولندا . ومع ذلك فإن سكانها كانوا

يشعرون بأنهم أكثر قربا من الروس ؛ إذ أنهم كانوا في غالبيتهم ، يدينون بالمذهب الأرثوذكسى . أما الكاثوليك ، فرغم تمتعهم بحد السلطات البولندية ، فإنهم كانوا أقلية . وفى عام ١٤٩٢ ، وعند وفاة الملك كازيمير الرابع جاجيلون ، خلفه ابنه الأكبر ، جان البيرت ، على بولندا ، بينما خلفه ابناً آخر ، وهو الإسكندر ، بعد انتخابه ، غراقدوقا على ليتوانيا . ووجد إيوان الثالث فى ذلك فرصة ساعته للتدخل دون أن يصطدم بالبولنديين بطريق مباشر . وترك الفرانديون أن يختار بين تحالفه معه أوعدائه له . واختار اسكندر الجانب الأكثر حملا : فتزوج ابنه جاره القوى . وبهذه الطريقة حصل إيوان ضمنا على تأييد جزء من نبلاء ليتوانيا له وحين أصبح ، بعد ذلك ، واثقا من الانتصار ، نادى بحمل السلاح ، فى عام ١٤٩٩ . وتوفى جان البيرت بعد ذلك بعامين ، وأصبح الاسكندر ملكا على بولندا . وتم عقد هدنة لمدة ستة سنوات ، تركت فى أيدي روسيا بعض أجزاء من الاقليم (١٥٠٣) .

وفى أثناء ذلك الوقت لم تكن روسيا معزولة ، رغم التفزوات التى كانوا يضمرونها لها فى أوروبا ككلها تقريبا . وبدأ تقارب وثيق منذ قبيل نهاية القرن الخامس عشر ، بين فيينا وموسكو . وكانت المفاوضات التى تقدم الامبراطور بها قد لقيت ترحيبا ، إذ أنها كانت ناتجة عن مشاعر معادية لبولندا . وفى عام ١٤٩٩ ، تعهد كل من إيوان ومكسميليان ، على أن يحاربا ، ولدى الحياة ، الملك كازيمير جاجيلون وأبنائه . ووعده القيصر بمساعدة الإمبراطور على أن يسيطر على المجر ووعده الإمبراطور بمساعدة القيصر على إعادة غزو « الامارة الكبرى » السابقة لكيف ، والتى كانت « مهادنا » له . ومع ذلك فإن هذا التحالف الأول بين النمسا وروسيا قد ظل شكليا ، خاصة وأن مكسميليان الذى كان مشغولا للغاية فى الغرب ، لم يتمكن من تنفيذ تعهداته . ولكن ذلك لم يمنع من ناحية أخرى

من أن يقسب هذا التحالف في دفع آل جاجيلون إلى البحث من تأييد فرنسا :
فأصبح لوى الثاني عشر ، في عام ١٥٠١ ، حليفا للملك جان ألبرت .

وكان حكم باسيلوس الثالث (١٥٠٥ — ١٥٢٣) استمرارا لحكم والده
إيوان الثالث فخفضت إمارات جديدة شبه مستقلة ، أو مستقلة ، مثل جمهورية
بوزكوف بنوع خاص ، لسلطة موسكو . ونشبت الحرب من جديد ، مرتين ،
في عام ١٥٠٧ وفي عام ١٥١٢ ، من أجل ليتوانيا . وكان كل قطع جديد للعلاقات
مصحوبا بمحادثات مع مكسميليان . وكان القيصر يطلب معونة مباشرة . ولكن
الامبراطور كان يرغب ، قبل أن يتم الاتفاق ، في أن يدخل في العملية كريستيان
الثالث ، ملك الدانمرك ، والحليف الطبيعي للروس ضد السويديين . ولكن ملك
الدانمرك لم يأخذ أى قرار . وأخيرا ، تم في عام ١٥١٤ التوقيع على معاهدة مع
الامبراطور في موسكو . وقبل التصديق عليها ، وقعت حادثتان دفعتا بمكسميليان
إلى التبرؤ من السفير المستول عن التوقيع فكانت هناك أولا تلك المؤامرة الكبيرة
التي وقعت لجيش باسيلوس في أوركرا . ثم جاء بعد ذلك التقارب بين جاجيلون
والهابسبورج ، والذي تم الوصول إليه بعد مساومات طويلة .

وكانت أسرة هابسبورج تطمح ، منذ وقت طويل ، في تاجى المجر
وبوهيميا ، والذين كانا في أيدي أسرة جاجيلون ، مثلهم في ذلك مثل تاج بولندا .
وكان هذا هو السبب الرئيسى لعدائهم تجاه بولندا . وكان مكسميليان قد حصل
بالدبلوماسية ، على نجاح يقربه من هدفه بشكل واضح . فكان لاديسلاس ،
ملك بوهيميا والمجر ، وأخو سيجموند ، قد قبل الزواج الثنائى بين
أولاده وبين أحفاد الامبراطور . وكانت المسألة ، بالنسبة إليه ، هى ضمان
أساسى ضد أطماع الروس . ولكنها كانت لها واجهة أخرى ، إذ أنه سيكون

من نتائجها ، بعد فترة قصيرة ، تحول التاجين إلى الأسرة المالكة النمسية . وتم التوقيع الوثيقة الهامة التي قررت ذلك ، في حضور ملك بولندا ، في مؤتمر فيينا (١٥١٥) : ولما كان الإمبراطور قد وصل إلى هدفه ، فإنه وعد بعدم مساعدة روسيا ، بطريق مباشر أو غير مباشر . وسيكون عمله ، ابتداء من هذه اللحظة ، هو مجرد عمل الوسيط .

وعلىنا أن نذكر أنه لم تكن هناك مسألة مطروحة ، في الغرب ، سوى مسألة السلام ، إلا فيما يتصل بالمسلمين . وكان التفاؤل يرفرف على بلاط الملوك واحتشد البابا ليون العاشر ، ونتيجة لتقارير غامضة ، أن باسيلوس كان يوافق على إعادة توحيد الكنائس . وعملت دبلوماسيته على منافسة الدبلوماسية الإمبراطورية في الشؤون على حل المشكلة البولندية الروسية . وكانت هناك صعوبة في هذا السبيل . إذ أن الروس والبولنديين لم يكونوا قد استعدوا بعد لترك السلام . وكانوا يبحثون عن حلفاء في كل مكان ، ولم يطمع باسيلوس بمجرد إرسال نداء إلى المهاجرين ، وإلى جماعة الفرسان التيوتون : بل لقد طلب علنا العون من الهناليين . وفي أثناء هذا الوقت تم عقد هدنة ، لمدة عام ، عند نهاية عام ١٥١٨ وعن طريق وساطة مكسيميليان . وتجددت باتفاق مباشر في العام التالي . وكان الأمر يحتاج إلى استخدام القوة من جديد حتى يوافق سيجسموند على التخلي عن سمولنسك . واستمروا في المعيشة تحت نظام الهدنات القصيرة الأمد . وكانت الهدنة التي تم التوقيع عليها في موسكو ، في عام ١٥٢٦ ، أمام ممثل البابا كليمنت السابع ، وشارل الخامس ، وأخيه فرديناند ، أطول أمداً من الهدنات السابقة لها : فكان عليها أن تستمر لمدة خمس سنوات ، وبعد أن تجددت عدة مرات ، لن يطمح أحد فيها ، أو يخرجها ، ابتداء من عام ١٥٣٧ ، وعلى الأقل حتى نهاية القرن . وكان النجاح النهائي للروس ، ماداموا قد احتفظوا بسمولنسك .

وكانت فترة حكمة مليئة بالأحداث ، وحتى بالمخاطر . فكان عليه أن يواجه .
إلى الشرق وإلى الجنوب ، أعداء آخرين ، يخشى جانبهم حتى وأن كانوا أقل
تزوذاً بالأسلحة الحديثة . ذلك أن تلو القرم كانوا قد غيروا المسكر الذي
ينتمون إليه . فكان السلطان قد عفا عنهم ، وكانوا من ناحية أخرى قد كسبهم
إلى جانبه ذهب البولنديين . ومنذ ذلك الوقت ، سيصبحون المحصوم الدائمين
لروس . وكانت الخزان الجديد ، ابن منجيل بجري ، طموحات واسعة . فكان
متأثراً بذكرى القوى التي كانت ، فيما مضى ، لتبائل الخصلة الذهبية . وقام بمساعدة
خان قازان ، في عام ١٥٢١ ، بهجوم ثنائي على موسكو . وتمكن الجيشان
المتحدان من أن يتصرا على الروس ، على نهر أوكا ، وقريبا من العاصمة بشكل
أجبر باسيليرس على التخلي عنها . وتخربت كل البلاد المجاورة . ولم يتجنبا ما
هو أفظع من ذلك إلا نتيجة لقيام خان استراخان ، والذي كان معاديا لخان قازان ،
بتهديده من الخلف ، وبإجباره على الانسحاب ومع ذلك فإن محمد بجري
قد حصل من مجلس من الرؤساء المحليين على وثيقة تعترف بمبدأ دفع الجزية ،
والتي كانت لم تدفع منذ وقت طويل . وبعد أن عاد للقيام إلى عاصمته ، عمل
على تناسي هذا الموضوع . وسيعمل على إنشاء مجموعة كاملة من المواقع الحصينة ،
على نهر أوكا ، ضد التتار .

وبعد أن إطمأن ، بهذه الطريقة على الناحية الجنوبية ، قام بالهجوم على الشرق
ضد بقايا مجموعات الخصلة الذهبية . ولأول مرة ، وقعت مدينة قازان في أيدي
الروس في عام ١٥٣١ .

٢ - العثمانيون والجر والنمسا :

في الوقت الذي تم فيه طرد المغول بشكل نهائي إلى آسيا ، بدأ العثمانيون في

تقدمهم في أوروبا . وكانوا قد سيطروا على كل البلاد البلقانية منذ نهاية القرن الخامس عشر ، وسيعملون بعد ذلك على التوغل حتى قلب القارة .

ولقد استمرت حركة الدفع العثماني بشكل رئيسي في اتجاه الدانوب الأوسط . وكانت أقل أهمية من ذلك بكثير عند حدود بولندا . وكان ، الهوسبودار ، أو أمراء الأفلاق والبغدان قد قللوا من قوة وعنف التوسع العثماني في اتجاه بولندا ، وذلك باعترافيهم بتبعيةهم للسلطان . وأدى ذلك بهم إلى أن يعيشوا في سلام مع العثمانيين . فما أنهم قضوا بذلك على بعض الاتجاهات التي كانت يظهرونها لهم باستمرار جيرانهم الأقوياء ، ملوك المجر وبولندا ، من أجل إخضاعهم لهم . وكان البولنديون إيجائين أكثر من غيرهم في هذا الاتجاه . فقام أحد أمراء البغدان المشهورين ، وهو إيتين الكبير ، والبطريرك القومى الروماني ، بعد اشتباكات متتالية مع الغزاة المسلمين والمسيحيين ، بكسب انتصار كبير في بوكوفين ، على جيوش كازيمير جاجيلون ، ووضع بذلك حداً لحكمه الطويل (١٤٩٧) . وانضم منذ ذلك الوقت ، وبشكل نهائي وكامل ، لتحالف مع العثمانيين ، وأوصى خلفاءه ، عند موته ، بأنتهاج نفس الطريق . ومعنى ذلك أن سيادة ملك بولندا . وكانت أقل إثارة المتاعب ، وأقل تملاً . فصر « الهوسبودار » بأنهم نسبياً أكثر حرية في حركاتهم ، ماداموا يدفعون المبالغ المفروضة . والتي يطالبهم بها السلطان العثماني ، لكي يشترط بسلطنتهم .

أما على حدود المجر ، فإن الحرب كانت شبه مستمرة ، ولكنها كانت تنم ، من هذا الجانب ومن ذلك ، بقوات بسيطة ، وتقطعها من وقت لآخر ، في عام ١٥٠٣ ، ١٥١٤ ، هدنات تطول مدتها أو تقصر . وأخذت قوة جديدة تماماً ؛ وحنيفة ، بعد وصول السلطان سليمان الثاني ، أو سليمان الكبير ، إلى الحكم ، في

عام ١٥٢٠ . وكان الاستيلاء على بلجراد ، وهى مفترق طرق متقدم الدفاع عن
المجر ، فى شهر أغسطس ١٥٢١ ، يفتح سلسلة من الحملات التى ستوصل العثمانيين ،
فى فترة تقل عن عشر سنوات ، إلى أبواب فيينا .

واختار سليمان الوقت أحسن إختيار . فكانت المسيحية فى الغرب منقسمة
على نفسها مع بدء المتافسات بين فرانسوا الأول وشارل الخامس ، ولم تكن فى
حالة تسمح لها بإمداد المجر . أما المانيا ؛ فإنها كانت غارقة فى مشكلاتها الدينية ،
ولم تكن قادرة ، هى الأخرى ، على أن تقوم بأى شئ من أجلهم . فلم يحصلوا
على أى معونة سوى بعض المبالغ المالية التى جمعها الكرسي البابوى . وبدأ فى عام
١٥٢٥ أمر الاستعداد من أجل العمل الحاسم . أما الفرنسيون ، والذين كانوا
قد إنهمزوا فى بافيا ، فقد كان من حتم أن يأملوا فى إنتصار المسلمين . وجاء
السلطان سليمان لى يقود ، عند نهر الساف ، جيشاً يتكون من مائة ألف مقاتل ،
وثلثمائة مدفع . أما القوات التى كانت فى وسع الملك الشاب ، لوى الثانى ،
ملك المجر ، أن يواجه بها ، فإنها كانت تنقص عن قوته بمقدار الثلثين . ولذلك
فإن موقعة موهاك كانت هزيمة ، وكارثة للمجريين ؛ فقد قضى تماماً على الجيش ،
وقتل الملك ، آخر أسرة جاجيلون ، فى ٢٠ أغسطس ١٥٢٦ . ودخل السلطان
إلى بودا . ثم إنسحب ، مع غالبية جيشه لى ينهب ويواجه ، فى الأناضول ، تهديداً
من جانب شاه الفرس .

وطبقاً لتريبات عام ١٥١٥ كان تاجى بوهيميا والمجر يمددان إلى نسيب
الملك لوى ، وهو الارشيدوق فرديناند ، أخ شارل الخامس . ولكنها كانا
بالانتخاب . وكان من نتائج اضطراب الأحوال فى البلاد عمل إنتخابات ثنائية .
ويتم إقام دايم برسبورج بانتخاب فرديناند ، قام دايم آخر إنتصالي بانتخاب
جيان زابوليا ، وكان أمهراً قوياً . وحمل زابوليا لقب كبير أمراء ترانسلفانيا ،

وكان عبادة عن حاكم عام ، مزوداً بسلطات إستثنائية واسعة : خاصة وأن ترانسلفانيا كان يسكنها أهالي من المجر ومن الساكسون ، والرومانيين ، وتمتع بشبه إستقلال داخل ؛ وكانت مضطرة طوال كل القرن الخامس عشر إلى الدفاع عن حدودها الجنوبية ضد غزوات الأتراك ، ولم تكن قوة زابوليا تتمثل فقط في تبعية عن روح الإستقلال للامة المجرية تجاه النمسا . بل كان يتمتع بحكم مسبق عليه من جانب السلطان ، ومن جانب كل أعداء آل هابسبورج الآخرين ، وخاصة ملك بولندا وملك فرنسا وكان قد إستلم ، منذ عام ١٥٢٨ ، معاشاً من فرانسوا الأول ، وتهدد بمهاجمة بالدخول فوراً في عمليات عسكرية ضد الإمبراطورية . ولكنه إضطرت ، في أثناء ذلك الوقت ، إلى ترك عاصمته لنفسه . وبعد هزيمته ، وتحلى جزء من رجاله عنه ، إضطرت إلى أن تلجئ إلى داخل ترانسلفانيا ، ولم يجد له وسيلة أخرى لإعادة الأوضاع بالنسبة إليه إلا عن طريق الاتفاق مع السلطان سليمان . فذهب لكي يقدم له الولاء ، بنفسه ، وتهدد بأن يدفع له الجزية ولقد تمكن بمساعدته من العودة إلى بودا ، وحيث توج نفسه بتاج القديس إيتين ، في عام ١٥٢٩ .

وفي نفس العام ؛ وصل العثمانيون أمام فيينا : حدث ضخم ، سيبرز له كل العالم المسيحي ، ولكن دون أن يقرر على التدخل إلا بموافقة . ثم إبتعدوا عنها ، بعد شهر ، بعد أن تحطمت كل هجبتهم أمام نيران المدفعية النمساوية ، وسيسمح هذا الإنذار لفرديناند ، والذي كان قد أصبح ، برغبة أخيه ، ملكاً على الرومان ، بأن ينتصر على قوة إكثرت الألمان : فقرر دايت روتيسبون بأعداد قوات الإمبراطورية وقام شارل الخامس من جانبه ، وكان في ذلك الوقت على علاقة سلم مع فرنسا ، بإحضار قوات من إسبانيا وإيطاليا ، والاراجون المنخفضة . وحين بدأت العمليات الحربية ، بعد إنتهاء المدينة القصصية ، كان

مستعداً لاقفال طريق قينا ، في وجه المهاجرين ، وبقوات أكبر جيش كان قد قام بقيادته حتى ذلك الوقت . ويبدو أن سليمان قد شعر بتهتامة هذه القوة الموجودة أمامه . وبعد أن توقف لمدة خمسة وعشرين يوماً أمام جازر الصخية ، في وادي راب ، قرر أن يعود أنداجه ، وعاد إلى البحر في شهر أغسطس ١٥٣٢ . وكان ذلك مكسباً كبيراً لهية الإمبراطور : فكان في وسعه ، ودون الدخول في عمليات عسكرية ، أن يدعى أنه قد انتصر إلتصاراً حاشماً . ولكن سيكون على ألمانيا ، ولعدة تزيد على قرن من الزمان ، أن تعتمد من الخطر العثماني .

ولقد كان على البحر ، وبحكم موقعها ، كخط أول العالم المسيحي والعالم الاسلامي في نفس الوقت ، أن تصبح ميداناً مستديماً للمعارك الحربية .

وإضطّر فرديناند إلى التفاوض مع سليمان ، وعلى أساس الوضع القائم (١٥٣٢) : أي أنه قد تملى عن أمر الدخول إلى بودا . وأقاد ، في عام ١٥٣٨ ، من الصنوبرات الداخلية التي كانت تحيط برايويا ، وجعله يوة مع على إتفاقية سرية (معاهدة فاراد) التي كانت ، في حالة تطبيقها ، ستسوى خلافاتها ، دون إراقة دماء جديدة : فكان على زاويوا أن يحتفظ بكل البحر الشرقية ، مع بودا ، ولكن لدى الحياة وتبند موته ، تعود مملكته إلى فرديناند وأرثقلاته . ولكنه توفي في عام ١٥٤٠ وتسبب هذا الموت في أزمة جديدة . فكان قد تزوج ، قبل وفاته بقليل ، بإيرانيلا ، إبنة سيغسموند ، ملك بولندا ؛ وكان قد حصل منها على ابن ، وصممت أرملة على أن تسمى ، بمساعدة الأتراك ، شقيق إبنتها الوليد وأسرع سليمان بالاعتراف بملكية جارت سيغسموند . وسرعان ما يقوم بدفع جيوشه حتى بودا ، ويقضي تماماً على القوات الإمبراطورية التي كانت تعاضدها ثم استند إلى الخطر الدائم الذي تعرض

له العاصمة ، ووضع فيها حامية ، وحين فيها أحد الباشوات ، يقوم بإدراتها باسمه (١٥٤١) . وإبتداء من هذا الوقت . نشأت بحر ثالثة ، بحر عثمانية ، داخله بين بحر آل هابسبورج المضغوطة حول بريسبورج ، كعاصمة لها ، وبين بحر زابوليا ، والتي كانت ترانسلفانيا تمثل أهم جزء فيها . وتستغل هذه الأوضاع الجديدة موجودة حتى نهاية القرن الثالث .

وفي أثناء ذلك الوقت لم تكن الآمال من أجل عودة الوحدة قد إنتهت تماماً . فكان الأهالي ، وهم مهزومون ، يرغبون في التخلص من السيطرة العثمانية . فقام الكردينال مادزينوي ، المشرف على تربية الملك الصغير ، والمكلف من جانب السلطان سليمان بالحكم في فترة ستة القاصر ، بالعمل سراً في صالح فرديناند . حقيقة أن آل هابسبورج ، والذين عملت ضدهم أحداث ألمانيا ، قد أظهروا عدم مقدرة تامة في مواجهة العثمانيين . وفشلت ، في عام ١٥٤٢ ، تلك العمليات العسكرية التي بدأت في اتجاه بودا ، والتي كانت قد تكفلت الكثير ، وكان فشلها ذريعاً . وكانت نتيجتها الوحيدة تتمثل في التسبب في حركة رد فعل عنيفة عند الخصوم ، الذين قاموا بالاستيلاء على مدينتين هامتين ، جران وشكسفر فار . وبهدنة لمدة خمس سنوات ، تم التوقيع عليها في عام ١٥٤٥ ، اضطر فرديناند إلى أن يعد السلطان بحرية سنوية تبلغ ٢٠٠٠٠٠ دوقى . وتغامر مع ماريتوى على حل وسط جديد ، يحدد إتفاق فاراد : فيسيزوج چان سيجموند إحدى بناته ، ويستلم ، في نظير التاج ، مكافأة تعويض تليق بأمره . ولكن رغم سرية هذا الاتفاق ، فإن سليمان قد علم به بسرعة . ولما كان لا يقدر على التدخل في ذلك الوقت ، لأنه كان في سرب مع الفرس ، فإنه إكتفى بفضح خيانة ملازمتينوزى ، ووصد ثما الحصول على رأسه .

وسمع ذلك ، فقد تنفذ الإتفاق في عام ١٥٥١ : وإستولى النمساويون على

ترانسلفانيا ، التي إنسحبت منها الملكة إيزابيلا مع ابنها . وبعد ذلك ، وبتمريض من الباشوات ، اشتعلت نيران الحرب شيئاً فشيئاً في جميع أنحاء المجر . ولم يعد السلطان سليمان من فارس ، ولم يتم عقد الصلح إلا في عام ١٥٥٢ وعن طريق التهديد بالتدخل من جديد ، أجبر فرديناند على أجماع جان سيجموند . واضطر فرديناند إلى الموافقة ، بعد تردد طويل . وفي عام ١٥٥٦ ، وفي الوقت الذي نازل فيه شارل الخامس عن العرش ، كانت ملكة زابوليا قد أعيد إنشاؤها . وتم في نفس الوقت عقد هدنة جديدة مع العثمانيين ، لمدة ثمانية سنوات ؛ وتجددت بعد ذلك في عام ١٥٦٢ ؛ وأكدت التعهد بدفع الجزية ، وضمنت للعثمانيين بقاء كل الأماكن التي فتحوها خلال السنوات الأخيرة ، في أيديهم .

أما مكسيميليان الثاني ، ابن وخليفة فرديناند ، فإنه في نفس الوقت الذي احتفظ فيه بالسلم من جانب العثمانيين ، عمل على عارضة الإنصاليين في ترانسلفانيا ، وكان حظه هناك أحسن من حظ والده . ذلك أن جان سيجموند قد هزم ، واضطر إلى الموافقة على شروط هدنة زانمار ، في عام ١٥٦٥ . فكان عليه أن يتخلى عن لقب الملك ، وعن جزء من ملكة المجر الشرقية ؛ ولم يعد له سوى ترانسلفانيا يحكمها ، وبصفته أحد رعايا الملك الإمبراطور . وكان لهذا الحدث نتائج هامة فقد غضب السلطان سليمان ، واستمد لاعطاء درس جديد لآل هابسبورج . وعاد إلى الظهور في المجر ، وحيث لم يكرهوا قد شاهدوه منذ عشرين عاماً . ولكنه توفي أمام مدينة زيمت الصخرة ، في عام ١٥٦٦ . ووقعت العمليات الحربية فجأة . ولذلك فإن اتفاقية زانمار سوف تطبق ، واحتفظت ترانسلفانيا «بأمورها» الذي انتخبه المجلس . ولكنها ظلت داخل الوحدة المجرية ، وعلى الأقل بشكل رمزي ، وتبعا للولاء الواجب لآل هابسبورج ، والذين سيكونون

وخدم ، منذ ذلك الوقت هم ملوك المجر . وتأكد هذا الاتفاق النهائي بين الأمرين في سنة ، عام ١٥٧٠ .

أما من جانب المماليك ، فإنه قد تم عقد هدنة جديدة ، ولمدة ثمانية سنوات ، في أدرنة ، في عام ١٥٦٨ . وسيعملون على تجديد مرار عديدة حتى عام ١٥٩٢ . ولم تمتح حالة السلم الباشوات من القيام ، من وقت لآخر ، بهجمات اعتبرها الجانب الآخر على أنها أعمال عصابات تستدعي القمع بالسلاح ، واعتبروها أنفسهم عمليات تأديب العصابات التي كانت تأتي من عند الخصوم ، وتعمل على النهب والتخريب . وبدأت من هذه الفترة عملية تنظيم الحدود ، والتي سوف تستمر لمدة طويلة ، ومنذ الربع الأخير من القرن السادس عشر ، وصدت النمسا بعملية حماية الحدود إلى جنود — فلاحين ، Grenzer ، زودت كل منهم بقطعة من الأرض ، وفرضت عليهم بعض الإلتزامات العسكرية . وكان هذا التنظيم يحمي كل المنطقة الواقعة بين الساف والهراف .

٢ - روسيا في عهد إيوان الرهيب :

كان العمل الأساسي ، الخارجي ، للقيصر إيوان الرابع ، أو إيوان الرهيب (١٥٥٣ — ١٥٨٤) يتمثل في توسيع حدود إمبراطوريته ، بضمه إليها بلاد الفولجا الوسطى ، والسفلى ، وتوسيع حدوده الشرقية حتى الأورال . وكان الهدف الرئيسي هو ، من جديد ، قازان ، وغاناتها . وكانت ثلاث حملات في هذا الاتجاه . وأخيراً ، وفي عام ٥٥٢ : وهو العام الذي فشل فيه شارل الخامس أمام ميتر ، استولى إيوان على الموقع وبعد ذلك بقليل بدأ العمل في بلاد بشكير . وبعد أربع سنوات من ذلك ، سقطت استراخان بدورها ، وقاموا بضم أراضيها . وهكذا وصلوا إلى سواحل بحر قزوين ، بينا إقربوا ، في الشمال من جبال الأورال . وكانت هذه فترة حاسمة بالنسبة للتكوين الإقليمي

للإمبراطورية : فزادت مساحتها بنسب هائلة ، وانفتحت أمامها ، وإلى الشرق ، كل الإمكانيات .

ولم تبدأ حرب ليفونيا ، والتي تحدثنا عنها في الفصل الخاص ببحر البلطيق إلا بعد ذلك . وكسب إيوان في أول الأمر ، ولكن جسامه المجرد الذي بذله في هذه الناحية ، وطول أمده ، كان يشجع تاتار القرم الذين كانوا قلقين من تزايد قوة الموسكوفيين ، على العمل ضدهم . وكان إيوان نفسه ، قد أسهم ، من ناحية أخرى ، على زيادة غاروفهم . فكان قد قام ، في مرتين ، بقيادة قواته ضد النخان : وكانت مجرد عمليات إستطلاع هجوى ، وأن كانت الثانية من بينها لم تتوقف إلا تحت أسوار آزوف . وزاد القلق في إستانبول ، وحيث كانوا يتجهزون خان القرم على أنه غاضب لهم . ولذلك فإن السلطان سليم ، ابن وخليفة سليمان ، قام بوضع مشروع لمنازعة القيصر في قازان وإستراخان . وفي المرة الأولى ، في عام ١٥٦٩ ، قام العثمانيون والتتار بمحاصرة إستراخان ، وأقاموا مواقع متقدمة لهم حتى نهر الفون . ثم قام جيش ، يزيد عدده على مائة ألف رجل ، في عام ١٥٧١ ، وبقيادة خان القرم ، بعبور الحدود عند أوكا . ومرة جديدة - وهي آخر مرة - تم غزو موسكو ، ونهبها وحرقها ؛ ولم ينج منها سوى الكرملين . وكانت لهذا الحدث نتائج بدرجة أنهم ظلوا ، بعد إسحاب التتار ، يتهمونهم بقتل ٣٠.٠٠٠ شخص ، وبأمر ١٣.٠٠٠ أسير .

أما في قطاع بحر البلطيق ، وكذلك في إتجاه البحر الاسود ، فإن الجزء الأخير من حكم إيوان لم يشتمل على مكاسب . فكان عليه ، في عام ١٥٨٢ بنوع خاص ، أن يتخلى عن فتوحاته في ليفونيا ، وأن يعيد بولوتسك إلى ليتوانيا . ثم اضطر ، في عام ١٥٨٣ ، إلى أن يتخلى السويديين عن إستونيا ، وكذلك عن كثير من المدن التي كانت فيها مضى روسية ، حول خليج بونفيا .

وعند نهاية حكمه، كان لا يزال هناك إذن الكثير مما يجب القيام به ، إلى الشمال ، وإلى الجنوب ، حتى تتمكن روسيا من أن تفرض نفسها على أوروبا كدولة عظمى من الدرجة الأولى . وكان إيوان قد حطم نفسه أمام عقبات ، سيتمكن بطرس الأكبر ، بعد قرن من الزمان ، من التغلب عليها . وعلى العكس من ذلك ، انفتحت إمكانيات جميلة أمامها ، من ناحية الشرق ، ناحية آسيا .

وقرب الأورال ، وفيارين كاما وهو أحد فروع الفولجا ، ودفيئا ، هاشت أسرة من كبار الملاك ، وهى أسرة ستروجانوف ، والى كانت قد بدأت ، بعد عام ١٥٥٨ ، فى استغلال بعض الملاحات ، وبعض مناجم الحديد . ولقد عمل أفراد هذه الأسرة ، شيئاً فشيئاً ، على مد عمليات إستكشافهم إلى ما وراء الأورال ، وتمكنوا ، بمواصلة التقيصر ، من القيام بعمليات إستعمار فى المنطقة الواقعة بين أوب وإرتيش . ولكى يتمكنوا من حمايتها ، قاموا ببناء المواقع الحصنة ، وهددوا بالقطاع عنها إلى عناصر من القوزاق الذين كانوا يبحثون عن أرض لهم . وقام أحد رؤساء القوزاق الذى دخل فى خدمتهم ، وهو إرماك ، بعمليات غزو وعمليات إستعمار ، فى نفس الوقت . وأصبحت سيبريا ، حاصمة التار السابقة ، والواقعة على نهر أرتيش ، والى استولوا عليها من التان الذى كان يحكم المنطقة حتى ذلك الوقت ، بدون أهمية ، وأخذت تبولسك مكانها فى عام ١٥٨٧ . ولكنها أعطت على الأقل إسمها لروسيا الآسيوية ، والى ستسجمى ، منذ ذلك الوقت ، بسيبيريا . وبعد عشرين عام أخرى ، سقطت ، فىيا وراء نهر أوب ، مدينة تومسك ، من موقع معسكر القوزاق ، تحيط به الأعمدة .

وإذا كانت آسيا تحتل المكان الأول فى تطور السياسة الخارجية لموسكو عند نهاية القرن السادس عشر ، فإن رواجهل جديدة بدأت تتخذ ، فى نفس هذه

الفترة ، مع أوروبا الغربية . ويبدو أن أيوان قد فهم ، وقيل بطرس الأكبر ، أنه ، من أجل أن يتمكن من قياس قوته بقوة الدول الغربية ، عليه أولاً أن يتعلم منهم . فحصل على معدات حربية من ألمانيا ، وحاول أن يستخلم منها بعض technicians ، ولكنه لم ينجح في ذلك . وفتح البلاد ، وأكثر من سبقه ، لكل الأجانب الذين كان لهم أى شيء يأتون به .

وكان الإنجليز هم أول من وصل ، من حيث العدد . وكانت صدقة ملاحظتهم على سواحل البحر الأبيض هي التي دفعت السفن التي كان شاتسبلور يقودها ، باحثاً عن بحر شالي شرقى ، إلى أن يلقى مرساه ، في عام ١٥٥٢ ، على بعد أربعة كيلومترات من ذلك المسكان الذى سوف تنشأ فيه ميناء أركانجسك فيما بعد . وذهب رئيس الحملة إلى موسكو ، وقوبل فيها أحسن إستقبال ، وكتب القيصر إلى الملك أدوارد السادس يدع رعاياه بالحرية الكاملة في التجارة . وسرعان ما أنشئت الشركة الموسكوفية ، وحصلت على إمتيازات عديدة : فحصلت على حق التجارة حتى آخر حدود روسيا ، وحتى خارج هذه الحدود ، في بخارى وفي فارس . وكان أيوان يبنى نفسه لفترة طويلة بأمل الوصول إلى وفاق سياسى في نظير ذلك ، ووافق عسكرى ، ضد يولندا . ولكن القيصر اكتشف بعد ذلك ، ووحام ١٥٦٩ ، أنه قد سخر به ، ومع ثورة غضبه ، أرسل خطاباً مليئاً بالاهانات إلى الملكة اليزابيث . وإذا كان الإنجليز قد رأوا قليل إمتيازاتهم ، وإذا كان عليهم أن يقسموا هذه الإمتيازات مع الهولنديين ، الذين ظهروا بدورهم في البحر الأبيض ، فإن هذا لم يمنع من إستمرار سيطرتهم على سوق روسيا . ولقد استمر إيوان ، وحتى وفاته ، مصرأ على الوصول إلى مثل هذا التحالف ، والذي كانت لندن لا ترغب فيه . ولقد سررت الاشاعات ، في أحد الأوقات ، حتى بأنه قد رشح نفسه لطلب يد الملكة العذراء .

ولم تضع الحكومة الانجليزية أية صعوبة من أجل الاعتراف له بلقب القيصر ،
والذى كان قد صمم على الاعتراف به رسميا . أما في المواسم الأخرى ،
وعادة في كراكوفيا ، فإنهم كانوا أكثر تردداً . وكان ملك بولندا هو آخر
من وافق على الاعتراف بذلك . وكانت إدارته السياسية في معركة دائمة مع
الكريملين ، إذ أنها كانت لاتوافق على استخدام تلك الصيغ المتميزة ، والتي
كانت موسكو تعطيها كل أهمية ، لاعتبارات تتعلق بالهوية . ومن جانب
الامبراطور ، لم تكن الاعتراضات أقل قوة . ذلك أن الموسكوفيين قد بدوا
وكأنهم منافسين لمركز الأولوية بين الدول . واقترح رودلف الثاني ، في عام
١٥٧٦ ، أن يلقبه بلقب « قيصر الشرق » ؛ ولاتنتهي به الأمر إلى أن يوافق على
صيغة « قيصر كل الاقاليم الروسية » . وفي روما ، وحيث كانوا يحتفظون بكل
الآمال المتعلقة بالمستقبل الدينى لروسيا ، وجدوا أنه من السياسة أن يوافقوا على
أن يعاملوه على أنه ملك . وهكذا نجد أن دولة روسيا كانت تقوم بتقديم واضح
أمام رأى العام . وإن كان هذا لايعنى ، من ناحية أخرى ، أنها كانت ستحصل
لسفرائها على المكانة العامة التي كانت تدعيها لهم .

وفي بولندا ، كان من نتيجة هذا النشاط المتزايد للجيران الموسكوفيين دفع
الملكلة إلى الاحتفاظ بملاقات وثيقة مع آل هابسبورج . وينوع من الحذر ،
لم تتدخل ، في أواسط القرن ، في مسألة المجر ، رغم نداءات جان زايوليا ،
ثم نداءات أرملة ، إرياديا جاجيلون . وقام سيجموند أغسطس ، والذي
تزوج من أحد بنات ملك الرومان ، بتقديم معاهدة مع فيينا في عام ١٥٤٩ .
وسيصبح الميل صوب التماسك ذلك الوقت أحد العوامل الدائمة في سياسة بولندا .
وستجد في معارضتها جهودات فرنسا ، التي تبحث عن خصوم للامرة النموية
الحاكمة ، حتى آخر حدود أوروبا ، والتي ستكون دبلوماسيتها ، منذ عهد فرانسوا
الأول وباستمرار ، موجودة في كراكوفيا . وكذلك عند أمهر ترانسيلفانيا ،
وعند السلطان .

وفي عام ١٥٧٣ ، أصبحت يولندا مركز اهتمام أوروبا فلقد توفي سيجموند
أغسطس ، آخر أسرة جاجيلون . ولأول مرة . لن يعتبر الولاء لأسرة حاكمة
على أنه كان لتصبح مبدأ الانتخاب ، والذي كان قد دخل بشكل نهائي في التقاليد ،
والذي سيظهر التبلد إصرارا كبيرا عليه ، مادامو يقومون بدور رئيسي في
الدايت . وعندئذ تقع أولى الأزمات التي ستعز البلاد من فترة لأخرى ، وعند
وفاة كل ملك ، مثيرة بذلك أطماع القوى المجاورة ، والتي قد تؤدي إلى المساعدة
على إعلان الحرب الأهلية . وحول ذلك التاج المنشود ، كان هناك دائما الفرنسيون
والنمسيون في مواجهة بعضهم بعضا . ولما كان البابا جريجوري الثالث عشر
يرغب في الحصول على مساعدة الإمبراطور من أجل القيام بحملة صليبية ، فإنه
عمل على تأييد ترشيح أحد أبنائه . ولكن كثيرا من البولنديين كانوا معادين
للأرشيدوق : وكانوا يخشون من أن تسلم بلادهم لأسرة هابسبورج ، كما حدث
فيما مضى بالنسبة لبوهيميا والمجر . ويساعد هذا التفكير على شرح نجاح المرشح
الفرنسي ، وهو أخو شارل التاسع ، هنري صاحب فالوا ، دوق أنجو . وكان
الموسكوفيون كذلك في العملية ، ولكنهم كانوا في الصف الثاني . وكان مؤتمر
ستينن ، ولقد رأينا ذلك عند شرحنا لمشكلة بحر البلطيق ، قد رغب في جعلهم
يدفعون ثمن العنف الذي قاموا به تجاه الفرنسيين ، والمعتبرين بأنهم مقدمة الحضارة
المسيحية ، وهو العنف الذي جعل أوروبا تأخذ منهم موقفا . فتم نتيجة لذلك
ترشيح فيدور ، ابن إيران الرهيب ، ولكن هذا الترشيح لم يجد له مؤيدين
في الدايت .

أما الفرنسي ، والذي انتخب في ١١ مايو ١٥٧٣ فإنه وصل إلى يولندا دون
حماش في شهر يناير التالي . ولم يبق هناك سوى فترة خمسة أشهر . وما أن علم
ب وفاة أخيه الأكبر ، شارل التاسع ، حتى هرب لكي يذهب ويستلم ميراثه .

وتخلى عن المملكة ، دون أن يتخلى عن التاج . وأعتقد أن في وسعه أن يحكم من بعيد ، وأن يعمل ، بمحبة الحزب القوي ، في أن يحصل على تصريح بذلك من الداي . وتناقش البولنديون ، وتخاصموا بشأنه لفترة تزيد على العام . وأخيرا إنتصر خصومه . وأعلن أن العرش خاوي ، وقرروا إجراء إنتخابات جديدة . وقامت أسرة هايسبورج ، مرة ثانية ، بأخذ مواقعها . وكان غياب فرنسا يريد من فرص نجاحها . وكان الامبراطور مكسميليان الثاني نفسه مرشحا . وحاول التفاوض مع موسكو . وأخذ إيوان في المساومة : فكان يوافق على أن يترك يحكم في كراكوفيا ، أو على الأقل أن يعين أرشيدوقا هناك ، ولكن بشرط أن يذهب ابنه فيدور ، لكي يحكم في فيلنا وبدا هذا الحل لمسألة ليتوانيا مغريا ، مادامت السياسة البولندية تكون نصحتم بشكل نهائي . ومنذ أن كان قد تم التوقيع على إتفاقة بين البولنديين والليتوانيين ، في دايك لوبلين في عام ١٥٦٩ (اتحاد لوبلين) فإن الدولتين لن يكون لهما ملك واحد فقط ، بل سيكونان «جمهورية مشتركة» ، ولها دايك واحد . وفي أثناء ذلك الوقت لم يتم الاتفاق النمسي الروسي . وفشلت التفاوض في فرض مرشحها ، رغم الإستثناءات العديدة التي تمت في صالحها ، وبعد تطورات طويلة ، وبداية حرب أهلية كان المنتصر هو منافس ثالث ، إتيين باتوري ، أمير ترانسيلفانيا والذي كانت الدبلوماسية النمساوية تؤيده علنا : ويزواجه بآنا بلاجيون ، أخت سيجموند أغسطس ، أعاد باتوري العلاقات الأسرية المقطوعة . وفي إمارته في ترانسيلفانيا ، كان قد خلد منذ بعض الوقت جان سيجموند زابوليا : وسيضع أحد أخواه بدلا منه هناك .

ولقد عمل كل من الروس والنمسيين على الاحتفاظ له بلقب التابع والخاضع للسلاطان ، ولكن باتوري أظهر أنه ملكا كبيرا . ونجح في أثناء حكمه لمدة عشر

سنوات (١٤٧٦ - ١٥٨٦) على أن يصل بالقوة العسكرية لبولندا إلى مستوى لم تكن قد وصلت إليه من قبل . وكان في وسع جيرانه أن يتأكدوا من أن وقت تقسيم بولندا لم يكن قد حان بعد . ومنذ وصوله إلى الحكم ، استعد الملك الجديد للحرب ضد إيرلان الرهيب ، الذي كان قد قلم بعقد تحالف منه مع الإمبراطور . وكان يرغب أشد الرغبة في أن يوثق صلاته بجمان الثالث ، ملك السويد ، الذي كان مهتما مثله بطرد الروس من سواحل بحر البلطيق . ولكنهما لم يهلا إلى تفاهم مشترك . ولذلك فإنهما سيقومان بالحرب على إنفراد ، وكل منهما لصالحه ، وكل منهما يراقب الآخر ، ويفير منه .

ولقد انهزم السويديون في أول الأمر ، ثم تمكنوا بقيادة أحد الفرنسيين المهاجرين ، وهو مولتوس دي لاجاردى ، من تحرير إستونيا ، ومن الاستيلاء على تارفا وإيفانجهورود . وتمكن ياتوروى ، في ثلاث حملات متتالية ، من أن يصل حتى أسوار برسكوف ، وحيث تبقى قواته مشغولة بمهام الحصار لفترات طويلة قبل الهجوم النهائي . وفي ذلك الوقت ، وصوب نهاية عام ١٥٨٠ اضطُر إيرلان إلى أن يتراجع باستمرار أمام البولنديين والسويديين ، وقنع بتقديم التنازلات الضرورية لكي يحصل على السلم . وكتب إلى البابا ، وأبلغه برغبته الكبرى في أن يشارك في الحملة الصليبية ، وطلب إليه أن يحرر جيوشه بفرض الصلح على خصمه ملك بولندا ، وحديق المسلمين . وقبل جريهوري الثالث عشر دور الوسيط ، محتفظا دائما بأمل خفى في العمل من أجل توحيد الكنائس . وأعطى في هذا السبيل سلطات كاملة لأحد اليسوعيين ، وهو الأب يوسفينو ، والتي كانت مواهبه اللوماسية قد برزت مع نتائج بعثته الأخيرة إلى استوكهولم : وكان الملك جان الثالث قد تعهد بين يديه في عام ١٥٧٨ بإعتناق المذهب الكاثوليكي .

ولم يكن البولنديون قد إرتاحوا أبدا للعلاقات بين روما وموسكو. ووافقوا ، وبشكل إستثنائي هذه المرة على أن يعبر مثل البابا أقاليجه أما باتوري ، والذي كان يشعر كذلك بالحاجة في السلم ، فإنه قابله في معسكر بوسكوف ، ولم يعارض في هذه المحادثات . وانعقد المؤتمر في شهر ديسمبر عام ١٥٨١ في أيام - زابولسكي ، وهي قرية صغيرة قريبة من بوسكوف . أما السويد ، فإنها لم تمثل في المؤتمر ، ونتيجة لطلب إيوان . ولقد تاضل الروس بمرارة حتى لا يتخلوا عن كل ليفونيا . ولكنهم اضطروا في آخر الأمر إلى ذلك : فكان عليهم أن يقتنعوا بالاحتفاظ بمدينة بولنسك ، تلك القلعة الأخيرة التي كان البولنديون قد إستولوها ، وبإتخاذ بوسكوف ، التي كانت لا تزال صامدة .

وكانت مدة إقام - زابولسكي قد عقدت لفترة عشر سنوات (١٥ يناير ١٥٨٢) . وبعد ذلك ، ذهب الأب بوسيفيتو إلى موسكو لكي يحصل على شكر القيصر ، ويذكره بما ينتظره العالم المسيحي منه . وإعترف إيوان مدعيا ضرورة إعادة بناء قواته المسلحة . أما فيما عدا ذلك ، فإنه إشتبك في مناقشة عامة ، وفي حضور عدد كبير من السادة ، عن أصول المذهب اليوناني ، وأولوية البابا في التقدم على غيره ، وعن بعض التقاليد الرومانية : وبطبيعة الحال لم يؤد ذلك إلى أي شيء . وتم عقد الصلح في العام التالي مع السويد . وكان هذا الصلح بالنسبة لإيران يعني التخلي : فلقد فقد إستونيا وإنجلترا .

٤ - بولندا والسويد وموسكو :

لقد توفي كل من إيوان الرهيب وإيتيين باتوري ، وهما أقوى شخصيتين إحتلتا منذ وقت طويل مسرح أوروبا الشرقية ، الواحد بعد الثاني بفترة عامين . وطرح مسألة خلافهما على العرش مشكلات ستؤثر بدرجة كبيرة على العلاقات الموجودة بين الدولتين .

وعند موت إيوآن في شهر مارس ١٥٨٤ ، طالب إبنه فيدور بالسلطة .
وكان غير قادر ، ومتخلف ، وسيحكم تحت وصاية زوج أخته ، بوردس
جودونوف . وعلاوة على ذلك لم يكن له ولها ، وأصبحت الأسرة مهددة بأن
تتخفى منه . وفي ذلك الوقت فسكر باتورى في مشروع عجيب : توحيد الأمة
الروسية مع الأمة البولندية ، والتين كانت خلافتها في صالح المسلمين ، وإعطاء
ملك واحد للدولتين ، سيكون بطبيعة الحال ، وفي هذه الظروف ، هو ملك
بولندا . وصفق الكرسي البابوي لهذا المشروع : إذ أن هذا الاتحاد سيكون في
صالح المذهب الكاثوليكي . ولكن الدعشة كانت كبهدة في موسكو . ولما كانوا
يشمرون بالضعف ، ومغفلين بنوع عام بالحصول على تحديد هدية إيام —
زابولسكى ، فإنهم لم يرفضوا المفاوضات البولندية بشكل قاطع . وحين توفي
باتورى بدوره ، فجأة ، وله من العمر ستة وخمسون عاما ، في شهر ديسمبر
١٥٨٦ ، إستحووا من المثل الذي كان قد أعطاه لى يظهر الميزات التي فتج
عن اتحاد الناخبين ، وطرح ترشيح فيدور خلفا له على بولندا .

وكان على القيصر أن يواجه وتنافسين له ، إبن ملك السويد ، الذي هو في
نفس الوقت ابن أخت آخر أمهر . من جاجيلون ، والأرشيوق مكسيميليان ،
من آل هابسبورج أخو رودولف الثاني . وهكذا ستجد أن المهران الكبار
لنولندا ، روسيا ، والسويد ، والنمسا سيتنافسون على تاجها . ولكن الشعور
القومي كان معاديا الروس بدرجة كبيرة لاتسمح لفيدور بأية فرصة . ومن
الناحية العملية ، كان التنافس عسورا بين السويديين والنموسيين . وكانت
أزمة عام ١٥٨٧ مشابهة في تطوراتها لأزمة عام ١٥٧٥ ، وأن كانت أكثر
خطورة منها . ففيا سبق لم يضطر باتورى إلى إستخدام القوة ضد منافسه ،
الأمبراطور مكسيميليان ، والذي أنهت وفاته هذا الموضوع . أما هذه المرة ، فإن

السويدي سيجموند فازا قد انتصر على منافسه النموى ، ونتيجة لتأييد جزء من المديت له . وأجبره على التخلي عن كراكوفيا ، ودفعه حتى إلى سيليزيا ، واشتبك معه في معركة حاسمه ، وأسره فيها . ونتيجة لوساطة البابا سيكست الخامس ، تم عقد إتفاق في عام ١٥٨٩ ، نص على تحرير مكسيميليان ، وعلى شرط أن يتخلى عن لقب ملك بولندا . وبعد فترة من الوقت ساعد زواج سيجموند من إحدى الأرشيذوقات على إعادة العلاقات الودية بين الدولتين .

ولقد فضل البولنديون على اتحادهم مع روسيا ، اتحادهم مع السويد . إذ أن سيجموند ، ابن الملك جان الثالث هو — كما نعلم — الوريث الشرعى لتاج السويد ؛ وكان توريثه في بولندا يعنى تدعيم ذلك المهاجر الذى يقف في وجه الاطماع الروسية في البلاد المطلة على بحر البلطيق . ولكن الأمر غير المتوقع ، هو أن هذا الملك الجديد ، الذى تربى في ظل ميادى المذهب الكاثوليكي ، سيواجه في يوم ما بصعوبات ضخمة من أجل أن يقبله رعاياه السويديون ، والذين كانوا مرتبطين بمذهبهم الجديد بنفس درجة إرتباطه بالمذهب القديم . ولقد قام بعض المؤرخين البروتستانتين بالإشارة إليه ، ودون مغالاة ، على أنه « فيليب الثانى البولندى » . وعلينا أن نفكر على أى حال ، إلى أن غيرته الدينية ، كانت بالنسبة الخارج ، مثل غيره ملك أسبانيا ، وتميل إلى عاربة مذهب الإصلاح ، أكثر من ميلها إلى عاربة الاسلام . وقام في عام ١٥٩٢ بعقد إتفاق مع العثمانيين سمح لهم ببناء كل حرية عمل في المجر . وكان والده قد توفى ؛ ووجد نفسه ملكا السويد . ومن الاتصالات الأولى ، طرحت المسألة الدينية ، وكانت تشتمل على خلافات . وعمل سيجموند على كسب الوقت ، وقام بحملة ضد الروس الذين كانوا يهددون إستونيا . ولكن البرلنديين ، الذين رأوا أن مصالحهم لا تتأثر في هذه المنطقة ، رفضوا موته . ولذلك فإنه اضطر

إلى عقد الصلح منذ عام ١٥٩٥ ، وتخل بذلك عن الأقاليم التي كانت السويد قد حصلت عليها منذ عشر سنوات وتنتج من ذلك أن زادت خطورة الازمة الداخلية ، وتحولت إلى حرب أهلية ، ونزل الملك في كالمار مع جيوشه ، ولكنه انهزم ، واضطر إلى إعادة عبور البحر في عام ١٥٩٨ . وقرر الريدسناج ضلعه وعين معه شارل وصيا على العرش . وبعد فترة سيحول شارل لقبه من وصي إلى ملك .

وكانت بداية الحكم الطويل لسيجموند الثالث في بولندا تشتمل على حادث له أهمية خاصة بالنسبة لمستقبل العلاقات مع روسيا . فالكنيسة الارثوذكسية لبولندا قررت ، وبعد مفاوضات طويلة قام بها رئيس أساقفة كييف ، أن تنضم إلى حكومة الكرسي البابوي . وتم التوقيع على عقد الاتحاد في روما عام ١٥٩٥ ، ونشر في مجمع برست في شهر أكتوبر عام ١٥٩٦ . واستزداد الخريطة العقائدية للبلاد تعقيداً بتلك المعارضة التي نشأت بين الاتحاديين وبين الانفصاليين ، وكلم من المذهب اليوناني ، وكان هؤلاء الاخرون قد ظلوا غاضبين لتلك البطورية التي كانت قد أنشئت حديثاً في موسكو ، بموافقة بطريرك القسطنطينية .

وفي خلال السنوات الأولى من القرن السابع عشر ، سخرت القوة الرومية ، وذلك في الوقت الذي مستزداد فيه قوة بولندا تأكيداً ، وتحاول أن تفرح فيه من حدودها . وسمحت الظروف بإعطاء الفرصة لسيجموند الثالث لكي يعود إلى المنبروعات العلموية التي كان ياتعمد قد فكر فيها صوب نهاية حكمه . وبدأت روسيا ، والتي كانت قد دخلت في فترة الاضطرابات ، على أنها الفرقة الأولى .

وبينما كان بوديس جودونوف يحكم ، وقد أصبح قيصراً بعد وفاة فيدور في عام ١٥٩٨ ، ظهر له أحد المنافسين ادعى أنه ابناً لإيوان ، ونجا من عملية اغتيال سابقة حاول أن يقوم بها ضده مقتصب العرش . وجاء ديمتري المزيّف ، هذا — والذي لم يكن من السهل معرفة أصله — إلى سيجسموند ، بحثاً عن التأييد . ولكي يحصل لنفسه على امكانيات نجاح أكبر ، فإنه تحول سرا إلى الكاثوليكية ، أمام أحد مندبي البابا . وبدأ في عملية استعادة امبراطوريته ، مع بعض فصائل الفرسان من المغامرين البولنديين ومن القوازق ، والتي انضم إليها بعد ذلك بعض التتار ، وكانوا يعملون في السلب والنهب . ووجبت أغلبية الروس بهذا الوديث القيصري ، والذي يمثل الاسرة الشرعية . ورغم هوائمه العسكرية ، فإنه كاد يفتصر في الوقت الذي اختفى فيه جودونوف فجأة في عام ١٦٠٥ : ودخل موسكو بين تهليل الآمال .

ولقد ظل سيجسموند ، وبكل حكمة ، بعيداً عن هذه المسألة . وبعد ذلك طالب بشمن الخدمات التي قدمها لديمتري . فطالب بالحصول على تحالفه ضد السويد ، وكذلك بالتخلي له عن الاقاليم التي كانت في الماضي تابعة للينوايا . ولكنه فقد كل فرص نجاحه حين صمم على تسميته باسم « الأمير العظيم » ، وليس باسم « القيصر الذي لايزوم » . وفي أثناء ذلك الوقت ، فقد ديمتري هيئته أمام رعاياه حين تزوج إحدى البولنديات ، وكانت كاثوليكية . وجاءت أعداد ضخمة من البولنديين مع القيصر الجديدة . للاحتفال بتتويجها . وكان وجودهم في العاصمة ، وبداية ظهور الشكوك في ثقة الملاقة الودية بين القيصر وبين البسوعيين ، كافية لتغضب الرأي العام ، وفي الإسهام في ضمان نجاح إحدى المؤامرات : فإغتالوا ديمتري في قصره يوم ٢٧ مايو ١٦٠٦ .

وكان وصول الأمير باسيلوس شويسكي ، وليس المتأمرين إلى الحكم

يتضمن معنى الوصول إلى حالة من الفوضى ستستمر لمدة سبع سنوات . وظهر أحد المنافسين بسرعة ، ولعب بدوره نفس الدور الذي كان « ديمتري الموف » قد لعبه من قبل : وتوصل إلى تحالف مع القوزاق ، الذين سيفيدون من هذه الظروف لإشباع غرائزهم في السلب والنهب . واستلم ملك بولندا من جانبه ، مفاوضات من إحدى مجموعات السادة التي وافقت على أن يكون ابنه ، لاديسلاس ملكا عليهم ولكنه كان دائما حذرا ومتوقفا . ولم يقر أى شيء في هذا الموضوع إلا في عام ١٦٠٩ . أما شويسكي فإنه اضطر ، ولكي يواجه حركة النزول ، إلى أن يلقي بنفسه بين ذراعي ملك السويد ، وحصل منه على فرقة من خمسة آلاف جندي . وبينما كان سيجسموند يحاصر سمو لنسك ، تمكن أحد قواده ، وبمساعدة القوزاق ، من أن يتنصر انتصارا حاسما على الجيش الروسي السويدي في كلوشينو في شهر يوليو ١٦١٠

وبعد أن قام الروس بزل شويسكي ، وعاد حلفاؤه إلى السويد ، أصبح الطريق مفتوحا أمام الاطلاح البولندية . وقام أحد ممثلي سيجسموند بالتوقيع مع موسكو على اتفاقية وعدت بتقديم التاج إلى لاديسلاس ، وبشرط أن يتحول إلى المذهب الأرثوذكسي . وكان هذا منطفا غير متوقع . فرفض سيجسموند التصديق عليها ؛ وكان يرغب في أن يكون ، هو نفسه ، القيصر . وفي أثناء ذلك الوقت دخلت قوات بولندية ، وكانت تصحبها من جديد بعض قوات من القوزاق ، إلى داخل مدينة موسكو . ولم تكن علاقاتهم مع الأمال جيدة لفكرة طويلا . وفي عيد النطاس ، في ربيع عام ١٦١١ ، قامت هذه القوات باستخيم كل العنف في القضاء على حركة تهديد بقيام ثورة ، واحرقوا نصف المدينة . ومنذ ذلك الوقت ، لم يكن من الممكن طرح مسألة وجود ملك بولندا . وشن الشعوب القوي ضد الغزاة ، ومنه الأعداء الدائمون . وتطور الموقف في

ضرورة تخليص موسكو، وبدأوا في تنظيم المقاومة . وحين حاول سيجسموند ، في آخر الامر أن يسيطر على الموقف ، وبميد إبنه ، أجبرته العداوة التي قابلها على أن يسرع بالعودة إلى بلاده .

وكان السويديون ، هم كذلك قد قدموا مرشحا من جبالهم ؛ هو أحد أبناء ملكهم . وكانوا قد تولوا من جديد ، وتقدموا حتى نوافجورود ، بينما كان البولنديين والقوزاق لا يزالون يسيطرون على موسكو وعندئذ ، وفي شهر يوليو عام ١٦١٣ ، اجتمع مؤتمر من ممثلين ورؤساء من جميع انحاء روسيا ، وأعلنوا اختيارهم للشاب ميخائيل رومانوف وكانت الحماية الأجنبية في الكريملين قد اضطرت إلى التسليم ، وإلى الإنسحاب . وسيعمل القيصر الجديد ، والذي سيؤسس أسرة حاكمة جديدة ، على تجميع الروس حوله ، وعلى تحرير البلاد بشكل نهائي من الغزاة .

وهكذا نجد أنه في شرق أوروبا وفي غربها ، في البحر وفي الاراضي المنخفضة . لفتت حرب لم تكن تؤدي إلى شيء ، عند بداية القرن السابع عشر ، وإنهت بهذة طوية المدى .

وكانت هناك مصالح عديدة متداخلة في منطقة حدود البحر والدولة العثمانية . وستكون أسباب العمليات الحربية ، والتي ستتسبب بدافع من رئيس وزراء عب الحرب . وبدأ في عام ١٥٩٢ بين جيوش السلطان مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) وجيوش الامبراطور رودلف الثاني (١٥٧٦-١٦١٢) . تعتمد على خريطة لتنافس بولندي نموسوى حاد في الأقاليم الدانوبية . وذلك في الوقت التي كانت البابوية تعمل فيه ، وبلاجدوى ، على تجميع مجموعة من المحالفات الكاثوليكية ضد الاسلام .

ولقد رحب البولنديون بالإقتراحات الرومانية . وأكدوا أنهم كانوا

مستعدين البدء في الحروب المقدسة ، ولكنهم كانوا يخشون من أن يتحملوا كل أعبائها ، وطلبوا بالحصول مسبقا على اشتراك اسبانيا فيها . ولكن فيليب الثاني كان مشغولا للغاية بشئون فرنسا ، وظل يطلب المهلة بعد المهلة . وتم في عام ١٥٩٦ مناقشة المسألة مرة جديدة في دوايت وارسو ، وفي حضور مندوب من البابا ، ودائما دون التوصل إلى نتيجة . ذلك أن فيليب كان يحاول في ذلك الوقت أن يقبض ثمن المعونة التي سبقدها . وكان الثمن الذي يطالب به هو تأييد البولنديين له ضد التجار وحسد الاقاليم المتحدة .

وكانت المملكة البولندية في ذلك الوقت تتم بنوع خاص بالاقاليم العداوية . وكانت في صراع أزل مع التتار الذين كانوا يهاجمون ويعززون حدودها الجنوبية الشرقية ، فأفادت من تدخل هؤلاء في البغدان ، لكي تتوغل بدورها هناك ، وتتصب أحد وجعها كأمر هناك . وسرعان ما حصل هذا الأخير على عداوة جاره ، ميخائيل الشجاع ، أمهر الافلاق ، وعميل النمسا . وسرعان ما نشبت الحرب بينها .

وفي أثناء ذلك الوقت . كانت العمليات العسكرية في المجر قد انعطفت بطريقة تتمشى مع مصالح النمساويين إبتداء من عام ١٥٩٥ ، حين قام سيجموند بالوروى ، أمير ترانسيلفانيا ، بالتخلي عن التحالف الذي كان قد أصبح تحليدا مع الهنغاريين ، وتقرب من أسرة هابسبورج ، بالمعاهدة التي تم التوقيع عليها في براغ ، وتزوج إحدى بنات عم الامبراطور . وكان الانتصار الكبير لقوات النمساوية في المجر يرجع إلى معرفة قوات باتورى لها .

وفي السنوات الأخيرة من القرن جذبت انتصارات ميشيل الشجاع (١٥٩٢ - ١٦٠١) انتباه أوروبا إلى الافلاق ، بنفس الطريقة التي كانت انتصارات لميتين الكبير ، منذ مائة عام ، قد جعلت العام يعرف اسم البغدان .

ولكى لا يمتنع لمطالب السلطان ، إدعى إنه يدفع له ديوان اسلافه ، ثم قام ميشيل
بعد ذلك بمقد تحالف مع سيجموند باتورى ، ثم بعد ذلك بقليل بإعلان
الحرب ضد المثانيين . ولقد عمل البابا كليمنت الثامن على تشجيعه ، وأقام إحدى
الصلوات في روما في عام ١٥٩٥ عند وصول الأخبار باستعادته ليوغراست ،
العاصمة ، وبأنه قام بطرد قوات الصدر الأعظم إلى ما وراء نهر الدانوب .
ولقد تدخل بعد ذلك في الشؤون الداخلية لترانسيلفانيا ، وحيث كان سيجموند
باتورى قد تنازل عن العرش ، وحيث كان أحد الأحزاب النموسية وأحد
الأحزاب المثالية مشبكين مع بعضها ، وتمكن في عام ١٥٩٩ من غزو الإمارة .
وعندئذ ، تمكن سيجموند من أن يحصل على تدخل من جانب بولندا . وكان
البولنديون يطمعون دائما في السيطرة على إقليم البندان ، وكانوا قد حاولوا استغلال
الاحداث الأخيرة في صالحهم . ولكنهم ، قبل أن يتموا تكوين جيشهم ،
شاهدوا سحق هذا الجيش . وتمكن ميشيل من أن يلقب نفسه بلقب « أمير
الافلاق » ، والبندان ، وترانسيلفانيا ، في عام ١٦٠٠ ، وبدأ بعد ذلك الحرب
ضد البولنديين ، الذين كانوا قد دخلوا إلى البندان باقتناع مع سيجموند باتورى .
ولم ينجح إلا نتيجة لمساعدة القوات الألمانية التي كان الامبراطور قد أرسلها
إليه ، ثم انتظف مع باستا ، قائد قوات الامبراطور والذي إدعى ضروره
مارسته للقيادة كاملة . وتمكن هذا الأخير من اغتياله في شهر أغسطس عام
١٦٠١ . وعندئذ عادت ترانسيلفانيا ، مؤقتا ، إقليجا مجريا ، تحت إدارة أحد
الحكام العموميين .

وعلى حدود المجر ، ظلت الحالة ، في السنوات الأولى من القرن الجديد ،
غير واضحة . وكان رودلف قد دعم جيشه بمجموعات وفرق من الفالون ،
والاسبانيين ؛ دون أن يؤدي ذلك إلى التعاون بينهم وقت العمليات . ثم أعطوا

القيادة إلى أحد الفرنسيين ، وهو دوق مير كير ، والذي كان قد احضر معه مجموعة صغيرة من المتطوعين . وهذا التدخل الفرنسي ، والذي سيشكل منه السلطان مراد الملك هنري الرابع قد قام بأعمال رائدة. ولكن مير كير توفي عام ١٦٠٢ ، وأخذ نجم الشبانين يسير مع الانتصار .

وكانت مسألة مولدافيا قد أدت إلى توتر شديد بين البولنديين وبين النمساويين ، وفشلت كل المحاولات من أجل القيام بحرب مقدسة . ومع ذلك فعين قام ملك بولندا ، الذي أصبح أرملًا ، بالتزوج من جديد من أرشيدوقة النمسية ، هي أخت زوجته ، فإن العلاقات تحسنت بين فينا وبين وارسو . وفي عام ١٦٠٥ . كانت إنجلترا جيمس الأول مشغولة بشأن مصالح تجارتها في بحر البلطيق بكسب ودبولندا ، فعملت على أن تحصل لها من حكومة القسطنطينية على شروط مقبولة . ولذلك فإن الحرب على الدانوب سوف تنتهي في زيفاء - (١١ نوفمبر ١٦٠٦) بمجرد هدنة بسيطة ، كما هي العادة . وظل السلطان يحتفظ ، فيما وراء بودا بمدينة بجران ؛ ولكنه تنازل عن الجزية التي كانت أمرة هابسبورج تدفعها له ، وكانت لهذه الفقرة الأخيرة أهمية كبرى ومدى يمد من الناحية المئوية حتى أنه كان يمكن ، رغم المظاهر ، اعتبار أن النمساويين كانوا هم المنتصرين الحقيقيين . ولقد اضطر رودلف إلى أن يترك الاستقلال الداخلي لتراتسلفاليا ينمو من جديد تحت « أمير » جديد ، هو إيتين بوشكاى ، الذى كان مجلس البلاد قد اختاره . ولكن المعاهدة التي عقدها معه في فينا ، في ٢٣ يوليو ١٦٠٦ ، احتفظت كاملة بتلك العلاقات التي كانت منذ نصف قرن توحد هذه الأمانة مع المجر الملكية .

٢ - الامبراطورية العثمانية وفتح الدول الايبوية :

في هذا القرن الذى ظل في أثنائه المذهب المسيحي يتغلب على نفقه والحروب

الدينية ، استمرت آسيا الاسلامية في تسجيل النجاح . وبعد أن كان الإسلام قد إنقر ، منذ وقت بعيد ، في الشمال الغربي لشبه الجزيرة الهندية ، وفي كشمير ، وفي البنجاب ، بدأ الآن في التوغل في الهند الصينية ، وحتى إقليم بوران الصيني . وبدأت قوة توسعه على أنها سلبية ، رغم أنه كان ، هو كذلك ، قد خضع لعمليات إنصاف داخلية . وفي مقابل التعارض بين المذهب الكاثوليكي ، والمذهب البروتستانتي ، يمكننا أن نرى ذلك العارض القديم ، ولكنه لا يزال حياً ، بين المذاهب السنية ، وبين المذاهب الشيعية . ولقد أثر ذلك بنوع خاص على مصر فارس .

وكانت دولة الشاة ، هي أم دولة نتجت عن تقسيم تلك الامبراطورية التي كان تيمور الأخرج قد أسسها في القرن الرابع عشر . وتحت حكم أسرة الصفويين ، والتي بدأت قرب عام ١٥٠٠ ، مع الشاة إسماعيل ، والتي استمرت حتى عام ١٧٢٢ ، عرفت فترة كاملة الإزدهار ، وكان الإيرانيين ، على العكس من جيرانهم الأتراك ، وهم شعب من المقاتلين وبدون ثقافة ، لهم حضارة كبيرة وقديمة ، يشعروا بشاعها كل جيرانهم . ويمكننا أن نقارن ذلك الدور الذي قامت به فارس في هذه الفترة في آسيا الوسطى ، بلغتها وبغتها ، بالدور الذي قامت به إيطاليا في عصر النهضة في أوروبا .

وكان الأتراك والإيرانيون يكرهون بعضهم ، ولا يتوقف القتال بينهم . ولقد كانوا مسلمين ، ولكنهم كانوا إخوة أعداء . وكان الأتراك يدينون بالمذهب السني ، ويعلنون أن مذهبهم هو الحق . وكانوا لا يثقون في أبناء المذهب الشيعي . وكانت الدول المسيحية تميل إلى الإقادة من مثل هذا العداء . فكما كانت فرنسا ، في عهد ملوك أسرة لافالرا تسمى إلى التحالف مع العثمانيين ، لكي تطوق بهم أسرة هابسبورج من الحلف ، كانت أسرة هابسبورج تحاول

عقد علاقات مع الإيرانيين لكي تجبر السامانيين على البقاء بدون حركة عندما ، في آسيا . ومنذ عام ١٥١٨ ، قام الملك لوى الثانى ، ملك المجر ، بالكتابة إلى الصوفى ، الشاه إسماعيل . وبعد موقعة موهاك ، طلب شارل الخامس علنا من خليفته ، الشاه تاماسب ، التدخل . ولكن المسافة كانت طويلة للغاية ، وبشكل لا يسمح بتنظيم عملية تعاون فعالة . هذا علاوة على أن السامانيين كانوا هم الأكثر قوة . وكان الشاه إسماعيل ، الذى كان قد إنهمز أمامهم في موقعة جالديران (١٥١٤) بقيادة السلطان سليم ، قد إنضطر إلى التخلي عن حوض الفرات الأوسط . وإنضطر الشاه تاماسب ، بمعاهدة أماسيا (١٥٥٥) إلى التخلي نهائياً عن الأراضي العراقية .

وبدأت حرب جديدة في عام ١٥٧٨ . وكانت المفاوضات قد جاءت في هذه المرة من إسبانيا — إسبانيا فيليب الثانى — ومن أجل عقد تحالف ضد السامانيين . ومن جانبه ، قام الشاه بإرسال سفراء إلى البابا وإلى الأمراء المسيحيين من أجل تشجيع سياسة الحروب الصليبية . ولكن الجيوش الفارسية لم تقدر على الحصول على إنتصار : فتراجعت الحدود في جورجيا وفي أذربيجان ، وجاء عقد معاهدة القسطنطينية ، في عام ١٥٩٠ لكي يقرر أمر فقد بهريز . وفي عهد الشاه عباس ، (١٥٨٧ - ١٦٢٨) ، وهو من أعظم ملوك هذه الأسرة ، أعطى كل إهتمام للجيش ، وأحضر ، من أجل إعادة تنظيمه بشكل حديث ، إثنين من الإنجليز ، هما الأخوين شيرلى ، والذان تمكنا من ادخافن صب المدافع في إيران . وأرسل أحدهم ، وهو أنتونى شيرلى ، أحد عظماء القصر ، إلى مهمة في فيينا وفي إسبانيا في عام ١٥٩٩ . ولكنهم لم يتخطوا ، من جديد ، مرحلة الكلمات الحلوة ، ورغم أن الحرب كانت قد اشتعلت من جديد على طول الحدود العثمانية الفارسية ، ورغم أنه كان في وسع الشاه أن يعلن عن إنتصارات واضحة .

وارسلت سفارة جديدة ، مع روبرت شيرلى ، إلى أوروبا ، فى أثناء عام ١٦٠٩ وكانت هذه السفارة استجابة للمفاتيحات المخلقة ، والتي كان قد تقدم بها أحد مندوبى البابا بول الخامس : وكانت نتائجها ، مثل غيرها ، غنية للإعمال . فعلى العكس مما كان فى وسع الإسيويين أن يتصوره ، تعد البابوية هى التى تسير السياسة الخارجية للدول الكبرى المسيحية .

وبينما كان الصفويون يبنون فارس الحديثة ، قام الشيعيانسون بإقامة دولة قوية فيما وراء النهر . وكان محمد شميانى ، مؤسس الأسرة الحاكمة فيها ، قد هزم حلفاء تيمور ، أو « التيموريين » ، والذين كانوا لا يزالون يحكمون فى خيافا ، فى هيرات (١٥٠٦ - ١٥٠٧) . وكانت بطلا من أبطال المذهب السنى ، ودخل فى جروب مع جاره الشاه إسماعيل ، وتوفى بعد معركة خسرها قرب ميرف ، فى عام ١٥١٠ . وكانت هناك حروب أخرى ، فى أثناء نفس القرن ، بين الأيرانيين وأزابكة ما وراء النهر . وغربت الحدود مكانها أكثر من مرة بين بحر قزوين ، وبين نهر عمور .

وكان أحد الأحداث الكبرى للقرن يتمثل فى ظهور إمبراطورية جديدة فى الهند ، وكانت من أصل أجنبى مثل الإمبراطوريات السابقة لها . فبعد أسرة أفغانية من أصل تركى ، جاءت فى عام ١٥٢٩ أسرة السلطان باير ، أحد أحفاد تيمور ، أى التيموريين ، والذى سلسه « سلطان المنول » . وورث خلفاؤه اللقب : وأصبح إسم « منول » ، فى القرب يدل على السلطان ويدل فى نفس الوقت على بلادة .

وأضى باير ، السلطان الودائى فى فرغانة ، فى التركستان ، حياته فى الحروب . ولما كان محدودا إلى الغرب بجيران أقوياء للغاية هم الصفويون

والشيمانيون ، فإنة وجه مجهوداته صوب الشرق ، وصوب الجنوب . وبدأ في أول الأمر بالسيطرة على أفغانستان ، واستقر في كابول ، في عام ١٥٠٦ . ومن هناك ، بدأ في الإعداد لنزو الهند ، والتي كانت تحكمها أسرة لودى ، والتي كانت تسمى كذلك نسبة إلى إسم قبيلة أفغانية قديمة كانت قد خرجت منها . وبعد أن عبر البنجاب ، اتفق مع أحد كبار أتباع سلطان لودى في دلهى . ونتيجة للدعمية القوية التي كان قد تمكن من تزويد جيشه بها ، حصل على إنتصار حاسم في بابليات ، في شهر أبريل ١٥٢٦ . وصرعان ما يقيم في دلهى . وبعد ذلك ، وقد حملة عسكرية استمرت لمدة ثلاثة أشهر ، تمكن من إعادة إنشاء الامبراطورية الهندية السابقة ، من الهمالايا إلى الدكن الشمالية ، ومن أفغانستان إلى البنغال . وقرب حدود المنطقة التي إعرفت بسيطرته ، أصبحت أجرا على إقامته المفضل . ولكن الهندوس ، في غالبيتهم العظمى ، لم يوافقوا بسهولة وقبلوا هؤلاء السادة الجدد . ولم تكن عملية الفتح قد تمت بعد ، في الوقت الذي توفي فيه بابر ، في عام ١٥٣٠ ، وله من العمر سبعة وأربعين عاماً .

وكاد تاريخ الامبراطورية الجديدة أن يترقف عند موت مؤسسها . ذلك أن أبنة الذى خلفه ، هزمه أمير البنغال في عام ١٥٤٠ ، وأجبره على ترك الهند ، التي لم يعد إليها بعد خمسة عشرة عاماً إلا بمساعدة الشاه تاماسب ، شاه الفرس والذي كان يحلم بالتحالف معه ضد حكام أريك ، ويحاول أن يحوله إلى المذهب الشيعى . وبعد أن عاد إلى دلهى في عام ١٥٥٥ ، توفي في السام التال وترك امبراطوريته كاملة لابنه ، السلطان أكبر .

ويعتبر أكبر (١٥٥٦ - ١٦٠٥) أحد الشخصيات الفخمة في تاريخ الهند . ولقد اخصى حياته كلها في داخل شبه الجزيرة . ومنه سيطرته على كل الاتجاهات ، صوب الشمال على كشمير ، وصوب الشرق على البنغال ، وصوب الجنوب على

جزء من مضبة الديكن حتى جودافيري ، وصوب الغرب على راجيونانا ، وكان الإستيلاء على جواجيرات ، في عام ١٥٧٢ يعطى إمبراطوريته نافذة على البحر ، ويعمله يتصل بالبرتغاليين في صورات . ولكن طموحات أكبر كانت قارية فقط . فلم يفكر في أن يمارض الآوريين في غلباتهم البحرية التي سمحت لهم باحتكار التجارة الخارجية الهند . وتبع خلفاؤه نفس السياسة ، وإن كانت صورات قد ظلت هامة بالنسبة لهذه : إذ أنها كانت الميناء الرئيسى لسفر المسلمين الحج .

وبما كانت الصراعات موجودة في جنوب غرب القارة ، عرف شرق القارة هدوءاً نسبياً .

فكانت الصين هي أكثر الدول الآسيوية ضخامة والأكثر إتساعاً والأكثر عدداً . ولكنهم لم يتحدثوا عنها كثيراً في مناطق العالم المختلفة . ذلك أنها كانت مسألة . وإذا كان هناك شعب من الشعوب يمكننا أن نقول بأنه لم يرق أبداً إلا بحروب دفاعية — وعلى الأقل في فترة التاريخ الحديث — فهو بكل تأكيد الشعب الصينى ، فنيا وراء تلك الحدود الطبيعية من الصحارى وسلاسل الجبال — والتي يؤيدها إلى الشمال الغربى ، وهى الناحية التى كانت التى مهددة أكثر من غيرها ، سور الصين العظيم ، ظل الصينيون مرتبطين بالأرض التى كانوا يروجونها منذ آلاف السنين ، ولا يطعمون فى الاراضى الموجودة لدى جيوانهم . ولم يكن رؤسائهم قد تعودوا ترك بلادهم ، إلا إذا ما كان ذلك لدفع إعتداء ، أو لضئان وضعية الدول التابعة أو الصديقة ، والتي كانت تكون حزاما حول الصين ، والى يمينها .

وكانت دولة الصين قد ظلت لفترة طويلة خاضعة لحكم المغول ، ثم حصلت على إستقلالها عند أواسط القرن الرابع عشر مع أسرة مينج ، التى ستمتد خلال

فترة تقرب من ثلاثة قرون . وتغيرت طابعاتها من نافكين إلى بكين ، وحيث كان من الأكثر سهولة حمايتها عند الجهات المتتالية القبائل المغولية المجاورة . وكانت أكثرها شراسة هي تلك القبائل التي تسكن سهل أوردو . وفي الربع الثاني من القرن كانت غاراتهم مستمرة . ووصلت في عام ١٥٥٠ إلى بكين نفسها ، وأحرقوا أحيائها الخارجية . ولم يصلوا إلى صلح دائم إلا في عام

١٥٧١ .

وتحت حكم نفس الامبراطور ، وهو الحكيم الطويل الامبراطور وأن لي (١٥٧٣ - ١٦١٩) بدأ اليسوعيون في التوغل في الصين ، وتم إستقبالهم كما ذكرنا من قبل في بلاط بكين .

ورغم ان واجهتها البحرية الطويلة ، المطلة على المحيط ، فإن الصين لم تكن دولة بحرية . وهنا أيضاً ، كما كان عليه الحال بالنسبة للحدود البرية ، كانت الصين تأخذ موقف الدفاع : فكانت تحمي قدر طاقاتها تجارتها ضد عمليات القرصنة التي كان يقوم بها اليابانيون أو بحارة ماليزيا . ومن حيث للبدا لم يكن يسمح بأي صيني بالقيام برحلات بعيدة في عرض البحر . أما التجار الذين كان الاوربيون يقابلونهم على سواحل الهند الصينية ، وسيام أو ماليزيا فانهم كانوا ، في نظر القانون مبريين . أما فيما يتعلق بالأجانب ، فانهم تروغلوا شيئاً فشيئاً في بعض موانئ الصين ، وبشرط تخضوعهم لكل نوع من إجراءات الخطر . فالدول وملة لم يكن هناك ما يمارض بحىء الاوربيين حين كانوا يظهرين في بحار الشرق الأقصى . ولكنه بعد ذلك ، ونتيجة لأعمال العنف التي مارسها أول وصل ، وهم البرتغاليون . إضطرو الصينيين إلى تغيير موقفهم بالنسبة للأجانب . ومنذ ذلك الوقت وأصبح الشياطين الأجانب ، ووبريرة القرب ، موضع جدر وخوف وحتى عدااء الصينيين .

أما اليابان فإنها كانت تعيش حروب أهلية مستمرة ، فأغقت على نفسها في عزلة في جزرها . ولم تتمكن السلطة العامة من أن تجمد القراصنة على إحترامها ، وكان جيرانها الصينيون لا يكفون عن الشكوى منهم . وكانت عملياتهم ، وإجراءات القمع التي كانت الصين تتخذها ضدهم ينتج عنها قطع العلاقات لفترات متفاوتة بين الحكومتين .

ولم تأخذ الدولة اليابانية مكانتها بين الدول إلا حينما تمكن أحد قادتها وهو هيدوشي ، في عام ١٥٨٥ من أن يستولى على السلطة ؛ وكان يتميز بالنشاط ، وبالطموح أكثر من سابقه ، وبعد أن قام بتأديب سادة الأقاليم ، ونشر السلام في أرجاء الامبراطورية ، أرسل أولى الحملات ضد كوريا في عام ١٥٩٢ . وقام سادة كوريا ، الذين كانوا يعترفون بسيادة الصين عليهم بالتوجه إلى بكين . ولقد تم بمساعدة جيش صيني إبعاد الغزاة عن سيول ، ودفعهم حتى الساحل . وكانت الحملة الثانية في عام ١٥٩٧ أقل نجاحا من الحملة الأولى . وعند وفاة هيدوشي ، فخلوا عن مشروعاته ، وسحبوا القوات اليابانية . وتم عقد الصلح في عام ١٦١٥ ، واستغفلت اليابان بميثاق فوسان .

وكان هيدوش قد فكر في إنشاء بحرية قوية . وكان قد اعتقد في أنه سيجد كل عون من جانب الأوربيين ، البرتغاليين أو الأسبانيين ، الذين كانوا يتاجرون في موانئ اليابان بكل حرية . ولكن سرعان ما خابت آماله فيهم ، فبدأ فترة من اضطهاد المسيحيين وأعدائهم . وكانت سياسته الخاصة بالتوسع بحركها دوافع تجارية بنوع خاص . وأصبح اليابانيين في ذلك الوقت على علاقات تجارية مع كل عالم الشرق الأقصى . وفي تنافس مع البرتغاليين ، وبعد ذلك مع الهولنديين ، سيقبضون في فورموزا ، ثم يجهرون سيام على أن تمنحهم تميزاً في التعامل .

وكانت الهند الصينية بنفس الطريقة مسرحا لصراعات داخلية في هذه الفترة . وكان امبراطور آنام يحكم أكثر دولها قوة . وكان مثل غيره من حكام شبه الجزيرة يدفع الجزية للصين ، والتي كانت قد قامت مرات عديدة في الماضي ، ومرة أخيرة في القرن الخامس عشر ، باحتلال البلاد وكانت يمكن اعتباره خاضعا لها ، وترسل له المراسيم التي تسمح له بممارسة السلطة . ولكن في الواقع لم يكن هناك أي شيء يحد من إستقلاله . هذا علاوة على أن البلاد كانت مزقة بالصراعات الداخلية . وفي عام ١٥٢٧ ، بنوع خاص ، مرت السلطة إلى أيدي أحد المنتصين ، الذي حكم في تونكين ، بينما استمرت الأسرة الحاكمة السابقة في الاحتفاظ بسلطانها على الأقاليم الجنوبية . ولم تنته هذه الأزمة إلا في السنوات الأخيرة من القرن . وأعادت هذه الأسرة السابقة ، وهي أسرة لي سيطرتها على البلاد . ولكن مثلهم في ذلك كان يقبه مثل أباطرة اليابان ، ولم تعد سلطانهم إلا إسميه : فتخلوا عن حقيقة السلطة إلى إحدى الشخصيات الكبيرة ، والتي بدأت كذلك في إعطاء هذه السلطة لأسرتها عن طريق الوراثة . وعلاوة على ذلك ، فقد نشأت إمارة في أقاليم الجنوب ونجحت في أن تحصل على اعتراف بإستقلالها الذاتي ، وأصبحت لها عاصمة في هوي ، بينما ظلت الأسرة الحاكمة ، ويدعون سلطة ، تحكم في هانوي . وفي خلال كل هذه الفترة لم يكن للدوربين اتصالات كبيرة مع أهالي الهند الصينية . وكانت التجارة البحرية في أيدي اليابانيين . أما فيما يتعلق بأعمال التنصير ، فإن مناخ الحروب الأهلية لم يكن يسمح بالبدء فيها . ولم يظهر رجال التنصير ، اليسوعيون في الهند الصينية إلا في عام ١٦١٥ : ولاشك في أنهم كانوا ينتمون إلى نفس المجموعة التي كانت قد طردت من اليابان في العام السابق .

أما بورما ، فانها كانت تمثل مركز دولة تنومعة ، خضعت بإسم عاصمتها ،

ملكة آفا . وفي أثناء القرن السادس عشر ، أضطت هذه الدولة نفسها واجبة بحرية إلى الغرب : ولفترة طويلة سيكون هذا الجزء من البلاد هو الذى يعرفه الأوربيون . وفي منتصف القرن ، قام أبناء بورما بحروب متتالية مع جيرانهم من سيام والذين كانوا يكونون كذلك مملكة مستقلة . ولقد ظلت عاصمة سيام فى أبدي أبناء بورما لفترة تقرب من اثنتى عشرة عاما . ومثل اليابان ؛ ظلت سيام تخضع للاجانب ، يابانيين أو أوريين ، فيما يتعلق بملاقاتها الخارجية .

وفما بين آسيا الشمالية الشرقية وبين أوروبا لم تكن هناك ، فى بداية العصور الحديثة ، علاقات تجارية منتظمة عن طريق البحر . ذلك أن الطريق الذى كان

ماركوبولو قد سلكه فى القرن الثالث عشر قد أغلق بغزوات المغول .

ولم يبق هناك تقطع لإصال إلا قرب التركستان : فكانت بخارى ، وهى سوق كبير فى آسيا الوسطى ، تشهد بحسب التجار الروس أو الصينيين . وكان الأوربيون يذهبون إليها لشراء المنبر ، والذى كان يستخلص من حيوان سبيل صغير يعيش فى الشمال ، وكانت هذه المادة تحتل مكاناً هاماً فى هذه الفترة فى تركيب الأدوية فى الغرب ، وبعد أن قام الروس بطرد المغول ، أى بعد منتصف القرن ، ظهرت وزادت أهمية سوق آخر ، سوق روسى تماماً : وكان يقع على بحر قزوين ، وهند مصب نهر الفولجا ، وهو ميناء أستراخان ، والذى كان قريباً من سرائى ، المركز التجارى للمغول . وكانت تصل إلى هناك ، وبعد عبور إقليم الاستبس ، القوافل الآتية من وسط ومن شرق آسيا . وهذه الحركة التجارية بالقوافل ستفقد الكثير من أهميتها ابتداء من الوقت الذى يبدأ فيه تيار منظم للتبادل عن طريق البحر بين الصين وغرب أوروبا . ويمكننا أن نقدر أن القيشاقى ، بنوع خاص ، لم يكن يتحمل إلا بصحوبة عملية النقل على ظهور الجمال .

وللى الجنوب ، وصوب سلب بنوع خاص لم يكف طريق القوافل عبر فارس والعراق عن أن يعمل . وكانت تصل عبره إلى البحر المتوسط الحراير ، والساجيد ، والاحجار الثمينة ، آتية من فارس ، ومن التركستان أو من الهند . ومع ذلك ، فحين تشتد الحرب بين الشماليين وبين الفرس ، فإن سوق الحراير سوف يتنقل إلى الجنوب أكثر من ذلك . وأصبحت جزيرة هرمز ، في الخليج الفارسي هي مركز هذه التجارة ، وكان البرتغاليون قد إحتلوها في عام ١٥٠٦ . وبعد الحديث عن أوروبا وآسيا ، كان من الواجب علينا أن نعطي بمالا لأجزاء العالم الأخرى . ولسكننا شرحنا من قبل ، وبتطويل ، أوضاع أمريكا ، وشمال أفريقيا في أثناء الحديث عن البحر المتوسط .

وبقى أن نذكر بعض الشيء عن الدولة الافريقية ، والتي كانت ، علاوة على دول المغرب ، لها شكل الدولة المنظمة ، وهي إثيوبيا .

ولقد خرجت امبراطورية النجاشي في القرن السادس عشر من الظلال التي كانت تسكتف تاريخها أثناء المصور الوسطى . ولم تعد بالنسبة للأوربيين هي مملكة يوحنا الرابعي ، — وهو اسم لا يعرف أصله ، وربما يرجع إلى تحرير في اللغة الوطنية لكلمة تسمى السيد أو الملك . وكانت هذه الدولة تخضع لضرورة وحتمية الدفاع عن نفسها ضد جيرانها المسلمين ؛ ذلك أن الدين المسيحي كان قد دخلها في عصر جستنيان ، واستمر هناك في شكله الارثوذكسي ، ولذلك فإن كنيسة إثيوبيا كانت فرعاً من فروع الكنيسة القبطية في مصر .

وحين ظهر البرتغاليون على السواحل الشرقية الافريقية وأخذوا في مطاردة الملايين العرب على المحيط الهندي ، شعروا بأن وحدة المصالح تهرم بينهم وبين هذا الشعب المروء ، والذي يواجه عداء الشماليين ، الذين كانوا قد إحتلوا مصر .

وتم الاتصال بينهم عن طريق ميناء مصوع ، على البحر الأحمر . وتم تبادل السفارات . وفي عام ١٥٤١ ، أرسل ملك البرتغال بضعة آلاف من الرجال إلى صديقه الجديد ، النجاشي . ولكن العثمانيين إحتلوا في عام ١٥٥٧ ميناء مصوع ، فأقطعت علاقات إثيوبيا بالخارج .

ومنذ ذلك الوقت لم تعد إثيوبيا لهم سوى الكرمى الباهوى الذى كان يرغب فى إعادة المسيحيين الآخرين إلى المذهب الحقيقى ، بالنسبة له ، أى إلى إثيوبيا الكاثوليكي . وتمكن بعض اليسوعيين البرتغاليين من الوصول إلى إثيوبيا . وفي الوقت الذى إحتل فيه العثمانيون ميناء مصوع ، كانوا قد وصلوا إلى غرندار ، العاصمة . ولقد بقوا هناك لمدة ثلاثة أرباع قرن . وقرب عام ١٦٢٥ ، بدأ أن جهوداتهم قد نجحت : فرسوا فى لشبونة أحدهم بطريركا الحبشة . ولكن سرعان ما ظهرت حركة رد فعل قومية ودينية ؛ وأجبروا رجال التصوير الكاثوليك على ترك البلاد فى عام ١٦٢٣ .

افصل العاشر

العلاقات الثقافية

يصعب علينا أن نترك قرن النهضة دون أن نلقى نظرة، حتى وإن كانت سريعة، على التطور الثقافي لأوروبا ، وبخاصة فيما يتعلق بعمليات التبادل بين الأمم الرئيسية التي تتكون منها القارة . ولاشك في أنه كانت هناك وحدة ظاهرة للحياة الفكرية لعالم المسيحي في العصور الوسطى . وكانت النخبة من مختلف البلاد تستقى من نفس منبع الثقافة . وكان الأساتذة والطلاب ينتقلون من جامعة إلى جامعة أخرى . ونتيجة لاستخدام اللغة اللاتينية ، لم يكونوا يشعرون بالعزلة في أى مكان . الأمر الذي يسمح لنا بالحديث عن حياة جامعية عالمية في العصور الوسطى .

١ - الجامعات والاتجاه القومي :

وحينما قام أحد الكتاب الألمان ، عند نهاية القرن الثالث عشر ، وهو إسكندر دى رويس ، ومن أجل جعل القوى الكبرى الثلاث الموجودة في العالم في ذلك الوقت ، تعيش في وفاق فيما بينها ، اقترح أن يعطى البابوية القيادة الدينية لألمانيا الإمبراطورية . ولفرنسا المعرفة ، كان يطرح بشكل ضمني ، ومن حيث المبدأ أنه في هذه المجموعة فوق القومية والتي كان يعلم بها كل من يفكر ، يحصل التعليم ، مثله في ذلك مثل السلطة الروحية والارمنية ، على قوة دفع واحدة . وأشاد بطريقته إلى تقدم جامعة باريس الذي كان معترفا به بشكل عام من الجميع .

وبإتداء من القرن الخامس عشر أخذنا نشاهد عملية مستمرة لإدخال الاتجاه القومي في الجامعات : وهو حدث كبير ، يصاحب أو يسبق ، في ذلك التطور

العام المجتمع الأوروبي ، عملية نشأة الدول القومية الكبرى وفي كل القطاعات ، أظهرت الشعوب في أكثر الأحيان وبشكل أكثر وضوحاً عن الماضي ، الشعور ، وحتى الاعتزاز بفرديتهم ، الأمر الذي سيدهم هنا وهناك ، أمر إنضمامهم إلى عقيدة جديدة ومعارضتهم لكنيسة واحدة فيما مضى . ولم يكن في وسع الدولة في العصر الحديث أن تترك خارج سيطرتها تلك المراكز الهامة التي كان يفتأ فيها وينتشر منها الفكر . وكانت تدخل في عملية تدريسه بطريقة واضحة أو مغلقة . وعلى العكس من الماضي ، لم تكن السلطات التي تتعرف بها هناك مجرد حق حماية ، ولقد جردوا الكرمي البابوي شيئاً فشيئاً من سلطته العليا التي كان يمارسها في الماضي . واستمر هذا التطور خلال القرن السادس عشر . وكان بطبيعة الحال أكثر سرعة في البلاد التي انتشرت فيها مذاهب الإصلاح الديني . وخضعت الجامعات القديمة هناك السيطرة الكاملة للدولة ؛ ونشأت جامعات جديدة ، بتشجيع من الأمير أو من الدولة ، لكي تكون خداماً متواضعين لهم : وكانت هذه هي الحالة في جنيف ، أو في ألمانيا ، في ماربورج ، ولينغا وكونسبرج .

ونشأت ظاهرات تتماشى مع العصر الحديث . ففي عام ١٥٢٤ قام الملك سيسجموند ملك بولندا . بمنح رعاياه من الذهاب إلى الجامعات الأجنبية ، استناداً إلى خوفه من تأثرهم بالهرطقة . ونفس الإجراء أعلنه شارل الخامس في أسبانيا في عام ١٥٥٠ ؛ ولم تكن هناك استثناءات مقبولة إلا من أجل جامعة نابولي .

وكان من نتائج هذه الحركة ذات اللون القومي ، وخاصة إذا ما أخذت شكلاً عاماً ، أن تضع حدوداً تقسم أوروبا من الناحية الثقافية ، بنفس الطريقة التي أدت بها إنشاء جوارك الدولة إلى التقسيم الاقتصادي الذي حدث في العالم الأوروبي في نفس هذه الفترة . ولم يكن من السهل تغيير هذه السمات التي استمرت لمدة قرون طويلة ، فكان حب المعرفة ، والرغبة في التعلم ، أو رغبة المفكرين في

نشر أفكارهم لاتهم إلا بدون حدود ثابتة السيادة . وعلاوة على ذلك فإن اللغة اللاتينية ظلت هي لغة الثقافة وبالتالي لغة التعليم . وظل الطلبة يأتون من كل ناحية إلى تلك الجامعات ذات الاسماء الشهيرة ، أو التي تمردوا النعاب إليها في ذلك الوقت . وكانت حياة التنقل لا تزال تحتفظ بإغراءاتها أمام كل أولئك الذين أنهمو دراساتهم ، واختاروا لانفسهم العمل في مجال الآداب . ويمكننا أن نفهم هنا إلى ذلك المثل العظيم ، للمواطن العالمي ، إدزيم ، أحد كبار المفكرين في عصر النهضة . وكان يحتاج لجهود لكى يتذكر أنه ، نتيجة لميلاده في روتردام ، يمد نفسه ، كما نقول من ، جنسية هولندية . ولقد أمضى حياته في السفر ، بين الأراضي المنخفضة ، وانجلترا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وإيطاليا . وظل في كتاباته غملا لغة اللاتينية ، ولم يستخدم أى لغة حية .

ويمكننا أن نذكر مثلاً آخر ، وهو مثل ويليام بوسكيل ، العالم في الدراسات اليونانية القديمة والدراسات العبرية القديمة ، والذي قطع أوروبا الغربية مسافراً في كل اتجاه ، مدرساً وناشراً مقالاته في كل من باريس وروما والبندقية وفينا ؛ وذهب مرتين في سياحة إلى شرق البحر المتوسط باحثاً عن خطوط نادرة .

وحين أنشأ فرانسوا الأول ، على هامش جامعة باريس ، « الدراسات الملكية » ، والتي ستتحوّل فيما بعد إلى كوليغ دى فرانس ، عين لها أساتذة من داخل المملكة ومن خارجها ، في نفس الوقت . وكان بعض الاساتذة من لوكسمبورج أو من كولونيا أو تريف أو لوفان ، وكذلك من الفلمنكيين ، أو من الايطاليين ، من روما ، أو ميلانو ، أو فلورنسا . ولم تصبح كل الاماكن مشغولة بالفرنسيين إلا في الجيل الثالث أو الرابع .

وكان الانتقال ، إلى سدهيڤد مريبط ، من بلد إلى أخرى ، ومن جامعة

إلى أخرى ، بمسألة القرب أو البعد عنها فكانت ألمانيا لا يجتذب إليها مجرد جيرانها من القرب أو من الشمال . وكان هناك من الفرنسيين في جامعات ، مثل الراين ، مثل جامعة فريبورج بالنسبة للكاثوليكين ، وجامعة هيدلبرج وغيرها بالنسبة للبروتستانتين ، وفي صهر شارل التاسع عمل فقيهان شهبان ، هافرا وسوا بودوان وفرانسوا هوتمان ، الواحد بعد الآخر في تدريس القانون في مدينة إستراسبورج المحررة وفي الأراضي المنخفضة الشبالية ، حصلت جامعة ليدن ، التي أنشأت في عام ١٥٢٥ لكي تنافس جامعة لوفان . وبسرعة ، على سمعة ضخمة في العالم الذي تحول إلى مذاهب الإصلاح الدينية : وذهب إليها الكثير من الفرنسيين من أنصار كلفن . أما الإنلان ، فإن بعضهم قد خرج من بلاده لكي يتصل بالحياة اللاتينية في جامعات فرنسا وإيطاليا . وفي بداية القرن ، كانت أعدادهم كبيرة كذلك في كراكوفيا . أما فيما يتعلق بالفرنسيين فإنهم لم يظهروا إلا نادراً في أوروبا الشرقية ، ولم يكن ذلك راجعاً إلى عدم الرغبة فيهم : ذلك أن ملك بولندا ، إيتشين باتوري ، الذي أنشأ أكاديمية جديدة في كراكوفيا ، وجامعة في فيلنا ، أرسل بدون جدوى في عام ١٥٧٧ إلى أحد أساتذة الدراسات الانسانية الفرنسيين ، وهو أنطوان موريت ، والذي كان يدرس في روما منذ سنوات طويلة ؛ ويصح البابا جريجوري الثالث عشر في الاحتفاظ به في خدمته .

وهكذا كانت المبادلات مستمرة بين الأمم واستمرت الصلات الثقافية في أن تتقاطع مع بعضها باستمرار لفترة من الزمن ، وهي فترة طويلة كانت وحدة التكوين ووحدة ثقافة العليقات العليا تدعم بذلك الانجذاب العالمي صوب الانحاء الانساني الإيطالي ، أو بدوياً أقوى صوب الحضارة الإيطالية .

٢ - إيطاليا والانجاء الإيطالي :

في الوقت الذي قامت فيه القوات الأسبانية والبرتغالية بعملية غزو البحار

والقارات البعيدة، عملت إيطاليا، بقوة فكرها، على توسيع إمبراطوريتها على كل أوروبا القديمة. وليس من السهل كتابة تاريخ الفكر. وفي الغالب لا يمكن تتبع هذا المصدر بسهولة إلا في المؤلفات المتعلقة بماضى إحدى الدول بنوع خاص أو التي لها علاقة بين دولتين متجاورتين. وحتى في هذه الحالة، والفريدة من نوعها، والحاجة بإيطاليا، فإن الدراسة لم تم بعد. ولقد قام بوركهارت في كتابه الكلاسيكي بمعرض حضارة عصر النهضة في إيطاليا. ولكن أحدا لم يقدم حتى الآن على معالجة مجموع انتشار الفكر والحضارة الإيطالية في عصر النهضة.

وهذا المركز القوى للثقافة والذي كان يشع صوب كل القارة، هذه إيطاليا في القرن السادس عشر، لم يكن لها مركزا وحيدا، ولا حتى مركزا رئيسيا. مركزا في روما. ولاشك أن أحد الكراخه كتب إلى إردم في عام ١٥١٧ : وإن الكتاب يأتون مسرعين من كل ناحية إلى داخل هذه المدينة الخالدة، والتي تعتبر بالنسبة إليهم جميعاً الوطن، والمريّة، والحاجة. ولكنهم كانوا منجذبن إليها بواسطة ليون العاشر، وهو بابا مستنير، كان يضمن لهم المعاشات، والحياة الباردة، وعلى مستوى. وكان أولئك الذين ينهبون إلى إيطاليا من أجل التعلم يتوقفون في مدن أخرى، في فلورنسا، وبولونيا، وبادوا، وفرارا، وبافيا.

وكانت بادوا، تلك الجامعة الكبيرة التابعة البندقية، هي أكثر ما يجتنب الأجانب وكان ذلك يرجع للمركز الخاص الذي كانت تتمتع به جمهورية القديس مرقس، والاستقلال الذي كانت تظهره في شئون الدين، وكذلك في الشؤون الدولية. وفي مدينة البندقية، كان الاتجاه الإنساني يجد ذلك للناس الذي كان في حاجة إليه، وكان العلماء يجدون فيها كل التيسيلات التي يحتاجونها.

من أجل نشرهم النصوص القديمة . وكانت المدينة متخصصة في الطباعة . وكان آله مانوس ، الأكثر شهرة قد أحاط نفسه فيها بمجموعة من اللاجئين اليونانيين ، وأنشأ فيها مركزا كبيرا للدراسات اليونانية القديمة . ونزل فيها إرزم ضيفاً عليه في عام ١٥٠٨ . ومن بعده ، إستر إينه ، يولي مانوس ، في الاحتفاظ بنفس التأثر . وفي جامعة بادوا ، كان يتم التعبير بحرية عن كل الاتجاهات الفلسفية المختلفة . وكان اتجاه إبن رشد ، وهو الأب للفكر المتحرر ، يحتل فيها مكانة كبيرة . وإذا كان الطلبة الألمان قد ظلوا يشكلون فيها « جالية » كبيرة العدد ، ولوقت طويل ، فإن ذلك لم يكن يرجع لمجرد كون طرق أوروبا الوسطى الرئيسية تصب في سهول البندقية . بل كان يرجع بنوع خاص إلى أن الاتجاه الحر الذي كان سائداً في البندقية كان يحمي غير الكاثوليك ضد رجال الدين ، وضد حاكم التفتيش .

ولم تكن هناك بلاد أخرى مثلها ذات حضارة عالية . وتعتبر أن الدراسة في الجامعات كضرورة . فن بولندا ، كان الطلاب الشبان يقدمون إليها منذ القرن الخامس عشر . وكوبرييكوس أتى إليها ، بعد أن درس في جامعة كراكوفيا ، وأمعن فيها ثمانين سنوات ، ودرس في بعض الأوقات الرياضيات في روما . وسرعان ما تبعت الأستراتيجية كلها هذه الحركة ، تاركاً كراكوفيا لآبناء الطبقة الوسطى .

أما بولونيا ، فأنها كانت أكبر جامعة لدراسة القوانين . ولكن الاتجاه الإنساني ازدهر فيها ، كما ازدهر في كل مكان آخر ، في بداية هذا القرن وأتى إليها إرزم لكي يعمق دراساته اليونانية القديمة . وكانت « الجارية » الألمانية و « الجالية » البولندية ، و « كل منها ضخمة » ، تتخاصمون مع بعضها هناك .

وتبع المجريون المثل الذى اعطاه لهم جبرائيل البولنديون ، وبخاصة حين أدت السيطرة العثمانية إلى إضعاف أو تحطيم مراكز ثقافتهم الرئيسية . وجاء الكثير منهم إلى بادوا ، وكانوا يجاورون فيها إريتين يانورى ، ملك بولندا فيما بعد . وأتى كثير من الطلبة الفرنسيين إلى بافيا ، وبخاصة بعد فرض السيطرة الفرنسية على إقليم ميلانو . أما جامعة روما ، فكان طابعها إيطاليا أكثر من غيرها . ولقى فيها مارك أنطوان موريت ، والذى احتل فيها ، وعلى التتالى كراسى عديدة ، وبعد أن كان قد قام بالتدريس فى باريس ، وفى تولوز ، وفى بادوا ، بعض الصعوبات ، سواء من جانب السلطات البابوية ، أو من جانب جمهور الطلاب .

ومن إنجلترا ، كان يأتي بعض الأفراد ، ولكن بأعداد قليلة ، وكانوا يرغبون فى تعلم اللغة اليونانية ، وفى التمكن من قرب فى المخطوطات القديمة التى كانت قد وصلت من الشرق :

أما فى فرنسا ، فإن السفر للدراسة فيها وراء البلاد قد أخذ فيها ، وبدرجة أكثر من أى مكان آخر ، شكل المودة ، وسيستمر هذا الانجذاب ، والاعجاب صوب إيطاليا وبها ، وبسكانها ، والذى كان قد بدأ فجأة بعد عام ١٤٩٤ ، طوال كل القرن السادس عشر . وسيحدث دائماً هؤلاء الوافدين عن شعب إيطاليا العليل ، والذى أمضوا معه جزءاً من سنوات شبابه . وربما يكون من المغالى فيه أن تدعى أن كل أولئك الذين ظهرت أسمائهم فى ميدان الآداب فى هذه الفترة كانوا قد ذهبوا للتزود فى إيطاليا يتابع الدراسات القديمة التى كانت قد بدأت فى التفجر من جديد ، واستمر إلى دروس أكبر الاساتذة فيها ، وعلى أى حال ، فإن القليل من بينهم هو الذى لم يتم بهذه الرحلة . وكانت هناك حركة جامعية حقيقية ، وهى التى جرت

وراءها الطليقات العليا صوب جبال الالب . وكان رجال البرلمانات يرسلون اليها ابنائهم ، وبخاصة إلى بولونيا ، لكي يحصلوا منها على درجة الدكتوراة . أما رجال المجتمع فانهم كانوا يطلبون إلى ايطاليا أن تعلم ابنائهم . علاوة على المعارف التي تفوق فيها ، في كل ما يتعلق بالركة ، ورشاقة حياة المجتمع .

وبعد أن استمرت حياة الجامعات الإيطالية لفترة طويلة تزود بمجىء الطلبة الاجانب ، ظهر عليها نوع من التقهقر في الفترة التي تلت مجمع ترانت . ذلك أن الكنيسة كانت قد اتخذت إجراءات لإبعاد كل من لم تكن عقيدته سليمة وجاء المرسوم البابوي السادس في عام ١٥٦٥ لكي يحدد المرشحين للحصول على درجة الدكتوراة ، بإجبارهم على القسم من أجل الدين . وبعد ذلك ، إمتنع الالمان عن الحضور ، ولكن الفرنسيين لم يتخلوا إلا ببطء عن تلك العادة التي كانت قد أصبحت حقيقة في تقاليدهم . وتمكن مونتسين ، أثناء رحلته في عام ١٥٨١ ، من أن يحصى ما يقرب من المائتين بينهم في بادوا .

وأخذ سبب إيطاليا في ذلك القرن مظهراً جديداً . ففي أحيابهم بهذه الأمة المختارة ، أخذت الأمم الأخرى في أن تبحث فيها ، وبين علمائها ورجال حرفها وفنانيها ، عن مرشدين لها ، وأمثلة عليا أمامها . ونسرف أن شارل الثامن ، ولوى الثاني عشر ، قد قاما ، بعد حملاتهم العسكرية إلى إيطاليا ، باحضار اعداد من الفنيين والفنانين ، والفاسجين ، وصانعي الفخار ، والرصاصين ، والمثاليين ، وصانعي الصنوع ، المهتممين ، والمعلمين ، وكذلك بعض العلماء ، مثل لاسكاريس ، والذي من أصل يوناني ، وأحد كبار علماء الدراسات اليونانية القديمة في هذه الفترة — أحضروهم معهم إلى فرنسا . وتمتع عملية غزو من نفس النوع في عام ١٥١٥ . وبعد حملة ماريفيان . أما فرانسوا الأول ، فإنه قبل أن يلتقي ميكانا لعلماء الرياضيات الإسبانية الإيطاليين ، كابرانزا ، بين الإيطاليين

الملكيين في عام ١٥٢٠ ، فإنه اختار أحدهم ، وهو تالياكارنو ، لكي يشرف على تعليم وتربيته أبنائه .

وجاءت الطلبات والتداعيات من كل مكان إلى الإيطاليين ، من أجل تعلم الآداب القديمة ، وبزوع خاص من أجل تعلم القانون : وجاءت من كراكوفيا وهيدلبرج وفي جامعة بروج ، كان هناك علماء من ميلانو وكذلك في أكسفورد ، كان هناك علماء من ييروجا ، عملوا على تدريس القانون الدولي العام .

وكانوا يطلبون بعد رجال القانون ورجال العمارة ، الأطباء الإيطاليين ، وكان هناك أحدهم كمطبيب شخصي لفرانسوا الأول . وفي النصف الثاني من القرن كان هؤلاء الأطباء الإيطاليين موجودين في فينا ، في بلاط الإمبراطور رودلف ، وفي كراكوفيا قرب ايتيين باتوري ، وحتى في موسكو ، في خدمة يوريس جودونوف .

وساعدت إحدى الظروف الطارئة على زيادة التأثر الإيطالي في بولندا ، وكان ذلك يتم في زواج الملك سيجموند في عام ١٥١٨ من بونا سفورزا أبنه دوق ميلانو . ووصلت الملكة الجديدة معها عدد كبير من أبناء بلادها ، سرعان ما أعطى تأثيره على البلاط . وحصل ابنها ، سيجموند أغسطس بعد ذلك ، على تعليم إيطالي أكثر من كونه بولندي ، وساعد تسامح سيجموند على أن يجذب إلى مملكته الإيطاليين الذين كانوا قد اضطروا إلى ترك بلادهم لاعتقادهم فيما يتعارض مع فكرة الثلاث المقدس . وكانت من بينهم رجال الدراسات الإنسانية ، وبعض الأطباء ، علاوة على بعض أنصار كلتن .

أما في نطاق الأدب ، فلقد اتسم في كل مكان أمر تقليد أشكال وطرق الإيطاليين ، أي « الاتجاه الإيطالي » ، وعلينا أن نذكر هنا أيضا ، وقبل غيره ،

ما حدث في فرنسا . فأصبح بترارك هو المثل الذي ليس له نظير أمام أعين الشعراء . وأخذوا في تقليده ، أو في تقليد أولئك الذين كانوا قد جاءوا في إيطاليا من بعده . وكذلك تأثير الكتاب . وحلّت الكوميديا الادبية الإيطالية في بداية القرن إعجاب الفرنسيين . واستقدمت كاترين دي ميديسيس فرقة مسرحية إيطالية ، وقدمتها في البلاط ابتداء من عام ١٥٧٤ . وإذا كانت الكوميديا الادبية قد ظلت بالنسبة لفرنسا مادة مستوردة ، فإن أنواعاً أخرى قريبة منها أتت في نفس الفترة من إيطاليا ، وترجمت ، أو إقتبس منها ، وأسهم ذلك في عملية تجديد المسرح الكوميدي ، وكذلك تأثرت فرنسا بعملية إحياء الفلسفة القديمة ، وبخاصة دراسة فلسفة أفلاطون من جديد ؛ وتأثر العقلايون الفرنسيون الأول بمدرسة بادوا الفلسفية . أما فيما يتعلق بمكيافيلي ، وهو أشهر الإيطاليين في عصر النهضة ، فإن سمعته كانت مكروهة لفترة طويلة في فرنسا : إذ أنه كان يتآمر على القوانين الإلهية ، ويعمل على إفساد الأمراء . ولذلك فإنه لا يمكننا أن أن نسب إليه أى تأثير حقيقى إلا في القرن السابع عشر ، على الأقل .

أما إسبانيا ، فقد كان لها ، هي كذلك اتجاهاتها المحبة لإيطاليا ، في نفس الفترة الذي كان هذا الاتجاه موجوداً فيه في فرنسا . وكان كثير من الأسبانيين قد أمضوا بعض الوقت ، القصير أو الطويل ، في إيطاليا ، وبخاصة في نابولي . وكان من بينهم المؤلفين المسرحيين ، والشعراء ، وغيرهم .

أما الكتاب الانجليز فأنهم تأثروا بدوّة أقل من غيرهم بهذا التأثير الإيطالى . وكانوا يحتاجون في أول الأمر إلى أن يتصلوا بالمؤلفات الكبرى القديمة . ومنذ عصر هنرى الثامن ، كان هناك معجبين كثيرين بفرجيل ، وبترارك . وفى النصف الثانى من القرن ، لاذهر نوع من الشعر الغنائى ظهرت فيه عملية تقليد كل من بترارك

وفرجيل في نفس الوقت ، ولقي نجاحاً يفوق العادة . وفي هذا الوقت ، كانت الترجمات الإيطالية تنافس المؤلفات الوطنية. أما الطبقات العليا، فقد إنتشرت فيها العادة للقيام برحلة إلى إيطاليا ، وإقامة في فرنسا ، من أجل التمتع ؛ وأصبحت هذه العادة جزءاً من التقاليد ، واستمرت كذلك لفترة طويلة .

٣ - تأثير الحضارة الفرنسية :

كان إشباع فرنسا في أوروبا لا يقاس بالهجرة المتوقعة من تلك الحقبة الاستثنائية التي حصلت عليها إيطاليا في عصر النهضة . وكان ظهور هذا المركز الجديد قد قلل إلى حد ما من إشباع المركز الآخر . وإن كان ذلك لم يستمر إلا لفترة قصيرة . ولم تكن هناك منافسة بين الحارين ، والثقافين ، ما دامت فرنسا هي الدولة الأولى التي كانت قد بدأت في التعلم من إيطاليا .

وفي الميدان الديني ، كما هو الحال في ميادين أخرى ، إستمرت العبقريّة الفرنسية في الظهور ، وبطريقة واضحة ، وبكل قوة التوسع والإنتشار . وكان الإصلاح على مذهب كلفن ، والذي جاء بهذه الإصلاح على مذهب لوتر ، والذي يمكنه أن يبدو على أنه إبنه له ، قد فاز عليه في كل مكان كان فيه معه على تنافس . وكانت الإتهامات العامة بتوسعه وإنتشاره هي نفس الإتهامات التي كانت قد ميزت توسع وإنتشار الحضارة والفكر الفرنسي ، في كل عصر . وكانت تلقى ببطيعة الحال مقاومة أكبر في ألمانيا ، وحيث كان الإنجاء اللوثرى قد غرس بقوة لا تسهل مقاومتها لحركة نشأت في نفس الأرض ، وفي توافق مع بعض الأمناء العميقة للأمة . ومع ذلك ، فإذا كانت البلاد الألمانية ، في بحسرها ، يمكن إعتبارها على أنها تشكل جزيرة مقاومة لمذهب كلفن ، فإنها لم تكن تضع أمامه كتلة لا يمكن التوغل فيها . فبالقرب ، وعن طريق الموزيل ، تسرب إلى وادي الراين الأوسط ، وغزا البلاينبات ، والتي سيجعل منها ، بعد أواسط

القرن ، إحدى قلاع . ومن هناك ، سيعمل في أحد الأوقات على تهديد مواقع الكاثوليكية في الأسقفيات المجاورة ؛ وسيتمركز على الأقل ، وبقوة ، في دوقية كليف .

وإذا ما وضعنا الكتلة الجرمانية — مع ملحقاتها الاسكتدافية — جانباً ، فإن مذهب كلفن قد إنتشر في كل أجزاء أوروبا التي كانت آراء مذهب الإصلاح الديني قد وصلت إليها . وكان مستقبله مزدهراً بنوع خاص في البلاد المحيطة بألمانيا من الشرق ، وحيث كانت المؤثرات الجرمانية تصطدم دائماً بمقاومة تنتج عن الشعوب القوي التشيكي ، والبولندي ، أو المجرى . وتشبهت المجر بمذهب كلفن بدرجة أكثر عمقاً من البلاد السلافية . وفي الربع الثاني من القرن ؛ وفي الوقت الذي وصل فيه العثانيون ، كان لوتر هو الذي قام بنزواته أولاً . وبعد ذلك ، وفي السنوات التالية لعام ١٥٦٠ ، كف رؤساء الحركة من النهاب والبعث من الوحى في ويتنبرج ، واتجهوا صوب جنيف . وفي عام ١٥٦٩ ، قرر مجمع عام ، وكقيدة رسمية للكنيسة الجديدة ما كان قد كتبه تيودور دى بيز . وظلت ترالسلفانيا وحدها ، وحيث كانت توجد جباليات ساكسوية مهمة ، على ولائها للوتر .

وفي بلاد جان هيس ، في بوهيميا ، وجدت حركة الإصلاح الديني أيضاً مهدة تماماً . وكان إتجاه لوتر قد غرس فيها منذ وقت مبكر . ونجح في الاحتفاظ بمعظم مواقفه أمام غزو مذهب كلفن . أما في بولندا ، فإن إتجاهه قد تمرقل ، وإبتداء من منتصف القرن ، بمنافسة حركات الهرطقة التي جاءت من جنيف ، وأكثر من ذلك بالعمليات القوية للملك ، والتي كانت تستوحى من اليسوعيين .

أما في الغرب ، وفي الأراضي المنخفضة التابعة لآل هابسبورج ، فإن

الأقاليم الأكثر وقوعاً إلى الشمال قد تأثرت في أول الأمر بعملية انتشار تأثيرات لوتر فيها ، وكانت هذه التأثيرات قد تولدت إليها مع نهر الراين وكانت أفرس ، ذلك الميناء التجاري الهام ، والمسدينة ذات الحليط المنتشر من السكان ، قد أصبحت ، قبل منتصف القرن ، مركزاً من مراكز المذهب اللوثرى . ولكن ، قرب هذا الوقت ، بدأ ظهور مذهب كلفن هناك ، وكان آتياً من الجنوب . ومرزمان ما حقوق على منافسه . وقام رجال دين ، تكسروا في لوزان أو في جنيف ، بنزول البلاد من وقت لآخر وفي الوقت الذي كانت تحكم فيه ماري تيودور ، ساعدتهم المفزيون من الوقت السابق ، والذين كانوا ، في إنجلترا ، قد اختاروا مذهب كلفن ، والذين أجهرتهم حركة رد الفعل الكاثوليكي على العودة إلى بلادهم . وصوب عام ١٥٦٠ ، كان انتصار مذهب كلفن كاملاً ، بالتقريب .

وكانت إنجلترا قد اختارت مذهب إصلاح ديني من نوع معين ، فلم يكن يتبع لوتر . ولا كلفن ، وكان هو مذهب إصلاح هنري الثامن ، والذي كانت الإنجليك قد فعلت فيه قليلاً . وكانت قد دافعت عن نفسها لفترة طويلة ضد المطرقة ، مدعية أنها تكتفي بأن تكون حشقة على الكفيلة . وكانوا يتبعون أنصار لوتر ، ويعترفونهم ، حتى وفاة هنري الثامن . ثم بدأت إنجلترا ، في أثناء حكم الملك إدوارد السادس ، في الميل صوب الشكل الأكثر حارياً كالية من مذاهب الإصلاح الديني الموجودة على القارة . وكان مذهب لوتر هو الذي جعل الوحي للإجرامات التي اتخذت سنوات ١٥٤٧ - ١٥٤٩ ، وبخاصة فيما يتعلق باستخدام الله الوطية في الصلوات . وبعد ذلك ، وحين استنفذ مذهب لوتر قوة إفرامه ، استبدلوه ، وأحلوها على مذهب كلفن . ومنذ سنوات منتصف القرن ، لم تعد ويتنبرج تنافس جنيف بالنسبة للإنجليز . وفي استكتلندا كذلك ، أخذت حركة الإصلاح الديني في أول الأمر شكل مذهب لوتر ، ثم أخذت

شكل مذهب كلتن . ولكن نجاح مذهب كلتن فيها كان أكثر وبكثير من نجاحه في إنجلترا ، منذ ذلك الوقت الذي بدأ فيه جون كنوكس يلقي مواظله ، وكان قد أمضى عدة سنوات في جنيف . وعملت كنيسة اسكتلندا التي إتبع مذهب الإصلاح ، وهي الكنيسة البروتستانتية ، على أن تعلن أنها تابعة لكلتن ؛ وأخذت في تنظيم نفسها على طريقة كنيسة جنيف .

وإذا ما تركنا المشكلات الدينية جانباً ، فإننا نجد أن التأثير الثقافي واللغوي لفرنسا قد استمر في السيطرة في بلاد الشمال والشرق ، وحيث كان يمارس ، تقليدياً . حقيقة أن موجة الاتجاه القوي ، التي أصبحت حركة الإصلاح الديني في ألمانيا ، قد تسببت في حركة رد فعل ضد تغزل الأجنبي في حياة الأمة ، وفي أي من الأشكال . وحصلت الرأي العام يقف في وجه الإيطاليين ، الذين كانوا يؤيدون كنيسة روما . ولم تحصل حركة الميل إلى الاتجاه الإيطالي ، في البلاد الألمانية ، وعلى الأقل في الأقاليم التي إعتنقت مذاهب الإصلاح الديني ، على نفس الإهتمامات التي كانت قد سجلتها لنفسها في أماكن أخرى . ولكن هيئة الأدب الفرنسي ، وهنية حياة المجتمع الفرنسي ، لم تهاجم من ذلك بدوجة كبيرة . ومنذ ذلك الوقت كانت تبدأ من فرنسا ما كان الألمان يسمونه « جولة الفارس » ، وهي رحلة التعلم ولاكتساب العادات المذبذبة ، والتي أصبحت منذ ذلك الوقت ضرورية للشباب النافس في الأسر العليا ، ولذين كانوا يرغبون في أن يصبحوا من المهنيين ، وبروح ، الفرسان ، في نفس الوقت .

وكانت العناصر الجرمانية كلها — من ألمان وهولنديين واسكتلنديين — تستمر في الجئ إلى الجامعات الموجودة في حوض نهر الوار ، وحيث كانوا يحدون تعليم القانون الروماني ، والذي كان متنوعاً في باريس . وفي يودج وفي أورليان ، كانت « الجالية » الجرمانية هي الأكثر عدداً ؛ وحصلت في عهد

منرى الثاني على إمتياز ممارسة عباداتها ، بحرية ، على مذاهب الإصلاح الدينى .
وكان فى أورليان حتى بعض الأساتذة الألمان ، مثل فولمار ، الذى كان كلّفن قد
حضر دروسه . أما فى مونيخ ، فأنهم كانوا يحضرون من كل ناحية ، لكن
يتعلموا فى كلية الطب ، والى كانت من بين أكثر الكليات شهرة فى أوربا . وكان
هذا يعنى أن بلاد اللانجهوك كانت لها قوة جليها كذلك : وكان لفقهاء القانون ،
الفرنسى ، جان بودان ، تلاميذ من الألمان فى تولوز . وفى السنوات الأخيرة من
القرن ، علينا أن نشهد كذلك إلى نجاح الأكاديمية البروتستانتية فى مومور ، والى
كانت تضم عدداً من الطلاب الأتّين من الشمال .

ولم يكن الإنجليز يحضرون كثيراً إلى الجامعات الفرنسية ، منذ حرب المائة
عام . ومع ذلك ، فإن كل أولئك الذين كانوا من بينهم قد حصلوا على تعليم جيد ،
كانوا يمارسون التحدث باللغة الفرنسية . وفى بداية القرن ، كان الاتجاه نحو
الدراسات اليونانية القديمة قد عرف فى بلادهم فترة مدمره تماماً . وكان لئذ
قد تمكن ، عن طريقهم ، من التعرف على إيطاليا عام ١٤٠٠ وما بعدها . ولكن
هذه الحركة لم تستمر لوقت طويل . وسرعان ما تطلب الميل إلى المبادلات الدفلية
على الميل إلى دراسته الآداب القديمة . وحين يأخذ جورج شابمان ، عند نهاية
القرن ، فى ترجمة هومير — وللرة الأولى إلى الإنجليزية — عمل ، وينفس
الندجة التى عمل بها على الأصل ، على الترجمة الفرنسية ، لأحد رجال الدراسات
الانسانية القديمة من الهيجينوت ، جان دى سبوند .

أما مع إسكتلندا ، وحيث كانت الصداقة الفرنسية فيما مضى من التقاليد
القديمة ، كانت العلاقات الثقافية أشد قوة ، وفى كل أشكالها . فكانت هناك ،
فى جامعات أورليان ، وبورج ، وبواتيه ، ومونيخ ، دجاليات ، اسكتلندية .
وكان بعض الطلاب ، بعد حصولهم على الدرجات العلمية ، يستفيدون منها فى

نفس المكان . وكانوا بنوع عام . وفي النصف الثاني من القرن ، وحين ساد مذهب الإصلاح في اسكتلندا ، من الكاثوليك الذين ظلوا مرتبطين بمذهبهم . وظهر من بينهم عدد من الشخصيات الهامة . فقام ويليام باركلاي الذي استدعاه اليسوعيون إلى جامعتهم في موسون بتدريس القانون فيها ؛ وعند نهاية حياته احتل كرسى في جامعة آنجيه . أما آدم بلاكود فانه عمل في القضاء : وعمل أكثر من عشرين عاماً مستشاراً لمركز الإقامة في يوانية . أما الأكثر شهرة من هؤلاء الفرانكو — اسكتلنديين فهو جورج بوشنان ، والذي عرفه موتلين ، حين كان تلميذاً ، وهو أستاذ في إحدى كليات بورديو . وأمضى بعض الوقت في الجامعات البرتغالية ثم عاد إلى اسكتلندا قرب عام ١٥٦٠ ، وعمل سكرتيراً مترجماً لماري ستيوارت ، ثم قطع علاقته بها بعد مقتل داربلي . وأخذ مكانه في صف خصومها ؛ وحين هربت ، كان هو الذي تكلف بأمر تعليم الملك جيمس المقبل .

ومن بين كل الأسماء في الأدب الفرنسي في القرن السادس عشر كان إسم رونسار هو بلاشك الأكثر إنتشاراً في الخارج . وكانت طريقته الموسيقية تظهر جديدة تماماً ، وتقرى الشعر على محاسنها . وجاء المحاكين لرونسار بعد المثيبين بيترارك . وإلى جانب رونسار ، حصل بادناس ، في عصره على شهرة فائقة . وكانت قصيدته ، الأسايح ، أو ، الحلقة ، ، تحفه ، ويوحى ديني ، وعمل لأحد البرنستانيين المعتدلين ، والذي رأى فيه أبناء مذهب إحدى روائع إنتاج النبوغ الفرنسي . ولقد ترجمت أعمال بادناس وقرئت وطلق عليها في كل البلاد التي تحولت إلى مذهب الإصلاح الديني ، وبخاصة في هولندا وفي إنجلترا . ومنذ عام ١٥٨٤ وحتى عام ١٦٤٠ وصلت الطباعات الانجليزية مؤلفاته إلى ما يقرب من أربعين طبعة . ولقد استوحى ميلتون من « التليقة » ، في كتابه « الفردوس المفقود » .

أما كتاب نشر الفرنسيين ، فانهم لم يلقوا نفس النجاح في الخارج . ولم تنشر كتابات رابليه إنقشاً له قيمته في كل البلاد اللاتينية ، وحيث إنهم فيها بأنه كان يهمل الاحترام الواجب لرجال الدين ، ويساعد على نشر الهرطقة . وفي إنجلترا ، وفي ألمانيا ، ساعد نفس هذه الإجماعات على الإعجاب به ، ولكن بعد فترة من الوقت : ولما يشعر أحد بتأثيره ، ولا بتأثير موتين ، إلا في القرن السابع عشر فقط : وستترجم كتابات موتين إلى اللغة الانجليزية ، لأول مرة ، في عام ١٦٠٢ .

٤ - دور إسبانيا في الحياة الفكرية :

فيما بين إيطاليا في أوج نفوذها ، وفرنسا التي استمرت في تأكيد قوة توسعها على كل طرق الفكر ، كانت إسبانيا تأخذ شكلاً معزولاً للغاية . ومع ذلك فلم يكن في وسعها أن تدعى ، في ميادين أخرى ، تلك المكافئة التي أعطتها لها أعمال الفؤاد في العالم الجديد ، وزيادة تفوقها السياسي والعسكري ، وإخلاصها الأمثل للمذهب الكاثوليكي .

وكانت تشارك في الحياة الدولية الفكرية . ولكنها كانت تأخذ من البلاد الأخرى المجاورة لها ، أكثر مما كانت تعطيها . وكانت جامعاتها العديدة عملاء ، كلهم تقريباً من سكان شبه الجزيرة الأيبيرية ، ولم يكن التعليم فيها له قيمة عالمية . ومع ذلك فإن اسم فرانشيسكو فيتوريا معروف تماماً في كل الغرب . وكان من الدومينيكان ، واستاذ لعلوم الدين في سلامانكا من عام ١٥٢١ حتى عام ١٥٤٦ ، واستشاره شاول الخامس ، وكذلك هنري الثامن ملك إنجلترا ، في وقت حباله طلانه ، وحتى البابا ، في نفس المناسبة . ووضماً عن أنه لم يكن من فقهاء القانون ، إلا أنه جدير بأن يعتبر على أنه أحد مؤسسي القانون الدولي الحديث . وسيعمل الكتاب الإسبانيون شيئاً على أن يجعلوا عملهم مكانه ،

سيزداد أهمية حتى منتصف القرن السابع عشر ، في الأدب الأوربي - ولقول ، حتى تكون أكثر دقة ، في الآداب الغربية ، إذ أن تأثيرهم لن يصل لإسماعه ، مثل إشباع الفرنسيين والإيطاليين ، حتى الحدود للشرقية للقارة . وكان ملوساً بنوع خاص في فرنسا ، وليس بتأثير ميل عاطفي يشبه ذلك الذي فتحت حدود المملكة لكل ما كان يأتي من إيطاليا ، ولكن بسبب العلاقات الوثيقة التي تم عقدها ، في السلم وفي الحرب ، بين الأسبانيين والفرنسيين ، لجنود عملت المنافسة بين سادتهم على وضعهم في مواجهة بعضهم البعض على كل ميادين الحرب ، أو كرجال أعمال كانوا ، في فانت وفي روان ، وفي قادس وفي إشبيلية ، يتعاونون على ترويض العالم الجديد بما كان في حاجة إليه . ونشأ يار دائم من الاتصال ، نتيجة لفترة أسر فرانسوا الأول العلوية في مدريد ، في الربع الثاني من القرن ، من أحد جاني جبال البرانس ، ومع الجانب الآخر . وإزدادت معرفة اللغة القشتالية في بلاط أميرة قاروا ، وزاد عدد الكتب المترجمة . وكان ما يجذب إقباله الفرنسيين ، هو ذلك العدد من المؤلفات والكتابات ، والتي كانت تستخدم الخيال ، مثل «ديانا» لمونتايور ، و «دون ديكشوت» لسرفانتيس ، والتي بدأت في الظهور في عام ١٦٠٥ ، والتي سوف يعرفونها بعد وقت قصير في فرنسا .

ووبالمعظم أي مؤلف أسباني آخر بتلك السمعة الواسعة في الخارج ، والتي حصل عليها أنتونيو دي جينارا . ولقد ترجمت أعماله إلى الفرنسية ، وبخاصة «ساعة الأمراء» و «إحتقار البلاط» . وإلى جانب هذه المجموعة الكبيرة من محبي اللون الإيطالي ، لا يمكننا أن نجد ، إلا في أثناء القرن السابع عشر ، مجموعة واضحة من محبي الآداب الأسبانية .

وإهتمت إنجلترا ، مع بعض التأخر الزمنى ، بهذه الكتابات . وفى وقت إهتمام الإنجليز بالإيطالى ، فى عصر الملك اليزابيث ، زاد الإقبال من إسبانيا . وأصبحت لقصصها ، التى تعالج موضوعات الفروسية ، جمهوراً كبيراً . وحتى المسرح الإسباني - الدرامى والكوميدي - أسهم فى تغذية خيال شكسبير .

الباب الثالث

القرن السابع عشر

(حتى عام ١٦٦٠)

الفصل الحادى عشر

المظاهر الجديدة للسياسة وللتقاليد الدولية

بعد إنتهائنا من دراسة القرن السادس عشر ، نجد أن هناك ملاحظة يجب أن نذكرها، وأنها ستبقى لها قيمتها بالنسبة لكل الفترة التالية، وحتى الثورة الفرنسية: ذلك أنه ، رغم تقدم الفكر الإنسانى، ظلت أشكال الحكومات الموجودة فى العول المختلفة هى نفس ما كانت عليه منذ قرون عديدة . وظل دور الشخصيات التى تعطيم فرصة ميلادهم السلطة الملكية ، مقررأ وسامأ . فكانت السياسة الفرنسية فى القرن السادس عشر ، أولا وقبل كل شئ ، هى سياسة كل واحد من ملوك أسرة فالوا، الأخوين، وسياسة هنرى الرابع ، وسياسة إسبانيا هى سياسة فرديناند وإيزابيلا ، ثم سياسة شارل الخامس، وأخيرأ سياسة فيليب الثانى . وكانت رغبات الرئيس الوراثى ، وربما حتى نزواته ، هى التى تحكم إلى حد بعيد فى الأحداث . ولا شك فى أن سياسة كل دولة ، فى الخارج وكذلك فى الداخل ، كانت تشتمل على تيارات بدا لنا أنه يمكن تفسير اتجاهاتها العامة بموامل جغرافية أو سياسية ، إقتصادية أو مالية. ولا شك فى أن هذا يشتمل على عنصر وحدة، بالنسبة لأولئك على الأقل ، الذين يهتمون بالخطوط العامة. أما بالنسبة للتفاصيل، فإن الأمر يشتمل على أحداث لا يمكن فصلها عن الطموحات الشخصية ، تعمل على قطع هذا التيار، وتحويله ؛ وتقسمة ، وتحاول إطفائه فى غالب الأمر عن أنظارنا . وفى هذا التقابك المستمر للطموحات ، والأطماع ، والأنايات القومية ؛ تسد العول فى غالب الأحيان فى طرق غير متوقعة، يمكن شرح تراجعاتها بالتنوع الكبير فى المدفع التى تقرر فيها .

١- رؤساء الدول والرأى العام :

منذ الفترة التي عرفت دكتاتورية كرومويل في إنجلترا ، وفي فرنسا شبه دكتاتورية ديشيليو ، لم يعد السؤال الوحيد ، في ذلك الوقت ، يتعلق فقط بالملك والأمراء والرأىين ، ولا شك في أن رؤساء الدول من هذا النوع الجديد ، والذين وصلوا من وقت قريب إلى السلطة ، كانت تحركهم في أغلب الأحيان ، ومثلهم في ذلك مثل من أخذوا مكانهم أو ساعدوهم ، دوافع شخصية . ومع ذلك ، فإنهم أظهروا ميلا أكثر للاهتمام بالمصالح العامة للأمة التي رفعتهم إلى السلطة ، أو التي ساعدتهم على الإرتفاع . ولذلك فإنه من حقهم ، وأكثر من غيرهم أن يحصلوا على لقب مثل الرأى العام ، تلك القوة التي كانت الحكومات لم تتم بها كثيرا في الماضي ، والتي كان صوتها قد بدأ يسمع ، حتى في الشؤون الدولية . وفي القرن السادس عشر لم تكن هذه القوة قد لعبت دورا إلا في إنجلترا ، وحيث كان لها في البرلمان متراجسا شرعيا ودائما : فلم يكن في وسع هنرى الثامن أن يدفع إلى الحد الأقصى مسألة طلاقه ، إذا لم تكن ، في هذه الظروف ، سياسة - وهي الأكثر شخصية - تحظى ، وإن كان ذلك ضمنا ، ولأسباب لا تتعلق به ، بموافقة الممثلين المنتخبين للأمة .

وفي فرنسا ، لم يكن لمظاهر الرأى العام نفس قوة الإرغام فكانت السياسة الخارجية ، بنوع خاص ، ميدانا لا يمكن لمجلس طبقات الأمة أن يتأمر بالدخول كثيرا إليه ، وعلى اعتبار أنه يتم الإحتفاظ به الملك . ولقد شهدت فترة العصبية إزدهارا وانتشارا أجنب وكتابات سياسية نبعا للظروف الموجودة . ولكن الجماعات المشاركة فيها كانت تتناقش ، بنوع خاص ، إن لم يكن بشكل تام ، في نطاق الشؤون الداخلية . ومع ذلك . فإنه عند نهاية القرن ، أصبحت الصلات وثيقة بين المظاهر الخارجية والداخلية المعقدة الاسرورية التي طر حجابا أمام الأمة

وبشكل جعل ملك إسبانيا ، وكذلك سكان إقليم يارن ، يصبحون هدفًا لكتاب المقالات . ومنذ ذلك الوقت ، تم اجتياز المنطف . وسيطون دروساً ، وفي كل الميادين ، الملك ولوزرائه . ولم يعد الأجانب يحظون بمجرد محاولات كسب ودهم ، كما كان عليه الحال في الماضي . وفي هذا الشأن ستكون لسنوات ١٦٠٣ - ١٦٠٥ دلالة كبيرة ، وهي السنوات التي تميزت بالتوتر في العلاقات من جديد بين فرنسا وإسبانيا . ولقد شعروا أن المصالح الاقتصادية الكبرى - وكما تقول الآن - قد مست . وكثبت مقالات ونداءات ، بنفس حبر كتابات العصبية ، مطالبة بالانتقام والتأديب ، وتدفع إلى الحرب . وبعد عام ١٦١٠ ، شهد عصر الوصاية ، وهو عصر غليان فكري كبير ، زيادة جراءة الكتاب . ولقد سجلت دورة إلتقاد مجلس طبقات الأمة في عام ١٦١٤ ظهور مجموعة كبيرة من المقالات ، مع الأسبانيين أو معادية لهم . ومنذ ذلك الوقت ، لن تكف المجادلات التي تمس السياسة الخارجية وستكون عنيفة بنوع خاص في أثناء النصف الأول من القرن ولنفس الفترة الطويلة التي ستمتد إليها مرحلة الحروب الدينية .

ولا شك في أن هذا كان يمثل نشوء ظاهرة جديدة : استخدام المطابع في مناقشة الشؤون الدولية : لم تظهر في فرنسا وحدها . وكان الوقت قد آنى وظهرت ، فيما وراء الحدود ، أولى صفحات الأخبار الأسبوعية ، والتي أطلعت من بعيد ، عن ظهور الصحافة . وظهرت في خلال نفس العام ، ١٦٠٩ ، وعلى التوالي ، في ستراسبورج ، وفي أوجزبورج ، وفي أمستردام : الأمر الذي كان يتضمن أن الجمهور الذي كان قلقاً من التطورات الممكنة اللازمة المطروحة بشأن حكم كايف أو جولير ، والذي كان حريصاً على أن يعلم أخبارهما ، كان يعتمداً لمساعدة هذه المواقف من جانب أولئك الذين كانوا يودون به بأخبارهما

بانتظام . ولقى هذا العمل الجديد نجاحاً كبيراً ، وإنشتر بسرعة إلى مدن أخرى في ألمانيا وفي الأراضي المنخفضة . ولم تتبع العواصم الكبرى هذه الحركة إلا مع بعض التأخر : فلم تحصل لندن على الجازيت ، الخاصة بها إلا في عام ١٦٢٢ ، وباريس إلا في عام ١٦٣١ .

وأخذ تأييد الرأي العام ، وهو رأى عام غالباً ما كانت حدود فعله تستوحى من الاتجاهات القومية المكثفة للجامع ، يمارس بشكل عام ، وبدرجة أقل في اتجاه التقارب والاتحاد بين الدول ، منه في اتجاه زيادة حدة الخلافات التي كانت تضح الدول في مواجهة بعضها البعض . ولم يكن في رسمه أن يجد إقتراحات لعلاج فعال لحوادث الحرب ، التي سوف تصيب القارة ، وبقوة لم تشهدا من قبل . وكان على رجال الدولة أن يظهروا بنوعهم من أجل الشعور على مبادئ التنظيم ، والتي يكون في وسع الجميع ، وفي وسع كل فرد أن ينضم إليها ، دون أن يحاظر بتعرض مصالحه الخاصة الضرر . وكرد فعل ضد الاتجاهات التسلطية ، عملت مبادئ التوازن الدولي الكثير من التقدم في أثناء القرن السابع عشر .

ولقد رأينا أن فكرة التوازن الضروري للقوى ، بين الدول الأكثر قوة ، قد ظهرت منذ قبيل أواسط القرن السادس عشر ، وفي وقت حروب فرنسا ضد شارل الخامس . ولقد وجدت لها أنصاراً عند الجيران الأكثر قرباً من الدول المتحاربة ، وفي نفس الوقت في البندقية ، وفي إنجلترا . ولما كانت هذه الحرب قد تعددت لعدة مرات ، فإنها استمرت في إعطاء الرحي ، ولأنهى درجة يمكنه ، لسياسة البندقية ، والسياسة الانجليزية . أما بالنسبة للفرنسيين في عصر لوى الرابع عشر ، والذين شعروا بأن التفوق الذي كانوا قد فقدوه مؤقتاً في القرن السابق قد عاد إليهم من جديد ، فانهم نظروا إلى التوازن الدولي على أنه لعبة من جانب البندقية . وفي عام ١٦٤٦ ، وجد ملازمان أنف عليه أن يشكو من ذلك الإنحياز الذي أظهره الوسطاء في مونستر ، وكتب إلى

مفوضة الكونت دافو : « إن الدافع الرئيسى البنديقية فى هذا الأمر هو ربما أن تصح الأمور فى مثل هذا التوازن الذى يوجد بشكل قوى فى تفكير الجمهورية ... ، ومع ذلك ، فى فرنسا نفسها ، عرف أصحاب التفكير السليم مزايها هذا المبدأ ، فكتب يودان ، فى عصر هنرى الثالث : « إن أمن الأمراء والجمهوريةات يتوقف على ثقل متوازن للقوى ، بين الدول وبعضها ، وكتب هنرى دى رومان ، فيما نشره فى عام ١٦٣٨ : « إن من مصلحة كل الدول الأخرى ، وبشكل رئيسى ، الاحتفاظ بالتوازن ، وبشكل متساوى ، بين مائتين المملكتين الكبيرتين (إسبانيا وفرنسا) ، حتى لا تقوم الواحدة ، سواء بالسلاح ، أو بالمفاوضات ، بالتفوق أيداً على الأخرى بشكل واضح وسيتخدم ليسولا ، أحد الصحفيين الإمبراطوريين ، هذا النص فى مقاله من « دودع الدولة » ، فى عام ١٦٦٧ ، ويديره ضد فرنسا . ومنذ ذلك الوقت سيكون الشعار العام والمشارك ، ولمدة نصف قرن ، وبالنسبة لخصم المختلفين للقوة الفرنسية ، هو الاحتفاظ بالتوازن الأوروبى ضد أطماع لوى الرابع عشر صوب السيطرة .

٤ - الدول العظمى وسكانها :

ويصعب علينا تحديد الأهمية العددية السكان فى دول أوروبا المختلفة فى هذا العصر . ولكن يمكننا أن تكون ، بالنسبة للقرن السابع عشر ، على طريقة تقريبية لنفاية فقط .

ومن مقارنة الأرقام التى هى أقرب ما يكون إلى المنطق ، وإلى قسما المؤلفون الجادون ، يمكننا أن نخرج بإستنتاج مباشر ، وهو أن السهول الشرقية فى أوروبا لم يكن فيها بعد كثرة من السكان . فكانت بولندا الكبرى فى أثناء القرن السابع عشر - وبدون ليتوانيا - ربما لا تشتمل على ما يزيد على خمسة

ملايين نسمة . أما روسيا - والتي لم تكن قد إشتملت بعد إلا على جزء من أوكرانيا ومناطق الإستبس في الجنوب - فإنها لم تكن قد وصلت ، وبكل ترجيح ، إلى عشرة ملايين نسمة ، عند نهاية القرن .

ويؤدى بنا ذلك إلى الاعتراف بالاستنتاج بألوية الغرب ، وحيث كانت الدول العظمى الثلاث في ذلك الوقت تشتمل في مجموعها على ما يقرب من ثلاثين مليوناً من السكان . وكانت فرنسا ، وهى الأولى من بينها ، يرتفع عدد سكانها البالغ ثمانية عشر أو تسعة عشر مليوناً من السكان ، في عهد لوى الرابع عشر ، فوق عدد سكان أى من جيرانها . وكانت تسيطر ، ومن أهلى ، على اسبانيا وإنجلترا ، والتي كان في كل منها ما يقرب من ستة ملايين نسمة ، وكذلك على ألمانيا الإمبراطورية والأمراء ، والتي كانت تضم في مجموعها ما يقل على خمسة عشر مليون نسمة . وهكذا نجد أنه كان السيطرة الفرنسية أساساً قوياً في علاقات الأرقام والقوى : يمكننا أن نقول مسبقاً بأن أى من هذه العلاقات كانت مثبته على عريضة السكان .

٢ - حرية البحار :

لقد تعددت الحروب البحرية ، ولما كانت الدول البحرية قد أخذت في القيام بدور هام ، فإن القرون الأخيرة من العهد القديم قد اهتمت بدوجه أكبر بقوانين وقوانين البحر . ولم يكن قرن الكشوف الجغرافية الكبرى وتأسيس الإمبراطوريات الاستعمارية قد طرح في المجال القانوني مشكلة حرية البحار . وفي مواجهة إعدايات الأسبانيين والبرتغاليين للاحتفاظ بأنفسهم بطرق الوصول إلى العالم الجديد ، كانت الفرنسيون والإنجليز في بعض الحالات قد دفعوا احتجاجاتهم ، ولكن دون إستخدام حجج أخرى سوى حجج القانون العام ، أو القانون الطبيعي . وكانوا قد أظهروا غيرتهم من أصحاب الكشوف ، الذين

كانوا قد أعلنوا إدعاءاتهم بأن يمنحوا أنفسهم ، في تلك الأقاليم التي كانوا قد استولوا عليها ، مزايا استغلال الأرض وما تحت الأرض ، بل وكذلك مزايا تجارتها مع الخارج . هذا علاوة على أنه لم يحدث من قبل أن قام أى أحد بمحاولة قانون المساواة للجميع في استخدام المساحات المائية من الكرة الأرضية وكانت بعض الشعوب ، التي كانت تحب الملاحة بنوع خاص ، قد أخذت فقط من ميزات مركزها أو من تفوق أساطيلها ، لكي تنزع سلطات الاشراف على البحار المجاورة ، وتحفظ بالملاحة فيها لأبناء وطنها ، وتمنع الأجانب لدفع ضرائب ولقد تحدثنا في مكايها عن إدعاءات البنادقة على بحر الإديانك .

وبعد بداية القرن السابع عشر بقليل بدأت ، في شمال القارة ، المجادلات الأولى بشأن حرية البحار وحقوق الدول المطلة عليها . وأصبحت إنجلترا في عهد إليزابيث وجيمس الأول على التوالي في خصومات مع الدانمركيين ومع الهولنديين . وكان الدانمركيون ، كسادة على الترويج ، يدعون بممارسة حقوق السيادة على كل امتداد بحر الشمال ، الذي أعلنوا أنه كان بالنسبة إليهم ، دبحرا نرويجياً . وأظهر الصيادون الانجليز ، والذين كانوا ينهبون باستمرار إلى المياه القريبة من إسكتلندا ، وتجار الشركة الموسكوفية والذين كانت أساطيلهم تسير صوب أركانجلسك والذين كانوا قد قبلوا حتى ذلك الوقت دفع الجزية لسكوتينا ، ورغبتهم في أن يتحرروا من ذلك . وبعد بضعة سنوات ، قام الهولنديون بتقليدهم ، وأغار هؤلاء الأخيرون مبدأ حرية البحار . وكشعب من الصيادين ، كانوا قد أضهروا بتعليق عام ١٦٠٩ التي حرمت على كل الأجانب المجيء للصيد على سواحل إنجلترا — وحيث توجد الشواطئ الأكثر ثروة في الأسماك — بدون تصريح من الملك . وحوو هذا الاجراء ، وشرعيته ، مبنقاشون لعدة سنوات طويلة . أما النظرية الهولندية ، فأنها سوف تعرض

منذ عام ١٦٠٩ ، في كتاب لجروسيوس يسمى « البحر الحر » *Mare liberum* . وبعد وقت ، وفي عام ١٦٣٥ ، وبطلب من الملك شارل الأول الذي أعلن سيادة تاج إنجلترا على « البحار الأربع » التي تحيط بالأرخبيل البريطاني - « دبحار صاحب الجلالة » كما سموها في لندن - قام جون سيلدين بمعارضة وجهات نظر « البحر الحر » لجروسيوس ، بمقالاته عن « البحر المخلوق » *Mare clausum* والتي تهت منها ضجة كبيرة ، وإن كان فقهاء القانون لم ينظروا إليها إلا على أنها كتهت لكي تستخدم الظروف التي كتهت فيها .

ولم تكن إمدادات الإنجليز جديدة تماماً . وعلى الأقل فإنها لم تكن قد تأكدت من قبل أبداً بمثل هذه القوة . ولقد طرح بشكل خاص موضوع الحق في التحية الأولى في كل إتساع « البحار الأربع » التي كانت تحيط بالأرخبيل . وكانت هذه فرصة فريدة للخلقات ، ولقد إنتهزوها . وستجد أولى الحروب الانجليزية الهولندية في هذه المسألة أحد أصولها . وفي فترة لوى الرابع عشر كان عدد من الحوادث بين البحارة الفرنسيين والانجليز ، نتيجة لها - ذلك أن إمدادات البوربون كانت تعارض بطريق مباشر إمدادات أسرة ستيووات ، وبخاصة في بحر المانش . ولقد عمل ريشيليو بكل حكمة على إبعاد كل فرصة للصدام ، وذلك بإعطائه أوامره لكي تتحاشى سفن الملك مقابلة السفن البريطانية . ولكن لوى الرابع عشر لم يكن يخشى من رفع نفمة صوته ، ومنذ عام ١٦٠٢ كادت لندن وباريس ان تتخاصما بشأن هذا الموضوع . ولقد حاول الدبلوماسيون مرات عديدة ، ان يصلوا إلى وفاق على أساس معاملة المثل التامة : ولكنهم لم يصلوا أبداً إلى تفاهم . هذا علاوة على ان الإمدادات الفرنسية لم تتمكن كذلك مقبولة من جانب الاسبانين والبرتغاليين . ولذا فقد وصلوا إلى ضرورة الحرب من أجل الانتصار لهذه المبادئ : فبدا ان « هيبة الملك » كانت في الموضوع .

وجاءت لائحة عام ١٦٨٩ الكبيرة عن البحرية ، والتي ظهرت في الوقت الذي بدأت فيه حرب عصبه أو جزيرج ، مطالبة بشكل واضح أكثر من أى وقت مضى ، بأولوية العلم الفرنسي ، ليس فقط في المياه القريبة من السواحل ، ولكن في كل مكان يمكن أن توجد فيه السفن .

وقام الدائم كيون من جانبهم ، والذين كانوا يسيطرون على مفاتيح بحر البلطيق . بتقديم إدعاءات ، في بداية القرن ، بأن يحصلوا على التحية الأولى من السفن التي تبحر أمام شبه جزيرتهم . ولم يوافق جستاف أدولف على مطالبهم في هذا الشأن إلا في أثناء السنوات الأولى من حكمه .

٤ - الحدود البرية ، و « فردة » المعركة :

أما على البر ، فإن تعاليد الحرب ، كما وصفناها بالنسبة للقرن السادس عشر ، لم تقدم الكثير من التجديد . ومع ذلك ، قبلنا أن نشرح نظام مشاركات ، أو ضرائب ، أو « فردة » الحرب ، والتي كانت تفرض بالموافقة المشتركة للطرفين . وكان هذا تجديد مرتبط بهذه الفترة التاريخية . وفي فرنسا ، يبدو أن أصولها كانت تعود إلى بعض مراحل الحروب الدينية والتي كانت تميز النصف الأول للحكم لوى الثالث عشر . وإدعوا ، من هذا الجانب ومن ذلك ، أنهم كانوا يحصلون الأمانى المخلصين المدور يتحملون نفقات صراع كانوا لا يستوفون بمسؤوليتهم فيه وفي أول الأمر يلجشون إلى النهب . ثم أصبحت الاجراءات أكثر إنسانية . ولكن يتحاشوا أمر فرض غرامة تصفيه عليهم ، قامت القرى المهددة بائخاذ موقف التحرك لمقاومة مطالب العدو . فحصل الأمانى على أمان رسمى ، نظير تهديم بدفع مشاركات ، أو ضرائب ، أو « فردة » ، كانت قيمتها تتحدد مسبقاً . وحسب أقوال رؤساء الجيوش ، مرعان ماتحورات إتفاقيات الامان هذه وأصبحت وماهيات فردة . ولقد انتشر هذا التمتع في فترة حرب الثلاثين عاماً وسرعان ما-تجددها

في كل الجيوش . ونجت حكم لوى الرابع عشر مستطبق تقاليد ثابتة ، وفي أشكال قانونية ، كؤسسة فعليه من مؤسسات القانون الدولى . وفي أثناء حرب هولندا ، مثلاً ، تقابل المندوبون الفرنسيون والاسبانيون في قرية ديتز الفلمنكية الصغيرة ، الواقعة على نهر ل . وقاموا هناك — وبصوبة كبيرة ، إذ أن المؤتمر قد إمتد ، في ثلاث مراحل متتالية ، من شهر سبتمبر ١٦٧٦ إلى شهر فبراير ١٦٧٨ — بوضع تسوية تطبق على مجموع جبهة العمليات . وهذه التسوية لم تصل أبداً إلى أن نجد شكلها النهائي . ولكنها عملت على أى حال على الأقل على الإسهام في تخفيف المقاساة التى كان الأهالى يتحملونها في مناطق الحدود .

وعليها أن نشير أخيراً إلى إحدى الخصائص التى كان العثمانيون يستخدمونها ، والتي بدت على أنها كانت تفس أبناء كل بلاد شرق أوروبا . الذين كانوا على علاقة مستمرة مع الدول العثمانية . وكما أن الحرب بين المسلمين والمسيحيين كانت تمثل الحالة الدائمة للعلاقات ، فإنهم لم يحاولوا أبداً ، في استانبول ، عقدها هدات فعلية السلم ، مما طالت فترة الحروب ، فكانوا يقتنعون بمقد هدات ، كانت مدتها تختلف طولاً وقصراً تبعاً للظروف ، وكانت هذه الهدات تقطع بنفس السهولة التى كانت تعقد بها ، ودون شكليات مضايقة : فكان يمكن لذلك مجرد إعلان أو بلاع ، لا يحتاج إلى شكليات بروتوكولية عما ينص القانون الدولى على ضرورة ملاحظتها بين الدول الغربية وبعضها . وبعد مضي وقت طويل ، وفي أثناء القرن الثامن عشر فقط ، سياسير الأتراك في هذه المسألة تقاليد الدول الغربية .

الفصل الثاني عشر

المحيط وسياسات التوسع الاستعماري

بدأت الشعوب التي كانت قد إفتحت حركة التوسع فيا وراء البحار في بداية القرن السادس عشر ، وبعد قرن من الزمان ، أى في القرن السابع عشر ، على أنها قد أنهكتها غزواتها ، وعلى أنها غير قادرة على الدفاع عنها ضد المنافسين الذين ظهروا من كل مكان . وقد الإسبانيون والبرتغاليون تلك الديناميكية التي كانت قد وقعت من شأنها فيا مضى . وعلى البحار ، وفيا وراء البحار ، تركوا المكان الأول الهولنديين والإنجليز والفرنسيين .

١ - الشركات الهولندية :

كانت مشروعات الهولنديين والإنجليز والفرنسيين لها صفات مشتركة . فلم تكن السلطة العامة المركزية هي التي تتحمل نفقاتها . بل كان يكلف بها شركات خاصة ، وشركات من التجار ، وتحفظ معها بملاقات تتفاوت في قوتها تبعاً للبلاد وتبعاً للأوقات ، ولكنها كانت تتمتع ، في المجموع ، باستقلال واسع . وكانت تمارس ، طبقاً لقوانين إمتيازاتها ، تقيضاً بحقوق الدولة أو الملك ، وكان هذا أحد الميزات ، الرئيسية التي كانت تستند إليها .

وكانت جمهورية الأقاليم المتحدة ، والتي ستحدث عنها قبل غيرها هي دولة من نوع جديد ، يمكننا أن نقول أنها دولة تجارية ، إذا ما إستمرنا تغيير سبيل الذي طبقه على إنجلترا في عهد كرومويل وويليام الثالث . أو أكثر من ذلك ، وباستخدام القبط الذي جعلها مباشرة تمارس إنجلترا في ذلك الوقت ، دولة

وأسيالية ، دولة غنية ، والتي تزايد ثروتها بدون توقف . ولم تكن لها قواعد ثابتة ، إقليمية ، وديموقراطية واقتصادية ، تبني عليها تلك المنشآت الضخمة التي تسميها في الغالب بإسم « القوة » ، وكانت مساحتها بسيطة ، وأرضها منخفضة ، تمتلئ بالمياه ، وجزء منها على المستنقعات ، ولا تنتج حتى القمح اللازم لإطعام سكانها . وكانت قد فصلت بشكل نهائي عن إمتدادها الطبيعي صوب الجنوب ، عن أقاليم الفلنكيين والفالون ، والذين احتفظوا لأنفسهم وحدهم بإسم الارامنى المنخفضة ، فكان عليها أن تذهب بعيداً لكي تحضر كل ما كان ينقصها ، ليس فقط الحبوب اللازمة لحزبها اليسوى ، ولكن كذلك المواد الأولية اللازمة لبعض صناعاتها الأكثر إزدهاراً ، مثل صناعة المنسوجات والحراير . ومع ذلك ، ففي أقل من خمسين عاماً بعد ميلادها ، لعبت هذه الدولة في أوروبا ، وفي العالم ، دوراً رفيعاً تقريباً إلى مستوى أكبر جيواناتها . وسرطان ما شتمل على إثارة غيبتهم ، غيرة إجترا في أول الأمر ، ثم بسبب ذلك غيرة فرنسا . ذلك أنها ، بأهمية أساطيلها وبالذهب المكسب في خزائنها ، أصبحت على قدم المساواة معهم ، وسرطان ما تسبقهم . وفي الماضي ، كان حيد وتجارة الرنجة يمثل النشاط الرئيسى للهولنديين ، أما الآن ، وبعد أن أصبحوا خلفاء رجال الهانسا ، أصبح لهم دور الوساطة المادية بين كل البلاد المطلة على بحر البلطيق ، وبحر الشمال والمحيط الأطلسى . ومن كل مكان ، كانوا يجذبون صوب أنفسهم السلع وأنواع العملة . وأصبحت أمستردام ، أكبر موانئهم ، وفي مكنن أنفوس ، غزوا التجارة العالمية ، والمركز الإقتصادى والمالى لغرب .

ومن بين كل السلع التي كانت تصل بها السفن الهولندية ، كان الأكثر أهمية يتمثل في منتجات الشرق الأقصى ، وبخاصة التوابل ، والتي كانوا قد بدأوا في التمايل معها عند نهاية القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر . ووجدت

الجمهورية في ذلك أحد موارد رعاياها الرئيسية ، إن لم يكن أول هذه الموارد .

وفي سومطرة ظهرت أول مؤسسة هولندية في عام ١٥٩٥ ، بعيد من
الأمم كن التي كان البرتغاليون يتددون عليها . وكانت شركة الهند الشرقية تجمع
وتحت رعاية مجلس الأقاليم المتحدة . ورؤس أموال تقدمها الأقاليم المختلفة ، وكان
لها حق إحتكار تجارة الشرق الأقصى في المنطقة الواقعة إلى شرق رأس الرجاء
الصالح ، وإلى الغرب من رأس هورن ، والحق في عقد الصلح وإعلان الحرب ،
وعقد المعاهدات ، وأخيراً للقيام بعمليات إحتلال إقليمية . وأقامت كذلك ،
وبعد قليل ، في جاوة ، وحيث كان الانجليز قد سبقوها . وكان للانجليز كذلك
شركتهم الهند الشرقية : وكانوا قد نزولوا في باتام عاصمة إحدى الدول المستقلة .
وسرعان ماظهر مركز تجارى هولندى هناك إلى جوار المركز الانجليزى .
وفي هذا الوقت كانت الدولتان متحالفتان ضد إسبانيا ، فكانت مصالحهما
مشتركة ولكن سرعان ماوضع المنافسه التي لايمكن تجاهها بين تجارهما
صدافتهم على المحك . فبعد مايقرب من إثنتى عشرة عاماً ، أي في عام ١٦١٩ ،
وقع صدام أدى إلى طرد الهولنديين من باتام . وكانوا قرب نهاية مدته
السنوات الإثنتى عشر . وكان مجلس الأقاليم حريصاً للغاية على الاحتفاظ بود
الانجليز حتى لاينضغ لتقديم تنازلات أساسية . ولذلك فإنه تم التوصل .
إلى عقد إتفاق بين لندن ولاهاى ، يقسم بين الشركتين تجارة جزر التوابل .
وهكذا عاد الواقع من جديد ، وتمسكت المراكز التجارية من أن تودم . وأنشأت
بعد ذلك مراكز أخرى في ملقه ثم في سومطرة . وظلت جلوة هي للركر الأساسى
لهذا النشاط ، مع المركز التجارى الذى أنشأ في بتافيا .

وكانت السفن الأوروبية تحتاج إلى ستة أشهر على الأقل ، بقاء أحسن .

الطروف ، لكي تصل إلى الهند الشرقية . وعلى طول هذا الطريق الطويل ، والذي كان يتبع السواحل الأفريقية ، ثم يقطع المحيط الهندي ، نظم الهولنديون مراسي لهم في معظم الموانئ التي كان البرتغاليون قد احتلوها قبلهم ، وفي موانئ أخرى ، كانوا أول من وصلها من الأوروبيين . وقرب مدغشقر ، كانوا قد إستولوا منذ عام ١٥٩٨ على تلك الجزيرة التي ميسمونها جزيرة موريس ، نسبة للامبر موريس من أسرة أورانج . أما غزو سيلان ، والذي بدأ في عام ١٦٣٨ ، وباتفاق مع سيد البلاد ، فإنه لم يتم إلا في عام ١٦٥٦ . ثم سقطت ملقة في أيديهم في عام ١٦٤٠ : وكان هذا يعني ضمان الإشراف على كل العلاقات بين الصين وبين الغرب . وفي الطرف الثاني لهذه السلسلة الطويلة من المراكز التجارية ، أصبحت رأس الرجاء الصالح ، وحيث تم إنشاء أحد المراكز التجارية بواسطة اثنين من ضباط الشركة في عام ١٦٥٢ ، بدورها ، إحدى نقط الإرتكاز للدولة الهولندية .

وكانت إحدى دول آسيا التي ، مع جزر الترابيل ، تمتدب الأطماع أكثر من غيرها ، هي فارس ، التي كانت تفتح النواجا شهيدة من الحراير . وكان سوقها في أول الأمر مركزاً بشكل رئيسي في هرمز تلك الجزيرة الصغيرة التي تقع في وسط الخليج الفارسي ، والتي كان البرتغاليون يحتلون منذ عام ١٥١٥ ، وكذلك في جومبرون ، وهو ميناء مجاور انتهى على ساحل شبه الجزيرة العربية من أجل السفن الأوروبية التي كانت تمرز لانتطيلها ملجأ كافي : وأقام الفرنسيون والهولنديون والانجليز هناك ، وبدورهم ، مراكز تجارية . ومع القرن السابع عشر ، كانت سيطرة البرتغاليين تقرب من نهايتها . وفي عام ١٦١٢ قام الفرنسي بطردهم من جومبرون . وأنشئت قلعة هناك ، ويسمى ، بندر عباس ، تيمناً بإسم إنشاء عباس الكبير . وسيبدو هذا الميناء أكثر عنه ، في أي وقت مضى ، وأمام التجار ، على أنه ميناء إيران : وكان عليهم أن يدفعوا هناك ، في المستقبل لها الخضرات البحرية .

وفي هذه المسألة ، ستقوم الشركة الانجليزية الهند ، في إعطاء موعتها الشاه وبعد بضع سنوات ، حاول البرتغاليون أن يستعيدوا هرمز ، فجددت نفس اللعبة ، وكانت نتيجتها حاسمة بدوجة أكثر . وبعد أن تم طرد الغزاة الأول بشكل نهائي من هرمز ، اضطروا إلى الذهاب إلى مسقط ، عند مدخل الخليج ، وحيث بقوا حتى عام ١٦٤٩ . أما عن سوق فارس ، فإن الانجليز أخذوا بطبيعة الحال مكائهم ، وإعترف الشاه للانجليز بماقاموا به ، ومنعهم نصف دخل جمارك بندر عباس . وفي عام ١٦٢٢ تم عقد تحالف رسمي بين إنجلترا وإيران ولكن هذا التحالف تعرض لمقبات إقتصادية . ومنذ عام ١٦٢٣ ، حصل الهولنديون بدورهم على معاهدة صداقة ، مستشمل في عام ١٦٣١ ، على ميزات تجارية . وسرعان ما تحولت المنافسة الانجليزية الهولندية ، التي ظهرت هناك ، كما ظهرت على كل البحار ، في صالح الهولنديين . وسيطرون بشكل واضح على سوق فارس حتى قرب الربع الأخير من القرن ، أي حتى فترة حريمهم مع فراسا ، في عهد لوى الرابع عشر .

وفي شبه جزيرة الهند ، وبينما ظلت جوا هي المركز الرئيسي للسيطرة الرئيسية لبرتغال ، نزل الانجليز إلى سورات ، إلى الشمال منها ، في عام ١٦١٢ . وبهمم الهولنديون إلى هناك ، بعد بضع سنوات . وكانوا قد ظهروا على الساحل الشرقي ، عندنا بوليكت ، قرب مدراس ، في عام ١٦٠٩ ، قبل أن يقيموا مركزهم في هوجل ، على مصبات الجانج ، في عام ١٦٦٠ . ولم يكن الهندوس يقبلون التحصب في الشؤون الدينية ، فقابلوا الأجانب المسيحيين بالترحيب ؛ وأظهروا بينهم لإعطاء كل الحقوق لأولئك الذين كانوا قد أظهروا من البداية رغبة في الميث إلى جوارهم في سلام . وبدأ ظهور الانجليز في ذلبي منذ بداية القرن . وعلى العكس من ذلك ، وعند مداخل الصين ، لإصطلم توغل الأجانب بحد

شديد من ناحية الامالى . ولفترة من الزمن ، اعتقد الهولنديون ، الذين لم يستقدموا معهم رجال يمشات تنصهر ، أنهم سينجحون حيث كان منافسيهم قد فشلوا : فبنوا قلعة في جزيرة فورموزا في عام ١٦٣٥ : ولكنهم اضطروا إلى إخراجها في عام ١٦٦١ . واستمروا في أن يحصلوا من هناك على المنتجات التي كانوا يرغبون فيها — الحرير الخام ، والمنسوجات الحريرية ، والشاي ، — بواسطة الصينيين ، الذين كانوا ينقلون لهم هذه السلع إلى بنافيا أو إلى الفلبين . وكان النجاح أكثر وضوحاً من ذلك في اليابان : فلقد قاموا بتنظيم أحد المراكز التجارية ، وبتصريح من السلطات المحلية ، في جزيرة صنيرة قريبة من نجازاكي .

ودفعت روح المغامرة الملاحين الهولنديين إلى ما وراء جزر التوابل وبحر الصين . فذهبت حملاتهم الاستكشافية حتى السواحل الشمالية لآستراليا ، ووصلوا إلى أرخبيل ميلانيزيا ، واكتشفوا بحر رأس هورن وترك أحدهم ، وهو تاسمان ، اسمه لتاسمانيا ، التي اكتشفت في عام ١٦٤٢ .

أما البرتغاليون ، الذين تركوا غيرهم بأخذ مكائهم في بحار الشرق الأقصى ، فإنهم لم يدافعوا عن أنفسهم بطريقة أفضل عند السواحل الإفريقية ، فاستولى منافسوه الهولنديون في أول الأمر على جزيرة جوريه الصغيرة في عام ١٦١٩ ، وحيث بدأوا في تنظيم بحارة الرقيق الأسود ، ثم الرأس الأخضر وساحل الذهب . وبعد ثلاثين عاماً من ذلك ، جاء دور أنجولا ، وسان تومي ، التي سيبيدوا الحصول عليها في عام ١٦٥٩ .

وفي العالم الجديد ، ألقى المغامرون الأول في سركة التوسع الهولندي أنظارهم ، وكان قد قبل الفرنسيون والإنجليز ، على الإقليم غير المحتلة في أمريكا الشمالية . وولدت هولندا جديدة قرب مصب نهر المديسون في سنوات

١٦١٠ وما بعدها . ولكن بداياتها كانت متواضعة للغاية . ولم يبدأ ازدهارها إلا حين عادت العمليات الحربية إلى الظهور من جديد في الأراضي المنخفضة . وطبقاً لحدته السنوات الإثني عشر ، تمت الموافقة على قبول الهولنديين للمشاركة في الاحتكار التجاري لاسبانيا . وعند انتهاء فترة هذه الهدنة ، كانوا غير مستعدين للتنازل عن ذلك . وفي نفس العام ، أي في عام ١٦٢١ ، قاموا بإنشاء شركة الهند الغربية ، كان تنظيمها منقولاً عن تنظيم شركة الهند الشرقية . وفي عام ١٦٢٣ ، سحب الاستيلاء على معبات نهر الميسون بداية لتوطين الاعالي ، ونشأت مدينة نيواستردام في جزيرة مانهان . ثم قاموا بتقديم حركة التهريب ، التي كانوا يقومون بها منذ سنوات على سواحل البرازيل ، بحملات مسلحة . وكانت المراحل الأولى لعملية غزو البرازيل تتمثل ، في عام ١٦٢٥ ، في الاستيلاء على باهيا ، وفي عام ١٦٣٠ في الاستيلاء على برازابوج . وفي بضعة سنوات ، ومن بين أربعة عشر إقليماً كانت تتكون منها المستعمرة ، كانت سبعة في أيدي الهولنديين : وهكذا نشأت هولندا الجديدة في أمريكا الجنوبية .

وبدا أن مصير البرازيل سوف يسوى في فترة قصيرة ، حين جاءت أحداث أوروبا . لكي تعيد النظر في كل هذه الأمور . ذلك أن البرتغاليين ، بعد أن استعادوا استقلالهم في عام ١٦٤٠ ، حصلوا من الهولنديين ، الذين كان يهيمهم الإحتياط بوز هؤلاء الأعداء المحليين لاسبانيا ، على هدنة لمدة عشر سنوات ، وذلك في ٢٢ يونيو عام ١٦٤١ . وكانوا يأملون حتى في الحصول على تحالف . ولكن منافسيهم كانوا قد بدأوا في الاهتمام بالسياسة الإستعمارية ، ولم يكتفوا مستعدين لمقدم مثل هذا التحالف : وكان هذا هو وقت كافٍ وطويل يوقفون أثنائه غزواتهم ، إلى الشرق ، وكذلك إلى الغرب . وكانت

الهدنة كارتة بالنسبة للسيطرة الهولندية . فنقضت أعداد قوات الاحتلال ، ولتج عنها نشوب الثورات هنا وهناك ، الأمر الذى أدى إلى تحرير ، شيئاً فشيئاً ، الجزء الأكبر من البلاد ، ولم يكن من الممكن إعادة الحالة إلى ما كانت عليه ، بعد مرور فترة الهدنة ، فى عام ١٦٥١ ، إذ أن العلاقات مع إنجلترا فى أوديا كانت قد بدأت فى الفساد فمرت شئون أمريكا من المكان الأول ، وأصبحت تحتل المكان الثانى وفى عام ١٦٥٤ ، لم يعد هناك هولنديون فى البرازيل . وسجلت معاهدة لندن ، التى نتجت عن وساطة إنجلترا ، فى ٦ أغسطس ١٦٦١ ، تخليصهم عن كل إدعاءات إقليمية . واحتفظوا بأنفسهم فقط قريباً ، وفى هذه البلاد التى كانت ينفذ صاحب ، وهى بلاد جويانا ، وحيث كانوا قد أنشأوا مركز سورينام ، وفى الجزيرة المجاورة المسماة كوراساو . وسقط سورينام وكوراساو مركز التهريب النشط للغاية .

٢ - التوسع الانجليزى :

كانت بداية التوسع الانجليزى موازية لبداية التوسع الهولندى . وكانت ترجع إلى نفس الفترة وتضمن نفس الاتجاه الثانى . ولكن إذا كان الهدف الوحيد إلى الشرق وفى المحيط الهندى ، هو هدف تجارى ، فإنه إلى الغرب تفرق الاستعمار بمقتضى الحقيقة على البحث عن سلع الأمانى . فأصبحت أمريكا الشمالية أرضاً للاستيطان . ورحبت بالرجال الذين لم يعد فى وسمهم أن يعيشوا فى بلادهم ، أو الذين كانوا يعيشون فى بلادهم فى ظروف سيئة ، نتيجة لأن الأراضى تمحلت ، وكل يوم أكثر ، إلى مراعى لقطعان الخراف ، أو لأن التجمب الذى كان يحارب المستعبدات الجديدة .

ولم يوجد فى أول الأمر هناك تمارض مصالح بين الهولنديين والانجليز ، هذا علاوة على أنهم كانوا أصدقاء وحلفاء فى أوديا . وكانت أولى المعاهدات ،

وبخاصة تلك التي نشبت في عام ١٦١٥ في جاغا ، من طيبة لا تغطي نتائج دائمة . وبعد باتنام ، وحيث كانت إقامتهم ترجع إلى عام ١٦٠٣ ، أنشأ الإنجليز مركزاً تجارياً في إحدى جزر ملقة ، في أمبون ، وفي عام ١٦٢٣ ، تسبب جيرانهم الهولنديين في إشعال إحدى ثورات الأهالي ضدهم . وكان حدثاً صغيراً ، ولكنه سبب ترك آثاراً بعيدة : فلن ينس الإنجليز سرياً « مذبحه أمبون » .

وعلى سواحل الهند ، كانوا قد سبقوا الهولنديين في سورات ، ثم مازوليا تام ، في عام ١٦٣١ . وفي عام ١٦٣٤ ، قامت الشركة ، بالاتفاق مع سيد دلهي ، سلطان المغول ، بالحصول على تصريح بالتجارة في البنغال ، وحيث ظهرت هل التوال المراكز التجارية في هوجلي (١٦٤٠) ، ثم في قاسمبازار (١٦٥٨) . أما قلعة سان جورج ، وهي أصل موقع ما دراس ، فلها بنيت في عام ١٦٣٩ . وأخيراً ، جاءت بومباي ، كدولة لشارل الثاني من زوجته كاترين دي براجانس ، في عام ١٦٦١ ، لكي تضمن من قائمة المراكز الانجليزية في الهند . وبعد بضع سنوات من ذلك ، صدر قانون بالتخلي عن هذا الموقع للشركة الانجليزية نظراً دفع إيجار سنوي .

وعلى عكس الهولنديين ، حاول الإنجليز دائماً أن يستندوا إلى الحكم المحليين . فكانوا قد أسسوا مراكزهم التجارية الأولى هناك بالاتفاق مع بلاط دلهي . وكما كانوا قد حاولوا شاه الفرس على طرد البرتغاليين من هرمز ، فإن السلطان أكبر ، سيتمكن بمعاونتهم ، وبعد عشر سنوات ، من الهجوم على المراكز التجارية البرتغالية على ساحل مالابار .

وفي بداية حكم الملك جيمس الأول ، حصلت إحدى شركات الإشتياز على الحق الشامل على كل أراضي العالم الجديد . وكانت أمامها أهداف عديدة : فأولا العمل على توطين معمرين في تلك البلاد التي كانت قد سميت بإسم فرجينيا بواسطة

ذلك العدد البسيط من السكان الذى جاء إليها فى القرن السابق . ثم القيام بعملية إستطلاع للأراضى بأمل العثور فيها على المعادن الثمينة ، وأخيرا دفع الكشوف فى اتجاه الغرب ، بحثاً عن بحر صوب بحر الجنوب . ولذلك فإن المثل الإسباني كان لا يزال يشغل الأذهان . وكانت البداية ، منذ عام ١٦٠٦ ، قليلة التشجيع . وكان اختيار موقع أول مدينة ، وهى جيمس تاون ، غير موفق . فكان غرر صعى ، الأمر الذى أثر فى السكان ، ولم يجدوا شيئاً من ذلك الذى كانوا قد حضروا بحثاً عنه . ثم إكتشفوا بعد قليل ، وصوب عام ١٦١٠ ، الطباق ، والذى سيقع عن زراعته لإزدهار المستعمرة . ومنذ ذلك الوقت ، أصبح المستقبل مضموناً . وتوسعت المستعمرة ، ولم تتأخر الأيدى العاملة السوداء عن أن تصل ، لى تعمل فى الزراعة .

أما المستعمرة الثانية فكانت لها صفات مختلفة ، وهى التى سميت بإسم إنجلترا الجديدة ؛ ولقى نسب الولايات المتحدة الحالية أصول أمتهم لها . وكان مؤسسوها من المنفيين الدينيين ، من البيوريتان ، أو « المتطهرين » ؛ وكانوا قد وصلوا صوب عام ١٦٢٠ ، على السفينة « ماى فلاور » الشهيرة ، ونزلوا منها ، وبطريق الصدقة ، بعيداً إلى الشمال من فرجينيا ، وفى نقطة سوف تنشأ فيها ، فيما بعد مدينة بليموث . ولكى تمش ، انحطرت هذه المستعمرة إلى أن تتاجر فى الفراء ، وتدخل من أجل ذلك فى علاقات مع الأهالى الوطنيين ، فى منطقة البحيرات العظمى . وزاد حجمها ، فى عام ١٦٢٩ ، بإتشاء مستعمرة ماسشوسيت ثم ظهرت مستعمرات أخرى فى نفس المنطقة (بروفيدنس ، كونسيتيكيت ، نيوهافن ، ورود آيلاند) ، وذلك فى الوقت الذى ظهرت فيه إلى جوار فرجينيا مستعمرات ماريلاند ، وكارولينا ، الشمالية والجنوبية . أما الهولنديون ، فى هولندا الجديدة ، فأنهم أصبحوا محصورين ، فى ذلك الوقت ، بين مجموعة الشمال ،

وبمجموعة الجنوب .

وكذلك اجتذبت جزر المنطقة الاستوائية أنظار الانجليز . ولقد إحتلوا ، في عام ١٦٠٢ ، أرخبيل برموده ، امام سواحل فلوريدا . وفي عام ١٦٢٥ ، وحين بدأت الحرب مع إسبانيا في أوروبا ، توغلوا في مياه البحر الكاريبي (خليج المكسيك) ، وإحتلوا هناك جزيرة بارباد ، التي أصبحت القاعدة الرئيسية لعمليات قراصةهم . وإلى الشمال أكثر من ذلك ، إحتلوا كذلك عددا كبيرا من الجزر الصغيرة ، والتي لم يكن الاسبانيون قد إحتلوها . وسميت هذه المجموعة باسم جزر ليوارد ، أي «تحت الريح» . وهي تشتمل أساسا على أنفيجوا ، وسان كريستوف ، (والتي كانت جزءا منها في أيدي الفرنسيين) وبينفيس ، ومنتسرات . ولكن يزودوا هذه الجزر بالميد ، والتي تحولت إلى جزر تلتج السكر ، تأسست الشركات في الربع الثاني من القرن . وأثنى مركز تجارى ، في عام ١٦٣١ ، على ساحل جامبيا . وهو الذى سيصبح المركز الرئيسى لتجارة الرقيق ، الإنجليزية .

٣ - التوسع الفرنسى :

كانت الضرورات التي دفعت الإنجليز والهولنديين في طريق التوسع ، لا يشعر بها جيرانهم الفرنسيين . فهنا ، كانت مرسومات نانت قد ضمنت معهم الأقلية الدينيّة . ومن جانب آخر ، كانت التجارة الخارجية تشتمل على ميدان واسع ، وميدان له ميزاته ، وله امتيازاته ، نتيجة العلاقات الودية التي كانت المملكة تحتفظ بها مع العالم الاسلامى : ففي هذا المجال ، كانت المراكز التجارية في شرق البحر المتوسط تمثل بالنسبة لفرنسا ما يصادل إمبراطورية بحرية واستعمارية . ولا شك في أنه كان هناك على الخريطة ، ومنذ وقت طويل ، وعند مصبات نهر بيان لوران ، «فرنسا الجديدة» ، كانت مجرودات شابلان قد

أعطتها الحياة . ولكن ، فيما هذا موافق المحيط الأطلسي ، كان هناك القليل من الناس الذين يهتمون بها ، أو يعتقدوا في أنه سيكون لها مستقبل . ولقد عبر سولي عن مشاعر الكثيرين من أبناء بلده بالنسبة لأوسسات ومفشات ماوراء البحار ، حينما كتب عن إمكانية العمل ضد الاسباتيين في الهند ، في عام ١٦٠٨ ، ونصح بعدم البقاء في أماكنهم التي سوف يطردون منها : « لا يمكننا ان نحفظ بمثل هذه النزوات ، إذ أنها بعيدة ضا للغاية » . وبالتالي فإنها غير متناسبة مع الطبيعي ، ومع عقل الفرنسيين ، :

ولكن الأمر سوف يتغير تماماً مع ريشيليو . ذلك أن الرغبة في هرقلة أعمال إسبانيا ، وفي الوصول إلى نفس درجة عظمتها ، دفعت رجل الدولة الكبير هذا بطبيعة الحال إلى أن يوجه أنظاره في انحصاء المحيط . وكانت فرنسا الجديدة تهمه بنوع خاص ، إذ أن الانجليز كانوا قد بدأوا في الطمع فيها : فكانوا قد احتلوا كوريك في أثناء تلك الأزمة القصيرة التي تعرضت لها العلاقات الفرنسية الإنجليزية عام ١٦٢٨ — ١٦٢٩ ، ولم يعيدوا هذا الموقع إلا بعد ثلاث سنوات وبمعاودة سان جرمان ، في ٢٩ مارس ١٦٢٢ . ولقد عمل ريشيليو على تنمية فرنسا الجديدة هذه ، فسمح لسانبلان ذلك التأييد الذي لم يكن قد حصل عليه حتى ذلك الوقت . وقام ، بنوع خاص ، بتشجيع عملية التوطن . وكلف بها جمعية للمائة عضو ، التي تأسست في عام ١٦٢٨ . ومع ذلك فلقد إنتهت هذه العملية الأولى للإستعمار بالفشل : ذلك أن الشركة لم تكن تهتم كثيراً إلا بالتجارة ، والتعامل في الفراء . وعند وفاة ريشيليو لم تكن هذه المستمرة تشتمل ، علاوة على رجال التطير المكلفين بتصوير الأهالي ، إلا على بعض مئات من الأشخاص المتأقلين ، أي الذين أقاموا هناك بصفة دائمة . ومع ذلك فقد قاموا بتقديم في اتجاه الداخل : ذلك ان مونتريال كانت قد تأسست في عام ١٦٤١ .

وكان يبدأ منها سفر التجار للتعامل مع الوطنيين . ونتج عن إقامة البيض في هذه المنطقة بشوب حرب مع القبائل المجاورة ، قبائل إيروكوا . واستمرت الحرب الأولى لمدة خمسة وعشرين عاماً من عام ١٦٤١ حتى عام ١٦٦٦ .

وشجع مثل الانجليز وريشيليو على النزول في بجزر الأنكيل ، في هام ١٦٦٦ ، رغم أن فرنسا لم تكن في ذلك الوقت ، مثل انجلترا ، على حرب مع أسبانيا . وفيما بين القراصنة الذين كانوا يحتجبون بسفنهم في الجور التي لم يكن الأسبانيون قد احتلوها ، كان هناك عدد كبير من الفرنسيين . ولقد استجاب ريشيليو لتداء تلك المجموعة الصغيرة التي أقامت بعد غرق سفينها على جزيرة سان كريستوف الضخمة ، وقرر أن يستولى عليها بواسطة شركة تشبه شركة المائة عضو ، وهي الشركة التي ستقوم هناك بالتجارة في العباقي . وكان طيهم أن يشاركوا الانجليز الذين أقاموا هناك في نفس هذه الفترة نفس هذه التجارة .

وفي عام ١٦٣٥ ، وحين أعلنت الحرب على أسبانيا ، قامت شركة جديدة تسمى شركة جزر أمريكا . بالاستيلاء على جواديلوب وعلى المارتينيك . وكان رد فعل الأسبانيين بنفس ضعف ودفعهم وقت احتلال سان كريستوف . فلم يستنجح الأمر سوى الصراع مع الأهالي الوطنيين . ومنذ عام ١٦٣١ ، كان بعض الفرنسيين الذين أتوا من سان كريستوف قد قاموا كذلك بإحتلال جزيرة السلخفاة ، والتي كانت تابعة لسان دومنجو ، وقاموا بتحصينها ضد الأسبانيين الذين كانوا يحتفظون ، وبأعداد بسيطة ، بالساحل الجنوبي لسان دومنجو . وكانوا يعملون على قنص الحيوانات ، البرية والمستأنسة ، التي يقابلونها في تلك الجزيرة الكبرى ، لكن يتعاملوا في جلودها ، وفي لحومها المدخنة . وطردها منها في عام ١٦٥٤ ، ولم يعودوا إليها إلا بعد بضعة سنوات . وفي هذا الوقت ، أصبحت جزر الأنكيل الفرنسية تشتمل على مايقرب من اثنتي عشر جزيرة ، متفاوتة

الاحجام. أما الشركة ، التي واجهتها صعوبات ، فانها قامت ببعضها لاشخاص
هاديين : فباعت جزيرة سان كريستوف ، مثلاً لجماعة القديس يوحنا . وانفقوا
فقط على الاحتفاظ بالسيادة الملك : فكان كل مشتري جديد يحصل على لقب
« حاكم » .

ولقد غيرت بعض هذه الجزر ملاكها مرات عديدة . وكانوا جميعاً قد
اشتبكوا مع مقاومة الاهالي ، وعلى الاقل حتى عام ١٦٦٠ ، وهو الوقت الذي
وافق فيه من بقي من الاهالي ، وبالاتفاق مع رؤسائهم ، على أن ينقلوا إلى جزيرتين ،
وهي الأكثر قرأ في مجموعة الجزر ، والتي تم إعطائها لهم ، مع ملكيتها ، وهما
جزيرتي دومنيك ، وسان فانسان .

أما في إفريقية ، فإن الثورمانيين كانوا يذهبون منذ وقت طويل إلى
سواحل غينيا ، وكان هؤلاء الثورمانيون يقومون بتجارة التهريب مع أمريكا
الجنوبية . وكانوا في بعض الحالات ينزلون هناك ويقومون بالتعامل مع
الوطنيين . وفي عام ١٦٣٣ ، تكونت شركة ، بتأييد من ريشيليو ، من أجل
إستيلاء ثروات هذه المنطقة وإمتد امتيازها إلى سواحل السنغال ، والرأس
الأخضر ، وجامبيا . وقامت شركتان آخرتان ، تأسستا في عامي ١٦٣٤ -
و ١٦٣٥ ، بإعطاء أنفسهما قطاعات أخرى من الساحل فيما بين جنوب المغرب
وسهاليون ، وظهرت مؤسسة جديدة في عام ١٦٥٨ عند مصب نهر السنغال ،
وفي الجزيرة الصغيرة ، التي ستتشأ فيها مدينة سان لوى بعد فترة قصيرة .

أما مدغشقر ، فإنها جذبت في نفس هذه الفترة إنتباه سكان ديب ، الذين
كانوا قد حضروا إليها باحثين عن خشب الأبنوس ، وقامت شركة شرقية ،
تأسست في عام ١٦٤١ ، بالنزول هناك في العام التالي . وأسست فوردوفان .
وهذه المستعمرة الجديدة ، التي سميت في أول الأمر « فرنسا الشرقية » ، ثم جزيرة

ودرفين ، ظلت تواجه عداوة الملحاش ، وتواجه حياة صعبة . وستظل بنوع خاص - وعلى الأقل مؤقتاً ، وحتى عصر كولبير - مركزاً للقراصنة ، وقرية من طريق التوابل .

وأخيراً في الشرق الأقصى ، وجدت الحملات الفرنسية الأولى إلى سنوات ١٦١٧ - ١٦١٩ . وكانت ترجع إلى شركة ملقة ، والتي كانت تسمى غالباً «أسطول موموراسي» . ولكن وسائل عملها كانت غير كافية ، ولن تملأ هذه المحاولة شيئاً - إجمالياً .

وفجأة ، سيصبح التوسع الاستعماري أمراً يتعلق بكل الدول العظمى ، وليس فقط الدول العظمى . فأصبحت الدانمرك في عصر الملك كريستيان الرابع ، والسويد في عصر وصاية أوكسفستون ، بهذه العداوة ، وأنشأت شركات من أجل التجارة فيما وراء البحار . وأصبحت مدينة ترينكيبار ، على ساحل كوروماندل ، مستعمرة دانمركية في عام ١٦٢٤ - وهي مستعمرة ستظل ، مع ذلك ، بدون قيمة . وفي أمريكا الشمالية جاءت بضعة مئات من السويديين للإقامة في عام ١٦٣٨ في منطقة ديلاور : وهذه السويد الجديدة ، سيقوم جيرانها الهولنديون ، في عام ١٦٥٥ ، بغزوها ، وضمها .

الفصل الثالث عشر

حرب الثلاثين عاماً:

أصولها وبداية الأزمة

لقد ظل المناخ العام في بداية القرن ، هو نفسه ، وإلى حد بعيد ، ذلك المناخ الذي كان موجوداً في الفترة السابقة . وكانت العواطف التي نتجت عن حركة الإصلاح الديني لا تزال مشتعلة . وربما فقط كانت أقل وقوعاً تحت تأثير الماضي . ومالك سياسات الدول إلى استعادة حقوقها . فلم تكن فرنسا وحدها هي التي لم تتردد ، مع ملوكها الكاثوليكين الغاية في أوامر حكم اسرة لافالوا ، وفي أكثر من مرة ، في أن تزيد المراقبة الموجودين في الخارج . ذلك أن إنجلترا والأقاليم المتحدة ، والذان كانا قد انضما تماماً إلى المذاهب الجديدة ، والذان ظهرا على أن الوحدة بينهم قد تدعمت بذلك الصراع الذي قاموا به سوياً إسبانيا ، قد إبتعدتا شيئاً فشيئاً ، الواحدة عن الأخرى ، حتى اليوم الذي وصلنا إليه ، قرب منتصف القرن ، لكي تشبك فيه الواحدة مع الأخرى .

وكان حدث فيما مضى ، وأكثر من مرة ، نجد أن الحروب الأهلية ، التي نشأت عن تعارض بين المعتقدات ، تتطور إلى صدامات دولية . وكانت هذه هي حالة ألمانيا إبتداء من الربع الثاني القرن . ولذلك فإن حرب ألمانيا سوف تمثل ، في منتصف هذا الفصل ، العصب الأساسي له ، إن لم يكن العمود الفقري . وبعد قرن من الزمان سنشهد مرحلة جديدة من مراحل التنازع بين فرنسا وبين الاسرة الحاكمة في النمسا ، أما الاختلاف الكبير مع

المرحلة الأولى الحرب ، فإنه يمثل ، منذ تمخلى شارل الخامس عن العرش ، والامبراطورية وأشبانيا ، ورغم أنها ستظل دائماً تحت حكم آل هابسبورج ، لم يعد لها نفس الملك ، وبالتالي أن تقوم كلها باحتياج نفس السياسة . ولكن علاقات أسرية وثيقة ، مدعمة بإرتباط مشترك بالمقيدة الكاثوليكية ، كانت توجد بين البلاطين ، ويحتفظ فيها بينهما تضامن لن يتجسّد صراحة في تقطيع أوصاله قبل عام ١٦٤٨ .

١ - الأسباب :

كانت أحسن الميادين المناقشة بين البوربون والهابسبورج تتمثل دائماً في إيطاليا المقسمة ، والمنقسمة دائماً على نفسها ، وحيث كان الأسبانيون يحتفظون بالملكات الساجدة للامبراطورية ، في ميلانو ، ونوسكايا ، وملكسة نابولي . وأكدت المملكة الفرنسية أنها تحمي الدول التي كانت قد ظلت مستقلة . وإنتهزت كل فرصة لكي تظهر إهتمامها بهذا الإستقلال ، رغم أن هذا كان لا يعنى رغبتها المستمرة منذ عدة أجيال في وضع أقدامها على السفوح الغربية لجبال الألب ، وأخذ مكان أسرة سافوا هناك . وكان هذا الخليط من حنين التنية ومن الرغبات الرفيعة الضم يجعل العلاقات صعبة فيما بين فرنسا وسافوا ، ويجعل الصداقة بينهما غير مستقرة .

وكان هنري الرابع ، قليل وفاته مباشرة ، وفي الوقت الذي كان يعد فيه الغرب ضد أسرة هابسبورج ، وقد قام بالاتّام من أجل ضمان مجموعة رجال سافوا . وبواسطه ، قام بديجير بالترقيع على صاعدة بروغول ، وهي معاهدة تحالف دفاعي هجومي ، أكملت بروجاج ابنته الكبرى من وريث الدوق شارل ايمانويل في ٢٥ أبريل ١٦١٠ . وبعد وفاته ، اعتقد الناس في خبير كامل للاتجاه السياسية الفرنسية تحالفت الرعية ماري كى بديسبيس ، وبديسبيس ارتباطها

بالمذهب الكاثوليكي ، بالتقرب من أسبانيا : ولبقاً لمعاهدة سرية تم التوقيع عليها في مدريد في ٣٠ أبريل ١٦١١ ، وعدوا بإحدى الأمهات الأسبانيات الملك الصغير ، الذي كان له عشر سنوات من العمر ، وتم عقد تحالف مع فيليب الثالث . ولكن التقطيمه مع سياسة هنرى الرابع لم تكن سوى مسألة ظاهرية فقط . فمسألة الزيجات الأسبانية - وهي زيجات لوى الثالث عشر من أميرة أسبانية ، وتزوج أخته من أمير إسباني - لم تكن تمثل ، في الواقع ، إلا ضمان ضد التهديدات الممكنة لقوة كانوا يتخشونها دائماً . وكان الأمر كذلك في السنوات الأخيرة من حكم هنرى الرابع . ولقد اضطر وزراء الوصية ، والمخلصين لطريقة تفكير الملك المتوفى ، ومن أجل طمأنة إنجلترا وهو لندا ، إلى إعلان أن هذه الصلات الجديدة لن تؤثر على العلاقات القديمة . كما أنه سرعان ما تطلب يد أخت أخرى للملك الفرنسي لأمير ويلز ، وهو الملك شارل الأول فيما بعد . وكانت العلاقات الودية الفرنسية الأسبانية سيئاً على الأقل في أن تسهل ، في عام ١٦١٣ ، تسوية تلك المحسومة التي نشأت في سهل نهر يو بشأن وراثة مانتوا . فعند وفاة الدوق الحاكم ، والذي كان من أسرة جورتراج ، ادعى شارل إيمانويل صاحب سافوا ضرورة وضع يده على ممتلكات ، وعلى أساس أنها منطقة غفوذ أسروى ، عليها أن ترجع إلى إبنته ، أرملة المتوفى . واحتل عسكرياً جزءاً منها ، وذلك في الوقت الذي إلتجأ فيه الوارث الشرعى إلى فرنسا للصدقية . وكان نظام حكومتى باريس ومدريد سيئاً كافياً لإجبار صاحب سافوا على التخلي عن هذه الأماكن ، والعودة إلى يوده .

وفي نفس العام ، وقعت حادثة صغيرة ، أظهرت اهتمام أسرة هابسبورج النمسية بالمدن والإسقفيات الموجودة في إقليم الورين والتي كانت قد فقدت منذ عام ١٥٥٢ . وكانت سلطة ملك فرنسا غير موجودة إلا في بعض

الأوقات في أراضي اسقفية ميتر ، وهي إمارة متميزة عن المدينة ، والتي كان اسقفها قد ظل هو السيد ، وتحت السيادة النظرية للامبراطورية . ولكن حاكما جديدا من حكم الملك ، وهو دون إمبرغون ، أقام من فرصة وجود أحد الاساقفة الفرنسيين في ميتر ؛ وهو ابن خيم شرعي لهنري الرابع ، وسأول أن يدخل القوات الفرنسية في المدينة ، عاصمة الاسقفية . وبعد أن علم الإمبراطور ما تياس بذلك ، من رجال الدين ، تدخل في الأمر . ومنذ تغل شارل الخامس عن العرش ، لم تكن هناك معاهدة لتحديد أمور السلم ، ولم يكن هناك سفير دائم للامبراطورية في البلاط الفرنسي . ولذلك فإنهم أرسلوا مندوباً خاصاً ، هو كونت هونتزلون ، إلى باريس . وتوقف ، في سهره ، في عاصمة الإقليم ، وشجع مقاومة رجال الدين ، ثم ابلغ الحكومة الفرنسية ما يجب عمله ، ليس فقط التبرؤ من حمل دون إمبرغون ، ولكن كذلك التمسك من أجل المستقبل ، بعدم الترضى ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، لحقوق الامبراطورية في هذه المنطقة . ولقد حاول الوزير فيلروا ، بلا جدوى ، الوصول إلى وسيلة تحتفظ بماء الوجه . وكان متضيقاً من ذلك الاضطراب الذي تسبب فيه أحد الامراء ، والذي كان معادياً لحكومة الوصية ، وإنتهى به الامر إلى أن يوافق على المطالب الامبراطورية . وربما كانت قد حصل على وعد بأن تظل المسألة سرية ؛ وعلى أى حال فإن المعاصرين لها كانوا يجهلون . ومن جانب آخر ظلت هذه العملية دون أن ترتب عليها نتائج . وكانت حدود جبال الألب ، هي من جديد ، التي مستجذب إنتباه وزراء لوى الثالث عشر في السنوات التالية ؛ وسيضطرون إلى الدفاع عن مواقع فرنسا وأصدقائها ضد أسبانيا .

ولقد قام شارل إيمانويل ، وكانت كثير الحركة ، في الدخول في مغامرة جديدة . وكان هدفه أطماعه لا يزال هو نفس الهدف . ولكن لما كانت إسبانيا

مى التي أعلنت بوضوح أنها تحمى دوق ماتوا ، فإنه دخل إلى الحرب ضدما فى عام ١٦١٤ . وتم التوصل إلى صلح فى العام التالى ، بعد عرض الخلاف على إحدى حاكم الامبراطورية . ولكن سرعان ما يطمنون فى الأمر ، وتبدأ فى عام ١٦١٦ العمليات من جديد . ولقد تركزت حول موقع فيرسيل ، الذى سيفتشى الأمر بالاسبانيين إلى الاستيلاء عليه . وقام ياور الملك فى دوفينه ، ليدهير ، ورغم التعليلات والأوامر التى كانت قد وصلت ، والتي كانت تفرض عليه موقف حياد تام . إذ أن فرنسا كانت رسمياً حليفة لاسبانيا . بالاتصال برجال سافوا ، وساعدهم على طرد الاسبانيين . ولكن التبرؤ الرسمى منه لم يعط أية نتيجة ؛ إذ أنه ، فى هذا الوقت بالذات ، تخلص الملك للصخر من مرية العجوز ، كوتشين ؛ وبعد ان أصبح حراً فى إختيار طريقه الخاص . والعودة إلى طريق والده ، هنا القائد الشجاع ، ورافق على وجهة نظره ، وسمح أخيراً بإعداد حملة جديدة ، وهى الحملة التى ستصل إلى الصلح ، وهو صلح قائم على أساس الوضع القائم ، فى شهر سبتمبر عام ١٦١٨ . وكان فى حاجة بالكاد إلى أن يقرر أن التحالف الفرنسى الاسبانى قد عاش . ولقد عادوا إلى سياسة معاهدة بروسول : فاعترف له شارل لمعاونيل بالجبل ، وزوج وريثه من إحدى أخوات لوى الثالث عشر ، وهى كريستين دى فرانس .

وكانت كل هذه المسائل صغيرة بالنسبة لما سوف يحدث بعد ذلك . وبدأت أنظار أوروبا تتجه صوب أحداث ألمانيا فى هذه الفترة .

٢ - الحرب فى بوهيميا وألمانيا :

فى هذه السنوات الأولى من القرن السابع عشر ، لم تكن ألمانيا مائة إلا ظاهرياً . ونجت وعاد صلح أوجسبرج ، كانت الهيران لأغوال مشتتة منذ عام ١٥٥٥ (واستخدم هذا التجهيز كثيراً ، ولكنه لإبرال خيروروباً) ، ومن عام

لآخر كانوا يشعرون بأنها سوف تشتعل من جديد . ففي عام ١٦٠٨ ، تسبب إنشاء ، اتحاد ايفانجيلي ، تحت إدارة منتخب البلاينات ، وبعد فترة قصيرة ، في نشأة « عصبة » من الامراء ومن الدول الكاثوليك ، الذين حلوا حقودوق بافاريا . وجهلوا العالم يخشى من أن تشب حرب مذهب من جديد ، وفي فرصة قريبة . وفي العالم التالي ، بدت الازمة التي نتجت عن موضوع وراثة الحكم في كليف وجولير ، على أنها ستطلى إشارة البدء لما كانوا ينتظرونه . ثم جاء التهديد بتدخل فرنسي ، وهو التهديد الذي توقف في اللحظة الأخيرة بالموت المفاجيء لهنري الرابع ، وهو الذي عمل على فرملة النيات التجارية من الجانبين . وأخيرا ، لم تحدث حرب أوروبية ؛ وهي الحرب التي كانوا يخشون منها ، ولا حرب ألمانية ، وجاءت تسوية على أساس الحل الوسط - وهو تقسيم بين المدعين الكاثوليك والبروتستانت على تسوية أمر الوراثة المتنازع عليها ، بطريقة ما . ولقد تسبب التنصب الكبير للامير الجديد ، وهو فرديناند صاحب إسبانيا ، وكان ابنا لعم الإمبراطور ماتياس ، وسيخلفه في عام ١٦١٥ بإسم فرديناند الثاني ، في إعادة إثارة المشاعر ، وفي التسبب في أزمة جديدة ، أخطر بكثير من تلك التي كانت قد نشبت في القرن السادس عشر . ولم يكونوا قد اختاروا فرديناند في حد ذاته ، بل كانوا قد اختاروه ضد مرشح آخر ، والذي كان كل الألمان يخشونه ، خاصة وأنهم كانوا غيورين على حرياتهم السياسية ، وهو ملك إسبانيا ، فيليب الثالث . وكان فيليب ، بمولده ، له الأولوية على غيره في المطالبة بالوراثة . ولكنه ، حين علم بالمعارضة التي ستواجهه ، قرر التخلي عن حقوقه نظير تعويض كبير . ولقد نص على هذا التخلي ، سرا في معاهدة ٢٠ مارس ١٦١٧ ، والتي سميت بإسم معاهدة أرنبات ، وهو إسم السفير الذي كان قد وقع عليها : وكانت عبارة عن اتفاقية أسروية ، يتنازل بها عن حقوق آل هابسبورج في فينا ، عن

بعض الاجراء من الاراضى الاسرية ، وبخاصة عن « السيطرة » على بعض مناطق الانزاس . ورغم ان هذه الإتفاقية قد تجدد العمل بها ، وتأكدت في أوقات لاحقة ، إلا أنها لم تنفذ .

اما الأزمة الكبرى التى ستمتثل فى ألمانيا طوال ربع قرن ، فإنها سوف تبدأ خارج هذه الحدود ، وفى بوهيميا . ففى عام ١٥٢٦ كان تاج سان وينسلاس ، تاجاً منتخباً مثل تاج المجر ، وكان مثله فى أيدي آل هابسبورج وكان التشيكيون شديدي الولاء له . ولذلك فإنهم وجدوا ميزات عديدة فى ان يجعل رئيس الامبراطور به المقدسة من براغ — عاصمتهم — مقراً مفضلاً له وجاءت المشكلة العقائدية هناك بظواهر جديدة ، ونتيجة لبقاء أحد الانبجاعات القديمة ، وهو مذهب هوسى ، وتحوله فى أثناء القرن الخامس عشر إلى نوع من المذاهب القومية . وكان أنصار لوتر أكثر عدداً بكثير من الكاثوليكين ولكنهم كانوا لا يستمعون بأية حقوق . وكانوا متساعين معهم ، أو يتعاملون وجدوهم ، ولكن نصوص صلح أوجسبرج لم تطبق أبداً فى بوهيميا . وفى عام ١٦٠٩ حصل العداوت ، وبالتفاوض مع الامبراطور ، على نجاح كبير فى هذا الميدان : فأعترفت « خطابات الملك » بنفس الحقوق لأصحاب العقيدة . ولكن الأقلية الكاثوليكية التى كانت تستند إلى اليسوعيين ، عملت على تأجيج النيران . وتم الشعور منذ ذلك الوقت بأنه هناك مناخ لحرب أهلية . وكان انتخاب فرديناند صاحب إستيريا كملك على بوهيميا منذ عام ١٦١٧ ، أى عامين قبل وفاة ماتياس ، يعمل على إثارة الموقف ، ويقوى من عزائم الكاثوليك . وكانت أحداث الاحداث فى هذه الايام الصعبة ، هو ذلك الحدث الذى وقع فى ٢٣ مايو عام ١٦١٨ ، وهو حادث « الإلقاء من التوافد » الذى وقع فى براغ ، كحدث صف تم التفكير فى إعداده مسبقاً ضد اثنين من المستشارين الذين كان الملك يجرى دواهي عندها . وكانت

هذه هي بداية حركة التمرد الماسح . وتشكلت حكومة مؤقتة من ثلاثين مديراً ، أخذت مكان مجلس الملك . وقبل نهاية العام ، كانت القوات البروتستانتية ، بقيادة كونت تورن ، تسيطر على غالبية البلاد . وبدأت العمليات الحربية في عام ١٦١٩ .

ولم يمكن في وسع البروتستانت في ألمانيا ان يظفروا عايدبن أمام هذا الصدام الذى نشب إلى جوارهم وكان الاتحاد الايفانجيل قد رفض ، بمجرد ، ان يوافق على ضم بوهيميا الثائرة إليه . ولكنه وجد نفسه ، برضاه أو رغما عنه ، وقد اضطر إلى التدخل ، نتيجة لطموحات أحد رؤسائه . منتخب الهلانتينات . وكان فريدريك الخامس ، الشاب ، قد تزوج ابنة جيمس الأول ، ملك إنجلترا . وكان التشيكيون قد وجدوا انه سيكون من السياسة ان يختاروه ملكا حينما يقررون أمر خلع فرديناند في شهر أغسطس عام ١٦١٩ . وإبتداء من هذا الوقت ، وصلتهم بعض الأموال من الخارج ، أولا من الإتحاد الإيفانجيلي ، ثم من مجلس المقاطعات ، في الأقاليم المتحدة ، وجملةهم معونة غير متوقعة كذلك من أمير ترانسيلفانيا ، بيتلين جابور : ذلك أنه قرأ المجره الملكية ، ودخل إلى برينسبورج ، وأقام أحد المواقع المتقدمة صوب فيينا . واضطر رجال الامبراطورية ، وهم مهددون في نفس الوقت بمحيش كونت تورن ، بمواجهة ناحيتين ، في نفس الوقت .

وفي أثناء ذلك الوقت ، لم تكن قضية فرديناند مهددة بشكل خطير . فبينما كان هناك تردد واضح من جانب البروتستانتين ، وبينما كان الملك جيمس لا يفكر حتى في إمكانية إرسال معونة لزوج ابنته ، ظهرت روح تضامن كامل عند الكاثوليك ، وتم تسج شبكة من التحالف حول الامبراطور . وارسل فيليب الثالث إلى إيطاليا جيشاً صغيراً ، وبعد بمحيش آخر ، يأتي من الأراضي المنخفضة .

لغزو البلاتينات ، ووضع دوق مكسيمليان ، دوق بافاريا ، ورئيس العصبة الكاثوليكية ، نفسه في خدمة مرديناك مع كل قواته ، وذلك بأمل الحصول على المركز الانتخابي الذي سوف تحرم البلاتينات منه ؛ أما ملك بولندا ، فإنه تدخل على رأس قوات فرسانه ، صوب الدانوب ، وأجبر تورن وبيتلين جايبور على التنازل . وأخيرا وهو نهضاح هو متوقع لسياسة آل هابسبورج - قام منتخب ساكس ، والذي أغراه الوعد بالحصول على أحد الاقاليم التي لا تدخل تحت تاج بوهيميا ، بالمرافقة على أخذ موقف في الحرب ضد البلاتينات ، وضد رئيسها ، وهو من أنصار مذهب الإصلاح مثله ، وإن كانت إمارته قد انحوت بعد ذلك إلى مذهب كلفن .

وحين قررت فرنسا في عهد ماري دى ميديس ، وفي عصر حكومة كاثوليكية للغاية ، وبعد ترددات طويلة ، أن تقترح وساطتها ، بدت الإمكانيات ، في نهاية الأمر ، على أنها في صالح آل هابسبورج وفي صالح حليفه البافاري . ولم يرفضوا الدافع الفرنسي . ولكنهم كانوا معادين ، من حيث المبدأ ، لكل تدخل في الخارج ، فعملوا على جعله بدون قيمة ، وكانت ثمرته الوحيدة هي معاهدة أولم ، التي عقدت في ٣ يوليو ١٦٢٠ ، وبطلب من سفراء الملك ، بين رؤساء الاتحاد الإيفانجيلي وبين رؤساء العصبة فتمتد البروتستانتين بعدم التدخل في حرب بوهيميا ، بينما وعدوا الكاثوليك باحترام دول منتخب البلاتينات . ومنذ هذا الوقت سوى مستقبل البلاتينات : وكان قد عمل هذا الاتفاق من أجل لن تحتلها القوات الاسبانية .

وكانت عمليات عام ١٦٢٠ حاسمة . فانضم البافاريون ، بقيادة تيسل ، وهو أحد البلجيكيين ، إلى القوات الامبراطورية التي كانت ترحف على براغ . ومن جانب تشيكونولفاكيا ، لم يكن كونت تورن يعتمد على جيش حقيقي ،

بل على مجموعة غير متناسقة في تشكيلاتها ، وتنقصها القيادات ، وعملية التنظيم ، وكذلك روح النظام . وكان الكونت إرنست دي مانسفيلد الألماني قد أتى إليها ببعض فرق المرتزقة ، والتي لم تتمكن من القيام بأى شيء . وكان قد حصل من يتلين جابور على بضعة آلاف من المجريين . وفي يوم ٨ نوفمبر ١٦٢٠ ، وعلى هضبة الجبل الأبيض ، وبعد معركة دامت مدة ساعة واحدة ، انتهى أمر الدفاع عن براغ وإنهزت قضية بوهيميا بضربة واحدة . وصحبت عملية إعادة السلطة الامبراطورية عمليات قمع فظيعة ، تمثل في الحكم بالإعدام على الرؤساء الثائرين ، وفي مصادرة أملاكهم . وعلى ذلك حركة رد فعل عامة في الشؤون السياسية والدينية - فهي حرب ضد مذاهب الإصلاح الديني ، ضد اللغة والقومية التشيكية - وتوجت ، في عام ١٦٢٧ ، بفرض الإرغام على كل السكان بالدخول رسمياً إلى المذهب الكاثوليكي ، ومنع دستور جديد زاد بشكل واضح من امتيازات النظام الملكي ، وجعل التاج وراثياً في أسرة هابسبورج . ولم يعد الملك يقيمون في براغ ، ونقلت مستشاريه المملكة (الوزارة) إلى فينا . ولفترة تزيد على قرنين من الزمن ، سيطر السادة الجدد بوهيميا على أنها إقليم نمسوى . ومنذ فترة الجبل الأبيض ، وقعت البلاتينات في أبهى القوات الاسبانية التي وصلت من الأراضي المنخفضة بقيادة سينولا . ولم يتحرك أحد من جيرانها . وسيطر الخوف على الجميع حين علوا بالهزيمة الساحقة التي نزلت بفريديريك . لم يفكروا إلا في أنفسهم . وعمل الاتحاد الإيفانجيلي على أن يخلص نفسه من الموضوع . وبحسب البلاتينات ، بلا جدوى ، عن آخرين يقومون بمهابتها ، في السويد ، وفي برايدبورج ، وفي الهانرك ، ولكنها لم تحصل إلا على كلمات معسولة : وكانت قد فقدت قنيتها بشكل واضح . وإذا كانت هناك مع ذلك « حرب في البلاتينات » ، فإن ذلك كان يرجع إلى أن المغامرين قد عملوا على

الإفادة من الظروف لكي ينزلوا عصابات المرتقة الخاصة بهم إلى أرض المعركة - وكانت عصابات أكثر من كونها جنود - واستغلوا ذلك في فرض الإغارات على أهالي الأرياف ، مهددين إياهم بإحراق عاصيلهم ومنازلهم .

وبدءوا الدفاع عن البلاتينات ، والعمل على إثارة قلق الأسبانيين الذين كانوا يحتلون هذه الإمارات ، عاد إرنست دي مانسفيلد من بوهيميا ، وخرّب في عام ١٦٢٢ أسقفية إسيير ، ثم الأناضول السفلى ، وقام كريستيان براونفيج ، وجورج فريدريك صاحب باد بتشديد قبضتهم في وستفاليا ، وقامت القوات الإمبراطورية والبافاريا بتعقبهم ، وأجبرتهم على ترك البلاد . أما في الشرق ، فإن ييتلين جايبور ، والذي كان قد نجح في أن يقتنخه دايت المجر ملكا طيبا ، قد عاد مرة ثانية صوب فينا . أما فرديناند ، والذي كان بدون قوات مسلحة فإنه اضطر إلى أن يشتري الصلح من هذه الناحية ، حتى يحفظ بحرية عمله في ألمانيا : وفي معاهدة نيكولديرج ، في شهر يناير ١٦٢٢ ، تخلى ييتلين جايبور عن نياج المجر ، في نظير التخلي له عن بعض أقاليم في سيليزيا ، وعلى حدود أقاليمه الوراثية . ولم يكن الإمبراطور قد قرر تماما تجريد البلاتينات ، التي كانت قد هزمت ، وأصبحت معزولة . ولكنه وعد بإعطاء إمارتها المنتخبة لمكسميليان البافاري ، وكان هذا الأخير لا يكف عن مطالبته بها . ورغم معارضة الأسبانيين الذين كانوا يرغبون أشد الرغبة في البقاء في ميدلبرج ، انتهى به الأمر إلى أن يعطى مكسميليان المرسوم الخاص بذلك في شهر فبراير عام ١٦٢٣ . ومع ذلك فإنه لم تحدث عملية لنقل السيادة : فلقد وضعت بلاتينات الراين تحت نظام المجر ، وأصبحت تدار ، جزئيا ، بواسطة الأسبانيين ، وجزء آخر منها بواسطة البافاريين . أما مكسميليان فإنه لم يحصل إلا على البلاتينات العليا ، وهو

إقليم متميز تماماً ، وقريب من بافاريا : هذا علاوة على انه استفظ به كنعين ،
أى بشكل مؤقت .

٣ - مصالح هولندا ، وانجلترا ، وفرنسا :

كانت الحرب التي عادت الى الفشوب في الأراضي المنخفضة ، بعد نهاية هدنة
السنوات الإثني عشر ، لاحتل عند الدول العظمى نفس المكان الذي كانت تحتله
إذا ما كانت قد ثبت قبل ذلك . وكانت الاقاليم المتحدة قد أخذت مكانها بين
الدول الأوروبية . وبدأ ان إستقلالها الفعلي أمر واقع ، ولا يمكن طرده
للساقطة . وكان الإهتمام العام يميل إلى تفادي ذلك الصراع ، والذي لم يظهر له
مخرجا ، والذي عمل التفتت الاسياني على إطالة أمده لفترة ربع قرن جديد ،
ولكي يعود عليه بما كان قد بدأ في ألمانيا .

وكان من الصعب على الهولنديين أن يتوقعوا مجيء مدد إليهم من الخارج
قبل عام ١٦٣٥ . فكانت فرنسا تهرب ، وكانت مؤقتا تخضع للتأثيرات التي
تأتي إليها من وراء الجبال : وكانت انجلترا البروتستانتية نفسها قد أصابها الملل ،
تحت حكم جيمس الأول السلمي ، من ان تبذر قواها في الخارج ، ومن أجل
مصالح لم تكن هي مصالحها بطريق مباشر . وكان تقارب عام ١٦٠٤ مع أسبانيا
مصحوبا ببرود تجاه الأقليم المتحدة . وعلينا ان نبحث عن أسباب ذلك مع
هذا التنافس الاستعاري الحاد الذي كان موجوداً بين الدولتين ، والذي شرحنا
بدايته ، ومع ذلك الاختلاف ، وحتى التمارض ، بين بعض المصالح الاقتصادية .
وجاءت إحدى المحصومات التي سوف تمتد لمدة سنوات ، وجعلتهم يراجمون
بعضهم ، بشأن حقوق الصيد . وكان الصيادون الهولنديون يذهبون للصيد منذ
وقت بعيد عند السواحل الشرقية لإنجلترا ، وكانت المعاملات تتضمن لهم هذا
الحق . وفي بداية القرن السابع عشر ، طالب الصيادون الانجليز بالتخلص من

هذه المنافسة التي كانوا قد بدأوا يشعرون بمضايقتها لهم ، خاصة وان الملكية كانت قد تحولت كلها إلى مذهب الإصلاح الديني ، وأصبح سكانها لا يتبعون نظام طعام يوم الجمعة بنفس الصرامة ، كما كان عليه الحال في الماضي ، الأمر الذي أدى إلى نشأة صعوبات في بيع السمك . وصدر مرسوم ملكي في عام ١٦٠٩ يمنع كل الأجانب من الحضور الصيد عند السواحل الانجليزية بدون تصريح . واضطروا ، امام احتياجات الهولنديين ، إلى تأجيل تطبيق هذا المرسوم . ثم بدأوا في المناقشة ، التي امتدت لمدة سنوات وعند بداية هذه المناقشة ، قام جروسيوس بنشر مقالته الشهيرة عن البحر الحر ، أو البحار المقترحة *Mare Liberum* . وتم عقد اتفاقية بينهما في عام ١٦١٦ ، في نفس الوقت الذي تقرر فيه إعادة فليسنج وبعض المواقع الأخرى في زيلنده ، والتي كان قد تم التخل عنها كرهينة لإيرايث ملكة إنجلترا وتمهد الهولنديون بدفع مبلغ كبير ، كالوا يحصلون عليه من فرضهم ضريبة على كل سفنهم التي تعمل في الصيد ولكن هذا لن يحل المشكلة ؛ خاصة وان الصيادين رفضوا دفع الضريبة . واستمر وضع التوتر الانجليزي الهولندي ، وزادت خطورته في بعض الاوقات . ولن ينتهي إلا بعد عام ١٦٢١ ، وكان الهولنديون في ذلك الوقت العصيب ، قد وافقوا على تقديم التنازلات الضرورية حتى يحصلوا على التأييد المعنوي لإنجلترا ، ضد اسبانيا .

وفيما بين الانجليز والاسبانيين ، وعلى البحر ، لم تكن العلاقات أكثر سهولة عما كانت عليها في الماضي . وكان الملك جيمس قد مر بهذه التجربة في عام ١٦١٦ ، حين قام وولتر واليه بعملية استكشاف منطقة الأورينوك ، بأبل إكتشاف الإلهودادو الشهيرة . فقام الاسبانيون بمهاجمته . ولكن يتخل الملك عنه ، وعد بمحاكمته بنفسه . وفي أثناء ذلك الوقت ، وفي عام ١٦٢١ ، وسين تم

تجريد منتخب البلايينات من املاكه التي كان الاسبانيون قد احتلوها ، فكر في ان يتقرب إلى اسبانيا ، التي يمكنها ان تزدى خدمة لزوج ابنته ، دون ان يضطر إلى امتشاق الحسام . واقترح باكتنهام ، صديق الملك ، بهذه السياسة الجديدة : وتبلورت الفكرة حول زواج ولي العهد . أمير ويلز ، ياخذى الاميرات الاسبانيات ، وجه إجابات فيليب الثالث على المفاوضات الأولى غير محذدة . ولكن المفاوضات بدأت بعديّة بعد ذلك مع ابنته ، الذي أصبح فيليب الرابع . واقترح باكتنهام على جيمس أمر ارسال المرشح إلى مدريد سرا ، ودون الاعلان عن ذلك : وستكون نتيجة المفاجأة أن ينجس البلاط والقصر عن الرفض . ولكن الرأى العام الاسباني كان متردداً ، وعلى الأقل بنفس درجة تردد الرأى العام الإنجليزي . ووصلت المفاوضات إلى طريق مسدود . وقام بلاط إسبانيا ، وهو الذي يهتم كثيرا بتقاليد الترحيب ، باستقبال ودئ لذلك الضيف الذي وصل إليه ولم يرفض التفاوض . ولكن البلاط الاسباني طالب بمهله ، متلذذاً بضرورة الحصول على تصريح من روما . وحين وضع أمام الأمر الواقع ، اقترح هذا البلاط شرطاً كان يعرف انه غير مقبول ، ويمثل في طلب إلغاء القوانين الإستثنائية ضد الكاثوليك في انجلترا . ولم يتسبب هذا الفشل في ضيق وشعور بالمرارة إلا للملك . أما أهالى لندن فقد رحبوا بهذا الفشل كثيرا . وفي البرلمان ، تم التعبير عن اتجاهات الرأى العام بالاصرار على ضرورة تقديم معونة مباشرة لمنتخب البلايينات . وإلحظ جيمس إلى التخلي عن سياسة الشخصية وقرر ان يرتبط بأعداء وخصوم اسبانيا ، وهما الأقاليم المتحدة وفرنسا . وفي عام ١٦٢٤ ، أخذ قرارا في أحد العروض الذي كان قد جاء له منذ سنوات من فرنسا : فحصل لأمير ويلز على يد هنرييت اخت لوى الثالث عشر . وبم الإحتفال بالخطوبة في شهر مايو ١٦٢٥ . وفي نفس الوقت الذي خلف فيه شارل الأول الشاب والده على عرش انجلترا .

ولقد ظلت فرنسا ، مثل إنجلترا ، وفي أثناء سنوات طويلة ، تأخذ موقف المتفرج - وتظهر على أنها غير مهتمة - تجاه أحداث ألمانيا . وفي الوقت الذي كانت تمر فيه حرب البلاتينات ، كانت فرنسا مشغولة بنوع خاص بأمر إقليم فالتيين . وكان هذا الإقليم الصغير ، الذي كان الاسبانويون يرغبون في احتلاله ، يشتمل على وادي الأدا الأعلى ، ويخضع لإحدى الدول الناحلة في الاتحاد السويسري . ولكي يتم عبور جبال الألب من الجنوب إلى الشمال ومن إيطاليا إلى ألمانيا ، كان يمر فالتيين هو أكثر ضماناً من برينر ، إذ أن البنادقة كانوا يسيطرون على مدخل هذا الممر الأخير، وكانت جمهورية البندقية على علاقات سيئة مع إسبانيا : وكانت الدولتان قد اشتبكتا سوياً في حرب ، مرتين ، قبل عام ١٦١٧ .

وقام حاكم ميلانو بترتيب المسألة . وانتظر فرصة الخلافات الموجودة بين حكام هذا الإقليم، وكانوا من البروتستانتين، وبين دعاياهم، وكانوا من الكاثوليك، وجعل هؤلاء الآخرين يطلبون منه إرسال قوات في عام ١٦٢٠ . أما فيليب الثالث فإنه اضطر، ونتيجة لتدخل الحكومة الفرنسية ، وبصفته حامياً للكانتونات السويسرية ، إلى أن يطلب إلى حاكم ميلانو ألا يتحرك ؛ ولكن هذا الطلب لم ينفذ . وفي عام ١٦٢١ ، اضطر حكام هذا الإقليم إلى أن يوافقوا ، وبمعامدة تم التوقيع عليها في مدريد ، على التنازل عن إقليم فالتيين . ولكنهم لم يوافقوا إلا تحت الضغط : فقد كانوا مستعدين لحل السلاح إذا ما وجدوا من يؤيدهم في ذلك، ومرحمان ، دون أن يتمكن الفرنسيون من العمل ، وكانوا مشغولين داخل حدودهم بحرب جديدة مع الهيجونوت . وبعد توقيع الصلح في مونبيلييه في شهر أكتوبر ١٦٢٢ ، استعادوا حرية عملهم ، وبدأوا في استخدامها . ورفع سكرتير الدولة الشؤون الخارجية شعار إعادة فالتيين . ومع ذلك فإنه كان لا يرغب في التدخل ،

ولكنه كان يفكر في وضعها تحت نظام المحجر ، و وضع هذا الوادى المتنازع عليه تحت إداره أحد المحايدين . وإقترح في أول الأمر غرانديوق توسكانيا ، ثم اقترح البابا . واتسبى الاسبانويون إلى قبول جريجورى الخامس عشر ، وكانوا متأكدين من انه سيأخذ جانبهم في حالة ظهور مصاعب .

وفي ألمانيا ، إقترح وزير خارجية فرنسا ، ومن أجل معارضة الاسبانين الموجودين في البلاثينات ، ضرورة العمل في صالح مكسيميليان ، أمير بافاريا . واشترى لفرنسا بمجهودات مانسفيلد ، الذى كان مستمرا في عملياته العسكرية ضد قوات الامبراطورية في شمال ألمانيا . ودخل في مفاوضات مع اهالى استراسبورج حتى يدخلوا تحت حماية الملك . ووافق خلفه في الوزارة على إعادة عقد المعلات التقليدية مع الهولنديين : وجمعت معاهدة كومبين ، في ١٠ يونيو ١٦٢٤ ، لكي تضمن لهم من جديد معونات فرنسا . وهكذا ، أخذت السياسة الفرنسية من جديد ، وفي كل الاتجاهات ، الطريق المباشر ، في الرقة الذى وصل فيه ويشيليو إلى السلطة . ولم يكن من الحقيق ان ويشيليو هو الذى عمل على تصويب خط سير هذه السياسة بعد وصوله إلى السلطة ، كما حاول البعض ان يدعى بعد ذلك . كما انه لم ينتهج سياسة جديدة ؛ بل لقد استمر في السير على نفس الطريق الذى رسمه سابقه المباشرين ، وان كان قد زاد عليه فقط زياده تحديد القرارات ، وتزايد الطاقة في التنفيذ . وكان من بين قراراته الأولى ، في عام ١٦٢٤ ، هو ان يعمل على أن يجمع في إقليم شمبانيا جيشاً صغيراً ، ينفع لأى غرض يمكن . ثم أرسل قوات لمساعدة حكام إقليم فالنتين : وفي بضعة أسابيع تمكن من هذا الإقليم من قوات الاحتلال الأجنبية ، الأسبانية والبابوية ، دون ان يقوم في هذا الوقت بقطع العلاقات مع روما ، أو مع مدريد .

وظهر غضب الحكومة الأسبانية في بجزر الإستيلاء على أملاك بعض

الفرنسيين المقيمين في شبه الجزيرة . وردا على ذلك ، لم يكتب لوى الثالث عشر بمجرد تطبيق معاملة المثل : بل لقد منع كل علاقات تجارية مع اسبانيا . ولقد تمت مساويات كل ذلك بعد بضعة أسابيع ، وبالطرق الدبلوماسية العادية . وكان هذا هو موضوع معاهدة مونسون ، في شهر مارس ١٦٢٦ ، والتي تصد فيها الاسبانيون بإحترام إستقلال إقليم فالتيين ، والذي أجبر بعد ذلك على دفع جزية لسادته السابقين .

٤ - تدخل الدانمارك والسويد :

ولقد حدث بعد ذلك أن تدخلت دولة جديدة ، هي الدانمرك ، في حرب ألمانيا، في عام ١٦٢٥ ، ولكن دون أن تنجح في تعديل خط مسارها بشكل واضح . ويمكن شرح دوافع الملك كريستيان الرابع عن طريق مصالحه الخاصة ، وبصفته دوقا هولشتاين ، وبهذه الصفة التي يصبح بها أحد أمراء الامبراطورية . وكانت هولشتاين جزءاً من دائرة ساكس السفلى ، وهي إحدى مناطق ألمانيا التي كان العداء فيها شديداً بين الاتجاهات الدينية المختلفة ، خاصة وأن عملية العلباية ، أى تحويل السلطات إلى الحكومات المدنية ، قد استمرت رغم كل أوامر المنع التي كانت تأتي من روما . وكانت الأقاليم والأراضي التابعة لرجال الدين شائعة . وبدأ كريستيان بالأكثر قريباً منها إلى هولشتاين ، وهي وثاسة أسقفية برمين ، والتي حُكمت بواسطة الناحية الأخرى من مصب نهر إلب ، وأسقفية فردن الواقعة على مصب النيزر ، وأخيراً أسقفيات هلمر ستاد في ساكس ، وأوسنابروك في وستفاليا . وكان يرغب في الحصول على كل هذه الإمارات لإبنه الثاني ، والذي كان لن يحكم في الدانمرك . وكان قد حصل له فيما مضى على صفة المدير ، لأسقفية فردن في الوقت الذي لم يكن هناك أسقفا فيها . ولقد قام رجال الدين في برمين من جانبهم بإحلاء هذا الأمر الشاب وعدا ثابتاً بانتخابه . في الوقت

الذي يتوفى فيه الأسقف الموجود . ولذلك فإنه كانت لديه من الأسباب ما يكفي لإغاثته من نجاح الحركة المضادة للإصلاح الديني . ولم يكن ، حتى ذلك الوقت ، قد أظهر سوى بعض العواطف تجاه منتخب البلايين الموزول . وكانت نيته التدخل غير مجسدة ، نتيجة لعدم وجود المعلومات اللازمة ولكنها تأكدت بوضوح تام في عام ١٦٢٤ ، وحين قام جيش نيل ، الذي انتصر على كريستيان براونويك بنهب المناطق القريبة من الإلب والفيزر ولقد تعرض كل الأمراء البروتستانتين لخشونة الجنود السكاثوليك ، وأصبحوا مهددين في أملاكهم . وبعد أن كانوا فيما مضى قلقين من طموحات جارهم السريع الحركة ، شعروا الآن بأن عليهم أن يدروا له أيديهم . وكان هناك سبب آخر يدفع كريستيان الرابع إلى العمل السريع فكان يشعر بالتهديد إذا ما تأخر ، بأن سبقه منافسه الكبير في بحر البلطيق ، وهو جوستاف أدولف ، ملك السويد : وكان هذا الأخير قد أتم عقد هدنة مع البولنديين ، وأظهر استعداد لإرسال قوات لإمداد أنصار لوتر في ألمانيا ، بالاتفاق مع نسيه ، منتخب براونبورج .

ودخل كريستيان الحرب ، في شهر يونيو ١٦٢٥ ، بشجاعة كبيرة . ولم يكن لديه سوى عدد بسيط من القوات . واعتقد أن في وسعه أن يعتمد على فرق حلفائه ، خاصة وأنه كان قد انتخب جزئياً على دائرة ساكس السفلى . ولكنه لم يتمكن من تجميع سوى ٢٠٠٠ رجل بما فيهم أولئك الذين كان مانسفيلد قد أتى بهم من الأراضي المنخفضة . أما الدول البروتستانتية الكبرى ، وهي إنجلترا والأقاليم المتحدة ، فإنها اكتفتا بإعلان تضامنها مع القضية التي كان يحارب من أجلها . وكان الاهتمام أكثر من جانب الأراضي المنخفضة ، والتي كانت الحرب قد بدأت فيها ؛ ولكنهم لم يرسلوا له إلا بعض المعلومات البسيطة . أما ملك السويد ، ومنتخب براونبورج ، فإنها ظلّا بعيدين عن الحرب .

ووبما كان في وسع كريستيان ، رغم عولته ، ان يلتصر ، إذا ما وجد نفسه في مواجهة تيل ، قائد قوات العصابة الكاثوليكية ، والتي كانت قد ألغيت في عام ١٦١٦ ، ثم أعيد إحياؤها في عام ١٦١٩ . ولحسن جهشاً جديداً ، وهو جيش إمبراطوري بمعنى الكلمة ، سيقف مواجهته ، وهو جيش فالشتين .

وكان الإمبراطور ، وهو يحتاج إلى الأموال ، قد أعطى ثقته لهذا السيد التشيكي الصغير ، والذي كان جندياً ، ومن رجال البلاط ، وله ثراء واضح ، نتج في غالبه من المضاربات . وكان منذ سنوات عديدة يلتجئ إلى ماليته . وفي هذا الوقت ، وأمام هذا الخطر الجديد الذي ظهر في الشمال ، منحه السلطات اللازمة لتجنيد وقيادة أحد الجيوش . وفي بضعة أشهر ، أصبح مع فالشتين ، في بوهيميا ، ما يقرب من ٣٠.٠٠٠ رجل . وكانت نتيجة غزور أسقفيات ميديبورج ، وهلمبرستاد هي إرهاب اعضاء دائرة ساكس السفلى ، وازغامهم على الدخول في مفاوضات مريمة . ولكنهم لم يصلوا إلى شيء من ذلك : وكان عام ١٦٢١ غنيا بالمعارك العسكرية . وكان فالشتين وتيل ، وهما لا يتفان ، يقوم كل منهما بالحرب من ناحيته . أما تيل ، الذي أجبره كريستيان ملك الهانمرك في أول الأمر على ان يتقهقر حتى إلى وستفاليا ، فإنه أعاد تنظيم قواته ، وبعث في معركة ووتر ، في دوقية براونويك ، من تحرير كل ساكس السفلى ، ماعدا أسقفية بريمن . ومن جانبه قام فالشتين ، بقياس قوته بقوه مانسفيلد . واعتقد في بعض الأوقات ، أنه قد قرر مصيره ، بعد ان أرغمه على ان يلتجئ إلى براندنبورج . ولكن مانسفيلد تمكن كذلك من إعادة تنظيم جيشه بهدوء : ثم اتجه صوب الجنوب ، وصوب حدود ميريتاين جابور ، الذي كان قد حصل على وعد من ألمانيا بمحوريات كبيرة ، وألغى صلح نيكولاسبرج . وتبعه فالشتين عن قرب . وكان إقترابه كافيًا القضاء على الروح المحاربة عند الخصم : فإضطر

يتطلب جابور إلى أن يلقى السلاح من جديد ، وذلك في الوقت الذي قام فيه مانسفيلد ، وبعد أن مرّح قواته ، بالإخفاء من ألمانيا ، ومن التلويح . وإلى جوار نهر الإلب ، قتل الدانمركيون في إعادة إصلاح الموقف : ففي عام ١٦٢٧ ، وتمت منط الجيوش المتحدة بقيادة تيل وفالشتين ، اضطروا ملك الدانمرك إلى أن يتخلى عن دوقية هولشتاين ؛ وحتى جوتلاند نفسها فإنها خضعت للغزو .

وكان بهاج قوات الامبراطورية على حساب الدانمركيين سبباً في تغييرات هامة في خط سير الحرب الألمانية . ومن جانب آخر أظهر آل هابسبورج أن لهم مصالح في بحر البلطيق ، وفي مشكلاته ، الأمر الذي جعل من المحتوم أن تتدخل السويد ، في أقرب فرصة .

وحق إذا كان هذا يبدو مثيراً للدهشة ، من الوهلة الأولى ، فإن الامبراطور قد أخذ في تحويل أنظاره في اتجاه الشمال تحت تأثير السياسة الإسبانية . وربما كان التضامن الدائم بين هذين الفرعين لأسرة هابسبورج لا يظهر في أي مكان آخر يمثل هذا الوضع . كما كان يظهر في بولند ، وبدرجه أن كل من بلاط مدريد وفيينا كان له نفس السفير في وارسو . ولم تكن الفكرة الدبلوماسية التي توحد بينهما ضد دول الشمال البروتستانتية . فكان خلفاء فيليب الثاني لم يتخلوا عن بعض المشروعات الطموحة التي كانت تدور في عجلة الملك الحذر . من أجل إخضاع الهولنديين : إما لإجبار الحكومة البولندية على أن ترفض للهولنديين شراء القمح في هولندا ، وإما أن تقوم قوة بحرية ، يتم الإنفاق عليها بطريقة مشتركة ، بحربهم من كل نشاط تجاري في هذا القطاع .

وكان أوليفاريوس ، كبير وزراء فيليب الرابع ، وهو الذي كان يسمونه بالكوت الدوق ، يحظى بكل ثقة ملكه ، وفي نفس الوقت بثقة ريشليو ، وهو رجل من نفس الحجم ، وسلطوي مثله ، ويحكم فرنسا . وكان قد أخذ

لحسابه وجهات نظر فيليب الثاني الإمبريالية . وكان قد وجد من أجل تنفيذ سياسته الخاصة بالتدخل في الخارج بعض الدبلوماسيين الذين يتميزون بالذكاء والطاعة ، مثل أونيات ، ذلك السفير في براغ ، والذي رأيناه يناقش في فينا أمر حقوق الإمبراطور فرديناند في إقليم الألزاس .

وكانت سياسة أوليفاريس ، في بداية حرب الثلاثين عاما ، غير موفقة : فكان قد فشل في الإفادة من الاستعدادات السلبية التي أظهرها في إنجلترا الملك جيمس . وبعد وصول الملك شارل الأول إلى العرش — وستمود إلى ذلك — بدأت العمليات الحربية بين الدولتين . ومرة جديدة ، كانت قادس هي هدف الانجليز ، وإن كانت الحملة قد فشلت . وفي نفس السنة ، حصل الجيش الإسباني في الأراضي المنخفضة على تسليم موقع يريدا ، الذي كان يحاصره منذ وقت طويل . وعمل أوليفاريس على أن يستغل بطريقته الفرور الإسباني الذي انتشر في كل طبقات الأمة نتيجة لهذا الانتصار المزدوج : فجعل الكورتيز يمنح الملك لقب « فيليب الأعظم » . ولم تشهد السنوات التالية مثل هذا النجاح . فاستمر الإسبانيون يسرون ييطىء في الأراضي المنخفضة ، وكانت هناك دائما خطوطاً حصنة تظهر وراء تلك الخطوط التي حكمت تقع في أيديهم . وعندئذ فكر أوليفاريس في استخدام السلاح الاقتصادى ، والذي كان سلاحاً هيباً بالنسبة لبلاد مثل هولندا ، والتي كانت قوتها العسكرية والبحرية مرتبطة بنشاطها التجارى . فقاموا في مدريد ، بدراسة وسائل لإغلاق بحر البلطيق أمام الهولنديين وبمساعدة بولندا . وكان من الممكن التذرع بذلك الحرب التي كان الدائم يكون مشغولين فيها . وحاولوا في نفس الوقت العمل على زيادة قوة الهانسا ، والتي كان انهيارها يتأكد في كل عام بدرجة أكثر : وكان هذا هو ما يهتمون به في فينا كذلك . ولكن فيليب الرابع ، وكشمن التعاون الذي كان مستعداً لمنحه

لاين عمه ، كان يرغب في الحصول على نخلة مكسيميليان صاحب بافاريا من
البلانينات ، وبما سعى من تدخل القوات الإمبراطورية في هولندا . وكانت هذه
الشروط كافية لكي تفعل المفاوضات ، وتمكن فرديناند ، في عام ١٦٢٨ من ان
يمنح فالشتين لقب « قائد الأسطول الإمبراطوري » ، وبحار المحيط والبلطيق ، :
وكانت حركة مسرحية ، وبدون قيمة .

أما في وارسو ، فإنهم كانوا يحتفظون ببعض الغيالات . فكانوا يستعدون
في أن أرمادا سوف تصل إليهم من بحر الشمال إلى بحر البلطيق . ومن أجل
استقبالها ، فروا في شهر ديسمبر ١٦٢٨ ، ارسال أسطول صغير إلى فيسار :
فقام السويديون بالاستيلاء عليه هناك . وكانت غيبة الأمل كبيرة في فينا ،
وبعد ان كان الإمبراطور قد ساورته الأحلام ، في فترة قصيرة ، بالوصول إلى
مستوى القوى البحرية ، اضطر إلى القنوع بأن يحكم على القارة وحدها . وهذه
المرحلة الصغرة ، أعلنت نتائجها العميقة والدائمة : فستقوم مسألة بحر البلطيق
والتي ظهرت فجأة في الأفق ، بتحديد مصير هذه الحرب ، والتي كانت في أسبابها
وفي أصولها ، حرباً بين العقائد ، انتهت منذ عام ١٦١٨ في ألمانيا .

أما ملك السويد ، والذي كان عابداً تماماً حتى ذلك الوقت ، فإنه تأخر من
هذا التهديد الذي رفعه الإمبراطور بنهر حركه . فتقرب إلى ملك الدانمرك ،
الذي كان يمر في ظروف صعبة . وفي نظره بعض التنازلات الاقتصادية ، تمهد
بأن يشرف على أمن المضائق ولنفذ كذلك إلى مدن الهانسا ، وعمل على تشجيع
مقاومتهم لحطاب مدريد ، والتي كانت ترغب في الحصول منها على سفن وعلى
إستخدام منشآتهم في الموانئ . وفي عام ١٦٢٨ ، عمل الدانمركيون والسويديون
على تأمين موقع إسترالسوند ، متفقين فيما بينهم ؛ وكانت من ممتلكات دوق
يوميروانيا ، وتحتضن لمصار هجوش الإمبراطورية . ولقد أسهبوا في ذلك

حصارها : فاضطر فالشتين إلى الانسحاب بعد مجهودات استمرت عدة أشهر .
وفي الربيع تشجع كريستيان الرابع بهذا النجاح ، وبدأ فى عادة النزول على
ساحل بوميرانيا . ولكنه اضطر ، عند وصول الأخبار باقتراب فالشتين ، إلى
العودة إلى سفنه مسرعا من جديد . وبدأت القوات على أنها متعادلة ، من هذا
ال جانب ومن ذلك . وبدأ ان الوقت قد حان من أجل عقد الصلح . وسرعان ما
بدأ مؤتمر فى لويك ، وتم عقد معاهدة فى شهر مايو عام ١٦٢٩ . ولم يتخل
كريستيان عن أية أراضى : بل لقد تمهد فقط بعدم التدخل فى ألمانيا ؛ وتخلّى عن
كل أطماع فى أراضى الكنيسة ، المجاورة لهوله ، والتي كان قد اعتبرها ، وفى
خلال سنوات طويلة ، على أنها غاضة له .

وفى الوقت الذى تهمت فيه عزيمة السويديين ، والتي تتمتع على تخفيف
حدة تمتع آل هابسبورج ، قام فرديناند بانفاذ إجراء خطير ، كان أنصار الحركة
المضادة للإصلاح الدينى ، يطالبون به منذ وقت طويل . ذلك ان مرسوم إعادة
التنصيب ، الذى صدر فى ٦ مارس ١٦٢٩ أعاد قرارات صلح أوجسبرج إلى ما
كانت عليه من قوة ، وألغى بعملية واحدة كل ما كان قد تم من أجل حداية
ممتلكات الكنيسة منذ عام ١٥٥٥ . وكانت هذه هى العقوبة المتوقعة ، والتي لا
يمكن تماسيها ، لنجاح الكاثوليك . ولكن ، فى الوقت الذى بدأ فيه ان نجاح
حركة الإصلاح مشكوك فيه ، جاءت أزمة داخلية لكى تعمل على إضعاف مركز
الإمبراطور بشكل واضح . وكانت عدم لياقة فالشتين ، ومطالبه ، قد عملت على
إثارة العداء العام ضده . وأخذوا يتهمونه ، فى كل بلاطات الأمراء ، بأنه يعمل
نفسه آلة فى أيدي طريقة الحكم المطلق الإمبراطورى الجديد . وفى دايت
واتيسون ، فى شهر يوليو ١٦٢٠ ، طالب المتتبعون فرديناند بإعطاء وعد
بفصله ؛ وفى نفس الوقت بالزعد بتقليل حجم قواته المسلحة ، وارتفعت للشاعر

حول هذه النقطة بدرجة جعلت الكاثوليك يتحدثون مع البروتستانت من أجل نزع سلاح الامبراطور ، وذلك في نفس الوقت الذي وصلت فيه أنباء نزول جوستاف أدولف في بوميرانيا . ولقد عمل ممثلوا الحكومة الفرنسية لدى الدائت ، بحكمة ، على تحقيق هذا الاتحاد في هذا الموضوع ، بين ممثلي المذهبين .

٥ - سياسة فرنسا ، وتدخلها :

كانت السياسة التي اتبعتها فرنسا في هذا الوقت هي سياسة ريشيليو ، الذي كان قد دخل إلى المجلس في عام ١٦٢٤ ، وكان مكلفاً بالشئون الدبلوماسية قبل غيره . وفي أثناء السنوات الأولى ، لم تكن أيدي ريشيليو حرة ، فكان عليه ان يحسب حساباً لنصومه الذين كانوا يراقبونه ، والذين كانوا مستعدين دائماً للوشاية به عند الملك . ولقد رأينا كيف قام بانهاء هذا التدخل ، الذي كان قد أصبح ضرورياً ، في فالتلين ، وبينجالح ، وذلك في الوقت الذي كان عليه أن يواجه نشوب حركة مسلحة من جانب الهيجونوت ، في غرب المملكة . ولقد طرح هذه المعضلة أمام الملك : فاما أن يتفاوض مع البروتستانت من أجل عارية الأسبانيين ، أو يتفاوض مع إسبانيا من أجل عارية البروتستانت . أما فيما عدا ذلك ، فانه لم يترك نفسه لكي يصبح محاصراً ، إذ أنه عقد مع هؤلاء وأولئك ، في عام ١٦٢٦ ، إتفاقات سمحت لفرنسا بأن تستعيد حرية عملها ، مؤقتاً .

ولم تكن لديه نية التدخل في ذلك الوقت مباشرة في شئون ألمانيا . فمن هذا الجانب ، لم تكن للمشكلات المطروحة نفس الأهمية المباشرة : فلقد كان من الضروري إعداد الظروف المواتية لعمل فعال ، بدلا من الاستعداد على أساس القصر في أخذ موقف . وسيكون شعار السياسة الألمانية لفرنسا ، وكما كان عليه الحال وقت فرانسوا الأول ، هو توحيد كل خصوم الأسرة الحاكمة الغسقية ، سواء أكانوا كاثوليك أو بروتستانت ، وجعل الإلمانيين يفسون

خلافتهم وخصوماتهم العقائدية حتى يتمكنوا من التنبه تماماً لتلك الأخطار التي تسبب فيها زيادة قوة آل هابسبورج لحرباتهم . أما الواقع مع بافاريا ، فإنه سوف يتجه ضد إسبانيا بدرجة اكبر من كونه موجهاً ضد الامبراطور . ذلك أنهم لم يكونوا يحبون إسبانياً في ميونخ . وكانوا حائقين عليها نتيجة لتدخلها في البلايينات ، والتي كانت لهم أطعماً عدة فيها ، وكانوا يحتلون جزءاً منها . فإن رجال بافاريا كانوا إذن مستعدين للدخول في معادلات ، وحاولت الدبلوماسية الفرنسية إغرائهم : فعرضت إمكانيات الحصول للنتخب على التساج الرومان وقت الانتخابات القادمة من أجل الامبراطورية . ومع ذلك ، فلم يكن من الممكن الوصول إلى عقد أى شيء ، إذ أن المنتخب كان يشعر بأن عليه أن يحتفظ بحسن علاقته مع جلوه الكبير ، وحليفه من أسرة هابسبورج .

وفي أثناء ذلك الوقت ضعف المركز الدولي لفرنسا ، نتيجة لانفصال إنجلترا ، وفي نفس الوقت نشبت فيه ثورة جديدة للهيجنوت .

ومع شارل الاول ، والذي وصل إلى الحكم بعد وقت قصير من وصول ريشيليو إلى إدارة الشؤون الخارجية ، تغير إلى حد كبير موقف إنجلترا من أحداثه القارة . ولم يكن للملك الجديد نفس شعور التقزز من الحرب الذي كان لوالده . وتمت تأخير باكتيهاجم الذي كان من أنصار الحرب ، أخذ في التفكير فيها ، وبترحيب . هذا علاوة على أنه ، بإظهار نفسه معادياً لإسبانيا ، كان متأكداً من أن يحصل على تأييد الرأي العام ، وبالتالي تأييد البرلمان . وقام ، منذ بداية حكمه ، باستعدادات عسكرية ، وكما لو كان يرغب في أن يلتقم تلك الاهانة الشخصية التي كانت قد نزلت به فيما مضى في مدريد . وفي خريف عام ١٦٢٥ ، قامت سفينة بحمل جيش صوب قادس . ولم يتصرف

النهم والخلعة على البحر ، وتمت عملية الإزالة بدون صعوبة على مسافة قريبة من هذا الموقع . ولكن في أثناء الوصف الذى وقع بعد ذلك ، تسببت قلة التكوين فى حركة عدم رضاء وفى نوع من القوضى وصلت إلى درجة ضرورة الرجوع ، حتى قبل أن يصلوا إلى أسوار المدينة ؛ وتمت عملية إعادة القوات إلى السفن . وزاد ظهور هذا الفشل نتيجة لظهور إحدى العواصف التى فرقّت بين سفن الأسطول فى عودته لإنجلترا فى شهر نوفمبر عام ١٦٢٥ .

وكان الإذلال الذى أصاب شارل وأصاب باكتنهام من هذه المغامرة عاملاً مساعداً يجعلها يقبلان فكرة الدخول فى حرب أخرى ، وهذه المرة فى صالح اليعاقبات الفرنسيين ، والذين كانوا يطلبون تأييد إنجلترا منذ بعض الوقت . وهنا أيضاً يبدو أنه كان هناك دور للرأى العام : فأظهرت الملكة هنرييت وما حولها ارتباطهم بالكاثوليكية بطريقة مثيرة ، حتى أن الإنجليز قد بدأوا فى القيام بعمليات طرد . وهكذا تركوا العلاقات تسوء بين لندن وباريس ، وهى العلاقات التى كانت تضطرب من وقت لآخر نتيجة للأحداث التى تقع على البحر من التنافس الدائم بين الدولتين . وربما لم يكن إعلان عقد المعاهدة الفرنسية الإسبانية ، التى عقدت فى مونزون ، هى السبب المباشر للأزمة : ولكنها أعطت على الأقل حجة واضحة لأولئك الذين كانوا فى إنجلترا يرغبون فى الحرب ؛ ففضضوها ، وبأعلى الأصوات ، هذا البند للمصالحة بين الدولتين العظميين ، وكان هذا هو ما يوصل إلى التدخل الإنجليزى أمام لاروشيل ، وذلك فى الوقت الذى أصبح فيه ريشيليو رئيساً للوزراء ، وصحب الملك فى عملية ذلك الحصار الذى سيعطيهم هذا الموقع : أما الأسطول الذى كان باكتنهام نفسه يقوده ، فإنه فشل فى محاولات متتالية ، سواء فى الاستيلاء على بعض المواقع الفرنسية ، أو فى ذلك حصار لاروشيل . ولقد نتج عن ذلك عملية تغيير نظام التحالفات . فلقد انضم

الاسبانيون إلى جانب الفرنسيين . شفيا على الأقل : إذ ان وهوردم بالتأيد كانت قد ظهرت مرفقة ؛ ولم تكن لهم قوات بحرية كافية . أما تلك السفن البسيطة التي أرسلتها مدريد فإنها وصلت إلى لاروشيل في وقت غير مناسب ، ولم يكن الانجليز موجودين ، ولم تقم بأى شئ .

وفي هذا الوقت طرحت من جديد تلك المسألة الشائكة المتعلقة بهجرات مانتوا ، نتيجة لوقاة الدوق الجديد ، وكانت تعدياً للسياسة الفرنسية إذ أن الاسبانيين كانوا متفقين مع أبناء سافوا ، هذه المرة ، على تقسيم ممتلكات وقام الإمبراطور بتقديم الدعم العسكري لعمليات فيليب الرابع في إقليم ميلانو . أما ريشيليو ، فإنه قام بأخذ قرار سريع وشجاع ، وأظهر أنه لا يتراجع أمام أكبر الأخطار . ورغم أن لاروشيل كانت قد سقطت أخيراً ، وأن الهيجونوت كانوا لا يزالون يحملون السلاح ، وأن الانجليز كانوا لا يزالون معادين ، فإنه أمر بتوجيه جيش صوب جبال الالب ، وأعاد دوق سافوا إلى صوابه ، وأظهر للاسبانيين بتموينه موقع كزال الذي كانوا يحاصرونه ، أنه كان مصمماً على ما يقوم به . ولقد أثبتت الأحداث بعد نظره . فأولاً ، وفي الوقت الذي كان فيه لوى الثالث عشر ، والذي كان قد أخذ قيادة الجيش ، قد قام بإحتلال أحد للمواقع ، وصل سفير إنجليزي مزوداً بالسلطات الكاملة من أجل التفاوض ؛ وتم عقد الصلح مع شارل الأول في ٢٤ أبريل ١٦٦٩ . ثم قام دوق سافوا بعد ذلك بإلقاء السلاح بدوره ، وتحلى عن كل أطماع له في ممتلكات ؛ ودخل في عصبه كانت تجمع ، تحت رئاسة فرنسا ، جنوه ، والبندقية ، ودوق مانتوا وأخيراً ، فإن الهيجونوت قد وافقوا على صلح الرحمة في شهر يونيو ١٦٦٩ .

وكانت هذه اللحظة في منتهى الأهمية . فيمكننا أن نقول بأن كل الأمور ، في الغرب ؛ قد عادت إلى وضعها السابق . وكانت الدول العظمى الثلاث قد

استقرت من جديد على نفس مواقفها التقليدية . ففرنسا بنوع عام لم تجد في مواجهتها سوى الحصين السابقين ، آل هابسبورج ، بفرعيها ، أما ريشيليو ، الذى تدعم موقفه بذلك النجاح الذى حصل عليه فى الداخل ضد الهيجونوت ، وفى الخارج ضد الانجليز وابناء سافوا ، فإنه إنتهز هذه الفرصة لكي يحصل على موافقة على ذلك البرنامج الذى كان ينوى بعد ذلك تطبيقه فى «الشئون الخارجية» . أما الفكرة العامة لذلك التقرير الذى قدمه الملك فى شهر يناير ١٦٢٩ ، فإنها تتلخص فى ضمان الحدود بقوة ، ومن ذلك الاحتفاظ بإمكانية إعطاء المون ، إذا ما تطلبت الظروف ذلك ، إلى الجيران المهددين . وفى اتجاه الزاين ، كان من الضروري التفكير فى إقامة التحصينات فى ميتر ، والتقدم إلى أمكن حتى إستراسبورج ، وذلك للحصول على مدخل إلى ألمانيا . وكان هذا البرنامج يبدو على أنه متراضع حين نعلم ما حدث بعد ذلك . ومن جانب آخر ، كان من الضروري الإصرار ، على ذلك التقليد القديم ، والذى كان يتطلب من فرنسا دائما ، وبصفتها حامية الدول الصغيرة ، فى ألمانيا وكذلك فى إيطاليا ، ان يكون فى وسعها دائما الإجابة على النداءات التى تصل إليها ضد آل هابسبورج . وكان شعار السياسة الفرنسية فى الشرق ، وفى شأن الحدود ، ومنذ ثلاثة أرباع القرن تمثل فى الحصول على مداخل ، والإحتفاظ بها دائما مفتوحة عبر سواجن الالب والراين . ولم يكن هذا يعنى أنها كانت تمنع نفسها من طموحات أكبر . فلقد كان من المؤكد — وأثبتت ذلك معاهدات بروسول فى ١٦١٠ وديفولى فى عام ١٦٢٥ — انه كانت لها مشروعات الغزو والضم فيما يتعلق بسافوا : وكانت تستند فى أنها ستحصل عليها فى أحد الأيام ، وذلك عن طريق إعطاء دوقها أقاليم ميلانو . ولكن سافوا نجحت فى الاحتفاظ باستقلالها حتى عصر الثورة ، وحتى بعد ذلك ، وذلك فى الوقت الذى ستصبح فيه الأراضى ، والتى لم يفكر فيها الفرنسيون ، فرنسية ، بتقسيم عام ١٦٤٨ .

وبعد أن تم إغلاق الحدود الجنوبية الشرقية بشكل قوى ، حول ريشيليو
أنظاره صوب الحدود الشمالية الشرقية وكان الدوق شارل الرابع ، دوق اللورين ،
أميراً متمصباً للغاية للكاتوليكية ، مثله في ذلك مثل كل أمراء أسرته ، وكان
يوجه إلى السياسة الفرنسية نفس الاتهامات التي كان حزب المتعصبين الكاثوليك
يرجونها إليها . أي أنها مقامحة مع انصار لوثر الألمان . وزاد الشعور بالعداء
بين بآريس ونانسي ، وزادت خطورته . وفي أثناء عام ١٦٢٩ المصعب ، استقبل
شارل الرابع في عاصمته الأمير جاستون أمهير أورليان ، وشقيق الملك ،
والذي كان معادياً للوزارة الموجودة ، وترك البلاط . وفي بداية عام ١٦٣٠ ،
وبينما كانت قوات آل هابسبورج ، من الفرعين - فرع فينا ، وفرع مدريد -
تتأخر في إيطاليا مواقع كزال ومانتوا ، وفي الوقت نفسه الذي قام فيه أحد
الجيوش الفرنسية ، بقيادة ريشيليو نفسه بعبور جبال الألب مرة ثانية ، قامت
بعض فرق الجيش الإمبراطوري بعبور الفوج ، وقامت باحتلال مدينتين
صغيرتين في اسقفية ميتر ، هما فيك وموانيفيك . وكانت شئون ألمانيا وشئون
إيطاليا قد أصبحت بهذه الطريقة مرتبطة ببعضها ، وأظهر ريشيليو عزيمته على مواجهة
الموقف بكل شجاعته واستعد الملك ، على رأس أحد الجيوش الذي جمع بسرعة
في شيمانيا ، للتدخل إلى الشرق . أما ريشيليو فإنه أخذ قيادة جيش الألب ، ولم
يتوقف أمام احتجاجات أبناء سافوا ، والذي كان يشك في ولائهم ، واستولى
على ينيرول وسالوس - الأمر الذي كان يعني وضع مفاتيح الألب الرئيسية في
جيبه . ثم قام بزيادة الضغط على تورينو . وأصبح في وسعه في ذلك الوقت أن
يمنح الخصم ، ونتيجة لتدخل البابا ، هدنة لمدة ثلاثة أسابيع . وفي أثناء ذلك
الوقت كان الملك قد دخل إلى اللورين على رأس قواته ، وأعاد احتلال موانيفيك
في شهر ديسمبر ١٦٣١ ، ثم أجبر الدوق شارل الرابع على أن يسلمه أحد

الأماكن المجاورة ، وعلى أن يعد بالامتناع بعد ذلك من كل اتصال مع خصوم فرنسا للعلتين .

ولقد تم عقد الصلح بصخوية ، وعلى مراحل . ففي راتيسبون تم اعداد نسوية بواسطة سفراء فرنسا لدى الدايت : ولكن الكاردينال رفضها ، وعلى أنها تعطى ميزات كبيرة النخيم . ولكن هذا الأمر لم يؤثر على إحترام الرضعية القائمة ، التي عادت بقرة السلاح . أما في ايطاليا ، فإن ريشيليو نفسه هو الذى قاد للمفاوضات . وفي معاهدة شيرازكو فى ٩ يونيو ١٦٣١ ، وسع الاسبانيون تنازلاتهم التي كانوا قد قدموها في راتيسبون ، موافقين على عودة دوق مانترا إلى كل أملاكه . وفي أثناء ذلك الوقت ، لم يكن في وسع دوق سافوا ، والذي كانت كل أراضيه تحت سيطرة الفرنسيين ، أن يرفض التنازل لهم عن بنهول ، والتي كانت فيما مضى من بين الممتلكات الفرنسية في أثناء القرن السادس عشر ، وتخل عنها هنرى الثالث حوث ترويس . وهكذا تجد أن ريشيليو قد كسب جولة صنبه : وكان قد أعاد قوة فرنسا على الالب بطريقة مدعمة .

أما دايت راتيسبون ، والذي أجهت فيه شئون الورين وشئون سافوا في نفس الوقت ، والذي عمل فيه الكاثوليك الألمان ، والبروتستانت الألمان ، متفقين فيما بينهم ، على نوع سلاح الامبراطور ، وذلك في نفس الوقت الذى وصلت فيه أبناء نول السويديين في يومهايا — كان دايت عام ١٦٣٠ هذا يمثل نقطة تحول في تاريخ حرب الثلاثين عاما . ومنذ هذا التاريخ ، أصبح من الضروري تحويل الانظار صوب الشمال ، وصوب ساحل بحر البلطيق ، حيث كانت القوات السويدية الأولى قد نزلت على الأرض الالمانية .

الفصل الرابع عشر

حرب الثلاثين عاماً ونهاية التفوق الإسباني

تطور الازمة وتسوية الصلح

ستقوم السويد الآن بالدور الأول في حرب الثلاثين عام ؛ وكانت دولة صغيرة حتى ذلك الوقت ، وحتى صغيرة للغاية إذ أن قلة عدد سكانها — بالكاد مليون من السكان — تضعها تقريباً في نفس مستوى الدانمرك ، وإن كانت سوف تلعب ديناميكية متفوقة ، الأمر الذي يؤهلها الصعود إلى مستوى الدول العظمى في بضعة سنوات وفي دراستنا المدرسية ، أى المختصرة ، من حرب الثلاثين عام ، نعودنا أن نتحدث عن المرحلة « الدانمركية » ، ثم نتحدث بعد ذلك عن سنوات ١٦٢٥ — ١٦٢٩ ، أى عن المرحلة « السويدية » . وليس هناك وجه مقارنة ممكن ، وعلى الأقل وجه القياس ، بين الواحدة والأخرى من هذه المراحل . ذلك أن تدخل السويد لن يمثل مجرد مرحلة : ذلك أنه سيطول مع عملية للتدخل الفرنسي والتي ستعطي للآزمة ، والتي كانت مجرد أزمة ألمانية حتى ذلك الوقت ، صفة الآزمة الأوروبية الكبرى .

١ - عمليات جوستاف أدولف في ألمانيا :

فما هي الدوافع التي دفعت ملك السويد إلى الدخول في هذه الحرب ، والتي كان في وسع ما حدث للدانمرك أن يدفعه إلى قياس غاظرها ؟ وهل كانت الرغبة إلى معونة أبناء مذهب المهددين بالخطر قد تفوقت على طموحه الخاص بالإفادة من الظروف من أجل أن يمد نظام حكمه على الساحل الجنوبي لبحر البلطيق ؟ لقد حدثت مناقشات ساخنة ، وظهرت آراء مختلفة في هذا الموضوع . وليس من

الحتم علينا أن نختار فيما بينها . ولم تكن الروح السليبية في أى وقت من الأوقات منفصلة أبداً عن الأطماع الإقليمية وكان على جوستاف أدولف أن يقتنع بها كلها في نفس الوقت ، أو يقتنع بها الواحدة بعد الأخرى . وكانت له وسيلة غزو ممتازة ، تتمثل في ذلك الجيش الذى قد منح كل عنايته ، والذي كان قد دربه في أثناء سلسلة طويلة من العمليات ضد بولندا . فلن يشير دهمشتنا أنه قد فكر في إستخدامه ، في صالح الحرب الأهلية التي كانت مشتتة في ألمانيا ، لكي يمد حكمه إلى تلك الأقاليم التي كانت تدين بنفس مذهبه . وكان قد وقع مع بولندا على هدنة لمدة ست سنوات . وبدت هذه الهدنة على أنها كافية لكي يجبر ما كان مصمماً على القيام به في ألمانيا . فكيف تمكن من عمل حساباته بالنسبة لضخامة النتائج التي سوف تنتج عنه ، في حياته ، وبعد موته ؟

وكان جوستاف أدولف قد أدخل تعديلات على تنظيم الجيوش وتسليحها ، وترتيب القوات على أرض المعركة ، وإستخدام التنظيم الرفيع بدلاً من التنظيم العميق . وكان جيش السويد جيشاً وطنياً ، جمع من الفلاحين السويديين ، من أجل الواجب ، لا من أجل المصلحة . ومع تدريبه ، كان يخضع لنظام صارم . وكانت أسلحته متطورة ، ومن أجل تخفيف النقل على المحاربين ؛ فكانت كل من الحراش والبنادق ، أقصر في طولها ، كما أنها كانت قد إستغنت عن فتيل البندقية ، وأصبحت تستخدم الخرطوش ، الذي يجمع بين البارود والطلقة ؛ كما أن المدافع كانت أخف ، وفوهاها من النحاس ، ويجرها زوج من الخيل ؛ الأمر الذي كان يسهل الحركة ، والمتابعة ؛ ويعطى سرعة إطلاق النيران . وكانت هذه ميزة كبيرة للسويديين ، في كل أرض وفي كل ظروف مناخية ، وبكفاءة نيران (١) .

(١) أنظر : د. جلال يسي : معالم التاريخ الحديث ، الإسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٧٦ م . ص ١٨٠ .

وكانت قوات الامبراطورية ، من جانبها تظهر إحتقارها لتلك العشرة آلاف رجل الذى كان جوستاف أدولف سيحضر بها . وأخذ فالشتين يذكر ويردد أن ملك الثلج ، إذا ما غامر بالجمىء مع جيشه إلى قلب ألمانيا ، فإنه «سيدوب» فى أثناء الطريق . وهذا يفسر كيف أن المنتخبين فى راتيسون لم يترددوا فى أخذ قرارهم ضد الموفق . وبعد أن ذهب فالشتين ، تم تسريح قواته . ومن الناحية العملية ، سيقى جيش تيل بمفرده فى غط النار . وفى العام الأول ، لم تقم مواجهات جادة مع السويديين . وكان جوستاف أدولف قد إستولى على إستراسوند ، ثم على ستين ، عاصمة دوقية بوميرانيا . وتمكن من إرغام الهوق على أن يعترف له بالسيادة ، ويترك له حرية التصرف فى دوقه ، التى سيستخدمها كقاعدة للعمليات ثم قام بعد ذلك بإحتلال إحدى الامارات المطلة على بحر البلطيق ، وهى دوقية ميكليورج . وتضاعف عدد قواته فى بضعة أشهر . ومن أول الأمر ، كانت هناك بين جنوده ، ومن اللحظة الأولى ، عدداً من المتطوعين الأجانب ، من الإسكتلنديين ، ومن الألمان الذين كانوا فى عصابات مانسفيلد . وفى وقت تسريح جيش فالشتين ، بدأت عملية نقل دماء جديدة : خاصة وأن فالشتين كان يستغنى عن الرجال من كل نوع ، وكانت قواته تضم عدداً من البروتستانتين .

ومع ذلك ، فإن الخوف من الجيوش الامبراطورية ، قد إستمر ، وبشكل يجعل الامراء البروتستانتين يهيئون فى أول الأمر بإجابات قاتره على مفاتحات هذا الحليف الجديد ، الذى أتى لهم من الشمال . وكانت تلك التجربة الناشئة للدانمركيين لا تشجعهم كثيراً . وحتى منتخب براندبورج ، وهو نصيب جوستاف أدولف ، رفض إستقبال السويديين فى قصره الحصين فى سياتداو : ولم يتراجع إلا حينما رأى مدافعهم موجهة صوب برلين . أما منتخب ساكس ،

وهو رئيس تقليدى لانصار لوتر، فإنه حاول كسب الجولة دون أن يستخدم السلاح ، ويدفعه أحد الخصوم ضد الخصم الآخر . وكان أحد المؤتمرات قد انعقد في ليبزج ، في شهر فبراير ١٦٣١ ، وقرروا أن يرفض في الوقت عروض جوستاف أدولف ، فأبلغ إلى فرديناند الأعمية إلى بمقدما أمراء الدول الكاثوليكية لبقاء على الحياد ، وشروطهم من أجل ذلك . ولكن هناد الامبراطور استمر ، ثم حدث في شهر مايو عملية نهب بحد نهب بروج ، تلك المدينة البروتستانتية بواسطة قوات تيل ، وهو الأمر الذى شجع منتخب ساكس ، وأولئك الذين كانوا يتبعونه ، على أن يقرروا أمر التحالف مع السويد . ومنذ ذلك الوقت سينظر الألمان إلى جوستاف أدولف على أنه رئيس الحروب المعادى للامبراطور .

وانصب غضب الامبراطور على منتخب ساكس مع رغبته في القضاء على محاولاته للساموة ، فقرر أن يجعل من ساكس المسرح الرئيسى للعمليات الحربية . وفي برينسفيلد ، قرب ليبزج ، أصابت تيلى هزيمة ساحقة في ١٦ سبتمبر ١٦٣١ . أما جوستاف أدولف ، والذي لم يكن أحد يعرف حقيقة نياته في هذه الظروف ، فإنه توجه بعد ذلك صوب ألمانيا الغربية ، وصوب أقاليم الراين ، وحيث يقوم باستعراض قوته ويسمح لجيشه بالمعيشة في ظروف أفضل . وعند حدود البلاطينات ، نشبت معركة قصيرة بين السويديين وبين الإسبانين . وفي منطقة المين ، قام بدفع جيش صغير ، أرسله الدوق شارل الرابع الكاثوليكي دوق اللورين ، لنجدة تيلى . وفي أثناء ذلك الوقت قام جان جورج ، منتخب ساكس ، مع رجاله ، بنزو بوهيميا ، واستولوا على براغ . وقضى ملك السويد فصل الشتاء في إقليم المين ، وقام بطرد الإسبانين منه . وكان له هناك بلاط فعلى ، يستقبل فيه السفراء الأجانب الذين حضروا لتهنئته ، ويقيم فيه الحفلات . وأنشأ كذلك على نهر المين ، وقرب إتصافه بنهر الراين ، موقعا عسكريا يسميه جوستاففوج .

فهل كان ذلك يعني أنه في نشوة إلتصاره - وهو إلتصار لافس مادامت النمسا وبافاريا لاتزالا سليمتين - قد فقد المعنى الحقيقي للأوضاع ؟ لقد إعتقد البعض ذلك حين وجدوه يقطع المفاوضات السارية مع فالشتين الذي كان تمهيكياً قبل أن يكون كاتوليكيّاً ، وكان قد إقترح عليه ، منذ أن تنولوا عن خدماته ، أن يماونه . وفكر البعض كذلك فيما إذا لم يكن ملك السويد قد أخذت بعض العطموحات الامبراطورية تدور في رأسه . ولكنه دافع عن نفسه في هذا الأمر أكثر من مرة ، وهى أى حال ، فإنه سوف يختفى قبل أن يكون قادراً حصل على الإلتصار الحاسم الذى كان يحتاجه من أجل السيطرة على ألمانيا .

ورغم مجهودات الدبلوماسية الفرنسية ، التى تدخلت لديه لكى تطلب منه إحترام حياد بافاريا ، قام جوستاف أدولف بغزو بافاريا في عام ١٦٣٢ . وأصبح عليه الآن أن يواجه فالشتين ، الذى كان الامبراطور قد اضطر ، تحت ضغط الظروف إلى أن يستدعيه من جديد ، والذى وصل إلى بوهيميا ، بعد أن قام بطرد الساكسون منها . وبعد عملية غير حاسمة إستمرت لمدة ثلاثة أيام حول نورمبرج ، تخلى عن عملية الخف على فينا ، وعاد بقواته إلى منطقة المين : وكان قد قرر الذهاب للاتصال بالساكسون ، حتى يستعيد التفوق العددي الذى كان قد فقده . ووقعت معركة جديدة وكبيرة قرب ليبزج ، وهو موقعة لوتزين في ١٦ نوفمبر ١٦٣٢ . وكانت نصراً جديداً للسويديين ، وأن كانوا قد دفعوا ثمنها غالياً : فالقائد المنتصر أصابه جرح مميت .

وأظهرت هذه التجربة التى تمت في الحرب في فترة هاتين السنتين أنه من الصعب الوصول إلى نصر حاسم . ويبدو أن المستشار ، الذى سبّلس السلطة بإسم إبنه جوستاف أدولف ، كريستين ، وهي ملكة لها من العمر سبت سنوات ؛

قد فهم ذلك فهما جيدا . فلقد أصر على أن طبيعة العمل الذي قام به السويديون لا تتضمن مصلحة معينة - ولا هدف سوى تدعيم قضية أنصار الانجيل في ألمانيا - ونشر فناء للآلمان حتى يتعاونوا فيما بينهم أكثر مما كان عليه الحال في الماضي وبأسسه ، قام بثلوا أمراء عديدين ودول غريبة عديدة ، مجتمعين في ميلبرون في مارس وأبريل ١٦٣٣ ، بتأسيس اتحاد تكون مهمته الرئيسية إعطاء معونة مالية من أجل الاحتفاظ بالجيش السويدي ، وكانت هذه الجيوش لم يعد فيها الكثير من السويدين ، إذ أن كانت نواجه خساراتها باستخدامها للمتطوعين والمرتزقة ، الذين كانوا يأتون من كل جانب ، وأصبح الآلمان فيها هم الأكثر عدداً . وبعد أن دخل في اللعبة ، قرر هذا الاتحاد إعادة البلايناتات ، والتي كانت في غالبيتها قد خضعت للاسبانيين ، إل ابن المنتخب فريدريك الخامس ، وورثه .

وجاءت سنة ١٦٣٣ لكي تزيد من قلق آل هابسبورج . وكان السويديون ، الذين عادوا صوب الدانوب قد استولوا على راتيسبون : ولم يكونوا قد إقترحوا أبدا من فينا بهذا الشكل من قبل . وفي أثناء ذلك اوقت ، إستمر فالشتين في العمل في بوهيميا وقربها ، محاولا التخلص من الساكسون . مرة بالاسلاح ، ومرة أخرى بالديبلوماسية . ولكن الامبراطور رفض أن يتجه في سياسة التنازلات الذي كان مستعداً لتقديمها لبروتستانت . وعمل خصومه في البلاط على اتهامه بطموحات شخصية ، وأنه يلعب على الطرفين ، وحاولوا أن يجعلوه مشبوهاً . وسحبوا فشل عند نهاية العام في محاولة إستعادة راتيسبون ، أخذوا في مناقشة كفاءته العسكرية علناً . وخضع فرديناند في آخر الأمر لهذه الحركة التي ارتفعت أصواتها ، وبترديد : فقرر أمر إغتياله ، في شهر فبراير ١٦٣٤ . وربما كان التشيك يفكرون يوماً في أن يصبح محرراً لهم . وكان البعض ي

الأقل من بينهم قد عقدوا الآمال عليه . ومع ذلك فإن نهايته المأسوية لم تنسحب في أية حركة في بوميميا .

وبعد ستة أشهر ، فقد السويديون كل فرصهم ، نتيجة لمؤامرة وقعت في بافاريا تحت أسوار نوردينجين في ٦ سبتمبر ١٦٣٤ . وكان هذا يعني أن يميل لليزان ، هذه المرة ، في صالح الإمبراطورين ، خاصة وأنهم كانوا قد أفادوا من معونة أحد الجيوش الأسبانية الذي كان قد هجر الألب ، ورحل صوب الأراضي المنخفضة بقيادة الكاردينال الأمير ، أخو فيليب الرابع . وهكذا ظهر التضامن بين هابسبورج ، فينا وهاپسبورج مدريد في الوقت المناسب ، وبطريقة حاسمة . ومرة جديدة ، بدت قضية البروتستانت على أنها قد أنهارت . وإنسحب السويديون إلى أمام اللين . وحل لإتحاد هيلبرون . أما منتخب ساكس فإنه وضع حداً لمفاوضاته المستمرة مع فرديناند ، ووقع على شروط الصلح ، والتي ستخرج منها ، في ٢٠ مايو ١٦٣٥ ، معاهدة براغ .

وكان الأمر يتعلق ، من حيث البداية ، بتسوية المسألة الدينية بالنسبة لألمانيا كلها . ولكن الأمير الذي وافق على تحمل مسؤولياتها أعطى لها طابعه الخاص . فتطبيق مرسوم إعادة الحقوق لن يوقف العمل به — خلال فترة أربعين عاماً — إلا في صالح أنصار لوتر وحدهم . أما فيما يتعلق بأمالك الكنيسة التي خضعت للنظام العلماني ، فسجود منها فقط إلى أملاكه الشرعيين ، تلك الأملاك التي تم التنصرف فيها منذ عام ١٦٢٧ : وكان هذا يسمح للأمير أغسطس ، أمير ساكس ، والذي كان يدير مؤقتاً رئاسة أسقفية مجد بروج ، والتي كانت أملاكها قد نزع في عام ١٦٢٨ ، بأن يعود إلى ملكيتها . أما تحويل بلاتينات الراين . وكذلك منصب المنتخب فيها ، إلى دوق بافاريا ، فإنه تم التصديق عليها . هذا علاوة على أن الإمبراطور قد منح عقراً عاماً ، يطبق بالنسبة لكل الإحداثيات التي وقّع

في ألمانيا منذ نزول السويديين إليها . وأخيراً فإن الاثنين المتعاقدين قد تمهدا بالحصول على موافقة كل أمراء الإمبراطورية ، الكاثوليك والبروتستانت ، على هذه الاتفاقية . وقد اضطر عدد كبير من البروتستانت ، وهم قلقين على مصيرهم ، إلى الموافقة على هذا الصلح السوي . ولم يبق إلا التقليل من أجل إنهاء تاريخ حرب ألمانيا في عام ١٦٣٥ . ذلك أن المستشار ، الرعي على عرش السويد ، كان قد أقاد من دروسها ، وقدم بدوره لفينا إقتراحات الصلح . ولكن فردينا قد أجاب مطالباً بإخلاء كل الأراضي الألمانية . وكان هذا يعني أن شيئاً لم ينته . ذلك أن السويديين ، بعد أن تحلى عنهم أبناء مذهبهم من الألمان ، سوف يجدون الوسائل لاستمرارهم في الحرب نتيجة لتعاطفهم ، والموتة المسلحة التي سيحصلون عليها من فرنسا الكاثوليكية .

٤ - العمليات الفرنسية :

كانت الدول العظمى الثلاث في الغرب قد ظلت في موقف للتفرج أمام الازمة الألمانية حتى نوردنجن .

أما فيما يتعلق بأسبانيا ، فإنها كانت ستدخل ، إذا كان الأمر يتعلق بها وحدها . وكانت المشغولية الكبرى لأوليفاريس ، منذ الوقت الذي وضع فيه الأسبانيون أقدامهم في البلاينيات ، هي ألا يتركهم يطردون منها . وتوسعت له هذه المسألة في مشغوليات كبيرة ، لم تكن كلها تتعلق بألمانيا ، بنفس درجة تعلقها ببلجيكترا : ذلك أن جيمس الأول ، ومن بعده شاول الأول ، كانوا يشعرون بإغراء ، أو يضطرون من جانب الرأي العام ، للدفاع عن مصالح نسيهم ، وهو المنتخب الذي فقد أملاكه . ولذلك فإن كل محاولة للتقرب من لندن سيكون مصيرها الفشل ماداموا يرفضون التفكير في إعادة البلاينيات إلى أصحابها الشرعيين . وكان الإمبراطور ، من جانبه ، وحتى إذا كان لا يقوم برد فعل ، مؤقتاً ضد

هذا التدخل الاسباني في الشئون الالمانية، يرفض قبول عروض التعاون العسكري من جانب أبناء أعمامه ، إذ أن هؤلاء الاخوين كانوا ينرون، وعلى أساس معاملة للمثل ، الحصول على تدخله في الحرب في الاراضى المنخفضة .

أما الحكومة الانجليزية ، من ناحيتها ، فكانت تشمر بمواقف طيحية قوية تجاه البروتستانتين . وكانت عدم كفاية مواردها بشكل دائم ، أى عدم كفاية قوانينها المسلحة ، هى التى تمنعها من الاهتمام بشكل فعال بشئون القارة . وكانت التجارب الفاشلة التى حدثت بعد عام ١٦٢٥ ، مثل القتل أمام قادس ، والقتل أمام لاروشيل ، هى التى عملت على تهدئة نية شارل الأول للحرب . ثم جاءت وفاة باكنجهام مقتولا فى عام ١٦٢٨ . وابتداء من عام ١٦٣٠ ، دخلت انجلترا من جديد فى تلك الموهلة التى كانت موجودة فيها فى عصر جيمس الأول : ولن تخرج منها بعد ذلك قبل فترة ديكتاتورية كرومويل ، ولم تعلن انجلترا حيادها ولكن مواطنيها تجاه خصوم آل هابسبورج ظلك أفلاطونية ، وعلى الأقل حتى تدخل السويد فى الحرب. وفى الوقت الذى مد فيه شارل يده إلى جوستاف أدولف أعطاه تحالفاً ، وأرسل إليه الأموال ، وحتى بعض الكتائب .

أما فرنسا فى عهد ريشيليو ، فإنها لم تقم بأى شئ أكثر من ذلك فى بداية الأمر وبمعاهدة باروالة ، فى شهر يناير ١٦٣١ ، التى عقدت لمدة خمس سنوات وحدت السويديين بمعونة سنوية تبلغ مليون جنيه . وحصلت فى نظير ذلك من ملك السويد على تمهد باحترام الاراضى البافارية ، وكذلك أراضي الامراء الكاثوليك الآخرين فى الامبراطورية ، والذين ، يحتنون مثل بافاريا ، ولا يشاركون فى الحرب .

ومن بين هذه العمل العظيم للثلاث كانت فرنسا هى الاولى التى تخلت عن

حيادها . ولكنها لم تدخل في ذلك الصراع إلا لكي تدافع عن نفسها ، ومدفوعة بالأحداث التي وقعت ، والتي لم يكن في وسعها أن تلتبأ بها .

وحين بدأت العمليات الحربية من جديد بين السويديين والإمبراطوريين كانت فرنسا مشغولة بنوع خاص بشئون اللورين . وكانت الصعوبات التي تواجهها من أجل جعل الدوق شارل الرابع يحتفظ لها بإحترامها تتجدد ، وبزيد خطورة من عام لعام آخر ، حتى وصلت في يوم من عام ١٦٢٢ ، وجد فيه ريشليو نفسه ، يكاد يفقد الصبر ، فقرر إنهاء هذه الوضعية . وكانت قوات من اللورين قد أرسلت إلى الألزاس ، لتتخذ موقع هاجيناو ، وكانت تهدد السويديين حلفاء الملك . وفي هذه المرة لم تقنع فرنسا بالوعود : بل قامت باحتلال عاصمة الدوقيات ، ولحين صدور أوامر أخرى وضاعت هبة شارل الرابع من جديد وفهم أن الأمر يتعلق باستقلال اللورين ، فقرر التنازل عن الإدارة . فقام الفرنسيون بالإستيلاء على الدوقيات ، بصفة مؤقتة . ولقد استمر إحتلالهم نتيجة لتطور الأحداث ، لمدة خمس وعشرين عاماً ، وحتى وقت عقد صلح البرانس .

وفي منطقة أقاليم الراين ، وابتداء من عام ١٦٢٢ ، كان ريشليو قلقاً من نيات السويديين . وكان مضطراً إلى حمل حساب لذلك الرأي العام الكاثوليكي والحساس إلى درجة بعيدة ، فتردد لفترة طويلة قبل أن يقصد معهم تحالفاً يهدد مركزه . ولكن سرعان ما ساءل نفسه عما إذا كان يأمل في إلتصافهم ، أو يخشى منهم . وفي عام ١٦٣١ ، وضع رئيس الاساقفة للنتخب لتريف نفسه تحت حماية الملك وبإتفاق معه ، وجاءت القوات الفرنسية ، وإحتلت قلعة مواجهة لكوبلانس . وفي عام ١٦٣٣ قام أحد قادة الجيوش التي كان موجوداً في اللورين ، وهو المارشال دي لافورس ، بإغتيال فرار لإرسال بعض القوات الصغيرة لإحتلال

بعض المدن الصغيرة في الأراض ، وهي المدن التي استجلبت به لحايتها ، وهي عاتقة من السويدين ، خاصة وأن الجنود السويدين كانوا يستخدمون العنف مع الأهالي .

ومن ناحية الأراض المنخفضة ، فإن ريشليو ، في نفس الوقت الذي وفي فيه بالتزاماته المالية لمعاهدة ١٦٢٤ ، ظل وقتاً طويلاً في موقف الانتظار . وكان يكفي أن تستمر الحرب هناك ، وتعمل على شغل الأسبانين . ومع ذلك فقد بدأ ظهور الخطر بقرب عقد صلح ، كان الأهالي المنهكين يأملون فيه بشكل شبه جماعي . ولذلك فإنه لم يمر وقت طويل إلا وظهر التدخل الفرنسي هناك على أنه ضرورة . وكانت عملية التدخل مطروحة منذ عام ١٦٣١ ، وحيث كان جزء من النبلاء البلجيكيين غير الراضين قد إلتجأوا إلى الفرنسيين وإلى الهولنديين لمعاونتهم على تحرير بلادهم من السيطرة الأسبانية . ولقد طرح ملك فرنسا بطبيعة الحال شرطاً يتمثل في أنه سيستعيد ملكية دهراته القديم ، أي الفلاندر وآرتوا . وقاموا في لاهاي بالتفكير في خطة التقسيم . ولكنها لم تنفذ ، وأن كانت المحادثات الفرنسية الهولندية لم تنقطع منذ ذلك الوقت . وانفقوا في شهر أبريل عام ١٦٣٤ على معاهدة جديدة للتعاون فقط ، ولم يتوصل ريشليو إلى أن يقرر أمر التدخل العسكري : فكان مشغولاً بالخوف من أن يقوم جاسترون ، دوق أورليان ، بوضع نفسه وقواته في خدمة الأسبانين . وتردد هذا الزميل اللئيم ، والذي كانت عملية أخذ القرارات بالنسبة إليه إحدى الصفات المميزة ، وشعر بالخوف . ووصل من ذلك إلى أنه نظر إلى أمر تقسيم الأراض المنخفضة على أنها عملية طموحة للغاية : فسيقوم بطرد الأسبانين ، فهذا أمر متفق عليه ، ولكن فقط بمعونة البلجيكيين ، ولكي يسمح لهم بالحصول على إستقلالهم . وعلى هذا الأساس الجديد تم عقد معاهدة التحالف الهجومى والدفاعى : فتن تقسم

الأراضي المنخفضة إلا في حالة غير متوقعة ، وهي أن يرفض البلجيكيون التعاون من أجل تحريرها .

ولكن الوضع العسكى لم يكن هو نفسه الموجود فى العام السابق فكان وصول الكاردينال الأمير ، الذى إلتصق فى نوردامين إلى بروكسل ، ومعه جيشه ، يريد إلى حد بعيد من إمكانيات مقاومة الإسبانين . ولذلك فإن العملية لم تبدأ إذن فى تلك الظروف المواتية التى كانوا يأملون فيها إذا ما كانت قد تهررت قبل ذلك .

ولم تبدأ العمليات الحاسمة إلا فى ربيع عام ١٦٣٥ فقط . ففى يوم ٢٨ أبريل ، وبمبادرة كومين ، أعطى ريشليو ، وبعد تردد كبير كذلك ، تحالف فرنسا الكامل لأوكستين . وتمهد الطرفان على إعادة إقامة الأوضاع السابق لعام ١٦١٨ فى ألمانيا . أى إلغاء كل النجاح الذى كان الكاثوليك قد حصلوا عليه منذ بداية الحرب . واحتضرت باريس من قطع علاقاتها بعد ذلك مباشرة مع الأمبراطورية . ولمكن إعلان الحرب وصل إلى بروكسل يوم ١٩ مايو مع مندوب من جانب الملك . ولقد استند ذلك إلى عملية أسر الاسبانين لرئيس أساقفة تريف ، والذى كان ، وهو بخائف من السويديين ، قد وضع نفسه تحت حماية الملك منذ عام ١٦٣٢ ، والذى كان قد إستقبل حاميات فرنسية فى المواقع الرئيسية من إمارته المنتخبة .

ولن يعمل التدخل الفرنسى ، الذى جاء متأخراً ، على تغيير مسار الحرب فى الأراضي المنخفضة بشكل واضح . ولن يكون له سوى تأثير غير مباشر على الحرب فى ألمانيا ، وذلك عن طريق إحتفاظه بالجيش الاسبانية بعيدة عنها ، لفترة من الزمن .

وكانت سلسلة من العمليات الميدانية قد مهدت للدخول إلى المعارك ، إذ أن

كل تدخل القوات الفرنسية في الأراضي المنخفضة كان يتضمن ، مسبقاً ، أخذ إجراءات أمن على جانب هذه الجيوش التي ستبتعد عن الحدود في اتجاه الشمال . ولم يكن الدخول إلى دوقيات اللورين ، منذ عام ١٦٣٢ ، هو الإجراء الوحيد . وبعد بضعة أشهر ، كان ظهور الفرنسيين في الألزاس هو نتيجة لوضع قوات اللورين خارج اللعبة . ثم بعد ذلك ، وفي عام ١٦٣٤ ، وبعد الهزيمة الكبرى التي لوت بالسويديين في نوردينجن ، جله الاحتلال الفرنسي لكي يأخذ ، في كل هذا الإقليم ، مكان الاحتلال السويدي . وكانت كل هذه الإجراءات لها الصفة المؤقتة من حيث المبدأ . وكانت عند ريشيليو فكرة ضعيفة للغاية عن إقامة مستمرة هناك ، حتى أنه سيقوم بعد ذلك مباشرة بعقد معاهدة مع أحد الأمراء الألمان ، وهو برنار صاحب ساكس فيار ، وأفضل ياوران جوستاف أدولف ، واعترف له بكل الحقوق التي كانت الاسرة النمساوية الحاكمة تمارسها في الألزاس ، وبشرط الدفاع عن البلاد ضد الأمبراطورين ؛ وهي معاهدة سان جرمان في ٢٧ أكتوبر ١٦٣٥ .

وفي الأراضي المنخفضة ، إنهارت الآمال التي كانت قد نشأت من التعاون الفرنسي الهولندي ، منذ العام الأول . وكانت حملة ١٦٣٥ ، وهي الوحيدة التي تمتحق النعمن فيها ، غنيية للآمال بدرجة كبيرة بالنسبة لمحسوم إسبانيا . فقام الجيش الفرنسي ، مع الجيش الهولندي الذي انضم إليه عند الموضع الذي كان فريدريك هنري . أمير أورانج ، قد انتصر فيه في عام ١٦٣٢ ؛ ثم زحفاً سوياً على بروكسل . ولكن البلجيكيين ، بدلاً من أن يسهلوا تقدمهم ، أظهروا عدائهم : فكانوا يخشون من أن يستبدلوا سيطرة الأقاليم المتحدة ، وهي من أنصار كلفن ، بسيطره إسبانيا ، وكانت كاثوليكية . وتسيبت مزيجه خطيرة أمام لوفان في بدايه حركة الإنسحاب العام . وتم الإنسحاب في اتجاه الشمال . وستعطل القوات

الفرنسية ، بعد أن تقضى الشتاء عند حلفائها الهولنديين ، إلى العودة إلى وطنها عن طريق البحر في عام ١٦٣٦ . وكانت النتيجة الأكثر وضوحاً لهذه الحملة الفاشلة تتمثل في عودة مفاوضات الصلح مباشرة بين الإسبان وبين الهولنديين .

وكانت هذه الظروف الجديدة تهم ، وأكثر من أي وقت مضى ، قطع خطوط المواصلات بين فرعي آل هابسبورج : ولذلك فإن مشكلة فالتيلين قد عادت إلى الظهور من جديد . وفي السنوات السابقة ، كان الإسبان قد نقضوا المعاهدة ، وإستخدموا المرمر وكان شيئاً لم يكن يمنهم من إستخدامه ، وقام جيش صغير ، بقيادة دوق روهان وهو من الهيجونوت ، والنصم القديم لريشيليو . بإحتلال طرفي المرمر ، منذ إعلان الحرب ؛ وحافظ على مواقفه هناك رغم الهجمات المتتالية من جانب الأسبانين ، والإمبراطورين ، وكانت البداية مشجعة ، ولكنها أصبحت بعد ذلك أقل تشجيعاً . ذلك أن دوق سافوا ، فيكتور أميدي ، نسيب لوى الثالث عشر ، قد أصبح حليفاً له بمعاهدة ريفولي ، في ١١ يوليو ١٦٣٥ ، والتي كانت قد وعدته بجزء من أراضي ميلانو حين يتم غزوها ، أما الباقي فسيذهب إلى كل من دوق بارما ودوق مانتوا . وبدأ هجرم مشترك على ميلانو في عام ١٦٣٦ ، من جانب بواطة روهان ، ومن جانب آخر بجيش فرنسي ومن سافوا في نفس الوقت ، ولكنه فشل قبل أن يحقق أهدافه . وتميزت الحملة التالية بهزيمة أكثر فداحة : فأدى عدم لباقة روهان إلى ثورة قام بها الأهالي ضد التدخل الفرنسي في شؤون البلاد . وتطلب الأمر العودة إتفاق يرجع إليهم إقليم فالتيلين . وفي هذا الوقت جاء موت فيكتور أميدي ، وكان ذلك يمثل بداية أزمة لتعالف مع سافوا . فعمل بعض أمراء الأسرة على إثارة الرأي العام ضد الدوق كريستين ، أخت الملك لوى الثالث عشر ؛ وتم محاصرة القوات الفرنسية ، لفترة من الوقت ، داخل قلعة تورين . وإنتهت الدوقة بكسب الموقف ، ولكنهم أصبحوا في ياديس غير قادرين على الإعتماد على معونة أبناء سافوا .

وهكذا نجد أن العمليات على حدود الألب وفي إيطاليا لم تعط أية نتيجة . أما تلك العمليات التي وقعت في نفس الوقت على حدود البرانس فإنها كانت محدودة في أول الأمر داخل أراضي الباسك . ولم تظهر أهميتها ، إلا في عام ١٦٤٠ ، وحين يقتل بعد ذلك إلى روسيليون . وحتى ذلك الوقت ظل إهتمام الحسرب مركزاً في الشمال ، وفي الشأن الشرقي ، وكان التضامن بين فيناوبين مدريد يستمد عملياً على هذه المنطقة .

وفي بداية الحملة التالية ، قام الفرنسيون بهجوم على فرائش كونييه ، وهو الذي أوقفه الأسبانيون بسرعة . ولما كان هذا الإقليم دائماً ، ومن حيث المبدأ ، أحد مناطق الامبراطورية ، فإن الإمبراطور فرديناند قد إستند إلى ذلك وأعلن الحرب ، في شهر سبتمبر ١٦٣٦ . ووضع تحت تصرف الكاردينال الأمير الاسباني ، أحد قادته ، بيكولوميتي ، ومعهم بعض القوات . وبهذه الطريقة تمكن جيش كبير ، في أثناء الصيف ، من غزو بيكلردى ، ومن التقدم حتى السوم ، الأمر الذى أذهل باريس ، ولكن سرعان ما زال هذا الخطر ، خاصة وأن العدو كان قد أنهك قواته في هذا الهجوم المتهور . وبعد بضعة أشهر ، جاء القلق من حدود برجنديا : فقام جيش إمبراطورى بإحتلال بعض المواقع ، وبمحاصرة غيرها . ومن هذا الجانب كذلك ، إنتهت الحملة بالنجاح الكامل الفرنسيين .

وفي هذا الوقت ، أى في عام ١٦٣٦ ، ظهر أن مصير الحرب لم يكن مؤكداً . فرغم النجاح المؤقت ، الفرنسيين وللإسبانيين ، فإن أحداً منهما لم يكن قادراً إلا على الاحتفاظ بمواقعه ، دون أن يؤثر على مواقع الخصم وبشكل مثابه لذلك . كانت العمليات على حدود ألمانيا لها طبيعة دفاعية . ففي عام ١٦٣٥ ، كان جيش

اللوردين الفرنسي ، بقيادة الكاردينال دي لافاليت ، قد ذهب وعاون جيش
أمهر ساكس فيار ، الذى كان قد طرد منذ بعض الوقت من مايانس ، وعاونه
على أن يتمركز من جديد على نهر السار . وفى هذا الوقت ، إختار ريشيليو برنار
أمهر ساكس فيار ، من أجل المدفاع عن الألزاس ضد الإمبراطورين ، وبمساعدة
المعنونات الفرنسية . وبدأت هذه العملية فى ذلك الوقت ، على أنها موفقة . خاصة
وأن الصعوبات قد تزايدت ، وبدأ أن موقف الفرنسيين ، فى الألزاس ، قد أصبح
دقيقاً . وفى عام ١٦٣٦ كان من الصعب تموين حاميات المواقع المختلفة ، عبر الفوج
والى كان الإمبراطوريون يضغطون عليها من قرب . وزاد وضوح الموقف
شيئاً فشيئاً ، وحصل برنار ، على تصريح من باريس فى عام ١٦٣٧ ، بمبور
نهر الراين ، وبخطوق وعاصرة برياش . وكان الاستيلاء على برياش فى
١٧ ديسمبر ١٦٣٨ ، والذى حدث فى وقت كانت القوات غير قادرة فيه على
السهر فى الاراضى المنخفضة كافياً لكي يحتفلوا به فى فرنسا ، وعلى أنه انتصار
عظيم .

وعلى العكس من حلفائهم ، فإن السويديين قد نجحوا فى هدم الدخول
فى عمليات حصار . وكانوا مخلصين لطريقة حمل جوستاف أدولف ، فاستمروا
فى القيام بالحرب ، مع الحركة . وبعد أن إنطلقوا من يومرانا كقاعدة لعملياتهم
قاموا بحملات فى إتجاه الجنوب ، وحاولوا ، وإن كان ذلك بدون نجاح ،
الوصول إلى الإمبراطور فى أراضى أسرته . وبعد بضع سنوات ، سترتبط لعملياتهم
بطريقة أقوى ، بعمليات الفرنسيين . ويتم عقد معاهدة تحالف جديدة فى هامبورج
فى ١٥ مارس ١٦٣٨ . ومنذ ذلك الوقت ستحدد الأهداف بالإتفاق المشترك
وسيتنسيق بين العمليات . ومع ذلك ، فإن الاعداء البسيطة للقوات الموجودة

مع مارشال جيريان لم تكن تسمح لفرنسا بالقيام بشيء هام . ولكن هذا المرفق لم يكن ، بالنسبة لفرنسا ، هو أهم مواقع الحرب .

وكا ، ويشيليو قد دخل الحرب لوضع حد لذلك « التقدم الأسباني » الذي هاجمه في مذكرته التي كان قد قدمها للملك في عام ١٦٢٩ . وكان الأمر يتعلق بصفة أساسية ، وبالنسبة إليه ، بإجبار الخصم التقليدي على أن يرفع أيديه عن تلك القطاعات التي كانت سياسته الخاصة بالفوز فيها تهدد المصالح الفرنسية ، وينزع خاص في البلايين وفي فالتيلين . ثم حدث بعد ذلك . وبهتظ وتطور الأحداث ، أن أعيد طرح مسألة الأراضي المنخفضة من جديد . وكان على السلاح أن يقرر المسألة . ولكن ذلك لم يكن يعنى عدم استخدام الدبلوماسية .

فقبل بداية العمليات الحربية ، وحتى من وقتها ، لم تكف الدبلوماسية عن القيام بنشاط كبير . واهتمت بأن تعد ، ومن بعيد ، أمر القسوة السلبية . وبطرق سرية للغاية ، عمل مندوبي الكاردينال على استغلال أقل نجاح عسكري . حقيقة أن للخصم لم يكن قد أظهر حتى ذلك الوقت إستعدادات طيبة ماثلة . ولم يكن أوليفانيس هو ذلك الرجل الذي تشبذ الهزائم المؤقتة من هزيمته . وكان الصلح الوحيد الذي يبدي إستعداده للتضكير فيه هو ذلك الصلح الذي يعيد إقامة حالة الأوضاع السابقة للعمليات الحربية . واستمر على إتصاله بلندن ، وحيث كانوا لا يطلبون أكثر من أن يسر صوب هتارب ولصكن بشرط إعادة البلايينات إلى أصحابها الشرعيين . ونتيجة لرفض أسبانيا صراحة قبول هذا الشرط ، فألها ظلت معزولة . هذا علاوة على أنه ، منذ أن أخذت أحداث انجلترا شكلا ثوريا أصبحت قوة انجلترا في شبه حوله كاملة .

وفي هذه الفترة مرت قوة أسبانيا بفترات عصيبة ، كانت تمثل ، من بعيد ، فترة حاسمة في تاريخها . فبالإضافة إلى الهزائم العسكرية المتتالية ، يمكننا أن

لضيف ، وفي الداخل ، تشوب حركات ثورية لها إتجاه إنفصالي ، علمت نتائجها على تقليل طاقة مقاومة الأمة . وكان النجاح الأخير ، الذي احتفلوا به في مدريد وبمظاهرات حماسية ، يتمثل في شهر سبتمبر عام ١٦٣٨ في الدفاع الناجح عن فولت أرابي ضد الجيش الفرنسي الذي كان بقيادة أمير كوفندي وبعد شهرين ، جاءت أنباء فقد بريشاش لكي يعم الهجوم : إذ أنه منذ ذلك الوقت أصبح مرود القوات من ميلانو إلى الأراضي المنخفضة عن طريق الألاس غير ممكناً . وفي شهر أكتوبر عام ١٦٣٩ ، أي بعد أقل من عام جاءت أنباء سيئة من جديد ، وأقوى من السابقة : ففي هذه المرة ، انطلق طريق البحر المؤدي إلى الأراضي المنخفضة . فاضطر أحد الاساطيل الذي كان يعب بحر المانش ، ويحمل أكثر من عشرة آلاف رجل ، كدد ، وأرغم بواسطة أمير البحر الهولندي ، تروب ، إلى أن يلتجئ إلى دوفر ، وحيث تمت مهاجمته وتحطيمه بعد عدة أسابيع من مراقبته أما ملك إنجلترا فإنه ، رغم النداءات التي وصلت إليه ، لم يتدخل ، إذ أنه كان مرة جديدة لم يحصل من مدريد على أي تعهد في صالح منتخب البلاتينات . وهكذا أصبحت الأراضي المنخفضة معزولة ، وليست في حالة تمكنها من أن تستمر في المقاومة لفترة طويلة . ولذلك فإنها لن تتأخر كثيراً في أن تقهر ، وفي أوساط الحكومة ، عدم جدوى الاستمرار في حرب لن تؤدي إلى شيء ، ضد الإقليم المتحدة .

وكان عام ١٦٤٠ عاماً صعباً بنوع خاص في شبه الجزيرة . ففي الشرق أولاً ، بدأت ثورة كتالونيا ، والتي كانت من مملكات تاج أربوانة . ولم يكن الفرنسيون غرباء عنها ، رغم أن أسبابها كانت داخلية بنوع خاص . وقامت أحد جيوشهم . بالفعل ، بغزو كونتيه روسيليون ، التي كانت خاضعة لكتالونيا . وكان السكان ، المحرصين للغاية على إنبيازاتهم ، يشكون من الأعمال التي كانت تقوم بها القوات التي كانت مدريد ترسلها إليهم ، ووصل بهم الحال إلى أن

يرفضوا السيادة الاسبانية في شهر يونيو ١٦٤٠ . وفي العام التالي ، وبعد أن ضموا التأييد الفرنسي ، أعلنوا هول فيليب الرابع ، وتولية الملك لوى الثالث عشر كونتا على برشلونة وسرمان ماوصل جيش فرنسي صغير عبر جبال البرانس ، وأن كان قد توقف أمام مدينة تراجونة . وكانوا قد قنعوا إذن بعملية إنهاء إحتلال روسيليون . وسيجيء لوى الثالث عشر بعد ذلك ، مع وزيره ، للإشراف على عملية حاصرة برينيان . سيكون الملك هناك لكي يحصل رسمياً على عملية تسليمها ، في الوقت الذي سيوجد فيه ريشيليو ، وهو مريض للغاية ، صوب العاصمة ، وحيث يموت بعد بضعة أسابيع .

وبعد فترة بضعة أشهر شهدت ثورة كاتالونيا ثورة أخرى مشابهة لها على الطرف الآخر من شبه الجزيرة ، وهى ثورة البرتنال . وكان أحد خلفاء الملوك السابقين ، وهو دوق براغس قد إنتخب ملكاً باسم جان الرابع ، وأعترف به معظم ملوك أوروبا فيما عدا الامبراطور . وأسرع فرنسا بأن عقدت معه معاهدة تصاون مشترك ، في أول فبراير ١٦٤١ . وأرسلت إليه الأموال ، كما أمرت بإرسال أسطول إلى لشبونة ، ثم تدخلت بعد ذلك من أجل أن يقوم الهولنديون ، والذين كانوا منذ وقت طويل مشتبكين مع البرتغاليين في البرازيل ، بمنحهم هدية لمدة عشر سنوات ؛ وذلك في ٢٢ يونيو ١٦٤١ . وبعثت المستعمرات البرتغالية السابقة ، المثل الذي أعطاه الوطن الأم ، وطرحت عن كاملها السيطرة الاسبانية .

ولم يكن في وسع هبة أوليفاريس أن تتحمل كل هذه المصائب . وكان قد تأثر بنوع خاص من فشل بعض المؤامرات التي كانت قد تمت جبايتها ، بتأييد منه ، جنيد ملك فرنسا ، وفي جبالج . جاسيون دوق أورليان . وكان مشرور المعاهدة الذي وضع في مدريد من أجل الصلح ، والذي كان قد حظى بموافقة

المتآمرين ، يقوم أساساً على إعادة تثبيت الأوضاع القائمة . وكان اللقاء قبض ثم تنفيذ الأعدام في جاستون ، بعد اكتشاف المؤامرة ، قد جعل الوزير الاسباني غير قادر على الاحتفاظ بالوزارة ، وبعد أن كان مركزه قد إمتز فيها كثيراً . وتبرأ منه الملك في مدريد بعد فقد برينيان ، في شهر يناير ١٦٤٣ .

وكان فيليب الرابع ، بتخليه عن وزيره ، وتضحيته به غير بعيد عن فكرة الصلح ، والتي كانت تفرض نفسها في ذلك الوقت بقوة الضرورة : فكان مستعداً للقيام باللائم من أجل التخلص من الهولنديين ، أى من أجل منحهم أخيراً الاعتراف باستقلالهم ؛ ولن تتأخر المفاوضات عن أن تبدأ وعلى هذا الأساس . ومن جانب آخر ، فإنه سيتخلى عن دوق اللورين ؛ ويتركه يلتقى معصده ، أو على الأقل لن يطالب له بإعادة كل ممتلكاته إليه ومنذ عام ١٦٤١ ، قنع شارل الرابع ، الذى علم بذلك التغيير في السياسة الاسبانية ، بالبحث عن إتفاق مع فرنسا ، التي كانت قد جردته من أملاكه . وذهب يقدم قروض الولاة في سان جرمان ؛ وحصل على وعد باستعادة دوقياته ، فيما عدا ناسي ، وإضطل إلى أن يقطع على نفسه كل تمهيدات ممكنة تجاه الملك ، والتي لم يكن ينوى الوفاء بها . ولذلك فلإن معاهدة عام ١٦٤١ لن تعتبر لها قيمة لوقت طويل .

ولم تكن هناك أى رغبة في الإسراع إلى الصلح موجودة في أوروبا ، إلا في لاهاى وفي مدريد . وفي كل مكان ، كان المال قد أصاب النفوس وفي ألمانيا ، كان مكسميليان صاحب بافاريا هو الذى يعمل من أجل الصلح بنوع خاص ، ويدافع عن عدوانته تجاه الحروب الاسباني ، والذي كان نفوذه مسيطرأ في فينا . ونتيجة لمجهوداته ، أجبر دايت عام ١٦٤٠ الامبراطور الجديد ، فرديناند الثالث ، على أن يدخل في عاهدات من أجل الصلح . وفي العام التالى ، وفي يوم عيد الميلاد ، قرر ممثل فرنسا والسويد ، والامبراطورية ، المجتمعين في هامبورج ،

فتح المحادثات الرسمية -- في مونستر بالنسبة للدول الكاثوليكية ، وتحذو ساطة
البابا ، وفي أوسنابروغ بالنسبة للبروتستانت . ولم يفكروا في وقف العمليات
العسكرية . ولذلك فإن العمليات العسكرية سوف تستمر وحتى الوقت الذي يتم
فيه الاتفاق على شروط السلم أى لمدة ست سنوات أخرى .

٤ - الحرب الفرنسية الاسبانية ومعاهدات وستفاليا :

في الوقت الذي بدأ فيه أمر تسوية الشئون الالمانية بحكمه وببطء ، استمر
الفرنسيون والاسبانيون في مواجهة بعضهم بعضاً في الاراضى المنخفضة ،
وفي كتالونيا ، وفي إيطاليا .

وعند وفاة ريشيليو ، كانت نتيجة الحرب لا تزال تبدو على أنها غير
مؤكدة . فكان النجاح مقسماً بين الطرفين . وكانت أراى قد سقطت في عام
١٦٤٠ . ولكن هزيمة مونكور ، في شهر مايو ١٦٤٢ أظهرت أن الاسبانيين
كانوا مستمرين في العمليات . ومن جانب آخر ، كانت المحادثات بين باريس
ومدريد التي قطعت وأعيدت مرات متتالية ، لم تصل إلى شئ . وكان أوليفاريس ،
بعد أن طرح من حيث المبدأ أمر إعادة الأقاليم التي كانت قد احتلت من هذا
الجانب أو ذاك ، لم يكن قد بدأ في عملية إعطاء التنازلات إلا مؤخراً . وكان
يتقدم فيها خطوة بخطوة ، وبمجرد ، أملاً ، وأن كان ذلك بلا جدوى ، في أن
الصعوبات الداخلية ، بعد إختفاء ريشيليو ، سوف تعمل على شل الخصم الفرنسي .
وذلك فإن المفاوضات لم تنجح إلا مع الهولنديين . وستنتهى المحادثات ، والتي
كانت مستمرة سراً منذ عدة سنوات ، في مونستر في عام ١٦٤٨ ، بينما يتأخر
الصلح مع فرنسا حتى عام ١٦٥٩ .

وسيتجه إهتمام مازاران بنوع خاص إلى إيطاليا ، وطلته ، بعد أن يحظى

بقية الملك ، وكذلك بقية الملكة الوصية بنوع خاص ، وبأخذ مكان الكاردينال الكيه . وكان ريشيليو قد إكتفى بالتدخل في سهل يو ؛ ولم يرجع ذلك إلى إعماله أهمية المشكلات التي كانت ، طروحة في بقية أنحاء شبه الجزيرة . وكتب في وصيته السياسة أن إيطاليا تعتبر على أنها قلب العالم ؛ وفي الحقيقة تعتبر أم مكان لإسبانيا في إمبراطوريتها . ولكنه كان حتى النهاية لا يستند إلى قوات بحرية كافية ، تسمح له بالقيام بأى عمل . ونتيجة لمجهوداته المتواصلة في ميدان المنشآت البحرية ، تحسن الموقف . وأعاد من ذلك خليفته . ومع تأكيد التفوق الفرنسي في المعارك ، على البر وفي البحر ، عملت دبلوماسية الوصية لدى بلاطات وسط وجنوب إيطاليا ، الصغرى ، ومن أجل فشل النفوذ الأسباني . وفي عام ١٦١٦ ، قرر مازاران أخيراً أن يستعجم السلاح . ونزل جيش من ٢٠.٠٠٠ جندي أمام ميناء أورتويو التوسكاني ، وبدأ عملية الحصار . ولم يتمكن من إتمام العملية ، نتيجة لمجرم أسطول أسباني ، وتفريقه لسفن المعاونة ولسكن حملة ثانية ضد هذا الموقع نجحت ، بعد قليل ، وإستولى على جزيرة إلبا . وكان هذا يمثل بداية العمليات : وكان الأمر يتعلق بتطهير المواصلات بين الممتلكات الإسبانية المختلفة في شبه الجزيرة وفي ميلانو .

وبعد وقت قصير ، نشبت ثورة كان يتم الإعداد لها منذ وقت طويل في ملكة نابولي — وهى الثورة التي سميت بأسم ماسانيولو ، باسم ذلك الواظف الضابط الذى عمل على تحريكها وإثارتها في الأيام الأولى . وتم إعلان الجمهورية . ولتجأ الثوار إلى أحد الأمراء الفرنسيين ، وهو من الممثلين الباقين للثلاثين لأمرة دى جيز ، والذي كان مقيماً في روما في ذلك الوقت ؛ واختاروه رئيساً لهم ، ومنحوه لقب « حلى الحرية » . وكان هذا الاختيار ، وكذلك إعلان الجمهورية ، لا يعجب الملكة الأم . ولذلك فإن مازاران رشح جند الأمير هنرى

دى جيز أحد أعلم دوق سافوا الشاب ، وهو الأمير توماس الذى كان فى حالة نجاحه سيتنازل عن حقوقه عن حافوا ، فى مقابل حقوق فرنسا على نابول . ولكن تدخل الاسطول الاسبانى أمام نابول عمل على إفشال المشروع . واضطرت القوات الفرنسية للى الانسحاب . وتلقبوا دوق دى جيز ، ثم ألفوا عليه القبض . وزاد ثقل السيطرة الإسبانية على نابول أكثر من أى وقت مضى . وفى إسبانيا ، وكذلك كما كان عليه الحال فى إيطاليا ، كانت سياسة مازاران مستمدة لعمل حساب للخيالات . ففى عام ١٦٤٦ احتلت القوات الفرنسية الجزء الأكبر من كاتالونيا . وفكر مازاران فى إمكانية التقاط المتمر مع مدريد : إعادة الأقاليم المحتلة فيما وراء البرانس نظهر التنازل عن الأراضى المنخفضة . ومن سوء الحظ ، أن هذا الارتباط المثرى لم يتوقف إلا فترة قصيرة . وأصابه ذلك النوع من الدوار الذى يصيب تلك السياسات المفاجئة . ثم أصبح ينشئ بعد ذلك من أن يدفع ثمنا غاليا فى الحصول على ذلك الشيء الذى يمكن للحلة مقبلة أن تضمنه لفرنسا وهذه الفرصة التى أفلتت لن يحصل عليها من جديد ، إذ أن مشكلات واضطرابات المصبة سوف تبدأ بعد قليل ، وسيضطر إلى التخلئ نهائيا عن كاتالونيا دون أى تعويض عنها .

وكان النجاح المسكرى الذى تم الحصول عليه فى الأراضى المنخفضة يساعد على شرح هذا التغير الباس فى السياسة الفرنسية ففى عام ١٦٤٣ ، وبعد بضعة أيام من وفاة الملك ، شهد العالم هزيمة المشاة الإسبانيين فى وركسروا على يدى دوق داتمان الشاب : ذلك الفقد الكبير لهيبتها ، والذى لن تتمكن من الوفاق بعده على أرجلها . ثم كان بعد ذلك أمر الاستيلاء على توافيل التى فتحت أمام الفرنسيين الطريق الموصل إلى لوكسمبورج ، وبعثتهم فى مواقع أفضل من أجل تهديد وسط الأراضى المنخفضة . ومنذ ذلك الوقت تمت عمليات الحصار المتتالية

في الفلاندرو في هينوت بسرعة وبجحاح ؛ وانتهت هذه السلسلة في شهر اكتوبر عام ١٦٤٦ بالاستيلاء على دنكرك .

ونتيجة غير متوقعة لهذا النجاح ، هو أن الهولنديين قد أصابهم الخوف : التخلص من إسبانيا الضعيفة بشكل واضح كجارة لهم ، وترك هذا الجوار لفرنسا المتزايدة القوة وباستمرار . ولذلك فإنهم بدأوا يرددون في لاهاي وفي أمستردام ، في هذا الوقت شعاراً جديداً للسياسة الهولندية : « أصدقاء غاليرن ، لاجيران » . ولذلك فإنه كان هناك عدم إتفاق بين الحلفاء في الوقت الذي تبدأ فيه مفاوضات مونسيير . وستكون النتيجة هي أن يقوم الهولنديون بتوقيع الصالح ، بدون الفرنسيين ، وقبلهم . وساعدهم ملك أسبانيا على أن يتخلصوا ، من تردددهم الأخير ، وذلك بمنعهم ما كان قد رفض لهم حتى ذلك الوقت ، وهو الاعتراف الرسمي باستقلالهم ، ولم تنجح كل التدخلات التي قام بها المفاوضون الفرنسيون ، ولا حتى تهديداتهم ، أمام الرغبة الواضحة من جانب حلفائهم لإنهاء الحرب . وتم التوقيع على المعاهدة الهولندية الأسبانية في لاهاي في ٣٠ يناير ١٦٤٨ ؛ وسيتم التصديق عليها في مونسيير وحصلت الاقاليم المتحدة على قطع كل علاقات التبعية التي كانت تربطها بسادتها السابقين . كما حصلوا على قطاع من الأرض كانوا قد قاموا بفروه ، خطوة بخطوة ؛ في أثناء الحرب ، وأصبح تحت سيادتهم الكاملة : وكان يشتمل على قطع من برابات ، ومن الفلاندرو ، ومن ليمبورج ، دخلت في الدولة باسم البلاد العامة . وأخيراً فإن مصبات نهر الإسكوت قد ظلت مغلقة في وجه التجارة . وهكذا ظلت انفرس تيمش عيشة الخول التي كان جيرانها قد فرضوها عليها منذ مايزيد عن نصف قرن .

وفي ألمانيا ، كان إعداد مطاعدات ومستقاليا مصحوباً بعمليات عسكرية

عديدة . ولم تكن هذه العمليات تركز كثيراً على المفاوضات ، إلا من حيث التأخير ، خاصة وأن كل فريق كان يعتقد بسهولة أن فرصه ستزداد في حالة نجاحها وبالتالي تقل فرص العدو .

وحتى قبل أن يبدأ المؤتمر أعماله - وبينما نقفون لمسدة عامين مسائل الإجراءات والبروتوكولات - قام السويديون من جانب ، والأمبراطوريون من جانب آخر بالإنفصال مؤقتاً وبتحويل أنظارهم عن ألمانيا ، لمواجهة خصوم جدد ، ذلك أن كريستيان الرابع ، ملك الدانمرك ، كان حافداً على نجاح السويد ، فعمل على حياكة المؤامرات في ستوكهولم مع خصوم المستشار أكستستين . وأدى رد فعل هذا الأخير إلى أنه قد ارتبط بالهولنديين ، الذين كانوا يشكلون من زيادة دفع الرسوم البحرية فيما بين بحر الشمال وبحر البلطيق : ولاتى الأمر بإعلان الحرب ضد الدانمرك ضد نهاية عام ١٦٤٣ . وتم غزو شيلزفج وهولشتاين ، وقام السويديون بتحطيم الأسطول بشكل شبه كامل ، وأخيراً تم احتلال المضائق وأقفلت في وجه الهولنديين ، فإخطر كريستيان إلى طلب الصلح وحصل عليه نتيجة لتدخل فرنسا . وتخلّى في عام ١٦٤٥ السويد عن جزيرتين كبيرتين في بحر البلطيق ، هما أوسلى ، وجوتلاند . ثم منح الهولنديين . بمساهمة تالية ، إعادة العمل بالترتيبات السابقة فيما بين بحر الشمال وبحر البلطيق .

وعلى حدود البحر قام أمير جديد من أمراء ترانسيلفانيا ، وهو جورج راكوكس ، وبالاتفاق مع فرنسا ، والسويد ، وهولندا ، بحمل السلاح في عام ١٦٤٤ ضد الأمبراطوريين . ولكنه إضرع من ناحية أخرى ، إلى أن يلقى السلاح بعد بضعة أشهر ، خائفاً وأن علاقته صككت قد توترت ، فجأة مع السلطان .

ولقد أصابت الإمبراطورية ضربة شديدة حينما نخلت عنها منتخبى ساكس وبراندنبورج، واللذان كانا منذ صلح براغ قد وضعا نفسيهما في خدمة الإمبراطور، ولكن هذا الشعور تناقص بعد ذلك نتيجة لطول فترة الحرب. ففد عام ١٦٤٠ وقع فريدريك ويليام، منتخب براندنبورج على إتفاقية لوقف العمليات الحربية مع السويد؛ وستجدد مرات عديدة. وعرف جان جوج، منتخب ساكس، في عام ١٦٤٥، كيف يحصل منهم على إعراف بترابيا الحياض. وكانت الأراضي الساكسونية تشتمل على يوهيميا وكذلك على ملحقاتها في سيليزيا ومورافيا، وأصبحوا بعد ذلك لا يحاربوا، وإن كانت هذه الأراضي سوف تستخدم كقاعدة للعمليات السويديين. وشمر فرديناند بالخطر. وفي مولسهر، وحيث كانت الأمور تسير ببطء منذ أن افتتح المؤتمر أعماله رسميا في شهر مايو ١٦٤٤، قرر أن يبدأ في الدخول في طريق الموافقة على التنازلات. فوافق على رغبة فرنسا في أن يظهر، أمام أوفي مواجهة يمثل الإمبراطور، ممثلين، عن كل جماعات الإمبراطورية، والمنتخبين، ورؤساء الأقاليم، والمدن الحرة. وكان لهذا التنازل نتائج ضخمة: إذ أن أعداء الإمبراطور العديدين سيتمكنون من معونة القوى المعادية. وظهر مسبقاً أنه لن يكسب الجولة.

وأخيراً، فإن إنسحاب بافاريا سيكون وصمة كبيرة في جبين الإمبراطورية. وسببا في ضعفها، لا يمكن حلاجه. ومنذ عام ١٦٤٥ فقد مكسميليان الأمل في المستقبل، وبدأ المفاوضات. ورغم عدم رغبة السويد في المحافظة على دولة كاثوليكية، فإن المفاوضات انتهت، في ١٤ مارس ١٦٤٧، إلى هدنة أولم؛ فحصلت الأقاليم البافارية على حيادها. وحصل المنتخب على وعد باستعادة كل دولة.

أما الفرنسيون والاسبانيون، فإنهم لم يتمكنوا من التفاهم سوياً؛ وواجه

فيليب الرابع في أن يطالب ، ورغم كل المزايم الحرية التي نزلت بقواته ، بإعادة كل الأقاليم التي أساءها الغزو . ولذلك فإن أسبابنا لن تدخل في المناقشات الكبرى . وفيما بين الامبراطورية ، وفرنسا والسويد سيتم توقيع المعوضين في مونستر في ٢٤ أكتوبر ١٦٤٨ ، أما تبادل تصديق الملوك فإنه سيتم في ١٨ فبراير ١٦٤٩ ، في مونستر كذلك .

وكانت الدبلوماسية الفرنسية ، والدبلوماسية السويدية ، قد إقترحتا من حيث المبدأ ، ومنذ سنوات ، ألا يفسح التاجان من الحرب دون أن يكونا قد حصلتا على تعويض عن الخسائر التي نزلت بهما ، من أجل المعاونة على تسوية المسألة الألمانية . ولذلك فإنه كل منها قد عرض على المؤتمر منذ عام ١٦٤٦ ، قائمة بالإرضاءات التي كان يدهيها لنفسه . فطالب تاج فرنسا ، علاوة على التنازل الرسمي عن الثلاث أسقفيات ، والتي كانت ممتدة منذ عام ١٥٥٢ ، بالتخلي عن حقوق آل هابسبورج في الأراض ، وعلى أساس كونها حقوقاً وراثية . ولقد رأينا ، في عام ١٦٣٥ ، أن الملك كان قد اعتقد أن في وسعه أن يعد بالتنازل عنها إلى برنار ، صاحب ساكس فيلو ، حليفه وعميله . واصكك الأمير الشاب توفي فجأة في عام ١٦٣٩ . ومنذ هذا الوقت إعتبر الفرنسيون أنهم في هذا الاقليم . ولقد ناضل ممثلو الامبراطور فترة طويلة قبل الموافقة على التخلي عن الأراض . ودفعوا بشدة أكثر ضد التخلي عن بريشاش ، التي تقع على الضفة اليمنى لنهر الراين ، والتي كان الفرنسيون يشبهونها مفتاحاً للأراض العليا . ومع ذلك ، فقد تم الاتفاق على هذه النقاط المختلفة ، وطبقاً للمطالب الفرنسية ، قبل نهاية السنة .

وفي أوستابروج ، كانت النقاشات أقل مرارة وكانت مقاومة الإمبراطورين أقصر ؛ إذ أن الأقاليم التي كانت السويد تطالب بها لم تكن من صلب ملكية

آل هابسبورج . أما يومير أنها ، والتي كان لمنتخب براند يورج مطالب قديمة فيها ، فإنها سوف تقسم - وبغير مساواة - بين الدولتين المتخاصمتين عليها . وأعطى الجزء الأفضل مع إسترالسوند ، ومصبات نهر أودير السويد . التي حصلت كذلك على ميناء فيسهار ، ووثاعة أسنقية برمين ، وأسقية فردين في هانوفر ، وستظل كل هذه الأقاليم تدخل في نطاق الإمبراطورية ، بينما كانت ممتلكات الأناضال المحاذية بآل هابسبورج قد تم التنازل عنها لملك فرنسا مع كل حقوق السيادة عليها . ولذا . فإنه سيكون على ملك السويد أن يرسل ممثلين عنه إلى البايث .

ولقد كانت معاهدات ويستفاليا هدفا لمعاملات تقيم عتقة ، تبأ للأوقات . فبالنسبة للحاصرين ، كانت الحرب قد استمرت لفترة طويلة ، وبدرجة أن الشعور العام كان يتمثل في نفث الصعداء وقت التوقيع على معاهدة السلم في آخر الأمر ، ومع ذلك ، فإن الكثيرين من بين رجال السياسة ، وبخاصة في فرنسا ، قد أبدوا بعض التحفظات ؛ وميظهر الكثيرين من الإحدا ، لمازاران ، الذي يجعل مسؤوليتها أمام التاريخ . وكان المأخذ الرئيسى الذى وجهوه إليه أنه لم ينجح ، بعد كل هذا التأخير ، فى أن يدخل أسبانيا إليها . وكتب أحد الوزراء السابقين فى عصر ريشيليو ؛ فى عام ١٦٤٩ ، وبدون إنفعال : « أن السنوات التالية ستظهر لنا ماإذا كانت هناك ميزة فى أن نترك تدعيم السلم فى الإمبراطورية وأن نظل فى حرب مع أسبانيا ، التى ستحظى دائما ، وبطريق غير مباشر ، ومما أخذنا من إحتياجات ، بكل قوة الإمبراطور حندا ، وهى التى ستدعهم وتدعم مجهودهم دون أى معونة من جانب حلفائنا ، خاصة وأن سياسة الكاردينال مازاران قد جعلتنا نفقد الهولنديين . » . ولقد كانت هذه بلاشك هى لغة المنطق .

وفي وقتنا الحالي ، على العكس من ذلك ، هناك ميل إلى التحويل في مزايا وفي أهمية مجموع التسويات التي حدثت في عام ١٦٤٨ بين أسرة آل هابسبورج وبين خصومهم الفرنسيين والسويديين والألمان . وليس من التادو أن يروا فيها نقطة إنطلاق صوب نظام أوروبي جديد : وكما لو كان مصير أوروبا قد تدخل في هذا الوقت وإرتبط بمصير ألمانيا . وإلى أولئك الذين يحولون إعتبار ذلك ، بطريقة علية أو بطريقة ضمنية ، علينا أن نلاحظ أن معاهدات عام ١٦٤٨ هي عتلفة تماماً عن تسويات الخلافات الكبرى بين الأمم التي أنهت فترة الحروب النابوليونية ، أو أنهت الصدامات السالمة في القرن العشرين . وكانت نتيجتها الوحيدة ، في الواقع ، هي إنهاء حرب ألمانيا . ولم يكن لألمانيا في هذه الفترة أى صفة تمثيل أوروبا بأكملها . وكانت هناك دولتان كبيرتان رئيسيتان في ذلك الوقت ، وهما أسبانيا وإنجلترا ، لم تدخل في عدد الدول المتعاقدة . وإذا كان عدد الدول الممثلة في مونستر وفي أوسنابروج كان أكثر مما سيكون عليه فيما بعد في مثل هذه المحافل الدولية من نفس النوع ، فإن ذلك كان يعود فقط إلى أنه ، طبقاً لطلب فرنسا ، دعت كل الامارات الألمانية ، سواء أكانت خاضعة أو غير خاضعة للامبراطورية — وكان هناك ما يقرب من مائة وخمسين — وشاركوا جميعاً في إرسال مندوبين ، وفي أعمال المؤتمر .

ولذلك فإن الشؤون الألمانية كانت هي وحدها ، تقريباً موضع مناقشات للمؤتمر . وفي ذلك الاطار التقليدى — والذي كان قد إنتهى — للامبراطورية المقدسة ، إنتقلوا كذلك بمصير الكانتونات السويسرية ، والتي كانت قد تمحورت عملياً منذ قرن ونصف قرن من إرتباطاتها بالامبراطورية ، وحصلت على إستقلالها التام . وكان من الضروري كذلك تسوية مصير بينبرول ذلك الموقع في سافوا الذى كان الفرنسيون قد غزوه ، وكانت الامبراطورية والامبراطور مستمران

في المطالبة ببعض الحقوق فيه . وإعترف بملكيتها الكاملة للملك فرنسا .
أما المظاهر الألمانية للغاية للمعاهدات وسنغاليا ، فإنها كانت بلاشك أكثر أهمية : وهذا ما يشرح لنا الأهمية التي أعطيت فيها وراه الراين لعام ١٦٤٨ ،
وجعله تاريخيا هاما . ولنقل فقط أن تكوين الإمبراطورية قد تغير ، وأن
سلطات الإمبراطور قلت إلى أبعد حد ، وزادت سلطات الأنظمة بدرجة كبيرة :
وهكذا أعترف بحق رؤساء الأقاليم في الاحتفاظ بمسلطات دبلوماسية ، وحتى
في عقد المحالفات مع الدول الأجنبية ، دون الرجوع في ذلك إلى الإمبراطور .
ومن وجهة النظر الإقليمية ، أعيد تكوين البلاينات في منطقة الراين ، مع
منصبها الرئاسي الانتخابي . ولكن دوق بافاريا احتفظ بالبلاينات العليا ؛
وأنشئت له منطقة إنتخابية ثامنة ، ولصالحه . وزاد إتساع دول منتخب
براندنبورج . فحصل على جزء من بوميرانيا ، وعلى أسقفيات ميندين ، علاوة
على تطلعه إلى رئاسة أسقفية بيسد بورج . وجاءت تعديلات أخرى ، نتيجة
لتحويل بعض الأقاليم من سلطة رجال الدين إلى السلطة العلمانية ، وأسهمت في
تعبيل الخريطة السياسية لشمال ألمانيا ، وأخيراً ؛ وبالنسبة للشؤون الدينية ،
تدعمت نصوص صلح أوجسبرج مرة جديدة ، مع إختلاف بسيط ، يتمثل في
أن كل ما يطبق على أنصار لوتر سيطبق الآن على أنما كلن كذلك . وأعلنت
كل الدول المتعاقدة أنها تضمن المعاهدة : وهكذا أصبح في وسع فرنسا والسويد
أن يستخدما حتى التدخل في الشؤون الألمانية في حالة حدوث تهديد من جانب
الإمبراطور ضد الحريات الجرمانية .

ومن أجل تسوية المشكلات العديدة التي تطرحها مسألة تنفيذ المعاهدة ،
إحتاج الأمر إلى عقد مؤتمر الدبلوماسيين : ولقد جمع في عام ١٦٤٩ وعام
١٦٥٠ ، في نورمبرج ، ممثل الدول ذات المصلحة الرئيسية .

٤ - تأثير إنجلترا في عهد كرومويل :

إن الحدث الذي يسيطر على تاريخ الفترة التي تأتي مباشرة بعد المعاهدات يتمثل في دخول الدولة البريطانية إلى مسرح الأحداث .

وكانت إنجلترا لا تشارك في أمور أوروبا ، منذ ما يقرب من إثني عشرة عاماً ، أي منذ الإجماع الطويل للبرلمان ، والحرب الأهلية التي تلتها . وكان بعض البريطانيين قد اشتركوا في هذه الحرب ، ولكن بصفة فردية ؛ وكانت أحداثهم وأعمالهم لا ترجع إلا لأشخاصهم . وكان الأمر يتعلق بعدد من المرتوة الذين كانوا يجندون في الجور البريطانية بواسطة الدول المتحاربة . ولقد أشرنا إلى ذلك فيما مضى ، وإلى وجودهم في جيوش جوستاف أدولف . وكان منهم كذلك عند الهولنديين . بما كان يكفي لشرح التمسك المشترك بمذاهب الإصلاح الديني . ولكن نخدم كذلك خارج الجيوش البروتستانتية ؛ الأمر الذي كان يطرح بعض المشكلات . ولا يمكننا أن نستند هنا ببساطة ، كما كان عليه الحال في ألمانيا في القرن السابق ، إلى ذلك العدد الكبير من الأقواء التي تطالب بالغذاء ، ونسبتها إلى كمية وسائل المعيشة ، إذ أن بلادهم أصبحت تفتج الآن من القمح ما يزيد على ما كانت تستهلكه ؛ وكانت حتى قد شاركت ، بعد أن أصبح التصدير حراً ، في تموين هولندا والأراضي المنخفضة ولذلك فإنه علينا أن نبعث عن سبب آخر لهذا الشكل الخاص من أشكال الهجرة ، والمعاصرة لتلك الهجرة التي استمرت في توطين الأهالي في مستعمرات أمريكا وعلينا أن نذكر على الأقل أن هذه الحركة كانت قد بدأت منذ القرون السابقة : ذلك أنهم في روسيا ، ومنذ وقت إيوان الرهيب ، كانوا يشاهدون البريطانيين ، وبنوع خاص الإسكتلنديين ، في خدمة القيصر . ومنذ ذلك الوقت استمرت أعدادهم في الزيادة . وفي هذا الوقت الذي تحدث عنه ، أصبحوا يشاهدون هناك كتائب بأكملها ، وعلى

رأسها قاذتها ، نزل من إنجلترا إلى روسيا . فقد أصبحت بريطانيا العظمى سوقاً للجنود ، ومفتوحاً أمام الجميع . أما الأيرلنديين ، وكانوا من الكاثوليك ، فإنهم كانوا يراقبون بسهولة على الخدمة في اسبانيا . ولسكنهم كانوا يشاهدون كذلك كثيراً في فرنسا ، مثلهم في ذلك مثل الإسكتلنديين ، وكانوا يفضلونهم على الإنجليز ، الذين كانوا يكفرون في مطالبهم ، ويقتلون عنهم في الإضطهاد .

وفي سنوات ١٦٥٠ وما بعدها ، تمكنت إنجلترا ، التي يحكمها برلمانها ومجلس الدولة . من ان تتهى من الحرب الاهلية . وكانت قد أصبحت دولة عسكرية ، وقوة بحرية . فكان لها جيش وبحرية أثبتا قيمتهما في الحرب ضد الملكيين . وكان قائدها العام ، أوليفر كرومويل ، قد انتصر على الأيرلنديين ، وعلى الاسكتلنديين في نفس الوقت . وكانت هيته قد ازدادت ، واقتربت الايام من ان يصبح ديكتاتورا . وفي إنتظار ذلك ، كان نفوذ الاوساط الاقتصادية ضئلاً ، وحتى مسيطراً ، على المجالس . وسنشهد ذلك في عام ١٦٥١ .

وتحت تأثير موجة الدولة ، وويليام الثاني . اعادت الاقاليم المتحدة علاقات الصداقة القديمة مع فرنسا ، والتي كانت قد تأثرت نوعاً ما منذ عام ١٦٤٨ ، في مونستر . ولقد تمخضوا عن وساطة بين باريس ومدريد ، وكذلك عن عملية مشتركة في صالح أسرة ستيوارت : ذلك ان ويليام كان قد تزوج ، في عام ١٦٤٧ ، الابنة الكبرى للملك شارل الأول . ولكن الانخفاض المفاجئ . لموجه الدولة ، في ٦ نوفمبر ١٦٥٠ ؛ سيكون له نتائج خطيرة للغاية . فسجد الهولنديون الوقت الكافي للتفكير في أنه كانت لهم أكثر من علاقة مع جيرانهم الإنجليز ، رعايا كرومويل : وعلاوة على أنهم كانوا يهودون ، الاولين والآخرين ، في معسكر الإصلاح الديني ، ألم تكن حكوماتهم هنا وهناك ، ترفع الشعائر الجهنوى ، الذي لا يقبله الملكيون ؟ ولقد جاء سفراء الانجليز يرضون على

لإلهاى اتحاداً سياسياً حقيقياً ، يتلف فى شكل معاهدة تحالف دائمة .

وكان الهولنديون متمسكين كثيراً باستقلالهم ، وبشكل يمنعهم من قبول مثل هذا المرض ، ولكن لندن غضبت من رفضهم الموافقة على وجهات نظرهما والى كان الهولنديون يخشون من أنها ستؤدى إلى إستيادهم . ولذلك فإن المصالح الاقتصادية الكبرى التى ستظهر أكثر من غيرها ، وسيؤدى الاتجاه القوي السكبر للأوساط المالية فى المدينة ، عمله ، الذى يمكن شرحه بشر وقانون الملاحة ، فى نفس هذه السنة ، فى شهر أكتوبر ١٦٥١ . ومنذ ذلك الوقت ستمنع من الدخول إلى إنجلترا أى سلع تأتى من دول أخرى على القارة — مثل الألبنة الفرنسية والملح البرتغالى — إلا إذا ما كانت تأتى على سفن بريطانية ، أو سفن من البلاد التى تفتح السلعة نفسها . أما فيما يتعلق بالسلع الأفريقية ، والى تأتى من آسيا أو من أمريكا ، فقد كان عليها أن تصل على سفن انجليزية ، ويكون غالبية بحارة هذه السفن من الانجليز ، ولا شك ان نصيب السفن الهولندية فى التجارة الخارجية لإنجلترا لم يكن ، ومن بعد ، ما كان عليه منذ بعض الوقت : فكان عدد السفن الانجليزية قد تضاعف أربع مرات منذ نهاية القرن السادس عشر . ومع ذلك فقد شعر الهولنديون بأنهم مقصودين مباشرة بهذه الاجراءات . ولذلك فإنهم إستمروا فى الابتعاد عن إنجلترا . وجاءت أحداث وقعت فى المستعمرات لكى تجعلهم يعتقدون فى ان جيرانهم قد صمموا على العمل ضدهم . وجاءت أحداث أخرى ، نتجت عن إدعاءات الانجليز فى الحصول على « التبعة الأولى » فى مياههم الإقليمية ، لكى تنتهى بنشوب الحرب بين الطرفين ، فى شهر مايو ١٦٥٢ .

ولم يكن موقف إنجلترا قد ضعف فى أوروبا . بل إننا نميل حتى إلى أن نقول بأنه قد تدغم : ذلك أن نجاحهم فى العمليات الأولى أنهت ان الجمهورية

الجديدة قد أصبحت تستند الآن إلى قوات بحرية لها تدريب كافى ، وتتفوق في مجموعها على قوات الخصم . وكانت الحكومة الاسبانية هى الأولى في اعترافها الرسمي بذلك ، في عام ١٦٤٩ ، وفي إرسالها أحد السفراء إلى لندن . وتلتها فرنسا في عهد مازاران ، يلورها ، في شهر ديسمبر ١٦٥٢ ، رغم عداوة الأوساط الحاكمة ، ورغم وقوع إشتباكات كثيرة على البحر بين رعايا الدولتين . ومن وقت قريب كذلك ، كان أحد الأساطيل الفرنسية ، الذى أرسل لإمداد أنباء دسركه الذين يحاصروهم الإسبانىون ، قد قام بتفريق أسطول الإنجليز بقيادة بليك . ومع ذلك ، فإن سفير الملك سوف يقدم أوراق إعتاده للبرلمان ، وسوف يناقشون من جديد أمر عقد معاهدة تجارة . وفي فترة حياة كرومويل ، كانت سنوات الحرب مع هولندا حاسمة : ففي عام ١٦٥٢ انتهى من أمر البرلمان ، ودفع مجلس العموم إلى التنازل بشكل ما عن سلطته ، وأخذ هذه السلطة لنفسه . كما منح نفسه لقب « حامى » وكل السلطات الفعلية ، كدكتاتور .

ولم يكن الهولنديون معزولين تماماً : فكان الدائم يكون يؤيدوهم ، نتيجة لعدائهم لهذه القوة الإنجليزية التى تأكدت كل يوم أكثر على البحار ، وبخاصة في بحر البلطيق . ولذلك فإنهم أفلوا الممرات الموصلة بين بحر الشمال وبحر البلطيق في وجه السفن البريطانية . وتدهزت الحرب ، في أول الأمر ، بينض التجاح للاحزال ترومب على سواحل الأعداء ، ثم تحولت شيئاً فشيئاً في صالح الانجليز ، بعد أن قتل ترومب ، وهو يحاول تخليص جزءا من سفنه التى كان الخصم قد حاصرها في نيكسيل . ولم يشارك كرومويل في هذه العمليات . ولكنه تفاوض من أجل الصلح . وتم التوقيع عليه في وستمنستر ، في شهر أبريل سنة ١٦٥٤ . وكانت شروطه معتدلة إلى حد كبير . فعلاوة على غرامة بحرية ، لم تفرض كبحاً على الهولنديين إلا بعض التوضيحات التى تتعلق بالكرامة : التمدد

بطرد أفراد أسرة ستيوارت وأعوانهم ، والإعتراف بحق الانجليز بالنجدة الأولى
في مياههم الإقليمية . أما الدانمركيون ، فقد كان عليهم أن يدفعوا غرامة
عزترمة ، ويضمنوا التجارة الانجليزية في مضائقهم نفس الميزات التي كانوا يمنحونها
للتجارة الهولندية .

وإبتداء من ذلك الوقت الذي إعترف فيه الفرنسيون والاسبانيون بحكومة
الجمهورية في انجلترا ، استمروا في التنافس لديها ، وحاول كل منهم الحصول
على ودعها وتأييدها . ذلك ان الحرب التي كانت قد بدأت في عام ١٦٣٥ كانت
مستمرة دون توقف ولا هدنة منذ عام ١٦١٨ . وكانت إسبانيا في أول الأمر
راضية على أنها لم تتفاوض في مونستر . وكانت الظروف قد ساعدتها خلال
بضع سنوات . فكان مازاران وآن النسوية مشبكين مع الفروند ، وكان الانقسام
في كل مكان في فرنسا ، بين أنصار الحكومة ونصروها . وقام بعض قادة
الجيش ، مثل تورين ثم كونديه ، بالاتفاق مع العدو . وإذا كانت إسبانيا لم
تتمكن من الاقادة أكثر من ذلك ، فان هذا الأمر كان يرجع إلى أن جيوشها لم
تعتمد لها نفس القيمة التي كانت قد أقيمتها في القرن الماضي ، وحتى وذكروا .
وجاءت الهزيمة المخيرة التي نزلت بها في لالسي ، في شهر أغسطس ١٦٤٨ ،
لصكى تنزع منها ثقتها في نفسها . ولم يعودوا يطلبون في ذلك الوقت سوى
تحرير المناطق التي كان النعم يحتلها ، وهي كتالونيا ، وجانب من الأراضي المنخفضة .
ومع ذلك فقد نزلت بها الهزائم . وحتى مع تأييد قوات تورين ، انهزم جيش
إسباني في عام ١٦٥٦ تحت أسوار ديبيل . ومع ذلك فقد تم في عام ١٦٥٢
الاستيلاء على دنسرك . وفي نفس العام ، ومع جيش كونديه الناصر ، دخلت
بعض الفصائل إلى باريس . ولكنه كان الوقت الذي تفتى فيه الحرب الأهلية
في فرنسا . ولبن يحكموا فيها إلا لمدة ستة أسابيع .

وكان دوق اللورين ، شارل الرابع ، وكامبر كاتوليكي تماماً ، قد ربط مصيره بمصير أسبانيا ، ولذلك فإنه لم يوقع على الصلح في عام ١٦٤٨ : ولم يحصل حتى على تصريح بإرسال ممثل له إلى مونستر . ولم تذكر المعاهدة أى شيء يتعلق بدولة ، والتي كان الفرنسيون يحتلوها دائماً . وفي الوقت الذي كان يخدم فيه الإمبراطور ، أنشأ جيشاً صغيراً ، نصفه من اللورين ونصفه من الألمان ، تمكن به في عام ١٦٥٠ من أن يسيد غزو جزء من دوقياته ، ويحارب ، وعلى صلة بتورين وبكوندي ، أو مع الأسبانيين ولكن طباعه كانت سرية التقلب ، فتخاصم مع من يقومون بمجاوبته في عام ١٦٥٤ وسيدفع ثمن تقلب طباعه السرية خمس سنوات من الأسر في طليطلة .

٥ - نهاية الحرب و صلح البرانس :

فيا بين الدولتين اللتين ستمعلان لمدة سنوات على التنافس من أجل التحالف معه ، وهما فرنسا وأسبانيا ، سيميل كرومويل بطريقة غير قابلة للنقاش صوب الثانية . فكانت انجلترا الجمهورية قد ظلت مغلقة لإتجاهات انجلترا الملكية . وكانت حكومة شارل الأول قد أمضت وقتاً طويلاً في أن تجد في الوفاق مع بلاط مدريد حلاً لمشكلة البلايتات الدقيقة . وكانت قد سادها القلق من دخول الفرنسيين إلى الألزاس . وبعد روكروا ، وبعد معاهدات وستفاليا ، كان يهما ألا تقوم بأى شيء يمكنه أن يساعد الدولة المجاورة — والمنافسة لها دائماً — على أن تقيم هناك نفوذها بدلاً من نفوذ أسبانيا وإذا كان فيليب الرابع قد وافق على دفع الثمن ، لحصل دون صعوبة كبيرة على تأييد الفرق الانجليزية ، وبنوع خاص تأييد البحرية الانجليزية ولكن الحكومة الانجليزية ، التي كانت مغلقة للمصالح المارككتيلية لرهاياها ، طالبت من أجلهم بحق حرية التجارة مع جزر الهند الغربية . وكانت هذه المسألة يجنب على الكرامة الأسبانية أن تتنازل.

فيها : فكانت مدريد غير مستعدة أبداً التفكير في فتح أية لغة في نظام الإحتكار الذى كانت أسبانيا تبيع منه دائماً . ولذلك فإن كرومويل قسرو منذ نهاية عام ١٦٥٤ أن يقطع العلاقات : ودون أن يعلن الحرب ، أرسل أسطولا إلى جزر الأنتيل ، في كل سريره ، وكانت جزيرة سان دومنجو هي هدفه الأول . وفشل الهجوم ، ولكنهم إستولوا على جلمايكا المجاورة . وكان من الممكن في هذا الوقت الوصول إلى تفاهم بشأن المشكلات الاستعمارية . ولكن فيليب الرابع رفض ذلك ، وقام بإعلان الحرب في شهر ديسمبر التالى . ولذلك فإن كرومويل قد وجد أنه من الضروري أن يقوم برفاهته ، بتفاهم مع فرنسا . وكانت الخطوة الأولى في سبيل ذلك ، تتمثل في معاهدة ٣ نوفمبر ١٦٥٥ ، التى سوت المشكلات القائمة بين الهولتين . وبعد ذلك بدأت المفاوضات التى سينتج عنها التحالف المسمى . وفيما بين إنجلترا وأسبانيا ، ولم يكن الأمر يتعلق في البداية إلا بحرب بحرية . ورغم الانفاقيات التى عقدت مع لشبونة ، فإنهم لم يفكروا في لندن في القيام بعملية إنزال . ولكن سواحل شبه الجزيرة خضعت لنظام حصار دائم . وكان بليك ، المكلف ، بذلك ، بإراقب بنوح خاص عملية نزول السفن إليه . وفى ربيع عام ١٦٥٧ ، قام بتعطيم أسطول كامل كان راسيا في جزيرة تين الريف ، واستغلوا بهذا الإنتصار في مظاهرات كبيرة . وبدأت العمليات البرية قرب هذا الوقت : وكانت نتيجة التحالف المسمى الذى تم التوصل إليه أخيراً مع فرنسا ، في ١٣ مارس ١٦٥٧ .

ولقد كانت المفاوضات طويلة . ولكي ينمها ، إضطرت مازاران إلى تقديم بعض التنازلات التى ستؤثر في شعبيته : وتتمثل في الوعد بعدم المطالبة بدنكرك ولاينارديك ، حتى يتم الاستيلاء من جديد على هاتين المدينتين ، وبثغقات مشتركة . وكانت مسألة دنكرك مسألة صعبة بالنسبة لفرنسا . وكان الضعف المسمى

الذى نتج عن نشوب إضطرابات القرونند قد أعطى إسبانيا منذ وقت بعيد فكرة الاستيلاء على هذا الموقع . وفي الوقت الذى كانوا يستعدون فيه لمهاجمتها ، طرح في باريس مسألة منحها للإنجليز كخمن لمؤنتهم . ولكن هذا العرض جاء متأخرا ، خاصة وأن المحاصرين كانوا قد إستولوا عليها في شهر سبتمبر عام ١٦٠٢ . وبعد خمس سنوات من ذلك ، طرح المشككة وفي شروط مشابهة ؛ ولكن الأمر كان يتطلب طرد المحتلين الجدد منها . وانفق الحليفان على القيام معا بالاتفاق على عملية الحصار ، وأن يعمل الإنجليز يريا وبحريا في نفس الوقت . وبعد شهرين من ذلك نزلت الكتائب الإنجليزية في بولونيا . أما تورين ، فإنه كان مشغولا في مكان آخر ، ولذلك فإنهم قد إضطروا الانتظار ؛ فتموا ، في هذه السنة الأولى بالاستيلاء على مارديك . وفي الصيف التالى ، بدأت العمليات أمام دنكرك حين وصلت الأنباء بإفتراب أحد الجيوش الإسبانية ، والذي كان معه قوة كبيرة من الإنجليز المكئين . وتقدم تورين لمقابلة الحصور ، وأرسل بهم مريضة ساحقة في موقعة دون في ١٤ يونيو ١٦٥٨ . وإستسلم الموقع بعد عشرة أيام ، ودخله الملك رسميا قبل أن يسلمه القائد الإنجليزي .

منذ ذلك الوقت أصبح مصير الحرب ثابتا . فعند ما قبل عقد المعاهدة الفرنسية الإنجليزية ، كان فيليب الرابع مصمما على البدء في مفاوضات من أجل الصلح . وكان مازاران مستعدا للدخول في مفاوضات ، وبشرط أن تكون سرية . وأرسل إلى مدريد في عام ١٦٥٦ أحد وكلائه التقديرين وهو هينج دى ليون ، متخفيا ، وكان قد شارك ، وبصفته أحد ممثلى فرنسا ، في مؤتمر مونستر . ونجح دى ليون في أن يجعل الإسبانين يوافقون على ما هو أساسى فى المطالب الفرنسية ، أى على التنازل عن روسيليون وآوتوا . ولكن الخبر الأساسى فى هذا العقد كان يتمثل في بعض التعهدات التي كان فيليب الرابع قد قطعها رسميا

على نفسه تجاه أمير كوندبه ، بالأل تفاوض دون أن يكون قد ضمن له إرضاء عادلا ، وأمنيا ودائما . ولكن حكومة الوصية لم تكن توافق على أن تعرض أحد الثائرين . وكان المتفاوض مع دي ليون ، وهو دون لويس دي هارو ، وزير فيليب الرابع ، جعل من أمر الاحتفاظ بكلمة ملكة مسألة شرف ، الأمر الذى أدى إلى الانفصال فى الوقت الذى كان من الطبع أن يتفقا فيه . ولذلك فإن الأمر كان يتعلق بجمل الأسبانيين يمدوا النظر فى مآلاتهم . ولكن يوافقوا على تنازلات جديدة ، كان من الضروري أن تحدث لهم خيبة أمل جديدة ، أما فى الميدان الدبلوماسى ، وإما على أرض المعركة : ذلك الأمر الذى سيتطلب أكثر من عام جديد .

وكان تطور الموقف فى ألمانيا يسمح ببعض التفكير . فمئذ عام ١٦٤٨ ، كان الألمان قد أظهروا أنهم شديدى الرغبة فى السلام . وبعد أن دفعوا ثمنا كبيرا له ، أصبحوا يحشون من كل ماقد يؤدى إلى اضطرابه ، وكانوا مستعدين للتفكير فى كل محاولة من طبيعتها أن تقدمه . وكانت هذه هى الصفات الأساسية لتلك الرابطة الدفاعية التى تكونت بين أمراء الغرب ، وتحت إشراف واحد منهم كان يتمتع بسلطة معنوية كبيرة ، وهو جان فيليب صاحب شونبورن ، رئيس الأساقفة المنتخب من ماينس . وكان هدفها هو إقامة حاجز أمام الحرب وما يقبب عنها من تخريب وذلك بمعارضة إرسال أى قوات إمبراطورية إلى الأراضى المنخفضة . إذ أنه كان ، رغم أن بعض شروط معاهدة مونستر كانت تمنح الإمبراطور من إرسال دعم إلى خصوم ملك فرنسا سيكون من غير المعقول ألا يفكر بلاط فينا فى معونة الأسبانيين : وكان هذا البلاط قد أرسل بعض الكتائب لهم فى عام ١٦٥٠ . فكيف يمكننا أن نعجب ، منذ ذلك الوقت من أن نهتم فرنسا عن قرب وبراثة السلم . وتعلن أنها مستعدة للاشتراك فيها ؟ وكان إرضائها إليها ، والذى

لم يطلبه أحد ، قد تأجل نتيجة لموت الإمبراطور ، والحيلة الانتحائية التي كانت تسبق انتخاب خلفاءه وتم انتخاب أحد أخوة فرديناقد ، وهو ليوبولد آل هابسبورج . ولكن مرشحين آخرين كان يتم التفكير فيهم ، ولو بطريقة شبه رسمية ، وبخاصة أمر ترشيح لوى الرابع عشر . وكان « الاتفاق الانتخابي » في عام ١٦٥٨ يمنع من جديد الإمبراطور من تقديم العون للملك أسبانيا طوال فترة الحرب الموجودة . وعندئذ تم قبول ملك فرنسا داخل الرابطة ، التي أسسها رعاياه بإسم رابطة الراين ، رغم أنها كانت تشمل على وحدات أخرى بعيدة عن هذا النهر . وسيقوم كل واحد منهم بتقديم فرقة إلى الجيش الفيدرالي ، ويكون عليه أن يساعد الآخرين في حالة وقوع اعتداء .

وحيث بدأت المفاوضات الفرنسية الأسبانية من جديد ، كان موقف فرنسا قد بدأ أكثر قوة ، نتيجة للتقدم الذي حققه جيشها في الأراضي المنخفضة (تحرير بروج ، وفورن ، وديكسمود ، بعد تحرير دنكرك) ونتيجة لإنشاء رابطة الراين . وأعطى التعاون العسكري مع إنجلترا ثمارا قيمة ؛ وأصبح الوفاق قويا بين لندن وباريس . ولذلك فقد أصبح من الواجب التفكير في سبب عدم إقامة حكومة مازاران من الإمكانيات المتروكة — خاصة وإن الموقف الداخلي كان يسمح لها بحرية العمل — من أجل الوصول إلى تسوية نهائية لمسألة الأراضي المنخفضة . وبعد بضعة سنوات سيكتب جان دي ويت : « إذا لم تكن فرنسا قد وافقت على الصلح ، فإن كل ما بقى للملك أسبانيا في الأراضي المنخفضة كان يمكن غزوه بمجملتين . . . » .

وعلى أن نتحدث هنا عن بعض المسائل ، حتى وأن كانت قليلة الصلة بمصالح الأمة ، وبخاصة إذا ما نظرنا إليها بعد مرور الوقت . ففي وجهات النظر ، بالقبلة للمستقبل ، المتعلقة بهذا التفكير الواقعي عند مازاران ؛ كان هناك جوا

هأماً من التخيالات . وكان ذلك يتمثل في إمكانية الوصول . وكأمر مرغوب فيه
الغاية ، إلى إتحاد وثيق بين ملكية فرنسا وملكة إسبانيا ، والثتان كانتا حتى ذلك
الوقت على نفس درجة القوة ، وعلى الأقل من الساحة الظاهرية . وكان التنافس
بينها في صالح الدول البروتستانتية ، وبخاصة إنجلترا وهولندا . وكانت أفضل
الطرق العمل من أجل الوصول إلى مثل هذا الإتحاد ، وطبقاً لتقاليد هذه الفترة ،
تتمثل في تزويج الملك الشاب ، الذي كان قد وصل في ذلك الوقت إلى سن
الرجولة ، بإحدى الأميرات الأسبانيات ، ابنة فيليب الرابع . ومنذ وقت
طويل قبل ذلك كانت مسألة زواج لوي الرابع عشر من إحدى الإسبانيات
مطروحة . وكانت الفكرة قد طرحت في باريس منذ عام ١٦٤٥ . وكانت
هذه تذكارية تصورهما لكي يحصلوا بها على الأراضي المنخفضة ، التي كانت
تصبح بطريقة ماهرة للأمة الأسبانية . وفي عام ١٦٥٨ لم تذهب الإعدامات
الفرنسية إلى مثل هذا التفكير البعيد . وكان المرض الخطير الذي أصاب الملك
الشاب قد جعل من الضروري الإسراع في تسوية مسألة الوراثة ، الأمر الذي
جعل الوزير يصبح أقل تشدداً في طلباته . فكان الأساس منذ ذلك هو أن
يصلوا إلى اتفاق ، وفي أقرب وقت ممكن . وكان هذا التغيير في الموقف واضحاً :
فلم يتردد مازاران في ذلك الوقت في أن يبلغ سفيهه أن الملك يتقدم لطلب يد
الأميرة ، في حد ذاتها ، ولقد علقوا طويلاً على هذا التصريح الشهير الدمعة .
وكان الأمر الأكثر ترجيحاً هو أن مازاران قد تأثر من تشدد السياسة الأسبانية .
وعلى أي حال ، ولكي يرغب فيليب الرابع ، فإنه تصور أنه يمكنه أن يدفع
للفاوضات إلى الأمام ، والتي كانت قد بدأت لتوها ، من أجل زواج الملك بإحدى
أميرات أسرة سافوا . وكانت النتيجة سرية بعد هذا النوع من المساومات :
فتم الحصول على موافقة ملك أسبانيا في شهر نوفمبر عام ١٦٥٨ . ومنذ ذلك الوقت

أصبح في وسع المفاوضات أن تسير في طريق سليم . وتمت في المفاوضات الأولى في باريس ، في سرية تامة . ولم ينزع عنها النقاب إلا في شهر مايو عام ١٦٥٩ ، وحين إتفقوا على وقف العمليات الحربية لمدة شهرين . وتم توقيع المفوضين الأسبان يوم ٤ يونيو على إتفاق أول ، من حيث المبدأ وبعد ذلك إنتقلت المفاوضات إلى منطقة الحدود .

ولقد إتفق مازاران مع دون لويس دى هارو ، ممثل فيليب الرابع ، منذ المقابلة الأولى ، على الذهاب للمفاوضات في إحدى الجزر الصغرى ، وهي جزيرة الطاووس . وسبب التوقيع على معاهدة البرانس بعد ثلاثة أشهر من ذلك ، في ٧ نوفمبر ١٦٥٩ . ومن بين كل شروطها ، كان أمر زواج الملك من الأميرة الأسبانية ماريا تريزا ، هو الذي يجذب إنتباه كل المعاصرين . وكانت الفكرة الكبيرة لرجل الدولة الأسباني تتمثل في الإعداد لإنحد تاجي فرنسا وأسبانيا ، وأثارت أصداء لها عند الرأي العام . ولكن الحكومة الأسبانية ، ورغم المظاهر ، لم تكن مقتنعة بذلك تماماً : فطالبت بأن يتنازل الأميرة الأسبانية ، وكما حدث في الماضي مع آن النموية ، في ظروف مشابهة ، ومقدمات ، عن كل حقوقها في التاج . ولكي يحتفظوا بماء الوجه ، نص الفرنسيون في المعاهدة على أن تطبق هذا التنازل سيكون مشروطاً بالرفع الكامل للدولة . وكان الأمر يتعلق بمبلغ ٥٠٠.٠٠٠ جنيه : وكانت عملية فوضى المالية الأسبانية تدفع إلى الاعتقاد بأن فيليب الرابع سيجد بعض الصعوبة في الحصول عليه .

ولقد تناقشوا طويلاً بعد ذلك بشأن حالة أمير كوندية ، والذي أكد فيليب الرابع رغبته في عدم التخلي عنه لكي يلقى عقابه من لوى الرابع حشر . وإنتهى الأمر بمازاران بأن يوافق على رغبته وأن يتنازل له عن جزء من الأرض . أما الراجح الواضح لفرنسا فكان يتمثل في حصولها على كوتيه

روسيليون ، على كوتيه آرتوا ، وفي الغلاتدر على مواقع جريفلين ،
ويوربور ، ويرج ، وسان فينان ، وعلى جزء كبير من هينوت يشتمل حل
لاندرس ، كيسانوا ، وأفين ، وفيليب فيل ، وأخير في لكسمبورج على
توانفيل ، ومونيملي ، ديفيليه .

ولقد اعتبر مازاران وأن التسوية هذا الزواج على أنه الحجر الأساسى
في التسوية التى ستحمل في التاريخ اسم معاهدة البرانس . ولذلك فإن السلم
كانت تتوقف قيمته على قيمة الزواج . ولكن الزواج لم يكن ينهى أى شىء ،
ولم يكن يعنى التحد بأى شىء . وشهد ذلك بعد قليل وسرى ذلك بعد فترة ،
حين ندرس ، بعد عام ١٦٦١ ، الحكم والشخصى ، للملك لوى الرابع عشر .

ولقد كان حكم بعض المعاصرين على هذه المعاهدة شديدا منذ عام ١٦٥٩ .
ويظهر ذلك من الخطاب الذى كتبه سان إيفرموند ، والذي وقع في أيدى
الحكومة ، الأمر الذى اضطره إلى أن ينفى نفسه حتى لايسجن في الباستيل .
ولقد كانت من ميزة الكاردينال أن يسمع الإسبانيين ويقاب القريبيين . .
ولقد رأى أن فرنسا ستحتفظ لنفسها بدوجة أفضل ، متحدة كما هى ، ومضبوطة
على نفسها ، أكثر من كونها في مساحة أوسع . وكان هذا حذو لايقدر على
إظهاره الكثير من الوزراء أن يفكر في تنظية حدودنا . وذلك في الوقت الذى
كان فيه غزو الاراضى المنخفضة في أيدىنا تماما

وكانت للورين ولسافوا مصالح مباشرة في هذه القوة للصدام والذي
كان منذ ربع قرن قد وضع الفرنسيين في مواجهة الإسبانيين . وكان شارل
صاحب اللورين ، قد ربط مصيره ، وقت مفاوضات عام ١٦٤٨ ، بمصير
أسيانيا . ولذلك فإنه بقى بعيداً عن مؤتمر مونستير . ولم تذكر المعاهدة أى
شىء عن دوقياته ، التى كان الفرنسيون يحتلونها . وطبقا لنصوص معاهدة

البرانس ، والتي عقدت كذلك درن أن يشارك فيها ، لم يكن له سوى أن يأخذ
إلا اللورين ، خاصة وأن فرنسا كانت ستحتفظ . بإقليم باروا : فرفض الموافقة
على النسوية ولم يشارك في مناقشة . - وسيحصل بعد عامين من ذلك ، وعن طريق
اتحاد المارش المباشر مع فرنسا ومعاهدة فانسين في ٢٨ فبراير ١٦٦١ ، على شروط
مناسبة أكثر ، وإن يحتفظ الملك إلا بشرط ضيق من الأرض عبر الدوقيات
يسمح له بحرية مرور قواته بين فردان وميتز ، وبين ميتز والألزاس . أما فيما
يتعلق بدوق سافوا فإنه كان ، بعد معاهدات عام ١٦٤٨ التي أخذت منه فينيرول ،
قد ترك مؤقتاً الكثير من مواقعه في أيدي الفرنسيين . ومنذ ذلك الوقت كان قد
تم إخلاء موقع تورينو : وسمح له صلح البرانس بالعودة إلى إمتلك مواقع
أخرى .

أما التمهلات فإنها مرت بأزمة داخلية جديدة بعد وفاة كرومويل في شهر
سبتمبر ١٦٥٨ . ولم تمثل في مؤتمرات جزيرة الطاووس إلا عن طريق أحد
المراقبين . ولم تقم معاهدة صلح معها . وتم مد عملية توقيف الحرب - ضمنا -
والذي كان قد إتفق عليه منذ يوم ٨ مايو ، ودون تحديد أجل لذلك .

أما البرنتال ، فإن مصيرها قد ظل معلقا ، ولم تكن الدبلوماسية الفرنسية
قد تمكنت من إدخالها في المعاهدة . ولذلك فإن العمليات العسكرية قد استمرت
في هذا القطاع وحده . واستمرت القوات الإنجليزية في المشاركة إلى جانب
البرتغاليين . وكذلك فرنسا فإنها لم تتمكن من أن تذهب من هذه العملية ،
ولكنها كانت ترسل المعونات في السر : خاصة وأنها قد تعهدت في عام ١٦٥٩
بعدم معونة أي من حلفائها لتساقبتين . ولكي يمنحوا أي شكوى محكة من
الأسبانيين ، ورافق تورين على أن يتحمل كل مسؤوليات هذا الموضوع . ورفض
فيليب الرابع بإصرار أن يعترف باستقلال البرنتال ، ولذلك فإن الصلح أن يتم

إلا في عهد الملك التالي ، وبعد عشر سنوات من ذلك ، بمعاهدة لشبونة ، في ١٢ فبراير ١٦٦٨ .

وكما أن معاهدات وستفاليا تميز نقطة تحول كبيرة في تاريخ ألمانيا ، فإنه يمكن اعتبار معاهدة البرانس على أنها تمثل تاريخاً هاماً بالنسبة لاسبانيا . هذا علاوة على أنها تعتبر دلالة واضحة في التاريخ العام لأوروبا ، من وجهة النظر السياسية والعسكرية . فلقد انتهت فترة التفوق الأسباني . أما قوة آل هابسبورج في مدريد ، ورغم أنها كانت لا تزال كبيرة ، فقد أصبح من الصعب وضعها في نفس مستوى قوة فرنسا .

وعند أصول هذا الضعف ، كان هناك انخفاض في الطاقة الديموجرافية ، والتي كانت تتأخمض خطيرة بنوع خاص بالنسبة للبيدان العسكري . فلم تعد أسبانيا تشمل إلا على أربعة ملايين ونصف مليون من الأماي ، في الوقت الذي بلغ فيه سكان فرنسا ١٤ أو ١٦ مليوناً . وهذا الانخفاض في عدد السكان كان على علاقة وثيقة بالقوة الاسبانية ، ونموها . فصبوب الهند الغربية ، كان هناك تياراً منتظماً من الهجرة ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه الممتلكات الأوربية للتاج ، وبخاصة الأراضي المنخفضة ، وحيث كانت العمليات العسكرية قد استمرت حتى عام ١٦٤٨ ، تتطلب الاحتفاظ بقوات ضخمة . وظل الإسبانيون يحتفظون بمزايام العسكرية التقليدية . ولكن جيوش فيليب الرابع لم تعد تشكل فقط من الاسبانيين ، بل لقد أصبحت تضم الكثيرين من الإيطاليين ، وبخاصة من أبناء إقليم نابولي ، وكذلك الانجليز ، والاسكتلنديين ، والاييرلنديين ، ورجال من كل المعتقدات ، كانوا يجذبون إليها بالمستويات المرتفعة نسبياً لأجورهم .

ومن جانب آخر ، تأثرت الأنشطة الاقتصادية لاسبانيا بشكل خطير من تلك الحرب العنيفة التي قام بها الهولنديون ضد أساطيلهم ، وبخاصة ضد

الاساطيل التي كانت تضمن المواصلات مع أمريكا ومع مناجها . وكانوا قد نظموا حصاراً فعلياً لجزيرة الايبيرية ، واحتفظوا به طوال نصف قرن ، وانزلوا خسائر فادحة بالتجارة ، مما ربح خنقها ، وذلك في الوقت الذي أمروا فيه بما نهيروه منها .

وكان معنى انخفاض عدد السكان ، وقلة الأنشطة الاقتصادية بالتالي ، هو تقليل الإمكانيات المالية للدولة . فكانت الضرائب لا تغطي ما كانت المملكة ، التي كانت تواجه مشكلات تزايد في قتلها ، مضطرة إلى أن تطلبه من رعاياها . ولم تكن حرب الاراضي المنخفضة التي لا تنتهي مجرد حرب تتطلب الأموال الضخمة ، بل إن فيليب الرابع ، حتى إذا لم يكن قد تدخل بطريق مباشر في حرب ألمانيا ، فإنه كان يسهم فيها بمعونات لابن عمه الإمبراطور . وهكذا كانت حصيلة الضرائب تنفق بطريقة منتظمة ، ومقدما ، ثم ينتظرون بفارغ الصبر ، وأكثر من أي وقت مضى ، وصول اساطيل أمريكا ، وبأمل ألا تكون قد أسرت في أثناء الطريق .

ونحن لو نقول أن الحياة قد انسحبت شيئاً فشيئاً من هذا الجسم الضخم الذي أحابه الضعف والذي هو الإمبراطورية الاسبانية . بل إنه سوف يستمر في الاحتفاظ بمكانه ، وفي بعض الاحيان يمكن من الدرجة الأولى في حياة أوروبا . ولكنه ، في مواجهة فرنسا التي تستمر في الصمود ، بدت قواه على أنها تراجع بشكل واضح . وبدت هيته على أنها قد أصيبت .

ومن بين النتائج العديدة لهذا التدهور الواضح علينا أن نذكر أن عدداً كبيراً من الفرنسيين ، ومن الطبقات العليا قد تعلم وتمتدح بلغة ميرفانتيس وكالديرون ، ودي فيجا . وكان ذلك قد أصبح إحدى العادات ، أو إحدى اللوات ، التي شجعتها وصاية آن النمسية ، وهي أميرة اسبانية سابقة . ولكنها ستختفي شيئاً فشيئاً ، في أثناء الفترة التالية .

الفصل الخامس عشر

بحر البلطيق وأوروبا الشمالية الشرقية

منذ الأزمنة البعيدة لما يكتسح لم تكن سواحل بحر البلطيق ، وهي خاضعة لدول ضعيفة ، مسرحا ، لميليات أو لأحداث لها مدى أوروبي . وفي أثناء القرن السادس عشر ، شاهدنا منافسات بين أمم متاجرة — رجال الهانسا ، والمولنديون ، والإنجليز — من أجل السيطرة على الطرق البحرية وعلى الأسواق . وفي أثناء القرن السابع عشر ، وفي الوقت الذي ظهرت فيه الهانسا الألمانية على أنها قد خسرت ، وأصبحت غير صالحة للدخول في صراع ، لم يكن الأمر قد انتهى بشكل كامل . وإن كان الأمر سوف يتعلق الآن بالدول المطلة على بحر البلطيق أكثر . من كونه يتعلق بالبحر نفسه : فالمناطق الساحلية ستخضع لعملية منافسة من جانب الدول الأكثر قوة والأكثر قدرة على الحركة .

١ - الدانمرك ومضائق بحر البلطيق :

من بين الدول المطلة على بحر البلطيق — والتي انضمت إليها الدولة المسكوفية أخيرا — كانت هناك واحدة ، هي السويد ، التي ستقوم في أثناء القرن السابع عشر ببناء مستقبلها بسرعة ، وببنفس الطريقة المثيرة للدهشة والتي كانت البرتغال قد عملت بها منذ قرن مضى ولا يمكننا أن نقوم بالمقارنة بينها . ففي الحالتين ، كانت الاسس الديموجرافية التي تسمح بصعود إحدى الدول إلى مصاف الدول العظمى ، غير موجودة في كلتا الحالتين . فكانت السويد في عهد جوستاف أدولف لها تقريبا من السكان نفس العدد الذي كان لبرتغال في عصر النهضة . ومع ذلك ، فإنها تتمكن في أثناء بضع سنوات من الحرب من أن تقتصر على كل ألمانيا تقريبا ،

في انتظار أن تصل مع شارل الثاني عشر إلى إحتواء بولندا مؤقتاً ، وإلى تهديد روسيا ، في عصر بطرس الأكبر ، داخل بلادها . وإذا كنا نميل إلى أن نصف تاريخ البرتغال للثير للدمعة في بدايه العصور الحديثة بأنه مغامرة ، غنية بالاحداث بالنسبة لمستقبل العالم القديم والعالم الحديث ، فيبدو أن نفس الصفة يمكنها أن تطبق ، فيما يتعلق بالفترة التالية ، على حالة السويد . فهذه المغامرة السويدية المزدوجة في وسط وفي نهاية القرن ستسيطر ، خلال هذه الفترة على تاريخ بحر البلطيق .

وحين يبدأ القرن لم يكن هناك ما يدل على ذلك الدور الكبير الذي سوف تلعبه السويد في أوروبا . فلم تكن هناك دولة مهيمنة في بحر البلطيق . أو بمعنى أصح ، كانت هناك دولتان في الشرق بولندا ، القوية بكتلتها القارية وبسكانها ، وفي الغرب الدانمرك الصغيرة ، التي كانت تسيطر على المضائق التي تتحكم في العبور صوب المحيط . وكانت الملاحة والتجارة قد تزايدت بشكل واضح أثناء النصف الثاني من القرن السادس عشر ، وكانت مملكة الدانمرك ، التي كان لها حق إستلام الرسوم في المضائق ، قد تضاعفت إيراداتها بشكل واضح ولذلك فإنها ، رغم ضعف عدد سكانها — نصف مليون نسمة تقريباً — كانت خزائنها دائماً عامرة .

وكان الدانمركيون ، رغم موقعهم المنفوق ، والذي كان على إتصال ببحرين ، وقاموا بتنظيم العبور فيما بينها ، لم يشعروا بعد بضرورة تنمية مواهبهم البحرية . وكان المثل الهولندي هو الذي سيطهيم الرعى ، في بداية القرن السابع عشر ، لقيام بالمحاولات الأولى في ميدان التجارة البعيدة . وحين تمود الحروب فيما بين أسبانيا والاقاليم المتحدة ، في عام ١٦٢١ ، سيحاولون الحصول على نصيبهم في العلاقات التي كانت قد بدأت أثناء القرن السالف ، فيما بين أوروبا المطلة على

البحر المتوسط وبين بحر البلطيق، والتي كان الهولنديون قد تفحصوها فيها، وأثروا منها . وكان ملكهم في ذلك الوقت هو كريستيان الرابع . وفي فترة حكمه الطويلة (١٥٨٨ — ١٦٤٨) أظهرت المملكة ، وفي كل الميادين رغبة في العظمة كانت نتائجها قد تستمر طويلا ، إذا لم يكن ظهور السويد المفاجيء قد جاء لكي يحكم عليها بالفشل .

ومنذ أن بدا أن انبهار الهانسا قد أصبح لاعلاج له ، كان الهولنديون هم المنتفعين الأساسيين بالمضائق ، وكانوا يحقدون عليهم في كوبنهاجن ، ويحاولون إستغلالهم ، وإن طلب الأمر ، قومون بتقليدهم . وفي عام ١٦١٦ ، وتشبها بالاعاليم المتحدة ، أنشأ كريستيان شركة الهند الشرقية ، منحها حق الاحتكار لمدة اثنتي عشرة عاما ، في نفس الوقت الذي احتفظ فيه لنفسه، شخصيا ، بثك الأرباح وأعطى إدارتها لبعض الهولنديين ، الذين كانت لهم معرفة طويلة بشئون الشرق الأقصى . ولقد ذكرنا فيما مضى النتيجة الرئيسية لهذا المجهود . والذي يتمثل في إنشاء مركز تجاري في خليج ترانكبار ، وعلى مسافة قريبة من المكان الذي سقشأ فيه فيما بعد بونديشهرى . ولكن هذه الشركة الهانمركية لن تتمكن من القيام بأى عمل آخر نتيجة لقلة رؤوس الأموال .

وفي أوروبا ، عمل كريستيان الرابع عسلى أن يعيد ، على سواحل مياه بحر البلطيق ، ذلك المركز المتفوق الذي أفلت بالكاد من الدانمورك في أثناء القرن السالف . ونشبت حرب أول ، تسمى حرب كالار ، مع أعدائه الدانميين ، السويديين . وكانت أسبابها ترجع إلى محاولة سويدية لسياس السفن التجارية الآتية من الغرب ، وخاصة سفن الهولنديين ، بتحاشي عقبات الممرات . وعلى بحر الشمال ، وفي تلك النافذة الصغيرة التي كانت السويد تمتلكها من هذه الناحية ، مضبوطة من الشمال ومن الجنوب بواسطة سكانيا الغرويجية (وكانت مملكة البروج دائما هي إحدى

الممتلكات الدانيمركية) غفل الملك شارل الرابع على أن يؤسس في عام ١٦٠٧ ميناء جوتنبرج . وكان النرويجيون يأتون إلى هناك بالسلع التي تقصد بلاد شرق بحر البلطيق . وكانت تنقل من هناك ، ومن جديد ، على سفن سويدية ، إذ أن هذه السفن السويدية كانت معفاة منذ عام ١٥٧٠ من دفع الرسوم في المضائق . ورأى الدانيمركيون أنه يصعب تحمل هذه الحالة ، وللتجأوا إلى السلاح لوضع حد لها . وفي أول الأمر ، رأى السويديون أنهم قد خضعت للنهب ؛ فاضطروا إلى التفتقر صوب الدانمرك ، وأحرقوا جوتنبرج . ولكن ، بعد موت الملك شارل الرابع ، ووصول ابنه جوستاف أدولف إلى العرش ، تنهد الموقف العسكري في صالح السويديين . وتم عقد الصلح في عام ١٦١٣ ، وبشمن تنازلات إقليمية بسيطة ، وضمانات ضد تفاقم حركة التهريب ، حصل السويديون على إعراف بمنحهم في إعادة ميناء جوتنبرج . وفي نظير ذلك ، وافق جوستاف أدولف على أن يستمر ملك الدانمرك في وضع الثلاث تيجان الأسكندنافية في شأونه الملكية : وكانت مجرد مسألة تتعلق بالكرامة ، إذ أن كريستيان أعلن أنه يتنازل عن كل إحصاءات في تاج السويد .

ومن ناحية ألمانيا ، كان إنهباء الهانسا يعطى الدانمرك إمكانيات ، حاول كريستيان أن يستغلها . فكان يمتلك دوقية هولشتاين ، التي كانت تعطيه صفة أمير من أمراء الامبراطورية . ونعطيه الحق في الاشتراك في الهابت وكان هولشتاين المجاورة للدانمرك ، تطل على مصب نهر إلب ، وأمام هامبورج . وساحل الملك إبتداء من عام ١٦١٧ أن ينمى هناك ميناء جلوكستاد الصغير ، والذي كان يرغب في جعله منافسا لهامبورج . وبعد عشر سنوات من ذلك . فرض هناك نظام دفع الرسوم ، وإدعى إلزام كل السفن التجارية الآتية من هامبورج أو الناهية إليها ، بدفع الرسوم هناك . ونتج عن ذلك صدام عنيف مع رجال هامبورج ؛ إلتهى

في صالح الدانمرك ، واعترف الإمبراطور نفسه لكريستيان بحق إستلام الرسوم الجديدة . وهكذا تقدم الدانمركيون بترشيحهم لأمر خلافة أحد الموانئ الكبرى الهانسا . وكانت تجارة إيسلند ، وهي إحدى ممتلكات تاج الدانمرك ، وبنسبة كبيرة منها ، في أيدي من رجال هامبورج . وعمل كريستيان على أن يتزعمها منهم ، وأعلن في عام ١٦٣٣ أن جلوكستاد ستكون بعد ذلك هي المحطة الإجبارية لهذه التجارة . وفي نفس العام ، أبلغ مدن الهانسا أنه يلقى الإمتيازات التي كانت تمارها يتمتعون بها في مملكته منذ وقت طويل ، وكذا كانت إنجلترا قد فعلت من قبل .

ونتيجة لتدخلها في حرب الثلاثين عاما ، إلى جانب البروتستانت الألمان ، حصلت الدانمرك على مكانها في التاريخ العام لأوروبا . ومع ذلك فإن هذه المرحلة ليست هي أحسن المراحل لظهور دقة كريستيان الرابع في الوصول إلى القوة . ولكنها أثرت بنوع خاص ، إن لم يكن بشكل كامل ، على مصالحه ، وبصفة دوق لوبواشتاين ، وأمير من أمراء الإمبراطورية . وكانت أهميته ترجع إلى أنه يمثل نوعاً من المقدمة للتدخل السويدي ، وكانت المشروعات الطموحة التي فكر فيها فالنشتين والإمبراطور في إطار الصراع ضد العدوان الدانمركي ، هي أنارت قلق جوستاف أدولف ، وجعلته يعمل السلاح .

٢ - السويد ، وحرب بولندا ، وحرب ألمانيا :

كان من الضروري بالنسبة للسويد ، من أجل أن تحافظ على نصيبها في تلك الملاحمة الدولية . التي سوف تتحول شيئاً فشيئاً إلى حرب ألمانيا ، أن تقيده هي كذلك ، وبصفتها دولة ناشئة مثل الدانمرك من صيغة إقتصادية تعمل في صالحها بنوع خاص ، في الربع الثاني من القرن السابع عشر . وبينما كان تاج الدانمرك

يُحصل على الجزء الأساسى من موارده من رسوم العبور فى المضائق ، كان تاج السويد يحصل على موارده من إستغلال الثروات المعدنية — النحاس وعام الحديد بنوع خاص — والذى كانت صناعة المدفعية تضمن لها سرفاً يزداد أهمية منذ أن كانت حالة الحرب قد نشبت من جديد فى هولندا وإمتدت منها على الجزء الأكبر من ألمانيا .

وحى بداية القرن السابع عشر ، كانت المادان السويدية لا تصد إلا بكميات بسيطة ، وبخاصة ، وإن لم يكن كلها ، صوب إنجلترا وإستقدم جوستاف أدولف من نتيج ، وهو المركز الأوروبى الكبير للصناعات التعديفية ، الخبراء الذين كان يحتاج إليهم من أجل تنمية الصناعة السويدية . وكان لوى دى جير هو أحد عمليه ومستشاريه المقربين ، وكان من لبيج . ومن بعده ، جاءت بضع مئات من أمر لبيج ، فحذيم ظروف العمل فى التعدين ، وأقموا فى السويد .

ولقد ذكروا إن جوستاف أدولف قد وجد طريقة فريدة لتصدير المعدن السويدى ، بإرساله التناقف إلى أرض المارك فى أوروبا الوسطى . ولكنه لم يكن قد قام بالحرب بنفسه ، وإن كان قد وجد بسهولة المناسبة التى يبيع فيها منتجات مناجم المملكة إلى المتحاربين المديدين فى هذه الفترة . ومع ذلك فقد قام بالحروب من أول فترة حكمها حتى آخرها ، وعود رعاياه على الحرب . ولقد وصل به الحال إلى أن يذكروا عنه أنه جعل الحرب إحدى المهن الوطنية فى السويد .

وفى نفس الوقت الذى بدأت فيه السويد فى العمل فى ميدان المبادلات الدولية دخلت كذلك ، مثل جيرانيا الدانمركيين ، فى طريق التوسع الاستعمارى . وهنا كذلك ، كان أصحاب المحاولات الأولى من الهولنديين . وأسس أحد

أبناء أنفوس ، وعلى الورق على الأقل ، شركة سويدية التجارة مع آسيا وإفريقية وأمريكا . ومنته صوبة الحصول على رؤوس الأموال الضرورية من أن يستمر ، وصفوا المشروع حتى قبل أن يتحقق ، ومع ذلك ، فقد تأسست وسويد جديدة . في عام ١٦٣٨ على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية عند مصب نهر ديلاور . وعاشت عيشة بسيطة حتى اليوم الذي سقطت فيه في أيدي الهولنديين ، بعد منتصف القرن بقليل .

وكان جوستاف أدولف قد وصل إلى الملك وله من العمر سبعة عشر عاماً ؛ وكان جندياً في طبيعته ، فأعطى للسويد جيشاً من الدرجة الأولى ، جيشاً وطنياً يزوده بالرجال بنظام تجنيد محدد . وكانت المشاة فيه تحمل مكامناً يساوى على الأقل ، إن لم يكن يزيد ، عن مكانة الفرسان ، والذين كانوا حتى ذلك الوقت هم أحسن الأسلحة . وكذلك للدافية ، فإنها تدربت على خصائص البلاد ، وسيصبح كذلك من المستوى الأول .

ومنذ وصوله إلى الحكم ، ووث الحروب الثلاث التي سيشارك فيها : ضد روسيا ، وضد الدانمرك ، وضد بولندا . ولكن يتمكن من أن يعمل بحرية صوب الشرق ، إذطر إلى عقد الصلح مع كوبنهاغن . وبعد وقت قصير ، استلم ميشيل رومانوف السلطة في موسكو ، ووضع حداً للفوضى التي كان جيوان روسيا يفيدون منها منذ سنوات وبعد بضعة عمليات بدون نتائج ، فهم جوستاف أدولف أن الحكمة تفرض عليه أن يوقع الصلح هنا أيضاً . وتم عقد الصلح في عام ١٦٤٧ في ستوليوبا : وأعطى السويد نافذة على البلطيق كان الموسكوفيون قد احتلوها في القرن السابق (إنجرمانيا ، وكاروليا) ، وتبعها مباشرة تقريباً تحالف روسي سويدي ، موجه ضد بولندا .

ومنذ محاولة سيجسموند فازا ، ملك بولندا ، والتي فشلت ، من أجل أن

يحمل كذلك تاج السويد ، كبريات خلفائه ، إزداد العداء بين الدولتين ، والذي كان قد نتج عن المعارضة بين الإتجاه الكاثوليكي وإتجاه الإصلاح الديني ، وأصبحت حالة الحرب مستمرة تقريباً ، وإن كانت تقطعها من وقت لوقت آخر هدنات قصيرة المدى كما حدث من عام ١٦١٧ حتى عام ١٦٢٠ ، وحين قرر جوستاف أدولف القيام بسياسة قوة صوب الشرق ، كان عليه أن يقيس قوته بقوة بولندا .

وحتى عام ١٦٢٩ ، وفي الوقت الذي كان يتتبع فيه بإهتمام تطور أحداث ألمانيا ، وضع كل مجهوده من أجل الحرب ضد بولندا . وكان قد تزوج في عام ١٦٢٠ بأخت منتخب بранدبورج ، وكانت من نفس مذهب الإصلاح الديني . وكان على علاقات ودية مع نسييه ، الذي سدد في عام ١٦١٨ مشروع توحيد دوقية بروسيا مع إقليمه المنتخب ، وكانت بروسيا موروثه من أحد أبناء عمه ، من نفس أسرة هوهنزلرن . ولكن بروسيا التي كانت خاضعة للكنيسة ، كانت تابعة لبولندا ، وكانت تطل على بحر البلطيق ، وإضطرت جوستاف أدولف إلى أن يغزوها في عام ١٦٢٦ ، بيد أن كان قد إقتطع منها إقليم ليفونيا في السنوات السابقة . ودعم حكمه في المواقف . أما هوهنزلرن ، فإنه حين طلب إليه ملك السويد القيام بإجابه كتابه له ، فإنه لم يتحرك ، وعرض حتى على نسييه أمر إتفاقيه حياذ ، وأن كان ذلك سينزل عليه توبيخ الإمبراطور ، ويتسبب به ذلك في غزوات فالتين الانتخابية في براندبورج وهكذا نجد أن تدخل ملك السويد في حرب الثلاثين عاماً مرتبط بمجملاته في بولندا ويمكن اعتبارها على أنها النتيجة المباشرة . فالإمبراطور ، من أجل إرسال المدد لحليفه ملك بولندا ، كلف فالتين ، وفي نفس الوقت الذي تخلص فيه من الدانركين ، بأن يتقدم حتى ساحل بحر البلطيق .

وفي عام ١٦٢٩ ، ونتيجة لوساطة الدبلوماسية الفرنسية ، والتي أيدتها حكومة لندن ، تم عقد الصلح في نفس الوقت تقريباً بين السويديين والبرنديين ، وبين الامبراطورين والدانمركيين . أما من جانب بولندا فإن الأمر لم يسكن ، يتعلق وطبقاً للتقاليد السائدة في شرق أوروبا في ذلك الوقت ، إلا هذنة من الهدنات . وتركت إتفاقية الدانمرك ، السارية لمدة ست سنوات ، السويديون يحتفظون بالجوه الرئيسي من غزواتهم ، وهو ليفونيا ، في شهر سبتمبر ١٦٢٩ .

ولقد ذكرنا فيما سبق نجاح جوستاف أدولف في ألمانيا منذ نزوله هناك في عام ١٦٣٠ حتى موته في عام ١٦٣٢ . ولقد ذكروا الكثير عن أنه كان يعلم بعمل بحر البلطيق بحيرة سويدية . وكان قد نجح في ذلك إلى حد بعيد ، ولكن علينا ألا ننشبت كثيراً بهذا التعبير فكأن السويد بعيدة وبكثير عن أن تصل إلى مثل هذه الدرجة من القوة التي تسمح لها بالطموح في عارسة السيطرة على بحر البلطيق والتي كانوا يتنازعون عليها . أما أنها قد حصلت على إعتراف بنفسها كقوة مهيمنة في بحر البلطيق الشرقي ، أو أنها قد إصطدمت بالطموحات المنافسة من جانب بولندا وروسيا ، فإن ذلك كان كافياً لتحقيق حلم جميل . ولكن السيطرة على بحر البلطيق كانت شيئاً يختلف عن ذلك تماماً . وكان لا يمكن لأحد أن يحصل عليها ، بطبيعة الحال ، إلا ذلك الذي كان يسيطر على المضائق . وكان من الضروري منازعة الدانمرك عليها . ولقد رأينا أن جوستاف أدولف كان منذ بداية حكمه قد إختار إنهاء حالة الحرب بين البلدين وكان ملك الدانمرك يعتبر نفسه ، وطبقاً للتقاليد على أنه سيد مياه بحر البلطيق . وإدعى ضرورة أن تحصل السفن التي ترفع علمه على التمية الأولى ، وفي جميع أنحاء هذا البحر . ولم يكن في وسع جوستاف أدولف أن يعلن ثورته مباشرة ضد مثل هذا الإدعاء . وحينما أرسل في عام ١٦٢٠ لإحضار خطيبته من القارة، وهي أخت منتخب براندنبرج،

سمح لمستشاره في حالة مقابلتهم مع سفن حرب دانيمركية ، بإرضاء الدانيمركية في هذا الموضوع ، فذكر أنه كان يرغب في تحاشي كل حادث مؤسف وبسبب وجود السيدات ، . وليس هناك ما يسمع بتأكيد أنه تخلى عن هذا الحذر بعد ذلك .

وبعد نزول جوستاف أدولف على الأرض الألمانية ، تأكدت سياسته من أجل التزور ، فأجبر دوق بوميرانيا على الاعتراف بسيادته ، وليس بإسمه الشخصي ، ولكن كذلك بإسم خليفته من بعده . وهكذا بدأت القوة السويدية تستقر في قطاع جديد من السواحل الجنوبية لبحر البلطيق : وستؤكد رسمياً حقوقها في عام ١٦٤٨ ، ولن تتركهم يخرجونها من هناك إلى الساحل المقابل في عام ١٨١٠ . وكان من مضار هذا الإمتلاك الجديد هو وضع السويد في تصارض مع دولة براندنبورج - بروسيا الشابة ، والتي كان أمر الرغبة في إمتلاك بوميرانيا يمثل بالفسبة إليها الوصول إلى البحر . وكان الأدواق المنتخبون ، رغم أنهم كانوا قد حصلوا منذ عام ١٦٤٨ على جزء من الدوقية ، لا يسامحون السويد في أنها قد حرمتهم من الباقي . ستؤثر العداوة المستمرة ، مخفية أو معلنة والتي سوف تفتج عن ذلك بين الدولتين ، اللتان تتشابهان في وفي شبابهما ديناميكيتهما ، في التاريخ للقبل لمنطقة بحر البلطيق .

وحين تقرب فترة الست سنوات التي عقدت من أجلها هدنة الدانمرك من نهايتها ، تسادد المستشار أو كسفسرن ، الخليفة الفعلي والحقيق لجوستاف أدولف على رأس دولة السويد ، عما إذا لم يكن من الأفضل لبلاده ان تنسحب من حرب ألمانيا ، حتى تتمكن أن تنفرغ ببحرية أكثر الدفاع عن مصالحها كدولة ، في القطاع البرلندي . وكانت فرنسا في ذلك الوقت ، في عهد ريشليو ، تستعد لقطع العلاقات مع أسبانيا وعلقت الدبلوماسية الفنلندية ، وبمحيرة الهولنديين ؛

ونجاح ، من أجل الحصول على تجديد الهدنة . وأمدت إتفاقية ١٢ سبتمبر ١٦٣٥ من أمدها لفترة ستة وعشرين عاما ، وفي نظير إعانة السويد لموانئ بروسيا الشرقية .

ولم يكن هذا يرضى ، مع ذلك ان سواحل بحر البلطيق قد عرفت السلم . ذلك ان الإمبراطور استخدم كل سلطته وقوته في ان يهيج ضد السويديين خصومهم التقليديين ، وهم البولنديين والماتركيين . وطبقا لتوجيهاته ، إتحدوا في عصبة دفاعية ، دعوا القيصر (إليكس) ، للاتضمام إليها في شهر سبتمبر ١٦٤٢ . ووجد أوكسنترن أنه مضطرا إلى ان يتجه صوب الغرب فتفاهم مع الهولنديين ، الذين كانوا غير راضين عن قيام الهانمرك بزيادة الرسوم في المضائق ، وأعلن الحرب على كوبنهاجن ، في نفس الوقت الذي أعلنه فيها الهولنديون . ولم يكن لدى كريستيان جيش ولا حلفاء . وفي فصل الشتاء ، وإحتل الجنرال السويدي ، تورستنسون إقليم شليزفيج ، وهولشتاين ، وتوغل حتى داخل جوتلند ، وأجبر القوات التي كان الإمبراطور قد أرسلها لمعونة كريستيان على القياض بميدا . أما الهولنديون فقد قنعوا بتوصيل بعض المعونات لحلفائهم ؛ هذا علاوة على أن أحد أساطيلهم قد ظهر ، مهددا ، في مياه اللباني . وإصراف كريستيان بأنه قد فقد الجولة : فطلب الصلح ، مستجدا بوساطة فرلسا . ومن جانب الهولنديين ، خرج منها دون أن يتأثر : فأطاحت معاهدة كريستيانستاد بيساطة تمرير الرسوم السابقة . وضمنت الحكومة الفرنسية ذلك ، وسويت المسألة لفترة طويلة . أما السويديون فكانوا في وضع يسمح لهم بأن يطالبوا بما هو أكثر من ذلك . وبمعاهدة برومسيرو ، في ١٢ أغسطس ١٦٤٥ حصلوا على جزيرتين كبيرتين في بحر البلطيق : أوسل التي كانوا يحتلوها بالفعل منذ عام ١٥٧٠ ، وجوتلند ؛

ومن ناحية أخرى ، اعترفت الدانمرك بأنهم كانوا يتمتعون ، منذ أقدم العصور ، بحق العبور في المضائق ، دون دفع أية رسوم .

وبعد ذلك ، حصلت فرنسا في عهد مازاران على ثمن وساطتها ، ووقعت مع الدانمرك على معاهدة تحالف في ٢٥ نوفمبر ١٦٤٥ . وأخذت في هذه المعاهدة موقفاً واضحاً ضد إلغاء الرسوم في المضائق ، والذي كان السويديون يطالبون به . ولقد نصت إحدى المواد الرئيسية للمعاهدة على ما يلي : لما كانت حرية التجارة تتمثل بشكل رئيسي في الإحتفاظ بالأمور ، في المحيط الغربي ، وفي بحر الشمال ، وفي بحر البلطيق ، في نفس الحالة التي كانت عليها حتى الآن ، فإن الملك الأول والملك الثاني سيمعلان من أجل أن يكون هذا التوازن السابق عتقظاً به في كل مكان دون أي تغيير .

ولأول مرة تذكر السياسة الفرنسية في وثيقة رسمية ، مبدأ التوازن : وإن كانت تعدد تطبيق ذلك على المساحات البحرية .

٢ - بولندا وروسيا والسويد ، وحرب الشمال :

بعد التوقيع على معاهدات وستفاليا ، ومرور نصف يومين إلى السويد مع مصبات نهر الب ، هل سيؤود السلم على سواحل بحر البلطيق ؟ لم يكن ذلك في الحقيقة يمثل سوى فترة راحة لمدة بضعة سنوات . وسيكون مشيراً للدهشة أن السويديين ، الذين تشجعوا في إنتصاراتهم في ألمانيا ، لا يبحثون في مكان آخر عن فرص للنزول . ولن يتأخروا في أن يجدوها في بولندا .

وعاد الروس والبولنديون من جديد إلى الاشتباك مع بعضهم . وفي الحقيقة ، لم يكن هناك صلح حقيقي بينها منذ وصول رومانوف إلى الحكم . وكان ميشيل رومانوف قد قبل ، بعد قليل من عقد هدنة ستولبوف مع السويد ، أمر تسوية

مشابه مع بولندا : فهدنة دورينو والتي عقدت في عام ١٦١٨ ، ولدة أربعة عشر عاما ، كانت قد تركت سمولنسك البولنديين . وعند وصول هذه الهدنة إلى نهايتها ، كانت بولندا تعيش إحدى أزماتها المتتالية لمرات العرش . وأسرع الروس للافاضة من ذلك . ولكنهم ، مرة أخرى ، لم يحالفهم الحظ فاضطروا بعد ثمانية أشهر إلى رفع الحصار الذي كانوا قد فرضوه على سمولنسك ، وكذلك بالتخلي عن كل إعطاءات في ليفونيا ، وإستونيا ، وكورلاند . ولكن ملك بولندا قبل في آخر الأمر ان يعترف لجاره بقلب القيصر . ولم يكن ذلك يمثل نجاحاً بسيطاً بالنسبة لمؤسس الأسرة الجديدة الحاكمة في روسيا .

ومرت عشرون سنة ، ثم بدأت الحرب مرة جديدة بين الروس وبين البولنديين . وفي هذه المرة ، كانت بسبب القوزاق . وكان هؤلاء السكان ، نصف الرحل ، والذين يعيشون في إقليم الإستبس في جنوب أوكرانيا ، على جانبي نهر الدنيبر ، لا يكونون أمة . وكانوا قد اجتثوا هناك من أصول مختلفة — موسكوفية ، ومن البغدان ، أو من بولند — راغبين في الفرار من دفع الضرائب أو من تأدية خدمة الأمير في البلاد التي كانوا قد ولدا فيها ، وكانوا قد تجمعوا هناك صوب نهاية القرن الخامس عشر ، في قبائل تحت إشراف رؤساء . منتخبين ، يسمون هتان أو أتامان . وكانوا يقضون حياتهم على ظهور الخيل ، ويعيشون من الصيد ، وصيد الأسماك ، وتربية البهايم ، أو حتى من نهب جيرانهم ، الروس في الشمال ، واللتار في الجنوب . وكان التار هم الذين أعطوهم هذا الاسم ، أي القوزاق ، والذي عرفوا به من بعد ؛ خاصة وأنهم قد لعبوا دوراً هاماً في تاريخ زحف الإمبراطورية الموسكوفية صوب الشرق . وكانوا مستعدين دائماً لكي يتبعوا رئيس الحرب ، ومما كان مادام يدفع لهم ، ويمنحهم الفرصة لإرضاء نزواتهم للنهب . وبينما كانت روسيا تمر في فترة مصاعب

واضطرابات ، في بداية القرن ، وجدوا فرصاً عديدة لتقديم خدماتهم للأعداء ، ومنذ ذلك الوقت ، عملت بولندا على أن تحتذب إليها بعض قبائهم ، من أجل إمكانية إستخدامهم كعائدين لها ضد العثمانيين . ودون ان تدخلهم بمعنى الكلمة في خدمتها — وكانوا يمتازون بإستقلالهم للغاية — كانت تقدم لهم من وقت لآخر الحبول والذخائر ، وتعاونهم على بناء المواقع المحصنة . ولم يسهموا فقط في الدفاع عن الحدود ضد التار ، بل كانوا يركبون زوارق خفيفة ، ووصل بهم الحال إلى النزول حتى البحر الأسود ، عن طريق نهر الدنيبر ، وبمارة غاراتهم على المدن المجاورة . ولقد وصل بهم الأمر كذلك إلى الوصول أمام إستانبول ، وإلى الاشتباك مع السفن العثمانية .

ولقد نشبت الصعوبات منذ وقت مبكر بين القوزاق وبين البولنديين . وكان المنصب الديني هو السبب الرئيسي ، إذ ان هؤلاء كانوا من الارثوذكس ، والآخرين من الكاثوليك . وكانت سياسة الاتهام المضاد للإصلاح الديني ، ولما ميزت السياسة البولندية بشكل خاص عند نهاية القرن السادس عشر ، قد زادت من حدة الصعوبات الناشئة عن المذاهب المختلفة وتنتج عن ذلك ثورات قام البولنديون بقمعها بشكل شدة . وفي أثناء بعض الوقت ، أعتقدوا أنهم أعادوا ووطفوا سيطرتهم نتيجة للاجراءات العسكرية التي تمكنوا من فرضها في عام ١٦٢٨ : وكانوا قد بنوا على نهر الدنيبر ، وفي بلاد زابوروج ، إحدى القلاع التي احتفظوا لتفهم بحراسها . ولكن الصعوبات عادت من جديد بعد عشر سنوات من ذلك . وكان القوزاق قد ضموا إلى صفوفهم أمالي أوكرانيا ، وكانوا من الارثوذكسين كذلك ، وكانوا غير راضين عن ذلك القسدد في الشؤون الدينية والذي كانت بولندا الكاثوليكية للغاية ، تمارسه . ولم يراجع رئيسهم الاتان شيلسكي عن التحالف مع تار القرم وبمساعدهاتهم ،

تمكن من الحصول على بعض الانتصارات . وفي معركة ذفوروفو كاد الملك جان كلزيمير أن يقع أسيراً في أيديهم . وتم عقد معاهدة أولى الصلح في عام ١٦٤٩ ؛ ولكنها لم تمش طويلاً . وكانت عودة العمليات الحربية في مالح البولنديين في هذه المرة ، الذين فرضوا رغباتهم بمعاهدة بآله - تشيركوف في عام ١٦٥١ . ولكي يتخلصوا من السيطرة البولندية ، [تجه القوزاق ، وذائماً بقيادة شميلنكي، صوب موسكو : فكان القيصر سيحترم على الأقل المذهب الأرثوذكس، الذي كان البولنديون يحاربونه غلثاً أو سراً . وفي عام ١٦٥٣ ، وطبقاً لنصوص معاهدة بيرياسلاف ، أصبحت بلاد القوزاق ، مع احتفاظها بتنظيمها وبتقاليدها ، جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الموسكوفية ، وتحت الاسم - التقليدي - لروسيا الصغرى وسرمان ما عادت العمليات الحربية من جديد بين البولنديين وبين الروس . وتمكن هؤلاء الآخرون ، والذين كانت تدعمهم قوات فرسان القوزاق ، من أن يحصلوا على سلسلة من الانتصارات فوقت معولنسك بين أيديهم ؛ وتم غزو ليتوانيا ؛ كما سقطت في أيديهم فيلنا وجردتوف من بعد . وفي ذلك الوقت ، دخلت السويد إلى مسرح المعليات .

وكانت هدنة ستومندورف التي كانت قد إنتهت مؤقتاً العمليات العسكرية مع بولندا في عام ١٦٣٥ ، قد تقيضت في عام ١٦٥٥ عن طريق الملك الجديد ، شارل جوستاف ، وهو أحد أبناء أخ جوستاف أدولف ، والذي كان خطيباً لإبنته ووريثته كريستين ، والذي استدعى العرش بعد أن أرمقت صكريستين من التزامات السلطة وقررت التخلل عنها ، وكان هو كذلك يتمتع بطبيعة الجنود وكان قد خدم في ألمانيا مع أحسن جزالات حرب الثلاثين عاماً . ولم يكن عليه أن يبحث طويلاً عن الجهة التي سيحاربها . وبدون توفيق ، أخرج ملك بولندا ضد وصول أحد الأمراء من سلافة فلزا إلى الحسم في ستوكهلم : وكان ذلك

صكافيا لإعطاء ذبيحة النصح ، كان يحتاجها ، من أجل قطع العلاقات . واقد
استمرت الحرب التي بدأت بهذا الشكل لمدة خمس سنوات (١٦٦٥ — ١٦٦٠) .
وإحفظ لها التاريخ باسم حرب الشمال ، وهو الإسم الذي أعطوه لها الملاحرون
لها في غرب أوروبا .

ونتيجة لإتصافاتها في حربها الطويلة ضد آل هابسبورج وحلفائهم ،
احتلت السويد مكائنها في الصف الأول من الدول العسكرية ، إلى جانب أسبانيا
وفرنسا . وأدى تدخلها في بولندا إلى إثارة أصداء في كل شرق أوروبا ، وحتى
حدود الإمبراطورية العثمانية ، مفسياً هنا في ظهور الخوف ، وهناك في الآمال .
أما فيما عدا ذلك . فإن أصدائها وأعدادها انتظروا بعض الوقت قبل أن يحددوا
مواقفهم . وفي أثناء العام الأول من الحرب ، كان في وسع شارل جوستاف أن
يتصرف كما يرى .

وبدأ ذلك بأمل خفي للاستيلاء على تاج بولندا . وكان هذا ، بشكل ما ،
هو نفس موقف نهاية القرن الماضي بطريقة تقريبية : فكان الاتحاد بين السويد
وبولندا قد أصبح مطروحاً ، ولكن هذه المرة كان سيتم في صالح ملك السويد .
وبعد أن دخل بسهولة إلى وارسو ثم إلى كراكوفيا ، أعلن المنتصر أنه عدو
لذلك ، ولكن ليس عدوا للجمهورية . ولم يتردد حتى في أن يلقب نفسه بلقب
والهائي ، مؤكداً رغبته في إحترام أملك وإمميزات النبلاء . ولذلك فإنه
وجد في أول الأمر ، عدداً كبيراً من الأعوان . وكان عام ١٦٥٥ بالنسبة إليه
عام نجاح دون إنقطاع . فملك جان كازيمير إنهمزم في عدة مواقع ، وإنجأ إلى
الأراضي النمسية . أما الجيش البولندي الرئيسي فإنه سلم قرب حدود روسيا
البيضاء . وتمكن قائد جيش شارل جوستاف ، وهو الجنرال لا جاردى ، من أن
يحمل مثل ليتوانيا ويقع على إتفاقية كيداني التي سوت مصير الدوقية الكبرى :

وبدلاً من الاتحاد مع تاج بولندا وضع اتحاد مشابه تماماً مع تاج السويد . أما الروس ، فإنهم كانوا قد وصلوا في ذلك الوقت حتى فلندا .

ولكن كل ذلك لم يمنع من أن ينظروا ، في موسكو ، نظرة خاصة لهذا النجاح الأول للملك السويد ، وأنخذوا يتحدون السويديين ، ومنذ هذه الفترة بدأوا يعتبرون بولند على أنها أرض صيد محجوزة لهم . ولذلك فإن القيصر إليكسيس إمتنع عن أخذ اليد التي أظهر شارل جوستاف أنه يدها له واستدعى قرائه إلى ما وراء نهر الدنيبر ، وأعاد العلاقات مع جان كازيمير ، ووعد بالنخل عن ليتوانيا ، ومن أجل إظهار حسن نيته ، حصل على ثمنها ، فحصل على وعد بوراة التاج البولندي . وهذا التبدل في المواقف الأساسية سيؤدي سرياً إلى قطيعة بين الروس وبين السويديين .

ومن جانب آخر ، أدى التقارب البولندي الروسي إلى أن يتفاهم وشيلنكي مع السويديين ، وإلى أن يربط عمله بعمل خصم بولندا الجديد ، وهو جورج راکوكس ، أمير ترانسيلفانيا . ومن جانب آخر لم يحصل السويديون على الميزة المتوقعة : إذ أن الأول سيحجز بصمومات داخلية في أوكرانيا ، بينما يستدعى الثاني إلى ترانسيلفانيا ، نتيجة لهجوم البتانيين المفاجئ .

ومكثدا فإن الانتصارات الباهرة التي حصل عليها شارل جوستاف في عام ١٦٥٥ سوف تقال بدون نتيجة . وكان التشدد البروتستانتي ، والغبغبة لجنوده سيؤدي ، بعد وقت قصير أو طويل ، إلى إنقضاض الجماهير البولندية ، والتي كانت متشبثة بمذهبها الديني . وبعد بضعة أشهر خسر الجولة أمام للرأى العام : ولم يمض وقت طويل حتى خسرهما كذلك في ساحة المعركة . وكان هذا نتيجة لإحدى المزايم التي نزلت به أمام زيفستو شوتا ، إحدى المدن البولندية . وكانت السيدة المنراء تتمتع في هذه المدينة بمعبادة معينة ، ولذلك فإن

الجميع إعتقدوا في أنها أخذت البلاد تحت حمايتها . وبعد قليل ، عاد الملك الذي كان لاجئاً ، وظهر من جديد . وعرف كيف يلعب على الأوتار الحساسة ، وأعلن أن كل مملكته تحت حماية السيدة العذراء . ووجد بسرعة الجنود الذي كان في حاجة إليهم لإعادة سلطته .

ومنذ بداية الحرب ، لم يكن منتخب براندبورج ، فريدريك ويليام ، قد طلب ماهر أفضل من أن يأخذ جانب بولندا ضد السريدين ، والذي كان يكرههم منذ أن كانوا قد أخذوا منه في عام ١٦٤٨ أفضل جزء في يومهرانيا . ولكن إدخال دولة براندبورج البروسية المتواضعة في حرب ضد هذه الدولة العسكرية التي هي السويد كان يمثل الجنون المطبق ولذلك فإنه قُنع بالإحتذار عن التحالف الذي عرضه عليه شارل جوستاف ، وفي اليوم التالي لانتصاراته ، عاد هذا الأخير إلى نفس الموضوع . واضطر فريدريك ويليام ، وهو في شدة الخوف ، إلى أن يوافق على التوقيع على معاهدة كونيغزبروج في ١٧ يناير ١٦٥٦ ، والتي وافق بها على الاعتراف بالسيادة السويدية على دوقية بروسيا ؛ بدلا من السيادة البولندية وبعد ستة أشهر من ذلك ، جسد السويديون الضغط ، وزادوا في قوته ، وحصلوا على معاهدة جديدة تم التوقيع عليها في مارينبورج ، في ٢٥ يونيو ١٦٥٦ ، وفي هذه المرة ، وضع جيش براندبورج تحت تصرف السويد ، وفي نظير ذلك وعد ملك السويد حليفه بأربعة «بلاتينات» بولندية ؛ وبكل بوسنانيا .

وعند نهاية ١٦٥٦ كانت السويد تحتفظ بكل ميعة ، رغم أن قوة دفعها الأول كانت قد تخطمت . ولسوف يتغير كل شيء بمدة أشهر وكانت المائكة ، هذا الخصم التقليدي الدولة السويدية ، قد أخذت حتى ذلك الوقت موقف المنتظر . وفي بداية عام ١٦٥٧ ، رأى الملك فريدريك الثالث أن الذي إتصر بالأمس قد

أصبح على دوجة من الضعف تسمح له بمواجهته : قام بإحتلال دوقية بريمن التي كانت مساعدة أومستروج قد تازلت عنها السويد . وسرعان ما بدأ أن أخذ هذا الموقف سيكون كبير الفائدة بالنسبة لبولندا . إذ أن المنتخب فريدريك ويليام قد أقاد منه وعاطر بعملية تغيير إلتبائه ، الأمر الذى كان يفكر فيه منذ أن دخل الحسرب . وبعد أن تأثر بدبلوماسية الامبراطورية ، وإستجاب لها ، شعر بأنه مطمئن على ظهره . فإلتزم إلى خصمه بالأس : وحصل من البولنديين على بضع مساحات من الأراضي ، وعلى التخلي عن السيادة البولندية على دوقية بروسيا . ومن جانب آخر ؛ كانت معاهدة ويبلار فى شهر سبتمبر عام ١٦٥٧ سرية . الأمر الذى كان يسمح بأن يجعل السويديين يعتقدون ، خلال بعض الوقت ، أن أسرة هوهنزرن قد أخذت موقف الحياد فقط .

وكان دخول الدانمرك إلى مسرح العمليات ، وتغيير المسكر الذى تنتمى إليه براندبورج ، فى أثناء عام ١٦٥٧ ، يعتبر نقطة تحول . ولذلك فإن الصطدام تنبع منه . ولم يعد محدوداً بمحدود بولندا المباشرة ، وإلتزم الآن إلى مجموع قطع بحر البلطيق . وكان يؤثر على مصالح هذه المجموعة الجديدة من الدول ، وهى الدول العظمى المناجرة فى الغرب : الأقاليم المتحدة ، وفرنسا وإنجلترا . وكانت هذه الدول مستمرة فى الاهتمام بذلك منذ البداية ، وفى قياس المخاوف التى يمكن أن تحدث لمصالحها التجارية . ولكن تدخلاتها ، الموزعة على سنوات ، كانت لها طبيعة هادئة . وكانت هذه الدول كلها معادية ، ثلاثها ، للأسرة النموية الحاكمة ، بناء على عقيدة دينية أو على تقليد سياسى . فأبطلت منذ البداية ثمن نيائها السويد ، بينها عبرت أسبانيا عن مشاعر تضامنها مع بولندا الكاثوليكية للغاية وكانت فرنسا هى الوحيدة التى تدخلت بطريق مباشر ، وعلى الأقل بالطريق الدبلوماسى . وساول ، مثلها فى برلين أن يتغلب على تردد

فريدريك ويليام وكان هو الصانع الرئيسى لمعاهدة كونيغزبورج وكانت النتيجة ، بطبيعة الحال ، هى فتور العلاقات الفرنسية البولندية . وأفاد السفير الامبراطورى من ذلك من أجل أن يحصل من حكومة وارسو على معاهدة تحالف ، فى ٢٧ مايو ١٦٥٧ . ووصل التوتر مع فرنسا إلى حد التفكير فى بعض الحظرات فى قطع العلاقات .

وكان تغير المواجهة المفاجيء لفريدريك ويليام فى عام ١٦٥٧ يولد فى باريس بطبيعة الحال الدهشة والقلق . إذ أن ذلك كان يمثل تحاشا لدبلوماسية آل هابسبورج ، خاصة وأن المنتخب لن يتأخر فى الانضمام إلى التحالف النمساوى البولندى . ومع ذلك فإن دبلوماسية مازران لم تتحلل عن الأمر . وإستمرت عليه المنافسة الشديدة بين السفهين ، الفرنسى والنمساوى ، فى وارسو حتى نهاية الأزمة . وفى أثناء ذلك الوقت ؛ تركزت مجهودات دبلوماسية الدول الغربية على الدانمرك ، وهى التى دخلت أخيرا إلى مسرح العمليات أما شارل جوستاف ، فإنه بعد أن اتخذ مؤقتاً موقف الدفاع فى بولندا ، قد اتقى بنفسه ضد الدانمرك : وفى حملة شتاء صاعقة ، وصل حتى أبواب كوينهاجن . وإتزع من الملك فريدريك معاهدة روسكيلد فى ٢٧ فبراير ١٦٥٨ . وحصلت السويد على سكانيا ، التى كانت تقع على المضائق بين بحر الشمال وبحر البلطيق من الناحية الشرقية ، وكذلك على جزيرة بوردنولم .

وكان هذا النجاح الجديد للسويد يثير القلق بنوع خاص فى فينا . فعنى ذلك الوقت ، كان الامبراطور فرديناند الثالث ، رغم إرباطه بمعاهدة تحالف مع بولندا ، قد قطع بأن يدفع لها بعض المعونات . وكان قد أفاد حتى من الصعوبات التى تواجه جان كازيمير ، من أجل أن يحتل ، وقرب حدوده ، مدينة كراكوفيا ، وملاحات فيليشكا ، ولكن فرديناند توفى فى عام ١٦٥٨ .

وسيطه خليفته ، ليوبولد الأول ، ميولا سياسية أكثر منه : فربط نفسه بطريقة وثيقة ببولندا وبراندنبورج ، وتهد بأن يعطيها المونات والأسلحة . وهذا التحالف الثلاثي كان يثير تفكير السويديين . ولكن شارل جوستاف ، الذي تمثل بشوة انتصاراته الواسعة ، لم يهتم بذلك . وأمام سوء نية الدانمركيين في تنفيذ معاهدة روسكيلد ، دخل إلى الحرب . وعمل على حصار مدينة كوبنهاغن . وكان هذا عبارة عن تحدى ألقى به في وجه الدول البحرية ، فكيف يمكنها أن تظهر عدم إيمانها بمثل هذا المصطدام الذي يهدد بأن يؤثر في وضعية المضائق ؟ لقد رأينا أن فرنسا في عصر مازدان كانت مصممة على الاحتفاظ بالتوازن في بحر البلطيق . وسيكون موقفا نفس ما كان عليه منذ عشر سنوات مضت . ورغم التحالف الذي يستمر في ربطها بالسويد ، فإنها ستترك أولئك الذين تخيضم مشروعات شارل جوستاف يعملون ، في أولهم أصحابها في أمستردام وفي لاهاي . وستتحدث مازاران في يوم بعد ذلك عن تلك « الفترة الكبيرة التي كان الهولنديون يشعرون بها من أن تسيطر السويد سيطرة كاملة على تجارة بحر البلطيق ، وظهر الأسطول الهولندي ، بقيادة رويتر . قرب المضائق ، لكي يضمنها تحت حمايته . وسرحان مايتفق المدافعون عن الدانمرك لتقديم وساطتهم ، في نفس الوقت الذي يفهمون فيه السويد قراهم الثابت بالاحتفاظ بالمملكة الصغيرة بملكية للمضائق .

أما إنجلترا ، فكانت من ناحيتها ، تميل إلى التدخل في صالح شارل جوستاف وأظهرت هذه النية في الوقت الذي توفي فيه كرومويل . وفي ذلك المناخ من عدم الثقة في المستقبل الذي بدأ أمامها ، اضطرب إلى إستدعاء أسطولها .

٤ - الفرييون وصلح أولهناء :

بالطريقة التي شرحناها ، أصبحت الحرب الآن أوروبية . ولذلك فلا يمكن

أن يكون حلها إلا أوردى ، وسيمر أكثر من عام قبل أن يوافق السويديون على التحدث بشأن الصلح . ولذلك فقد كان من الضروري أن يستند عرض الوساطة الغربية إلى بعض التهديدات المحددة ففى أحد الأيام ، جاء أسطول إنجليزى وألقى مرساة أمام المضائق ، وفى مرة أخرى ، كان الهولنديون هم الذين يموتون كونهاجن المحاصرة ؛ ثم يقسم أميراً لهم ، وريقر ، بنقل جنود دانمركيون وجنود من حلفائهم ، إلى إحدى الجزر التى كان السويديون يحتلونها .

وفى الطرف الآخر من مسرح العمليات ، كان شارل جوستاف قد حصل على نجاح ، وذلك عن طريق إبعاده مؤقتاً الخصم الروس ، حين وقع على هدنة فاليسار فى عام ١٦٥٩ . ولكن الضغط زاد شدة عليه من جانب البولنديين والنموسيين ، الذين إتفقوا على غزو بوميرانيا : فكانوا قد احتلوا الجزء الأكبر من الدوقية وفرضوا الحصار على ستين . وتحت الضغط للزوج السلاج والدبلوماسى ، سيعطر عزيمة ملك السويد إلى التناغم . هذا علاوة على أن فرنسا تعهدت صوب حليفها القديم بالألا يضار بأى شكل فى أقاليمه الوراثة .

ولقد تم الصلح على مرحلتين واجتمع مؤتمر أوردى حقيقى ، فى أول الامر ، فى أبروشيه أوليفا ، قرب دانزيج وعملت فرنسا كوسيلة وتم التوقيع على المعاهدة هناك ، بعد مفاوضات صعبة ، فى ٣ مايو ١٦٦٠ . ولم تحتفظ السويد بأى إقليم كان يخضع فيما مضى لسيادة بولندا ، سوى ماغرته أخيراً فقط ، وهو ليفونيا . وبالنسبة إليهم كان المنتصر الكبير هو منتخب براندبورج : فقبل البولنديون الإعتراف بالأمر الواقع ، وحرروا نهائياً دوقية بروسيا من سيادة الناج .

وفى كونهاجن ، قامت الدول الغربية ، بعد ذلك بتقليل فرض حلها بالنسبة للصطدام السويدى الدانمركى . وأعدت معاهدة ٤ يوليو ١٦٦٠ إلى الدانمرك

هاتين الجزيرتين اللتين كانت السويد قد حصلت عليهما من قبل في روسكيلد .
وأعلنت أن بحر البلطيق مفتوح ، في جميع الأوقات ، وأمام كل الدول .

وهكذا نجد أن حرب الشمال قد انتهت دون أن تؤثر بشكل واضح في
الوضع الإقليمية للمنطقة الخاصة بها . وحصلت السويد ، التي كانت قد تسببت
في هذه الحرب عن ميزات لا تتناسب مع الجهد الذي قدمته . وفي خلال خمسة
عشرة عاما ، وحتى الوقت الذي تمطيها فيه فرنسا في عهد لوى الرابع عشر الغرمة
للانتقام من براندبورج ، ستحاول الحصول على نصيب من مناجها بطرق سلمية
فقط .

ولم يكن المستقبل الكبير للدولة الروسية قد ظهر بعد . وظلت إمبراطورية
القيصرية حبيسة في عزلتها التقليدية ، وعليا خارج أوروبا هذه ، والتي لم تكن
تسهر بعد معها ، ورغم الجوار ، بوجود مصالح مشتركة . ولم تكن مرتبطة
بملاقات دائمة مع أي دولة من الدول العظمى الموجودة في ذلك الوقت . وحدث
لها فقط أن قامت بتبادل بعض السفارات مع فينا وفي بعض الحالات كذلك
كان يتناها إغراء طائر بالدخول في بعض المفاوضات مع إسبانيا ، كلما كانت
تسهر ، من طرف القارة الأخرى ، بذكرى فيليب الثاني .

ومع فرنسا ، لم تعد العلاقات إلا في وقت متأخر ، في أثناء الربع الأخير
من القرن السادس عشر . ولذلك فإن المبادلات التجارية قد ظلت لوقت طويل
ضعيفة ، ومحددة تقريبا باستيراد الملح والنيذ الفرنسي وكان أول إتصال رسمي
قد حدث في عصر فيدور ، خليفة إيوان الرميب . وحصل سفير أرسله هنرى
الثالث في عام ١٥٨٦ - ولاندرى بسبب أي مناسبة - على فتح ميناء
شولموجسوى ، في البحر الأبيض ، أمام السفن الفرنسية . وسرعان ما أقام

تجار باريس من ذلك ، وحصلوا على إتفاقية تجارية في عام ١٥٨٧ .

وبدت هذه المرحلة الأولى من العلاقات الفرنسية الروسية على أنها لن تكون لها مراحل أخرى . ومرت أربعون سنة بعد ذلك ، ولا نجد خلالها إلا ، في عام ١٦١٥ ، إرسال أول ملوك أسرة دومانوف لخطاب رسمي إلى باريس يعلن فيه وصوله العرش . ثم ، في عهد ريشيليو ، كانت فرنسا هي التي تأخذ المدافع ، وفي تفكير الوزير ، كان الأمر يتعلق بالتقدم على حطام الإنجليز ، وإنشاء إتصالات ، عبر إمبراطورية القيصرية مع فارس الشاة عباس . وأرسل أحد السفراء ، دى هايس كورميتان ، في عام ١٦٢٩ إلى البلطيق ، وكان هدفه الأول كوبنهاجن ، وحيث طلب إمتيازات من أجل السفن التي تمر المضائق : وتسجل الإتفاق الذي تم التوصل إليه في معاهدة ١٤ يوليو ١٦٢٩ .

وفي ١٢ نوفمبر من نفس العام ، منح القيصر ميشيل فيودورو فيتش في موسكو بدوره الفرنسيين بعض التسهيلات للتنقل داخل إمبراطوريته ، ولكن دون أن يمنحهم الحق في الذهاب بأنفسهم إلى استراخان لإحضار الحراير الفارسية ، والتي كانت مطلوبة للغاية .

وظلت استراخان من ناحية ، وأركانطسك من ناحية أخرى ، ولوقت طويل ، هي الثغور الرئيسية لدخول والمخرج التجارة الموسكوفية . ولم يكن في وسع الأجانب أن يصلوا إليها بطريق آخر ، طوال الوقت الذي كان فيه البولنديون والسويديون ، كلاهما ، واقفين ضد جيرانها . ولذلك فإن الإمتيازات التي حصلوا عليها ظلت دائما معرضة لتقلب ونزوات الحكومات . ومرت الإنجليز بهذه التجربة في عام ١٦٤٩ . وفي الوقت الذي وصل فيه التبا إلى موسكو بأن الملك ساول قد حكم عليه بالإعدام ، وإن الحكم قد نفذ ، طلبوا إلى كل

وعاياه الموجدون والمقيمون في العاصمة الروسية ، الخروج منها ، وإن يعودوا :
إذا أن المولدين سوف يقتربون هذه القرمة لكي يحصلوا لأنفسهم على مكانة
تناسب مع طموحهم . وسرعان ما ستصبح لهم مراكز تجارية ؛ ليس فقط
في أوكافجسك ، وعلى طريق موسكو ، في فولوجدا ، وفي إياروسلاف ، بل
كذلك في نوفجورود وفي بسكوف .

الفصل السادس عشر

البحر المتوسط والدول المطلة عليه

إن حياة دول البحر المتوسط في أثناء القرن السابع عشر لا تمثل ، بالنسبة للفترة السابقة ، نفس ذلك التجديد ، كما حدث في منطقة بحر البلطيق . وفي هذا القطاع ، ظلت المشكلات الكبرى الدولية هي نفسها . وكانت الأول من بينها هي التي يطرحها تقدم المسلمين في الشرق وفي الجنوب ، والتي كانت قد ظلت بلا حل ، كما ذكرنا ، بعد ذلك الانتصار ، الذي لم تستل نتائجها ، والذي حصلت عليه الدول الغربية على الأسطول العثماني في ليبانتو . ولقد توقف بعد ذلك زحف العثمانيين ، وشرع الأتراك الإيطاليون بأنهم قد تحرروا من التهديد المستمر لعمليات الانزوال والغارات . ولكن قوة مد الأعداء لم تكن قد تعطلت إلا لفترة مؤقتة : ذلك أنهم كانوا يسيطرون على كل بحر إيجة ، فأنموا عملية إقامتهم في الأماكن التي استولوا عليها أخيراً ، وأخذوا في إعادة بناء قواتهم على مهل .

١ - العثمانيون والحرب على جبهتين :

إن فترة الهدوء النسبي التي ميزت الربع الأخير من القرن السادس عشر سوف تستمر مع ذلك خلال كل النصف الأول تقريباً من القرن السابع عشر . ويمكننا أن نبحث من الأسباب ، وبدرجة أقل ، في ضعف روح عارية المسيحيين ، عنها في التطور الداخلي للإمبراطورية العثمانية . وكانت المواقف المختلفة تتوسع العثماني قد إنكتشفت كلها في نفس الوقت ، فأولاً نلاحظ هبوطاً عاماً في النصر العثماني : فلم يظهر أى من الخلفاء المباشرين للسلطان سليمان ، نفس صفاته العسكرية ولا نفس ديناميكيته التي كانت تدفعه إلى الغزو . فكانوا قد أصبحوا بسلطين

آسيويين بالفعل ، وتميزوا بالكسل ، واللامبالاة ، والقسوة . وكانت الأحداث الكبرى والرئيسية في التاريخ العثماني . ففي هذه الفترة ، تخضع لؤامرات السراي ونورات القصر التي يمحكها الوزراء ، ثم يعملون على إيجاد حل لها . ولا شك في أن القوة العسكرية للدولة قد قلت بالضرورة ، من ذلك ، وأكثر منها القوة البحرية ؛ والتي لم تكن قد وصلت من قبل إلى مستوى مماثل . أما فيما عدا ذلك ، فإذا كانت العمليات على البحر قد قامت فعلا بهدنة لمدة تزيد على نصف قرن ، فإن المجهودات التي كانوا يطلبون إلى القوات البرية القيام بها قد استمرت وبشكل كامل .

ولقد استمر الشهابيون يحاربون على جبهتين ، في أوروبا ، وفي آسيا . وكانت الجبهة الأوروبية في نعاس لفترة طويلة ، ابتداء من هدنة سلفيتش-توروك في عام ١٦٠٦ . وكان الصلح الذي وقضوا ، لفترة طويلة ، منحه للمجر ، قد ضمن لها وبشكل تقريبي ، خلال الجزء الأكبر من فترة حرب الثلاثين عاماً . ورغم عن التنازلات التي كان الفرنسيون يرسلونها إلى أعدائهم الاتراك — ولا نقول حلفائهم ، إذ أنه لم يكن هناك ، ولا يمكن أن يوجد هناك تحالف رسمي بين المسيحيين وبين المسلمين ، من وجهة نظر المسيحيين — فإن إسطنبول قد اتجهت طريق الحياد في ذلك الصراع الذي كان ناشئاً بين آل هابسبورج وبين رعاياهم الأتراك ، وحلفاء هؤلاء الأتراك . ولذلك فإن الحرب كانت تدور دون تعقيدات خطيرة ، أو على الأقل دون تعقيدات طويلة المدى ، على الحدود الجنوبية الشرقية للإمبراطورية .

وعلى العكس من ذلك ، كانت الحدود الآسيوية في حركة مستمرة . ففي إمبراطورية الفرس ، كان الربع الأول من القرن لا يزال يتعلق كله بفترة حكم الشاه عباس الكبير . وكان قد قام ، ضد البرتغاليين ، المتمركزين في هرمز

- وكما رأينا - عقد علاقات مع الإنجليز . ولقد تمكن بمساعدتهم ، من الإستيلاء على الجزيرة وعلى المواقع الأخرى القريبة . وساعده هذا النجاح على أن يزداد جرأة ، خاصة وأنه قد نجح ، ونقجة لمساعدة التقنيين المسلمين من لندن ، في أن يفتش لنفسه مدفعية قوية . ولقد شعر ، منذ ذلك الوقت ، بأن في وسعه أن يقيس قوته ، وبنفس السلاح ، مع خصومه القدماء ، مع الأتراك العثمانيين . والمرة الثالثة في أثناء حكمه ، إشتعلت الحرب من هذه الناحية ، في عام ١٦٢٣ ، وبضربة واحدة ، تمكن جيش الشاه من إعادة غزو بندا . وكان وقع الحدث ألمانيا ، على إستانبول . وسيضطر السلطان الجديد ، مراد الرابع ، إلى استخدام كل الإمكانيات من أجل استعادة عاصمة الخلفاء العباسيين ولقصد استولى عليها في عام ١٦٣٢ ، وبعد عملية حصار طويلة ، إنتهت بعملية قتل جماعي لسكانها : وفقد الماحرون عدد الضحايا بما يقرب من ٣٠.٠٠٠ ؛ وفي العام التالي ، ضمنت معاهدة ، من جديد ، تبعية بندا للدولة العثمانية .

٣ - الخوض الغربي للبحر المتوسط :

أما في الخوض الغربي للبحر المتوسط ، فإن الحالة كانت تختلف نوعا ما . فلقد كانت هناك دائما ، ومن فترة لأخرى ، اصطدامات بين المسيحيين وبين أهالي شمال إفريقيا . وفيما بين عامي ١٦٢٥ و ١٦٥٩ كان للحرب الناشئة بين فرنسا وإسبانيا أحد مبادئها الرئيسية ، هناك .

وحين قامت الحكومة الفرنسية ، بعد وفاة هنري الرابع ، وأثناء فترة وصاية ماري دى ميديسيس ، بتغيير سياستها فجأة ، ومالت صوب التحالف مع إسبانيا ، أصبحت علاقاتها سيئة للغاية مع الجزائر . ولقد فاضوا ، بلا جدوى ، من أجل الحصول على إستعادة مواقع « حصن فرنسا » ، ورأس العبد ، التي كان يحتلها قد طردوا منها في عام ١٦٠٤ . واستمروا في مهاجمة سوية أهالي شمال إفريقيا

ومع ذلك فإن فترة الحملات الدورانية لم تفتح من جديد إلا في عام ١٦٢٠ .
واقعد لقي مندوبان من تياية الجزائر ، وهما اللذان كانا قد ذهبا إلى باريس ، ثم
عاد إلى سفينتها ، مصرعها بواسطة أهال مرسيليا ، الذين كانوا قد فقدوا شعورهم
نتيجة لإعدام بحارة سفينة كانت قد وقعت ، منذ وقت قصير ، في أيدي رجال
الجهاد البحري . وزاد الغضب من هذا الجانب ومن ذاك ؛ إلى درجة أنهم تركوا
التفاهم بينهم للمنافع . وذهب أسطول فرنسي صغير إلى سواحل إفريقيا ، وقام
بتحطيم عدد من سفن رجال البحر من شمال إفريقيا ، وقام حتى بحاصرة ميناء
الجزائر لمدة أيام .

ولقد وصلوا إلى الصلح في عام ١٦٢٨ ، وبواسطة أحد أبناء كورسيكا ،
الذي أصبح من أهال مرسيليا ؛ وهو سمسون نابولون ، والذي كان قنصلا سابقا
للملك في أزمير ، والذي كلفه بالذهاب إلى القسطنطينية والدفاع عن قضية
فرنسا ، ونجح في الحصول على تدخل السلطان مراد الرابع : وسيصبح من حق
الفرنسيين أن يقيموا من جديد في الأماكن التي كانوا يحتلون في القرن السابق ،
وأن يعيدوا بناء المنشآت التي تحطمت . وهكذا سوف يتم بناء حصن فرنسا ،
من جديد ، ويصبح نابولون « قبطانا وحاكما » عليه . ونتيجة لأموال الملك ،
سيتمكن من تحويله إلى قلعة حقيقية . وبعد بعض الوقت ، عادت الحياة
إلى رأس العبيد من جديد . ولكن هذين الموقعين ، سوف يقعان ، من جديد ،
في أيدي الجزائريين في عام ١٦٣٧ ، حين تصبح فرنسا مشاولة بتلك الحروب
التي كانت قد نشبت على القارة من جديد . وكان في وسع ريشيليو على الأقل
أن يدعي أن إسبانيا كانت ، من جديد ، في صف العدو . وحصل ، بعد
مفاوضات طويلة ، في عام ١٦٤٠ ، على إعادة الإقامة في حصن فرنسا ، من
جديد : أما في رأس العبيد ، فإن الفرنسيين لن يعودوا إليها إلا في عصر

لوى الرابع عشر ، وبعد خمسة وعشرين عاما من ذلك .

وإذا كان ريشليو قد تمكن ، وفي مناسبات عديدة ، من أن يتحدث عاليا وهو يضمن أن صوته سوف يسمع في الجزائر وفي تونس ، فإن ذلك كان يرجع إلى أن القوة البحرية لفرنسا كانت قد إستميت في أثناء السنوات الأولى من وزارته . وكانت قد تردت إلى مستوى منخفض للغاية ، عند نهاية القرن السابق ، وفي فترة الحروب الديقية . ولم يكن هنرى الرابع قد وجد الموارد الكافية لملاحها . وكان أمالي مرسيليا يشكون من قلة الأمن التي كانت تقاسم منها تجارهم : فكان رجال الجهاد البحري هم سادة البحر ، ووصل بهم الحد ، في بعض الحالات ، إلى أن يأتوا ويغنوا سواحل إقليم بروقانس ، ولقد شعر الكريدينال الكبير ، وبسحق ، بعدم لياقة هذا الموقف ، بالنسبة لمصالح التجارة ، وبالنسبة لطبيعة الملك ، في نفس الوقت . وعمل بكل جهد من أجل تحسينه ، في الداخل ، بسياسة الإنشاءات البحرية ، وفي الخارج ، بالإلتجاء المستمر لصدقة السلطان . وكلما تطلب الأمر ، كان سفير الملك يطلب « توجيها » ، يوجهه إلى إحدى الثنابات ، أو الأخرى ، في شمال إفريقيا . ورغم أن خضوع سلطات تونس والجزائر لهذه التوجيهات كان غير مؤكدا ، إلا أنهم كانوا يفضلون عدم الإلتجاء إلى استخدام القوة إلا بعد أن يحاولوها .

أما اتجاه رجال البحر من المغاربة ، فقد كان من الأكثر صعوبة التصرف عن الطريق الدبلوماسي ، وكانت الإمبراطورية الشريفة تظهر دائما إستقلالا كاملا تجاه إستانبول . وكانت حركة الجهاد البحري فيها قد شهدت نموا جديدا تماما منذ عام ١٩٠٩ ، ومنذ أن قام عدد من الموريسكيين ، الذين طردهم فيليب الثالث من اسبانيا ، بالهجرة للإقامة على سواحل سلا ، في مدينة جديدة عملت على زيادة أهمية الرباط . ولما أصبح رجال البحر ، أكثر عددا وأكثر

قوة، فإنهم قد توصلوا إلى أن يتحرروا من سلطة المخزن،، والتي كانوا لا يترقبون بها فيما مضى إلا من وقت لآخر، وبطريقة غير تامة. فكان من الضروري إذن للتفاوض معهم. واستخدم ريشيليو، من أجل ذلك، اسحق دى رازيل، وكان أحد المتخصصين؛ فكان قد كلف من قبل، وفي سنوات ١٦٢٠، بعدة بعثات في المغرب. وسمحت له ثلاث مظاهرات بحرية، قادها في أعوام ١٦٢٩، و ١٦٣٠، و ١٦٣١، بالحصول على إعادة شراء الأسرى الذين كانوا ينتظرون، منذ سنوات، في سلا وفي مراکش، أمر خلاصهم. ومع ذلك فإن حركة الجهاد البحري لم تتوقف إلا لفترة قصيرة. وأعطت المعاهدة التي تم التوقيع عليها في مراکش، في عام ١٦٣١، للفرنسيين، على الأقل، إمتيازات تجارية جديدة، وكذلك الحق في تعيين قناصل في المدن الرئيسية. وكان هذا، بالإجمال، هو نظام الإمتيازات الأجنبية، الذي نقل إلى المغرب الأقصى. واستحكم معاهدة عام ١٦٣١، التي تأكدت في عام ١٦٣٥، العلاقات الفرنسية المغربية، لوقت طويل.

وحين بدأت الحرب مع إسبانيا، في عام ١٦٣٥، كان الفرنسيون متأخرين، من وجهة النظر البحرية، تأخيرا واضحا عن خصومهم. ولذلك فإن العمليات قد دارت في أول الأمر إلى صف هؤلاء. وكبداية العملية، إستولى الاسبانيون بسرعة على جزيرة إيهان، وظلوا يقيمون فيها عدة حاميين، وبشوا فيها بعض التحصينات ووضعوا فيها عددا من الجنود تمت أحيين الحماية الفرنسية الصغيرة، التي أرسلت بسرعة إلى كان. ولكن يتمكنوا من التفكير في إجلائهم عنها، كان من الضروري أن يرسلوا، في العام التالي، إلى البحر المتوسط، كل قوة يونان البحرية، والتي كانت تبلغ ما يقرب من أربعين سفينة. ومع ذلك، فلقد كان من الصعب القيام بعمليات في ذلك الوقت، ونتيجة للخلافات التي وقعت بين

قيادة الجند وبين قيادة الاسطول . وان يتم إستعادة جزو ليران إلا في عام ١٦٣٧ ، ونتيجة لعمليات إستمرت أكثر من ثلاثة أشهر .

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح الحصان يتصارعان على البحر ، بأسلحة متعاقدة . ودارت المعركة التي إشتبكوا فيها ، في مياه جنوا ، في عام ١٦٣٨ . إلى نجاح واضح للفرنسيين . ومنذ ذلك الوقت ، لن يحاول الاسبانون أبدا أن يظهروا من جديد على سواحل إقليم بروكاس . وسوف يتحول ميدان العمليات صوب خليج ليون . ومرطان ما ينتقل بعد ذلك ، ونتيجة لثورة كتالونيا ضد فيليب الرابع ، صوب سواحل إسبانيا نفسها . ولأول مرة إتحده الاسطول الفرنسي لشرق البحر المتوسط مع أسطول برتغال . تحت رئاسة واحدة ، وكانت لشاب ، هو مايه - بريزه ، وهو ابن أخ ديشيليو ، وسيظهر أنه من رجال الحرب الفعليين . وفي عام ١٦٤٢ ، وبينما كان الملك ديشيليو يراقبان عملية حصار يريتيان ، وقعت أمام مرسونه معركة بحرية كبرى ، ومرتبطة ، عمل بعض المؤرخين على تسميتها موقعة « روكروا البحرية » : إذ أن الاسطول الاسباني هزم فيها ، وإضطروا إلى الانسحاب السريع منها . وبعد ذلك ، إستمر مايه - بريزه في أن يدعم ويحمي جناح جيش النزول ، الذي كان يقوم بعملياته في كتالونيا . وكان ، في كل مرة يحاول فيها الاسطول الاسباني أن يقترب منه . يدفعه ويذل به خسائر .

وإبتداء من عام ١٦٤٦ أصبحت أكثر العمليات أهمية تقود عند السواحل الإيطالية . وكانت الإنتصارات والهزائم مقتسمة بين الطرفين . ولقد نجح الفرنسيون ، كما رأينا ، في إعادة وضع أقدامهم في يرمينو ، أحد مواقع توسكانيا ، وفي جزيرة إلبا . ونتيجة للضعف الذي أصابهم من طول أمد الأزمة

الداخلية ، سيطردون من هناك ، في عام ١٦٥٠ . ولتفكك الاسباب ، لم يعد في وسعهم ، في هذه الفترة أن يظهروا كفاءتهم في حراسة سواحل كتالونيا . وان يتجسروا ، في عام ١٦٥٢ ، في رفع الحصار المنظم من ناحية البحر أمام برشلونة المحاصرة : ولذلك فإن برشلونة قد وقعت بعد ذلك بقليل .

أما الفترة التي سبقت صلح البرانس فإنها قد تميزت بظهور السفن الانجليزية ، وبقوة ، في مياه البحر المتوسط . وفي عام ١٦٥٤ ، أرسل كرومويل بلاك مع أسطول لإظهار العلم البريطاني في تلك المناطق التي كانت ، وحدها ، أعلام فرنسا وإسبانيا ، تظهر في العادة فيها . وكان هدف هذه الحملة هو ، في المكان الأول ، الذهاب وطلب بعض التعويضات من أهالي ليفورنو ، عن كوارث نزلت ببعض التجار ، في وقت الحرب الأهلية . ومن هناك . إتجه الاسطول إلى تونس ، واحرق كل السفن التي كانت راسية هناك . ثم ذهب إلى الجزائر ، حيث إستخلص ، بالقوة ، كل الأسرى الذين كانوا موجودين هناك ، وأصلهم من الجزر البريطانية .

ولم تكن هذه المظاهرة الهبة منفردة بنفسها . فالمولنديون ، والذين كانت منافستهم على البحر للانجليز تنمو بشكل خطير ، ظهروا بدورهم ، في عام ١٦٥٦ وفي عام ١٦٥٧ . وقاد أمير بحرهم ، روبر ، حملتين ضد بلاد شال إفريقية ، وهما حملة سلا أولا ، ثم حملة الجزائر وحملة تونس بعد ذلك . وقام الواحد والآخر ، المولنديون والإنجليز ، بتأكيد الإهتمام المتزايد ، بهذه الطريقة ، بمهاجمة مصالحهم التجارية في هذه المنطقة .

٢ - التجارة في شرق البحر المتوسط :

كانت الحركة في البحر المتوسط دائماً ، وفي أساسها ، وظيفة الملاقات التجارية

التي كان الغربيون يحتفظون بها مع مراكز التجارة في شرق البحر المتوسط . وفي بداية القرن ، كان الفرنسيون ، أو بتحديد أكثر أبناء مرسيليا ، هم الذين يحتلون المركز الأول فيها . ولكن الإنجليز والهولنديين ودخلوا على الخط ، في هذه الفترة ، وحققوا تقدماً سريعاً .

وفي البلاد التي كانت تسمح بإقامة المسيحيين فيها ، كان على المسيحيين أن يعملوا ، من أجل القيام بأنشطتهم ، طبقاً للقواعد التي تحددها الحكومة ، والتي تعرف عامة باسم « الإمتيازات » . وكانت الإمتيازات التي منحت لفرنسا في القرن السادس عشر هي الأولى . وتجددت من وقت لآخر ، في عام ١٦٠٤ مثلاً . وكانت تمثل نموذجاً لذلك التي نجحت الدول الأخرى في الحصول عليها . وكانت الجاليات الفرنسية تمثل ، في كل مركز كان من حق سفنهم أن تصل إليه ، جمهوريات تحكم نفسها بنفسها ، تحت حماية الباننا الموجود هناك ، وتحت إدارة قناصلهم ، الذين كان يداوئهم ، من وقت لآخر مجلس عام للجالية . وكانت مساكنهم ومعالمتهم التجارية ومخازنهم تكون حياً قائماً بذاته ، وله سور يفصله عن محل سكن المسلمين . وهكذا كانت العلاقات مع أهالي النبلاء تسمح بأقل أحداث أو صدامات ممكنة . وكانت هذه الجاليات ، في المراكز التجارية في شرق البحر المتوسط تعيش حياة سلم ، إن لم تكن هناك مسألة والإتاوات . وهذه الكلمة تعني نوعاً من الضرائب ، تفرض بالطريق التصفي ، والتي كان المحكم ، أو موظفي الدولة يطالبون بها التجار الأجانب في مناسبات مختلفة ، ولإستناداً إلى ادعاءات متنوعة ، وأصبحت هذه العادة شبه تقليد منذ أن أصبحت طريقة تفكير الحكومة ، في عصر السلاطين الصفاء عند نهاية القرن السادس عشر ، وكذلك الإدارة ، تعمل بشكل مختلف عما كانت عليه في السابق . وكان كبار الموظفين في الدولة مضطرين إلى تقديم هدايا باستمرار لسلطان والصدر الأعظم حتى يتمكنوا من الإحتفاظ بمناصبهم .

ولكى يملثوا جيوبهم ، سمحوا لأنفسهم بفرض ضرائب ، في الموانئ ، على تجارة «الزوم» ، أى الأجانب . وفي بعض الحالات ، كانت عملية طلب النقود تغلف في شكل الحصول على سلفة : ولكن المقرض كان يفسى ، بانتظام ، أن يدفع ديونه وكان يحدث في بعض الحالات أن يستولى رجال الباشا على إحدى السفن التى تعمل ، بدعوى كاذبة بأنها كانت تعمل في القرصنة : وكان على قبطانها ، في هذه الحالة ، أن يطلب إلى القنصل أن يتدخل ، إذا ما تمكن من ذلك . وكان عليه ، دائما ، أن يصل إل نظام ، ويدفع ، حتى يستعيد ماله . وكان القنصل يدافعون عن أنفسهم ، وعن أعضاء جالياتهم قدر ما يستطيعون ، أمام مطالب الباشا ورجاله . وإذا كانت هذه الأحداث تكرر ، فإنهم يضطرون إلى رفع الشكوى إلى إستانبول ، مطالبين بتدخل السفير . وهذا السفير لن يتمكن في غالب الأحيان من الحصول على أى شيء ، خاصة إذا ما كان الباشا يحظى بحماية الصدر الأعظم . وكانت المراكز التجارية الأكثر بعداً عن عاصمة الدولة العثمانية هى التى تتعرض أكثر من غيرها لهذه «الإتاوات» ، خاصة وأنه كان من الأكثر صعوبة توصيل الشكوى إلى الباب العالي ، كما أن الباشوات هناك كانوا أكثر استقلالاً . وكانت هذه هى حالة مصر بنوع خاص .

وكانت التجارة التى تتم في شرق البحر المتوسط ، جزئياً ، هى تجارة عبور «ترانسيت» ، وبخاصة تلك التجارة التى كانت تتم في موانئ سوريا ومصر . وكانت حلب ، في النصف الأول من القرن ، واحدة من أكبر أسواق كل شرق البحر المتوسط ، وكانت أقل في أهميتها التجارية من إستانبول بقليل . وكانوا يأتون إليها لشراء المواد اللازمة لصناعة النسيج : القطن الذى كان يصل إليها من مادداس ، والحرير الذى كان يصل إليها من إيران . أما الاسكندرية ، ذلك السوق التقليدى لتوابل ، فإنها كانت قد قاست ، قبل ذلك ، من محمول الطرق

التجارية التي كانت تصل حتى إندونيسيا . وفي أثناء القرن السابع عشر ، تعرضت هذه التجارة ، التي كانت قد ظلت لوقت طويل وفي ازدهار واضح ، لحسارة جديدة : فقد قل أدريا التحوذ على تناول المشروبات التي تعتمد على التوابل ، ونمت صناعة وإستهلاك المشروبات الروحية . وفي آسيا الصغرى ، وفي أزمير بنوع خاص ، كان الأوربيون يأتون لشراء الصوف الخام ، والشمع ، وجلود الماعز ، المدبوغة على طريقة قرطبة . ولقد ظلت تجارة الفرنسيين مع أزمير ومع إستانبول أقل بكثير من تجارتهم مع سوريا ومع مصر : ففي بداية القرن ، كان هناك ، في مقابل ثمانية وعشرين سفينة فرنسية تتعامل سنوياً مع الموانئ السورية ، وخمسة عشر سفينة تتعامل مع الاسكندرية ، إثنى عشر سفينة فقط تذهب إلى أزمير ، وعشرة سفن تتعامل مع إستانبول . وعلى العكس من ذلك نجد أن الإنجليز والهولنديين كانوا ، في أزمير ، أكثر عدداً عنهم في أى مكان آخر .

وكانت ممارسة التجارة الإنجليزية والهولندية في البحر المتوسط لانتشبه ، من كل الوجوه ، بممارسة التجارة الفرنسية . ومع ذلك فإن القاعدة كانت تختلف ، بالنسبة للأجانب ومن كل المناسبات ، في أن يتم الشراء ، ويدفع الثمن كله مقدماً . وكان الإنجليز يأتون « بالقروش » الإسبانية من قádiz . أما الهولنديون فلم يكن لهم هذا المورد ، خاصة وأنهم كانوا يعتبرون — وحتى عام ١٦٤٨ على الأقل — على أنهم رحايا غافرين ، وإن كانت خزانهم مليئة بالمعادن النفيسة ، فقاموا بصلك عملة خاصة بهم كانت تحظى بقبول كبير في موانئ شرق البحر المتوسط . ومن ناحية أخرى ؛ وبالنسبة للشركات صاحبة الإمتيازات والتي حصلت على إحتكار العلاقات التجارية مع شرق البحر المتوسط منذ السنوات الأولى من القرن ، كان التمتع بين التجار الإنجليز والهولنديين أوتق ؛ وبكثير مما كان موجوداً بينهم

وبين التجار الفرنسيين . وطبقاً للاتفاق مع الحكومة . كانت السفن لا تسير إلا في مجموعة وكان عليها أن تغلق في وقت محدد ، وتصحبها إحدى أو بعض السفن الحربية ، الأمر الذي كان يشكل قافة . ولكن روح الفردية الفرنسية كانت تفرض شراء أمنها يمثل هذا الثمن . ولقد عمل كولبير على أن يشجع لرجال مرسيليا مزايا هذا النظام ؛ ولكنه عجز عن أن يوطن في فرنسا أمر استخدام القوافل ، وعلى الأقل خلع فقرات الحروب .

وفي ذمامهم إلى موافق شرق البحر المتوسط كان الهولنديون والإنجليز يتوقعون ، بانتظام ، في ليفورن . وكانت هناك غلازن ، وحيث كان في وسعهم أن يضموا السلع ، مادامت ليفورن كانت ميناءاً حراً . وكانوا يقومون ، من هذا الموقع ، بتجارة هامة ؛ فكان الإنجليز يأتون بالصفوف الذي كانت محتاجه الصناعة في فلورنسا ، كما كان الهولنديون يأتون بالحرير الذي كان هناك سوفه الرئيسي وكانت ليفورن تلعب كذلك دوراً آخر ، وعاص للفاية ، حتى أنه من الواجب الإشارة إليه . فنتيجة لانجهاها الليرال الكامل ، وللتشريعات الموجودة فيها ، كان بعض من رجال شمال إفريقية يحتفظون فيها بسوق الرقيق ، وكانت تحدث فيها ، وفي غالب الأحيان ، عمليات شراء الرقيق ، أو تبادلهم . وكان الكثيرون من بين المسيحيين الذين وقفوا في أيديهم قد عاد إلى بلاده ، من هناك ودون أن تكون أقدامه قد وطأت أرض شمال إفريقية .

وكانت التجارة الفرنسية مع شرق البحر المتوسط قد قاست كثيراً مزاياها القرمصة ، ومن جانب أبناء شمال إفريقية ، منذ وفاة هنري الرابع ، وذلك بسبب تقليل القوى البحرية للمملكة ، وبسبب ذلك التقارب مع إسبانيا ، وهو الأمر الذي كان قد ميز فترة الوصاية . وعلى العكس من ذلك ، نجد أن الحرب التي أعلنت بين باريس ومدريد ؛ في عام ١٦٣٥ قد أدت إلى المحافظة على المصالح الفرنسية .

وكاد الأمر أن يصل رجال البحر في شمال إفريقيا إلى أن يعرضوا معوتهم ضد الدولة التي كانوا يعتبرونها على أنها أشد أعدائهم . وإبتداء من هذا الوقت ، أصبح على الفرنسيين أن يدافعوا عن أنفسهم ضد القراصنة الإسبانيين وحدهم ، وكانوا يصلون من جنوا ، ومن مينا ، وبخاصة من ميورقة . وكان القراصنة من هذه الجزيرة الأخيرة يثبون الفرع على سواحل إقليمى بروفاى ولايجوك . وأخيراً ، ولكي تنتهى من القرصنة ، طينا أن نشير كذلك إلى أن الانجليز ، أولئك القادمون الجدد فى البحر المتوسط ، قد بدأوا كذلك فى ممارسة ذلك النوع من النشاط الذى لم يكف جيرانهم فى بحر المانش وفى المحيط ، من أن يشكوا منه فى أثناء القرون السابقة . ومنذ عام ١٦٠٣ ، كانت أبناء مرسيليا قد فاض بهم الكيل ، فتحدثوا عن أمر قيامهم أنفسهم بتطبيق العدالة ، وأسروا كل سفينة انجليزية تظهر قرب مينائهم . أما أسلابهم فكانت توزع بسهولة فى أماكن أولئك للتجار من كل جنسية ، وبخاصة من اليهود والأرض ، والذين كانوا يعملون فى ميناء ليفورن .

وهكذا كانت التجارة الفرنسية مشبكة مع الكثيرين من المحصور ، فتدهورت أحوالها ببطء . وفى بداية الحكم الشخصى للوى الرابع عشر ، وفى الوقت الذى وصل فيه كولبير إلى السلطة ، لم يتمكن إلا من عمل قائمة بالمخارم والقتل ، دون غيرها تحريماً ، فى هذا الميدان : فكانت تجارة شرق البحر المتوسط تستخدم قرب عام ١٦١٠ ، ما يقرب من ألف سفينة ، فلم يعد لها إلا خمسين سفينة تقريباً ومن حيث القيمة ، كانت قد هبطت من ثلاثين إلى مجرد أربعة ملايين جنيه فى السنة ، ولم تكن قد وصلت أبداً إلى مثل هذه الدرجة من التدهور منذ بداية الصداقة الفرنسية السبائية . أما الأجانب ، الذين كانوا فى الماضى يسافرون فى مياه شرق البحر المتوسط فى حماية العلم الفرنسي فلأنهم حرموا أنفسهم شيئاً فشيئاً

من هذه التبعة . وبعد البعض من بينهم ميزة في حصولهم على حاية الإيجاز أو الهولنديين . ولقد أجاد أمال ليفون ، من جانبهم ، من تلك الإمتيازات التي إحترف بها آل هابسبورج في الإمبراطورية النمائية ، بنظام الإمتيازات الأجنبية منذ عام ١٦١٥ . ورفرا النم الإمبراطوري .

٤ - فرنسا وحماية اللاتين في فلسطين :

وبينا كانت العلاقات بين الدول المسيحية وبين الإمبراطورية النمائية ، وعلى كل السواحل وفي الجور ، عكومة بمخفولية مصالحهم للتجارة ، كانت المسائل الدينية لا تزال تحتل المكان الأول ، في فلسطين . وكانت المشكلات التي تطرحها مسألة حماية الأماكن المقدسة تتطور ببطء . ونشأت صدامات في غالب الأحيان بشكل متزايد بين الدول : وكان النمانيون ، بطبيعة الحال ، هم الحكم فيها .

وفي هذا الميدان ، وكانا كان الحمال في ميدان التجارة ، كانت فرنسا ، التي كانت مطالبا تستند إلى إمتيازات تقليدية ، تمارس نفوذاً متفوقاً . وبدأت على أنها هي الحامية لرجال الدين اللاتينيين في الأراضي المقدسة ، والذين كانوا دائماً مشتبهين مع منافسهم من رجال المذهب اليوناني .

ومنذ القرن الثالث عشر ، كان قد تم الإتراف المسيحيين بحراسة أماكن العبادة الموجودة في فلسطين وكان الكرسي البابوي قد عهد بهذه العملية ، بنوع خاص ، إلى إحدى المنظمات . وكان التفاهم موجوداً مع النمانيين على أنه يمكن للمسيحيين أن ينفذوا في كائنهم كل إصلاحات ضرورية ولازمة لصيانتها ، ولكن دون إضافة أي شيء إلى الأبنية الموجودة . وكان للاتين خصوم ومناقضين ، يتمثلون في الأرمن ، الذين كانوا يكونون كنيسة لها إستقلالها الذاتي ، وكذلك في اليونانيين بنوع خاص ، والذين كانت أعدادهم كبيرة وعلاوة على اليونانيين

واللاتين والأرمن ، كانت هناك طوائف أخرى ، مثل أقباط الحبشة ، والنساطرة ، والجرمانيين ، والموازية ، يمتلكون أديرة في بيت المقدس ؛ وكان من حق مثلهم الدخول إلى مباني الكنيسة المقدسة . وكانت كل مجموعة مشكلة في كنيسة لها استقلال ذاتي ، تخدم كنيسة خاصة بها هناك . ولكن أمر حراسة المجموع كان موكولا به ، وبالكامل ، للفرنسيين . فكان الفرنسيون ، وبصفتهم أصحاب المنظمة التي أعطاهم الكرسي البابوي حق الحراسة ، هم الذين يحتفظون بمفاتيح الكنيسة المقدسة ولكن اليونانيين كانوا يطمحون إلى أن يجرّدوا اللاتين من هذا الإمتياز فإدعوا أن كنيسة بيت المقدس ، والتي كانت الأكثر قداسة في كل العالم المسيحي ، كانت إحدى منشآت القديسة هيلين ، وأن القديسة هيلين كانت أم الإمبراطور اليوناني قسطنطين الأكبر . ولقد فشلت إدعائهم في أن تحصل على إذن صاغية في إستانبول . ولكن اليونانيين تمكنوا بالمؤامرات ، وبالرشاوى ، وبشراء ذمم بعض رجال السلطة في بيت المقدس ، ومن وقت لآخر ، من أن يجبروا على إمتيازات اللاتين .

ولقد أعطى ملك فرنسا نفسه ، وبكل رضاه ، صفة الحارس والوكيل للكرسي البابوي ولمصالحه في الشرق . ولم يتردد سفراءه في إستانبول في التدخل كلما كان رجال الدين اللاتين ، وفي أي مكان من السلطة ، يرفضون الشكاوى أو يتقدموا بمطالب إلى السلطان . وفي وقت مفاوضات عام ١٦٠٤ من أجل تجديد الإمتيازات الأجنبية ، حصل السفير الخاص بالملك هنري الرابع على أمر وضع فقرة ، في الوثيقة الجديدة ، يفهم منها (رغم أنها لم تذكرها صراحة) أن رجال الدين اللاتين ، الذين يحرسون الأماكن المقدسة وكذلك الحجاج من كل جنسية ، والذين يأتون إلى بيت المقدس ، يمكنهم إذا ما دعت الضرورة أن يطالبوا بحماية الملك . ولقد اعتبروا هذا النص فيها بدعي أنه يؤسس ما يمكننا أن نسميه ..

مع بعض الغلاة — بالحماية الكاثوليكية لفرنسا في الشرق . أما المجموعات التي بذلت من أجل الإفادة المباشرة منه ، فإنها ظلت بلا نتيجة .

وبدأت فقط ، منذ عام ١٦٢١ ، فكرة الحقوق العليا التي أقرت بها السلطان الملك فرنسا ، في الدخول في التقاليد الدبلوماسية الفرنسية . وكانت المناسبة لذلك قد بدأت بالمعارضة التي قام بها سفير لوى الثالث عشر لبعض المحاولات التصفية للأرمن في كنائس بيت لحم وبيت المقدس . وبعد أن صدر فرمان سلطاني يعيد تأكيد ، ويطلب من السفير ، لحقوق الفرائسيكان ، إنتهزت حكومة لوى الثالث عشر الفرصة ، وأرسلت إلى بيت المقدس مندوباً ومثلاً فوق العادة ، مكلفاً بأن يظهر ، وبكل وضوح ، قوته ، وبأن يقيم هناك بصفته وقنصلاً للأمة الفرنسية . ولكن سرعان ما وجد القنصل نفسه مشتبكاً مع حاكم المدينة ، الذي أبلغ عنه السلطان ، على أنه قد تأمر مع أحد الأمراء الثائرين في المنطقة ، ونجح في تأليب الأهل ضده ؛ وبدرجة أن السفير نفسه قد نصح بعدم الإستمرار في هذه التجربة ، وألنيت القنصلية بعد ما يقل عن عامين .

ومع ذلك ، فإن عام ١٦٢١ كان يدل على تاريخ يميز وهام في زيادة حماية الكاثوليك ، التي كانت فرنسا تدعيها لنفسها في الشرق . حقيقة أن الأحداث والصدامات بين رجال الدين من المذاهب المختلفة قد إستمرت بعد هذا التاريخ . ولكن الدبلوماسية الملكية كانت تنجح في العادة بقوة صبرها ، في جعل قضية اللاتين ، الخاضعين لحمايتنا ، تقتصر . ولقد تم تسجيل تقدم واضح في عصر لوى الرابع عشر ، وقت مفاوضات عام ١٦٧٣ من أجل تجديد الإمتيازات . فاعترفت الوثيقة الجديدة ، وإن كان ذلك بطريقة غير واضحة تماماً . بحق فرنسا في حماية رجال الدين اللاتين الذين يقيمون في الامبراطورية العثمانية ، وكذلك كل الأجانب

الذى يعلن الفرنسيون وضعهم تحت حمايتهم ، مهما كانت الأمة التى ينسبون إليها .

٥ - الحرب بين العثمانيين والبنادقة ، والاستيلاء على كريت :

كانت حروب العثمانيين قد سكنت فى البحر المتوسط ، أو قامت بهدنة ، خلال فترة طويلة ، حتى أن المصارعين الملك لوى الثالث عشر ولربشيليو قد حسبوا أنها كانت أمرا يتعلق بالماضى ، الذى تطور ، وتقريباً بنفس صفة الحروب الصليبية . ومع ذلك ، فإن روح الحروب الصليبية لم تكن قد ماتت ، بل لقد كانت حتى أكثر حيوية مما كانت قد وصلت إليه منذ وقت طويل ، فى فرنسا هذه ، والى كانت قوة التجديد الكاثوليكي ، التى تلت فترة الحروب الأهلية ، تظهر فيها فى أشكال متنوعة . فكان التمسك الذى أظهرته السياسة الملكية بالنسبة للمداقة العثمانية ، وفى صالح التجارة الفرنسية وهدوء الأماكن المقدسة ، لا يمنع النفوس المأثمة من أن تأمل فى أن تأخذ بلدها يوماً مكانها على رأس الاسم المسيحية فى الصراع ضد الإسلام . ولكن السياسات لم تغير طرقها . وذلك والمضروع الكبير ، الذى نسبته سولى ، فى مذكراته ، لهنرى الرابع ، لا يستند إلا لتصوراته .

ومع ذلك ، فلقد منحت الفرصة ، قبيل منتصف القرن بقليل ، من أجل العودة إلى الحرب المقدسة . وكان العثمانيون هم المسئولين عن القطيعة ودخلوا إلى المسرح فى عام ١٦٤٥ ، أى فى الوقت الذى كانت سقتهى فيه حرب ألمانيا . وكان السلطان مراد الرابع قد توفى بعد التوقيع على المعاهدة التى كانت تضمن له حكم بغداد ، بقليل . وفى غمرة ونشوة انتصاره ، أظهر فى أول الأمر طموحه فى حمل السلاح ضد المسيحيين ، وبخاصة ضد جماعة فرسان مالطة ، والتى كانت

عمليات قراصنتهم ، والتي كانت في بعض الاحيان تصل قرب سواحل الاناضول ، تعتبر إهانة لكرامة العثمانيين . أما أخاه الذي خلفه في عام ١٦٤٠ ، فإنه كان جديرا بأن يلقب بإبراهيم المحتوه . فكان لا يعيش إلا للمذاقة ، كما كان غير قادر ، ولم يتمكن من وقف مؤامرات العراري . ولكن الاسطول ، الذي كان قد تمجد نتيجة لإتهام السلطان مراد به ، كان مستعدا للحرب . ولم يقدر على أن يرفض له المخامرة التي كان يطالب بها ، ولم تكن تتعلق بمشروع جديد ضد مالطة — إذ أن هزيمة عام ١٥٦٥ كانت قد تركت ذكريات أليمة — ولكن بنزو جزيرة كريت .

وكانت كريت هي آخر الممتلكات الجزرية التي كانت قد بقت البندقية ، في خارج بحر الادرياتيك . وكانت حضارة أصيلة قد ترعرعت فيها ، نصف يونانية ، ونصف إيطالية . وكان نهار المدن الكبرى فيها ، مثلهم في ذلك مثل نهار قبرص ، على علاقات أعمال مع كل الخوض للشرق للبحر المتوسط ، ومع البلقان ، وحتى مع بولندا . وكان يهذب المورة والارخبيل ، الحلو ، والذي كان سوقه الرئيسي تحت سيطرتهم ، يتمتع بسمعة أوروبية .

وكان البنادقة قد بقوا بمعبد من الشئون الدولية ، منذ أن كان تدخلهم ، في عام ١٦٣٠ إلى جانب الفرنسيين في مسألة وراثة ماتتوا ، قد دار في غير صالحهم : فكانوا اسداء للغاية لأن يوقعوا على الصلح دون أن يفقدوا شيئا ، وكانوا مصممين على أن يحتفظوا بعد ذلك بموقف الحياد — وهو الأمر الذي سمح لهم في وقت بدء حرب كنديا بأخذ موقف الوساطة بين الطرفين المتحاربين ، والمستعدين لفتح مفاوضات السلام . وكانوا دائما يسرعون إلى مراعاة العثمانيين ، ولم يكونوا قد قاموا بما قد يعطي ذريعة لصدام مسلح . ولكن قراصنة جماعة

فرسان مالطة هم الذين جروهم إليها ، ورغم أنهم . ففي شهر سبتمبر عام ١٦٤٤
جاء أسطول عثماني من الاسكندرية ، يحمل حمولة من سبائك الذهب ، وقامت
سفن مالطة بمهاجمته ونهبه في مياه رودس . وكانت المركبة الأولى في إستانبول ،
هي إعداد حملة تأديب ضد مالطة . وبعد تفكير ، ظهر أن المخاطر كانت ضخمة ،
وبشكل جعل وجهات نظر أخرى هي التي تسود . فاستنادا إلى أن سفن مالطة
كانت ، بعد العملية ، قد وصلت إلى أحد موانئ جزيرة كريت ، وتاجرت هناك
فيما كانت قد نهبته ، أصبح الهدف الجديد الذي أعطوه للحملة هو جزيرة كريت
ولم ينتظر العثمانيون حتى أن يقوم البنادقة بالرد على طلب التفسيرات الذي قدموه
لهم . ونشر الأسطول أمره في شهر يونيو ١٦٤٥ ، وتمت عملية الإنزال بطريق
المفاجأة ، في غرب الجزيرة ، قرب كايه . ولم يصدو إعلان الحرب ضد البندقية
إلا بعد بضعة أسابيع ، وبعد أن كانت القوات العثمانية قد استولت على عاصمة
للمدينة ، بينما كان السفه قد ألقي به ، وكما هي المادة ، في السجن .

أما البنادقة ، الذين فوجئوا تماما بهذه العملية ، والتي لم ينفى بها مسبقاً أى
شئ ، فإنهم لم يتمكنوا من القيام بأى عمل من أجل الدفاع عن الجزيرة ولكنهم
سرعان ما ظهر تصميم فأجابوا ، استنادا إلى قوتهم البحرية ، على الخصم ،
بالذهاب بدورهم إليه ، وأنزلوا به بعض الضربات ، في المناطق التي كان يسئل
عليهم أن ينالوا منه فيها . ففي دلاشيا ، بنوع خاص ، تمكنوا من الحصول على
بعض الإحصاءات ، وبمؤونة الأهالي السلاف . وكانت المرحلة الأكثر أهمية
للعمليات التي قاموا بها ، خلال سنوات ، هي في عام ١٦٤٨ ، وتمثل في تحرير
كليس ، والتي سكنت عاصمة الحكم العثماني في البوسنة . أما على البحر ، فانهم
بدأوا بالاستيلاء على مدينة باتراس ، في المورة . ثم قاموا ، ابتداء من عام

١٦٤٦ ، بمحاصرة البندقية ، وعلى الأقل في الفصول المناسبة من السنة ، ومنعوا إرسال اللورنات والتجندات والإمدادات صوب كريت ، وفي عام ١٦٤٨ ، مرت الكثير من سفنهم الحربية في المضائق ، وقدمت في بحر مرمره ، حتى وصلت إلى مرأى من إستانبول .

ولاشك في أن كل هذه لم تكن سوى عمليات جانبية . أما المصلحة الرئيسية في تلك الحرب فقد ظلت مركزة حول حصار كنديا . وكانت قد تمت بقوات غير كافية ، ولكن بمزيمة وتصميم لا يمل ، إلا من وقت لآخر ، واستمرت طوال فترة عشرين عاماً (١٦٤٩ - ١٦٦٩) . ولا تمثل تفصيلاتها أية أهمية خاصة . ولكن أصداءها في الخارج عملت على إيقاظ الرغبة في التدخل ، والذي قررته الدول في آخر الأمر ، وهو ما يستحق أن نتوقف عنده .

وكان البنادقة قد أرسلوا ، منذ بداية الحرب ، نداء إلى العالم المسيحي . وأعلن البابا إستعداده لكي يعمل من أجل إنشاء حصنة مقدسة ، تشبه تلك التي كانت قد أدت ، في عام ١٥٧١ ، إلى معركة ليبانتو . ولكن الدول كانت ، في هذه الفترة ، متشعبة ضد بعضها وبدرجة لا تسمح بالتفكير في إمكانية القيام بعمل جماعي له قوته . ومع ذلك ، فقد تم ، في عام ١٦٤٦ ، تسليح أسطول صغير ، وبنفقات مشتركة من الكرسي البابوي ، وجبهة مالطة ، وغراندوق توسكانيا . ثم تحركت الدول العظمى : في العام التالي ، قامت فرنسا وإسبانيا ، رغم كونها في حرب الراحدة ضد الأخرى ، بدووعهما بإرسال بعض الوحدات . وكان موزان يشتم بعدم إغضاب العثمانيين ، فقام بتجهيز السفن بخارج فرنسا ، في توسكانيا وفي هولندا ؛ وذهبت إلى البندقية تحت حماية علم القديس مرقس . وكانت عملية لإظهار حسن النيات ، وستظل بدون نتائج ، ولن تتكرر قبل مضي

وقت طويل . ولقد استمر البنادقة يدافعون عن أنفسهم ، وحدهم . ولعدة قروب من عشر سنوات .

وسيصبح عملهم أكثر صعوبة ، نتيجة لزيادة قدرة العثمانيين تحت سلطان جديد ، هو محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) الذى ستعاونه مجموعة من رؤساء الوزراء من أسرة كيبرلو . وظهر تصميم حكومة إستانبول ، منذ ذلك الوقت ، على تحقيق النصر . فكان القادة الذين يهزمون ، يحكم عليهم بالإعدام ؛ أما ثورات الإنكشارية فانهم كانوا يقضون عليها ، بإغراقها فى الماء . وفى عام ١٦٦٧ ، تقابلت القوات البحرية العثمانية مع القوات البحرية البنادقة ، وإنتهت الموقعة فى صالح العثمانيين . أما الجور التى كان البنادقة قد إحتلوها فى أثناء الحملات السابقة ، وهى نيندوس ، وليمنوس ، وساموتراس ، فإن العثمانيين إستعادوها . ومع ذلك فإن البندقية قد رفضت ، فى هذا العام عرضاً بالصلح ، كان سيتروك لها جزيرة كريت ، فيما عدا مدينة كنديا .

وعلىنا أن نوقف هنا تاريخ مصر البحر المتوسط ، والهمول المطلة عليه فى القرن السابع عشر . ولاشك فى أنه ليس هنا ما يفرض مثل هذا القطع . فلا يوجد هنا شيئاً مماثلاً للسلام العام الذى أعطته معاهدة أوليفا الدول المطلة على بحر البلطيق . وليس هناك ، فى تاريخ الدول المطلة على البحر المتوسط ما يعادل فى أهميته ، من وجهة النظر الدولية ، إعادة حكم أسرة إستيوارت إلى إنجلترا . وأخيراً ، فإن معاهدة البرانس ، إذا ما كانت قد عملت على نشر السلم فى الغرب ، لم تحسن لهم ، بطريق مباشر ، إلا جزءاً بسيطاً من الدول المطلة على البحر المتوسط . ولكننا نسير مع التطاق الزمنى ، وحتى نجعل هذا الفصل يأخذ مسكاته ، فى

النطاق التاريخي ؛ مع بقاء الفصول ، سنعود فيما بعد إلى نهائية حرب
كندا . وهي تحدث مع بداية الحكم الشخصي للملك لوى الرابع عشر ،
وهناك فائدة من ربط روايتها بدراسة عصر هذا الملك الكبير ؛ وهو الذى
سيبدأ به دراسة الجزء الثانى من هذا الكتاب ، الذى يحمل إسم « العالم الحديث ؛
حتى عصر الثورة الفرنسية » .

القسم الثاني

من لوى الرابع عشر الى عام ١٧٨٩

البَابُ الرَّابِعُ

القرن السابع عشر

(بعد عام ١٦٦٠)

(عصر لوى الرابع عشر)

الفصل السابع عشر

فرنسا في عصر لوى الرابع عشر

الملك ، وأهداف ووسائل سياسته الخارجية

لعبت شخصية لوى الرابع عشر دوراً هاماً في تاريخ عصره ، وأثرت بشكل واضح في مستقبل فرنسا ، وبالتالي في مستقبل أوروبا ، حتى أننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نفردها مكاناً لائقاً في هذا الكتاب ، حتى وإن كنا نراها ، ومع البعد التاريخي ، على أنها غير هامة . وكلمة غير هامة هي تمييز سان سيمون في « التوازي بين الثلاث ملوك البوربون الآخرين » . وأضاف إلى ذلك في أثناء كتابته « لذكراته » : « شخصية فوق العادية » ، وربما كان ذلك في موجه من الحساس الخطأ . ولتوافق على أن « فوق العادية » كان فيها تجاوزاً ، وأن « غير الهامة » هي التي تبقى . فليس في وسع دراسة السياسة الخارجية أن تحملنا نقف ، وبدون أساس ، ضد هذا التقييم لأحد المعاصرين المشهورين .

١ - الحياة الشخصية :

علينا أن نقاسم أولاً بما إذا لم يكن هناك ، في تفكير لوى الرابع عشر ، شيئاً يشبه ما نسميه الآن برنامج السياسة الخارجية . ونحن نعرف ، عن الفترة السابقة ، وعن طريق « مذكرات الملك » في عام ١٦٢٩ ، ما كان ريشيليو يرغب فيه ، وهي المشروعات التي كان يرغب في أن ينفذها بشكل أساسي في الخارج . ولكن لوى الرابع عشر لم يترك أية وثيقة من هذا النوع ، أو أية وصية موقفة ، في هذا الميدان لخلفائه . وعلينا أن نلاحظ أنه كان يحتفظ بحيرة كاملة في أخذ القرارات ، وفي تنفيذها . وكان سولجان الحكم والسيطرة الإسبانية قد أخذ في الإهتزاز . أما ملوك

هابسبورج في فينا ، وهم كبار الخصوم السابقين ، والذين مزموا في حرب الثلاثين عاما ، فإنهم ظهروا أقل خطراً حتى من أبناء أعلامهم في مدريد . ولذلك فإن الإمكانيات المختلفة تفتحت بهذا الشكل أمامه . وليس هناك ما يسمح لنا بأن نفترض أنه قد تردد طريقا قليلا أن يأخذ القرار ، أو أنه فكر في أشياء كثيرة ممكنة ، وأخذ وقتا في تقدير ووزن فرصه . وكان الصراع ضد إسبانيا في الأراضي المنخفضة قد أصبح أحد تقاليد السياسة الفرنسية : وكان موزان قد ورثه من ديشيليو ، وورثه ديشيليو من هنري الرابع . ولا يبدو أن لوى الرابع عشر قد فكر لحظة واحدة في أنه يمكنه التنازل عن هذا الإرث ، رغم زواجه الإسباني .

ومن ناحية أخرى ، لا يمكننا أن نؤكد أن لوى الرابع عشر ، وبصفته تلميذاً عظيماً لموزان ، قد فكر منذ اللحظة الأولى في أن يمنح نفسه في يوم من الأيام ميراث أخو زوجته الصغير ، والذي ولد في عام ١٦٦١ ، والذي كان الوارث الذكر الوحيد لفيليب الرابع ، وبالتالي ورثته وخليفته المعلن . وإن الفكرة التي إنتشرت في وقتنا ، من أن مسألة الوراثة الإسبانية كانت تمثل ، في الخارج ، الهدف الأساسي للحكم وهو تيمور مينيه Mignot — لا يمكنها أن تثبت على المحك . وحتى لا نتوقف كثيراً عند هذه النقطة ، علينا ألا ننسى أحد المشروعات الكبرى في عصره ، والتي لها دلالات كثيرة ، وهي الحرب التي استمرت من عام ١٦٧٢ إلى عام ١٦٧٨ ضد الهولنديين ، الحلفاء التقليديين ، والحلفاء الطبيعيين الفرنسيين ، ضد المنافس الإسباني .

ولذلك ، فإنه لم يكن هناك نظاماً متكاملًا ، بل كانت هناك رغبة عامة للسيطرة لا تعرف حدود ، وعزيمة قوية لفرض النفس على كل الجيران ، وعلى كل أولئك الذين كانت رغبتهم في الاستقلال ، السياسي أو الإقتصادي ، تمس غرور الملك . ولقد ذكر أحد مؤرخي دبلوماسية لوى الرابع عشر أنه لم يكن ذلك الرجل الذي

كانت له أهداف كبيرة : « فكلن يتصرف حسب الضرورة ، وفي بعض الحالات بانقلاع » . ويتمثل مبدأ الوحدة في سياسته — إذ أنه يمكننا كذلك أن نكشف عن هذه السياسة — في الحالة النفسية لهذا الملك ، وعلينا أن نبحث عنها في هذا النطاق . وتعتبر المذكرات من أجل تعليم الدوفان Dauphin ، والتي أشرف على كتابتها عن قرب ، كبيرة الأهمية لنا في هذا المجال . وهي تعبر بوضوح تام عن تلك المسألة التي تهتمنا . وبخاصة فيما يتعلق بأحداث ١٦٦٧-١٦٦٨ . وكان الهدف الأول للوى الرابع عشر — يمكننا أن نقول هدفه المستمر — في مشروعاته الخارجية ، هو الحصول على « المجد » . وكان البحث عن « المجد » يمثل نوعا من « القوة المحركة » لحكمه . ولقد أعلن لوى الرابع عشر ذلك في أكثر من مناسبة . فكتب مثلا ، بعد بضع سنوات ، إلى أعضاء « الأكاديمية الصغيرة » ، والتي كان كولبير Colbert قد أنشأها : « يمكنكم ، أيها السادة ، أن تفهموا تقديرى لكم ، ما دمت أعدد إليكم بما هو أغنى ماله في العالم ، وهو مجدى » . ومن ناحية أخرى لم تكن لهذه الكلمة تلك القيمة التي نمنحها تماما ، وبالتأكيد ، نفس المعنى الموجود لها في وقتنا . بل أنها أخذت مكان كلمة « السمعة » reputation ، التي كانت كثيرة الإستخدام في أثناء القرن السادس عشر ، والتي نجدتها في بعض الحالات كذلك مكتوبة بريشة لوى الرابع عشر .

ولن « القيام بأعمال مميزة » ، تستحق « الإعجاب العام » ، وغيرها من التعبيرات الموجودة في « المذكرات » ، والتي تتفوق على غيرها ، ليست لها ، في الحقيقة ، أى معنى آخر . وإذا كان لوى الرابع عشر قد أشار ، عام ١٦٦٧ ، إلى ذلك الضغط الذى كان النبلاء يمارسونه عليه ، وذلك في نفس الوقت الذى ضاق فيه صبره إلى فرص يعمل فيها ، ويظهر فيها ، وفي نفس الوقت الذى قام به بممارسة الرياضة كل الوقت ، فإن ذلك لم يكن يعنى بالتأكيد أنه كان يبحث عن مخرج لميلوه إلى الحرب ،

ولكن مجرد أن يظهر نفسه في شكل ملك حريص على رغبات وهاياه . وليس أكثر من ذلك دلالة تلك الإشارات التي استخدمت بالنسبة لأحوال أوروبا العالم؛ ولذلك فإن اتجاهات الملك هي التي تسمح بشرح سياسته الخارجية . وبنوع خاص ورغبته غير المحددة في الحرب ؛ وهو الأمر الذي إنهم به بنفسه بعد ذلك . وحين أصبح على فراش الموت . وبالنسبة للملك كان يرغب في أن يكون وعظيماً ، كانت الحرب هي أولى ما يطرق على البال ، كوسيلة لقتل الوقت ؛ وكانت في نفس الوقت أكثر الأمور حباً لنفسه : وكانت هذه هي الحالة النفسية الدائمة لئوي الرابع عشر ، أو على الأقل في أيام شبابه . وأيام نضجه . وإذا ، كانت الحرب مستمرة على جدول الأعمال ، - وعلينا ألا نهر على حالة تفكير قد تكون غريبة علينا - أي أنها كانت العمل الاساسي بالنسبة للملك في الخارج - ونكاد نقول أن هذا العمل كان يتمثل في أساسه العميق - في تلك الفترة ، في أن يقوم بالحرب . ولم يكن الملوك يقومون بالحرب من أجل ضمان السلام ، ولكن من أجل الغزو ، ومن أجل زيادة رقعة الأراضي . ولذلك فإن لئوي الرابع عشر لم يكن مختلفاً في أساسه عن غيره من الملوك الموجودين في عصره . وحين أشار في مذكراته ، لذلك الاختيار الذي طرح نفسه عليه في عام ١٦٦٦ ، بين حربين الأولى ضد إنجلترا ، والثانية ضد الأقاليم المتحدة ، كتب بكل بساطة معروفة : « إنني أرى ، وبكل سرور ، إمكانية هاتين الحربين . . . » وكان له من العمر في ذلك الوقت ثمانية وعشرين عاماً . ويبدو أن طويقة تفكيره ، في هذه الحالة ، قد ظلت هي نفسها حتى وقت الأزمات العظمى التي حدثت عند نهاية حكمه . وعلينا أن نضيف إلى ذلك أن الحرب التي كان يفكر فيها كان من الواجب أن تكون حرباً عادلة . وكانت رسالة أخلاقية ، عبر عنها الجميع منذ قرون ، وعلني الرغام من رجال العقيدة ، ومؤسسي علم القانون العام .

وعليها أن تكون عادلين مع لوى الرابع عشر ؛ وتقول أنه كان يرغب في أن يظل غلاماً لذلك . ولن يتراجع أبداً بالنسبة للتفكير في تنفيذ أية معاهدة . وكان يهتم كثيراً في أن يسطى على الأقل مظهراً خارجياً ، في كل الظروف ، على أن الحق في جانبه . وكان في وسعه أن يكتب ، في أحد الأيام ، وفي أثناء الجزء الأخير من حكمه ، ومع إلقاءه نظرة مطمئة على الماضي : « إن كل العالم يعتمد تماماً بدقة الإيمان التي أحافظ بها على كلمتي » . ولذلك فإنه لا يقبل الدخول في أية حرب . وأعلن في عام ١٦٦٧ . وفي موضوع حقوق الملكة ، والتي كانت تهدف شرح وتبرير تدخله المقبل في الأراضي المنخفضة ، أنه « يفضل أن ينخرس ويفقد لقب الملك ، على أن يفقد لقب العادل » . ويمكننا أن نستعرض على ذلك بأنه كان يقنع بالقليل . من أجل حماية ضميره : خاصة وأن « الحرب العادلة » كانت لها مرونة واضحة . ومع ذلك ، فإنه كان دائم الحرص على عدم التشبث بمبدأ قد يظهر ، مع إجتاده على رؤساء الكنيسة ، على أنه يرغب في إعطائه صفة القدسية . ولقد إتهمه بعض معاصريه ، وخاصة في ألمانيا ، بأنه كان يرغب في أن يطمح إلى ملك العالم . ولكنها كانت تهمة بدون أساس ، ومثلها في ذلك مثل تلك التي وضعا المعاصرون ، بدلا منها ، والتي تنهمم بالإمبريالية . حقيقة أنه لا يمكننا أن ننفي أن سياسة لوى الرابع عشر كانت مليئة بالطموحات الإمبريالية . ولكن هذا التعبير فريد في نوعه . هذا علاوة على أن هذه التهمة ، وفي شكلها المحدد ، لا يمكننا أن تمتد إلى أية موضوع حقيقي ، خرج من ريشه أو من كلمات ذلك الملك العظيم . وسوف نكون أكثر إنجاساً ، بلا شك ، إلى أن نلجس إلى لوى الرابع عشر ، ذلك الميل — والذي كان أليفاً لأسلافه المباشرين — في أن يصبح وبشقل قوة فائقة ، هو الحكم في شؤون أوروبا : الأمر الذي يمكننا من أن نشرح به تلك السمعة ، والتي أظهر دغته الغصوى في أن يسير عليها ، كأمبر خاضع

لمعنى العدالة . وعلينا أن نذكر أن الوثائق والنصوص غير موجودة كذلك لإثبات عكس ذلك .

وعلينا ألا نتوقف كثيراً عند شخصيات الرجال الذين أداروا ، على التوالي ، أمور وزارة الخارجية ، *Brienne* و *Hugues de Lionne* و *Pomponne* و *Colbeir de Croissy* ، و *Torcy* ، ولن نذكرهم ، الواحد والآخر ، إلا بشكل عابر . فلم يكونوا أكثر من منفذين . وهذا لا يعنى أن لوى الرابع عشر لم يقم في هذه الأمور بإتباع رأيه وحده . بل كان يخضع ، وبدعوة قوية ، كما سوف نذكر ، لسيطرة إثنين من هؤلاء الرجال ، *كولبير* و *Louvois* ، اللذين يجب أن نعتبرهما على أنها الموجهان للسياسة الخارجية ، في خلال الجزء الأول من حكمه . ولكنها لم يشغلا ، الواحد والآخر ، تلك الوظيفة الوزارية التي كانت ستعطياها ، وبشكل مباشر ، السيطرة على مندوبي الملك في الخارج ، وعلى السفراء ، وعلى المكلفين بمهمات .

٢ - الدبلوماسية ، واستخدام الأموال في إنجلترا وفي ألمانيا :

قبل الفترة للعاصرة - وهي فترة التفاراف - كانت السياسة الخارجية للدول تدار بواسطة للمثنيين الدبلوماسيين الموجودين في مراكزهم ، بنفس القوة إن لم يكن أكثر من إدارتها بواسطة الملك ووزارة للشؤون . وكانت مواياهم وتضامهم تؤثر في نجاح المفاوضات التي كانت تدور في المواسم البعيدة ، وحيث كانت عزلتهم كاملة ؛ وكانت حرية تصرفاتهم عملياً بدون حدود ، وعلى الأقل في خلال تلك الفترة الزمنية التي تقع بين وصول المراسلات وكان لوى الرابع عشر قد تأثر لفترة طويلة بذكريات الفروند ، وكان يحس بخوف كاد أن يصبح شبه غريزي ، من كبار السادة . ولذلك فإنه لم يكن يوافق من نفسه على أن يمنحهم الوظائف ذات

الفاعلية . ومن أجل حبه للعظمة ، وحرمه على المظاهر ، وافق على أن يستين بم فقط ، ويسينهم في السفارات الرسمية ، وهي تلك السفارات التي كانت تهدف بنوع خاص إشعار البلاد البعيدة بعظمة ذلك الأمير ، وعظمة دولته . أما في الشئون العادية، فإنه كان يشق بدرجة أكبر في رجال من نبلاء الرداء ورجال كانوا قد حصلوا في وظائف أخرى على التمرس على الخدمة. وكذلك فإنه كان يرسل إلى الملوك الكاثوليك بعض رجال الكنيسة ، من أساقفة ، أو كرادلة . ولذلك فإنهم كانوا ، في مجموعهم ، موظفين متباينين ، وبعضهم لم يكن متوقفاً، كأن قيمتهم كانت متفاوتة ، حتى أنه ظهرت عند بعضهم ، وفي بعض الظروف ، أفكاراً غير معقولة .

أما الخارج ، فإنه كان يرسل إلى باريس ، أو إلى فرساي ، شخصيات من الدرجة الأولى . وفي كل من الإجماعين ، كان عدد السفراء القمليين محدوداً : ففي بداية حكمه ، كان الملك لا يقبأ لهم إلا مع إسبانيا ، وإنجلترا ، والبنديقية ، والأقاليم المتحدة ، وسافوا ، وأخيراً مع روما . وكان الكرسي البابوي مثلاً ، وبشكل دائم ، بواسطة مندوب « monce » . وفي غالب الأحيان لم يكن لقب الممثل الأجنبي سوى « وزير مقيم » ، أو « مقيم » ، أما إذا كان الأمر يتعلق بمجرد بثبات مؤقتة ، فإنهم كانوا يسمون « مبعوثين » ، وبكل بساطة . وكانت هذه هي مثلاً حالة أولئك الذين كانوا يحضرون من أجل التفاوض باسم الأمراء الإيطاليين ، والأمراء الألمان ، أو المدن الحرة في ألمانيا . ولم تكن المراسم هي نفسها ، بطبيعة الحال ، بالنسبة للمستويات المتباينة للتصويين . فكانت هناك مراسم معينة بالنسبة لتلك الذين كانوا يمثلون الرؤوس المتوجة . وسمح لمبعوثي دوق سافوا بالإفادة من نفس هذه المراسم ، بمنحة خاصة في عام ١٦٩٦ . وتم إعطاء نفس المنحة ، وقت معاهدة أوترخت ، لمطالب الهولنديين . ولم يكن الملك

يستشار ، كما هو الحال الآن ، فيما يتعلق باختيار الشخصيات التي سوف تحتل منصب السفير ، أو المقيم ، في عاصمته . ولا نجد هذا التقليد في هذه الفترة إلا فيما يتعلق بالعلاقات مع روما : فكانت الحكومة البابوية تضمن مقدماً حسن إستقبال الممثل ، أو المندوب . وكان الأمر ، من الناحية الأخرى ، يتم بنفس الطريقة مع فيينا ، وكذلك في نفس الوقت مع باريس .

ومهما بدا لنا دور الدبلوماسيين هاما ، فلم يكن في كل الأوقات هو الدور الرئيسي . ولقد اعتمدت حكومة لوى الرابع عشر ، ودرجة أكثر ، على تأييد إستخدام الذهب أكثر من إعتمادها على مواهب تمثيلها في الخارج . ونجحت عمليات الرشوة في حالات كثيرة كانت مجهودات الإغراء ، بمساعدة الكلمات المنمقة أو الرهود ، قد فشلت فيها . ونحن لا نعرف كل شيء عن هذه التجاوزات الفرنسية بمجاه الأمرء ، والوزراء ، وسفراء الدول المسيحية المختلفة طوال فترة حكمه . ولكن لدينا في نفس الوقت فكرة كافية عن أهميتها ، وبخاصة في ألمانيا ، وبشكل يسمح لنا بتحديد المكانة التي كانت تحتلها في نطاق الدبلوماسية . ويبدو أن الذهب الفرنسي قد لعب في هذه الفترة دوراً مماثلاً لذلك الذي سوف يقوم به الذهب الإنجليزي في أثناء القرن الثامن عشر . وفي كل البلاد ، أصبح ملك فرنسا معروفاً بأنه يكاثر ، ويسخاه ، على تلك الخدمات التي تقدم له . ولذلك فإنه كان يجد ، وبسهولة ، الرغبة والاستعداد ، الذي كان في حاجة إليها . وفي لندن ، لم يكن يدعم فقط الحاجات الشخصية للملك إستيوات : بل إن منخاه قد ظهر كذلك بمجاه عدد من أعضاء البرلمان ، من ذوي النفوذ .

أما ألمانيا ، وهي بلاد الأمراء ذات الموارد المحدودة بواسطة مجالس الدول ، فإنها لم تكن الأخيرة في أن تمد أيديها صوب هذا السطاء المنهمر . وكانت من ناحية أخرى قد تمرحت ، ومن فترة طويلة ، عليه ، وقبل فترة حكمه الشخصي .

وفي وقت الانتخابات الامبراطورية في عام ١٦٥٨، ظم كل من منتخب براندبرج الكبير، وروساء الاساقفة المنتخبون عن تريف، وكولونيا، والبلاتينات، ببيع أصواتهم. أما منتخب ساكس، فانه باع تحالفه إلى لوى الرابع عشر بمعامدة عام ١٦٦٤، والتي كان عليها أن تجدد في عام ١٦٨٠. أما منتخب البلاتينات، والذي كان قد دخل منذ وقت بعيد في نطاق الزبائن الفرنسيين، فانه قد استمر في الظهور في ميزانية المملكة، مثله في ذلك مثل رئيس الاساقفة المنتخب عن كولونيا، وأسقف مونستر، والذين كانت علاقاتها مشدودة، بشكل شبه مستمر، مع جيوشهم الهولنديين. وأخيراً، وينوع خاص، فان مثل الملك في رانيسبون Ratisbonne، وحيث كان دايت الامبراطورية يجتمع في هذه الفترة بشكل دائم، فقد قام بعمل اللازم من أجل الاحتفاظ بحسن ود أكبر الأمراء نفوذاً. وإبتداء من عام ١٦٨٠ أصبح ملك الباترك يستلم بدوره نصيبه من الأموال السرية التي كانت تحت تصرف وزير الدولة للشئون الخارجية، وهناك حالة تظهر لنا مشابهة لذلك، في عام ١٦٨٢، مع منتخب براندبرج، والبلاتينات، وروساء اساقفة ماينس وكولونيا، واساقفة مونستر واستراسبورج، ودوق مانفوا، ودوق سافوا، وملك إنجلترا. وهذه على وجه التجميع هي الفترة التي انقضى فيها لوى الرابع عشر أنفى إفتاق، من أجل دعم أصدقائه في الخارج وبعد عام ١٦٨٨؛ وبعد طرد أسرة إستيوات من إنجلترا، أخذت ألمانيا كلها تقريباً موقفاً ضد فرنسا، وكانت الأموال المتاحة قد قلت في أهميتها كثيراً. وعلى أية حال فان هذه الراوى قد سمحت للملك بأن يضمّن ولاء وصداقة الكثيرين خلال فترة من الوقت. ولأن يتمكن، مع مرور الوقت؛ من أن يحتفظ بتحالف أولئك الذين كانت مشاعرهم القومية، أو مشاعرهم الدينية، وغالباً ما كان الواحدة تغطي الثانية لا تمنعهم من أن يأخذوا موقفاً ضده، في نطاق واجلة اوجسبرج؛ والتي كانت

هي الخطوة الأولى صوب ذلك للتكتل العام ، الذي سوف يقسب ، بعد إثنى عشر عاما ، في حرب الوراثة الاسبانية .

٣ - وسائل القوة : الجيش والبحرية :

وكانت الوسيلة المثل لسياسة لوى الرابع عشر — وهي سياسة قوة وسياسة هيبة وعظمة؛ إذا ما اودنا تسميتها — هي الجيش . ونميل إلى القول بأنها كانت بطبيعة الحال ، هي الجيش . إذ ان فرنسا لم تظهر ذلك الاستعداد البحرى الذى سيجئ عظمة جيرانها فيما وراء بحر المانش . فرغم عدد رجالها البحرين ، ورغم نشاطهم ، والذي يستمر فى إظهار الكثير من العمليات الجيدة؛ فإنها لم تحصل بشكل دائم إلا على أهمية تخضع السيطرة على البحار ، وبالتالي المحافظة على قوات بحرية قوية . وكان هناك ما يشبه الاستمرارية فى تاريخها . فنصف قرن قبل ذلك ، فى عام ١٦١٥ ، ذكر انطوان دى مونشرستان Antoine de Montchrestien فى مذكرة عن « الاقتصاد السياسى » ، وجهها غاطبا بها إلى المهد لوى الثالث عشر ، وفى كلمات كان عليها ان تصل إلى قلب لوى الرابع عشر مباشرة : « امامكم يامولاى ، طريقان مفتوحان للحصول على المجد ، الأول يوصلكم مباشرة ضد الأتراك والمفسدين . . . والثانى يفتتح واسعا امام الأهلئ الذين تسمحونهم بإرسالهم إلى العالم الجديد ؛ حيث يمكنكم ان تقيموا وان ترعوا فرنسا جديدة ولم يستمع أحد لهذه النصيحة . وأيضاً نجد ان ريشليو Richelieu ، الذى كان من يونانيه ، وولد فى وسط بهم بالشئون البحرية ، قد بذل مجهودات وحصل على بعض النتائج — ملموسة وان لم تعش لفترة طويلة — فى شئون الاستعمار والتجارة مع المناطق البعيدة . اما فيما يتعلق بلوى الرابع عشر ؛ فانه كان يربأه بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانى . فلم يشاهد أبداً ، وهو يظهر إهتماماً قويا بشئون البحر . كما انه لم يذهب لاستعراض سفنه الحربية ، كما كان يفعل مع

وحدات جيشه . وذهب في عام ١٦٨٠ ، وغن طريق الصدقة ، إلى أحد المراقب الرئيسية في للسكة ، إلى دنكر ك . ولم يكن هدف الزيارة هو الإتصال بحرسه وبجاراته ، ولكن لكي يشاهد الإستحكامات الجديدة التي كان فوبان *Vauban* قد أنمها . ومع ذلك ، فإنه حين وجد نفسه أمام إحدى البوارج ، أبدى سروره لزيارتها . ويبدو أنها كانت المرة الوحيدة في حياته التي شاهد فيها إحدى الحرية عن قرب .

وعلى العكس من ذلك ، نجد أن الجيش كان موضوع كل إهتماماته ، وكانت الحرب التي كان يحلم بها باستمرار هي الحرب التي تدور مماركها على البر . ولقد أظهر إهتماما خاصاً بعمليات الهجوم ، والدفاع عن المدن ، وهي العمليات الوحيدة التي سوف يشارك فيها شخصياً . ومع ذلك فإنه كان يورور ، وهو في عفته المحمولة خنادق الجنود ، ومواقع بطاريات المدفعية .

وفي خلال عشرين سنة ، ومنذ وقت حرب والتنازل ، حتى حرب رابطة أوجسبرج ، تضاعف أعداد قوات الجيش أربع مرات ، ووصلت إلى حد ما الأنهى مع ما يقرب من ٢٨٠.٠٠٠ رجل تقريباً . وذلك دون ذكر المياليشيا الإقليمية ، والتي أنشئت في عام ١٦٨٨ ، من أجل مواجهة أية صعوبات غير متوقعة . وكان كان عليه الحال في الماضي ، كان هذا الجيش يضم رجالا من جغفيات مختلفة . وكان عدد العناصر الأجنبية فيه يقل بالكاد من عدد في زمن ريشليو وموران . فهناك ، أولا ، السويسريون . وتمكنوا ، مع الوقت ، من أن يخلقوا لنفسهم مكانا خاصا : فكانوا لا يخضعون إلى لقائهم ، الكولونيل جنرال ، كما أن أحكام بحالهم العسكرية كان يستحيل على الحاكم الفرنسية نقضها . أما الألمان ، والذين كانت أعدادهم كبيرة قبل عام ١٦٤٨ ، نتيجة لانهم كانوا يجندون بنوع خاص في الأنازاس ، فقد أصبحوا أقلية صغيرة ، منذ أن تم في عام ١٦٥٣ إنشاء لواء

الآراس ، — كوحدة فرنسية عسكرية : وكانوا يأتون من الأجزاء المختلفة للامبراطورية المقدسة ، وكذلك أيضا من مورافيا ، وكورلاند ، وحتى من الدانمرك ومن هولندا . وعند منتصف حكم لوى الرابع عشر ، تكون لواء أيرلندى من أنصار جاك الثانى (جيمس الثانى) ، الذى اصطحبوه إلى منفاه . وفى نفس الفترة ، بدأ الفرسان المجرىون يلعبون دوراً هاماً ، وذلك بإسم « الموسار » . وكان ريشليو ، قبل ذلك ، قد إستقدم منهم عدداً هاماً . وبعد عام ١٦٩٠ ، تم تشكيل لواء ، وإن لم يمش سوى بضع سنوات ، من الجنسود الفارين من الجيش الإمبراطورى . ونشأت وحدتان أخرتان ، فى عام ١٧٠٦ ، وعاشتا لوقت أطول ، وحتى أواسط القرن الثامن عشر ؛ وكانتا تضمان الكروات والمجرين . وعلينا أن نعيد مكانا خاصا للسويديين ، نتيجة لاهمية عددهم . ففى عام ١٦٤٨ ، ومنذ أن إنتهت حرب ألمانيا ، كانوا يحضرون للتطوع للخدمة فى فرنسا ، ودون حاجة للذهاب إليهم وإحتارهم . وكان الآلاى الذى سيصبح فى أثناء القرن الثامن عشر أول « آلاى السويديين الملكى » ، قد أنشئ فى عام ١٦٦٧ ، وبطلب من تورين Turanne ، بواسطة أوتو وللم فون كونجسمارك Von Konigsmark . ولقد زادت اعداد السويديين ، مثل أعداد المجرين ، بعد عام ١٦٩٠ . وأصبح أحد رؤسائهم ، وهو الماركيز كونرادى روزن de Rosen ، وأصله من ليفونيا ، ماريشال المعسكر فى عام ١٦٧٧ ، ثم تحول إلى الكاثوليكية ، وأصبح بعدها مفتشا عاما للجيش الملكية .

٤ - الخوف من طموحات العظيمة ، ونمو روح التكتل فى الخارج :
ويعتبر التاريخ الخارجى لفرنسا ، فى عصر لوى الرابع عشر ، وفى أساسه ، تاريخ سلسلة من الحروب . وتعتبر سنوات السلم فيه سنوات إستثنائية . وكانت أولى هذه الحروب ، وأقصرها ، هى الحرب الموجهة ضد العدو التقليدى لفرنسا ،

أى ضد إسبانيا : وكانت أسبابها ودوافعها تتمثل فى الأمل فى إصلاح النقط الضعيفة الموجودة فى معاهدة البرانس . أما الحروب التالية ، والى كانت أطول مدى ، فإنها جمعت ضد الدولة ، والى ظهرت طموحاتها شيئا فشيئا على أنها بلا حدود ، كل تلك الدول ، الكبيرة والصغيرة ، التى شرعت بأنها مهددة ، بطريق مباشر ، أو بعد وقت معين . ولذلك فإن علينا أن نجمع ، حول هذه الحروب المختلفة ، كل ما يمكننا أن نقوله عن العلاقات بين الأمم الأوربية — وعلى الأقل الأمم الغربية — وطوال عهد لوى الرابع عشر .

وفى الصفحات السابقة ، حاولنا أن نظهر الصفحات العامة للسياسة التى مارستها عليها فرنسا لوى الرابع عشر ، وأن نشرحها ، مرجعين ذلك إلى روح العصر — وهو عصر بعيد تماما عن عصرنا ، رغم أننا لازلنا لتذوق مسرحيات موليير Molière وآسى راسين Racine . ولنفس السبب حاولنا أن نفهم طريقة تفكير الملك وأن نمطه حقه . ولن نمرد إلى ذلك وحيتما نجد أن علينا أن نعدو حكما على أى مشروع من مشروعاته ، فلن تكون لهذا الأمر علاقة بالنيات التى ترتبط به ، ولكنه سيكون فى ضوء الأحداث ذاتها ، والنتائج — والى كانت فى غالب الأحيان غير متوقعة — التى نتجت عنها .

وكانت هذه التكتلات ، التى كان على فرنسا أن تواجهها ، تجمع بين دول كثيرة الاختلاف من بعضها ، ليس فقط فيما يتعلق بمواقفها الاقتصادية والعسكرية ، بل وأيضا فيما يتعلق بدوافعها ، وخلفياتها ، ونظرتها للمستقبل . ولن نفرق ، فى غالب الأحيان ، بل هؤلاء الذين نسميهم ، ومن أجل الاختصار ، بالخلفاء ، أو « المتكتلين » . ولكن علينا أن نشير هنا إذن ، وقبل أن ندخل فى التفاصيل ، إلى أن هؤلاء المتكتلين سوف يكونون فى كل مرة ، وفى أثناء كل حرب ، كتلة غير متجانسة ، وأنه لن يكون بين أعضائها رابطة سوى الخوف ، وهو رباط

دقيق ويمكن أن يفصل ، أو على الأقل أن يرتقى ، كلما زاد الشعور بقوة ضغط
الخصم . وبين هولندا الصغيرة وبين إنجلترا ، سيكون الاتحاد أكثر قوة ، إذ أن
الهولنديين ، الذين كانوا يشعرون بضعفهم العسكري ، قد اختاروا وبشكل نهائي
تلك الاستحكامات التي يحتنون بها من أجل الدفاع عن أنفسهم ، ومن أجل
قياسهم بعمليات الهجوم . ولكن الوضع كان مختلفا عن ذلك كل الاختلافات فيما
يتعلق بالنفسا ، الناتجة لآل هابسبورج . فكانت النفسا قوية ، من النواحي
الديموغرافية والعسكرية ، وكانت لا تزال تعيش في فكرها على ماضيها . وكانت
تصور دائما إمكانية العودة إلى عصر جرد شارل الخامس (شرلكان) . وأضيف
التأسف على الماضي ، وكذلك الآمال غير المحدودة ، إلى الخوف ، لكي يجعلوا من
النفسا العدو الدائمة للوى الرابع عشر ، والتي تدفع إلى الحرب حتى النهاية ، وتحفظ
دائما بأمل في عصر كامل ، وتحلم بالقضاء على قوة فرنسا .

وسوف لا ترى في هذه التكتلات ، التي تقتالي والتي تتشابه ، سوى مشاعر
الإنانية القومية أو الأسروية ، وبمجرد وجود فعل دفاعية ، دون أن تتضمن أى
ظل لفكرة بناءة . وسوف تقوم كل من هذه الدول وحدها بلبس دورها ، إذا
ما شعرت بأن لها أقل فرصة لكي تتمكن ، ودون دعوة الآخرين ، من أن تثبت
وأن تقتصر . وكانت لكل منها أهدافها الخاصة بها ، ولا تحاول إلا بالسكاد أن
تغير ، بالانكفات إلى الأملاك العامة ، أو مستقبل أوروبا ، أو العالم . وهكذا سوف
يلتصق عصر لوى الرابع عشر دون أن يأتي بتغيير واضح في البليان السياسي لأوروبا ،
ولا حتى فيما يتعلق بالتكوين الفكرى ، وعلى كل دون أية فائدة لفكرة مجتمع فوق
اممى ، بأى شكل من الأشكال .

الفصل الثامن عشر

فرنسا وحرب وأسبقيّة النسب، (١٦٦٧ - ١٦٦٨)،

وحرب هولندا (١٦٧٢ - ١٦٨٧)

شعر لوى الرابع عشر، فى اوقت الذى دخل فيه شخصيا الى المسرح، بحاجة الى أن يؤكد نفسه أمام فرنسا وأمام أوروبا. وروغب فى أن يثبت .. بطريقة تشمل على الكثير من المخاطر أن القوة الفرنسية، بعد إبعاد بقايا الحرب الأهلية بشكل نهائى، قد إستعادت كل قوتها، وأنها تطالب بأحد الامكة الأولى فى المجتمع الدولى، وحق بالمكان الأول. وأدى ذلك الى تلك المجموعة من الأحداث السياسية والدبلوماسية، التى ميزت السنوات الأولى من حكم لوى الرابع عشر الشخصى، والتى يسميها لافيس Levisse، أعمال العظمة. ويمكننا أن نقول بكل بساطة بأنها ومظاهر الهيبة.

وسنحق إثنين على الأقل من بين هذه الأحداث العامة أن تذكر اياختصار، وهما ماوقعا فى عراصم أجنبية، فى لندن وفى روما. ففي لندن، وقعت مشاجرة، فى شهر أكتوبر ١٦٦١، بين حرس السفه الإسباني، وحرس السفير الفرنسى؛ وكان كل من السفيرين فى عربة. وكانت المسألة مديرة فكان الإسبانيان يرفعون فى أن ينافوا فرنسا فى الأولوية التى كانت تتمتع بها تقليدياً، لدى مثل الإمبراطور. ولما كانت الإهانة علنية، فإن لوى الرابع عشر طالب بمدريد بتقديم الاعتذار، وكذلك بوعود بالنسبة للمستقبل. ويمكننا أن نتصور مدى الرسمية، التى علقت فى باريس وعلامة إعذارات إسبانيا، (٢٤ مارس ١٦٦٢).

أما مع الكرسي البابوى، فإن العلاقات كانت، ولأسباب دينية مختلفة، دقيقة

منذ بضع سنوات ، ومنذ مجيء البابا إسكندر السابع . وحدثت وقت وصول
سفير جديد ، هو دوق كريكى Crequi . فى شهر أغسطس ١٦٦٢ ، مشاجرة
بين الحرس الفرنسى وبين حرس الفانيكان من أبناء كورسيكا وكان هناك جرحى
واحد القتلى من بين الفرنسيين . وسرعان ماخرج كريكى من المدينة ، وأعلن أنه
لن يعود إليها إلا حينما يتم الاعتذار عن هذه الإهانة الموجهة إلى سيده وإهم
بجلس الملك بالموضوع ، وإهم لفترة طويلة بالمطالب التى يتقدم بها ، وإرسلت
قوات فرنسية إلى أفينيون . ووافقت الدبلوماسية البابوية ، فى أثناء عام ١٦٦٣
فقط ، على مناقشة والترقيات المطلوبة . ولم يتم الاتفاق عليها إلا فى شهر فبراير
١٦٦٤ . ولم يكن على البابا فقط أن يكلف أحد السفراء الخاصين بالاعجاب وتقديم
الاعتذار ، بل كان عليه أن يتعهد بأن ينشئ فى روما نائراً تذكاريًا ، أحد الأهرامات ،
الذى يهدف تخليد الانتقام الذى رأى لوى الرابع عشر ، ولحرصه على مجده ، أن
يخرج به من هذا الحادث .

أولاً - فرنسا وعرب «أسبقية النسب» (١٦٦٧ - ١٦٦٨) :-

١ - الفرنسيون فى خدمة الصليب فى النمسا وفى البحر المتوسط :-
واقدمت سنوات عديدة ، قبل أن يتمكن لوى الرابع عشر من أن يحصل
على حرية كاملة للحركة فى أوروبا . وكان عليه فى أول الأمر أن يكرس جهده من
عاربة العثمانيين ، الأمر الذى كان من أفضى الأمور إلى نفسه . ذلك أنه قد
اعتبر ، ومنذ الأيام الأولى ، وحتى نهاية حكمه ، أن الصداقة العثمانية هى إحدى
الأسس الأكثر قوة للسياسة الفرنسية فى أوروبا . وكانت الحرب التى بدأت منذ
مايقرب من خمسة عشر عاماً ، نتيجة لمحاولة العثمانيين إقتراع كريت من رجال
البندقية ، لاحتلال مستمرة فى مناطق مختلفة . وكانت تتيحها معلقة بمصير
كنديا ، التى كانت محاصرة منذ عام ١٦٤٩ . وكان من الضروري ، وسوا رضاء

أو كرهاً ، مساعدة دولة البنادقة ، التي كانت تمثل الحرس الأمامي للمسيحية وكان موزان قد قرر ، في السنة الأخيرة في حياته ، إرسال مجرد متطوعين ، ٥٠٠ و٤٠٠ من المشاة ، و ٢٠٠ من الفرسان ، والذين قامت سفن توسكانيا والسفن البابوية بنقلهم إلى كريت ، حيث قاموا بالحرب تحت علم البندقية . وكان من اللازم ، من ناحية أخرى ، إعادتهم بسرعة ، وخاصة بعد أن إنتشر الطاعون بينهم : وإن كان ذلك لم يمنع سلطات إستانبول ، وطبقاً لتعاليدهم ، من سجن ممثل الملك في سجن القلعة . وفي أثناء ذلك الوقت ، كان موزان قد زاد من حدة خطورة الحالة ، وذلك بإستاده أمر القيام بمظاهرة على سواحل شمال إفريقية إلى ضابط بدون جدارة ، وهو أحد رجال البحر الذين إشتهروا بالتهور ، والذي كان يدعى «الفارس بول» : ولقد أظهر بول في طرابلس أولاً ، ثم في تونس وفي الجزائر ، مع صفته الحشمة عشر ، وربة الملك في أن يحصل على كل إحترام لإسمه ولصالحه ، حتى وإن كان ذلك بقوة الحديد والنار . وكان من الممكن أن يبدو الأمر على أنه السهر في طريق تكوير نكتل جديد للدول المسيحية ، تحت إشراف الكرسي البابوي . ولكنه لم يكن هناك أى شيء من ذلك . فلقد أظهر لوي الرابع عشر ، حين إستلم السلطة شخصياً ، أنه كان أقل ميلاً من موجهه المتوفى في أمر قبول مطالب بروجما . ونصح سفيره بألا يتفق على أى شيء في هذا الموضوع ، وبأن يشومساكله تعمل على عرقلة .

وكان يستند في ذلك إلى أسباب قوية ، في تلك الظروف . وسواء أكان برقة أو رغما عنه ، فإنه وجد نفسه في ذلك الوقت مشغولاً في مكان آخر في حروب ضد الشبانين . فكانت الحرب قد بدأت بالفعل عند حدود البحر . ومن بليراد ، قام المصدر الأعظم بالتجهيز لمجوم في إندما فينا . ولم يمكن في وسع الملك المسيحي ، أن يظهر قوة إهتمامه بتلك الأحداث ، والتي كان ، في قراره نفسه ، يشتبه بها كل الاعتباط ، مادامت تهديد الصوفاة أمام آل هابسبورج في

فينا ، وهم خصومه التقليديون في النمسا . ولذلك فإنه عمل على أن تمثله في الجيش النمساوي وحده من ستة آلاف جندي ، تحت قيادة الكونت دي كوليني Coligny . ولقد تميز الفرنسيون في الحركة التي وقعت على خفاف نهر راب Raab ، قرب دبر سان جوتار ، (في أول أغسطس ١٦٦٤) ، وكان نصراً واضحاً للسيحية ، أجبر الفزاة على التقهقر .

ولم يكن في صالح الملك أن يشترك في مشروع آخر - هو حرب كريت - والتي كانت لها رائحة الحرب الصليبية ولذلك فإنه أبلغ إستانبول برغبته في عودة العلاقات الودية السابقة معها . وكان ذلك من سوء حظ البنادقة - ولئن يعود الاهتمام بمحصر كريت من جديد إلّا حينئذ تكون هدنة فارسار (١٠ أغسطس ١٦٦٤) ، التي أتت بعد إنتصار راب بقليل ، قد أوقفت العمليات العسكرية لمدة عشرين سنة بين العثمانيين وبين النمساويين ، وتركزت كل من الطرفين في مواقعه ، وأعلنت حياد ترانسلفانيا ، والتي ظل أميرها خاضعاً للسلطان .

ولقد بدأت المرحلة الخامسة لحرب كريت في البحر المتوسط بعد عدة سنوات من هدنة فارسار . وفي ربيع عام ١٦٦٧ ، تم إمداد الجيش الذي يحاصرها من أجل القيام بالهجوم النهائي . واستعد المحاصرون لبذل مجهود أخير من أجل كسر النطاق الذي يرداد ضغطه عليهم . وقام موروسيني Morosini ، الذي كان يدافع عن كنديا ، بالخروج من هذه المدينة ، وتمكن من قيادة الأسطول ، وقام في عام ١٦٦٨ بإنزاع مريجة واضحة بالأسطول العثماني . وعادت الملاحة ، والتي كانت قد توقفت منذ ما يقرب من عشر سنوات ، في مياه الأرنجيل ، مرة أخرى . وقام أمراء جمهورية جنوا ، ورئيس أساقفة كولونيا المنتخب ، وأسقف استراسبورج ، ودوق برنزيك - لونيروج بإرسال وحدات إلى الجيش الهابوي وجيش البندقية ، أما الفرنسيون ، فإنهم أثبتوا وجودهم بالحملة البحرية

التي قادها تورفيل Tourville بين جزر الأرخبيل .

ولما إنتهت الحرب مع إسبانيا ، والتي كانت قد نشبت في أثناء ذلك الوقت ،
تمكنت فرقة من الفرنسيين ؛ وبموافقة من الملك ، بقيادة ماركيز دى لافياد
de la Feuillade . وقام متطوعون من اللورين ، وحمل نفقة الدوق شارل
الرابع ، بالعاق بالفرنسيين ؛ وتولوا معهم في نفس الوقت من السفن في ميناء
كنديا . ولقد كبدهم عملية الخروج التي شاركوا فيها ، قرب نهاية العام ؛ خسائر
فادحة ، حتى أنهم تركوا مشروعاتهم ، وعادوا بعد ذلك إلى بلادهم . وسيعاود
هذا القفل لهذا الجهد المتأخر على الوصول إلى حل . ومع ذلك فإن لوى الرابع
عشر لم يكن يقبل السكوت على هذه البرعة ، أو القفل فاستمر في القيام باستعداداته
البرية والبحرية ، ووافق على إعطاء بعض الترضيات لإسبانيا ، التي كانت تخشى
من هجوم جديد على الأراضي المنخفضة ، وتقاضى لفترة طويلة حتى لا يظهر
أمام العثمانيين بأنه هو المسئول عن المشروع . ورفض أن يحارب الجنود تحص
العام اليابوى : فكان العلم الذي يرفضه يحمل مجرد شارة الصليب . وسيقوم
البابا بتميين القائد العام للقوات البحرية ؛ ولكن دوق بوفور Beaufort ،
الذى سيقوم بقيادة الواحدات البرية الفرنسية ، سيحتفظ بدرجة من الاستقلال ،
في نفس الوقت الذى يحصل فيه لقب وجرال الكنيسة المقدسة . ورغم أن هذا
التدخل الفرنسى الجديد كان قد تم الاعداد له بكل عناية ؛ إلا أنه لم يكن أحسن
حظاً من التدخل السابق . فلقد قتل بوفور أثناء إحدى عمليات الخروج . وإنتهت
عملية ثانية ، رغم تأييدها بقوة بيران الأسطول . بفشل مشابه . وعند نهاية
شهر أغسطس ١٦٦٦ ، أفلح الأسطول الفرنسى ، وأخذ معه من بقى من رجال
الحلة ، وكانوا نصف عددهما .

وكانت شعبة الأمل حادة في فرنسا وفى كل أوروبا . ولقد حاول لوى

الرابع عشر ، والذي تأثر تماماً بهذا الفشل غير المتوقع ، وبلا جدوى ، أن يقوم بعد ذلك باستعدادات جديدة في طولون . ولكن البنادقة كانوا غير قادرين على الانتظار لوقت أطول من ذلك من أجل أن يسترفوا بالخنوع . هذا علاوة على أن مورويسني كان قد سلم المدينة بعد بضعة أيام من سفر الفرنسيين . فظهرت بشائر السلم . وصراع مايمم الاتفاق على شروط الاتفاقية بين الحكومات . فتم التخلي عن الجزيره كلها للسلطان ، باستثناء ثلاث مواقع صغيرة محصنة ، ومن بينها موقع لاسود . وفي نظير ذلك ، يحتفظ البنادقة بالمناطق التي احتلوها في البوسنة وفي دلاشيا ، بما في ذلك كليسا . وبعد كتابة معاهدة الصلح ، اضطرت الدول إلى الانتظار عامين جديدين . وسيتم تبادلها في ٢٤ أكتوبر ١٦٧١ . وفي ذلك التاريخ يمكننا أن نقول بأن دور البندقية كدولة عظمى في البحر المتوسط ، كان قد انتهى .

وفي أثناء ذلك الوقت ، كانت الحرب قد انسمت في البحر المتوسط . فامتدت من المناطق المجاورة لكريت إلى سواحل إفريقية . وكان هدف حملة القادس بول Paul ، في عام ١٦٦٠ ، هو منع إنشاء شبال إفريقية من إرسال قواتهم لكي تنضم إلى قوات المشايين : ولكنها لم تحمل أية مشكلة أساسية . وفهم لوى الرابع عشر بسهولة أنه من الواجب عليه أن يكتفى بمجرد إظهار القوة إذا كان يرغب في أن تكون كلمته مسموعة على هذه السواحل : بل كان عليه أن يكون مستعداً لاستخدام هذه القوة . ولم يكن من الحكمة أبداً أن يتصل باستانبول بهذا المحصور . هذا علاوة على أنه ، في ذلك الوقت ، قام بعض الرؤساء الوطنيين ، بإعطاء أنفسهم لقب الداي ، ووضعا أنفسهم في مكان الباشوات المشايين ، أو فوقهم ، ومارسوا السلطة الفعلية في الثيابات ، وإن كانوا لم ينفذوا عنهم سلطة السيادة المشايية . وتم ذلك في الجزائر بالفعل في عام ١٦٧١ .

وكان الهدف الأول للملك الشاب في هذه المنطقة يتمثل في الاستيلاء على قاعدة العمليات على الساحل، وبشكل يمكنه من إستخدامها ضد الجزائر ، أو ضد تونس، تبعاً للظروف . ووقع إختيار أمهرال الاسطول الفرنسى على جيجلى ، بين الجزائر وخطابه . وتم إحتلال الموقع ، بدون صعوبة كبيرة ، في عام ١٦٦٤ . ولكن صعوبة الإقامة هناك كانت كبيرة ، كما جاء إنتشار الطاعون ، علاوة على ذلك ، الأمر الذى إضطّر الفرنسيين إلى إخلاء هذا الموقع بعد بضعة أشهر . وفي العام التالى ، كان تخطيط عدد كبير من السفن الجزائرية ، والتي كانت قد إنتجأت إلى تونس ، وتمت نيران قلاع حلق الوادى ، مقدمة لمفاوضات إنتهت بمقدمات صلح مع الثيابات . وفي عام ١٦٦٦ ، أصبح في وسع الفرنسيين أن يقيموا من جديد في مركزهم التجاري في الرأس السوداء Cap Nègre والتي كانوا قد هجروها في عام ١٦٣٧ . وحين إنتهت حرب كريت ، في عام ١٦٦٩ ، ساد الهدوء ، لفترة من الزمن ، في البحر المتوسط .

٣ - التنافس البحري بين الانجليز والهولنديين :

كناقد أجهلنا ، ولكي ننتهى من عملية حصار كنديا ، والتغيرات التي أحدثتها هذه المسألة في العلاقات بين الصليب والحلال في البحر المتوسط ، أمر عرض الأحداث التي دارت في الغرب منذ صلح البرانس حتى صلح إكس لاشابيل Aix - la - Chapelle . وعلينا الآن أن نمرود إليها .

واقده كانت مسألة الأراضى المنخفضة هي أولى المسائل التي طرحها لوى الرابع عشر . أما العالم ، والتي جسمها بقوة السلاح . ويبدو أنه كان هناك ، في قرار الملك ، شيئاً لا يمكن تفاديه . وكانوا قد إقتربوا كثيراً من الهدف ، قبل الفروند ، وفي أثناء الحرب التي إنتهت بمقدمات البرانس ، وبشكل لايسمح لهم في باريس ، وبعد أن إنتهت الحرب الأهلية بشكل نهائى ، بإعادة وضع الحديد في النار . وربما

كان شخص آخر ، غير لوى الرابع عشر ، قد تصرف بطريقة مختلفة . ولكنه كان على الأقل يشعر بالرغبة في تبنى المشروعات القديمة ، والتي كانت لازال تحتفظ بمجديتها : مد السيادة الفرنسية على جميع المناطق التي ظلت إسبانية من دولة برجنديا السابقة . ولكن كل القرب كان قد أصبح الآن يهتم بالمسألة . ولذلك فإن التدخل المسلح في عام ١٦٦٧ سوف يجعل كل القرب ، تقريبا ، يقف في وجه فرنسا .

وبين كل الدول التي سوف تجندها - وعلى الأقل من الناحية المعنوية أن لم يكن من الناحية العسكرية - الحرب المصاة بحرب وأسبقية النسب، علينا أن نعالج على أفراد تلك الدولتين التي سرطان ما نسميها بشكل شبه دائم على القارة ، بالقوى البحرية ، وهما إنجلترا والأقاليم المتحدة .

والواقع أن كل من هاتين الدولتين كانت تعيش من البحر ، ومن أجل البحر . وكانت تحصل منه على مواردها ، وبخاصة الأقاليم المتحدة ، التي كانت تحصل منه على كل مواردها ، إذ أنه قل أن توجد أراضي غير منتجة مثل أراضيها . وأما إنجلترا ، فإنها كانت قد وجدت ميوها في البحر . ولذلك فإنها كرست نفسها ؛ وبشكل متزايد ، للنشاط التجاري والإستعماري . وزاد الشعور بنتائج ذلك على قوتها الحربية والبحرية ، وبزيادة مستمر . وتظهر السنوات التالية لإعادة السلطة في عام ١٦٦٠ على أنها هامة بنوع خاص في هذا الشأن . وفي البداية ، ومنذ عام ١٦٦١ ، كان هناك زواج الملك شارل الثاني من إحدى أخوات ملك البرتغال . وكانت بائنة الملكة الجديدة لا تشتمل فقط على مبلغ ٥٠٠.٠٠٠ جنيه إسترليني نقداً ، ولكن كذلك على تحويل قاعدتين بحريتين كبيرتين الأهمية إلى العولة البريطانية : هما طنجة وبمباي . وبعد ذلك تعهد أن الوزير كلارندون Clarendon يمارس سياسة مستمرة لتشجيع التجارة البحرية : فيمقد مع مدريد إتفاقيات مختلفة تؤكد الميزات والضمانات للمنوحة التجار الإنجليز

الذين يقيمون في شبه الجزيرة الأيبيرية ؛ ويحاول أن يضمن أمن السفن على مياه البحر المتوسط . وذلك عن طريق التفاوض مع طرابلس ، والجزائر ، وتونس ؛ وأخيراً يمنح إعانة لصناعة الإنشاءات البحرية ، ويعطى منح لكل سفينة جديدة تنزل إلى الماء : وأدى ذلك ، وفي فترة ربع قرن ، من عام ١٦٦٠ إلى عام ١٦٨٨ ، إلى مضاعفة عدد وحدات البحرية التجارية . ومن ناحية أخرى ، كان الصوف الانجليزي لا يخرج من البلاد ؛ وعلى الأقل كان هناك في هذا المجال ، وفي ذلك الوقت ، مناعاً كاملاً ، وإن كان غطاءً بشئ من التهريب . وفي نظير ذلك ، كانت المنتجات المصنعة ، من الأصواف ، تصدر بكميات تتزايد باستمرار . وكان جزء هام منه يمر عن طريق المصانع الهولندية ، لكي يوضع هناك لعمليات الصقل والصباغة ؛ وسيتمشى الأمر بالصناعة الانجليزية ، ومع تطويرها لوسائلها ، إلى أن تتحرر من هذه التبعية .

ولم تكن السياسة الإنجليزية ترسم من القارة ، بل كان الأمر يختلف من ذلك كل الاختلاف . وليكنها كانت تهتم بالقارة بطريقتها هي ، ولكي تراقب فيها تحركات الدول الأخرى ، وتضمن عدم التعرض لبدأ التوازن التي كانت أول الدول في تنظيمه في القرن السابق ، والذي ظلت حريصة عليه ، وبمفردها ، مع البندقية . ولذلك فإن عداوتها لفرنسا قد تأكدت بشكل نهائي منذ أن تحددت طموحات لوى الرابع عشر من أجل السيطرة . وفي الفترة الأولى من حكمه ، كانت العلاقات الانجليزية الفرنسية تتميز بالصدقة وحسن الرغبة المتبادلة ، ويبدو أن الملكين كانا يتذكران أنها أقرباء . وفي شهر مار ١٦٦١ ، تزوج فيليب أورليان *Henriette* Philippe d'Orleans أخو لوى الرابع عشر ، الأميرة هنريette الانجليزية ، أخت شارل الثاني ، وحفيدة هنري الرابع . ثم قام ملك فرنسا بمساعدة ابن عمه حتى يتمكن من إتمام زواجه البرتغالي ؛ فوعده في هذه

المناسبة بأن يقدم له معونة تبلغ مليوني جنيه ، وطلب منه أن يسهم هذا المبلغ في مساعدة البرتغاليين ، والذين كانوا في حرب شبه مستمرة مع جيرانهم وكان شارل الثاني قد وجد نفسه ، وأكثر من سابقه ، مقيداً بالبرلمان ، والذي كان يدين له بإعادة تاجه إليه . وحكّات كل تصرفاته بحكومة بعدم وجود المال ، ويرغبته المستمرة في الحصول على المال . ومنذ عام ١٦٦٢ ، أشارت الحكومة الفرنسية إلى أنها مستعدة لإعادة شراء ذلك كرك ، فأسرع شارل الثاني ووافق على بدء المحادثات ، رغم حله بالقيمة التي يقدروها رعاياه للاحتفاظ بموقع أصبح بعد قرن يوضع أمر فقد كاليه . وأخذوا في المساومة ، وإنتهى الأمر بالاتفاق على البيع بمبلغ خمسة ملايين جنيه .

أما الأقاليم المتحدة ، والتي كان سكانها أقل بكثير ، فإنها كانت تلعب دوراً ، ونظراً لقوتها الاقتصادية والمالية ، لا يقل عن الدور الذي تقوم به إنجلترا . ولكن الدولتين كانتا ، في ذلك الوقت ، متعادلتان ، وتقسّم بينهما تعارض المصالح على البحار ، وفيها وراء البحار . وكان الهولنديون ، رغم الاختلافات التي كانت تفصلهم عن فرنسا في عام ١٦٤٨ ، قد ظلوا عاكفين على صداقتهم لفرنسا . وعقدوا في شهر فبراير ١٦٦٢ ، مع الملك الشاب ، تحالفاً ، كانوا يرغبون في استخدامه ؛ حينما تحين الفرصة ، ضد إنجلترا ، وذلك في الوقت الذي كان لوى الرابع حشر يفكر فيه بنوع خاص في الخدمات التي يمكن لمثل هذا التحالف أن يؤديها له ضد إسبانيا . وكانوا ، في بداية نشأة دولتهم ، يتصرفون بالفضل للإنجليز . ولكن المشاركة في المصالح السياسية والدينية صجرت عن أن تسيطر ، ولوقت طويل ، على نتائج التنافس الاقتصادي الذي اشتد حدة وباستمرار . ومنذ فترة بعيدة ، زادت المشاعر في أمستردام ولاهاي بعدم الثقة في جيرانهم القربيين منهم للغاية ، وكانوا قد بدأوا ، هم كذلك ، في السبر على

طريق التوسع ، وأصبحوا ، ونتيجة لطبيعة الأمور ، منافسين ومتنافسين . وكانوا قد تواجهوا سوياً ، في مرة سابقة ، في عصر كرومويل ، وفي أثناء حرب بحرية ، إستمرت لمدة عامين .

ورغم أن هذه الحرب كانت صعبة ، إلا أنها لم تقلل من الأنشطة الهولندية في الخارج . وكانت هناك في العالم مواقع استراتيجية وتجارية أخرى يمكن إحتلالها ، غير تلك التي كان الإنجليز يحرمون عليها . وكانت الممتلكات البرتغالية متتالية على الطرق البحرية ، وكانت البرتغال خصماً يقرب في الحميم من الأقاليم المتحدة . ومنذ سنوات ، كان البرتغاليون والهولنديون قد دخلوا في صراع ، في البرازيل ، وعلى الساحل الغربي لإفريقية . وتم في آخر الأمر عقد الصلح بينهما في عام ١٦٦٣ . ولقد ظلت البرازيل ، وجزر الرأس الأخضر ، وأنجولا ، وبشكل نهائي ، للبرتغال . ولكن ساحل الذهب خرج من أيديهم ، وكان مصدراً ممتازاً للعبيد السود . وتمكن الهولنديون من أن يحصلوا على إعتراف ، علانية على ذلك ، بإمتلاك جميع المواقع الأخرى التي كانوا قد إحتلوا على التوالي منذ عشرين عاماً على طول طريق التوايل : فأولاً ملقا (في عام ١٦٤١) ، ثم كولومبو ، في جزيرة سيلان (في عام ١٦٥٠) ، ومستعمرة الرأس (في عام ١٦٥٢) ، وأخيراً كانافور وكوشين ، على ساحل الملابار (في عام ١٦٦١) .

ولقد ظهرت الميول البحرية للأقاليم المتحدة ، كما هو الحال بالنسبة لأمتهارات ، في نشاط دور صناعة وبناء السفن ، وفي إمتياز الوحدات البحرية التي تخرج منها . وكذلك الحال بالنسبة لعدد من رجال البحر فيها ، مثل رويتر Ruyter الشهير ، الذي عرفته كل أوروبا وعرفت ما قام به من عمليات . وكان في الجزء الأول من حياته مجرد رئيس من رؤساء القراصنة ، وكان يشتبك باستمرار مع رجال البحر والقراصنة الإسبان في بحر المانش وفي بحر الأنتيل . وهو الذي سيقوم ؛ في

أثناء الحسب الثانية ضد الانجليز ، بتول القيادة الرئيسية .

وكانت الصعوبات قد زادت خطورة مع لندن ، منذ عام ١٦٦٥ . وكان شارل الثاني ، حينما جدد قانون الملاحة ، قد أقر إلى درجة بالغة على التجارة الهولندية في الطبايق، وذلك بمنحه دخول منتجات للمستعمرات ، ومهما كان مصدرها ، إلى إنجلترا ، إلا على سفن بريطانية . ومن ناحية ثانية كانت عودة آل ستيوارت ، والذين كانوا متصامرين عن قرب مع آل أورانيج ، قد أثارت بعض المخاوف السياسية ، خاصة وأن شارل الثاني أظهر إستعداده لتأييد إعادة مركزه صاحب الدولة ، Stathouder ، والذي كان الحزب الجمهوري قد ألغاه في عام ١٦٥٠ ، وذلك في صالح قرية الشاب ، ويليام أورانيج . وإتسبى التوتر بين الدولتين بالوصول إلى عمليات حربية في عام ١٦٦٤ ، وقام أحد الأساطيل الانجليزية بإحتلال مواقع هولندية مختلفة على الساحل الإفريقي . وبعد ذلك ببضعة أسابيع تمت في أمريكا ، عملية غزو هولندا الجديدة . وكانوا قد تمودوا على النظر إلى الهدامات من أجل المستعمرات على أنها غير رئيسية ، حتى مر عام قبل أن تقوم الأقاليم المتحدة ، ونتيجة لفشل مطالباتهم بالطريق الدبلوماسي ، بتقرير إعلان الحرب (ماوس ١٦٦٥) .

وحدثت الحرب في أول الأمر ، كلها تقريباً ، في بحر المانش ، وذلك حتى الوقت الذي تدخل فيه الفرنسيون . ولقد إعترف لوى الرابع عشر ، في مذكراته ، أنه قد وجد نفسه في حيت بالبحر يوم أن طلبت منه حكومة الأقاليم المتحدة معونة أسطوله ، طبقاً لإلتزامات عام ١٦٦٢ . وكان يفضل عدم الإشتراك . ولذلك فإنه بدأ يتردد . ثم جاءت وفاة فيليب الرابع ، ملك إسبانيا ، وصهره (والد زوجته) في ١٧ سبتمبر ١٦٦٥ . وقبل وقوع ذلك الحدث ، كان قد وضع خططاً ، منذ وقت طويل . وكان يحتاج ، من أجل تحقيقها ، إلى التمكن من الإعتماد على الأقاليم

المتحدة ، أو على الأقل الإعتماد على حيادها . ولذلك فإنه سيقوم بتنفيذ ما تعهد به . أو على الأقل سيظهر على أنه ينفذها ، وذلك بتوجيه أساطيله صوب الشمال . ولكنه سيصدر لها الأوامر بتحاوش الإشتباك في المعارك . وفي شهر يناير ١٦٦٦ ، وفي الوقت الذي كان يبلغ فيه إعلان الحرب لقيبه ملك إنجلترا ، كان هناك اعتذار شبه رسمي . وفيما عدا ذلك ، تم تكليف السفير الفرنسي لدى بلاط شارل الثاني ، ومنذ اليوم الأول ، بعرض وساطته بين المتحاربين .

وكانت نتيجة هذا التكتيك أنه ، فيما عدا إشتباك قصير المدى قرب مصب نهر التاج مع بعض السفن الانجليزية التي انسحبت نحو الشمال ، لم تحدث مواقع بين القوى البحرية للدولتين . ولم يكن الأميرال الفرنسي ، درق بوفور *Beaufort* ، يجرؤ على الدخول إلى بحر المانش . فقتع بإرسال بعض سفنه مع السفن الهولندية التي كانت قد تبعته منذ طولون ، أما المركبة التي وقعت عند رأس دونجيفيس *Dungeness* فكانت في صالح الانجليز . ومع ذلك ، فإن الحرب أخذت متعطفاً أكثر خطورة في الانتيل : فدارت الحرب في جزيرة سان كريستوف ، والتي كان جزءاً منها إنجلترا والجزء الآخر فرنسي ، ثم في جزيرة سان نيفيس ، وفي المارتينيك ، وأخيراً في جويانا . واعتقد لوى الرابع عشر أنها فرصة فريدة على القارة لأن يقوم أحد صفراء الأمراء الألمان ، برنارد دي جالان *Bernard de Gallen* ، وهو أسقف مونستر والذي كانت إنجلترا تنفق عليه ، بمهاجمة الهولنديين . وكان مسروراً لكي يتدخل ضده ، وبكل قوة . وأرسل فيلقاً من ستة آلاف جندي إلى وستفاليا ، وكان مجرد إقترابه يكفي لكي يجبر الأسقف على إلقاء السلاح .

ومع مرور الوقت ، وضع أن تفوق إنجلترا يتأكد على البحار . وزاد القلق في الأقاليم المتحدة ونجح أمير البحر الهولندي . رويتر ، في شهر يونيو ١٦٦٧ ، في أن يدخل في منصب نهر التايمز ، ويصعد في النهر إلى أن يقترب من لندن .

واستقلت حكومة هولندا النتائج النفسية لهذه الغارة ، لكي تصل إلى مفاوضات الصلح ، والتي كانت قد بدأت مع وساطة سويدية . وقعت معاهدة بريدا Bréda (٢١ يوليو ١٦٦٧) ، بفقدان الأقاليم المتحدة لمستعمرتهم الرئيسية في أمريكا : « هولندا الجديدة » ، التي سوف تدخل في نطاق جارتها ، « إنجلترا الجديدة » . ومنذ هذا اليوم ، أصبح اسم نيو أمستردام هو نيويورك ، تكريما لدوق يورك قائد الأسطول البريطاني . أما في الإنكليل ، فقد تم الاحتفاظ بالوضع القائم Status quo . ولكن في إفريقيا ، رأى ساحل الذهب ، وموقع رأس الساحل ، تبديل السلطة .

وبعد تسوية هذا الخلاف ، ستجد المشاركة في المصالح ، التي تجمع بين إنجلترا وهولندا ، فرصة في أن تدعم نفسها ضد فرنسا ، في صر لوى الرابع عشر ، وفي أثناء الحرب التي تسمى بحرب « أسبقية النسب » ، وستقوم الدولتان بدور « الفرمة » ، لوقف حمل ثقيل من الانزلاق حل منحدر خطير .

٤ - حرب « أسبقية النسب » :

كان لوى الرابع عشر قد صمم ، منذ وفاة فيليب الرابع ، على أن يبحث عن فرصة له من هذه الناحية . وكان يعرف استعدادات الحكومة الإسبانية . فبذ السنة الأولى من حكمه الشخصى ، وكما كانت مدريد قد مهدت له من أجل الدخول في تحالف ضد إنجلترا ، كان قد طلب - وبلا جدوى - أن يتم إلغاء تنازل الملكة ، زوجته ، والمتصور عليه في معاهدة البرانس . وهذا الإلغاء ، في حالة الوصول إليه ، لم يكن يعطى نتائج مباشرة ؛ خاصة وأن فيليب كان قد ترك مولودا ذكرا ، هو شارل الثانى . وكان طفلا رقيق الصحة ، ولم يقدرُوا له أن يعيش طويلا . ولكنه في الواقع لم يحتم إلا بعد أربعين عاما . وفي أثناء هذه

السنوات الأربعين ماضٍ القرب كله في إنتظار وقلبي لما سيحدث ، وكان مستعداً لنحمل نتائج ذلك مقدماً .

ولقد تصوروا في باريس سيئاً وجيباً من أجل أن يحاولوا الحصول على الأراضي المنخفضة من ملك إسبانيا الجديد ، رغم تنازل أخته الكبرى . وكانت ماريا تريزا قد ولدت من زواج أول . وكان هناك مبدأ في كثير من أقاليم الأراضي المنخفضة عن حق تقليدي ينص على أن أملاك الأب تورث لابناء الزوج الأول ، ويحرم منها الآخرون . وأعلن لوى الرابع عشر حق أسبقية النسب ، هذا لكي يبرر في أعين العالم سياسة القوة التي كان يستند لها . ولكن مدريد لم تأخذ بهين الاعتبار ، موضوع حقوق الملكة ، المسيحية للغاية ، والتي شرحت هذه النظرية بإفاحنة ، فعب الجيش الملكي حدود الأراضي المنخفضة ، في نهاية ربيع ١٦٦٧ . وجه إعلان الحرب من جانب إسبانيا في شهر يوليو التالي .

وبدت الظروف العامة على أنها مواتية . ويبدو أن الحرب التي إنتهت كانت تشير بأن تكون لها نتائج طويّة المدى على العلاقات الإنجليزية الهولندية . وكان للملك قد طلب من لندن بعض الضمانات . وكان قد حصل من شارل الثاني - والذي كان يعيش على حمايته ، ولا يمكنه أن يرفض له طلباً - على وعد بحرية العمل الكاملة في الأراضي المنخفضة . ولكنه لم يشعر بضرورة القيام بعملية موازنة مع الأقاليم المتحدة . أد على الأقل لم يتوقف ، بعد أن أبلغ حكومة لاهاي بنواياه ، عند الرفض الذي شعر به مثله عند من يتحدّثون معهم ، ومع ذلك ، فقد كان من المعروف أنهم كانوا في هولندا لا يحشون من شيء أكثر من رؤيتهم الفرنسيين يصلون إلى مصب الأسكوت . وكتب ويليام تيمبل William Temple ، السفير الإنجليزي في لاهاي . د شيئاً تصبح الفلاندر تحت سلطة لوى الرابع عشر ، فإن الهولنديين يشعرون أن بلادهم لم تعد سوى مقاطعة بحرية لفرنسا وكانت

هناك وسيلة لطمانتهم ، وربما لكسبهم ، تتمثل في العودة إلى مشروعات ريشليو ، ومشروعات عام ١٦٣٥ ، وإعطاء وعد اسكان الاراضى المنخفضة بأن خروجهم من تحت السيطرة الإسبانية يسمح لهم بالحصول على الإستقلال . ولكن لوى الرابع عشر كان شديد الوثوق في قوته ، وبشكل لا يسمح له بالتفكير في مثل هذا الحل . ونصح جان دى ديت Jean de Witt أبناء بلده بأن يتركوا الامور تسير ، وأن يرقبوا الاحداث ويحتفظون لانفسهم بإمكانية المطالبة ، وقت عقد الصلح ، بحقوقهم في الحصول على تمويض .

ومن الناحية الألمانية لم يكن الموقف يبدو على أنه مضمون ، أو مطمئن . ذلك أن رابطة الراين ، والتي كان هدفها الرئيسى ، بل سبب وجودها ، هو ضمان حياد البلاد في منطقة الراين في حالة وقوع صدام جديد بين آل هابسبورج وبين فرنسا ، كانت قد دخلت في سيات عميق . وكان لوى الرابع عشر ، الذى كان د حامياً ، قد أصبح مشكوكاً فيه ، فى عام ١٦٦٤ . حين قام بمظاهرة القوة ، وبشكل أكثر وضوحاً من اللازم بالنسبة لبعض الألمان : فكان قد أرسل فيلقاً من ستة آلاف رجل ، إلى إرفورد ، فى قلب ساكس ، لكي يعيد الرعايا الثائرين ضد أميرهم ، رئيس أساقفة ماينس ، إلى صوابهم . فبدأ ملك فرنسا يظهر بمظهر سىء في الأوساط الأكثر تشبهاً بروح الوطنية الجرمانية . ورفضوا أن يعترفوا بفضله في الخدمة التي كان قد قدمها للإمبراطور ولألمانيا ، حتى أرسل إحدى الوحدات العسكرية — رغم أنها كانت متراخمة للغاية — لمحاربة ذلك الجيش الذى كان يدافع عن حدود المجر ضد الأتواك . فكان من الضروري إذن التفاوض مع كل من هؤلاء الأمراء ، الذين كانت سواء نيتهم قد أصبحت تثير الضيق : منتخب كولونيا ، ومنتخب ماينس ، ودوق نيورج ونجح المال في أن يحصل منهم على وعد بعدم التدخل .

وكان مسرح العمليات الحربية في أول الأمر هو حدود الأراضي المنخفضة ،
وحدها قديماً . ومع ذلك ، فقد تم إرسال أحد الأساطيل إلى ساحل إسبانيا ،
حتى يتم منع أية إمكانية لإرسال إمدادات . وبمساعدة البرتغاليون ، تم تنظيم
حصار الساحل . وعلينا أن نذكر أن البرتغاليين ، والذين كانوا في خصومه مع
جيرانهم منذ سنوات طويلة ، لم يكونوا قد عقدوا الصلح ، في نفس الوقت الذي
عقدته كل من فرنسا وإنجلترا ، في عام ١٦٥٩ . وكانوا قد استمروا في عملياتهم
وبمفردهم ، من حيث المبدأ — إذ أن حلفائهم بالأساس كانوا قد تعهدوا بعدم
تأييدهم . ، وبالمثل بمعرفة بعض الوحدات الفرنسية ، والتي كانت تودين
Turenne قد وافق على إرسالها إليهم تحت مسؤوليته . ولذلك فإن جيشاً صغيراً ،
وتحت قيادة من سيصبح مارشال شومبرج في المستقبل ، كان موجوداً في
البرتغال ، في المنطقة المجاورة لمدينة بيجا Beja . وكان قد إشترك وانتصر في
كثير من العمليات . وبعد تغير الملك ، سيتم عقد الصلح ، في أثناء حرب وأسبكية
النسب ، ، وذلك بمعامدة لشبونة (١٢ فبراير ١٦٦٨) ؛ وكان الناتج الإسباني
قد فتح أخيراً — وبعد سبعة وعشرين عاماً — بضرورة الاعتراف باستقلال
البرتغال .

وامتدت الحرب كذلك إلى جزر الألفيل ، كما حدث في أثناء حرب إنجلترا
وهولندا عام ١٦٦٩ . ومرت أيام جميلة على قراصنة سان دومنجو ، وهم يمتصون
في جزيرة لا تورتى Tortue ؛ وكانوا مغامر من أصول مختلفة ، ويحتمون
بالعلم الفرنسي ، وظانوا يعرفون باسم فليبيوسية^(١) . وجاءت بعض سفن

(١) تحريف لكلمة Vrijbueter الهولندية ، إلى Freebooter الإنجليزية ، ثم
إلى Flibustiers الفرنسية .

الأسطول ، فى بعض الأحيان ، لمساعدتهم .

ولم يكن الألمان هم الذين تسببوا ، كما كان هناك خوف من ذلك ، فى وقت مسيرة الانتصارات القرمزية فى الاراضى المنخفضة . بل لقد ظهر الخطر من جانب لم يكن أحد يحمى منه ، من جانب الأقاليم المتحدة . ففى نهاية عام ١٦٦٧ ، وبينما كان الفرنسيون ، والذين سيطروا على الجزء الأكبر من الفلاندر ، فى معسكراتهم الشتوية ، وينتظرون العودة إلى الزحف فى اتجاه بروج وجاند ، كانت مشاعر عنيفة قد بدأت فى الظهور فى لاهاي . وقرر مجلس الأقاليم المتحدة أن يطلب إلى ملك فرنسا تحديدات وضمانات تتعلق بحجم الفتوحات التى كان يرغب فى القيام بها . وسرعان ما وصلت هذه المراسل إلى لندن ، وحيث كانت وزارة جديدة ، فرضها البرلمان على شارل الثانى بعد صلح بريدا ، قد أعلنت أنها توافق على تقارب مريع مع خصوم الأمس . ولذلك فإن ، القيم الكبير ، فى هولندا ، جان دى ويت ، والمكلف بالشئون الخارجية ، إتفق فى نهاية شهر يناير ١٦٦٨ ، مع لندن على القيام بعمل دبلوماسى سريع : فتقوم الحكومتان بالتدخل المشترك لدعوة ملك فرنسا إلى وقف فتوحاته ، وتمرضان نفسها كوسيطين للصلح السريع مع إسبانيا . وكان هذا هو المبنى العام للمعامدة التى عقدتها سويا فى لاهاي فى ٢٣ يناير ١٦٦٨ . وكان إنضمام السويد ، الذى طلب بعد ذلك ، وتم الحصول عليه بعد مفاوضات لعب فيها الفلوران والجنيه الاسبرليني دورها ، مما أدى إلى ظهور . تحالف لاهاي الثلاثى ، بعد ذلك بتقليل .

أما عن لوى الرابع عشر ، فإنه كان يرفض سلفاً أمر تخويله ؛ وإستمد لنز فرانش كونييه . وتم ذلك فى أثناء فصل الشتاء ، فى شهر فبراير ١٦٦٨ . وكان الملك فرحاً بمرافية حصار دول Dôle وعملية الاستيلاء عليها . وإنتهت المقاومة

تماما بعد ثلاثة أسابيع . وبعد قليل ، وفي وسط شهر ابريل ، تم التوقيع على مقدمات الصلح في سان جرمان ، وقرروا عقد مؤتمر من أجل السلام في إكس لاشايل . وكان مؤتمر إكس لاشايل قصر المدى . ولم تطرح فيه مسألة حق « أسبقية التسب » . ونصت المعاهدة ، التي تم التوقيع عليها في ٢ مايو ١٦٦٨ ، على أن يعيد لوى الرابع عشر فرائض كونييه ، ولكنه يحتفظ بكل المواقع التي تم احتلالها في عام ١٦٦٧ : وكالت ، مع ليل ، حاصنة الفلاندر القلوية ، هي برج ، وفيريس ، وآرميتير ، وكوتراي ، وميتان ، ودواي ، ونوربه ، وأردنارد ، وآت ، وينش ، وشارلوا .

وأصبح في وسع الهولنديين أن يتنفسوا بسهولة أكثر . ولم يكونوا مستعدين للتخلي عن شعار ظهر منذ ربع قرن مضى ، وكان علاوة على ذلك هو الذي وجه سلوكهم . « صداقة فرنسا ، دون الخصوم لها » . ولكنهم كانوا قد تسبوا في إثارة حاسفة في نفس الملك الكبير ، ولن تتأخر الصواعق في النزول عليهم .

* * *

ثانيا : حرب هولندا (١٦٧٣ - ١٦٧٨) :

١ - أهميتها ، وأسبابها الاقتصادية والنفسية :

كان المشروع الكبير الثاني في عهد لوى الرابع عشر ، وهو حرب هولندا ، يبدو على أنه إكمال ، ونتيجة المشروع الأول . وسوف يستمر لفترة أطول بكثير - ست سنوات بدلا من سنتين - ويهم عددا أكبر من الدول ، وبخاصة في ألمانيا ، مثل منتخب براندنبورج أولا ، ثم الامبراطورية المقدسة كلها .

وكان الاتجاه الوطنى الجرمانى قد إستمر في غلبانه ، منذ أن أخذ لوى الرابع عشر مظاهر أحد الفزاد ، وأحد الطغاة . وفي ذلك الوقت ، كانت رابطة الراين قد حكمت على نفسها بالموت ، لأن بعض أعضائها كانوا قد أظهروا تمسكا متطرفا بالتحالف الفرنسي ، ذلك التحالف الذى كان من الممكن ، وبالطريقة التي كان

كان الملك يمارس بها ، أن يظهر على أنه حامي : فكانت المساعدة قد تم عقدها في عام ١٦٥٧ ولمدة عشر سنوات ، ولذلك فإنها تستصل بالتحديد إلى إكمال مدتها ؛ ومع ذلك فإن أحداً لم يتحدث عنها . وبعد ذلك ، ساد القلق في عام ١٦٦٧ ، من كتاب صغير كان قد ظهر في ذلك الوقت في باريس : « مطالب الملك العادية بشأن الإمبراطورية » . وكان المؤلف أنطوان أوبري Antoine Aubery ، غير معروف ؛ وكان عامياً أمام البرلمان ولكنه كان من الصعب عدم الاعتقاد في أن الملك نفسه هو الذي كان يوحى إليه . وما أثار الفضيحة ، لم يكن هو ما يتعلق بالنظرية ، والتي كانت قد طرحت أكثر من مرة في الماضي ، والتي تقول بأن تاج فرنسا هو الأكثر قدماً من بقية التيجان ، وأن له حقوق مميزة على ميراث شارلمان ؛ بل كان بنوع خاص ذلك التأكيد - وهذا الأمر جديد - بأن لفرنسا حقوق لا يمكن مناقشتها في الاستيلاء على كل ألمانيا الواقعة إلى غرب نهر إلب ، وعلى أساس أنها كانت فيما مضى جزءاً من إمبراطورية شارلمان . ولقد اضطر الملك ، واكي يقضى على الشكوك الألمانية ، إلى أن يرسل أوبري إلى مكان يفكر فيه قليلاً ، ولدة بضعة أسابيع ، في الباستيل . ولقد استمر الجدل بين كتاب البلدين لمدة سنوات وزادت الحرب بين فرنسا وإسبانيا من حدة هذا الجدل ؛ ذلك أنه ، ومن حيث المبدأ ، كانت الأراضي المنخفضة مستمرة في تيميتها للإمبراطورية ، وكانت تمثل فيها « دائرة » مميزة ، هي دائرة برجنديا .

وفي عام ١٦٧٠ ، تسببت أحداث اللورين ، بدورها ، في إثارة قلق كبير . فكان الدوق شارل الرابع مستمراً في جذب الانتباه إليه . وكان قد تصور ، منذ السنة التالية لإعادة دوقيته ، أن يبيع حقوق سيادته عليها ، وكان في حاجة ملحة للمال ، إلى لوى الرابع عشر . وتفاوض ، عن طريق أبناء أعمامه دى جين Guise ، الأمر أثار الأمل في أن يحصلوا ، وفي نظير معونتهم ، على لقب أمراء

من المذهب . وجاءت المعاهدة ، التي تم التوقيع عليها عند قريته ، مدموازيل دى جيز ، فى مونمارتر . يوم ٦ فبراير ١٦٦٢ ، لىي تحدد يوم وقاته ، لإتحاد اللوردين وباروا مع المملكة . ولكن نالسى نظرت إلى هذه الصفة الخجلة بكل إحتقار ، وقدمت كل أنواع الإعتراض إلى باريس — بسبب قلة إعتبار رواجل الدم التي تظهر فى الفقرة الخاصة بآل دى جيز — وبدرجة أنهم إعتبروا هذا الاتفاق ، وبعد ذلك مباشرة ، على أنه علقى . ولكن هذا لم يمنع الملك ، فى العام التالى ، من أن يذهب ويسلم موقع مارسال ، الذى كانت معاهدة مونمارتر قد منحته له . وفى عام ١٦٦٧ ، نشأ حدام بشأن الجيش ، الذى كان شارل الرابع يرغب فى أن يحفظ به مستنداً إلى صمويات ، كانت فى ذلك الوقت قد إنتهت ، مع جاره منتخب البلاتينات . وكانت حرب حق أسبقية النسب ، قد سمحت بقسوية المسألة مؤقتاً ؛ وسمح لفيلى صغير من اللوردين بأن ينضم إلى جيش تورين .

وبعد صلح إكس لاشايل ، أخذ الدوق يتهرب ، ومن جدير ، من تنفيذ الدعوات الموجهة إليه من باريس ، لتسريح جنوده . وحكان إصراره العنيد والسلى يسمح بأن يفسجوا إليه بعض الخلفيات . ولم يكن فى وسع مثل هذا الموقف أن يستمر إلى مالا نهاية . وبينما كانت فكرة إعلان الحرب على هولندا تقبلور ، شيئاً فشيئاً ، قرر الملك أن يعمل ضد هذا التهديد الذى كان فى وسعه ، من واقع اللوردين ، أن يؤثر على ميمنة الجيش الذى سينحرف صوب الشمال . وفتحت عملية الاحتلال المفاجيء لنالسى مرحلة جديدة لاحتلال الدوقيات ، سيكون لها تماماً نفس فترة الاحتلال السابقة ، أى ثمانية وعشرون عاماً (١٦٧٠ - ١٦٩٨) . وحين عرض الأمر على الدايت — إذ أن الدوقيات كانت من أراضى الامبراطورية — ؛ أظهر مرة جديدة عجزه عن إتخاذ أى موقف .

ومن بعيد ، تبدو الحرب التي سبق يومها لوى الرابع عشر ضد المولنديين ابتداء من عام ١٦٧٣ ، على أنها الأصعب فهماً من بين الحروب التي قرر المهنول إليها ، برغبته . وليس من السهل فهم الأسباب التي أثرت فيه في هذه الظروف ، إلا إذا ما أهدنا فكراً بحكويين طبيعة أوضاع — وكذلك طريقة تفكير — خاصة للغاية .

ولاشك في أن المنصر الرئيسى للنرح يتمثل في تلك المشاعر التي وجدت عند هذا الشعب الصغير ، والذي كان قد أثبت صلابه وحمة كبيرة ، في عام ١٦٦٨ ، من أجل وقف تقدم وحذف جيوش الملك المنتصرة ، وذلك بمونة إنجلترا والسويد . وكان هذا الشعب الصغير ، هذا الشعب من « المراهقة » وبعد أن تحرر من مدريد في القرن السابق ، قد منح نفسه دستوراً جمهورياً . وكان مجرد وجود جمهورية لأبناح كلفن Calvin ترحح المعتقدات الملكية والكاوليكية عند عدد كبير من الفرنسيين . فكانوا يتحدثون عنها بكل إحتقار ، كما كانوا قد تحدثوا باحتقار عن جمهورية إنجلترا في عهد « الحماية » . ولكنه كان هناك شيء آخر في تلك الفترة التي وصلنا إليها في هذا القرن . فلم يكن الأمر يمثل فقط مجرد إعطاء درس للمولنديين . بل إن لوى الرابع عشر قد وجد أنه من المصلحة العليا للدولة تحجيم دولة صغيرة وصلت إلى مثل هذه الدرجة من الثرور ، وبعد أن قامت نفسها بـإنجلترا ، سمحت لنفسها بأن تتحدى فرنسا .

وكانت العظمة الفارقة للجمهورية الأقاليم المتحدة — هذا النجم الجديد الذي كان قد ظهر فجأة في سماء أوروبا — قد وصل إلى قمة صعوده . وكانت عظمة من نوع معين ، ومن أصل إقتصادي بشكل أساسي ، ويشبه إلى حد بعيد عظمة الأراضي المنخفضة في القرن السابق — كانت أمستردام قد أخذت مكان أنفريس في كثير من وظائفها — ، ولكنها كانت تستند إلى إمبراطورية إستعمارية ظهر

نموها على أنه يمتشى تماماً مع تقلمس وتفتت إمبراطورية البرتغال . ولقد أخذ الهولنديون مكان البرتغال ، في كل مكان تقريباً ، وفي المحيط الهندي بنوع خاص ؛ وفي الشرق الأقصى بالذات ، لم يتركوا لهم سوى جوا Goa على ساحل هندستان ، ومكاو Macao على ساحل الصين . وأخذت شركة الهند الشرقية توزع أرباحاً على حملة الأسهم يتراوح بين ٧.٢٥ ٪ . وكانت تمثل رمز القوة التجارية الهولندية ، كما أن بورصة أمستردام ، والتي كانت توجد فيها أسهم الشركة ، كان من الممكن اعتبار أنها تتمتع القوة المالية الجمهورية .

وكان للمصرف ، أي البنك ، مؤسسة بلدية ، أنشئ في عام ١٦٠٩ . وكان مركزه الرئيسي في دار البلدية . وكان يقوم بكل عمليات التبادل ، تحت إشراف العمدة *Bourgmestre* وبجلسه . وكان لكل تاجر حساباً فيه . كما كانت كل التسويات التجارية تتم عن طريق أوراق على البنك . وكانت الأهمية الاستثنائية للعمليات التي تمر عن طريقه تجعل من بنك أمستردام أكبر مركز أعمال موجود في العالم . وكان يصح في كهوفه ودائع كل التجار الذين يتعاملون معه . وكان عروونه للمعدن هو أكثر وأكبر ما وجد حتى ذلك الوقت . وكان المنع التقليدي لتجارة للعادن النفيسة موجوداً في إسبانيا ؛ ولكنهم لم يطبقوه . وفي كل عام ، في الحريف ، كان أسطولاً يتكون من ثلاثين إلى خمسين سفينة ينقل من قانس إلى أمستردام شحنة من الفضة والذهب ، في شكل سبائك . ولذلك فإن هذا المصرف كان لديه دائماً مبالغ ضخمة ، تحت تصرفه . وكانت القروض متوفرة فيه دائماً وبأرباح بسيطة بالنسبة لذلك العصر ، من ٣ إلى ٤ ٪ . وفي كل أوروبا ، كانت أنظار رجال الأعمال مركزة دائماً على هولندا . وكانوا يقرؤون صحفها ، جريدة *Novelles de Leyde* ، وأنباء *Gazette de Hollande* ، ليستندوا إليها . وكانت أكثر صحفها إنتشاراً تكتب بالفرنسية ، فيمكنها بذلك أن تصل إلى عدد

أكبر من القراء . ومن كل مكان ، كانوا يستفسرون عن حالة سوق الذهب والفضة ،
أو عن سعر العملة ، إذ أن أكثر أنواع العملة تنوعاً كانت تستخدم هناك .

وهؤلاء المولنديون ، الذين كانوا قد « كسحوا البحار » ، لم يكونوا قد
أثروا فقط من حركة الوساطة التي جعلتهم على اتصال بكل بلاد أوروبا . بل كانت
لهم صناعات مزدهرة ، ومعظمها صناعات تجارية ، مثل تقطير السكر ، وكذلك
صناعة نسيج قديمة ، أصبحت تستخدم الآن ، وبنوع خاص ، الحرير الذي يأتي
من الصين . وكانت لدور صناعتهم البحرية سمعة عالمية : وكان كولبير Colbert
قد إستخدمها ، مرات عديدة ، من أجل أن يحصل منها على تجارين للعمل في
دور صناعة سفن الملك . وكان الإنجليز ، مثلهم في ذلك مثل الفرنسيين ، يبنون
في هولندا جزءاً من سفنهم اللازمة للملاحة في أعالي البحار . وأمر في ، أخيراً ،
أن بطرس الأكبر ، في السنوات الأخيرة من القرن ، سوف يحضر إلى ساردام ،
لكي يستوحى من طرق الانشاءات البحرية .

وبين القطاعات المختلفة للتجارة البحرية ، التي أصبح المولنديون بالفعل فيها
بدون منافسين ، علينا أن نفرّد مكاناً خاصاً لقطاع بحر البلطيق ، ذلك القطاع
الذي كانوا قد بدأوا فيه . فلقد إنتهى بهم الأمر إلى إحتلال مكان جامعة الهانسا ،
والتي كانت أنشطتها قد تدهورت إلى درجة حل هذه الرابطة في عام ١٦٦٩ .
وكانت السفن التي تعبر إلى ، أو من ، بحر البلطيق ، تحت العلم الهولندي . هي
أكثر السفن عدداً ، ومنذ وقت طويل ؛ وكانت تقوم في غالبيتها بمبيعات تبادل
بين بلاد غرب أوروبا وجنوبها ، وبين بلاد شمال شرق أوروبا . وكان منافسهم
الوحيدون ، وعلى مستوى ، هم الإنجليز ، والذين كانت موانئهم مغلقة تقريباً في
وجههم منذ إصدار قانون الملاحة ، والذين كانوا ، نتيجة لذلك ، قد قاموا ، في
وقت إعادة النظام ، بالإلتجاء إلى الموانئ الهولندية . ومنذ عام ١٦٤٨ ، ومنذ أن

قامت الجمهورية بعقد الصلح مع إسبانيا ، إستمداد الهولنديون ، في تجارة البحر المتوسط ، تلك المكانة التي كانوا قد حصلوا عليها هناك أثناء مدة السنوات الإثني عشر ، أي المكانة الأولى : فكانوا يأتون بمشجرات الشال ، ومنتجات بلاد المحيط الهندي ، ويعودون بمشجرات الشرق الأوسط . وكانوا حتى قد خلقوا لنفسهم مكاناً على سواحل فرنسا المطلة على المحيط الأطلسي ، نتيجة لهباتهم التي احتفظوا بها مع أبناء مذهبهم الديني (البروتستانت) في بوانو وفي سانتونج . ونفهم من ذلك أن الرأي العام الفرنسي - أو على الأقل جزء من ذلك الرأي العام - قد بدأ في التقلق . ومنذ عام ١٦٥٩ ، وتحث وزارة فوكيه Fouquet ، أخذ أول إجراء للحماية : ضريبة ٤ سو عن كل طن ، تدفعها كل سفينة أجنبية تقيم في موانئ المملكة ، وكانت هذه الضريبة موجبة بنوع خاص ضد الهولنديين .

وهكذا نجد أن ضرورة وضع سياسة دفاعية ضد هولندا كانت قد ظهرت قبل الحكم الشخصي للوي الرابع عشر . وسوف يستمر كولبير في تطبيقها ، وبطريقة تلقائية . ولن يكف بحرب في نطاق التعريفات الجمركية ، وهي التي بدأت في عام ١٦٦٤ . وسيتمشى به الأمر إلى أن ينصح بتنفيذ عملية حربية ؛ لم يكن هو ، ولا سيده يتنبأ بأنها ومضاعفاتها .

وكان كولبير يؤمن برأى - كان يشاركه فيه الكثيرون من معاصريه - يقول بأن حجم تجارة العالم ، في فترة معينة ، لم يكن قابلاً للزيادة ، أو على الأقل أن زيادته لن تحدث إلا ببطء كبير . فإذا كانت الدولة ترغب في أن تنشئ ، وتزيد من طاقتها الاقتصادية والمالية ، فعليها إذن أن تحصل من الهولنديين على جزء من التجارة التي تمارسها . ومن بين عشرين ألب سفينة تطلع في البحار ، اعتقدوا أن خمسة عشر أو ستة عشر ألفاً من بينها كانت هولندية : وكان تقديرًا مبالغاً فيه ، إلى درجة أنهم قد أنقصوه في وقتنا الحاضر إلى ثلاثة آلاف وخمسمائة .

أو أربعة آلاف سفينة ، غير سفن الصيد . وتخرج من ذلك نتيجة تتمثل في حماية الضرورة بالنسبة لفرنسا ، لكي تتزعج من الدولة الهولندية ذلك التفوق الذي كانت قد أدت لكي تمارسه حتى في البحار الفرنسية .

وكانت الإجراءات الأولى المستوحاة من ذلك — مثل التعريفة الجمركية لعام ١٦٦٤ — ذات صفة دفاعية . وكانت عبارة عن إظهار لإتجاه حماية مدعم ، وموجه في نفس الوقت ضد التجارة البريطانية ، وضد التجارة الهولندية . وبالنسبة لمواد كثيرة ، كانت الضرائب تصل إلى ١٠٠٪ . وقدم الهولنديون الشكاوى ، ولكن في لهجة معتدلة . ولكن الأمر اختلف عن ذلك في عام ١٦٦٧ ، وحين جاءت تعريف جمركية جديدة ، وواضحة المنع ، لكي تعمل على تعريف عام ١٦٦٤ . وكانوا في فترة الحرب الإنجليزية الهولندية ، والتي وجد فيها لوى الرابع عشر حليفاً للأقاليم المتحدة . واحتجى حكومة الأقاليم المتحدة ، مع قلة تقدير ، ولوحى بإجراءات انتقامية . ثم قامت ، بعد حرب وأسبغية النسب ، وصلاح إكس لاشايل ، بالدخول في مفاوضات . ولكنها لم تجد لدى الطرف الآخر إلا سوء النية : فكان كولبير مصمماً على التمسك ، ولم يكن يعتقد في جدية التهديد القابل بقطعة بحارية . ومع ذلك ، ففي ٢ يناير ١٦٧١ ، أعلن مجلس الأقاليم المتحدة ، وبعد تردد طويل ، تلك الإجراءات التي تراجع عن تطبيقها لمدة أعوام : فالكحول الفرنسي *eaux-de-vie* والذي كان جمهور البحارة يستهلكون الكثير منه ، بنوع خاص ، منع منعاً باتاً ، كما زيدت رسوم الدخول زيادة كبيرة على المتسوجات . وكان رد الفعل الفرنسي مباشراً وسرياً : فقرر المجلس ، يوم ٧ يناير ، ومن بين إجراءات أخرى ، رفع كبير في الرسوم التي تدفع على دخول الرنجة و « الترابل » . والتي تصل على سفن هولندية :

ومنذ ذلك الوقت ، أصبح مناخ الحرب واضحاً .

وكان كولبير يدفع الملك إلى الدخول في هذه الحرب ، وكتب إليه : « من المستحيل أن يقدر صاحب الجلالة على المقاساة لوقت طويل من تمهيد وإمالة هذه الأمة » . ولين ، من الضروري أن نضيف إلى هذه الأسباب المتعددة التي دفعت إلى قبول هذه الفكرة شعور الملك تجاه هذه الأمة التي كانت تحترم الحرية في التعبير إلى حد بعيد ، حتى أن عدداً من المعارضين الفرنسيين للنظام المطلق الحكم وجدوا فيها أماكن يطبعون فيها ما كانوا يكتبون . ولا شك في أن كل هذه المقاسات الفاضحة لم تكن ترضى كلها على لوى الرابع عشر : ولكنه كان يعرف على الأقل وجودها ، وأصلها .

٣ - الاستعدادات الدبلوماسية ، والعمليات الحربية :

ولقد بدأت الاستعدادات الدبلوماسية والعسكرية منذ عام ١٦٧٠ . واستمرت طوال العام التالي . وكانت المسألة الأكثر صعوبة هي تلك التي يطرحها الموقف الممكن لانهيلا . ففي شهر يناير ١٦٧٠ ، حصل مجلس الأقاليم المتحدة ، من لندن ومن إستكهلم ، على تجديد التحالف الثلاثي ، الذي أنشئ في عام ١٦٦٨ . فكان في وسع هولندا أن تشعر بالحماية من هذه الناحية ، خاصة وأن مجلس العموم كان يمتنع على التعرّيف الجرمية الجديدة لعام ١٦٦٧ ، وكان يطالب بإعادة النظر في الاتفاقيات التجارية مع فرنسا . ولكن شارل الثاني كان قد تعود وتجاوزات ، لوى الرابع عشر ، ولكي يظهر نفسه بأنه أكثر هيبة ، أبلغ السفير الفرنسي ، في أثناء عام ١٦٦٩ ، أنه كان ينوي التحول إلى المذهب الكاثوليكي . وكان يفكر في نفس الوقت في عقد تحالف سياسي . وإن كان ذلك مشروطاً بأن يسبقه عقد معاهدة التجارة ، التي كانت الأمة تطالب بها . وبدأوا في التحدث عن الرسوم الجرمية ، بين لندن وباريس ، ولكن بدون نجاح كبير ، خاصة وأن وجهات النظر بين الجانبين كانت متعارضة . وفي أثناء ذلك الوقت ، تم التوصل إلى اتفاق ،

في التفاق السياسي . وفي أثناء صيف ١٦٧٠ ، كتب لوى الرابع عشر زوجة أخيه ،
دوق أورليان ، وهى هنرييت *Henriette d'Angleterre* ، بالتفاهم مع أخيها ،
ملك إنجلترا . وهذا التقاء في دوفر نتج عنه عقد معاهدة سرية للغاية (أول يونيو
١٦٧٠) ، وقع عليها ، من الجانب الانجليزى ، ملك إنجلترا وحده . وبعد ذلك
تم التفاوض وعقدت معاهدة أخرى ، لكن تعرض على البرلمان ، وذلك في باريس ،
وبواسطة وزراء شارل الثانى (٥ فبراير ١٦٧١) : فأصبح على إنجلترا أن تعاون
فرنسا ضد الأقاليم المتحدة ، على البر وعلى البحر في نفس الوقت . وأمام المنافس
المولندى ، لم تمط عمليات المنح الانجليزى السلع ، والموجبة ضد فرنسا ، نتيجة
لها قيمتها ، في هذه المرة .

وكان هذا هو قرار وفاة التحالف الثلاثى في لاهاي . وتم التفاهم مع السويد
ببورها ، مع دفع مبالغ بكرم كبير ، فمادت ، وإن كان ذلك بعد تردد ، إلى
تحالفها التقليدى مع فرنسا . وكان هذا التحالف قد ظل سليماً منذ معاهدات
وستفاليا : فكان قد تجدد في عام ١٦٥١ ، وآخر مرة في ١٩ سبتمبر ١٦٦١ . وفي
أثناء ذلك الوقت ، كانت حكومة إستكهلم قد تصدت مرتين بالدفاع عن الأراضي
المنخفضة ، وخاصة بمعاهدة ٣١ يناير ١٦٧٠ . ولم يتم الاتفاق مع السويد إلا في
ال لحظة الأخيرة ، وفي الوقت الذى كانت العمليات فيه وشيكة الوقوع : تصدت
شارل الحادى عشر بأن يمارض بقوة السلاح من يحاول ، من بين الأمراء الألمان ،
أن يقوم بمحاولة المولنديين (١٤ أبريل ١٦٧٢) .

أما من ناحية النمسا ، تلك الدولة الكاثوليكية الكبرى ، فلم يكن هناك شيء
يخشى منه . وكانت العلاقات قد عادت ودية ، بين فينا وباريس ، منذ أن إتفق
الملك والامبراطور ، وكان كل منهما متزوجاً من أميرة إسبانية ، بالنسبة لامكانية
فتح مسألة الوراثة الاسبانية في أى وقت متوقع ، وبمعاهدة سرية للغاية تم التوقيع

عليها في فيينا في ٢٠ يناير ١٦٦٨ ، على شروط التقسيم الودي . وكان الجزء الأكبر منها قد خصص للفرع النمساوي لآل هابسبورج ، فيأخذ ، أويرث ، إسبانيا ، ومستعمراتها ، وجزءاً من ممتلكاتها الإيطالية ، وذلك في الوقت الذي تحصل فيه فرنسا على الأراضي المنخفضة ، وفرائش كونغب ، ومملكة نابولي وصقلية . وفي اللحظة الأخيرة ، وفي عام ١٦٧١ ، بدأ موقف الامبراطور ليوبولد Leopold ، رغم كل شيء ، على أنه غير مضمون ، فاضعروا في باريس بالحاجة إلى ربطه بمعاهدة حيايد (أول نوفمبر ١٦٧١) ، وكانت سرية كذلك .

وكانت مسألة التحالفات تمثل أهمية خاصة في منطقة حوض نهر الراين . خاصة وأن جمهورية الأقاليم المتحدة لم تكن لها حدود مشتركة مع المملكة . وكان أقصر الطرق من أجل غزو منطقة حوض نهر الراين ، يمر في نفس الوقت جنوب الأراضي المنخفضة . وإمارة لييج ، المستقلة عن الأراضي المنخفضة ، والتي تشكل بروزا داخل أراغنيا ، وكان صاحب السيادة الزمنية فيها هو رئيس أساقفة كولونيا المنتخب . ولم يكن القانون الدولي في تلك الفترة قد تخطى عن دحق العبور . ولذلك فإنه كان على الجيش الرئيسي أن يمر عن طريقها ، حتى يصل إلى إكس لاشايل ، وإلى حدود هولندا . وستقوم إحدى الوحدات ، في نفس الوقت ، بحماية ميمنته ، وتسير ، ابتداء من ميتر ، مع ضفاف الموزيل ، ثم مع ضفاف الراين . ولذلك فإنه كان من الضروري التفاوض مع الأمراء المنتخبين في حوض الراين . ولكن هذه المفاوضات جاءت بخيبة للآمال . واعتقدوا في أنه من الممكن الاعتماد على منتخب البلاينات ، وهو عميل سابق للسياسة الفرنسية ، وكانت إبنته ستزوج ، في شهر يناير ١٦٧١ . دوق أورليان ، الذي توفيت زوجته ، هنرييت الانجليزية . ولكن هذه الظروف المؤقتة قللت من حرارة هذه الصداقة إلى حد ما ، وهجروا حتى عن أن يحصلوا منه على وعد بالحيايد . وحدث نفس الشيء

مع رؤساء الأساقفة المنتخبين في نويش وفن مايس . وبعد أن كانوا قد تعاونوا مع فرنسا في رابطة الراين ، وبعد أن كانوا قد أسهبوا في عملية تقاربها مع النمسا ، لبعدوا عنها شيئاً فشيئاً ، ورفضوا الدخول في أية تمهيدات ، ووصل الأمر إلى ضرورة معارضة إنفاقهم حتى يمنوهم من إتخاذ موقف معادى . وكان رئيس أساقفة كولونيا وحده - وهو الأكثر أهمية من بينهم جميعاً لأنه كان جلياً مباشراً للأقاليم المتحدة ، وكان يسيطر على ليج - هو الذى فتح حدوده ووافق على عقد معاهدة تحالف : وكان على بعض جنوده حتى أن انضموا إلى جنود الملك أثناء عملية العبور :

أما في خارج منطقة الراين ، فنجد أن منتخب بافاريا ، قد انضم للجانب الفرنسى ، فوافق في ١٧ فبراير ١٦٧٠ على عقد معاهدة تحالف دفاعى ، كانت مادتها الأساسية تمثل وعداً بواجبته من ولى ضد فرنسا . وبمادة سرية تمهد بأن يصوت في صالح لوى الرابع عشر في الانتخابات الامبراطورية المقبلة ، بينما يحتفظ له لوى الرابع عشر ، في حالة وصوله إلى الامبراطورية ، وكعويض ، بلقب ملك الرومان . ونتيجة لمنح معونات جديدة ، تدعم هذا الحلف مرة أخرى ، في عام ١٦٧٤ .

وكان منتخب براندنبورج ، هو الأكثر إعتداداً ، من بين كل المنتخبين ، على قوة عسكرية هامة . وكانت معرفته مرغوب فيها ، خاصة وأنه كان يمتلك دوقية كليف وجولير ، المجاورتين للأراضي الهولندية . وفي ٣١ ديسمبر ١٦٦٩ ، وافق على أن يرتبط مع ملك فرنسا لمدة عشر سنوات ، ويضمن له إمتلاك المناطق الجديدة التى ينزوها في الأراضي المنخفضة . وكان لا يشك فيما كان يحدث ذلك أن الإعتداء على الأقاليم المتحدة وضعه في موقف دقيق : فكان الأمر يتعلق هذه المرة بدولة بروتسناقية ورغم المجهودات التى بذلها ممثلو الملك ، أعطى الهولنديون ،

وبمعامدة ، وقت بدء العمليات ، وعداً في ٦ مايو ١٦٧٢ ، بموتهم عسكرياً .
وهكذا نجد أن الدبلوماسية الفرنسية لم تنجح في عزل الأقاليم المتحدة . وحتى
أعدائهم القدماء ، الإسبان ، وعدوم بعدم معونة ملك فرنسا .
وأعلن الفرنسيون والانجليز الحرب في الأيام الأخيرة من شهر مارس .
وأعطتهم العمليات الأولى ، وهي تلك التي وقعت على البحر . خيبة أمل عظيمة .
وكانت أماطيلها راسية في يارموت ، قرب سولباي حينما تعرضت لهجوم رويتر
(٧ يونيو ١٦٧٢) . وبلغت الخسائر حداً فرض انتخل من مشروع النزول على
سواحل العدو . ولم يكن أحد يتوقع أن الهولنديين ، الذين ظهروا تفوق الانجليز عليهم
في الحربين اللتين كانوا قد إشتراكوا فيها ضد بعضهم في مدة عشرين عاماً ، سيظهرون
مثل هذا التفوق البحري . وكان نجاحهم الأول ، في عام ١٦٧٢ ، حداً له نتائج
خطيرة . فند ذلك الوقت ، أصبح عليهم أن يتأفخوا عن أنفسهم على البر فقط .
ولقد إنقسم الجيش الفرنسي الرئيسي إلى فيلقين رئيسيين ، تحت قيادة كل من
تورين وكورنديه ، وكان على الفيلق الأول أن يسير من شارلوا ، وإلى جوار
السايمر ، ثم الضفة اليسرى للميز ، بينما كان على الفيلق الثاني أن يسير مع الضفة
اليمنى . وأخذ لذلك نفسه أمر القيادة العامة . ولذلك فإن المجد سوف ينسب إليه
في أنه هو الذي إنفتحم الراين ، يوم ١٢ يونيو ، في مكان عبور سهل بنوع خاص ،
عند غناضة ، مبنى المحرك ، Zollhaus . وتم بعد ذلك الإستيلاء على مجموعة من
المواقع ، من الهولنديين ، بما في ذلك أوترخت وليمبيج . وكان الفرنسيون قد
شعروا بأنهم قد أصبحوا في قلب هولندا . حين إلتجأ الهولنديون إلى وسيلة بطولية ،
وهي فتح الأهوسة ، أي إغراق البلاد تماماً . فاضطر النزاء إلى التوقف في الحال .
وكانت هولندا قد نجحت بقوات تقل بكثير عن قوات النزاء : فقل البر ، وأمام
١٢٠٠٠٠ تحت قيادة تورين وكورنديه ، لم يكن في وسع الأقاليم المتحدة أن تمجد

سوى ٣٧.٠٠٠ تقريباً . وأدى ذلك إلى مضاعفة التأثير ، وإلى أقصى حد ، على أوردبا . وأظهر لوى الرابع عشر حقيقته ، بإحتلاله لمدينة أورانج ، التى كانت ملكاً شخصياً لخصمه ، « صاحب الدولة » . وتم تدمير القصر فى الحال .

ولقد عرف الملك ، عند نهاية عام ١٦٧٣ ، أوتافناً حرجية . فى الوقت الذى إنشغل فيه بمحاصرة مايس تريشت ، قام خصمه ، ويليام أورانج ، وبحركة بطولية صير مادية ، بالهجوم السريع على جانب الفريسيين ، وتقريبا من خلفهم ، وهدد موقع شارلوا ، أحد المواقع التى كانت فرنسا قد حصلت عليها فى عام ١٦٦٨ . ومع ذلك ، فإن قواته كانت غير كافية ، الأمر الذى اضطره إلى رفع الحصار بعد بضعة أيام . ولكن هذا الحادث الخطير أجبر الملك على أن يفتح عينيه ، وعلى أن يفهم عدم جدوى الآمال التى إعتقد بها فى التفوق الساحق لقواته . ولذلك فإنه قبل ، وبعد وقت قصير ، ومع وساطة السويد ، أن تفتح مؤتمرات فى كولونيا من أجل الصلح . ومن ناحية أخرى ، لم يكن قد إستعد بعد لكى يترافع عن مطالبه لعام ١٦٧٣ ، ولم يعط مؤتمر كولونيا ، الذى إفتتح فى شهر يونيو ، أية نتيجة . وفى أثناء ذلك الوقت ، نجحت دبلوماسية هولندا ، وعن طريق التفاوض المباشر مع مدريد ، فى أن تحصل على المعونة العسكرية الإسبانية (٣٠ أبريل ١٦٧٣) . وفى نفس اليوم ، وافق دابيت الإمبراطورية على رغبة ليوبولد — الذى اعتبر إتفاقيات عام ١٦٦٨ مع لوى الرابع عشر على أنها ملغاة — ووافق على الانضمام إلى ذلك للتكتل الذى كان تحت التكوين . وقبل نهاية العام ، كان أمر الجلاء من هولندا قد تقرر فى باريس .

٤ - التحول الدبلوماسى ، وإسراع ميدان العمليات :

كانت الدلالة الأولى للتحول الدبلوماسى الذى سيميز عام ١٦٧٣ هذا ، قد أعطاهام منتخب براندنبورج ، فردريك ويليام الأول ، وهو الشخص الذى نعتة

الاورغون الألمان بأنه المنتخب العظيم. وكان حائداً على السويديين لأنهم قد نازحوه يومهرانيا ، ولأنهم منحوا أنفسهم بمعاملات عام ١٦٤٨ التعيب الأكبر . ولذلك فإنه وافق من حيث المبدأ على التحالف مع أعداء السويد . وكان قد إضطر في أول الأمر إلى الإنتظار نتيجة لإنفاقية لوى الرابع عشر مع السويد . ولكنه لم يتمكن من أن يعرف مقدماً النيات الدرواية الملك تجاه الأقاليم المتحدة . ومع ذلك ، فقد كان يحتفظ باستلطاف خاص تجاه الهولنديين ، أبناء المذهب الهينى الذى يدين به . هذا علاوة على أنه كان قد تزوج من أسرة أورانيج ، وكان ويليام الثالث ، صاحب الهولة ، ابناً لأخ زوجته . ورغم المعاملات التى كانت تربطه بفرنسا — وكان من بينها من يعترف بالمذهب الفرنسى ويقدره — فإنه كان قد وقع مع الأقاليم المتحدة على تعهدات بالمعونة المتبادلة . ولذلك فإنه وجد نفسه أمام مفاجأة ، مع الحرب الفرنسية الهولندية . وما أن بدأت العمليات العسكرية حتى قرر التراجع ؛ ولكن يسهل عملية تغيير موقفه ، التجأ إلى فينا : فتجس في ٢٩ يونيو ١٦٧٢ فى أن يحصل على تحالف مع الإمبراطور من أجل إعطاء معونة مريعة الهولنديين . والواقع أن ليو بولد كان قد أظهر بعض التردد وكان يخشى من أن يقضى نهائياً على نتائج إتفاقياته السابقة مع لوى الرابع عشر ، ففسكر في ضرورة الإقتصار على مجرد مظاهرة عسكرية . ولكنه تخلى عن هذا التردد حين أحله دايت الإمبراطورية ، الذى أثر فيه منتخب براندبورج ، بموافقته . ومع ذلك فقد اشتكى فردريك وويليام من سوء نيته في أثناء العمليات الأولى التى قامت بها جيوشها سوياً ضد توروين ، والتى لم تعط نتيجة . ومع ذلك ، فإنه سرعان ما يدخل في مفاوضات مع الفرنسيين ، ويوافق على معاهدة فوسيم (٢١ يونيو ١٦٧٣) . ويمكننا أن نصيف إلى نقض الحياذ ، عدم تنفيذ الالتزامات ، وبخاصة في عام ١٦٧٤ . وفي المقام الأول ، كان هناك الموقف الانجليزى ، والذي كانت له

تتائج ضخمة . وكان الرأي العام الانجليزي لا يفهم هذه الحرب ، ولقي لم ير فيها سوى مكاسب ممكنة لفرنسا وحدها ، وقام البرلمان ، الذي أظهر إستقاره للوزائم التي وقفت على البحر ، بإجبار الملك على التراجع عن سياسته الشخصية ، وعلى عقد الصلح مع الأقاليم المتحدة (١٩ فبراير) . وبعد خروج إنجلترا بقليل ، جاءت عملية خروج منتخب كولونيا ، الذي رشح التهديدات الإمبراطورية . وأخذت ألمانيا كلها في التحرك وفي شهر مايو ، قام الداييت بإعلان الحرب باسم الإمبراطورية . وقام منتخب براندنبورج مرة جديدة بعملية تغيير مواجهة ، وفي اتفاق كامل مع الإمبراطور ليوبولد (معاهدة كيلن في أول يوليو) .

ومكنا نجد أن حرب هولندا قد تحولت إذن إلى حرب لفرنسا ضد أعدائها التقليديين ، آل هابسبورج في النمسا وفي إسبانيا ، وإنضمت إليها إنجلترا آل ستيوارت . ومن بين الأمراء الألمان ، كان منتخب بافاريا هو الوحيد الذي رفض ارسال قوات إلى جيش الإمبراطور ، وطل غلصاً للوى الرابع عشر . وأخذت ميادين العمليات في التغير : فمن ذلك الوقت ، لم تعد مجرد منطقة حدود الأراضي المنخفضة فقط ، ولكن كذلك منطقة حدود فرانك كونتيه ، ثم ضفاف نهر الراين . ولما كان منتخب بلاتين هو أول من حمل السلاح ، فلقد صدرت الأوامر بتخريب البلاتينات : وكانت تخريب عام ١٦٨٨ - ١٦٨٩ يفوق في قطاعته عمليات تخريب عام ١٦٧٤ ، وإن كان الألمان لم يكونوا قد تسوها بعد .

ولا يحفظ تاريخ العمليات العسكرية الكبيرة ، في أثناء السنوات الأربع التالية ، إلا بعملية غزو فرانك كونتيه - الثانية - في عام ١٦٧٤ ، وبمهمة تورين في الأرناس . ولقد اضطر الفرنسيون إلى إخلاء الأرناس عن طريق الشمال ، تحت ضغط قوات الإمبراطورية وقوات براندنبورج ، ولكنهم عادوا ودخلوها من الجنوب ، وبعد أن ساروا في حذاء الفوج ، إلى المغرب ، وذلك في الأيام

الأول من عام ١٦٧٤ . وحرروا الإقليم بنفس قوة الدفع ، وأنزلوا بالحصوم
فى تركهاهم هزيمة لم يكن الحصوم يتوقعونها فى أثناء فصل الشتاء ، ويمثل هذه
الجرأة .

ومنذ ذلك الوقت ، لم تعد حدود المملكة مهددة بشكل واضح . وكان
الإمبراطور مضطراً إلى الاحتفاظ بالجزء الأكبر من قواته من أجل مواجهة
بعض ثورات المجد . وكان المنتخب الكبير يجد نفسه فى موقف مشابه ، وأضحى
أكثر خطورة وصعوبة ، إذ أنه كان عليه أن يواجه السويديين . وكان الملك
شارل الحادى عشر قد وضع لطلبات لوى الرابع عشر ، وبنوع خاص لنداء
الذهب الفرنسى ، فقرر أن يتدخل فى بوميرانيا . وإن يتأخر كثيرا فى أن بأسف
لذلك . إذ أن فردريك ويليام لن يحصل على مجرد معونة الهولنديين وحدهم ،
بل وكذلك معونة الدانمركيين وتعرض الجيش المهاجم لهزيمة كاملة فى فريبلن
(٢٨ يونيو ١٦٧٥) ، وذلك فى الوقت الذى قام فيه الدانمركيون بمهاجمة
جارم ، دوق هولشتاين ، والذى كان عملاً لشارل الحادى عشر ، ونهبوا أملاكه .

أما الحرب البحرية فكان ميدانها عسوراً ، وكما كان عليه الحال فى عام ١٦٦٨ ،
فى بحر المانش والمناطق القريبة منه . ولكنها أخذت فى الإمتداد والإنساع إلى
مناطق أخرى ، وخاصة على طريق الهند الشرقية ، طريق التوابل ، والذى كان له
تأثيراً على الخيال يشابه الإنبطاب السابق إلى المعادن النفيسة . ومنذ أن كان التراجع
البرتغالى قد تأكد ، أصبح الهولنديون والإمجليز هما الذين يقتسمون - ويتخاصمون
عصبى - المواقع الرئيسية فيه . أما فى فرنسا ، فإنهم كانوا لا يزالون فى مرحلة
تحسس مواقع الأقدام . وكانت سياسة التوسع ، ورغم حصولها على تشجيعات
من ريشيليو ، لم تحصل إلا على نتائج قليلة القيمة . وحصلت مع كرويه على دفعة
قوية . وبما سجل كرويه على تكليف من الملك ، فى عام ١٦٦٢ ، بالإهتمام بكل

شئون البحر، أظهره في التنفيذ، وأنشأ على التوالى، وعلى طريقة جيرانه المولنديين والإنجليز، شركتين كبيرتين بالاسهم، واحدة الهند الغربية، والثانية الهند الشرقية. ونتيجة لجهوده، ونتيجة للدعاية التي أقامها، حصلت هذه الشركات الجديدة على رؤوس أموال تفوق رؤوس أموال الشركات التي أنشئت في عصر ريشليو؛ وسوف تعيش هذه الشركات لفترة أطول، وبخاصة الشركة الثانية، والتي سرعان ما انتشأ لها هند فرانسية. وكان ميناء رسو سفنها، الذى أنشئ في عام ١٦٦٤ تحت اسم بورلوى، سيصبح سريعاً، بالنسبة للعامة هو لوريان L'Orient، ثم Lorient. وتؤكد التفوق المولندى من واقع أن أول مدير للشركة فرانسوا كارون، كان من أصل بلجيكي، وكانت قد نقلت من الشركة الهولندية، التي كان قد أقام في خدمتها، ولادة طويّة، في اليابان، ثم في بنافيا.

وكانت البداية صعبة. ففي أثناء سنوات عديدة، إمتنعت الشركة، التي أخذت في مدغشقر ممتلكات شركة الشرق، عن القيام بعملية لنزول الجزيرة، والعمل على توطين الفرنسيين فيها، وإنشاء مستعمرة حقيقية. ثم تخلت عنها في عام ١٦٦٩. وفي ذلك الوقت تحول رسو السفن الداعية إلى الشرق الأقصى من فور دوغان إلى جزيرة البوربون. التي كانت قد أصبحت من بين الممتلكات الفرنسية في نفس فترة ضم مدغشقر. ثم اضطروا لاختلافها بدورها، بعد بضعة أعوام.

ولكن يتصلوا بسوق الهند، قاموا بإنشاء أول مركز تجارى Comptoir في عام ١٦٦٨ في سودات، التي كانت مركزاً للتجارة في منتجات الهند، والتي كان الانجليز والهولنديون مقيمين فيها جنباً إلى جنب، وإلى الجنوب أكثر من ذلك، أصبحت المراكز التجارية للصفحة تنتشر، في السنوات التالية، على طول ساحل

ملبار . وبعد ذلك ، تم إختيار مازولياتام في عام ١٦٧٠ ، على ساحل كروماندل ، وهنا أيضاً ، رغم وجود الهولنديين . وكانوا يمارسون هناك تجارة التصدير بشكل أساسي . وكان القطن والمنسوجات القطنية تحتل المكان الأول فيها . وعرفت المنسوجات المطبوعة رواجاً وإدهاشاً في الغرب : فنافست ، عند السيدات ، المنسوجات الحريرية . ولما كان الهنود يفترون إحتياجات كبيرة ، فإن الواردات كانت محصورة في مواد قليلة ، مثل الأصواف بنوع خامس ، والأدوات الحديدية .

وهكذا نجد أن الفرنسيين ، الذين أرسلهم كارون ، قد إستولوا على مازولياتام ، وأنقروا فيها . ولكن الهولنديين قاموا بمحاصرتهم ، فاضطروا إلى الخروج منها ، بعد أن قاموا بالدفاع عنها ، وذلك في عام ١٦٧٤ . ووقعت أحداث من نفس النوع في جزيرة سيلان . وكانت الشركة قد حصلت من السيد الخلى على تصريح بالإقامة في خليج تريكال : فاستول الهولنديون على المركز منذ السنة الأولى للحرب . وتمت ضغط القوات الوطنية ، وبتهريض من لاهاي ، كان من الضرورى إخلاء مازولياتام كذلك . على العكس من ذلك ، نجد أن أحد المراكز التجارية قد أنشئ في عام ١٦٧٢ في بوند شيرى ، وبموافقة سيد بيجايور ، والذي كان عدواً لسلطان جوكوند . وفي هذه المرة ، ستكون المنشأة لوقت طويل . ولم يتواجه الفرنسيون والهولنديون في البحر إلا في موقعة وقعت في خليج سانت توما . وحين قامت معاهدة نيميج بإنهاء العمليات الحربية في أوروبا ، لم تنته من شيء في أوضاع كل من الدولتين في المحيط الهندي ؛ حتى أنها لم تشغل على أى ذكر لمنشآت الهند .

وكان دخول إسبانيا إلى الحرب ، في عام ١٦٧٤ ، يؤدى إلى إشغال نهجان هذه الحرب في مناطق بحرية أخرى : بحر الأنتيل ؛ وحيث ستعرف القرصنة فيه

إزدماراً جديدة لها ؛ والبحر المتوسط . ولم يكن رويتر قد حصل في بحر اللانش وعلى ساحل تكمسل إلا على نجاح دفاعي . أما فيما عدا ذلك ، فإن الانجليز كانوا سرّيصين دائماً على تعايش مواجهة القوة . وحينما إنسحبوا ، بمساعدة ١٩ فبراير ١٦٧٤ مع الأقاليم المتحدة ، من الحرب ، شعر الأدميرال الهولندي بحرية أكثر في حركاته . ومع مجيء الصيف ، أفلح إلى بحر الأنتيل ، وذلك في أوقات الذي قام فيه زميله ترومب Tromp بتوجيه محاولاته - التي سوف تفشل - صوب السواحل الفرنسية الواقعة على المحيط ، الأولى ضد بل إيل ، والثانية أمام بايون .

وفي إفريقية ، كان الساحل الغربي ، ومنذ سنوات ، مسرحاً لمناكسات عنيفة بين الفرنسيين والهولنديين ؛ وكان الآخرون قد أقاموا في جزيرة أرجين الصغيرة ، والتي كانت مركزاً رئيسياً لتجارة الصمغ العربي . أما الفرنسيون فكانوا يفضلون المتاجرة مع مصب نهر السنغال ، والتي كانوا قد أنشئوا فيها قلعة سان لوى ، في عام ١٦٥٩ . وقاموا منذ عام ١٦٦٦ بطرد الهولنديين من أرجين . وبعد عشر سنوات ، قام الأدميرال ديستري d'Estrees بالإستيلاء على جزيرة جوريه ، والتي كانت إحدى الممتلكات البرتغالية السابقة ، ثم انتقلت إلى الهولنديين في عام ١٥٨٨ .

وحين تبع لوى الرابع عشر المثل الذي أعطاه موران ، الذي كان قد فكر في عام ١٦٤٧ في غزو نابول ، وصل من وقت مبكر إلى فكرة أخذ صقلية من الإسبانيين . وكانت الفرصة مثيرة للإغراء . فكان آمالي مسينا ، الذين أثارهم تضخم الصعوبات فيها يتعلق بالاراد الغذائية ، قد قاوا بالثورة . وقاموا بطرد ممثل للملك ، ثم طلبوا معونة فرنسا . ولكن لوى الرابع عشر لم يتسرع . فكان يخشى عما كان يسببه سوء طبيعة أبناء صقلية - ولتقلّ عديم ثباتهم على موقف.

فأكفى في أول الأمر بتموين مينا ، التي أخذ الإسبان في الاستعداد لمحاصرتها . وبعد المواد الغذائية ، والذخائر ، أقطع الجنود على السفن ، من مرسيلا . في بداية عام ١٦٧٥ . وسمحت معركة بحرية قصيرة المدى - هي معركة استرمبولي - لقائد الحملة ، دوق فيفون Vivonne . بأن يقتحم مضيق مينا ، وينزل رجاله إلى صقلية . ولقد استمرت العمليات بعد ذلك ، على البر وعلى البحر ، خلال ثلاث سنوات . وفي عام ١٦٧٦ - وهذه العملية القائمة بناتها تعتبر علامة على التفورات التي حدثت في الغرب منذ ربيع قرن - وصلت قوات هولندية لكي تنضم إلى الجيش البحري الإسباني وكانت بقيادة روبر ، الذي أتى من الأنتيل ، التي لم يحصل فيها إلا على الفصل . وفي موقعة جزر ليباري ، تمكن ديكن Duquesne من ردهم . وبعد أن انضموا إلى القوات الإسبانية ، دخلوا إلى معركة جديدة قرب سكانان ، ونزلت بهم هزيمة جديدة : أما روبر الذي أصابه جرح خطير في أثناء المعركة ، فإنه مات بعد وقت قصير في سيراكوز . وجاء نجاح ثان للفرنسيين قرب بالرمو على القوات الإسبانية الهولندية لكي يز كذلك عام ١٦٧٦ . ولذلك فإن أساطيل الملك العظيم أصبحت لها السيادة على البحر ، وبلا أدنى جدال . ولكن هذا لم يكن كافياً لضمان إمتلاك صقلية .

وفي أثناء ذلك الوقت لم يوافق لوى الرابع عشر ، ودغم إصرار كولييه ، على تقرير أمر إرسال إمداد بأعداد كافية ، ويبدو أنه كان أكثر انتباهاً لما كان يحدث في بحر الأنتيل ، وحيث كان القراصنة يتنافسون في النشاط مع الأسطول الملكي ، الذي كان قد وصل هناك عند نهاية عام ١٦٧٦ . وكان المشاغل الأول للأميرال ، كوقت ديمسرى ، هو أن يأخذ كايين من الهولنديين . وبعد ذلك ، قام الأسطول الهولندي بالدخول في معركة غير مكافئة ، قرب سواحل جزيرة تهاجو ،

خرج منها نصف عظم ، وتقوى مركز ديستري بهذا النجاح ، وعاد إلى فرنسا
لكى يطلب أوامر جديدة ، ومقاتل جديدة الحرب . وسبب هذه الآن
كراكاد ، إلى جنوب خليج المكسيك . وقبل أن يصل إليها ، أصابته ، قرب
جورآف ، على ساحل فنزويلا ، ونتيجة العناصر غير المنضبطة ، وكذلك لأعمال
العدو ، كارثة كبرى : ففرقت ثلاثة عشر سفينة ، مع ٥٠٠ بحار ، وكل قطع
المدفعية (١١ مايو ١٦٧٨) .

وتميز القراصنة بنجاح أكثر وضوحاً في بحر المانش ، عنه فيما وراء المحيط .
ولقد تعدوا علاوة على ذلك ، وفي ذلك الوقت ، من عمليات الاستيلاء
Caprerie أكثر من سديشهم عن التسابق البحرى Course ، وأخذ اسم Capres
يحل محل كلمة Coursaires . وكان الأكثر شهرة من بينهم فى ذلك الوقت هو
جان بار Jean Bart ، وكان من دنكيرك ، وكان قائداً سابقاً لفرقاطة ملكية .
وهنا أيضاً نجد أن العلاقات كانت متوترة ، والتعاون متوالى ، بين سفن الأسطول
والسفن التى تقودها عناصر غير نظامية . وفي شهر يوليو ١٦٧٧ ، وقع أسطول
هولندى فى قبضة خصومه قرب وساف ، وتحطم جزء منه . وفى بداية عام ١٦٧٨ ،
وبينا كان الدبلوماسيون قد أخذوا بالفعل فى الإعداد للصلح ، كانت هناك مهمة
أخرى تنتظر البحارة الفرنسيين : ضمان وتأمين عملية إخلاء صقلية ، وحيث كان
التقدم لا يذكر ، وحيث كان الملك يشعر بأنه كان يضع قواته بلافائدة . وكانت
عملية دقيقة ، إذ أنها كانت تهدد بإثارة ورد فعل عنيفة عند الألمان . ولكى
يتفادوا ذلك ، احتفظوا بالأمر الخاص بركوب السفن سرّاً ، حتى اللحظة .
وكانت القوات قد وصلت إلى فرنسا ، فى الوقت الذى توصلت فيه المفاوضات ،
التي جرت فى نيميج ، إلى الصلح العام .

٤ - المفاوضات ، ومعاهدات نيميج (١٦٧٨) :

بعد فشل مؤتمر كولونيا ، لم يرجع الدبلوماسية نشاطها إلا في عام ١٦٧٦ : واضطر شارل الثاني ، تحت ضغط البرلمان ، إلى قبول الوساطة . وقرر أن يرجع مؤتمر جديد من أجل الصلح . ولكن «صير العمليات الحربية ظل غير مؤكد - إلا على البحر، وحيث حصلت البحرية الفرنسية على السيطرة على البحر المتوسط - ولم يكن المتحاربون يرغبون في سرعة نهايتها . ولقد استمرت المفاوضات ، ببطء ، أثناء عام ١٦٧٧ كله ، دون وقف العمليات الحربية ، كما كان عليه الحال وقت مؤتمر مونستر . وأظهر لوى الرابع عشر أنه يصعب التفاوض معه ، وأظهر ويليام أورانج ذلك بدرجة أقل ، وفي شهر نوفمبر ، يلتقى الخبر عن زواج « صاحب الدولة ، من ابنة أخ شارل الثاني ، ابنة دوق يورك . ولم يكن معنى هذا الحدث يسمح بأى شك : فكان ، مباشرة ، يعنى تحالفاً بين إنجلترا والأقاليم المتحدة ، وبالنسبة للمستقبل ، ضمان بأن تولى العرش في إنجلترا سيستمر في أسرة بروتستانتيّة : خاصة وأن شارل الثاني لم يكن قد أنجب ، وكانت ماري ، أميرة يورك ، هي وارثة التاج .

وصرحان ما استخلص الدبلوماسيون من هذا الزواج النتائج الحتمية . وفي شهر يناير ١٦٧٨ ، تم التوقيع في لاهاي على إتفاق إنجليزي هولندي ، كان يشبه ، إلى حد بعيد ، إتفاق عام ١٦٦٨ : فوجدت فرنسا من جديد أن أعدائها بالأمس كانوا يمتنعونها من أن تطرد أعدائها الأعداء من الأراضي المنخفضة . وهكذا وجد لوى الرابع عشر ، من جديد ، نفس العقبة التي لم ينجح في التغلب عليها منذ عشر سنوات ، تعود أمامه من جديد . ولما كانت الوسائل تعوزه لكي يتفادها ، فإنه سيضطر إلى التراجع ، كما حدث في المرة الأولى ، ويسعد الصلح دون أن ينتظر أكثر من ذلك . وجاءت المقاومة الأخيرة من ويليام أورانج ،

الذى كان مشغولاً بقطيم « حاجز » ضد الطموحات الفرنسية في المستقبل . ولكن وصول العدو حتى جاند ، في بداية حملة ١٦٧٨ ، اضطره إلى التراجع إلى مواقع أكثر اعتدالاً . وسبتم عقد معاهدات منفصلة في نيميج ، الواحد بين فرنسا والأقاليم المتحدة (١٠ أغسطس ١٦٧٨) ، والثانية بين فرنسا وإسبانيا (١٧ سبتمبر) . وكان على إسبانيا أن تدفع ثمن السلام ، بتركها لهم يقتطعون منها الأراضي المنخفضة ، والمرة الثانية ، في مدة عشر سنوات .

وكانت حدود عام ١٦٦٨ لها مساوئها . وكان فوبان Vonban قد أكد ذلك في خطاب أرسله إلى لوفوا Louvois ، في شهر يناير ١٦٧٣ ، تستحق بعض قراءته أن تصبح شهيرة : « سيدى ، على الملك أن يفكر جدياً في تسمية ممتلكاته . وهذه الفوضى في الأماكن الصديقة والمعادية ، والتي تحتل كل منها بين الآخرين لا تجب أبداً » ولقد إهتم الملك بهذا الرأي . فبعض الأساكن ، التي كانت داخلة في الأراضي الاسبانية ، — مثل كورتراي ، وأوديناود ، وآت بيتش ، وشارلوا — أعيد تسليمها . وفي نظير ذلك ، تم إكمال شبكة الأماكن الفرنسية عن طريق الحصول على آير ، وسان أوسر آرتوا ، وكامبراي ، وكامبريسيس ، وفلانسيان ، وبوشان . وكولنديه ، ومويج في هايفوت ؛ وأخيرا ، لير ، وبويرينج ، وريول ، وكاسل في الفلاندر . وكانت عملية تعديد الحدود ورسمها ، على أرض الأقاليم التي تم التنازل عنها ، شاقة للغاية : ولم يتمكن ممثلو الدولتين ، الذين إجتمعوا في كورتراي ، من إبعاد كل أسباب الخلاف . ومن جانب آخر ، أعيدت مدينة أورانج إلى مالكيها الشرعي : وإن كانت أسوارها لن تبقى من جديد . وفي إفريقية ، أصبحت جزيرة جوريه من الممتلكات الفرنسية . وكانت النتيجة الأكثر أهمية لهذا الصراع الطويل هي ضم فرائش كورتيه : فإمتدت حدود المملكة مباشرة من السون إلى الجورا .

وكان الإمبراطور قد أنهى الحرب في عزلة شبه كاملة . وكانت لديه مشغوليات ضخمة في الشرق ؛ خاصة وأن المجر كانت تتحرك . وفي عام ١٦٧٧ وعد لوى الرابع عشر باعطاء تأييده لميشيل آباقي Michel Apafy ، أمير ترانسلفانيا ، والمحاضج السلطان . وفي العام التالي ، تفاوض مع ميشيل تيلكي Michel Teloki الذى جاء بعد آباقي ، والذى تولى قيادة جيش مكون من أبناء ترانسلفانيا ومن الثوار المجرين . ولذلك فإن حالة الحرب ظلت موجودة ، وبكل هتاية ، في المجر . ولقد إنتهى الأمر بليوبوله ، هو الآخر ، إلى أن يتفاوض في نيميج ، ولكن بعد ستة أشهر من الآخرين (٥ فبراير ١٦٧٩) . وتنازل الملك عن موقع فريبورج ، مع طريق يصل برينساخ بفريبورج . وبهذا التنازل إستعاد ملكية فيليبسبورج ، وحيث كان الفرنسيون يمارسون حق احتلال منذ ثلاثين عاما ، وإعترفت الدول بذلك في عام ١٦٤٨ . وفي أعدا مسألة فيليبسبورج ، تأكدت معاهدة مونستر في جميع فقراتها . وعالجت إحدى الفقرات الخاصة مسألة إعادة اللورين إلى دوقها ، ولكن بدون نائس ، وبدون لونجوى . ولقد رفض الدوق الجديد — الذى أصبح الآن شارل الخامس — أن يعود إلى بلاده ، بعد أن إقتطعت منها عاصمتها .

ومن بين كل المتكلمين ، لن يبقى شاعراً سلاحه سوى منتخب براندنبورج . وشيئاً فشيئاً ، إمتدت الحرب إلى كل المنطقة التى تطل على غرب بحر البلطيق . وقام لوى الرابع عشر ، بعد عقد الصلح ، بإرسال جيش لإنقاذ حلفائه السويديين ، والذين كانوا في صعوبات . وأتى بعد ذلك ، وبقتل ، أمر إنبهار خصومهم . ونصت ضغط الحاجة ، وعد المنتخب العظيم بالتخلي عن كل الأراضي التى كسبها ، تقريباً . ولم تكن له حرية في الإختيار : فكان أحد الجيوش الفرنسية قد إحتل دوقية كليف التابعة له ، وتقدم مهدداً داخل وستفاليا . ووافق في سان جرمان

لأن لاى على الشروط التى فرضها لوى الرابع عشر بإسم حلفائه السويديين (٢٩ يونيو ١٦٧٩) . وكانت السويد قد تنازلت له ، من ناحية أخرى ، على عدد من المقاطعات فى يوميرانيا ، الأمر الذى سهل أمر الحصول على موافقته . ولما كان ملك الدانمرك قد تأخر فى الإتفاق ، قام الفرنسيون كذلك بإحتلال إحدى بلاده ، وهى دوقية أولدهنبرج . فوافق هو كذلك ، بالمعاهدة التى تم التوقيع عليها فى فونتينبلو (٢ سبتمبر) ، على صلح يتضمن التنازل ، وكذلك الخضوع .

وهكذا نجد أن الحرب التى أعلنتها لوى الرابع عشر ضد الأقاليم المتحدة قد امتدت بشكل عام . وجاء تسوية عام ١٦٧٨ ، وبسبب كثرة عدد من شارك فيها ، فذكر بتسويات عام ١٦٤٨ : فكانت لكل القرب مصالح فيها . ولم تكن بلدية باريس تشر بالهاجة إلى أن توافق على رغبة الحاشية للتقرب من الملك ، حين لقبه ، بعد ذلك بقليل بلقب « لوى الأكبر » .

ومع ذلك ، فإن الخضم الأساسى - أو على الأقل خضم البداية - لم يظهر على أنه قد إنهمز ؛ بلأى شكل من الأشكال . فلم يفقد الهولنديون أى إقليم ، ومن الناحية الاقتصادية ، لم يحسروا شيئاً مهماً . وكان تأييد الإنجليز لهم ، كوسطاء ، له فائدته ؛ إذ أن الإنجليز قد وجدوا أن لهم مصلحة ، هم كذلك ، فى التراجع عن تعريفة عام ١٦٦٧ البحرية . وكانت كرامة لوى الرابع عشر لا تقبل أمر أن يظهر التخلي عن هذه التعريفة ، أمام العالم ، على أنه مفروض عليه ، فاستمروا عن النص على أى شئ يتناقض بذلك فى صلب المعاهدة ؛ واكتفوا بوعده شفهي . ولذلك فإن المعاهدة لا تشتمل ، فى هذا النطاق ، إلا على صيغ عامة لغاية ، مثل : إعادة حرية التبادل ، والتخلي عن كل ميزات خاصة نحد من حقوق كل طرف . وبعد ثلاثة أسابيع من التوقيع ، صدر قرار من المجلس بإعطاء الهولنديين من

زيادات التهريرة الجركية الى صدرت في عام ١٦٦٧ .

وكان في وسع الاقاليم المتحدة أن تدعى إذن أنها قد قاومت الإعتداء ، وإتصرت عليه . وكانت قد نجحت في إضاعة نتائج الصدمة الأولى ؛ ثم نجحت في الحصول على المخالفات التي عملت على شل حركة الخصم ، وعلى منه من العودة إلى الهجوم . وكانت النتائج هامة ، أمام العالم : فذلك الصراع بين الدولة العسكرية الأولى في ذلك العصر ، وبين القوة الاقتصادية الأولى ، قد إنتهى في صالح الثانية . وكان في ذلك ما يشبه تفكير من ظل لايحترم سوى القوة . ولا شك في أن هولندا الصغيرة لم تقتصر على تلك الكتلة الفرنسية ولكنها كانت قد عملت ، على الأقل على فشلها ؛ ولم تخضع في نهاية الأمر لقوانينها . وبعد أن أدت أحداث غير متوقعة إلى إجماع مشروعات وآمال فرنسا في عام ١٦٧٣ ، نجد أنه بما يشتر الدهشة أن المسئول الرئيسي لم يرفقها درساً يعمله للتواضع ، أو أكثر من ذلك بساطة ، يعمله الإعتدال . فلم يكن الحال كذلك ، وسوف تتأكد من ذلك بعد قليل .

ومع مرور الزمن ، لن يتأخر مؤرخي لوى الرابع عشر عن منح أنفسهم عن أن يروا في حرب هولندا خطأ ، وبما خطأ كبيراً بالنسبة لحكمه ؛ خاصة وأن نتائجها كانت هامة . وليحاولوا أن يتصوروا صداقة هولندا ، أو حتى مجرد حياد هولندا ، وقيمتها بالنسبة لفرنسا ، في ضوء الأحداث التالية ، وفي إطار ذلك الصراع الطويل الذي سوف يبدأ مع الدولة الإنجليزية . ولم يكن هناك أي شيء ستمى في إتحاد هاتين الدولتين البحريتين ؛ بل كان الأمر يبدأ عن ذلك كل البعد : وكان الماضي القريب قد بدا على أنه يحكم عليهما بالعدالة الأساسية . وكانت الزواجات التي وُجدت في عام ١٦٧٧ بين ويليام أورانج وبين وريثة آل ستيوارت ، والذي سمح له فيها بعد بأمر وراثةهم ، هو نتيجة — وكما كان أمر

وصوله في عام ١٦٧٢ إلى منصب «صاحب الدولة» - تلك المخاوف التي شعر بها الإنجليز والهولنديون من سياسة لوى الرابع عشر العدوانية . وهذا الأمر وحده يظهر بوضوح تأثير مثل هذه الحرب ، على المستقبل ؛ تلك الحرب التي لم تعلن لأسباب طارئة - فكلير ، الذي كان صانعها الرئيسي ، لم يكن بكل تأكيد خفياً في تصرفاته - ولكن لأسباب كانت أهميتها ، بعد تقييمها جيداً ، لا تبرز أمر الإلتجاء إلى السلاح : فكان لفرنسا ، في حرب بحرية قد إستمرت منذ سنوات طويلة ، بطاقات كافية تسمح لها بأن تحصل على أكثر مما أعطتها ، في هذا الميدان ، معاملة نبيج ، وبعد ست سنوات من مجهودات الحرب .

وكان فيلبلون Fénelon ، ذلك المراقب ذا الفكر الصافي ، قد كتب حكم الأجيال التالية عليها ، ودون أية مراعاة خاصة للملك العظيم . ففي خطاب مفتوح ، أرسله فيما بعد ، في عام ١٦٩٤ ، إلى الملك ، ويعتبر إنها ماً مطولاً له ، حكم بدون أي تحفظ على حرب هولندا بأنها هي ، أساس كل الحروب الأخرى . « دفا أكثر الإضطرابات البشعة التي نزلت بأوروبا منذ أكثر من عشرين عاماً ، وما أكثر الدماء التي أريقَت ، وأكثر الأقاليم التي تخرت ، والمدن والقرى التي تحولت إلى رماد ، إنها النتائج البشعة لهذه الحرب عام ١٦٧٢ ، التي قت بها من أجل «مجدك وماد ، إنها إرباك يضمنون الجرائد ، ومن يضمنون أنواط هولندا . . . » .

الفصل التاسع عشر

فرنسا والصداقة العثمانية - واتحادات، عام ١٦٨٠ ،

وحرب رابطة أوجسبورج (١٦٨٨ - ١٦٩٧)

أولا : فرنسا والصداقة العثمانية :

١ - كولبير والنوسح البحري والاستعماري :

قبل أن يحتق كولبير ، الذى توفى فى عام ١٦٨٣ ، عليا أن تلقى نظرة سرية على سياسة النوسح البحرى والإستمرارى التى تحت تحت رئاسته . فكل المشروعات التى أشرف عليها فى الخارج لم تكن لها — ومن حسن حظ سمعته — نتائج سيئة مثل حرب هولندا . وكانت تستوحى من المصالح التجارية ، كما كان دائماها الرئيسى هو الرغبة فى تدعيم المواقع التى يحتلها الفرنسيون فى أمريكا ، وفى المحيط الهندى ، وفى البحر المتوسط . ونحن نهتم بدرجة أكبر فى هذا الفصل بنوع خاص بالبحر المتوسط ، وفى علاقة بتقدم فرنسا فى مراكزه التجارية ، بملاقاتها مع الإمبراطورية العثمانية .

ولم يكن قد بقى الشئ الكثير ، فى بداية حكم لوى الرابع عشر ، من الجهود الذى كان قد بذله ويشيليو من أجل تحسين أمر استخدام ممتلكات التاج الأمريكية . فكان الأجانب ، وبخاصة الهولنديون ، قد حصلوا لأنفسهم على الجزء الأكبر من التجارة مع الأنقىل (السكر ، واللبن ، والقطن) . وكانت فراه فرنسا الجديدة تباع فى أمستردام وفى لندن ، ولقد بذل كولبير أقصى مجهوده ، من أجل إكسال ذلك العمل الذى توقف ، وإن كان لم يحمده ، إلا فيا يتعان بزيادة الإهتمام بالأعمال . وفى كندا ، تواجد عدد المعمرين ، نتيجة لمجهوده ، وتضاعف أربع مرات فى

عشرين سنة ، وارتفع من ٢٥٠٠ تقريباً إلى ١٠٠.٠٠٠ .
وكما كان عليه الحال في إنجلترا وفي هولندا ، كانوا يسهون بمشروعات التجارة
البعيدة ، في ذلك العصر ، إلى شركات صاحبة امتياز ، وكانت شركة السنغال ،
من بين أوائل تلك الشركات التي أسسها كولبير ، في عام ١٦٦٤ . وكانت مهمتها
تتمثل في أن تزود جزر السكر في الأنتيل بالعبيد ، منافسة في ذلك الهولنديين ،
الذين كانوا ، حتى ذلك الوقت ، يقومون وحدهم بهذه المهمة . وحصلت على
احتكار تجارة الرقيق ، في الممتلكات الفرنسية . أما شركة الهند الغربية ، التي
نشأت في نفس العام ، فإنها لمصطدمت بسوء نية الكنديين ، الذين رفضوا أن
يقتسموا معها ، ومع أبناء وطنهم ، أرباح تجارة الجلود والفراء . واجهتها
صعوبات جسيمة حتى أنها اضطرت إلى أن تحمل نفسها بعد إثنتي عشر عاماً . وكان
من اللازم بعد ذلك الإكستغاف بجعل فرنسا الجديدة تحترم مبادئ الميثاق
الاستعماري : فمن الواجب الإحتفاظ بكل العلاقات التجارية مع الوطن الأم لكي
تتم تحت العلم الفرنسي .

أما ميدان عمليات شركة الهند الشرقية ، فكان يشتمل على جزيرة دوفين
(مدغشقر) ؛ وعلى شبه جزيرة الهندستان في نفس الوقت ، وحيث كانت
المحققات الأولى ترجع ، كما رأينا ، لفترة حرب هولندا .

وأما شركة الشمال ، ، والتي كانت تهدف المشاركة في تجارة بحر البلطيق ،
وفي علاقته مع مواني براندنبورج والمواني البروسية ، فإنها وجدت أن مستقبلها
قد تهدد ، في وقت مبكر ، بذلك التقارب الذي تم بين المنتخب فردريك وويليام
وبين أجداد الملك . وحصلت شركة جديدة لشرق البحر المتوسط في عام ١٦٧٠
على حق احتكار العلاقات مع المراكز التجارية هناك ، والتي كانت ميداناً تقليدياً
لتجارة الفرنسية في الخارج . وتشبها بالشركة الانجليزية وبالشركة الهولندية ،

حصلت لسفنها على امتياز د إسطحابها ، لى أن تحرسها السفن الحربية ، وبشرط أن تتجسس سفنها فى شكل قاذفة واحدة ، وتقطع من مرسيليا فى وقت محدد .

٢ - تجديد معاهدة الامتيازات الأجنبية فى ١٦٧٢ :

وكان فى وسع كولبير الكبير ، وكذلك فى وسع أخيه كولبير دى كروامى Colbert de Croissy ، والذى أصبح فى عام ١٦٧٩ وزيراً للدولة للشئون الخارجية - ولأنه كان يهتم دائماً ، وقبل كل شئ ، بمصالح التجارة - أن يوسع إمتيازاته بالمشروعات البحرية ، وبخاصة تلك التى كانت تستخدم مصالح فرنسا فى البحر المتوسط . وقبل وفاته ، ترك هذه النصيحة لإبنه ، وخليفته سينتلاى Seignelay : « فكر دائماً فى الوسائل التى تجعل الملك يسيطر على البحر المتوسط » . ولذلك فإن الفترة التى سيطر عليها بنفوذه وبإسمه كانت فى منتهى الأهمية فى قطاع البحر المتوسط ، وبخاصة بالنسبة للعلاقات لوى الرابع عشر بحكومة إستانبول .

وكان إصرار الأتراك على خفض النظر عن تدخلات الغرب ، وبخاصة تدخلات الفرنسيين ، فى حرب كنديا ، فى خلال السنوات الأرى من حكم لوى الرابع عشر الشخصى قد أظهرت تمسكهم بالمحافظة على العلاقات الودية مع الدول المسيحية . ولم يبد عليهم فى إستانبول أنهم قد رأوا إرتكاب مخالفات متعمدة ضد المصادفة التى كانت تربط السلطة تقليدياً مع فرنسا . ولم يخضع سفيد لوى الرابع عشر فى أعوام ١٦٦٨ و ١٦٦٩ لإجراءات مشابهة لتلك التى اتخذوها ضد سلطه فى عام ١٦٦٠ . ومن كل من الجانبين ، لم يفكروا إلا قليلا فى أمر قطع العلاقات ، حتى أنه فى الوقت الذى كانت فيه نيران الحرب مشتعلة أمام كنديا ، حضرت فرقة بحرية - ثلاثة سفن تحت قيادة رئيس الفرقة - دوست أمام إستانبول ، لى تأخذ سفن الملك ، والذى كانت مهمته قد إقتمت . وفى شهر

أغسطس ١٦٦٩ ، وبينما كانت الوحدة الفرنسية لم تترك كريت بعد ، قامت سفينة فرنسية بأخذ مندوب فوق العادة للسلطان ، على ظهرها ، وكان مكلفاً بمهمة ودية لغاية لدى لوى الرابع عشر .

وكان الأمر يتعلق بأمر تجديد معاهدة الإمتيازات الأجنبية . وكان لوى الرابع عشر قد دخل في عادات بشأن هذا الموضوع منذ السنوات الأولى لحكمه للشخص . وكانت الحكومة العثمانية قد عملت بعض الصعوبات ، حينما طلبت بالمساعدات التي أعطيت لقوات الامبراطور في المجر ؛ ومنذ ذلك الوقت ، ظل الأمر معلقاً . وإذا ما كانوا قد رجعوا إليه في مثل ذلك الوقت ، فإن ذلك يظهر على أنه دليل على أنه كانت لديهم الرهبة ، في إستانبول ، في منع فرنسا من التورط أكثر من ذلك في سياسة معادية للدولة العثمانية . ولم يكن هناك - قبل ذلك - أبداً سفيراً دائماً للسلطان في باريس . ولذلك فإن عملية وصول مندوب مكلف بأن يحمل الملك خطاباً شخصياً من السلطان كان يمثل حدثاً خارقاً للعادة . فاستعدوا لكي يردوا على مثل هذا الحدث بما يليق به . ورغم أن مندوب السلطان كان شخصية عادية ، فانهم قدموا له أعظم التشريفات والمراسم ، وإهتموا به كل الإهتمام . ولكن يتأكد من عدم الوقوع في خطأ ، قام وزير الدولة لشئون الخارجية ، دى ليون de Lionne برسم احتفالات الإستقبال مطابقة لتلك التي تمت لممثل الملك لدى الباب العالي . وتلا ذلك موجة من التشبه بالآثارك ، قام مولير Meillère ، في العام التالي باستعداد الوحي منها حين وضع بعض مناظر معروفة من مسرحيته *Bourgeois gentilhomme* .

ولقد إستمرت المفاوضات ، التي بدأت في باريس ، في إستانبول وبرعاية سفير جديد ، هو ماركين نواتيل Noimel . وكانت صعبة ، ولم يتوصلوا إلى كتابة إمتيازات جديدة إلا في عام ١٦٧٣ . وكانت الدبلوماسية العثمانية ،

حسب عادتها ، تماطل ، وتعرض على المفاوضات عملية إبطاء غير محتملة ، وتهدد بتعطيل مته ، وتجعله يطلب العودة إلى بلاده . وكانت تهتم قبل كل شيء بمظاهر القوة ، ولم تقرر إنهاء الأمر إلا بعد أن علمت بالالتزامات التي حصلت عليها جيوش الملك في هولندا . وبالنسبة لفرنسا ، كانت الميزة الرئيسية للماهدة الامتيازات . عام ١٦٧٣ تتمثل في التخفيض العام لرسوم الجمارك على السلع المستوردة . وسيقولون ، بعد ذلك ، أن السلطان قد اعترف - بطريقة ضمنية إلى حد ما - بحماية فرنسا على الكاثوليك المقيمين أو الزائرين للإمبراطورية العثمانية . ومن ناحية أخرى ، لم تتضمن هذه المعاهدة أى شيء يتعلق بالالتزام ، الذي فرض تقليدياً على رعايا الأمم الأجنبية الذين لا يفيدون من الامتيازات الخاصة ، بأن يضموا أنفسهم تحت حماية وراية فرنسا ، وفتناصل الملك .

ولذلك فإن الصداقة الفرنسية العثمانية قد ظلت سليمة . وسوف نستمر في السيطرة على كل التاريخ السياسى البحر المتوسط والجنوب شرق أوروبا . وفي عام ١٦٧٦ رفض الملك فكرة إقامة محالف رسمى موجه ضد أسرة هابسبورج ، والتي كانت حكومة إستامبول قد اقترحتها . وتجدد العرض ، مرة جديدة في عام ١٦٧٧ ودائماً بلا جدوى .

وفي هذا العام بالذات ، جاء خلاف بشأن المراسم لكي يمكن صفو العلاقات الفرنسية العثمانية ؛ ومع امتداده ، أخذ شككاً جعلهم يخشون من الوصول إلى قطعية . وكانت مسألة الأريكه ، sofa قد نتجت عن تعديل أدخل ، في أحد الايام ، على الإحتفال الرسمى في إستقبالات الصدر الأعظم . وبعد أن كان المقعد المخصص السفير ، يوجد على نفس مستوى ممثل السلطان ، أصبح يوضح منذ ذلك الوقت في مكان أكثر انخفاضاً ، وبشكل واضح . وظلت الملاحظات التي قدمت الباب العالي بدون نتيجة ، ورفضت كرامة الملك قبول أى تنازلات ، فأوقفت

هذه الإستقبالات حتى صدور أوامر جديدة ، وحتى اليوم الذي قرر فيه بلاط
إستانبول في عام ١٦٨٢ ، وبعد الفضل الذريع الذي أصاب المشايين أمام فينا ،
إعادة الوضع القائم .

٤ - تعويض شمال إفريقيا ، وضرب الجزائر :-

إذا كانت سياسة لوى الرابع عشر تجاه المشايين قد إستوتحت دائماً من فكرة
الحفاظة على الصداقة التقليدية بين البلدين ، وأن تحافظ على تحالف فريد في أهميته
مند آل هابسبورج ، فإنها لم تعط دليل من ناحية سكان شمال إفريقيا على مثل هذه
الصداقة الطويلة المدى . بل كان الأمر يختلف عن ذلك كل الاختلاف : فاهتمام
الملك ، بمجده ، أجبره على أن يظهر بمظهر المتشدد أكثر من أى سابقه . وبعد
نيميج ، إعتقد أن الوقت قد حان من أجل وضع حد لإهانات ، سكان شمال
إفريقية . فنذ إنشاقيات عام ١٦٦٦ ، ورغم التهديدات ، إستمرت الصعوبات في
تجددها مع إيابات شمال إفريقيا . وكانت عملية فك أسر الأسرى فرصة متكررة
لذلك . وفي عام ١٦٨١ ، تم تكليف ديكن Daguesan بأن يؤيد ، وبمدافه ،
المطالب التي كانوا قد قدموها منذ بعض الوقت إلى الجزائر .

وكان ديكن في ذلك الوقت في شرق البحر المتوسط ، وحيث كان قد قام
بعملية تبليغ قوات باشا طرابلس (الغرب) ، الذي كان قد رفض تسليم سبعة
أسره فرنسي . وكان قد وصل أمام جزيرة غيوس ، وحيث كانت رجاء البحر
الطرابلسيين قد إنتجرت . وقام بعمليات حصار ، إشتكت منها حكومة السلطان ،
بطبيعة الحال في باريس ، في نفس الوقت الذي ألت فيه القبض على سفير الملك ،
وسجنته . وما كانت المسألة تسوى ، نتيجة لمظاهرة تهديدية عند مدخل الدردنيل ،
حتى وصلت الأوامر إلى ديكن بأن يقطع إلى الجزائر : وستكون تحت تصرفه
آلات قد إخترت أخيراً لإطلاق قذائف حلقة ، بحجرة على سفن خاصة

galioles a bombes؛ ويمكنه بمساعدتها إحراق المدينة، وتحطيمها تماماً. ورغم قوة الوسائل الموجودة، لم يحصل على نتائج منذ عمليات القذف الأولى، التي استمرت على قرة تقرب من شهر، من ١٨ أغسطس حتى ١٢ سبتمبر ١٦٨٢. وكان من اللازم أن يبدأها من جديد في العام التالي. وكانت عمليات قذف عام ١٦٨٣، والتي وصلت إلى أقصى حد من العنف في الأيام الأخيرة من شهر يوليو، عمليات تمثل نقطة واضحة في تاريخ البحرية. ولقد تميزت، من الجانب الجزائري، بعمليات عنف لا داعي لها: قتم تهديد صحران فرنسا، ومن بينهم الأب لي فاشر *Le Vacher*، الراعي البابوي وقنصل الملك، إلى فوهة المدافع، وتناثرت أسلحتهم في البحر، وقت إطلاق القذائف. وفي عام ١٦٨٤ فقط، تمكنت حملة فاشر، بقيادة تورفيل *Tourville*، من أن تحصل من الهدى الجديد على التوقيع على معاهدة تسمى مع مطالب الملك.

وكانت طول فترة مقاومة الجزائريين مثلاً سيئاً. فتنسجع كل أبناء شمال إفريقيا الآخرين من أجل مقاومة الفرنسيين. وكان أبناء طرابلس الغرب، ومنذ وقت بعيد، من أصعب ما يمكن الإحتفاظ بسلامات طبيعته معهم، فاحتاج الأمر وكما حدث مع الجزائر، إلى القيام بعملتين متتاليتين لقذفهم بالمدافع من السفن، حتى يعودوا إلى صوابهم أما أهالي تونس فأنهم فضلوا عدم تعريض أنفسهم لمثل هذه الإجراءات القسوى. وكان لهم كذلك سلوكاً معادياً: فكانوا قد قاموا، من جديد، بطرد الفرنسيين من الرأس السوداء *Cap Nègre*، في عام ١٦٧٧، وتركوا الإنجليز يقيمون هناك، في مكانهم. ولقد أجبرهم الحرف من السفن الحارقة على أن يفكروا بصمت. وفي عام ١٦٨٥، وفي اليوم التالي لعملية طرابلس، وافقوا على تجديد المعاهدات السابقة. فأصبح في وسع المركز التجاري الموجود في الرأس السوداء أن يعود مرة جديدة إلى فرنسا.

أما المعاهدة المعقودة مع الجزائر لمدة قرن ، فإنها لم تضمن في أول الأمر للسلم إلا لمدة تقل عن خمس سنوات. فأحتاج الأمر إلى حملة جديدة منذ عام ١٦٨٨ وكانت عملية ضربها بمدافع الأسطول هي أكثر العمليات عنفاً : فتم إطلاق عشرة آلاف قذيفة على المدينة . وجاءت المعاهدة التي تم التوقيع عليها في عام ١٦٨٩ لكي تكرر تقريباً بنود معاهدة عام ١٦٨٤ . ولكنها إحصرت أكثر من المعاهدة السابقة . وكانت تتضمن فقرة جديدة ، موجهة ضد إنجلترا : فأصبح من حق الجزائريين الذين يقومون بعمليات الجهاد البحري ضد الإنجليز أن يسمح لهم بقضاء فصل الشتاء والتزود من السواحل الفرنسية . وهكذا رأى الفرنسيون ، في أثناء حرب رابطة أوجسبورج رجال الجهاد البحري الجزائريين يستقبلون ويعتنون في الموانئ الفرنسية .

ثانياً : « الاتحادات » عام ١٦٨٠ :

١ - التفكير الجديد ، لوفوا وعمليات « الاتحادات » :

منذ ليميج ، لم تعد الشخصية المسيطرة في مجلس الملك هي كولبير . وكانت سياسته المعادية لمورنداد واجهت ، في تحليلها النهائي . فشلاً ذريعاً ؛ وأثر ذلك على الثقة فيه . حقيقة أنه لم يزل ؛ ولكن مشاعر لوى الرابع حشر حياله أصابها البرود . وهذا الخادم . الذي كان متحمساً لمجد الملك ، سوف يخفق في عام ١٦٨٣ دون أن يأسف أحد عليه ، بشكل واضح .

وكان لوفوا Louvois من زملائه ، وهو الذي حصل على مكانته في الثقة ، وسوف تؤثر الآن آراءه بشكل واضح . وكان مختلفاً عنه في كثير من الأمور ؛ فلم يكن يبين من الأمور المشتركة سوى الرغبة في العمل ، والطاقة على العمل . وفي السياسة الخارجية ، كان لوفوا عشتاً . وسوف تكون الفترة المقبلة فترة صنف ، وتجاوز مستمر في العنف . وسوف يتحدثون بدوغة أقل ، وبكثير ، عن

التجارة وعن الأموال . وسوف تستمر الحرب في شغل التفكير . وسوف يستمر
لوفوا حتى النهاية هو نفس ما كان عليه في أول حياته ، وفي الوقت الذي كان يساعد
فيه والده ، أحد وزراء الحرب . وسوف يكون الجيش — البرى بطبيعة الحال —
موضع إتهامه المستمر ؛ ولن يتم بثقون البحر ، بأية درجة . وذكر أحد
المعاصرين أنه كان « منحرفاً » عن البحرية .

ولم تكن من عادة لوى الرابع عشر أن يفكر بنفسه ، ويعمق . وبعد أن
استمع إلى إقترحات كولبير المعادية لهولندا ، سوف ينطلق ، بتوجيه من لوفوا
في سياسة عمليات ضم في وقت السلم ، عمليات ضم بطريق العدالة ، وهي التي
احتفظت في التاريخ باسم سياسة « الإتحادات » .

و يمثل موضوع « الإتحادات » مرحلة فريدة في نوعها ، فليست لها سوابق
وليست لها ما يشبهها . وحكالت مستوحاة في المكان الأول من المشغولات
الإستراتيجية . وكانت مشكلات الحدود تستمر في شغل تفكير لوفوا . وبمساعدة
فوبان Vauban ، أخذ يمدد القبات التي تواجه النزوح على النقط الضعيفة . وفي
أثناء حرب هولندا ، إنتهك الأجانب أرض الأناضول مرات عديدة ، وبخاصة في
عام ١٦٧٢ . وفي عام ١٦٧٧ ، رأى إقليم الدارين بدوره وصول طلائع الأعداء ؛
وخشوا ، في بعض الأوقات ، من أنهم قد حاصروا ميتر . ولقد أقتنع لوفوا الملك
بأنه من أجل منع مثل هذه الحوادث ، في حالة ترميض حرب جديدة لمقاطعات
الشرق للخطر ، فإنه عليه أن يستنهم وقت السلم ، ليس فقط من أجل تقوية
إستحكامات حدود الشمال الشرقي ، ولكنه أيضاً من أجل تحسين خط ومهبط في
بعض النقط . واكتشف الوسيلة بمساعدة أحد رجال القانون الطموحين ، والذي
كان رئيس جلسة في برلمان ميتر ، وإسمه رافير- رافير : وكانت تتمثل في أن
يقرر ، ومن جانب واحد ، أن يضم إلى المملكة الأقاليم التي يرى أنه لا يمكن

الاستثناء منها ، طبقاً لأحكام قانونية تهدف تفسير بعض مواد المعاهدات السارية ، وبخاصة تلك التي كانت قد تنازلت للملك عن أماكن منصوح عليها بالاسم ومع ملحقاتها . وكان البحث في الملحقات القديمة سيفتح إمكانيات واسعة ، وفي بعض الحالات غير متوقعة .

وفي شهر نوفمبر ١٦٧٩ ، أنشئت دائرة جديدة لهذا الشأن في برلمان ميتر ؛ وأخذ رجال القانون ، الذين دفعهم رافو ، يعملون بكل نشاط ، حتى أنه أصبح من الواجب ، بعد عدة أسابيع ، تهدئة نشاطهم . وكانوا قد ركزوا ، في أول الأمر ، على أراض كانت تابعة في الماضي للأسقف ، أو لمجموعات دينية . ومنذ ١٠ يناير ١٦٨٠ كتب لوفوا إلى رافو : « أرجو أن نفهم جيداً أن الأمر لا يتعلق أبداً بأن تجمع في شهر أو شهرين ، ونضم التاج ، أماكن يستعد أنه يمكنه أن يثبت أنها تابعة له ، ولكن بأن تعمل بطريقة تجعل أوروبا كلها تعرف أن صاحب الجلالة لا يتصرف أبداً بعنف ، ولا يستخدم أبداً حالة التفوق ، التي وضعته فيها صفاته فوق كل أمراء ، لكي يستول على دول ، ولكنه يرغب فقط في إعادة الحقوق التي كانت منقوبة إلى الكنائس . ورفض بشكل قاطع تلك الفكرة ، التي كان البعض قد تقدم بها ، والتي تتعلق بأن يوجد ، مرة واحدة ، وبعملية واحدة ، دوقية اللورين وباروا والتي لا تفصل عن التاج » .

وفي الأتراس ، ضدوا مهمة مشابهة إلى مجلس السيادة ، الذي كان يعتقد في بريساش ، وكان يعمل على البرلمان . وهنا ، جاءت قوة الدفع من شارل كولبير Charles Colbert ، باركيروا ، الأخ الأصغر لكولبير الكبير ، والذي كان أحد أوائل المفتشين في هذا الاقليم الجديد ، وتمكن بهذه الصفة ، في عام ١٦٥٨ ، من أن ينشئ « مجلس السيادة » . وكان كولبير دى كرواس قد أصبح في شهر نوفمبر ١٦٧٩ ، وزيراً للشئون الخارجية . فعند سياسة الاتحادات ،

بكل طاقته ، وكان مقتنعاً بها . ولما كان الأمر يتعلق بنوع خاص بتفسير بنود معاهدة نيميج ، فإنهم لم يفسوا فرائض كوثيقه : فتم تكليف برلمانها ، الذى كان قد نقل دول Dole إلى يوزالسون ، وفى نطاقه ، بنفس المهمة التى كلفوا بها دائرة ميتر ، ومجلس السيادة فى الأزارس .

وكانت النصيحة هى أن يعملوا بسرعة . ولذلك فإنهم لن يتأخروا أكثر من اللازم . وبمجرد صدور قرار ، تحدد المحكمة المالك ، أو صاحب الحياز ، على الاقليم المعين ، وتدعوه إلى الحضور للدفاع عن حقه . وفى غالب الأحيان ، يستلم هذا الأخير بلاغاً يعرف أنه لا ينتظر أى شيء منه ، ولا يحضر . ولذلك فإن الحكم فى الموضوع يصدر فى غيابة : فيصدر قرار ، سليم فى شكله ، يعلن أن الاقليم قد « توحيد » مع المملكة . وتقوم قضية من القرضان ، تكلف بالبقاء فى الموقع ، بوضع الشارة الملكية على واجهة المباني العامة .

وسيكون من التطويل الكثير أن نذكر هنا قائمة الأماكن التى « اتحدت » ، أو « توحدت » ، فى أثناء عامى ١٦٨٠ و ١٦٨١ . وكان العدد مرتفعاً بنوع خاص بالنسبة للأزارس . ولما كان الملك قد أصبح منذ ذلك الوقت صاحب السيادة على كل من الأزارس العليا والسفلى ، فإن جميع السادة الأجانب عن الإقليم ذهبوا لكي يعلنوا له الولاء من أجل مناطق نفوذهم فى الأزارس . ومما كانت الأسباب التى تدفعها بها من أجل الرضى ، فإن هذه الأقاليم أعلنت على أنها قد « اتحدت » مع التاج ، ودعى القائمون على إدارتها لأداء القسم أمام الموظفين الملكيين . وبهذه الطريقة تمت فى شمال المقاطعة عملية « الاتحاد » مدينتى لوتزبرج وجرمشيم ، واليتين كانتا من ممتلكات منتخب البلاينات ، وتم ذلك بصفتها من الممتلكات السابقة لأبرشية وسيمبورج . واضطر كل السادة ، كبارهم وصغارهم ، والذين كانوا لا يزالون يسترون بجمرة « المباشرة » مع الإمبراطورية — وبالتالى لا يمتثلون

بالسيادة الملكية — إلى أن يسموا بالولاء الملك ، ولذلك فإنه من حقنا أن نقول بأن د اتحاد ، الأكراس مع فرنسا ، والذي بدأ بمعاهدة مونستر ، لم يصبح فعالا إلا في اليوم التالي لأحداث ١٦٨٠ - ١٦٨١ .

وفي قطاع فرانشر كونتيه ، علينا أن نذكر ، الإتحاد ، — المؤقت — لبلدية مونفيليار ، والتي كانت من ممتلكات دوق فرتنبرج . وعند حدود اللورين ، نزع موقع فراولوترن ، على السار ، من كونت ناسو — ساربروك : وفي مكانه ، سرطان ما يقوم فويان بإقامة موقع حصين يسمى سارلوي . وأخذ كل الأمراء المجاورون للأراضي الفرنسية ، فيما بين الموزيل والفوج ، في الفسكوى من اعتداءات مشابهة . وكان الأكثر في عدم الملاءمة من بين عمليات الضم التي تنفذ هذه ، هو عملية ضم دوقية ديه يونس ، تلك البلدية الصغيرة التي كانت قد تخربت بطريقة مستمرة في أثناء الحرب ، بأوامر من لوفوا . وكان أن رحلت وراثة ديه يونس في نهاية الأمر للملك السويد ، الحليف التقليدي لفرنسا ، والوحيد الذي كان قد ظل غلصاً لها خلال حرب هولندا . وكان احتجاج شارل الحادي عشر عتيقاً ، وساعدت صيحات سفرائه في الخارج ، إلى حد كبير ، في إثارة فوج أودبا ضد لوي الرابع عشر .

وإن من ينظر إلى الخريطة يجد أن أكثر ، إتحادات ، ١٦٨٠ - ١٦٨١ ، إثارة للدهشة تتمثل في ذلك الموقع الحصين الذي يحيط به أحد أفرع الموزيل قرب تريف : شبه جزيرة ترافن ، قرب قلعة تراوباك والتي كانت ملحقة بكونتية فالنزا . وهنا أيضاً ، سوف تبقى قلعة جديدة بسرعة ، حسب خطة فويان . وسوف يعطونها اسم مونت رويال .

٢ - تهديد إسبانيا ، بعد غزو لوكسمبورج :

كان نشاط دوائر عملية ، الإتحادات ، قد حدث في نفس الوقت الذي كانت

فيه المحادثات تجري بين الفرنسيين والإسبانيين، في شهر ديسمبر ١٦٧٩، في كورناي، من أجل تحديد الحدود الجديدة الناتجة عن معاهدات نيميج . وكانت معويات تتعلق بالمراسم قد أجلت بدتها حتى شهر سبتمبر ١٦٨٠ . ولذلك فإن قرارات دائرة ميزنتج عنها وضع المفوضين الإسبان أمام الأمر الواقع : قم على مراحل أمر إحتلال كل دوقية لوكسمبورج ، وكذلك كوتيه شيني ، وموقع جيفيه وملحاته ، على الميز . ولذلك فإن الاسبانين لم يكونوا آخر من إحتج على سياسة « الإتحادات » . ومنذ أول الأمر ، كانوا قد رفضوا صوتهم إلى جانب الشكاوى التي إرتفعت في ألمانيا : وفي ذلك المجال ، فضع الكتاب الألمان تلك الطريقة التي جعلت من لوى الرابع حشر يظهر في شكل رئيس عصاة . وكان على الأمة الفرنسية، التي كانت تصب نفسها في ملكها، أن تتلقى الضربة المضادة لذلك الغضب الذي تواجد في كل مكان . وعندئذ قرروا ، في باريس ، وقف نشاط دوائر « الإتحادات » . ووافقوا على أن يعرضوا القرارات التي كانت قد صدرت على لجنة مشتركة ، إمبراطورية وفرنسية ، تجتمع في فرانكفورت . وفي إنتظار ذلك ، يوقف كل إجراء جديد . وسوف تجيء الأحداث التالية لكي تقضي على نتائج هذا التصرف الذي يدل على حسن النية . ففي الوقت الذي تعقد فيه اللجنة أول جلساتها، جاءت الأنباء بأن عملية قوة مزدوجة قد تمّت في نفس اليوم بواسطة الفرنسيين ، فيما وراء الفوج ، وفيما وراء الألب ، ضد إستراسبورج ، وضد كاسال .

وكانت الدوافع لهذه الاعتداءات الجديدة ضد السلم ، وضد المعاهدات ، دوافع عسكرية . ذلك أن حاكم إستراسبورج قد جاب الحسنة ، في عام ١٦٧٤، وترك الجنود الذين كانوا تحت قيادة متعبد براندبورج يعمرون ؛ ومرة أخرى، في عام ١٦٧٧ . تمكن جنود الإمبراطورية من إستخدام قطرة الراين . وإستتجت باريس من ذلك أن صداقة إستراسبورج لم تكن سوى كلمة غاوية ، وأنه لا يمكن

بناء أى شيء عليها : فإذا كانت الأراضي فى أيدي الملك ، فإن الآخرون كانوا يحتفظون بالمفتاح الذى يوصل إليها . ولذلك فإن لوفوا لم يجد صعوبة كبيرة فى إقناع نسيده . بعد أن إنتهت الحرب ، بضرورة السيطرة على المرور هناك ، من طريق الحصول على الموقع . وتمت الاستعدادات اللازمة فى سرية كاملة ، فكانت المفاجأة كاملة بالنسبة لأوربا - وحتى فى إستراسبورج - حينما علوا بأن الآليات الفرنسية كانت تتجمع فى الأراضي السفلى . ولم تكن هناك مقاومة ، أكثر من تلك التى حدثت فى ميتر فى عام ١٥٥٢ . وذهب وفد من المدينة لى يطلب تفسيراً من الجنرال قائد القوات : فعرفوا ، ببلاغ رسمى ، أن رغبة الملك هى لإحتلال إستراسبورج وقنطرها ، لى يحميها من ورجال الامبراطور . ووصل لوفوا ، فى الوقت الذى كانوا يتشاورون فيه من أجل الرد على طلب التسليم . وكان هو الذى حصل ، على بعد بضعة كيلومترات من الأسوار ، على تسليم الحاكم وإعلان خضوعه : فاعترفت إستراسبورج بالملك على أنه صاحب السيادة عليها ، وحاميها ، وتأكدت كل حقوق وإمتيازات المدينة الحرة ، ولم يحدث أى تغيير فى ظروف ممارسة الدين ؛ وكانت الكاثوليكية هى الوحيدة ، من بين كل كنائس المدينة ، والى أصبحت فى الماضى مابعد بروتستانتية ، هى التى عادت إلى المذهب الكاثوليكي . وفى نفس اليوم (٣٠ سبتمبر ١٦٨١) دخلت القوات الفرنسية المدينة . وجاء الملك بنفسه فى الشهر التالى لإستلامها .

وكانت مسألة إستراسبورج قد حدثت بعد عمليات الاتحادات ، ففتحت عنها مشاعر ضخمة فى أوربا . وفى ألمانيا ، ارتفعت أصوات عديدة لى تقض فيها عملية انتهاك السلام .

ولم يكن لعملية كسال ، المعاصرة لعملية إستراسبورج ، نفس أهميتها . ولكن وقوعها فى نفس الوقت جعل أمر تفسيرها على إنها بدلان على أن ملك

فرنسا كان قد صمم ، وأكثر من أى وقت مضى ، عل أن يستعمل ، وبلا أى تردد ، حق الأكثر قوة . وكان موقع كال-ال يحتل بين يدمونت وأقليم ميلانو مكاناً له أهمية استراتيجية . وكانت قد قامت عليه مناوذة ، فى أثناء حكم لوى الثالث عشر ، بين الفرنسيين والإسبانيين ، ثم عاد إلى مالكة الثرى ، دوق مانتوا . وكان هذا الأخير فى أشد الحاجة إلى المال . فإدعى لوى الرابع عشر ، وكان دائماً يرغب فى رد العملة للإسبان ، تهديدهم المستمر لمواتوا ، وأفاد من الصعوبات التى كانت تواجه الأمير فى إعطاء ميراثه لخلفه الوحيد ، وهى بنت ، وذلك لكى يسطى نفسه ، وفى نظير المال ، الحق فى وضع حامية فى القلعة وكان من أهم نتائج هذا الحدث زيادة المראה بالنسبة للعلاقات الفرنسية الإسبانية .

وربما كان فى وسمع لوى الرابع عشر ، فى مؤتمر فرانكفورت ، أن يوافق على تسوية فى مسألة الاتحادات ، ولكنه لم يكن يقدر على التفرط فيما يخص إستراسبورج . ولذلك فإن المندوبين قد تفرقوا ، دون أن يعملوا أى شئ ، فى أثناء عام ١٦٨٢ . وكان الألمان يخشون من عمليات جديدة لاستخدام القوة ، فبدأوا فى التفكير فى الحرب . ولم يكف ويليام أورانج عن أن يهدم لكى يتحدوا سويًا ، وأن يستعدوا فى نفس الوقت للدفاع عن بلادهم . وكان ، فى نفس اليوم الذى سقطت فيه إستراسبورج ، قد حصل على معاهدة ومشاركة ، مع السويد ؛ وإنضم إليها الإمبراطور فى شهر فبراير ١٦٨٢ ، وملك إسبانيا فى شهر مايو . وزار فى أثناء الأشهر التالية بلاط كثير من الأمراء . وبعد مروره ، تم عقد إتفاقيات دفاعية بين الإمبراطور وبين الكثير من الأمراء فى منطقة الراين . وكان منتخب براندبورج - المنتخب العظيم - هو الوحيد من بينهم الذى كان سيبدأ لروية فرنسا تتخاصم مع السويد ، فحاول أن يحصل على رضا لوى الرابع عشر ،

الذى إرتبط معه بمعامسات جديدة (١١ يناير ١٦٨١ ، ٢٢ يناير ١٦٨٢)

وباستمرار الملك ، ورغم صيحات أوروبا . في تنفيذ سياسته الخاصة «بالإتحادات» ، حاول ان يحصل من ملك اسبانيا على تخلي ، من الناحية الشكلية ، عن اقاليم الاراضي المنخفضة ، والتي كانت تهدفها قرارات دائرة ميتر القضائية . وحين فشل ، ارسل قواته لكي تحتل دوقية لوكسمبورج ، ويحتفظ بها كرهينة . وهذه المظاهرة الجديدة لاستخدام القوة زادت من حدة المشاعر العامة بعدم الأمان .

٤ - محاصرة العثمانيين لقننا :

وفي ذلك الوقت ، كان هناك خطر جسيم ، يهدد النمسا ، وكل أوروبا . وكان من الضروري ان يحسبوا حسابا للعثمانيين ، الذين عادوا الى سياسة نشطة تحت تأثير رؤساء الوزراء من اسرة كبرولو Koprulu . وفي عام ١٦٦٤ ، كان جيش مونتي كوكولي Montecuccoli ، الذى انضم اليه فيلق فرنسي بقيادة كونت دى كوليبنى ، قد اوقف زحفهم في معركة سان جوتار ، على نفس حدود دولة آل هابسبورج ، واجبرهم على التراجع . ولم تكن هدنة فاسفار ، التى تم التوقيع عليها بعد ذلك ، تنتهى مدتها حتى عاد الخطر المشفى الى الظهور من جديد .

وكان ذلك نتيجة لاحداث المجر ، تلك المجر التى كانت خاضعة في غالبيتها العظمى لإستانبول . وكانت ترانسلفانيا بنوع خاص ، والتى كانت من المحطات السابقة للتاج ، لا تهتد على الخضوع للسيادة العثمانية ، وبذلك كل مافى وسما من أجل التخلص منها . ومن ناحية أخرى ، كانت المسألة الدينية تجعل كل من المجر وترانسلفانيا تصارعن الأخرى ، خاصة وأن جزءاً كبيراً من أهالى ترانسلفانيا

كانوا قد اعتنقوا مذاهب الإصلاح الديني . وهذه البلاد ، التي كانت مسرحاً للكثير من المشاعر ، السياسية والدينية ، كانت أرضاً خصبة لمؤامرات الدول . وأغبرت الدبلوماسية الفرنسية هناك تسرعها ضد خصومها الفرنسيين ، وفي صالح أصدقائها النمساويين . وفي عام ١٦٨٢ ، قررت الحكومة النمساوية ، التي استندت إلى تأييد اللوار المجريين ، والذين طلبوا معنوية باشا بودا ، ضرورة العودة إلى الزحف على فيينا . وتشكل جيش أكبر من الجيوش السابقة — ربما ٢٠٠٠٠ رجل — في بليراد ، بقيادة الصدر الأعظم قرة مصطفى .

وفي حامية النمسا ، كانوا غير مستعدين لمواجهة ذلك الهجوم الجديد المرتقب . وكان الامبراطور ليوبولد قد طلب ، وبدون جدوى ، إطالة أمد هدنة فاسفار . وبعد رفض طلباته ، شعر بخطورة الموقف ، ونشر نداءً بطلب الصون . ولم يكن ملك فرنسا ، أول الملوك المسيحيين ، في ظروف تسمح له بتجديد مآثم به في عام ١٦٦٤ ؛ وفي كل بلاد الغرب ، كانت الاجراءات المادية التي اتخذها ضد إسبانيا بغزوة لوكسمبورج تشهد الإلتباه . وحتى لا يظهر بمظهر من يضع العقبات أمام الدفاع عن أوروبا ، قام برشاقة وعرض على خصمه . وفي نفس الوقت على كل من كانوا يرغبون في أخذ جانب إسبانيا — هدنة لمدة عشرين عاماً . وأعلن ، ودين أن يرى ضرورة لكتابة هذه التعهدات ، وعند نهاية شهر يوليو ١٦٨٢ ، وقف العمليات العسكرية ؛ وأؤكد رسمياً رغبته في إحترام الهدنة الفعلية التي قررها . وكان الأتراك قد ظهروا في ذلك الوقت تحت أسوار فيينا ، وكان الحصار قد بدأ . وكان جيش النمسا بقيادة دوق اللورين ، شارل الخامس ، الذي ورت حمة شارل الرابع ، والذي كان ، مثل سلفه ، قد رفض العودة إلى بلاده التي حرمت من عاصمتها . وكان يحظى بكل ثقة الامبراطور . ولم تكن القوات التي كانت

تمت قيادته كانت قليلة العدد؛ فكان هناك ٥٠٠٠ رجل فقط يتحركون في الخارج، وفي الوقت الذي لم يوجد فيه داخل العاصمة ما يريد على ١٨٥٠٠٠ مدافع .
وفي الوقت الذي كانت تدور فيه المعارك ، والتي ظهر أن نتيجتها غير مؤكدة، جاءت أنباء مظلمة من وارسو . وكانت بولندا ، هي الأخرى ، من الأعداء التقليديين لدولة النمانية ، قررت أن تنضم إلى جانب النمسا . وكان الملك جان سويسكي Jean Sobieski قد قرأ ، ودون أن توقفه الاعتراضات الفرنسية، أن يذهب فوراً لإنقاذ فينا . وأخذ معه كل فرسانه ، وأسرع في السير حتى وصل أراضي النمسا . وانضم هناك إلى جيش شارل الخامس دوق اللورين ، والذي كان قد تقدم في ذلك الوقت بوحدة من بافاريا ومن ساكسونيا . ونجح في معركة كبيرة ضد القوات المحاصرة عند سفوح كالينبرج ، قرب فينا (١٢ سبتمبر ١٦٨٣) ، في أن يفرض عليهم رغباته ، ويهزمهم على رفع الحصار ، ويدفعهم بعد ذلك حتى قلب الجبر .

٤ - النتائج، وهدنة راتسبون ١٦٨٤ :-

ولقد فهم الامبراطور ، رغم قلة ذكائه ، الدرس المستفاد من هذا الحدث . فلا يمكن للنمسا أن تهمل الخطر الدائم لهجوم عشائى عليها ، دون أن يؤثر ذلك في وجودها ، وفي نفس الوقت تكون قد قصرت في رسالتها . وبعد شكر سويسكي ، وتوديعه ، سنبذل كل الجهود من أجل تنظيم قوات عسكرية ضخمة . وكنا قد لاحظنا من قبل ، وفي الفترة التي تفصل بين الهجومين النمانيين ، ظهور نواة لجيش دائم . وكانت حكومة ليوبولد ، قد استرحت من المثل الفرنسي ، ولم تقم بتسريح القوات بعد كل حرب ، وقررت الاحتفاظ الدائم بما يتراوح بين ٢٠٠٠٠ و ٣٠٠٠٠ رجل تحت السلاح . وكان على هذا الجهد أن يستمر . وسوف تصبح النمسا بدورها دولة عسكرية عظمى ، الأولى ، بعد فرنسا .

وربما لم يحدث تخليص فينا فرحاً في أمر مكان أكثر مما حدث في روما ، و حيث كانوا يزعمون بأنهم قاموا بدور ما بالنسبة للتقارب بين هاتين الدولتين الكاثوليكييتين الكبيرتين ، النمسا وبولندا . وستكون البابوية على حق حين تدعو بصوت البابا إنوسنت الحادى عشر إلى تجميع أصحاب الميزة الصحيحة . وفى ٥ مارس ١٦٨٤ ، تكون فى لينز تكتلا مقدسا ، و برئاسة البابا ، بين كل من بولندا ، والنمسا ، والبنديقة . أما لوى الرابع عشر ، فإنه تحفظ ، بطبيعة الحال . وكان لديه سببان لشكر الله . فكانت أوروبا قد نجت من خطر العثمانيين ، دون أن يقوم بالمشاركة ضدهم . وكان الاتفاق قد أصبح صافياً تجاه الشرق ؛ فكان فى وسعه إذن أن يبدأ من جديد فى العمل ضد الاسبانيين . فعاد إلى عمليات التضييق التى كان قد حاول بها أن يحطم مقاومة لوكسمبورج . وسرعان ما بدأت عمليات الحصار . فرد ملك إسبانيا على ذلك بإعلان الحرب ، فى ٢٦ أكتوبر . وكان على لوكسمبورج أن تسلم فى شهر يونيو التالى ، وذلك فى الوقت الذى كانت العمليات العسكرية مستمرة فى الفلاندر وفى كاتالونيا .

ولقد سمحت الأحداث لفرنسا بأن تعبر هذه الأزمة الأوربية دون خسارة كبيرة لسمعتها ولعالمها ولذلك فإن لوى الرابع عشر لم يجد أن من الحكمة تعديل مشروعاته ولم يكن قد قد أى شيء من مزاجه المتقلب والعنيد . ولن يتأخر أهالى جنوا عن أن يمرروا بهذه التجربة . وكان قد عدد أخطاهم . فلم يأخذ عليهم فقط أنهم كانوا ينفذون ويستمررون رغبات إسبانيا فى البحر المتوسط ، ولكن كذلك أنهم كانوا قد أطلقوا ضد السفن الفرنسية قراصنة لهم خطرهم مثل قراصنة ماپورقة . ورأى أن الوقت قد حان من أجل معاقبة الجمهورية ، التى انتهت بأنها تبنى سفن حربية Galères من أجل الإسبان . وإسعى لاستقبال الوفود المكلف بطلب تقسيمات وضمانات بالنسبة للمنقبيل ، فبدأ حروب المدينة بدفعية الأسطول؛

بما أدى إلى إشعال النار في المدينة ، وتركها ، بعد ثلاثة أيام ، نصف غربة (مايو ١٦٨٤) . وكان لوفرا قد حضر عملية التنفيذ هذه . وكتب يقول : « هناك دلائل واضحة على أن مثل هذه العقوبة القاسية ستعلم أبناء جنوا أن يصبحوا ماقليين ، وستعلى خوفاً كبيراً لكل الأمراء الذين لهم مدن لها قيمتها على ساحل البحر . وأعلن الملك بعد ذلك مطالبه عن طريق الكرمي البابوي . فلن يكتفى بطلب غرامة حرية ضخمة . بل كان يرغب في أن يحضر الدوج بنفسه ، ومعه أربعة من أعضاء مجلس الشيوخ ، لكي يقدموا له اعتذارات الجمهورية . أما الدوج ، والذي كانت القوانين تمنحه من ترك أراضي جنوا ، فإنه اضطر إلى الموافقة والطاعة حين علم أن الصلح قد تم التوقيع عليه بين فرنسا وإسبانيا . وأعدوا له إستقبالا ممتازا في فرساي .

أما التسوية العامة للمسائل المعلقة بين لوى الرابع عشر وجيرانه فإنها تمت في المؤتمر الذي انعقد في راينسبون ، مدينه الدايت ، ولقد إحتاج الأمر إلى وقت طويل لإنهاائها . وكان على ممثل الإمبراطور أن يتحدثوا في نفس الوقت باسم الإمبراطور وباسم ملك إسبانيا ؛ وكان هذا الأخير قد مل ، ورفض إرسال مندوب عنه . أما الأقاليم المتحدة فإنها قد قامت ، ودون أن تحصل رسعياً على صفة الوسيط ، بدور من الدرجة الأولى من أجل الإعداد للإنفاق . وكان ويليام أورانج ، الذي كان منذ وقت قصير يدفع أبناء بلده إلى حمل السلاح ، قد انضم إلى وجهات نظر مجلس الطليقات ، والذي كان من أخصار الحلول السلية . ونتيجة لديبلوماسية هولندا ، تم الإنفاق على أسس المعاهدة حتى قبل أن يبدأ المؤتمر . ووافق سفير الملك على مشروع لاتفاقية ، في لاهاي ؛ فلم يكن هناك بعد ذلك سوى الإنفاق على الشروط . ولم تعلن العقود التي تم التوقيع عليها في راينسبون (١٥ أغسطس ١٦٨٤) إقامة السلم إلا بصفة مؤقتة ، ولادة

عشرين عاماً ؛ فكان الأمر ينطق بهدنة ، مفروضة بشكل ماحل إسبانيا ، وبضمان من الإمبراطورية . أما الإمبراطورية من ناحيتها ، فإنها قبلت أن يظل ملك فرنسا ، وفي خلال نفس الفترة ، يمتلكاً للأقاليم التي كان قد أخذها منذ نيميج . ولذلك فإن ككل من إستراسبورج ولوكسمبورج قد ظلت ، مؤقتاً ، بين يديه .

ثالثاً : حرب رابطة أوجسبورج (١٦٨٨ - ١٦٩٧) :-

١ - تكوين الرابطة :-

بعد التوقيع على الهدنة ، سيستل الستار لمدة سنوات بسيطة على ذلك القرب المسلح . وكان في وسع هذه التسوية التي وصلوا إليها بصعوبة أن تكون لها قيمة دائمة إذا ما نجح لوى الرابع عشر في إقناع خصومه - وأصبحوا الآن كل جهارته وبدون إستثناء - بأنه لم يعد يفكر إلا في السلم ، كما كان يحلو له أن يذكر ، وأن يكرر . وكان من الصعب الأمل في ذلك . وكان قد إستخدم القوة مرات عديدة حتى أن قلة الثقة فيه أصبحت شبه مؤكدة : وكانوا ينظرون إليه على أنه يقدر على أى شيء .

وجاء إلغاء مرسوم نانت (١٨ نوفمبر ١٦٨٥) ، بعد قليل ، لكي يبيد إثارة مشاعر العداء التي كانت سياسة ملك فرنسا غير الحكيمة قد ولدها في الخارج في سنوات الثمانينات . وأصبحت الدول البروتستانتية منذ ذلك الوقت هي الأكثر شعوراً بالمرارة : فستقوم بالتالي بإنشاء كتلة يصعب تحطيمها . وفي لندن ، ورغم مجهودات الملك جيمس ، تم تنظيم عملية جمع إعانات ، شجها البرلمان رسمياً ، في صالح المتدينين الفرنسيين الذين هربوا من بلادهم . أما سفير لوى الرابع عشر ، والذي كلف بالتصرف من أجل إعادة أولئك الذين كانوا قد

وصلوا إلى الجور البريطانية إلى بلادهم ، لم يحصل ، وبشمن باعظ لفانية ، إلا على نجاح بسيط . ونتيجة لمجهودات ويليام أورانج ، الذي كان دائم الحركة ، توصلت براندبورج والسويد ، وهما دولتان بروتستانتيتان ، تفصل بينهما ذكريات سيئة ، إلى عقد إتفاقيات دفاعية . وكانت براندبورج هي الدولة التي رأت أكبر عدد من المتدينين ، الفارين يقيمون على أرضها . وكان كل هؤلاء المنفيين يشاركون بدرجة كبيرة في إثارة المشاعر المعادية ، والتي ولدها الخوف من سياسة لوى الرابع عشر ، في الجزء الأكبر من أوروبا .

وكانت صلاية تلك التكتلات التي سكان على فرنسا مواجهتها ، لها طابع صليبي ، نتيجة المشاعر التي كانت تحرك أعضائها ، والأكثر نفوذاً من بينهم . وسوف يظهر منتخب براندبورج رغبته في الحرب ، وبشكل مميز . وكان وقت السياسة المروعة ، والتي إتبعها منذ عشرين عاماً ، والتي كان يفكر فيها إلى أي جانب ينضم ، قد إنتهى . ومنذ ذلك الوقت سوف يسير في غالب الأحيان في نفس خط الأقاليم المتحدة . ولقد وصل به الأمر إلى أن يعلن ، في أحد أيام غضبه : « أفضل المعيشة تحت حماية الأتراك على المعيشة تحت عبودية فرنسا ، ولا شك في أن لوفوا كان يفكر بنوع غامس في أبناء براندبورج ، حين كتب إلى لوفوا ، بعد الإستيلاء على لوكسمبورج بقليل : « يجب النظر إلى الألمان ، منذ ذلك الوقت ، على أنهم أعدائنا الحقيقيين ، والوحيدين الذين يمكنهم إيذائنا إذا ما كان لديهم إمبراطور يرغب في إمتلاء صهوة حصانه » .

وربما كان في وسع الدول الكاثوليكية أن تأخذ جانب ذلك المدافع الجديد من المذهب ، والذي كان يحكم من فرساي ، أو على الأقل أن تضمن له ميزة بقائها على الحياد ، إذا لم تكن قد وجست نفسها الأكثر تعرضاً ، وبطريق مباشر ، لتهديدات طموحاته ، والأكثر تعرضاً ، لضفه . ووجدت إسبانيا

نفسها ، وهي التي كانت قد رفضت حنور عماديات راتيسبون ، وقد شعرت بأنها غير مرتبطة أو ملتزمة بشكل كامل : فكان على الامبراطور نفسه أن يجبرها على إحترام الهدنة أو ، على العكس من ذلك ، أن يجبرها على العودة إلى حمل السلاح .

وكان الإمبراطور ليوبولد ، والذي كان عليه إذن أن يختار بين الحرب وبين السلام ، قد أظهر في أكثر من مناسبة أنه لم يكن يحب الحرب . وإذا كان قد تمخّل عن الأمل في أن يسوى مسألة الوراثة الأسبانية . الأمر الذي كان دائماً متوقفاً على أنه قريب الحدوث — عن طريق إتفاقية ودية تجدد معاهدة عام ١٦٦٨ فإن ذلك كان يرجع إلى أنه كان قد تأكد من أنه لن يقدر على تحلّل شرامية صبرة الفاققة . ووقف الآن بصفته الوريث العالمي لشارل الثاني . ومن ناحية أخرى ، كانت الجيوش النمساوية ، ومنذ رفع الحصار عن فينا ، مستمرة في إنتصاراتها . في الشرق ، على النمانيين . وزاد غرور آل هابسبورج إلى درجة عدم الخوف من مواجهه أخرى مع الدول الفرنسية . وكان قد تم الإسقيلاء على بودا في عام ١٦٨٦ ، كما اضطرت بلجراد إلى التسليم في عام ١٦٨٨ . وفي خلال ذلك الوقت ، كانت كل المجر قد سقطت من جديد في أيدي هابسبورج . وكيف كان في وسع الامبراطور ، ومع شعوره بقوته الجديدة ، أن يضم آذانه على التنداءات التي كانت تصل إليه من ألمانيا ، والتي كانت كلها قد هبت ضد التهديدات الفرنسية ؟ وكان المنتعّب الأكبر ، بتوسع خاص ، يدفعه إلى الحركة . وكان قد أصبح من أخصار هابسبورج : فرعد ليوبولد بمحونة مباشرة ضد النمانيين ، وبمحونة بعد فترة ضد الفرنسيين . وهذا الإتحاد الذي كان قد وضح في عام ١٦٧٤ بين أعضاء الامبراطورية ورئيسها عاد إلى الظهور من جديد ، وبطوجه أقوى . وسيعمل لوى الرابع عشر على زيادة توثيق عراه ، بدعم حنوره المتكرر ، وسعي بالتحديات .

فقد عام ١٦٨٥ ، كان هناك أولاً تدخله في مسألة وراثته البلاينيات . فعند وفاة المنتخب ، والذي كان آخر سلالة سيمون ، مرت البلاينيات إلى حكم أسرة نيوبورج Neuburg ، الكاثوليكي ، والذي كان مصاهراً لآل هابسبورج . فاعتقد الملك (الفرنسي) أن من حقه أن يدافع عن حقوق زوجة أخيه ، دوق أورليان ، وأخت المنتخب المتوفى . فرفع بإسما احتجاجاً ضد التنازل عن الميراث لآل نيوبورج . وجعل من المفهوم أنه ، إذا لم يحتل البلاد مباشرة ، فإن ذلك كان مجرد عدم مضايقة الإمبراطور أثناء ذلك الصراع الذي كان يقوم به في البحر ضد المسلمين . وفي أثناء ذلك الوقت ، ظلت الحصومة قائمة : فسيحاول أن يحتفظ بإنتباه الألمان فقط لمدة عدة سنوات ؛ وكان تكوين رابطة أوجسبورج يكلفه الكثير .

ولقد تم الإعداد لهذه الرابطة من طريق مجموعة من الإتفاقيات الدفاهية بين هولندا وانجلترا أولاً ، ثم بين السويد ، وهولندا ، وبراندنبورج . أما العقد المؤسس فلم يأت إلا في ٩ يوليو عام ١٦٨٦ . وكان الأمر الأساسي فيه هو مسألة المحافظة على معاهدات مونستر ونيمييج ، وهدنة راتيسبرن . وكان المتعاهدون هم الإمبراطور ، وملك إسبانيا ، وملك السويد ، ومجلس طبقات الأقاليم المتحدة ، ومنتخب البلاينيات ، ودوائر فرانكونيا ، وبافاريا ، وأعلى الراين . وكان الدافع قد أتى من ويليام أورانج : فكان هو الذي دعا ممثل الدول إلى الحضور إلى أوجسبورج ، وكان هو كذلك الآلة المحركة للرابطة .

ومنذ هاتين سابقتين ، كانت المواقف قد تحدتت بوضوح . وكان لومى الرابع عشر يعلم تماماً أنه إذا دخل الحرب ، فإن عليه أن يواجه كل خصومه : السابقين ، مدعين بمدد كبير من العملاء أو الأصدقاء . ولم يكن هو نفسه يقدر على الإعتماد على أى صديق . ولم يكن حتى يضمن التأييد المعنوي للكرسي البابوي ؛

والذي كان معه ، وطول الوقت تقريبا ، في مناقضات أثناء بايوية إنرونت الحادى عشر (١٦٧٦ - ١٦٨٩) . فكان هناك ، فى أول الأمر مسألة حقوق والتمتع ، والتي إنتهت بإعلان عام ١٦٨٢ ؛ ثم حدثت فى عام ١٦٨٧ مسألة النصبوبة المتعلقة بالإعفاءات ، ، بعد أن كان البابا قد قرر أن «حى ، السفراء ، فى روما ، لن يتمتع بعد ذلك بميزات الاعفاءات ، وسيخضع لشريعات السلطات البابوية . ولم تكن المسألة قد سويت بعد ، حتى ظهرت فرصة خلاف جديد ، وأكثر خطورة .

وذلك أن مكسيميليان صاحب بافاريا ، ورئيس أساقفة كولونيا المنتخب ، والذي كان حليفاً له فى وقت حرب هولندا ، توفى فى شهر يوليو ١٦٨٨ ، وإلقسم التاجيون بين مرشحين إثنين لخلافته . وكان أولهما هو ويليام فورستبرج ، وكان من أسرة أعطت كثيراً من دلائل الورد السياسة الفرنسية ، وكان يؤيده الملك . ولكن البابا إختار الشخص الثانى ، وكان شافياً ، وكان أنا لرئيس الأساقفة المتوفى . ورأى لوى الرابع عشر ضرورة دعوة أوربا كلها للمحكم فى هذا الحدث : فنشر بياناً بهذه المناسبة ، وختمه بضرورة الوصول إلى تصالح . ثم أرسل قواته لى تجلس مرشحه على العرش المتناحصر عليه . وفى نفس الفرمة ، أخذ رهاائن من البلايينات ، فى إنتظار الوصول إلى تسوية أمر الوراثة ، موضع النضام .

ولم يكن عام ١٦٨٨ قد ولى . ولم تكن مفاجآت قد إنتهت . وكان أشدها ، هى تلك التى لم يكن أحد يتوقع حدوثها ؛ والتي حدثت فى النصف الثانى من شهر ديسمبر ، وهى أخذ ويليام أورانج مكان جيمس الثانى على عرش إنجلترا . وسوف يقرر هذا الحدث موقف الدولة الانجليزية من الحرب التى كان يتم الإعداد لها على القارة . والحقيقة أنه لم يكن هناك ، إلا فى فرساي ، مرقد على

الإحتفاظ بشكوك بالنسبة لهذا الموضوع . فلقد أظهر البرلمان ، وبالتالي الأمة ، مشاعرهم بكل وضوح ، وبنوع خاص منذ إلغاء مرسوم نانت . فهل كان في وسع جيمس الثاني أن يواجه الموقف ، كما كان شارل الثاني قد فعل أثناء حرب هولندا ؟ وربما تظل الإجابة على هذا السؤال لفترة من الوقت غير مؤكدة وثابتة ، مالم يحدث تحرك غير متوقع ، ويساعد على سرعة الوصول إلى حل ، وحسد المصالح الفرنسية .

وكان جيمس الثاني قد تحول إلى المذهب الكاثوليكي بعد وصوله إلى العرش بقليل ، في عام ١٦٨٥ . وكان له ، من زواجه الأول ، إبنان ، نشأتا على المذهب الأنجليكاني . وبعد أن أصبح أرملًا ، تزوج مرة جديدة ، وهذه المرة من إحدى الأمهات الكاثوليكيات ، ماريا ديست ، الإيطالية . وولد له منها ولد ، في ٢٠ يونيو ١٦٨٨ . ولذلك فإن الأمة وجدت نفسها فجأة وقد وضعت أمام إمكانية غير مقبولة بالنسبة إليها - أن يكون لها ملك « بابوي » . وبنوع من الغفيرة إتجهت صوب ويليام أورانج ، صاحب الدولة ، في هولندا ، والذي كان منزوجاً من الإبنة الكبرى لجيمس ، وكان من أتباع مذهب كلن الواضحين . ومنذ بعض الوقت ، كان ويليام يحاول ، ولكن بدون نجاح ، أن يحصل على موافقة الملك لكي يتضمن إلى رابطة أوجسبورج . وما كاد يسمع بمولده الوارث الجديد العرش حتى قرر الموقف : فيذهب إلى إنجلترا ، لكي يدافع هناك عن حقوق زوجته ، أو ، وأفضل من ذلك ، أن يدير هناك المعركة في صالح المذهب الديني المصلح .

ومنذ هذه اللحظة ، ارتبطت أحداث إنجلترا تماماً بأحداث ألمانيا . فمنذ نهاية شهر سبتمبر ، قرر لوى الرابع عشر أن يقطع العلاقات مع الامبراطور . ونشر بياناً جديداً بشأن تقصص الهدنة . وأرسل في نفس الوقت قواته داخل

كولونيا ، وبدأ في محاصرة فيليبسبرج ، وكانت إحدى قلاع الإمبراطورية . وفي منتصف شهر نوفمبر ، وحين علم النايث بالأبناء السادة الخاصة بؤزل ويلهام على الساحل الجنوبي لانهلتر ، عند نورباي ، قرر ضرورة الخروج عن الحباد . وقرر أن يطرده السفير الفرنسي .

وفي بضعة أسابيع ستم تسوية المسألة الانجليزية . وكان ليمس الثاني زهوه ولكنه كان بعيداً عن الواقعية . ونتيجة للنزور ، ولعدم فهم الموقف . اعتنر عن قبول العون الذي جاءه السفير الفرنسي يرضه عليه باسم سيده : وذكر أنه واثق من ولاء قواته وحين رى أن جيشه قد انضم لويليام ، تكون فرصة العمل قد مرت . فلم يكن عليه إلا أن يتخلل عن الحرب . ولقد تم أسره في أثناء فراره ، ولكنه تمكن من النجاء من الأسر ، وكان ذلك أمراً يثير رضاء ويليام الذي لم يكن يعرف الطريقة اللائقة لكي يتخلص بها منه . والتجأ إلى فرنسا ، حيث أعطاه لوى الرابع عشر قصر سان جرمان ، لكي يلتجئ إليه . وحين قامت فرنسا بعد ذلك بقطع العلاقات مع الأقاليم المتحدة (٢٦ نوفمبر) ، ونتيجة لحرب تعريفات بحرية جديدة ، لم يعد في وسع فرنسا أن توقف أى شيء .

ولقد زها لوفوا Louvois ، للاستشار السى لكل هذه الفترة ، معلنا أنه في أن الحرب ستكون قصيرة المدى : ولكن الحرب سوف تستمر لمدة عشر سنوات كاملة ، ولمدة أطول من حرب هولندا .

٢ - إعلان الحرب :

بدأت الحرب بحركة فظيمة ، وهى تخريب البلايينات . وكان الأمر ، بالنسبة للفرنسيين ، يتلخص في ضرورة الضرب السريع والعنيف ، حتى يؤدي ذلك إلى إغافة العدو ، إن أمكن . وقبل أن تبدأ الحملة في المعارك ، ومنذ نهاية خريف ١٦٨٨ ، أصدر لوفوا الأوامر إلى الجنرالات بأن يقتضوا على كل قيمة البلاد التي

يمكن أن يستفيد العدو منها كقواعد أساسية للمليات . فلم يكتفوا بعملية إخلاء الأرياف ؛ بل أخذوا كذلك في تخريب المدن : فأحرقت مدن سبير ، وورمس ، وماتهايم وحتى هيلدبرج ، عاصمة الإقليم المنتخب . وكانت النتيجة بطبيعة الحال هي دفع الألمان إلى آخر مشاهرم . وقام كتابهم بمهاجمة لوى الرابع عشر ، وإتهامه بأنه دأبلا ، جديده ، فرنسى . وفى عالم الأمراء ، كان كل منهم يعرف أن الحرب الدائره وحالها هي حرب حتى النهاية . ولذلك فإنه لن تكون هناك ، هذه المرة ، أية عملية الخروج من الحرب . وحتى سكان ويتلمباخ أنفسهم تخلوا عن عائلته الفرنسيين ، وكانت مصالحهم قد أصبحت فى مسألة كولونيا ، كما أن المنتخب الجديد شارل ليمانويل ، كان قد تزوج ابنة الإمبراطور لويولده .

وفى شهر أبريل ١٦٨٩ ، فتحت إسبانيا حدود الأراضى المنخفضة للقوات الألمانية : فرد لوى الرابع عشر على ذلك بإعلان الحرب . وفى الشهر التالى ، قام ويليام أورانج ، والذى أصبح فى لندن الملك ويليام الثالث ، بدوره بدفع إنجلترا إلى الحرب . ثم تمهدت أهداف حرب الحلفاء فى معاهدة تم التوقيع عليها فى فينا بين الإمبراطور والأقاليم المتحدة (١١ مايو ١٦٨٩) : فلم يعد الأمر يتعلق بمجرد المحافظة على معاهدات تيميج وهدنة راتيسبون فقط ، بل وأيضا إعادة أوروبا الغربية إلى حالة الأرضناح المحددة فى معاهدات مونستر والبرانس . وكانت هناك ، علاوة على ذلك ، فقرات سرية تعترف بحقوق ليوبولد فى الوراثة الاسبانية اللقبية . أما إنجلترا وويليام الثالث ، فإنها لم تنضم إلى معاهدة فينا إلا بعد ستة أشهر ، وحين تمكن الملك من التغلب على بعض الممارضات من جانب البرلمان .

وأتمت الحلقة إطباقها حول فرنسا فى أثناء العام الثانى من الحرب ، وذلك من طريق إنضمام إسبانيا وسافوا إلى التكتل ، وكان الملك شارل الثانى قد قد تزوجت ، الفرنسية ، ماري لويز دورليان ، وتزوج مرة أخرى بعد عام (مايو ١٦٩٠) ،

وفي هذه المرة الجديدة من تمسوية . وكان معنى ذلك الإرتباط المسبق بالتسكلك
الذى كان تحت الإعداد : وأعلن إنفضاه رسمياً في ٦ يونيو التالى . وأخيراً ، فى
شامبرى ، ومنذ نصف قرن ، ومنذ معاهدة شيراسكو ، والى كانت ، فى نفس
الوقت الذى حرمت فيه أسرة سافوا بينيرول ، سمحت لها بالحصول على جزء من
مونتفيرا ، كان الأوراق قد ظاروا فى نطاق العملاء الفرنسيين . وفى عام ١٦٨١ تار
فلق فيكتور آميدى الثانى نتيجة لإستيلاء لوى الرابع عشر على كاسال . ولكنه كان
ضعيفاً ، وبشكل لا يسمح له بالتصرف كأمر مستقل ، فقبل معاهدة تجبره على
وضع دوقيته تحت تصرف الفرنسيين فى اليوم الذى يقومون فيه بأى عمل ضد
إقليم ميلانو (٢٤ نوفمبر ١٦٨٢) . ثم تزوج من ابنة أخ الملك ، ابنة دوق
أورليان . والآن ، جاء تكوين التسكلك لى إعطيه الشجاعة الكافية لى يقرر
تغيير المواجهة : فيرتبط سرياً ، فى شهر يونيو ١٦٩٠ ، بالإمبراطور وبملك
إسبانيا .

٤ - الحرب وعملياتها :

لقد أصبح اسم « حرب رابطة أوجسبورج » ، كلاسيكياً ، ولا يتطابق
كثيراً مع الحقيقة ، مثله فى ذلك مثل اسم الحرب الساجقة ، حرب هولندا . وإن
ما يرجع إليه فى الحالتين هو مجرد أصول الصدام . وهذه المرة نجد ، ومن البداية
أن العمليات تنسج على النطاق الأول ، وتمتد إلى الجزء الأكبر من النطاق القارى
والبحرى المحاذى للدول الغربية . ولقد ذكر أحد المؤرخين الإنجليز أنها حرب
من نوع جديد . ونحن ننظر إليها من بعيد ، نجد أنها بلا شك كبيرة الشبه
بالحروب الأخرى ؛ ولكنها حرب لها خلفيات مختلفة . ويمكننا أن نسلط الأنوار
على رغبة حكومة لندن ، والى يسيرها البرلمان ، فى الدفاع عن مصالح التجارة
البريطانية ، على كل تقط العالم التى يمكن أن تهددها فيها المنافسة الفرنسية . وكان

موفقاً من نفس النوع قد وضع عند أصول حرب هولندا . وذكر كوليبر كلة « حرب النقود » . ولذلك فإن عامل الجدة الذي يظهر من الزهرة الأولى ليس كبيراً . ولكن أمر الدفاع عن المصالح الوطنية في الشؤون الاقتصادية ، والرغبة في جعلها تنصرف على منافس له خطورته ، قد غيرت من إيجابها . فكانت إنجلترا قد سيطرت على رابطة من الأمم تشعر بالغيرة ، وعملت على تنمية كل القوى المادية والمعنوية في نفس الوقت للغرب ، ضد الدولة الفرنسية .

وسوف يصطدم التكتل بأكثر الخصوم قوة في التسليح ذكره التاريخ حتى ذلك الوقت . وكانت أعمال كوليبر وأعمال لوفوا قد أتت ثمارها . فكان الأسطول والجيش ، لا يوجد لها مثيل . وكانت إمكانيات المستقبل — والتي كذبها سحر الأحداث — تسمح بالثقة في هذه الوسائل العظيمة الحرب ، وفي مداها وقاطعتها وكانت موارد المال والرجال لا تزال وفيرة . وعلى البحر ، وفي مواجهة الأسطولين القويين لإنجلترا وهولندا ، والذين كانا متحدين كل الاتحاد ، لم يكن لدى فرنسا سوى تفوق نسبي . وأكثر من أي وقت مضى ، اضطرت ومنذ البداية إلى أن تطلب معونة اقتراسة .

وفي يوم ٢٠ يونيو ١٦٩٠ حصل الأسطول الرسمي على نجاح واضح ضد الإنجليز والهولنديين في مسألة رأس يفيغير ، وكان انتصاراً بدون نتائج كبيرة ، وإن كان يسمح للدك بتقديم الشكره . وفي نفس الوقت ، كان الملك جيمس ، والذي كان قد نزل في إيرلندا . والذي كان قد جمع أعوانه ، والذي كان بعض الجناباط الفرنسيين قد انتحروا به ، قد إنهمز أمام قوات الملك ويليام الثالث في معركة بون (أول يوليو) . وبعد عامين من ذلك ستكون هناك كارثة لاهوج (٣ يونيو ١٦٩٢) . وعند أصول المسألة ، كان هناك مجهوداً جديداً من أجل معونة ملك إسبانيا السابق على إستعادة عرشه . وتجمع جيش صغير ، وفي غالبيته

من الأيرلنديين ، عند طرف كونتين . ولكن تورفيل Tourville ، الذي كان عليه أن يؤمن المواصلات عبر بحر المانش ، وبالتالي أن يسهر على أمن القنارات المتجمعة ، واجه هجوماً من أسطول أنجلو هولندي متفوق عليه عددياً . فالتجأ إلى خليج لاهوج ، رغمًا عنه ؛ وإحترق الأسطول بأكمله . وهكذا اختفى الجزء الأكبر من القوات البحرية لفرنسا في بضعة ساعات . ولذلك فإن الحرب البحرية الكبرى سوف تتوقف هنا .

أما ما تلى ذلك فلا يزيد كثيراً عن عمليات طارئة أو حسب الظروف ، لعبت سفن القراصنة فيها الدور الرئيسي . ولم تعد حرب السباق البحري مقروكة لمرى رؤسائها الماديين ، مثل جان بار Jean Bart في دنكيرك ، أو دوجاي تروان Duguay - Trouin في سان مالو . فقد أصبحت معظم عملياتها يتم الإتفاق عليها في باريس ، وفي مكاتب وزير الدولة البحرية ، سينيلاي Seignelay ، ثم بوشارتراي Pontchartrain . ومن الواجب علينا أن نذكر هنا نجاح أخير يحسب للأسطول الحربي : ففي شهر يونيو ١٦٩٣ ، كانت هناك أسطول أنجلو هولندي يقوم بحراسة سفن تجارية ، أقفلت إلى شرق البحر المتوسط ، وتمكن تورفيل من تفريق شمله وتحطيمه جزئياً عند الساحل الجنوبي البرتغال . وفي العام التالي ، حاول العدو أن يقتحم مدخل ميناء برست ، وهاجم التحصينات التي كان فوبان قد أمر أخيراً ببنائها ، ونجح في القيام بعملية إنزال ، ولكن لوقت قصير ، عند نقطة كاماريت (يونيو ١٦٩٤) : ولكن مثل هذه المحاولات لن تتكرر بعد ذلك . ومن وقت لآخر سوف تستخدم موانئ بحر الشمال وبحر المانش فقط كأهداف المدفعية . ومالت بهزودات الأنجلو هولنديين بشكل خاص إلى حماية أساطيلهم التجارية : وكان أحدهما قد تفرق شمله ، يوم ١٦ يونيو ١٦٩٦ ، في معركة قرب دوجر بانك ، وعمود الجندارة في ذلك إلى جان بار بنوع خاص .

ولم يحدث في أى وقت مضى أن عرفت حرب السباق البحرى مثل هذا التقدير الكبير . وفي لندن ، وفي أمستردام ، كان أصحاب رؤوس الأموال لا يناقشون أبداً في قيمة الأموال التي كانوا يدفعونها للمتفوقين في هذه العمليات . وظهر واضحاً أنهم كانوا يجادون بنوع أساسى من أجل المصالح التجارية . وكان أصحاب المصالح الرئيسية في ذلك على حق : وكانوا لا يتوقعون أن تلح عليهم الدولة من أجل أن يدفعوا الموارد اللازمة لها . وهكذا تحولت إنجلترا للتراضمة ، في القرن السابق ، والتي كانت مضطرة لعمل ألف حساب حين تعلم أن عليها بذل مجهود حربى وأصبحت الآن قوة مالية من الطراز الأول ، تتفق دون أن تحسب ، إذا ما شرعت بضرورة ذلك . وكانت هى ، مع الأقاليم المتحدة . تمثل أصحاب مصارف التكتل . وكان من الصعب على الإسبان وعلى الألمان أن يظنوا لفكرة طرولة تحت السلاح دون أن تصل إليهم معونات مالية ، من وقت لآخر .

وفي البحر المتوسط ، ظهر بعض القراصنة الهولنديين ، مثل فليسنجوا *Fleissinguois* الرهيب ، والذين كانوا يحتبسون عند مدخل دقناة مالطة ، أى بين مالطة وصقلية . وتهددت تجارة مرسيليا مع شرق البحر المتوسط ، وكانت هذه هى إحدى الفترات القليلة التي نجحت فيها بحارة القوافل ، البحرية في فرنسا . ومن ناحية أخرى ، جاء أسطول يحمل العلم الانجليزى ، في عام ١٦٩٥ ، ووصل حتى المراكز التجارية في شرق البحر المتوسط . وظهرت قوته حتى أن أحداً لم يتجاسر بقطع الطريق عليه :

ولاشك في أن حرباً تشترك فيها إسبانيا والقوى البحرية ستكون لها بالضرورة آثارها في أمريكا ، وعلى الأقل في خليج المكسيك . وكما حدث في الماضى ، امتدت العمليات إلى سان كريستوف ، وسان دومنجو ، وإلى جوا دي لوب وجمايكا . أما المرحلة الأكثر شهرة ، فكانت هى عملية قرطاجنة ، على ساحل كولومبيا .

فتم الإستيلاء على الموقع بواسطة أسطول فرنسي في عام ١٦٩٧، ثم عاد المستعمرون، بعد مفاوضات عديدة، إلى بروت ، في الوقت الذي كانت تجرى فيه مفاوضات الصلح .

وعلى خلاف أعوام ١٦٧٠، امتدت الحرب هذه المرة ووصلت إلى شواطئ سان لوران . ونشعر برغبة في أن نقول أن الحكومات لم يكن لها في الأمر شئ . إذ أنه في الوقت الذي تمتدت فيه العمليات ، كان هناك إتفاق بين لندن وباريس على أنه ، في حالة نشوب الحرب ، تحظى المستعمرات بحالة الحياد . وكان ذلك يرجع إلى تفكير قديم ، وهو التفكير الذي سوف يستمر لبعض الوقت كذلك : فيجب على سكان المستعمرات عدم التدخل في الخلافات المسلحة التي تقع بين الأوطان الأم . ولكن علينا أن نلاحظ فقط أن إتفاق عام ١٦٨٦ بهذا الشأن كان قد عقد بين لوى الرابع عشر وجيمس الثاني . ولم يتم ويليام بالتصديق عليه ، إذ أنه كان مصمماً على أن يقوم ضد الفرنسيين المكروهين بحرب لامرأة فيها حرب شاملة . ولذلك ، فإنه لن يحترم هذا الاتفاق . هذا علاوة على أن أصحاب المصالح الرئيسية ، وهم المعرون ، كانوا غير متعاونين . وقد يبدو من الرحلة الأولى أنه من الواجب ألا تكون هناك عداوة رئيسية بين الفرنسيين والإنجليز في أمريكا . وكانت إنجلترا الجديدة لا تمثل حتى ذلك الوقت إلا شريطاً من الأراضي على ساحل المحيط ، أما البلاد الداخلية ، وفيما وراء جبال الياجوا ، فكانت لا تزال تابعة لقبائل الهندية . وكانت غالبية المعمرين تتكون من المزارعين . أما في الشمال ، وفي بوسطن مثلاً ، فإنهم كانوا يمارسون تجارة الفراء . وكان الذين يقومون بهذه العملية يحقدون على الفرنسيين ، والذين كانوا في وضعية متميزة على وضعيتهم ، إذ أنهم كانوا يقيمون في منطقة البحيرات العظمى ، عند « مصادر الكاستور » . وكانوا قد أثاروا ، ومنذ وقت بعيد ، الهنود ضدهم . وكانوا يمارسونهم ، إذا ما منحت الفرصة .

وأما العمليات الثانوية ، وهي التي شهدتها سافوا وكسالونيا ، فإنها لم تشتمل على أحداث هامة . وفي الجنوب الشرقى ، لم يبق كاتينا ، وهو الذى كان يسيطر على أراضي سافوا الواقعة فيما وراء الألب ، بما فى ذلك كوتقية نيس ، إلا بهجوم قمع المدى داخل يدمون . وفي الجنوب الشرقى ، خضعت كسالونيا لإحتلال جزئى فى الأشهر الأخيرة من الحرب : فخضعت يرشالوة لحصار من البر ومن البحر . وحين جاء التسليم (٩ أغسطس ١٦٩٧) ، كانت عمادتنا الصلح قد قاربت نهايتها .

وفي أثناء عام ١٦٩٦ ، بدأ الموقف لفترة من الوقت على أنه قد استمر على كل الجبهات ، وذلك فى الوقت الذى رغب فيه حكومة لندن ، والتي كانت مشغولة بأزمة مالية حادة ، وتخشى من إمكانية إعلان إفلاسها ، فى أن تصل إلى الصلح . ومنذ ذلك الوقت ، بدت نهاية الحرب على أنها قريبة ، ومن جانب آخر ، كان أحد أعضاء التكتل يمد نفسه لئلا يخرج منه . وكان هذا هو آخر من انضم إلى التكتل ، أى دوق سافوا . حقيقة أنه لم يكن قد كف أبداً عن التفاوض ، وكان يعرض على لوى الرابع عشر ، وبلا جدوى ، أمر أن ينضم إليه ، إذا ما حصل على بينهول ، التى كان قد تركها فى عام ١٦٤٨ . وبعد أن تمت الموافقة على ذلك ، تمعد ، بمساعدة تودين السرية (٢٩ يونيو ١٦٩٦) ، على أن يضم قواته إلى القوات الفرنسية ، من أجل غزو إقليم ميلانو . وبعد غزو منطقة ميلانو ، قام كل من الإمبراطور ومالك إسبانيا باستعداد قواتهما . وصعدا ، فى ٧ أكتوبر ، بأن يعتبر الدول الإيطالية ، منذ ذلك الوقت ، على أنها أراضى محايدة (معاهدة فيجيفانو) .

٤ - صلح ريزويك :

ومنذ السنوات التى تمت فيها المحادثات السرية مع الإقليم المتحدة ، كانت العبء الرئيسية تتمثل فى الرضا المستمر من جانب لوى الرابع عشر للاعتراف

الفرنسيون أن يطردوا . ولم يتقدم سوى مجيء عدد من سفن الأسطول . وفي عام ١٦٩٧ ، أوى فى عشية الصلح ، جاء دور الانجليز لكي يفكروا فى التخلي عن الجزيرة .

أما فى شبه القارة الهندية ، وحيث كانت أعداد الأوربيين صغيرة ، فإن الحرب قد استمرت من طريق الشركات التجارية ، والتي كانت الحكومات قد فوزتها كل السلطات بشكل نهائى . وكان على الفرنسيين أن يواجهوا الانجليز والمولنديين فى نفس الوقت . ونضمت بوند شيرى ، قاعدتهم الرئيسية ، لعملية حصار منظم ، قام بها الأسطول المولندى ، الذى دعم على البر بعض القوات التى كانت قد نزلت حديثاً . وكان على المدافع عنها ، فرانسوا مارتان François Martin ، مدير الشركة ، أن يسلم الموقع فى شهر سبتمبر ١٦٩٣ . وحصل من ناحية أخرى ، وفى الوقت الذى إشتعلت فيه الحرب ، من سلطان المنول ، على فرمان يسمح لرعابا الملك بالإقامة فى شاندر ناجور ، عند مصب نهر هوجلى ، وبأن يتاجروا بحرية فى منطقة البنغال المجاورة ، والتي كانت مركزاً كبيراً لإنتاج الحرير ، وسيصبح الفرنسيون فى شاندر ناجور ، جيواناً مع كلكتا ، التى إشتىء فيها مركز تجارى إنجليزى فى نفس هذه الفترة .

ولكن علينا أن نعود إلى فرنسا ، فلى الحدود البرية لم يتغير خط المارك كثيراً . وكان الحلفاء قد بدأوا بالهجوم فى الأراضي المنخفضة . وكان لوى الرابع عشر قد أرسل إلى هناك أقوى جيوشه ، وبقيادة أفضل قادته ، مارشال لوكسمبورج . وتجمعت أممها المواجهات الرئيسية داخل منطقة صغيرة ، هى الجزء الجنوبي من الأراضي المنخفضة : فأولا فليروس ، حيث تم وقف تقسيم جيوش الحلفاء فى أول يوليو ١٦٩٠ ، ثم ستينكيك ونيرويتدن . أما المواقع الحصينة ، مثل مونس وتامور ، فإنها تشرفت بحاصرة الملك العظيم نفسه لها .

بالنظام الملكي لويليام الثالث . وإنهى الأمر ، فى عام ١٦٩٥ ، بالتخلص من هذه العقبة . ومن تنازل إلى تنازل آخر ، تم الإتفاق على التقط الأساسية فى عام ١٦٩٧ . وفى شهر مايو ، تم إفتتاح مؤتمر فى ريدريك ، قرب لاهاي ، بعد أن لعبت السويد دور الوسيط . ومرة أخرى ، رفضت إسبانيا أن ترسل ممثلا عنها . وكانت تخشى ، كما كان عليه دائما ، من أن يتم عقد الصلح على حسابها . أما دوق سافوا ، فإنه أعلن معاهدة تورين : ولذلك فإنه قطع الصلة بحلفائه .

وكان يمارض وجهات النظر الفرنسية ، فى ريدريك ، وجهات نظر تلك الكتلة المتضامنة بقوة ، والتي كانت تشكل من « القوى البحرية » . ولما كانت هذه الدول لا تخشى شيئا من بقاء سريان شروط معاهدة نيميج ، تم الإتفاق بسهولة على هذه التقطه التى كانت كبيرة الأهمية بالفسية للدبلوماسية الفرنسية . وكانت المشكلة الأكبر صعوبة فى الحل هى مشكلة التعريفات الجركية . وكان الفرنسيون قد شعروا بعدم علامة إتباع سياسة جركية معادية للتجارة الإنجليزية والهولندية ، كما كانوا قد فعلوا فى عهد كورليير . فوجدوا إذن بآلفاء معرفة عام ١٦٦٧ ، والتي كانت ، منذ نيميج ، لا تطبق إلا على البضائع الإنجليزية . أما التعريف الجديدة ، والتي سوف تطبق فى عام ١٦٩٩ ، فتستكون لها طبيعة الحل الوسط بين تعريفى عام ١٦٦٤ ، وعام ١٦٦٧ . أما فى المستعمرات ، فإنهم سوف يطبقون المبدأ العام الخاص بعودة الوضع القائم *Statu quo* : فتعود فرنسا إلى ملكية بور روبال ، فى أكاديا ، وملكة يوند شهرى ، فى الهندستان .

ولقد امتد أمر التوقيع على المعاهدات بين لوى الرابع عشر وبين خصومه المديدن طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر ١٦٩٧ . وفهمت إسبانيا ، فى آخر وقت ، أنه لم يكن هناك داع لنقضها . وكانت قد أصيبت بهزائم خطيرة فى كتالونيا . وكانت فى منتهى السعادة لى تحصل ، هى كذلك ، على أمر تطبيق مبدأ عودة الوضع القائم

من الناحية الإقليمية . وتأكدت شروط معاهدة نيميج ، في إجمالها . ولذلك فإن فرنسا أعادت لوكسمبورج ، وكذلك الأماكن الأخرى التي كان قد تم احتلالها في أثناء الحرب . وبمعاهدة خاصة ، حصل الهولنديون على حق الاحتفاظ بمجاميع ، في المستقبل ، في الكثير من هذه الأماكن ، مثل كورتراي ، وآت ، ومونس ، وشارلوا ، ولوكسمبورج ، والتي كانوا قد إهتوا بأمر تدعيم احتلالهم لها مقدماً ؛ وهي التي سوف يبدآن في تسميتها «بالخارج» . وفي الأتقل ، تم التخلي عن الجزء الغربي من سان دومينجو لفرنسا ، والتي كانت تسيطر على الجزء الأخر من الجزيرة .

ولقد انفصل الإمبراطور والإمبراطورة عن حلفائهما في وقت إنهاء الإنفاق ، خوفاً من عدم التكن من الحصول على موافقة على بعض مطالبهما ، وبخاصة فيما يتعلق بشأن مستقبل الوراثة الأسبانية . وفي حقيقة الأمر لم تكن الدولة المتساوية حرة في حركاتها . وكان مصيرها ، في الفترة الحديثة ، أن تصبح موزعة دائماً ، وحتى مشدودة ، بين الشرق والغرب ، بين الصراع ضد الاسلام الذي كان غازياً ، وبين الدفاع عن الإمبراطورية المقدسة ضد الاعتداءات الفرنسية .

وكانت الحرب النمانية الجديدة ، والتي كانت قد بدأت في عام ١٦٨٣ مع أمر الدفاع عن فينا ، قد استمرت منذ ذلك الوقت . وكانت حتى قد اتحدت بشكل لم يسبق له مثيل ، وأخذت الشكل الحقيقي لحرب صليبية : ذلك أن البنادقة ، ومن بعدهم الروس ، قد انضموا إلى هذه «العصبة المقدسة» ، التي كان قد تم إنشاؤها تحت رعاية البابوية ، من أجل الدفاع عن المسيحية المهددة . وقامت البندقية بإرسال جيوشها ، والتي كانت تتكون في غالبيتها العظمى من المرتزقة الألمان ، إلى دلاشيا ، والجزر الأيونية ، وإلى المورة ، في نفس الوقت . وتمكنت من أن تسيطر على مضيق كورتشا ، ثم استولت ، في عام ١٦٨٧ ، على أثينا ، وذلك بعد عملية قذرة

بالمدمية هدمت جزءاً هاماً من الباريتون . أما عملية الاستيلاء على بودا ، فقد نجح انتصار كبير (في ١٢ أغسطس ١٦٨٧) ، قرب ميدان معركة موغان ، والذي كان قد شهد من قبل انتصار جيوش السلطان سليمان ، في عام ١٥٢١ .

وبعد أن تم أمر إستعادة كل الحجر ، ظهرت مشكلات جديدة وطرح نفسها أمام السياسة النموسوية . فلقد زادت قوة بقطة الاتجاه القوي المجري ، نعت تأثيرات مختلفة ، وعلينا ألا ننسى من بينها تهديد النشاط المجري من جانب العثمانيين . ومنذ ما يزيد على قرن ، كان المجريون قد تمردوا على أن يديروا شئونهم بأنفسهم تحت السيادة البعيدة للسلطان . وكانوا لا يوافقون تماماً على أن يقوما من جديد ، تحت سلطة آل هابسبورج ، ويقاسوا من نظامهم الضرائبي ، ومن إدارتهم التي كانت تتميز بالشكليات ، وببطء التنفيذ . وأما في بوميسيا ، فقد حدث في بداية القرن ، أن ظهرت حركة ودفع شديدة ضد الاتجاه الجرماني المتزايد . وإبتداء من سنوات ١٦٧٠ ، تحولت العناصر غير الراضية ، إلى عناصر ثائرة . وبدوا أيدبهم إلى جيرائهم في ترانسلفانيا ، والذين كانوا في حالة شبه دائمة من الثورة ، إما ضد السيطرة العثمانية ، وإما ضد السيطرة المجرية . ولقد تلب النموسويون ، وأظهروا شدة بأسهم لسكان البلاد التي أعيد غزوها . وصبرت القسوة العنيفة أمر مروم في بعض المناطق ، كما يظهر من الملاحم التي ظلت شهيرة في تاريخ الحجر ، تحت اسم دلتايح إيبيري .

وبعد أن تمت عملية التحرير . حصل ليوبولد من الهابس التي اجتمع في برسبورج في عام ١٦٨٧ ، على إعتراف بوراثة تاج القديس إيفين ، وبغض الطريقة التي كانت قد تمت في براغ منذ نصف قرن قبل ذلك بشأن تاج القديس وينسيسلاس . وبعد سقوط مدينة بلجراد بدورها (٦ سبتمبر ١٦٨٨) ، بدأت الغزوات في أراضي الصرب . وتم غزو مدينة نيش (وكانت تسمى في ذلك الوقت نيسا) ، في عام ١٦٨٩ ، ثم قُضت من جديد في العام التالي . وفي الأراضي

المجرية ، تم في عام ١٦٩١ انتصار لقوات لوى صاحب يادن في شلاكيمين ، ثم سحق جيش عثمانى ، في عام ١٦٩٧ ، عند جسر زيلنا ، على نهر تيزا .
وفي ذلك الوقت ، كانت الحرب وشبكة الإنتهاء . ووافق ليوبولد ، مع حلفاءه البولنديين ، والروس ، والبنادقة ، على قبول بدء المفاوضات في كلوفيتز ، قرب نهر الساف : وسوف تنتهى في العام التالى . وكان آل هابسبورج قد تغلوا عن الإستمرار في الحرب ضد العثمانيين ، وربما فقدوا بذلك فرصة الحصول على نصر نهائى ، وذلك من أجل مراقبة الغرب بشكل أفضل ، ولكن لا يزال تحت السلاح . ولن يتأخر السلاح كثيراً فيما يتعلق بالشرق ، وذلك نتيجة لتوسط الحلفاء الإنجليز والهولنديين (٢٦ يناير ١٦٩٩) . وتم الإعراف بملكية الإمبراطور لكل المجر ، فيما عدا يانات تامسفار . وتم إعادة إقليم بودولى لبولندا ، والتنازل عن المودة البندقية ، مع جزء من المناطق التى كانوا قد غزوها أخيراً في دالماتيا وفي ألبانيا . أما الروس ، الذين لم يحصلوا على إرضاءات فيما كانوا مطالبون به ، فلمهم لم يوقعوا على المعاهدة . وفيما بين فينا وإستابول ، لم يكن الأمر سوى مجرد هدنة بسيطة ، وكما كان عليه الحال دائماً ، تحدثت لها فترة خمسة وعشرين عاماً .

وقد إنتهى الأمر ، على مرور الوقت ، بمرافقة ليوبولد على الشروط المتفق عليها يوم ٣٠ أكتوبر ١٦٩٧ في ريوريك . وكانت المفاوضات حادة بين ممثلين لوى الرابع عشر ، وظل مصير إستراسبورج معلقاً لفترة طويلة . وقد وافق لوى الرابع عشر ، في إحدى اللحظات ، على أمر إعادتها . ثم عاد وتراجع عن ذلك حين أتت ظروف مواتية أكثر . ولذلك فإنه سوف يحتفظ بإستراسبورج ، مع كل الأراض ، والتي لن يناقش أحد بعد ذلك أمر سيادته عليها . وسوف يتخلى ، في مقابل ذلك ، عن كل الأماكن التى كان قد إحتلها فيما وراء نهر الراين (فريبورج ، وكريستش ، وكيل ، وفيليبسبورج) ، وعلى كل الأماكن تقريباً

التي كانت قد تجمعت بقرارات قضائية في عامي ١٦٨٠ - ١٦٨١ . وسوف تعود اللورين إلى دوقها ، وفي نفس الوضع الذي كانت عليه في عام ١٦٥٩ ، أي بما في ذلك الطرق الإستراتيجية والتي كان قد تم التنازل عنها في معاهدة فانسين. أما القلستان ، والتي كانتا قد بنيتا في أرض اللورين بعد ذلك ، وهما سارلوي ، ولونجوي ، فإنها سوف تبقىان مع فرنسا ؛ وستحتفظ قوات الملك ، وفي كل وقت ، بحق إستخدام أرض الدوقية من أجل المرور من ميتر إلى الأناضول . وأخيراً فإن حلول وسط سوت ، وفي غير صالح الإدعاءات الفرنسية ، المنازعات الخاصة بمنطقة الراين . وتركزت رئاسة أسقفية كولونيا للمرشح الذي كان يعارضه لوي الرابع عشر ، أما أمر متعلقات وراثتها البلاينيات ، فيكون موضوع تحكيم من جانب البابا : وجاء القرار في هذا الموضوع ، في عام ١٧٠٢ ، في غير صالح دوقه أوليان ، والتي سوف تقنع بتعويض يبلغ ٣٠٠.٠٠٠ جنيه .

وبطبيعة الحال ، كانت معاهدة فيرديك تتضمن بعض المواد التجارية : فتم بنوع خاص إلغاء الرسم الشهير ، والذي كان يبلغ ٤ سوعن كل طن ، والذي كان قد فرض منذ أربعين عاماً على كل سفينة أجنبية تصل إلى الموانئ الفرنسية .

وفي المجموع ، تراجعت السياسة الفرنسية ، ولكن فيما يتعلق بمسائل لم تكن حيوية . وخرجت البلاد سليمة من هذه الأزمة : فلم تفقد تقريباً أي من تلك المكاسب التي كانت قد حصلت عليها من قبل بمعاملة . ولم يكن ذلك بطبيعة الحال كافياً من أجل للتشوق بالنصر ؛ بل إن الرأي العام قد حكم بكل شدة على إنتافيات فيرديك ، وكان قد أصبح حساساً بدوجة ملفنة للنظر بشأن التخلل عن الأراضي ، مما كانت صغيرة . ومع ذلك ، فقد تم الإحتفال بها في فرساي ، كحدث مجيد . وظل لوي الرابع عشر دون أن ينهزم : وسوف يحاول أن يعتبر نفسه على أنه لا يهزم .

لفصل العشرون

حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠١ - ١٧١٤) ، وأوج قوة إنجلترا

كانت الازمة الجديدة ، وهى الازمة الأخيرة فى فترة حكم لوى الرابع عشر ، هى الأكثر طولا ، وكذلك الأكثر تكلفة ، من جميع النواحي . وأكثر من الأزمات السابقة ، كان لوى الرابع عشر قد تسبب فيها ، وعن عمد . ولا يمكننا ، هنا أيضاً ، إلا أن نعلن عن دهشتنا . وكان من الواجب ، وهو على مشارف الشيخوخة — وكان قد بلغ الستين فى ذلك الوقت — أن يكون عصر الخيالات قد انتهى بالنسبة إليه . وكان يعرف مدى ذلك العداء الشديد الذى كان يشمر به الإنجليز والهولنديين تجاه كل توسع ، أو حتى زيادة قوة جوارهم الفرنسى . وكان أحد حلول هذه المسألة الخطيرة ، والتى كانت هى أمر الوراثة الإسبانية ، قد تم الإتفاق عليه معهم . وكانت له ، من الظاهر ، بعض المساوىء . ولكنه كان على الأقل يعطى ميزة حثيث السلم . ولا نعرف السبب سواء كان الخطأ أو سوء الحظ ، الذى جعل فرنسا تصل فى النهاية إلى إختيار حل آخر ، كان من المؤكد أنه سوف يستتبع نشوب الحرب .

أولاً : أصول حرب الوراثة الاسبانية : -

١ - مسألة الوراثة :

كان الهدف المشترك للدبلوماسية الهولندية ، والدبلوماسية الإنجليزية ، فى هذه المسألة ، هو تمهيش أمر بحث الحياة من جديد فى إمبراطورية شارل الخامس

(شركان) ، بنشأة إمبراطورية إسبانية ألمانية من جديد ؛ وكذلك أمر مولد إمبراطورية فرنسية إسبانية ، يوجهها لوى الرابع عشر من قريب أمر من بعيد وأعطت جهوداتهم نتائجها ، بعد عام من ديوبك : وتم تسجيل الاتفاق مع فرنسا في إحدى المعاهدات ، التي تم التوقيع عليها رسمياً في شهر أكتوبر ١٦٩٨ . وكان المفوضون الرئيسيون هم ، من الجانب الفرنسي ، ضابط كبير ضليع في الدبلوماسية ، تايار Tallard ، ومن الجانب الإنجليزي أحد أقرباء الملك ويليام ، وهو ويليام بنتنك William Bentinck الذي كان قد حضر من قبل إلى إنجلترا ، معه ، والذي أصبح لورد بورتلاند . وفي باريس ، إقيمت مراسم إستثنائية للود بورتلاند ، خاصة وأن لوى الرابع عشر كان يرغب في أن يظهر إهتمامه بملك إنجلترا بعد أن كان قد رفض الإتراف به رسمياً حتى ديوبك . وكلما ذكرسان سيمون ، قام لوى الرابع عشر حياله بما لم يتم به حيال أى سفير آخر ، وحتى إلى حد إستقباله في حجرة نومه الخاصة ، في أحد الأيام التي كان فيها تحت العلاج .

وإستمرت مناقشة أمر توزيع أراضي الإمبراطورية الإسبانية لوقت طويل . وكان تأخير التجارة البريطانية واضحاً في المطالبة بدلكرك ، من ناحية ، ومن ناحية أخرى في المطالبة بجبل طارق ، الذي دخل ، في ذلك الوقت ، في تاريخ العلاقات الدولية . وكان من الضروري أن يكون نصيب الإمبراطور أساسياً ، حتى تكون هناك فرصة لكي توافق فينا على الحل النهائي . ولذلك فإتهم فرودا أن يكون أحد أحفاده ، وهو أمير باقاريا المنتخب ، وإن المنتخب من أرشيدوقة نمسوية معتبراً على أنه وارث متبصر . وسيحصل ، وبصفة شخصية تماماً ، على إسبانيا ، وجزر الهند الأمريكية ، والأراضي المنخفضة . أما بقايا الوليمة ، فيتم إقسامها بين أفراد الأسرتين المتنافستين في فينا وفي فرساي : فيحصل أحد أبناء ليوبولد على إقليم ميلانو ، بينما يحصل أحد أحفاد لوى الرابع عشر - لأن لوى المهمل لم يكن له

إخوة - على ملكة الصقليتين ، وتوسكانيا ، وجيويوشوا ، وبلاد الباسك . وفي هذه المرة ، إستتمع لوى الرابع عشر لصوت الحكمة ، وقبل على هذا الأساس عقد إتفاق مع خصوم الأوس . ولم يبلغ نص المعاهدة لمديرد ولقيتا إلا بعد ثلاثة أشهر ، أى فى بداية عام ١٦٩٩ . ولكن مضمون المعاهدة تسرب قبل وقته ، الأمر الذى تسبب فى نشأة ردود فعل حادة من جانب أولئك الذين كانوا من أصحاب المصلحة ، وبقوا خارج المفاوضات . وذكر ليوبولد ، وبلاد جدوى تلك التعهدات التى كانت قد قطعت حيلاه ، فى عام ١٦٦٨ ، من جانب ملك فرنسا ، وفى عام ١٦٨٩ من جانب أعضاء التحالف الكبير ، فى فينا . وجاء شارل الثانى وقرور ، وهو فى كامل سيادته ، توريت كل ممتلكاته لأمه بافاريا المنتخب . وعندئذ إختفى فجأة ، فى شهر فبراير ١٦٩٩ ، ذلك الطفل الصغير ، الذى كان له من العمر خمس سنوات - سواء أكان ذلك هو مجرد قصده أو عن طريق حادث مدير - والذى كان هو الوريت المنتظر . فكان عليهم أن يعيدوا الأمر من أوله .

وتتم وضع مشروع جديد ، فى مؤتمرات لندن ، وبادريس ، ولاهاي ، فى ١١ يوليو ١٦٩٩ ، ثم تم أمر توقيع الحكومات عليه فى شهر مارس ١٧٠٠ ؛ وكان أقرب ما يكون إلى المشروع السابق . وإختار هذا المشروع الأرشيدوق شارل ، الابن الثانى للإمبراطور ، على أنه الوارث المميز ، وذلك مع النص على أنه لن يتم أبداً أمر ضم تاج إسبانيا وممتلكاتها ، للإمبراطورية . وكان لآل هابسبورج فى هذا المشروع ميزات لا تقل عن تلك التى كانت لهم فى المشروع السابق ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه هذا التوازن الذى أنظموه بطريقة أو بأخرى فى عام ١٦٩٨ قد تم على حساب البوربون : فيسمح لفرنسا فقط بضم دوقيات اللورين ؛ ويحصل دوق اللورين بدلا عن ذلك على إقليم ميلانو . ومع ذلك فإن المعاهدة الجديدة لم تلب من فينا : فرفض ليوبولد ، مرة ثانية ، أن يوافق على ذلك .

وكتب الملك ويليام إلى صاحب القلعة في هولندا : بأنها سياسة غير معقولة . وكان حلم إعادة إنشاء إمبراطورية شارل الخامس (شركان) لا يزال يسيطر على تفكير آل هابسبورج في النمسا . أما في إسبانيا ، فإن الأمل تكن قد نسيت ذكريات عصر شارل الخامس ؛ ولم تكن تخشى أى شيء أكثر من الوقوع من جديد تحت سيطرة ألمانيا . وكان وجود ملكة نمسوية ، إلى جوار الملك ، أحاطت نفسها بأبناء جنسيتها ، يدعم أمر ذلك التباعد الطبيعي للإسبانيين عند الألمان . وكانت حركة الرأي العام في منتهى الحدة ، حتى أن الملك ، وهو على فراش الموت . قد شعر بضرورة أخذ قرار يحصى سلامة ممتلكات التاج . وجاء الدفاع من مجلس دولته : فطلب إليه أن يكتب وصيته ، وليس في صالح أحد أفراد أسرة هابسبورج ، الذى سوف يتعرض للمساءلة المباشر من جانب الدولة الفرنسية ، ولكن في صالح أحد أفراد أسرة البوربون . ورغم بعض التردد من جانب شارل الثاني - وكانت في عروقه دماء من آل هابسبورج - انتهى به الأمر إلى الموافقة على هذه الرغبة . واتخذ قراره هذا قبل شهر من وفاته . وكان عليه أن يترك مجموع ممتلكاته إلى وريث واحد معين . وكان هذا الوريث هو فيليب ، دوق آندور ، وهو الحفيد الثانى للملك لوى الرابع عشر ، وذلك في ٢ أكتوبر ١٧٠٠ .

وأمام مثل هذا القرار غير المتوقع ، ماذا ستكون ردود فعل ملك فرنسا ؟ وإلى أى اتجاه سوف يعمل ، الاتجاه الذى إتخذه ملك إسبانيا ، أو ذلك الاتجاه الذى كانت الدول البحرية ، قد وافقت عليه من قبل ؟ وكان عليه أن يعتمد على نفسه فقط فى إتخاذ هذا القرار . وكان فى وسع المؤرخ ، وبالنسبة لما وقع فى خلال الجور الأول من فترة حكمه ، أن يوزع مسئولية السياسة التى إتبعها فى الخارج مع كولبير أو مع لوفرا ، والذين كانا ، الواحد بعد الآخر ، مستشاريه السياسيين . أما فى الفترة التى وصلنا إليها ، فلم يعد هناك وزير يمحى

بالثقة ، ولأما ورين فريين ، يمكنهم أن يحطوا بكل ثقة الملك ، كما لو كانت زيادة إجماع السلطوى قد وصلت إلى مرحلة تثبيت همة أولئك الذين حكمت طموحاتهم تزيد على مجرد الحصول على الرضاء الملكى . ومع المشكلة السياسية التى كانت مطروحة أمام لوى الرابع عشر كان هناك مشكلة ضمير : فهل كان عليه أن يتمسك بالإلتزامات التى إلتحق عليها مع لندن ولاهى ، أو يفضل عليها إحترام الرغبات الأخيرة لشارل الثانى ؟ وكانت الحكمة المجردة تشير عليه بعدم الرجوع فى الكلمة التى كان قد أصطفاها : فبالإتفاق مع إنجلترا والأقاليم المتحدة ، وبالإعتداد عليها ، لم يكن الملك عشى من كائن كان . وبعد بضعة أيام من التتكير ، إختار لوى الرابع عشر الإتجاه ضمير للضمون ، وإرت. كان فى نظره مليئاً بالعودة . أم يكن ذلك يمثل الخاتمة ضمير المتوقعة لذلك الحلم الجليل الذى خلقه موزان منذ خمسين عام من قبل ، هن منهن السيطرة الفرنسية بشكل نهائى ؟ وكيف كان فى وسعه أن يرفض ، وخوفاً من الحرب وعناطرها ، مثل هذه الهدية الجميلة ، التى ألقى بها الحظ أمامه ؟ وكان الملك لا يزال واثقاً من نفسه ، ولم يتمكن من أن يحل المشكلة . وكما لو كان قد رغب فى تمديد كل أولئك الذين كان من مصلحته أن يحافظ عليهم ، قام بعد بضعة أسابيع حتى بإعطاء تصريح ذكر فيه أن ملك إسبانيا الجديد ، وخلفائه ، سوف يحتفظون بكل حقوقهم فى تاج فرنسا (أول فبراير ١٧٠١) .

وهكذا أصبح دوق أنجو ملكاً لإسبانيا . وتم تقديمه فى فرساي ، يوم ١٦ نوفمبر ، رسمياً البلاط على هذه الصفة . ثم ذهب إلى مدريد فى فجر اليوم التالى . وأعطيت مهلة لمدة شهرين للامبراطور حتى يعطى موافقته على تسوية كان الجميع يصفون مقدماً أنه سوف يرفضها . ولم يكن لوى الرابع عشر ، مثله فى ذلك مثل غيره ، يحتفظ بأية أحلام بشأن هذا الموضوع . وكان على علم تام

بالأرصاد . فعلاوة على إنجلترا وهولندا ، والذين كانتا على نفس درجة قوة
الإتحاد السابقة ، كانت عليه أن يحارب النمسا من جديد ، وكانت هي القوة
المسكينة الثانية في ذلك الوقت . وربما كان قد تصور أن ليوبولد سوف يتشغل
مرة أخرى مع الأتراك والمجريين . ولكن فرنسا ، التي سادها الفقر ، لم تعد
لديها ، في ذلك الوقت . تلك الوسائل اللازمة لكي تعد كما يجب حلفائها في الشرق ،
حتى يحصلهم يعودون إلى حل السلاح . وكان الصلح الذي تم عقده مع السلطان في
كارلويتز ثابت الأركان . أما الصعوبات التي سوف تظهر عدة مرات في المجر فكان
من الممكن التغلب عليها دون صعوبة كبيرة .

٢ - تحالف لاهاي والتكتل :

لم تبدأ الحرب في التور . ومر عام بذلك خلاله مجهودات ، من هذا الجانب أو
ذاك ، من أجل إنقاذ السلم ، وبدت على أنها قد تمطى ثمارها . وكانت الشعوب
في حاجة إلى وقت معين حتى تتعود على فكرة أن الكلمة الأخيرة سوف تترك ،
مرة جديدة ، لقوة السلاح . أما المعارضة في الرأي فقد ظهرت بقوة بشكل خاص
في هاتين البلدين اللتين كانت الأمة فيها تتمتع دائماً بحق إسراع صوتها ؛ في
إنجلترا وفي الأقاليم المتحدة . وكان كل شيء يعتمد عليها . ولذلك فإن الآمال
كانت ضخمة ، في فرنسا ، حينما علموا (في شهر فبراير - مارس ١٧٠١) ،
أنها كانتا ، وبشكل تلقائي تقريباً ، مستعدين للاعتراف بملكية فيليب الخامس .
وبعد قليل ، سار فيكتور آميدي ، دوق سافوا على نفس النهج . وكانت إينته
الثانية قد وعدت بالزواج من فيليب الخامس . ولذلك فإنه وضع نفسه ، مقدماً ،
في خدمة البرييون ، ووعدها ، في حالة نشأة صعوبات ، بمساعدة جيشه ، وبحرية
العبور عبر بلاده . وسوف يحمل بكل فخر لقب القائد العام للجيش الإسباني
والفرنسية في إيطاليا .

وكان الامبراطور ليربوه ، بطبيعة الحال ، يضل . وعمل على إعادة ألمانيا ، وكان مستعداً دائماً لانتقام لوى الرابع عشر بأنه كان يطمح إلى إنشاء مملكة عالمية وأنسم ، منذ أن عرف بوجود وصية شارل الثاني ، بأن ملك فرنسا لن يصل إلى ميثناه . وأعلن أمام وزرائه . «إن أوروبا سوف تتحد معى من أجل منع قيام هذه الملكية » . ولذلك فإنه عمل إذن على إعادة تكوين جبهة الحلفاء التى كانت موجودة فى عام ١٦٨٨ . وجاء ضم حرس لوى الرابع عشر لكى يسمح له بالنجاح السريع .

وكان الهولنديين ، عند نهاية الحرب السابقة ، قد حصلوا على حق الاحتلال الدائم لبعض الأماكن فى الأراضي المنخفضة ، والأكثر قريباً من الحدود الفرنسية ، وهى الأماكن المسماة «بالهاجز» . وكان أمر وصول ملك فرنسا إلى عرش مدريد يهدد بإلغاء مثل هذه الوضعية وقام لوى الرابع عشر ، والذي كان يعتبر خطأ على خطأ ، بتقرير المسألة بضرورة واحدة ، ودون أن يأخذ حذره ويتفاوض : فتصرف بإسم حفيده ، وأرسل قواته لطرد جنود الأقاليم المتحدة (مارس ١٧٠١) . كما قام ، وبدعوى المحافظة على سلامة ممرات فيليب الخامس ، باحتلال مجموع بلاد الأراضي المنخفضة . وكانت هذه فرمة جيدة لحصومه ، لكى يفضحوا فيها اعتماداً جديداً على السلم : ولم يتركوها . وسرطان ما إن عقد التحالف السكرى من جديد بين الأقاليم المتحدة ، وإنجلترا ، وفرنسا . وجاءت المعاهدة التى عقدتها الدول الثلاث فى لاهاى ، فى ٧ سبتمبر ١٧٠١ ، التى احتفظت بإسم «معاهدة الهاجز» لكى تعترف الهولنديين بحق الاحتلال الدائم لإحدى عشر موقفاً كانوا قد خرجوا منها . كما أنها أعلنت عزيمة المتحالفين على إعادة غزو الأراضي المنخفضة ، حتى يستعيدوها ،

كشندق ، وإستحكام ، وحاجز ، لفصل وإبعاد فرنسا عن الأقاليم المتحدة ، كما كان عليه الحال في الماضي .

ولم يكن وتحالف لاهامى الكبير ، يختلف كثيراً عن وتحالف فينا الصغير . وكانت قد انضمت إلى أعضائه ، علاوة عليهم ، إحدى الرؤوس المتوجة . وكان فردريك الثالث *Frederic III* ، الذى خلف المنتخب الكبير ، وهو من أسرة هونزلرن *Hohenrollern* ، قد باع نفسه للإمبراطور (١٦ نوفمبر ١٧٠٠) ، لئى يحصل منه على القب الملكى ، أى فى خارج حدود الإمبراطورية . ومع ذلك ، فإن دور الملك الأول لبروسيا فى الحرب كان دور التابع ، ودور أمير فقير ، يستمد فى طلب المعونات ، ومجرد مرتزق عند الدول البحرية والنمسا ، علاوة على كونه أكثر إهنأماً بما كان يحدث فى بولندا عن إهنأته بمصير إسبانيا وملحقاتها .

ولقد وقع حادث ، قبل تبادل إعلان الحرب ؛ وكان قليل الأهمية فى حد ذاته ، رغم أن نتائجه ستكون خطيرة بشكل واضح فى الميدان النفسى : فكان الملك جيمس قد توفى فى مقر إقامته فى سان جرمان ، فقرر لوى الرابع عشر ، ونتيجة لإخلاءه العنيد لصداقة أسرة إستيوارت ، أن يعترف بول عهده كذلك على إنجلترا . وشعروا فى لندن بأنه لم يكن هناك أى شىء يمكنهم أن يأملوا فيه من جانب فرنسا .

وبعد ستة أشهر من ذلك (١٩ مارس ١٧٠٢) ، توفى الملك ويليام بدوره فجأة ، وفى سن مبكر ، نتيجة لحادث لركوب الخيل فوعلت الأميرة آن *Anne* ، أخت زوجته ، إلى تولي العرش من بعده ، ودون صعوبة . وأعلنت الملكة الجديدة فى خطابها الأول فى البرلمان : « إن علينا أن نشجع كثيراً حلفاءنا على تقليل القوة المتحدة لفرنسا » .

٣ - إمكانيات الطرفين ، والاستيلاء على جبل طارق :

مع أخذ كل شيء في الاعتبار ، كانت فرنسا في وضع أفضل عما كانت عليه في وقت رابطة أوجسبرج . فلم يكن في وسعها فقط أن تستخدم قوات إسبانيا . ولكن حتى ألمانيا لم تكن كلمة وبالإجماع واقفة ضدها . وإذا كان الهدايت قد قرر ، مرة أخرى ، رسمياً أن يدخل إلى الحرب إلى جانب الإمبراطور ، فإن بافاريا قد سارت وحدها ، وكما كانت قد فعلت في عام ١٦٧٤ . ولم يكن المنتخب بمجرد الإمتناع عن إرسال فرقة من جيشه إلى الإمبراطورية ؛ بل إنه عاد ، بمعاهدة ٩ مارس ١٧٠١ ، إلى تحالف ويتيلسباخ مع أعداء الأسرة الحاكمة في النمسا ؛ وفتح أراحيه لمخول الجيوش الفرنسية . وقام أخوه ، رئيس الأساقفة المنتخب في كولونيا ، والذي كان في نفس الوقت أسقف وأمير لسيج ، بإتباع نفس المثل الذي أعطاه كبير الأسرة .

وفي لندن ، كانت المنافسة مع فرنسا في الشؤون التجارية ، وكما كانت عليه في الماضي ، تسير أو حتى تسيطر على التمازض بين المصالح السياسية . وقامت أوساط رجال الأعمال بتوجيه التقدير الشديد ، وقت عقد معاهدة التقسيم في عام ١٦٩٨ ، لإعطاء نابولي وصقلية لفرنسا : فسيكون مرور السفن الذاهبة إلى شرق البحر المتوسط أو التي تأتي من هناك معرضة للتوقف ، وبشكل خطير ، في حالة نشأة صوبيات كبيرة بين البلدين . ولكن الأمر اختلف عن ذلك منذ الوقت الذي تولى فيه فيليب الخامس مقاليد الحكم في مملكته . وتم إعطاء إمتياز لاستيراد الزنوج إلى أمريكا إلى إحدى الشركات الفرنسية ، وهي شركة غيلينا (فبراير ١٧٠١) .

وهذا الإمتياز - المواقع asienfo السوداء - كان ، منذ فترة بعيدة ، موضوع تنافس شديد بين الدول البحرية ؛ وكان البرتغاليون قد احتفظوا به

من عام ١٦٠١ إلى عام ١٦٤٠ ، وحتى الوقت الذى إستعادوا فيه إستقلالهم .
ثم قامت حكومة مدريد فى عام ١٦٦٢ ، بالنفاه مع إحدى شركات جنوا ، حتى
لا تقوم بإسليمه إلى أحد المتنافسين الكبار . ولكن الهولنديين فى كراساو ،
والإنجليز فى جايكا ، نجحوا فى التدخل فى شئون هذه الشركة ؛ ولم يتجدد العقد
عند نهاية فترة الإمتياز . وكان ، منذ ذلك الوقت ، موضوع مساومات مختلفة .
وتمكن البرتغاليون من الحصول عليه لأقسامهم ، بعد تقديم الصلح مع إسبانيا .
وكانت الأهمية الكبيرة بالنسبة لهذا الموضوع تتمثل فى أن تجارة العبيد كانت
تغطى ، عملياً ، حركة تهريب كانت تخرق مبدأ الميثاق الإستعملى ، بالنسبة
للحقوق الكاملة التى كان الإسبانىون مستعمرين فى المطالبة بها لأنفسهم . ونظراً
لظروف ذلك الوقت ، ظهر أنه من الطبعى أن ترميزة مثل هذا الإمتياز ،
الخاص بالمواقع السوداء ، إلى الحليف الفرنسى . ولكن هذا الأمر أثار عاروف
سادة فى كل من لندن وأمستردام . وكانوا يخشون من حدوث تغييرات أخرى ،
وبخاصة من أن يمنع ذهب أمريكا وفضتها بعد ذلك عن الخروج من قانس
صوب موانئ هولندا .

وبذلك فإن المبادئ الخارجية للعمليات ستشهد أهمية جديدة مثل مبادئ
أوربا نفسها . وسيكون نفس الدور فيها ، وكما حدث فى الماضى ، القرامنة ،
وبخاصة من الجانب الفرنسى ، نتيجة لكون القوات النظامية فى أوضاع أقل من
تلك التى كانت عليها فى الماضى . فكان جان بار Jean Bart قد توفى . ولم يكن
مستقبل دوجواى تروان Duguay - Trouin إلا فى بدايته . وستكون
معركة إسبانيا لا تذكر ؛ ذلك أن الأسطول الإسبانى لم يكن يضم سوى ثلاثة
فشر وحدة ، منها خمس سفن ذات حراول عالية .

وكانت إحدى المراحل الراضية لتلك الحرب التى ستشأ هل البحر تتمثل فى

شهر سبتمبر ١٧٠٢ في مسألة غلايين فيجو . فبينما كان شاتو ديتو - Chateau Renault ، قائد الأسطول العائد من أمريكا محملاً بالمعادن النفيسة قد رسا في خليج فيجو ، على حدود البرتغال ، حتى يسمح لسنفه بالقيام بالإصلاحات السريعة ، فاجأه الإنجليز ، والذين كانوا قد نزلوا قرب هذا المكان بنفثة ، وقاموا ضده بهجوم شديد ، وهم يأملون في الحصول على غنائم ملكية . وأصبحت كل السبل مسدودة أمامه ، فلم يبق أمامه من وسيلة يمارس بها أمر حصول الخصب على الغنائم سوى إحراق كل شيء . وحتى وقتنا الحاضر ، لاتزال هناك مشروعات كثيرة لإعادة إخراج « غلايين فيجو » بما تضمنها من كنوز ؛ ولكنها ظلت دائماً مجرد مشروعات .

وفي ذلك الوقت ، كان تأخير هذه المسألة قوياً للغاية على لشبونة . وكان له تأثيراً موقراً . ذلك أن البرتغاليين ، الذين كانوا يتساملون منذ فترة عن الدور الذي يمكنهم القيام به في تلك الظروف الدولية الخطيرة قرروا في ذلك الوقت أن يتغنموا إلى جانب أعداء فرنسا . وقام السير جون ميثون John Methuen سفير إنجلترا ، بالتوقيع في لشبونة ، في ١٦ مايو ١٧٠٢ ، على معاهدة سرية نصت على أن موانئ المملكة ستكون مفتوحة أمام الأساطيل الانجلو - هولندية ، وأن جيشاً من ٣٧,٠٠٠ جندي سيوضع في خدمة المرشح الذسوى لعرش إسبانيا . وعند نهاية نفس السنة (٢٧ ديسمبر) ، أعطت معاهدة تجارة للإنجليز احتكار تصدير الألبنة البرتغالية ، في الوقت الذي ضمن فيه سوق للمنتوجات الإنجليزية في جميع أنحاء البرتغال وفي مستعمراتها . وأنهت « معاهدات ميثون » ، عملية جعل البرتغال دولة تابعة لإنجلترا . ولن يحدث أي شيء يمكنه أن يعكر صفو إتحاد البلدين خلال كل القرن .

ومكثنا نجحت الدبلوماسية الإنجليزية في عملية كبيرة . أما الأسطول ، والذي

كان يمد لها الطريق ، فإنه سيظهر بدوره في نجاح تتناقل أمداده جميع أنحاء العالم : فيتمكن من الإستيلاء على جبل طارق . وكان المشروع يداعب الأفكار ، في لندن ، منذ بعض الوقت . ومنذ بداية الحرب ، كانت التعليلات المرسلة إلى أمراء البحر توجهم إلى الإستيلاء على جبل طارق حين تحمين القرمرة . ولكن الهدف الرئيسي ظل دائماً متمثلاً في قádiz ، وكما كان عليه الحال دائماً . وبعد إعلان الحرب بقليل ، قام الأميرال روك Rook بإحضار جيش صغير أنجلو — هولندي إلى هناك ؛ وبدأ في القيام بمهام للحصار ، ثم انظر إلى التخلي عنها بسرعة . أما بالنسبة لجبل طارق ، فكان الأمر يتعلق بعملية تم دون صعوبة كبيرة . ذلك أن الإسبان لم يكونوا قد إمتصوا إمتاماً كبيراً بهذا الموقع ، وكانت ساميته تتكون من ٥٦ جندي وما يقرب من المائة من رجال الميليشيا . وكان روك قد قام بمحاربة ضد موقع برشولة ، الذي إعتقدوا أنه سيحاول التخلص من الإنجاه الفرنسي . وبعد رفض إندازاته ، إضطر إلى الإضاد عنه . ولما كان يرغب في أن يعرض بعض الشيء عن مثل هذا الفشل ، إختار هذه القرمرة لكي يحاول توجيه ضربة لجبل طارق . وقام الأسطول الذي كان يقوده — وهو أسطول إنجليزي هولندي — بالذهاب إلى هناك يوم ٢١ يوليو . وفي اليوم التالي ، تم إزال ١٨٠٠ رجل من البحارة ، تحت قيادة أحد الألمان ، وهو الأمير جورج صاحب هيس ، والذي كان قد قام بالنخبة في إنجلترا . وقاموا بالتمركز في ظهر الموقع ، وبشكل يقم حاجزاً في البرزخ الذي يوصله بأرض القارة . ثم بدأت عملية الضرب بالمدفعية . وجاءت عملية التسليم بعد يومين . وبعد أن دخل الإنجليز إلى جبل طارق يوم ٤ أغسطس ١٧٠٤ ، لم يخرجوا منها أبداً ، حتى الآن .

وفي فرنسا ، كانوا يملكون بالأهمية الاستثنائية لهذا الموقع ، وفكروا بعد

ذلك مباشرة في ضرورة منازعة الأعداء فيه . وبعد ثلاثة أسابيع ، إتحصل إسطول شرقي البحر المتوسط بأسطول روك قريباً من مدخل المضيق . وكانت الموقعة التي وقعت بينها ، وهي موقعة فالير مالفقة ، من المواقع الكبيرة ؛ فلقد إشتراك فيها ما يقرب من خمسين سفينة من كل جانب . ولكنه لم يكن لها نتائج واضحة . وأعلن كل من الجانبين إنتصاره فيها . وكان في وسع الفرنسيين على الأقل أن يدعوا أنهم ظفروا بسيطرين على ميدان الحركة ؛ إذ أن الإنجليز هولنديين كانوا ، بقيادة روك ، قد إبتعدوا عنه بعد يومين . وكانت هذه هي آخر مرة تحاول فيها القوات الفرنسية أن تنازع فيها النعم أمر السيطرة على البحر المتوسط . وفي عام ١٧٠٥ ، إنتهت محاولة جديدة لأخذ جبل طارق بفشل ذريع .

ثانياً : الحرب والمفاوضات والصالح :

١ - العمليات الحربية :

بعد أربع سنوات من الحرب ، لم تكرر الامكانيات ؛ بالنسبة لفرنسا ، أكثر يريقاً على البر منها على البحر . وشيء متناقض في مظهره ، يتمثل في كون الحرب السابقة ، وهي حرب رابطة أوجسبورج ، والتي كانت تهم ألمانيا في المكان الأول ، والتي كانت قد نشأت عند حدودها ، لم تكن قد أدت إلى نشوب عمليات هامة على أرضها ، أما هذه الحرب ، والتي كان موضوعها غريباً عنها ، فإنها جعلتها تشهد أول الصدمات التي أصابت جيوشها . وكان هذا نتيجة لقرار منتخب بافاريا ، ذلك أن فيلار Villars ، الذي عبر نهر الراين حتى يلحق بأبناء بافاريا ، كسب نصراً أولياً على القوات الامبراطورية في فريد لينجن ، في إقليم بادن (١٤ أكتوبر ١٧٠٢) ، وحصل هناك على حصا المارشالية . ثم تمكن من هزيمة جيش الدوائر في موشناد ، على الدانوب (٢٠ سبتمبر ١٧٠٣) . ودخل إلى فرنسا حين وصل جيش انجلو هولندي ، تحت قيادة دوق مارلبورو Marlborough

والذى كان قد أعاد حواب منتخب كولونيا . وأسقف ليج ، وإستول على أملاكه . وبعد معركة بلنهام (٢٢ يونيو ١٧٠٤) ، نجت البلاد من السيطرة الفرنسية . وإستمرروا فى العمليات الحربية قرب القابة السوداء ، ولكن دون نتائج لها قيمتها .

وكان المستقبل أكثر ظلاماً من ذلك فى إيطاليا : فكان دوق سافوا قد انسحب منذ عام ١٧٠١ . وكان فيكتور أميدى قد حصل من الإمبراطورين ، وعن طريق مفاوضات إستمرت لعدة سنوات ، على ميزات لم يكن قد حصل عليها من حلفائه الأول : وبخاصة وعد بالحصول على مونتفيرات ، ذلك الإقليم الصغير الخاضع لميلانو ، والداخل فى نطاق أراضي بيدمونت ، مع أحد المواقع . وإعتقد ، بعد أن تقوى بهذا النجاح ، فى أنه يمكنه أن يحدد لوى الرابع عشر مطالبة بإقليم ميلانو ، والذى كان قد تقدم به فى عام ١٧٠١ ، وبلا جدوى . وبعد أن رفض الملك ذلك من جديد ، قرر أن يغير من اتجاهه . وأصبح فيما وراء الألب ، القائد العام للقوات الإمبراطورية ، بعد أن كان قائداً عاماً لخصومهم . وإعترض الجيش الفرنسى إلى أن يأخذ موقف الدفاع .

ولم تكن هذه هى النقطة الوحيدة التى سجلها المؤرخون فى الميدان الدبلوماسى . ذلك أن الأمر انتهى بالإمبراطور ليوبولد إلى أن يفهم أن من مصلحته أن يراعى بين موقفه ، فى مسألة الوراثة الإسبانية ، وبين موقف حلفائه . ولذلك فإنه أعلن تنازله عن كل حقوقه فى صالح ابنه الثانى ، الأرشيدوق شارل . وسرعان ما إعترف الإنجليز والهولنديون بملكية شارل الثالث على إسبانيا ، وإعتبروا أن من واجبهم مساعدة عميلهم الجديد على غزو بلاده . وتم تنظيم أمر غزو شبه الجزيرة عن طريق البرتغال : وبعد أن تول شارل الثالث فى لشبونة ، فى ربيع ١٧٠٤ ، بدأ فوراً فى الإعداد للعمليات الحربية فى اتجاه مدريد .

وفي هذا الوقت ، بدت القوة البحرية لفرنسا في البحر المتوسط على أنها تزداد ضعفاً . واستلكت أساطيلها ، والتي كانت قد أصابها إستهلاك خطير ، أوامر بتعاشي أى لقاء بعد ذلك . وحينما عاد الانجليز إلى الظهور أمام برشلونة ، في شهر سبتمبر ١٧٠٥ ، تمكنوا من السيطرة على الموقع ، من البر ومن البحر ، بعد حصار دام خمسة عشر يوماً . وبعد برشلونة وقّع كل إقليم كتالونيا في أيدي المتكتلين . وسرعان ما إتّبع أقاليم بلنسية ، ومرسية ، هذه الحركة . واضطر لوى الرابع عشر . ونتيجة لتوصل حفيده ، إلى أن يرسل جيشاً ، فى فصل الربيع التالي ، من أجل إستعادة برشلونة . ولكن الأسطول الذى كان يؤيده إنسحب عند معرفته بوصول أحد الأساطيل الانجليزية ، واضطروا إلى رفع الحصار بعد ذلك بقليل . واضطر فيليب الخامس ، التى تبطت من عزمته هذه السلسلة من الفشل ، إلى أن يترك عاصمته ، ويتنحى إلى فرنسا . وتمكن جيش إنجليزى ، وصل من البرتغال ، من الدخول إلى مدريد في شهر يونيو ١٧٠٦ .

وبدت قضية فيليب الخامس على أنها قد تأثرت ، أكثر وأكثر . وبدأت على أنها ، حتى في حالة النجاح في تأخير الحرب ، ليست بميدة الضياع . وكان بجهود فرنسا يسعى إلى مجرد إنقاذ الحدود ، والتي كانت مهددة في كل مكان . وفي شهر أغسطس ١٧٠٦ ، وقع غزو لطولون ، برأى بقوات نمسوية وقوات من بيدمونت ، وبحرباً بالأساطيل الانجليزية والهولندية . وتم إتخاذها بوصول إمدادات شقت لنفسها طريقاً عبر خطوط المحاصرين . ولكن العدو عاد إلى الظهور في العام التالي . وقام الأمير لويجى Eugene ، الذى كان يقود القوات الانجليزية البيدمونتية بحاصرتها لمدة أسابيع (يوليو — أغسطس ١٧٠٧) ، وإن كان قد فشل في الاستيلاء عليها . وفي أثناء ذلك الوقت ، كان المحاصرون قد فشلوا في تأمين سلامة أسطولهم ، فأغرقوا سرجاً منه .

ولقد اضطر لوى الرابع عشر إلى أن يتخلى عن إيطاليا ، حتى يتمكن من القيام بحض المجبور لاسبانيا . وتم عقد إتفاقية هدنة مع فيكتور أميدى ، سمحت بسحب جيش سافوا إلى ما قبل جبال الألب (مارس ١٧٠٧) . وفى نفس العام ، تمكن الحلفاء ، الذين كانوا قد غزوا مملكة نابولى وسردينيا ، من تهديد صقلية . أما الانجليز ، الذين كانوا يمشون عن قاعدة بحرية تحمل عمل القاعدة التى كانوا يرغبون فى إقامتها فى طولون ، فقد وجهوا أنظارهم صوب مينورقة . وشهد ميناء يوردهامون ، المرسى الرئيسى فى الجزيرة ، نزولهم فيه فى عام ١٧٠٨ . وكانت هناك حامية فرنسية . وبعد إلحاحها إلى قلعة فيليب ، لم تتمكن من المقاومة إلا لبضع ساعات . وتم الاحتفال فى إنجلترا بالاستيلاء على مينورقة بإحتفالات تقرب من تلك التى أقيمت وقت الاستيلاء على جبل طارق .

أما فى الأراضي المنخفضة ، فإن إنتصار مارلبورو فى راميل (٢٣ مايو ١٧٠٦) ، قد أجبر الفرنسيين على إخلاء الجزء الأكبر من الأقاليم التى كانوا يحتلونها . ثم قام الأمير لويجيج من سافوا ، فى أثناء شهر أغسطس ١٧٠٨ ، بقيادة جيش تمسوى ، وُلحق بالجنرال الانجليزى ، وتعاون معه فى عملية محاصرة موقع ليل . فوقعت فى أيديهم فى أثناء شهر ديسمبر التالى . وإذا كان الموقف قد ظهر ، فى ذلك الوقت ، على أنه كان أقل سوءاً مما كان عليه فى إسبانيا ، فإن ذلك كان يرجع إلى أن الاسبانيين ، الذين كانوا يمدون حراسة أمر سيطرة الألمان عليهم ، قاموا ضددم بحرب عصابات . ونتيجة لتأثير حرب الكائن والضربات المفاجئة هذه ، تمكن فيليب الخامس من العودة إلى عاصمته لفترة من الزمن . ولكنه تركها من جديد فى عام ١٧٠٩ ، وبعد عودة هجوم الانجليز . ثم عاد إليها بعد عام ، وبعد هزيمة الانجلو تمسوين على يد جيش فرنسى إسباني فى فيلا فيكيوزا (١٠ ديسمبر ١٧١٠) .

٢ - المفاوضات :

كان الدبلوماسيون، وكما كان قد حدث في كل من الحروب السابقة، لا ينتظرون أن يمدوا فقط في الوقت الذي يطلب منهم رسمياً القيام فيه بواجباتهم. فبدأوا، من هذا الجانب ومن ذلك، وبطرق مباشرة أو غير مباشرة، في القيام بعملية « محاسنات ». ولقد إنجذبت الفرنسيون في أول الأمر صوب لاهاي، بأمل أن يسووا مباشرة، ووحدها، تلك المسألة التي كانت قد تسببت في نشوب الحرب، وهي مسألة الأراضي المنخفضة. ولكن الإقتراحات التي قدمت في عام ١٧٠٥ لم تكن كافية بدرجة أخذها بعين الإعتبار. أما إقتراحات عام ١٧٠٦، والتي كانت أكثر إقناعاً، فإنها قد رفضت كذلك نتيجة لتدخل من جانب لندن، وحيث كانوا لا يحضرون شيئاً أكثر من إمكانية وقوع تقارب بين الفرنسيين والهولنديين. وظلت العداءة الإنجليزية لفرنسا لا تقل حياءاً كانت عليه. وكانت أسبابها إقتصادية وسياسية. وكانت أوساط رجال الأعمال ترغب دائماً وبشدة في أن تفارقه، بطريقة أو بأخرى، في تجارة الهند الغربية. ومن ناحية أخرى، إستمرت حكومة لوى الرابع عشر في مساعدة أسرة إستيوارت. وكان للدهى الجديد للعرش، وهو الذي أنقذه أنصاره بإسم جيمس الثالث، قد حاول القيام بمغامرة، بمجرد أن وصل إلى سن العشرين، في عام ١٧٠٨. ورغم أنه لم ينجح حتى في النزول على سواحل إسكتلندا، فإن للمسألة قد أثارت الأذهار في العاصمة.

ولقد شهد عام ١٧٠٩ نقطة تحول. وظلت ذكرها لفترة طويلة عند الأهلالي. ذلك أنه كان عام « الشتاء الكبير »، وأصعب شتاء كانوا قد عرفوه. وكانت مقاساة الأهلالي شديدة. وتأكدت المشاعر في كل مكان بضرورة إنهاء الحرب دون تأخير كبير. وعندئذ تبلورت نتائج المفاوضات التي كانت قد بدأت من أجل الوصول إلى الصلح.

وكان الإنجليز والمولديون يمتدنون ، ولبعض الأسياح ، في أنه سيكون في
وسمهم إملاء شروطهم . فكان عليهم إذن أن يتفقوا سوياً ، في المكان الأول.
ووصلوا إلى ذلك في شهر يونيو ١٧٠٩. ووضعوا سوياً ذلك الإتفاق الذي سوف
يعرف باسم « تفاهم لاماي » ، والذي سوى يعرف ، فيما بعد ، باسم معاهدة الحواجز
الثانية . وكان ذلك يرجع إلى أن مسألة الحواجز ، ضد فرنسا ، وهي التي كانت
تشغل المولنديين إلى حد بعيد ، تم الإتفاق عليها في هذا التفاهم قبل غيرها :
فسوف يحصلون في وقت السلم العام على حق وضع حاميات بصفة دائمة في خمسة
عشر موقفاً ، كانت في الماضي تخضع لحديد الأراضي المنخفضة صوب الجنوب ،
(نيوبورج ، فيرنيز ، إمبر ، ليل ، تورناي ، كوتدي ، فالنسين ، مويوج ، شارلوا
نامور . . . الخ) ، وكان البعض من بينها قد أصبح منذ بعض الوقت فرنسياً ،
بينما ظلت الباقية إسبانية . وسيتم الإتفاق على هذه الحاميات على حساب البلجيكيين .
وبهذا التئم واتفق مجلس الأقاليم للتحدة على أن يضمن حقوق منتخب هانوفر
وخلفائه ، أي حقوق الأسرة البروتستانتية التي كان الإنجليز قد إختاروها لأخذ
العرش ، في اليوم الذي تختفي فيه الملكة آن .

ووصلت الحالة العامة إلى درجة من السوء ، سواء في الداخل أو في الخارج ،
حتى أن لوى الرابع عشر تنازل عن الكثير حتى يحصل على الصلح . فأرسل تورسي
Torcy ، وزير خارجيته ، إلى لاماي ، حتى يتحدث مع ممثلي الدول البحرية .
وتم إختيار « تفاهم لاماي » ، على أنه أساس المناقشات : وكان هذا يعني أن يقوم
الملك بالموافقة على سحب قواته من إسبانيا ، ويترك فيليب الخامس يلقي مصيره .
وسين طلب إلى الإمبراطور أن يقدم شروطه ، أجاب بأنه مستعد ، إذا ما لزم
الامر ، لإعادة إستراسبورج . وهكذا بدأ أن الصلح سوف يتم عقده دون تأخير
كبير . ولكن الحلفاء الذين زاد تسليمهم كلما كانت الكرامة الفرنسية تمضي رأساء

سوف يؤخرون ذلك ، بتقديمهم مطلباً في اللحظة الأخيرة ، رفض لوى الرابع عشر أن يوافق عليه. ولما كانوا يملكون بمشاعر الإسبانين تجاه السيطرة التوسية ، فإنهم طلبوا أمر تعاون القوات الفرنسية في تنصيب مرشحهم على عرش مدريد. وهذه المرة ، كان الأمر قد زاد عن كل حد . ورفض الملك أن يصل حتى هذه النهاية . فاقطعت المحادثات . وفي الإجمال ، لم يكن على فرنسا أن تعلن توبتها .

وعادت العمليات الحربية من جديد ، بعد أن كانت تسير ببطء ، وفي كل القطاعات . وفي الأراضي المنخفضة ، تميزت بوقوع معركة دموية ، هي موقعة ماللاك (١١ سبتمبر ١٧٠٩) : وكان على فيلار Villars أن يواجه فيها جيشاً أجهل نمسوى قوى ، بقيادة قائد شهيرين هما مارليوود والأمير ليوينجن . ولم يتمكن العدو ، رغم تفوقه العددي الواضح ، من أن يتصرف فيها إلا بصعوبة كبيرة . ولم يحصل من نجاحه على أية ميزة إستراتيجية .

وبدأت المفاوضات من أجل الصلح من جديد ، في بداية عام ١٧١٠ ، ودائماً في هولندا ، ولكن في جرترويدنبرج . وأضاف لوى الرابع عشر إلى تنازلاته السابقة تعهداً ، بكلفة شرف ، ألا يساعد بعد ذلك ، وأى طريقة . حفيده ، وحتى بأن يسهم بمهمات في الحرب التي سوف تستمر ضده . وكان الحلفاء يشعرون بالحاجة إلى مجرد معونة إيجابية : فكانوا يرغبون في أن يروا إلى جانبهم كتاب فرنسية ، أو حتى أساطيل فرنسية . ولكنه ان يكون هناك أى شيء من ذلك . وسوف يتغضون من جديد ، بعد بضعة أسابيع ، دون أن يصلوا إلى أى شيء .

وأصبحت العمليات العسكرية أو البحرية الآن أكثر ندرة ، سواء في أوروبا أو في خارجها . وفي المحيط الأطلسي ، كانت الوحدات الكبيرة ترمق نفسها بحراسة سفن أمريكا ؛ وذلك في الوقت الذي أصبحت فيه الرحلات أكثر ندرة . أما في بحر الإنفيل ، وكذلك في البحر المتوسط ، فإن القراصنة كانوا يسيطرون على

للوقف . وكانوا يقومون عادة بتسجيل إحصاءاتهم على السفن صغيرة الحجم . ومع ذلك ، فإن حدين قد ميّرا عامي ١٧١٠ و ١٧١١ عند طرفي جبهة أمريكا . فكان أولا ظهور أسطول إنجليزي على ساحل أكاديا ، وضرب بورو وال والإستيلاء عليها . ثم جاء بعد ذلك إقلاع ديمواي تروان إلى البرازيل ، بعد أن كان وزير البحرية قد سلمه أسطولا من السفن الكبيرة ، وقيامه باقتحام خليج ريودي جانيرو ، وقذفه المدينة التي أدخلها سكانها ، وإستيلائه عليها بعد بضعة ساعات . وفي شهر أغسطس ١٧١٢ . إتفق المتحاربون ، باتفاقية تم التوقيع عليها في فورتنيبلو ، على وضع حد لحرب القراصنة . وكانت بشكل ما أول وثيقة الصلح يتم الإتفاق عليها .

وفي العام السابق ، كانت إحدى الأحداث غير المتوقعة قد جاءت لكي تجدد ظروف المشكلة الإسبانية . فكان الامبراطور ليوبولد ، الذي توفي في عام ١٧٠٥ قد خلفه ابنه الأكبر ، جوزيف . ولكن جوزيف الأول توفي بدوره ؛ وله من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً ، دون أن يترك ورثاً مباشراً (١٧ أبريل ١٧١١) . ولذلك فإن التاج انتقل إلى أخيه الأصغر ، الأرشيدوق شارل السابق ، وملك إسبانيا بالنسبة للمتحالفين ، والذي سيصبح منذ ذلك الوقت الامبراطور شارل السادس . ومعنى ذلك بأن عرش إسبانيا قد أصبح خالياً ؛ فلم يكن هناك أحد في أوروبا يفكر في إمكانية إعادة تكوين إمبراطورية شارل الخامس (شرلكن) . وظهرت نتائج هذا الحدث بشكل خاص في لندن ، وحيث كان الملل والرغبة في الخلاص تزداد وضوحاً في كل يوم . وجاء القدر لكي يملأ النتيجة ؛ فلقد وافق الانجليز إذن على الاعتراض بفيليب الخامس . . . ومنذ ذلك الوقت إختفت العقبة الرئيسية من أمام إمكانية التفاهم مع فرنسا . وتم تسجيل الاتفاق بين الدولتين في د هام لندن ، (في ٨ أكتوبر ١٧١١) . وكانت النمسا ، بطبيعة

الحال ، معادية . أما الأتالي المتحدة فاتها وجدت صعوبة فى أن توافق على أن يقوم أمير فرنسى بالحكم فى مدريد وفى بروكسل فى نفس الوقت . ولكن الانجليز كانوا يعرفون الوسائل التى يتغلبون بها على تردد الهولنديين . ولذلك ، فإن المدافع جاء من لاهاي ، فى شهر يناير ١٧١٢ ، موجهاً إلى كل الدول المتحاربة ، من أجل إرسال ممثلين إلى أوترخت Utrecht من أجل الاتفاق على السلم .

وكما حدث فى عام ١٦٩٨ ، وجدت النمسا نفسها إذن معزولة . وإعتقد الوفد الامبراطورى ، فى أول الأمر ، أن فى وسعه القدرة على نفس المؤتمر ، وذلك بتقديمه مطالب غير مقبولة . وحاور الانجليز حتى لا يضطروا إلى إعلان القطعية . ولكن الموقف المالى كان دقيقاً فى إنجلترا . وأمام الضرائب التى كانت تزايد باستمرار ، كان الرأى العام يظن أنه كان من أجل السلام ، وبكل قوة . وأظهرت الوزارة رغبتها الأكيدة فى أن تنتهى . وذلك بالتفاهم مع الفرنسيين من أجل تطبيق المبادئ التى كانوا قد إتفقوا عليها فى عام ١٧١١ : فسيطالبون فيليب الخامس بشكل خاص بأن يتنازل رسمياً عن كل حقوقه فى عرش فرنسا . وبهذه الطريقة تم عقد هدنة فى آخر الأمر (١٧ يوليو ١٧١٢) ، تتضمن وقف العمليات الحربية لمدة ستة أشهر . ولم تته هذه الهدنة العمليات الحربية إلا بين فرنسا وإنجلترا ولم يكن التسويين هم الذين أظهروا وحدهم شعورهم بالنصب . ذلك أن الهولنديين قد رأوا ، فى اللحظة الأخيرة ، أنه لا يمكنهم الموافقة على الشروط ، المتفق عليها . فرفضوا — مؤقتاً على الأقل — أمر إجبارهم على ذلك . ولكن الانجليز كانوا مصممين بقوة على الوصول ، وتعهدوا بأخذ الخطوات الأخيرة التى كانت تفصلهم عن السلم ، وذلك مع ، أو بدون ، حلفائهم .

وتيجة لضربة حظ فى البحر ، وحيث اضطروا لانسوا راكوزى François Rakoczy إلى الفرار ، وحيث وافق الداييت ، بهدنة زاتمار Szathmar (١٧١١) على

إعادة الوضع القائم ، إعتقد الإمبراطور أن في وسعه أن يحصل على المزيد في الغرب ، وأن يفرض وجهات نظره على الحليف وعلى الخصم في نفس الوقت . فأصر بنوع خاص على ضرورة إعادة التنازل عن إستراسبورج ، والتي كانت وثيقة السلم الأخيرة لا تشير إليها . وفي إنتظار إجابة طلبه ، رفض التوقيع . وسوف يتقرر مصير مطالبه الأخيرة في ساحة المعركة وكانت خيبة أمل كبيرة بالنسبة للنمسا : فواجه الجيش الذي يقوده الأمير أوجين ، عند دينان (٢٤ يوليو ١٧١٢) ، جيش فيلاد ، وكان نصراً حاسماً للفرنسيين . ونجرت أراض المملكة بضرية واحدة ، وتقدم موقف غنلى الملك على مائة المؤتمر بشكل خطير . وفي معسكر الخلفاء ، زاد تصلب الإمبراطورين والمولنديين أمام منطف إنجلترا ، والتي كانت مستعدة لكي تقوم ، من جديد ، بدور الوسيط . وجاء أول حل في عام ١٧١٣ . وبعد إنذار حقيقى من لندن ، وافق المولنديون ، رغماً عنهم ، على التوقيع على المعاهدة الثالثة للحواجز (١٩ يناير) ، وهي التي جددت وحدت معاهدة عام ١٧٠٩ ، وإن كانت قد قللت من عدد المواقع التي ستحتفظ فيها قواتهم بحاميات .

٤ - صلح أوترخت :

في هذا الوقت فقط ، أصبح من الممكن التوقيع على معاهدات الصلح . ومن جانب آخر ، كان وقف العمليات الحربية لعام ١٧١٢ قد امتدت مدته مرات عديدة . وأخذ لوى الرابع عشر ، والذي كان يتحدث عن نفسه وباسم فيليب الخامس ، في التفاوض في نفس اليوم (١١ أبريل) مع إنجلترا ، والأقاليم المتحدة ، والبرنتال ، ودوق سافوا ، وأخيراً مع الأمراء الألمان الذين كانوا قد فصلوا مصيرهم عن مصير الإمبراطور ، ومنتخب براندبورج (الذي أصبح منذ عام ١٧٠١ ملك بروسيا) . ومن جانب النمسا ، توقفت العمليات الحربية لفترة من الزمن :

فماحت في الوقت الذي انقضى فيه المأزيم ، ليس فقط على نهر الراين ، ولكن كذلك في كتالونيا ، وحيث كان أعوان شارل الثالث لا يزالون يصافظون على مواقعهم .

وكان المطلب الرئيسي لفرنسا ، وهو الإعراف بملكية فيليب الخامس ، والذي كان مهدداً ، ويتم التخلي عنه في عام ١٧١١ ، قد انتهى به الحال إلى أن يتصر ، وعلى كل معارضة : وسيكون لإسبانيا بالفعل أسرة حاكمة ترتبط بروابط الدم مع الأسرة التي تحكم في فرنسا . وكانت هذه ، في حقيقة الأمر ، النقطة الوحيدة ، تقريباً ، التي كان في وسع دبلوماسية لوى الرابع عشر أن تنهى نفسها عليها . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أمر الحصول النهائي على إمارة أورانج ، والتي كان قد تم احتلالها مرتين في خلال فترة نصف قرن ، والتخلي عنها مرتين كذلك ، في بيميج وفي ديزويك . وفي المجموع فإن إقصاء المتكلمين ، رغم كونه أقل إنصافاً عما تم الإعتقاد فيه في بعض الأوقات ، قد ظل ثابتاً .

ويمكننا أن نمحكم على ذلك بنوع خاص في الميدان البحري والإستعماري . فلم تحدث إلا قليلاً عن أمريكا الشمالية منذ عام ١٦٩٨ : وكان ذلك يرجع إلى أن الأحداث التي وقعت هناك كانت بسيطة . وكانت الحرب التي ساءها الأمريكيون وحرب الملكة آن ، قد كررت تماماً الحرب السابقة ، « حرب الملك ويليام » . وإن تصير الإنجليز فقط بسهولة أقل في بور دويال ، في آكاديا . ولإبتداء من عام ١٧٠٥ ، جاءت عملية وقف إطلاق النار لكي توقف العمليات العسكرية بين فرنسا الجديدة ، وبين إنجلترا الجديدة ، واستمرت حتى وقت أوترخت . ولذلك ، فإن الموقف العام كان هو الذي ساعد إنجلترا على إرضاء كل إدعائها في أمريكا الشمالية . فخفضت لها آكاديا ؛ وسوف تسمى بإسم اسكتلندا الجديدة ، وذلك في الوقت الذي ستأخذ فيه بور دويال اسم أنا بوليس ، تكريماً للملكة

آن . ومن ناحية أخرى ، تم إعلان سيادة التاج الإنجليزي في نفس الوقت على خليج هدسون وعلى نيوفنلاند ؛ ولم يحتفظ الفرنسيون إلا بمجرد حق الصيد على جوانب الجزيرة ، وهي الأكثر أسكاً من بين كل سواحل العالم . وأخيراً ، في الأتيل ، أصبحت سانت كريستوف ، ، كلها ، وبشكل نهائي ، إحدى الممتلكات البريطانية .

وفي أوروبا ، تهتدت فرنسا بدم تحصينات دنكرك ، والتي كان الإنجليز يغيرون وجود جيش فيها موجهاً ضدهم . وبذئذ غاصت إنجلترا على إقرارها بملكيتها لجبل طارق وميتورقة ، وكان هذا هو مكسب بريطانيا الأساسي من هذه الحرب الطويلة المدى .

وفي ميدان مختلف ، منحت ملكة إسبانيا للإنجليز حق مراكز الميناء ، والذي أخذ من الفرنسيين . وكانوا يأملون ، وبلا جدوى ، في أن يقسموا مع الإسبانين حق احتكار العلاقات التجارية مع جزر الهند الغربية ، كما كان الفرنسيون قد فعلوا ذلك ، رغم إحتجاج الأوساط ذات المصلحة ، منذ أن كان فيليب الخامس قد وصل إلى العرش . وإنتهى بهم الأمر إلى أن يقنعوا بأن يشاركوا في جزء منها ففى كل عام كانت سفينة من حولة ثلاثمائة طن — وهي التي كانت تسمى بسفينة التصريح — تدخل في هذه المنطقة بضع السلع الإنجليزية . ولقد حدد المقد أن هذه اللبزة قد أعطيت بشرط صريح . وهو عدم الإفادة منه من أجل القيام بتجارة تهريب .

وأخيراً ، فإن الإنجليز قد ربطوا بأمر الإقرار بفيليب الخامس كملك لإسبانيا ، أمر الإقرار بملكيتهم ، والتي كانت دائماً مهددة عن طريق بعض من يدعون أحقيتهم في العرش من أسرة إستيوارت ، وكذلك أمر الولاية البروتستانتية ، المرغوب فيها مقدماً ، بعد وفاة الملكة آن — الأمر الذي سيحدث في عام ١٧١٤ —

لأسرة مرشحة ، من أصل الماني ، وهي أسرة منتخبي هانوفر .
ووضعت الأراضي المنخفضة نفسها تحت تصرف الأقاليم المتحدة ، ولكن من
الناحية الشكلية فقط ، ولفترة إنتقالية . إذ أنه كان من المتفق عليه أنها ستعوض
الأسرة الحاكمة في النمسا ، والتي اضطرت بطبيعة الحال إلى أن تتنازل عن تاج
إسبانيا . وتم الإحتفاظ الهولنديين بحق إحتلال مواقع الحاجر ؛ أما ليل وحدها ،
مع فلانسين وكورديه ، فقد عادت إلى فرنسا . وفي نظير ذلك ، تتخلل فرنسا عن
بعض المواقع المقدمة كثيراً ، والتي كانت قد حصلت في عامي ١٦٦٨ و ١٦٧٨ :
مثل فيريس ، وإير ، ومينان ، ونورماي ، وبويرانج .
وكان أمر تحويل الأراضي المنخفضة إلى المملكة النمساوية بمقدور الأمر .
وكانت النمسا تشعر بأنها على درجة من القوة تكفي لكي تضمن لمحافظة حدود
الأراضي المنخفضة . ولكنها لم تكن قد انضمت لإنفاقية الحاجر : فتطلب الأمر
عقد اتفاقية جديدة — الرابعة — وهي التي كان أمر عقدها صعباً . وسيتم التوقيع
عليها ، ونتيجة لمجهرات الدبلوماسية الانجليزية ، في ١٥ نوفمبر ١٧١٥ . ونتيجة
لبعض التنازلات الهولندية في منطقة مصب نهر الاسكوت ، تم تخفيض عدد
مواقع الحاجر إلى سبع مواقع ، وسيكون جنود الأقاليم المتحدة فيها نوعاً من
القوات المرتقة للنمسا ، التي ستقوم بدفع نفقاتهم .
وبطبيعة الحال إستلم الأمراء الذين كانوا قد وضحو أنفسهم ودولهم في خدمة
السياسة الانجليزية ، تمويثات . وحصل دوق سافوا على أفضل معاملة : فتم
التنازل له عن صقلية ، وحصل على إعترااف من كل الدول المتفاددة بأنه «ملك
يديمون وصقلية» ؛ ومع ذلك ، فإن فرنسا سوف تحتفظ ، على حدود دوقية ؛
بملكية وادي برشلونيت . وحصل صاحب جلالة جديد ، وهو ملك روسيا
— فقد تمكن هو هنزلن برلين من الحصول على هذا القرب من الامبراطور —

على جزء صغير من الأراضي المنخفضة ، والذي كان أسلافه يعلمون فيه منذ وقت طويل ، وهو منطقة جيلدر ، المجاورة لنوعية كليف التابعة لهم . كما حصل على إعراف بسيادته على إمارة نيوشاتل وفلاندين ، كبريات لأسرة لونيغيل ، والتي كان مبراتها قد أثار نزاعاً مع أسرة فرنسية منذ عام ١٧٠٧ . أما ملك البرتغال ، فإنه لم يحصل على ميزات أكثر من تلك التي كان قد حصل عليها بماهدات ميثوين ؛ أو كان عليه أن يقتنع بتعديل بسيط في حدود فياننا ، على حساب المستعمرة الفرنسية المجاورة .

ولا شك في أن الفقرة الرئيسية ، والأكثر أهمية ، في المعاهدة كانت هي التي تتعلق بالأراضي المنخفضة : ولا شك في أن إعطاء منطقة مصب نهر الإسكوت للنمسيين كان مبادرة إنجليزية . ولم يد من السهل قبول أمر تحمل وجود إسبانيا في الأراضي المنخفضة ، بعد أن أصبح لها الآن ملكاً من أسرة البوربون . فكان من الضروري التحول صوب تلك الدولة العظمى الوحيدة التي كان في وسعها أن تسمى هذا الدرع الإنجليزي ضد أية محاولات فرنسية جديدة ، الأمر الذي كانوا يمتشون دائماً من إمكانية وقوعه . ومن جانب آخر ، لم يكن أمر تحويل الأراضي المنخفضة للنمسيين مباشراً ، خاصة وأن الإمبراطور كان يرفض أمر التوقيع على المعاهدة ، وحتى صدور أوامر جديدة . وكان شارل السادس متيداً في أماله الطموحة ، ومليئاً بالحق على سلفائه ، فأبقى قواته تحت السلاح . فطلب الأمر حلة أخرى ، من أجل إجباره على التناهم : وفي عام ١٧١٣ ، تمكن فيلار من الإستيلاء على لاندو (٢٠ أغسطس) وعلى فريبورج (٣١ أكتوبر) ، على التوالي . وعندئذ كان الإمبراطور الأمير ليوپولدين ، القائد العام لقواته ، بأن يطلب من المتصرف شروط ملك فرنسا . وتم عقد مؤتمرات بين القائدين في راشتاد ، في إقليم بادن . وهناك تم وضع معاهدة الصلح في شكلها النهائي (٥ مارس ١٧١٤) . وسيم تصديق

الدايت على الفقرات التي تخص الإمبراطورية بعد فترة من الوقت (٧ سبتمبر) ،
في بادن .

وأعادت فرنسا الأماكن التي كانت تحتفظ بها على الضفة اليمنى ، ولحقتها
احتفظت بكل المواقع الموجودة الضفة اليسرى للراين ؛ وإستعادت حتى لاندو ،
المدينة القديمة في الأكراس ، والتي كانت عاصمة بأراضي البلاينبات. وطبقاً للتمهيدات
التي أعطيت في أوترخت ، تحدث لوى الرابع عشر باسم حفيده ، والذي لم يكن
مثلاً ، إذ أنه رفض قبول تقسيم ملكيته . وعُرفت المعاهدة للإمبراطور بملكية
الأراضي المنخفضة والأقاليم الإسبانية في إيطاليا ، فيما عدا صقلية . وتعد ملك
فرنسا ، فيما يتعلق به ، بالأشهر أبداً قلق الأسرة الحاكمة في النمسا في ملكيتها
البلاد التي حصلت عليها . ومن ناحية أخرى ، إتفق المتعاقدون على أن يعلنوا أن
استمرار « حياذ ، إيطاليا يجب أن يمثل إحدى الثمرات الرئيسية الصلح المقود .
ولأول مرة كتبت معاهدة بين فرنسا وبين الإمبراطورية باللغة الفرنسية ،
ولم تكتب باللغة اللاتينية . ولا شك في أن هذا النجاح كان متواضعاً ، وسوف
تفتخر به العزة الفرنسية بعد ذلك بكثير .

أما مسألة إعادة العلاقات التجارية بين المتحاربين ، والتي كانت تشغل كل
معاهدات الصلح السابقة ، فإنها لم تعد تمثل ، في عامي ١٧١٣ و ١٧١٤ ، إلا مجرد
بند له أسلوبه . ذلك أنهم كانوا قد أخذوا ، هذه المرة ، ومن وقت مبكر ، توافقاً
مع طرق العمل . ففى فرنسا بنوع عام ، كانت هناك قرارات قد صدرت من
الجلس ، إبتداء من عام ١٧٠٣ ، تسمح للتجار التابعين للدول الخصمة بالحضور
إلى الموانئ والقيام بأعمالهم ، وعن طريق الحصول على جوازات *passports*
خاصة . ومن ناحية أخرى ، كانت قائمة السلع التي يمكن أن تكون موضوع هذه
التجارة محددة ؛ وسيتم التوسع فيها في مناسبات مختلفة ، في خلال السنوات التالية .

ولقد تمحدثوا في باريس وفي لندن عن معاهدة تجارية ، وتمت عادثات هلي هامش مؤتمر الصلح ، من أجل ذلك . ولكن المفوضون الانجليز أظهروا أنفسهم على أنهم قليلي المرونة ، وبشكل لم يسمح بإتمام المعاهدة : وهكذا نجد أن العلاقات التجارية بين البلدين ستظل خاضعة للقانون العام حتى سنة ١٧٨٦ .

وكانت نتائج حرب الوراثة الاسبانية تزيد في أهميتها عن نتائج أية تسوية سابقة . وتعطلت بها كل علاقات القوى في أوروبا الغربية بشكل عميق ، ولوقت طويل .

وأصبح في وسع فرنسا ، وبعد قرنين من الصراع ضد آل هابسبورج ، من هذا الفرع أو ذاك ، أن تخلص من مشغولياتها خطر العداء الاسباني . ذلك أنه — وطبقاً للكلية التي نسبت للحكما في عام ١٧٠٠ ، والتي ذكرها في حقيقة الأمر السفير الاسباني في باريس — لم تعد هناك جبال برانس . وأخذت تفتخر بأن يكون لها في مدريد ، وبشكل مستمر ، حليف طبيعي ، وحليف دائم . ولن يلاحظ أبداً أن إسبانيا المعترزة بكرامتها لن تكون مستعدة لكي تلعب إلى جانبها دوراً ثانوياً : وستجئ لنا قريباً الفرصة للملاحظة ذلك .

وفقدت الأقاليم المتحدة الحق في أن تكون لها سياستها الخاصة بها . وكانوا قد مروا بهذه التجربة أكثر من مرة ، منذ عام ١٦٨٨ ، ومنذ أن كان صاحب الفولة قد تركها ، وذهب لحكم الجوزيرة المجاورة لها . وتحولت وحدة المصالح والادارة التي نتجت عن ذلك بالنسبة إليها إلى نوع من الخسوف البطيء . ثم انتهى الوقت الذي كانت فيه الدولة الأكثر ثروة في أوروبا : فكانت لندن قد تفوقت على أمستردام . فكان عليها أن تقتنع بالمعيشة في ظل إنجلترا ، أو إذا ما أخذنا تسيراً له كنياته ، ونسب إلى فردريك الثاني ، Frederic II ، ألا تصبح «سوى ذورق يطفو في المياه حول إنجلترا» . وكانت أكبر دولة متعصرة في ذلك الوقت ، هي إنجلترا .

ثالثاً : أوج قوة إنجلترا :

١ - إنجلترا والدول التابعة لها :

إذا ما نظرنا أن أحد الزعماء قد طلب إليه ، بعد عقد معاهدة أو ترخت ، أن يخلد هذا الحدث العظيم ، برسم صورة لأوروبا وهي تخرج منه ؛ فلا شك في أنه سوف يضع إنجلترا في مقدمة اللوحة وتحيط بها الدولتان التابعتان لها ، البرتغال ، وهولندا ، وكان الإنجليز قد اعتقدوا ، في إحدى اللحظات ؛ في أنه كان في وسع انتصارهم أن يكون أكثر كمالاً ، ومع ذلك ، فقد نجسوا في أن يفرضوا ، في نهاية الأمر ، رغباتهم على كل الدول المتحاربة ، المحصوم منها والحلفاء . ولم تكن الدولة البريطانية قد ارتفعت أبداً ، في قوتها ، مثل هذا الإرتفاع . ويمكننا أن نقول أنها لن ترتفع أبداً أكثر من ذلك .

وكانت الأوضاع قد تغيرت كثيراً منذ نصف قرن ، منذ بداية الحكم الشخصي لوى الرابع عشر . وفي هذه الفترة ، كانت الاقاليم المتحدة هي التي تجتذب الأنظار بنوع خاص . وكانت قد بلغت قمة الثروة الفائقة التي كانت قد نزلت عليها في أثناء ذلك القرن ، وكانت أكبر ثروة في تاريخها . وحتى نهاية العالم للمعروف ، كان العلم الهولندي يرفرف على أراضي المستعمرات . وفي الشرق الأقصى ، لم يكن لها منافسين أقرباء . وكان الفرنسيون ، الذين قاموا بإنشاء مركز تجاري في جولة في عام ١٦٧٢ ، قد اضطروا إلى إخلائه بعد بضع سنوات ، نتيجة لإحدى ثورات الأهالي التي غذتها السلطات الهولندية . وحين قام فرانسوا مارنات ، حاكم المنشآت الفرنسية ، قرب هذه الفترة ، بوضع خطط من أجل صد سيطرة سيده ، ملك فرنسا ، في المحيط الهندي ، كانت أحلامه موجهة إلى المنشآت الهولندية وحدها ، لكي يستولي عليها ، في رأس الزبله الصالح ، وبثاقيا ، وملقا .

وعند نهاية القرن ، توقف نمو القوة الهولندية . وظهرت في كل القبلات

على أنها كانت قد أخذت في فقدان السرعة ، وفي بعضها ، على أنها كانت قد أخذت في التآخر . ولم تعد وروش إنشاءاتها البحرية ، والتي كانت في الماضي على درجة كبيرة من النشاط ، تعمل إلا ببطء ، وقل عدد سفنها . ولم تعد تنهت بنفس الحجة بأمر الدفاع عن ممتلكاتها فيما وراء البحار ، وأمر الإحتفاظ بها . وكنا قد ذكرنا أن المحيط الهندي كان قد أصبح ، قرب نهاية القرن السابع عشر ، محيط هولندي بالفعل . . ولكننا نلاحظ ، في هذا القطاع ، نقصا في المجهود الذي كان يبذل منذ قرن . ويمكن لحديث معين أن يكون له دلالة واضحة على ذلك . وكانت جزيرة موريس قد ظلت لفترة طويلة مجرد غابية يعيش فيها القراصنة . ثم دخلت في دائرة المبادلات ، نتيجة لإستغلال المنبر (الرماوى) الذي كان مشغولاً فيها . وصوب هذه الفترة ، وجدت نفسها مهمة من التجار الذين كانوا يأتون من هولندا . وبعد قليل ، قام حاكم جزيرة البوربون باستكشافها ؛ وفي عام ١٧١٤ أصدر ملك فرنسا أمره بإحتلالها . وهكذا تم ، في شهر سبتمبر ١٧١٥ ، أى وقت وفاة لوى الرابع عشر ، أمر الإستيلاء الرسمى على الجزيرة . وفي نفس العام ، سميت جزيرة موريس السابقة بإسم « جزيرة فرنسا » .

ومع ذلك ، فإنها لم تكن فرنسا ، بل إنجلترا ، هي التي تحاول أن تأخذ الأماكن التي كانت الأقاليم المتحدة تحتها في العالم . وكان صعود إنجلترا ، الذي كان قد بدأ منذ قرن قبل ذلك ، يسير بسرعة تثير الدهشة . فنش ووصول أسرة إستيوارت إلى العرش ، حتى نفيها ، وفي أقل من ثلاثين عاماً ، تضاعفت أهمية البحرية التجارية : فارتفع إجمال حوالتها من ٩٥٠٠٠ طن إلى ١٩٠٠٠٠ . وإذا كان مثل هذا التقدم قد تحقق في فرنسا ، في نفس الفترة ، نتيجة لمجهودات كولبير ؛ فإنه سرعان ما تثير الحال ، بعد الصعوبات التي نشأت في الجزء الثانى من حكم لوى الرابع عشر . وظهر تفوق التجارة البريطانية بنوع خاص أثناء حرب

الوراثة الإسبانية . وفي وقت ظهرت فيه قوة فرنسا على أنها مزعومة إلى درجة
القساويل مما إذا لم تكن ساعة إنهايارها قرية .

وحلت لندن شيئاً فشيئاً على أمستردام في العمليات المختلفة التي كانت قد
أضحت على حاصمة هولندا حصة المركز الإقتصادي العالمي . فبالنسبة لسوق الفضة ،
أخذ Stock Exchange يلعب في ذلك الوقت نفس الدور الذي كان يلعبه بنك
أمستردام . وجاءت سيطرة ورفعة الجنيه الإسترليني بعد رفعة الفلوران . وفي نفس
الوقت ، أكد العلم البريطاني سيطرة على كل البحار ، سبتم الإعتراف بها سريعاً
وبشكل عالمي . وحتى في بحر البلطيق ، والذي كان منطقة النفوذ الهولندي الواضحة ،
مال الإنجليز إلى أن يتفوقوا هناك على منافسيهم . ولكنهم لم يعالوا ، من جانب
آخر ، إلى احتلال المكان الأول فيه ، إلا بعد فترة من الوقت . وحينما تفتتح سان
بطرسبرج ، في عام ١٧٠٣ ، وهي العاصمة الجديدة لروسيا ، ميناءها ، الذي سرعان
ما تصل إليه سفن كل الدول ، سيقع إختيار القيصر بطرس على سفينة هولندية ،
ويذهب لإحضارها من خارج الخليج ، ويقودها ، وهي تتقدم بقية السفن ،
سقى الرصيف .

وتأكد نمو القوة الإنجليزية بشكل خاص في شئون التوسع الاستعماري .
وإذا ما سمحنا لأنفسنا بوضع الخطوط العامة ، حتى نجعل هذا التاريخ العالمي
أكثر سهولة في الفهم في مجموعه ، فيمكننا أن نقول أن البرتغاليين كانوا قد
أشاروا إلى الطريق ، وفي أثناء القرن السادس عشر ، وفتحوا الطريق : فأقاموا
إلى درجة ما في كل مكان عبر العالم ، وفي مواقع حصينة تسيطر على طرق الحركة
التجارية . وبعد ذلك ، وفي بداية القرن السابع عشر ، جاء الهولنديون ، الذين
وقع إختيارهم ، في أغلب الأحيان ، على أماكن أخرى ، وإن كانوا قد حاولوا في
بعض الأحيان أن يأخذوا مواقع البرتغاليين ، وأخيراً ، ومنذ أواسط القرن ،

قام الإنجليز بتشييد أكبر إمبراطورية إستعمارية شهدها تاريخ العصور الحديثة .
وربما لا يظهر تنال جهودات هذه الدول الثلاث بشكل واضح في مكان أكثر
من ظهوره في منطقة الخليج الفارسي . ورأينا هناك الهجوم العنيف على السيطرة
البرتغالية في السنوات الأولى من القرن . وإتحاد الإنجليز والهولنديون مؤقتاً ،
وكونوا جبهة ضد منافسهم المشترك ، ومجموعة حكومة الفرس . وتم طرفاً البرتغاليين
من جزيرة هرمز ، ومن المركز التجاري الذي كانوا قد أقاموه على الساحل المجاور
في جومرون . ثم قام شاه الفرس بالإتفاق مع الشركة الإنجليزية حتى يقتضى على
البرتغاليين . وبعد أن فقدوا هرمز ، إضطر البرتغاليون إلى الجلاء عن الخليج
الفارسي ، وإسحبوا إلى مسقط وفي أثناء ذلك الوقت كان الهولنديون قد عقدوا
معاهدة صداقة أولى مع شاه الفرس في عام ١٦٢٢ ، ثم معاهدة ثانية في عام
١٦٣١ ، مدعين بذلك منشأتهم في بندر عباس . وشيئاً فشيئاً ، مر الجزء الأكبر
من تجارة الخليج الفارسي بين أيديهم . وعزل حريم الأولى عند إنجلترا ، في وقت
كرومويل ، على ذلك الوقت الذي حاول فيه منافسيهم كسب الموقف . ومع ذلك
فإن السيطرة الهولندية لم تسقط هناك إلا في وقت الحرب التي كانوا يقومون بها
عند لوى الرابع عشر ، والتي كانوا فيها الحلفاء المؤقتين للإنجليز ، في عام ١٦٧٢ .
وكان عليهم ، في أثناء الفترة التالية ، أن يتخلوا عن مواقعهم ، بينما أخذ الإنجليز
في تدمير المرافق الخاصة بهم . وفي أثناء القرن الثامن عشر ، لن تنافس أحد
الإنجليز في إحتلالهم المكثف الأولى في هذه المناطق .

وفي أماكن كثيرة من العالم ، ظهرت قوة بريطانيا على أنها آخذة في الزيادة .
وقامت ، في عام ١٦٥١ ، بالاستيلاء على إحدى الجزر غير المسكونة ، سانت هيلانة
والتي سوف تستخدم كمحطة لرسو أساطيلها على طريقها إلى الهند وإلى الشرق الأقصى .
وفي عام ١٦٦٧ ، منحت نفسها ، في معاهدة بريتا ، إحدى المنشآت الهولندية

على ساحل الذهب ، وكانت مولندا قد حصلت على هذا الموقع ، فى عام ١٦٤١ من إحدى المنشآت البرتغالية . وفى عام ١٦٦٨ ، كانت بومباي ، وهى إحدى الممتلكات البرتغالية ، هى التى جاء عليها الدور لتمر إلى أيدي الانجليز ؛ وسوف تصبح أساس منشآتهم فى الهندستان . وفى جزر التوابل ، ورغم التحالف الهولندى ، أو بمعنى أدق بسبب العبودية التى فرضها هذا التحالف على الأقاليم المتحدة ، استقر الانجليز بطريقة أو بأخرى فى مراكز عديدة للحركة التجارية ، وحتى فى جزيرة سومطرة نفسها ، وحيث ظل مركز بنكولان ، الذى أنشئ فى عام ١٦٨٥ ، إنجليزيا حتى عام ١٨٢٤ . وفى أثناء الحروب العولبة التى حكمت بينهم وبين الفرنسيين ، تمكن الانجليز من طرد خصومهم من أكثر من موقع فيها وراء البحار ، سواء فى جزر الهند الغربية ، أو فى جزر الهند الشرقية . وفى الحقيقة أنه ، فيما عدا أمريكا الشمالية ، وحيث أعطتهم معاهدات أو ترخى أمر الحصول على ممتلكات خارجية فى فرنسا الجديدة (خليج هدسون ، وأكاديا ، ونيو فوند لاند) فإن إعادة السلم كانت مصحوبة ، فى كل مرة ، بسودة الوضع القائم .

٣ - التجارة والقوة العالمية :

فى البحر البريطانية ، كانت الوظائف التى تؤديها الموانئ قد تجددت قليلا ، بالنسبة لتلك النخرات التى كانت قد حدثت فى البنيان الاقتصادى البلاد . قال جانب التربة ، والتى ظلت تحتل المكانة الأولى ، تمت الزيادة إلى درجة أن قال أحد المؤرخين الانجليز أن إنجلترا قد أصبحت « غازن للثلاثاء لادويا » . وأصبحت زراعة الحبوب تغطى الآن بتشجيع رسمى . وإبتداء من عام ١٦٧٠ ، أصبحت عملية تصدير الحبوب ؛ والتى كانت مقصورة حتى ذلك الوقت على سنوات وفرة المحصول ، هى القاعدة . ومن الناحية الأخرى ، نجد أن الحرية التقليدية للاستيراد قد أصبحت : فكانت رسوم الاستيراد على الحبوب تختلف ، وفى علاوة مع الأسعار الباهظة .

وكانت المبادلات مع الخارج لا تزال محكومة بمطالب صناعة الأصواف :
وفيها بين سلع التصدير ، كانت المنسوجات تحتل دائماً مكان الصدارة ، واحتفظت
الأصواف بأولويتها التقليدية . ولم يكن يسمح بخروج الصوف الخام منذ وقت
بعيد ؛ أما المنسوجات الأجنبية فكانت تخضع لرسوم مرتفعة ؛ كما لم يكن في
وسع المستعمرات نفسها أن تصنع الأصواف إلا بالقدر اللازم لاستخدامها .
وكانت المادة المتزايدة للمنسوجات الهندية ، قد تسببت في نشأة منافسة ،
أدت في عام ١٦٨٠ إلى إثارة قلق صانعي المنسوجات : وحصلوا في عام ١٧٠٠
على منع عام لاستيرادها . وأصبحت المنسوجات في ذلك الوقت دقيقة الصنع ،
وواقعة ، وأصبحت تتنافس مع منسوجات فرنسا ، ويميل إلى التفوق على
منسوجات الشرق . وظل تصدير كورنواليس يحتفظ دائماً بحسن سمته . أما
إستخراج الفحم ، فقد زاد بطريقة منتظمة : وصوب عام ١٧٠٠ ، كانت أساطيل
بأكملها تذهب لاحتاره من موانئ التصدير إلى موانئ الأراضي المنخفضة ، وإلى
فرنسا ، وهلمبورج . أما بالنسبة للواردات ، فإن الأهمية كانت ، وكما كانت
عليه دائماً ، للبلاد التي كانت أرض إنجلترا غير قادرة على إنتاجها : توایل
الهند ، وألبدة فرنسا والبرتغال ، وأخشاب وقار البلاد الشمالية ؛ ويمكننا أن نصف
إلى ذلك بعض المواد المصنعة ، والتي كانت الصناعات الموجودة في إنجلترا لا تكتفي
لصد الحاجة إليها ، مثل منسوجات بريثاق ونورمانديا ، وحرير تور وليون .
وهكذا نجد أن العلاقات التجارية الانجليزية الفرنسية كانت دائماً نشطة بشكل
واضح . ولكنها ظلت صعبة . فكان التجار الفرنسيون مستعزين في الشكوى من
أنهم كانوا ينضمون للمراسم لم تكن تفرض على التجار الانجليز في فرنسا .
وسببت الحروب الطويلة في هذه الفترة في تدهم الحواجز الجمركية . ووصلت
ساعة الأذى العام إلى مرحلة صعب فيها ، في عام ١٧١٢ ، أن ينهضوا في أوترخت
في خفض نسبة الضرائب والرسوم التي كانت مفروضة .

ومالك التجارة البحرية لا ينجحوا إلى اتخاذ إتساع عالمي . وإنجهت كذلك صوب الشرق - الشرق الأوسط والشرق الأقصى - كما إنجهت صوب الغرب ، صوب العالم الجديد . وكانت المستعمرات التي لها معاملات أكثر مع الوطن الأم هي تلك التي كانوا يحضرون منها السكر والطباقي ، وكان الإنيل في المكان الأول من بينها . وفي أمريكا الشمالية ، إستمرت عملية توطين الأهالي ببطء ، وبواسطة عملية هجرة مستمرة ، وإستمرت أسواق جديدة في الإنفتاح أمام منتجات الصناعة البريطانية .

وفي البحر المتوسط ، فكان التنافس دائماً شديداً مع المنافسين الفرنسيين والمولنديين ، رغم أن هؤلاء الأخيرين كانوا قد أصبحوا في ذلك الوقت ، بدون كبير أهمية . وشيئاً فشيئاً ، تطورت الطرق التقليدية . ووجدت مصر ، بنوع خاص ، ومن جديد ، تلك الأهمية التي كانت لها في الماضي ، وبصفتها سوق دول . فأصبحت تصدر القمح إلى أوروبا ، وبخاصة في أوقات المجاعات ، كما حدث في عام ١٧٠٩ . وكانوا يذهبون إليها لإحضار البن ، بنوع خاص ، والذي كانت حاجة تناوله (القهوة) قد بدأت في الإنتشار في باريس في عام ١٦٦٩ ، وحين فكر أحد سفراء السلطان في إذاتها لزواره . وكان البن يأتي من اليمن . ويشحن في غنا على سفن في البحر الأحمر ، ثم يصل إلى القاهرة وإلى الإسكندرية ، عن طريق القوافل . وحتى الإنجليز ، ورغم أنهم كانوا يميلون بنوع خاص لشرب الشاي ، الذي كان يصل إليهم بأساطيل الشرق الأقصى ، أخذوا كذلك يميلون إلى شرب القهوة . وظهر تجارهم من جديد في مصر ، وحيث لم يعد لهم قنصلا ، ومنذ وقت بعيد . وقرب عام ١٦٩٦ ، وهو الوقت الذي تم فيه تعيين أحد القناصل في القاهرة ، كانت « الجالية » الإنجليزية مثلة في المدينة بما يقرب من عشرة تجار ، بينما كان عدد الفرنسيين هناك يصل ، من قبل ذلك ، إلى خمسين ، وفيما بين المراكز التجارية .

في شرقى البحر المتوسط ، ظلت أزمير دائماً هي المركز المعبر بالنسبة للتجارة البريطانية . ولهذا فإن الفرنسيين ، الذين كانوا يرون مرور السفن البريطانية قرب سواحلهم ضاربة إلى تلك المراكز أو آتية منها ، كانوا يسمونها « قاذفة لأزمير » . وكانوا يحضرون من أزمير حراير الفرس ، التي كانت تصل عبر الصحراء ، وكذلك « السكايلوت » ، وهو نسيج خشن يصنع في آسيا الداخلية من وبر الجمال . وكان هناك سوقاً آخر ممتاز المعنوجات الحريرية في هرمز ، على الخليج الفارسي .

وفي بحر البلطيق ، كان يخدم الإنجليز وامنحاً بنوع خاص صوب نهاية القرن . وفي الماضي ، وفي وقت صدور « قانون للملاحة » ، كان الهولنديون يرسلون هناك في كل عام ثلاثة آلاف سفينة ، ويرسل جيرانهم ثلاثمائة . ولكن هذه النسبة انقلبت ومنذ بداية القرن الثامن عشر ، تأكد حقوق التجارة الإنجليزية ، ولمدة طويلة .

٣ - النتائج :

فرضت الثروة الجديدة لإنجلترا ، والمظنة التي كانت تستند إليها ، إحترام إنجلترا على كل جيرانها ، الذين أصبحوا يحشونها كعدو ، ويحشون عن صداقتها . ولم يلقب لوى الرابع عشر إلا مؤخراً لحقيقة كان ، نتيجة لكسل تفكيره ، وإصراره على آراء خاطئة ، غير مهيب للاعتراف بها . ولكنه انتهى به الأمر إلى أن يفتح صبره ، في اللحظة الأخيرة . وبعد عقد الصلح في أوترخت ، رأى أن إنجلترا قد حادت من جديد لكي تصبح العدو الأول ، بالنسبة لفرنسا ، وأنه مادام قد أصبح من المحال العودة إلى صداقة هولندا ، والتي كانت قد فقدت بشكل نهائي ، فمن الأفضل البحث عن تقارب مع النمسا ، القوة العسكرية الثانية على القارة .

ونتيجة لضيق الوقت ، لم يكن من السهل البدء في تنفيذ مثل هذا التغيير إلا بالكاد قبل نهاية حكم لوى الرابع عشر . ففي الأسابيع الأولى من عام ١٧١٥ ، تم تكليف البارون مانتا Mandat ، أحد أحران تورسي Torcy ، والذي كان قد

حضر إلى جانبه في مؤتمر أوترخت ، وإلى جانب فيلار في مؤتمر بادن ، بالانحياز والقيام بعملية جس نبض في فينا ، وذلك في إنتظار وصول السفير المختار ، والذي كان في ذلك الوقت في مهمة لدى كاتنونات سويسرا. ولقد تحدث مع رجال البلاط ، ووجد أذنأ صاغية عند الأمير أيجين ، وكان من أصل فرنسي : وفي المجموع كانوا يكثررون القول عن الإنجليز ، ثم جاء بعد ذلك السفير ، الكونت دي لوك He ، والذي كانت التعليمات الصادرة إليه ، والمكتوبة بتأني ، كافية لكي تشرح لنا وجهات نظر لوى الرابع عشر وتورسي. وكانت تتضمن مسألة العظمة المتبادلة للأسر الحاكمة في فرنسا وفي النمسا ، ، و« بقوقها » ، والميزات التي سيحصلون عنها من تعاونها سوياً . ولم ينسوا بطبيعة الحال المصالح الدينية . . .

وكانت هذه الإمكانيات قد فتحت في وقت متأخر للغاية ، وبشكل لم يسمح بإمكانية الدخول في هذا الطريق الجديد. والواقع أن لوى الرابع قد توفي في نفس العام ، في أول سبتمبر . ولن تبحث فكرة التحالف الفرنسي النمساوي ، وتدرس من جديد ، إلا بعد أربعين عام من ذلك. وسيكون هذا هو تنبيه المحادثات المشهورة الذي وقع في عام ١٧٥٦ .

الفصل الحادى العشر

شرق أوروبا ، السويد وروسيا

رغم أنه من الواجب ، فى هذا الفصل ، وكما كان عليه الحال فى الفصول السابقة ، أن تقوم الدول العظمى ، بالحدود الرئيسى ، إلا أننا نجد أنه ، من بين الدول التى نظمت نفسها من أجل الصراع وكانت لها طاقة عسكرية كبيرة ، ظهرت شخصيتان ليس لهما مثل ، واحتلتا المكان الأول ، واحتفظتا به بشكل مستمر تقريباً : فن ناجية مجدد دولة السويد ، ومن الناحية الأخرى منشوء دولة روسيا : شارل الثانى عشر Charles XII وبطرس الاكبر Pierre le Grand . ويبدو أن أوروبا كانت قد اقترنت ، عند نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر ، من نمط « البطل » ، بالمعنى الذى أعطاه التقدماء لهذه الكلمة . وفى الوقت الذى سوف يلتقى فيه فى الغرب الحكم الطويل الملك الشمس (لم يكن سوى الرابع عشر أى شيء من « البطل » ، القديم : بل كان شكله يذكر بروع خاص بفيليب الثانى ، الملك البهروقراطى) ، كانت حياة شارل الثانى عشر ، هذا الجوستاف أدولف الجديد ، تقترب كذلك من نهايتها ، وذلك فى الوقت الذى كان فيه نجم أكبر قياصرة روسيا ، بطرس الاكبر لا يزال له كل يرقه .

وفى ما بين مصريها ، كان هناك توازى واضح . فكان الواحد والثلاثون قودومل إلى السلطة فى وقت مبكر تماماً ، وهو فى سن البلوغ ؛ فكان لبطرس الاكبر سبعة عشر عاماً ، فى ١٦٨٩ ، وكان لشارل الثانى عشر خمسة عشر عاماً . فى ١٦٩٧ . ولقد فرضا ، كليهما ، نفسيهما بقوة شخصياتهما الاستثنائية ، وقوة تصميمهما ، والرغبة فى العمل ولم يكن لؤلاء الرجال النباليين أية علاقة بدروس ميكافيل . وكانا النتاج الفعلى لوسط الذى كانا قد ولما فيه ، والذى عاشا فيه . وكان كل

منها يفرض نفسه بالوسائل الكلاسيكية للغاية ، بطريقة الحرب ، وأعلى كل منها الكثير الأذى التي خرج منها ، ولم يخلوا أى شيء ، أو تقريباً أى شيء ، لأوروبا ، وبصفتها موطناً لحضارة كبيرة .

وكما كان عليه الحال من جيلين قبل ذلك ، سرى مرة أخرى أن مستقبل القارة كان يصنع ويتشكل في الشمال . ولكن هذا الأمر لن يتم بحديد السويد . لم يعمل في هذا النطاق إلا بطريقة غير مباشرة ، وفي ذلك المدى الذي كان يسهم في تكوين هاتين الدولتين العسكريتين العظيمتين المستقبل ، روسيا وروسيا . وكان أبناء براندبورج والبروسيون ، ونتيجة لتقاسم قوتهم عدة مرات مع السويديين ، قد انتهى بهم الأمر إلى أن تعلموا منهم أساسيات الفن العسكري . وبنفس الطريقة ، إحترف للتبحر الأكبر أنه قد حصل عليها نتيجة الدروس الصعبة التي كان خصمه قد أعطاهما له في وقت أول موقعة . في ميدان معركة نارفا . وبعد عشر سنوات ، وفي اليوم التالي لموقعة بولتافا ، ذكر هذه الكلمات ، أثناء حفل ، وهو يرفع كأسه في شرف خصمه قبل الحظ : « إلى أشرب في صحة أولئك الذين طوفوا في الحرب » .

١ - الأوضاع للوجود في شرق أوروبا ، وفي الشمال :

سوف نهم أولاً بدولة السويد . ولكن علينا أن نذكر ، باختصار ، وقبل أن نشرح الظروف المحيطة بتاريخها أثناء السنوات التي سبقت وصول شارل الثاني عشر إلى العرش ، ما كان قد حدث منذ الفترة التي كنا قد توقفنا فيها عند دراسة بحر البلطيق ، أي منذ صلح أوليفا ، والتطور العام للعلاقات التجارية في جميع أنحاء هذا القطاع .

وكانت الفترة الطويلة السلم التي كانت قد بدأت في ذلك الوقت ، قد سمحت بوقوع تفهم واضح في المبادلات بين غرب أوروبا وشرقها بواسطة طريق البحر .

وكانت تجارتها قد احتفظت بمستوى معين في أثناء الربع الأول من القرن .
وجاءت حرب الثلاثين عاماً والأحداث التي صاحبها في بحر البلطيق لكي تعطيا
الضربة الأخيرة . وكان ميراث مدن الهانسا قد سمر في غالبية العظمى إلى
الهولنديين . وكانوا هم الذين أصبحوا ، في ذلك الوقت ، يحتلوا المكان الأول .
وفي عام ١٦٦١ كانت ثلاث أرباع السفن المسجلة في مرورها في مضيق سوند
تعمل على هولندا . ومن ناحية أخرى ، كان الجزء الأكبر من الحوالة يمثل دائماً ،
عند العودة ، في الحروب التي نشبت في هولندا أو في ألمانيا الجنوبية . كما
كانت منتجات غابات روسيا أو فنلندا تحتل فيها كذلك مكاناً هاماً : الخشب
اللازم لبناء السفن ، والقار . وعلينا أن نشير أخيراً إلى زيادة واضحة في كيات
حديد السويد . وفي الدخول ، كان الملح يحتل مكاناً كبيراً ، وبخاصة ملح فرنسا .
وكانت تأتي من فرنسا كذلك الأبنية ، وبكثرة ، وكذلك الكحول .

وحسب عصر لوى الرابع عشر ، كان جزء بسيط جداً من تجارة فرنسا مع بحر
البلطيق يتم تحت العلم الفرنسي . وبينما كانت السفن الهولندية هي التي تقوم
بالإحصال بين موانئ فرنسا وبحار الشمال ، كان ما يقرب من عشرين أو ثلاثين
سفينة فرنسية تعبر مضيق سوند ، وكانت غالبيتها تذهب إلى داننبرج . وبعد أن
انتهت حرب الشمال ، والذي تم أثنائها إخلاء مياه البلطيق من السفن ، طالت
التيارات السابقة العلاج إلى مجاريها . وكان هذا ، على وجه التحديد ، هو الوقت
الذي كان كولبير قد وصل فيه إلى السلطة . ولقد إنشغل من وقت مبكر ، ولكي
يجرد التجارة الوطنية من وساطة الهولنديين ، بإقامة علاقات مباشرة مع الموانئ
الألمانية ، والبولندية أو الاسكندنافية . وتمكن في عام ١٦٦٣ من عقد إتفاقية
هديدية مع الدانمرك ، شملتت للفرنسيين بعض الميزات بالنسبة للمرور في المضائق ،
ونصت على إقامة قنصل الملك في لسنهر . كما تم تجديد معاهدة كانت قد عقدت

في الماضي ، في عام ١٦٤٣ ، مع دوق كورلاند ؛ وعقدت إتفاقيات جديدة مع
مدن الهانسا ، هامبورج ، وبريمن ، ولوبيك .

وتمت كذلك إقامة علاقات وثيقة مع بروسيا ، ودانويج ، ومع هولندا . ثم
عمل كوليبر من أجل إنشاء شركة ذات إمتياز ، من نفس نوع تلك الشركة التي
كانت قد عهد إليها قرب ذلك الوقت بأمر تجارة شرق البحر المتوسط ، وهي
الشركة التي سيكون مقرها الرئيسي في باريس ، وفي نفس الوقت في لاموشيل ،
قرب مزارع الغنم ، وبجهرات الملح . وهذه الشركة ، التي إنشئت باعلان ملكي
في عام ١٦٦٩ ، ضمت بعد خمسة سنوات ، وكان سوء الحظ قد شاء أن تفتش
حرب هولندا في بداية نشأتها . ومع ذلك فقد أسهمت في تنمية العلاقات بين
الموانئ الفرنسية وبين موانئ الشمال . وأعادت المملكة من ذلك أثناء الحروب
الكبيرة في الفترة التالية . وكان قرصنة دنكرك يحمون على قدر استطاعتهم تلك
السفن التي كانت تستمر ، في أثناء حرب رابطة أوجسبرج ، في الإغاب إلى موانئ
بحر البلطيق ، من أجل إحضار المواد اللازمة لتزويل فرنسا ، التي كانت جيوش
الفتك تهاصرها . ولم تصبح التبادلات معوقة بشكل خطير ، إلى وقفها تقريباً ،
إلا في أثناء أزمة الوراثة الإسبانية .

وعلىنا أن نعود الآن إلى تسلسل الأحداث التي كانت بلاد الشمال مسرحاً لها
منذ عام ١٦٦٠ .

أما روسيا ، والتي كان النرييون لا يرغبون في أن يعترفوا لها بنفس حقوق
السلطان الأوربية الأخرى ، فإنها لم تكن موجودة في أوليفيا . وكانت جيوشها ،
وفت إشتباكها مع السويد ، قد احتلت دوريات ، ولكنها فشلت أمام ريجسا .
ولقد وجد التيجر ، منذ الوقت الذي إستعادت فيه هولندا حرية عملها ، أنه من
الحكمة أن يخرج ، هو بدوره من الحرب . وتخل مرة جديدة ، في معاهدة
كارديس (يوليو ١٦٦١) عن كل ليفونيا .

وفي أثناء ذلك الوقت لم تكن مسألة القوزاق قد سوت بشكل نهائي . وبدأت مرحلة جديدة من الصعوبات مع وفاة شمينيكي Chmielnicki (١٦٥٧) . وكان بعض رجال القبائل ، الذين نازق قلعهم من نبات موسكو الواضحة ، قد مالوا إلى التقرب إلى البولنديين . وتم عقد إنفاق ، في عام ١٦٥٨ ، يلحق أوكرانيا بمملكة بولندا ، في نفس الوقت الذي يحتفظ لها فيه باستقلالها الداخلي : وكان هذا هو سبب نشوب حرب جديدة بين البولنديين والروس ، سرب ضروس وشرسه ، من هذا الجانب ومن ذلك ، بعد أوليفا . وقسم جان كازيمير Jan Kazimir حتى وسط البلاد ؛ وقد هناك جزءاً من جيشه ، نتيجة البرد والجوع . وفي ذلك الوقت ، جاء التناز من جديد لنجدة القوزاق . ومع ذلك فإن أحداً من الخصمين لم يكن على مستوى يسمح له بالنصر . ولذلك فأنهم قرروا ، في عام ١٦٦٧ ، أن يقدوا هدنة لمدة ثلاثين عاماً ، في أندروسوفو : فظلت الهدنة التي نهر الدنيبر لبولندا ؛ أما الضفة اليسرى ، مع كييف ، فإنها مرت إلى روسيا . وفي نفس الفترة ، تم تقسيم روسيا البيضاء ، التي كانت تجاور روسيا الصغرى من الشمال ، وأخذ الروس سمولنسك . وسوف تظل الأوضاع التي تم الاتفاق عليها في أندروسوفو كما هي ، وبدون تغيير .

وهكذا نجد أن بولندا قد خضعت ، في مدة عشر سنوات ، لمهبطي بتر ، في صالح الدولتين المجاورتين لها ، الدولة البروسية ، والدولة الروسية ، وهما اللتان سوف يتسبان في أن تنفأ لها ، ولتقبلها وحتى لوجودها كأمة ، خطراً يمتد ، بعد قرن من الزمان .

وكانت الدولة البولندية دائماً هي الدولة الأولى في شرق أوروبا . ولذلك فلن يحكمها قد استمرت موزعة بين الطوائف المتصارعة التي كانت تأتي لها من باريس ، ومن قبلها . فكانوا يرضون عليها ، من ناحية ، عملاً مشتركاً ضد آل

هابسبورج ، مع هدف يتمثل في غزو سيليزيا ، ومع شرط يتمثل في الصلح مع جيرانها الآخرين ، الأتراك ، والروس ، والسويديين . وكانوا يحمسونها ، من ناحية أخرى ، لمحاربة أعداء الدين ، الأتراك ، والهرطقة السويديين ، والذين كانوا ، الإثنين ، من أنصار السياسة الفرنسية . ومع ملك كاثوليكي للغاية ، مثل سيغموند الثالث Sigismund III ، زاد نفوذ النساء بشكل واضح ؛ وجاءت معاهدة تحالف ، في عام ١٦١٣ ، لكي توحد بين التاجين . واصلت خليفته لاديسلاس الرابع Ladislas IV ، غير هذا الاتجاه ، وقلبه . وكان متزوجاً في أول الأمر من إحدى النساءويات ، ثم تزوج بعد ذلك إحدى الفرنسيات وهي ماري لويز دي جونغواج Marie - Loise de Gonzague ، والتي سوف تتزوج ، بعد وفاته من أخية وخليفته ، جان كازيمير Jean Casimir ، سيد حرب الشمال . وبمجرد ضمان السلم ، في الغرب ، بمعاهدة البرانس ، وحتى سواحل بحر البلطيق بمعاهدة أوليفاء ، بدأ الشعور بضغط الاتراك على حدود النساء وعلى حدود بولندا . ويصعب فهم . ويصعب فهم زيادة هذا الخماس الحربي عند العثمانيين دون النظر إلى جانب الشرق ، من ناحية آسيا فكان الصراع الطويل المدى الذي وقع عند الإيرانيين منذ نهاية القرن الماضي لم يعط النتائج المرجوة منه إلا في وقت متأخر : ولم تم مسألة إمتلاك بغداد إلا في عام ١٦٣٩ . وبعد تأمين حدود العراق بشكل قوى ، أصبح من الممكن التفكير في ذلك الوقت في القيام بمشروعات جديدة في اتجاه الغرب .

وكان العداء مستمراً بين المسيحيين والمسلمين على طول الخط الكبير الفاصل بينها : وكان ذلك في المناطق القريبة من البحر الأسود . وكان القوزاق في بحث دائم عن أراضي يرهون فيها قطعانهم ، فكانوا يشقون دائماً ،. ومنذ الماضي ، مع التتار ، الذين كانوا يقيمون في القرم ، وعلى السواحل المجاورة .

وفي أثناء السنوات الأولى من القرن ، قام البعض من بينهم بتجاوز منطقة
الاصق ، ونزلوا على القوارب على نهري الدنير والدون ، ووصلوا حتى البحر
الأسود ، حتى يقرموا هناك بأعمال القرصنة . وتجرأوا شيئاً فشيئاً ، ثم تقدموا
بمد ذلك حتى مشاؤف إستانبول : فأدى ذلك إلى إضطراب الأتراك إلى إنشاء
أسطول في البحر الأسود ، حتى يتمكنوا من حماية تجارتهم . ومنذ ذلك الوقت ،
أصبح العداء بين التتار وبين القوزاق ، وكان الأولون ينضمون إسماعياً لاستانبول
والثانيون لوارسو أو لموسكوا ، عاملاً دائماً من عوامل الحياة الدولية . وفي
عام ١٦٣٧ ، قام قوزاق الدون بمفاجأة آزوف ، التي كانت من ممتلكات خان
الترقم . فاضطر السلطان إلى إرسال قوات إلى تابعه ، لكي يساعده على إعادة غزو
المنطقة : وإستاج الأمر إلى خمس سنوات . وقامت قبيلة أخرى ، هي قبيلة
زابوروج ، والتي كانت تسكن ما وراء مساقط الدنير ، بالتحصن في إحدى
الجزر المنيعه في النهر ، وإستمرت في حرب ، أستمها مقدسة ، ضد جيرانها
الأتراك . وكان يحدث ، في بعض الأحيان ، أن تتحول هذه الحالة الدائمة من
الحرب إلى هدنة ، مادام التتار قد حضروا ، قرب أواسط القرن ، لكي يساعدوا
جيرانهم ضد البولنديين .

وكانت دولة السويد قد عرفت الضعف قبل نهاية القرن ، وقبل أن تبدأ
في الظهور في يولندا وفي روسيا . وكان الملك شارل الحادي عشر قد خضع
لضغوط لوى الرابع عشر ، ومنحه تأييده ، في عام ١٦٧٤ ، ضد منتخب
براندبورج . وبعد تدخل الدانمرك والأقاليم المتحدة إلى جانب براندبورج ،
إمتدت الحرب إلى كل الحوض النهرى لبحر البلطيق . وإلزم السويديون في
سربهم عند حدود بوميرانيا ، في مرتبة فير بلين (٢٨ يونيو ١٦٧٥) . وكانت
هذه الهزيمة : سبباً لحرقتهم لدرجة كبيرة . خاصة وأنها كانت قد تولت بهم على

أيدي أحد سفار أمراء ألمانيا . ثم عاد الدانمركيون ، تحت ضغط متضرب براندبورج ، الى الظهور في أحد الأوقات في سكابيا ، واعتمد أسطولهم في ذلك على الأسطول الهولندي ، وأكد من جديد تفوقه على مياه بحر البلطيق . وفقدت جزر ولان وأرسيديم ، عند مصبات الأودير ، ثم جزيرة جوتلاند ، في وسط بحر البلطيق ، وتم احتلال يريمن وفردن مؤقتاً ، أما استين ، التي حوصرت ، فإنها اضطرت الى التسليم . وفي أثناء ذلك الوقت ، قام الحشم بعبور السوند ، وجاء شارل الحادي عشر لكي يواجهه . وتمكن من أن يصدّه ، بعد معركة عنيفة قرب لند (ديسمبر ١٦٧٦) ، ومن أن يجبره على أن يعود الى صفته .

وإحتاج الأمر ، في اليوم التالي لنسيمج ، الى تدخل من جانب ملك فرنسا ، حتى يتم وضع حد لهذا الصدام . وبينما كانت المفاوضات تسير ببطء في لندن ، قرر لوى الرابع عشر أن يلقى بثقله العسكري في الميزان . فأجبر ملك الدانمرك على عقد الصلح ، وذلك بنزوة دوقية أولدنبيرج ، التابعة له : وأحدث معاهدة لند ، التي كانت قد أعدت في فونتنبلو ، الوضع القائم إقليمياً (٢٦ سبتمبر ١٦٧٩) . وبمعاهدة سان جرمان لن لاي (٢٩ يونيو) ، اضطرت براندبورج ، والتي كانت مهددة بدمرها في قلب دولها ، إلى أن تعيد استين ؛ ولم تحتفظ إلا بشريط قليل القليلة من الأرض إلى جوار نهر الأودر . وفي المجموع ، لم يتغير شيئاً بالنسبة لتوازن القوى في بحر البلطيق الغربي .

ولذلك فإن سياسة السويد كانت قد تطورت حتى ذلك الوقت في ظل فرنسا . وكان لاجاردى Le Gardie ، المستشار الأول لشارل الحادي عشر ، يرجع في أصله إلى إحدى أسر الميجونوت من منطقة لامجودوك ، وكان قد أحلى وطنه الجديد هلاكة كاملة من أفضل الخادمين ، وكان عليه أن يواجه ، من ناحية أخرى ،

معارضة قوية في داخل المجلس : وكان خصومه هم الذين نجحوا في أن يحصلوا ، في عام ١٦٦٧ ، على انضمام السويد إلى التحالف الإنجليزي الهولندي في لاهاي ، والذي كان يهدف وقف الجيوش الفرنسية في الأراضي المنخفضة . وكان ذهب هولندا وذهب فرنسا يتنافسان في التعامل مع الخصائر في إستوكهلم . وفي عام ١٦٨٠ ، جاءت الإهانة غير المتوقعة — والجائية — التي أنزلها لوى الرابع عشر بملك السويد ، بتركه قرار مجلس محكمة ميتر يضم إلى المملكة دوقية ديه بونت ، والتي كانت قد وعدت لشارل الحادي عشر ، بالمهرات ، لكي يؤدي إلى التخلص لاجاردى . وكان هذا هو نهاية التحالف الذي كان يوحد بين البلدين ، منذ عصر جوستاف أدولف .

ومنذ السنوات التالية ، إرتبطت السويد بالأقاليم المتحدة . وجات وماعدة المشاركة الجديدة ، والتي تم التوقيع عليها في لاهاي في ٣٠ سبتمبر ١٦٩٨ ، وفي نفس اليوم الذي دخلت فيه القوات الملكية إلى إسبراسبورج ، لكي تعيد شروط معاهدات ١٦٦٨ و ١٦٧٠ . وجات إتفاقات ، بعد ذلك ، مع الإمبراطور ، ومع ملك إسبانيا ، لكي تؤكد هذا التنهد في الإتجاه . ومنذ ذلك الوقت ، ستكون السويد قوة عسوبة بين الأعداء الهادئين لفرنسا . وفي ذلك الوقت ، لم يجد لوى الرابع عشر أية مظاهرة سوى أن يمنح تحالفه الدائمك (٢٥ مارس ١٦٨٢) . ومن جانب آخر ، نجد أن شارل الحادي عشر ، رغم تعهداته حيال أعضاء التحالف الكبير في عام ١٦٨٩ ، يمارس حياداً تاماً في أثناء حرب راجلة أوينسبرج . وتم قبوله كوسيط في مؤتمر ريدويك . وفي أثناء عقد المعاهدة بين فرنسا والإمبراطورية تمكن بثبوة من أن يحصلوا من الملك على إعادة الكاملة لدوقية ديه بونت .

ولقد توفي شارل الحادي عشر قبل التوقيع على المعاهدة . وأخذ ابنه إثن ،

في هذا الوقت ، مقاليد السلطة . وكان هو شارل الثاني عشر Charles XII ، وكان لا يبلغ من العمر سوى خمسة عاماً . ومع ذلك فإن الهات سوف يعلن أنه قد بلغ سن الرشد . ولقد أعطى دلائل بالفعل على نضج بشرية الهشة . وسوف يبدأ ملحمة حروبه قبل أن يمر عامين على ذلك (يناير ١٧٠٠) . ولم يكن هو الذي أخذ المدافع الأول ، بل كان خصمه الكبير ، القيصر بطرس ، والذي كان لا يريد عنه في السن إلا بـشـر سنوات . وكان هو أيضاً دبطلاء جديداً تحت الصنع؛ وكان قد وصل إلى السلطة كذلك في سن مبكر . وكان قد اضطر إلى الإعتماد على قوته ، إلا أن اخته الأكبر منه ، الروسية ، صوفيا ، لم تكن مستعدة لكي تترك مقاليد الأمور له

ومع بطرس الأكبر ستظهر دولة روسيا ديناميكية لم يكن أحد يعتقد أنها كانت قادرة عليها . وسوف تأخذ دور الدولة العظمى ، دولة أوربية ، في ذلك القطاع الذي هو لها بشكل خاص ، وهو قطاع شرق القارة . وكان لديها عاملاً هاماً من عوامل القوة ، وهو الطاقة البشرية المرتفعة ، والذي كان من الصعب بدونه — وعلينا أن نذكر هذه الملاحظة — أن يسمح لها ذلك النجاح الفائق الذي كانت السويد قد حصلت عليه من قبل ، بأن تتمكن من أن تنشئ شيئاً يبقى على مر السنوات . ولقد أنشأ بطرس الأكبر روسيا الحديثة ، ومع ذلك ، فإنه لم يكن قد قام بهذا العمل من العدم . فواصل وأكمل ذلك العمل الذي كان أسلافه المباثرون قد بدأوه ، وخاصة والده ، القيصر أليكسيس ميخائيلوفيتش Alexie Nikhaïlovitch . وعلينا أن نذكر هنا حالة العلاقات بين الإمبراطورية الروسية والموسكوفية وبين جيرانها ، ونبدأ بالعلاقات مع بولندا ، والتي كانت تتواجه معها من وقت لآخر ، منذ فترة من الزمن . وستكون هذه فرصة لكي نعود — وكما علمنا بالنسبة للسويد — إلى الماضي القريب لبولندا .

٢ - بولندا وروسيا والسويد :

في عرض تفاعلات لوى الرابع عشر مع أوروبا ، لم يأخذ البولنديون مكانهم ؛ ذلك أنهم لم يشتركوا في أى تكتل من تلك التكتلات التى كانت قد نشأت نتيجة لطموحات هذا الملك الكبير . وبشكل عتلف عن السويديين ، ومشابه للاتراك ، أظهروا رغبتهم في أن يظلوا عتصين للصدقة الفرنسية . وكان هذا لايضى أن هذه الصداقة قد ظلت دون تمكيد أو حتى تهديد ، في حالات كثيرة . ولكن فرنسا ظلت ، أمام الرأى العام الأوروبى ، وبخاصة أمام أنظار روسيا ، على أنها هى حامية بولندا بشكل واضح . وفي عام ١٦٥٤ ، وحين بدأت حرب بولندية روسية جديدة ، أرسل القيصر أليكسيس وفداً إلى باريس لى يشرح وجهات نظره للحكومة الفرنسية . ويضمن أن فرنسا لن تساعد البولنديين ؛ فأجاب مردان على ذلك ببساطة بعرض وساطة الملك . ولقد استمرت العمليات الحربية ١٦٦٧ ، وحتى الوقت الذى تم فيه ، بعد ثلاث سنوات من المفاوضات ، عقد هدنة أندروسوفو ، التى تركت لروسيا أوكرانيا الشرقية . وفي هذه الفترة ، أظهر القيصر من جديد رغبته في ألا ينسوه . فأرسل سفارة رسمية إلى إسبانيا وإلى فرنسا ، هاتين الدولتين العظيمتين في الغرب ، والتين كانتا ، تقليدياً ، تبهجان بمصير بولندا الكاثوليكية ، والتين كانتا ، من ناحية أخرى قد دخلتا في حرب ، الواحدة ضد الأخرى . وكان قد رأى ضرورة أن يشرح لهما وجهة نظر روسيا في الشؤون الدولية ، ويعرض عليهما في نفس الوقت صداقة القيصر . وكان الإستقبال مشجعاً للغاية : فتحدثوا عن التجارة ، وتم التفكير في إنشاء شركة فرنسية .

وسرعان ماتحدث أزمة لورامة العرش في وارسو ؛ وذلك نتيجة لتنازل الملك جان كازيمير . وكان لوى الرابع عشر قد قرر منذ وقت بعيد أن يؤيد أمر

ترشيح أمير كوندية أمام البابا : وفكر حتى في وقت معين في أن يريده بعشرة آلاف رجل ؛ وكان يعد بتقديم الأموال والمعاشات . ولكن حرب أحقية النسب لمحت في نفس الوقت ، الأمر الذي تطلب من أمير كوندية تقديم خدمات أخرى . فكان من الضروري إذن التخلّي عن هذا المشروع مؤقتاً . وتم انتخاب مرشح وطني وهو ميشيل كوريوت ويسنيوسكي *Michel Korybut Wisniawski* في عام ١٦٦٩ .

ولقد تميز الحكم الجديد بمواجهته أخطاراً خارجية كبيرة . فكان الأتراك ، في عام ١٦٧١ ، وفيما بين حلتين موجعتين ضد النمسا ، قد محولوا ضد بولندا ، مستجيبين إلى النداء الذي كان قد وجهه إليهم كل من القوزاق وأهالي أوكرانيا . وقام جيش ، بقيادة السلطان محمد الرابع ، باحتلال المواقع الحصينة الموجودة في الملحقات الجنوبية الشرقية للملكة ، وبغرامة بوحوليا . وتقدم هذا الجيش حتى تحفه أسوار ليوبول ؛ وكان من الضروري ، من أجل توقيف هذا الجيش ، الإسراع بالتوقيع على الصلح في بوكراك (أكتوبر ١٦٧٢) ، وبشمن تنازل كبير عن أقاليم ، ودفع جوية سنوية السلطان ؛ وكانت شروطاً مذلّة إلى درجة فرض البابا التصديق على المعاهدة . وعندئذ تكون جيش جديد ، وأعطيت قيادته لجان سويسسكي *Jean Sobieski* . وفي هذه المرة ، إنتهت الحملة ، في ١٠ نوفمبر ١٦٧٢ بانتصار كبير ، هو إنتصار كركيزيم ، أو خوتين ، على نهر الفليستر . وفي العام التالي ، ١٦٧٤ ، جاءت وفاة الملك ميشيل لكي تسبب في عزات جديدة ، وفي مرحلة جديدة من مراحل التنافس الفرنسي النمساوي . وفي هذه المرة ، تمكن المرشح البولندي ، مارشال القصر ، جان سويسكي ، المنتصر في كركيزيم ، من أن ينتصر على منافسيه الأجانب . وتزوج من إحدى الفرنسيات ، ماري دي لاجرانج داركين ، وصيفة الملكة السابقة لـ *ماري* ؛ ولفترة من الوقت ، كان النفوذ الفرنسي هو الذي أصبح ،

من جديد ، سائداً . وفي شهر يونيو ١٦٧٥ ، تم عقد معاهدة تحالف بين فرنسا وهولندا ، ولكنها ظلت بالفعل دون نتائج ، خاصة وأن الدبلوماسية الفرنسية ، والتي كانت غلصة لصداقة تركيا ، كانت لا ترغب في إعطاء أى وعد يكون من طبيعته مضايقتها في علاقاتها مع إستانبول . وكانت النتيجة الرئيسية لذلك تتمثل في أن يلقى البولنديون أنفسهم إلى جانب النمسا ، والتي كانت كذلك مشغولة ، وقبل كل شيء ، بأمر الدفاع ضد الإسلام .

وكان الأمر على خلاف ذلك في بودا وفي وارسو . وهنا كانت الثورة مشتتة ضد آل هابسبورج . وكانت فرنسا تقاذل الثوار ، من أبناء المجر وترانسلفانيا مع بعضهم ؛ ولم تبخل عليهم بأى تشجيع . وانتهى بها الأمر إلى أن تمنحهم تأييدها الفعلي : فوعدتهم في معاهدة فوجاراس (٢٧ مايو ١٦٧٧) بمنحهم ممولات من أجل الاحتفاظ بجيش من خمسة عشر ألف رجل ، وهم الذين سيحضرزون لزيادة عدد المتطوعين البولنديين والفرنسيين . وفي أثناء ذلك الوقت ، تبادل الامبراطور ليوبولد ونويسكى — الذى أصبح ملكاً باسم جان الثالث — وهدواً بالحياد المتبادل ، وذلك في سالة إتساع العمليات الحربية القائمة . ومن ناحية أخرى نجد أن العمليات البحرية التي كان يقوم بها جيش الثوار في اتجاه فينا لم تؤد إلى شيء . خاصة وأن الإمبراطور كان قد إستدعى إليه جزءاً من قواته التي كانت الحرب ضد لوى الرابع عشر قد إحتجرتها على الراين .

وفي كل من موسكو ومن وارسو ، كانت الروح الصليبية هي التي تميل إلى تحريك السياسة الخارجية ، في ذلك الوقت . وفي عام ١٦٧٢ ، قام القيصر أليكسيس بإرسال سفارة جديدة إلى لوى الرابع عشر ، لكي تدعوه لوقف العمليات الحربية التي كان قد بدأها على حدود هولندا ، ولكي يوجه فرقة الحربية ضد هذه المسيحية المشتركة ، ضد الأتراك . وتمت عروض من نفس النوع على التوالى في فينا ، والبندقية ،

وروما ، واستوكلهم ، وفي براين ، ولاهاي . ولقد اختفى أليكسندر بعد ذلك بقليل . وتم ابلاغ وفاته الى ملوك الغرب ، طبقاً لما هو متبع في الغرب ، من طريق سفير خاص ، يقوم بزيارة عاصمة بعد عاصمة ، في الدول العظمى ؛ باريس ، مدريد ، ولندن . وفي نفس المناسبة ، بدأت مفاوضات مع فرنسا وطرح اقتراحات من أجل التوقيع على معاهدة تجارة . ولكن الشكوك الروسية ، جاءت من جديد - وبخاصة فيما يتعلق بالألقاب الممنوحة القيصر - لكي تمنح لها . وفي مرتين بعد ذلك ، في خلال السنوات التالية ، ستقدم عروض مشابهة الى لوى الرابع عشر ، بواسطة القيصر فيدور - Fedor - الأخ الأكبر لبطرس - ، وكانت أولها في عام ١٦٨٢ ، وقت وقوع أزمة جديدة بين النمسا وتركيا . ولكنها كلها ستظل ، بلا نتيجة .

ولقد أفاد بطل كوكريم ، منذ وصوله الى العرش ، من تلك الهدنة الممتدة على الشرق ، لكي يتقرب من موسكو ، ولكي يتفق مع القيصر على العودة الى الحرب في الجنوب سوياً ضد الأتراك . ولقد اضطر سرياً إلى أن يتوقف ، وإلى أن يوقع في زوراونو ، في غاليسيا ، على معاهدة تترك الخصم الجزء الأكبر من فتوحاته في بودوليا بما في ذلك مدينة كامينيتر (أكتوبر ١٦٧٦) .

وفي أثناء ذلك الوقت ، كانت روسيا قد واصلت الحرب على حدود أوكرانيا . وكان مسرح العمليات هو دائماً نفس الميدان . فكانت هي البلاد التي يسكنها القوزاق الى منطقة الدنيستر . وكانت شيغرين ، قلعة القوزاق الرئيسية ، تنتقل من سلطة الى سلطة أخرى . وهزم الأتراك ، تحت أسوارها ، هزيمة ضخمة في عام ١٦٧٨ . ولقد تمكن فيدور ، ونتيجة لعدد من الانتصارات الأخرى ، من أن يقصد صلحاً مشرفاً في رادزين (فبراير ١٦٨١) ، ضمن له السيادة على الجزء الأكبر من البلاد

الرافعة فيما وراء النهر ، ولن يشك أحد بعد ذلك في ملكيته لكيف ، التي كانت بولندا قد اعترفت بها . أما خان القرم ، والذي كان قد أصبح حليف القيصر في أثناء الحسرب ، فإنه تعهد ، في نفس وقت تعهد القيصر ، ومثله ، وفي نظير جزيرة سنوية وافقت عليها موسكو ، بأن يتخلى نهائياً عن صداقة القوزاق .

ولكن الوفاق البولندي الروسي قصير المدى في سنوات ١٦٧٢ لم يكن سوى عرضاً ، وإن كان له مغزاه . وسوف نراه يعود إلى الإزدهار من جديد بعد عشر سنوات ، وقت عاصرة فينا ، الأمر الذي يتسبب في أن تهر المخاوف من جديد أنحاء العالم المسيحي : فلم يكن هناك بلد في أوروبا لا تنقبض فيه القلوب لبحرود فكرة إمكانية إنتصار العثمانيين . ومن جانب آخر ، حدث في ذلك الوقت تحديد هدنة أندروسوفو في عام ١٦٧٩ . وبعد أن مرت مرحلة الخطر المباشر ، رأت الوصية صوفيا ، والتي كانت تحتل عرش القيصرية مؤقتاً ، أنه لا يمكنها أن تصم آذانها لفترة طويلة عن التنداءات التي كانت ترسلها وارسو ، وفي نفس الوقت الذي كانت تصل فيه من فينا والبندقية ، من أجل إقامة رابطة للدفاع ، مواجهة ضد العثمانيين . ففعلت ، في أول الأمر ، مع بولندا ، إتفاقاً ولسلام دائم ، نص على أن تعهد الدولتين بمساعدة كل منهما الأخرى ضد الأتراك (١٦٨٦) . ثم أعطت موافقتها على تكوين الرابطة . وأبلنت ذلك إلى فرساي ، عن طريق سفارة رسمية .

وبالنسبة لمن ينظر من بعيد ، ساعدت حركة جديده من الآراء والمخاض على ذلك الإجماع الجديد لسياسة روسيا ، كما نراها وقد أخذت في الوضوح في تلك السنوات التي كانت قد سبقته وصول بطرس الأكبر إلى العرش . وكانت هذه الحركة قد نشأت وترعرعت في أول الأمر داخل الكنائس والارثوذكسية المختلفة ،

الكنيسة الروسية وكنائس البلاد البلقانية الخاضعة للحكم العثمانيين . وبالنسبة لرجال الدين من العرب ، أو البلغار ، أو الرومانيين ، مثلهم في ذلك مثل وجلال الدين الروس ، كانت إمبراطورية القيصرية هي الحماية الأساسية لكل العناصر الأرثوذكسية الخاضعة للسلطان . وكانت الفكرة قد طرحت ، في أثناء القرن السالف ، بأنه من الواجب على موسكو ، أن تترأس المسيحية ذات المذهب الشرقي ، وتأخذ ذلك المكان الذي كانت القسطنطينية تحتله في الماضي ، أي أن تصبح « رومًا ثالثة » . ولانتهى بهم الأمر إلى أن يستنتجوا من ذلك أن قصر موسكو ، وهو الحليفة المرشح لأباطرة يدرطة ، سوف يتمكن من أن يبعد مدينة القسطنطينية ، في يوم من الأيام ، إلى المسيحية . ولكن مثل هذه العقيدة لم توجه السياسة الروسية بطريق مباشر قبل أواسط القرن الثامن عشر ؛ وإن كانت موجودة عند الجنود ، وتحت السطح ، عند الصدامات الروسية التركية الأولى ، التي ميزت الجزء الأخير من القرن السابع عشر .

ولقد اضطرت حكومة صوفيا ، لتنفيذ تهدياتها حيال « الراجلة » ، إلى أن تعد حملتين متتابعتين في اتجاه الجنوب . ورغم معاونة أبناء أوكرانيا ، لم تنجحوا . الواحدة والأخرى ، في الوصول إلى هدفها الأول ، وهو القرم . وكانت عملية الفصل الثانية ، من بين مائتين الصليبيين ، وهي هزيمة عام ١٦٨٩ ، قد حدثت في نفس الوقت الذي وصل فيه بطرس الأكبر إلى الحكم . وكان القصر الشاب قد أعطى من بلوطه يترن على لعبة الحرب ، تحت إشراف بعض الأصدقاء من الأجانب ، وبمخاضة أحد السويسريين ، وأحد الاسكتلنديين ، في سلو بودا ، حامية موسكو التي كان يسمح للأجانب بالإقامة فيها . وما أن سيطر على السلطة حتى أعطى كل إهتمامه للجيش . وقرر ، في عام ١٦٩٥ ، أن يذهب ويحاصر آزوف . ولكن القلعة كانت قوية ، ودفعه كل المهاجمين . ولكن القصر لم يتنزل عن هدفه ، وفتح دور

صناعة على نهر الدون ، من أجل بناء السفن التي كان في حاجة إليها . واستدعى مهتسين من ألمانيا ، وطلبوا إلى هولندا أن ترسل إليه فهاردين ومواء البقاء . وعملوا طوال فصل الشتاء . وفي أثناء ربيع عام ١٦٩٦ ، كان هناك أسطولاً جديداً ، يسمح له بأن يفرض إحترامه على أسطول السلطان ، والذي كان قد حضر لكي يدعم مقاومة آزوف . وكان حريق البطاريات البرية هو الذي أدى إلى تسليم الموقع .

وفي الوقت الذي بدأت فيه مفاوضات الصلح ، سافر بطرس في رحلته الأولى إلى الخارج ، وهي المرحلة التي حاول في أثناءها أن يتعرف على أوروبا . وكان تحت تأثير تلك الحرب التي كان قد شنها ، وذكراتها ، فلم يكن يفكر في شيء أكثر من إنشاء أسطول حرب حقيقي يمكنه ، ليس فقط من أن يجبر النمانيين على إحترامه ، بل وكذلك من أن يواجههم به . ولذلك فإنه قد إهتم بنوع خاص ، في هولندا ثم في إنجلترا ، بفرن المنشآت البحرية . وإشتغل حتى بأيدية في الورش الخاصة في ساردام . وقرب لندن ، قام بزيارة لمدار الصناعة الموجودة في دولويتش ، بإهتمام بالغ ، وشارك هناك في تدريبات التصويب . وإذا لم تكن ثورة سترلنسي قد أجبرته فجأة على سرعة العودة إلى موسكو ، لفكن من أن يتقدم حتى البندقية .

وكانت الحرب مع النمانيين قريبة الإمتهاء . وفي أثناء المؤتمرات التي وافق حلفائهم النمساويين على عقدها في كارلوفيتز ، لم يكتب الروس بمجرد المطالبة بآزوف . فكانوا يرغبون حلالة على ذلك في الحصول على حرية الملاحة على البحر الأسود . ولكن السلطان لم يكن مستعداً حتى ذلك الوقت لكي يمنحهم ذلك . ولذلك فإن المفاوضات سارت في بطء . وفي آخر الأمر ، لم يتمكنوا من الإتفاق إلا على هدنة لمدة عامين . ولذلك ، فقد كان من الضروري العودة

إلى التفاوض من جديد ، في عام ١٧٠٠ ، وفي هذه المرة في إستانبول . ومجددت الهدنة لمدة ثلاثين عاماً ؛ ومررت آزوف بالقفل إلى أيدي الروس .

ولم يترك بطرس الجيوش التي كونها تستريح لفترة طويلة . ومادام الأفق قد صفا الآن ودوقاً من جانب الأتراك ، فإنه سيوافق على مشروع سحب ضد السويد كان جلده ملك بولندا قد عرضه عليه في أثناء إحدى المقابلات التي كان قد دعا إليها ، في راوا . ومادام الهدف كان هو مجرد القيام بالحرب ، فكان أي عدو يساوي العدو الآخر . فلم يكن في وسعه أن يحتقر السويديين أكثر من إستقارده للمعنايين . وكانت النقطة الأساسية تتمثل في عشوره على حلفاء . ولم يكن بطرس معزولاً . وقام في عام ١٦٩٧ بمقابلة أول . في ميناء بللاو البروسي ، مع فردريك الثالث ، منتخب براندنبورج . ووعد كل من الملكين الآخر بالتعاون المشترك ، رسمياً ، وبكل قواته إذا مادعت الضرورة ، وبخاصة ضد السويد . ومن ناحية أخرى ، كان أوجست الثاني August II المنتخب الملك هن ساكس ، عميلاً له : وتمكن نتيجة لتأييد القيصر من أن يتنصر على مرشح فرنسي ، هو أمير كوتني Conti ، وقت إنفتاح أزمة الوراثة الأخيرة في بولندا نتيجة ل وفاة سويسكي في عام ١٦٩٩ . ولم يكن قد اكتفى بمجرد أن يعد القيصر بمعاونته ، ولكن كذلك بمعاونة الهاتمرك (نوفمبر ١٦٩٩) . ولذلك فإن الروس كانوا سيحاربون ، هذه المرة ، عند سواحل بحر البلطيق .

وفي إستوكهلم ، كان عرش شارل الحادي عشر قد إنتقل إلى ابنه ، شارل الثاني عشر Charles XII ، وكان في سن المراهقة . وكان هذا سبباً دفع بأعداء السويد السابقين إلى الإتحاد مرة جديدة ضدها . وشارك في الحرب التي إشتعلت في عام ١٦٩٧ نفس الحصور ، أو تميريا ، الذين كانوا قد شاركوا في عام

١٦٥٥ — ١٦٦٠ . ولحكتنا سوف تستمر لمدة تقرب من عشرين عاماً ،
ولن تتمكن القوة العسكرية السويد من أن تستمر في الحياة بعدما .
ووجه شارل الثاني عشر مجهوده في أول الأمر صوب أكثر خصومه ضعفاً ،
ضد الهانمرك . وفي ذلك الوقت ، قام التغيير بالحصول على معونة باتنكول
Patkul ، أحد نبلاء ليفونيا . الذي كان حائقاً على السويد لإستبادهما بلاده ،
فمقد التحالفات خندما ، ووضع دبلوماسيته في الحركة . ونتيجة لطلب باتنكول
قام السكسون من رجال أوجست الثاني بالبدء في العمليات العسكرية في الآساييم
الأولى من عام ١٧٠٠ : فجموا على ليفونيا ، وتم صدم أمام ريغا . وبدأ
شارل الثاني بمهاجمة الدانمرك . وأخذ بعض الوقت من أجل تعديل الإنفاقيات
التي كان تحت الإعداد مع إنجلترا ومع الأقاليم المتحدة . ثم قام بمعاونة أسطول
أنجلو هولندي ، بعبور السويد ، وغزا الجزر ، وحصل بذلك مباشرة ، تقريباً ،
على خضوع المنهزمين في ترافندال . وكان المستفيد الرئيسى من الصلح هو دوق
هولشتاين — جوتنورب ، والذي كان الفرع الذى ينتسب إليه ، ومنذ ما يزيد
على قرن من الزمان ، في منافسة مع فرع هولشتاين — جلوكستاد ، والذي كان
له تاج الدانمرك : وسيحصل على ملكية الأقاليم التي كان كريستيان قد صادوها
من قبل .

وأنتج مجهود السويد بعد ذلك ضد الروس والسكسون ، ولذين كانوا
بمعملون ، وعلى اتصال ببعضها ، على السواحل الشرقية لبحر البلطيق ، بطرس
في إتجاه نارفا ، وأوجست صوب ريغا . ومنذ هذا الوقت ، أكد ملك السويد
الشباب أنه رجل حرب قدير . ولم يكن معه ما يزيد على عشرة آلاف رجل ، بينما
كان أربعين ألف روسي مجتمعين حول نارفا . وكانوا في صميم الشتاء . وقام ،
بمساعدة إحدى المواقف الثلجية ، بالمهجوم على خطوط الأعداء ، وزعزع

نخصه ، ونأمره إلى درجة رفع الحصار بكل سرعة ، بعد ساعة حسن الإلتحاق (٢ ديسمبر ١٧٠٠) . وكانت هذه الميزة السريعة والكاملة كبيرة الإذلال ليعرس الذي ثبتت عزيمته ، وتحدث عن عقد الصلح دون أن يتنظر أكثر من ذلك . ولكن شارل الثاني عشر ترك له الوقت الكافي لكي تدب الحياة فيه من جديد . وإستدار عند السكون ، وأجبرهم بدورهم على الإلتحاق من المعركة التي كانوا يقومون بها أمام ريجيا . وأخذ بعد ذلك في تنجيم في بولندا .

وكانت هذه فرصة فريدة بالنسبة ليعرس . فسوف يتمكن ، في خلال السنوات التالية ، من أن يعيد تنظيم جيشه بهدوء ، ويدربه على عمليات الغزو على حساب أتاليم بحر البلطيق . وجه أحد السفراء الفرنسيين ، في عام ١٧٠٩ ، لكي يقترح وساطة سيده بين الروس والسويديين ؛ ولكن أحدا لم يستمع إليه .

وفي بولندا ، كانت الأمة تتبع ملكها السكوني بدون حماس . وإحتج النبلاء على تلك الحرب التي كانت بلا طائل ، وطالبوا بضرورة البقاء على الحياد . وأمام ريجيا ، لم يكن هناك تقريبا سوى قوات سكسونية . ولذلك فإن شارل الثاني عشر وجد هناك بسهولة الكثير من الأعران حين ظهر أمامها بعد نارقا . وظلت بولندا ، التي كانت منقمة على نفسها ، وفريسة للاتحادات ، - وهي روابط واتحادات مسلحة كانت تعمد الإجهادات المتبادلة - ميدانا للعارك خلال سنوات طويلة . وكان السويديون يحاربون أوجست ملك ساكس ، وتمكنوا في النهاية من حوله ، في عام ١٧٠٤ . وفي مكانه ، جعلوا الهاييت ينتخب أحد زعماء وعركى المعارضة ، ستانيسلاس ليسكزينسكى Stanislas Leszcynski ، الذي سوف يملك ويحكم ، ويصفته مجرد أحد يادوان شارل الثاني عشر .

وحند ليسكزينسكى ومن يحميه ، قام أنصار السكون بعد أن أصبحوا

الدافعين من إستقلال بولندا ، بالدخول في اتصال مع بطرس الأكبر .
وعمس شارل الثاني عشر في عمله على هزيمة أوجست الثاني ، وتجهه حتى قلب
إقليم انتخابه السكسوني ، وكبده هزيمة بعد هزيمة ، وأجبره في آخر الأمر على
أن يتنازل عن هرشي بولندا (١٧٠٦) . وفي أثناء ذلك الوقت كان
أولئك الذين تبعوه قد اتصلوا بمتخب براندبورج ، والذي كان قد أصبح
ملكاً على بروسيا باسم فردريك الأول ، ثم اتصلوا بعد ذلك بالقيصر : ولم
يتردحوا في أن يدعوا ، كليهما ، يحض مساحات من بولندا ، في تدير تدخلها .
وهكذا نجد أن الإنهاء الوطني البولندي قد خبا ضوؤه ، بعد أن وضع على
الحكم . وكان من الممكن أن نشاهد ، ومن بعيد ، وفي أحداث بداية القرن ،
المؤشرات الأولى لتلك الأزمة التي سوف تسبب في غرق الدولة ، بعد خمسين
عام من ذلك .

٢ - حروب شارل الثاني عشر ، وبترس الأكبر :

يمثل عام ١٧٠٧ نقطة هامة ، ونقطة تحول ، في ذلك الصراع الذي كان شارل
الثاني عشر يقوم به ضد بطرس الأكبر . وذلك القلق الذي ساد في شرق أوروبا ،
لانتشر حتى الغرب ، وحيث كانت الدول العظمى ، والتي كانت مشغولة في صراع
بلا نهاية من أجل الوراثة الإسبانية ، قد أظهرت بعضاً من قلة الإهتمام « بحرب
الشمال » الجديدة هذه .

وكان شارل الثاني عشر ، ودون أن يقلل من تقدير قيمة عداه روسيا ، يفقد
أهميه خاصة على شترن بولندا : فأظهر بذلك حرصاً على تقليد قديم للملكة
السويدية . ولم يكف في وارسو عن التفاوض مع الأطراف . ونجح أخيراً في
أن يحصل من ستانيسلاس وهن الدايته على وعد بمساعدته . وبعد ذلك ، ولما
كان أوجست الثاني مستمراً في التحرك من أجل إعادة تاجه ، انتهى به الأمر إلى

أن يستقد أنه لم تكن هناك من وسيلة ، ولكي ينتهي منه ، سوى أن يذهب ويستولى
على منطقة إلتناجه . وهذا هو السبب الذي جعله يذهب ، في شهر سبتمبر ١٧٠٦ ،
ويعسكر مع جيشه في قلب ماكس ، وعلى مسافة بسيطة من ليزييج ، في آلت
شتاد . وأبقى هناك عاماً كاملاً .

ووصل إلى أول أمدة حين حصل من خصمه ، الذي جاء لزيارة ، على
موافقة على كل شروطه . وسجلت معاهدة آلت شتاد (٢٤ سبتمبر ١٧٠٦) تحلى
السكون عن تاج بولندا ، وتقضى كل التبعات التي كانوا قد أعطوها للخارج في
أثناء سنوات ملكيته . لم اتصل شارل بعد ذلك بالامبراطور ، ودافع لديه عن
مصير البروتستانتين في سيليزيا ، وطلب إليه ، بإصرار ، تقديم تنازلات في
صالحهم . وبالحق ليوبولد في إظهار حسن نيته ، خشيه أن يتحول البطل ضده .
ويقولون أنه أجاب ببرود ، وعلى ملاحظات قدمتها له روما : « لتكونوا مسرورين
أن ملك السويد لم يقترح على التحول إلى ملهب لومر . إنني لا أعرف ما كان في
وسمى أن أفروه »

وكانوا يتساءلون ، في كل الغرب ، عن نيات شارل الثاني عشر الممكنة .
وكانوا يتساءلون عن معنى هذا السكون الطويل ، وماذا يخدم — كما كان قد
حدث منذ ثلاثة أرباع القرن ، قبل ذلك ، في أثناء شتاء ١٦٣٠ — ١٦٣١ ،
وفي الوقت الذي كان جوستاف أدولف ، بعد انتصاراته الأولى ، قد أقام فيه
لفترة طويلة في ماينس ؛ فكانوا يتساءلون بقلق عن المشروعات التي يمكن أن
يفكر فيها . وأرسل الطرفان إليه مندوبين ، حتى يتمكنوا من استخلاص السر من
أبني الهول . وكان لوى الرابع عشر يعلم بالروابط التي كانت تربط السويديين
بانهنطرا وهولندا . ولذلك فإنه لم يقصد أي خيال بشأن جذب صوب معسكره .
وفي أثناء المحادثات التي جرت بين شارل وبين المندوب الفرنسي ، لم تطرح إذن

أية مسألة سوى القيام بوساطة . وفي العام السالف ، كانت إمكانية الوساطة الفرنسية بين السويديين وبين الروس قد تم التفكير فيها . وذلك في توافق مع فكرة وساطة روسية بين فرنسا وبين المتكتلين . وقام المتكتلون ، من جانبهم ، بإرسال أحسن قادتهم ، مارلبورو ، إلى آلت شتاد . وحين وصل ، بدوره ، في شهر أبريل ١٧٠٧ ، قول أفضل مقابلة . ولكنه لم يحصل ، هو الآخر ، أى شيء مؤكد ، وأى وعد .

وفي الخريف ، قرر شارل الثاني عشر في آخر الأمر ما كان قد فكر فيه طويلاً وبتمن في آلت شتاد . فسينتهي مع الروس . ولما كانت الأحداث لها شكل غير مقرر في الغرب ، كان في وسع أن يحصل على الوقت اللازم قبل أن يعود ويلقى بسيفه في صالح المتكتلين . ومما كان الأمر — ولم يكن يوح به — إلى أى شخص ، وتقوم إلا ببعض الإغراض بالنسبة لنياته — فإنه يود إلى بولندا ، ويعبر المملكة مرة جديدة ، وهذه المرة من الغرب إلى الشرق ، ويحصل على نصر أخير قرب موهيليف ، ضد كولويزين . وكانت الكونت لويشوت Lewenhaupt ، أفضل معاونيه ، وساماً ديجاً ، يقود فرقة كانت ، منذ سنوات ، تدافع عن كورلاند ضد البولنديين ، وضد الروس . وأسدل إليه الملك أمراً بأن يأتي وينضم إليه إلى الجنوب أكثر من ذلك ، على الدبير . وكان هدفه أن يوح على موسكو ، وليس بالطريق العادى . الذى يمر بفيلنا وسمولنسك ، ولكن عبر أوكرانيا ، وبطريقة تسمح له بأن يحافظ على اتصاله مع القوزاق ، والذين كان مازياً Mazepa ، رئيسهم ، قد وعده بتقديم المونة له . ولكن لويشوت ، بمجرد تحركه ، واجه هجوم الروس ، وخضع فى ليسنا (٢٢ ستمبر ١٧٠٨) لمزجة ساحقة ، كلفته فقدان مدفعية . وجاءت كارثة أخرى ، ولم تكن متوقعة ، لكن تمرقل تقدم شارل الثاني عشر . فعون أن يهتم بالبرد — وكان

هذا عاملا لا يعمل السويديون له حساب — حاول أن يمرر الإنميس في فصل الشتاء . ولكن الشتاء بدأ مبكراً ، في تلك السنة ، وكان على قسوة لم يسبق لها نظير . فكان من الضروري وقف العمليات الحربية في شهرى يناير وفبراير ، عن طريق هدنة قصيرة المدى . ثم واصل الوحف إلى الأمام . وقام الجيش مقامات عتيقة ؛ ولم يكف البحرايون عن بتر الأطراف التي تجمدت .

وفي أثناء ذلك الوقت ، كان القيصر يستعد للدفاع عن بلاده ضد الغزو . وكان لديه الوقت ، منذ تارفاً ، لكي يحسن تلك الوسيلة التي سيستخدمها . وكان الجيش قد حافظ ، منذ سنوات ، على مستوى الدخول إلى الحرب . وكان قد استمر في العمليات الحربية ، في كورلاند ، وعلى حدود فنلندا ، وعلى طرفى ذلك الخط الذى كان عليه أن يحميه ، وذلك فى الوقت الذى استمرت فيه عمليات إنشاء سان بطرسبرج ، بين مسرحى العمليات ، بكل هدوء . وكان بطرس لا يقل قلقاً عن غيره . وكان مستمداً لطلب وساطة ، فقام بعملية بحسات فى لندن ، وفى كوبنهاجن ، وبرلين ، وعرض أمر إعادة كل الأراضى التي كان قد غزاها من السويد ، وبإستثناء مصب نيفا . واصكته لإصطدم بمطالب كانت لا تسمح له بالوصول إلى غرضه . وبعد أن اضطر إلى الإعتماد على نفسه ، فكر فى فكرة استراتيجية حاولوا اعتبارها على أنها روسية بنوع خاص : إخلاء المجال أمام الغزاة ، وجذبهم إلى أبعد مسافة ممكنة من قواعدهم ، وعدم الدخول فى معركة معهم إلا حينما يظنون أنهم قد ضعفوا بشكل واضح ، وفى آخر وقت ، وأبعد مكان ممكن . ولذلك فإنه منذ الوقت الذى قرر فيه شارل الثانى عشر أن يترك الأراضى البولندية ، كان عليه أن يجتاز صحراء فمليه وجهه المجموع حلالة على البرد لكي يعمل عمله فى خفض الروح المعنوية للجنود .

وكانت هناك عدة مفاجآت تنتظر شارل الثانى عشر ، عند موهليلف ، وفي

المكان الذي هبّرت فيه قوافل نهر الدنيبر . فكان ليونيهوت ، الذي توقع حضوره مع جيشه سليماً ، يواصل سهره بكل صموية ، ويواجه الروس ؛ وكانت الروح المعنوية لجنوده في منتهى المعاناة : وسيأخذ عليه الملك أنه لم يتحاشى الإلتحام ، طبقاً للتعليمات التي كان قد أصدرها إليه : أما مازيا ، من الجانب الآخر ، فقد حضر ومعه جيش صغير للغاية ، من أربعة أو خمسة آلاف رجل . ذلك أن رئيس القوزاق لم يكن صريحاً في القيام بدوره . ولم يكن شاول الثاني حثرياً ، رجل الحرب قد تمرد على خبايا السياسة . ولم يكن قد فهم الأمور المضطربة في دور مازيا ، والذي كان رئيساً لشعب يدخل في نطاق إمبراطورية القيصرية ، وإن كان يمثل ضنصراً لمعظم فيها . ورغم أن رئيس القوزاق كان يحظى بثقة بطرس ، بسبب الخدمات التي كان قد أداها له ، فإنه كان يخشى باستمرار من الإنجماحات الأوتوقراطية لحكومة موسكو . وكانت زيادة الأعباء الضرائفية ، كنتيجة لإستمرار الحرب مع السويد ، قد ولّعت حركة عدم رضاه حادة في البلاد . وكانت هذه هي الأسباب التي جعلت مازيا يوافق على عروض شاول الثاني حثري ، التي نقلها إليه إستانيلاس ليسزينسكي . وحينما وجد نفسه أمام إصرار القيصر على ضرورة أن يأتي للحاق به مع القوزاق التابعين له ، ولم يتمكن من التنفيذ ، تم إعلان حوله بواسطة سيده ، فقرر في ذلك الوقت فقط أن يتفد تلك التمهيدات التي كان قد تمهد بها للملك السويد . وكان يسهل ، ونتيجة لسيطرته على الأهالي ، عملية تجميع الجيش ، وذلك في الوقت الذي كان الروس يعملون فيه جامعين من أجل وقف هذه العملية ؛ ويستمرون في عمليات تفريغهم حتى في أوكرانيا .

وحين جاء الصيف ، إستلم جيش روسيا الأوامر ، في آخر الأمر ، بأن يقوم بعملية المواجهة . فأخذ مواقفه فيا وراء الدنيبر ، وحول موقع بولشانا الحصين . وبدأ السويديون عملية محاصرة الموقع . وبتتبع الموقعة الحاسمة تحت

الأسوار . وبعد عدة أشهر ، وصل القيصر و معه الإمداد ، وتولى القيادة . وكان لديه ما يزيد على خمسين ألف رجل ، بينما لم يكن لدى شارل الثاني عشر ما يزيد كثيراً على ١٢.٠٠٠ رجل . ولانتهى هجوم السويديين يوم ٢٨ يونيو بالقشل . واضطر للملك ، الذي كان قد خرج في مقدمه منذ أيام ، إلى إعطاء القيادة ليوينهورت . أما الجنود الذين كانوا قد تمردوا و ذبته ، فلم يلحقوا إلا من بعيد ، وهو على عفة . وتركهم ، وبمجرد أن يقين من مضيق المعركة . وإبتعد صوب الجنوب ، وليس مضيقى حفنة من القربان ، فقط .

ومن الناحية الفعلية ، إنتهت « الغامرة » - أو على وجه أدق « الغامرة » ، الثانية - السويدية هنا ، في أغسطس أو كرايا ، في منتصف عام ١٧٠٩ . ويمكننا أن نمر سريعاً على ما حدث بعد ذلك . إذ أنه في اليوم التالي لبواتافا لم يعد الجيش السويدي موجوداً . واستلم ليوينهورت الأمر بالإستعاب ببقية الجيش إلى أمام نهر الدنيبر . ولكنه لم يتمكن من الحصول إلا على جنود منخفضة وروحم المعنوية بالنسبة للتفكير في أية معارك جديدة . ولذلك فإنه إضطر في يوليولكترنا (٣٠ يونيو) إلى أن يسلم مع أسلحته وأمتعته . وسيدهب الستة عشر ألف رجل الذين كانوا قد بقوا له لكي يقض عليهم في مناجم الأورال . ولانتهت السويد ، التي حرمت من جيشها ، من أن تصبح دولة عظمى أوربية؛ فاضادت إلى مكانها ، الأكثر تواضعاً كدولة من دول بحر البلطيق ، بينما أصبح ملكها ، الذي إلتصأ إلى الأراضي الألمانية ، في بتند (بشارايا) ، ضعيفاً رغباً عنه عند الأمراء ، الذين طلب حمايتهم .

وفي بولندا ، ذلك المسرح العادي لإلتصارات شارل الثاني عشر ، أدى خروجه المبالغت عنه إلى إتهامه كامل . وبعد أن تنازل ستابسلاس عن تاجها . إستأده أوجيست ، ضابط ماكس . وسيصبح الخادم الخليل القيصر الذي حين

له إستعادة حظه . وكانت أولى أعماله تتمثل في أن يتخلل ، في مصالح بطرس ، عن حقوق بولندا على ليفونيا .

أما بالنسبة للفوزاق ، فإنها كانت نهاية تلك الحريات التي كانوا قد حصلوا عليها خلال القرون السابقة : فأُلغيت كل الميزات التي كانت تضمن لروسيا الصغيرة نصف إستقلال داخل ؛ ويتم فرض أحد الحكام ، من موسكو ، كساعداً لرئيسها *hermann* . وذهب مازيبيا مع شارل الثاني عشر في فراره إلى الأراضى العثمانية . ولم يتحدث أحد عنه بعد ذلك . ولم يتدخل في العمليات الجديدة التركية في ذلك الصراع بين شارل الثاني عشر و بطرس الأكبر .

ولقد إمتد هذا الصراع ، الذي إستمر لمدة عشر سنوات ، وبعد فاصل من عامين ، بمرحلة أخيرة . فلم يقنع من إنزوم في بولتافا بذلك العار الذي لحقه . ولم يكف عن الإصالح بحكومة السلطان — وهي محكومة السلطان أحمد الثالث في ذلك الوقت — من أجل دفعها عند الروس . ورأى لوى الرابع عشر يؤيد مجهوداته خاصة وأنه كان قلقاً من ضعف القوى التي كانت تعمل تقليدياً كحلفاء لقراسا ضد آل هابسبورج : السويد وبولندا . ونتيجة لمعركة صدر أعظم كان يتميز بشراة خاصة إلى المال ، تم الوصول إلى الهدف في عام ١٧١١ ، وأعلنت حكومة إستاتبول الحرب على القيصر . وفي ذلك الوقت ، كان بطرس الأكبر مليئاً بالثقة في نفسه ، فذهب لمقابلة الخصم في اتجاه الدانوب . وحسب أن يحتفظ باتصالات مستمرة مع الأمراء ، أو الموسيودار ، في الأفلان والبغدان ، والذين كانوا خاضعين لإستاتبول ؛ وكان يأمل في أن يضمهم إلى الحرب ، وإلى جواره . ولكنه فشل في إقناعهم ، وبسبب ذلك في نهاية الأمر بمفرده من أجل اللقاء الحاسم ، والذي وقع في ظروف سيئة للغاية بالنسبة إليه . وترك الصدر الأعظم يوجهه ؛ وكان الجيش الذي يهدهد بمحاصرتة على ضفاف البروت قد تضرع بأعياد كبيرة من التناز ، وأصبح يريد

خمس مرات على جيشه . وإذا كان قد انسحب في ظروف مواتية ، فإن ذلك كان يرجع بالتأكيد إلى أن السيدة التي سوف يتزوجها ، وهي كاثرين الأولى ، في المستقبل ، كانت قد تصحّت في شراء القائد التركي . ومما كان الأمر ، فإن معاهدة بروث (٢٢ يوليو ١٧١١) التي عقدت سريعاً ، لم تأخذ منه سوى آخوف ، التي أهدت إلى خان التار . ووعد بعدم التدخل بعد ذلك في شئون بولندا .

ونارت فائزة شاول الثاني عشر ضد المعاهدة ، التي أعلن أنها مينة ، لأنه فقد كل أمل في أن ينتقم . وأرسل لداو إلى السلطان ، وقام بالسكج إلى درجة إحطارهم إلى أخذ إجراءات ضدّه ، وإتتهى به الأمر إلى أن يحيا حياة تشبه الأمر ولم يعد إلى بلاده إلا في عام ١٧١٤ .

ومنذ عام ١٧١١ إلى عام ١٧٢١ ، كانت هناك عشر سنوات كاملة تفصل بين الصلح مع الدولة العثمانية ، وبين الصلح مع السويد . وستكون لدينا الفرصة لكي نمود - عند حديثنا عن القرن الثامن عشر - إلى بعض الأحداث التي ميزت الجزء الأخير من هذه الفترة . وعلينا أن تكفي هنا يذكر الصفات العامة . فلم يعد الأمر ، مؤقتاً ، يتعلق بالأراك . ومن ناحية أخرى ، سويت مسألة بولندا ، بصعوبة ، بين أوجست الثاني وبين بطرس الأكبر . ونسبت هودة قوات ساكسونيا في نشوب حرب أهلية . وانضمت المجموعات المعادية لقتيلاء إلى بعضها داخل الاتحادية . وأعطيت الكلمة ، مرة جديدة ، السلاح : الأمر الذي أدى إلى تدخل جنيد من جانب القيصر ، والذي أصدر الساكسون ، وبواسطة الهابت ، أمراً بترك البلاد في فترة خمسة وخمسين يوماً . وسوف يستقر يد روسيا ، شيئاً فشيئاً ، وأكثر فأكثر ، على بولندا : وسيطلى بطرس الأكبر ، في عام ١٧١٧ ؛ ضياله اختور جديد .

ومنذ الأيام التالية لبولتانا ، استعادت السويد مصارها المتعلقة بحملات البلطيق .

والتي كانت قد شلت نتيجة لطول أمد الصراع لمدة عشرين عام مع روسيا .
ومادت بطبيعة الحال إلى صداقة فرنسا ، والتي كانت معروضة دائماً . ووقع لوى
الرابع عشر ، قبل وفاته بقليل ، مع مئلى السويد على معاهدة تحالف جديدة (٢
أبريل ١٧١٥) . وبعد وقت قصير ، ضمن لها الوصى ، وبمعاهدة سرية (١٤
سبتمبر ١٧١٦) ، ملكية موقع إستين ، والذي كان رجال براندبورج قد أقاموا
فيه ، فى عام ١٧١٣ .

وأظهر الدانمركيون سرعة رغبتهم فى إبعاد تلك السيطرة التي كانت قد فرضت
عليهم منذ عشر سنوات . وبدأوا فى سرعة زائدة : إذ أن وسائل الدفاع كانت
موجودة فى السويد . وإنهت عملية تزولم فى سكايا بفشل ذريع . وبعد هزيمتهم
فى هلسينجبورج (١٥ فبراير ١٧١٠) ، اضطروا إلى العودة إلى عبور السوند
بكل سرعة . ومادوا إلى نفس المحاولة بعد عامين ، وهزموا هزيمة أشد فى جادبوش
(٩ ديسمبر ١٧١٢) .

أما شاول الثانى عشر ، والذي لم يعد يأمل فى الحرب ، فإنه فكر بنوع خاص
بعد أن عاد إلى بلاده ، فى الدفاع عن ممتلكاته الألمانية ضد جيرانه ، والذين كانت
مصائب السويد قد أثارت أطماعهم . وأعطى كل وقته للاستعدادات العسكرية ؛
وأقام لمدة عام كامل فى إسترلسوند ، التي كان رجال براندبورج يحاصرونها مع
البروسيين . وحينما سلم الموقع (٢٣ ديسمبر ١٧١٥) ، لم يكن هناك ؛ إذ أنه
كان قد عبر البحر من جديد .

وفى الوقت الذى مر فيه الساحل الجنوبى لبحر البلطيق إلى أيدي الدانمركيين
ورجال براندبورج والبروسيين ؛ عمل بطرس الأكبر على تنظيف الأماكن
القريبة من خليج فنلندا ، وعلى ضمان السيطرة على البحر . وقام أسطولُه برفع علم
روسيا على جزر آلاند ، وكان يحمله حتى السوند . وتوغلت جيوشه ، فى عام

١٧١٣ ، حتى نافاستيهوس ، في قلب بلاد فنلندا . وقام ، بالاتفاق مع حلفائه ، باحتلال موانئ بوميرانيا ومكلمبورج ، وجاء بنفسه لكي يقيم في كرنهاجن ، وبعد أمر التزول في السويد .

وعندئذ ، تارقل إنجلترا . فرقت مبدأ التوازن ، وذكرت فرنسا في وقت الوصي بأنها نفسها كانت قد أظهرت ، وفي أواسط القرن السالف ، رغبتها في تطبيقه في منطقة بحر البلطيق . وقامت لندن بتنظيم حملة دبلوماسية كاملة ، من أجل أن تضمن للدولتين الفريتين ، والتي كانتا قد أصبحتا صديقتين أخيراً ، مساعدة النساء : فاقترحا أن يمارسا على القصير ، وأن يبددها إذا ما تطلب الأمر ، حتى يهربوه على العودة إلى روسيا . وعارض بطرس . ولكنه سيتهى بالموافقة . وفي أثناء رحلة جديدة في الغرب أرسلته ، مثل السابقة ، إلى أمستردام في أول الأمر ، ذهب إلى باديس ، وتوقف لفترة طويلة في دنكرك وفي كاليه .

ولقد أثار دهشة الباريسيين بشكل مستمر . وبعد أن ذهبوا به في أول الأمر إلى الورف ، تار لعظمة المكان ، وحصل على موافقة لكي يذهب ويقيم في فندق ليديجيه Lecligniere الصغير ، قرب الأرسينال ، وطلب إليهم أن يحضروا له مجرد سرور معسكرات . واستمر لمدة ستة أسابيع جنوب المدينة في كل اتجاه ، مظهراً فضولاً لا ينتهى ، وبساطة تامة في التصرفات . وذهب لزيارة السريون ، وبرنامج باديس ، وأخيراً أكاديمية العلوم ، التي منحته ، بعد سفره ، لقب عضو شرف فيها . وحصل على موافقة لكي يأخذ معه إلى سان بطرسبرج مجموعة ضخمة من الحرفيين ، وبخاصة من صانعي السجايد ، والذين استأجرهم من ورش الجوبلان ويوفيه ، وطلب إليهم إدخال هذه الصناعة في روسيا . أما على النطاق الدبلوماسي ، فإنه لم يحصل على شيء له قيمته . فكان الرضى يخشى من الإقدام على أي شيء قد لا يعجب الإنجليز ، والذين كانوا على علاقات سيئة مسبقاً مع فردريك

فريديريك - Guillaume ، ملك بروسيا ، والذي كان صديق القيصر .
وانتهت المحادثات بعد سفر بطرس ، وفي أثناء إقامته الجديدة في أمستردام :
فتمهدت فرنسا ، باتفاقية ١٥ أبريل ١٧١٧ . بالألتعهد معاهدتها الخاصة بالمحورات
مع السويد ، وبأن تتدخل كوسيلة ، وبالاتفاق مع بروسيا ، بين السويد وروسيا .
وعلاوة على ذلك ، أعلن الملك والقيصر أنها مصلمان على المحافظة على معاهدات
أوترخت وبادن ، وكذلك المساعدات التي ستوضع لوقف الحرب في النبال .
وأخيراً ، بأن يدعما ، ، الآن ودائماً ، ، صداقة وإتصال ، بين البلدين ، وأنها
يتوقعان الإجتماع القام بين المعوضين ، والمكلفين بعمل معاهدة تجارية . ورغم
أن المعاهدة ، التي كتبت على مهل ، لم يتم التصديق عليها ، إلا أن الفرنسيين والروس
قد وجدوا فيها الفرصة لعمل إتصالات مشفرة . كما أن التبادل المنتظم السفراء
إستمر دون إنقطاع منذ ذلك الوقت .

وفي عام ١٧١٨ ، قررت أستيو كهلم أن تتحدث عن السلام . ولكن المحادثات
التي بدأت لم تستمر لفترة طويلة . وعندئذ قام شارل الثاني عشر بإعداد مشروع جديد ،
كان هو الآخر . فردا على التحدي الذي كان الدانمركيون قد وجهوه إليه ، أعاد
من جديد المشروع القديم الخاص بمنازعتهم في القرويج . ولكنه قتل أمام موقع
فردريكشال الصنهد (٣٠ نوفمبر ١٧١٨) .

وهذا الإختفاء ، في نفس الوقت الذي أخضع فيه السويد ، لم يؤد إلى إنهاء
الحرب بطريق مباشر . ولم يفاوض أحداهم الا الواحد بعد الآخر . فكان في أول
الأمر ملك بروسيا هو الذي أعاد التنازل ، في عام ١٧٢٠ ، عن ستين ، والتي كانت
موقفاً بحرياً ممتازاً ، وفي نفس العام ، وافقت الدانمرك على صلح أيضا ، وأعادت
كل ما كانت قد غرته ، ولذلك فإن روسيا هي التي بقيت ، وحدها ، تحت السلاح .
وقامت الحكومة الإنجليزية بتأييد مقاومة الدايت السويدي الصلح ، حتى لا يقوم

على الأقل يطلبه . وإنتهى بها الأمر إلى أن تمرر القيام بمظاهرة بحرية داخل المياه الروسية ، الأمر الذي إستتبع ، وكرد عليه ، إلقاء القبض على كل التجار الإنجليز المقيمين في موسكو . وكان على بطرس ، بدوره ، أن يؤكد قوته بتوجيه سلسلة من العشرات الجديدة إلى الخصم ، على البر وعلى البحر : وعندئذ فقط وجد نفسه في وضع يسمح له بأن يفرض على حناد السويديين تلك الشروط التي كانوا قد رفضوها ، منذ ثلاث سنوات مضت .

وفي أثناء ذلك الوقت كانت فرنسا ، وبصفتها دولة وسيطة توالى تدخلاتها . وقام بمثلها في إستوكهلم بعدة زيارات لروسيا . وكان يتباحث مع القيصر مباشرة ، مستخدماً في ذلك اللغة الهولندية ، وأعلن بطرس أنه لن يكون هناك صلح يمكن مالم يوافق السويديون على أن يصبح البحر هو حدود سيطرتهم ؛ وكان على روسيا منذ ذلك الوقت أن تحتل في الشمال نفس المرتبة التي كانت السويد تحتلها هناك في القرن الماضي . وأخيراً ، تم التوقيع على الصلح في نيسناد ، في فنلندا ، (٢٠ أغسطس ١٧٢١) . وعرك الروس كل الأقاليم المجاورة للبحر . ولقي كانوا قد إمتلكوها : إنجيريا ، وإستونيا ، وليفونيا . وكانت فنلندا ، وحدها ، هي التي لم تخضع لهم .

ومع ذلك فإن الدولة الروسية أصبحت هي الدولة الأولى في شرق أوروبا ، والتي تمتلك أكبر القوات البرية والبحرية هناك . وكفهاذة على الإعراف بالعمل الذي قام به القيصر في عصره ، إجتمع مجلس الشيوخ والجمع المقدس ومنحوا بطرس لقب « الأكبر » ، و لقب « إمبراطور كل الروسيات » .

٤ - التطور في روسيا في عهد بطرس الأكبر :

لقد أسهم بطرس الأكبر ، وأكثر من غيره من بقية القياصرة ، في عملية تقريب روسيا من بقية القارة . ولا شك في أنه لم يقم بكل شيء في هذا السبيل . ولكنه

أعلى اللغة الأساسية . ويمكن اعتبار أن الامبراطورية تستحق أن تعتبر على أنها تشكل جزءاً لا يتفصل عن أوديا ، ابتداء من بداية القرن الثامن عشر . ذلك أن بطرس كانت له رغبة من حديدي أن يستمر في جهودات والده ، التيميرالكسيس : ووصل الحد بذلك إلى درجة أن ما عمله قد أدى إلى تناسي كل ما كانت عملية تطوير روسيا على الطريقة الأوروبية تدين به لهذا التيمير الذي كان تاريخه أقل بريقاً .

وكانت الرغبة في إعلان القطيعة مع الماضي الخاص بالمرلة قد ظهرت بذلك الحرب التي شنها بطرس ، منذ عودته من الغرب ، في عام ١٦٩٩ ، على تلك التقاليد الخاصة أو الملابس ، والتي كانت مستعارة ، لامن آسيا نفسها ، كما كان الكثيرون يذكرون — ولكن من هذه المدينة الأم التي كانت يرونطة . وماظلت عليه بالنسبة للأمة الروسية ، وهم الغزو المماليك : التقاطين الطويلة القوي تديها الرجال ، والتي الطويلة التي كانت تحيط بوجوههم ، أو الإقبال على النساء في الترم tarem ، وهي أماكن خاصة بهم ، أو نوع من « المحرم » ، إذا ما أردنا ، وإن كانت ، كما هو معروف ، غير مرتبطة بتعدد الزوجات . أما الزداه الذي فرحه بطرس عن طريق فرار على المحيطين به ، والذي إنتشر من العاصمة شيئاً فشيئاً في كل الأقاليم ، فكان منسوخاً من أردية الألمان ، الذين كانوا هم الأكثر عدداً من بين الأجانب الذين كانوا يسكنون في السلوودا . وكذلك إنتشر أمر استخدام التليون ، ودائماً على طريقة الألمان ، ودون أن يوصى بذلك ، مصطحباً هذا التجديد في الملابس .

وإستمر الألمان يحظون برضاء السلطة طوال حكمه . ومنذ وقت طويل ، أولئك الذين يقيمون في السلوودا قد حصلوا على تصريح بإنشاء معابد لهم ؛ وإحصل بطرس من وقت مبكر بهذه العقيدة التي نبقت مع الإصلاح الديني ، وأظهر لها في أكثر من مناسبة تماطفه ، وذلك في الوقت الذي ظلت فيه الكاثوليكية

منوعة ، إذ أنها كانت ديانة البولنديين ، ولذلك فإن العلاقات مع روما كانت مشدودة بشكل خطير . ومع ذلك ، فإن كل الديانات كان من حقها أن يكون لها ، في سان بطرسبرج ، مكاناً للعبادة ، على نهج نيويوسكى ، الذى سوف يسمى بعد ذلك « نهج التسامح » .

وكان التجديد فى الملابس وفى العادات يمثل مظهراً صغيراً من مظاهر الإقتراب من الدول الأكثر تقدماً فى أوروبا ، وكانت لعملية التصنيع أهمية تفوق ذلك بكثير . ذلك أن نتائجها سوف تكتب على خريطة أوروبا بكلمة القوة ، فى أثناء القرن الثامن عشر . وقبل بطرس الأكبر لم يكن هناك فى روسيا سوى الحرف ، فى الريف وفى المدن . ولقد وجد نفسه ، وفى حاجته إلى التجهيز الميكانيكى للإمبراطورية ، خاضع لجوارح السويدى ، والذى كان فى غالب الأحيان عدواً له : فكان يحصل من حنقه على كل ما كانت الظروف تسمح به ، وبخاصة الحديد والنحاس اللازمين له ، وبعد نهاية زيارة القيصر الأكبر الأولى للغرب مباشرة ، تم وضع الأسس لإنشاء صناعة تعدينية . وكان منظم هذه العملية هو مهندس سكسونى ، هينان Hennin ، كان بطرس قد إستخدمه أثناء إقامته فى أمستردام ، وجعله يعمل أولاً فى بناء الإستحكامات فى مواقع الشمال ، ثم جعله يلقى فى سان بطرسبرج ، بعد ذلك ، مصنناً لبارود وورشة لسب المناقع . وسيكون العمل الأكبر لهنان ، بعد وفاة بطرس ، هو إعادة تنظيم المنشآت التعدينية فى الأورال ، والى ستكون مدينة إيكاترينبرج الجديدة ، والى أنشئت فى عام ١٧٢٢ ، هى مركزها الرئيسى . وسوف تولد ، فى هذا الوقت وبنوع خاص ، صناعة النحاس فى روسيا . وشيئاً فشيئاً ، حلت الإطارات الوطنية محل الإطارات الألمانية ؛ وكانوا قد تكونوا فى مدرسة المناجم فى فريبرج فى أول الأمر ، ثم أصبحوا يتخرجون بعد ذلك من تلك المدرسة التى أقيمت فى إيكاترينبرج .

ومن الأقاليم المنقطة ومن إنجلترا ، إستندم بطرس الأكبر ، أثناء إقامته هناك في رحلته الأولى ، حدداً من المال المتخصصين ؛ وذكروا أن عددهم زاد على خمسمائة هولندي . وبعد بولتافا ، أسهم الأسرى السويديون في عملية تعليم صناعة الصلب للمتخصصين عليهم ؛ ولن يتركوا البلاد إلا بعد عقد للصلح ، في عام ١٧٢١ .

وكان لإنشاء سان بطرسبرج ، وفتح ميناها الحركة الدولية ، لم ينتج عنه شراب التجار الروس ، كما كان يتوقع المتشائمون من بينهم ، والذين كانوا أسرى إرتباطهم بمادات وتقاليد الأسلاف ومع ذلك ، فقد كان من الضروري ، ولصكى يتحروا من الروتين ، أن يربطوا نهر لينا بنهر الفولجا بقناة صالحة للملاحة . وعند نهاية حكم بطرس الأكبر ، كان ثلث الصادرات يمران عن طريق الميناء الجديد . ومع ذلك فإن أركانجلك قد إحتفظت على الأقل بحركة هامة مع إنجلترا ، ومع هولندا .

وأدى النمو المستمر للمبادلات إلى ضرورة تعيين ممثلين تجاريين في المراكز الهامة ، باديس ، وأنقرس ، وقادس ، ثم إلى ضرورة عقد معاهدات تجارة . وفي عام ١٧١٧ ، أى نفس العام الذى عقدت فيه المعاهدة ، التى ولدت ميتة ، بين بطرس وفرنسا ، سويت العلاقات مع فارس ، واتى كانت كبيرة الأهمية . وسنظل المعاهدة الروسية الفارسية ، لعام ١٧١٧ ، واتى أكلت وأعيد النظر فيها مرات عديدة ، سارية المفعول طوال القرن كله .

أما اتقناصل والسفراء ، والمندوبين المكلفين بالتفاه من المصالح الروسية في الخارج ، فإنهم لم يعودوا يظهرون ، فى أثناء الفترة الأخيرة من حكم بطرس الأكبر ، بنفس المظهر والملبس الذى كان لهم فى الوقت السابق . وأخذت الكسوة الموشاة ، مع الشعر المستعار والجوارب المخروبة ؛ ومما

السيف على الجباب ، والتي كانت مفروضة على وجمل البلاط في الغرب ،
تحمل على الملابس الوطنية . وكذلك نجد أن عدداً كبيراً من الدبلوماسيين كانوا
مستعدين في أول الأمر من ألمانيا . ثم شهدوا بعد ذلك ظهور بولنديين تحولوا
إلى روسيا ، وأخيراً دعايا أصليين القيصر . وفي اليوم التالي لبولتافا ، كانت
روسيا تحتذب أنظار كل أوروبا . وبدأ الممثلين المذاثمين لبطرس الأكبر في القيام
بدور في المواضيع الأجنبية ، لدى الوزراء الرئيسيين للدول .

الفصل الثاني والمختصر خارج أوروبا .

١ - الهند :

كان مصير الهند ، هو الذى يجتنب الإغناء بشكل عام فى قارة آسيا ، فى القرن الثامن عشر ، وكما كان عليه الحال فى الفقرة السابقة . وظهر ضد حكم عظيم مرة أخرى أمام أنظارنا . ومن بعيد ، جاءت شهرة أورنج زب Aureng - Zeb ، الماصر لوى الرابع عشر ، لكن تطفى حتى على شهرة السلطان أكبر Akbar . فأصبح الأوروبيون يسمعون كثيراً عنه . وأصبحت لديهم إمكانية لمعرفته بدرجة أفضل ، نتيجة لسهادات المسافرين ، وخاصة الفرنسيين منهم ، والذين كانوا ، فى الوقت الذى بدأت فيه الأوساط المتاجرة فى الإقامة قرب الهند قد ذهبوا بجمع كمية من الآباء الهامة من نفس الموقع .

ومثل وقت أكبر حتى وقت أورنج زب ، كان سلاطين المغول قد حافظوا على قوتهم ، وزادوها تدعيماً ، ووقفوا فى وجه الثورات ، وفرضوا أنفسهم على الشعوب التى لم تكن قد خضعت بعد . وكانت كل قوتهم تتمثل فى جيشهم ، الذى كان يتكون فى غالبية العظمى من عناصر تركية ، أى من المرتزقة المسلمين ، الذين لم يكن لهم أى ميل الهندوس أو المسيحيين .

وكان أورنج زب (١٦٥٨ - ١٧٠٧) قد تمرن طويلاً على فن الحرب قبل أن يصل إلى الحكم . فتمرن أولاً ضد الأفغان ، فى الوقت الذى كان يمارس فيه سلطات نائب السلطان فى غرب السلطنة : ولقد اضطرت من ناحية أخرى إلى أن يهزم ، فى عام ١٦٤٧ ، فى معركة فى بلخ ، بعيداً عن حدود الإمبراطورية ، ولما اضطرت إلى أن يقوم بعملية إنسحاب ضخمة عبر ممرات جبال كوش الهندية . ثم

قام بعد ذلك بمهاجمة الفرس، الذين كانوا قد احتلوا مدينة قندهار، في أفغانستان؛ ولم يتمكن من غزوها إلا بعد هلكى حصار، متتاليتين، في عام ١٦٤٩، وفي عام ١٦٥٢. وقام أخيراً، في عام ١٦٥٦، وفي قلب الدكن، بمهاجمة وبمحاصرة جولاكوند، تلك المدينة التي اشتهرت بكنوزها الخرافية. وقام بنهبها، ثم نفذ أوامر والده، وأعاد إليها حريتها نظير دفع جزية مرتفعة. وعاد إلى نفس المسألة في عام ١٦٨٧، أي بعد ثلاثين عاماً، واستولى على جولاكوند بعد سبعة أشهر من الحصار، وقام بتخريبها.

أما تجاه الأرديين، والذين كانوا يأتون للتجارة في الموافي، والذين كانوا يطلقون عليهم اسم «الفرنجي»، وبخاصة تجاه البرتغاليين الذين كانوا جيراناً قريين لإمبراطورية المغول - فلم يكن في وسع أورنجز ب، مثله في ذلك مثل أسلافه، أن يظهر سوى قوة الثقة، ويجادل الإبتعاد عنهم، إذ أنهم كانوا مسيحيين، وبالتالي أعداء الاسلام التقليديين. ولكن مصلحته كانت تملي عليه ضرورة إرضائهم. وفي الوقت السابق له، كان هؤلاء الأجانب قد زودوا سلاطين المغول بالرجال المكلفين بالإشراف على صناعة أدوات المدفعية، ويتولى بعض القيادات في الجيش. ومن ناحية أخرى، كانت عملياتهم التجارية فرصة لتحقيق أرباح مختلفة الخوافة، من إستلام رسوم جركية، أو إعطاء تنازلات بتصاريحات مختلفة. ولذلك فإنه لم يفكر في أن ينزع منهم تلك المواقع المحصنة التي كانوا قد أنشئوها على السواحل من أجل حماية مراكزهم التجارية. وهكذا كانت قوة المغول برية بشكل أساسي، أما الطرق البحرية فكانت عملياً خارج نطاق سيطرتهم. ومنذ أن كان أورنجز ب نائباً السلطان في الدكن، كان قد حاول، في شبابه، أن يأخذ من البرتغاليين، المقيمين في سورات وفي بمباي، أحد المواقع الموجودة بينها، وهو موقع دمان؛ ولكنه اضطر إلى سحب قواته بعد ستة أشهر من

عاصرته . وان تتكرر أية محاولة من هذا النوع خلال حكمه .

وفي البنغال ، كان عليه أن يحسب حساباً لجموعة من القراصنة الأقوياء . وكان هؤلاء القراصنة ، الذين يسمون ماجر ، يضمون عدداً كبيراً من البرتغاليين ، ويقيمون في شيتاجونج ، عند مصب الجانج ، ويقومون من هناك بهجماتهم في المياه النهرية . وكانت عملياتهم من القوة بشكل أجبر أورنج زب ، بعد بضع سنوات من توليه العرش ، على أن يعلن عليهم الحرب . ولكنه سرعان ما وجد أن هذا العمل يزيد عن طاقة القوة التي كانت له على البحر . ولذلك فإنه استجد بالهولنديين ، في بنافيا . وكان هؤلاء الاخرون قد تعددوا على أمر قياس قوتهم بقوة البرتغاليين ، منافسيهم في المحيط الهندي ، فاستجابوا له بسرعة . وكان بجىء يارجتين حريتين كافياً لاختافة القراصنة . وبعد ان ارسل اليهم السلطان إنذاراً ، قبلوا دفع فرامة ضخمة ، وقبلوا الدخول في خدمته . وبعد قليل ، تم عزل ملك اراكان ، حليفهم ، من حكم بلاده ، التي ضمت إلى إقليم البنغال .

وإذا ما تركنا جانباً أولئك التابعين الكبار غير الخاضعين - وكان اجدهم هو ملك آسام ، الذي أظهر قوته بشكل خاص في عام ١٦٦٣ - نجد انه كان على اورانج زب ان يتعامل بنوع خاص ، وكما عمل سلاطين المغول السابقين ، مع الأفغان . ولقد استمرت الحرب ضدهم ، وبلا انقطاع ، من عام ١٦٦٧ حتى عام ١٦٧٨ : وكانت حرباً صعبة ، في بلاد جبلية ، ولا توجد فيها طرق مواصلات ؛ ولم يكن للأمر الذي كان يحكم في كايول سوى سلطة إسمية . وكانت القضية المطروحة هي نفس المشكلة التي كان على الصيغيون ان يواجهونها ، هم أيضاً ، على حدودهم النهرية : وهي العمل على فرك الاحترام ، وإن أمكن كسر شوكة القبائل التي كانت تعمل على السلب والنهب ، والتي كان جوارها لبلاد أكثر ثروة وأكثر حضارة يثير اطماعها . وابعدها ، ثم إرسال احد مندوبي سلطان المغول

إلى كابل ، حيث تمكن من أن يمارس سلطانه في حدود نسبي ، حتى عام ١٦٩٨ . ورغم أن أفغانستان كانت تعتبر على أنها منطقة نفوذ لفارس ، إلا أنه لم تنشب عمليات عسكرية ضد الشاه ، الذي أظهر عدم إهتمام بالمنطقة الشرقية من البلاد . ولقد حدث كذلك في عهد اورنج زب ، وفي المنطقة الشمالية الغربية من شبه القارة الهندية ، أن ظهر اعداء اشداء واقوياء لسلطين المغول ، هم المهراتا . وكانوا قد حضروا من منطقة غات الغربية ، وتمكنوا من أن يقيموا ، ابتداء من منتصف القرن ، ومع سلطة سيواجى Siwagi رئيسهم النشط ، دولة فطية ، هي ملكة مهناسرا ، التي سرعان ما سوف تعرف باسم سلطنة المهراتا . ولقد ظل سيواجى ، منذ عام ١٦٦٠ تقريباً ، وحتى وفاته (١٦٨٠) ، هو الخصم الأكبر لأورنج زب . وكان له جيش قوى ، ويتعامل معاملة اللد مع سلطان دلهي . وتتمثل المرحلة الأولى والرئيسية من ذلك الصراع ، والذي سوف تتواجهون فيه لفترة سنوات ، في إستيلاء المهراتا على سورات . وكانت سورات مدينة هوية على المسلمين - فكانوا يسمونها « ميناء مكة » - ولتحفظها الغزاة قاصدة لعمليات عتف شديدة ، كان الأورديون ، من برتغاليين ، وهولنديين ، وإنجليز ، يشاهدونها كمجرد متفرجين .

وفي عام ١٦٧٧ ، وصل الحال بالفرنسيين في يوندشيري ، والذين حكموا ممرحين لتهديد بعض جيرانهم ، إل أن يطيروا حماية المهراتا ؛ واحتفظوا بهذه العلاقة ، تحت خلفاء سيواجى ، حتى عام ١٦٩٣ . وفي أثناء الحرب ضد المهراتا ، تمكن اورنج زب من أن يضم ، في قلب شبه القارة ، كل من ملكتي يجاپور وجولكوند (١٦٨٦ - ١٦٨٨) . وإعتقد في أنه قد انضخ الكارناطيك ، في بعض الأوقات ، إلى للجنوب أكثر من ذلك . والواقع أن جنوب شبه القارة ، وفيما وراء كرشنا ، لم ينضخ لسيطرة لسلطين المغول بشكل فعال .

وكان السلطان المغول الذى يحكم فى دلهى يحظى ، فى آسيا ، وفى جميع أنحاء العالم ، ببيئة لامتيل لها . وكانت السفارات تصل تباعاً إلى بلاطه ، وكانت هناك مراسم خاصة ودقيقة لإستقبالهم . وكانوا يتنافسون ، بالهدايا ، فى الحصول على رضاه سيد الهند . فقام الهولنديون ، والذين كانت ثروتهم تنمو بسرعة أوروبا ، بأن قدموا له ، وعلى سبيل المثال ، تحفاً من الصين ومن اليابان . أما حكم الحبشة ، فإنهم قدموا لمحتله هدايا فاخرة من المصنوعات المصنوعة فى بلادهم ، حلابة على مجموعة من الخيول الأصيلة ، وعددًا من العبيد السود .

٢ - فارس :

وفى فارس ، نرى أن بداية القرن كانت قد تفتحت على حكم هام ، هو حكم عباس الأول ، أو عباس الكبير (١٥٨٩ - ١٦٢٨) وكانت هذه هى فترة أوج عظمة الصفويين . وكانوا يحكمون مساحة تزيد على ثلاثة آلاف كيلومتر مربع . ووسع هذه الشخصية أصبحت فارس هى قلعة المذهب الشيعى ، وقامت بحروب عديدة ضد العثمانيين ، المدافعين الأقوياء عن المذهب السنى . وكان الهدف الرئيسى لهذه الحروب — والى ذكرنا الرئيسى من بينها — هو إمتلاك بلاد الرافدين ، والأقاليم المجاورة للقوقاز . ولقد خسر الفرس بنداد مرة أولى فى عام ١٥٢٤ ، ثم فقدوها بشكل نهائى فى عام ١٦٣٩ .

ولم يقصر عباس لإرسال حملاته العسكرية على الغرب فقط ؛ فكان عليه أن يواجه ، فى الشمال الشرقى ، خصوصاً سنين ؛ أقوىاء الشوكة كذلك ، هم أوزبك التركستان ؛ فعمل على توسيع مساحة دولته بشكل واضح على حسابهم ، وكان رئيساً لدولة إسلامية ضخمة ؛ ولكنه لم يظهر أى مشاعر عدائية تجاه المسيحيين . وكان يستقبل رجال البعثات الدينية ، ويسمح لهم بإرتداء الملابس الخاصة بجماعاتهم ، وبإلتقيام بالوعظ ، وإقامة الصلوات . وكان الفرنسيون هم الذين

أفادوا من ذلك بنوع خاص ، نتيجة لقوة الدفع التي أعطاهم الأب جوزيف ، صديق ديشيليو ، والذي كان يماونه أحد الكاثوليك الآخرين ، وهو الأب باسيفيك دي بروفانس ، والذي كان قد سافر كثيراً في الهند أعطوها للجهودات الكاثوليكية في الخارج .

ولقد تميز هذا الحكم العلوي بازدهار عام في الحضارة . فأصبحت أصفهان ، العاصمة ، مدينة من أجل مدن العالم ، ومن أكثرها سكاناً ، وفي نفس الوقت مركزاً هاماً للتجارة . وأصبحت أكبر سوق للحرير في الشرق . ومن ناحية أخرى ، أصبحت المنسوجات القطنية والأحجار الكريمة الآتية من الهند (والتي يمكننا أن نضيف إليها الزمرد الإيراني) ، يتم تبادلها فيها نظير المنسوجات الأوروبية ، وبخاصة المنسوجات . وكان فيها الكثير من التجار من كل البلاد ، من يونانيين ، وأتراك ، وأرمن بنوع خاص . وكان الأرمن ، الذين خضعوا لإضطهاد السلطات العثمانية في بلادهم ، يحضرون منذ بداية القرن ، طالين الجوء إلى فارس ، وبأعداد كبيرة . وكانوا يقيمون في أصفهان ، وسرعان ما أصبح المحل الذي يقيمون فيه من بين أكبر أسواق الشرق الأدنى .

وكان هناك مركز آخر هام للتجارة بين أوروبا وبين آسيا ، من قبل ، في جزيرة هرمز . وكنا قد رأينا البرتغاليين ، الذين أقاموا فيه منذ وقت ألبوكركه Albuquerque ، قد طردهم الشاه عباس ، بمساعدة الإنجليز ، الذين حصلوا ، منذ عصر الملكة إليزابيث Elizabeth على إحتراف الفرس بعميلهم ، بعد أن علمهم فن صب المدافع وإستخدامها . وبعد إخلاء موقع هرمز ، ثم بحريه ، في عام ١٦٢٢ ، ستصبح مدينة بندر عباس ، والتي إنشئت على الساحل المتحاذر ، وبدون وقت بسيط ، وقد ربطت بأصفهان بطريق جديد . فتصبح بدورها

مكان إلتقاء كل تجار منطقة الشرق الأوسط . وبالقرب منها ، كان صيدا الزلوة ،
في البحرين ، ينفذ حركة تجارية مربحة للغاية .

ووجد الخلفاء المباشررون للشاه عباس بعض الصعوبة في المحافظة على قترحاته .
وساعد ضعفهم على زيادة إظهار قوة الشاه الكبير ، في بداية القرن . وكان
نشاطهم الحربي يتجه بنوع خاص إلى ناحية الشرق ، وحيث كان من الضروري
فرض احترامهم على قبائل الأوزبك في قزكستان ؛ وحيث كانت مدينة قندهار ،
في أفغانستان ، قد أخذت ، ثم أعيد غزوها ، مرات عديدة . وفي بداية القرن ،
تحرر الأفغان من كل يمية تجاه أصفهان .

٣ - اليابان والصين :

كانت اليابان ، والتي كانت قد إفتحت قليلا للاوربيين ، عند أواسط القرن
السابق ، قد عادت إلى الإغلاق شيئا فشيئا من جديد ، عند بداية القرن السابع
عشر . وكان رجال بعثات التنصير ، هم أول القادمين الذين كانوا قد أناروا
عداء السلطات ، نتيجة لتطرفهم في عمليات دهرتهم : فعصدر مرسوم عام
ضدهم لتحديد نشاطهم في عام ١٦١٤ . ونجح التجار في أن يظلوا هناك لفترة
أطول قليلا . وجاء الهولنديون ، ثم الانجليز ، في بداية هذا القرن ، لكي
يتأفخوا البرتغاليين والاسبان في المواقف التي كان قد سمح لهم بالعمل فيها :
ونجحوا حتى في ذلك الوقت ، الذي إنتقلت فيه الإمبراطورية ، في عام ١٦١٦ ،
في وجه كل الكاثوليك . ولم يد أمامهم ، منذ عام ١٦٢٤ . سوى ميثاقين
مقتوحين للتعامل ، هما هيرادو ونجازاكي . ونتيجة لثورة مسلحة قام بها
اليابانيون الذين كانوا قد تحولوا إلى المسيحية ، صدرت فرائدات في عام ١٦٣٨ .
بطرد عام لكل الأوربيين . وفي العام التالي ، وصلت سفارات برتغالية لكي
تجارل المحصول على تنبيه هذا القرار : فتم وضعهم في السجن ، ثم إعدامهم .

ولمدة قرنين ، سيكون ميناء واحد صغيراً ميناء ديشيا ، في خليج نجازاكي ، هو الميناء الوحيد المفتوح لاستقبال التجار الهولنديين ، وبشرط قاطع يقضى بعدم قيامهم بممارسة أى مقوس تجارية لديهم .

وبإتداء من الوقت الذى إنتهى فيه ، في عام ١٦١٥ ، الحرب ضد الصين ، من أجل كوريا ، إستمرت دولة «الشوجون» في تطورها الداخلى ، بكل هدوء . ولم تعد هناك صدامات دموية تقع بين اليابانيين وبين جيرانهم على القارة . أما بالنسبة لغرب أوروبا ، فإن سحر الحضارة لم يكن له عليها سوى تأثير بسيط . وكان أمر إستيراد الكتب منها يخضع لقرارات ولوائح في متنبى الصرامة . وحين تبدأ الحواجز أمامهم في الإنخفاض ، في أثناء القرن الثامن عشر ، سيكون ذلك في صالح الذين يتعاملون مع العلوم التجريبية ، وخدم .

وفي الصين ، تيمز وسط القرن بتفكير في الأسرة الحاكمة : فأخذت أسرة Tsing مكان أسرة مينج Ming ، في عام ١٦٤٤ ، وذلك بعد فترة من الفوضى ، والحروب الداخلية ، التى إستمرت لمدة ثلاثين عاماً . وكانوا من أصل مانشو . وعند نهاية القرن السادس عشر ، وبداية القرن السابع عشر ، كانت قبائل المانشو قد نظمت نفسها في شكل دولة مركزية ، أصبحت موكدن عاصمة لها ، في عام ١٦٢١ . وهذه الدولة الجديدة ، التى كانت عاصمة للصين لفترة من الوقت ، مالبت أن فكرت في الإستقلال وفى التوسع . وتم إعلان أحد ملوكها إمبراطوراً في عام ١٦٣٦ . وقام بعد فترة بالهجوم على كوريا ، وكانت أقلية آخر خاضعا للصين كذلك ، ونجحت في فرض سيادتها عليه . ثم قام أحد قادة المانشو بالتدخل بقواته في الحرب الأهلية التى كانت منتشرة في الصين ، ورفع نفسه ، في عام ١٦٤٤ ، إلى المكان الذى كان يحتله آخر أسرة مينج . وكان على أسرة تسينج أن تعيش مدة طويلة ، مادامت قد ظلت تحكم حتى عام ١٩١١ .

وكان الحشم الرئيسى الذى بدأت الصين بتوجيه جهوداتها ضده ، يتمثل فى بعض القبائل المحاربة ، من أصل مغولى ، والى كانت تسكن وسط القارة . وقام الإمبراطور كانج هى Kang - hi ، وهو أحد معاصرى لوى الرابع عشر (١٦٦٢ - ١٧٢٢) ، بمحاربتهم لفترة طويلة ، وحاول بلا جدوى أن يفرض عليهم سيادة الصين .

ومن ناحية أخرى ، نجح كانج هى فى أن يضم للإمبراطورية جوية فرموزا الكبيرة ، والى كانت قد ظلت مستقلة حتى ذلك الوقت . وبعد أن كانت قد سقطت فى أبدي الهولنديين فى عام ١٦٢٤ ، جاء أحد المغامرين لكى ينازحهم أمر السيطرة عليها ، وجعل منها وكرأ للقراصنة ، فى عام ١٦٦١ ، الأمر الذى أغضب الصينيين . وسرطان ما أظهرت القرصنة الصينية أنها على نفس شدة خطورة القرصنة اليابانية فى الماضى . ولكنها لم تستمر إلا لفترة قصيرة : فلقد اضطرت كانج هى إلى أن يتخلص من منافس قوى ، فاحتل فرموزا ، وفرض عليها سيطرته .

واستمر الهولنديون فى التجارة مع الصين . وسمح لهم إحتلال فرموزا بأن يحصلوا فى السوق الصينى على ميزات مشابهة لتلك التى كان يتمتع بها البرتغاليون فى مكار . ولقد اضطروا ، بعد عام ١٦٦١ ، إلى أن يلتجأوا إلى طرق عهد مباشرة ، حتى يستمروا فى التجارة مع الصين ، وكانت طرقاً سرية : فأصبح المهيرون الصينيون يمحرون لهم منتجات بلادهم إلى بتايا . وكان الصينيان قد خلقوا من أجل أن يتغاضوا ، وأن يقدر كل منها الآخر : فكان الصينيون يعتقدون فى أن كل الأجانب كانوا أعمياء فى شؤون التجارة ؛ إلا الهولنديين ، الذين كانوا مبصرين وبعين واحدة ؛ أما الصينيون أنفسهم فكانت لهم عينان ذلك أن الهولنديين كانوا ، وعلى خلاف كل الشعوب الغربية الأخرى ، يتركون جانباً ،

وفي علاقاتهم مع الشعوب الصغرى ، كل مشغولية لها طابع دينى ، ويتمنون عن القيام بأى عمل فى ميدان التصدير .

ولم يصبح الامة الفرنسية مثلين ثابتين على سواحل الشرق الأقصى إلا بعد إقامة منافسهم هناك بقوة طويلة . وتم إنشاء شركات صين ، عديدة ، وعلى التوالي ، فى الفترة الأخيرة من حكم لوى الرابع عشر . وكانت الشركة الثالثة فقط من بينها ، وهى التى كانت قد أنشئت فى لاروشيل ، فى عام ١٧٠٢ ، هى التى عرفت النجاح . فوضعت أقدامها فى كانتون ، إلى جانب إحدى الشركات الإنجليزية ، وشركة هولندية .

وفى العلاقات بين الصين وبين روسيا ، كان حكم الامبراطور كايج هى يمثل نقطة تحول . فسيتم فى عام ١٦٨٩ عقد معاهدة صريحة ، والتوقيع عليها بين القيصر وبين امبراطور الصين .

وشيثا فقيهاً ، ويطلبه كبير ، تعلم الروس والصينيون كيف يعرفون بعضهم البعض . ولفترة طويلة ظلوا ، فى موسكو ، لا يعرفون بين سيد امبراطورية الصين القوى وبين صغار الملوك والسلاطين الآسيويين فى الوسط . وفى الغرب ، والذين كانوا يدخلون معهم ، فى بعض الأوقات ، فى صلات . فكانوا يسمونهم جميعاً باسم دغان . ولم تصل عملية التوسع الروسى فى اتجاه الشرق إلى مواجهات مسلحة مع الصينين إلا حينها وصل هذا التوسع إلى نهر أمور ، فى النصف الثانى من القرن ؛ وحتى فى هذا الاتجاه ، لم تكن هناك سوى قوات غير نظامية . ولم تكن الامة الروسية مثثة هناك ، وحتى ذلك الوقت ، وفى هذه المناطق السيبيرية البعيدة إلا بعدد من التجار . وكان ما يجذبهم ، وحتى أكثر من الحرير ، هو المذهب والفنعة التى كانت تستخرج من مناجم الصين .

أما التوغل العسكرية ، والذى كان قد بدأ مع يارماك عند نهاية

القرن الماضي ، فإنه استمر بكل هذه ، وكان صانعه الرئيسيون هم دائماً القوزاق ، أما المستفيدين منه فكانوا صيادى الفراء . ووجد القطار أنفسهم وقد دفعوا ، شيئاً فشيئاً فى الأستبس ، فى وسط القارة وفى جنوبها . وكانت عملية الإستيلاء على بلاد سيبريا قد تميزت بنوع خاص بإنشاء المسكرات المحصنة ، أو «أستروج» ، والى كانت الحكومة ترسل إليها فى بعض الأحيان عدداً من المعتقلين السياسيين ، أو من يجرى القانون العام ، لكى يعيشوا فيها . وحين بدأ أن أمر عودة هجوم القطار قد أصبح غير متوقع ، تطورت هذه المسكرات إلى مدن : إينيسيسك فى عام ١٦١٨ ، وكراستويارسك فى عام ١٦٢٨ ، ولابكوسك فى عام ١٦٣٢ . وسين وصلوا إلى منطقة لنا ، أخذ التقدم إلى الجاهل فى نفس الوقت ، صوب الشمال نازلين مع النهر ، وصوب الجنوب ، صوب بابكال ، والى ظهرت على سفانفة مدينة إيركوتسك فى عام ١٦٥٢ .

ولم تجمعت حملات عديدة ، وكانت بعضها بقيادة باسكوف Peakov ، سأك إينيسيسك ، ونزلت نهر لنا ثم عبرت جبل ستانوفوى ، صوب البلاد التى نزلتها والداورى . وكان أمر تركيز الأقدام فى هذه المنطقة يعنى تسهيل المهمة الدقيقة الخاصة بالقبول : خاصة وأن الجيوب كانت متوفرة هناك . ولكن الصعوبات كانت على درجة من الضخامة حتى أن حملات كبيرة فى سنوات ١٦٥٦ - ١٦٦٠ ، ظلت بدون نتيجة تقريباً .

وإلى الجنوب أكثر من ذلك ، تكلفت مجهودات أرائل المستعمرين بالنجاح . وفى عام ١٦٦٥ تم إنشاء مدينة جديدة على نهر أمور ، بواسطة أحد قادة القوزاق المسمى خباروف Khabarov ، والذى سيعطى اسمه لمدينة أخرى ، أبعد من ذلك ، وتسمى خباروفكا . وإبتداء من سنوات ١٦٧٠ ، أصبح لإقليم ألبازين ، حاكماً عاماً ، يعينه القيصر . ولكن الحملات التى كان يقودها فى المناطق المجاورة

أثارت قلق حكومة بكين ، وجعلت كايجى مقر ضرورية التدخل . وفى عام ١٦٨٥ ، كان على السلاح أن يسوى أمر هذا الخلاف . وقام جيش صينى ، موزد بثلاثمائة مدفع ، بمحاصرة الحامية الصغيرة التى كانت قد أقفلت على نفسها داخل مدينة ألبازين ، وأجبرها على التسليم . ولكنه منحها حق الإنسحاب ؛ وسار بها قائدها صوب الغرب ، فى اتجاه بايكل ، وإلى موقع نيرتشينسك الحصين . وواد إلى الهجوم من جديد فى العام التالى : فاستبجع الأمر حصاراً جديراً لمدينة ألبازين ، والتى تحولت ، بعد فترة ، إلى مجرد استحكامات ؛ ثم رفع الحصار ، بأمر من الحكومة ، بعد أن كانت المفاوضات قد بدأت مع موسكو من أجل تجديد خط الحدود ، وعقد معاهدة سلام . أما المعاهدة ، التى تم التوقيع عليها فى نيرتشينسك ، فى ٢٧ أغسطس ١٦٨٩ ، فلأنها كانت ، فى نفس الوقت الذى تسهل فيه وتنظم العلاقات التجارية ، تحدد خط الحدود مع بحر آمور . ولذلك فإن مدينة ألبازين ، والتى كانت قد أنشئت على الضفة اليسرى للنهر ، وسيتم تحلّى الروس عنها : وسوف تشرق بعد سفرهم منها . وكان بعض اليسوعيين هم الذين هموا كوسطاء فى هذه المفاوضات . ذلك أن الصينيين كانوا لا يفهمون اللغة الروسية ، بينما كان الروس لا يتحدثون اللغة الصينية ، ولالغة منشوريا .

وماذا كانت عليه ، فى ذلك العصر ، مواد التبادل التجارى بين الصين وبين روسيا ؟ إنه - زوال ليست لدينا مادة موثوق بها للإجابة عليه . وعلى كل حال ، فإن المصنوعات الحريرية كانت تحتل مكاناً هاماً فى الإجماع من الشرق إلى الغرب . أما فيما يتعلق بالشاي فإنه من الصعب الإجابة عنه إجابة مؤكدة . فلقد كتب أحد المؤرخين الروس ، منذ بضعة سنوات : « كان أول شاي قد وصل إلى باريس فى عام ١٦٣٦ ، وقبل ثلاثة وعشرين عاماً من وصوله إلى موسكو » . وكان هذا التأكيد متناقضاً ويصعب الوثوق فيه : ذلك أن أحد الرحالة الإنجليز فى سنوات ١٦١٠

أشار إلى حب الروس لهذا المشروب . وتذكر بعض الوثائق ، بعد التوقيع على معاهدة نيرتشنسك ، طريقا لشاي هونغوليا ، ماراً بأورجيا وكياختا ، وفي الحقيقة يمكن أن يتعلق الأمر بمجرد عملية تصدير الشاي في اتجاه التركستان .

أما مع بلاد أوربا ، خلاف روسيا ، فإن تجارة الصين كانت تتم كلها تقريباً عن طريق كانتون ، والتي كانت الشركة الإنجليزية الهند قد حصلت ، في عام ١٦٣٤ ، على تصريح بأن ترسل إليها السفن ، من وقت لآخر . ثم قامت بعد ذلك بإنشاء مراكز تجارية لها ، إلى الشمال أكثر من ذلك ، في آموي ، وفي فونشييو . أما في كانتون ، فإنه لن يكون لها مركزاً خاصاً بها ، ومصرح به رسمياً ، إلا في عام ١٦٨٤ .

ولم تكن لاية حكومة ، ولا حتى حكومة لندن ، علاقات دبلوماسية مستديمة مع بكين . أما حكومة لشبونة ، والتي كان يمثلها نائب الملك في جوا ، وحكومة لاهاي ، والتي كانت تترك كل السلطات لرجال شركة الهند ، فإنها كانتا ترسلان سفارات ، من وقت لآخر . وأما لوى الرابع عشر ، فإنه كتب إلى كانج هي خطابات بروتوكولية بحتة . ولقد استمر اليسوعيون يرعون المصالح الفرنسية في الصين ، وكان كانج هي يظهر لهم كل مظاهر التعاطف . وكان هو الذي طلب إليهم أمر زيادة عدد أعضاء البعثة الدائمة في بكين ، وهو ما تم في عام ١٦٨٨ . وكان أحد أعضائها ، وهو الأب فيريست Verbiest من أصل هولندي ، وكان قد وصل هناك في عام ١٦٥٩ ، وقدره نتيجة لمرفته بالفلك ونتيجة لجهده بصناعة المدافع ، في نفس الوقت : ذلك أن الصين كانت قد بدأت ، منذ ذلك الوقت ، في حب المدافع ؛ واستخدم كانج هي القاطع الأول التي تم صنعها علياً في قمع إحدى الثورات . وأصدر في عام ١٦٩٢ مرسوماً يسمح بالممارسة العامة لشعائر الدين المسيحي في جميع أنحاء الإمبراطورية .

٤ - المسيحية واليهوديون في آسيا :

لقد أشرنا ، أثناء دراستنا للقرن السادس عشر ، إلى أن الإسلام كان قد حصل ، عبر الزمن ، على مواقع هامة في جنوب آسيا . ولقد اتسعت هذه المواقع بشكل واضح في أثناء القرن السابع عشر ، وبخاصة في الصين ، وذلك بالتواقي الذي تم بين الاسلام وبين معتقدات الأهل وحاجياتهم . وفي نفس الوقت ، انتشرت المسيحية بدورها . ولم يكن لها حتى ذلك الوقت الكثير من أتباعها إلا في الهند ، على ساحل مالابار ، وبوجه التحديد حيث كان الأوروبيون قد تولوا في أثناء القرن السادس عشر ، وحيث كانوا قد أقاموا مراكزهم الأولى . وكذلك كان الحال في اليابان . ولكن كل ما في في ذلك الوقت قضى عليه ، كما رأينا ، بحركة بدو فعل خيفة ، بعد بداية القرن بقليل .

وانتهت مجهولات التنصير بعد ذلك صوب جنوب شرقى القارة بنوع خاص . وبعد أن كان الأمر متروكا حتى ذلك الوقت لمجهدات الجماعات الدينية الكبيرة - وكانت جماعة اليسوع قد قامت في هذا المجال . ومنذ تأسيسها ، بروومنتوق - ، ستقوم دوما منذ ذلك الوقت بتوجيهه ؛ وكانوا قد أظهروا هناك بعض النفرة من ذلك الدور الذى كانت بعض الحكومات قد لعبت ، وبخاصة حكومة البرتغال . ومنذ عام ١٥٣٤ ، حصلت جوا على أسقفية ، ثم تحولت إلى رئاسة أسقفيات في عام ١٥٥٨ ، ولها مركزان مساعدان في كوشين وفي ملقا . وبعد ذلك ، تم إنشاء أسقفية أخرى ، في عام ١٥٧١ ، في الأراضي التابعة للبرتغال ، في مكاو ، وهى التى سميت بعد ذلك «بأسقفية الصين» . وتم في عام ١٦٣٢ إنشاء هيئة خاصة ، أنشأها البابا جريجوار الرابع عشر Grégoire XIV ، وهى هيئة الدعوة الرومانية Congregation romaine de la propagande ، - وسرعان ما سوف تسمى بالخدمة Propagande - والتي كانت تتكون من ثلاثة عشر كاديتا ،

ولها سلطة عالمية على عالم البعثات الدينية التي تعمل خارج أوروبا. وكان معنى ذلك ميلاد نظام جديد يأخذ مكان ذلك النظام الذي كان يسمى بنظام المظلمين Patronat ، والذي كان يسمح لملوك الدول المستعمرة بأن يشرفوا على البعثات الدينية التي كان رعاياهم يكونونها أو يطلبون حاجتها .

وبدأ حاملو الإنجيل في النزول في سيام وفي الهند الصينية ، في نفس الوقت تقريباً . ولقد احتفظت لهم سيام باستقبال طيب ، ولم تساورهم : فتمكن اليسوعيون الذين أرسلوا إليها من جوار أن يفتشوا لهم ، ومنذ وصولهم ، دبراً وكنيسة . أما فيما يتعلق بالهند الصينية ، فإن علينا أن نميز بين دولة ودولة أخرى فيها . فعلاهم على توكين والكوشين صين — وكان لها استقلال داخل كامل في النطاق الواسع لإمبراطورية آنام ، التي لم يد لها ، في مجموع شبه الجزيرة إلا تفوقاً شرفياً — علينا أن نضيف الكامبودج . والتي كان يسكنها شعب يختلف في أصله عنصرياً ، والتي كانت معرضة باستمرار لعمليات الغزو من سيام . وكان أهالي توكين وأهالي الكوشين صين ، من ناحية ، في حروب دائمة فيما بينهم . ولقد وافق الآخرين ، في عام ١٦١٥ ، على مجيء اليسوعيين الفرنسيين ؛ وتم تنظيم إرسالية (بمئة دينية) الكوشين صين بواسطة الأب إسكندر دي رود Alexandre de Rhodes ، والذي كانت له فترة نشاط ديني خصبة للغاية . وبعد ذلك ، وإبتداءً من عام ١٦٢٧ ، تمكن كثير من رجال بعثات التنصير من أن يصلوا إلى توكين أيضاً . وهكذا نشأت مجموعات مسيحية على التوالي في ماووي وفي سايجون . وفي عام ١٦٤٥ ، وصل إسكندر دي رود إلى روما لكي يطلب للمعونة ، وأكد أن عدد المسيحيين في آنام كان يزيد سنوياً بحوالي ١٥٠٠٠ نسمة . وكان تطور نظام Patronat هو الذي أدى إلى نشأة نظام الراعي الرسولي ، Vicariats apostoliques ، والمرتبطة مباشرة بالكورسي البابوي ، منذ عام ١٦٥٨ .

وكان المدافع الاسامي لذلك هو رغبة الحكومة البابوية في التخلص من وصاية البرتغال التي كانت تثقل منذ قرن على كامل العالم المدينية في آسيا . وساعدت ذكريات الخدمات الكبيرة التي قدمها اسكندر دي رود على أن يهدوا لعهد من الفرنسيين بالإشراف على حركة البعثات الدينية . وكان الاسقفان الأولان في بلاد الكفار ، *Partibus infidelium* ، والذان تم تعيينها في الكوشين صين وفي تونكين ، فرنسيين . ولما كان من الصعب عليها الإقامة في مواقعها بسبب الحرب الأهلية ، فإنها إنتظرت تطور الأحداث وهم في سيام ، التي أقاموا فيها لمدة سنوات عديدة ، وعن الرغم من البرتغاليين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم هناك وكأنهم في أوطانهم . ولقد أفادوا من ذلك من أجل تنظيم حلقة دراسة « سنار » وحتى بعد أن نجحوا في الوصول إلى مقرهم في الهند الصينية ، كان عليهم أن يقاوموا من سوء تصرفات البرتغاليين ، وعلى الأقل طوال الفترة التي كانت خطواتهم تثير فيها وباستمرار ، أخطار الحرب الأهلية . وفي نهاية الأمر ، كانت النتائج أكثر تشجيعاً في الكوشين صين عنها في تونكين . وفي عام ١٦٧٣ ، تم إختيار « راعي دسولي » ، جديد . له سلطات على الصين على سيام ، ومقر إقامته في نانكين : وكان أول من شغل هذه المسئولية فرنسي كذلك .

وفي سيام ، وكذلك الحال في الهند الصينية ؛ وأيضاً في كل موقع في الشرق الأقصى ، لفت وجمال البعثات الدينية — واليهوسيون بنوع خاص — الانتظار إلى ثروات البلاد ، وأسهموا في عملية تمهيد الطريق أمام التجار . وكان هناك أجاب آخرون سبقوا الفرنسيين إلى هذه المناطق . ففي أثناء فترة من الوقت ، كان هناك في أيوتيا ، عاصمة المملكة (والآن كونج كلو) ، مركزاً تجارياً للشركة الإنجليزية للهند . ثم إنتقل الإنجليز بعد ذلك إلى بورما المجاورة ، وحيث أصبح وجود منشآتهم هويلا ، عند نهاية القرن .

ولقد فكر أحد ملوك سيام ، وهو الملك برانا واين Phra - Narain ، في أن يعيد رفع مكانته في أعين رعاياه عن طريق توثيق علاقاته الدبلوماسية مع فرنسا . وفي عام ١٦٨٤ ، تم إستقبال سفارة رسمية في فرسان ، مع المراسم العادية . وسرعان ما رد لوى الرابع عشر على ذلك . وبعد قليل ، تم منح إمتيازات للتجار الفرنسيين ، الذين حصلوا على تصريح بالإقامة في بانجوك وفي مرجى ، وذلك في الوقت الذى فتحت فيه كل دولة سيام أمام عملية تعليم الإنجيل ونشره . وأرسلت سفارة أخرى إلى فرنسا ، في عام ١٦٨٦ ، من أجل مناقشة أمر إقامة تحالف بين البلدين ؛ وأجاب السفن الفرنسية هناك بالحيء ، وبتقديرها بحمة الملك ، في بلاده . ولكن الأمر انتهى في غير صالح اليسوعيين ، والذين كانوا هم أول من حمل من أجله . ذلك أن بحى جنود الملك تنسب منه تدجيمهم على الإستمرار في القيام ببعض المؤامرات ، الأمر الذى أثار فرح المحيطين بالملك . ونتيجة لإحدى ثورات القصر ، تم إخلاء المواقع الفرنسية ، وطرد كل الأجانب . وإنفصلت سيام ، منذ عام ١٦٨٨ ، على نفسها ، كل الإنغلاق .

٥ - إفريقيا ، المغرب ، وإثيوبيا :

بالنسبة لأفريقية ، لم نشرح في الفصول السابقة إلا ما يتعلق بنباتات شمال افريقية ، وعلاقاتهم الصعبة مع الدول الغربية . وتركنا المغرب جانبا ، وهو الذى إستمر ، وعلى عكس النباتات ، يحيا حياته مستقلا تماما ، ومتحرراً من أى خضوع تجاه إستانيول . ومثل النباتات ، كان المغرب بلداً من بلاد القرسنة (١) .

(١) المؤلف — وهذه الكلمة صحت الآن ، في الكتابة التاريخية ، وتم التفريق بين ما يسمى قرسنة ، وما يسمى « الجهاد البحرى » — المغرب — أنظر : —
 هـ. جيلان يحيى : المغرب الكبير — الجزء الثالث .
 والمغرب العربي الحديث والمعاصر . الجزء الاول .

وفق للمغرب كان القرن السابع عشر يمثل فترة إزدهار صليبات المهاد البحري وبخاصة في سلا . وكان ميناء سلا هو مينائها الرئيسي . وشهدت هذه العملية توسعاً جديداً منذ أن جاءت مجموعة من الاندلسيين ، في عام ١٦٠٧ ، طردوا من إسبانيا فيليب الثالث ، ودعمت أعداد من كانوا يقومون بها . فأنشئوا إلى جوار سلا ، وعلى الضفة الأخرى لوادى بو وقراق ، حياً سمي سلا الجديدة ، أصبح فيما بعد أساساً لمدينة الرباط الحديثة . وبعد أن زاد عدد أبناء سلا ، وزادت قوتهم ، تحرروا بشكل تام تقريباً من سلطة سلطان مراكش ، وإلى لم يكونوا يعترفون بها من الأصل إلا بشكل غير كامل . وكونوا ما يشبه الجمهورية ذات الإستقلال الذاتي ، وإلى كانت غاضمة ، من الناحية النظرية ، السلطان ، ولكنها كانت ، بالفعل ، لا تأبه كثيراً بأوامره .

ولقد احتفظ الأوروبيون مع المغرب ، وكما كان عليه الحال مع نيابات شمال إفريقية ، بعلاقات صعبة . تقطعها من وقت لآخر مظاهرات بحرية ، تكون الكلمة في أثنائها المدافع . ولما كانت هذه المظاهرات البحرية موجبة ضد أبناء سلا وحدهم ، فإنها لم تنسب في قطيعة مع حكومة السلطان ، وإلى كان في وسعها دائماً أن تبتز من رعاياها غير الخاضعين . وكانت كل دولة من الدول التي تهتم بأمن الطرق البحرية تقوم بذلك ، في دورها . وفي أثناء ذلك الوقت ، كانت التدخلات الفرنسية ، هنا وكما كانت أمام الجوائز وتونس ، هي الأكثر حدة . كما أن الفرنسيين كانوا هم أول من عقد علاقات تجارية منتظمة مع المغرب . فكانوا يحضرون من الماخر ، ومن روان أو من نانت ، لإحضار السكر من مزارع الجنوب (وادى الموس) ، وكانوا يحملون معهم المواد المصنوعة ، وبخاصة المنسوجات . ونتيجة لذلك ، وأيضاً نتيجة لانتيازهم إلى دولة كانت بشكل عام عدوة لإسبانيا ، تمتعوا ببعض الامتيازات . وابتداء من عام ١٥٧٨ ، أصبح هناك تفصيلاً للأمة الفرنسية ، يقيم في فاس نفسها .

ومع ذلك ، فإن المبادلات ظلت تتعرض لصعوبات كثيرة ، بسبب عدم الأمن في البلاد . وظلت الحرب الأهلية مستمرة هناك بشكل دائم تقريباً ، وحتى الوقت الذي وصلت فيه ، قرب عام ١٦٦٠ ، أسرة الأشراف العلويين إلى احتلال مكان أسرة الأشراف السعديين .

وفي خلال السنوات التي سبقت إستيلاء الأمن في البلاد ، تمكن بعض التجار الانجليز من أن يحصلوا لأنفسهم ، وعن طريق أحد شيوخ منطقة الريف ، على مكان يقع على خليج الحسيمة ، بين تطوان ومليلا . ولكنهم لم يحتفظوا به لفترة طويلة . ونقطة لمخولة الفرنسيين عند السلطان الجديد ، تمكنوا من أن يحلوا محلهم هناك في وقت مبكر ، في عام ١٦٦٥ . وبعد ذلك ، أفاد الاسبانيون ، في عام ١٦٧٢ ، من تشوب الاضطرابات من جديد في منطقة الريف ، لكي يضعوا أهدافهم فيها بدونهم . ودعموا إقامتهم هناك : وسيكون هناك ، ومنذ ذلك الوقت ، موقعا « برسيدورس » إسبانيا جديداً في المغرب ، هو موقع الحسيمة .

وعلى العكس من الفرنسيين ومن الانجليز ، ظل الاسبانيون والبرتغاليون يعتبرون دائماً في المغرب على أنهم أعداء . وكثيراً ما كانت العمليات العسكرية تنتشب قرب هذا الموقع أو ذاك من تلك المواقع التي كانوا قد أقاموها في القرن الماضي . بل ولقد حدث كذلك أن يمر هذا الموقع أو الموقع الآخر من سيد إلى سيد آخر ، وبشكل مؤقت : ولكننا كانت مراحل بدون أهمية كبيرة بالنسبة لتلك التي كان على المخاربة فيها أن يواجهوا غضب أكبر القوى البحرية في ذلك الوقت :

وحيثما إستعاد البرتغاليون ، في عام ١٦٤٠ ، إستقلالهم ، لم تشترك كل مراكزهم الإستراتيجية ، بكاملها ، في حركة التحرير هذه ، وكانت مراكش ، وحدها ، هي التي اعترفت مباشرة بسلطة بريجانس . ولم تعزم نتيجة لها إلا في عام ١٦٤٣ :

وذلك في الوقت الذي ظلت فيه مليحة إحدى الممتلكات الاسبانية . ثم ظهر أن أمر الإحفاظ بطئجه شديد الصعوبة بالنسبة للدولة الجديدة ، حتى أنها فكرت ، ومنذ وقت مبكر في أن تتركه . وبعد أن تم عرض الأمر على فرنسا مزوان ، ولم تنتهز الفرصة ، استأدروا بعد ذلك إلى إنجلترا . وبهذه الطريقة استخدمت طئجه مع بومباي ، كباتنة (دوة) ، للأميرة التي سوف تزوج الملك شارل الثاني . أما الانجليز ، الذين استلموها في عام ١٦٦٢ ، فانهم لم يحظوا بفترة هدوء فيها خلال الفترة التي إقربت من عشرين عاما ، والتي بقوا فيها هناك . وسرعان ما قام أحد الشيوخ القريين منها ، وأعلن الجهاد ضد ، وأصبح جنود حاميتها معرضون للووع في كائن بمجرد إبتعادهم عن أبواب المدينة . ولما رفض البرلمان الموافقة على المعونات التي كانت تسمح بتنظيم أمنها ، أصبح من الضروري حسم الموضوع في عام ١٦٨٤ ، والجهاد عن المدينة :

وفي عام ١٦٧٢ إبتدأ في مدينة مراكش ذلك الحكم الطويل ، الذي سوف يعمل ، في الخارج وفي الداخل ، على رفع هبة سلاطين المغرب . ولقد عمل المولى إسماعيل ، الذي حاصر لوى الرابع عشر . وسوف يعيش حتى عام ١٧٢٧ - على أن يتعامل مع ملك فرنسا على قدم المساواة التامة . وكان في وسع سكان باريس ، في عام ١٦٨٢ ، أن يتأملوا لأول مرة في سفارة مغربية ، جاءت لكي تجدد رسمياً معاهدة ١٦٣١ . وجاءت سفارات أخرى خلال فترة حكمه الطويلة . ولذلك فإن العلاقات الفرنسية المغربية مالت إلى أخذ مسار أكثر إنتظاما مما كان لها في الماضي . ومع ذلك فانها كانت مضطرب ، من وقت لآخر ، نتيجة لزيادة نشاط حركة الجهاد البحري . وأصبح من الضروري ، في عام ١٦٨٧ ، الالتجاء إلى مظاهرة قوة جديدة أمام سلا . ثم أظهر لوى الرابع عشر ، وبكل رغبة ، عدم رضائه عن الاشرار التي أصابت بعض الرعايا الفرنسيين : فرفض في عام ١٦٨٩

أن يقابل مندوب السلطان ، وفي اليوم التالي لصلح ويزوريك ، تم استقبال سفارة مغربية ثانية في فرساي ، أما معاهدة التجارة الجديدة والتي إقترحتها فإنها لم تنفذ . وحتى نهاية حكمه ، كانت عملية إرسال السفن الحربية أمام الموانئ المغربية أمراً تبادلياً مع عملية تبادل السفراء سلبياً .

وكانت علاقات إيهوبيا مع خارج القارة عازمة دائماً للسالة الدينية . ولقد تمحور الإمبراطور ، في عام ١٦٦٢ ، إلى المنصب الكاثوليكي . وضعت العقوس السابقة ، حتى ذلك اليوم الذي قام فيه أحد الأباطرة الجدد ، بعد عشر سنوات ، بإعادة الوضع القائم ، وطرد رجال البعثات الدينية من اللايين . وعند نهاية القرن ، بدأت مسألة المبادلات التجارية في أخذ أهمية . وتحدثوا في فرنسا عن إمكانية إقامة منشأة على سواحل البحر الأحمر . وبعد الإتصال بالعاصمة الجديدة ، غوندار ، عن طريق أحد الفرنسيين المقيمين في القاهرة ، أرسلت إلى هناك سفارة رسمية ، في عام ١٧٠٤ . وكانت برئاسة نائب القنصل الموجود في مصر . ولكنها وقعت في كمين ، عند سنار ، في الوقت الذي تركت فيه التبل ، وقتل كل أعضائها . وسيكون من نتائج هذه المأساة ، التي لم تتم عملية عقاب مرتكبيها ، وقف كل محاولة ، ولوقت طويل ، للتقريب بين إمبراطورية النجاشي وبين أوروبا .

أما عن تاريخ التوسع الإستعماري في الأراضي الأفريقية ، والذي كنا قد وقفنا فيه عند أواسط القرن ، فليس هناك الكثير الذي يمكننا إضافته ، فيما يتعلق بحصر لوى الرابع عشر .

ففي أثناء حرب هولندا ، قامت براندبورج ، تلك الدولة الصغيرة الغاية ، بالدخول بحدودها إلى الميدان الإستعماري ، أو حاولت ذلك على الأقل . وكان مثل الأقاليم المتحدة هو الذي دفع إلى ذلك الطريق المنتخب فردريك ويليام ، والذي كان قد تزوج ابنة أمور أورانج . وبعد أن إستشار الهولنديين ، أقتضى عام ١٦٧٢

شركة خليج غينيا . وتم إنشاء مركز تجارى المانى فى عام ١٦٨٢ على ساحل الذهب . ولم يقطع الهولنديون بتحمل وجوده إلا بضع سنوات : فانه تولوا عليه منذ عام ١٦٨٨ . ولقد اقتصروا بعد ذلك ، على بيع هذا اللركو ، ذلك البيع الذى سمع بتعويض الشركة .

٦ - أمريكا ، والمحيط الهادى :-

بالنسبة لأمريكا فإننا قد ذكرنا من قبل كل ما هو أساسى ، وعلى الأقل فيما يتعلق بالمناقشة بين الدول الأوروبية . وعلينا أن نتعرض الآن لذلك المورد الذى قام الامال ، من الوطنيين بلعبه ، من وقت لآخر . ولم يكن هؤلاء الامال يكتوبون دولا يمكن مقارنتها بتلك التى كانت الامم الاكثر تحضرا قد أنشأها . ولكنها كانت تتدخل فى بعض الاحيان فى الصراع ، وعلى الأقل تلك التى كانت أكثر تنظيميا من بينها : فكان هذا هو حال ايروكوا ، والتى كانت قبائلها مرتبطة مع بعضها بنوع من الروابط الإجماعية ، حتى انهم حكموا يسمونهم فى كندا ، بالامم الخمس .

وكانت قبائل ايروكوا تسكن المنطقة التى يمر فيها المجرى الاعلى لنهر سان لورنت . وكانت أقل ثقلا من غيرها — قبائل هودون وقبائل المونتكين مثلا — وكانوا يستغلون الغابات ، ويعملون بالزراعة . ومنذ إنشاء مدينة مونتريال ، وجد الفرنسيون انفسهم على اتصال بهم : فتشبهت اول حرب مع قبائل ايروكوا فى عام ١٦٤١ ، واستمرت حتى عام ١٦٦٦ . وكانت حرب كمائن ومفاجئات ، وكانت أعداد القوى فيها ضئيفة وبسيطة ، من هذا الجانب ، ومن ذاك ؛ وتميزت بمهارة فظيخ للأسرى : فكان سلخ جلد الرأس هو أقل تعذيب يزل بهم . وكانت فرنسا الجديدة تفقد فى كل عام ما يقرب من المائتين من سكانها . وكان عدد الجنود الذين يأتون من الوطن الام يزيد بشكل بده ، ولاول مرة ، وصل إلى هناك ،

في عام ١٦٦٥ ، آلاى بأكله ، وكان قد حصل على فرصة لإثبات جدارته في الحرب ، ضد الأتراك . ولذلك فإن قبائل إيروكوا تركت الحرب ، وألقت السلاح ، في السنوات التالية . ولم يعودوا للحرب من جديد إلا في أثناء حرب رابطة أوجسبورج ، أى بعد عشرين عاماً .

ولقد حاول الإنجليز ، بعد أن سيطروا على مصب نهر هدسون ، وكما كان السابقين عليهم من المولنديين قد حاولوا أن يفعلوا ، أن يكسبوا صداقة قبائل إيروكوا ، حتى يحصلوا على تسهيلات لتجارهم في الفراء ، وأدى ذلك إلى أن يقوم الفرنسيون بحركة رد فعل . وفي عام ١٦٧٠ ، جمع المراقب تالون Talon على خمسة عشر قبيلة قرب سول سان ماري ، عند تقعة إلتقاء مياه الثلاث بحيرات الكبيرة (ميتشيجان ، وسوبيريور ، وهورون) ؛ وأعلن في حضورهم إستيلاءه رسمياً على المنطقة باسم الملك . وبعد فترة ، قامت حملة إستكشافية ، بقيادة جوليت Joliet والأب ماركيت Marquette بالتحرك من بحيرة إيري ، وتبعته نهر أوهر حتى تقعة إلتقائه بنهر المسيسيبي ، وبعد ما يقبل عن عشرين عاماً ، قام إستكشف آخر ، هو كافاليه دي لاسال Cavalier de la Salle ، بالانزول في مجرى النهر الكبير ، دون أن يشهد الأمانى قلقة ، ورفع العلم الفرنسي عند مصبه ، فدخلت لوريانا في التاريخ ، في عام ١٦٨٢ .

وعلى ساحل إنجلترا الجديدة ، كانت محاولات التوغل في اتجاه الغرب تبدأ من شارلستون ، تلك المدينة التي كانت قد أنشئت حديثاً في كارولينا الجنوبية . وكانوا يتاجرون منذ سنوات مع القبائل التي كانت تسكن فيها وادي البحار ، وبخاصة مع قبائل شوروكي ، حينما سيطرت في أحد الأيام روح الثورة على الجنود البطون بدورقتهم إلى حمل السلاح ، وأخذوا من حركة وضاء خطيرة . كانت قد نشأت في دليخل المستعمرة ، وحصلوا لأنفسهم على حلفاء فيها ، ودفعوا جنود

الحكومة حتى ساحل فرجينيا ، ثم قاموا ، قبل انسحابهم ، باحراق مدينة جيمس تاون . ولن تعود العلاقات السلمية بين البيض وبين الهنود الحمر إلا بعد فترة طويلة . وفي عام ١٦٧٦ ، قام الهنود الحمر بتخريب منطقة حدود مين ، بدورها ، وكان هذا التخريب إلى درجة أن البلاد سوف تقضى ما يزيد على خمسين عاماً لكي تنهض منه .

وبدأت حرب إيروكوا الثانية في عام ١٦٨٢ ، وعند حدود كندا ، وكانها موجهة ضد الفرنسيين وعند القبائل الهندية التي كانت قد قبلت الخضوع لفرنسا ، في نفس الوقت . وأقامت حكومة لندن من ذلك ، لكي تحصل من قبائل إيروكوا على إعتاقها بسيادة ملك الإنجليز ، ويوضع أقاليمها تحت حمايته . وهذه الحرب الجديدة ، التي سهلها في أول أمرها تأييد الإنجليز ، استمرت لفترة تقرب من خمسة عشر عاماً . ونجحت في عام ١٦٨٩ بمذبحة فظيعة الفرنسيين في منطقة مونتريال . فاضطروا إلى إخلاء كل منطقة البحيرات العظمى ، النهم . وحتى موقع مونتريال نفسه ظهر في وقت معين على أنه مهدد ، وعن قرب . ولم يؤد عقد الصلح بين الفرنسيين والإنجليز ، في عام ١٦٩٧ ، إلى إلقاء قبائل إيروكوا السلاح في التو . ولم يوافقوا على إلقاء السلاح ، ودفعها ، إلا في عام ١٧٠١ . ولم يقوموا بعد ذلك بالوقوف في وجه الفرنسيين . وسبقوهم ، في أثناء سحب الوراثة الإسبانية ، بمحاولات لمساعدتهم ، وبهجمات كثيرة ومتعددة داخل الأراضي الانجليزية .

أما في بحر الأنتيل ، فإتنا وأينا ، في عصر لوى الرابع عشر ، دولة جديدة ، وهي من بين أصغر الدول ؛ تأتي بدورها لكي ترفع علمها هناك ، ففي عام ١٦٧١ ، قامت شركة الهند الغربية ، التي كان قد تم إنشاؤها في العام ١٦٠٨ ، بالاستيلاء على أكثر جزر الأنتيل الصغيرة وقرباً صوب الجنوب ، وكانت غير محظوظة

لبعض الوقت وهي جزيرة سان توماس .

أما في جويانا ، فكان الفرنسيون قد قاموا ، في وقت ريشيليو ، بمحاولات عديدة للزول إلى هناك . وكان الموقع الذي سوف تنشأ فيه مدينة كايين قد تم إحتلاله مرات عديدة . وكان كولبير قد أهتم بهذا المشروع كأساس لإنشاء مستعمرة يمكنهم أن يحصلوا منها على السكر ، وعلى النيلة ، وأخذ هذا الإحتلال شكلا مستمرا إبتداء من فترة الحكم الشخصي الذي الرابع عشر ، وسيميل عدد سكان كايين ، عند نهاية القرن ، إلى ما يقرب من خمسمائة نسمة .

أما المحيط الهادى والبحر الموجودة فيه فكان ، عند بداية القرن ، لا يزال يحتاج كله إلى أن يكتشف ، وبدأت تلك الفكرة الموروثة عن الصور القديمة ، والمتعلقة بوجود «أرض جنوبية» *terra australis* ، تحظى ببعض التأكيد في ذلك الوقت ، حيثما قام أحد الملاحين الهولنديين ، الذي أتى من الهند ، بالإقتراب من الساحل الغربى لما سوف يكون هو أستراليا ، فيما بعد . وكان آخرون قد عبروا ، في عام ١٦١٥ ، آخر نقطة أو رأس في أمريكا الجنوبية ، وهي التي سوف يترك أحدهم ، هورن *Horn* ، اسمه لها ، وإستكشفوا سواحل غينيا الجديدة ، والتي كانت قد تمت رؤيتها في أثناء القرن السادس عشر ، وكذلك جزر سالومون وجزر ماركيز . وقام أحد الهولنديين ، وهو تاسمان *Tasman* ، وبشكل من شأنه أن *Van Diemen* ، حاكم بتافيا ، بإستكشاف حدود القارة الجنوبية ، وأطلق في عام ١٦٤٢-١٦٤٣ في محاذاة السواحل الجنوبية لأستراليا ، وإكتشف نيوزيلندا : فسميت الجزيرة الكبيرة المجاورة تسمانيا ، تقليداً له . وفي قطاع آخر ، قام الإسبانيون الموجودين في الفلبين بضم أرخبيل ماريان ، في عام ١٦٦٨ ؛ وحصل على اسمه نسبة للمارنى آن من آل هابسبورج ، والتي كانت في ذلك الوقت وصية على العرش في إسبانيا .

وكان المحيط الهادى ، فى عصر لوى الرابع عشر ، وأكثر من المحيط الهندى ، ميداناً لقراصنة ، الآسيويين ومن الأوربيين . وكان القراصنة الأوربيون ، والذى تزايد عددهم نتيجة الحروب ، يتخذون غابشهم الرئيسة على ساحل شيل ، - حيث كانوا قد أقاموا من أجل مراقبة السفن الإسبانية الصمالة بالمعادن النفيسة - ، أو فى أرخبيل جالاباجوس ، فى المحيط عند خط الإستواء . وكان آخرون ، وفى نفس العمل يقلعون من سان دومينجو ، وبيرون مضيق مانهلان .

وشيئاً فشيئاً ، أخذ التجار مكان القراصنة . وكان تجار إنجلترا وهولندا قد وصلوا إلى تلك المناطق منذ وقت مبكر . أما الفرنسيين فإنهم لم يخطروا بالنزول إلى هناك إلا بعد ريوبوك . وفى سان مارو ، قام أحد رجال الأعمال الجسورين ، وهو نويل دانيكان Noal Danican ، بتأسيس شركة ديمر الجنوب ، أو شركة البحر الهادى (واستخدم الاسم الأول مع الثانى) ، وكذلك وشركة الصين ، ، على التوالي : وفتحت هذه الشركات ميداناً كبيراً ، كان تهريباً لم يكنشف بعد ، فى وجه التجارة . وكما هو الحال مع كل هذه المشروعات ، من هذا النوع ، عرفت هذه الشركات الكثير من الإنهيارات . وفى البداية ، كانت سفن الشركة الأولى لا تعتمد كثيراً على السواحل الأمريكية . ثم جاءت حرب الوراثة الإسبانية التى حملت على زيادة التقارب بين الفرنسيين والإسبانيين ، وتسببت بالتالى فى التناحى عن الميثاق الإستعماري ، والذى كان دائماً سارزى المفعول من الحاجة الرسمية . ولقد أدى ذلك إلى إقامة بعض العلاقات بين أعمال أصحاب السفن فى سان مارو ، وأعمال سفينة أكابولكو ، والى كانت قد بدأت منذ قرن قبل ذلك ، واستمرت فى أن تربط ، كل عام ، بين جزر الفلبين وبين ساحل كاليفورنيا . وأظهر الإنجليز وشبعتهم فى الإعتداء على هذه الحركة ، فكلفوا السفن الحربية بحراسة السفن التجارية . وفى أثناء ذلك الوقت ، كان على لوى الرابع عشر أن

يرواجه مطالب التجار الإسبانين ، الذين أضرخوا في مصالحهم ، ويواجه بالتالى
شكاوى سفيدته . ولذلك فإنهم بدأوا فى فرض الضرائب والرسوم على الحركة
الفرنسية . ثم طالت هذه الصعوبات إلى الظهور من جديد ، فى عام ١٧٠٩ ، وحين
قنع الملك بالألا يربط بعد ذلك بين مصالحه وبين مصالح فيليب الخامس . وبدأت
فى شهر يناير ١٧١٢ مفاوضات الصلح : فكانت الحرب تقترب من نهايتها .
ولقد إضطر لوى الرابع عشر ، ونتيجة لطلب الخصم ، إلى أن يمنع كل ملاحه فى
بحر الجنوب ، وأخيراً ، وفى أوترخت ، حصلت إسبانيا على عودة ميزانها
التقليدية لها فى شئون التجارة مع الهند .

الْبَيْتُ الْخَامِسُ
القرن الثامن عشر

الفصل الثالث والعشرون

نهاية العصور الحديثة

لإن الفترة الجديدة التي نعطيها اسم القرن - وبدون دقة كبيرة ما دام قد نقصت إلى ثلاثة أرباع القرن - لم تظهر ، ومثلها في ذلك مثل غيرها ، من أولها على أنها تمثل تمهلاً واضحاً عن الماضي ، وإذا كان في وسعنا أن نعتبرها ، بدورها ، على أنها متميزة بشكل واضح ، فإن ذلك يرجع بنوع خاص إلى أنها تلتقي عندما تبدأ التغيرات الكبرى التي أعلنها عام ١٧٨٩ : ولذلك فن الواجب ألا يعبر « العهد القديم » *Ancient Régime* عن مجرد حالة الأوضاع المتعلقة بالتنظيم الداخلي للدول .

١ - انحطاط القرصنة :

كان علينا أن نلاحظ ، منذ قليل أواسط القرن ، مؤشرات تدل على تطورات تبشر بنهاية عمليات القرصنة ، والتي كانت قد استمرت في الحياة منذ عصور البرابرة ، على بحار نصف الكرة الغربية . وعلينا أن ننتظر بعد ذلك عدداً كبيراً من السفن ، حتى نرى إختفائها من على سطح الكرة الأرضية . ولكنه كانت في وسعنا ، على الأقل ، أن نتبأ بالوقت الذي تتحرر فيه منها مناطق مياه المحيط الأطلسي والبحر المتوسط ، وبشكل تام . وسيكون من غير الحكمة أن نربط في ذلك إنتصار الحق على القوة . وسيكون من الأفضل أن نربط ذلك بالتقدم الذي قامت به الأمم المتحضرة في ميدان الإنشاءات وتسلح السفن . وكان نوع من السفن الخفيفة قد إنتشر - إن لم يكن قد أنشئ - في أثناء القرن السابق ، وهو الفرقاطة *Frigate* ، وهي التي زادت أبعادها وقوتها ، دون أن تفقد مميزات النهر والناوذة . وكانت أكثر سرعة من السفن الحزبية ، فأصبحت أفضل وسيلة

لتنقيب السفن الأخرى ، وصيدها ، وفي عملية السباق البحري .

وكانت القرصنة ، وخلقيتها عملية السباق البحري ، قد عاشت أوجها في القرن السابع عشر ، نتيجة لحروب صمر لوى الرابع عشر . وكان ميدانها المختار ، في تلك الفترة ، هى بحر الأنفيل ، مركز القرصنة « أصحاب السفن الأحرار » ، *Piraterie* . وكان الإنجليز ، فى صمر كرومويل ، قد إستولوا على جمايكا ، ثم إحتلوا شيئاً فشيئاً ، المكان الأول بين هؤلاء القرصنة فى بحر الأنفيل . وتبعوا الهولنديين ، والذين كانوا يسملون إبتداء من كوراكو ، وقاموا بالهجوم ، ثم كذلك ، على نواصى إسبانيا الجديدة . وقام الفرنسيون ، من سان دومينغو ، بتقليدهم ، وإستمرروا فى ذلك حتى اليوم الذى تول فيه حفيد لوى الرابع عشر عرش إسبانيا . وكانت إحدى المراحل الأكثر وضوحاً بالنسبة للقرصنة فى بحر الأنفيل تتمثل ، فى عام ١٦٨٦ ، فى الإستيلاء على كامبش ، فى يوكاتان ، بواسطة أحد المغامرين ، والذى كان من قبل ذلك قد إشتهر إسمه بعبداً على مياه المحيط . أما أولئك الذين جلدوا بعده فى وكره الجديد ، فإنهم لم يخرجوا منه إلا فى عام ١٧١٧ .

وحين أصبح الفرنسيون والإنجليز حلفاء بعد أوترخت ، قاموا سوياً بعمليات جعلت حياة القرصنة أكثر صعوبة . وبعد أن إستقر الأمن فى المياه الأمريكية ، إمتد هذا الأمن سريعاً إلى منطقة المحيط الأطلسى بأكملها . وفى فرنسا ، إستمرت المرسومات توجه السفن التجارية إلى ضرورة حمل مدافع ؛ ولكن أولئك الذين كانوا لا يعتمدون كثيراً على المناطق التى تكثر فيها الحركة إكتفوا منذ ذلك الوقت بوضع مدافع خشبية على سفنهم . وفى باريس ، ومثلها فى ذلك مثل لندن ، كان نقص نسبة التأمين يفل على تناقص الخطر الذى كان يهدد التجارة البحرية . وشيء أكثر دلالة من ذلك : فقد أنشوا ، من جانب

إسبانيا ، في عام ١٧٣٥ ، ممارسة ذلك التقليد الخاص ، بالقوافل البحرية ، من أجل حماية الأساطيل التي كانت تقوم بالحركة مع جزر الهند الغربية . وأصبح في وسع الغلايين (جمع غليون) منذ ذلك الوقت أن تفلح في الوقت الذي تختاره لنفسها : وكان معنى ذلك ، وبوضوح ، أنها لم تعد مهددة بنفس الأخطار التي كانت تتعرض لها من قبل . ومن ناحية أخرى نجد أن كلمة « غليون » ، التقليدية سوف تختفي . وسوف يطلقون ببساطة إسم « سفينة السجل » ، على كل سفينة تعمل في نقل المعادن النفيسة على طول الطريق العادي صوب المحيط الهادئ ، وهو الطريق الذي كان يلف حول رأس هورن .

وتحرر البحر المتوسط بسرعة أقل من المحيط الأطلسي . وإستمر الجزء الأول من القرن يدور بإتصارات القراصنة المتغاربة . ولكنهم إجمروا على التوقف أثناء السنوات التي ، بعد عام ١٧١٥ ، إرتبط فيها الفرنسيون والإنجليز بشتات . ولكن الصراع مال صوب عدم التكافؤ بالنسبة لسفنهم من نوع الجاليفر (Galley) ، وهي السفن التي لم تتغير صفاتها ، في الوقت الذي إستمر فيه النهم في تحسين نوعية سفنه وقوتها . وفي مدينة الجزائر ، إنخفض عدد رؤساء البحر ، في أقل من قرن ، من بضع مئات إلى ثمانين . أما الأمرى المكلفين بالتجديف ، والذين وصل عددهم هناك في بعض الأوقات إلى ٣٠.٠٠٠ عبد ، فلم يصل عددهم في عام ١٧٣٥ إلا ثلاثة أو أربعة آلاف . وفي المغرب ، إضطر قراصنة سلا ، وهم الذين كانوا أكثر خطراً من الجميع ، التي تحمل حنظل سلطان عسيط ، كان يرغب في الحصول على ود الدول الأجنبية ؛ فتحلوا في سنوات ١٧٧٠ عن طريقة حياتهم ومن مهتهم التي كانت تدر عليهم أرباحاً طائلة . وفي عصر الثورة ، لم يعد ذلك الفوج الذين كانوا يفترونه في المناطق القريبة من مضائق جبل طارق إلا من الذكريات السيئة . أما زعماءهم الذين كانوا يمشون في موانئ الجزائر ، فاتهم

أن يضعوا السلاح بشكل نهائي إلا بعد عام ١٨٢٠ ، وحين يجبرهم الفرنسيون على ذلك .

وتبقى عمليات القرصنة المسيحية ، وهي التي كان يقوم بها فرسان مالطة ، والذين انضم إليهم بعض المغامرين من الجزيرة . ولقد عاشت عصر ازدهارها في نفس الوقت الذي ضعفت فيه القرصنة التي كان للسلبون يقومون بها منذ وقت طويل . فلم نشاهد أبداً حتى ذلك الوقت سوقاً للمبيد في لافاليتا على هذه الدرجة من الإمتلاء والتنوع ؛ فكان يوجد فيه ، في بعض الأوقات ، ما يقرب من عشرة آلاف رجل ، وهم من المسلمين ، هذه المرة ، بطليمة الحال . ولكن عدم الجدوى المالية لعمليات القرصنة ، في بحر أصبح الآن وقد تمت تهدئته تقريباً ، أدت عند منتصف القرن ، إلى بطل هذه العمليات ، ثم إنباءها النهائي . وتحوّلت مالطة إلى مركز تجاري دولي كبير ، وجاء رجال الأعمال من كل الدول للإقامة فيها . وسكانت فرنسا ، الحامية التقليدية لفرسان مالطة ، هي المستفيدة هناك ، بمدد رعاياها ، على غيرها من الدول .

٢ - التلهم البطي في القانون الدولي :

قبل أن تترك ميدان الشؤون البحرية ، علينا أن نذكر أن الخلافات بين الدول بشأن حق « التحيّة الأولى » كانت قد انتهت . فكان لوى الرابع عشر قد أوصى قادة الأسطول ، في الجزء الآخر من فترة حكمه ، بتعاشي أي مناسبة للخلاف بهذا الشأن . وهكذا هدأت مسألة « الكرامة » شيئاً فشيئاً ، ولم تعد هذه المسألة الظهور ، بعد عام ١٧١٥ .

وفي نظرية القانون الدولي ، وفي تطبيقه ، انتصرت أخيراً فكرة البحر الإقليمي ، أو « المياه الإقليمية » . فأصبحوا يقبلون الآن ، وفي جميع أنحاء العالم ، أن قوة الدولة المطلّة على البحر تمتد على كل الشريط الساحلي الذي تنطيه المدافع .

وكان المدى الأقصى للمدافع ، في هذا الوقت ، لا يصل حتى إلى ثمانمائة متر .
وكان هناك كذلك بعض التخفيف فيما يتعلق بمبدأ حرية البحار ، والذي كان
الإنجليز قد حاولوا من قبل ، وبلا جدوى ، أن يرفضوه ، وفيما يتعلق بتخلفاتهم
مع الهولنديين . وكتب أحد كبار فقهاء القانون ، فانتيل Vattel ، والذي كان
من يوشاتل ، في عام ١٧٥٨ ، وفي كتابه عن القانون الدولى : « إن الأمة
التي ترغب في أن تنزع لنفسها الحق الكامل على البحر ، وتدعم ذلك بالقوة ،
تهين كل الأمم » . ولم يتم أحد بمناقضته بشأن هذه النقطة .

وبعد قليل ، طرح مارتين هوبز Martin Hubner ، الدانمركى ، على الرأى
العام مسألة الحقوق التي يرى المحايدين أن من حقهم المطالبة بها ، في وقت
الحرب ، وفي مواجهه تلك المعترف بها للدول المتحاربة . وبعد ذلك ، إلتحق
السويديون مع الروس على ضرورة إلتصاف رغبتهم في أن تظل مياه بحر البلطيق
بعيدة عن العمليات العدوانية التي كانت تلهم أوروبا الوسطى . وأخيراً ، سئى
فى عام ١٧٨٠ ، ظهور ظروف مشابهة ، وكرد فعل على مساوية تهادى قوة
بريطانيا ، وبدافع من روسيا ، وذلك الخط الشهيد « بالحياد المسلح » . وسوف
نتحدث عنه بشكل أطول في الوقت المناسب .

أما عن حقوق وواجبات الأقاليم المستعمرة ، في حالة وقوع صدام مسلح
بين الأوطان الأم ، فإن عدم التأكد الذى ساد منذ بداية العصر الاستعماري قد
إنتهى . فلم يعد من القبول تحمل عدم مشاركة ملحقاته الجيدة فى تلك
الخصومات التي كانت تنشأ بين الدول العظمى . ومنذ الوقت الذى نتلوا فيه
عن نظام الإدارة عن طريق الشركات التجارية ، أى منذ النصف الثانى من القرن
السابع عشر ، تم طرح المسألة . وكانت قد تفرقت بأشكال مختلفة ، وفي علاقة
مع الظروف المحلية . وفي القرن الثامن عشر ، أصبح على المعمرين ، مما كانوا ،
أن يتحملوا كل النتائج التي تنجم عن حالة الحرب .

أما فكرة الحياد نفسها ، فإنها ظلت ، وكما كانت عليه في الماضي ، غائبة : ففي عام ١٦٧٣ ، وفي بداية حرب هولندا ، رأينا أن أحد حكام الأراضي المنخفضة يتردد محاولة من جانب الهولنديين ضد شارلوا ، وذلك قبل أن يصبح سيده ، وهو ملك إسبانيا ، في حالة حرب مع فرنسا ، وذلك في الوقت الذي قام فيه تورين Turenne ، من جانبه ، بدفع قوات الإمبراطورية وقسوات براندنبورج في وستفاليا ، وذلك ستة أشهر قبل أن يقر الإمبراطور والمنتخب أمر إعلان حالة الحرب . وقرب ذلك الوقت ، نوات ضربات قوية على نظرية « العبور بدون ضم » ، وذلك عن طريق يفتندورف Pufendorf فقيه القانون الألماني ، والذي تعتبر كتاباته مرجعاً في هذا الموضوع . ويتر ذلك بقرب نهاية تلك الحالة ، التي كانت قد طرحت نفسها مرات عديدة . ومع ذلك فإن الساسة سوف يستمرون في الإشارة والإستناد إلى تلك النظرية المتروكة كما وجدوا لأنفسهم ميزة في ذلك : مثل لوى الخامس عشر حين أرسل ، في عام ١٧٤١ جيده إلى بفاريا ، أو مثل ماريا تريزا النمساوية حين كانت تنتظر ، في عام ١٧٤٧ وصول القوات التي كانت إليزابيت ، قيصرية روسيا ، قد وعدت بإرسالها إليها . ومع ذلك ، ففي نفس هذا الوقت ، نجد أن أبناء جنوا ينادون عالياً بضرورة إحترام أراضيهم ، من جانب الدول المتحاربة ، ما داموا قد حرصوا على إعلان سيادتهم . وبعد وقت قليل ، نجح فانييل في إقامة حصانة للأقاليم والأراضي المحايدة ، كبداية مطلق ، كبداية لا يجرؤ أحد على مناقشته . أما مبدأ « العبور » للبرء ، فهو حق لكل الأمم التي تحتفظ معها بعلاقات سلمية . ولكنه كان على سادة الأقاليم المستفيدة أخذ موقف ، وأن تقرر ، بعد هذه التجربة ، ما إذا لم يكن العبور قد تصحبه نتائج مضرة .

أما في قطاع العلاقات التجارية فقد بدأ مبدأ « المشاركة » في الإنشار ، وهو

الأمر الذي سوف يتطور شيئاً فشيئاً إلى قرب هذا الذي نسميه في الوقت المعاصر :
 و شرط الأمة الأكثر رداً ، . و ترجع أصوله إلى القرن السابع . وفي إسبانيا ،
 بنوع خاص ، كان الهولنديون قد حصلوا ، في عام ١٦٠٩ ، ثم في عام ١٦٤٨ ،
 على كل الميزات السابقة التي كان قد تم الاعتراف بها للإنجليز . ويمكن الفرنسيون
 من أن يحصلوا على منحهم إياها ، بدورهم ، في عام ١٦٥٩ . وهذه المشاركة مع
 الأمم الأكثر امتيازاً ظهرت في الشرق في معاهدة الإمتيازات الأجنبية ، التي منحت
 لفرنسا في عام ١٧٤٠ . ثم حصلت روسيا على ميزاتهما في معاهدة كوجك
 قينا ودجى : وبهذه المناسبة ، تحدث الأتراك عن فرنسا وعن إنجلترا بسميتهما
 وبالأمم الأكثر صداقة . وهكذا وصل هذا التطور إلى نهايته قبل العصر الثوري
 بوقت كبير .

٢ - زيادة تعقد الشؤون الأوروبية :

وفي أوروبا ، يميز هذا القرن بنوع خاص : زيادة التداخل بين مصالح وطموحات
 الدول . وقد التزم التاريخ الكثير من بساطته ، وفي الماضي ، كانت بعض السياسات التي
 تميل إلى السيطرة العامة ، مثل سياسة فيليب الثاني ، مثلاً ، لها من قبل صفة شبه
 أوروبية : فكان هـ الملك الكاثوليكي ، يهتم عن قرب بما كان يحدث على سواحل
 بحر البلطيق ، وبدرجة لا تقل عن إهتمامه بهذا البحر الذي كان نصف إسباني ،
 والذي كان هو البحر المتوسط . وفي أثناء القرن السابع عشر . بحثت السياسة
 الفرنسية ، من جانبها ، وحاولت أن تستخدم ، ضد الأسرة الحاكمة في النمسا ،
 ثلاث دول صديقة - تركيا ، والسويد ، وبولندا - والتي قام معها بعض
 الرجال من أصحاب التنظيم ببناء ما سموه د حاجر الشمال ، في فرساي . ومع ذلك
 فقد حدثت انفصالات مختلفة بين هذه المجموعة الأوروبية . فلقد استمرت حرب الشمال ،
 وحرب كنديا ، في توازي ، وبطريقة تلقائية ، دون أن يكون علينا أن نشير إلى أصغر

علاقة بين هذين المرحلين العمليات الحربية ، الأول على إفضال يبحر البلطيق ،
والثاني على إفضال بالبحر المتوسط ، ويفصل بينهما كل سمك البلاد الجرمانية .
وبعد ذلك ، سوف يتغير الحال . فسوف تميل كل الدول العظمى إلى الإهتمام
بمسا كل الدول ، مما كان موقفا ، وحتى إذا ما كان بعدها لا يسمح لهم بالمشاركة
بطريق مباشر في أمر تسويتها . وفي النصف الأول من القرن السابع عشر ، كانت
حرب الثلاثين عاماً ، في أصولها ، أزمة ألمانية ، ولم توجد تطوراتها وتنتشر خارج
إطار أوروبا الوسطى . وبعد مائة عام من ذلك . لن تبقى أية دولة عظمى ، لا إنجلترا
ولا روسيا ، خالية عن الصدامات الجديدة التي سوف تثيرها رغبة بروسيا في
القوة ، في ألمانيا . ومادامت الأقاليم الإستعمارية لن تكون بعيدة بطريقة تلقائية ،
فإن هذه الأزمات الكبرى سوف تأخذ صفة ، ليست فقط أوروبية ، ولكنها
بالفعل شبه عالمية . الأمر الذي يؤدي إلى زيادة تعقيد التاريخ الدبلوماسي والتاريخ
العسكري .

وكان مجموع المحيطات والأراضي الواقعة فيها لا يزال لا يعطى مثلاً كبيراً
وبطريقة ملموسة على مصائر العالم القديم . فعلى الرغم من عظم حركة التوسع
التجاري والبحري التي ميزت القرن السابع عشر ، ظلت المصالح القارية هي التي
تتحكم في سياسة الدول الرئيسية . كما أن أوروبا إحتفظت ، بالنسبة للتاريخ العالمي ،
بدورها الذي كان لها ، وهو الدور المسهر . ومن جانب آخر نجد أن فكرة أوروبا
قد أصبحت لها قيمة جديدة . ففي ذلك الوقت ، لم تستخدم كثيراً إلا كجديل
خارجي لفكرة للسياسة ، حينما كان الأمر يتعلق ، في بعض الأوقات ، بالصراع
المبدول ضد الإسلام . أما الآن ، فإنها عالت إلى أن تنافس ، أو أن تأخذ مكانه .
وكان نمو روسيا الأخير هو الذي يتحكم في هذا التطور . وبعد أن ظلت لفترة
طويلة على هامش أوروبا ، دخلت بقدرة ثابتة في نطاق أسرة الدول العظمى . وإن

تأخر كثيرا عن أن تجعلهم يشعرون بتفوقها وسيطرتها في كل اتساع شرق أوروبا
وبنها كانت تصل ، من ناحية ، إلى بحر البلطيق ، كانت تستعد ، من الناحية
الأخرى ، للخروج إلى البحر المتوسط . ولذلك فإنها وجدت نفسها ذات مصلحة
في كل المسائل تقريبا التي كان في وسعها أن تشغل السفارات . وسرعان ما تصبح
دبلوماسيتها ، هي أيضا ، موجودة في كل مكان .

ولم يمتد لينينز Libnitz ، في مؤلفاته السياسية الأولى ، في عام ١٦٦٨ ،
عن الإيديولوجية التقليدية ، حين نسب إلى يولندا دور الأسوار التي تحمي العالم
المسيحي من الأتراك ومن الروس ، وتحدث عن رسالة النسا ، الأوروبية ، في
الشرق . وفي أثناء السنوات الأخيرة من حياته - توفي في عام ١٧١٦ - وصل تفكيره
إلى تطور واضح . وكان قد رأى بطرس الأكبر ، ومحادث معه ، وشعر بإعجاب
شديد بهذا القيصر الذي قام بعملية « عوالبورية » من أمته . وهكذا نراه وقد
قام ؛ الآن ، بإدخال روسيا في نطاق العالم الغربي . وكان مستعدا لكي يضعها في
أوروبا التي كان يفتأ بها ، والتي كان يبنيا في تفكيره ، لكي تستخدم كأساس لنظام
عالمي جديد - أوروبا مسيحية ، بطبيعة الحال ، تأخذ مكان العالم المسيحي للمفكك .
وهكذا تطورت الفكرة . ولم تكن معدة ومعروفة بخطوط جغرافية ؛ فأصبحت
أوروبا مجموعة وراثة سياسية وثقافية في نفس الوقت . ويبدو أن أحد القرنين ،
وموآبي سان - Pierre ، كان عند أصل تلك الحركة
الفكرية ، والتي كانت في أولها ، وحاولت تنظيم اتحادية من الدول الأوروبية .
واقترح ، في عام ١٧١٣ ، « اتحاد دائم لأوروبا كلها » ، و « جمعية دائمة من كل
أصحاب السيادة المسيحية » . وكان عمله امتدادا لذلك العمل الذي كان إمبرك
كروتش Roderic Cruces قد أصلاه منذ ما يقرب من قرن مضى . والذي كان
يفكر في نظام « ملحق بنوع من « عصبة الأمم » ، أو « جمعية الأمم » ، كنوع

من الاتحاديات للدول الأوربية ، والتي كان فيها مكاناً محجوزاً حتى للدولة العثمانية
ولسوف يشير جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau إلى نوع من
آراء آفي سان بيرد . وفي عام ١٧٢٦ ، وفي مشروع السلام الدائم لآفي سان
بيرد ، سوف يدافع بدوره عن فكرة « جمعية شعوب أوروبا » .

٤ - النمسا ، ماضيها ومستقبلها :

وهكذا كانت أوروبا ، بالمعنى الذي نفهمه اليوم ، تأمل في أن تولد . وعلينا
أن نفرد مكاناً خاصاً ، من بين الدول التي كان في وسعها أن تشرف عليها ، النمسا
وكانت أسيرة هابسبورج في حيناً قد نصحت في إبطال نتائج الأزمات التي مرت بها
هذه الأسرة في أثناء القرنين الأخيرين . ويتدهيمهم أنفسهم داخل نطاق دولهم
الموروثة ، كانوا قد عادوا إلى درجة ما عملية تقليل السلطة الإمبراطورية في
ألمانيا : فحلوا التاج المنتخب لبوهيميا بعد ثورة عام ١٦٢٠ إلى تاج وراثي ؛
وخضع تاج المجر لنفس المصير في عام ١٦٨٧ ، بعد فترة اضطرابات ثورية
طويلة . ثم استعادوا ، في معاهدات ١٧١٥ ، كل الأراضي التي كانوا قد تخلفوا
عنها لإسبانيا وقت تنحي شارل الخامس ، وهي الأراضي المنخفضة ، وإقليم ميلانو
ومملكة نابولي . وبعملية واحدة استعادوا إذن مواقع أقدامهم على سواحل المانش
وعلى الناحية الأخرى للآلب ، في نفس الوقت . وأصبح وضعهم ، كدولة عظمى ،
بلا منافس . وأصبحوا سادة للمناطق التي كانت فرنسا تطمح فيها ومنذ أطول
وقت في أثناء القرون السابقة . وكان في وسعهم أن يواجهوا إنجلترا ، وأن
يكون لهم وزنهم بالنسبة لمصائر عالم البحر المتوسط .

وإذا كان على أوروبا أن تختار ، لوجدت حاصمة متنازة لها في قيتا ، والتي
كانت مركزاً مختلطاً بأجلى المعاني ، وعلى آخر صعبة . وحسب شهادة الأمير دي
ليني de Ligne ، البلجيكي ، الذي إختار ، عند منتصف القرن ، بلاد حكام

الإمبراطورية لكي يخدم فيها، لم يكن الجيش الذي يخدم فيه نمسواً إلا من حيث الاسم فكان الجنود يأتون من كل أنحاء المملكة؛ وكان الضباط على درجة أقوى من الاختلاف، وبشكل يشبه الدمعة: فكان الثلثان من الإيطاليين، وأبناء اللورين، والأيرلنديين، والفرنسيين، والفاون، والإسبان.

وبالنسبة للنمسا، كانت مأساة الفترة السابقة لمباشرة القرن الثامن عشر — وبالإجمال هي فترة حكم ليوبولد (١٦٥٨ — ١٧٠٥) —، تتمثل في أنها قد تركت، وعلى حساب مشاعر التضامن الجرمانى، الميل صوب الجنوب يسود، وبخاصة صوب إيطاليا البابوية وإسبانية آل مابسبورج: الأمر الذى لم يكن في وسعة أن يسهم في عزة الانتصارات الأولى، بعد عام ١٦٨٣، في الصراع ضد الأتراك. وفي أثناء هذه الممارك الجديدة من أجل العقيدة، وجدت الأمة ما يكفي لإرضاء قلبها وخيالها: وشعرت أن هذا كان بالتحديد هو ميلها. ولذلك فإنه لن تكون هناك أوروبا ديمسوية، يمكنها أن تمسك الميزان بين الشرق والغرب، ويمكن حكماً في خصوماتها الممكنة. ومن الممكن التأسف على ذلك، في ضوء الأحداث التالية. وكان في وسع هذه الأمة المبهرة، والمتأثرة بمظاهر الثقافة الإيطالية، أن تضحى على المستقبل ألواناً أقل قتامة، وتعطيه وجهاً أقل صرامة، عن هذه الدولة الأخرى المجاورة، والتي سوف تعطل سريعاً إلى أن تمنى جبهتها أمامها.

وفي خلال الدولة النمساوية، كانت ساكس، في نفس الوقت الذى تحتفظ فيه معها بعلاقات وثيقة في ميدانى السياسة والثقافة، تعلم كذلك بالقيام بلعب دور أكبر. وكان ملوكها، وبعد أن كانوا أثناء أجيال من الاوقات والمنتخبين، مثل آل هوهنولون جهرائهم، قد حصلوا على تاج ملكى، هو تاج بولندا: فأخذوا، منذ عام ١٦٩٧، يصحكون في وارسو وفي دوسدن في نفس الوقت. وأسهموا في هزيم الوفاق، وشد أواصره بين البولنديين وبين النمساويين.

ولقد حصلت النمسا وجيرانها الأكثر قربا على مزايا من نوع مختلف تماما في أثناء القرن الثامن عشر ، ولكنها كانت من الممكن أن تبدو من بعيد على أنها تؤكد مواهبها — وهي مواهب لم تكتمل — لكي تصبح مركزا للجمع في وسط أوروبا المتقسمة على نفسها كل الانقسام . وعلينا أن نذكر المكانة الكبيرة التي كانت تحتلها في تاريخ الموسيقى ، ذلك الفن الدول للنهاية ، والأداة المتميزة للتقريب بين النخبة . وكانت المدرسة النمساوية ، ومدرسة سكسونيا ، والمدرسة التشيكية ، كلها إزدهارا لفكر سائى موهوب ، يثق العالم بأنغامه ، وتنتشر المنجزات على العالم . ومن بين ذلك العدد الكبير من المؤلفين المشهورين الذى شاهد العالم صعودهم في هذا المركز المتوسط من أوروبا ، تتمركز أنظار الخلف بنوع خاص على حلاقين ، لم يكف لإسمها عن أن يفرض نفسه على كل بلاد العالم المتحضر : جان سباستيان باخ Jean Sebastian Bach الذى قضى الجزء الأكبر من حياته في ليبزيغ ، وفي الجيل التالى ، موزارت Mozart ، الذى ولد في سالزبورج ، وعمل لمدة سنوات في فيينا ، حيث توفى وهو لا يزال في عز شبابه ، وله من العمر خمسة وثلاثين عاما ، في عام ١٧٩١ -

ورغم أهمية الدور الذى وصلت إليه ، أو عادت إليه ، الملكية النمساوية ، فإن أحدا لم يحاول أبدا أن يتحدث عن السيطرة النمساوية . ولأول مرة منذ بدء بدء العصر الحديث ، خبرت أوروبا نظاما يعتمد من الناحية العملية عن سيطرة دولة واحدة بينها ، نظاما للمساواة بين الدول الأكبر ، وبالتالى ، توازنا ، إذا ما أردنا ذلك . ولقد تمت مناقشة فكرة التوازن ، والتي ذكرنا أصولها ، ولفترة طويلة . واحتاج الأمر إلى وقت حتى تتمكن من أن تفرض نفسها . وفي الوقت الذى مارست فيه فرنسا السيطرة ، لم توافق على أن يتحدث أحد عن ذلك ، كما رأينا ، إلا في حالة حاجة ، مثل حالة بحر البلطيق . وإذا ما إدعوا مد تطبيق

ذلك على أوروبا كلها ، فانها لم تكن ترضى ذلك إلا سلاحا موجها ضد زياتة قوتها
نفسها . ولذلك فإن خصومها لم يطالبوا به بصراحة ، إلا حينما اعتقدوا أنها قد
انحدت إلى أسفل ، أو كانت قريبة من ذلك : فتمت معاهدات الصلح في عام
١٧٠٦ تحت شعار التوازن الأوروبي . ثم جاءت معاهدات أوترخت لكي تنهج
إلى ذلك صراحة .

ولذلك فإن الفرنسيين لا ينسبون أن مبدأ التوازن قد إنتصر على حطام قوة
لوى الرابع عشر . وأظهروا مزيداً من المعارضة تجاهه ، وطوال القرن الثامن
عشر ، خاصة وأن جهاتهم الانجليز كانوا متشبهين به تشبهاً خاصاً . وهناك
نصوص كثيرة تشتمل على أدلة على ذلك . ولنتكفي هنا بأن نذكر هذا الاتهام ،
والذى كتبه أحد وزراء لوى الخامس عشر ، ووجه في عام ١٧٦٨ إلى مثل الملك
في هولندا : « منذ سيمين عاما ، حمل بلاط لندن بلا إقطاع لكى تهب كل الدول
ضد فرنسا ، وذلك تحت شعار مزيف بأن هذا التاج كان يرغب فى القضاء على
حرية أوروبا ، وفى تحطيم توازن القوى ، وفى الوصول إلى المملكة العالمية . وبمكتنا
الآن ، وعلى أسس أقوى أن نشهد ، وبفرض الدوافع ، حقد وخوف كل الأمم
ضد الانجليز . وبتظاهروهم بالرغبة فى الدفاع عن التوازن على البحر ، والذى لم
يكن هناك من يهدده ، قضوا نهائيا على التوازن على البحر ، والذى لم يكن هناك
من يهدده ، قضوا نهائيا على التوازن على البحر ، والذى لم يكن هناك من
يدافع عنه . » وبغض النظر عن الهجة العاطفية التى إستخدمها الكاتب فى هذه
الوثيقة ، فإنه من الصعب طرح هذه المسألة بطريقة أفضل . فلقد أصبحت سيطرة
الانجليز ، على البحار ، أمرا لا يقبل الجدل . أما الدول الصغرى ، والذى كان الحظ
خير العادى قد رفها فى أثناء القرن السابق إلى مصاف الدول البحرية الكبرى
— مثل البرنمال وهولندا — فانها عادت إلى مكان التابع الذى يتناسب مع أهميتها
الفعلية ، عدا أصبحت الآن دولا تابعة ، أو تدور فى ظلك الدول البريطانية .

٥ - إنجلترا سيدة البحار ، والذهب الانجليزي :

لقد أصبحت إنجلترا ، وهي الدولة البحرية الأولى ، هي كذلك أولى الدول الاستعمارية . ورجع ذلك إلى مداومتها بذل جهودات لم يقدر أى من منافسيها على مجاراتها فيها . ولقد استخلص سيل Seeley ، أحد المؤرخين المتنازين للامبراطورية البريطانية ، ذلك الدرس الذى أعطاه التاريخ الاستعماري لأوروبا ، في بعض كلمات : « من بين الدول الخمس التى كانت تتنافس على العالم الجديد ، توج للتجاح جهودات تلك التى لم تكن منذ أول الأمر قد أظهرت إستعدادا كبيرا للاستعمار ، ولا تفوقت على الآخرين في العزاة ، وفي الاختراع أو حتى في الطاقة ، ولكن تلك التى كانت أقلها في ترك نفسها بتقييد بمشكلات العالم القديم » .

ومع ذلك فإن التفوق الثابت لإنجلترا في شئون الملاحة البعيدة والاستعمار لا يسمح لنا بأن نتحدث — وكما عملنا دائما — عن السيطرة البريطانية . ذلك أن دولة إنجلترا لم يكن لديها أبدا على البر تلك الطاقة العسكرية التى يمكن مقارنتها بطاقة فرنسا في عصر لوى الرابع عشر ، ولا حتى بتلك التى كانت للسويد في عصر جوستاف أدولف ، أو حتى في عصر شارل الثاني عشر . ومع ذلك فغالباً ما كانه شئون القارة يقرر مصيرها على البر وليس على البحر .

وفي أثناء القرن التاسع عشر ، وفي قرن القوميات ، سوف يفضلون مطالب ملكية آل هابسبورج : أجزائها المختلفة البعيدة العناية عن المركز ، وشموها القريبة كل منها عن الأخرى في اللغة والأصل العرقى . وسوف يشخصون حتمية تفككها على المدى القريب أو البعيد . أما رجال القرن الثامن عشر ، فإنهم كانوا يتأثرون بأسباب الضعف التى ظهرت لهم في بتيان إنجلترا : ففى مواجهة الدول العسكرية ، التى تسيطر عليها نظم مطلقة ، كانت المؤسسات الانيطيرية ، والمهنية

بالانجاء الليبرالي ، تعتبر لدى بعض الأوساط التي تحاول أن تفكر ، على أنها تسير بالعودة ، في يوم من الأيام ، صوب الحضيض .

وفي المجموع إذن ، لم تكن هناك دولة مهيمنة . فليكن هناك سوى مرشحين للسيطرة . ففي الغرب ، كانت فرنسا وإنجلترا يمثلان ، في أول الأمر ، وفي أثناء ربع قرن ، جبهة واحدة ووحيدة تواجه غليان القارة ، ثم عادتا إلى معادتهما الواحدة للأخرى من جديد . وفي الشرق ، إحتلت روسيا ذلك المكان الذي كانت السويد تحتفظ به من قبل . وفي الوسط ، كانت النمسا أكثر أهمية ، عنها كدولة يخشى جانبها ؛ وسوف يتصرفون بذلك سريما .

وسوف تحاول دولة أخرى ، كانت حتى ذلك الوقت تحتل المرتبة الثانية ، أن تفيد من الظروف من أجل أن تثبت ليجرائها أنه عليهم أن يحسبوا ، منذ ذلك الوقت ، حسابا لها . وسوف ترتفع في خلال بضعة سنوات إلى المرتبة الأولى : وستبدل التوقعات ، وتقضى على كثير من العلوم . وكان لإزدهار بروسيا هو أهم أحداث القرن بالنسبة للتاريخ الدول لأوروبا . وستكون نتائجه طويلا الأمد ، ما دامت ستستمر بعد قرنين من ذلك .

أما إنجلترا ، وحتى رغم أنها لم تكن قد إحتلت بعد المكانة الأولى إلا على البحر ، فإنها كانت دولة تستمر في الارتفاع . ويمكن لهذا القرن أن يبدو لنا ، من بعيد ، على أنه خاضع لمنافسة ، خفية في بعض الأوقات ومعلنة في غيرها ، بين فرنسا التي كانت تمارس التفوق في الماضي ، وبين إنجلترا التي كانت تستعد لكي تمارس ذلك بدورها ، في القرن التالي . ولكن المعاصرين يرون ذلك بشكل آخر . ذلك أن فردريك الكبير ، وفي رسالته في عام ١٧٣٨ التي سبق أن أشرنا إليها ، عن « تأملات على الحالة الراهنة للهيئة الدبلوماسية لأوروبا » ، لم يرمحها آخر السيطرة سوى فرنسا والنمسا ، ومن ناحيته أخرى تبدو فرنسا وحدها

بالنسبة إليه على أنها قادرة على الوصول إلى ذلك . ثم ، وبعد أن تكون النفاذ قد انهمزت في خلال حربين متتاليتين على أيدي بروسيا ، ويتم تقسيمها في صالحها ، لن يفكر أحد بعد ذلك في أنه يمكنها أن تلعب دورا كبيرا . أما فرنسا ، فإنها سوف تظهر أكثر عظمة ، وبخاصة حينما تنتصر في تلك الحرب ضد إنجلترا وبمساعدة المستعمرات الأمريكية . وفي شهر أكتوبر ١٧٨٩ ، كتب الكونت دي مونموران Comte de Montmorin ، أخروزي خارجية البوربون ، في تعليماته إلى لافاييت La Fayette ، الذي كان على وشك أن يذهب إلى لندن ، أن يلاط إنجلترا يحتفظ بأمال من أجل أن تستمر الاضطرابات الداخلية ، وحتى ينتهي بها الأمر إلى تزعزع أساس القوة التي تجعل من فرنسا الامبراطورية الأولى في العالم .

وقبل ذلك بثلاثين عاما ، وفي أثناء حرب السنوات السبع ، كتب فانيل Vattel ، في كتابه عن القانون الدولي ، والذي سوف تكون له شهرة ضخمة : ولقد احتفظت الأمرة الحاكمة في النمسا بممارسة السيطرة لفترة طويلة . وفي الوقت الحاضر ، هو دور فرنسا . أما إنجلترا فلها مجد في أن تمسك بالميزان السياسي . وعلينا أن نفهم أن الدولة الانجليزية ، بتحركاتها من جانب إلى الجانب الآخر ، كان يمكنها أن تجعل إحدى كفتي الميزان تميل حسبا ترضى . ومن هذا نجد إن مسألة الذهب الانجليزي ، وإغراقه ، ونجاحه ، قد أصبحت مطروحة بطريقة أو بأخرى .

ففي الماضي ، وفي عهد لوى الرابع عشر ، كان الذهب الفرنسي هو الذي يتعامل ، وفي كل أوروبا ، مع ضائز الأمراء ، ويتطلب على الحرص وعلى التردد وكذلك على سوء النية ، ويمهد من بعيد الأمر للتحالفات وعقدها . وكذلك امر الانسحاب منها . والآن ، ولفترة طويلة ، فإنه جاء دور الذهب الانجليزي في ان يظهر

قوته : وكان دوره كبيراً في وقت حرب الرواة النموية : فلم يكن في وسع النفس أولاً ، وبروسيا بعد ذلك — وبعد تغيير نظام التحالفات — أن تصمد بدون التأييد المالي من لندن لمثل هذه الفترة الطويلة ، كما فعلت ضد قوى تتفوق عليها بشكل واضح .

ولاشك أنه كان في ذلك عناصر لأحد أشكال السيطرة، ولكن تاريخ الذهب الإنجائيزي وإغراءه أمراً مصعب كتابته : فن خصائص شئون الأموال أن تتم مناقشتها سراً ، وبالتالي ألا تترك في وثائق دور المحفوظات الرسمية إلا أقل ما يمكن تركه من آثار . وعلى أية حال ، فإن هذا التاريخ لم يتم كتابته بعد ، في نقاضه ؛ وسيكون من غير المجدي حتى أن نحاول رسم الخطوط العامة له .

حقيقة أنه يوجد هناك ميدان وميدان مختلف تماماً — يمكن التعبير ه السيطرة البريطانية ، أن يجد فيها ما يعبر عنه . وذلك في الشئون التي تتعلق بالفكر . وسنعود إلى ذلك ، وبشكل مطول في الفصل الأخير من هذا المجلد . علينا أن نفتتح هنا ، والآن ، بأن نعرف شيئاً جديداً يشهر الفهشة . ذلك أن أسبقية اللغة وأسبقية الثقافة الفرنسية ظلت واستمرت بلا جدال . ولكن إنجلترا تمكنت من أن تحتل ، في ميدان الفكر ، مكانة لم ينافسها فيها أحد وعرفت أوروبا كلها بذلك ؛ كما يمكننا أن نشهد في هذه السطور من فيخو Feijoo الكاتب الإسباني الشهير ، عند منتصف القرن : « يعطى الكثيرون من الكتاب الفرنسيين ورغم التباغض الشديد بين البلدين ، للانجليز درجة أكبر التوغل ، ودرجة أكبر التعمق في ميدان الفكر ؛ ويحفظون لأنفسهم بمجد تمكنهم من التعبير بدرجة أفضل . وما لاشك فيه ، بالنسبة لهذه النقطه ، أن الفرنسيين أكثر سمواً من جيرانهم . وهذا هو السبب الذي جعلنا نعود أن نقول : فكر إنجليز في قالب تعبير فرنسي . ومن ناحية أخرى ، كتب نفس الكاتب من جديد ، وكأنه يتحدث لنفسه ، مع

هزة واضحة ، وإن كانت مليحة فباضة بوضوح الرؤيا ، هذه العبارات القصيرة :
« منذ قرنين ، كانت أمتك هي الأكثر علماً في أوروبا ، مثل الأمة الفرنسية في القرن
الماضي ، والأمة الإنجليزية في القرن الحالي » .

٦ - سكان الدول العظمى في أوروبا :

ومنذ وقت بعيد كانت الأمم تتزايد في أعدادها بسرعة بطيئة للغاية ، ولم تكن
هناك وسائل لقياس هذا التزايد ، حتى أن أصحاب الأفكار المبسطة اعتقدوا
وكان شعوب العالم تظل ثابتة في أعدادها . ولكنهم بدأوا بالشعور ، منذ أواسط
القرن الثامن عشر ، بهذا التزايد الكبير في نسبة المواليد ، والتي إستخرج منها
مالتوس Malthus ، في إنجلترا ، تلك النتائج التي نعرفها ، وهي التي سمحت
لتورخي وقتنا الحاضر بأن يتحدثوا عن « الثروة الديموجرافية » ، أي الثروة
السكانية ، في المصور الحديثة .

وحينما يدخل معنى زيادة السكان في العالم في هذه المرحلة من الصعود السريع ،
والتي لا تتوقف حتى وقتنا الحاضر ، تظل علاقات العظمة والقوة هي نفسها ، بشكل
محسوس ، كما كانت عليه في الماضي ، بين الدول الأوروبية المختلفة . وكانت آخر
الدول العظمى ، وهي روسيا ، قد تزايد عدد سكانها من ١٢ أو ١٥ مليون نسمة
في عهد بطرس الأكبر ، إلى أكثر من ثلاثين مليوناً قرب نهاية القرن : وهذا
الإرتفاع الكبير لا يمكن تفسيره إلا جزئياً بالتوسعات الإقليمية . وكان أهالي
إمبراطورية القيصرية لا يمثلون في القرن السابق إلا عشر مجموع سكان أوروبا :
فأصبحوا يمثلون السدس . أما فرنسا ، والتي كانت نسبياً هي الأكثر سكاناً ،
إرتفع عدد سكانها من عشرين إلى ستة وعشرين مليوناً . ورغم أن أراضيتها كانت
تقل بكثير ، في مساحتها عن مساحة روسيا ، إلا أنها وجدت نفسها ، في بداية
عصر كاترين الثانية ، تتساوى في عدد السكان مع روسيا الشاسعة . وكانت فرنسا

الكبيرة ، في عهد جوزيف الثاني ، توجد في نفس المرتبة تقريباً : فعلاوة على
وعاياها في الامبراطورية ، والذين كان عددهم يبلغ عشرة ملايين نسمة ، يمكننا
أن نضيف أربعة عشر مليوناً من المجريين ، والسلاف ، والاطاليين ، والبلجيكيين.
أما إسبانيا فإنها ، في خلال تلك الفترة التي تعتبر فترة إنيار بالنسبة إليها ، وهي
القرن السابع عشر ، قد شاهدت أمر لزوجها إلى مستوى إنجلترا . وظلت في مستواها
بشكل ملموس ، وحتى قرب نهاية القرن الثامن عشر ، حين تأثرت بحركة عامة ،
وأخذت في الارتفاع من المنحدر . وكذلك بروسيا ، هي أيضاً ، وبنوع خاص
قد تميزت بسرعة صعودها . وكانت المكاسب الإقليمية التي حصل عليها فردريك
الكبير وسددها قد زادت عدد سكان بروسيا إلى ما يزيد على النصف : فمرت في
أثناء فترة حكم طولها ستة وأربعين عاماً من مليون ونصف مليون نسمة إلى خمسة
ملايين ونصف مليون نسمة .

الفصل الرابع والعشرون

الانتفاضات الأخيرة لاسبانيا

مشكلات إيطاليا والبحر المتوسط

تتميز المرحلة التالية لمعاهدات أوترخت — ومثلها في ذلك مثل كل الفترات التالية للحروب — بملل عام لدى الشعوب ، وبرغبة عامة في السلم . وكان الحصان الكيبدان بالأمس قد قاسوا كثيراً ، فرنسا في جسدها ، وإنجلترا في ثرواتها ، وبشكل يدفعها إلى التوافق ، وبدون صموية كبيرة من أجل عمل هدنة بالنسبة لتنافسها سوياً .

١ - الاضطراب الفرنسي والانجليزى :-

وكانت ضرورات السياسة الداخلية تدفع كل من الحكومتين صوب الاقتراب من الأخرى . وكان المسئولون ، من هذا الجانب من بحر المانش وكذلك من الجانب الآخر ، يشعرون في ذلك الوقت بأنهم ضحى مدعين في السلطة ؛ وكانوا يرغبون في أن يوجهوا كل طاقاتهم من أجل تدعيمها . ففى إنجلترا ، كانت أسرة هانوفر قد تخلصت من أسرة ستيوارت ، ولقى كانت الملكة آن Anne آخر من مثلها في حل التاج ، قد توفيت في شهر أغسطس ١٧١٤ . وفى فرنسا ، وبعد وفاة لوى الرابع عشر ، (سبتمبر ١٧١٥) ، وعلى العكس من الرغبة الرسمية التى عبر عنها الملك المتوفى في وصيته ، قام المحرق فيليب صاحب أورليان بالاستيلاء على السلطة ، وهى التى سيارسها كوصى على العرش ، وإيسم لوى العبد الذى سوف يحمل اسم لوى الخامس عشر . ولذلك فإنه كان عليه أن يواجه معارضة قوية . وكان عليه ، من أجل أن يتمكن من مواجهتها ، أن يشعر بحرية حركة يديه ، وخاصة في الخارج .

وفي الوقت الذي كانت فيه الحرب مستمرة في شرق القارة ، - بين
السويديين والروس من ناحية ، وبين النمانيين والنموسيين من الناحية الأخرى -
كانت الشعوب إذن في الغرب تشر بحمقها ، وفي أثناء فترة من الوقت ، في أن
تنفس بحرية ، وفي أن تعمل في سلم . وكانت التسويات الصعبة الحسابات ،
والتي تمت في عام ١٧١٥ ، قد تركت لكل راضياً . وكان من الضروري وجود
حذر كبير ، في كل من باريس ولندن ، ورغبة شديدة للوفاء ، حتى يبعد أكل
فرصة ممكنة لوقوع صدام ، بدءاً من تلك الصدامات التي كان يمكن أن تنشأ بين
الفرنسيين وبين الإنجليز في المستعمرات . ولكن الحكومتين فإنهما ، رغم إعتاد
كل منهما على قوة لامتيل لها ، الواحدة على البر والثانية على البحر ، لم تكونا
بضامتين المستقبل . ولم يكن في وسعهما أن يمنعا ، إلا على مسافة قريبة من
حدودهما ، وفي علاج ما يمكنهما أن يصلا إليه مباشرة ، أمر إعادة بحث بعض
نتائج المعاهدات ، في يوم من الأيام . فلم يكن أمامهما سوى أن يكتلجوهما
من أجل طمأنة المتحاربين ، وإن لزم الأمر العمل على تخفيفهم ، وحتى التدخل ،
حتى يتدغم السلام دون أن تتم تغييرات هامة في الوضع القائم .

ولن تأت المشغوليات لها من وسط القارة ، وهو الذي كان مركزاً لصدامات
خطيرة في أثناء القرن الماضي ، والذي سوف يشهد في خلال هذا القرن نشأة
صدامات أخرى ، تكون كذلك طويلة المدى ، وعلى نفس درجة العمومية تقريباً .
ولكن إسبانيا هي التي سوف تصبح ، ولعدة خمسة عشر عاماً ، أساس لإثارة
الإنشغرابات في أوروبا .

٢ - التنافس الإسباني النموسي على إيطاليا :

كان آل هابسبورج النمسا هم المستفيدون الرئيسيون من تلك المعاهدات التي
كان قد فرضها المحتلون المتعربون على البوربون في فرنسا وفي إسبانيا . وكانوا

قد وروا ، من أبناء أهلهم في مدريد ، الجزء الأكبر من الممتلكات الخارجية لإسبانيا في أوروبا . وأصبحت دولتهم الآن أكثر امتداداً وأوفر سكاناً من دولة خصومهم التقدماء الفرنسيين . وكان هذا هو ما رغبت فيه الدول البحرية ، والتي كانت فرنسا قد أصبحت بالنسبة إليها هي أكبر عدو يخشى جانبه ، والذين كانت لهم الرغبة في أن يجروها على البقاء في مكانها بطريقة مستمرة . وما أن تم توقيع الصلح في القرب ، حتى قام الامبراطور شارل السادس بنقض الهدنة التي كانت قد عقدت مع العثمانيين في عام ١٦٩٩ ؛ وقام بالإتفاق مع البنادقة بتحريك قوات البحر وبدأ الزحف . وكما حدث في الماضي ، وفي الوقت الذي مارس فيه اندوق شارل صاحب اللورين للقيادة باسم الإمبراطور ليوبولد ، نجد أن الجنرال الذي سوف يتقدم إلى النصر هو كذلك أحد الأجانب ، وهو الأمير لويجين ، والذي كان نصف فرنسي ونصفه الآخر من سافوا . وبعد أن انتصر في بتر فاراد ، بين الساف والدراف (ه أغسطس ١٧١٦) ، وأصبح بعد ذلك مباشرة مسيطراً على تاميسفار ، تمكن من أن يستولى على بليراد في العام التالي . وتم الاحتفال بهذا الحدث في جميع أنحاء أوروبا على أنه إنتصار كبير للمسيحية . وكان قد مر ما يقرب من القرنين على إقامة العثمانيين معسكراتهم في هذه القلعة الدانوبية . وعن طريق وساطة إنجلترا وهولندا ، تم عقد مؤتمر الدبلوماسيين قريباً من ذلك ، في بيساروفيتز . وتم عقد الصلح هناك في ٢١ يوليو ١٧١٨ . وحصل العثمانيون هناك على إستعادة للورة ، التي لم يتمكن البنادقة من المطاع عنها . ولكنهم تنازلوا للإمبراطور عن باتات تاميسفار ، على الشاطئ الأيمن للدانوب ، وكذلك عن جزء من الصرب (مع بليراد) ، وجزء من الأفلاق (الأفلاق الصغرى) ، إلى الغرب من آلوتا . ولم يصل النمسيون بعد ذلك أبداً إلى مامو أبعد من هذا على الطريق الموصل إلى إستانبول ، وإلى المضائق .

وفي حالة النشوة ، التي نتجت عن هذه الانتصارات العظيمة ، والتي كان بعضها غير متوقع ، فكر الإمبراطور في طموحات جديدة ، وكانت آماله قد غابت من أن عقلية ، التي كانت قد منحت لدوق سافوا في عام ١٧١٥ ، لم يكن لها نفس مصير نابول . فأقنع نفسه بفكرة أن اليوم لن يتأخر كثيراً عن المجيء ، والذي يمكنه فيه أن يعيد غزوها ، وذلك في نظير إعطاء تمويض عادل لدوق سافوا . وكان يحتفظ في نابول بجيش كان يرغب في أن يتفد به طموحاته . ولكن هذه الطموحات سوف تصطدم بأسف إسبانيا ، وبأفكارها الخاصة بالإنتقام . وكانت هي أيضاً لم توافق تماماً على ترك عقلية الآخرين ، وهي التي كانت توثق ممتلكاتها في البحر المتوسط ، وكانت هي أيضاً تحتفظ بآمال من أجل إستعادتها . وكانت العلاقات بين فينا ومدريد بعيدة عن أن تكون ودية . فكان شارل السادس قد رفض دائماً أن يعطى موافقة صريحة على نهب أملاك آل هابسبورج إسبانيا وتوزيعها . ولم يكن قد وقع على عقد التنازل الرسمي الذي طالب به منافسه السيد ؛ وإستمر بناد في معاملة فيليب الخامس على أنه مغتصب للعرش ، وحاول أن يعيش ، في علاقاته مع إسبانيا ، تحت نظام مجرد هدنة .

ومع ذلك فإن دافع القطيعة لم يأت من فينا . بل جاء من الحكومة الإسبانية ، والتي كانت في ذلك الوقت تحت تأثير إيطالي مزدوج ، هو تأثير الملكة ، الزوجة الثانية لفيليب الخامس ، إليزابيث فارنيز Elizabeth Fernáez ، إنة دوق بارما ، وتأثير أبناء بلدنا ، الذي دفعته في الأعمال ، والذي نجحت في أن تحصل منه ما يشبه الوزير ، الذي يسيطر الأمر ، وهو البيروني Albirovi . أما الإيطاليين ، والذين كانوا قد تعودوا على الخضوع لسيطرة الإسبانية ، فإنهم أظهروا عدم رضائهم من الوقوع تحت سيطرة الألمان ، وفكر الكثير من بينهم في ضرورة

التحرر منها . وكان ألبيرتوني مز بين هؤلاء : فكان يعتقد في بعض آراء التحرر ، وفي نفس الوقت في الوحدة الوطنية . وكان يأمل في أن يتمكن في أحد الأيام من تحقيق ذلك ، بمساعدة الجيوش الإسبانية . ولم يكن من ناحية أخرى يميل إلى التصرع : بل كان يرغب في أن يترك للمملكة الوقت اللازم من أجل إعادة بناء قواتها ، العسكرية والبحرية . ولكن حذره فشل ، وبطريقة مفاجئة ، بمبادرات الدبلوماسية الفرنسية الإنجليزية .

ولقد عملت كل من لندن وباريس على إيجاد الوسائل اللازمة لتدعيم السلم ، حتى وإن كان ذلك عن طريق إدخال بعد الترش على معاهدات ١٧١٥ . وفيما بين ستانجوب Stanhope ، الوزير الأول للملك جورج ، وبين الأب ديويو Dubois ، المستشار الذي كان الوصي يصني له ، تم الاتفاق ، في خلال مقابلتين ، في لاهاي وهانوفر ، في صيف عام ١٧١٦ ، على مشروع إتفاقية صرف البرلمان الإنجليزي بعض الوقت قبل أن يوافق على مبدئها . وبعد أن تم الحصول على موافقة حكومة هولندا ، إنتهى الأمر إلى عقد معاهدة لاهاي (٤ يناير ١٧١٧) ، التي أكدت معاهدة أوترخت ، ولكنها منحت بعض الإرضاءات الإضافية للإنجليز . وبخاصة أمر طرد مدعي العرش من آل إستيوارت ، ووقف فرنسا للأعمال التي كانت تقوم بها في ميناء مورديك ، والتي حاولت بها أن تفتي ذلك بك جديد . ومنذ ذلك الوقت ، سوف يتحدثون في أوروبا عن تحالف لاهاي الثلاثي . وهو تحالف دفاعي ، وعماقظ ، وهدفه موجه ضد ملك إسبانيا والمشروعات التي كانوا ينسبون لها إليه . وإقترحوا دعوة فيليب الخامس لقبول مراجعة البنود الإيطالية لمعاهدة أوترخت : وسوف يعطى إرضاء للامبراطور ، وذلك بالتنازل له عن صقلية ، في نظهر سردينيا . وبهذا التمن ، لم يكن هناك شك في أن شارل السادس

منسوم معترف بشركة أوستند على أنها شركة نمسوية ذات امتياز من أجل التجارة مع الهند الشرقية والهند الغربية . ولكن هذا كان هو الميدان الذي كانت الدول البحرية ، تدعى حق الاحتفاظ به لنفسها . فاحتجت لدى حكومة فيينا حل ما اعتبرته خرقاً للمعاهدات . وتمددوا عن سغن الشركة إختفت بطريقة غامضة أثناء سفرها ، وذلك في الوقت الذي إهتم الدبلوماسيون فيه بالمسألة دون أن يصلوا إلى حل لها .

وكان شارل السادس الذي يرى من بعيد ، ويرى كثيراً ، له آمال أكبر من ذلك وطموحات أهم ، بالنسبة البحر للتوسط . فكان قد وضع في رأسه ، ومنذ أهل حكمه ، أمر أن يجعل من النمسا ، والتي كانت قد عادت من جديد إلى نابولي — وصرفان ما تعود إلى صقلية — دولة بحرية وتجارية كبرى . وتم عقد معاهدة تجارة مع السلطان ، بعد عقد الصلح معه ، في عام ١٧١٨ ، في يساروفيتز . ثم صدرت خطابات غتومة تمنح إحدى الشركات الامبراطورية ذات الامتياز ، إحتكار الحق في للتجارة مع الدول العثمانية ، عن طريق البحر أو عن طريق البر . فآخرها ، تم إعلان تريستا وفيوى ، وهما عرنا الانيا على البحر الادرياتي ، مينائين حزين ، حتى يسمح لها بالتنافس ، بقوة متعادلة ، مع جنوا وليفونو . وظهر الفلم النمساوى في البحر المتوسط ، وحيث لم يكن معروفاً إلا قليلا . وأعلن الامبراطور حتى أنه سيأخذ تحت حمايته كل مدن إيطاليا التي كانت على علاقات صعبة مع نيابات شمال إفريقيا . وعدد حالياً بإعادة القراصة وؤؤساء البحر في شمال إفريقيا إلى صوابهم . ولكننا نلاحظ من ناحية أخرى أنه لن يكون لهذه السياسة الجديدة المعلنة فرصة لكي تتحقق بممارها . ذلك أن شركة الشرق ، الجديدة ، قد واجهت صعوبات مالية إلى درجة أنها إختفت بعد ما يقرب من عشر سنوات . ولن تصل تريستا ، تلك المدينة الصغيرة التي يسكنها بضعة

آلاف من السكان ، إلى مستوى المركز الكبير للمبادلات الدولية ؛ إلا في أثناء الربع الأخير من القرن .

٤ - تقارب إسبانيا من النمسا :

وقع ذلك الفتور في العلاقات بين النمسا والدول البحرية في تلك اللحظة التي كانت فيها إسبانيا ، التي شاب أمليها ، قد تركت العلاقات التي كانت تربطها بلندن وباريس تأخذ في الارتخاء . وجاءت أحداث عام ١٧٢٤ لكي تفرح بالتطور الذي كان يتم . وكان الحدث الأكثر ظهوراً قد وقع في فرنسا . حيث كانت حكومة دوق دي بوربون ، والتي كانت ترغب في تزويج الملك الشاب في أقرب فرصة ممكنة ، قد أخذت قراراً بقطع الصلة التي كانت قد تقررت مع الأميرة الإسبانية : وكان صغر سن الخطيبة للغاية يؤجل تحقيق الزواج لوقت طويل . ولذلك فإن الأميرة ، التي كانت تربي في باريس ، سوف ترسل إلى والديها . وتسميت هذه الحركة غير الرشيدة في نشأة شعور بالمهانة الشديدة ، في إسبانيا ، في كل الأوساط ، وبخاصة في البلاط . وأصبح واضحاً منذ ذلك الوقت أن مؤتمر الدبلوماسيين للنمسا في كامبراي لتسوية مسائل الخلافات التي نتجت عن المعاهدات ، لن يصل إلى التئام على الصعوبات التي سجلها في يومه الأول . وكانت للسألة الأساسية هي مسألة وراثة الدوقيات الإيطالية . وحسبان الامبراطور قد أكد بكل وضوح سيادته على بارما ولبيراتس . ورفض إعطاء موافقة على أي عهد بالتوالى يمكنه أن يؤخذ عوناً من النقود المتولى الحكم . فأظهرت الحكومة الإسبانية ، منذ عوده الأميرة من باريس ، ضيقها ، وإستدعت مثلها . وإقنعت مؤتمر كامبراي في عام ١٧٢٥ ، دون أن يصل إلى شيء .

وسوف يوجد الحل ، حتى وإن كان مؤقتاً ، لتلك الصعوبات ، في فينا . وظهرت السياسة النمساوية في هذه الفترة على أنها على درجة صعبة من عدم

التناقض ، وعلى درجة كبيرة من الخضوع للمشغوليات الشخصية ، مثلها في ذلك مثل السياسة الاسبانية . ففي اسبانيا ، كانت أعلى مصالح الدولة خاضعة ، ومنذ سنوات ، لسيطرة طموحات ملكة أجنبية ، ورغبتها الجورحة في أن تضع في أماكن يراقة أبناءها الذين لم يكن لهم أن يحكموا . وفي النمسا ، كانت المشغولية الأولى ، إن لم تكن الوحيدة للإمبراطور ، تتمثل في أن يضمن وراثة العرش لابنته الكبرى ماريا تريزا — فلم يكن له سوى بنات — وذلك في غير صالح أبناء عمها ، والذين كان من حقهم وحدهم أن يحكموا ، طبقاً للقوانين السارية . وفي هذا الشأن . أصدر شارل السادس ، منذ عام ١٧١٣ ، قراراً عرف باسم « المراقبة المصلحية » Pragmatic Sanction . ولكنه كان يخشى من أن خصوم النمسا سوف يعلنون ، في ذلك اليوم ، أنهم ضد الامبراطورة الجديدة ، ويؤيدون أحد المتنافسين ، وينتج عن ذلك نشوب الحرب الأهلية . وكلما مرت السنوات ، كلما زادت الفكرة رسوخاً في ذهنه بضرورة إبعاد مثل هذا الخطر ، وذلك عن طريق الحصول من الدول الأجنبية على وعد رسمي الاعتراف بملكية ماريا تريزا . ومادامت الفرصة قد حانت ، فإنه سيتجه صوب اسبانيا في المكان الأول .

وأينما نجد أن المغامرات الأولى من أجل التقارب قد جلت من مدريد . وكانت الملكة ، إليزابيث فارنيس ، لا تزال توجه السياسة الاسبانية ؛ وكان طموحها الكبير هو دائماً ضمان مستقبل إيطاليا وفي نفس الوقت ضمان مستقبل أولادها . وحصلت منذ عام ١٧٢٤ على ضرورة القيام بمغامرات في فينا ، بكل سرية ممكنة ، وبواسطة أحد المقرئين منها ، وهو ياردون ريبدا Ripparda ؛ الذي كان من أصل هولندي ، والذي سوف يلعب بعد ذلك مباشرة في مدريد . نفس الدور الذي كان لآلهود في من قبل ، وهو دور المستشار المسعوك الكلية .

ودوز رئيس الوزراء غير الرسمي . وهذه المفاتحات دلت على جهل مشير الدمشنة بالأوضاع الحقيقية للدولتين ، الواحدة التي كانت تستمر منذ جيل في الإنساع ، والأخرى التي كان إنباءها يتأكد كل يوم أكثر . ولذلك فلإن حكومة فرنسا وجدت بعض الصعوبة من أجل إخفاء دمشنتها . ومع ذلك فإنها ، نظراً لرغبتها في الخروج من العولة التي كانت موقف حلفائها قد فرضها عليها ، وافقت على الإستمرار في المحادثات . ولم يكن الأمر يتعلق ، في ذلك الوقت ، إلا بتأكيد أمر الوفاق المتبادل ، والذي يهدف إلى أن يظهروا لأوروبا ذلك التتضامن الجديد ، بين فينا ومفريد . ولم يبد ملوك إسبانيا على أنهم يرغبون في الإسراع في التوقيع على الوثيقة التي كان ويردا قد أعدتها . وجه الخبر الخاص بإرسال الأميرة الإسبانية في ذلك الوقت لكي يجهلهم يكفون من التردد . فإنضم ملك إسبانيا رسمياً للمواقفة المصلحية ، (أول مايو ١٧٢٥) . وبعد الإمبراطور ، بعد ذلك بقليل ، بالتدخل في لندن ، من أجل إعادة التنازل عن جبل طارق .

ولكر ويردا لم يكف بذلك . وبعد أن إستقر في فينا ، إستمر في القيام بحركاته حتى أنه حصل ، بعد عدة أشهر ، على معاهدة جديدة ، وكانت مزية هذه المرة ، وتمت على إرضاء لإدعاءات الملكة إليزابيث : فسيكون لإبقيها ، دون كاذلوس من ناحية ، ودون فيليب من ناحية أخرى ، الحق في أرشيدوقات ، حين يبلغ كل منها سن الرشد ؛ هذا علاوة على تبادل الحكومتين الوعد الرسمي بتأييد كل منهما الأخرى ، بكل قوتها ، في حالة إذا ما تطلب الموقف في أوروبا ذلك . وسوف تحصل معاهدة هـ توفير في التاريخ فيما بعد تحت إسم « معاهدة فينا الأولى » .

وفي لندن ، كان من الطبيعي أن يشير ذلك التقارب ، بين فرنسا وإسبانيا ، المخاوف . ولذلك فإن أمر الوفاق مع فرنسا أصبح مطلوباً أكثر مما كان عليه في أي وقت آخر . وجاءت وزارة جديدة . كان روبرت والبول Robert Walpole

سوف يوافق على الإحتراف بالأسرة الإسبانية الحاكمة الجديدة. أما فيليب الخامس فإنه ، بعد أن يطمئن من هذه الناحية ، لن يهرب من رغبة الوصي ، والذي كان ينتظر منه تنازلاً صريحاً جديداً ، بالنسبة له ولذريته ، من عرش فرنسا : خاصة وأن صحة الملك الجديد كانت تثير بعض القلق .

ولكن المشروعات الأنجلو فرنسية ، بعد أن أبلغت إلى مدريد ، لم تقابل هناك إلا بكل برود : فكان نجاحها يقلل إلى درجة العدم من مشروعات البيروني ومن طموحات سيده . وحاولوا بلا جدوى أن أن يشيخوا أن الإمبراطور كان يعمل من أجل أن يسيطر على إيطاليا فكان لا يخفى وجهات نظره بشأن صقلية ، ولا حتى توسكانيا ، وحيث كانت أسرة مديشي على وشك الإنتهاء . واستمرت المناقشات جارية حتى جاءت ، في شهر مايو ١٧١٧ ، إحدى المحادثات غير المتوقعة — وهي إلقاء القبض على رئيس حاكم التفيتش الإسبانية ، عند مروره في ميلان — لكي تشعل نار الصراع ، والذي كان البعض يخشونه ، والبعض الآخر يأملون فيه . ولقد رأى البيروني أن الوقت كان غير مناسب ، وكان عليه ، لكي يحتفظ بمكانته ، أن يتحمل حركات الغضب الموجودة في البلاط . وتم إرسال أحد الأساطيل إلى سردينيا ، والتي كان أمر غزوها أسهل من عملية غزو صقلية . وإذا ما تركنا عملية عاصرة كاليادى جانباً ، فإن الإحتلال قد تم تقريباً دون حرب .

واستمرت فرنسا وإنجلترا في عملها في مدريد ، وبإرادة قوية من أجل وقف الصدام في أقرب وقت ممكن . ومادامت الحكومة الإسبانية كانت حذيفة أن تلعب الدور الخطير ، فإنها سوف يمدان أيديها لخصمها . فتمت دعوة الإمبراطور لكي ينضم إلى الحلفاء في لاهاي ، ويستحوذ والتحالف الثلاثي ، إلى « تحالف رهاى » . فكلية على صقلية ، بالفعل أن تغير سيدها ، وتعود إلى سادتها القديم . ولكن الأمر كان لا يزال يحتاج إلى الحصول على موافقة مدريد ، الأمر الذي كان

يستتبع أن يجهدوا حلاً مشرفاً للصدام الموجود . وإتفق الفرنسيون والإنجليز على أن يقدموا بوعده بإعطائه توسكانيا للآين الأكبر لإليزابيث فارنبر ، وهو الذي كان قد ولد لها من زواج أول . ووصل الحال بوزارة لندن حتى إلى أن تعرض أمر إعادة جبل طارق : وكان في ذلك مايكفى تماماً لشرح التثني الذي كانت مستعدة لتقديمه ، من أجل المحافظة على السلم ، أو إعادته من جديد . وأظهر أليرون إستعداداً للمرافقة . ولكن للملكة التي كانت متحمسة من أجل تمرير إيطاليا ، أبعثت كل المساومات للقرعة . وبدأت عمليات عسكرية جديدة ، وفي هذه المرة ضد صقلية . ولم تواجهها أية مقاومة منظمة من جانب أبناء سافوا .

وفي أثناء ذلك الوقت ، كان حبر إنجلترا قد نفذ . فسافر أحد أساطيلها ، بقيادة الأميرال باينج Byng ، صوب صقلية . وبدأت المعركة عند مدخل خليج مسينا ، عند إرتفاع رأس باسارو ، وبعد بضعة ساعات لم يعد الأسطول الإسباني له وجود (١١ أغسطس ١٧١٨) . وشمرت حكومة فيليب الخامس ، والتي لم يكن في وسعها بناء أسطول آخر ، أنها مضطرة إلى أن تعلن ، على الأقل ، الحرب على إنجلترا . ولذلك فإنه أصبح على حلفاء لاهاي أن يقرضوا رغباتهم بقوة السلاح . وكان في وسع فرنسا ، وحدها ، أن تتدخل بفاعلية ، لأنه كانت لها حدود مشتركة مع إسبانيا . ولم يقرر الرعي ذلك إلا بعد تردد طويل . ذلك لأنه كان لا يوافق على أن يحارب حفيد لوى الرابع عشر .

وهكذا نجد أن الحرب قد أعلنت ، في شهر يناير ١٧١٩ ، وتم تكليف دون برويك Berwick بالتقيام بالعمليات . وبعد أن خرج من بايون ، إسترلى على فونت آراني ، وسان سباستيان ، ثم إنتقل إلى حدود كتالونيا ، وحلول أن يعيد إحياء ذلك التهديد الذي كان دائماً موجوداً ، والخاص بانفصال كتالونيا . ثم دعوا فيليب الخامس إلى أن يضعه يوزيره ، والذي اعتبروه على أنه يمثل العقبة الرئيسية على طريق السلم . ونجحت ضغط ضرورة حادة ، وافق على ذلك قبل نهاية العام .

وكان هذا إعلاناً عن قرب خضوعه ، وانضم ، بمعاهدة مدريد (يناير ١٧٢٠)، إلى تحالف خصومه ، وتحالف لاهاي الكبير ، وسيكون في ورعه الآن أن يهود أدراجه . فكان عليه في مايو التالي أن يخلى سبيلاً وسردينيا ؛ ثم كان عليه في شهر يونيو أن يرضى مطلب بشأن تنازل رسمي مودوج ، من ناحية فيما يتعلق بتاج فرنسا ، ومن ناحية أخرى فيما يتعلق بالأقاليم الإيطالية التي كانت قد مرت فيها متى للإمبراطور . وستم تسوية مجموع الصعوبات القائمة بين النمسا وإسبانيا في مؤتمر الدبلوماسيين ، ستم دعوته فيما بعد .

وفي نهاية الأمر ، سيكون دوق سافوا هو الضحية الرئيسية في تلك الأزمة التي نشأت بين جيرانه : وبعد أن أخذوا منه سبيلاً لكن يسطوما للإمبراطور ، لم يحصل على أية ترسية أخرى سوى أن يرشحوه كوريث لبيرون إسبانيا ، في الحالة التي تنتهي فيها ذرية فيليب الخامس ، وكانت إمكانية التوقع .

٤ - النمسا في البحر المتوسط :

مرت خمس سنوات ، وكانت إسبانيا ، التي استمرت في الاحتفاظ بذكرى عظمها السابقة ، تحاول أن تحف من جديد في وجه تلك الأوجاع السبب التي كانت أو ترسعت قد فرحتها .

وكان فيليب الخامس يميل إلى أن يعتقد ورغم الصلح الذي تم التوقيع عليه في مدريد ، أن في العرض الخامس بإعادة جبل طارق ، والذي كانت حكومة لندن قد تقدمت به من نفسها وبكل حرية في أثناء الأزمة ، لا يزال سارياً . وبعد أن أخذ رأى همه ، الوصي على عرش فرنسا ، حاول أن يدخل من جديد في مفاوضات بهذا الشأن . وبعد أن علم الرأي العام الإنجليزي بذلك ، وأتت الصحافة النار والهب ، وقمت المقترحات الإسبانية في فراغ . وتابع الوصي بنفسه هذه المفاوضات بعد عدة أشهر ، وبعد تقييد الوزارة في لندن : وكان رد تاونسند Townshend ، الوزير الجديد أقل تشجيعاً من رد ستانجوب Stanhope ، الوزير السابق .

وسمحاول مدريد أن تستغل حسن الفية التي كانت إسبانيا قد وجدت لها لدى باريس في هذه الظروف ؛ خاصة وأنها كانت تعتقد في أن فرنسا كانت تحاول أن تتخلص من تلك الفروض التي أنهم البعض السياسة الإنجليزية بفرضها عليها . و سرعان ما بدأ الدبلوماسيون عملهم . وتبع عن ذلك ، ومنذ شهر مارس ١٧٢١ ، عقد معاهدة مرية بين البلدين ، نصوا فيها على الوعد الإنجليزى الخاص بحميل طسارق وكأنه دائماً سارى المفعول ، وكذلك على أمر وراثة إمارتى بارما وتوسكانيا ، والنتين كانتا قد وعدتا من قبل لابن إليزابيث فارتيز ، وكانوا كانت هذه المسألة الأخرى ، هى كذلك ، من إختصاص السياسة الفرنسية . وكان هذا التصالح الذى بدأ بهذا الشكل سوف يتوج ، بعد قليل بخطبة لوى الخامس عشر لإحدى بنات فيليب الخامس ، ويزواج أمير أستوريا ، الابن الأكبر لفيليب الخامس ، من إحدى بنات الوصى على عرش فرنسا .

وهذا التقارب الفرنسى الاسبانى ، سرعان ما يتبعه وقوع خلاف كبير بين النمسا وبين الدول البحرية ، إنجلترا وهولندا . وكان هذا هو التفكك الكامل لذلك النظام الذى كانت الرغبة السلية المشتركة لهابيوا وستابوب قد أظهرته إلى الوجود .

وعطينا أن نبحث عن السبب الرئيسى لتغير موقف النمسا في مسألة شركة أنستد . ذلك أن الملاحة كانت متنوعة دائماً على بحر الإسكوت ، وكان ميناء أنفريس لا يستطيعهم . ولذلك فإن تجار الأراضى المنخفضة وجنوا مشروعا لكي يجعلوا أنيستد تلعب ذلك الدور الذى كانت أنفريس تقوم به من قبل . وقام أصحاب السفن في أنيستد بإرسال بعض سفينهم إلى البحار البعيدة ، وكانت هذه السفن تجعل الشاى والتوابل والحرير . ووافق الاميراطور شارل السادس ؛ والذي كان يميل إلى آراء التوسع الإقتصادى ؛ على أن يوقع ، في عام ١٧٢٢ على

ولذلك ، فإنه استمر في المحادثات الجارية مع مدريد ، ولكنه أدخل الحكومة الإنجليزية ، وأشركها فيها . وتم إبطاء معاهدة ، في هدوء ، بين الدول الثلاث ، وتم التوقيع عليها في إشبيلية يوم ٩ نوفمبر ١٧٢٩ . ولم تطرح فيها بطبيعة الحال مسألة جبل طارق . وقام الفرنسيون والإنجليز فقط بالمراقبة على ضبان الدوقيات موضع الطمع لدون كارلوس ، الإشبيلية عليها ، وأصبح في وسع القوات الأسبانية حتى أن تذهب وتقيم مسبقاً في مواقعها الرئيسية . وحادوا ، بالأجمال ، إلى حالة الأرواح التي كانت موجودة قبل عام ١٧٢٤ . ولم يمثل التقارب التام في الأسباني في هذه المسألة سوى وقتاً قصيراً ، وعصوياً ، يقل عن خمس سنوات .

وبقي بعد ذلك أن يحصلوا من الإمبراطور على أمر إعادة الدوقيات ، ولم يكن هذا بالأمر السهل فقد أطن في أول الأمر أنه سيعارض بالقوة أمر تولد القوات الأسبانية . ولما كان دوق بارما قد توفي ، في عام ١٧٣٠ ، فإن أزمة جديدة كانت على وشك الانفجار : فاحتل شارل السادس بارما وبليرانس عسكرياً . فأنفجرت الحكومة الأسبانية في التهديد . ومرة جديدة عملت فرنسا وإنجلترا ، منفصلتين ، وإن كانتا متلتئمتين بالرغبة في السلم ، ونجحتا في تهدئة الخصوم . وفي هذه المرة ، كان على الوزارة الإنجليزية برئاسة والبول Walpole ، أن تقوم بالعمل الدبلوماسي . وقامت به ، في أول الأمر ، لحسابها وحدها . وإنتهت المفاوضات الطويلة التي دخلت فيها ، عند نهاية عام ١٧٣٠ ، إلى تقارب مع النمسا ، التي رافقت على « معاهدة فينا الثانية » (١٦ مارس ١٧٣١) . ووافقت لندن ، بدورها على « الاتفاقية المصلحية » ، وذلك في الوقت الذي أعطى فيه شارل السادس لشركائه أمر الانعلاء التام لشركة أوسقند .

وظلت كل من فرنسا وإسبانيا يبيدتين : فلم يكن في وسع فرنسا أن ترضى بهذا الترتيب الجديد بين حلفائهما ١٧١٥ ، وكان إسبانيا تخشى من حدوث

معارضات جديدة لتحقيق المشروعات الإيطالية. ولذلك فإن معاهدة فينا الثانية أفاوت قلقاً في مدريد أكثر مما أثارته في باريس. وشعروا هناك بأنهم كانوا ممولين، وبشكل خطير. ولقد فكر البعض، من جديد، في ضرورة توثيق العلاقات مع فرنسا. وكان شوفيلان مستعداً لكي يجيب بالموافقة على مضامحات الدبلوماسية الإسبانية. ولكن ظهيرى فرض وجهات نظره. ولم يعد على إسبانيا إلا أن تحسب حساباً لموضع أقدامها. وأصبح عليها أن توافق على إعادة بناء تسوية إشبيلية، حتى يخرج منها اتفاق أكثر عمومية، ومتناسق مع الاتفاق النمساوى الإنجليزي الأخير. وهذه الطريقة تم عمل ما يشبه الملحق لمعاهدة فينا الثانية، وكان معاهدة جديدة نمساوية إسبانية (٢٢ يوليو ١٧٣١). ونتيجة لها انضم ملك إسبانيا بدوره إلى الموافقة المصلحية؛ وأكد شارل السادس حقوق دون كارلوس على بارما وبليزانس؛ واندغم إلى إضافية الدول الأخرى بشأن الوراثة المقبلة لتوسكانيا إلى أسره قارئين.

• • •

وكانت إسبانيا هي المسؤولة الرئيسية عن تلك السلسلة من الأزمات التي كانت قد خفقت أنفاس أوروبا لمدة خمسة عشر عاماً، بعد عقد معاهدات أورسخ. وخرجت منها، إن لم تكن مهزومة تماماً، فلي الأقل وقد هزلت لفترة طويلة من أهميتها السالفة، ووضعت في صف الهول الثانوية. ولقد حاولت، بلا جدوى، أن تنور على هذا التعمور المحتفى لدورها، والذي يمكننا أن نفهمه، من بعيد، كنتيجة لانخفاض طاقتها الهشيرة الاقتصادية. وكان عليها أن تتخلى مرات عديدة أمام الرغبات الصارمة لجمهورياتها الفرنسيين والإنجليز، والتي كانت تقيس نفسها في الماضي معهم، وعلى قدم المساواة.

ومع ذلك، في إيطاليا، ستكون السياسة الإسبانية، في الربع الأول من

القرن ، وهي التي كانت تتطابق مع سياسة فائيز ، نتائج طوية الأمد . وفي عام ١٧٣١ ، بدأ أن إليزابيث فائيز قد وصلت إلى أهدافها : فأصبح مستقبل إنييا من زواجها الأول مضموناً . أما فيما يتعلق بدون كارلوس ، فإن مستقبله كان قد وصل إلى نهايته . فعند نهاية العام ، قام أسطول أنجلو إسباني بإتزال فرقة من ستة آلاف جندي في ليفورنو ، من أجل إحتلال الدوقيات . ووصل دون كارلوس بعد قليل ؛ وأقام لفترة من الوقت في فلورنسا ، عند الدوق الكبير - الذي لم يرحب به كعادته - ثم ذهب لإستلام بارما .

ولكن الأمر كان يحتاج ، في كل القطاع الإيطالي ، لإعادة بناء من جديد . فلقد حدثت ، بعد معاهدة فيينا الثانية بعامين ، أزمة الوراثة البولندية . ورغم أنها كانت ، في أصولها ، لانهم بلاد البحر المتوسط في شيء ، إلا أنه سيكون لها نتائج طوية المدى على إيطاليا ، وذلك بإعادتها طرح مسألة مصير الأقاليم التي كان أمر منحها قد شغلت لحد بعيد كل السفارات ، منذ عام ١٧١٥ .

الفصل الخامس والعشرون

وراثة بولندا، وزيادة العداء الروسى العثمانى

٩ - ضل بولندا، وزيادة قوود روسيا :

كانت المؤثرات التى نتجت فى أوروبا الغربية عن تلك الازمة الطويلة للعلاقات التمسوية الإسبانية ، والتى تلت معاهدات أوترخت ، لم تؤثر فى شرق القارة إلا قليلا . وتمكنت بولندا،والى كانت قد تأثرت فى الماضى إلى حد بعيد بذلك الصراع بين بطرس الأكبر وبين شارل الثانى عشر ، من أن تنعم طويلا بمزايا ذلك السلم الذى طاد . ولكن هذه الفترة السعيدة سوف تنتهى فى عام ١٧٢٢ وبعد أن تنتهى أزمة الوراثة التى بدأت فى هذا التاريخ ، ستظل المسألة البولندية مطروحة باستمرار أمام أوروبا لفترة تزيد على خمسين عاماً . وستكون الطريقة التى سوف تتقرر بها فى نهاية الأمر أكبر مأساة دولية - وأكبر خوى - فى ذلك القرن الذى سعى بقرن النور .

وكان الموقف فى بولندا قد تغير بعمق منذ أن كان بطرس الأكبر قد مر فيها . فلم تعد تمثل تلك القوة العسكرية الرئيسية فى الشرق . وكان القيصر ، فى الوقت الذى أعاد فيه أوجست الثانى إلى صهوة جواده ، قد فرض عليه أمر عدم الإحتفاظ بأكثر من ٢٤,٠٠٠ من الجنود النظاميين . أما السكسون ، الذين وصلوا إلى أخذ نائجها ، نتيجة لتأييد الحراب الروسية ، فإنهم لم يحاولوا التخلص من هذه التبعة حتى بعد وفاة بطرس . وكان الملك السكسونى يعيش لذته ولذواته . وكان قد قنع بسهولة بأن يكون خيال الملك فى دولة تابعة . وفى عام ١٧٢٧ ، تمكن أحد أبناؤه عهد الشرعيين ، وهو الذى سيأخذ لنفسه فيما بعد مكاناً فى تاريخ فرنسا

وزير المالية يمارس فيها نفوذاً مسيطراً ، لكي تعمل على تدعيمه ، وبالإتفاق مع الكاردينال فليري Fleury ، الذي كان الرئيس الفعلي للحكومة الفرنسية بعد سحب الثقة من دوق بوربون . ولقد أثير هذا الموضوع في المحادثات التي تمت في شهر سبتمبر ١٧٢٥ في قصر هرنوزن ، قرب هانوفر بين الملك جورج ، ومعه الوزير تاونسند Townshend ، وبين دوق بروجلي Broglie ، ممثل الكاردينال فليري . وبعد قليل ، انضم فردريك ويليام الأول ، ملك بروسيا ، إلى هذا الواقع الفرنسي الإنجليزي ، وذلك مع فكرة خفية عن أن يحاول إستخدامه ، وقت الضرورة ، لكي يوقف الروس عند حدهم .

ذلك أن الغيوم كانت قد بدأت في التجمع على سواحل بحر البلطيق . وكان أحد حصار الأمراء ، الكثير الحركة ، وهو دوق هولشتاين Holstein ، قد قرر أن يطالب ، وحتى بقوة السلاح إن إحتاج الأمر ، بالحقوق القديمة التي كانت لأسرته على شاي فيج ، والتي كان الدول قد إعترفت بإمتلاكه لها ، ويمكن من الحصول على تأييد السياسة الروسية ، والتي كانت ، ومنذ وفاة بطرس الأكبر مباشرة (فبراير ١٧٢٥) . وتمت تأييد منشيكوف Menchikov ، الوزير المسير للأمور لكاترين الأولى ، قد أخذت في الإهتمام ، من جديد بشئون المعايين وبدأوا يتحدثون عن حملة بحرية كان يتم الإعداد لها في ريفال . وأظهر الإنجليز أنهم مستعدون الرد بقوة . وأخذت الأساطيل في التجمع في موانئهم . وسيطر الخوف على ملك بروسيا ، ولم يعد يفكر إلا في الإنسحاب من التمهيدات التي كان قد أعطاها في هرنوزن : فوقع مع الروس حل معاهدة حياد ، وهرب بإتفاقية سرية من جيرانه النمساويين . وفي أثناء ذلك الوقت ، كانت بعض سفن الأسطول الإنجليزي قد دخلت إلى بحر البلطيق ، حيث إنضمت هناك إلى أسطول الناطمرك ، وأظلمت جميعها حتى إقتربت من ريفال . أما الروس ، فإنهم قد خشوا من ذلك ،

واستتر رأيهم على ضرورة القيام بتقارب مع النمسا . ووجد شارل السادس أنه سيد الموقف ، وأن في وسعه أن يقيد من ذلك : فتح في ٦ أغسطس ١٧٢٦ للبروسيين والروس ميثاقاً دفاعياً ، وذلك في الوقت الذي حصل فيه ، من هذا الطرف ومن الطرف الآخر ، على موافقته على « المرافقة المصلحية » . وسوف يصبح هذا التحالف النمساوي الروسي الجديد أحد العناصر الدائمة للسياسة الأوروبية .

٥ - الدبلوماسية الفرنسية (فلهري) ومعاهدة فينا الثانية :

وفي أثناء ذلك الوقت كانت الحكومة الاسبانية قد إنزلت شيئاً ما صوب القلعة مع إنجلترا . وكانت مظاهرات مهددة للأساطيل البريطانية قرب سواحل شبه الجزيرة ، وفي أمريكا أمام بورتو بلو ، والتي كانت تخرج منها الأساطيل ، قد تسببت في القيام بإجراءات انتقامية . وفي شهر ديسمبر ١٧٢٦ ، قرر فيليب الخامس ، ودون أن يعلن الحرب ، أن يرسل جيشاً لمهاجمة جبل طارق . وتم حفر الخنادق في شهر فبراير التالي . وسواء برضاة أو رضاء عنه ، إنشطر الإمبراطور ، والذي كان مرتبطاً بشهادته حيال مفريد ، إلى أن يقوم بدوره بطرد السفور الانجليزي . ولكنه كان مصمماً كل التصميم على عدم الاشتراك في الحرب . وكان مستعداً كل الاستعداد للإستماع لذلك النداء الذي سوف توجه إليه الحكومة الفرنسية .

وكان الكاردينال فلهري قد وصل إلى السلطة وله من العمر ثلاثة وسبعين عاماً . وسوف يموت ، دون تركها . وله من العمر تسعين عاماً . ولذلك فإنه سوف يدير السياسة الفرنسية في خلال فترة طويلة ، ويعملها تقشيع بروح سلبية تماماً ، نسبوها بشكل عام إلى كبر سنه ، وإن كانت تعمل على الاعتقاد الشديد في أنه من الضروري الاحتراس بعيداً عن القيام بأية مغامرة جديدة ، بعد الكوارث التي

كانت قد تولت بالبلاد في أثناء الجيل السابق . وكانت إحدى دلائل نجاح هذا المصالح الكبير تتمثل في مشوره ، وعن طريق المفاوضات المباشرة ، حل أسس عقد إتفاق مع النمسا . وما أن وصلوا إلى ذلك ، كان يكفي لإعلام مدريد به ، مستخدماً في ذلك نعمة مينة ، لكي يجد فيليب الخامس نفسه مضطراً إلى عدم التردد . فتم رفع الحصار عن جبل طارق في عام ١٧٢٧ . ثم تمت مفاوضات من أجل السلم ، وتم التوقيع عليها حل التوال في فيينا ومع مدريد ، من أجل عقد مؤتمر جديد ، تم فيه معالجة المشكلات المطروحة ، بدون تسرع : ووافق الإمبراطور مقبلاً ، على أن يعد بالناء شركة أوستند . وعلى الرغم من التجربة التي كانت قد حدثت في كمبراي ، ذهب ممثلوا إسبانيا - وهي إسبانيا التي كانت قد هزمت للمرة الثانية - إلى مقر اجتماع المؤتمر في سواسون ، وهو المؤتمر الذي سوف يتعد لمدة عام كامل (من يونيو ١٧٢٨ حتى يوليو ١٧٢٩) . وقد وصلوا من خيبة أمل إلى خيبة أمل أخرى . وكانت القطعية تهدد المؤتمر أكثر من مرة . ولقد تمكنوا رغم ذلك من تحاشي هذه القطعية ، نتيجة لمجهودات السياسة الفرنسية .

ولقد إعطيت سياسة فلهري ، وقبل أن تصل إلى منقها ، والتي كانت تسمى إلى المحافظة على السلم ، بكل طريقة ممكنة ، بصعوبات كثيرة ، في الداخل أكثر منها في الخارج . وكانت تحارب بالفعل ، في داخل الوزارة نفسها ، برجل كان قد وحل أخيراً إلى منصب وزير الدولة للشئون الخارجية . وحسبان شوفيلان Chauvella من أسرة تعمل في القضاء والبرلمانات ، وكان يمثل نوعاً من التفكير الذي انتشر في ذلك الوقت في البلاط وفي الجيش ، وهو تفكير خصوم النمسا . وكانت حروب القرنين السادس عشر والسابع عشر قد أدت إلى هذه النتيجة ؛ وهي التي كانت تظهر أمام العسكريين من الفرنسيين هدواً وراثياً ، هو

إمبراطورية آل هابسبورج . وهذا العداء الجديد ، والذي كان يضع الفرنسيين في مواجهة التوسيع ، لم يكن سيئه مثل العداء الفرنسي الإنجليزي ، تجارية عابثة . شعب قام بسلسلة حروب طويلة مع جيرانه ، وخضع علاوة على ذلك لسنوات من الاحتلال الأجنبي . بل كان فكراً ، بنوح خاص ، وتنظيم كتابات تاريخية ، أو تستند إلى التاريخ دون أن تكون منه ، ولها اتجاه سياسي . ولكن هذا لم يمنعه من أن يلعب دوره ، وطوال القرن بأكله . وكان شوفيلان ، في منصبه ، البطل الأول الملق لهذا الاتجاه . وكان عمله ، والذي يستند إلى قاعدة عريضة ، تريد من دقة عمل فلهي بشكل خاص : ذلك أنه كان علناً من أجل إسبانيا ، وعند النساء والإنجلترا .

وفي مدريد ، كانت الملكة تمارس ، في ذلك الوقت ، نوعاً من الوصاية . وكان فيليب الخامس ، الذي ازداد تدهور صحته وقدراته باستمرار ، قد ترك لها السلطة ، عملياً . وكان القوم التي تشعر بأنه يهددها ، قد جعل منها شخصية أجنبية في إسبانيا . ولذلك فإنها أظهرت قوة صبر ، وأكثر من أي وقت مضى ، من أجل التوصل إلى ضمان مستقبل إبنها . وقامت ببذل مجهود آخر ، وبلا جدوى ، من أجل تزويج دون كارلوس من ماريا تريزا ، الوريثة المرشحة لأخذ تاج آل هابسبورج . وجين وجدت نفسها ، في شهر فبراير ١٧٢٩ ، أمام رفض ، تقريباً صريح ، لإتجهت في هذا الوقت إلى ناحية لندن وباريس . وكانت عملية تغيير المواجهة هذه سريعة ، وعلى درجة من العنف ، كما كان عليه ذلك التحول الآخر ، في عام ١٧٢٤ ، حين ألقت بنفسها بين ذراعي النساء .

وكان شوفيلان مستعداً لكي يقوم بدور المدافع عن إسبانيا ، عند الإنجليز والنساء . وولته الفرصة لذلك ، ولم يأخذ فلهي موقفاً واضحاً صريحاً ضد مساعده . فلم تكن هذه هي طريقته . هذا علاوة على أن أعوان وذير الدولة كانوا عديدين .

يأسم موديس صاحب ساكس Maurice de Saxe ، من أن يحصل على وراثة لدوقية كورلاند ، بصفة شخصية . ولقد أثار هذا الحدث الكثير من الآمال في وادسو . ولكن كورلاند لن تصبح بعد ذلك للبولنديين ، ولا حتى الروس ؛ والذين أدى تدخلهم المباشر إلى حصار ميناء والاستيلاء عليها . واستمر إلى أحد رعايا قيصرية روسيا ، إل بيرن Biren .

ولقد أظهر أوجست الثاني ، في إحدى المحطات ، رغبة في أن يتقرب من فرنسا ، ولكنه لم ينجح إلا في إثارة قلق جيرانه ، وأسهم بذلك في أمر تدهيم التحالف التمسوي الروسي لعام ١٧٢٦ . وبعد بضع سنوات ، أدى هذا التقارب بين الدولتين العظميتين ، والثتين كانتا مهتمتين مباشرة وأكثر من غيرهما بمصدر بولندا ، وفي خط موازى لذلك ، إلى انضمام فردريك ويليام الأول ملك بروسيا إلى سياسة وثاق وتضامن في الشؤون البولندية ، ستعطي نتائج لها بعد وقت بسيط والواقع أن وفاة أوجست الثاني ؛ في عام ١٧٣٣ ، وضعت هذه السياسة حل الحكة . وسوف نرى في أحداث السنوات التالية مقدمة مشابهة لتلك التي سوف تنتهي ، بعد ثلاثين عام من ذلك ، بالتقسيم الأول لبولندا .

٢ - أزمة الوراثة والتدخل الفرنسي :

ومنذ ما يقرب من قرنين ، ومنذ أن سادت الممارسة الدستورية للنظام الانتخابي في بولندا - ديموقراطية فريدة في نوعها بحكمها ملك - كانت تتج عن كل تغيير حكم ، أزمة داخلية خطيرة . وأصبح أمر منح التاج ، علاوة على ذلك ، موضوع منافسة دولية حقيقية . وفي كل مرة ، كانت السياسة التمسوية والسياسة الفرنسية ، والثتين كانتا ، الواحدة والأخرى ، مهتمتين بصداقة أكبر دولة في الشرق تواجه كل منهما الأخرى . وكان سفراء الدولتين ، والذين كلفوا بتأييد أحد المرشحين المتحاربين وبكل وسيلة ممكنة ؛ يتناحran ، ويتلفسان في تقديم الهدايا

والرود ، الحصول على الأصوات في البداية الذي سيقوم بعملية الانتخاب .
وفي عام ١٧٣٣ سيتج من الأزمة الجديدة الوراثة صدام مسلح .

وكان أمر الخضوع لموسكو مقبولا بدرجة أقل من جانب الأمة البولندية عن قبوله من جانب ملكها السكوني . ذلك أن منتخب ساكس ، أوجست الثالث ، وابن أوجست الثاني ، والمزوج من أرشيدوقة ، قد وعد بأن يسهر على نفس الخطى التي كان والده قد سار عليها ؛ وكان هناك الكثيرون ، سواء نتيجة لإعتزاز قومي ، أو لرغبة في التخلص من تعصم سان بطرسبرج ، يرغبون في التصويت في صالح ستانيسلاس ليسزينسكي Stanislas Leszcinski ، والذي كان ملكاً سابقاً فيها معي ، بسلطة شارل الثاني عشر . وكان ليسزينسكي يعيش معيشة فراخ ، وشبه بورجوازي ، في قصر ويسيمبرج ، في الألزاس ؛ وكان يمثل التقيض الحلي لمنافسه . ونظراً لعدم وجود أي مزايا أخرى واضحة ، كان من الممكن التوصية عليه لكي يختاره الوطنيون ، إذ أنه كان قد أصبح والداً لزوجة ملك فرنسا . وكانت المسألة ترجع إلى بعض سنوات من قبل ، وفي الوقت الذي كان لوي الخامس عشر لا يزال فيه مراحلاً . فلقد حاول وزيره ، دوق بوربون ، بعد أن حصل على أمر إبعاد الأميرة الإسبانية ، أن يعمل مجدداً لكي يجد الملك زوجة . وكان قد فشل في لندن ، وحيث كانوا لا يوافقون من حيث المبدأ على أي زواج كاثوليكي . كما أن المباحثات التي بدأت بعد ذلك في بطرسبرج ، وبدعوة من القيصرية ، فشلت أيضاً لأسباب لم تبد واضحة تماماً أمام الفرنسيين ، وبعثتهم يشكون في مؤامرات مدام دي برى Mme de Prié ، صديقة دوق بوربون . وفي ذلك الوقت ، وبدلاً من أن يلتفتوا إلى فينا ، قاموا في فرنسا بهذا الإختيار وهم بدون أمل ؛ إختيار أميرة لها أصل وقاليد متواضعة ، ابنة لأحد الملوك المعزولين ، والذي كان قد حضر وطلب حتى الهواء في فرنسا ، ويعيش في قصر ، منذ سنوات ، من المعاش الذي

كانت الدولة تدفعه له . وتم الإحتفال بزواج ملك فرنسا من . الأكمة
ليزبنسكى ، كما تقول الأغاني الشعبية - في إستراسبورج ، بتوكيل في عام
١٧٢٥ .

وتقدم ستانيسلاس كرشح لخلافة أوجست الثانى ، في أول الأمر وحده
أمام الهائيت الإنتخابى . ورشعته الغالبية العظمى للنبل ، والى كان صكرم
السفير الفرنسى قد أسهم في كسبها . وسرطان ما إلتجأت الأقلية إلى قيصر روسيا .
فتم إرسال قوات روسية إلى وارسو . وإخطر الهائيت ، الذى حرم من
عدد كبير من أعضائه ، إلى أن يوافق على أوجست الثالث . أما ستانيسلاس ،
فإنه إنسحب إلى دانوبج ، لكى ينتظر هناك مجىء المدد من فرنسا .

ولم يكن أحد في أوروبا يشك في أن الفرنسيين كانوا مستعدين للدفاع عن
مصالح والد زوجة ملكهم . وكان هذا من جانب آخر ، يمتشى مع خط سياستهم
التقليدية : ذلك أن السكسونى كان متزوجاً من أرشيدوقة ، وظهرت روسيا ،
في شتوت بولندا ، على أنها شريكة خليفتها النمساوية . وكان شوفيلان ،
بطبيعة الحال ، هو رجل الحرب . فتحديث بلهجة عالية ، ووجد له أذناً صاغية :
فكان النبلاء ، ومنذ وقت طويل ، لم يحصلوا على فرصة لخدمة الملك بقوة
السلاح . وحاول فليرى أن يقتل من جوح هذا الهياج من أجل الحرب ، والذى
كان قد سيطر على أوساط البلاط والحكومة . ولكنه إخطر . مع الوقت ، إلى
أن يترك له مكانه . ولذلك فإن فرنسا سوف تتدخل ، مادام الأمر يستلزم ذلك ،
ولكن بتعرضها لأقل الأخطار .

واستدار الكاردينال في ذلك الوقت إلى ناحية لاهى ، وحيث كان قلقهم
قد تار من إمكانية وقوع عمل فرنسى في الأراضى للنخفضة ، وحيث كانت الفكرة
قد ظهرت بضرورة تجميع البلاد المهتدة . وستكون من مزايا التصريح المشترك ؛

الذى سوف يعلن بهذا الشأن ، طمأنة الإنجليز وكذلك طمأنة الهولنديين . وبعد أن إطمأن فليري من هذه الناحية ، قرر ألا يعطى لحلفائه إلا مجروحاً عسكرياً محدوداً ، وفي واقع الأمر ، غير كافٍ بشكل مافى للنظر . وكانت معونة جيشه بأكمله لازمة لتسريب ستانيسلاس ليمويسكى : ولكنه أرسل فرقة من ألفى رجل . وحين وصل قائد الحملة أمام دانزيج ، وجد أنه من غير المجدى التزول برجاله إلى البر : فكان الموقع مودحاً بالروس ، الذين كانوا يستعدون لمحاصرته . فعاد بمجنوده إلى كوينهاجن . وهناك ، تصرف السفير الفرنسى ، الكونت دى بلبور ، وفي ظل مشاعر الشرف ، ومطالب بالقيادة ، وقام قبل أن تصله أوامر جديدة بالذهاب بالمنود إلى دانزيج . ودفع بهم بجثون ضد القوات المحاصرة ، وقتل على رأسهم (٢٧ مايو ١٧٣٤) . وما أن عاد الأسطول ، وهذه المرة بشكل نهائى ، حتى فر ستانيسلاس إلى كوينهيزبرج ؛ ومرت دانزيج ، التى سقطت أمام القوة ، إلى أيدي قوات روسيا .

٤ - الحرب ومعاهدة فيينا الثالثة :

ولقد كانت هذه المرحلة هى مجرد البداية . ومادام الفرنسيون قد قرروا عدم التدخل فى الأراضى المنخفضة ، فإنهم سوف يتقلون عمليات الحرب عند نهر بو وغند الراين .

وكان فليري لا يحب المغامرات . وكان لا يتبع شوفيلان إلا رغماً عنه فى سياسته الجهادية المتصاعمة تماماً ، والتى كان يقصها بكل تصميم . وكان قد تم عقد معاهدة مع سافوا ، فى تورينو ، يوم ٢٦ سبتمبر ١٧٣٣ . وكان النصر ، الذى كتبه شوفيلان بالكامل ، يظهر فكراً مختلف تماماً عن فكر رئيس الوزراء . وتقرأ فى مقدمتها : ومن المعروف عالمياً أن الأمرة الحاكمة فى النساء تسمى منذ وقت بعيد فى استخدام القوة الموجودة لديها بدرجة كبيرة . . . ، ولكي يعملوا على .

إفشال ذلك، بتمسكوا إذن بفكرة « هذا التوازن المرغوب فيه للغاية ، والضرورى إلى أقصى حد . . . وكان الهدف هو إرجاع إيطاليا للإيطاليين : وفى ٧ نوفمبر التالى : تم عقد معاهدة أخرى ، مع إسبانيا فى الاسكودريال ، من أجل الأعمال العسكرية التى سيقومون بها .

وعلىنا أن نذكر فقط أن حاكم سافوا سيكون حليفا مشكوكا فيه : فكان فى واقع الأمر يأمل ، ومن أجل نجاح آماله فى العظمة ، فى الاعتماد على النمسا أكثر من اعتمادها على إسبانيا . وحين تبدأ العمليات العسكرية ، فنتح فيلار -- الذى كان فى الثمانينات من عمره -- والذى كان يقود الجيش الذى أرسل إلى ما وراء الألب ، سوء نيته المستمرة . ومنذ الأيام التالية لاعلان الحرب ، قامت القوات الفرنسية الليدموثية بالدخول إلى ميلانو ، ثم تقدمت حتى أمام مانتوا ، بينما قامت القوات الاسبانية بنزو الصقليين ، وقام ريسبا ، دون كارلوس ، بالانقاة فى نابولى . ولكن الأمور ظلت على هذا الحال . وبعد وفاة فيلار ؛ أصبح نجاح عمليات الحلفاء فى لومبارديا أكثر ندرة . وقتعوا بالمحافظة على الأراضي التى كانوا قد غزوها . أما فلورى ، والذى كان لا يميل إلى أية مفاوضات عسكرية جديدة ، فإنه إنتظر بصبر وقت الدخول فى مفاوضات من أجل الصلح .

ولقد حاول شارل السادس أن يجتذب كل ألمانيا إلى جانبه . وحصل من الهابت على أمر بتجهيز قوات للإمبراطورية . ولكنها كانت عملية طويلة ومعقدة إلى حد بعيد ، حتى أن هذه القوات لن يتم إعدادها إلا وقت التوقيع على الصلح . أما الجيش الفرنسى الآخر ، فى الشمال الشرقى ، فإنهم سلموا قيادته لأحد القادة العظماء الجيوش فى عصر لوى الرابع عشر كذلك ، وهو الماريشال دي رويسك Berwick ، أحد الأبناء غير الشرعيين للملك جيمس الثانى ، ملك إنجلترا . ولكن يعمى الحدود من خطر أى هجوم يقوم به الأعداء ، إتبع تقاليد القرن العظيم ،

وأحتل دوقيات اللورين . وفي الناحية الأخرى من نهر الراين ، وفي مواجهة برويك ، كان النسيويون تحت قيادة الأمير لويجين . أجنبي هو أيضاً ، بمولده ، ولحساب الدولة التي كان يخدمها بكل تفوق ، ومنذ وقت طويل . وقام برويك بالإستيلاء على كييل ، وفرض الحصار على فيليبسبرج : وسوف يموت هناك قبل تسليم الموقع بقليل (يوليو ١٧٣٤) . أما الأمير لويجين ، والذي كان هو أيضاً في آخر أيامه ، فإنه لم يكن على نفس حسن الحظ الذي كان له في الماضي ضد العثمانيين . وقصر أعماله على مجرد الدفاع عن نفسه ، وبكل صعوبة ، أمام حدود بافاريا . ووصله بعد ذلك المدد من القوات التي كانت القيصرية قد أرسلتها للإمبراطور تنفيذاً لمعاهدة ١٧٢٩ : فإتصلت أوروبا الترية ، لأول مرة ، في عام ١٧٣٥ ، بالجنود الروس . ومع ذلك فإن التدخل المتأخر للغاية ، والذي قام به المارشال لاسكي Lesky بشرين ألف رجل لن يكون له أى تأثير .

ولقد اعتقد الإمبراطور ، عند بداية الحرب ، في أنه يمكنه أن يعتمد على تأييد بريطانيا ودعمها ، طبقاً لعهودات عام ١٧٣١ . وبعد أن فقد الأمل بشكل واديكالي من هذه الناحية ، اضطر إلى أن يستمد سريعاً للإستماع للتصائح التي كان فلهي قد أبلغها إليه في صيف عام ١٧٣٥ . وكانت مسألة اللورين تمثل أساساً . والواقع أن السياسة الفرنسية فكرت في الربط بين هذا الموضوع وموضوع المرافقة المصلحية . وكانت قد قبلت أمر الإحتراف بصقورق ماريا تريزا في تولي عرش الإمبراطورية . ولكن الأرضيوقفة كانت قد تزوجت فرانسوا ، دوق اللورين . ووجدوا أنه لم يكن مقبولا أن يتمكن أحد أدواق اللورين ، وهو سيد لدولة ضخمة تتحدث للفرنسية ، وتجاور حدود المملكة ، من أن يضع في يوم من الأيام تاج شارل الخامس (شريكان) على رأسه ، حتى ولو كان ذلك بصفته زوجاً للإمبراطورة . ولذلك ، فإن الفرنسيين طرحو ، ومنذ بداية

المحادثات ، وكبدأ ، أن عليه أن يتنازل لنهره من حقوقه على الدوقيات . ثم ظهرت فكرة ترشيح ستانيسلاس ليسزيفسكى ، والذي كان لوى الخامس عشر يشعر دائماً حياله يحض الالتزامات ، كدوق مقبل الورون . وكانت عملية ربط ذكية : ذلك أنه لم يكن لستانيسلاس من وريث سوى إبنته ، ملكة فرنسا . ولم يعارض بلاط فينا ، ولكن فقط بشرط أن يعرض فرانسوا صاحب الورون عن ذلك بإعطائه توسكانيا . ووجد فلهرى أنه غير مجبر على رفض هذا الشرط ، رغم الوجود السابقة التي كانت قد أعطيت لملوك إسبانيا .

ولذلك فإن الشروط الإيطالية في معاهدة الصلح لم تكن هي تلك التي كان من الممكن التفكير فيها عند بداية الحرب . وكان شوفيلان قد وعد بأن ملك يدمروت ، بعد أن يصبح سيداً على ميلانو ، يتنازل عن دوقية صافوا التي كانت له لفرنسا ، ويحصل دون كارلوس على الصقليتين ، ويحصل دون فيليب على دوقية توسكانيا الكبرى ، مع بارما وبلزاس . ولما كانت العمليات العسكرية لم تود إلى ما كان منتظراً منها ، فكان من الضروري التراجع في ذلك . هذا علاوة على أن شوفيلان ، والذي لم يكف عن معارضة سياسة الكاردينال ، فقد الثقة فيه ، في بداية عام ١٧٣٧ . ولذلك فإن التسوية النهائية لم يكن فيها ما يمكن أن ينسب إليه . وسيحصل دون كارلوس على الصقليتين : فكان هذا ينشئ تخليه عن الدوقيات (بارما وبلزاس) . ولكنها سوف يخرجان كذلك من أيدي دون فيليب ، لكي يذهبا إلى آل هابسبورج ، كتمويض من الصقليتين .

ولقد إحتاجت المعاهدة التي سوف تنهى الأزمة التي فتحت في عام ١٧٣٣ ، وهي معاهدة فينا الثالثة ، لعدة سنوات أخرى من المناقشات . ومع ذلك ، فإنها سوف تقتصر على أن تقر ، وفي الأساس ، شروط المباحثات التي كان المفاوضون الفرنسيون والنمسيون قد فرووها في فينا في شهر أكتوبر ١٧٣٥ ،

والتي كان ملوك إسبانيا وسردينيا قد وافقوا عليها في شهر فبراير التالي . ولكن الدبلوماسيين كانوا غير متسرعين . ومن ناحية أخرى ، كانت العمليات الحربية قد توقفت منذ وقت التوقيع على المفاطحات الأولى ، الأمر الذي كان يسمح للمباحثات بأن تأخذ وقتها دون أن يتسبب ذلك في إزجاج خليف للأمال . وتم التوقيع على الوثيقة النهائية الصلح في ٢ مايو ١٧٣٨ ؛ فقط . وكان من اللازم ، بعد ذلك ، أن تقوم كل من إنجلترا وهولندا ، والتي كانتا قد دعيتا للإضنام إليها ، بتقديم مرافقتها . ولذلك فإن تبادل التصديق لن يتم إلا في ١٨ نوفمبر . هذا علاوة على أن الحكومة الإسبانية ، والتي كانت قد فقدت الأمل إلى أبعد حد ، لم تقرر أن تنضم إلى جانب حلفائها إلا في شهر أبريل ١٧٣٩ .

ولم بعد أحد في ذلك الوقت يفكر في شئون بولندا ، كسب بعيد لتلك الحرب التي وجدت أوروبا أنه كان في وسعها أن تمولها بكل سهولة . وأكدت معاهدة فيينا منتخب ساكس في وجوده على عرش بولندا . أما ستاينسلاس ، فإنه عارض لفترة طويلة ، ثم قنع في آخر الأمر بالتنازل .

وكان في وسع هذا الصلح ، الذي تم التوصل إليه بعد عمل شاق ، أن يصبح نقطة انطلاق لمرحلة جديدة . وكان فلهي ، وهو يتفارض من أجله ، يرغب في أن يرتب عليه نتائج ، هي نفس النتائج التي كان لوى الرابع عشر ، في عام ١٧١٤ ، وفيل وفاته ، يقترح أن يؤسسها ويستخرجها من معاهدات أورمخت ، ألا وهي تقارب ووافق غنلس بين فرنسا وبين النمسا ، وفي صالح السلم العام . وكان قد أفضى بذلك إلى سفيره في فينا ، وكلفه بأن يكون الوسيطة لما يمكنه أن يعمل وكأكثر أهمية لأوروبا كلها ، لإقامة تقام وإعداد طويلين ووثيقين إلى آخر درجة بين الملك وبين الإمبراطور وكان برنامجاً مغرباً ، بالنسبة للمستقبل ، في واقع الأمر ، وبخاصة أمام أولئك الذين ذكروا ، بعد قرنين من ذلك ، أن

دولة بروسيا الجديدة سكّانت مشغولة ؛ في ذلك الوقت ، في شحذ سلاحها في صمت .

٤ - صعوبة العلاقات الروسية العثمانية ، وتقارب روسيا من النمسا : وما كادت الأزمة التي نشأت بشأن خلافة أوجيست الثاني في بولندا تنتهي ، حتى أعلنت حرب جديدة على الأطراف الشرقية للقارة ، وكانت بين الأتراك والروس ، في هذه المرة .

وكانت الدولة العثمانية ، والتي سيطرت في الماضي على كل الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، وكما كانت الدولة الإسبانية قد سيطرت على حوضه الغربي ، قد دخلت في هذا العصر ، مثل منافستها ، في فترة من الضعف . ولم يعد الأمر بالنسبة إليها ، وعلى الأقل مؤقتاً ، يتعلق بعمل غزوات ، وبعدئذئذها على أراض جديدة ، ولكن بمجرد الدفاع عن المواقع التي كانت لها ، والتي كان يهددها خصوم إستمرت قوتهم في التزايد . وإذا ما نظرنا إليها من الخارج فقط ، لوجدنا أن السبب الرئيسي في هذا الضعف كان هو ظهور القوة الأوروبية لروسيا .

وكانت فترة حكم بطرس الأكبر قد غيرت مناخ العلاقات التركية الروسية بشكل أساسي . وهاتان الدولتان ، والثتان كان هدفهما المشترك بالنسبة لبولندا قد قرب بينهما كثيراً في الماضي ، وقد أصبحتا بعد ذلك عدوتين ، وبشكل دائم . وسوف يسيطر العداء بينهما ، ولعدة أجيال ، على تاريخ أوروبا الشرقية . ولإبتداء من الوقت الذي أصبح فيه مستقبل روسيا مضموناً على سواحل بحر البلطيق ، كنتيجة للإتصارات التي نجحت على السويد في عهد شارل الثاني عشر ، سيأخذ إتجاه التوسع لهذه الأمة لشأبه والنشطة عمله في إتجاه الجنوب . ومنذ ذلك الوقت ستبدأ الحرب ضد تركيا ، وبشكل شبه مستمر ، ومن وقت لآخر . وسيصبح التحالف مع

الإمبراطور ، وهو العدو الأول للسلطان ، أحد الدعام الثابتة للسياسة الروسية .
وسرعان ما يكتب فيلنيف Villeneuve ، السفير الفرنسي ، أن الأتراك يتعلمون
منذ مولدهم ، أن عليهم كره الألمان والمكوفيين .

ولقد رأينا من قبل كيف أن التحالف الروسي النمساوي قد انعقد مرة أولى
مند العثمانيين في عام ١٦٨٦ . ولكنه لم يمش بعد فقدان الآمال بالنسبة لصلح
كارلوفيتز : ولم يجد بطرس الأكبر ضرورة لإعادة إحيائه إلا حينما تعهدت بين
الأتراك والنموسيين ، في عام ١٧١٦ ، تلك الحرب التي سوف تنتهي بعد عامين
من ذلك في بيساروفيتز . ولقد رفضت المفاوضات الأولى بشأنه . ثم حصل من
السلطان ، في عام ١٧٢٠ ، على معاهدة صلح دائم ، مؤكدة مجموع تعهدات
المعاهدات السابقة ، وإن كانت قد منحت القيصر بعض التنازلات في شؤون بولندا ؛
فإذا ما قامت السويد أو دولة أخرى بإدخال جيوشها على أرض الجمهورية ، وهددت
حريات البولنديين ، يمكن للحكومة روسيا أن تتدخل ، بعد أن تتفق على ذلك مع
الباب العالي .

وحق ذلك الوقت ، لم يكن للقيصر سفير يقيم بصفة دائمة في إستانبول ، ويتم
الاعتراف له بهذا الحق في اتفاقيات عام ١٧٠١ . ثم جاءت الأحداث لكي تمنع
ممارسة ذلك . ثم تعود هذه الممارسة بالاتفاق المشترك بين الجانبين ؛ ومنذ ذلك
الوقت ، استمر التمثيل الدبلوماسي لروسيا موجودا في عاصمة الدولة العثمانية ، مثل
وجوده في عواصم بقية الدول العظمى .

ولم يكن لدى بطرس الأكبر ميلا حقيقيا إلى النمسا ، والتي كانت إدعائها
الدائوية والبلغانية سوف تؤدي ، في يوم من الأيام ، إلى وضع العقبات أمام
طموحات روسيا . وكان قد أظهر ، أكثر من مرة ، أنه يرغب في عمل تقارب مع
الحصص الكبير لدولة النمسا ، مع فرنسا ، والتي كانت مصالحها لا تهدد بأن تكون

في تناقض مباشر مع مصالحه . وكتب سان سيمون Saint Simon عن وصفه للاستقبال الذي أعدوه لبطرس الأكبر في باريس عام ١٧١٧ : أن « القصر كانت له رغبة شديدة في أن يتحد مع فرنسا » . وبعد وفاته بقليل ، وفي الوقت الذي فشل فيه مشروع الزواج الاسباني للوي الخامس عشر الشاب ، اقترحت كاثرين الأولى بنفسها لابتنتها ، ووديتها إليزابيث لهذا الزواج . ولكن المؤامرات ، في بلاط فرساي ، أدت إلى فشل هذا المشروع . وفي ذلك الوقت ، قررت حكومة روسيا أخذ تلك اليد التي كان الامبراطور شارل السادس يمدّها إليها ، وبكل إصرار .

٥ - إستيلاء الروس على آرتوف ، ومعاهدة بلجراد :

في خلال فترة من الزمن ، في هذا العصر ، إستادت روسيا من أوروبا وتحولت صوب آسيا . وكان بطرس الأول ، من قبل ذلك ، وفي سنواته الأخيرة ، قد عاد إلى مشروعات في إتجاه الجنوب . وبعد الشرق العثماني ، ظهر إليه واضحاً صوب الشرق القوقازي والإيراني . وكانت بلاد القوقاز مرتبطة بمملكة فارس بروابط غير وثيقة . وكان البعض من بينها ، مثل جورجيا ، وأرمينيا لا تخفى عواطفها بالنسبة لروسيا : إذ إنهم كانوا هناك من المسيحيين . ومنذ وقت طويل ، كان مندوبي موسكو يعملون على إعادتهم . واستغل بطرس بعض الظلم الذي كان قد نزل ببعض التجار الروس ، وبدأ في العمل ، في عام ١٧٢٢ . وتمكن من إحتلال ميناء هام على الشاطئ الأيسر لبحر قزوين ، وهو ميناء دربنت ، منذ الحملة الأولى ؛ وجاء عام ١٧٢٤ دور باكو . وعندئذ إلتفت ذلك القطاع المسلم من الأهالي صوب إستانبول ، وعيّن السلطان عسكرياً في جورجيا ، حتى يظهر للروس أنه لن يتركهم ينزلقون من هناك حتى سواحل البحر الأسود . ثم تدخلت الدبلوماسية الفرنسية ؛ فهدأت العواطف ، وقهرت بين

المحصور . وتنازل الشاه القيصر ، بمعاهدة شهر سبتمبر ١٧٢٢ ، عن الجزء الشرقى من المنطقة القوقازية ، مع دربنت وبأكو . وفى شهر يوليو ١٧٢٤ ، حصل السلطان ، من جانب ، على أمر مد سلطته على المنطقة الغربية .

وبينا كانت حرب وراثة بولندا قدور رحاها فى أوروبا ، لم يتحرك العثمانيون ، رغم الصعوبات التى كانت تمر بها النمسا . ولقد حملت فرنسا جاهدة ، وبدون جدوى ، على إقناعهم بضرورة إنتهاز الفرصة الموجودة : ولم تنجح فى ذلك أكثر مما كانت قد نجحت فيه من قبل ، عند بداية حرب الوراثة الإسبانية ، وحين حاولت ، بكل الوسائل ، أن تسهل العمل أمام شارل الثانى عشر . ولم تكن من طبيعة تلك الثقة التى كانت تتمتع بها فى إستانبول أن تتمكن من أن تستخدم القوات المسلحة العثمانية حسبما ترغب ، وفى الوقت الذى تختاره . هذا خلاصة على أن العلاقات لم تبد على تلك الدرجة من الجودة ، التى كانت عليها من قبل . وفى عام ١٧٢٠ أرسل السلطان سفارة رسمية إلى فرنسا ، وكان هذا يمثل بالفعل حدثا إستراتيجيا . وإبتداء من عام ١٧٢٦ ، أصبحت حكومة لوى الخامس عشر ممثلة فى الدولة العثمانية بواسطة دبلوماسى مجرب ، وهو ماركيز دى فيلنيف Villeneuve . وفى هذا الوقت ، كان أحد الفرنسيين ، الذى كان قد أتى وطلب حق الجوار إلى الدولة العثمانية بعد مغامرات كثيرة — وخاصة بعد أن كان قد خدم فى الجيش الإمبراطورى تحت إمرة الأمير إروجين — والذى كان قد إهتق الإسلام ، وهو كورت بونفال Bonneval ، قد تمتع بدور المستشار العسكرى للسلطان . وربما كان فى وسع الفرنسيين أن يربحوا إذا ما كانوا ، وكما إقترح فيلنيف ، قد وافقوا فى فرساي على عقد معاهدة تحالف رسمية . ولكنه كان مبدأ ثابتا من مبادئ السياسة الفرنسية بعدم أخذ تعهد مكتوب مع إستانبول : ولم تكن هناك ضرورة تسمح بأن يأخذوا على الملك « المسيحي للغاية » أنه وضع

توقيعه أسفل وثيقة رسمية إلى جوار توقيع رئيس الكفرة (١) . ولم يكن في وسع فليوى ، كاردينال الكنيسة الرومانية المقدسة ، أن ينصح لوى الخامس عشر بأن يقوم بذلك .

ومن ناحية أخرى ، كان الميثانيون مشغولين ، وبدءية كافية ، في آسيا . وكانت مرحلة جديدة من مراحل مواهباتهم مسح فارس تمتد من بيد ملك الجيوش التي كان من اللازم توجيهها صوب الحانوب والمجر . وكانت قد أصابهم سلسلة من الهزائم عند مشارف القوقاز ، حينما قرر النظام الحاكم في بولندا ، في عام ١٧٣٦ ، ومستشار قبصرة روسيا في ذلك الوقت ، وهي أنا إيفانوفا Anna Ivanova ، بنت أخت بطرس الأكبر (١٧٣٠ - ١٧٤٠) ، ضرورة إتهان هذا الوقت المناسب من أجل أن يحاول الإستيلاء على آزوف ، ودون إعلان للحرب ، تم إرسال جيش إلى الجنوب بقيادة طاهر داتويج ، الفيلد مارشال موننيخ Munich . وفي الوقت الذي كانت تتم فيه الإستعدادات من أجل محاصرة آزوف ، قاموا بنزو القرم وغرقوها ، كما خربوا وأحرقوا بالكتفى سراى ، مقر خان القرم : وكان هذا هتفاً يزيد عن الحد ، خاصة وإنهم اضطروا ، ونتيجة لنقص التموين ، إلى الإسراع في الجلاء عن البلاد . وكان المكسب الوحيد الواضح من هذه الحملة هو الإستيلاء على آزوف : هذا مع العلم بأنها كلفتهم ثمناً باهظاً للغاية في الرجال .

أما التسويون ، والذين كانوا قد خرجوا من حرب الوراثة البولندية ، ومالياتهم في حالة سيئة ، فإنهم كانوا يطمنون عدم تدخلهم فيها . وعند مفاجئهم بالإندلاع المباشر والمفاجيء لعمليات الحربية ، بدأوا بعدم الإستماع إلى مقترحات

حلفائهم ، مدعين أن معاهدة عام ١٧٢٦ لم تكن تتعلق إلا بتحالف دفاعي، وكانوا قائلين ، علاوة على ذلك ، من مشروعات الروس في الأفلاق والبغدان . ومنذ ذلك الوقت أصبح الرقاق بين هاتين الدولتين وقد ظهر على أنه مليء بالمواذاتناصفة — كما سيظل عليه دائما — وذلك عن طريق منافسة مستمرة بينهما في المنطقة البلقانية . وقامت حكومة النمسا حتى بالتقدم باقتراح غريب للوساطة ، حينما إحتجت الحكومة العثمانية على ذلك العدوان الذي تعرضت له . ومع ذلك ، فقد توصلوا إلى إتفاقية عسكرية ، في شهر يناير ١٧٣٧ . وكان على الإمبراطور أن يحاول كسب البنادقة إلى التحالف ، بينما كان على القيصرية أن تقوم من جانبها بمحاولة لكي تحصل من ملك بولندا على بعض القوات .

وكانت حملته عام ١٧٣٧ قصيرة وبدون إنتصارات . فعلى سواحل البحر الأسود ، قام مونيخ ، الذي تحرك في إتجاه الغرب ، بحاصرة موقع أوتشاكوف والذي كان عميقاً ببسالة ، والذي كلفه أمر الإستيلاء عليه ثمناً غالياً . ثم قام بعد ذلك بسحب جيشه بسرعة كبيرة صوب الشمال ، بعد أن تأثر بالجساعة والحرارة والأوبئة إلى حد بعيد . وفي ذلك الوقت ، وافق النمسيون على عقد إجتماع مؤتمري دبلوماسي ، قد يكون في وسعهم أمر الدخول إلى المعركة . وبدأت المحادثات في أرض عاينة ، في مدينة نيمهروف (بودول) البولندية ، منذ شهر يونيو ١٧٣٧ . ولكن أمر الاتفاق كان مستحيلاً. ذلك أن الروس كانوا يطالبون ، علاوة على التنازل عن القرم ، بحدود الدنيستر والحماية على الإمارات ، الرومانية . ولم يكن النمسيون مستعدين لتأييد مثل هذه المطالب ، التي كانت ستوصل حدود إمبراطورية القيصرية بالفعل حتى الدانوب .

أما الجانبان الثالثان فإنها لم يعطيا للحلفاء إلا خيبة الآمال . فمن جانب الروس كان عليهم التخلي عن أوتشاكوف . والتي إنتشر مرض الطاعون في جواربها . ومن

جانب النموسين ، كان عليهم رفع الحصار عن فيدين ، وإخلاء مدينة نيش . وفي أثناء ذلك الوقت ، لم يظهر أى إنفعال على المجر . وكانت بعض المجهودات قد بذلت ، وبمساعدة ممثلى فرنسا ، فيلنيت ويونفال ، من أجل إعادة إشمال الثورة ، والتي كانت قد ضاقت النموسين كثيراً في أثناء حرب الوراثة الاسبانية . وكان فرانسوا راكوزكى François Rakocsy ، الرئيس السابق للثوار ، والذي إنتجأ إلى الدولة النمائية منذ بضع سنوات ، قد توفى . وفكر يونفال في أن يستنخم إبنه ، والذي كان قد حرب أخيراً من أحد السجون النموسية : فجعله يتصل بالصدر الأعظم ، وحصل على أن تعترف به الحكومة النمائية ، وباتفاقية ، على أنه أمير ترانسيلفانيا ودرق المجر . ولكن الموت للفاجيء لفرانسوا راكوزكى ، بعد بضعة أشهر ، قضى على تلك المشروعات التي كانوا قد بنوها على ظهوره في المجر . وجمه عام ١٧٣٩ بالأحداث الحاسمة ، ذلك أن النماليين الذين إنتصروا في كروتزكا (٢٧ يوايو) ، جاءوا لمحاصرة المعتدين في بلجراد . وسيتم هنا ، وتحت أسوار بلجراد ، عقد الصلح ، وذلك في الوقت الذي يقوم فيه الروس ، بقيادة مولنيخ ، بعبور الدينيستر ، ثم البروت ، ويدخلون ياصى ، عاصمة البغدان . ولم يكن لدى فينا ، في ذلك الوقت ، أى أمل بشأن الحليف الروسى ، وأغد فيلنيت ، السفير الفرنسى ، من ذلك ، لكن يصل إلى تحقيق إقتراح الخدمات الطبية . وذهب لمقابلة الجيش النمائي قرب بلجراد . وبدأت المفاوضات في معسكر الصدر الأعظم وسارت بسرعة ، وتم التوقيع على معاهدة بلجراد في ١٨ سبتمبر ١٧٣٩ . ونحلت النمسا عن بلجراد وعن شمال المهراب . واستعيد الحدود الجديدة ، وهو حدود نهر الساف ، تقريباً نفس الأوضاع السابقة على معاهدة ساروفيتز . وستظل هي نفسها ، حتى عام ١٩١٤ .

ونتيجة لطلب النمسا ، إنتجات الحكومة الروسية كذلك إلى فيلنيت ، من

أجل التفاوض للصلح . ولكن موسكو وجدت أن النتيجة كانت غريبة للآمال لدرجة بعيدة . وكانت قطعة صغيرة من الساحل الشمال البحر الأسود ، فيما بين بوج والدنيبر ، هي وحدها التي تخطى العثمانيون عنها . وظلت قلعة آزوف في أيديهم : وإن كان سلاحها مزوفاً . ولم يكن من حق الروس أن يكون لهم في البحر الأسود أسطول سري ، ولا سفن تجارية .

وكادت وثيقة الصلح التي خرجت من معادلات بلجراد ، وعن قرب ، ألا يتم التصديق عليها . ذلك أنه حينما وصلت الأنباء إلى فينا ، بالنجاح الأخير الذي كان الروس قد حصلوا عليه ، تزايد عدد الذين طلبوا من الامبراطور أن يبرأ من التفاوض باسمه . وقام مونيخ ، من جانبه ، بالثورة على المعاهدة ، وإلهم فيلثيف بالحياة . ولكن قيصر روسيا ، ومثلها في ذلك مثل إمبراطور النمسا ، اضطرت إلى عدم التأثر بالفعالات المحيطين بها .

٦ - تجديده الامتيازات الاجنبية :

وشهدت الفترة التي تلت مباشرة معاهدة بلجراد أمر تدعيم العلاقات الفرنسية العثمانية . ولقد إنتهى سفر السفير للملك هذه الفرصة لكي يطلب دليلاً على الاعتراف بالجميل ، الواجب لسيدة . ومنذ ما يريد على حشرين عاماً ، كانت مسألة تجديد الامتيازات مطروحة ، بدون نجاح . وفي اليوم التالي لعقد الصلح ، لم يظهر السلطان عمود أية صعوبة أمام العودة إلى المحادثات . وتمت بعد عدة أشهر من ذلك ، في ٨ مايو ١٧٤٠ . (علينا أن نذكر أن الامتيازات لم تكن لها صفة الماهيات ، ولكن صفة عقد المنح ، تعطى من جانب واحد ، وعن طريق السلطان) .

وكانت الوثيقة الجديدة ، والأكثر اتساعاً من الوثائق السابقة ، لا تتضمن

تجديدات كبيرة . وكانت تؤكد الميزات التقليدية المعترف بها لفرنسا ولربما بما
في السلطنة . وحسبنا بعض الضمانات قد منحت التجار ضد الزيادة التعسفية
للسوم البحرية . هذا علاوة على حصولهم على ميزة عدم دفع رسوم معينة كانت
تدفع في إستانبول من جانب كل التجار الأجانب .

أما فيما يتعلق بالمصالح المسيحية في السلطنة ، فإن امتيازات عام ١٧٤٠ لم
تكن أكثر تفصيلا من السابقة عليها . وكانت الحكومة العثمانية لا توافق في هذه
المسألة بنوع خاص على تقييد أيديها بشأنها . ومع ذلك ، فإن الفرنسيين كانوا
يمقدون عليها أهمية كبيرة ، خاصة وأن خصومهم النموسيين كانوا قد نجحوا ،
منذ نصف قرن ، في كارلوفيتز ثم في بيساروفيتز ، في أن يحصلوا على بعض
الوعود ، أو ما يشبه الوعود ، والتي إدعوا ، بناء عليها ، هم أيضاً ، بممارسة
نوع من الحماية على المواقع المقدسة ، وبشكل عام ، على كل الكاثوليك
الموجودين في السلطنة . أما الروس ، من جانبهم ، فإنهم كانوا قد تمكنوا من
أن ينصوا في معاهدة عام ١٧٢٠ على بعض التسهيلات في صالح أبناء وطنهم من
الآرثوذكس . وإن ما نلصه في هذا النص الذي جاء بطبيعته غير محدد في
امتيازات عام ١٧٤٠ ، هو الامكانية التي أعطيت للفرنسيين ، في حالة وجود
صعوبات أو صدام ، بأن يرجعوا إلى سوابق قديمة ، يمكنها أن تكون في صالحهم ؛
ما دامت هي سابقة على تلك النصوص التي أصبح في وسع النموسيين والروس
الآن أن يتمسكوا بها . وعلى أي حال ، فإننا نجدهم ، بلا جدوى ، في هذه
الوثيقة من الأسس التي بنى عليها ما يمكن أن يسمى ، بعد ذلك ، بحماية
فرنسا في الشرق . ولقد ذكر ذلك في أحد الأيام أحد السفراء الآخرين
للنظام الملكي ، وهو كونت سان بريست : Saint - Priest : « إن لقب

حامي الحقوق في تركيا موجود بالنسبة للملك فرنسا في ضميرهم ، أكثر
من وجوده القانوني .

ومع ذلك ، فإن امتيازات عام ١٧٤٠ سوف تظل إحدى أسس الحماية التي
أكدتها فرنسا مرات عديدة على المسيحية الشرقية . وكان عليها أن تبقى سارية
حتى وقتنا ، وحتى الانقضاء العام لنظام الامتيازات في الامبراطورية العثمانية ،
في عام ١٩٢٣ .

الفصل السادس والعشرون

الصدامات الكبرى في وسط القرن

وصعود دولة روسيا

أولاً :- حرب الوراثة النموية

١ - ألمانيا وبروسيا :

أصبحت البلاد الألمانية ، فية ، وإبتداء من عام ١٧٤٠ ، موطناً ومركزاً لأحد هذه الخلافات التي لم تكن الدول العظمى وأوروبا قد عرفتھا منذ معاهدات أوترخت . وسوف يصبح دورھا أكثر أهمية وبكثير عن أي وقت كان عليه في الماضي . وفي أثناء القرن السابع عشر ، وأثناء حرب الثلاثين عاماً ، كانت هذه البلاد قد استخدمت كيدان العمليات . وفيما عدا وقت تسوية الحسابات في عام ١٦٤٨ ، كانت غائبة نوعاً ما عن ذلك الجانب الذي كان قد تمتع على أرضھا ، والذي كان مصيرھم يمثل هدفه الرئيسي .

وكانت معاهدات وستفاليا قد مثلت نقطة هامة في تاريخ هذه البلاد . ذلك أن المسألة الدينية وجدت فيها ، في نهاية الأمر ، حلاً سيجيش لفترة طويلة ؛ وكنت الخلافات بين المعتقدات عن أن تكون مسيطرة في العلاقات التي لهم ، فيما بينهم . ومن ناحية أخرى ، أفاد الأمراء والدول ، من استخدامهم الوضعية الإتحادية *Jus Foederis* التي تم الإعتراف بھلھم ، وبشكل سريع ، لكي يشتركوا في شئون القارة . ووجد القليل من بينهم فرصة للتدخل في أثناء الحرب التي دارت ضد فرنسا لوى الرابع عشر . وكانت الذكريات الفظيمة لحرب الثلاثين عاماً لا تزال شديدة القرب ، وبشكل لا يسمح للكثيرين ميسر بين قادتها بالمغامرة ؛

والتمخاذ مواقف أو عمل حركات يمكنها أن تزيد إشعال الهب من جديد .

وفي عام ١٧٤٠ ، كان السلام قد عاد من جديد ومنذ قليل إلى قطاع البحر المتوسط ، حينما شاهدت أوروبا نشأة أزمة جديدة في وسطها . وهذا المثير الجديد الضربات كان قد ظهر على سواحل بحر البلطيق ، كدولة جديدة نشأت من لا شيء ، وإن كانت قد عقدت العزم على أن تبقى مستقبلها على الحرب . وكان للتاريخ بداية بدأ بها فلقد شاهدنا في القرون السابقة ما اعتقدنا أن في وسعنا أن نسميه «المغامرة البرتغالية» و«المغامرة السويدية» . وبدأت «مغامرة» من نفس النوع في القرن الثامن عشر . ومرة جديدة ، ستقوم دولة صغيرة الغاية ، وعن طريق جهود طويل المدى ، بأن تضع نفسها في مساواة مع الدول الأكبر منها ، وتفرض رغباتها على كل جيرانها . ولكن ، بينما انتهت المغامرة البرتغالية والمغامرة السويدية في وقت سريع ، عاشت المغامرة البروسية خلال أجيال ، حتى أن أواسط القرن العشرين نفسه شاهد مرحلتها الأخيرة . ولذلك فإن بروسيا ستكون في مركز هذا الفصل الجديد الذي يبدأ في تاريخ العلاقات الدولية في أوروبا . وقبل أن نشرح ذلك عملياً ، سيكون من الضروري أن نذكر ما كان قد أصبح عليه هذا العالم الصغير الذي انفتح كثيراً على الخارج ، وهو عالم ألمانيا بعد عام ١٦٤٨ .

ولقد كان دورها ، على مر العصور ، يمثل المركز الديناميكي للإمبراطورية المقدسة — ذلك الأثر الباقي من العصور الوسطى ، والذي أصبح يعيش ، في الفقرة التي وصلنا إليها ، وبشكل غريب على أفتاح إيديولوجية ملغاة تماماً . ولم يكن يسمح بأية إشارة لها منذ معاهدات وستفاليا . ولم يعد الإمبراطور ، كالم يكن في وسعه أن يكون ، أكثر من شهير على المقام . ومرت كل السلطات الفعلية والحقيقية التي كان يمارسها فيها مضي إلى الجماعات الدينية . ولما اقتربت حالة

ألمانيا من حالة إيطالية . والتي لم يتمكنوا فيها أبداً من إنشاء سلطة مركزية ،
يمكنها أن توحد الأمراء والدول لمهام مشتركة ، أو حتى أكثر بساطة من ذلك ،
تقوم بدور الحكم في العلاقات التي تنشأ بينهم . وكانت الفوضى الألمانية ، ومثلها
في ذلك مثل الفوضى الإيطالية في الماضي ، تثير كل أنواع الطمع في
الخارج . وكان في وسع الحنين إلى الوحدة الضائعة — وهي وحدة لها مكائدها —
وهذه الوحدة وحدها ، أن تغرمل من زيادة روح الإستقلال التي كانت قد انطلقت
في ذلك الوقت .

وكان أمر الحصول على الوضعية الاتحادية ، ومن بين كل انتصارات الجماعات
الدينية ، هو الأمر الأكثر أهمية ، بنتائجه على تطور الشؤون الدولية . وكان حق
عقد المحادثات ، يتضمن بالضرورة حق القيام بالحرب : وكان التجديد الوحيد
المفروض على استخدام هذا الحق الآخر ، والذي كانت له نتائج خطيرة ، هو أنه
لا يمكن لأي عضو في الإمبراطورية أن يدخل في حرب ضد الإمبراطور أو ضد
الإمبراطورية . وبعد أقل من قرن بعد ذلك سرى أنه لم يكن في ذلك ما يكفي
لايقاف أمير نشط وله أطماع عن المضى في تحقيق مآربه . وكيف كان يمكن
التفكير في القيام بحرب إذا لم تكن هناك قوات عارية دائمة ؟ وليس هناك حاجة
للاعتراف الصريح بهذا المطلب الآخر حتى تتمكن الإمارات الأكثر
أهمية من أن تصبح دولاً عسكرية ، متشبهة في ذلك بنمسا آل
هابسبورج .

وفي أثناء النصف الثاني من القرن ، استخدم أكثر من أمير ألماني حق عقد
معاهدات مع الخارج ، وأصبح في وضع يسمح له بأن يلعب ، إن أمكن ، دوراً
في تلك العملية الكبرى التي كانت تسير ضد إمبريالية لوى الرابع عشر . وكان
الخبيران الأكثر قرباً من النمسا ، وهما منتخب بافاريا من الغرب ، ومنتخب ساكس

من الشرق ، يعتقدان وبشكل تقليدي على سيطرتها ، ولم يكونا آخر من طالب باستقلال سياستها الخارجية . وإنجلترا ، بنجاح ، صوب الذهب الفرنسي . وفي أثناء حرب هولندا ، وبينما كانت ألمانيا كلها تقريباً تتبع الأوامر التي كانت تصدر من فيينا ، إحتفظ منتخب بافاريا ، مستنداً في ذلك إلى جيشه وعلى المعونات الفرنسية التي سمحت له بالاحتفاظ به ، بموقف حياد متمركز . واتخذ من جديد موقفاً خاصاً به وحده ، في أثناء حرب الوراثة الاسبانية ؛ ولكنه أرتبط هذه المرة رسمياً بالاتجاه الفرنسي ، وقامت جنوده بالحرب ضد النمساويين .

أما منتخب ساكس فإنه قام بمناورات من أجل قبوله في رابطة الراين ، ثم ربط نفسه بالتحالف الفرنسي بمعاملات عام ١٦٦١ وعام ١٦٦٥ . وبعد ذلك ، ثار قلقه من المزاي التي كانت السياسة الفرنسية تنعم بها على جلده ومنافسه ، منتخب براندنبورج ، فقترب إلى السويد ، في عام ١٦٦٦ . ومع ذلك فإنه طلب إلى الملك ، وحتى لا يفقد عطف فرنسا ، ميزة أن يكون له تمثيل دائم عنده . وأصبح هناك ، ابتداء من ذلك الوقت ، تبادل منظم لسفراء ومقيمين ، بين بلاط فرساي وبلاط درسدن ، كما كان هذا الأمر قد إتبع من قبل مع ميونيخ ومع برلين . ومن ناحية أخرى ، كانت العواطف الدينية لاتزال على درجة من القوة حتى أن يمثل ملك فرنسا - وكذلك الحال بالنسبة للقيم الامبراطوري - لم يكن له الحق في حمل الصلاة في منزله . وكان المنتخب لا يشارك ، بطبيعة الحال ، هذا المنصب الورثي الموجود عند رعاياه . وفي وقت الانتخابات الامبراطورية في عام ١٦٥٦ ، سرت الإشاعات بين السفارات بأنه ، في حالة نجاحه ، لن يتردد في أن يتحول ، منهياً : فكان التاج الروماني يساوي مالمو أكثر من صلاة !

والواقع أنه لن يكون هذا التاج بالذات هو الذي سوف ينتهي به الأمر إلى أسيرة

ساكس . فبعد أربعين عام من ذلك ، تم اختيار المنتخب أوجست الثاني ملكا على
يولندا بعد وفاة جان سويسكى . وكان في حاجة إلى ترك المذهب البروتستانتي
حتى يتمكن من أن يحكم في وارسو . وأظهر رعاياه ضجرهم ، فتح للمذهب لوتر
موايا جديدة ، تسمح للساكسون ، في الوقت المناسب ، بأن يقاوموا أعمال
الرومانيين .

وفي ألمانيا ما بعد معاهدات وستفاليا ، مال كثيرون من أصحاب الجلالة المهدد
إلى أن يتنافسوا أمام رأى صاحب الجلالة الإمبراطورية ، الذي أصبح الآن محصوراً
تقريباً داخل نطاق الدول الوراثية لأن هابسبورج ، والذي أصبح نمسياً أكثر
منه ألمانيا . ورغم أن القلب للكي الذي كانوا يحبون الظهور به لم يكن سارياً إلا
في خارج حدود الإمبراطورية ، فإن هذا لم يكن يقلل كثيراً من هيئته الإستثنائية .
وفي مواجهة صاحب الجلالة البولندية ، الذي كان يقيم في درسدن أكثر من
إقامته في وارسو ، ظهر صاحب الجلالة البروسية ، بعد بضع سنوات ، في عام ١٧٠١ ،
وكان يفضل على كونيجزبرج عاصمة مملكته والمدينة المقدمة ، برلين ، التي كانت
المقر التقليدي لمنتخبى براندنبورج . وأخيراً ، في الغرب ، كانت هناك إمارة هانوفر
المتواضعة ، والتي بقيت في عام ١٦٩٢ إلى مستوى الانتخابية ، وكانت هي مقر
مولد الأسرة الجديدة متى جاءت لتأخذ مكان أسرة إستورات على عرش إنجلترا .
وكان جورج الأول ، أول ملوك أسرة « هانوفر » (١٧١٤ — ١٧٢٧) ، لم
يترك إلا في النادر عاصمة أجداده ، وحيث كان يحب عرض حظه غير
المتوقع .

ومن بين كل هؤلاء الملوك ، المحدثين ، سيكون ملك دولة براهمبورج
بروسيا هو الذى سوف يشغلنا بطريقة شبه مستمرة . ولقد وصل تاريخ أوروبا
إلى نقطة حاسمة ، في عام ١٧٤٠ ، وذلك مع وفاة الملك الجاوش ، ومرور التاج

إلى إينته . وكذلك الحال بالنسبة لتاريخ العلاقات الدولية والذي يدخل في مرحلة جديدة من مراحلها . وسوف تستبعد لفترة من الوقت تلك الطريقة الآمنة في معالجة مسائل الخلافات بين الدول . ذلك أن الملك الجديد ، فردريك الثاني ، الذي كتب عن « ضد مكيا فيلي » في شبابه وكان في وسعه أن يبدأ به فترة حكمه ، لم يكف عن أن يستوحى من أمحق المبادئ المكيا فيلية — أو على الأقل ما تعود العالم المتحضر أن يسميه بهذا الاسم . وكان النجاح الباهر الذي يفخر به مهدداً بأن يتحول لتمجيد ألن وسائل النجاح ، وهي تلك التي لم يكف عن إستخدامها ، من مكر ، وقسوة ، وسوء نية .

وإذا ما نظرنا إليها من وجهة النظر البشرية ، أو الديموجرافية ؛ نجد أن الصعود المفاجيء لدولة براندنبورج — بروسيا إلى مصاف الدول العسكرية العظمى لم يكن أقل إثارة الدهشة عما كان قد حدث مع السويد في الماضي . وكان عدد سكانها تقريباً نفس الشيء ، أي أقل ، ولا يصل إلى مليون نسمة في عام ١٧١٥ . ومع ذلك فقد تضاعف في أثناء نصف القرن الأخير . الأمر الذي أسهم فيه الانجاء المتكاثر للبروتستانتين الفرنسيين ، والذين طردوا نتيجة لإلغاء مرسوم نانك . وكانت الموارد هي موارد إقتصاد لا يزال زراعياً تماماً تقريباً ، وكانت البلاد في غالبيتها قديمة : فلم تكن هناك ، في ألمانيا كلها ، مناطق أكثر قراً من هذه السهول المليئة بالرمال ، أو المستنقعات ، في منطقة بحر البلطيق . وعلاوة على ذلك ، لم تكن هناك منطقة في ألمانيا أظهرت فيها جيوش حرب الثلاثين عاماً مزيداً من الغراب : فكانت براندنبورج من بين أكثر الدول التي غربت بشكل فظيع .

ونتيجة لهذا التوزيع الكبير للأقاليم التي تتكون منها ، كانت الدولة التي ورثها فردريك الثاني تقاسي من صعوبات أخرى : فكانت ممرضة بشكل خطير لكل

هدنان ، ومفتوحة في وجه الغزوات . وكانت هي أقرب .. كما لاحظنا في أكثر من مرة - إلى مجموعة من الدول عن كونها دولة بمعنى الكلمة . ولكي نعطى لها وصفاً دقيقاً ، علينا أن نبدأ بتجميع أجزائها ، الموزعة على الخريطة . وفيها عددا براندنبورج وبروسيا ، والتين كانتا تكونان وحدات صلبة ، علينا أن نمر على بقية الأقاليم حسب أهميتها : فالشمال نصف يومرانيا ، و صوب الغرب إسقفيتين قديمتين ، تحول نظام الحكم فيها إلى نظام طماني ، دوقية مجدبورج ، وإمارة هالبرستاد ؛ وفي وستفاليا إمارة مندند وكوتية دافتربرج ؛ وفي منطقة الراين كوتية لامارك ودوقية كليف ، وزاد عليها في عام ١٧١٣ جزء من جيلدر ؛ وفي الجنوب الغربي ، في سواب ، إمارة هونزلرن ؛ وأخيراً ، وعند الكاتونات السويسرية وفراش كوتية ، إمارة نيوشاتل البعيدة ، والتي كانت إحدى الممتلكات الشخصية للملك ، وضممتها له معاهدات أوترخت .

وكان للنتخب الكبير ، وهو من معاصري لوى الرابع عشر ، قد قام بعملية استثمار فعلية في داخل البلاد . فاستقدم ، منذ عام ١٦٤٨ بعض المولدين ، وجعلهم يقيمون في وادي هافل ، واستخدمهم في عملية كسب وإستصلاح أراضي من مياه مناطق المستنقعات . وبعد قليل امتدت هذه المزايا إلى كاتونات أخرى . وكانت هذه البلاد التي تؤمن مجداً لوثر ، وبحكمها أمر من أنصار كلفن ، بالضرورة تسهر على إتجاه التسامح الذي منذ وقت بعيد . وكان اللاجئون من كل منخب يضمنون أن يجدوا فيها ملجأ . ولذلك فإن البروتستانت القرنين إجماعاً إليها في وقت الإضطهاد الكبير ، ودون حتى أن يستمعوا للنداءات التي كان الملك يوجهها إليهم . وفي وقت بسيط ، زاد عدد سكان برلين من ستة آلاف إلى عشرين ألف نسمة : وفي نهاية حكمه ، كان ربع سكانها مسن أصل فرنسي .

ولما كان على المنتخب الكبير أن يقوم من وقت لآخر بالحرب ، لذلك فإنه أتم هذا العمل الضخم ، والذي يتمثل في أن يعد ويحفظ بجيش يقرب من ٢٠٠.٠٠٠ جندي . ولم يكن مضطراً إلى أن يحدد أن جزءاً بسيطاً منه كانت من أبناء براندبورج وروسيا . وكانت الطريقة العادية ، في أول الأمر ، هي إستخدامهم من الخارج ؛ ثم تطورت الظروف إلى درجة جاءت لحفظة مشروعات المنتخب العلمية . فحصل بعض الضباط الفرنسيين من اللاجئين ، ابتداء من عام ١٦٥٦ : على رتبة كولونيل ، وتم تعيينهم ، للقيام بعملية التنظيم . وبعد ذلك ، في أثناء حرب هولندا وبسببها ، إستمرت الحركة ، وأصبح حتى يجرد الجنود البسطاء يصلون . وحصلت الإمارات الألمانية الأكثر قرباً على زيادة بعض المتطوعين البروسيين : وكان هؤلاء يعملون في بعض الأحيان بدون تصريح من سلطات البلاد ، الأمر الذي أدى إلى نشوب بعض الحوادث . وحينما إقتنع المنتخب بأمر عقد إتفاقيات مع جيرانه هذا الشأن ، نصروا فيها على حق إمكانية طلب وإعداد الفارين من الجيش .

وبالنسبة لهذا البنيان المختلط ، الذي كان هو دولة براندبورج وروسيا ، بعد عام ١٦٤٨ — وينوع خاص بعد عام ١٧٠١ ، وبشكل مركز بدرجة أكبر على بروسيا — كان مركز الثقل يتمثل في العاصمة ، والتي كانت موجودة على مسافة بسيطة من المجرى الأدنى لنهر أودير . ومن هذا الطريق ، كانت المنتجات الزراعية والمعدنية لسييليزيا تنزل وتصب حوب بحر البلطيق . وسيكون من الجائز فيه أن تذكر سلفاً أن نهر أودير كان يقوم بدور النهر الذي يقدم الطعام لدولة براندبورج وروسيا . ومع ذلك فإن هذه الوسيلة لسرور الثروات التجارية أسهمت إلى حد كبير في أن تزود مالية الإتحاية بما كان يفرض عليها من رسوم . وستكون سبباً في أن تولد ، لدى الأمل الذي وصل إلى السلطة ، رغبة كبيرة في

الإستلاك ، ويمتد في وقت قصير على سيليزيا كلها .

٢ - أوضاع أوروبا ولدخل فرنسا :

استمر فردريك الثانى ، أكبر ملوك هوهنزلرن ، فى الداخل ، فى المجهودات التى كان قد بدأها أسلافه : وذلك من أجل أن يعمل من هذا المجموع المخلط ، والذي كان يكون الأجواء المختلفة للمملكة ، بنياناً ، إن لم يكن متناسقاً ، فعلى الأقل متوازناً . وكان هو المؤسس الفعلى للدولة البروسية . وكان يتميز بذكاء خارق للعادة ، وأيضاً بطبيعة للقامر ، التى كان فى وسعها أن تنزل به إلى الحضيض ؛ ولكنه أظهر عزيمة من حديد ، ووضعا فى خدمة معنى سياسى واضح . وكانت له نحث تصرفه علاوة على ذلك - - - وعلمنا أن نذكر ذلك - - - مادة بشرية ذات صلابة نادرة ، ظهرت صفاتها التحمل والتماسك ، مثل صفاته على أنها بطولية .

وكان فردريك قد وصل إلى العرش (٣١ مايو ١٧٤٠) ، حين جاءت وفاة الإمبراطور شاول السادس (٢٦ أكتوبر) لكن تمنحه الفرصة التى كان ينتظرها حتى يظهر . وكان له من العمر عثمانيه وعشرين عاماً . وشعر بأن عليه أن يلعب دوراً كبيراً . وكتب يقول . لقد حان الوقت للتغير الكلى للنظام السياسى القديم . وسوف يقوم بالتدخل ضد النمسا ، ويقوم فى نفس الوقت بإشغال النار فى أوروبا . لم يكن قراره من بين تلك القرارات التى يعد لها من بعيد ، المشروبات المدروسة لفترة طويلة ، والناخبة فى صبر . ففى العام السابق ، حين فكر فى المستقبل ، فكر بطبيعة الحال فى إمكانية الحصول على ممتلكات جديدة : ولكنها كانت بروسيا البرلندية ، وبوميرانيا السويدية ، وماكلمبروج ، ودوقيات برج وجولير ، ولم يكن بينها أى إقليم يخص النمسا . وإذا كان قد غير إستعداداته فجأة ، فإن ذلك كان على علاقة بمحدث مفاجئ ، كان فى وسعه أن يتأخر عن ذلك :

فلقد توفي شارل السادس وله من العمر خمسة وخمسين عاماً . وستجد الملكية النمساوية نفسها وقد ضعفت تحت حكم امرأة شابة وليست لها خبرة ، الأمر الذي قد يؤدي إلى منازعتها التاج الإمبراطوري ؛ فكان من الضروري عدم التردد ، وإنتهاز الفرصة .

وكانت سيليزيا هنا ، مجاورة لبراندنبورج ، ومرتبطة بها بجرى أودير . ولم تكن الصعوبة تتمثل في الإستيلاء عليها ، بل في أمر الإحتفاظ بها : خاصة وأن النمسا كانت دولة عسكرية كبرى ، ويوجد عدد سكانها سبعة أو ثمانية أضعاف على عدد سكان مملكة هونزلرن الصغيرة ؛ وكانت لها موارد من الرجال ومن الأموال أكثر منها وبراحل . وكان أمر إنتزاعها منها يبدو على أنه من الجنون . وكان الكثيرون ؛ في الخارج ، يستقدون في ذلك . ولكن فردريك كان يحب المخاطرة ؛ وكان واثقاً في نفس الوقت ، في نفسه ، فقام ، بعد شهرين من وفاة الإمبراطور ، وبدون إعلان حرب ، بإدخال قواته في سيليزيا (١٦ ديسمبر ، ١٧٤٠) . ثم طلب إل فينا أن تتنازل له عن الإقليم ، عارحاً ، في نظير ذلك ، أن يعطى صوته لفرانسوا صاحب اللورين ، زوج ماريا تريزا ، في يوم الإنتخابات الإمبراطورية . ورفضت مملكة المجر ، وبكل إستحقاق فكرة عقد صفقة من هذا النوع .

وكان فردريك يعرف جيداً أوروبا التي كان يعيش فيها . وكان له الوقت الكافي ، ودرسها في أثناء سنوات الإنتظار التي كان قد قضاهما بعيداً عن والده ، والبلط والاهمال ، في وحدته في فينبرج . وكان يعرف أن هناك إمكانيات كبيرة لكي تظل النمسا في عزلة . أما حليفها الروسية فلإنها مرت في أزمة كادت أن توصلها إلى الشلل . وكانت الوصية ، أنا ليوبولدوفا Anna Leopoldvna ، مشغولة بصعوبات ضخمة في الداخل ، فكانت بالتأكيد لن تتمكن من المشاركة

في الحرب ، وحيث لم تكن مصالح الامبراطورية مهددة بطريق مباشر . وكانت إنجلترا ، وهي حليف آخر لآل هابسبورج ، من جانبها ، في حرب على البحار مع إسبانيا منذ السنة السابقة ، ولصالح خروج التتلاق الأوربي . أما فرنسا ، والتي كانت تجمارها تقاسى أكثر فأكثر من المنافسة الإنجليزية ، فكانت تظهر تعاملها مع إسبانيا ؛ وبدأت ، هي كذلك ، على أنها على وشك الاشتراك في العمليات الحربية ؛ وكانت قلبية دبلوماسية قد وقعت بين فرساي وبين لندن . ولذلك فإنه لم يكن في وسع الإنجليز أن يواجهوا ، إلا بكل ضيق ، أمر ظهور تعقيدات جديدة في أوروبا . وكان تحالفهم لعام ١٧٢١ مع النمسا لا يزال سارياً . ولم يكن في وسعهم بطبيعة الحال أن يمرروا أنفسهم منه في وقت تكون العلاقات فيه مشدودة مع فرنسا . ولكنهم سوف يبدلون كل ما هو ممكن من أجل إيجاد حل وسط بين فيينا وبرلين . وسوف يصلون إلى ذلك في مدة عام .

ونادراً ما كانت السياسة الفرنسية على هذه الدرجة من غم التأكيد بالنسبة لأهدافها ، وأيضاً غير ضامنة لوسائل عملها ، كما كانت عليه في ذلك الوقت . وفي القرن الماضي ، كانت لم تنجح ، رغم الظروف المواتية - ضف الدولة الإسبانية ، وطول مدة إنغلاق إنجلترا على نفسها - في القضاء على دولة الشمال ، قضاءً نهائياً ، وذلك بضمها الأراضي المنخفضة إليها : فقد ترك ريشيليو نفسه يجمع تحت تأثير المتناطيسية ، بظمنة دولة السويد ، ذلك الكائن الضخم الذي كانت أرجله من المصلال ، وقد ما زان جولته لأنه أراد أن يكسب الكثير ، وفجأة . ولذلك فإن المشكلة الكبرى التي كانت قد طرحت نفسها بين فرنسا وإسبانيا منذ عهد شارل الخامس لم يوجد لها إلا بداية لحل في عصر لوى الرابع عشر . وعند نهاية القرن السابع عشر ، تم تحويل هذه المشكلة إلى القرن الثامن عشر : فلم تكن الظروف قد تغيرت إلا قليلاً حينها تدهعت معها أحداث أوترخت السائدة على الأراضي

المنخفضة من إسبانيا لكي تمهدا إلى آل هابسبورج النمسا . ولعدة ديم قرن ،
ومادام التحالف الإنجليزي قد ظل قانون تلك السياسة التي كان ينفذها الوصي ،
ومن بعده فليرى ، لم يكن هناك مجال لإعادة طرحها على مائدة المفاوضات .
ولذلك فإننا رأينا الوزير الفرنسي يعرض من جانبه أمر توحيد الأراضي المنخفضة
وقت أزمة الوراثة البولندية .

ولكن الظروف أصبحت الآن ، وقد اختلفت شيئاً ما ، فكانت إنجلترا جورج
الثاني إلى جانب النمسا . فهل سيتركون ، مرة جديدة ، فرصة تسوية المسألة تمر ؟
ولم يعد شوفيلان في السلطة . ولكن روح سياسته كانت لا تزال موجودة ،
ومستمره في التأثير على قطاع هام من الرأي العام . وأصبحت باريس وفرساي
يميلان إلى بروسيا خاصة بعد أن حصل فردريك على سمعته كذلك بحب الفلاسفة .
وأصبح رؤساء الحزب المعادي النمسا الآن سيدان كبيران وأخوان ، كونت بل
إرل ، وفاروس بل إرل . *Beau Isle* . وكان يقف خلفها كل النبلاء المعكرين ،
وكما هو الحال دائماً ، متشوقين للغمارات . ولكن ظهري كان لا يزال في السلطة ،
ويظهر أنه كان أكثر حياءً للسلم عنه في أي وقت مضى — وعلى الأقل فيما يتعلق
بشئون القارة ؛ إذ أنه على البحر ، كان يفكر في الموافقة على التدخل ضد إنجلترا
إلى جانب يورليون مدريد . وعلى أي حال فإنه لم يكن ذلك الرجل الذي يمكنه
أن ينتهر الفرصة التي عرضت نفسها لكي يحصل ، إما على الأراضي المنخفضة عند
إعطائه بمعونه النمساوين ، ولما على الأقل على جزء من الأراضي المنخفضة ،
وذلك كضمن لحياذه . وسيكون سياسته ، وبعد تمنن ، هي سياسة إمتناع
مؤقت . ومع إستثناء واحد ، وكما حدث في أثناء الأزمة السابقة ، فإنه لن
يتمكن لفترة طويلة من أن يقف في وجه إنطلاقة الرأي العام . وسرعان ما يجد
نفسه مضطراً إلى أن يقدم له التنازلات ، مع نفس النيات السابقة ، وبته على أن

يشارك في الحرب بأقل درجة ممكنة ، وبأن ينسحب منها عند أول إمكانية لذلك . وستكون النتيجة الوحيدة لمقاومته الطويلة هي أن يضر وبشكل خطير بالنتائج التي يمكن توقعها من عملية دخول سريعة وقوية في الحرب .

ولقد تمكنت العناصر المعادية للنمسا ، وبمساعدة لوي الخامس عشر ، والذي تمحوا في كسبه إلى وجهات نظرم ، من أن يجبروا فلوري على أن يقبل التفاوض مع فردريك من أجل الانتخابات الامبراطورية ، التي كانوا يعدون لها . وكانت نية الوزير تتلخص في عدم إعطاء بروسيا او بافاريا إلا إتفاقيات دفاعية محنة . ولكن الحرب المعادي للنمسا طغى عليه ، وكان رئيسة كورت بل إيل ، قد حصل على وثبة مارشال فرنسا ، وتم اختياره كسفير فوق العادة لدى البلاط الانتخابي وفي ألمانيا ، ظهر بل إيل على أنه الموجه الحقيقي للسياسة الفرنسية ، وليست سياسة الانتظار التي كان فلوري يتمسك بها ببناد ، ولكن سياسة تدخل فعالة ونشطة ضد النمسا . ولم يكن الأمر ينطبق بمجرد مساعدة منتخب بافاريا ، شارل ألبرت ، على أن يقتصر على فرانسوا صاحب اللوين : بل كان من الضروري عمل كل شيء من أجل وضع ماريا تريزا في عزة تامة .

وكان من الطبيعي أن يلعب فردريك الثاني دوراً هاماً في ذلك التكتل الذي كان تحت التكوين . ولقد جعل نفسه مهماً ، وجعل نفسه وكأنه لا يمكن الاستغناء عنه ؛ وجعلهم يطالبون به ؛ وظهر على أنه غير متسرع في أمر إعطاء تعهدات . واستمرت تسوياته حتى بعد الانتصار الساحق الذي حصل عليه ضد النمسيين في ملويتز ، قرب برسلو (٥ أبريل ١٧٤١) . ولكن يوافق على أن يرتبط مع السياسة الفرنسية ، كان من الضروري أن يتأكد ، في مفاوضاته مع فينا ، من إمكانية زحمة عناد ماريا تريزا عن أن تتنازل له عن أي شيء . وعندئذ

فقط ، وافق على التبعات التي طلبها بل لزل . تم التوقيع على معاهدة أول ، في
نيمغنبروج ، في بافاريا (مايو ١٧٤١) . ضمنّت تأييده لترشيح شارل ألبرت ،
وذلك في نفس وقت تأييد ملك إسبانيا ومنتخب ساكس . ثم تعهد بعد ذلك ، في
برسلاو ، في شهر يونيو ، بالتحالف مع فرنسا .

وهكذا تم إرسال جيش فرنسي ، بقيادة بل لزل ، ضد القوات الامبراطورية
وسنضم إليه ، في أثناء الطريق . وحدات من بافاريا . ولم يكن هدفه فينا ، ولكن
براغ . وكانوا يعتقدون أن في وسعه ، بعد أن يدخل إلى بوهيميا ، أن ينسق
ويسهر هذه العمليات سيقوم بها ضد العاصمة مع تلك العمليات التي يقوم بها
ملك بروسيا في سيليزيا . وسرطان ما يظهر فردريك قلعة إختياره لتبعاته التي
إرتبط بها . فكان قد حصل ، وبوساطة إنجلترا ، على مالم يكن عقد التحالف مع
فرنسا قد يمكن من أن يسلبه له ، وهو وعد رسمي بالتنازل له عن سيليزيا السفلى .
وكان في هذا ما يكتفي لأرضائه ، وعلى الأقل مؤقتاً . وستتم عملية «إخراج» بكل ذكاء
يموهوا بها على الفرنسيين أمر ذلك الوفاق الذي تم على حسابهم ، وذلك في الوقت
الذي ستأتي هدنة ، وطبقاً لاتفاقية كلاين شيلندورف السرية (٩ أكتوبر ١٧٤١) ،
لكي توقف العمليات الحربية بين بروسيا والنسا .

وبعد ستة أسابيع من ذلك ، قام الجيش الفرنسي البافاري بالاستيلاء على
براغ . وقام شارل ألبرت ، منتخب بافاريا ، بتتويج نفسه ملكاً على بوهيميا .
وفي نهاية شهر يناير ، تم انتخابه امبراطوراً . في فرانكفورت ، بإسم شارل
السابع . وفي هذا الوقت ، وبخ فردريك نفسه ، وبعد أن تأمر بتجتاح جيوش
ودبلوماسية ملك فرنسا ، على أنه لم يقدر المزاي التي كانت ستعود عليه من
التحالف معه ، حق قدرها . فتذرع ببعض الدرائع الوامية لكي يخرق هدنة العام
السابق . ثم قام ، وبدون أقل ضيق ، بفتح المحادثات مع الفرنسيين من أجل المخلول

في حملة جديدة . ولكنه أظهر حذره ، وصعوبة إحتوائه . فلم يصلوا إلى إتفاق . أما العمليات التي بدأت بدون تفاهم سابق فإنها لم تؤدي إلى شيء . وعندئذ قام ملك بروسيا بالإلتفاف من جديد ، وعاد إلى سياسة كلاين شيلندورف ، وسار فيها حتى نهايتها المنطقية ، وعقد إتفاقيات ضمنت له كل سيليزيا ، السفلى والعليا : مفاوضات برسلو ، التي تأنكت بمعاودة برلين (٢٨ يوليو ١٧٤٢) . وبدوره ، قام منتخب ساكس بإلقاء السلاح في شهر سبتمبر : ولم يتأخر كثيراً عن المرور إلى المعسكر النمسي ؛ وأكد النمسيون أنهم كانوا الأقوى ، وبلا جدال .

ومنذ التوقيع على معاهدة برسلو ، دخلت قوات ماريا تريزا إلى بوهيميا . وسارت في اتجاه براغ ، وحيث كان المارشال بل لزل ، مهدداً بالحصار ، ولين لديه تموين كاف ، فقرر العودة بقواته إلى فرنسا ، ولم يترك في الموقع سوى أربعمائة رجل . وهذه الجابية الصخرة ، تمكنت من الصمود لمدة أشهر ، ثم حادت إلى بلادها في بداية شهر يناير ١٧٤٣ ، وهي مكلفة بفناء الحرب . وتبعت بافاريا مصير بوهيميا . وفي نفس اليوم الذي تم فيه تتويج شارل السابع ، كإمبراطور منتخب ، في فرانكفورت ، دخل أحد الجيوش النمسية إلى ميونيخ : وسرعان ما يتم إحتلال الانتخابية كلها .

ولكن ، هل كان في وسع آل هابسبورج أن يكسبوا الجولة؟ كان هذا هو السؤال المطروح في كل مكان في أوروبا . وفي لندن ، على أي حال ، كانوا قد بدأوا يسيرون كل شيء من أجل مساعدتهم على ذلك . ومنذ أن كان والبول قد ترك السلطة (فبراير ١٧٤٢) ، لم يعد هناك أي إحتال للتدخل كوسيط في الخلاف . وتحت دفع كارتريت Carteret ، رئيس الوزراء الجديد ، تنهض الإنجليز من منعمهم عن المهول وبدون أسباب سرية في شئون القارة . وقرروا

أن يساعدوا ، عسكرياً ، حليفهم النمساوى ، وذلك بعد أن يضمنوا التأييد المسبق من حيواتهم الهولنديين . وتم فضح ذلك الاتفاق الذى كان قد تم التوقيع عليه فى هانوفر (٢٥ نوفمبر ١٧٤١) ، والذى كان قد منحه الفرنسيين كل حرية للعمل فى الامبراطورية . ووافق الملك جورج على تكوين جيش صغير ، إنجليزى ألماني ، سوف يسمى جيش المصلحة ، لأنه سيكلف بشكل أساسى بتنفيذ قرار المصلحة ، لعام ١٧١٣ .

وفى لندن ، أصبح الشعار العام هو أن ينطلقوا لفرنسا ، ومنذ ذلك الوقت ، كل الصعوبات الممكنة فى أوروبا ، وفى خارج أوروبا . وأظهر كاتريست أنه كان مادافى لفرنسا ، أكثر من كونه صديقاً للنمسا : ففكر فى وقت معين ، وفى مؤتمر هاناو (يوليو ١٧٤٣) ، فى أن يتم احتفاظ شارل السابع بالتاج الامبراطورى وذلك فى نظير أن تستعيد النمسا دوقيات اللورين والألواش : ولكن فيما رفضت مثل هذا الاقتراح ، وبكل ترفع . ولكنه نجح بدرجة أكبر فى إيطاليا . وكان شارل إيمانويل الثالث ، ملك سردينيا ، قلقاً من مشروعات وأطامع إسبانيا فى إقليم ميلانو ، وكان لا يأمل فى الحصول على شئ من فرنسا فلهى ، فغير مواجبهته : وذهب إلى النمسا . وبمعاودة ورمس (سبتمبر ١٧٤٣) ، والى تم عقدتها تحت حماية إنجلترا : تعهد بخدمة قضية وأهداف آل هابسبورج ، وذلك نظير الموافقة على التنازل له عن جزء من إقليم ميلانو ، إلى الغرب من تيسن ، ومن جانب آخره وعد الهولنديون ، والذين كانوا قد طلبوا بوجهات النظر التى تسببت إلى فرسان من ناحية الأراضي المنخفضة ، بإعطاء مفونات لخصومها : وهكذا نجد أن الدبلوماسية الإنجليزية كانت تحاول إقامة كتل كامل ضد فرنسا . ولذلك فإننا نجد أن الحرب فى أوروبا سوف تصبح منذ ذلك الوقت مرتبطة كل الارتباط بتلك التى كان تدور ومنذ سنوات عديدة على المحيط ، بين الأسبان وبين الإنجليز .

٣ - تدخل انجلترا واستمرار الحرب في أوروبا :

كانت أصول أزمة العلاقات الانجليزية الاسبانية ، في عام ١٧٣٨ ، تعود إلى حركة التهريب الانجليزية ، والتي استمرت في التزايد في أمريكا نتيجة للبيزات التي وافقت إسبانيا على منحها لمناقصتها وقت التوقيع على معاهدات أوترخت ، من إحتكار التجارة في العبيد السود ، وسفينة التصريح . وادى هياج الرأي العام ، ونتيجة لشكاوى التجار المستمرة ، إلى إعادة إحياء ذلك العداء القديم بين البلدين ؛ فوقعت الحوادث وتكررت ، واضطر والبول بشكل معين إلى أن يصل إلى إعلان الحرب . وكان مسرح العمليات العسكرية في أول الأمر هو ساحل كولومبيا ، وحيث تم إحتلال بورتو بولر في عام ١٧٤٠ ، ومحاصرة كلوتاجين . ولم يكن هناك أى شيء حاسم قد تم ، حتى الوقت الذي بدأت فيه العمليات الحربية في أوروبا ، وهي التي منعت بذل أى مجهود جديد في العالم الجديد .

وكان عام ١٧٤٣ ، الذي شاهد تدخل الانجليز بنشاط في شئون القارة ، هو أيضاً عام وفاة فليري . ولذلك فإنه كان ، بالنسبة لفرنسا ، نهاية التردد ، وأنصاف الحلول ، والتسوية . ولم يبق لوى الخامس عشر خلفاً لهذا المستشار الدائم ، والذي كان قد حاول ، وبلا جدوى ، ان يتخلص من سيطرته في السنوات الأخيرة . وتشبه بجده لوى الرابع عشر ، وأعلن انه سوف يحكم نفسه منذ ذلك الوقت . ولكنه كان ضعيفاً ، وسوف يصبح لعبة في ايدي المحيطين به . وفي ذلك الوقت ، كان الحزب المحب للحرب ، حزب بل إيل ، هو المنتخب . فتمكن من ان يحصل على إتمام مشروع التحالف مع إسبانيا ، وهو الذي كان تحسه المناقشة منذ سنوات عديدة . وجاءت معاهدة فونتنبلا (اكتوبر ١٧٤٣) لكي توحد فرعي أسرة البوربون في الحرب ضد إنجلترا والنمسا . ولذلك فإنه يمكننا إعتبارها على انها أول ميثاق للأسرة .

وكان من الطبيعي أن تمر شئون أوروبا الوسطى إلى المرتبة الثانية ، وأن تظهر مساح عمليات جديدة : الأراضي المنخفضة ، وإيطاليا ، والبحر المتوسط ، وأخيراً المحيط والمستعمرات . وكانوا حتى ذلك الوقت قد عاشوا في فرساي على ذلك الخيال بأنهم لم يكونوا في حالة حرب مع الانجليز ، ولا حتى مع النمسيين وكانوا يعتبرون أن الوحدات العسكرية التي كانت قد أرسلت إلى بوهيميا في عام ١٧٤٠ تتبع جيش شارل السابع ، وبصفتها مجرد قوات مساعدة . ولذلك فإنهم أعلنوا رسمياً إعلان الحرب إلى لندن ، في شهر فبراير ١٧٤٤ ، وإعلاناً آخر إلى فينا ، في شهر أبريل .

وبعد أن تحررت السياسة الفرنسية من ذلك والحجر ، الذي كانت قد فرضته عليها رغبة فلهي المسألة لقاية ، عادت بطبيعة الحال إلى هدفها التقليدي ، وهو غزو الأراضي المنخفضة . أما النمسيون ، والذين كان تهديد روسيا لهم عند حدود بوهيميا قد أقدم أنفاسهم ، فإنهم هجروا عن أن تكون لهم قوة كبيرة هناك . ولذلك فإن حملة قد أخذت تستعد من أجل العمل في ربيع ١٧٤٤ . وفي الوقت الذي سوف يبدون فيه الانجليز في جزيرتهم — تم تجميع أسطول وحمله إنزالك في دنكرك — سيجبر الجيش الرئيسي المحدود في اتجاه بروكسل ، تحت قيادة موديس ، صاحب ساكس ، والذي كان من بين أفضل قادة عصره . وإجماعاً تقليدياً لوى الرابع عشر ، فكان الجيش يتقدم ، في وجود الملك ، لحصار المواقع التي كانت تقطع عليه الطريق ؛ فتم الاستيلاء على كامبراي ، ومينان ، وإيسر ، وفوريز ، على التوالي . وعلى البحر ، أدت إحدى المواقف في الريح إلى تفريق الأسطول ، وقطعت بجزء منه على الساحل : فلم يؤجل مشروع الانزال فقط ، بل تم التخلي عنه .

ومن ألمانيا ، سرعان ما جاءت أنباء سيئة . فكان الجيش الإنجليزي الهانوفري قد حصل في شهر يونيو على إلتصار ديتجن ، وتمكن من حمل إلتصال مع النمويين الذين وصلوا من الجنوب . وبعد شهرين من ذلك ، لم يعد هناك فرنسيين فيا وراء نهر الراين . ولم يترك النمويون أنفسهم ينزلقون إلى ميدان العمليات الجديد الذي كان المحصن قد إختاره . فاستمروا ، بعد عبور الراين ، في الإجماع صوب الغرب . وفي أثناء الصيف ، قام فرسانهم - من الكروات في غالبيتهم - باقتحام ، خطوط لوتير ، وإنتشروا في الأراض السفلى ، وإستولوا على المواقع والممرات التي كانت توصل إلى اللورين . هنا علاوة على أن قائد الجيش كان هو الأمير شاول ، صاحب اللورين ، وأخو زوج ماريا تريزا ، وكان مرشحاً لتاج الموقية في حالة نجاح أخيه الأكبر في أن يسبقه بتاج الإمبراطورية . وأجر خبر وصول العدو إلى سافيرن القيادة الفرنسية على أن توقف العمليات في القلاندر . وتسحب جزءاً من القوات في إتجاه الفوج ، وكانوا يتوقعون مواجهات شنيعة من أجل السيطرة على الممرات الجبلية ، حين بدأت قوات الإمبراطورية فجأة عملية الإلتسحاب .

وذلك أن فردريك كان قد دخل إلى المسرح . ولم يكن قد قدر ضخامة النجاح العسكري الذي سوف يحصل عليه النمويون ، ولا أن الإنجليز سوف يتدخلون بكل قوة . وأصبح يرى بكل وضوح : فإذا ما نجحت ماريا تريزا ، فإنها لن تتأخر عن أن تنازعه أمر سيليزيا من جديد . ولذلك فإنه عاد إلى حمل السلاح حتى يواجه خطراً يهدده . فتقضى معاهدة برلين . ثم قام ، وبالإتفاق مع الفرنسيين ، بالدخول إلى بوهيميا ، وحيث تمكن من الإستيلاء على بوهيميا بدون صعوبة كبيرة . ولما كان جيش الأمير شاول صاحب اللورين قد أنفق أقل وقته يمكن العودة إلى قواعده ، فإن النمويين إضطروا إلى التراجع بسرعة .

ومن هذا الجانب ، ومن ذلك ، عاد الطرفان إذن إلى موقعها الأولى : فعدا إلى نفس الوضع الذي كنا فيه عند نهاية عام ١٧٤٢ .

وفي إيطاليا ، وفي أثناء ذلك الوقت ، تمكن خصوم النمسا من أن يسجلوا بعض النقاط . وكان قطاعاً لم يلعب ولن يعلن في هذه الحرب إلا دوراً ثانوياً . ففي عام ١٧٤١ ، قام أسطول بريطاني ، خرج من بورت ماهون ، بمحاولة زحف جديدة لوقت تقدم قافلة لإرسال قسوات إسبانية إلى شبه الجزيرة تمتص حراسة قوات فرنسية . ولكننا نجد ، في عام ١٧٤٢ ، أنه كان يكفي أن تظهر أمام نابولي فرقة بحرية إنجليزية ، لإجبار الملك على استدعاء قواته التي كان قد أرسلها ضد النموسيين في إقليم ميلانو . وأصبح الانجليز ، ابتداء من ذلك الوقت ، يسيطرون على السيادة على البحر : وأصبح الأسبانيين مضطرون إلى أن يرسلوا الامدادات إلى إيطاليا عن طريق البحر . ولكنهم كانوا لا يقدرون على استخدام غمرات الالاب ، والتي كان يسيطر عليها رجال يد مونت بكل قوة . وظلت قواتهم أمام الالاب ، ومنفصلة لمدة عدة أعوام عن تلك القوات التي كانت ، منذ البداية ، قد نزلت في توسكانيا .

ولقد أسندت قيادة هذا الجيش إلى دون فيليب ، الذي كان قد أصبح مرة وحمل بين فرنسا وإسبانيا ، منذ أن كان قد تزوج ، في عام ١٧٣٨ من ابنة لوى الخامس عشر الكبرى ، لويز البرايش . ولكن يقوم بعمل ما ، قرر دون فيليب أن يذهب بقواته صوب الشمال ، وذلك لقيام بغزو سافوا . وسيقوم في شهر يناير ١٧٤٣ بالدخول متصراً إلى شامبيري ، التي سيحتلها الفرنسيون حتى نهاية الحرب . وفي أثناء ذلك الوقت كانت القوات النموسية السردينية قد أثمت السيطرة على سهل نهر بو . وفي العام التالي ، وصلت القوات الفرنسية بدورهما ، بقيادة أحد أمراء النم ، وهو أمير دي كونتي Conti ، وهو شاب آخر . وتمكن

الاسبانيون ، بمساعدتهم ، من عبور جبال الألب ، والتحول على السفوح الإيطالية منها ، حتى كوني . ولكنهم اضطروا ، عند نهاية الصيف ، وفي الوقت الذي هبر فيه جيش الشمال الشرقي الفرنسي نهر الراين ، إلى العودة إلى سافوا .

واستمر هذا التطور البطيء للأحداث ، وزاد تحديده ، في اتجاه حرب فرنسية إنجليزية ، بحرية وإستعمارية بشكل رئيسي ، في أثناء عام ١٧٤٥ . وفي لندن ، ترك كارتريت السلطة . ولمدة عشر سنوات ، من عام ١٧٤٤ حتى عام ١٧٥٤ ، سيكون الدور الرئيسي داخل الحكومة لهنري بلهام Henry Pelham ، والذي سيبدأ معه ويليام بيت William Pitt مستقبلياً الوزير . ومال جهود الوزارة الجديدة بنوع خاص إلى تدعيم الوفاق العسكري مع الهولنديين . وسيكون على جيش إنجليزي هولندي ، بدلا من النمساويين ، أن يحاول فرملة التقدم الفرنسي في الأراضي المنخفضة .

أما لوى الخامس عشر ، فإنه ما أن تماثل لشفاء من المرض الذي كان قد نزل به في ميتر ، وفي الوقت الذي كان الأعداء يهددون فيه بعبور الفوج ، حتى إختار مرشحاً آخر لشغل منصب وزير الدولة للشؤون الخارجية ، وهو ماركيز أرجنسون Argenson ، أخا وزير البحرية . وكان هو كذلك ، مثل شوفيلان ، معادياً للنمسا ، وبشكل معلن . وأظهر تاملاتاً واضحة مع الأمة الإيطالية . وكان يحلم بإيطاليا ، يتم تحريرها ، من النمساويين والاسبان في نفس الوقت ، وحيث يتم تجميع الدول الحرة فيها Stati liberi ، وم الأنصار التقليديون للنموذج الفرنسي ، في إتحادية يوجهها ملك يدموت ، الذي سوف يحصل قبل ذلك على ملكية كل لومبارديا : وهكذا خطه مليئة بالتناقض في ذلك الوقت الذي كانت فرنسا فيه حليف إسبانيا ، وحيث كانت العجزش الإسبانية الفرنسية مشتبكة في معارك ضد جيوش النمسا وسرديليا . وعلى أي حال ، فإن مشروعات أرجنسون لم تؤثر في شيء على تطور الأحداث ،

والتي كان يسيطر عليها، وكما هو الحال دائماً، الموقف الحربي . ووجد البيذمويتيون أنفسهم في صعوبات . ورجع ذلك إلى تدخل جمهورية جنوا التي قررت ، بعد تردد كبير ، أن تتفاوض مع فرنسا وإسبانيا ، وتمهدت ، وفي نظريه بعض الضمانات ، بأن تترك قواتها تمر من أراضيها . ولذلك فإن المتحالفين حصلوا على إمكانية الخروج من كورتية نيس ؛ ومن الحاقى قرب جنوا بالجيش الإسباني الصغير الخاص بإيطاليا الوسطى ، ومن أن يتقدموا مع هذا الجيش حتى ميلانو ، وحيث كان دون فيليب قد وصل منذ شهر ديسمبر . وعندئذ طلب شارل إيمانويل وقف العمليات الحربية . وكان مستعداً لكي يتخلل بسهولة عن النسا . في حالة مقابلته باقتراحات مفيدة ، وهي التي كان يأمل في أن يحصل عليها من أرجنتون . ولكن المفاوضة الشديدة التي قامت بها إسبانيا لهذه الشروط ، والتي وصلت إلى حد الاهتمام بالنيابة ، أدت إلى فشل المحادثات ؛ وتم تقض المدة . وعندئذ، تحول الموقف إلى صالح النسا : قسمت هزيمة المتحالفين مع فرنسا ، وطردتهم من سهل بو ، ثم من جنوا التي تم الاستيلاء عليها بعد عمليات حصار شارك فيها الانجليز من ناحية البحر . وسيبدأ تهديد خطير في فرض نفسه على الحدود الفرنسية . تم احتلال نيس ، وكانت دراجينيان أن تسقط حين جاءت ثورة أهالي جنوا ، التي سرحت بجيش الغزو من مركز تموينه الرئيسي ، وأجبرته على أن ينسحب . وفي هذا الجانب ستظل الأوضاع كما هي عليه تقريباً ، في ذلك الوقت، وحتى نهاية العمليات الحربية .

وفي ألمانيا ، بدأ عام ١٧٤٥ بالوفاة المفاجئة للإمبراطور شارل السابع . ولم تظهر فرنسا أي حرص على القيام بترشيح ابنه ؛ ومساعدته على الفور : فكانت قد أصبحت لا تهتم إلا بالحرب مع إنجلترا . وكان جيشها الرئيسي قد هاد إلى الفلاندر ، حيث استعد الملك ، من جديد ، لمصاحبه . وسرطان ما فهم منتخب

بإفادها الجديد أنه لن يجد ، من هذا الجانب ، التأييد الذى كان يحتاجه . ولذلك فإنه وجد أن من الحكمة أن يتصالح مع جيرانه النمويين . فتنازل بمعامدة فلوسن (إبريل ١٧٤٥) عن المطالبة بالتاج الإمبراطورى ، ووعده بإعطاء صوته لفرانسوا صاحب اللورين ، وإسئلم انتخابيته . وفى فرساي ، اعتقد ماركيو أوجسبون أن يضع فى مكانه منافسه أوجست الثالث ، منتخب ساكس وملك بولندا : ولكن المسألة لم تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، إذ أن أوجست الثالث كان بالفعل يستعد لتغيير المواجهة ؛ وعلوا فى شهر مايو أنه قد تفاوض مع ماريا تريزا ، وأنه قد وعد بإعطاء صوته لفرانسوا صاحب اللورين . ومن ناحية أخرى ، وبعد فردريك الثانى ، وقد ثار غضبه لمواجهة بترشبح أمير يعتبره فى ذلك الوقت على أنه من بين أشد أعدائه ، أنه يمكنه أن يقوم بعملية تغيير مواجهة جديدة : حاول ، عن طريق وساطة إنجلترا ، أن يبيع صوته لماريا تريزا ، فى نظره إعراف جديد وأكثر رسمية لغزوه سيليزيا .

وفى أثناء ذلك الوقت ، وقعت فى الأراضي المنخفضة المعركة الوحيدة الكبرى فى هذه الحرب . فتمتد فونقنوا ، قرب الحدود ، تمكن ماريشال ساكس من أن ينزل بالجيش الانجليزى الهولندى ، تحت قيادة دوق كامبرلاند ، Cumberland ، موقعة فادحة (١١ مايو ١٧٤٥) . ووقعت كل الفيلاند تحت سيطرته . وفى بداية العام التالى ، وصل بنته إلى أمام بروكسل ، وحصل على التسليم السريع للموقع ، ودخل إليه دخولا رسمياً . وحيا رأى العام الفرنسى هذا الحدث السعيد وكأنه نهاية وهى هدف مخطط ثابت . ولكن فردريك لم يكن مستعداً للمشاركة فى أفراح خلفائه . وكان قد طلب إليهم معارضة فى ألمانيا : فلم يجد سوى قلة اهتم برغبانه . فاحضر الى أن يستمر فى القيام بالحرب بمفرده تقريباً فقام بمناورات من أجل ان يجتذب النمويين الى داخل سيليزيا : وهمهم فى

فريدريج في شهر يونيو . وسمح له ذلك بأن يعرض الصلح ، وبكل كرامة ومرة أخرى نجد أن مقترحاته تنقل عن طريق إنجلترا .

وتشجعت ماريا تريزا بنجاحها العسكري والدبلوماسي وبإمكانية تقوية التحالف الرومي عن طريق القيصرية الجديدة ، إليزابيث ، والتي كانت قد وصلت إلى السلطة في عام ١٧٤٢ ، والتي بدت الآن على أن سلطتها قد أصبحت مدعومة . وكانت لاتوافق على فكرة فقدان سيليزيا بشكل نهائي . وأخذت تعارض أمر تدخل حكومة لندن ، حتى ذلك الوقت الذي قررت فيه هذه الأخيرة أن تستخدم حجة لها وزنها : لمساعدة مع فردريك ، لأمال ؟ وكانت الإمبراطورة في أشد الحاجة إلى معونات إنجلترا ؛ وستصل سريعاً إلى الخراب ؛ إذا ما فقدتها . وهكذا تمحوت المساواة الإنجليزية . هذا علاوة على أنها لم تغلب على مقاومة النمسا إلا نتيجة لعملية إلتفاف : فكان البروسيون والإنجليز قد وضعوا سوياً ، في مؤتمر هانوفر (٢٦ أغسطس ١٧٤٥) أسس الإتفاق الذي سرف يفرضونه على النمسا .

وحين إستلت ماريا تريزا نص الإتفاق الإنجليزي البروسي بدأت بإعلان إحترامها . وأعلنت أنها لن تقبله أبداً . وعندئذ تم إلتخاب زوجها في فرانكفورت ، وبدون صعوبة : الأمر الذي أرضى كرامتها وأكد من شعورها بالقوة . ولكن خرائنها كانت لاتحصل على مال كثير ، وكانت جيوشها تلقى هزائماً في سيليزيا : فتمت هزيمة جيش الأمير شارل ، صاحب اللودين ، في لور ، رغم تفوقه العددي الكبير . وجهات محاولة أخيرة من أجل إصلاح الموقف ، وهذه المرة بمساعدة الساكسون ، ولكنها إنتهت بسرعة . ذلك أن فردريك ، الذي علم في الوقت المناسب بأمر الإعداد لهجوم على برلين ، سبق خصومه ، وتوغل في ساكس ، وطرده الملك المنتخب من عاصمته . وعن طريق وساطة إنجلترا ، حصل أوجسكو

الثالث على صلح سريع ، فظهر إنضمامه إلى إتفاقية هانوفر (معاهدة درسدن في شهر ديسمبر ١٧٤٥) . وعندئذ قررت ماريا تريزا ، ودون أن تتأخر أكثر من ذلك ، أن تعطى بدورها توقيعها على إتفاقية هانوفر . وكان هذا يعني أنها تخلت عن سيليزيا من جديد ، ولكن دون تحديدات هذه المرة ، وبدون الرغبة في إستعادتها .

ومنذ ذلك الوقت لم تقع أحداث عسكرية لها قيمتها في ألمانيا ، ولا على حدود ألمانيا . وأصبحت الحرب ، في المكان الأول ، حرباً فرنسية إنجليزية ، وأصبحت ميادينها تقع فيما وراء البحار . أما في أوروبا ، فإن مسارح العمليات الوحيدة ، التي لاتزال لها حساب ، كانت هي الأراضي المنخفضة ونهر يو .

وساوت ماريا تريزا ، والتي أجبرت على أن تضحي بسيليزيا بشكل نهائي ، أن تجد في إيطاليا مهرباً من خسائرها في ألمانيا . وأعلنت إنجلترا ، بدعمها إلى بدل مجهود كبير ، حتى تشغل هناك القوات الفرنسية التي كان في وسعها أن تستخدمها في الأراضي المنخفضة . وكان في وسعها ، بعد أن تحرر من كل مشغولية ، في خلفها بتفاهمها في درسدن مع فردريك ، أن تدعم جيشها في لومبارديا ، وأن تقوم ، بعد بضعة أشهر ، بتحرير كل وادي نهر يو . وفي ربيع عام ١٧٤٦ ، وقعت جنوا مرة أخرى في أيدي القوات الإمبراطورية ، فلم يد هناك ، منذ ذلك الوقت ، فرنسيين إسبانيين ، فيما وراء الألب . وساعدت الهزائم التي نزلت بالمتحالفين على زيادة خطورة الخلافات التي كانت قد نشأت بينهم نتيجة لسياسة أرجنسون المحبة لإيطاليا ، ومع ذلك ، ففي الوقت الذي بدأ فيه مفاوضات الصلح ، ستقع حادثتان غير متوقعتان ، وتسهلان في تدمير الروابط ، التي كان قد أصابها إرتخاء . فجاء أولاً إختفاء فليب الخامس (يوليو ١٧٤٦) . فإنتهى حكم

إليزابيث فارنيز في ذلك الوقت : ذلك أن الملك الجديد ، فيليب السادس ، كان ابناً لفيليب من زواج أول ؛ وسوف تفقد معه المطالب الإسبانية في إيطاليا ، قوة تعددها . ومن ناحية أخرى ، فقد أوجسون الثقة فيه ، في شهر يناير ١٧٤٧ ، وأخذ مكانه الماركيز دي بويسيو Puiisieux ، وهو أحد الهولماسيين ، والذي سوف يحصل على ثقة مدريد .

وفي أثناء ذلك الوقت ، بدأ الإحتلال يزداد تركيزاً على إنجلترا ، وحيث أدت حملة نول تشارلو إدوارد ، وريت آل إستيوارت ، في أثناء صيف ١٧٤٥ ، إلى نشأة موقف صعب . ولقد تمكن نتيجة لمساعدة أهوانه الاسكتلنديين ، من أن يدخل إلى أدنبره ، وحيث أعلن والده ملكاً باسم جيمس السابع . ويمكن بريستون بانز من أن يستمر على جيش أرسلته لندن لكي يستولى على العاصمة . ثم تمكن من أن يستغل سريعاً إنتصاره ، فأخذ في الزحف صوب الجنوب . واحتل مانشستر . ولكن فرنسا لم تتمكن ، لسوء أحوالها الخاصة ، من أن تقدم لمعوتها . فأصبح عليه أن يعتمد على نفسه فقط ، واضطر إلى أن ينسحب . وجهات هزيمته في كلودين ، في اسكتلندا (٢٧ أبريل ١٧٤٦) لكي تضع حداً لهذه المغامرة . ومع ذلك ، فإن وصول تشارلو إدوارد نتج عنه إجبار الإنجليز على إستعادة جزء من قواتهم التي كانت موجودة في الأراضي المنخفضة ، أي إلى إضفاف مراكزهم هناك . فاضطر الإمبراطور إلى أن يؤيد بمعيش تحت قيادة الأمير شارل ، صاحب اللورين . أما مارشال ساكسن ، فإنه إستمر من ناحيته ، في إستئلال إنتصاره في فورتيترا . فتعقب جيش الأمير شارل في اتجاه الشمال ، ودفع به على حلفائه الأنجلو هولنديين ، وحصل بذلك على إنتصار جديد وكبير ، في روكو ، قرب حدود هولندا (١١ أكتوبر ١٧٤٦) .

٤ - استعداد الحرب إلى الستعمرات :

في المرحلة الحرب ، لم تعد هناك أية صلة بين هذه الحرب ، وبين الوراثة

التسمية ، التي ظل اسمها ملتصقاً بها . وإمتدت العمليات الحربية شيئاً فشيئاً إلى المحيط ، وإلى سواحل أمريكا وسواحل الهند . وفي القارة الأمريكية ، كانت فرنسا الجديدة مجاورة لإنجلترا الجديدة . ولم تكن هناك إجراءات مشتركة من هذا الجانب أو ذاك ، وبدأ أن نتيجة الحرب التي كانت قد بدأت هناك كانت مروقة مقدماً ومسجلة على خريطة السكان : فمن جانب ، الجانب الفرنسي ، كان هناك ما بين أربعين وخمسين ألف متوطن ؛ ومن الجانب الآخر ما يريد على شمسائة ألف ، قادرين على إنشاء جيش بمعنى الكلمة .

وكان الميدان الرئيسي للمواجهة بين المتصادين ، إن لم يكن الوحيد ، في في بداية الأمر ، هي الجزيرة للصفحة المسماة كاب بروتون ، أو « الجزيرة الملكية » ، والتي كانت قرية من شبه جزيرة آكاديا ، والتي كانت فرنسا قد اضطرت إلى التخلي عنها في معاهدة أوترخت . وكان ميناؤها لويسبورج ، قد أصبح مركزاً هاماً ، ومن بين أكبر أسواق كندا . وكان بعض المعمرين من إنجلترا الجديدة قد عقدوا العزم على أن يستولوا عليه ، وذلك عن طريق نقل بضعة آلاف من الرجال إليه ، فقدم أربع سفن حربية أرسلتها لندن . وبعد دفاع مجيد ، استمر لمدة خمسين يوماً ، اضطرت حامية لويسبورج إلى أن تسلم (يونيو ١٧٤٥) . وقام الأسطول الإنجليزي بإرسال بقية جنودها إلى أوريغ ، وألقى بهم على ساحل يريتاني . وعندئذ تم إعداد حملة صغيرة ، من جانب فرنسا ، من أجل استعادة الموقع . ولكن إحدى العواصف فرتت الأسطول ؛ وانتشر مرض الإسقربوط بين من نجح من الرجال في الوصول إلى البر .

أما في الهند ، فإن الموقف الخاص بكل من الدولتين كان أكثر تعقيداً . ولقد تميز بتعدد أماكن التمركز ، وبداخل المصالح . وكانت المراكز التجارية الإنجليزية قد ظلت هي نفسها التي كانت موجودة في أثناء القرن السابق . وحصل المركز الذي أقيم على هوجلي على اسم كاليكوتا . وفي نفس المنطقة ، وإلى الجنوب

أكثر من ذلك ، تم الحصول على بالاسور في عام ١٦٤٢ . أما فيما عدا ذلك ، فإن موقع سان توما البرتغالي السابق ، والقريب من مدراس ، قد انتقل إلى أيدي الفرنسيين ، ثم إلى الهولنديين ، الذين أخلوه تماماً في عام ١٧٤٩ . وكان الفرنسيون قد أظهروا الكثير من النشاط في أثناء حكم لوى الرابع عشر : فأقاموا في أول الأمر ، كساراينا ، في سمورات وفي مازوليانام (١٦٨٧) ، إلى جانب الإنجليز والهولنديين ؛ ثم في بولشهي ، التي أصبحت في عام ١٦٨٦ عاصمة لماكرم في شبه القارة ؛ ثم في نقط مختلفة من البنغال ، والتي كانت مركزاً كبيراً لإنتاج الحرير — وبخاصة في شاندر ناجور ، وحيث منحهم سلطان المغول بفرمان خاص في عام ١٦٨٨ حق إنشاء مؤسسة تجارية ، وحيث سيكونون جيراناً للإنجليز في كاليكوتا — ؛ وعلى ساحل التوابل في فالقوط في عام ١٧٢٧ ؛ وفي ماهي ، إلى الشمال أكثر من ذلك بقليل ، وفي باناون على ساحل شهركر ، قرب هذه الفترة ؛ وأخيراً ، في عام ١٧٣٩ ، في ككاريكال ، إلى الجنوب من بولدشهي .

ومن هذا الجانب ومن ذلك ، كانوا يأملون ، ولفترة طويلة — ومثل ذلك مثل الصدامات السابقة بين لندن وبين باريس — في الاحتفاظ بالحياد . ومن بولشهي ، قام دوبلكس Dupleix ، الحاكم الجديد ، بالتحدث بهذا الأسلوب مع جيرانه في مدراس ، ورحبوا هناك بهذه المقاصد ، ولكن الحوادث التي وقعت بين السفن الحربية للدولتين قضت على هذا الأمل ، وكان من الضروري الوصول إلى إشتياك ، سواء رضوا أو أرغموا على ذلك . وحاول دوبلكس أن يجد عوناً من جانب ساكم مجموعة ماسكارين (جزيرة يوربون وجزيرة فرنسا)؛ سماه دي لا بوردونيه Mahé de la Bourdonnais ، الذي كان يقود بضعة سفن ، والذي كان قد حضر ، في أثناء السنوات السابقة ، لكي يتعاون في بعض

العمليات العسكرية ضد صغار الحكام القرييين ، من الوطنيين . وعند نهاية عام ١٧٤٤ ، كانت الحرب قد أعلت بين باريس ولندن ، وأخذت السفن الحربية البريطانية تمر على سواحل شبه القارة ، قم وضع فرقة بحرية صغيرة تحت أوامر لايبوردويه .

وجاء القرار ، في العام التالي ، بمحاصرة مدارس . وكانت هناك نصت قيادة دوبليكس بضع سرايا كانت تمثل حامية بونفشيرو ، هذا علاوة على فرق من الأمالى ، دسبى ، كان قد دربها وشكلها على الطريقة الأوربية : وسيكون له نصت قيادته ، عند نهاية الحرب ، ما يقرب من ثلاثة آلاف رجل ، كان من بينهم ألف ومائتين قريبا من الجنود من الأمالى . وتم فى شهر سبتمبر ١٧٤٦ فرض الحصار أمام مدارس ، وسلم الموقع بعد بضعة أيام . ورغم أن لايبوردويه ، الذى راقى على مبعأ فدية ودخل فى مدام بهذا الشأن مع دوبليكس ، ظل الفرنسيون محافظين على ما استولوا عليه . وقاموا فى العام التالي بدفع النصوص ، والذين جاءوا ، بدورهم ، لمحاصرة بوند شيرى ، تحت قيادة الأميرال يوسكاوين Besawen وفى نفس اليوم الذى يرون فيه إشتاد الإنجليز (١٨ أكتوبر ١٧٤٨) سيكون الصلح قد تم التوقيع عليه فى إكس لاشايل .

٥ - التهديد الروسى و صلح إكس لاشايل :-

لم يكن هناك ما يدفع لوى الخامس عشر إلى التفاوض ، فى ذلك الوقت . وكان مارشال ساكس يواصل تقدمه فى الأراضي المنخفضة . وكان جيش الحلفاء ، بقيادة كمبرلاند ، قد هزم من جديد ، فى عام ١٧٤٧ ، فى لوفت قرب ميسترش . إلا أن رأى العام الفرنسى كاد صبره أن ينفذ ، وأخذ يطالب بعقد الصلح ، وإنهاء الحرب . ورأت الوزارة أنه من الواجب الإهتمام باقتراح هولندا ، والى كانت تعرض نفسها كوسيلة . وسرجان ماتم وضع مشروع ،

يشتمل على الإعادة المتبادلة لكل الأراضي المنزوعة في أثناء فترة الحرب . وكان هذا تنازلاً قريباً من جانب المنتصر ، مادام في وسعه وحده أن يقدم الخريطة التي تتمشى مع مصالحه ، ووسع ذلك فإنهم سوف يقدمون تنازلاً للعطفاء : فتصبح بلجيكا أرضاً محايدة ، تحت حماية الهولنديين . ومن ناحية أخرى ، سيصبح دون فيليب جيراند دوق لتوسكانيا . وفي أثناء ذلك الوقت ، كان الإنجليز قد كونوا فكرة ضئيلة عن قوتهم حتى أنهم رفضوا المقترحات الفرنسية : ورأى نيو كاسل Newcastle أنه من الضروري الانتظار . ورغم أن آماله في تحسين الموقف العسكري لم تتحقق ، إلا أنه سوف ينجح ، مستعيناً في ذلك بعدم تمسك وبتشدد المتحدين معه ، في أن يحصل على أكثر مما كان قد عرض عليه في أول الأمر . ولكي تقدر على فهم طريقة تطور موقف كل من الدول ، علينا أن نتبع تاريخ المفاوضات إكس لاشايل في كل تفاصيلها الصغيرة ؛ ولكننا لا يمكن هنا إلا من أن نعطى الخطوط العريضة لها .

وكان هذا التاريخ محكوماً بالندهور المستمر لتحالف الإنجليز النمساوي . ورأت ماريا تريزا أنه لا يمكنها أن تعتمد بطريقة مضمونة على معونة إنجلترا ، والتي كانت لا تنهم أبداً بسيليزيا ، والتي لم تقدر حتى على الدفاع عن الأراضي المنخفضة . ومن الناحية الأخرى ، كانت تنظر في غالب الأحيان إلى ناحية روسيا ، وحيث كان حكم الإليزابيث ، ابنة بطرس الأكبر ، لا يزال مستمر (١٧٤٠-١٧٦٢) . فرضاً عن الميول الواضحة تجاه فرنسا ، والتي كانت القيصرة قد أظهرتها منذ توليها العرش ، وكإعتراف بالجميل تجاه لاشيتاردى La Chetardie ، سفير لوى الخامس عشر ، الذي كان قد سهل عليها أمر الوصول إلى المرش ، كان عليها أن تحتفظ بنفسها ، في أول الأمر ، في حالة حياد صارمة ، خاصة وأن السويديين كانوا قد أقادوا من الصعوبات ، التي كانت حكومة روسيا في داخلها متأثرة بها ، لكي يملئوا الحرب . ولذلك فإن هذا التحالف ، الذي كان يربط ،

منذ عام ١٧٣٦ ، بين إمبراطورية آل هابسبورج ، قد ظهر أنه مهدد للغاية . ولم تستمد دولة روسيا حرية عملها إلا في شهر أغسطس ١٧٤٣ ، حين جلت معاهدة آيو ، لكي تنهى الحرب ، وتركت لروسيا الأقاليم الفنلندية الأكثر وقوعاً صوب الجنوب . ومنذ ذلك الوقت ، ثارت مسألة المنافسة بين فرنسا وفرنسا في بلاط سان بطرسبرج . أما لاشيتادى ، فإنه أرسل في مهمة جديدة في عام ١٧٤٤ ؛ ولكن مؤامراته أثرت فيه ، فتم طرده . وظهر في عام ١٧٤٦ من جديد أمر إحياء التحالف النمساوي الروسي ، فجأة . وأثارت إليزابيت مسألة إمكانية الالتجاء إلى السلاح : فوجدت فينا بمونة جيش من ثلاثين ألف جندي ضمن أجل حملة عام ١٧٤٨ .

وكانت ماديا تريزا ، في حالة حصولها على ضمانات بشأن مسألة سيليزيا ، تفكر بكل رضى في أمر تقارب مع فرنسا . وظهر أن الفرصة قد منحت من أجل ذلك في عام ١٧٤٦ . ذلك أن الدبلوماسية الفرنسية ، تحت إدارة ماركيز أوجيسون Argenson ، كانت مستمرة في الإهتمام بالملك المنتخب أوجيس الثالث ، رغم أنه كان قد فشل ، في وقت الانتخابات الإمبراطورية ، في أن يتقدم بترشيح نفسه ضد فرانسوا صاحب اللورين . فبذلت كل جهوداتها من أجل تخليصه من نفوذ سيطرة لندن ، وقينا ، وسان بطرسبرج . وانهت به الأمر إلى الفوز . فتم في أول الأمر عقد إتفاقية حياد ، في درسدن في ٢١ من أبريل . ثم جاءت في شهر أكتوبر المفاوضات من أجل زواج ولي عهد فرنسا : من ماري جوزيف دي ساكس ، ابنة أوجيس الثالث . وسمي الإحتفال بزواج المصلحة هذا في شهر فبراير ١٧٤٧ . وستحصل فرنسا منه على لوى السادس عشر السيرة الحظية والذي كانت تقاطعيه البسطة تظهر شعاعه الجرمانية .

: وهكذا نجد أن ماديا تريزا تبلغ نياتها إلى فرانسوا ، من طريق حكومة

ساكسونيا . ولا يعرف كيف أن هذه اللغات والتي وصلت في الوقت المناسب ، وفي الوقت الذي كانت فيه مسألة الأراضي المنخفضة قد حسمت على ميدان المعركة ، كان يمكن الحكومة الفرنسية أن ترفضها . فلقد قررت ، وبعد مداوولات طويلة ، ألا يجيب عليها . ويبدو أن ذلك كان من باب الولاء لذلك الحليف البروسي ، والذي كان رغم ذلك قد دفع بالرغبة في الاستقلال إلى حد الحياة . ولا شك في أنه من الضروري أن نشير إلى تأخير بعض أصحاب العقائد على طريقة أوجستون ، والذين كانوا يخشون من أن تتمكن فرنسا ، وفي عصر الثورة ، من أن تجد فرصة تؤثر فيها ، مرة أخرى ، وتطليها روح الفرو .

أما الإنجليز فإنهم ، بمجرد معرفتهم بطلب النمسا ، لم تمد لهم سوى فكرة واحدة في ذلك الوقت : الحاق بمتانفسيهم في السرعة . وكان كل شيء يدفعهم إلى عقد الصلح دون إنتظار . وكانت المفاوضات من أجل فصل إسبانيا عن فرنسا قد فشلت ؛ وكانت القوات النمساوية السردينية ، التي وصلت عن إقليم بروفانس ، تحافظ على خط جبال الألب بكل صعوبة ؛ وأخيراً كان الهولنديون على وشك أن يفقدوا ما يستقرش ؛ فلم يعد هناك أي أمل في تحسن الموقف . وفي شهر أبريل ١٧٤٨ ، استلم المفوض البريطاني في مؤتمر الصلح أمراً بالإسراع . وكان المشروع الذي سيدافع عنه مستوحى في خطوطه العريضة من مشروع أوجستون في عام ١٧٤٦ . ولكن فرنسا تيمرات تماماً من أية نية للفرو حتى أنهم صدقوها ؛ ولم يفكروا في إدخال أي تعديل على وضعية الأراضي المنخفضة . وعلى هذا الأساس ، تم التوقيع على الأسس العامة في ٣٠ أبريل . وبعد وصول هذا الخبر إلى لندن ، كتب أحد أعضاء الوزارة الإنجليزية : « لقد مررتنا بالكاد » .

ولم تم كتابة معاهدة إكس لاشايل والتوقيع عليها إلا بعد ستة أشهر من ذلك (٢٨ أكتوبر ١٧٤٨) . وفيما بين فرنسا وإنجلترا ، تم الاتفاق على الإعادة

العامة الوضع القائم . وأعادت كل من الدولتين الأخرى ما كانت قد حصلت عليه منها في غزواتها البعيدة ، فكانت مادراس بالنسبة لواحدة ، وجزيرة كيب بريتون بالنسبة للأخرى . أما في العالم القديم ، فإن الخريطة السياسية لإيطاليا هي التي لحق بها التعديل ، بنوع خاص . فزعت دوقيات بارما وبليراس من آل هابسبورج وأعطيتا للأمر دون فيليب ، آخر ملك إسبانيا ، ونسيب ملك فرنسا وسيفيف إليها إماره جاستالا ، والتي كان النمسيون قد استولوا عليها . أكرز لهم في إقليم ميلانو . أما ملك سردينيا فإنه لن يحصل إلا على أقاليم صغيرة كانت معاهدة ورس قد وعدته بها . أما فيما يتعلق بأبناء جنوا ، والذين كانوا قد فاسوا كثيرا من الحرب ، فإن الموقعين على المعاهدة قد أروهم ضمانا بخاص لإستقلال جمهوريتهم . وفي ألمانيا ، تم إضراف كل الدول إلى انتخاب فرانسا صاحب اللورين للإمبراطورية ، وذلك في الوقت الذي نصت فيه إحدى بنود المعاهدة على التخلي عن سيليزيا ، وحصول ملك بروسيا عليها ، رغم أنه لم يكن ممثلا في إكس لاشايل . ووافقت فرنسا على هذه المراضاة لحليفها القديم . ويكفي هذا لكي يفرض لنا سبب الدهشة التي ظهرت على الرأي العام الفرنسي ، والذي أخذ على حكومة ملكه العزيز أنها قد حصلت من أجل ملك بروسيا .

أما النمسيون فكانوا ، رغم تحفظهم ، أو حتى إستحيائهم ، لا يقدرون إلا على التصديق . وكانت مآلتهم قد حطمتها الحرب ، فأصبحوا في حالة تبعية كاملة ، في هذا الميدان ، لإنجلترا ، ولفرنسا . أما حكومة إسبانيا ، التي لم تحصل على جبل طارق ولا مينورقة ، والتي اضطرت حتى إلى أن تمسك لإنجلترا ، ولمدة أربع سنوات ، ميزات تجارة الميناء ، وسفينة التصريح ، فإنها لم تعط موافقتها إلا لكي لا تظل معزولة . وبالإجمال فإن صلح إكس لاشايل قد ترك وراءه الكثير من عدم الرضى .

الفصل السابع والخمسون

الصدامات الكبرى في وسط القرن وصعود دولة روسيا .

ثانيا : حرب السنوات السبع .

خضعت السياسة الأوروبية ، في خلال السنوات العشر التي تلت صلح إكس لا شاييل ، للآزمة الدبلوماسية التي يسمونها «تغير نظام التحالف» . وهذه الآزمة لا تتجدهشة من تتبع ياهتمام تاريخ الفترة السابقة لعام ١٧٤٨ . وكانت تحت الإعداد من فترة طويلة ، حتى أنها كانت تحدث قبل ذلك ، وفي هيئة التوقيع على المعاهدة . وكانت السياسة الفرنسية ، يرفضها التفكير في ضرورة (أو حتى في مجرد إمكانية) وقوعها في هذا التاريخ ، قد تركت فرصة تمر ، لن تجددها بعد ذلك ، حين قرر ، في عامي ١٧٥٥ و ١٧٥٦ ، أن تعطى رداً على المقترحات النموية الجديدة .

١ - تغير نظام التحالف :

وليس من السهل أن نبحث عما يحيط بهذا الموضوع في فرنسا . فلم تكن فرنسا هي التي تحرك الأمور ، وبأكثر مما كانت عليه في الفترة السابقة . وكانت تقوم بمجرد استنباط النتائج ، في مدة لاحقة قصرت أو طالت ، من تلك المبادرات التي كانت تقع في أماكن أخرى ، في فيينا ، أو في برلين ، أو في لندن . وكانت قد وضعت وقنعت في آخر الأمر بقبول التحالف المنشود من جانب النمسا حتى تواجه العزلة التي كان عدم تلبية دبلوماسيتها قد وضعتها فيها . وكانت آخر من يغير اتجاه سياسته .

ويمكننا أن نجد نقطة بداية الآزمة في عقد اتفاقية : في شهر سبتمبر ١٧٥٥ ،

بين إنجلترا وروسيا . وكان إغتهاف قوة روسيا ، وقت حرب الوراثة النرويجية ، قد أسهم في أعمال التخلل على العمل الدبلوماسي والمكسرى : ذلك أنه ضمن لفردريك حرية غير عادية في حركاته . وسوف يتغير كل شيء ابتداء من اللحظة التي ستقوم فيها الدول العظمى ، والتي أصبحت من جديد مشغولة في أوروبا الوسطى ، بعمل حساب لها ، مع جيوشها . وبدأ التطور في الوقت الذي انتهت فيه مفاوضات إكس لاشايل . وطبقاً لتعهدات عام ١٧٤٦ ، أرسلت فرقة روسية لنجدة ماريا تريزا : فأضطروا إلى استدعائها قبل حتى أن تصل إلى الحدود الغربية لبولندا .

ولذلك فإن روسيا كانت موجودة رسمياً في معسكر أمطار النمسا . وفي خلال السنوات التي تلت صلح إكس لاشايل ، كاد الأمر أن يصل إلى إشباك مسلح بين الروس وبين البروسيين . وحسبناك شئون السويد هي دائماً أساس المشكلة . فلقد فتحت أزمة لوراثة العرش في استكهولم في عام ١٧٥١ ، ورشحت القيصرية إيناً لأحد أخوة الملك المتوفى — والذي كان في نفس الوقت متزوجاً من إينة جورج الثاني ، ملك إنجلترا — ، بينما أيد فردريك مرشحاً آخر ، وهو الوديث الشرعي للتاج ، والذي كان متزوجاً من أخته . وكان ملك بروسيا مصمماً ، وبكل حزم ، على ألا يترك أحداً آخر يحصل على النفوذ الذي كان يمارسه في استكهولم ، فأظهر وجهة نظره بكل وضوح ، في نفس الوقت الذي اتخذ فيه إجراءات عسكرية . ولكن الإنجليز كانوا مسالمين . وعملوا على تهدئة قيصرية وروسيا ولذلك فإن لويز أولريك البروسية تمكنت من أن تصعد بهدوء على عرش السويد ، مع زوجها .

وإحتفظت إليزابيث بشقيق شديد من جارها البروسي . فصالت بفرح مفاوضات حكومة جورج الثاني لها بشأن إيجاد ضباط عسكري بالنسبة لها توفروا .

وفي الوقت الذي كانت فيه النمسا تتفاوض في لندن من أجل تجديد تحالفها ، رفض الملك أن يعطي تمهيداً جديداً بالنطاق عن الأراضي المنخفضة في حالة نشوب حرب . ذلك أن الأمة كانت قد تأثرت كثيراً بتلك المروعة التي كانت قد وقعت في فونتينوا : وشمرت بها كإذلال ، وحتى كدوس في نفس الوقت . ولذلك فإنها صممت على ألا تقوم بعد ذلك بدور الجندى ؛ وبدون فائدة ، لإحدى دول القارة . ولكنها شمرت الآن بالحاجة إلى حليف ، حتى تتمكن من أن تضمن من بعيد أمن هانوفر . ولما كانت الوزارة الإنجليزية ، برئاسة ليوكاسل ، لا ترغب في أن تحصل على العناية النمساوية بالثمن الذين كانوا يطالبون به في فينا ؛ توجهت إلى روسيا إليزابيث . وطبقاً للاتفاقية التي تم التوقيع عليها في شهر سبتمبر ١٧٥٥ ، تسببت القيصرية بأنها ، في حالة نشوب حرب بين روسيا وإنجلترا ، تقوم بنور إقليم بروسيا الشرقية ؛ وتسببت إنجلترا بأن تدفع لها نفقاتها . ولم يكن هذا يعني أن يستغنى الإنجليز عن معونة النمسا عند بروسيا . وظهرت لهم أن العناية الإضافية التي حصلوا عليها كانت تتوافق تماماً مع تمهيداتهم السابقة تجاه النمسا .

ولكن مخاوف فردريك ثارت بمجرد شعوره بوجود المحادثات بين لندن وبيترسبرج . وقرر أن يعمل على تحييد إنجلترا ، وذلك عن طريق إعطائها كل الضمانات التي كانت ترغب فيها بشأن هانوفر . وكان قد تقدم في الماضي باقتراح لذلك ، في عام ١٧٤٨ ؛ ولكنه كان قد وجد بعض القصور في لندن . ووصل به الحال إلى مهاجمة الملك جورج ووزرائه ؛ حتى أنهم وصلوا تقريباً إلى قطيعة : فتم استدعاء السفراء ، من هذا الجانب ومن ذاك ، أو حصلوا على صلاته . أما في عام ١٧٥٤ ، فإن الإنجليز هم الذين رأوا ، وقد زادت خلافاتهم على البحر مع فرنسا ، أن يأخذوا المبادرة لإقتراح الوفاق : فوجدوا أنه لم يكن هناك شيء

أفضل ، لضمان مدوه القارة ، من عمل إتفاقية حياه مع بروميا . وبدوره ، أمل فردريك الأمر ، لفرة من الوقت ؛ وكان يتفاوض في ذلك الوقت من أجل تجديد وتكميع التحالف الفرنسي .

وهذا التحالف ، الذي كان يمارسه منذ سنوات عديدة ، والذي ضمن له الكثير من النجاح ، بدأ له على أنه يمثل إحدى الضرورات الدائمة لسياسة الخارجية . وكان مستعداً لكي يؤيد في كل وقت ذلك الحليف المختار ، والذي كان عداءه الدائم لدولة النمسا بخدم تماماً مصالحه في ألمانيا . ولقد جعلنا نفهم أنه لن يجد أية ضمانة في أن يمد سيطرته حتى نهر الراين ، والذي بدأ أن يجره ، كما كتب في عام ١٧٤٦ في تاريخ قترى ، قد خلق عدواً من أجل أن يفصل فرنسا عن ألمانيا . وهذه الفقرة من « وصية السياسة » لها نفس الوضوح : « إن مصالحنا الحالية ، وخاصة منذ الحصول على سيليزيا ، تتمثل في أن يبقى متحدين مع فرنسا ، وكذلك مع كل أعداء الأسرة الحاكمة في النمسا . إن سيليزيا والذين اختان ، تزوجت بروسيا الكبرى ، وتزوجت فرنسا الصغرى . وهذا التزواج يجبرهما على أن يتبعنا نفس السياسة . ولن نرضى بروسيا عن نوع الأتراض أو اللذين من فرنسا وباحتر ، فالأشياء الجميلة لا تعيش طويلاً فتعجب بها ، ولننمر .

وظهر كذلك ، في ربيع عام ١٧٥٥ ، أن الحرب كانت وشيكة الوقوع بين فرنسا وإنجلترا ، فمنح فردريك حلفاءه تعاوناً مالياً بالنسبة لهانوفر . ثم تم قيادة إكتشاف التقارب الإنجليزي الروسي — أو شكوا في وجوده — ، الأمر الذي دفعه إلى أن يمد النظر في موقفه . ولقد غير موقفه تماماً ، في خلال مدة أسابيع : فأعطى الضمانة المطلوبة بالنسبة لهانوفر ، وشرطها بالحصول على ضمانة أخرى بالنسبة لممتلكاته ، في حالة وقوع اعتداء روسي ، وعلى هذا الأساس تم ،

في شهر يناير ١٧٥٦ ، عقد معلدة وسمستر ، وفي جميع أنحاء أوروبا ، وخاصة في فرساي ويطرسبرج ، كان لوصول هذا النبأ وقع القنبلة ، خاصة وأنهم كانوا لا يعرفون تماماً المناخ السائد في لندن ، وصرهان ما قامت السفارات باستخراج النتائج المترتبة عليه . وسوف يتم تشييد الكثير من المواقف الدبلوماسية ، وبشكل سريع .

وكانت فرنسا هي التي شرعت بالنتائج المباشرة للاتفاق الانجليزي الروسي ، وكان عليها أن تأخذ قرارات كبرى الأهمية : فن ناحية القطعية النهائية للعلاقات التي كانت لا تزال توحد بين بلاط فرساي وبين فردريك ، ومن ناحية أخرى موافقة الحكومة على تلك السياسة الجديدة التي أصبحت لا يمكن التخلص منها ، والتي كانت ضرورتها قد ظهرت في فينا منذ وقت طويل ، والتي لم يتمكنوا حتى ذلك الوقت من أن يكسبوا لها الرأي العام ، في فرنسا ، ولا الحكومة التي كانت عاصمة لهذا الرأي العام .

وكانت الدبلوماسية النموية تفكر دائماً في هذا الموضوع ، منذ أن كان كورت كوتز *Kautz* ، ممثل ماريا تريزا في إكس لاشايل ، قد ذكر إمكانية لمن تحدث معهم من الفرنسيين . وفي عام ١٧٥٠ ، إختارت الملكة الإمبراطورة كوتز سفيراً لها في فرنسا ، من أجل أن يهيء أوساط البلاط والحكومة . وحين هاذ في عام ١٧٥٢ ، لكي يشغل منصب مستشار الإمبراطورية ، لم يكن في وسعه أن يفترض بأنه قد كسب الشهرة . ولكنه كان قد نجح على الأقل في إبعاد بعض الموانع التي كانت موجودة ضد النمسا . ولقد إدعوا ، لفترة طويلة ، أنه حكان قد أدخل في هذه اللعبة ، معام دي يومبادور ، الخطية ، وأنها قامت بحاصرة الملك ، وأقنعت شيئاً فشيئاً بالتحالف النموي . وهذه الرواية ، فيها خيال ، والكثير منها غير صحيح بالنسبة لما حدث ، فند عام ١٧٥١ كانت الماركيزة

تختصر جلسات المجلس بانتظام ؛ ولذلك فإنها كانت على علم بأسرار السياسة ؛ وكان السفراء الأجانب الذين يرفقونهم يتنافسون في معاملتها بلطف زائد . وربما كانت في أساسها أقل « بروسية » عن بعض أعضاء هذا الحزب « الفلسفي » ، والذي كانت مفاعرها توجهاً إليه . ولذلك فإنه لم يكن من المستغرب أنها كانت قد تمكنت من أن تساعد ، بدرجة معينة من الفاعلية ، أولئك الذين كانوا يرغبون في وضع التحالف التمسوي في مكان التحالف البروسي . ولكننا إذا فحصنا الأمر جيداً ، نجد أنها لم تتمكن من أن تلعب دوراً كبيراً في هذا الموضوع ، وأن دورها فيه كان ثانوياً . ذلك أن لوي الخامس عشر ، مما يمكن أن يقال عنه ، لم يكن يتركها تسهر . وكان هذا هو الوقت والتي كانت فيه سياسته الخاصة به — والتي نسميها « سر الملك » — هي التي تعمل في كثير من العواصم ، وتمرقل في بعض الحالات سياسة وزرائه ، مثلما حدث في وارسو ، وحيث حاولت أن تفتح الطرق أمام أمير فرسي في ذلك اليوم الذي تبدأ فيه أزمة جديدة لوراثة العرش . ومنذ صيف عام ١٧٥٥ ، قدم العرض التمسوي إليه في شكل مفاوضات سرية . وكان راضياً بأن يقوم بالهدور الذي يلعبه ، فوافق دون صعوبة . وكانت الوزارة معروقة بأن لها ميل تجاه بروسيا . ولذلك فإنه كان على المتحدثين باسم ماريا تريزا أن يصلوا إلى الملك نفسه ، والذي كان من المفروض أنه أقل صعوبة في ذلك من غيره . وكان هذا هو السبب في أن يطلبوا إلى مدام دي بومبادور أن تعمل كوسيلة خاصة . وبسات المحادثات في شهر أغسطس ١٧٥٥ : وسارت يطه كبير قبل الوقت الذي عرفت فيه في فرنسا أمر معاهدة وستمنستر .

وكان المتفاوض شبه الرسمي ، الذي اختاره الملك ، وهو الأب دي برينس *Abbe de Bernis* ، وهو صديق لمدام دي بومبادور ، مرشحاً لتولي منصب السفير الفرنسي في مدريد . ورغم أنه كان عاجزاً لإغراء الإمكانات التي كانت

المقترحات النموسية فتفتحها أمام الدبلوماسية الفرنسية ، فإنه بدأ بإعدادها ؛ وكان لا يرغب في أن يفكر في التخلي عن التحالف البروسي ؛ وإذا ما اعتقدنا فيها ذكره ، فإنها كانت مسألة شرف بالنسبة للملك ؛ وكان كل طموحه يتمثل في مجرد الحصول على حياد النمسا ؛ الأمر الذي كان يستبعد أى تفاوض بشأن الأراضي المنخفضة ، ما دامت فرنسا هي التي ستكون صاحبة الطلب في هذه الحالة . ولذلك ، فإن شيئاً لم يكن قد عقد ، أو حل وشك أن يتم ، حينما انفجر خبر معاهدة وستمنستر الجديدة . وفي البلاط ، بدأت الآهين ترتفع إلى السماء : وظهر فردريك ، وكما كان ، بأنه لا يؤمن بشيء . ورغم تأكيدات الكاذبة ، فلم يكن من الممكن النظر إلى التحالف البروسي إلا كخرافة ، ولجأة أصبح التحالف النموسي ضرورة . وتم التوقيع على معاهدة فرساي الأولى بعد ما يقل عن ثلاثة أشهر (أول مايو ١٧٥٦) . وطبقاً لوجهات نظر باريس ، كانت المسألة الأولى فيها تتعلق بأمر حياد النمسا في حالة نشوب حرب فرنسية إنجليزية . ولكن الفقرات التالية كانت تتعلق تماماً بنظام تحالف : ففي حالة تعرض إحدى الدولتين لهجوم في أوروبا من جانب دولة ثالثة ، تقوم الدولة الأخرى بنجسها بجيش من ٢٤.٠٠٠ رجل .

وفي تفكير واضعها ، كان هدف معاهدة فرساي هو أن تكون أداة السلم . ولم يكن في وسع أحد أن يعتقد في أن فكرة التعاون بين أكبر دولتين حرييتين على القارة لن تكون كافية لإعاقة فردريك ، في حالة رغبته في أن يخضع من جديد لسيطان الحرب الذي كان في داخله . وكان ما لم يشعر به المسؤولون عن السياسة الفرنسية ، أو يتنبؤون حتى به ، هو أن الإمبراطورة الملكة ، والتي كانت شغوفة باستعادة سيليزيا ، سوف تتحرك بطريقة تجعل فردريك يأخذ مسؤولية الدخول في العمليات الحربية ، وأنه سيكون من حقها ، بالتالي ، أن تطلب إلى حلفائها الجدد تنفيذ الوثيقة العاطفية التي قبلوا التوقيع عليها . وهذا هو ما سوف نشاهده بعد مضي أقل من ستة أشهر .

ولقد أثار هذا التنصير في نظام المحالفات المشاعر في أوروبا ، خاصة وأنه أصبح يمثل نهاية لذلك العداء التقليدي بين فرنسا وبين الأمرة الحاكمة في النمسا : وتسبب في إثارة الإهتمام الشديد عند رجال الحكم في كل حاشية ، وفي كل بلاط . ولم يحدث في مكان آخر أن كان التأثير بهذه القوة ، ولفترة طويلة ، مثلاً حدث في الدولة العثمانية ، وحيث رأوا أن الصداقة الفرنسية ، والتي كانت مبنية على العداء المشترك لأطلاح النمسا ، قد طرحت التساؤل . وكانت في وسع الوعد بالنتيجة المتبادل بين الحكومتين أن يطلب ويستختم عند أى خصم . وكانوا مندفعين في إستابول من أن الباب العالي لم يتم إستثاؤه صراحة من جانب الفرنسيين . وقدمت المطالب الشديدة الهجة بهذا الشأن إلى دى فوجين Vergennes ، مفسر الملك هناك .

وزاد القلق حينما علموا أن تقارب فرنسا من النمسا قد أكمل بتقارب آخر مع روسيا . وكانت العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا وروسيا ، والتي كانت قد قطعت منذ بعض الوقت بسبب سوء الإجراءات التي كان حكومة موسكو قد اتخذتها ضد بعض ممثلي فرنسا ، قد عادت من جديد ، ونتيجة لطلب فرساي . وفي هذه المناسبة دخل إلى المسرح أحد الشبان الشمر ، والذي قبل أن يحيط نفسه بمجموعة نسائية حتى يضمن حسن إستقباله في بطرسبرج ، والذي كان قد قام بمهمته ، في ظل هذا التنكر ، بالحصول على موافقة ضمنية من القيصرة . ولما كان الفارس إيون Eon قد مهد الطريق ، جاءت شخصية أكثر منه وزناً ، وعادت إلى فرنسا بنص المعاهدة التي تم التوقيع عليها في ٢١ نوفمبر ١٧٥٦ : فأصبحت فرنسا وروسيا منذ ذلك الوقت مرتبطتين بمحالف هجومي ودفاعي . وأخذوا في التفكير في عقد إتفاقية تجارية .

ومن كل هذه الأحداث ، نشأ بين باريس واستابول نوعا من التوتر ،

كانت له نتائج مباشرة على الأوضاع في الأراضي المقدسة . وكان فيرينجن قد حصل منذ وقت قصير على فرمان يسمح لللاتين بأن يصلحوا ويرموا القبر والسكنيسة الخاصة بالسيدة العذراء والموجودة تحت الأرض جنسيفاني ، فحضر اليونان بضيق شديد . وفي أحد أيام العيد لعام ١٧٥٧ ، هجم بضعة آلاف من الحجاج على مذبح كان القرمسكان قد أقاموه أمام مدخل الكنيسة المقدسة . وجاء إحتجاج السفير في وقت كانت فيه النفوس تائرة ضد فرنسا ، فوقع في فراغ . وأكثر من ذلك ، صدر فرمان نوع من اللاتين ؛ علاوة على قبر السيدة العذراء ، الكنيسة المقدسة الصغيرة ، والكنيسة الكبيرة ، ومفتاح كهف بيت لحم . ورداً على مطالب فيرجن ، أجاب الصدر الأعظم بمنف أن السلطان هو سيد كل المنشآت الموجودة في الأراضي المقدسة ، ويمكنه أن يمنحها لمن يرغب . وحتى أواسط القرن التاسع عشر ، ظل اللاتين ، وبلا جدوى ، يرجعون إلى الأوضاع المملوغة ، وظلوا يحتجون على ما حل محلها في عام ١٧٥٧ .

ولقد تزايد الإنفعال الذي أحدثه تمهيد نظام التحالف عند الرؤساء النمساويين ، حين وصلتهم الأنباء بأن التيميرة إليزابيث قد انضمت إلى المعاهدة الفرنسية النمسية . وذكر فيرجي في إحدى رسائله : « إننا نميل إلى حد ما إلى أن نحافظ على التمسوين ، الذين ليست لدينا أية شكوى ضدهم . إن كل هدوء هذه الأمة موجه ضد روسيا . » ومما كان الأمر ، فإن موقف السفير الفرنسي قد أصبح كل يوم أكثر صعوبة . أما الصدر الأعظم ، الذي حاول أن يجد رداً مناسباً على الإبلاغ الفرنسي ، فإنه لم يتأخر عن أن يكشف ذلك في عملية تقارب مع بروسيا ، والتي كانت تبحث منذ بعض الوقت ، وعلى وجه التحديد ، عن الصداقة النمساوية . وظل الأمر فيها عدا ذلك عند مرحلة التهديد : خاصة وأن المخول المفاجيء لتفردريك إلى الحرب يجعل النمساويين يخشون من أن ينزلوا إلى مناورات جديدة ، فاضطروا

إلى وقف المحادثات . وفي ذلك الوقت، سيتم الاكتفاء بتبادل التحيات . وسمان ما يأني سلطان جديد ، هو مصطفي الثالث ، والذي كان من بين كبار المعجبين بالبعثية العسكرية الروسية، وبعان نيابة إبرلين، ويشتهر ملك روسيا هذه القصة لكي يرشح أحد السفراء لكي يقيم في إستانبول . ومنذ ذلك الوقت ، سيتم ، ومن وقت لآخر ، تبادل وجهات النظر بين العاصمتين . وسوف تنتهي بمقد معاهدة صداقة في عام ١٧٦١ ، دون التفكير ، من ناحية أخرى ، وبأى شكل ، في إمكانية تدخل عثمان في الحرب التي كانت دائرة .

وظلت العلاقات الفرنسية العثمانية صعبة طوال كل فترة حرب السنوات السبع . وفي أحد الأيام ، أدت عملية الإستيلاء على سفينة عثمانية ، تعمل بعض المساجين الماطلين ، إلى شدة غضب السلطان مصطفي ، الذي هدد بطرد سفير الملك وكل القناصل الفرنسيين الموجودين في المراكز التجارية في شرق البحر المتوسط . وكانوا قلقين في فرنسا من تلك الإستعدادات التي كانت تتم في المواقف العثمانية ، والتي بدت على أنها من أجل هجوم مقبل على مالطة . وعملت الحكومة الفرنسية ، بعد أن تركت كل أمور الكرامة جانباً ، وبكل نشاط ، على إعطاء التعميمات المطلوبة من الماطلين .

٢ - الحرب :

إذا ما نظرنا إلى حرب الرواة من أهل ومن بعيد نجد أنها حرب لا تشتمل على عظمة . وكان سببها هو رغبة أحد الملوك في الغزو ، وفي أن يظهر كفاءاته العالية في ميدان المعركة ، وإن كان يظهر ، في علاقاته مع أصدقائه ومع أعدائه ، بلا عقيدة ولا دين . وليست فيها سوى عمليات عسكرية صغيرة . أما نتائجها فهي أقل ضرر من ذلك : فهي تخلص ، تقريباً ، في حصول روسيا على إحدى اللقاطيات التسمية . ومع ذلك فإن الدول العظمى الأوروبية ، وبإستثناء روسيا ،

قد واجهت بعضها البعض على البر وعلى البحر لمدة تقرب من سبع سنوات . وكانت الأزمة الجديدة ، التي نشبت في عام ١٧٥٦ ، قد طاشت لنفس المدة تماماً . وكانت ، في أمورها ، امتداداً لحرب الوراثة النمساوية ، فيتحدث المؤرخون الألمان عن « حرب سيليزيا » . ولكن مداها كان أبعد في كشافته الدرامية ، كما أن موضوعها كان أخطر . فلم يكن الأمر الآن يتعلق بمجرد مصير مقاطعة نمساوية وتقريره في ميدان المعركة ؛ بل بمستقبل كل أوروبا الجرمانية ، وبكل أوروبا الوسطى . وإذا ما سقط فردريك في ذلك الصراع غير المتساوى ، الذى تسبب بعدم حكمته في نشأته ، فن المضمون أنه كان سيفقد جزءاً من أراضيه ، وسيعود آل هوهنزلرن إلى ما كانوا عليه منذ قرن مضى ، مجرد أمراء ألمان صغار ، بين الكتيرين من غيرهم : فكانت « المخامرة » البروسية ستنتهى .

وإشتزكت في هذه الحرب خمس دول أوروبية ، بدلا من أربع . وقامت روسيا ، هذه المرة ، بدور من الدرجة الأولى . وأخذ الصراع حفة المראה الفاتكة ، التي نجدتها عبر العصور كلها ، وفي كل الصدامات بين الروس وبين الألمان . وعلى العكس من ذلك ، نجد أن إيطاليا قد ظلت خارج اللعبة . ولم تعد مسرحاً ثانوياً للعمليات الدبلوماسية والعسكرية . وأخيراً ، فنجد أن إسبانيا لا تتدخل إلا في اللحظة الأخيرة . ولذلك ، فإن تاريخ حرب السنوات السبع هو أكثر بساطة في خطوطه العريضة ، وأكثر سهولة في عرضه ، عن تاريخ حرب الوراثة النمساوية .

فلقد كانت هناك في حقيقة الأمر حربان واضحتان تدوران في نفس الوقت ، الأولى بين فرنسا وإنجلترا ، على البحار ، وفي المستعمرات وفي ألمانيا الغربية ؛ والثانية بين فردريك الثانى وبين تكتل أعدائه ، فى ألمانيا الشرقية ، وفى سيليزيا ، وعلى حدود بوهيميا وفى بولندا . وسوف تنهى معاهدتان منفصلتان ؛ فى

نفس السنة . وكانت الحرب البحرية وفي المستعمرات ، بنتائجها ، هي بدون شك الأكثر أهمية .

وكما كان قد حدث في الأزمات السابقة ، لم تبدأ التقطيع الرسمية إلا بعد بداية العمليات الحربية . وفي الهند ، وكذلك الحال بالنسبة لأمريكا ، لم يكن صلح عام ١٧٤٨ يعتبر إلا كهدة . ولقد استمرت الصعوبات ، والحوادث بين المعمرين . وكانت الشكاوى المستمرة تفصل إلى الحكومات . ولكن هذه الحكومات عجزت عن تهيئة المشاعر ؛ وتم إنشاء لجان مشتركة من أجل ذلك في لندن وفي باريس ، ولكن عملهم كان بلا جدوى . وتمت ضغط رأى عام حريص كل الحرص على مصالح المستعمرات ، بدأت الرغبة السلبية للحكومة الإنجليزية في التضام في عام ١٧٥٤ . وأخذ الفرنسيون والإنجليز ، ابتداء من صيف ١٧٥٥ ، في عارية بعضهم بعضاً على البر وعلى البحر .

وكانت أحداث أمريكا تحتل المكانة الأولى بالنسبة لكل شيء . فها ، كان موضوع الصراع بالنسبة لفرنسا يمثل في ملكية إحدى المستعمرات ، التي راد عمرها على قرن من الزمن ، وكانت قد أصبحت لها في الأرض جذور قوية ، ومرتبطة بالوطن الأم بروابط شديدة ، اقتصادياً وجنسياً ، بينما كان الأمر بالنسبة للهند لا يتعلق إلا بعدد من المراكز التجارية المعزولة ، تقع على هامش بلاد مودحة بالسكان ولها حضارة قديمة ، وحيث كانت عملية ذروع ، الأوربيين تعطلهم بكل أنواع الصعوبات .

وإلى جوار فرنسا الجديدة ، كانت إنجلترا الجديدة مجرد هامش رفيع من المنشآت على حافة الساحل ، بين اليجاني والمحيط . وكانت كل داخلية البلاد لاتزال ملكاً للهند . وفيما بين المعمرين . والتي كانت غالييتهم العظمى تعمل في الزراعة ، كان هناك البعض من الذين يمارسون تجارة الفراء ، كطريقة حياة كالية للغاية ،

وإن كانت قد وضعتهم ، وفي أثناء فترة طويـلة ، في منافسة مع الفرنسيين ، الذين كانوا قد استقروا في المنطقة المشهورة بكونها « موطن القرو » ، وهي منطقة البحيرات العظمى . ومنذ وقت بعيد ، كان المتعاملون في الفراء يشيرون قبائل إيراكوا الهندية ضد منافسيهم . وكان هذا هو السبب الرئيسى للحروب التي وقعت ، ابتداء من عام ١٦٨٧ ، وبشكل متكرر ، بين الفرنسيين وبين قبائل إيراكوا . ومنذ ذلك الوقت ، أخذت عملية تجارة الفراء تفقد أهميتها ، مع نمو الزراعة وإنتشارها من هذا الجانب وذلك من الحدود . وكانت منطقة البحيرات العظمى وأوهايو ، والذي كان الوادى الذى يفتح أمام الفرنسيين طريق الوصول الوحيد صوب بلاد المسيسي ، وبالتالي صوب لويزيانا ، قد ظلت منطقة حساسة للغاية . وكانت هذه هي المنطقة التي بدأت فيها الحرب في عام ١٧٥٤ .

وتميزت البداية ، في شهر يونيو ، بحادث حدود مهم ، إشتباك بين فصائل فرنسية بقيادة جومونفيل Jmonville ، من قوات المستعمرات ، والإنجليز من فرجينيا ، بقيادة جورج واشنطن ، ضابط الميليشيا المحلية : وقد فيها الفرنسيون رئيسهم وجزء كبير من أعدادهم . ونتيجة لذلك أرسلت إليهم إمدادات هامة ، وجهه الدور على الإنجليز ، والذين كانوا متحصنين في قلعة متينة ، لكي يتركوا مكانهم ، بعد هزيمتهم الكاملة . ولقد حاولوا ، من الجانب الفرنسى ، الإسراع بمعالجة الحالة ، وتحاشى نتائجها ، ولكن بلا جدوى . أما الحكومة الإنجليزية ، فإنها قررت من جانبها ، إعطاء كل معونة ممكنة للمعمرين ، حتى يتمكنوا من أن يتقدموا . وأرسلت إليهم الإمدادات بقيادة الجنرال برادوك Braddock . وكان سبباً في حاجة فرنسا لأخذ إجراءات مماثلة : فاسافر ماركيز دى فندرنى de Vaudreuil ، والذي كان قد صدر أنحها قرار من الملك بتعيينه جاكاً على فرنسا الجديدة ، وأخذ معه الإمدادات ؛ وتعرضت سفنهُ ، من ناحية أخرى ، لهجوم قرب نيويورك لاند ،

من جانب أسطول الأدميرال بسكاوين Boscawen (أكتوبر ١٧٥٥) . وبعد قليل ، ولما كانت لندن قد أعطت أوامرها بتوقيف كل سفينة بحارية فرنسية ، في أى مكان توجد فيه ، ردت الحكومة الفرنسية على ذلك بإصدار وسرعان ماثله لإعلان الحرب .

ولذلك فإن العمليات التي شاعدها مسرح الأروايو في عام ١٧٥٥ لم تكن تمثل سوى مدخل إلى الموضوع . وكانت القوات ، من هذا الجانب وذلك ، قليلة العدد ، والمواجهات بينها نادرة ، والنجاح مودع . وكانت أكثر النقاط تميزاً المرحلة السابقة للحرب تتمثل في طرد الأهالي الفرنسيين الذين كانوا قد ظلوا في أكاديا بعد سماعده أوترخت ، والذين شاهدوا مجيء مهاجرين جدد ، من الأنجلوساكسون ، لكي يستقروا أراضيمهم : فصودت الأوامر بنق ثمانية آلاف شخص ، إلى مناطق أخرى من إنجلترا الجديدة ؛ فالتجأ تصفهم تقريباً إلى جزيرة كاب برتون ، والتي اضطروا إلى أن يتركوها بدورهم ، حينما أصبحت في عام ١٧٥٨ ، من الممتلكات البريطانية .

ولم تتميز الحملة الأولى إلا بعمليات ليست لها نتائج كبيرة ، وبدأت بالإستيلاء على موقع متقدم للدفاع الكندي ، هو قلعة أوسويجا . وكان الفرنسيون في ذلك الوقت تحت قيادة ماركيز دى مونتكالم Montcalm ، نائب حاكم المستعمرة . وكان قد وصل مع بعض مئات من الجنود ، الأمر الذي أوصل عدد الوحدات النظامية إلى ثلاثة آلاف . وفي حقيقة الأمر سوف يحارب إلى جانبهم ما يقرب من اثنتي عشر ألف من رجال الميليشيا ، أى تقريباً كل ما يمكن لكندا أن تقدمه من الرجال الصالحين لخل السلاح . وفي عام ١٧٥٧ ، وقع نجاح آخر للفرنسيين ، يتمثل في الإستيلاء على قلعة ويليام هنرى ، عند نهاية بحيرة سان ساكرمنت ؛ والتي كانت تمثل امتداداً لبحيرة شامبلان . وكما حدث في العام السابق ، قام المتنود الحمر ، الذين

كانوا يخدمون كمساعدين ، باصطحاب الأسرى الانجليز عندهم ، بعد أن كانوا قد قنوا عدداً من بينهم ؛ وكان من الضروري التفاوض مع القبائل من أجل الحصول عليهم ؛ وكان إنقاذ رأس واحدة من بينهم يتكلف برميلين من المشروبات الكحولية .

وبدأت مرحلة العمليات الحربية الكبيرة في عام ١٧٥٨ فقط . وكان ويليام بيت ، الذي استلم لتوه وزارة الحرب ، يعلق أهمية خاصة على شئون المستعمرات ، ولذلك فإنهم بدأوا في الاعداد للقيام بهجوم ثلاثي ، على البر وعلى البحر . وحصل الأميرال بوسكاوين أمام لويزبورج على رأس أسطول كامل ، يحمل جيشاً من اثنتي عشر ألف جندي ؛ وتم تسليم الموقع بعد حصار دام أربعين يوماً . وفي اتجاه شامبلان ، سار أحد الطواير صوب قلعة كريون : فتحمل أربعة آلاف فرنسي هجوم ما يراوح بين ١٤ و ١٥٠٠٠ إنجليزي ، وأجبروه على الانسحاب وعلى العكس من ذلك ، نجد أنه إلى الغرب أكثر ، تمكن الانجليز من الاستيلاء على قلعة فرونتناك ، على بحيرة أونتاريو ، من حيث يمكنهم أن يهددوا مونتريال ، وكذلك قلعة ديكين ، على الأوهايو ، والتي كان الانجليز قد بدأوها ، ثم اتهمها الفرنسيون . أما القرية التي سوف تبنى على أنقاض قلعة ديكين فسوف تسمى بيكزبرج ، تيمناً باسم الوزير .

أما في الهند فإن العمليات العسكرية لم تبدأ قبل إعلان الحرب . ولم يكن دوبيكس هناك . وكانت الشركة قد استعدت في عام ١٧٥٤ ، ولم تبن غيرها بعده مباشرة في وظائفه ، كحاكم وقائد عام . وكانت القوات قد ظلت تحت قيادة مساعده ، ماركين دي بوسى Bussy ، والذي كان يقوم منذ ست سنوات بالحرب في الدكن ، مع بضعة آلاف من الجنود الوطنيين ، وبضعة مئات من الفرنسيين ، مؤيداً بضع

أمرام من الأهالي ، وهم الذين انضموا إلى مصالح الملك ، وعارفاً بغيرهم . وسحق عام ١٧٥٨ ، ظل تاريخ المنشآت الفرنسية في الهند مليئاً ، وكما كان في الماضي ، بالحوادث التي كانت تنشأ عن سياسة التدخل هذه . ومنذ وصول نبال الحرب مع الإنجليز ، أعلن يوسى نيته على أن يبتعد منذ ذلك الوقت عن الخصومات الموجودة بين الوطنيين ، وأن يلحظ إلى الساحل مع قواحه . ولقد طلب منه رسمياً من جهة أخرى ، وعن طريق الحاكم الجديد ، أن يعود إلى إستلام عمله ، في شهر يونيو ١٧٥٨ . وكان هذا الحاكم الجديد هو كورت لال Lally ، بارون تولندال Tailandier ، والذي كان من أسرة أيرلندية ، إلتجأت إلى فرنسا في القرن السابق .

وكان لال قد وصل وأعلن موعده على طرد الإنجليز من الهند . وكان هذا هو الترجيح الذي حصل عليه من الحكومة ؛ ولن يشغل نفسه بشيء آخر قبل أن ينفذه ، وكان قد أحضر معه بعض القوات ، ستة كتائب . وهكذا نهد أنه منذ وصوله قد أخذ في إعداد حملة ضد مدراس ، وهي التي قام بتنفيذها بعد بضعة أشهر ، ولكنها لم تعط نتيجة ، بسبب نقص الوسائل اللازمة للقيام بعملية صاروخية . وكان لكل مشروعاته نفس المصير . وقد دوا كل المواقع المختلفة التي كان قد تم إحتلالها في عهد دويليكس ، أو تغلوا عنها برغبتهم ، وذلك في الوقت الذي دخل فيه الإنجليز ، بقيادة روبرت كلايف Robert Clive ، في سرب ضد الغزاة من المور ، والذين كانوا قد إستولوا على كلكتا ، وإتصروا عليهم إنتصاراً كبيراً في بلاسي (٢٣ يونيو ١٧٥٧) . أما الفرنسيين الموجودين في شاندرناجور ، والذين كانوا قد رفضوا التعاون مع جيوشهم في مثل هذا الوقت العصيب ، فإنهم رأوا إحتلال مدينتهم بدورها ومنذ ذلك الوقت أصبح إقليم البنغال كله تحت التفرد الإنجليزي .

وفي أوروبا أيضا ، كان للذبح موزعا ؛ وكان مسرح أول العمليات الهامة هو البحر المتوسط . وكان الفرنسيون ، بعد أن كانوا قد قاموا بمظاهرات على بحسر المائش ، وكأنهم كانوا يعدون لعملية إنزال ، قد أرسلوا فجأة ، جيشاً صغيراً ، بقيادة المارشال ريشليو ، إلى مينورقة . وكانت المفاجأة كاملة . وجاه أسطول إنجليزى ، بقيادة الأدميرال باييج Byng ، لمحاربة هذه القوات أمام بورت مامون المحاصرة . ولكن الفرنسيين احتفظوا بفرقهم ، وسلم الموقع بعد وقت قصير (يونيو ١٧٥٦) .

وعلى القارة ، بدأت حرب ألمانيا فجأة ، وكما كان قد حدث في المرة السابقة ، بالدخول السريع للبروسيين في الحرب (أغسطس ١٧٥٦) . ولكن هذه الحرب سوف تكون بالنسبة لفردريك حرباً دفاعية بشكل أساسى . ورأى أنه قد أخذت تحيط به مجموعة من التحالفات ، كانت ماريا تريزا قد عقدتها . وكان الأمر بالنسبة له ، وكرجل حليء أن يأخذ القرار ، يتركز في أن يهاجم ، ويختار وقت ومكان اللقاءات الأولى ، حتى يصحاشى أمر مفاجأتهم له . وإذا كان قد إشتبك دون حذر كاف ، فإن ذلك كان يرجع إلى أنه كان قد حسب أن القوات الروسية لن تتمكن بأى حال من الأحوال أن تأتى للمسيوين قبل الشتاء .

وكانت القيصرة ، التى أثار إحتقارها بآ الرفاق الذى تم بشأن هانوفر . بين لندن وبراين ، قد تقضت إتفاقاتها نفسها مع فردريك ، ودعمت تحالفها مع ماريا تريزا : فتصدت بأن تدعم عملها ضد بروسيا بستين أو سبعين ألف رجل . ولم يكن فردريك قد تعلم كل شيء . ولكن الأنبياء التى كانت تصل إليه عن تسليح النمسا وروسيا زعمت ذلك التفاؤل الذى كان غارقاً فيه في العام السابق . ويبدو أنه قد طار صوابه إلى حد ما . ورأى أنه سوف يواجه هجوماً ، وفى وقت قريب ، ومن الشرق ومن الجنوب في نفس الوقت . ولما كانت ماريا تريزا قد

رفضت أن تعطيه ضماناً رسمياً بأنه ليست لديها نيات عدائية ، في هذا الوقت أو في المستقبل ، قرر أن يبدأ هو نفسه ، وأصدر أوامره بالدخول في العمليات . وبدون إعلان حرب ، كعادته ، هجم على الساكسون ، والذين كانوا يحرسون الممرات المؤدية إلى بوهيميا : وكان يهدف لإخراجهم سريعاً من المعركة . ولقد حاول أوجست الثالث ، بلا جدوى ، الدخول في مفاوضات . وللتجاءم التالية العظمى من قواته إلى معسكر بيرتا الحصن ، وحيث أن البروسيون لكي يحاصروهم فيه . ولإتته المسألة بعد شهر ، وعلى أساس التسليم بلا شروط (٥ أكتوبر) . وأخلى سبيل المنتخب الملك ، فأنسحب إلى عاصمته البولندية . وسمح لجناباته بأن يلحقوا به ، أما الجنود فلأنهم أدخلوا رسمياً في وحدات الجيش البروسي . واضطر جيش نمسوى ، كان يقترب من جبال بوهيميا ، إلى أن يتقهقر بمجرد عبوره الحدود :

وبطبيعة الحال لم تته هذه الحملة الحاققة أى شيء . وكانت تتيحها الواضحة تماماً هي التسبب في القطيعة المباشرة مع فرنسا ، و ربط السياسة الفرنسية بطريقة أقوى بضموم فردريك : فقرر لوى الخامس عشر أخيراً أن يستدعى سفيرة من برلين . أما ماريا تريزا فإنها لم تقنع بمجرد أن تطلب إلى حليفها تلك المساعدة العسكرية التي يمكنها أن تعتمد عليها طبقاً لنصوص إتفاقيات العام السابق . فعادت إلى المحادثات عند النقطة التي كانت قد بقيت عندها وقت التوقيع على « معاهدة فرساي الأولى » ، والتي رأوا في فينا أنها كانت غير كافية . وهكذا تجدأن التحالف الفرنسي النمساوي سوف يتحول من تحالف دفاعي كما كان ، إلى تحالف هجومي . وتم التوقيع على « معاهدة فرساي الثانية » ، بعد تردد طويل ، في يوم عيد ميلاد المعاهدة الأولى (أول مايو ١٧٥٧) . وكان ما يجزما عن الأولى هو بشكل خاص تلك الروح التي عقدت بها : فظهرت فيها عزيمة فرنسا على أن تستمر في تلك الحرب

التي فرضت غشلى سليفتها حتى النصر ، وقامت بدورها بتحويل مارييا نيميرا ، ووعدها بمونات ، وتبادلت معها الوعود بعدم التفاوض المنفرد . وكإعتراف بخدساتها ، الحاضرة والقبلة ، حصلت على وعد بالحصول على قطعة من الأراضي المنخفضة ، والتي سوف تحول في أول الأمر إلى إمارة شبه مستقلة ، في صالح دون فيليب ، ابن أخى الملك ، وكما كان قد حدث قبل ذلك ، وفي ظروف مشابهة ، بالنسبة لدوقيات اللورين .

ولم يفكر أحد ، وفي أية لحظة ، في أنه يمكن لبروسيا الصفحة هذه أن تقاوم ويانصار ، ذلك الحشد الضخم من خصومها . وفي بطرسبرج اعتبروا ، وكأمر يمكن ، عملية تقسيم دولة بروسيا . ومن الناحية الفرنسية ، كان تنفيذ الوعود المعطاة من الحكومة النمساوية في الشؤون الإقليمية ضاعماً ومشروطاً باستعادة سيليزيا . وإذا حدث ، وحسب كل ما كان متوقع ، ألا تعود سيليزيا للنمسا ، فإن كل التضحيات التي وافقت عليها فرنسا من أجل القضية المشتركة سوف تظل إذن بلا نظير . وكان هذا هو ماسوف تنتهى إليه تلك الحرب الدموية التي نشبت .

٢ - فردريك وإستمرار الحرب :

مرحان ماحسب فردريك مقدارة الحذر الذي إرتكبه في الإلتجاء إلى السلاح . وأصبح عليه أن يواجه تكتلاً حقيقياً . وكان قد ساعد بنفسه على تكوين هذا التكتل ضده فأولا ، نجد أنه كان باعتدائه قد أيقظ معنى التضامن بين أعضاء الإمبراطورية : فصوت الهاييت على أمر إنشاء وحدات نظامية ، سوف تكون جيشاً إحتياطياً بالنسبة للقيادة النمساوية (يناير ١٧٥٧) . ثم وعدت السويد بإعطاء مونتيا ، بعد أزمة داخلية نتج عنها نوع من فرض وصاية البرلمان على الملك . وكان الملك صهراً لفردريك الثانى . وكرد فعل ، إنضم البرلمان إلى التحالف الموجود بين فرنسا والنمسا وروسيا ، وحصل على وعد بذلك الجزء .

من يومها الذي كان قد ظل ، منذ عام ١٦٤٨ ، من منطلات منتخب
براندبورج .

وفي مواجهة القوات المشتركة لفرنسا والنمسا والسويد وروسيا ، سيجد
فردريك نفسه بمفرده تقريباً . ولم يكن في وسعه أن ينتظر موقعة كبيرة من
الإنجليز . وكان موغله في ساكس قد أثار الهجوم في لندن ، وحيث كانوا مشغولين
إلى أقل درجة من الماضي بأمر الحرب على القارة . وبطبيعة الحال ستكون المشاركة
البريطانية في ذلك المجهود المشترك من النوع المالي بنوع خاص . وكانت عملية
حقن بعض الذهب الإنجليزي ، في حالة إقتصاد بلاد فقيرة مثل بريطانيا ، ذات
قيمة كبيرة . وكان فردريك ، علاوة على ذلك ، ومنذ ما قبل الحرب ، قد تصور
هذه الوسيلة إلى خزانته ، حتى حساب جيرانه الذين كانوا عملياً منزوعي السلاح :
فأغرق في بلندا بعملة مزورة ، صنعها في ورش وكونيجريج . وطوال فترة
الحرب ، سوف يحصل بهذه الطريقة على موارد تقرب من أن تساوي في قيمتها
تلك التي سيسجل عليها من الصداقة الإنجليزية .

وعلى التطلاق العسكري ، لن يعتمد الإنجليز ، في بداية الحرب ، كثيراً عن
هانوفر . وفي الفترة التالية ، سوف تقتصر عملياتهم على منطقة نهر الراين الغربية .
أما الوزارات المختلفة التي تالت في لندن فإنها كانت تعتبر أن مسألة هانوفر
كانت ككرة حديدية تمسها إنجليزاً بكميها عند سيرها ؛ وتزايد هذا الشعور
وياستمرار . أما الآن ، وكانت أنظار الأمة كلها مركزة على المستعمرات ، فكانوا
يرغبون في أن يتحوروا من الإشراف على هذه الزائفة الأوروبية لبريطانيا العظمى ،
والتي كان الملك . وحده تقريباً ، هو الذي يهتم بها . ولما كان جورج الثاني يعارض
دائماً في أمر التفويض مع فرنسا بشأن حياض هانوفر ، إنظر البرلمان إلى أن يضع

تمت تصرفه الأموال اللازمة لإنشاء جيش ، مطابقاً لجيش المصلحة في عام ١٧٤٢ . ومنذ الحملة الأولى تم دفع هذا الجيش الصغير ، والذي كان بقيادة دوق كبرلاند Gumberland ، من جانب قوات دوق ريشيليو ، قاهر هورت ماهون . ولما كانت هانوفر قد تم غزوها بهذه الحركة ، وقسح كبرلاند على التسليم في كلوسترسفن (سبتمبر ١٧٥٧) ، وهو التسليم الذي تصد فيه بأن ينسحب مع قواته إلى ماوراء الإلب . ولكن إستقبال هذا الإتفاق كان سيئاً في لندن ، وذلك في الوقت الذي كان فيه ويليام يست قد وصل فيه إلى السلطة . وفي شهر نوفمبر ، قام الملك ، وبترخيص من وزيره ، بالتبرؤ من كبرلاند ، ومزق التعهدات التي كان قد قطعها على نفسه تجاه ريشيليو . ومنذ ذلك الوقت ، سيمهدون بمصير الحرب إلى ملك بروسيا وحده : ووعده معاهدة جديدة بمحولات تصل إلى مبلغ ضخم ، هو ٦٧٠.٠٠٠ جنيه في السنة . وسيقوم بإختيار الجنرال دوق فرديناند برنويك Brunswick لتولى قيادة الجيش الإنجليزي الهانوفري . وكانت معركة واحدة ، عند كريفيلد ، وعاد الفرنسيون حتى نهر الراين . وإبتداء من ذلك الوقت ، سيظل الخصوم مشتبكين في المنطقة الواقعة بين مجرى الراين وبين ماينتس السفلى . أما مدينة كاسيل فأنها قد مرت من جانب إلى جانب آخر . ولكن الموقف الخاص بكل من الجيشين ظل إلى حد بعيد كما هو ، في مجموعة ، وحتى وقت الصلح .

ومن عام ١٧٥٧ حتى عام ١٧٦٢ تالتت ست حملات في ألمانيا الشرقية . ومن وجهة النظر البروسية ، كانت كبيرة الإهتمام بالنسبة للدراسة الخاصة برجال الحرب ، والذين لم يتعلموا عن إستغلال مصادرها . ولكننا لا نستطيع أن نعطي هنا إلا خطوط عامة عنها ، وعتصرة ، ومحددة بمالمها الرئيسية .

وكانت حملة عام ١٧٥٧ هي الأكثر أهمية من بينها . وبدأت في وقت مبكر ،

في شهر أبريل . وكان على فردريك أن يحسب حساباً الوقت كعامل مساعد له ، ذلك أن كل خصومه تقريباً كانوا يبدئون من قواعد بعيدة . وكان قد أخرج الساكسون من اللعبة في عام ١٧٥٦ ، ورأى أن في وسعه أن يقوم بنفس الطريقة بتسوية حسابيه مع النمسيين ، قبل أن يبدأ عملية قياس القوة مع حلفائها . وفي بومبيا ، وقعت معركة أولى ضد قوات الأميرشارل صاحب اللورين تحت أسوار براغ . وبعد أن انهزم النمسيون ، أغلقوا على أنفسهم ، في داخل الموقع . ثم جاء جيش جديد ، بقيادة جنرال شاب ، كان لا يزال غير معروف ، هو هاون Dava . ثم معركة جديدة ، على بعد مسافة ما عن الموقع ، عند كولين : وهذه المرة ، هزم فردريك ، وأصبح عليه أن يخلو بومبيا . ودخل في بروسيا لكي تتوالى عليه الآباء السيئة . فبينما كان الجيش النمسي يتقدم ببطء إلى قلب ألمانيا ، من ميمنت ، علم هزيمة تلك القوات التي كان قد تركها لحماية بروسيا الشرقية ، على أيدي الروس ، عند جروس ياجرسدورف ، ثم دخول السويديين في بوميرانيا ، وسرياً الوصول إلى برلين ، وفي ظهريه - لم يكن قد ترك سيليزيا - لوحة من الجيش النمسي الذي كان قد احتل إقليم ساكسونيا . وبدأت هزيمته تخور . وراودته بعض أفكار عن الانتحار ؛ وعلى الأقل ذكر ذلك نفسه وتقام بمجسات في بلاط فرساي من أجل عقد الصلح .

وكان فشل هذه المحاولة ، الذي أجبره على ضرورة الحرب مما كانت الظروف ، قد أعاد إليه روح اتخاذ القرار الذي كان قد بدأ ، منذ بضعة أسابيع ، على أنه كان قد تركه . فيجعل على مواجهة الخصم - الذي كان أكثر تهديداً له ، وبطريق مباشر ، وهو جيش الفرنسيين والإمبراطوريين ، والذي كان تحت قيادة مارشال سوربن Soubise وأمه ساكس هيلدبرجهاوسن Saxo - Hildburghausen .

فوصل إليه عند ضفاف نهر سال ، هندروسباخ ، وفاجاه ، وهو في تشكيلات السه ، وحصل على انتصار كبير (٥ نوفمبر ١٧٥٧) . ومنذ ذلك الوقت ، بدأ أن سوء الحظ قد انتشع . فوصلته أنباء أفضل : فلقد ترك النمويون برلين ، أما الروس فإنهم أخذوا في الاستعداد للعودة إلى قواعدهم ، مع إقتراب الشتاء . فمادت إلى فردريك فلقته في نيمه ، كما عادت إليه كل قوته . وبهجوم سريع ، دفع بقواته إلى سيليزيا ، وحيث كان الأمير شارل صاحب اللورين قد إستعداد برسلاو . ووجده متحصناً قرب هذه المدينة ، عند لوتن ، فهاجمه في الحال ، وبعد شهر من ووزباخ (٥ ديسمبر) ، هزمه وأجبره على أن يجلو عن الإقليم من جديد . ولذلك فإن حملة عام ١٧٥٧ الخطيرة إنتهت في صالحه .

ولن يقابل في السنوات التالية نفس المخاطر . وسيكون أكثر سهولة عليه أن يجبر خصومه على إحترامه ، عامة وأنهم كانوا ، من الناحية العملية ، قد نقص عددهم إلى اثنين . وكان الفرنسيون بعد هزيمتهم في ووزباخ ، قد تخلوا عن مواجهة البروسيين ، وقرروا بأن يقوموا بعملياتهم العسكرية ضد الإنجليز في وستفاليا وفي ميس . وكان جيش الدائرة يمثل خصماً ليس له وزن ، أما جيش ملك السويد فلم يكن يمتشي جانبه . ولذلك فإنه كان عليه الآن أن يواجه الروس والنمويين فقط . وكان عليه أن يبدأ بمواجهة الأولين ، وذلك بسبب عددهم ، وكتلتهم ، وقوة مدتهم التي يمكن أن تصبح صعبة المقاومة . ولقد ركز على بطونهم في بحر كهم ، وحاول أن يتمهم من أن يقدموا العون لخطائهم . وفي عام ١٧٥٨ ، كان يستمر في الدمار من الواحد إلى الآخر . وقرب كوسترين ، والتي كان الروس يقومون بمصارعا ، كسب معركة زورلدورف الدموية (٢٥ أغسطس) . ثم عاد صوب الجنوب ، بعد أن إستجده به أخوه ، الأمير هنري ، والذي كان داون يهدده في ساكس . وإنتصر النمويون في هوشكورش (١٤ أكتوبر) .

ولكن إنتصارهم كلهم كثيراً حتى أنهم ظنوا قايضين في أماكنهم . ولم كل من الطرفين بإعداد مواقع الشتاء في أماكنه .

وفي أثناء شتاء ١٧٥٨ - ١٧٥٩ ، كان كل شيء ينيء بأن الحملة المقبلة سوف تكون حاسمة . فكان التحالف الممادى لبروسيا يستمر في تضيق الخناق سول فردريك وجيوشه : فكان لا يشك في أن الإنتصار قد أصبح الآن تقريباً .

٤ - فرنسا قلقة كندا :

وفي المستعمرات لم يكن الأمر ، إذا ما كان يجب ، مشجعاً . ولم يكن هناك شيء فقد بشكل نهائي . وكان يكفي ، من أجل تحسين الإمكانيات ، وخاصة في أمريكا ، أن تقوم الحكومة الفرنسية بمجهود عسكري يمكن مقاومته بمجهود الإنجليز . ولكنها رفضت القيام بمثل هذا المجهود : فكانت الإمدادات التي طلبها فوردري ومونت كالم من فرساي ، بمتدوب خاص هو بوجانفيل ، لم تمنح . ومنذ ذلك الوقت سيرداد عدم التناسب في القوات بين الفرنسيين والإنجليز خطورة وبسرعة .

وفي الربيع ، أخذوا في الإعداد في إنجلترا الجديدة للقيام بهجوم ثلاثي من قواعد أكثر قرباً عن القواعد السابقة . وكان الهجوم الرئيسي سيستخدم طريق البحر . فقام جيش من ٩,٠٠٠ رجل ، بقيادة الجنرال وولف Wolfe ، بالزول في لويزبورج ، ووصل من طريق سانت لورانس ، إلى قرب كويك . وكان الموقع الذي تحتله المدينة ، على رأس حائق يسيطر على النهر ، يجعل منها قلعة طبيعية . وبدلاً من أن ينتظر الهجوم ، فضل مونت كالم أن يذهب لمقابلة العدو في الريف المكشوف . وفي السهل المجاور لإيراهام دخل في معركة دموية ، انتهت بهزيمته ؛ وجرح جرحاً بليئاً ، وذلك في الوقت الذي توفي فيه وولف . وسجن أخذ فوردري القيادة ، قرر التخلي عن كويك . وسلم الموقع بعد قليل (٨ سبتمبر) .

ومنذ شهر مضى ، كانت بحيرة شامبلان قد قفلت ، وكان هناك طايوران إنجليزيان يتقدمان من الجنوب الغربي . ومع ذلك فستكون هناك حملة أخيرة . ذلك أن دوق ليفي Levis ، خليفة موت كالم ، وصل في عام ١٧٦٠ ، لكي يحاول استعادة كويبك ، وقام بحركة قرب المدينة ، في سانت فوا ، وبدأ في محاصرة المدينة . ولكنه اضطر إلى رفع الحصار بعد خمسة عشر يوماً . وثاني عملية تسليم مونتريال ، في شهر سبتمبر ، لكي تضع بشكل نهائي حداً للعمليات العسكرية .

وفي الهند ، شهد عام ١٧٥٩ القضاء على ذلك العمل الذي كان يومى قد حققه في الهكن ، بإتفاقيات معقودة مع الأمراء المحليين ، وفي خلال تلك السنوات ليست التي كان قد قضاهما ، في فترة دوبليكس وما بعدها . وبعد أن تمناهم مع لال ، ترك قيادته في عام ١٧٥٨ . ولم يأخذ خلفه سوى إهتمام قليل بتلك الصراعات التي كانت مستمرة في وضع الأمراء المحليين بعضهم في مواجهة البعض الآخر . فأصبح الإنجليز ، مع كلايف Clive ، هم الذين يتدخلون الآن ، عن طريق الدبلوماسية ، أو عن طريق القوات . ولم يعد النفوذ الفرنسي الفرصة ولا حتى الوسائل لكي يشعروهم بوجوده . هذا علاوة على أن المنشآت الفرنسية في الهند سوف تندهور . وفي عام ١٧٦٠ ، قام الإنجليز بالمحرم على ساحل كورو ماندل . وبعد الإستيلاء على كاريدال ، بدأت محاصرة بوند شيرى في شهر يناير ١٧٦١ . أما ماهى ، الواقعة على ساحل مالابار ، فإنها سقطت بدورها ، بعد بضعة أسابيع .

٥ - تطور الموقف الدولي والصلح :

في أوروبا ، وعند حدود براندبورج ، وبولندا وسيليزيا ، كان فردريك الذي أصبح مضطراً إلى القيام بالعمليات الدفاعية ، ولكن في ظروف متزايدة

الصعوبة باستمرار ، يحارب بطاقة من ليس له أمل . ولم يكن في وسعه أن يجمع الروس من أن يتقدموا من جديد حتى نهر أودر ، في منطقة كوسترين ، وحيث كانت وحدة نمسوية قد انضمت إليهم . وكان عليه ، لأول مرة ، أن يدخل إلى معركة مع جيش مشترك ، نمسوي روسي . وهذه المعركة ، وهي معركة كوز سدورف (١٢ أغسطس ١٧٥٩) ، كانت أقصى معارك الحرب : فواجه فيها ٥٥.٠٠٠ بروسي عدداً يماثلهم من الروس مع ١٨٥.٠٠٠ من النمسيين . وكان النعم يحتل موقعا حسيباً للغاية . وفشل فردريك في زحزحته منه . ولما انتهى الأمر بقواته إلى أن تفسح في فوضى وتفرق : فكانت كارثة . فكتب إلى أحد وزرائه : « لم تعدل موارد ، وحتى لا أكذب ، اعتقد أني فقدت كل شيء » . ولكن هذه الموجة من فقدان الكبير للشجاعة لم تدم طويلا . فسرعان ما يلاحظ أن المنتصرين عليه ظالوا بدون نشاط ، فبادت آلية قهت في نفسه ، والواقع أن قادة الحلفاء كانوا غير متفاهمين ، فكان داون يرهب في الزحف على برلين ، بينما كان سولتيكوف Soltykov ، الروسي ، يطلب فترة راحة يتمكن فيها من إعادة تنظيم قواته . وهكذا نجد أن برلين قد نجت ، هذه المرة أيضا . ولكن جيوش الهائلة كانت قد احتلت ساكس ، وأقام فيها النمسيون معسكراتهم الشتوية . وبالنسبة لعام ١٧٥٩ هذا ، فإن من يتكلمه يجد أنه فقير في أحداثه العسكرية . وكان أكثر أحداثه وضوحا هو وصول الروس حتى برلين : فتهبوا الضواحي ، وفرضوا حراسة حرية ضخمة ، ثم عادوا كما كانوا قد حضروا . وفي ساكس ، إنهم جيش بروسي ، بينما تمكن فردريك ، في سيليزيا ، من أن يفتصر عند ليجنيتز ومنع النمسيين من أن يعطوا ، من جديد ، معونة للروس .

وفي ذلك الوقت نجد في غرب أوروبا ، أن الملل كان قد زاد ، في فرنسا وفي إنجلترا في نفس الوقت . ففي فرنسا ، كان الرأي العام قد تأثر من الجياعات

المتتالية المدعو على سواحل المحيط : فكان قد تمكن في عام ١٧٥٧ من أن يستولى على جزيرة إكس ، عند مصب الشلالات ؛ وفي عام ١٧٥٨ كان من الضروري الذهاب لمواجهة عند سان كاست ، في بريثاني ، ولم يكن أمر دفعه سهلا ؛ وفي عام ١٧٥٩ سقط أسطول فرنسي أخير في معركة قرب بل ليل . وأخذوا يتساهلون عن جدد الإستمرار إلى ما لانهاية في هذا الصراع غير المتكافئ . وفي أثناء ذلك الوقت ، قام لوى الخامس عشر باستدعاء الكونت دى شوازيل Choiseul ، سفيره في فينا ، لتولي الوزارة (ديسمبر ١٧٥٨) ؛ وكان رجلا يعرف ما يريد ، كما كان مصمما على دفع العمليات الحربية بقوة ضد إنجلترا . ووضعت من جديد مشروعات من أجل الذهاب والبحث عن العدو في جزيرته . وتم عقد اتفاق مع قبصرة روسيا من أجل إمكانية إقفالها لبحر البلطيق في وجه الإنجليز ، مع موافقة النايمرك .

وفي إنجلترا ، ورغم حالة التشوة التي كانت قد تولدت عن الإلتصار ، كان السؤال مطرح دائما ، وحتى في الأوساط الحاكمة : فما هو السبب للإستمرار في الحرب في ألمانيا ؟ وأمام الرغبة التي سرعان ما أظهرتها الحكومة للدخول في مفاوضات ، جاءت رغبة شوازيل لكي تمرقها لفترة من الزمن . ولكن سرعان ما إضططر الوزير الفرنسي ، الذي شلته المؤامرات التي نشأت حوله ، إلى أن يتراجع عن ذلك الصراع غير المتكافئ الذي كان قد بدأه ضد الانبوايين ، وحتى ضد الملك نفسه . ووافق على أن يعد من أجل الصلح دون إضاعة للوقت . ولذلك فإن المحادثات سوف تبدأ في لاهاي ، في شهر ديسمبر ١٧٥٩ ، وبوساطة الحكومة الهولندية . ولكنها فشلت بسرعة ، وذلك نتيجة لخطأ الإمبراطورين ، ماريا تريزا وإليزابيث ، والذين أسكرتهما إلتصاراتهما ، واعتقدتا في أنها قد أصبحتا تسمكان بالنصر، منذ ذلك الوقت . ولكي لا تخاطرا بترك نفسيهما تنزلقان

إلى صلح سابق لأوانه ، عقدنا إتفاقية جديدة ، ببادلنا بها التنازلات المتعلقة بتحقيق أهداف الحرب خاصة بها . وفي مواجهة سوء النية النمساوية والروسية ، وجد شوازيل أن الطريقة الوحيدة للخلاص كانت هي أن يتفاوض تفاوضاً منفرداً بشأن الصلح ، على القارة وفي قطاع المحيط . وأخذوا في المناقشة العلوية بين العواصم . فتم الإتفاق بشأن إقتراح تبادل : فسوف يتركون لندن وباريس في مداولات ثنائية ولكن مع تبادل وجهات النظر بينهما ، وبشكل تلقائي ، تتم عادات أخرى بين جميع الدول المتحاربة .

ورغم أنهم كانوا قد بدأوا في العمل من أجل الصلح ، فلإن بعض العمليات الحربية سوف تستمر حتى عام ١٧٦١ . ذلك أن فردريك قد إستمر في محاربة خصومه الذين كانوا يحيطون به في شكل دائرة ، والتي كانوا يضيقونها عليه كل عام أكثر . وأنزل بهم الهزائم . ونزلت به موائم أخرى . ولكنه لم يتمكن ، على أي حال ، من أن يعيد غزوة مساحة من الأرض كان قد فقدها في السنوات السابقة . وفي شهر ديسمبر ، أقام الروس معسكراتهم الشتوية في أراضي بروسيا . وكانت سيليزيا كلها في أيدي النمساويين . وكان جيش الهائرة يحتل ساكس .

ولقد غابت تلك الآمال التي كانوا قد عقدوها على المفاوضات للترفة لعام ١٧٦١ . ذلك أن الفرنسيين والإنجليز ، كانوا قد أعيدوا ، وقت الوصول إلى الإتفاق ، ونتيجة لتدخل غير متوقع من جانب إسبانيا ، إلى طريق الحرب . وكانت إسبانيا ، منذ بداية الحرب ، قد أعلنت حيادها . وكان اتجاه سياستها ، تحت حكم فرديناند السادس ، محكوماً بالرغبة في المحافظة على العلاقات السليمة مع كل الدول ، بما فيها النمسا . وفي خلال ذلك الوقت ، لم تكن فرنسا ، ولا إنجلترا ، قد تخلت عن طلب الحصول على معرفتها ، في يوم من الأيام . وتنافست

المدرثان في أظهار ودما لدى بلاط مدريد . ومنذ عام ١٧٥٦ ، ومنذ أن استولى الفرنسيون على مينورقة ، أسرعت حكومة لوى الخامس عشر بمنح ما غزته إلى ملك إسبانيا ، جارها . وردت الحكومة الإنجليزية على ذلك ، ووعدت الإسبانين بإعادة جبل طارق إليهم إذا ما أرادوا الإسهام في عملية إعادة غزو مينورقة . وأمام النخطيين ، احتفظت إسبانيا بتحتفظها . ثم ، حينما وفى فرديناند السادس ، في عام ١٧٥٨ ، قام نصف أخاه ، دون كارلوس ، بالتخلي عن تاج نابول إلى أحد أبنائه ، حتى يتمكن هو من أن يضع تاج إسبانيا على رأسه .

ومع الملك الجديد ، شارل الثالث ، انتهت إسبانيا من أن تخلص نفسها من تلك المشغولات الإيطالية القديمة . ونتيجة لانشغالها بالمصالح البحرية البعيدة ، عادت يميل إلى التحالف الفرنسى . ولما كانت لندن تهرب من المعادلات بشأن المسائل التي كانت منذ عام ١٧٤٨ تفصل بين الإنجليز والاسبانين ، قرر شارل الثالث أن يقترح على فرساي أمر تجديد الاتفاقيات القديمة . وعندئذ تم التوقيع في باريس على معاهدة احتفظ لها التاريخ (وأكثر من تلك المعاهدات الأخرى التي كانت قد سبقتها) باسم « ميثاق الأسرة » (١٥ أغسطس ١٧٦١) . وهذا التحالف بين فرعى أسرة البوربون أضيفت إليه فقرات عديدة تبعاً للظروف الموجودة : فتعهد لوى الخامس عشر ألا يدخل في مفاوضات قبل أن يتم إرضاء المطالبات الاسبانية ، ووعده شارل الثالث بأن يدخل الحرب ضد إنجلترا إذا لم يتم عقد الصلح قبل أول فبراير ١٧٦٢ . وتوقفت المعادلات الفرنسية الإنجليزية في شهر يوليو ١٧٦١ ؛ ولن تعود من جديد إلا بعد عام . وفي أثناء ذلك الوقت تكون إسبانيا قد دخلت الحرب .

وهذا التنهد في علاقات القوى بين دول الغرب المختلفة كان أقل أهمية وبكثير من تلك التغيرات التي وقعت في شرق القارة ؛ في شهر يناير ١٧٦٢ ، في العلاقات

بين بروسيا وروسيا . فتوفيت القيصرية إليزابيث عن إثنين وعشرين عاماً ، دون أن تترك وريث من دمها ، فترك العرش لأحد أبناء إحدى أخواتها ، الجراحه دوق بطرس دى هولشتاين ، ذلك الأمر الألمانى الذى كان يشعر بإعجاب بلا حدود بالنسبة لفرديريك الثانى . وكان هذا بداية لتغير جديد فى نظام التحالفات ، وهو الأمر الذى كان من الممكن التنبؤ به منذ بضع سنوات — والمراسلات الدبلوماسية لا تترك أى شك بشأن هذا الموضوع . ومنذ عام ١٧٥٨ ، بدأ بلاط بطرسبرج منقسماً بين مجموعتين ، تتنازعان بطيئة الحال أمر الحصول على التفوذ لدى هذا القيصر ، والتى كانت مداجته الطبيعية تزداد خطورة بالمرض . ولما كان الوريث المرشح بدون شخصية ، وبشكل عام لا يحظى بالاحترام ، فإن أصحاب الطموح أخذوا فى تسج مؤامراتهم حول زوجته ، كاترين . وفى الوقت الذى كان فيه حذف الميزانية يجعل أمر الاستمرار فى العمليات الحربية غير ممكناً ، إزداد باستمرار عدد أنصار عقيدة منفرد . ولا شك فى أن الإصراف لسب دوره فى المسألة . وأعلن سفير لوى الخامس عشر فى أحد الأيام :
« إن كاترين بحاجة بالكامل للإيجلز » .

وسرعان ، بعد وفاة إليزابيث ، أن أعلن القيصر الجديد إلى فرديريك أن مشاعره حياله ، والمروقة من الجميع ، لم تنته . وكان من بين أول أعماله أن يستدعى من سيليزيا ذلك الفيلق الذى كان قد أقام معسكراته الشتوية هناك . ثم تمت مقاطعة مثل الدول المتحالفة فى سان بطرسبرج ، وبدأت المفاوضات مع برلين . ولقد تمت بسرعة ، خاصة وأن القيصر لم يكن يطلب شيئاً . وتم التوقيع على الصلح ، فى ٥ مايو ١٧٦٢ : وكان على الروس أن يغلقوا كل الأساكن التى كانوا قد غزوها ، ودون أن يحصلوا على أقل تعويض .

ولذلك قلبه أصبح فى ربح فرديريك إذ أن يستمر فى القيام بالحرب ضد

التي لم يجرى دون أن يحشى على جوانبه . وبعد بضعة أسابيع من ذلك ، سيتم تنفيذ الطريقة ضمان مؤخرته ، وذلك نتيجة لعقد الصلح مع السويديين : صلح أوبسالا ، كذلك ؛ كان شرطه الوحيد مجرد إعادة يوميات البروسية . وفي نفس الوقت جاءت معاهدة جديدة مع بطرس الثالث لكي تجعل فردريك يحصل ، بالنسبة للحملة المقبلة ، على وعد بمائة عشرين ألف جندي روسي .

لكن لم يكن تاريخ العلاقات العائلية قد سجل في أى وقت معنى مثل هذه الانقلابات للمرحية ، ولا إقناع نتائجها ، كما كان قد حدث في عام ١٧٦٢ . وفي لحظة حلة جديدة ، كان من المتوقع أن تكون حاسمة ، تحول مركز ملك بروسيا ، والذي كان بدون أمل ، وأصبح فجأة مدعماً ، حتى أن كل الامكانيات أصبحت الآن إلى جانبه . وكان في العام الماضي قد رفض أن ينضم إل مجبوبات حلفائه الإنجليز من أجل الصلح . وبعد وصول بطرس الثالث إلى العرش أصبحت مقاومته واضحة ومؤكدة لوجهات نظر حكومة لندن . وربما كنا سنمثل إلى قطيعة ، إذا لم تكن أحداثاً جديدة قد وقعت في سان بطرسبرج ، وعملت مرة جديدة على أن تنهي فجأة تلك الامكانيات التي كانت قد تفتحت على المستقبل القريب .

ذلك أن بطرس الثالث ، بعد ستة أشهر من الحكم ، عزل بواسطة زوجته ، التي عاونها حزب من النبلاء غير الراضين ، وأيدما جزء من الرأي العام في أن تعطى نفسها التاج ، بإسم كاترين الثانية . ورغم أنها كانت من أصل ألماني هي كذلك — ذلك أنها كانت أميرة أنبالك زوبست — إلا أنها كانت معادية لفردريك . ولذلك فإنها سحبت القوات التي كانت تستعد للإنتقام إليه . وعقدت كل العزم على تنفيذ المعاهدة الثانية ، ولكنها احترمت المعاهدة الأولى : ذلك أن الأمة كلها كانت تأمل في السلم . ولما لم تنجح في الحصول على موافقة على

مرض بالرسالة ، أعلنت أن روسيا سوف تحتفظ ، ابتداء من ذلك الوقت ، بالحياد بين البروسيين وبين النمساويين . وكان فردريك قد بدأ حملة جديدة ، فأصبح عليه أن يعدل من خططه هليانه ؛ وإن كان هذا لم يمنحه من الحصول على النجاح الذي كان قد تعود عليه حين كان يتعامل مع النمساويين .

ومع كل ذلك ، فإن بروسيا كانت على آخر أنفاسها . وبعد أن حرمت من المعلومات الإنجليزية ، لم يعد في وسعها أن تستمر لفترة طويلة . فكان من الضروري أن تقرر الإتيان من ذلك . وكانت النمسا ، من جانبها كذلك ، لها تقريرا نفس الحاجة إلى السلم : وكان إسحاب روسيا قد حرماها من كل أمل في النصر . ولذلك فإنها اقترحت أن تدخل في معادلات عند نهاية حملة ١٧٦٢ . وحصل هذا الإقتراح في برلين على إذن صاغية .

وكان المنتخب الملك ، أوجست الثالث ، قد قبل كوسيط ، فعاد إلى بولندا ووضع قصره في هويرتسبورج تحت تصرف المتفاوضين : وهذا هو المكان الذي سوف يتم فيه التوقيع على الصلح ، في ١٥ فبراير ١٧٦٣ . وبالنسبة لما هو أساسي ، تركت المعاهدة سيليزيا لبروسيا . وهذه الجزيرة الجديدة ، والتي استمرت لمدة سبع سنوات ، إنتهت إذن بأن تقوم بمجرد تأكيد لنصوص وشروط إكس لا شايبل . وكما كان قد حدث في عام ١٧٤٨ ، حين وعد فردريك بإعطاء صوته لفسر اسموا صاحب اللورين في يوم الانتخابات الإمبراطورية ، وعد به مسبقاً ، في حالة خلو الإمبراطورية من جديد ، إلى ابن الإمبراطور وه الإمبراطورة بالملكة — وهذا هو الاسم الذي وضعوه بدون دقة لما ريرا .

وكان عظم أهمية الدور الذي قامت به دولة روسيا قد أعطاما في ذلك الوقت إرضاء لكرامتها كانت تنوق إليه ، وبلا جدوى ، منذ وقت بيميسد . وقررت الحكومة الفرنسية في عام ١٧٦٢ ، والحكومة البولندية في عام ١٧٦٤ ، الإمتناع

باللقب الامبراطوري للملكها (في فرنسا ، كانوا قد تحدوا في عام ١٧١٧ عن صاحب الجلالة القيصرية ،) . وكان آل هابسبورج في فيينا قد أعطوها المثل لذلك في عام ١٧٤٤ .

وخمسة أيام قبل أن يتفق النمسيون والبروسيون في هوبتسبورج ، كان المتفاوضون الإنجليز والفرنسيين ، المجتمعين في باديس ، قد إتفقوا على نصوص معاهدة أخرى ، للمصلح ، تنص نهاية الحرب البحرية والإستعمارية (١٠ فبراير ١٧٦٣) .

وكانت السياسة الانجليزية هي التي بدأت في العمل على إعادة السلم ، رغماً عن الحرب الجديدة التي كانت تقوم بها ضد إسبانيا ، أو ربما بسبب هذه الحرب نفسها . ومنذ وقت مبكر كان الرأي العام قد عارض بقوة في أمر إستمرار هذه الحرب . وكان بيت قد رفض في أول الأمر أن يترافع أمام ضغط البرلمان ، ومنشط زملائه في الوزارة . ولكن الملك جورج الثاني توفي في خريف عام ١٧٦٠ . وجاء إبنه جورج الثالث ، وكانت شخصيته أكثر وضوحاً من شخصية والده ، فلم يتأخر كثيراً عن أن يظهر الرغبة في أن يفرض وجهات نظره الخاصة على وجهة نظر وزيره . وبعد عام من ذلك ، إستقال بيت . فبدأت السياسة للشخصية الملك في العمل ، وعن طريق رئيس وزرائه الجديد ، وصديقه ، لورد بيوت Lord Bute . فساد الإعتقاد في فترة من الوقت في أن نهاية الحرب كانت قريبة .

وفي أثناء ذلك الوقت كان تغييراً آخر في الحكم قد تم في إسبانيا ، منذ عام . وكان وصول شارل الثالث إلى العرش يقضي على آمال الإنجليز في أمر عقد صلح ثابت . ذلك أن الملك الجديد كان قد قام في نابولي ، وحيث كان يحكم من قبل ، من بعض الإيوانات التي كان الإنجليز قد أنزلوها به ، فكان يشعر سيالهم بمشاعر حداوة أدت به إلى المهرج منذ عام ١٧٦١ ، حين رأى أن عروسته من أجل الوساطة

قد أبعثت في أثناء المؤتمرات التي عقدت في لاهاي . وكان مقدّم ميثاق الأسرة ،
الجديد في باريس يعلن عن إمتداد العمليات العسكرية بعد ذلك . وفي نفس الوقت
تقريباً ، الذي إرتبطت فيه إسبانيا مع فرنسا ، قطعت علاقاتها مع البرتغال ، التي
كانت قد رفضت الاشتراك في الاجراءات المقررة ضد التجارة البحرية للإنجليز .
ومع ذلك ، ففي نفس العام ، جاءت إقتراحات جديدة للوساطة ، وهذه المرة
من ملك سردينيا ، ووجدت أنهما إذا ما صاغية في لندن أولاً ، ثم في باريس ،
وحيث كانوا قد سجلوا هزائم جديدة على البحر . وكانت جور الأنثيل الفرنسية
قد سقطت الواحدة بعد الأخرى في أيدي الحشم ، الذي أخذ الآن مهاجمة البحور
:الاسبانية . وكانت لندن قد إحتفلت بالاسيلاء على هافانا كحدث وإنتصار كبير .
وسرعان ما إمتدت العمليات إلى المحيط الهادي ، وسيكون الدور على مانيلا لكي
تعرف الاحتلال الإنجليزي . ولكي تشتري نفسها ، كان على المدينة أن تدفع
فدية كبيرة .

وهكذا نجد أن فرنسا وإنجلترا قد إتفقتا بسهولة على التوقيع على المعاهدات
(فونتينلو ، في شهر نوفمبر ١٧٦٢) . ولكنه كان من اللازم إقناع إسبانيا ، والتي
كانت قد فقدت كوبا ، بأن توافق على الشروط الانجليزية . ورفض لوى الخامس
عشر أن يفكر في عقد الصلح بدون أبناء حمه في مدريد . وكان عليه أن يمر
بعضيات باهظة حتى يصل إلى ذلك .

وطبقاً لماهدة باريس (١٠ فبراير ١٧٦٣) ، لم تعد هناك فرنسا الجديدة .
فرت كندا وما حولها إلى أيدي إنجلترا . ولم يحتفظ الفرنسيون إلا بحق الصيد
في مصب نهر سان لورانس وعلى سواحل نيوفونتلاند ، مع ملكية بحور سان بيير
وميكلون الصغيرة ، لكي تستنعم كملاحيه الصيادين . ومن لويانا ، ظل البحور
الواقع إلى غرب المسيسي فقط في ملكيتهم . أما النصف الآخر ، مع نيو أورليانز ،

فإن إنجلترا لم تطالب به ؛ ولكن ، لما كان ملك إسبانيا قد أصبح مجبراً ، من ناحية ، على التخلي عن فلوريدا ، فإن لوى الخامس عشر وجد أنه من الشهامة أن يعرضه ويقتازله عن حقوقه على هذا الجزء المتواضع عما تسميه الآن «الامبراطورية الفرنسية في أمريكا» . وفي جور الأنكيل ، لم تقنازل فرنسا إلا عن أصغر جزء من ممتلكاتها : جور ماري جالانت ، ولا ديويراد ، وسان مارتان ؛ وإحتفظت بالمادريتيك ، وجوراديلوب ، وسانت لوسى .

أما في الهند ، فإن الانسحاب الفرنسى قد إمتد على كل ما كانت قد حصلت عليه بعد أول يناير ١٧٤٩ . وكان هذا يعنى أنها قد إحتفظت فقط بالمراكز التجارية التى كانت فى ملكيتها وقت التوقيع على صلح إكس لاشايل : شاندونا جور ، وپاناون ، ويوند شوى ، وكاريكال ، وماهى . وكان من الضرورى عدم تحصين أى منها ، أما ضواحيها فتعفظ إلى أقصى حدود .

وجاءت معاهدة باريس كوثيقة للإعتراف بالانتصار الانجليزى ، كما كانت معاهدة هوبرتسبورج بالنسبة للانتصار البروسى . ولكننا نجد ، من الناحية الجغرافية ، أن نتائجها كانت مختلفة عن بعضها تماماً . فبالمعاهدة الأولى ، مرت أقاليم شاسعة من سيد إلى آخر فيما وراء البحار ؛ فأبعدت الدولة الفرنسية بشكل شبه كامل من الهند ، وأكثر من ذلك من أمريكا . أما المعاهدة الثانية فإنها كانت تمييز ، على العكس من ذلك ، بأن صفتها الرئيسية كانت هى أن تميد إلى أوروبا «الوضع القائم السابق» *statu quo ante* . وتأكدت بها البنود الرئيسية فى معاهدة إكس لاشايل . وكان عجز آل هابسبورج عن أن يحصلوا ، حتى مع تأييد فرنسا ، على إعادة النظر فى هذه الاتفاقية ، والتى كانوا قد قبلوها بكل صعوبة ، يبدو واضحاً على أنه يضمن ثباتها .

الفصل الثامن والعشرون

التقسيم الأول لبولندا

ووصول الروس للبحر الأسود

كانت أحداث حرب السنوات قد ضمت بحق دولة بروسيا الصغيرة فيه منطلق الدول العسكرية العظمى على القارة . وشعر فردريك بأنه لا يواجه بتجهم غير مطلقته هو ، وأن من حقه أن تكون له أية طموحات . وستكون مبادول في المحال هذه المعركة الدولية التي ارتكبت في عام ١٧٧٢ ، بمساعدة بروسيا والنمسا وروسيا ، تقسم بولندا .

وكان عام ١٧٦٣ قد بدأ مع وقوع تغيير في الحكم في المانيا بملوكها راجع من غير طلاق ماذهبت أعداء انتصار فردريك ، ثم السلم . وفي شهر أكتوبر ، وهكذا ، تغيير الحكم آخر ، في راسو ، الأمر الذي سيكون نقطة بداية الثورة الجديدة في المانيا للملوك بصرحة حرب جديدة . ولم يكن قد حدث أبدا قبل أواسط هذا القرن الثالث عشر وفي الوقت الذي كان فيه النظام القديم Ancient Régime اقترب من انقضاءه ، أن كانت أمور الأشخاص قد لعبت مثل حقار الجور إلى حقيقة الألام الأوربية .

وفي الماضي ، كانت الأزمات التي تنشأ ، من وقت لآخر ، من فتح فتاة وزائلة تاج بولندا ، تصف بشكل أساسي بتعارض بين السيادة القومية والحقائق المنشورية ، والتي كانت كل منها تسرع من أجل الحصول ، وبواسطة اللطائف تم اختيارها بحكمهم على تحالف هذه المملكة الكبيرة في الشرق . ولكن الأمر لم ينفذ في نجاحها للزاد يعقبا يختلف من ذلك كل الاختلاف . ذلك أن فرنسا والنمسا في المانيا كاهلها في المانيا

منذ وقت بعيد ، قد أصبحنا منذ بضع سنوات داخل نفس المسكر . ومن ناحية أخرى ، نجد أن بروسيا آل هوهنزلرن ، والتي كانت تنوق إلى الغزو ، قد دخلت إلى اللعبة ، وهي مصممة على أن تستخدم أقصى نفوذ تمنحه لها إقتصاداتها العسكرية ، وكذلك حظها الزافر الذي أفادت منه : فلن تترك الفرصة المروضة أمامها لكي تتوسع صوب الشرق فتلث من أيديها ، كما كانت قد فعلت بالنسبة للجنوب . وأخيراً ، فإن دولة روسيا ستترك جيرانها يفرغونها على التدخل عن سياستها التقليدية في بولندا ، ولكن تشارك في عملية إقتسام المناطق النفوذ ، تمشي مع عملية التقسيم الأول .

١ - روسيا وهولندا في بولندا :

كانت روسيا قد قطعت الصلة تماماً مع ماضيها الخاص بالعرة . ولقد إستمرت في التقدم على الطريق الذي كان بطرس الأكبر قد رسمه لها ، حتى تلتقي مع الغرب . وكانت صناعاتها وتجاراتها الخارجية قد أخذت على التوالى في التوسع ، فبيل أواسط القرن بقليل ، وذلك في علاقة مع جهود التسليح الذي فرضته عليها حرب ألمانيا .

وفي منطقة الأورال ميزت دفعة صناعية أولى سنوات ١٧٢٥ - ١٧٤٠ : فكانت فرقة من الساكسون قد وصلت ، بعد أن إستدعاهما يوهن Biren ، الصديق الألماني القيصر أنا إيفانوفنا Anna Ivanovna . ولكن المرحلة الحاسمة جاءت في نفس وقت حكم إليزابيث . وزادت المبادلات مع إنجلترا ، أما معاهدة التجارة ، التي عقدت في عام ١٧٣٤ ، فإنها سوف تعيد مرات عديدة ١٧٤٢ ، ١٧٥٥ ، و ١٧٥٦ . ومنذ ذلك الوقت ، إستمر السوق الإنجليزي يزداد في الأهمية ، وذلك الوقت التي لم تأخذ فيه الملاطت التجارية مع فرنسا في النمو إلا مع فتح البحر المتوسط للسفن الروسية ، بعد عام ١٧٧٤ . وكان الروس يهدرون بنوع خاص

خام حديدهم إلى إنجلترا . وكان الإنجليز يحضرون لهم أنسجتهم وأصوافهم . وقرب عام ١٧٥٠ ، وفي وقت الثورة الصناعية ، أضيفت إلى ذلك آلات مصنعة ، سيستخدمها عمال إنجلترا خلال فترة من الوقت . وبعد عام ١٧٧٠ ، مالت كمية الحديد الروسي الذي كان يصل إلى السوق الإنجليزية إلى الزيادة عن كمية حديد السويد : وكانت صناعة المنسوجات الروسية بنوع خاص هي التي أفادت من إدخال التقنيات الحديثة : فزادت صناعة المنسوجات والأصواف . وحتى في هذا الميدان ، احتفظ المتخصصون الألمان بالمكان الأول ، ولفترة طويلة .

ومنذ الأيام الأولى لحكمها ، شرعت كاترين تماماً بالقوة التي أصبحت إمبراطورية القيصرية تمثلها في أوروبا . وأعلنت ليتها في الأتراك أحد أولئك الدول توجه سياستها . وحتى ذلك الوقت ، كان الأجانب حينما يطلبون معونة روسيا ، يفعلون ذلك من أجل إستخدامها لصالحهم . ومنذ ذلك الوقت ، لن تعمل إلا من أجل إرضاء آمالها الخاصة . وكتب يقول : «لأن الزمن سوف يظهر أننا لم نعد نجرى بعد وراء أى شخص» . ففرنسا ، الحليفة التقليدية للدولة العثمانية ، وبلونيا والسويد — والتي كانت في أثناء حرب السنوات السبع ، قد أعطت لطلبها في بعض الأوقات بأنها سوف تتوب بعد أن وضعت يدها في يد روسيا — سوف تتأكد فرنسا هذه أنه مع القيصرية الجديدة ، وحتى إذا كان تأخر أديها وأفكارها يتزايد باستمرار في سان بطرسبرج ، من أن نصائحها في الميدان السياسي قد انخفضت إلى درجة الصفر .

ومنذ ما يقرب من ثلاثين عاماً ، كانت بولندا تمثل ، بالنسبة لإمبراطورية القيصرية ، دولة تابعة . وكان للسنخ الملك ، أوجست الثالث ، الذي دأن بعرشه إلى صداقة النمسا وروسيا ، قد حكم تحت سلطة ونفوذ الأكثر قرباً والأكثر قوة من حياته ، وهو من كان في موسكو . وإستمر أحد لواب الملك في تمثيل السلطة

القصرية في وارسو ؛ ولم يكن وزراء الملك الساكسوفي سوى مجرد موظفين عنده . وفي أثناء حرب السنوات السبع ، تسببت الضرورات العسكرية في إستغلال منتظم لموارد البلاد : وأقام جيش الإحتلال كما لو كان من المقبوم أنه لن يعتمد أبداً . وفي عام ١٧٦٣ ، كان إين أوجست الثالث بطبيعة الحال مرشحاً لخلافة والده . وكان في وسعه أن يحصل على ذلك بسهولة إذا ما كانت النمسا وروسيا ، وكما كانا منذ ثلاثين عاماً ، متفقتين على تأييد ترشيحه . ولكن ظروفًا مختلفة كانت تواجهه . فأولاً ، ومنذ أن أصبحت النمسا حليفة لفرنسا ، أصبحت موضع شك في سان بطرسبرج ، وحيث كانوا يخشون بشكل خاص من النيات التقليدية لفرنسا بالنسبة لتاج بولندا . ومن ناحية أخرى ، كان بلاط درسدن قد أثار عداء حكومة روسيا بالمطالبة بحقوقه في وراثة دوقية كورلاند . ولذلك فإن كاترين الثانية ، القيصرة الجديدة ، كانت لها إذن مرشحها الخاص ، وهو حفيقتها الأخير ، ستانيسلاس بونيا تويسكى Stanislas Poniatowski ، والذي كان من أسرة بولندية كبيرة .

وموت حملة إنتهاية طويلة قبل تصويت الداييت . وإنتهى فردريك هذه الفرصة لكي يظهر مواهبه : فكان سياسياً ذاهية ، كما كان رجل إستراتيجية من الطراز الأول . ولقد رأى أن كاترين الثانية كانت في حاجة إليه ضد النمسا . ولذلك فإنه لن يعطيها تأييده مجاناً . ورحب بمفاتحاتها ، ولكنه شرط أمر عقد إتفاقية بقصد تحالف رسمي يشتمل على ضمان عامة لممتلكاته ، بما فيها سيليزيا . وفي بطرسبرج ، تمنعوا قليلاً ذلك أنهم كانوا متمسكين كحراً بالتحالف النمساوي ، والذي كان أساساً لكل سياسة معادية للدولة العثمانية في الشرق ؛ وكان من الطبيعي أن يرددوا ، في نفس الوقت الذي يفضون فيه النمسا ، في أن يفضوا كذلك حليفتها الجديدة فرنسا . ومع ذلك فإن المفاوضات إنتهت في شهر أبريل ١٧٦٤ .

فتم التوقيع على معاهدة دفاعية عامة بين بروسيا وروسيا ، أضيف إليها اتفاق خاص بشأن ترشيح ستانيسلاس بونيا تويسكى : فصرى الدولتان أمر المحافظة على الحريات البولندية ، ، أى على استمرار القوض الداخلية التى كانت قد تردت فيها . وعلى هذا الأساس ، تم إنتخاب بونيا تويسكى تحت حماية الحراب الروسية وإتخذ لنفسه إسم ستانيسلاس أوجست : وسيكون آخر ملك لبولندا .

وهكذا كسبت كاترين الجولة . ولكنها سوف تضع ، بقلة حذرهما ، هذا النجاح الكبير فى عرضة للخطر . فأعطت لنفسها هدفاً أن تحصل لمرابا الأرتودوكس للملك بولندا ، والذين كانت تطالب عالياً بحمايتهم ، على نفس الحقوق السياسية الموجودة للكاتوليك . ولكن ستانيسلاس أوجست ، الذى لاحظ معارضة الرأى العام ، رفض الموافقة على ذلك . فتشبت كاترين . وأعطت تأييدها لحزب معارضة ، وهو حزب لكبار العادة ، الذين كانوا معادين الملك الجديد ، لأنهم كانوا يخشون من بعض التعديلات التى كان يقترح إدخالها على الدستور البولندى . وبعد أن أثيرت المسألة الدينية بهذه الطريقة ، أثار ت هياجاً عاماً فى جميع أنحاء البلاد . وكانت نتيجة ذلك هى تكوين رابطة من العناصر غير الراضية ، فى عام ١٧٩٦ ، وكانت مستعدة للدفاع عن آرائها بقوة السلاح ، وهى « إتحادية » رادوم . ومع ذلك فإن المساواة بين جميع المعتقدات فى الحقوق تم التصويت عليها من البداية ، الذى لم يمكن يقدر على رفض أى شئ السيف الروسى . ووافق هذا البابت على حمل ميثاق مع روسيا ، يحمل من القيصرة الضامنة للقوانين والحريات فى بولندا . وكانت هناك مواجهات بين الإتحاديين وبين القوات الروسية . وتم دفعهم من الحدود صوب داخل البلاد . وعندئذ ، إنتجأوا إلى التجارح ، طالبين العون .

٢ - فرنسا والدولة العثمانية :

وكان الخارج ، فى مثل هذا الموضوع ، بالنسبة البولنديين هو أولا فرنسا .

ففى أثناء كل الأزمات الى أثرت فى الماضى ، أو مددت بأن تؤثر ، فى
الوضعية الإقليمية لشرق أوروبا ، لمبت فرنسا ، وكمدية تقليدية البولنديين
والعثمانيين ، وكما رأينا ، دوراً من الدرجة الأولى . وسوف تحاول القيام بذلك
مرة جديدة . وكانت لانتوال تشمر بضيق من نتائج تغيير المحالفات . وفى أثناء
ذلك الوقت ، كان وصول كاترين الثانية إلى العرش ، وإقامة علاقات ودية بين
بروسيا وروسيا ، وإبادهما فرساي عن سان بطرسبرج ، قد نتج عنه الوصول
إلى تحسن فى العلاقات الفرنسية العثمانية : فالأزمة التى بدأت فى عام ١٧٥٦ يمكن
اعتبارها على أنها قد انتهت فى عام ١٧٦٢ . وما لاشك فيه أنه لم تعد هناك نفس
الثقة التى كانت موجودة فى الماضى بين الحكومتين . ولكن الأتراك كانوا على
الأقل يترفون لأصغلتهم التقدم بأنهم لم يودوا فى نفس معسكر أشد أعدائهم
وم الروس فى ذلك الوقت .

ولم تكن فرنسا فى مناخ يسمح لها بالتدخل حين وصلت التذادات الأولى
لـ «الإتحاديين» إليها : فكانت مصائب حرب السنوات السبع لانتوال قريبة للغاية
وبشكل لايسمح للأمة بقبول فكرة العتول فى مغامرات جديدة . فإكتفوا ، فى
أول الأمر ، بإرسال بعض الأموال للإتحاديين . ثم حاولوا أن يستخدمو ذلك
القدر البسيط من النفوذ ، والذي كان لايزال لهم فى إستانبول ، من أجل دفع
العثمانيين ضد روسيا . ولم يكن العثمانيين يبيدين عن أن تعتبروا إستقلال بولندا
كوضع أساسى - وحتى حيوى - بالنسبة إليهم . وكانوا قد غضبوا حين علموا
بانتخاب ستايسلاس أوجست . ورسوموا القنوط العامة لحركة تقارب مع
خصومهم التقدماء ، النمسيين . وهذا هو الأمر الذى حاولت الدبلوماسية الفرنسية
بطبيعة الحال أن تساعد على تحقيقه . ومرت سنوات فى مفاوضات غير
مجدية .

ومع ذلك ، فقد نجا الأمر لقطيعة ، في عام ١٧٦٧. وفي وارسو ، تم التصويت على دستور جديد ، وهو الذي وضعه المايث تحت ضهان القيصرة . وبدأ أن عملية إضلاع بولندا بواسطة جارتها لم تسد إلا مسألة وقت . وكانت البلاد بالفعل في أيدي الروس . وتمت سيطرتهم على إتحادية رادوم . وفي العاصمة ، كان كروت رينين Repnin ، سفير كاترين الثانية ، يظهر بمظهر الدكتاتور .

وعندئذ قررت باريس أخذ خطوة أخرى : فأمرت بارسال مندوبين ومعلمين الجيش العثماني . وسيكون أشهرهم هو البارون دي توت Tott ، الذي كان من أصل مجري ، وإن لأحد رفقاء فرانسوا راكوكسي Francois Rakocsy في النضال ، والذي كان قد عاش لمدة سنوات عديدة في إستانبول ، ودرس فيها ، وتعلم لغة البلاد . وكما كان قد حدث في الماضي مع يوفغال باشا Pachia - Bonneval ، فإنه سوف يلعب دور المستشار العسكري السلطان ؛ وسوف يتم بنوع خاص بتنمية الصناعات الخاصة بالدفعية .

٤ - حرب بروسيا ضد الدولة العثمانية :

ولن تتأخر حكومة سان بطرسبرج كثيراً عن أن يشور قلقها عن الألباء التي وصلت إليها عن الإستعدادات العسكرية العثمانية . وأشاروا إلى تهجمات للقوات في بودوليا ، عند حدود الإمارات الرومانية وبولندا . وطلب السفير في إستانبول ، إيضاحات عن ذلك ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه القيصرة تبرر فيه أمر تدخلها في الشؤون البولندية . وزادت خطوة الموقف . وكانت غالبية البولنديين ، وهي في قرارها كاثوليكية ، حافزة على تلك الحماية التي كان الروس قد منحوها لحولاء والمتشقين الدينيين . وتجاوبت ، وبكل قلبها مع الإتحادية الجديدة ، هي إتحادية بار (في بودوليا) ، والتي كانت قد أنشئت لكي تحارب ضد إتحادية رادوم وحلفائها المسيكرفين ، والتي كانت ، بدورها ، تجمع قوات لها . فنياً الأمر لحرب أهلية .

ومع ذلك فإن الحرب الذي يؤيده الروس سوف ينصر . وإعترف الداييت لنهر الكاثوليك بالحقوق المساوية لحقوق الكاثوليك : فكان ذلك نجاحاً كبيراً السياسة الروسية ، وإن كان بعيداً كل البعد عن إيجاد حل للشكالات . وفي شهر أكتوبر ١٧٦٨ ، أدت إحدى حوادث الحدود إلى إشعال نار الحرب مع الباب العالي . ذلك أن بعض القوزاق ، والذين كانوا في خدمة القيصرية ، استولوا على مدينة صخرة تابعة لمكان القرم ، وأحرقوها . وكسارو كان العثمانيون لا ينتظرون سوى هذا الأمر ، فلنهم أرسلوا السفن الروس إلى قلعة الأبراج السبعة . واعتقدت الدبلوماسية الفرنسية أنها قد انتصرت : ولكنما كانت في واقع الأمر قد نفذت ودون أن تعلم ماكان ملك روسيا يرغب فيه .

وفي بداية الأزمة كان الإهتمام مركزاً على الحرب الروسية العثمانية بدرجة أقل من تركيزها على المكاسب التي سوف يخرج بها فردريك منها . وكان يبقى نفسه لأن يجد حلفاء مشغولين في صعوبات خارجية . وكتب إلى أخيه ، الأمير هنري البروسي ، كما كان يحدث دائماً : ولم يحدث أبداً أنهم كانوا قد تعهدوا بمثل هذا الأسلوب المؤدب مثل الآن . ويبدو أن القيصرية قد أصبحت الآن تعلق أهمية كبرى على هذا التحالف البروسي الذي عقدته في وقته ، مها كانت درجة إقتناعها به : فكان هذا الوقت الذي يبيع فيه لها ، وبأغل ثمن ، تلك المساعدة والتأييد التي كانت في حاجة لها . ولذلك فإن جولة عنيفة سوف تتم بين الدبلوماسية البروسية وبين الدبلوماسية الروسية .

وكانت منافستهم قد ولدت ، في السنوات السابقة ، وبالنسبة للسويد ، إلى ضعف المملكة هناك ، وإلى تناقص حيزان كبيران على السلطة ، دون إتفاقات للمصالح الوطنية . وطرح فردريك على مائدة المفاوضات فكرة تقسيم الأقاليم السويدية المحتلة على بحر البلطيق . ثم جاءت للإستعدادات العثمانية لكي توجه الإتفاقات العام

صوب الجنوب . ولذلك فإن الأمر سوف يتعلق الآن بأمر تقسيم بولندا . ولقد طرحوا الفكرة من جانب ملك بروسيا . وبدأ الروس بإظهار بروداً بالغاً . فلم يجيبوا : فكانت بولندا تمثل دائماً بالنسبة لهم نطاق صيد محجوز . ومع ذلك ، فإن عزيمة ملك بروسيا لم تنبسط . وسيحاول أن يرفع العقبات الموجودة على الطريق . ولن تتأخر الظروف عن أن تعطيه الفرصة المناسبة .

ولم يبدأ الحرب الروسية الثمانية بالفعل إلا في ربيع ١٧٦٩ . ووقعت عملياتها الرئيسية على الدنيستر ، وحول موقع شوتينيم . وبدت في أولها على أنها غير محددة حتى أنها أثار استهزاء فردريك . فأعلن أنه « من الضروري ، لتكوين فكرة عن هذه الحرب ، تحميل قوات أفرادها مصابون بالعمى ، وبدأن يهزموا العميان ، ينتصرون عليهم انتصاراً كاملاً » . والمصابون بالعمى هم ، بطبيعة الحال ، الروس . وكانوا قد إضعفوا وقتاً طويلاً يتحسسون فيه مواقع الخصم ، وذلك في الوقت الذي كان شان القرم يرسل فيه بعض الجماعات لكي تقوم بعمليات التخريب للعائدة في أوكرانيا . وبعد إبعاد الشتاء ، واحتلال مواقع لزوف وتاجانروج ، بدأ جيش الدانوب ، بدوره يتصل بالأعداء في شهر سبتمبر . أما الصدر الأعظم ، والذي واجهه فيضاً غير متوقع لنهر الدنيستر ، والذي كان يفصله عن جزء من قواته ، فإنه قد إضطر إلى أن ينسحب بسرعة حتى الدانوب متخلياً بذلك ، وفي عملية واحدة ، عن الأفلاق والبندان . وكان للتأخير ضخماً في أوروبا ، واثارت المشاعر ، في فيينا على وجه الخصوص : فكانوا لا يطيعون تصور أن الروس سوف يقيمون في الإمارات الدانوبية .

أما بالنسبة لفردريك ، فكانت لديه فرصة فريدة للتحكم في النمسا ؛ من طريق إثارة غناؤها . وكان هذا هو الوقت الذي أتم فيه تكوين مشروعاته البولندية . وسوف يدخل النمسا في العملية ، ويستخدمها من أجل إحتواء روسيا ، ويدفعها ، برغبتها أو رغماً عنها ، إلى قبول فكرة التقسيم . وشامت الظروف

أن تأتى السياسة النمساوية نفسها لمقاومة رغباته، وكان الرجل الذى يدير هذه السياسة، كارل كاونتز Kamnitz ، لا يخفى إعجابه بملك روسيا . ومنذ صيف ١٧٦٩ ، إقترح عليه مقابلة مع جوزيف الثانى ، والذى كان ، كإمبراطور ، قد خاف والعدو فى عام ١٧٦٥ ، والذى كانت ماريا تريزا قد أشركته معها فى سلطتها فى الدول الأم مع لقب Mitregent . أما مكان المقابلة فقد إختاروه فى بيسا ، فى قلب سيليزيا . وأعلنوا أنهم قد تصالحوا ، وإعترفوا ، باسم الوطنية الألمانية ، بضرورة أن يراقبوا ، وباتفاق مشترك ، كل من فرنسا وروسيا . ولم يكن ذلك سوى مدخل للبوضوح . وسوف يشهد عام ١٧٧٠ تماثل الأحداث وبسرعة ، سواء على النطاق المسمى ، أو على النطاق الدبلوماسى .

وفى سان بطرسبرج ، وضعوا خططا واسعة المدى ، فى أثناء الشتاء . فقرروا أن يدفعوا العمليات إلى ما وراء النابوب ، وكذلك أمر لإرسال أسطول إلى البحر المتوسط . وكانت شعوب مسيحية قد تمحورت فى الأفلاق والبندنان . وكانت شعوب أخرى تستمع إلى مندوبين من طرف القيصرية ، يعطونهم الأمل فى تحرر قريب . وكانت هذه بنوع خاص هى حالة الأماال الذين كانوا يسكنون تشرنابجوا (الجبل الأسود) . وكانت صلاتهم ، منذ بعض الوقت ، منتظمة مع موسكو ، وكان الأمير الأسقف فى شتينا يحصل على معاش من القيصرية . وكانوا قد أفهموا أنهم يعتمدون عليهم لكن يقدموا عند الضرورة نقطة إلتصاكان للأسطول الروسى . ذلك أنهم كانوا يعدون حملة بحرية ، وهدفها هو البلقان .

وترك الأسطول الأول كروستاد قبل بداية العمليات العسكرية . ثم سافر أسطول ثان بعده بشيرين ، ولحق به فى صوائى إنجلترا . وكان إستقبالها هناك ودعيا ، خاصة وأن الدولتين كانتا لاتزالان مرتبطتان ببعض المصالح المشتركة فى

بحر البلطيق وفي البحر الأبيض . وفي شهر فبراير ١٧٧٠ ، مر الأسطول الروسي ودون صعوبة من المحيط إلى البحر المتوسط ، وقد فكروا في فرساي في إمكانية مهاجمته أثناء مروره . وقبل أن يصل إلى سواحل اليونان ، حدثت بعض الأحداث مع راجوزا . فلقد أعلنت الجمهورية سيادتها في تلك الحرب بين الروس والعثمانيين ، كما كانت وتفعل دائماً في مثل هذه الحالات . وكانت تدفع دائماً الجزية السلطان . وكان من الصعب عليها بالتالي أن تصم آذانها عن نداءات إستانبول ، وخاصة فيما يتعلق بتقديم سفن النقل . ولذلك فإن الروس كانوا يقابلون في بعض الحالات ، وعلى طريقهم ، سفناً تحمل علم راجوزا ، وفي خدمة الدولة العثمانية . وسوف يرجعون غضبهم بعد اللقاء البحري الكبير الذي وقع في الصيف مع العثمانيين . وعندئذ سوف يعلنون الجمهورية أنهم يسترونها كدولة معادية . وإحتاج الأمر إلى ثلاث سنوات من المفاوضات حتى تعود العلاقات العادية بينهم وبين سان بطرسبرج .

وفي المؤرخ ، عمل الأخوان أودلوف Oudov (أحدهما كونت جريجوري ، الذي كان في ذلك الوقت عضواً للقيصرة) ، على الإعداد للثورة . وتقابل الكسيس أودلوف في بيزا مع ممثلي الأماهي اليونانيين ، وتبادل معهم وعوداً بالتأييد المتبادل . وما أن أعلن وصول الأسطول ، حتى بدأ الثوار عملهم ؛ فاضطرت القوات العثمانية إلى الانسحاب ، وهناك استمروا في المقاومة في مواقعهم ، حتى ذبح الكثير من بينهم . ولقد اشتركت وحدة روسية صغيرة جلت مع الأسطول ، وتولى قيادتها الأكسيس أودلوف ، في هذه الحرب . ولكن الواقع بين الثوار وحلفائهم لم يستمر لفترة طويلة ، وخاصة مع مجيء الموائم : ذلك أنه عملية حصاد «مووون» ، والتي قاموا بها سوياً ، انتهت بكارثة ، أما ميناء نافارين ، والذي كان الأسطول قد رسا فيه ، فإنهم اضطروا إلى إخلائه بعد بضعة أشهر . ولما كان

أمهى البحر على غير وفاق بالنسبة للعمليات ، إستند ألكسيس أورلوف إلى الثقة التى كانت تبديها له القيصرة ، وتولى القيادة العليا ، رغم أنه لم يكن من رجال البحر . وتركز الهدف الآن فى البحث عن الاتصال بالأسطول البحرى العدو . ولقد قابله عند ساحل آسيا ، وقرب جزيرة خيوس ، قرب شسمة . ولقد أجبر على الدخول فى المعركة ، ثم إلى الاتجاه إلى داخل الميناء ، حيث محطم كله نتيجة لاستخدام القذائف الحارقة (٤ يوليو ١٧٧٠) . ومع هذه المعركة التى وقعت فى شسمة ، والتى ذكرت بما كان قد حدث فى ليباتو منذ قرنين ، وكانت لها نفس الصيغة فى أوروبا ، إنتهت الحملة البحرية لعام ١٧٧٠ . وكانت القيادة دائماً مقلقة ، كما كان الاختلاف واحداً بين مختلف القادة ، ففشلوا بالاستيلاء على بعض الجور فى الأرخبيل . ولكنهم لم يتمكنوا من القيام بمحاولة للرد فى الدردنيل ، خاصة وأنه كان قد أحسن تحصينه ، وبغاية من البارون دى توت .

وعلى البر كذلك ، تمكن الروس من أن يحصلوا على إنتصارات كبيرة ، على حساب خان القرم والتتار الخاضعين له ، ثم على حساب الجيش العثمانى . وكما حدث فى السنة الأولى ، كان العثمانيون هم البادئين بالهجوم . وبعد أن قام الصدر الأعظم بإعادة تنظيم جيشه فى واد نهر الدانوب ، عبر النهر مع قوات تبلغ خمسة أو ستة أضعاف قوات الروس . ولكن حركاته كانت أقل من حركتهم ، وسرعان ما اضطر إلى أن يحارب وهو يتقهقر بسرعة ، تاركاً كل مدفيته فى أيدي الخصوم . وبعد هذه الحملة السريعة والصاحقة ، إمتد الاحتلال الروسى إلى كل بيسارابيا وإلى مصب نهر الدانوب .

٤ - بروسيا وفكرة تقسيم بولندا:

وكان فرديريك الثانى يتبع أحداث الشرق باهتمام كبير . وكانت هذه الأحداث قد ساعدته على إكمال الخطة التى كان قد كثرها منذ بعض الوقت :

أى ربط المسألة البولندية بالمسألة النمائية ، وعدم منح روسيا من أن تحصل على نصيب كبير على حساب النمائيين، وبشكل أن نظريا بعد تفاهما بالنسبة لطموحات بروسيا في بولندا ، وعلى أن يكون البدء بشان الحصول على معونة النمسا ، وإلى كانت إمكانية تدخلها يمكنها أن ترجع كفة الميزان في هذه الناحية أو الناحية الأخرى. وبعد بداية العمليات العسكرية بين الروس والنمائيين بقليل ، إقترح على جوزيف الثاني أن يتفاهم معه بشأن وساطة . وشيئا فشيئا سارت هذه الفكرة . وإنتهت عملية إقامة الروس في باس و بوجارست إلى أن تحمل الامبراطور بولتن. وتم الاتفاق بين الملكيين في مقابلة نيوسداد (سبتمبر ١٧٧٧). وهكذا نقل العرض من النمائيين إلى إستانبول وإلى موسكو . وكانت حكومة كاترين تفضل عدم الموافقة عليه ، والتفاوض مع السلطان بطريق مباشر . ولكن بمجهوداتها في هذا السبيل فشلت ، فاضطرت إلى الموافقة . ولكن الشروط المعروضة كانت متطرفة ، حتى أنه لم يكن هناك كبير أمل في الموافقة عليها : فلقد أعلن فريدريك أنه لن يجرؤ حتى على إبلاغها إلى إستانبول . وأضاف أنه حتى في حالة إعدام موسكو بالموافقة عليها ، فإنهم سيصلون لامحالة إلى حرب مع النمسا ، وربما حتى إلى حرب مع فرنسا والنمسا . ولم يكن ذلك مجرد خيال : ذلك أن حكومة شوازيل قد رفضت التفكير في أن تمقد معاهدة رسمية التحالف مع السلطان ؛ ولكنهم أخذوا يتسامحون في فرساي ، ولعدة طويلة عما إذا كانوا سهرسلون سفنهم الحربية إلى بحر إيجه .

ولكن يصل البروسيون والنمسيون إلى أهدافها ، عملوا على إخضاع كاترين . وسرعان ما جاءت الأنباء بوقوع حشود لقوات ضخمة على حدود ترانسلفانيا . وأبلغ بلاط برلين إلى سان بطرسبرج أن السلطان قد عرض على الامبراطورة الملكة أن يتنازل لها عن المهر في نظير إمكانية مساعدته . وهكذا وصلت

القيصرة ، وكما لو كانت من نفسها ، إلى تلك النقطة التي كان فرديريك يرغب في أن تصل إليها . وفي الأيام الأولى من عام ١٧٧١ ، إقترح في أثناء إحدى المحادثات مع الأمير هنري البروسي أنه هناك إمكانية بالنسبة للدول الثلاث ، التي انقسمت على نفسها نتيجة للساسة العثمانية ، أن تقيم فيها بينها وفاقاً جيداً . وذلك عن طريق تقديم الطالب التي ترغب كل منهم في تقديمها على حساب بولندا . ووافق البروسيون على الكلمة التي أعلنتها القيصرة . وهكذا بدأت المفاوضات التي ستؤدي إلى التقسيم في عام ١٧٧٢ .

وفي بولندا ، وحيث كان للوقت الداخلي قد ازداد خطورة منذ إنشاء إتحادية ياد ، كانت الفوضى ضاربة أطنابها . وكان السفير الروسي ، كورت ريتان ، قد أسهم بتدخلاته في إشمال العواطف الدينية وإثارتها . واستمر في القيام بهذه اللعبة باسم القيصرة . أما الحكومة الفرنسية ، فإنها قلقّت بالنسبة لمستقبل نفوذها في بولندا ، فقررت الظهور . وهكذا نجد أن شوازيل قد أرسل إلى الثوار تشجيعات ، ومبالغ من الأموال ، وأخيراً مجموعة من الضباط المتطوعين تحمى قيادة ديمورييه Dumeriville ، ولكنه ترك السلطة بمد بضعة أشهر من ذلك ، ولم يكمل خليفته هذه المهمات . وكان إخماء فرانسيسيل الوفاق بين الثلاثة ، وهو الأمر الذي كانوا يملكونه من أجل التقسيم . أما الشروط التي سوف يتفقون عليها فإنها سوف تتحدد شيئاً فشيئاً في أثناء ذلك العام المليء بالأحداث ، وبخاصة على النطاق الدبلوماسي .

٥ - النمسا وتقسيم بولندا :

وكانت ماديا تريزا هي التي تقوم بعملية تسير اللعبة ، ظاهرياً ، في عام ١٧٧١ . وكان الحرف في فيينا من روسيا ومن مشروعاتها البلقانية لا يزال على تلك الموجة ، في ذلك الوقت ، التي تشير بإمكانية أخذ قرار بإعلان

الحرب عليها ، ألن نطلب الامبراطورة ، فى أحد الأيام ، حياذ ملك بروسيا بالنسبة لمثل هذه الإمكانيّة ؟ أما فريدريك الذى عرف أسرار السياسة البولندية لكاترين فإنه أجاب بثقة بأن الروس قد وصلوا إلى نقطة إعادة النظر فى سياستهم تجاه الدولة العثمانية ، وأنه من الواجب ألا تقع حرب جديدة . ثم قام ، وبكل حذر ، بيده المحادثات ، بدوره ، بشأن بولندا . وأظهرت ماريا تريزا مخوذا كبيرا من أن تنبئه ، وذلك لأسباب تتعلق بالأمانة ، علاوة على أنها كانت لا ترغب فى أخذ ممتلكات الغير — وكتبته الى سفيرها فى برلين : « لنظهر كضعفاء ، بدلا من أن نكون لصوص » — وأيضاً لأنها كانت لا ترغب فى أن تقوم بدور مغلب القطر لموسكو ، حتى وإن حكّانت بلادها سوف تريح من ذلك . وكانت معادية لروسيا إلى أبعد حدود ، ولياستها البلقانية الخاصة بالتدخل وبالفرو . حتى أنها وصلت إلى حد التوقيع على معاهدة تحالف مع إستانبول (٦ يوليو ١٧٧١) : وكان حدثاً ليس له سابقة ، ووداً حقيقياً على تغيير نظام التحالفات الذى كان قد حدث فى عام ١٧٥٦ ، أو بمعنى أدق نتيجة منطقية لتغيير نظام التحالفات . ووعدت النمسا بمساعدة السلطان على استعادة الأقاليم حتى إحتلالها الروس ، وعلى الإسراع بعقد صلح يضمن سلامة والحريات البولندية . وتعمدت الدولة العثمانية ، من جانبها ، بأن تتخلل لها ، وقت التوقيع على الصلح ، على جزء من الأقاليم .

وكان هذا نجاحاً كبيراً بالنسبة لحكومة إستانبول . فظهر أنه يمكنها الآن أن تواجه المستقبل بثقة . ولم تقع فى هذه السنة تقريباً أية عمليات حربية فى منطقة الدانوب . وكان الروس قد بلغوا مجهودهم ضد التتار ، سقطت القرم كلها بين أيديهم . وفر نهبان إلى إستانبول ، أما خليفته الذى انتخبه القتال فإنه وافق

على عقد معاهدة صلح أعلنت أنه مستقل ، ولكن تحت حماية القيصرة . وتمت
بهذه الطريقة تسوية مسألة القرم .

وفي أثناء ذلك الوقت إستمرت عملية المفاوضات البولندية رغمًا من التمتع
الأولى لكاترين ، وسوء نية مارياتريزا . وبطريقة تناقضية للغاية ، كانت السياسة
النفسوية ، ودون أن ترغب في ذلك ، ومع ظهورها بإتخاذ موقف سلبي ، هي
التي أوصلت المفاوضات إلى إمكانية النجاح . ذلك أنها قد أخذت الدافع ، ولكي
تدهم سياسة تخويف موسكو ، لإحتلال كونيّة زيب ، تلك الاماره الكاثوليكية
الصغيرة ، والتي خضعت في الماضي لتاج المجر ، ثم دخلت بتعهد بسيط داخل
حدود بولندا . ورأت كاترين في ذلك الاستيلاء على أرض بولندية ، ودرجت
على ذلك ضرورة حصولها على شيء ، بدورها ، ودون إنتظار . وفي شهر يناير
١٧٧٢ ، إستغلت كاترين هذه العملية النفسية ، واقترحت علناً أمر التقسيم على
فردريك .

وإضطرت مارياتريزا ، تحت تأثير إبنها جوزيف ، ومستشارها كاونتز إلى
عدم إظهار وخزات ضميرها ، ولا حتى ترددها . وتم نشر تصريح مشترك من
الدول الثلاث في شهر فبراير ١٧٧٢ ، خاص بمبدأ التقسيم . فقامت كل الفرص
إلى فريدريك : فإذا كانت كاترين قد عملت بأمر التقارب بين النمسا وروسيا
العثمانين ، لما سارت مع فكرة الوصول إلى تسوية ثلاثية بشأن بولندا . ولكن
معاهدة شهر يوليو ١٧٧١ كان قد تم الاحتفاظ بها في سرية كاملة . ولن تنتشر
أبثاتها إلا فيما بعد ، وفي الوقت الذي يتم فيه أمر الاتفاق بشأن بولندا .

وجه الآن دور كاترين لكي تمتد أنها قد خدعت . فأظهرت غضبها . وقالت
أثناء فترة من الوقت باستعداداتها الحربية . وأعلنت أنها ، بعد الصلح ، ستسارع

الثانيين إذا ما كانوا يرغبون في الحصول على تمريض على حساب النحسا . وأسرع فريدريك لتهدئة المشاعر النائرة في سان بطرسبرج .

٦ - عملية التقسيم وردود الفعل :

تم التوقيع أخيرا في ٢٥ يوليو ١٧٧٢ على المعاهدة : فوجد مشروع التقسيم أخيرا سيئته . وبعد أن استعطفوا ماريا تريز كثيرا ، اضطروا إلى أن يتركوها تأخذ أكبر قطعة ، غاليسيا بأكملها ، ويسكنها مليونين من السكان ؛ وسوف تشكل مملكة جديدة ، شبه مستقلة ، وعاصمتها لمبزج . أما روسيا فإنها حصلت على كل روسيا البيضاء (مدنها الرئيسية فيلبسك وموغيليف) ، وفيها مليون ونصف مليون نسمة . وأما دولة براندنبورج — بروسيا فإنها توسعت في الإقليم المسمى « بروسيا البولندية » ، فبها هذا المدينتين الكبيرتين ، دانزيج وتورن ، وفيه ما يقرب من ستمائة ألف نسمة . وكان نصيبها هو الأصغر ؛ ولكن ميزته الكبيرة كانت تتمثل بنوع خاص في أنه كان يربط بين جرق المملكة الذين كانوا منفصلين حتى ذلك الوقت ، براندنبورج وبروسيا الشرقية : ومنذ ذلك الوقت سوف يتمكنون من أن يذهبوا من برلين إلى كونيغسبرج دون أن يتركوا أراضي آل هونزورن . ولم تقتصر مكاسب بروسيا على مجرد المكاسب الإقليمية . فكتب فريدريك بعد ذلك بقليل إلى أخيه : « لقد أصبحنا مسيطرين على كل منتجات بولندا وكل وارداتها . وتمثل الميزة الكبرى في أننا قد أصبحنا مسيطرين على تجارة القمح ، فلن نصبح في يوم من الأيام معرضين للمجاعة » . وفي مرة أخرى لم يتردد في أن يصف تلك العملية التي أنهاها بأنها عملية « لصوعية » .

وحاول الشركاء بعد ذلك أن يحصلوا على ما يشبه الموافقة من البولنديين . وعملوا لذلك مدة سنوات . ولقد رفضوا الدايك ، ورغم إحاطته بالحراب الروسية ،

ولفترة طويلة ، التصديق على ما كانوا يطلبونه منه . فاستدعى الأمر طلبهذه بكل هيئة من عدد كبير من النواب الموجودين فيه . وأخيراً تم في عام ١٧٧٥ تكوين ذلك الوفد ، الذي وافق على مطالب الدول الثلاث ، وفي نفس الوقت الذي أعطى فيه هذه الموافقة المطلوبة للغاية ، وافق فيه على دستور جديد ، جاء مرة جديدة ، لكي يضعه تحت مظلة روسيا .

وهذا التقسيم البولندي — أو التقسيم الداخلي كما أسمته مارياتريزا التي لم تمنع أبداً باشتراكها في هذه العملية — اعتبره العالم أجمع ، وحتى وقتنا هذا ، كجريمة ارتكبت في حق القانون الدولي . وفي القرن الثامن عشر ، لم يكن الرأي الواضح إلا من صنع بعض أصحاب الآراء العامة . وكان أكبرهم ، مثل فولتير ، وديديرو قد حسبوا أنفسهم داخل ذلك الرأي الذي حكوه عن فردريك وكاترين ، فلم يترددوا في إمتداح هذه العملية . فقال البعض : « لقد إنشيتنا من الفوضى ، وقال الآخرون : إن ضربة حاسمة قد نزلت بهذا الموطن المتعصب والخرافات ، والذي كان هو بولندا . ومن بين القضاة المحايدون ، وبالتالي المنيفين ، كان هناك واحداً من المشهورين ، هو روسو ، والذي عرض في « تأملاته » بشأن هذا الموضوع ما أراح ضميره حين إعترف بالإحتقار العام لعملية التقسيم ولن قاموا بها . وظهرت أفكار نافذة ، وبأعداد كبيرة ، ورفضت صوغها في إنجلترا . وأثرت إحدى اللقالات ؛ والتي كانت بدون توقع ، تأثيراً كبيراً . وترجمت إلى معظم اللغات الأوروبية .

٧ - روسيا ومعاهدته كوجك قهناردجي :

وفي اليوم التالي لتسوية البولندية كان على مارياتريزا وجوزيف الثاني ، وقد شعرا بتجاهلها من هذه العملية ، أن يتركا مرة جديدة كل شعارهما من أجل

أن يتصلوا من تمهدياتها المكتوبة في العام السابق ، تجاه العثمانيين . وكان قد تروعا بذرائع مختلفة لعدم تنفيذ المعاهدة ، وذلك في الوقت الذي قام فيه العثمانيون ، وكانوا أكثر ولاءاً لتمهدياتهم ، باليد في دفع موقوفاتهم التي وعدوا بها . وتم تكليف كاونتز بأن يجد الادعاءات ، الجيدة أو الزائفة ، والتي تسمح لنفسها بالإسحاب والإحتفاظ بماء وجهها . أما حججه فإنها تسببت في إعطاء حكومة السلطان إنطباعات مرة عن حسن نية المسيحيين .

ولقد وجد العثمانيون أنفسهم فجأة ، وبكل عطف ، وقد تمخل منهم حلفائهم الجدد ، فاضطروا إلى بدأ المحادثات المباشرة مع خصومهم . وفتحت المؤتمرات من أجل الصلح في فوكسافي ، تلك المدينة الصغيرة في البندنان ، وفي اليوم التالي للتوقيع على معاهدة تقسيم يولندا . وإقطعت هذه المحادثات بعد ثلاثة أسابيع ، نتيجة لعدم الوصول إلى اتفاق بشأن إستقلال التتار . ولكن هذه التغطية كانت قصيرة ، وما أن بدأت العمليات الحربية حتى جاءت هدنة جديدة لكي توقفها .

وإجتمع مفاوضوا فوكسافي من جديد في برغولست في شهر نوفمبر . وعجزوا مرة أخرى عن الاتفاق ، واضطروا إلى الانصراف بعد أربعة أشهر . وكانت التغطية الأساسية لا تزال هي مصير دولة التتار . وكان هذا الطرف وذلك لا ينظرون بنفس النظرة إلى مسألة الإستقلال الذين كانوا قد إتفقوا على مبدأ الاعتراف به . وكان العثمانيون يرضون في أن يحتفظوا بالسلطان ، وبصفته خليفة المسلمين ، بحق تعيين الخانات الجدد . وكان الروس يطالبون ، من أجل الموافقة على ذلك ، بالتخلي عن مواقع كيرش وإنيكال ، والذين كانا يتحكان في مدخل البحر الأسود . ولذلك فانهم اضطروا إلى التخلي مؤقتاً عن مهورات عقد الصلح . وإحتاج الأمر إلى حمتين جديدتين — وبالتالي إلى عامين — حتى يستأنفوا عملهم من جديد .

وإحتفظ الروس بالتفوق . وإذا كانوا قد فشلوا في الوصول إلى حل في عام ١٧٧٣ ، فإن ذلك كان يرجع إلى سوء الأحوال الداخلية بالنسبة إليهم بشكل واضح في هذا العام . وكان أمر قمع ثورة بوجاتشيف قد تطلب منهم مجهوداً عسكرياً ضخماً ، جاء على حساب العمليات الحربية التي تقع على الحدود . وتم عبور الدانوب ، وتواجهت القوات قرب سيلستريا . ولكن الجنرال روميانتسوف *Roumiantsov* ، قائد القوات الروسية إخطر ، وبسبب عدم تناسب القوات ، إلى أن يسحب بسرعة . ولذلك فإن الحملة الحاسمة كانت هي فقط حملة عام ١٧٧٤ . وهجر روميانتسوف من جديد الدانوب ، وتقدم بثقة هذه المرة . وما أن هبرت طلبية قواته الممرات إلى البلقان ، حتى طالب الصدر الأعظم بالهدنة ، وبعد مؤتمر جديد من أجل الصلح . ولم يوافق المتصر على التوقف حتى وصل إليه ، في إحدى القرى القريبة من سياستريا سفيران هثمانيان ، وموردان بكسل السلطات . وهنا ، في كوجك فيناريديجي ، تمت في بضعة أيام كتابة نص الاتفاقية التي كانوا يتناقشون بشأنها منذ عامين .

وتمثل معاهدة فيناريديجي (٢١ يوليو ١٧٧٤) تاريخاً هاماً بالنسبة للعسالة الشرقية . فلقد تم فيها إرضاء كل المطالب الروسية الخاصة بالعام السابق . فتم إعلان التنازل على أنهم أحرار ومستقلون تحت سيادة خانبهم . وحصلت إمبراطورية القيصرية على كيرش ولينيكال ، وكذلك على آزوف وعلى كل الأراضي الواقعة على سواحل البحر الأسود هناك ، بإستثناء القرم وموقع أوتشاكوف ؛ ومنذ ذلك الوقت ستكون الحدود مع الإمبراطورية العثمانية هي نهر الدنيستر . وأخيراً ، وبنوع خاص ، تم إعلان الملاحة على مياه البحر الأسود حرة بدون أية قيود . وهذا التنازل . الذي كانت روسيا ترغب فيه منذ زمن بعيد ، يعطي

معنى واضحاً لمصلحة عام ١٧٧٤ . ولم يحدث أى تغيير ، من الناحية القانونية ، بالنسبة لوضعية الامارات الرومانية ، والى ذلك خاصة السلطان ، أى تدفع له الجزية ، ولكن المعاهدة سجلت نيات الروس لكى تمتد عليها اليد الحامية . وسيكون من حق السفير الروسى أن يتحدث فى صالحتها مع السلطات العثمانية إذا ما تطلبت الأمور ذلك ؛ وتعهد السلطان بأن يكون عادلاً تجاه « المطالب الحق » ، الذى سوف تقدم له فى هذا الشأن . وأخيراً فإن فقرة معنية وهى الفقرة السابعة ، والى سوف يرجعون إليها كثيراً فيما بعد ، كانت تعبر السلطان على أن يتم بما قد يقدمه اليه السفير الروسى بشأن الكنائس المسيحية ، ومن يتعبد فيها .

وتتمثل الأهمية الخاصة لهذه المعاهدة فى أنها تمنح إمكانيات لتدخلات جديدة من جانب روسيا فى الدولة العثمانية ، وفى أنها كانت تعهد لذلك . وسيكون على السياسة الروسية أن تواجه ، حين تريد الحصول على شيء ما ، أقل صعوبة يمكنها مما كانت تجد فى الماضى إذا ما اختلفت المواقف . ولن تتأخر كثيراً عن استخدام هذه التسهيلات التى حصلت عليها فى قيناريدجى .

٨ - فرنسا تضم جزيرة كورسيكا :

وفى الوقت الذى كانت فيه أحداث بولندا والبلقان تجذب الإنتباه صوب الشرق ، كانت الاضطرابات التى شهدتها جزيرة كورسيكا منذ بعض الوقت قد أدت إلى ضم فرنسا لهذه الجزيرة .

وكانت علاقات أبناء كورسيكا مع ساداتهم ، أبناء جنوا قد زادت صعوبة مع مرور الوقت . وإبتداء من عام ١٧٢٩ ، كان هداهم الفحين قد تطور إلى ثورة . وحكّانت جمهورية جنوا فى أوضاع لا تسمح لها بجمع الاضطرابات بوسائلها وحدها ، فطلبت وحصلت على معونة الامبراطور شارل السادس : فنجح جيش بحرى صغير ، فى حملة إستمرت لمدة عامين (١٧٢١ - ١٧٢٢) ، فى

إخضاع الجزيرة : ذم ذلك قان الإنسجام لم يرجع . من جديد وتتلخص تاريخ كورسيكا في خلال السنوات الثلاثين التالية في تاريخ شعب في ثوة شبه مستمرة ضد سيطرة يكرها . وكانت أجمل صفحاته هي التي وقعت في عام ١٧٣٩ ، مع إنشاء ملكية ضعيفة بواسطة أحد المغامرين من أصل ألماني ، وهو تيودور دي نيوهوف *Thodore de Neuhof* ، الذي نجح في أن يجمع حوله وحدة من رجال العشائر ، وإن كان قد فشل في البقاء في السلطة أكثر من عدة أشهر ، نتيجة لنقص الأموال . وبعد نهاية هذه المغامرة ، وذهب الملك تيودور ، شر أبناء جنوا بضرورة بناء جمهور جديد لإعادة سلطتهم . وبناء على طلبهم ، جاءت قوات فرنسية بدورها لكي تساعد على السيطرة . وكانوا يستخدمون هذه القوات بطريقة أو بأخرى . وحاول رؤسائها بلا جدوى أن يجدوا وقافاً مع خصومهم . وفي عام ١٧٤٠ بدا أن أمر التبدية قد تم . ولكن ، ما أن تم سحب القوات الفرنسية من الجزيرة ، لإرسالها للاشتراك في العمليات الحربية التي كانت قد بدأت في ألمانيا ؛ حتى بدأت الاضطرابات من جديد .

وفي خلال هذه الحرب الأوربية الكبرى ، التي كانت هي خنزيب الولاية القسوية ، لم يعمل المتحاربون أمر كورسيكا : فقام الانجليز ، الذين أصبحوا في عام ١٧٤٣ حلفاء الأسا ويدمن ، بإرسال أسطول أمام باسقيا التي خنزيبوها بالقتال ، وذلك في الوقت التي جاءت فيه بعض التفصائل من سردينيا ، والتي جاءت لتأييد الثوار، وتمكنت من الحصول على تسليم الحامية لها . وفي عام ١٧٤٧ ، وفي عشية عقد الصلح ، نزل الفرنسيون من جديد إلى الجزيرة . ولم يفرجوا منها بعد ذلك . وكان قائدهم الفارس كوزواي *Cossy* قد أعلن مثل سابقه أنه صديق أبناء كورسيكا ، وأبناء جنوا في نفس الوقت : وكلن طموحه الوحيد يتمثل في أن يوفق بينهم ، ويمنع أي تدخل أجنبي في الجزيرة (وكان يقصدون

بطبيعة الحال الانجليز) . ولكن أبناء الجزيرة كانوا يمارسون ، ويقاومون كل فكرة انفصال ، وكلما كانوا دائماً .

وهكذا طال وقت الاحتلال ، بالضرورة . وفي عام ١٧٥٢ ، أصبح من الضروري تنظيم طريقته . وكان هذا هو هدف إتفاقية سان فلوران : قم تسليم الادارة لأبناء جنوا ، وذلك في الوقت التي تنقل فيه الحاميات الفرنسية مؤقتاً في الموافى . وفي العام التالي ، ونتيجة لارتفاع صوت أحد الرؤساء النشطين ، بسكال باولي Pascal Paoli ، الذي أظهر أنه قائد حربي ممتاز ، إجمد أبناء كورسيكا ، والذين كانوا منقسمين على أنفسهم حتى ذلك الوقت ، وطالبوا بالإستقلال . وهذه الدولة الجديدة سوف تحتفظ بعلاقات ممتازة مع الفرنسيين ، وذلك حتى السنوات السبع وفي أثناء كل فترة هذه الحرب . ولكن ذلك لم يمنع حكومة فرساي من عقد إتفاقية جديدة مع جنوا ، والتي كانت دائماً في حاجة إلى مساعداتهم العسكرية والمالية ، من أجل سياستها في إيطاليا نفسها .

وكان من الممكن أن يبدو صلح عام ١٧٦٣ على أنه ينهي هذه الفترة الطويلة للإحتلال . ولكننا نجد على العكس من ذلك أن الفرنسيين قد أخذوا إبتداء من ذلك الوقت في تدعيم مركزهم في كورسيكا . ولم يكونوا قد فكروا كثيراً في البقاء هناك . ولكنهم كانوا قد مروا بتجارب عنيفة في أوريا ، وفي أمريكا ، وفي آسيا . وكانت عزتهم الوطنية قد فاست من تلك التنازلات التي أجبروا على الموافقة عليها لإستمرار فيما وراء البحار : فكانوا يرغبون في أن يجدوا نوعاً من التمييز في إمتلاك الجزيرة التي كان الانجليز قد أظهروا مرات عديدة أمر إهتمامهم بها .

وجاءت الفرصة من نفسها . ذلك أن أبناء جنوا ، والذين كانوا دائماً في حاجة إلى الأموال ، واقتروا أخيراً ، ومن أجل الحصول على معونات ، على أن

يسلوا الملك ، ولدة أربع سنوات ، المواقع الرئيسية في الجزيرة ، ومن بينها كالفن وأجاسيو . وهكذا جاءت الاتفاقية التي تم التوقيع عليها في كامين ، في عام ١٧٦٤ ، لكي تمهد — ودون أن تذكر — أمرهم الجزيرة : ذلك أن أبناء جنوا كانوا يراجمون إسبالة مطلقا لدفع هذه الديون ، وبالتالي لاستعادة المواقع المتفق عليها . وليس من المؤكد أن شوازيل كان ينظر إلى ذلك من بعيد ، في الوقت الذي وقع فيه على الاتفاقية الجديدة . ولكنه كان قد فكر منذ فترة سابقة على الأقل ، وفي حالة رفض أبناء كورسيكا كل ولاء تجاه جمهورية جنوا ، أن يكون من جزيرتهم إحدى الامارات العاضدة لملك فرنسا .

وفي نهاية السنوات الأربع المتعصص عليها ، وجد أبناء جنوا ، والذين كانوا دائما غير قادرين على دفع ديونهم ، أنهم مجبرين على التخلي لفرنسا عن حقوق سيادتهم على الجزيرة ، وعلى الأقل لفترة عشر سنوات . وكان ذلك هو موضوع المعاهدة التي تم التوقيع عليها في فرساي في ١٥ مايو ١٧٦٨ . وسوف تنتهي مدتها دون أن يطرح أمر الرجوع في حالة الأمر الفعلي هذه ، والتي لم يكن هناك أحد يفكر في الاحتجاج عليه . وتمردت كورسيكا بهذه الطريقة ، وشيئا فشيئا ، على ظروفها الجديدة ، كأحد الأقاليم الفرنسية .

الفصل التاسع والعشرون ثورة المستعمرات الإنجليزية في أمريكا وتخاصم فرنسا وإنجلترا

على خلاف معظم الأزمات الكبرى التي وقعت في هذا القرن ، كانت الأزمة الأخيرة زمنياً من بينها ، والتي وقعت قبل الثورة الفرنسية ، لأنهم لإعداداً منها من الدول . وكانت تمثل أزمة جديدة في العلاقات الفرنسية الإنجليزية ، وكانت محدودة ومحددة بسواحل العالم الجديد والمحيطات .

١ - فرنسا وإنجلترا :

وكانت إنجلترا ، التي كانت قد لعبت دوراً هاماً وقت حرب الوراثة النموية ، وحرب السنوات السبع ، قد ظلت غالبة في الوقت الذي كانوا يدورون فيه ويتمون عملية التقسيم الأولى لبولندا . وحتى في ذلك الوقت كانت تمارس دعوتها اللامعة ، والتي لم يصلوا إلى إسم لها إلا في أثناء القرن التالي . ذلك أن المصالح التي كانت قائمة على أن تدافع عنها في أوروبا كانت عديدة ببعض المناط التي لم تلبسها تطورات الأزمة البولندية بطريق مباشر . وكانت تحتفظ ، في البحر المتوسط وفي بحر البلطيق ، بتجارة مودعة ومستقرة الثور . وكانت لا تترك أي فرصة ترمو من أجل تدعيم المواقع التي كانت قد حصلت عليها . وكانت تهتم بنوع خاص بالمميزات التي كانت تتحكم في الغرب في الوصول إلى هذه العوالم البحرية . وكانت موجودة بشكل دائم في جبل طارق منذ عام ١٧٠٤ ، كما كانت تشرف من بيد على السواحل المطلة على منطقة سوند . ولكنها كانت تظهر ويتصميم ، هنا وهناك ، أنها كانت معصمة على المحافظة على الوضع القائم ، ومستعدة دائماً للتدخل في حالة ظهور

خطر يهددها وعلى العكس من ذلك نجد أنها ، وعلى المحيطات وما ورائها ، كانت تستوحى من الرغبة في التوسع .

وفي مواجهة الدولة الانجليزية ، والتي كانت غنية بحريتها وديناميكيتها ، سوف تقف من جديد الدولة الفرنسية ، والتي كانت قد أعطت ، وبعد صرح حكم الملك الكبير ، بعض مظاهر الخنف ، والتي كانت منذ معاهدة باريس قد بدت على أنها تتخلق على نفسها منتظرة تلك الأحداث الجسام التي كان المستقبل القريب مشحوناً بها . وسوف تكون من المخالاة البسيطة أن تقول بأن كل سياستها السابقة ، في أثناء القرن الثامن عشر ، كانت مستوحاة من مبادئ وإتجاهات تتعارض بشكل أساسي مع مبادئ وإتجاهات جيرانها فيما وراء بحر المانش . ولم يكن التوسع الاستعماري قد وجد في أي وقت مضى الكثير من الانصار في فرنسا . وحتى هذه الكتابات الشهيرة لقولنتير عن كندا ، ولوجيا وديبيا ، وكانت تدل على حالة فكرية أظهرها آخرون ، وكانت منتشرة إلى حد كبير . وسجن يقوم المعمرون الانجليز في أمريكا ، والذين ثاروا ضد الوطن الأم ، بدعوة الفرنسيين إلى إعادة غزو كندا بمساعدتهم ، سيمامض وزراء لوى السادس عشر وبرفضون ذلك بشكل قاطع . وفي عشية الثورة ، كتب فولتي Volney ، ذلك الكاتب الشهير ، والذي كتب تأملات عن حرب الروس والأتراك ، وهاجم كل سياسة إستعمارية ، استند في ذلك على الأمثلة المقدمة من البرتغال ، وإسبانيا ، وهولندا : ففي هذا التاريخ الذي يحاول البعض أن يرويه بطريقة غامضة ، لم يرغب في أن يرى فيه سوى حالة ماهرة وكاذبة ، يتلوهما بلا جدال حالة أخرى ، ومختلفة عنها .

ومن أول قرن الثور إلى آخره ، كانت فكرة السلام تحرك قطاعاً هاماً ، إن لم يكن هو الأكثر أهمية ، بالنسبة للرأى العام . ولقد تأثرت الأوساط الحاكمة تأثراً كبيراً بذلك . ولا شك في أن إتجاهاً سليماً لأحد رجال الكنيسة مثل

فلهي Fleury ليس له نفس الأساس الموجود لدى كبار السادة المتشعبين بالفكرة « الفلسفية » ، والتي سادت في ذلك العصر ، عند أرجنسون Argenson مثلا . ومع ذلك فإنها لا تعبر عن نفسها بطريقة مختلفة . ونجد من ناحية أخرى أن هذه الفكرة لم تتوصل إلى أن تخلص نفسها من ذلك الشعور القديم المعادي للإنجليز ، الذي يبدو أن رجال هذا العصر كانوا قد ورثوه عن أسلافهم القدماء ، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . وكانت فرنسا على درجة من العظمة والقوة تسمح لها بأن تتخطى عن كل روح الغزو ، وبأن تطالب فقط بنوع من التفوق المعنوي ، والذي يسمح لها بحسبها بآراء النظام والعدالة أن تدعيه لنفسها : فكانت صياغات من هذا النوع ، وهي التي تعبر عن فكر ماركيز أرجنسون هي نتاج أيديولوجية تحمل سمعة عصرها ، والوسط الذي نشأت فيه . ومع ذلك فليست هناك فجوة بين فكر رجل مثل أرجنسون ، وفكر آخر مثل فلهي . ولا يختلف مصدر الإلهام ، عند الواحد والآخر عن بعضها بشكل واضح . حين نقرأم ، يبدو أن القرنين قد تخلوا عن رغبتهم القديمة في القوة . وكعب فريدريك الثاني المقبل ، في عام ١٧٣٨ : « من المحال إرجاع العلوم إلى هذه الأمة » ، وتأسف على ذلك فيما بعد . ولم تتمكن أحداث حرب الوراثة النمساوية ، ثم حرب السنوات السبع ، من أن تتغلب على حالة الخمول هذه التي تركوا أنفسهم يفرقون فيها . وكانت روح السلم — وهي روح سلم ليست في وقتها ، نظراً للفترة التاريخية والظروف — قد استمرت في توجيه الأوساط الحاكمة . وكانت تهدد بأن تجعلهم يميلون للفرس التي تعرض نفسها لإعادة إنشاء قوة الأمة في الحساراج ، أو لتحيين حدودها .

وهكذا ظهر من التناقض تقريباً أنه في هذا الوقت بالذات ، وفي الربع الثالث من القرن ، أن تعاقب المملكة وفيما وراء حدودها من الشمال الشرقي ومن

الجنوب الشرق، عمليتين واضحتين الحصول على أراضي؛ هي عملية الحصول على كورسيكا، وعملية الحصول على دوقيات اللورين. وفي واقع الأمر، لم تتطلب هذه العمليات أى مجهود: فكانت هي النتيجة المباشرة، والتي توقعتها المعاهدات، لعمليات إستاتيسلاس ليسزيسكي، التي حدثت في عام ١٧٦٦. وبالنسبة لكورسيكا شرعنا فيما سبق تلك الظروف التي سبقتها، وتلك التي جاءت مع عملية ضمها، بعد ذلك بعامين.

وما دعنا نعالج هنا أمر العلاقات الفرنسية الانجليزية في هذه الفترة، فقلنا أن نذكر أنهم قد اعتبروا في لندن هذه المسألة على أنها تمس مسألة توازن القوى في البحر المتوسط الغربي. وتأثرت الوزارة، وإحتجت في باريس، وذكرت أن أخذ فرنسا الجزيرة يمكنه أن يكون أمرا خطيرا بالنسبة للمحافظة على حسن العلاقات بين البلدين. ولم يتمكن شوازيل إلا أن يعلن أنه لم يكن من الممكن بالنسبة له أن يتراجع وأضاف بلباقة، التعبير عن تأسفه. ووجد الانجليز أنه من الأفضل أن يفتنعوا بذلك، في نفس الوقت الذي قدموا فيه إستجاجا عرفوا أنه سيظل أفلاطونيا. أما باولي، والذي أجبر على ترك الجزيرة في العام التالي، فإنه ذهب وطلب عى اللجوء إلى إنجلترا، التي ستصرف له معاشا سنويا. واستمر في إدارة المؤامرات في كورسيكا ضد السيطرة الفرنسية، وبمجموعة أو في صالح الانجليز.

ومنذ أن إنتهت حالة الحرب بين فرنسا وإنجلترا، منذ عام ١٧٦٣، ظلت العلاقات التي تحتفظ بها كل دولة تجاه الدولة الأخرى تتميز بالتباعد، وبعدم الثقة المتبادلة. ولقد حاولوا في بعض الأحيان أن يروا في هذه الأزمات التي وقعت في أواسط القرن بداية لحرب مائة عام جديدة: ذلك أن للرحلة الجديدة للصراعات الفرنسية الانجليزية كانت تتميز بجليها إلى طول الأمد، وعن طريق

الثروة والامبراطورية ، عبر جزء كبير من القرن التاسع عشر . وليس هناك مجال للتوقف عند مثل هذه الفكرة . ولا تزيد قيمتها عن قيمة أية عملية رجل أخرى من هذا النوع . فالتاريخ ، ورغم الكثير من المظاهر ، لا يبدأ أبداً من جديد . وحين تجد هاتين الدولتين نفسيهما في تنافس أو في عداوة ، سيتعلق الأمر الآن بمصالح تقع خارج أوروبا أكثر من وقوعها في أوروبا . ولذلك فإن التنافس الفرنسي الانجليزي في القرن الثامن عشر كان بالفعل تنافساً عالمياً .

وإذا كان لفظ التنافس هو الذي يكتبه قلنا ، بدلا من لفظ المعاداة ؛ ومن أجل تحديد المعارضة الدائمة بين الفرنسيين والانجليز في القرن الثامن عشر ، فإن ذلك يعد مؤشراً على أن المصالح الاقتصادية أخذت منذ ذلك الوقت تتفوق على المصالح السياسية البحتة ، مصالح القوة والكرامة . وبهذا الشأن علينا أن نظهر ، وفي تاريخ العلاقات الدولية ، تلك الأهمية التي كان بها الانجليز من قبل لجهراهم المحليين ، منافسيهم السابقين ، والذين أصبحوا الآن مرتبطين بسلسل شروط تحالفهم ؛ أي التابعين .

وفي أول الأمر ورثت انجلترا من قوتهم المالية . فأصبحت لندن ، بعد أمستردام ، السوق الدول للثروة ، وذلك منذ أن قامت مجموعة من أصحاب رؤوس الأموال الانجليز ، والمقيدين من رجال أموال يهود وصلوا بعد ويليام أورنج ، بتأسيس بنك إنجلترا في عام ١٦٩٤ على نفس نمط بنك أمستردام . ومنذ ذلك الوقت ، وفي كل المراكز التجارية الكبيرة في أوروبا ، كانت خطابات الدفع على لندن تجد من يشتريها . وذكر أحد المؤرخين الانجليز : « إنهم يسحبون على لندن ، حتى إذا كانت البضائع الضامنة لا تقرب من أوروبا أبداً ، ومن جانب آخر ، نجد أن ذلك الامتداد الذي تم لتجارة الهولنديين البحرية ، في أثناء فترة الحروب ضد فرنسا ولويس الرابع عشر ، قد سمح بإزدهار جديد

وحاسم التجارة البريطانية . وهكذا يمكننا أن نميل — بتجسيم الاحداث ، إلى أن نشبه القوة التجارية لإنجلترا ، عند نهاية الصور الحديثة ، على أنها قد أنشئت على حطام عظيمة هولندا . ففي فترة تقرب من قرن ، من أواسط القرن السابع عشر إلى أواسط القرن الثامن عشر ، إرتفعت أرقام الصادرات البريطانية حتى الضعف . ولم تكن البضائع الانجليزية — وفي مقدمتها القمح — هي التي توجد وحدها في القائمة . فكانت لندن — وحتى لا نذكر إلا الميناء الأول في بريطانيا — تلعب دور الموزع على القارة لعدد ضخم من المنتجات الأجنبية .

ويمكننا أن نأخذ مثل الأبنذة الفرنسية ، وخاصة أبنذة بوردو ، كشال له دلالة . وكان الهولنديون فيما مضى قد حصلوا ، وبصفتهم مشترين ، على أولوية ثابتة ، حتى الوقت الذي كان لويس الرابع عشر قد قرر فيه أن يحاربهم . وعندئذ اضطر أولئك الذين كانوا ، من بينهم ، قد جاءوا واستقروا في بوردو إلى أن يسودوا إلى بلادهم . وحدث بعد ذلك أمر التصالح بين الإقليم المتحدة وبين إسبانيا : فأدى ذلك إلى الثروة التي أصابت المتعاملين في أبنذة إكسبيريس ، والذين سرعان ما انضم إليهم من كان يتعامل في الأبنذة البرتغالية ، بورتو . ومع القرن الجديد ، أصبحت الدول الأيبيرية هي المنتجة الرئيسية للأبنذة الممتازة . وبعد عام ١٧١٥ ، وبزيادة جهود إقليم بوردو — وكذلك إقليم شارانت الذي كان ينتج الكحول — تمكن الفرنسيون من إصلاح موقعهم ، نقيجة لتغيير وسائل الاتساج وتحسين المنتجات . وبدلاً من الأبنذة القديمة ، أصبحت أبنذة بوردو تصدر بكميات ضخمة إلى الموانئ البريطانية ، وأصبح في وسعها أن تتنافس وعلى قدم المساواة مع الأبنذة الاسبانية والبرتغالية . وعند نهاية القرن سيأخذ الكحول الفرنسي ، والذي أصبح هو كذلك من نوعية رفيعة ، إسمه دكونياك ، وتغرق في الدول الشمالية على ما كانوا يسمونه هناك ، بيراندوين .

وكانت هذه الألبسة الأجنبية ، مثلها في ذلك مثل « توابل » الهند ، والتي كان كل منها يوزع عبر أوروبا ، تدخل بدون ضرائب . وعلى العكس من ذلك نجد أن دخول المنسوجات المسماة « الهندية » ، والتي كانت رغبات الموضة قد جعلتها منافسة للمنسوجات الانجليزية ، كانت تخضع لرقابة شديدة ، تصل في بعض الأحيان إلى حد المنع . وكانت منسوجات فرنسا ، وقلنيات الشرق ، توقف كذلك عند الحدود ، أو تدفع عليها رسوم مرتفعة . ولقد ذكرنا في موضع آخر أن تصدير المنسوجات الانجليزية كان يلقي تزايداً مستمراً في المراكز التجارية في شرق البحر المتوسط ، وبشكل مديد مخطورة تفوق المنسوجات الفرنسية . أما فيما يتعلق بالحبوب ، فإن صادراتها قد ارتفعت إرتفاعاً مستمراً حتى أواسط القرن . وأصبحوا يشجعونها منذ عام ١٦٨٩ ، بنظام حوافز يختلف في علاقة مع الأسعار . وبدعام ١٧٦٧ ، زادت الواردات على الصادرات : وكان هذا هو أحد مؤثرات أساسية تظهر الزيادة في المتوقعة في عدد السكان .

وفي تاريخ إنجلترا كان هذا التزايد السريع للسكان حدثاً ليس له سابقة . فند عام ١٧٠٠ حتى عام ١٧٦٠ ، زاد عدد السكان بنسبة $\frac{2}{3}$ ، وفيما بين عام ١٧٦٠ وعام ١٨٠٠ زاد بنسبة $\frac{2}{3}$. وهذه الأرقام تسمح لنا بفهم أفضل لهذا التقدم الجديد — أو التقدم المقبل — لقوة الانجيز في أثناء القرن التاسع عشر . ولم تكن الراحة مستعدة لإطعام أمالي يتزايدون يمثل هذه النسبة . وكان عليها أن تبذل مجهودات ضخمة حتى تصل إلى ذلك : وهذا يوصلنا للإهتمام الجديد الذي أخذه الرجال المفكرون بالنسبة لمسائل الزراعة . فند نهاية القرن السابق كانوا قد أقادوا في إنجلترا من ذلك المثال الذي قدمه الهولنديون ، كشعب من البحارة ، ولكن أيضاً كمزارعين دقيقين وصبورين . أما التجديدات التي تشمل أساس ما نسميه تقليدياً « بالثورة الزراعية » ، في القرن الثامن عشر ، فإن للزرايين

الإنجليز كانوا قد أخذوا فكرته من المزارعين الهولنديين . وكانت تشمل أولاً وقبل أى شيء آخر فى يوار الأرض ، وهو الأمر الذى كان ينص عليه كل نظام زراعى ، سواء أكان لعامين أو ثلاثة أعوام لكل دورة . وحل محل ذلك أمر زراعة الأرض ، كل عامين أو ثلاثة أعوام بنباتات رعى الماشية — البرسيم وما شابهها — والذى كان أمر التوسع فيه يسمح بالاحتفاظ بقطعان أكثر عدداً ، ويسمح بالتالى بزيادة واضحة فى إنتاج الحبوب والبن .

أما التنويرات التى مر بها فى نفس الفترة العمل الصناعى ، فإنها أعطت ضجة أكبر فى تاريخ العالم من تلك الضجة التى أحدثتها الزراعة . فعلى البحار وكذلك على الأرض شهدت هذه الأنشطة التى تسمى الآن — ومع تغيير عميق فى المعنى — وبالصناعة ، مجدداً من طريق المخترعات التقنية ، كانت أهمها تتمثل فى الآلة التجارية ، التى أوصلت اسم جيمس وات إلى الشهرة . وكان هذا العامل فى الآلات المتواضع ، ومن أصل اسكتلندى ، سبباً فى تغيير عميق أصاب نظام العمل الانسانى ، وبالتالى فى تغيير الانسانية إلى حد بعيد وترك عمله بصمات على التاريخ عاشت أكثر بكثير من بصمات نابليون ، والذى كان ولد بالتحديد فى عام ١٧٦٩ ، وهو نفس العام الذى أكمل فيه جيمس وات صنع آلته .

فلذا كانت الآلة المعاصرة ، وبالتالى والصناعة الكبرى ، مستخرجة من إختراع وات ، فإن أحداً لا يقدر على رفض ذلك . ولكن ما هو أقل تأكيداً من ذلك هو أننا ندين لإنجلترا بكل التقدم التقنى على الذى ظهر على التوالى فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر . ولقد أظهر أحد المؤرخين الأمريكين أخيراً أنه فى تلك الفترة كان التطور فى فرنسا يتوازى مع التطور فى إنجلترا ، وأنه من الواجب أن تنسب الدور الأول بالأفضلية للذكاء الفرنسى . وعلى وجه الخصوص بالنسبة لصناعة التعدين وحيث كان التقدم أكثر وضوحاً فى فرنسا مع إنشاء مركز هام فى كيريزو .

ولنتكفى بتسجيل هذا التأكيد دون أن ندعى لإيجاد حل لتلك المشكلة التي يشهدها، ودون أخذ موقف في المناقشات التي نشأت بعد ذلك . وعلينا أن نذكر فقط أنه ما دامت الأنشطة الصناعية لـإنجلترا قد تقدمت، فقد كان على الفرنسيين أن يراجعوا منافسة متزايدة : وظهرت النتائج الخاصة بذلك بنوع خاص في الأقاليم المطلة على البحر ، والأكثر قرباً ، والتي كانت أكثر تهديداً بسبب إستعداداتها الخاصة للعمل في المنسوجات ، مثل نورماندي .

٢ - صعوبات إنجلترا مع المعمرين في أمريكا :

في الماضي، كانت الحكومة الانجليزية تدفع بدون حساب لكي تحصل في أوروبا على صفقات كانت تكلفها الكثير : فكان الأمراء الألمان، إبتداء من أمير روسيا ، يفيدون من ذلك . ثم جاء وصول ملك جديد إلى السلطة مع مجموعة وزارية جديدة لكي يريده من الاهتمام بالمبادئ الاقتصادية . ولذلك فإن المشغليات المالية السريعة ميزت السنوات التي جاءت بعد معاهدة باريس مباشرة . وأظهرت حكومة جورج الثالث رغبتها المؤكدة في أن تشارك في عملية دفع الديون ، التي تراكت في أثناء سنوات الحرب ، هذه المستعمرات والتي كان مصورها هو أحد موضوعات هذا الصراع . ونتجت عن ذلك أزمة في العلاقات بين الوطن الأم وبين ملحقاتها في أمريكا . وتطورت هذه الأزمة بعد فترة معينة إلى ثورة معلنة من جانب المعمرين . واستسع فيما بعد إلى أبعاد صدام دولي ، خاصة وأن الفرنسيين ؛ كانوا قد أغلخوا علانية جانب الثوار . وإبتداء من هذا الوقت، أي إبتداء من عام ١٧٧٨ ، يمكننا أن نعالج الموضوع .

ونمر سريعاً حل البدايات . فلقد بدأ الصدام في أول الأمر حول مبدأ طرق دفع الضرائب المطلوبة . وإستمر بشكل سلبى خلال سنوات : فناقشوا المصج القانوني . وبعد ذلك تشبّثت حكومة جورج الثالث ، فجاءت حوادث ضئف

لكي تميز عام ١٧٧٣ في أمريكا . واثارت النفوس شيئاً فشيئاً ؛ وتولى المتطرفون السيطرة على الموقف ؛ وبدأت العمليات العسكرية في شهر أبريل ١٧٧٥ نتيجة لمراجعة حدثت بطريق الصدفة بين وحدة إنجليزية وبين رجال الميليشيا اللذين سلمهم المعمرون (مفركة ليكسنجتون) . وبعد قليل ، إختار مجلس مندوبي المستعمرات الثلاثة عشر، جورج واشنطن، قائد ميليشيا فيرجينيا ، لممارسة القيادة العامة . ووقعت العمليات الهامة أمام بوسطن، التي إستمرت عملية حصارها إحدى عشر شهراً ؛ وإضطرت الحامية الانجليزية إلى الانسحاب وإستقلت السفن في شهر مارس ١٧٧٦ .

وكان عام ١٧٧٦ هذا حاسماً. ذلك أنه كان أول عام للاستقلال وكانت أصواتا متفرقة وحدا هي التي تحدثت، حتى ذلك الوقت، عن الانفصال وكان الكونغرس قد أظهر ، في جموعه ، عداوة لفكرة القطعية مع لندن . ثم أصبحت هذه الحركة أكثر وأكثر ؛ وتمت تأهيرات مختلفة ، مثل تأهير رجال عتيدين بنوع خاص مثل صامويل آدمز ؛ وبنوع خاص تحت تأهير أحداث الحرب، فكرة تصعب مقاومتها . وفي بداية الصيف ، نزل جيش بريطاني ، بقيادة الجنرال هاو ، إلى نيويورك . وكان يتألف في غالبية العظمى من المرتزقة ، وجاءوا كطريقة لتحويل حكومة لندن لبعض صفار الأمراء الألمان . ومن بين ما يقرب من ثلاثين ألف رجل ، كان هناك تقريباً ثمانية عشر ألف من إقليم هيس ، أرسلهم حاكم الإقليم . وسيطلي الأمريكيون اسم هيس لكل الألمان الذين يحاربون تحت العلم الانجليزي . وكان إستخدام الأجانب في مثل هذا الصراع الذي وقع بين دعايا الملك جورج، يندش الشعور الوطني للمعمرين، ويسهل عملية إنتشار فكرة الإستقلال. وقادت فيرجينيا هذه الحركة ، بقطعها كل العلاقات التي كانت تربطها بحكومة لندن ، وبمنحها نفسها دستورا . ثم إقترح مندوبي فيرجينيا في الكونغرس إصدار تصريح بالإستقلال ،

هدوا بكتابته إلى جيفرسون ، أحد الأعضاء ، وتمت الموافقة عليه بالإجماع في ٤ يوليو .

وفي أثناء هذا الوقت ، كان واد هلسون مسرحاً لعمليات تميزت فيها بنوع خاص معارك ترلتون وفرنستون . وتمكن جورج واشنطن فيها من أن يبنى سمعته كرجل حرب . وشهد له قاضي ميز ، وهو فريدريك الكبير ، حين تحدث عنه بإعجاب ، وعن مواهبه التي استخدمها في أثناء هذه الحملة .

٣ - التعاطف الفرنسي مع الثوار :

منذ البداية ، أخذوا يتبعون في فرنسا ، وباهتمام ، تطور أحداث الصدام ، وكانوا متعاطفين مع الأمريكيين ، أولاً لكونهم قد وقفوا في وجه الإنجليز ، وبعد ذلك لأنهم قد أصبحوا المدافعين عن مبدأ مشترك بالنسبة لكل الشعوب ؛ وهو الصراع ضد القهر . وطبقاً لفرنسين من نهاية القرن الثامن عشر ، كان من من حق الثوار أن يلقوا تعاطفاً كبيراً في مصراعهم الذي قاموا به باسم الحرية . وعلى ضفاف نهر هلسون ، لم يكونوا مستعدين بلاستجابة لهذه الدعوة من المواطنين . وكانت ذكريات حرب السنوات السبع لا تزال حية . وعلاوة على ذلك ، بدت فرنسا من بعد وعلى أنها إحدى البلاد البابوية ، أن لم تكن دولة الإلحاد ، وهما فكرتان غير وديتان . وكانت الصحف تصف وبسخرية تلك الصعوبات التي كانت الحكومة الملكية تصارع وسطها ، ويرى فيها دلائل على الضياع الكبير ، والذي كان يشير بنشوب الثورة . ومع ذلك فإن اللغة الفرنسية استعرت في التمتع ببيئتها التقليدية : فكانت المدارس والجامعات تترك قطاعاً هريضاً لتعليمها . وكانت مؤلفات السباقرة من الفرنسيين ، وبخاصة الكلاسيكيين ، وحتى العلامفة ، لها جمهور هريض .

وفي الوقت الذي تحولت فيه الأزيمة إلى صدام مسلح ، كان هدى لوى السادس

عشر قد بدأ . وكانت الوزارة الأولى برئاسة مورياس *Maurépas* ، والتي كان المسئول فيها عن الشؤون الخارجية هو فيرجين *Vergennes* قد فكرت بسرعة في عملية تدخل يمكنه وكان عداء تيرجو *Turgot* المشرف العام على المالية ، وعملياً وزير الشؤون الاقتصادية ، قد نتج عنه اتخاذ موقف للانتظار الطويل . ولكن هذا لم يمنع فيرجين من أن يذكر للأمريكيين أنه يمكنهم أن يعتمدوا على معونة فرنسا حين يتم إنصافهم عن إنجلترا . ولكن هذه المقترحات الفرنسية غريبة عن ذلك التقدم الذي تم في أوساط الكونجرس بالنسبة لفكرة الاستقلال . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن حسن النية الفرنسية قد وضح ، وبأكثر من وجهة نظر لوزير ، عن طريق تلك المعونة الفعلية التي قدمها أحد الرجال الذين كانوا بلامسؤولية ؟ رسمية ، والكاتب بومارشيه *Bonmarchain* ، مدفوعاً في ذلك بحماسة من أجل قضية الحرية . ففي بداية عام ١٧٧٦ ، ورداً على بشة لأحد الممثلين فيرجين *Vergennes* ، جاء أول مندوب الكونجرس الأمريكي ، وهو سيلاس دين *Silas Deane* ، ذلك للتاجر الثرى من كونكتيكت ، لقضاء بضعة أشهر في باريس ، من أجل أن يحصل على معلومات دقيقة شأن المعونة التي يمكن للحكومة الفرنسية أن تقدمها . وعندئذٍ إخطر فيرجين ، ولم يكن في وضع يسمح له بأن يمد بأي شيء ، إلى أن يرسله إلى بومارشيه ، والذي كانت عروض خدماته قد أثارت انتباهه . وقام بومارشيه ، بالاتفاق مع دين ، بإنشاء شركة تجارة كانت ، وتحت اسم التعامل مع جوز بورمودا ، ستبيع إلى الأمريكيين الأسلحة ، والذخائر ، ومعدات المراكب .

وفي اليوم التالي لإعلان الاستقلال وصل سفير جديد ، من طرف الكونجرس ، إلى باريس ، في مهمة رسمية هذه المرة . وكان بنيامين فرانكلين *Benjamin Franklin* ، وهو هذه الشخصية المعروفة في العالمين الجديد والقديم ، والصحن القديم ، الذي

عمل في العلوم واكتشف مائة الصواحق . ومنذ بداية الصعوبات مع إنجلترا ، استخدم مواهبه الدبلوماسية في مهام عديدة في لندن وفي باريس ، وسيت تم الاعتراف به كفكر متزن ، ومفاوض لبق ومنذ وصوله إلى باريس ، ضمته المواقف الثورية التي أحاطت به ، وشميته لبساطته الشديدة ، ويتوقع خاص لمدم تقديره ، والباروك ، التي كان الرجال ذوي المراكز يضمنونها على رؤوسهم . ولدت أشهر ، كان وجوده يمثل إمتاماً حقيقياً لسكان المدينة ، وبالنسبة لرجال البلاط . وذهب لمقابلته الكثيرون من الضباط ، الذين كانوا يرغبون في العمل في الناحية الأخرى من المحيط . وكان يعرف توهيتهم : فكان الجميع يرغبون في الحصول على رتبة جنرال دفعة واحدة . ولذلك فانه عمل على تشييد مصمم ، كما كان سيلاس دين قد فعل من قبل . ولكن هناك واحداً من بينهم ، وجد من الحكمة أن يحسن استقباله بسبب إسمه ومركزه الاجتماعي ، وهو ماركيز دي لا فايت de La Fayette الشاب ، والذي كان ملازماً ثان ، وله من العمر عشرين عاماً ، وكان في نفس الوقت زوجاً لابنة ماركيز دي نواي ، وكان ابناً لأخ صغير ملك فرنسا في لندن . ورغم أن الأمريكيين وافقوا على ذلك ، فقد اضطر لا فايت إلى أن يسافر من فرنسا سراً ، خاصة وأن أوامر الملك كانت تمنع سفر رعاياه الفرنسيين للتفاوض على الحرب من الذهاب إلى العالم الجديد . وفي فيلادلفيا ، ضد الكونغرس على وهورد فرانكلين ، وذلك في الوقت الذي أجبروا فيه وميلين من زملاء لا فايت ، والذين كانوا مصاحبين له ، على أن يودوا إلى بلدهم وحين وصل جورج واشنطن ، سرعان ما صادقه ، وألحقه ضمن قيادته ، وقام بمعالجته كما لو كان ابناً له حين أصيب بأول جرح وسوف يرتبط الرجلان بمشاعر ود متبادلة ، طوال حياتهما . وحصل لا فايت منذ نهاية عام ١٧٧٧ على قيادة إحدى الفرق .

وزاد سرور الرأى العام الفرنسى من ذلك الاستقبال الذى احتفظوا به
للانايث ، والذى سرعان فاطرت كفاءاته . ووجد فيرجن فى ذلك تشجيعاً
للمضى فى مشروعة الحاص بالتدخل المسلح . ولكنه كان مضطراً من أجل الوصول
إلى ذلك ، إلى إقناع موباس ، رئيس الوزراء ، وحتى الملك نفسه . وكان
فى حاجة إلى أن يأق أحد انتصارات الثوار لكي يظهر أنهم قادرون على الاستمرار
فى الحرب حتى النهاية . وجاء ذلك الإنتصار الباهر الذى حصلوا عليه فى
ساراجوفا ، فى ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ ، فى وقت مختار لكي يخرجهم من هذه
الأزمة .

وكان الانطباع الناتج من ذلك كبير التأثير ، خاصة وأن الحلة قد بدأت بداية
سيئة . فكان الجنرال مار الانجليزى قد نقل قواته من مصب نهر هدسون إلى
مصب نهر ديلاور ، هادفاً بذلك فيلادلفيا ، وهى المدينة التى يوجد بها مقر
الكونجرس ، وإستولى عليها فى شهر سبتمبر . وفى أثناء ذلك الوقت ، وصل
طابور إنجليزى آخر ، من كندا ، من طريق بحيرة شامبلان ، ونزل وادى هدسن ؛
وكان قائده الجنرال بورجيون Borgeyns يواجه مصوبات ضخمة بالنسبة
لتموينه ؛ كما إن اتصالاته مع مار كانت رديئة . وسين إعطى بالجنش الذى
كان عليه أن يد أمامه الطريق ، كانت قواته فى غاية التعب ؛ وبعد معارك دموية ،
اضطرت إلى أن تتسحب إلى موقع ساراجوفا وعندئذ ، تمكن العدو من أن يقطع
عليهم خط الرجعة ، ومن أن يجبرهم على تسليم السلاح . قتم أسر سبعة آلاف
جندي . وفى هذا الوقت تصور الثوار بسهولة أنهم قد إلتخوا من الانجليز .
ودون أن ينتظروا أكثر من ذلك ، عاد الآلاف من رجال الميليشيا إلى قراهم
ومزارعهم .

وفى فرنسا كان تأثير هذا الحدث من الضعامة ، وبشكل شجع فرجين على

أن يدافع صراحة عن قضية التوارد ، وعلى أن يجعل المجلس يوافق على فكرة التدخل . وبدأت المفاوضات مباشرة مع فرانكلين . وسوف تنتهي ، في شهر فبراير التالي ، بعقد معاهدة تحالف ، سياسي وعسكري ، ومعها إتفاقية تجارية . ودون أن يكون هناك إعلان الحرب ، تبدأ العمليات العسكرية على البحر في شهر يونيو . وكان الانجليز هم الذين بدأوا بها .

وكان الشتاء شديد القسوة على الجزء الرئيسي من جيش واشنطن ، والذي كان قد اضطُر ، بعد طرده من فيلادلفيا ، إلى إن يلتجئ إلى أحد الوديان القريبة . وكانت البلاد شبه مهجورة ، وكانت قد قاست الكثير . وكسبت هذه القوات هناك أمر التمرد على التنص وعلى الحرمان . وكان الاقليم محروماً من كل شيء . وفي أثناء الحملة التالية ستظهر قوات واشنطن جدارتها . وفي بداية عام ١٧٧٨ ، سيضطُر الانجليز ، وبأمر حال ، إلى إخلاء فيلادلفيا . ولم تكن لهم سوى مواجهة قصيدة واحدة مع التوارد قبل أن يصلوا إلى نيويورك ، بطريق البر في هذه المرة . وسوف يبقى الجيشان هناك ، وكل منهما يراقب الآخر ، أحدهما في المدينة ، والثاني قريباً منه ، ولمدة ثلاث سنوات كاملة .

٤ - التدخل وعربة البحار :

منذ الوقت الذي دخلت فيه فرنسا الحرب ، أصبحت البحارة تلعب على البحر بشكل أساسي . وفي العام الأول لم يكن التحالف الفرنسي أى تأثير سوى وضع البحرية الانجليزية في مواجهة صعوبات ، وزيادة إرسال الأموال ، والمهمات الحربية والذخائر . وكانت الحكومة الفرنسية ترغب ، قبل أن تشارك بدوجة أكبر ، في أن تتأكد من أنها ستحصل ، وكما حدث في أثناء الحرب السابقة مع انجلترا ، على معونة إسبانيا . ولكن المفاوضات ستكون طويلة . وكانت أسباب سوءية الأسبانيين تجاه إنجلترا لا تزال هي نفسها التي كانت

موجودة في الماضي : فكان الأسبانيون لا يتمكنون من جعلهم يحفرمون ذلك الإحتكار الذي كانوا لا يزالون يطالبون به من أجل المبادلات مع الأراضي الثابتة لهم فيما وراء البحار . وكان المتنافسون يتحاشون عمليات المنح التقليدية ، وليس فقط عن طريق التهريب ، والتي كانت مجرد الأتيل تستخدم كقواعد له ، ولكن أيضا نتيجة لتوسط بعض التجار الأسبانيين في الوطن الأم نفسه . ومنذ عام ١٧٧٨ ، كان إمتياز قاذف قذائف انتهى بالفصل ، وألغى ، وأصبح من حق كل مواطن شبه الجزيرة — ما يقرب من إثنين عشر ميثاء — أن يتصلوا مع العالم الجديد . وجهت إصلاحات أخرى لكي تشهد برغبة حكومة شارل الثالث في إعادة الحياة إلى نظام إقتصادي مهمل . وأفادت الصناعة من ذلك كما أفادت التجارة وجاءت آمال ضخمة مصطحبة المجهودات التي بذلها الكونت آراندو ، الذي كان من تلاميذ الفلاسفة ، ورئيس الحكومة من عام ١٧٦٥ حتى عام ١٧٧٣ .

ولم تظهر حكومة مدريد ، والتي كانت تعلم جيدا بالقيمة التي كان فرجين يطلقها على أمر الحصول على موافقتها ، أي دلائل على الرغبة في الإسراع والوصول إلى هذا الهدف : فكانت تعتقد أنه في وسعها ، وفي نفس الوقت ، أن تستعيد جبل طارق ونيورقة ، وأن تحصل في أمريكا على الإشراف على الملاحة في نهر المسيسيبي ، والتي كانت مصيابه قد أصبحت إسبانية في عام ١٧٦٣ . واستمرت المفاوضات بعد ذلك لشهور طويلة ، حتى انتهت باتفاقية آرانجوير ، التي تم التوقيع عليها في ١٢ أبريل ١٧٧٩ وكما لو كان الفرنسيون يتباؤن بأنهم لن يوافقوا بعودهم ، فإنهم (الفرنسيون) قد انتهوا بقبول تقريرا كل ما كان قد طلب منهم . وتم الاحتفاظ بينود المعاهدة سرية : الأمر الذي سمح للأمريكيين بالدخول في مفاوضات مع مدريد ، بأمل الحصول على المال . ولكنها كانت مفاوضات في طريق مسدود . فكانت إسبانيا ، وكدولة إستعمارية قديمة ، لا تأمل في أن يتصر المعبرون في ثورتهم ضد الوطن الأم .

وكما حدث دائماً في مثل هذه الحالة ، فكر الفرنسيون ، ومنذ أن حصلوا على تأكيد بالهوية الإسبانية ، في أمر الاعداد لعملية نزول في إنجلترا : فاعتقدوا في فرساي في أن أفضل وسيلة لضمان الاستقلال الأمريكي هي في حرب قوة الانجليز في القلب . وحرص لافايت على ألا تفوقه مثل هذه الفرصة ، فطلب إلى الكونجرس أن يسمح له بالبقاء في فرنسا من أجل أن يحصل على إحدى القيادات في هذه العملية ، قم ضمه إلى أركان حرب المارشال دي فو *de Vaux* ، الذي ستكون له مسؤولية العملية . ولكن الخطوة المشتركة التي وضعت لصيف عام ١٧٧٩ لم تشهد أية بداية للتنفيذ ووصلت القوات الإسبانية إلى مكان الإنقاء بعد المرحه المحدد بكتو . ثم جاءت الرياح المعاكسة لكي تؤجل الإقلاع . وجاءت بعد ذلك سوء الاحوال الجوية في الخريف ، فاستقر الرأي في النهاية على التخلي عن فكرة عبور المانش . وفي أثناء هذا الوقت ، ظلت العمليات راكدة في أمريكا . ولم يكن أى من الخصمين متأكداً من تفوقه بشكل يسمح له بالهجوم . فاكفى الانجليز بأمر إدارة القبائل الهندية في الداخل ضد عدوهم ، وتنجت على ذلك مذابح ، وخاصة في بنسلفانيا ، في وادي وومنج . وفي عام ١٧٧٩ قاموا بمحاولة لتقل الحرب إلى ولايات الجنوب . واعتقدوا في أنه يمكنهم هناك أن يأخذوا رهائن تسمح لهم بالدخول إلى مفاوضات الصلح في ظروف أفضل . فأنزلوا قوات في سافانا ، واحتلوا شيئاً فشيئاً الجزء الأكبر من جورجيا ، وقاموا من هناك بهجمات الفرسان عبر كارولينا . وعلى البحر ، جاء أسطول فرنسي ، بقيادة ديستان *d'Estaing* ، لكي يرسو في جزر الأنتيل ، وحيث تمكن من أن يحتل تاجو ، وسان فانسين ، وجرانادا ، مهدد وسائل النقل الانجليزية على سواحل العالم الجديد . وحاول ، بمساعدة فرقة صغيرة من الجنود ، ولكن بلا نجاح ، أن يستولى على موقع نيويورك (جزيرة وود باوند) .

وشهد عام ١٧٨٠ نزول القوات الفرنسية على الأرض الأمريكية . وكان عددها ٧,٥٠٠ رجل ، يكرنون قوات حلة ، عهدوا بقيادتها ، لا للنايت ، والذي كان لا يزال صغير السن من أجل تولي مثل هذه القيادة ، ولكن إلى الكونت روشامبو Rochambeau ، والذي كان من قادة حرب السنوات السبع . ومنجد أنهم سوف يقضون كل عامهم الأول ، في نيويورك ، وهو الميناء الذي كانوا قد نزلوا فيه ، وليست لهم مشغولية سوى ضمان حماية الأسطول الذي كان قد حضر معهم ، والذي أصبح في ذلك الوقت عاصراً . وفي أثناء ذلك الوقت ، عرف الأمريكيون أوقافاً صعبة . فعلاوة على الصعوبات المادية ، والذي كان من الضروري عليهم أن يصارعوا ضدها وبلا توقف ، أضيف إغتيال أخلاقى ، يتمثل في خيانة قائد من أحسن قادتهم ، وهو الجنرال بنديكت آر نوب Benedict Arnold الذى دفعه حبه للمال والحياة السهلة إلى أن يبيع نفسه للإنجليز ، والذي مر إلى معسكرهم في نفس اليوم الذى إكتشفت فيه مؤامراته خفية . وفي الجنوب ، تناولت الهزائم : ففي شهر مايو ، فقدوا ميناء شارلستون مع السبعة آلاف رجل الذين كانوا يدافعون عنه . وفي شهر أغسطس ، وبعد معركة كامدن ، أتم الإنجليز غزو كارولينا الشمالية والجنوبية . ولم يتمكنوا من وقف زحف العدو إلا عند نهاية الحملة فقط .

وفي الميدان المالى ، لم تكن الإمكانيات أكثر إزدحاماً عنها في الميدان العسكرى . وكانت الأسلحة والذخائر ، والتي كانوا يحضرونها بكميات متزايدة من إقليم ليج ، غالية الثمن . وفي الكونجرس ، أشار بعض الرجال من ذوى المسؤولية إلى إمكانية ، وحتى ترجيح ، وقوع إفلاس . وبدأت المفاوضات وإستمرت مع إسبانيا ، والتي كانت دائماً متشعبة ، لكن يحصلوا منها على الأموال على الأقل ؛ شيئاً من هذه الأموال إلى لم تكف منذ مايزيد على القرنين من السيريات إلى

خواتمها . ولكن حكومة مدريد استمرت في إظهار عدم رغبتها في التسرع . وكانت إسبانيا كذلك ، تعرف صعوبات مالية . وكانت الروح المعنوية للأمة قد تأثرت إلى حد كبير بفشل المحاولات التي كانوا قد قاموا بها ضد جبل طارق : فكان الأميرال البريطاني الذي أرسلوه لنجدة هذا الموقع قد دخل إليه دون صعوبة كبيرة ، بعد أن هزم الجزء الأكبر من الأسطول الإسباني في خليج قاديز .

وفي وقت وقوع هذه الأحداث في أمريكا ، حدث لها ، في هذا العام ، ردود فعل هامة في شمال أوروبا . فكان الإنجليز قد تخلوا عن التقاليد العامة المعروفة والمتعلقة بحقوق المحايدين ، وإدعوا توسيع معنى المهربات الحرة ، ومددوه ، كإجراء دفاعي ، على كل المواد المستخدمة في إنشاء السفن ، وحتى إلى الجيوب . ولما كانوا هم بالقمل سادة البحار ، أصبحت حقوق الزيادة والاستيلاء التي مارسوها في هذه الظروف الجديدة ، وبسرعة ، غير محتملة . وبالفرصة ، انتهت الأمم المتاجرة صوب فرنسا ، وحيث كان فيرجن قد أكد ، منذ البداية ، احترامه للتقاليد ، وعافضته بكل قوة على مبدأ حرية البحار ؛ وإقترح حتى على هوامش الشمال ، منذ شهر يناير ١٧٧٨ الإنضمام إلى تصريح مشترك يتعلق بحقوق المحايدين . ولكن الخوف من القوة البحرية لإمبراطرا كان من العنف حتى أن الدول التي تم الإتصال بها — هولندا ، والدانمرك ، والسويد — اعتذرت في بداية الأمر . وكانوا قد إتصلوا بحكومة روسيا بمخبر خاص ، وذلك بسبب علاقتها مع لندن . ولم توافق على المناقشة إلا بعد صلح تيشن ، في عام ١٧٧٩ . وإبتداء من ذلك الوقت ، جاءت المبادوات من بطرسبرج ، عرض الوساطة من جانب القيصرة ، تجدد عدة مرات ، بعد رفضه من جانب لندن . وجاءت أعمال العنف التي مارسها الإسبانويون ، بعد دخولهم الحرب ، ضد السفن الروسية المحملة بالحبوب والتي سكنت تسه قرب بلادهم ، لكي تلب دوراً حاسماً . ومن

مهرج روسي ، في ٢٧ فبراير ١٧٨٠ ، وعلى أساس أن توقع عليه الأمم المتاجرة ولكنه شفق في كونها جن بعد ذلك في ٩ يوليو ، وخرج في شكل المباني التي كان فيرجين قد تقدم بها من قبل . وتمت المراقبة عليه ، على التوالي ، من جميع المواسم الشمالية ، ثم من جانب باريس ، وبرلين ، ومدريد ، ونابولي . وسيتبقى الأمر بالبرغال ، والتي كانت مرتبطة بروابط وثيقة مع إنجلترا ، باصطدام موافقتها كذلك ، في آخر وقت ، في شهر يوليو ١٧٨٢ . ومن هذه المفاوضات الصعبة ، التي تمت في أثناء السنوات الصعبة لحرب أمريكا ، خرج إذن ما سوف يسميه المؤرخون ، فيما بعد ، مستخدمين في ذلك مصيراً إستخدمته القيصرة « رابطة الحياض المسلح » .

أما الإنجليز ، والذين أصيبوا بشدة بهذا الإجماع من جانب الدول المعاهدة في حكمها على ممارساتهم ، فإلهم إتجهوا إلى المولنديين وحدهم : فأعلنوا عليهم الحرب في شهر ديسمبر ١٧٨٠ . وهكذا سيتمكنون من الاستمرار في إساءة التعامل مع سقنتهم .

٥ - الحرب وإسراع عداها :

تميزت الفترة التي تلت عام ١٧٨٠ بوقوع أحداث هامة في صالح الثوار . ففي ربيع عام ١٧٨١ ، إصطلم الإنجليز بقيادة البيرال كورنواليس Cornwallis ، في ذهابهم من كارولينا الشمالية لغزو فيرجينيا ، بقوات لا فائت ، الذي كان قد أخذ من جديد قيادة فرقة ، ونازعهم في أمر التركيز ، ثم تتبعهم خطوة بخطوة ، حتى تمكنوا من تنظيم قاعدة قوية للمعمليات على الساحل ، في يوركتاون ، فمسكر على مقربة منهم . وفي ذلك الوقت ، قرر الأسطول البريطاني الذي كان يحاصر الفرنسيين في نيويورك أن يتنقل عن الحراسة . ولذلك فإنه أصبح في وسع روشامبر وجيشه أن يتحركا . وتم وضع خطة جديدة ، بالاتفاق مع جورج

واشنطن ومع الاميرال دى جراس de Grassé ، الذى كان يقود أسطول
الانتيل ، من أجل القيام بهجوم مشترك على قوات كورنواليس . وقام الجيش
الفرنسى الصغير بالالتفاف حول نيويورك ، وقام بعملية زحف لمسافة ثمانمائة
كيلومتر حتى وصل أمام يوركتاون ، وذلك فى الوقت الذى قامت فيه قوة
فرنسية أخرى - تقرب من أربعة آلاف رجل - والى كان أسطول دى جراس
قد نقلها ، بالانضمام إلى فرقة لافاييت . واضطر كورنواليس ، الذى أصبح محاصراً
من البحر ومن البر ، وهاجمته قوات يديدها مرتين على عدد قواته ، إلى أن
يسلم بعد ثلاثة أسابيع ، وبعد أربعة أصوام تماماً ، ويوماً يوماً ، من سراتوجا
(١٧ أكتوبر ١٧٨١) وتسببت هذه الواقعة فى حزن عميق فى لندن . ورغم أن
نيويورك كانت دائماً عتلة بشكل ثابت ، إلا أنه كان هناك إنطباع بأن الموقف
لن يتصلح ، وأن الصلح لن يتأخر كثيراً من أن يفرض نفسه . ومنذ نهاية السنة ،
رأى روشامبو أن مهمته قد إنتهت ، فركب السفن ، ومعه جيشه .

وهكذا نجد أن قوة إنجلترا قد أصبحت إصابة خطيرة فى أمريكا ، وحيث
نجح الاسبانيون ، علاوة على ذلك ، فى أن يستولوا على فلوريدا . وفى المهنه ،
أخذت تدافع عن نفسها بكل صمود ، لأنها لم تكن قادرة على إرسال القوات
اللازمة إلى هناك . ومع ذلك ، فإنها سوف تتجفع فى الاحتفاظ بكل مواقعها .
وفى الوقت الذى كانت قد بدأت فيه الصعوبات فى أمريكا أصبحت إدارة
شركة الهند معرضة لانتقادات حادة ومتزايدة . ووضع لها نظام جديد من طريق
قانون التنظيمات Regulating Act لعام ١٧٧٣ . وعهدوا بسلطات الإدارة
الرئيسية إلى حاكم البنغال ، الذى رقى إلى وظيفة حاكم تام ، وأصبح يماره مجلس
يتشكل من أربعة أعضاء ، يتم تعيينهم من طريق لندن . وكان أول من شغل هذا
المصوب هو وارين هاستينجس Warren Hastings ، والذى سوف يظل فيه حتى

عام ١٧٨٥. وكان عليه أن يتعامل في نفس الوقت مع كل الخصوم الأوربيين ،
والذين كان الولاة الفرنسيون يشيرونهم عند الخصم الإنجليزي . وكان المهراتنا ،
كعالم دائماً ، هم أشد الخصوم خطورة . وحاول أكثر من أمهر من الدكن
أن يمد لهم يد العون . وفي أقصى الجنوب ، في ميسور ، وتحت قيادة السلطان
حيدر علي النشط ، بدأ دور هام لمقاومة توغل الأوربيين .

وتدعمت حركات الأعداء في الداخل ، في عام ١٧٨٢ ، بواسطة أسطول
فرنسي بقيادة دي سوفرن *de Suffren* . وانتهت المارك المختلفة التي وقعت
مع الانجليز في صالحهم . وإحتاج الأمر إلى كل نشاط هاستنجز من أجل إصلاح
حالة كادت أن تكون بلا أمل : فتقضت معاهدة كان تجار بمباي قد عقدوها
بدون تصريح منه ، كما أن حاكم مادراس الذي تعطلت عن التسليم فإنه تم حوله .
وأخيراً ، تمكن الانجليز من أن يأخذوا من خصومهم مراكز تجارية عديدة : من
الفرنسيين بوندشيري وماهي ؛ ومن الهولنديين نيجابا تام . أما القوات الفرنسية
التي نزلت في وقت متأخر مع بوسي *Bussy* فإنها حوصرت في موقع جوندلور ؛
ولم تتمكن من أن تركب سفنها إلا بمساعدة سفن سوفرن .

وفي البحر المتوسط استمرت العمليات الحربية أمام جبل طارق . وكانت
إسبانيا قد حصلت ، منذ عام ١٧٧٩ ، على المساعدة العسكرية من جانب حلفائها :
قدم تدعيم الـ ٢٥٠٠٠ رجل الذين يكونون جيش الحصار بـ ١٥٠٠٠ جندي
فرنسي . ولكن الحصار لم يكن دقيقاً من ناحية البحر ، وبجهد قوافل تموين في
العبور من وقت لآخر . ولذلك ، فإنهم مالوا في مدريد ناحية فقدان الأمل .
وأظهر الأميرال ديستان *Retain* ، الذي أرسلته الحكومة الفرنسية في مهمة
لفراسة الموقف ، أنه كان غير متفائل . ونصح بأن يحاولوا بدلاً من ذلك شيئاً
ما ضد مينورقة ، التي ربما يمكنها أن تنفع في عملية مبادلة . وبناء على هذا

الرأى ، قررت الحكومة الإسبانية القيام بعملية في البليار .

ولذلك فإن أسطول قادير أفلح في شهر يوليو ١٧٨١ إلى مينورقة . وكان حل إحدى الوحدات الفرنسية أن تشتبك في عملية حصار بورت ماهون ، وسلت قيادة الحملة إلى أحد الفرنسيين ، وهو دوق كريون Carillon . وتم الإستيلاء على حصين سان فيليب ، الذى يتحكم فى مدخل الميناء ، بعد حصار دام سبعة أشهر . وولد هذا الإحتصار ، عند الإسبانين ، الأمل من جديد فى أن ينتصروا عند جبل طارق . فكلفوا كريون ، قاهر مينورقة ، بأن يقود عملية جديدة ، بمساعدة سلاح جديد ، كان نوعاً من البطاريات العائمة ، والى كانوا شديدي الإعجاب بها . ولكن هجوم ١٢ سبتمبر ، ورغم الوسائل المادية القوية التى كدسوها ، كان فشلاً جديداً :

وجاء نجاح بحرى واضح ، فى بحر الانهال ، وحيث تمكن رودنى Rodeny من هزيمة دى جراس ، ومن أسرة (أبريل ١٧٨٢) ، لكن يساعد الإنجليز على أن يفكروا بهدوء أكثر فى أمر عقد صلح يضمن الاستقلال للأمريكين . وبدأت المفاوضات بعد ذلك بقليل .

٦ - الصلح ومعاهدة فرساي :

كان من الممكن أن تنتهى المفاوضات مريعاً ، إذا لم يكن هناك الإسبانين ، الذين كانوا متمسكين بالمطالبة بجبل طارق — والذى لم ينجحوا فى الاستيلاء عليه — وكذلك بهمايكا ، والى لم يعرفوا كذلك كيف يخرجون الحصى منها . أما فرنسا ، والى كانت مرتبطة بالمعاهدات التى كانت قد وقعت عليها ، فإنها ألغت بطبيعة الحال مطالب إسبانيا . ولكن الأمريكين ، أنفسهم ، أظهروا نوعاً من الرغبة فى السرعة فى عقد الصلح ، منذ الوقت الذى قبلت فيه لندن مطالبهم الرئيسية ، بشأن الاعتراف الرسمى بالإستقلال . ورغم التعهدات المأخوذة تجاه فرنسا ،

وافق مندوبيهم جون آدم على عدم الالتفاف لذلك : ووضعوا في شهر نوفمبر توقيهم على معاهدة منفصلة مع لندن .

أما الإحتياجات التي رأى فيرجن أن عليه أن يرفعها بعد ذلك مباشرة ، فإنها ظلت بلا نتائج . وعرف فرانكلين كيف يدافع عن قضية أبناء وطنه أمام الوزير ، وتمت الموافقة على منحهم قرض جديد بعد ذلك مباشرة . ولم يبق سوى إقناع إسبانيا بالاعتدال في مطالبها . واتفقت حكومة لوى السادس عشر مع حكومة شارل الثالث على نص معاهدة مبدئية في شهر يناير ١٧٨٣ . أما العقد النهائي ، وهو معاهدة فرساي ، فقد تم التوقيع عليه يوم ٣ سبتمبر التالي من جانب كل الدول المتحاربة .

وإعترفت إنجلترا بالمستعمرات الثلاثة عشر في أمريكا على أنها دول حرة ، مستقلة وذات سيادة ، وتنازلت لها عن كل الأراضي الواقعة إلى الجنوب من كندا . وفيها عدا منطقة مين ، فإن الحدود سوف تكون ، في مجموعها ، هي تلك التي تفصل حتى اليوم بين البلدين . ورغم إصرار المفاوضين الانجليز ، فلم تكتب أية ضمانات في المعاهدة في صالح أولئك المعمرين الذين حكانوا قد ظلوا غلصين للنتاج : فإكتفوا بالوعد الذي أعطاه الكونغرس بأنهم سوف يعاملون بعدالة ويكرم . أما فرنسا ، فإنها خرجت وأيديها غاوية قهرياً ، ورغم كل الخدمات التي كانت قد قدمتها للقضية الأمريكية . حقيقة أنه لم يكن عليها أن تتجه إليهم ، كدنيين ، بل لانجلترا . ولذلك فإنها حررت نفسها من فقرات معاهدة أوترخت ، التي كانت تعهد من سيادتها على دنكرك (منح تحصين المدينة ، والالتزام بتحمل الوجود الدائم لمندوب إنجليزي) . ومن ناحية أخرى أعيدت إليها المراكز التجارية في السنغال ، والتي كانت قد أجزرت على التنازل عنها في عام ١٧٦٩ ، وكذلك المراكز التجارية التي كانت قد احتفظت بها في الهند في عام ١٧٦٣ . ويمكننا أن نصف

إلى ذلك أيضا أمر التنازل عن جزيرة تاجاجو ، الصخرة الغاية في بحر الأنتيل . أما إسبانيا ، التي لم تهم تهريماً بأي شيء ، فلإن معاملتها كانت أفضل : فسادت إليها ملكية جزيرة مينورقة ، والتي كانت قد فقدتها في أثناء الحرب ، وفلوريدا ، التي كانت قد تمطت عنها في عام ١٧٦٣ . وفي نفس الوقت ، وطبقاً للمعاهدات السابقة ، كان على لوزيانا ، من حيث المبدأ ، أن تعود إلى فرنسا .

وهذه الأزمة الكبيرة الأخيرة في العلاقات الفرنسية الانجليزية في القرن الثامن عشر تتضمن غائمة غير متوقعة إلى حد كبير ، من الزهرة الأولى ، وهي أمر عقد معاهدة تجارية بين الدولتين . وعلينا أن نتذكر هنا أن المفاوضات التي كانت قد بدأت في هذا الشأن في عام ١٧١٥ لم تصل إلى نتيجة ، أي أنهم كانوا قد ظلوا إخذل مع عارسات عصر لوى الرابع عشر . وكان الأمر يتعلق بضرورة الخروج من وضعية غير طبيعية . وكان الرجال السياسيان اللذين سوف يعملان من أجلها ، وهما فيرجن من ناحية ، وبيت Pitt ، بيت الكبير ، من الناحية الأخرى ، متشبعان بالرغبة في جعل بلديهما تقترب الواحدة من الأخرى ، بطريقة يمكنها أن تمشي ، وذلك عن طريق دفعها إلى الاتفاق على المشكلات التي يمكن التغلب عليها بسهولة نسبية عن تلك التي كانت تعتمد على اعتبارات الكرامة الوطنية .

وكان فيرجن هو الذي أخذ الدافع الأول . وكان بيت مكتوف الأيدي بالمعارضة الموجودة في البرلمان . ولقد أشار خصمه الرئيس فوكس Fox ، في أحد الأيام ، ومن أعلى منصة المجلس ، إلى الصفة الدائمة والتي لا يمكن محايلها ، لتلك الإدارة السياسية بين البلدين . ورد عليه بيت : إن تفكهي يرفض هذا التأكيد كما يرفض أي شيء فظيح . أنه من الضعف والطفولة أن نفترض أنه يمكن لأمة أن تكون دائماً حذرة لأمة أخرى . . وكان فيرجن ، من ناحيته ، لا يجد من يتبعه إلا بكل

صعوبة ، في الأوساط الحاكمة في فرنسا ، خاصة وأن الموانع المعادية للبريطانيين -ورغم الرغبة السائدة في التقرب من إنجلترا- كان يشترك فيها السفير الموجود في لندن . ولم تقدم المفاوضات إلا حينما قرر بيت إرنال أحد المنعويين المخاصين إلى باريس . وكان هو ويليام إيدن William Eden ، وهو لورد أوكلاند Auckland فيما بعد .

وتم التوقيع على العقد في ٢٦ سبتمبر ١٧٨٦ . وكانت خصائصه الرئيسية تتمثل في أن ينخفضوا ، من هذا الجانب ومن الجانب الآخر ، الحواجز التجارية . وبعد بضع سنوات من ذلك ، سوف تقوم كراسات مطالب مجلس طبقات الأمة بإتمامها ، وعلى أنها قد أدت إلى خراب الصناعة الفرنسية ، وبخاصة صناعة المنسوجات ، والتي كانت تمر بأزمة في ذلك الوقت . وهذه المحاكمة ، والتي كانت تستوحى من الاتجاهات السياسية في ذلك الوقت ، لا تبدو على أنها تنقف على أسس أبداً . فلاشلا في أن الصناعة البريطانية ، والتي كانت في عز ازدهارها ، قد وجدت فيها بعض التسهيلات الجديدة لكي تنتشر منتجاتها على السوق الفرنسي . ولكننا نجد ، من الناحية الأخرى ، وفي نظير ذلك ، أن إنجلترا قد انفتحت بدرجة أكبر في وجه إستيراد المواد الغذائية الفرنسية : وهذه النتائج لاتفاقية عام ١٧٨٦ ، كان الوزراء المسؤولون قد تنبؤوا بها سلفاً . وإذا كانت بعض قطاعات الفرنسيين قد رأت أنها لم تكن في صالحهم ، فإن ذلك لا يسمح لنا بأن نستخرج من ذلك نتائج عامة . وفي إنجلترا كذلك ، قام المعارضون بفضح بعض مثالب المعاهدة ، حين وجدوا الفرصة لذلك . وكلما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات ، كانت بعض المصالح ، هنا أو هناك ، تضار . ولكن الظروف سمحت للشكاوى الفرنسية فقط بأن يكون لها صدى طويل الأمد .

وبعد ذلك ، علينا أن نعترف بأن هذا العقد ، الذي يمثل الحكمة السياسية

والاقتصادية ، كانت له بالنسبة لفرنسيين نتائج أقل سعادة من تلك التي كانت لغيرهم .

فكانوا قد بذلوا مجهودات ضخمة ، في قطاع المنسوجات ، من أجل التنازيم مع الطرق الجديدة في الصناعة . وكنا قد لاحظنا بعض التأخر في هذا التسرع : فطبقاً لتقرير أحد المراقبين ، في عام ١٧٩٠ ، لم يكن هناك في فرنسا سوى ٩٠٠٠ مغزل ، في مقابل ٢٠٠٠٠ مغزل هل الأقل في إنجلترا . ولذلك فإن فتح الحدود في وجه منتجات الصناعة الإنجليزي كانوا سيضررون به وبقوة . وظهرت أزمة في عام ١٧٨٨ ؛ ووصلت إلى أقاليم شبنانيا ، ولورماندى ، وحتى دوفيليه . وما دام قد اصطعبتها البطالة ، فإنها سوف تغذى روح الثورة . وفي أثناء شتاء ١٧٨٨ — ١٧٨٩ ، كانت هناك عمليات تمرد ، هنا وهناك ، هاجم فيها العمال المرحون ، الميكانيكية ، أو الآلية الإنجليزية .

أما إنجلترا ، فإنها اجتازت ، على العكس من ذلك ، وفي أثناء السنوات التالية ، فترة تنمية اقتصادية لم يسبق لها مثيل . ونلاحظ ذلك بنوع خاص في ميدان الأنشطة الصناعية ، والتي لم تجعلها حرب الإستقلال الأمريكية بطء من تقدمها إلا بدرجة بسيطة للغاية : وأتمت آلة النسيج - آلة كارتررايث Cartwright - عملية إدخال الثورة في صناعة النسيج . وأدى الإستخدام الأخير للآلة البخارية إلى تركيز كبير ومتزايد في هذه الصناعة . وتستعمل قيمة المنسوجات القطعية المصدرة ، والتي كانت تقدر بمبلغ ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه في عام ١٧٤١ ، إلى مبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيه في عام ١٧٩٠ . وشهدت الصناعات التبدئية لزدهاراً مائلاً : فتضاعفت كميات الحديد المصنوع في بريطانيا العظمى ، أو كادت ، فيا بين عامي ١٧٨٨ و ١٧٩٦ ، وارتفعت من ١٢٦ إلى ٢٤١ مليون جنيه . وكانت هذه هي دلائل تفوق صناعي سوف يتأكد في أثناء العصر التالي .

الفصل الثلاثون

طموحات السياسة النمساوية وفشلها .

في الوقت الذي كانت فيه الدولة الفرنسية والدولة الانجليزية مشتبكتين فيه بعيداً عن القارة الأوربية ، على البحار وفي أمريكا ، شرعت الدولة النمساوية بأنها أكثر حرية في حركتها في أوروبا . وخضع جوزيف الثاني لتلك الرغبة التي سيطرت عليه من أجل القيام بعمل مهم في الخارج . وفي أثناء سنوات عديدة ، وحتى وقت قيام الثورة الفرنسية ، كان هدوء أوروبا مهدداً بشكل دائم وخطراً ، بمشروعاته .

وكان دائم القلق ، وغير راض باستمرار ، وبخاصة بعد أن كانت روسيا قد حصلت على ميزات من معاهدة فيناريديجي . وكان قد قلص من الحركات الماكيافيلية التي كان فريديريك الثاني قد أوحى بها إلى سياسة النمسا في الشرق ، أثناء أزمة حرب الوراثة البولندية ؛ ولذلك فإنه كان يرغب في الانتقام . وهكذا نجد أنه ، منذ عام ١٧٧٥ ، أي العام التالي لمعاهدة فيناريديجي ، قد دخل إلى المسرح . فأبلغ أستانبول أن البلاد الواقعة هند منابع سيريك وألبورت ، أي اليوكوفين ، كانت في الماضي خاضعة لبودوليا ، أحد الأقاليم البولندية التي تم ضمها في عام ١٧٧٢ ، وأن القوات النمساوية قد صدوت إليها الأوامر نتيجة لذلك بالإقامة هناك . وكانت هذه المسألة غير ذات كبير أهمية أمام الروس ، والذين حركات قد انفتحت أمامهم كل إنشاعات البحر الأسود . ولذلك ، فإنهم لم يجدوا من المناسب أن يتدخلوا ، وتركوا احتجاجات السلطان بدون إجابة . ولذلك فإن كاورت نجح في أن يحصل من أستانبول على التوقيع على

إعناقية رسمية (إعناقية بالاموتافى ، مايو ١٧٧٥) ، وهي التي إصرفت بهذا التخصير . وكانت بوكوفين بلاداً سلافية ورومانية في أساسها . وكانت ترقد فيها ، وفي دير يوتنا ، رفات إثنين الكبار ، بطل البنديان . ولقد ظل هذا الاقليم أقلية خاضعاً لمملكة آل هابسبورج حتى عام ١٩١٨ .

وفي نفس عام ١٧٧٥ ، وصلت مطالب من تورينو لجوزيف : ذلك أن الملك فيكتور أميدي كان يفكر في غزو جنوه ، وقامع في ذلك حكومة البندقية واقترح عليها تقسيم الجمهورية . ولكن الامبراطور لم يترك نفسه يزلزل في هذا الاتجاه : فلم يكن هناك في إيطاليا ما يفره : فكانت السياسة النموسية هناك قد حصلت وقت الجبل السابق على نتائج لما قيمتها : فكان ليوته ، آخر جوزيف وخليفته من بعد ، يحكم في توسكاليا ، وذلك في الوقت الذي كان فيه كل من ملك نابولي ودوق بارما متزوجين من أختيهما . فلم يكن هناك سوى البندقية التي إتساعها المستمر يمكنه أن يضايق النموسيين ، خاصة وأن تريستا ، القرية منها للناية ، كانت تعيش في ظروف سيئة . ولم يفكر جوزيف في التعامل مباشرة مع البندقية عامة وأنه كان يعتقد أن كل المسائل التي يطرحها أمر السيطرة على بحر الأدرياتيك كانت مربطة كل الارتباط بمشكلات الحرب ضد الدولة العثمانية . ولن يمر وقت طويل قبل أن تعود الحديث عن ذلك .

أما في ذلك الوقت بالذات ، فإن أنظار جوزيف كانت مركزة على الأماكن المجاورة بطريق مباشر للنمسا . ولقد شعروا بأنه كان يمد للحرب حتى أنهم في سويسرا نفسها بدوا يشعرون بالخوف . وتم عقد اجتماع لممثل ثمانية عشر كانتون وتقرر فيه أمر تجديد معاهدة الصلح الدائم مع فرنسا ، والتي كان قد تم عقدها في فرييبورج في عام ١٥١٦ . وكانت فقرات هذه الاتفاقية الجديدة ، التي تم التوقيع عليها في ٢٨ مايو ١٧٧٧ ، هي تقريباً نفس الفقرات السابقة .

وإحفظ الملك بنوع خاص بحقه في تجنيد الجنود على أرض الاتحادية ، وحتى
سنة آلاف سبدي .

٩ - وراثة بافاريا :

حدث في ذلك الوقت بالتحديد أنهم كانوا مشغولين في كل مكان بالتفكير في
أمر وراثة بافاريا في القريب العاجل . ولم يكن لدى المنتخب مكسيمليان
— جوزيف أبناء أو أقارب مباشرين . وكان وريثه الشرعي هو ابن عمه ، منتخب
البلاينات ، والذي كان يمثل قرعاً أصغر من أسرة وينلواخ . ولكن جوزيف
الثاني كان متزوجاً من أخته . ولكي يطالب بحقوقه ، كانت لديه بعض الوثائق
التي كانت تعطيه حقوق ، مثل تلك التي صادفها دائماً تقريباً في مثل هذه
الحالات : وبالإجمال ، فإنه سار على نفس المثال الذي كان فريديك قد أصلاه
من قبل من أجل الحصول على سيليزيا . وهكذا نجد أنه قد أخذ في الاتصال
بمنتخب البلاينات ، شارل تيودور . وعمل على إخافته من ملك بروسيا ؛ وأظهر
له أنه مستعد لكي ينازعه بالصلاح أمر دوقيات برج وجولير . ونجح في الحصول
على موافقته بشأن أمر تقسيم بافاريا ، والذي كان من الصعب الاثري فيهرداً على
عملية تقسيم بولندا الأخيرة . ولكنه كان على المتأمرين أن ينتظروا وفاة المنتخب ؛
وجاءت قبل أمر التوقيع على إتفاقية التقسيم (يناير ١٧٧٨) بقليل . وإستولت
القوات النمسية بسرعة على البلاد ، وأدى ذلك إلى نشأة خصومة حادة بين جوزيف
الثاني وبين والدته ماويا تريزا ، التي أظهرت رفضها كما كانت قد
فعلت دائماً ، لطريقة الفروسية هذه في الاستيلاء على أملاك الغير .

وكان التحالف الفرنسي ، الذي ظهر أنه قد تقدم في عام ١٧٧٠ من طريق
زواج ماري أنطوانيت من ولي هيدفرنسا ، يمثل نقطة هاموتيمية في لعبة جوزيف
الثاني ، وأصبح عليه أن يحصل من ذلك على كل ميزة ممكنة وكان قد قام أخيراً

بقضاء بعض الوقت في فرساي ، ونحت اسم مستعار وتحدث هناك بكل وضوح :
فلكى يحصل على موافقة فرنسا على عملية بافاريا ، وإذا ما تطلب الأمر تأييدها
معد يروسيا ، أعلن أنه مستعد لكي يتنازل لها عن جزء من الأراضي المنخفضة .
مرمرة جديدة تركت للسياسة الفرنسية هذه الفرصة الفريدة من أجل الانتهاء على
ملكة الشمال تمر من بين أيديها . وفي هذه المناسبة قال فريجين أحدي الجمل التي ،
مع البعد ، كانت تثير الدهشة : فإن فرنسا بتكوينها الحالي ، عليها أن تخشى من
التوسعات ، أكثر من خوفها من الطموحات .

وكان شخص آخر غير جوزيف لا يسمه إلا أن يتخل عن مثل هذه العملية التي
كانت ، وبدون المحوثة للتشوط من جانب فرنسا ، تتضمن الكثير من المخاطر ؛
أو كان عليه على الأقل ، أن يؤجل تنفيذها . ولكن الامبراطور كان متفائلا ،
ومتفاؤل بكل عزم وتصميم ، وكما كانوا عليه في فينا . ولذلك فإنه قرر ألا
يلتفت لهذا . وكان لفريدريك الثاني في ذلك الوقت سبعين عاماً . وكان يقضي
أغلب أوقاته ممدداً ، وهو يقاسى من مرض الإستسقاء . ولا شك في أن جوزيف
الحنيد قد فكر في أنه يمكنه أن يشترى حياده ، وذلك نظير أن يتخل له عن بعض
أجزاء من وراثة البلاينات ، على الراين الأدنى .

وكان جوزيف قد أخطأ في حساباته ، من ناحية برلين ، وكذلك من ناحية
باريس . ذلك أن فريدريك لم يكن بالفعل قد فقد نشاطه . وكان مصمماً على
ألا يترك نفسه يقاسى من توسع الدولة النمساوية الذي سوف يقضي على هذا التوازن
الجديد الناتج عن فتوحاته ، ويمد إلى فينا الأمل في الانتقام . وبمجرد علمه
بمدخول القوات النمساوية إلى بافاريا ، بدأ إستعداداته ، وعمل على الحصول على
تأييده ، في ألمانيا وفي الخارج . ولكنه سرعان ما اقتنع بأن الدول العظمى لن
تتحرك : فكانت فرنسا مشبعة إلى حد كبير بالإنجازات السلمية ، ومرتبطة من

ناحية أخرى بتعالفها الرسمي مع النساء؛ أما إنجلترا فكانت مشغولة للغاية بماركها مع رعاياها في أمريكا ؛ وروسيا فمشتغولة بتنمية سياسية توسعها في البحر الأسود، وكان التأييد الوحيد الذي يمكنه أن يعتمد عليه - وعلى أساس مجرد تأييد منوى - هو تأييد وديث منتخب بافاريا الجديد ، ذوق ديه بورت ، والذي احتج رسمياً ، في فيينا وفي رايسبون لدى المدايت حين علم بالاتفاقية النمساوية البافارية . وبدأ فريديريك بأن أردف احتجاجه لإحتجاج هذا الأمر . ثم توصل بعد ذلك إل أن يقوم منتخب ساكس ، والذي كان قد تخاضع أخيراً مع جوزيف الثاني ، بنفس العملية . وأخيراً ، أصر على ضرورة أن يأخذ بلاط فرساي موقفاً : فكان يعرف أنه رغم التحالف فإن السياسة الفرنسية لاتفافق على أن يسهرها جوزيف الثاني ، ولا على أن تسهل له ، وبأية طريقة هذا النشاط المقدس . ولقد أقام فيرجين ماوسمه المقاومة . وأعلن في شهر مارس أن فرنسا سوف تحتفظ بالحياد في حالة نشوب حرب في ألمانيا . ولكنه اضطر ، وطلب من فيينا ، إل أن يوافق على عدم إبلاغ هذا التصريح للملك بروسيا . ولذلك فإن ملك بروسيا قد إقتنع بأنه يجب عليه ألا يعتمد على الوسائل الدبلوماسية العادية من أجل إجبار الخصم على التراجع ، فتوجه مباشرة إل فيينا ، وطالب بإخلاء بافاريا السفلى . وحاول النمساويون المساومة ، وطرحوا إمكانية منح بروسيا تمويضاً إقليمياً ولكن فريديريك رفض العنول في مفاوضات من هذا النوع . وفي شهر يوليو ، أعلن الحرب .

وبدأت الحرب ، كما كان يحدث في الماضي في ظروف مشابهة ، بعملية بوهيميا . وأظهرت ماريا تريزا ، متى كانت دائماً لاتوافق على المبادرات المتطرفة التي يقوم بها إبنها ، تأثرها الشديد من هذه العمليات العسكرية ، ولدى درجة أنها قامت ، بمجرد بدء هذه العمليات ، وبالتفاق مع كارتنز ، بالإتصال بفريديريك ، وطلبت إليه ،

وهو في مركز قيادته ، المودة إلى التفاوض : وكان من الطبيعي ألا يؤدي هذا الطلب إلى شيء ، سوى وضعها مرة جديدة في صدام مع جوزيف . كما أن نداء آخر إلى فرنسا الحليفة ظل كذلك بدون نتائج : فكان من الطبيعي أن يجيب فرجين بأن التحالف كان دفاعياً ، وأن النمسا ، باحتلالها بافاريا السفلى ، قد قامت بعمل عدواني .

وفي أثناء ذلك الوقت لم يحصل فريديريك في بوهيميا على الميزات المباشرة التي كان يأمل فيها . ذلك أن النموسيين كانوا قد اتخذوا موقف الدفاع ، فلم يتمكنوا من زحزحتهم . ولذلك فإن القوات البروسية لم تحاول ذلك إلا بالكاد . وأما وقتهم في البحث عن مواد القنوم من النقص ، وفي القيام بعملية نهب مسكراة . فنشأت من ذلك كلمة «حرب القنوم» *Kartoffelkrieg* ، التي أعطاهما الجنود لهذا النوع الغريب من الحرب . ولم تكن مواجهة دموية قد حدثت بين الطرفين حين وصلت الأوامر في الخريف بالانسحاب إلى القواعد في سيليزيا .

ونتيجة للطلبات ماريا تريزا ، والتي كانت تكتب بانتظام لإبنتها ، ونشرح لها غناؤها ، ونصوماتها مع جوزيف ، ورغبتها في الوصول إلى صلح سريع ، أبلغ فرجين إلى كل من فينا وبرلين عرضاً بالوساطة . أما فريديريك ، الذي غابت آماله بنتائج حملته في بوهيميا ، فإنه وافق ، وبشرط وحيد يتمثل في إنضاج روسيا ، والتي كان مرتبطاً معها بمعاهدة تحالف ، إلى فرنسا . وإحتاج الأمر إلى بعض الوقت حتى تتمكن الامبراطورة من أن تحصل على موافقة إبنتها . وعندئذ أخذ يمثلوا الدول الوسيطة ، وعن طريق مقارنات مباشرة مع الخصمين ، في محاولة لإيجاد حاصر حل وسط بالنسبة لمسألة بافاريا . ولما كان المتحاربان قد أعطيا موافقتها ، تم التوقيع على هدنة في شهر يناير ١٧٧٩ . وبعد ذلك بقليل ، عقد مؤتمر في تيشن ، وهي مدينة بعيدة تماماً عن العاصمتين ، في سيليزيا النموسية .

وعملت الدبلوماسية الفرنسية ، التي كان يمثلها يارون دي بريتي *de Breteuil* وبذلك مجهودها من أجل التقريب بين وجهات نظر فيتا وبرلين ، حتى تم التوقيع على المعاهدة في ١٣ مايو .

ولم تحصل النمسا إلا على جزء بسيط من الأراضي التي كانت قد استولت عليها ، وكان الجزء الأكثر قرباً من حدودها . وهكذا نجد أن فريدريك قد نجح في أن يقلل وبشكل ملموس من الميزة الرئيسية التي كان جوزيف الثاني يبنى بها نفسه من هذه العملية . وسجل في نفس الوقت نجاحاً آخر ، وكان إيجابياً ، وذلك بالحصول على اعتراف بحقوقه في الوراثة — والتي كانوا يعرفون أنها سوف تطرح قريباً — لمقاطعتي آنسباخ وبايروت في فرانكonia ، والتي كانتا من الملكات القديمة لأسرة هوهنزولرن ، وكانتا في ذلك الوقت في أيدي أمراء فرع أصغر .

وأعلنت الدول الوسيطة ، فرنسا وروسيا ، أنها تضمنان هذه الوضعية الجديدة التي تم الاتفاق عليها في كيشن : فكانت فكرة مشابهة لتلك التي كانت ، في عام ١٦٤٨ ، قد وضعت تحت ضمان فرنسا والسويد للحالة التي كانت قد نشأت من معاهدات وستفاليا .

٣ - النمسا وروسيا والبلقان :

كانت السياسة النمساوية ، وتحت رئاسة إمبراطور نشط ، قد بحثت بلا جدوى عن فرصة للتوسع في اتجاه الغرب . ولن يتخلى جوزيف الثاني طوال حياته ، عن هذه المجهودات . ولكننا سنراه الآن يعمل في الشرق ، وفي اتجاه البلقان . وهنا أيضاً ، لن يصل إلى نجاح أكبر .

وكانت الجغرافيا السياسية لأوروبا قد زادت ثراءً منذ بعض الوقت بدولة جديدة ، ظهرت من تحت السيطرة التي كانت تفرزها عليها الدولة العثمانية .

فكانت معاهدة قيتاريدجي ، بساحتها لروسيا بالإحتفاظ بقناصل في الإمارات
الرومانية فقد منحت بشكل معين لهذه الامارات — الأتلاق والبغدان — وجوداً
رسمياً . وبعد ذلك بقليل ، طالبت دول أخرى بنفس الميزة : فصالت عليها
النمسا من إستانبول في عام ١٧٧٤ ، وفرنسا في عام ١٧٧٥ .

وكان لكل من الإماراتين أمورها الخاص ، الذي يفتيه السلطان . وكان لا يبقى
في موقعه ، الواحد والآخر ، إلا في الوقت الذي يتمكن فيه من الإحتفاظ برضاء
سيده . وذلك يعنى أنها كالأتاحت راحة أية مؤامرة في القصر . وأدى ذلك إلى
تغييرهما باستمرار . وكان يحدث في بعض الأحيان أن يحكم الواحد منها في
بوغارست ، ثم يحكم في إرياس ، أو العكس ، أو يحكم كليهما ، وذلك في بضع
سنوات فقط ، فيما بين عامي ١٧٤٩ ، ١٧٦٩ .

وكانوا في غالبيتهم من أصل يوناني ، ومن الذين بدأو حياتهم في إستانبول ،
ومارسوا وظيفة رئيس الترجمة في الباب العالي . وكان أسكندر مافروكوروداتو
Alexandre Mavrocordato ، مؤسس الأسرة أعطت سلسلة من الأمراء للأتلاق
والبغدان ، وكان قد منح لقب المستشار الخاص للسلطان في عام ١٦٩٨ ، أي قبل
معاهدة كارلوفين بقليل ، وهي المعاهدة التي شارك إلى حد بعيد في إنفاذها . وكان
أفراد من أسر جيكا Ghika ، وبرتوكوفان Brancovan ، يتبادلون مع سلالته
حكم هذه الإمارة أو الإمارة الأخرى . وكانوا جميعاً من دعايا « القنار » ، أمه
البطريركية الأرثوذكسية في أستانبول ، وحاشوا في حى القنار الذي توجد فيه
هذه البطريركية ، ولذلك فإن اللغة اليونانية أصبحت لغة مستخدمة في هاتين
الإمارتين ، وعلى الأقل لدى الطبقات العليا . وكان هناك إنجاء في بوغارست ، وكذلك
في إرياس ، للاستناد إلى الجدار الرومى ، وبالذى كان رجال الدين يحافظون دائماً على
علاقات معه ، والذي كانت ديناميكيته في وقت إنقضاء حكم القيصرة كاترين قد

إنه بنوع خاص صوب البلقان ، ووصل كنتاكوزين Cantacuzène إلى رتبة جنرال في روسيا أثناء الحرب ضد الدولة العثمانية نفسها بين عامي ١٧٧٠، ١٧٧٤ . ولم تستمر فترة السلم التي رسمتها معاهدة فيناريديجي بين العثمانيين والروس إلا لبضع سنوات. فبدأت منذ عام ١٧٧٧ صعوبات في القرم ، وتحدثت ، وأصبحت تشكل تهديداً دائماً للسلم . فبعد طرد الأتالي لأحد الخانات ، إحتل مكانه آخر ، هو شاهين جرائ ، الذي كان تحت حماية روسيا ، وإستلم معونات من سان بطرسبرج . ولكن سرعان ما عرف بدوره نفس مصير سابقه ، بعد أن منح اليونانيين والأرمن حقوق المساواة مع المسلمين . وعندئذ شعر السلطان بضرورة التدخل ، ووصفته خليفة ، ولكي يحمي مصالح الإسلام . وكان الأسطول قد ترك إستانبول مع قوة نزول ، حينما طلب السفه الفرنسي ضرورة العمل من أجل الوصول إلى حل وسط . فتم التوقيع على إتفاقية جديدة ، مستقاة من معاهدة فيناريديجي ، على ضفاف البوسفور ، في عين على قواق ، يوم ٢١ مارس ١٧٧٩ وتبادل الروس والعثمانيون فيها الوعود بعدم التدخل في شؤون القرم . وبنوع خاص — وكانت هذه هي الفقرة الأساسية — حصلت السفن التجارية الروسية على حق عبور البوسفور والدرديل ، وبشرط ألا تزيد عن حمولة معينة ، أي ألا تهدد بأن تستخدم لأغراض عسكرية .

ولم يجد جوزيف الثاني فرصة لكي يقول كلمته في مفاوضات هذه الاتفاقية . ولكنه كان يتابع الأحداث عن قرب ، وإعتقد أنه يرى العنف المتزايد لحكومة إستانبول . ولذلك فإنه قرر ، وفي أثناء الشتاء التالي ، أن يمدد بواسطة إتحادات مع كاترين لتسوية لمجموع المسألة العثمانية . فأبلغ بطرسبرج برغبته أن يتقابل مع القيصرية . وبالموافقة الإيجابية من جانب الروس قرروا موحداً في عام ١٧٨٠ في موهيليف ، في روسيا البيضاء ، على الدنبر . وبطبيعة الحال ، لم يعلوا ماريا

تريوا بذلك . وكانت هذه البودجوازية لا تحمل سوى التفوز بالنسبة لأخلاق وعادات الامبراطورة جارتها ، وأظهرت عنانها لهذه المحاولة الجديدة التي يقوم بها لإنهاء . ولكن ذلك لم يكن كافياً لجعل جوزيف الثاني يتراجع عن مشروعه . ولذلك فإن اللقاء قد تم في الوقت المحدد . وكان لقاءً مليشاً بالود . ومع ذلك فقد ترددوا ، من هذا الجانب ومن الجانب الآخر ، في معالجة المشكلة التي كانت في مركز المشغوليات المشتركة ، المشكلة العثمانية . وكانت كاترين تحاول معرفة ما يلحق في رأس الحشم ، وتطلب إليه بسداجة واضحة ، وهي تعرف الصعوبات الموجودة بينه وبين روما ، عما إذا كانت الدولة البابوية لا تدخل في هذه المحاولة وأجابه جوزيف بأن إستابول ، روما الأرثوذكس ، كانت بطبيعة الحال أكثر سهولة في غروها . ولم تبدأ المحادثات بالنسبة للمسائل الأساسية إلا في بطرسبرج ، التي وافق جوزيف بكل تصريح على أن يصحب كاترين إليها . واستمرت المحادثات لمدة ثلاثة أسابيع ، ولم تنتج عنها أية نتائج واضحة سوى تبادل الوعود الودية . ومع ذلك ، فإن جوزيف كان مصمماً على العمل . ولما أجبره موقف والده على أن يخفي لعبته ، استمر في المفاوضات بحذر ، وعن الطريق الدبلوماسي .

وجاءت وفاة ماريا تريوا في ذلك الوقت (٢٩ نوفمبر ١٧٨٠) ، لكي تحوره ، وتسمح له بالنهوض ببلانية أكثر . وأصبح من الممكن في ذلك الوقت عقد الاتفاقية في بطرسبرج بين الأمير بوتيمكين Potemkine وبين كوبزل Cobenzl ، ولم تكن هناك معاهدة رسمية : فكانت إعتبارات المراسم لا تسمح ، خاصة وأن كل من الشخصيتين الإمبراطوريتين كانت لا ترغب في أن تترك الأولوية للطرف الآخر . فتم تبادل خطابات ، في شهر مايو ١٧٨١ ، تم فيها تسجيل الوعود المتبادلة . وبالإجمال ، فإن الأمر كان يتعلق بتحالف عام دفاعي ، معقوداً لمدة ثمان سنوات ، ومنه تطلقاً بوعده بالمساعدة الممكنة في حالة وقوع صيحات مع الإمبراطورية

العثمانية . وبطبيعة الحال لم تبلغ البلاطات الاوروبية الاخرى بذلك .

وكانت كاترين أكثر واقعية من زميلها ، وتعرف جيدا ما كانت ترغب في أن تحصل عليه . وكانت قد أثمت أمهلا عظيمة : فكانت مصممة على عدم الوقوف في منتصف الطريق . وكانت قد فكرت وأعينها مركزة على إستانبول ، في مشروع ضمهم لتروطين الأهالي ولإزاحة الأراضي في جنوب الامبراطورية ، وفي المناطق التي كانت ترونها أنهاوا فولجا السفلى ، والدون والدنييز . وقامت بتنظيم الهجرة ، ورحبت بالمعمرين من كل الجنسيات ، وبخاصة من ألمان البلاتينات .

وكان هناك ما هو أفضل من ذلك . فحين حصلت في شهر مايو ١٧٧٩ على حفيد ، أسمته قسطنطين ، وضربت أحد الأنواط فيها بعد باسمه ، قسطنطين باسيلوس ، الهليني . وهكذا أكثروا الحديث ، في الوسط المحيط بها ، عن عملية إعادة إحياء الإمبراطورية اليونانية . وكان يسعدنا ، هي نفسها ، أن تحتفظ بهذه الفكرة ، وخاصة إذا ما كان الطفل سيكون له مستقبل باهر : وأحاطته بمجموعة من الأصقاء ومن رجال الحرس الشخصي إستحضرتهم من بين الثيبيان اليونانيين ، وشكلت منهم سرية خاصة . فكان من حق فريدريك الثاني ، وكان دائم السخريه ، أن يتحدث عن الأهمال الطفولية التي تقوم بها القيصرية . وكان نفوذ روسيا قد استمر في التزايد في الشرق منذ أحداث عام ١٧٧٠ . وأخذت القوميات المسيحية في البلقان تتجه بأنظارها ، أكثر وأكثر ، صوب سان بطرسبرج . وكانت دبلوماسية القيصرية تتحرى على أمانهم ، وبمحافظة طيبة .

وفي عام ١٧٨٢ منحت شتورن التتريم فرقة لصدام مرغوب فيه عند العثاليين . وكما حدث في الماضي ، واجه الخان ، والذي تحميه روسيا ، ثورة من رعاياه ، الذين قاموا بجزله . فظهر تصميم كاترين على أن تنتهي من ذلك الاستقلال الجريئ

التنازل، والذي كانت إستاتبول قد ضمنته، وفي إنتظار ضمان موقف جوزيف الثاني، إستعدت لكي تتدخل بالسلاح . وفي ذلك الوقت بالذات ، أى في شهر سبتمبر ١٧٨٢ ، أفضت إلى حليفها بتلك الخطوة التي إستفظ لها التاريخ بإسم « للشروع البرناني » . فبتم إنشاء دولة مستقلة من الإمارتين الرومانيتين ومن بسارايا : وسوف يسمونها إسماً مشتقاً من التاريخ القديم : « داسيا » . وتأخذ النمسا ، كما ترغب ، الأقاليم المجاورة لحدودها ، الصرب ، وخطاشيا ، والبوسنة ، والمهرسك ، وحتى ألبانيا واليونان في حالة الضرورة . أما روسيا فإنها لا تطالب تقريباً بأى شيء لها ، مجرد قطعة من الأرض أمام حدود الدنيستر . ومع ذلك فإذا ما وصل إنتصار أسلحتها إلى حد تسليم إستاتبول ، فإن كاترين تعتمد على أنها ستحصل من جوزيف على كل معونة ممكنة من أجل إعادة إنشاء الإمبراطورية البرنانية القديمة ، مع حفيدها قسطنطين ، كملك عليها .

وكان في ذلك الكثرة بل وأكثر مما كان جوزيف قد فكر فيه في أى وقت مضى . وكان في وسع كاترين أن تعد بأن الدولة الجديدة لن تتحد أبداً مع إمبراطورية القيصرية : ولكنه أظهر أن المشروع قد أغراه وأنه يخاف منه في نفس الوقت . ذلك أنه كان لا يجهل أنه ، في حالة وقوع صدام مع النمانيين ، سيكون هناك خطر يتمثل في تدخل فريدريك الثاني ، وربما حتى مؤيداً من جانب فرنسا . وكان فيجن ، وزير خارجية لوى السادس هنرى ، في شدة الانتباه بطبيعة الحال لكل ما يمكنه أن يحدث ضد النمانيين . ولكنه كان واقعاً من إمكانيات مقاومتهم ، وكان يعرفهم جيداً ، خاصة وأنه كان قد عاش بينهم لفترة طويلة . وكان خليفته في إستاتبول سان برست Saint - Priest ، على نفس درجته في القسوة في أحكامه : « إن جيشهم وأسطولهم هي مجرد مظاهر ، نتيجة الجهل العام

لفنون الحرب ، والضعف الجسدى والمنوى السلطان ، وخراب مالىتهم ولتمفن الذى لا يمكن إصلاحه عند كبار ضباطهم . وكانت طلباته فى عام ١٧٨٣ هذا أكثر تصرعاً من أجل عقد الصلح مع إنجلترا . وأعلن بكل قوة أنه ضد كل سياسة لإستخدام العنف فيها كان مصدرها ، سواء من فرساي أو فينا ، لتتحدث عن إمكانية إنهاء التحالف . وأظهر تصميمه مع حكومة إستابول ، وأوصاهما بكل وضوح ، وبكل إصرار ، بضرورة إدناء روسيا .

وهكذا أجاب جوزيف على القيصرية بضرورة الحصول على حياد فرنسا ، أو حتى إشراكها بطريقة نشطة . ونصح بمنحها نصيباً من الحلوى ، مصر ، التى كانوا يعلنون ميلها اليها . فوافقت كاترين . ولذلك فإنه كان من الممكن البدء فى العمل قبل نهاية العام . وعاد الحان إلى القرم على رأس فيلق روس ، وإستعاد عاصمته دون أن يقرم بالحرب . وترددت الحكومة النمائية فى الرد على هذا التحدى ؛ خاصة وأنها قد حدثت من أن النمسا سوف تأخذ جانب روسيا ، فى حالة وقوع حرب . وفى مثل هذه الظروف ، كانت فرنسا هى التى ستلعب دور الحكم . ولقد قام سفير الإمبراطور بإختيار مواقع الاقدام ، ورد عليه فيرجين بصراحة كاملة : « لا توجد فى أوروبا دولة واحدة لن تضحي بأخر رجل منها وآخر مليم منها لمنسح تحطم الامبراطورية النمائية » . ورفض الاستماع حين حاولوا أن يتقدموا إليه بشأن مصر . وفى هذه الظروف سوف تنقش الأذمة مؤقتاً ، فى الأيام الأخيرة من عام ١٧٨٣ ، بمضوع النمانيين لمطالب الروس . وطبقاً للاتفاقية التى تم التوقيع عليها من إستابول ، فى ٨ يناير ١٧٨٤ ، ونتيجة لتدخل السفه الفرنسى لدى السلطان ، أصبح خان القرم خاضعاً لقيصر روسيا .

و كانت كاترين ، فى واقع الامر ، قد خاب أملها : فكانت تبحث عن سبب

إعلان الحرب ، ولم تجده . فلم توافق على ذلك إلا بشكل مؤقت ، وأدخلت
سيفها في غمده . ولكنه لم تمر خمسة أشهر على موافقة العثمانيين حتى أشهرته من
جديد : ذلك أن أحد الضباط النصارى ، والذي كان مكلفاً بمهمة من طرف الخان ،
تم إغتياله في الأراضى العثمانية . فهددت ، وجمعت قواتها ، وسلست قيادتها لمشيقها
وزيورها بوتمكنين . وتم إحتلال كل إقليم القرم في عدة أسابيع . وعندئذ إستقال
الخان ، ووضع نفسه تحت تصرف القيصرة ، التي أبعدته عن اللعبة ، ومنحته
معاملاً . ولن يمين خلفاً له . ولذلك فإن إحتلال بلاده سوف يتحول إلى مجرد
عملية ضم بسيطة . وإبتداء من هذا الوقت لم تعد القرم خاضعة لسيادة السلطان ،
مثلها في ذلك مثل قوبان ، الأقليم الواقع على الساحل الأيمن لبحر آزوف ، إلى
الشمال من القوقاز .

وشعر جوزيف بأن عليه أن يبحث ، ودون أن يشهر سيفه ، وكما كان قد
حدث بعد فيناردجى ، على نجاح يوحنه أمام الزاى العام ، مما كان الروس قد
حصلوا عليه لأنفسهم . وكان يكفيه في شهر فبراير ١٧٨٤ مجرد إلقاء نظرة
عسكرية لكي يحصل من حكومة السلطان على نفس الميزات التي كانت كازين قد
حصلت عليها منذ خمسة سنوات ، وهي حرية المرور في المضائق لسفنها التجارية .
وكان نجاحاً من أجل الكرامة فقط : خاصة وأن النموسيين لم يكونوا يشتركون
في التجارة البحرية لشرق البحر المتوسط إلا بدرجة ضعيفة . وكانت فرنسا ، ورغم
الوعاظ التي كانت تتمتع بها في إستابول ، لا تزال تطمح للحصول على مثل هذه
المنفعة . وحين تحدثت ، بعد ذلك بوقت ، عن مثل النمسا وروسيا ، أجابوها
بإقتسام : وإذا كان الروس قد أخذوا متارداتها ، فليس هذا سيئاً يسمح لأعدائنا
بالجى . لسرقتنا كذلك .

٤ - الأراضي المنخفضة ومضيق الاستكوت :

كلما زاد فشل جوزيف الثاني ، وقده آماله ، كلما زاد شعوره بالرغبة في ضرورة عمل شيء : زيادة قوة المملكة بشكل أو بآخر ، وأن يترك ، في أية حالة كانت أئراً واضحاً لحكمه . وكما كان بعد المسألة الفاشلة لوراثته بافاريا ، قد استدار صوب الشرق ، نجهة الآن ، وبعد « المشروع اليوناني » وإجهاضه ، قد عاد إلى اتجاه الغرب . ولكي يحصل على بافاريا ، وضع خطة جديدة تماماً ، واعتقد أنها لا تشتمل على مخاطرة بالحرب : وكانت تشتمل في أن يعرض على المنتخب مبادأة بلاده بنظر الأراضي المنخفضة - هذه الأراضي المنخفضة التي كانت ملكيتها ، بالنسبة إليه ، تمثل ضعفاً لدولة النمسا ، بسبب بعدها وصعوبة الدفاع عنها . أما المنتخب شارب تيردور ، الذي علم بهذا العرض ، فإنه لم يرفضه : فكانت فكرة الذهاب لكي يحكم في بروكسل ليست سيئة بالنسبة إليه . ولكنه كانت هناك عقبة ، وهي نفس العقبة التي كانت موجودة في المرة الأولى : ذلك أن وريثه ، دوق ديه بونت ، قد أكد أنه ، بالنسبة إليه ، متمسك كل التمسك ببافاريا . وكان في ورسمه أن يشير ضد جوزيف بلاط فرساي ، والذي كانت له مكائته وسمعته فيه . حقيقة أن الإمبراطور كان يعتقد في أنه يعرف الطريقة التي يحصل بها الحكومة الفرنسية تتخلل عن الموضوع : فيتنازل لها ، إذا ما اقتضت الضرورة ، عن المقاطعتين الأكثر قرباً من حدودها ، أي الأكثر قرباً بالنسبة لرغبتها ، هينوت ولكسببورج .

فهل سترك فرنسا نفسها تنضج لمثل هذا الإغراء ؟ لقد تحدثوا عن ذلك كثيراً في فرساي . ولم تكن ماري أنطوانيت هي الأخيرة من بين من عبروا « بنعم » التي سوف تخضع مصالح فرنسا ومصالح النمسا في نفس الوقت . ولذلك فإن فيرجن ، والذي كان دائماً معارضاً ، من حيث المبدأ ، لسياسة التزويج والضم ،

بدا على أنه أكثر ترددا عما كان عليه في المرة الأولى . وشعر باستحالة الرد على الإقتراح النمسي برفض مجرد . ورغم أنه كان في أعماقه ضد كل محاولة تتضمن عنائرة بالحرب - منها ظهرت درجة إغراء الموضوع - فإنه وجد أن من الضروري أن يجد ذريعة قبل أن يجيب بالنفي . ولذلك فإنه فرض شرطا ضروريا موافقة الهيئة الجرمانية وملك بروسيا على المشروعات النمسية . ولم يكن هناك أحد ، في فرنسا أو غيرها ، يجهل علم الثقة الواضحة التي كانت مستمرة في التحكم في العلاقات بين فينا وبرلين . وكان فردريك قد عقد لثوره في ذلك الوقت إنغاضيات مع أمراء ألمان آخرين ، كانوا ينشون من وقروح تغييرات في الوضع القائم ، وكانوا قد كويلوا منذ بضع سنوات ، ونتيجة لنفاد حاكم بادن ، دوابلة الأمراء ، كوع من الإتحاد ، له ميل معاد للنمسا بشكل واضح . وفيما بين الأمراء وبعضهم ، وبخاصة بين منتخب ساكس ومنتخب هانوفر ، ملك إنجلترا ، سوف تعقد في القريب معاهدة مشاركة ، في برلين .

وفي هذا الوقت (٢٣ يوليو ١٧٨٥) ، إنتهت تلك الأزمة التي كانت قد بدأت بالمبادرة الجديدة لجوزيف الثاني . ووجد فيرجن أنه لا يمكنه أن يتفاوض من معارضة ذلك الجزء من الرأي العام ، والذي كانت تدعمه الإحتجاجات العالمية لتوق ديه بوت . أما الإمبراطور فإنه تراجع أمام تلك الضجة التي كان فردريك قد أثارها في ألمانيا ضد مشروعه . وكانت النتيجة الواضحة لتلك العملية هي أنها قد وجهت الضربة الأخيرة لذلك التحالف الفرنسي النمسي ، والذي كان بالفعل قد تعرض بشكل خطير بتجربات فرنسا في عام ١٧٧٨ . ولذلك فإن أوساط العاصمة النمسية سوف يظهرون منذ ذلك الوقت تشككهم فيه ، مثلهم في ذلك مثل أولئك الموجودين في فرنسا ، وفي باريس .

ولم يكن جوزيف الثاني قد عرض السلم المعطوف في أثنائه عام ١٧٨٤ و

١٧٨٥ بمشروعات البافارية وحدها . بل إنه قد أثار القلق بدرجة أكبر عند حلفائه في الغرب ، بإعادة طرحه لمسألة الوضعية الدولية للأراضي المنخفضة ، والتي كانت قد تمهدت بمفاوضات مونستر وأوترخت . فعند شهر نوفمبر ١٧٨١ ، وبدافع من جانبه وحده ، وبدون إستشارات مسبقة مع الأقاليم المتحدة ، أنهى نظام «الحواجز» . وأبلغ بذلك حكومة لاهاي الذي جعلها تقرر أن تهدم مواقعها الحصينة الخاصة بالأراضي المنخفضة . وحاول مجلس الأقاليم المتحدة أن يناقش ، ولكن بلا جدوى : فكانت اللجنة التي إستخدمها وزراء الإمبراطور على ذلك الشكل حتى أنهم لم يجدوا طريقاً آخر سوى الموافقة وسحب حامياتهم .

وفي شهر أغسطس ١٧٨٤ كانت مشكلة الأسكوت وأمر إغلاقه هي التي جاءت بمبادرة من جانب جوزيف لكي تنهضها بشكل حثيف . فتم إبلاغ الهولنديين أن النهر سوف يصبح ، من ذلك الوقت على أنه «مفتوحاً تماماً وحرراً» وأن أي اعتداء على العلم النسوي سيجر إلى الحرب مباشرة . وكان الإنفعال ضيقاً في لاهاي وفي أمستردام ، وأقل من ذلك شيئاً ما في قرساي ، خاصة وأن ملك فرنسا كان هو الضامن لمعاهدات وستفاليا ، والتي كانت قد جعلت من أمر إغلاق الأسكوت أحد فقرات القانون العام . وبالرغم من التحالف النسوي ، فإن فيرجن أعلن بوضوح أنه في جانب الهولنديين ، ووعده فردريك بتأييده الكامل . وأصبحوا ينشون ما هو الآن ، في شهر أكتوبر ١٧٨٤ ؛ فوقعت حادثة حدود جملتهم يفكرون في قطعة دبلوماسية ، وتم تجميع قوات فرنسية في الفلاندر وفي الأراس . وقام جوزيف الثاني ، من جانبه ، هو أيضاً ، باتخاذ احتياطات عسكرية : ولكن سرعان ما ظهر على أنه لا يفكر في حقيقة الأمر إلا في وسائل التراجع ، دون أن تأثر هيئته بذلك تأثراً كبيراً . وبعد قبول وساطة فرنسا ، تم التوقيع على معاهدة في فونتينبلو (٨ نوفمبر ١٧٨٥) ، تنحل بها الإمبراطور ،

وفي نظير تمويض ، من بعض حقوق مدعاة ، كان قد أعلن نيته على المطالبة بها ، بشأن مدينة مايسترش ، ولن يتحدثوا عن الأسكوت ، الذي سوف يظل دائماً مغلقاً ، وكما كان في الماضي .

٤ - مشروعات تقسيم الامبراطورية العثمانية :

بعد ذلك القتل بشأن بافاريا وبلجيكا ، إستدار جوزيف مرة أخرى صوب الشرق . وعملت كاترين الثانية ، التي تعلمت كيف تتعرف عليه ، على إغرائه من جديد: فدعته إلى مقابلة يقياحان فيها في أمر المشكلة العثمانية الازلية . وإختارت لقاء ميناء خرسون الذي كان قد أنشئ أخيراً على ساحل البحر الأسود ، والذي كان عليها أن ترويه في نهاية رحلة لها في تلك الاجزاء التي كانت قد إنتزعتها من التتار والاستبس ، وضممتها إلى إمبراطوريتها ، فكانت هذه الرحلة الشهيرة التي أحاطتها بكل مظاهر الفخامة لكي تظهر لشعبها تصميمها على أن تسير على طريق بيزنطة . وفي أثناء الطريق ، تمت لها مقابلة مع إستانيلاس أوجست ، ملك بولندة ، وتباحثت معه في كاتيار ، وقت عبورها لنهر الدنيبر ، وأكدت بذلك وفاقها الكامل معه أمام أمين أوروبا .

وفي خرسون ، تحدث التآمران ، الفسوى والروسى ، بشأن المشروع اليوناني . ولكن جوزيف أظهر تردده . وكان هذا الحاجج الكبير قد تعب من أن يقوم بدور « منشط الحفلات » . وجاء بنفسه هذه المرة . وبعد أن كان قد هدد أوروبا بإشعال النار فيها ، ونصح بضرورة الحذر . ثم قام بعد ذلك ، ونتيجة لوصول أنباء سيئة من الأراضي المنخفضة ، وحيث كانت الثورة مفتعلة ، بالعودة إلى فينيا بمرحة . أما العثمانيون ، فقد تهبوا لهذه المقابلة ، وكانوا قد تعلموا من تجربتهم السابقة ، ففرقوا ما كان ينتظرم . وكانوا يفضلون هذه المرة ، أن يسبقوا الخصم . فبدأ دورهم لكي يقدموا الروس إنذاراً: وطلبوا

فيه بنوع خاص التخلي عن الحماية التي كانت كاترين تمارسها منذ بضع سنوات على خان جورجيا ، التابع للسلطان . وبعد رفض هذا الإنذار ، سجن السفير الروسي في قلعة الأبراج السبعة (أغسطس ١٧٨٧) ، وبدأت الحرب مريصاً .

وسيكون دور فرنسا ، في أثناء هذه الأزمة الجديدة ، باهتاً للغاية . وكان فهدجن قد توفي للتو . وأخذ مكانه لإدارة الشؤون الخارجية الكويت مومجوران *de Montmorin* ، والذي كان حريصاً ، ورهيباً . ولم يكن من السهل التفكير في أمر التدخل في الشرق ، خاصة وأن العلاقات الفرنسية الروسية كانت قد دخلت منذ بعض الوقت في مرحلة صداقة . وكانت هيبة القيصرة الصديقة للفلاسفة قد تزايدت في تلك البلاد التي كانت روح الثورة المقترية تزايد فيها ، ولم يكن من المطروح بالنسبة للحكومة أن تتخذ موقفاً معادياً لطمرحاتها الشرقية . وكان سفيراً جديداً ، هو الكونت دي سيجور *de Ségur* ، على وشك الذهاب إلى بطرسبرج من أجل التفاوض في شأن معاهدة تجارة ، لتحل محل معاهدة ١٧١٧ ، والتي كانت قد ظلت بدون نتائج . وكانوا قلقين من ذلك التقدم الذي حققه الانجليز ، والذين كانوا ، كمنفعة للإمتهيازات والميزات التي حصلوا عليها ، قد وصلوا إلى حد التمتع في الإمبراطورية القيصرية بإحتكار تجاري فعل . وتم عقد الاتفاق في نفس الوقت الذي بدأت فيه العمليات العسكرية على منفاف البحر الأسود . وكانت التسهيلات الجديدة التي منحت للتجار الفرنسيين ، وفي كل من بحر البلطيق والبحر الأسود ، بمعاهدة ١١ يناير ١٧٨٧ ، محكومة بتطبيق قسرة الأمة الأكثر وداً .

وبدا هذا الاتفاق على أنه يمد الطريق لتقارب سياسي بين فرنسا وبين روسيا . أما سيجور ، الذي صاحب القيصرة في رحلتها إلى القرم ، فإنه تحدث معها بشأن تحالف رباعي — فرنسا ، وبولندا ، والنمسا ، وروسيا — ضد بروسيا والجمهورية .

ولكن الصعوبات ظهرت في فرساي ، وحيث لم يكونوا مستعدين لكي يضمّنوا
لنمسيويين والروس أمر إبتلاك الأجواء التي حصلوا عليها من يولند . وهذا
المشروع لتتحالف الرباعي لن يتقدم خطوة واحدة ، حين يستدعي سيهور إلى
فرنسا ، ويترك مركزه في شهر أكتوبر ١٧٨٩ .

ورغم هذه المغازلة الفرنسية الروسية ، ظل المدربون العسكريون الفرنسيون
دائماً في إستانبول ، ويعملون لحساب الحكومة العثمانية . وكان سلاح المدفعية قد
أرسل إلى أوتشاكوف أحد الضباط ، وعدداً من ضباط الصف والجنود والعمال
المتخصصين . وسيشرف على الدفاع عن الموقع أحد الضباط المهندسين ، الكابتن
لافيت Lafitte ، الذي كان قد نظم في إستانبول مدرسة لتحصينات ، وأمام
إحتياجات كارين ، إضطرت الحكومة الفرنسية إلى أن تحمل المشكلة ، وقامت في
شهر يناير ١٧٨٨ بإستدعاء كل أولئك الفرنسيين الذين كانوا قد تعاقدا على
خدمة السلطان . ولقد قام فراسيون آخرون ، ومن النبلاء الفقراء — نتيجة
لتزويجهم في أسرهم بين آخرتهم وعدم حصولهم على ميراث في الأرض — والذين
كانوا يبحثون عن المغامرات ، بالذهاب ووضع سيفهم في خدمة القيصرة :
واستمر عددهم في الزيادة ، وبخاصة حين جاءت أحداث عام ١٧٨٩ و ١٧٩٠
وتسببت في حركة الهجرة .

أما فيما عدا ذلك ، فإن الأفكار كانت متقدمة للغاية في فرنسا بشأن روسيا
وطموحاتها . وكانت مشكلة إمكانية تقسيم الامبراطورية العثمانية قد توفقت
هناك ، كما كان قد حدث في القرن السابق ويجد أن أحد الكتاب الشهيرين ، وهو
فولتي Volney ، وكان من المتخصصين في شئون الشرق ، ينتق وجهة النظر
الروسية فيما كتبه في عام ١٧٨٨ . « تأملات في الحرب بين الروس والأتراك » .
ولكنه سيمطّن ما يواجه المتناقضات ، ذلك أن البنية التقليدية ، والمخافة

بمصادقة السلطان ، وحتى في حالة رفض البعض لها ، سنظل هي دائماً القانون الأساسي لدبلوماسية البوربون .

ولقد فوجئ الروس بتلقائية الهجوم العثماني وعنفه ، فواجهتهم في أول الأمر صعوبات ضخمة ، خاصة وأن جيوشهم السويديين ، كانوا قد دخلوا ، وباتفاق مع العثمانيين ، في الحرب في نفس الوقت .

وكانت السويد تمر من جديد في مرحلة صعوبات ، وإن كانت مختلفة تماماً عما عكست عليه في أوقات جوستاف أودلف أو شارل الثاني عشر. وفي وقت جوستاف الثالث ، الذي كان قد وصل إلى العرش في عام ١٧٧١ ، كانت الحالة الداخلية هي المسيطرة . وكانت حادثة الفوضى الفعلية قد سيطرت على المملكة ، والتي كانت مهابة فيها معنى ، وجعلتها الآن مهددة بنفس «صير بولندا . وكانت روسيا ، وبروسيا ، والنمرك تراقب تطور الأزمة من قرب . وقام جوستاف ، مثل الكثير من أسلافه ، بالاستناد إلى تأييد فرنسا ، والتي استمرت منذ توليته العرش في منحه المعونات ، وفي مساعدته بقوة على أن ينتصر على خصومه الداخليين ، وعن طريق إتصالها العاجلة في بطرسبرج وبرلين وكوبنهاجن ، منعت في عام ١٧٧٣ تدخلًا عسكرياً مهدداً . أما السياسة الانجليزية فإنها ، حين وجدت نفسها من جديد في معارضة مع فرنسا ، اختارت بطبيعة الحال موقفاً عند الحكومة الموالية لفرنسا . ولعب النخب الانجليزي دوراً ، في إستوكهلم ، كآدان يكون حاسماً ، وكتب سفير لوى السادس عشر ، في شهر يناير ١٧٧٦ : « إن خصمي الرئيسين ، الوزيرين الانجليزي والبروسي ، يوزعان كميات ضخمة من الأموال ، تجبر أموالاً من أن تولاها . وسرطان ما تزيد الحكومة الفرنسية من مجهودها المال .

وبعد بضعة أشهر ، قام جوستاف الثالث ، وفي أثناء إحدى رحلاته للغرب ،

بالتوقيع في باريس على ميثاق تمكنت دولة السويد به من أن تعطي إضطباعاً بأنها تتفاوض من جديد مع فرنسا مفاوضة الداند . لحصلت على وعد بالمعونة العسكرية والبحرية في حالة وقوع حرب ضد روسيا أو الدانمارك ، وتحصل علاوة على ذلك على إحدى الجزر الصغيرة في بحر الانتيل ، وهي سان بارتيلوميو ، ودون التحدث عن المعونات السنوية ، والتي كانت قيمتها تزايد باستمرار ؛ وفي نظير ذلك ، تم الاتفاق على أنه إذا كانت فرنسا تواجه صعوبات وتطلب المعونة من حليفها ، فإن السويد تضع تحت تصرفها اثنتى عشر سفينة حربية (١٩ يوليو ١٧٨٤) . وتدعم موقف جوستاف بهذا النجاح الدبلوماسى ، وأفاد من ذلك الصدام الذى نشب بين العثمانيين وبين الروس على نهر الدانوب ، ودخل بدوره فى الخط فى أثناء صيف ١٧٨٨ . وأدى ذلك إلى حرب استمرت لمدة عامين ، بدأت بهزائم سويدية فى فنلندا ، وتحقت وزادت خطورة بتدخل الدانمركيين إلى جانب الروس ، ثم انتهت ، بعد خروج الدانمركيين بسرعة خارج اللعبة ، بصلح أيبس ، تم التوقيع عليه فى فوريلاى فى ١٤ أغسطس ١٧٩٠ . وعلى أية حال ، فقد شرعت كاترين فى إحدى اللحظات بأنها مهددة فى حاصبتها بعملية إنزال قوات سويدية .

أما بريطانيا ، فإنها ظلت ، وبكل تصميم ، مبتعدة . وكانت علاقتها مع روسيا قد أصبحت أقل ترابطاً ، منذ أن كان قد نتج عن زيادة منتجاتها الصنعية تقليل واضح فى عملية إستيراد الحديد الأورال ، أى منذ سنوات ١٧٨٠ . ومن ناحية أخرى ، كانت غير مرتاحة لامر عقد معاهدة تجارية فرنسية روسية ، وكانت قد وصلت إلى مرحلة من تاريخها مالت فيها إلى أن تهم بشئون البحر المتوسط أكثر من إهتمامها بشئون بحر البلطيق ، خاصة وأن طريق الهند بدأ لها منذ ذلك الوقت على أنه هو الشريان الجوى لإمبراطورتها . وسوف نشعر بذلك

كل الشعور ، مع بيت ، حل رأسها . ولن يتأخر الوقت كثيراً عن أن تظهر في مياه الشرق الدلائل الأولى على تلك المنافسة الإنجليزية الروسية ، والتي سوف تملأ القرن التاسع عشر .

وفي أثناء ذلك الوقت ، كانت الحرب الجديدة التي دخلت فيها روسيا منذ الدولة العثمانية قد بدأت بداية سيئة : فكانت القوات البحرية التابعة لكاترين في البحر الأسود قد تعطلت كلها تقريباً بماضفة قبل أن تقدر على القيام بأى شئ . . . وصل البر ، كان المجهود مركزاً بالدجة الأولى منذ موقع أوتشاكوف . واستمر الحصار ، الذي قاده في أول الأمر بوتيمكين ، لمدة تزيد على ستة أشهر . وارتضى في شهر ديسمبر ١٧٨٨ بعمليات قسوة وفظاعة : وسيحدثون عن عشرة آلاف جندي وستة آلاف من المواطنين ذبحتهم القوات المنتصرة .

ولقد علم جوزيف الثاني ، من سان بطرسبرج ، بأنهم كانوا على مستوى مواجهة الأحداث . ولذلك فإنه لم يضطر إلى التدخل . هذا علاوة على أنه كان عليه أن يواجه مشكلات أخرى ، وسريمة القاية ، وأن يجد حلاً لها . وكانت زيادة إعجاب الإصلاح الذي أعلنه الإمبراطور قد أدت إلى أن تقف في مواجهته قطاعات من الأهالي غير النموسيين في الإمبراطورية . وأخلت الإضطرابات شكلاً يشير القلق ينزع خاص في الأراضي المنخفضة .

ولم تكن مسألة مواقع ، الحاجر ، ومسألة فتح مصب الأسكوت . في واقع الأمر ، هي وحدها التي كانت تجتلب الإهتمام إلى هذه المنطقة الحساسة من أوروبا ، في حشية نشوب الثورة الفرنسية . وكانت الأزمة الجديدة التي نشبت في عام ١٧٨٨ ، في حد ذاتها ، قليلة الأهمية ؛ ولكن تطورها كان كبير الدلالة ، فلقد رأوا فيها بوضوح قوة اللغة الإنجليزية في التابعين لهم الذين يظهرون بعض الاتجاهات التحررية ، وكذلك في نفس الوقت تلك الهيناميكية البروسية ، والتي بدت قوة فرنسا ، حين

ضعفت بصعوبات داخلية متزايدة ، على أنها غير قاهرة على إحداثها .
وفي لاهاي ، كان الحوب « الجمهوري » في صراع مع أنصار صاحب الدولة
ويليام الخامس ، والذي كان يميل إلى أن يستند إلى بروسيا ؛ نظراً لكون ملك
بروسيا ، فريدريك ويليام الثاني ، صبراً له . ووصلت الأحداث إلى تلك النقطة
حتى أنه نتيجة لنداء صاحب الدولة ثم إرسال قوات بروسية إلى حدود هولندا .
وشعروا في فرساي بضرورة أخذ إجراءات مضادة : فتم تنظيم معسكر في جيفيه ،
وأعلنوا أنه في حالة وقوع تدخل بروسي ، سيتلوه في التلو تدخل فرنسي . ولكن
فهيجن كان قد توفي ، وكانت وزارة بريين *Brienne* ، بدون سلطة ، ولذلك
فإنها لن تقوم بشيء بعد هذا التهديد . أما البروسيون ، فإنهم دخلوا إلى هولندا ،
وساعدوا صاحب الدولة بالتالي على تدعيم سلطته . وتم بعد ذلك عقد إتفاقية بين
لندن وبرلين (١٣ أغسطس ١٧٨٨) إنتهت ، ونهض لإدعاء ضمان الإستقلال
الهولندي ضد أي تهديد ، إلى تحالف فعلي إنجليزي بروسي . وكان هدفه موجهاً
ضد النمسا — بكل تأكيد — ولكن كذلك ضد حلفائها الفرنسيين .

وبمجرد تسوية هذه المسألة ، أصبحت الأراضي المنخفضة هي التي تحتل في
عام ١٧٨٩ مكان الصدارة على المسرح الأوروبي . فوجد البلجيكيون أن الظروف
مناسبة لكي يتقدموا بمطالبهم إلى ساداتهم النمسيين : ويبدوا أنهم قد أصابهم
عدوى روح الثورة التي كانت قد بدأت في الظهور في فرنسا في تلك الفترة والتي
كانت قد سبقت إجتماع مجلس طبقات الأمة . وتم التفاهم ببطء بين العناصر غير
الراضية ، والتي كانت أصولها مختلفة : وسرعان ما يعترف الجميع بأحد المحامين ،
فونك *Vonck* كرئيس لهم . وكان للشعار العام هو تحرر الوطن ، ودون
الإلتفات إلى فرنسا ، التي سيكتفون بمجرد حصولهم على عواطفها . وتم إنشاء
جيش من الوطنيين ، وبدأت المواجهات تحدث مع القوات النمسية إبتداء من

شهر سبتمبر . وجاءت الانتصارات الأولى لكي تسحر الرأي العام . وشيئاً فشيئاً ، أصبحت البلاد كلها في لهيب النيران ، وقامت السلطات النمساوية بتحريك القوات ، وأخلت بروكسل والمواقع الرئيسية : وكانت أنفرس آخر من سلم في شهر مارس ١٧٩٠ . ولكن الخلاقات سوف تظهر سريعاً بين صفوف الوطنيين . وسوف ينتج عن ذلك نوع من الفوضى . وسيستفيد الإمبراطور من ذلك ، في أثناء خريف ١٧٩٠ ، لكي يعيد سلطته من جديد .

وعليها أن تعود الآن إلى بلاد الدانوب الأدنى ، وحيث كان النمساويون بدورهم مستبكين ضد العثمانيين في شهر فبراير ١٧٨٨ . ففي نهاية العام ، ذهب جوزيف وتولى قيادة جيشه . ونتيجة لمغامرته بدون حكمة في أرض الصرب ، هزم هناك . فاعتزل إلى أن يعود إلى بلاده . وفي عام ١٧٨٩ كان المارشال لودون London ، الذي تولى القيادة بعده ، أكثر منه حظاً . فسلمت بلجراد في شهر أكتوبر بعد ثلاثة أسابيع من الحصار . وتم غزو الصرب من جديد ، وذلك في الوقت الذي تقدم فيه جيش آخر ، بقيادة الأمير كوبرج de Cobourg ، في راضي رومانيا ، وعلى اتصال بالروس ، واحتل بوخارست في أحد الأوقات . أما الروس ، فإنهم سجلوا انتصاراً أكثر وضوحاً — وبخاصة على الفرع الأعلى للدانوب ، وهو مهاجمة قلعة إسماعيلوف القوية والإستيلاء عليها — إنتشرت أصداؤه إلى ماوراء حدود الإمبراطورية .

وكانت النمسا ، التي تحركت بعد غيرها ، هي أول من يعقد الصلح منذ عام ١٧٩٠ . وستكون مضطرة إلى ذلك بتلك الأزمة الداخلية التي هزت أجزاء مختلفة من الإمبراطورية — فكانت المجر وأبناء ترانسلفانيا يزأرون بالثورة في نفس الوقت الذي كان البلجيكيون فيه في ثورتهم المعلقة . وفي نفس الوقت يهدد جديد بتدخل بروسيا في الأراضي المنخفضة .

وفي شهر يناير ١٧٩٠ ، بدأ جوزيف ، وبموافقة من القيصرية ، أمر الدخول في محادثات صلح مع الأعداء ، وتم التوقيع على هدنة في شهر سبتمبر. ثم سيكون الصلح في سيستوفا في شهر يوليو ١٧٩١ ، وهو الذي ستعبد به النمسا بمجموع ما غزته تقريباً . أما الروس فإنهم سوف يستمرون ، من جانبهم ، في الحرب حتى شهر يناير ١٧٩٢ (معاهدة لياسى) .

ولقد أنهى جوزيف ، سيه المظ هذا ، فترة حكمه في عشية الصلح (٢٠ فبراير ١٧٩٠) ، وهو حكم لم يكن ، في الخارج أو في الداخل ، إلا سلسلة من الحركات غير الموفقة ، والإجهاحات ، وسوء الحسابات . وكانت حسن النية ، ولا حتى الذكاء ، قاصرة لديه . وكان اعتياده على فرنسا — فرنسا التي كان في وسعها بالفعل أن تمارس التحالف النمساوي — يمكنه أن يكون أملاً رائماً لأوروبا ، والتي كان فريديك الثاني ، الذي إختفى بضع سنوات قبله ، يمثل فألماً السيء . وفي الإجمال ، لم يتمكن إلا أن يكون غير موفق ، وغير ذي حظ ، بين الذين إشتروا في تأسيس قوة بروسيا . وكان قد كتب بنفسه ، وبكل صفاء ذهنه ، فقرة ، سبق بها حكم من يأتي بعده والتي على التاريخ المحايد أن يتذكرها : « هنا يرقد أمه . كانت نياته خالصة ، ولكنه شقى برؤيته كل مشروعاته تفشل » .

الفصل التجاري الثالثون

خارج أوروبا

علينا أن نذكر، وبشكل متفصل عن الهند، وحيث رأينا الفرنسيين والإنجليز يتواجهون في أواسط القرن، وجود مركزين مهمين يتدبرن بالإهتمام في قارة آسيا في ذلك العصر: إمبراطورية الشاه، وإمبراطورية إبن السماء، أي فارس والصين.

١ - فارس:

ولقد ذكرنا، في حديثنا عن بداية العداء الروسي العثماني في الشرق الأوسط، أصول الخلافات بين فارس وروسيا. وكانت عملية غزو روسية أول قد ميزت، فسيا وراء القوقاز، وبحر قزوين، عام ١٧٢٢، والذي كان أحد السنوات الأخيرة من حكم بطرس الأكبر. وكانت قد سهلتها، وتسببت فيها إلى حد كبير، تلك الإضطرابات التي كانت مضطربة في إيران منذ عدة سنوات: إضطرابات داخلية، زادت من خطورتها تلك المعويات الخارجية، مع أهالي شبه وحل في أقاليم الإستبس القريبة من بحر قزوين، الأوزبك، وكذلك مع الأفغان. وأقام العثمانيون من هذه الظروف، فدخلوا، ثم كذلك، في سرب ضد جيوشهم الفرس، ومزقوا معاهدة زهاب، والتي كانت منذ ثلاثة أرباع القرن (٢٧ مايو ١٦٢٩ قد أنهت فترة طويلة من الحروب. ولقد أدت أحداث ١٧٢٢ - ١٧٢٣ إلى تفكك فعلي في الإمبراطورية، وإلى سقوط الدولة الصفوية، ولإتقاء حكم تلك الأسرة، التي سبقتها أحد القادة المخطوطين، نادر شاه.

وكانت أصول النزود الروسي هي دوافع إقتصادية، وعلى الأقل في جزء منها؛ فكانت إحدى المعاملات التي أحاطها بطرس الأكبر: رؤية إذا ما كان من

الممكن عن طريق فادس المتاجرة مع الهند ، وعاد السلم بسرعة ، وبعد أن وافق الشاه على التنازل عن مدن دربنت وباكو . وأخذوا في التحدث عن تحالف موجه ضد العثمانيين - الأمر الذي أدى إلى تدخل هؤلاء الآخرين . وسوف تستمر المرحلة الجديدة للحرب العثمانية الفارسية حتى عام ١٧٤٧ . وكان أحد موضوعاتها الرئيسية هو إحتلاك تبريز ، ذلك المركز التجاري الكبير بين آسيا الداخلية ، وآسيا الوسطى : فدخلها العثمانيون في عام ١٧٢٥ ، وبعد عامين من المعاهدات ، وبعد أن كانوا قد إحتلوا قفليس وجوماً من جورجيا .

وقبل ذلك ، وفي حياة بطرس الأكبر ، كان قد تم التوقيع على الصلح بين إستانبول وبتلرسبرج (٨ يوليو ١٧٢٤) . وكانت فرنسا قد أسهمت في ذلك إلى حد بعيد ، وذلك عن طريق سفنها في إستانبول ، الذي عمل كوسيط ، وشارك في كل مراحل المفاوضات . ولاتموا إلى الإتفاق على تقسيم الأقاليم الإيرانية المتنازع عليها ، وإحتفظت روسيا بدربنت وباكو . وتحديث الوثائق عن « صلح دائم » .

وفي ذلك الوقت ، إستمرت الحرب في آسيا ، وجمعت إنتصارات الأفغان في الشرق لكي تفرى الأتراك على العودة إلى السلاح في عام ١٧٢٦ . وفي هذه المرحلة الجديدة للحرب إنتصر المعتدى . فتمت المعاهدة التي تم التوقيع عليها في معسكر ميدان ، يوم ١٣ أكتوبر ١٧٢٧ ، تنازلات إقليمية جديدة : وإعترف الشاه الجديد فيها بالسيادة الروحية السلطان ، وبصفته خليفة ، أي « أمير المؤمنين » . وحدثت بعد ذلك تعقيدات داخلية في إيران ، حيث تنازع إثنان أن الوصول العرش . وفي عام ١٧٣٠ مرق المنتصر المعاهدة للعقودة مع العثمانيين ، وإستند من جديد للحرب ، وأعاد غزو تبريز ، وذلك في الوقت الذي كان الروس والتمسويون يجهدون فيه الإمبراطورية العثمانية في أوروبا . وجمعت معاهدة ميدان

الجديدة (١٠ يناير ١٧٣٢) لكي تعيد حدود القرن السابق بين الإمبراطوريتين الإسلاميتين. وبعد قليل ، بدأت نفس القصة من جديد ، حين وصل نادر بدوره ، في عام ١٧٣٣ ، إلى السلطة : فرغم المصاعبات ، أمر الشاه الجديد قواته بالتحرك . وفي هذه المرة ، إنتصر الفرس إنتصاراً كبيراً .

وكان التهديد يتدخل روسي في صالح الشاه قد أسهم إلى حد بعيد في خيانه هذا الإنتصار له . وكانت القيصرية أنا إيفانوفنا Анна Ивановна ترغب في أخذ خيانه ضد العثمانيين ، فوقعت في جنحة (٢١ مارس ١٧٣٥ ، على معاهدة صلح وصداقة مع الفرس ، نصت على إعادة أقاليم بحر قزوين التي كان قد تم التنازل عليها منذ إثنى عشر عاماً . وهكذا إستعادت إمبراطورية الشاه تلك الحدود التي كانت لها قبل بدأ أزمة عام ١٧٢٢ . وفي ذلك الوقت ، حصل القائد المنتصر ، نادر ، على تاج إيران . وفيما بين العثمانيين والفرس تمهد الطريق للصلح . ولكنه تأخر نتيجة لبعض العوامل المذهبية . وكانت الفرصة قد ظهرت مناسبة ، أدى هذا الجاهل وعند الجاهل الآخر ، لتفكير في توحيد المذهبيين ، السني والشيعة . ولقد أظهر نادر حسن إستعداده ، وبدأت مناقشات طويلة . ولحسنهم إعتقدوا في إستائبول أن في وسعهم أن يجملوا الفرس بقبولون السيادة الزمنية والروحية للسلطان في نفس الوقت . وأدى تلطف المطالب العثمانية إلى فشل المحادثات ؛ وإنتطعت لفترة طويلة .

ذلك أن نادر كان قد دخل في مشروعات عسكرية في اتجاه الشرق . ففي أفغانستان ، عاد إلى تخريب قندهار (مايو ١٧٣٨) . وبعد ذلك ، وحين علم بضعف قوة سلاطين المغول ، أخذ في مهاجمة إمبراطوريتهم ، ولم يجد عند الحدود سوى مقاومة ضعيفة ، وتمكن بعد إنتصار باهر في باتنات ، من الدخول إلى هلمى ، التي تم الإستيلاء على ثرواتها ، والقضاء على جزء كبير من سكانها

(١٧٣٩) . وعند انسحابه ، حصل على معاهدة تنازلت له عن كل الأراضي الواقعة إلى الغرب من نهر السند .

وبعد أن دفع نادر بهذه الخطة المنتصرة صوب الجنوب الشرق ، أنضج لسلطته غارات خيوا وبخاري ، وحيث كانت تنهي ، كما ذكرنا ، طرقاً تجارية هامة بين أوروبا وآسيا . وكانت خراسان ، بلاده الأصلية ، قد زادت أهميتها . ونقلت عاصمة الإمبراطورية مؤقتاً إليها ، في مدينة مشهد .

وخمدت الحرب في آسيا الصغرى ، خاصة وأن العثمانيين كانوا ، في ذلك الوقت ، في حرب جديدة مع الروس والتمسويين في بلاد البلقان . ولكن الحرب عادت من جديد حين رجع نادر ، بعد انتصاراته الكبرى في الشرق ، مرة أخرى وإستدار إلى ناحية الغرب وحصل على انتصارات جديدة ، وانتصارات حاسمة . وفي عام ١٧٤٥ وافقت حكومة السلطان على أن تأخذ درساً من الأحداث . وبعد التخل عن مشروع الوحدة المذهبية ، إتخذوا أمر إعادة تطبيق معاهدة هام ١٦٣٩ كأساس للمفاوضات . وأشارت إلى ذلك بوضوح معاهدة السلم الجديدة ، التي تم وضعها في عام ١٧٤٧ . وهكذا إنتهت فترة خمسة وعشرين عاماً من الحروب بين العثمانيين وبين الفرس . وستظل معاهدة عام ١٧٤٧ عمرة طوال بقية سنوات القرن .

وفي نفس هذا العام ، ١٧٤٧ ، تم إغتيال نادر . وأخذ التفكك الداخلي يهدد الفرس ، كما كان قد مهدد الهند بعد أورنج زيب . وفي الخارج ، كان من الضروري الإستمرار في محاربة الأفغان ، الذين حاولوا التحرر من سلطة فارس . وإن تبدأ فارس تلعب دورها ، كدولة ، إلا بعد نصف قرن من ذلك ، وحين تصل أسرة قاجار إلى السلطة .

وأخنت الحروب وقلة الأمن العام تقلل من أهمية هذه الاسواق ، والاماكن

المحينة للتبادل التجاري بين أوروبا وآسيا . وأصبحت الطرق التي أنشأها هيباس أقل إستخداماً عما كانت عليه في الماضي ؛ أما تلك التي كانت تربط منطقة الخليج بالمرآكر التجارية ، فقد هجرت تقريباً . وحل العكس من ذلك ، نجد أنه ، إبتداء من ذلك الوقت ، والذي هادت فيه حسن العلاقات مع الروس ، أخذ طريق بحر قزوين والفولجا أهمية جديدة تماماً . وفي منتصف القرن ، إنشئت شركة في لندن لكي تدخل من هناك الأقشة التي كانت جيوش الشاة في حاجة إليها . وجملة الحرير بعد ذلك ، وفي إتجاه معضاد ، وحل نفس الطريق الذي تسهر فيه الأقشة الإنجليزية . وظل الحرير الناعم دائماً من منتجات فارس الممتازة . وكان الأرمن هم الذين يتاجرون فيه بنوع خاص . وكانوا يصدونه إلى كل البلاد الأوروبية . وسكان الإنجليز ، والهولنديون ، والبنادقة ، الذين يرسلون أصوافهم ، يستقدمون في نفس الوقت ، ومع الحرير ، بعض الأصواف الممتازة ، وبخاصة أصواف كرمان .

ومن ناحية آسيا ، كانت العلاقات التجارية أقل أهمية نسبياً . فكانت الهند تستورد الفواكه ؛ المجففة أو المسكرة ، والابنعة ، والطباق ، والجلود ، والساجيد الخ . وكانت الصين ترسل منتجاتها بالقوافل ، التي تصل إلى بغداد وإلى حلب ، ثم إلى أوروبا . أما طريق البحر فإنه لم يستخدم إلا في مبادلات نادرة كانت تتم عن طريق وساطة الشركات الأوروبية التجارية .

٢ - الهند وپورما والهند الصينية :

وكنا قد توقعنا ، في القسم الأول من هذا الكتاب ، عند أواسط القرن السابع عشر ، في دراستنا لتقدم الذي تم في المحيط الهندي ؛ بواسطة الدول البحرية الأوروبية المختلفة . ثم إنضمنا ، بالنسبة للقرن الثامن عشر ، بتلك

للفاصات التي كانت قد نشأت في الهند ، بين آخر من وصل إلى هناك ، فرنسا وإنجلترا .

وكانت البرتغال ، أكثرها قدماً هناك ، لم تمد تمتلك ، في ذلك الوقت سوى جوا ، وديو ، ودامان ، إلى الشمال من بمباي . وكان الهولنديون يمثلون في جميع أنحاء شبه القارة . وكانوا قد إستقروا ، في أول الأمر في كوشين (ساحل ملابار) ، ثم في نيجاباتام ، وساداس ، وبوليكت (ساحل كورومانل) ، وأخيراً في جزيرة سيلان ، وحيث كانت أكثر مراكزها التجارية أهمية هو ترنكوماي ، في الشمال الشرقي منها . وتاريخياً ، كان آخر مراكزها التجارية هو شنسورا ، في البرتغال ، الذي أنشئ في عام ١٦٥٦ ، وأكثر منه إلى الجنوب مركز مازوليباتام ، الذي أنشئ في عام ١٦٦٠ ؛ وكان جيرانهم هناك هم الإنجليز منذ عام ١٦٦١ ، والفرنسيين منذ عام ١٦٦٩ ، ولقد تنازلوا للإنجليز عن الموقع بعد معاهدة باريس ، في عام ١٧٦٥ .

وكانت لحرب السنوات السبع نتائج فيها وراء شبه القارة الهندية ، وعلى بورما بنوع خاص . ففي عام ١٧٥٩ ، ونتيجة لتزويد الفرنسيين للأماي بالأسلحة ، تم تحرير المركز التجاري البريطاني في رأس نيجريس ، كاتم قتل كل من كان فيه . وفي السنوات التالية التالية ، نشبت الإضطرابات بين أمالي بورما وبعضهم ، وأضرت في ذلك المصالح الصينية . فإتهز إمبراطور الصين هذه الفرصة وقام بإرسال أحد جيوشه إلى هناك . واضطر أمالي بورما ، بعد هزيمتهم في معركة على ضفاف نهر سلوين ، إلى الإحتراف ببقيتهم وبدفعهم الجزية في عام ١٧٦٨ . ومع ذلك فإن الحدود لم يستتب في البلاد . ونشبت ثورة عند أمالي يجو ، الذين كانوا يسكنون المنطقة الساحلية ، والذين كانوا لا يزالون يذكرون أيام إستقلالهم . وحين تمكن ملك بورما من السيطرة على الموقف ، قام بنزو سيام ، والتي كانت قد حاولت التوادر . وإستولى على أيتيا ، بعد عامين من حصارها . وعندئذ نقلت

العاصمة إلى بانجوك ؛ وذلك في الوقت الذي تم فيه عزل الملك . وظل التخلان على وراثة عرشه مستمراً لمدة سنوات : وفي عام ١٧٨٢ سيقوم أحد جنرالات الجيش المنتصر بتأسيس أسرة حاكمة ، سوف تحكم طوال كل القرن التاسع عشر . واستمرت شبه جزيرة الهند الصينية ، منذ القرن السادس عشر ، مسرحاً لصراعات بين الأمر الحاكمة المتنافسة والتي كانت تحكم في تونكين أو في آنام ، تحت السيادة الإسمية لأسرة لي . وحصل حكم نجوين من وقت مبكر على مساعدة البرتغاليين . وفي بداية القرن السابع عشر حصلوا منهم ، وفي مناسبات عديدة ، على الأسلحة والذخائر ، وفي نظير ذلك أعطوهم تسهيلات لتجاريتهم . وكما حدث في أماكن أخرى - وبخاصة في الخليج الفارسي - مهدوا الطريق أمام البولنديين ، والذين سرعان ما جاء وراهم الإنجليز . ولكن محاولات إقامة هؤلاء أو أولئك كانت فاشلة . وإنخفضت العلاقات التجارية إلى الصفر ، أو قريباً منه ، في بداية القرن الثامن عشر .

وبمساعدة الفرنسيين ، تمكن ملك شاب ، هو نجوين - أن *Nguyen-Anh* ، في السنوات الأخيرة من القرن ، من أن يضع حداً للقوضى ، ومن أن يؤسس إمبراطورية تيميش . ولم تكن حكومة لوى السادس عشر هي التي أخذت المبادرة بشأن التدخل ، ولكن أحد الأساقفة *in Partibus* ، بينو دي نيهين *Pigneau de Béhaine* المقيم راعياً لكوشين صين ، منذ عام ١٧٧١ . وكان قد تمحس القضية نجوين - آن ، وذهب إلى بوند شوي للدفاع عنها ، ثم إلى باريس ، وحصل في ٢٨ نوفمبر ١٧٨٧ ، على معاهدة رسمية ، تمنح لمن يتجنح لحايتة عوناً مسلحاً ، وفي نظير وعد بالتنازل عن بولو كوندور وهائتان ، وكذلك منح امتيازات تجارية في كل شبه الجزيرة . ومن جانب آخر ، سيكون لهذه المعاهدة قيمة كبيرة من الناحية المصنوية ، خاصة وأن قائد قوات الهند لم ير

ضرورة في إعطاء المعونة المسكوية للتصوم عليها . ولكن ذلك لم يشبط من جهودات الأسقف . ونجح في أن يروود من خضع لحايته ، وعلى حساب الملك ، بالأسلحة والذخائر والتموين ، التي كان في حاجة إليها . ولقد رأوه حتى يشارك في بعض العمليات العسكرية ، إلى جانب عدد من المتطوعين الذين تمكن من جذبهم ، حين بدأت ، في عام ١٧٩٠ ، حركة الهجرة في بلاط فرنسا . ولقد استمر الصراع لمدة ثلاثة عشر عاماً . وبعد الحصول على النصر بشكل نهائي في عام ١٨٠٢ ، أعلن نصيون — آن نفسه إمبراطوراً في هوى . وسوف يحكم ، باسم جيا لونج Gin-Long ، ولأول مرة ، على كل إتساع بلاد الهند الصينية ، من خليج سيام حتى الحدود الصينية .

٤ - الصين :

في اليابان لم يحدث أى تغير في تلك العزلة التي أغلق بها الأباطرة على الأمة في عام ١٦٣٨ — إلا أنه ، بالنسبة لأصداء الاستكشافات العلمية التي رددتها العالم قرب منتصف القرن ، بدأت الحدود في الإنفتاح أمام بعض الكتب التي كانت تأتي من الغرب .

وفيما بين الصين واليابان ، لم تحدث صدامات أخرى بشأن كوريا ، ولا بين الروس والصينيين عند حدود منشوريا .

ولقد ظلت معاهدة تراتفك تحكم العلاقات الصينية — الروسية . وكانت حكومة بطرس الأكبر قد بذلت جهودات من أجل الحصول على تمثيل دائم في بكين : وكانت سفارة خاصة قد قدمت طلباً بذلك منذ عام ١٦٩٢ . وكانوا مستوحين من السابغة التي كانت قد قدمتها الدول الكاثوليكية ، بأن يقيموا في العاصمة الصينية ، في عام ١٧١٦ ، بعثة دينية . وذهبت بعثة جديدة إلى بكين في عام ١٧٢٠ : وقابلها الإمبراطور ، ولكنها إلححت كذلك دون أن تحصل

على أى شيء . وفى عام ١٧٢٧ فقط ، إنتهت الصعوبات الموجودة بين البلدين بإتفاقية مكتوبة ، أكدت معاهدة نرتشنسك ، وعدلت من بعض فقراتها ، وهى معاهدة كياختا (١٤ يوليو) . وأهبطت فيها تسهيلات جديدة لتجارة الغرب . وحددوا فيها بنوع خاص أنه ، كل ثلاثة أعوام ، يسمح لقافلة تضم عشرين تاجراً روسيا بالإقامة فى بكين . ورأى القيصر فيها إعتراضاً بحقه فى أن يحتفظ هناك بمبشرات دينة ، تتمتع فى نفس الوقت بدور الممثلين الدبلوماسيين . ولقد إضطروا ، من أجل الوصول إلى نجاح المفاوضات ، إلى الاستماعة مرة جديدة باليسوحيين . أما فيما بعد ، فن الممكن الإستثناء عن موافقتهم ؛ إذ أن البعثة الكفيسية المنصوص عليها سوف تضم ترجمة ومترجمين .

ولذلك فإن العلاقات المستمرة أخذت فى تنظيم نفسها ، والإنتظام ، فيما بين الإمبراطورية الروسية وإمبراطورية الصين . وحضرت سفارة صينية كبيرة إلى موسكو فى عام ١٧٣٩ ، بعد وفاة بطرس الثانى بقليل . وكانت تضم ما يقرب من مائة شخص ، وأقامت هناك ستة أشهر . وهدت هبهما ، وعلى فقرات ، من منظمة بشكل أو بآخر . وفى أثناء ذلك الوقت تم نقل تطبيق معاهدة كياختا بمحوادث متتالية : وكان الصينيون يستمرون فى فضح تمثيل الروس . وكان الروس لا يفيدون دائماً من التسهيلات الجديدة التى كانت تمنح لتجارهم ؛ ولا نجد فى المدة التى تقرب من الثلاثين عاماً سوى ست قوافل روسية فقط وصلت إلى بكين . ومع ذلك ، فإن معاهدة عام ١٧٢٧ ظلت سارية حتى أواسط القرن التاسع عشر . وأصبحت كياختا ، تلك البلدة الهامة التى تقع على طريق نى منذ بعض الوقت عبر منغوليا ، هى المركز الرئيسى للبيادلات الصينية والروسية .

وعلى سوق سيبيريا ، أصبح الراوند الصينى يلقى منافسة من جانب الراوند الذى كان يصل من أوروبا ، وبخاصة من سيليزيا . كما أن الطباق كان يرسل بكبالت

متزايدة من المستعمرات الأمريكية لإنجلترا . وكانت المراكب التجارية مع الغرب أقل أهمية وبكثير بطريق البر منها بطريق الموانئ ، طريق كاتون ومككو . وكانت كل دولة من الدول العظمى الغربية التي تمتلك إحدى الشركات ذات الإمتياز للتجارة مع الشرق الأقصى ، مثله في كاتون بواسطة وكلاء خاصين بها . أما الحقوق الكاملة والشاملة للتجارة مع الأوربيين فإن الإمبراطور قد منحها لمجموعة من التجار يسمون كوه - هانج . وحين قامت حكومة لوى السادس عشر في عام ١٧٧٦ بوقف إمتياز الشركة الفرنسية ، تم إنشاء قنصلية ملكية في كاتون .

وكان الروس ، منذ وقت بطرس الأكبر ، قد وصلوا إلى سواحل المحيط الهادئ . وجه المساجين السويديين لبناء السفن في أوغستوك . وقام بيرنج *Behring* الهانركي ، والذي كان في خدمة القيصر ، بالاقلاع بحراً على طول السواحل المطلة على ذلك المضيق الذي سوف يسمونه إسمه فيما بعد ، وتمكن في عام ١٧٣٠ من أن يشهد بعدم وجود أى اتصال برى بين قارتى أمريكا وآسيا . وسمحت له رحلة أخرى ، قام بها في عام ١٧٤٠ على طول السواحل ، وأيضا إبتداء من أوغستوك ، بأن يستكشف كاملشكا .

وفي آسيا الوسطى ، إستمر الصينيون في التصاقهم مع عناصر إلخوت ، الذين وصل بهم الأمر إلى إنشاء دولة فعلية . وإلى الغرب أكثر من ذلك ، كانت تبتش : عناصر القلموق ، وهي تشكيلة أخرى من القبائل ، من نفس النشأة ، أو من عنصر مشابه . وكانوا بنوع خاص على علاقة واتصال بالروس ، والذين كانوا يتوغلون ببطء في التركستان منذ عهد بطرس الأكبر . وفي عام ١٧١٦ ، كان أحد الجيوش القيصرية الذي يصعد نهر إرتيش قد أصابه هزيمة ساحقة ، فأصبح شمار موسكو هو التصالح مع هؤلاء المنحصرين الخطرين ، أو على الأقل ضمان سيادتهم في حالة هزولهم . فعرضت في الخارج . ثم قام عدد كبير من خانات أوبك ، في سنوات

١٧٣١ - ١٧٣٣ ، وفي فترة حكم أنا إيفانوفنا ، بالموافقة على التسم بالطاعة القيصري . ومنذ هذه الفترة ، أصبح النفوذ الروسى والنفوذ الصينى فى منافسة معلنة فى هذه المنطقة .

ونشأت أزمة حكم عند إليوط ، فى أواسط القرن ، وأدت إلى تدخل صينى ، بعد أن سكان أحد مدعى العرش قد طلب مساعدة جيلز القوي ، الإمبراطور كيان لونج Kien-Long (١٧٢٦ - ١٧٩٩) . وإتصر فى عام ١٧٥٤ . ولكنه لم يتحمل السيطرة الصينية التى نتجت عن ذلك ، وحاول التخلص منها ، ولم ينجح إلا فى أن يتسبب من جديد فى عملية غزو لبلاده . وإضطرب بعد بضع سنوات التخل عن السلطة ، ونفى نفسه . وتسببت عملية الإنهاء على دولة إليوط فى عملية إستقلال التلوق . وأصبحت المنطقة بأكملها — دزونجباريا — عاصمة الصين . وسيصبح الروس والصينيون ، نتيجة لذلك ، متجاورين ، على طول نهر إرتيش ، وفى منطقة سمهرشيا ، فى الإستبس ، قرب بحيرة بلخاش . وسرعان ما تظهر خصومات هناك بشأن خط الحدود .

وشهد حكم كيان لونج كذلك إمتداد السيادة الصينية على التبت . وكان ذلك نتيجة مباشرة لأحداث التركستان : ذلك أن دلاى لاما Dalai-Lama كان معتبرا حتى ذلك الوقت على أنه يخضع لسادة إليوط .

وكانت مجموعات أخرى من أصل مغولى ، وهم قبائل تودجوت ، والذين كانوا جزءا من دزونجباريا فى السنوات الأولى من القرن ، قد جاءت واستقرت ، وبصريح من بطرس الأكبر ، على حواجل بحر قزوين وقولجا السفلى . وتمت حكم كاترين الثانية ، طلب هؤلاء التودجوت من كيان لونج أن يقبلهم ، إذ أنهم كانوا قد قرروا العودة إلى بلادهم الأصلية : فقبل الإمبراطور ذلك بسرعة ، خاصة وأن هذه العملية كانت تساعد على زيادة هيبة . وهكذا بدأت نجسين ألف

أسرة كما يقولون ، أى ما يقرب من ٢٠.٠٠٠ شخص ، فى السير ، قرب هام
١٧٧١ ، وعبرت كل آسيا الوسطى . وتركت عملية الخروج ، الشهيرة هذه ،
ذكريات عديدة فى الأدب الصينى ، وكذلك فى الأدب الروسى .

٤ - علاقات آسيا بأوروبا :

منذ القرن السابع عشر بدأ روح الفضول ، لشئون آسيا ، فى الظهور فى
أوروبا . وكان قد ساعد على ذلك تلك الروايات الأولى عن رحلات الاستكشاف ،
مثل تلك الرحلة التى قام بها ، فى عام ١٦٦١ ، الأبان اليسوعيان ، اللذان عبرا
القارة من جانبها إلى الجانب الآخر ، وعبرا من الصين إلى الهند ، ووصلا إلى
التيبت . وسوف يمت القرن الثامن عشر جغرافية القارة وبصناعاتها القديمة ، فى
نفس الوقت . وتم فى باريس نشر أطلس كامل لإمبراطورية الصين ، فى عام
١٧٢٧ . وشاهدوا ، فى فرنسا وفى إنجلترا ، نشأة ذلك العلم الجديد الذى
سوف يسمى ، بعد وقت ، الإستشراق ، *Orientalisme* وبدأ رجال باحثون
يأخذون طريق الهند ، مثل أنكتيل دوبرون *Anquetil-Duperron* ، والذى
قام فى عام ١٧٧١ ، وبعد عودته ، بأن نشر فى باريس ترجمة كاملة لزند أفستا .
وأصبحت أوساط رجال البعثات الدينية بنوع خاص تميل إلى تعلم الفسكريفية .
وفى مناطق الإحصاء البوى بين أوروبا وآسيا ، وفى المراكز التجارية لشرق
البحر المتوسط ، قلت أهمية الحركة التجارية بشكل ملحوظ فى أثناء هذا القرن .
ويمكننا أن نرى فى ذلك نوعاً من الجانب الآخر لذلك للتأثير المتزايد على
التجار من كل البلاد ، من جانب الأقاليم التى خضعت بالفعل للإستعمار ، فى الهند
الشرقية ، والهند الغربية .

وكان الفرنسيون قد تراجعوا فى أثناء القرن السابع عشر ، أمام الهولنديين
والإنجليز ، والذين كانت أحوالهم قد أكدت أنها من نوعية أكثر ارتفاعاً وبشكل
تواضع . تم إجهات مجهودات كولبير ، سواء فى الشؤون الصناعية أو فى الشؤون

التجارية ، وأعطت ثمارها ، وإستعادت فرنسا كل زبائنها وخسرت البندقية ، وأخذت الأقاليم المتحدة في الضعف ، وتوقف التقدم الإنجليز منذ ما قبل منتصف القرن . وحتى في المراكز التجارية في شرق البحر المتوسط ، وحيث كان الإنجليز فيما مضى قد حصلوا على المكانة الأولى ، في أزمير مثلاً ، أو حتى في حلب ، إستعاد إبناء مرسيلا شيئاً فشيئاً هذه الميزة ، نتيجة لتفوق صناعة المنسوجات الفرنسية .

وكانت الموانئ التي يمكن للاروبيين أن يصلوا إليها دائماً ، في أثناء القرن الثامن عشر ، هي موانئ بحر إيجة كلها . ولم يكن يسمح ، حتى ذلك الوقت ، لاية سفينة مسيحية بأن تمبر البوسفور . وكان الأتراك يذكرون أن السلطان كان مستمداً لكي يفتح للأجانب أبواب الحرم أكثر من السماح لهم بفتح مدخل البحر الأسود .

٥ - المحيط الهادى :

وعبر منطقة المحيط الهادى الشاسعة ، لم يكن البحث عن أسواق جديدة أمراً يجتذب الجوع ، كما حدث بالنسبة لآسيا ، المليئة بالسكان . ولم يكن في وسع المفسحات الثابتة هناك أن تكون مثمرة ؛ ولم تشاهد نشأتها . ومن جانب آخر ، لم تكن مرحلة الاستكشافات قد تمت بعد : بل يمكننا حتى أن نقول بأنها كانت قد بدأت بالكاد . وكانت المعلومات التي ذكرها ذلك العدد البسيط من الرحالة مبثورة بشكل غريب . وسيحاول النصف الثاني من القرن الثامن عشر أن يتم هذا القطاع . وفي بعض النواحي ، كان عمل القادمين الجدد مكلاً للأعمال التي كانت مستمرة في صمت في مراكز الدراسات الفلكية والكونية .

وبدأت سلسلة كبار الرحالة ، برحلة أحد الإنجليز ، وهو الكومودور بايرون Byron ، عبر بولينيز ، وصرعان ما جاء . بعده إثنان من بلده ، هما واليس Wallis

وكارتريت Cartaret : فقسام واليس بولاية تاهيتي في عام ١٧٦٧ . ثم جاء
بوجانفيل Bougainville ، ذلك الضابط الذي كان قد خدم في كندا في أركان
حرب مونتكالم Montcalm ، ثم تحول إلى البحرية وذهب ، بعد معاهدة باريس ،
لكي يستكشف جزر مالوين . إلى الجنوب من رأس هورن ؛ وقام الفرنسيون
يرفع عنهم على جزر مالوين ، حيث أقامت بعض الأسر التي كانت قد طردت من
آكاديا . وحين ترك بوجانفيل جزر مالوين ، إنجه صوب تاهيتي . واستكشف
ساموا وهيريدو الجديدة ، ثم عاد إلى أوروبا ، ماراً عن طريق الهند الهولندية (١٧١٩) .
أما جزر مالوين التي تم لتنازل عنها لإسبانيا في عام ١٧١٣ ، فإن إنجليزاً طالبت
بها بعد انتصارها . وكانت باريس ومدريد لا ترغبان في المخاطرة بتعرض ديارهما
لمخاطر حرب جديدة ، فتركوا مناقبهم يستولون عليها ، في عام ١٧٧٠ ؛ فأصبحت
قسمي ، منذ ذلك الوقت ، جزر فولكلاند .

وبعد بوجانفيل ، جاء من جديد أحد الإنجليز ، وهو الأكثر شهرة ، الكابتن
كوك Cook ، والذي كان ملاحاً وعالمًا في نفس الوقت . وكانت المهمة المكلف بها
في تاهيتي في عام ١٧٦٨ ، لها هدف أساسي يتمثل في الأرصاد الفلكية . وفي أثناء
ثلاث رحلات متتالية قام بها في هذه المناطق في فترة تقرب من عشر سنوات ؛
أتم تحديد خريطة الجزر . وبعده ، لم يتم اكتشاف شيء كبير القيمة . هذا خلاصة
على أن سياسة الدول لن تنهم اهتماماً كبيراً بهذا الجزء من العالم قبل القرن التاسع
عشر . وكان شرق جزير إستراليا وحده هو الذي دخل في حياة العالم المنحصر .
وفي عام ١٧٨٧ ، حصلت نيوساوث ويلز ، والتي دانت بهذه التسمية لكوك ، على
حاكم إنجليزي . وفي العام التالي ، قدروا عدد الرواد الأوائل للمعمرين الذين
جاءوا للإقامة هناك بألف شخص .

٦ - أمريكا :

لقد تمددنا طويلا عن أمريكا — وعلى الأقل أمريكا الشمالية ، والتي كانت منطقة صدام بين الدول العظمى ، ثم مسرحاً لثورة ، لها مدى عالمياً ، نتيجة لوقوف المعمرين الإنجليز في وجهه الوطن الأم ، وإنشاء جمهورية الولايات المتحدة .

وعلينا أن نفكر الآن في مصير الشعوب البدائية ، والقبائل الهندية ، والتي تم دفعها يطة من الشرق إلى الغرب ، وصوب الداخل ، وبطبيعة الحال أثر التنافس الفرنسي الإنجليز على العلاقات التي كانت بين كل مجموعة من هاتين المجموعتين من المعمرين وبين الهنود . وكان أولئك الموجودين في الجنوب قد عقدوا علاقات ود مع الفرنسيين المقيمين في لوزيانا . وأفادوا من ذلك حد الإنجليز الذين حاولوا ، من كارولينا ، أن يتقدموا في اتجاه المسيحيين ، وفي المنطقة التي كانت تسكنها عناصر كريك . وبعد أن نهضت كارولينا الجنوبية وجورجيا ، وهي مواقع متقدمة للاستعمار الإنجليزي ، في طرد الهنود من أراضيها ، انسحب الهنود الحر في اتجاه فلوريدا الإسبانية ، التي استضافتهم : وتمكن الإسبانيون بمساعدتهم من إعادة احتلال ميناء أبلاتشي ، ومن بناء قلعة سان ماركوس ، بالقرب منه . وإلى الغرب أكثر من ذلك ، وعلى طول نهر المسيسيبي ، والذي كان عظم المواصلات بين كندا ولوزيانا ، أقام الفرنسيون كذلك عدداً من القلاع ، والتي كانت القبائل المجاورة تهاجمها من وقت لآخر مثل قبائل فوكس وشيكساو . أما المنطقة التي خضعت لعملية التنازع أكثر من غيرها فكانت هي منطقة نهر إلينوا ، والذي كان يوصل إلى البحيرات العظمى . وقامت مجموعة من القبائل المجاورة ، وأنشأت نوعاً من الاتحاد ، قام بحرب عنيفة وقاسية بشكل خاص ، ولمدة ثلاثين عام تقريباً ، ابتداء من عام ١٧٢٧ . وفي كل هذه المناطق ، كانت قترات البسلم قصيرة للغاية ويبدأ

فيا وراء النهر الكبير قام الفرنسيون ببناء قلعة أورليانو ، وكأول قلعة ، على نهر مسوري في عام ١٧٢٢ . وبعد فترة من الزمن بدأت العلاقات التجارية مع الإسبان في المكسيك من طريق منطقة سانتافي .

ولكي أبعد من ذلك صوب الغرب ، لم يكن الأوروبيون يزورون كاليفورنيا إلا في النادر ، حينما جاء عدد من اليسوعيين في عام ١٦٩٧ من إسبانيا الجديدة ، وأقاموا في موقع من شبه الجزيرة سموه لوريتو . وجاء أعضاء بعثات دينية أخرى من بعدهم ، ومكلفين كذلك بنشر الإنجيل ، في أثناء القرن الثامن عشر ، وبخاصة من الفرنسيين . وحاولوا ، من هناك ، وشيئا فشيئا أن يعبروا المنطقة شبه الصحراوية التي سوف تصبح فيما بعد ولاية كاليفورنيا . وفي أثناء ذلك الوقت ، استمرت غلايين مائلا في الوصول بانتظام ، وفي كل عام ، المئات أكابولكو . وبعد ذلك ، وفي النصف الثاني من القرن ، تسبب تهديد روس غير محدد في وراء مضيق بيرنج بدفع الإسبان إلى احتلال كاليفورنيا : ذلك أن بعض الصيادين من سيبييريا كانوا قد وصلوا ، في عام ١٧٦٢ ، إلى أرض ألاسكا . وغضبت نشأت مستعمرات جديدة على الساحل ، وكان من بينها ، في عام ١٧٧٦ ، سان فرانسيسكو . ورغم أن رجال البعثات الدينية كانوا يحتلون المكان الأول هناك ، فإن التجار بدأوا في العمل . وعلى هذا الساحل كذلك ، كانت تجارة الفراء هي السائدة . وعند نهاية القرن ، أصبح خليج نوكا ، قرب فانكوفر ، يشهد مجيء الإنجليز والروس في نفس الوقت . وأظهر الإسبان رغبة في ألا يضيحوا حقوقهم ، وتجنبوا عن ذلك خصومة مع لندن ، في عام ١٧٨٩ ، استمرت لمدة عام كامل ، وإن كانت قد ظلت في النطاق الدبلوماسي ، وكانت أحداثا خطيرة تجتذب في أماكن أخرى إرتباه الدول في ذلك التاريخ .

وبعد معاهدة باريس ، نشبت حركة ثورية عند الأهالي في منطقة البحيرات

العظمى وأوهايو ، والذين كانوا يعتقدون ، وبعض الأسباب ، أنهم سوف يجدون عند سادتهم الجدد تفهماً أقل من ذلك الذي كانوا يجدونه عند الفرنسيين ، والذين كانوا يأسون دائماً لتأثير عدد من رجال الدين ، والذين كانت عملية التحول إلى المسيحية تحتل المكان الأول بالنسبة إليهم . واحتفظوا لهذه الحركة بإسم مؤامرة بوتيلاك ، وذلك نسبة لذلك الرئيس الذي تولى قيادتها . وكان رجال قبيلته ، قبيلة ألجونكين ، يكونون غالبية جنوده ، وكانوا يشنون هجمات مفاجئة ، فنجحوا في الاستيلاء على المواقع الإنجليزية المتقدمة ، وذبحوا سامياتها . واحتاج الأمر إلى وقت طويل لإجبارهم على العودة إلى مناطقهم ، وإلزامهم على الصلح . وتم إغتيال بوتيلاك ، بعد أن أعلن خذوه .

وفي نفس العام (١٧٦٣) ، صدر «بلاغ» ملصكي يمنع سكان المستعمرات الإنجليزية من أن يتعدوا صوب الغرب خط أبلاش . وكانت كل الأقاليم التي تقع فيما وراء هذا الخط تدار بالسلطة العسكرية . وجاءت ثورة بوتيلاك لكي تظهر ضرورة إقامة العلاقات مع القبائل الماخلية على أساس تصافى . وبعد ترددات كثيرة ، تم عقد معاهدة في عام ١٧٦٨ مع الإتحاد المسمى «القبائل الست» : وتم الاعتراف فيها للاوروبيين باحتلال كل الأراضي الواقعة بين مجرى أوهايو ومجرى تنسي . وبعد حرب الإستقلال ، اضطرت هذه القبائل الهندية ، في مناسبات عديدة ، إلى أن تعترف بوجودها تحت الحماية الكاملة للولايات المتحدة .

ومنذ الوقت الذي أصبح فيه الجمهورية وجود رسمي ، أصبحت مبادئ الميثاق الإحتماي لا تطبق عليها . وعندئذ أخذت العلاقات التجارية في النمو بحرية ، وفي كل الاتجاهات ، وبخاصة مع آسيا الصغرى . وكان الأمر لا يزال في بدايته . ومن قبل ، وقرب منتصف القرن ، كان المبحرون من إنجلترا الجديدة وكذلك من فرنسا الجديدة ، قد بدأوا في أن يصعدوا عبر المحيط الهادئ ، أحد منتجات أرضهم ، وهو أحد النباتات ذات اللزايا الطبية وحتى كانت لها أهمية

خاصة في الصين ، والتي كانوا يسمونها هناك وجين سنج . وحدثت هذه التجارة بأرباح لها قيمتها حتى اليوم الذي قرر فيه الصينيون ، قرب حرب الاستقلال وحرمانهم من الجين سنج الأمريكي ، أنه كان أقل درجة في جودته من ذلك الذي كانوا هم أنفسهم يوزعون . وعند نهاية الحرب ، أخذت الحركة التجارية الصينية الأمريكية حجماً وأهمية حتى أن الكونجرس إختار قنصلاً للعمل في الصين .

وفي أمريكا الأيبيرية ، كان رجال البعثات الدينية ، وأكثر من التجار ، هم الذين يظهرون في مقدمة حركة التوسع والاستعمار . وكان الأهالي الذين يتمون تحويلهم إلى المسيحية يتجمعون داخل مناطق خاصة ، أو زرائب reducciones ، حيث يتمون تعليمهم ، دون أن تكون لهم أية صلة بالأهالي البيض ؛ وكانوا يقسمونهم إلى أبرشيات تدير نفسها بنفسها ، تحت إدارة كنسية . وكانت المجموعة المجموعة الرئيسية من هذه الحظائر أو الزرائب هي تلك التي كانت قد نمت في أثناء القرن السابق عند قبائل جارائيس ، على نهر بارجواي .

ومنذ أن كانت البرتغال قد تركت نفسها تخضع لإنجلترا ، تعددت الصدامات على الحدود بين المستعمرات الإسبانية والمستعمرات البرتغالية . وكانت مساوحي الرئيسية هي ضفاف الأمرون . وفي وقت الوراثة الإسبانية ، كانت المنافسة بين رجال البعثات الدينية من البلدين في الحوض الأعلى للأمرون ، أو على بارانا ، تتضمن في بعض الحالات عمليات بحرية . وبعد ربع قرن من ذلك ، كانت الحرب البحرية بين الإنجليز والإسبانيين كذلك ردود فعلها في أمريكا . وتنتج من ذلك ، في عام ١٧٥٠ ، معاهدة تلمى ، وفي صالح البرتغاليين ، خط تقسيم تورديسيلاس القديم . ولكن هذه المعاهدة لن تنفذ أبداً . وبعد أن قام ملك إسبانيا ، شارل الثالث ، بالغاء كل بنودها في عام ١٧٦١ ، نشبت العمليات الحربية في العام

الثالث ، ولم تنته إلا بمعاهدة باريس . وهذا الصدام المسلح الجديد ، والذي تشبب في عام ١٧٧٥ ، مكث لمدة عامين ؛ وانتهى بمعاهدة سان إيلديفونسو (١١ مايو ١٧٧٧) . في أثناء هذه الحروب ، مرت الدولة التي كان يديرها اليسوعيون في بارجواي ، من تحت سيطرة هذا الجانب ، لتقع تحت سيطرة الجانب الآخر . فموت مؤقتاً إلى البرتغاليين ، الذين أعادوا تسليمها مع سان إيلديفونسو . ولكن ، في أثناء ذلك الوقت ، تم التخلي عن التنظيم الثيوقراطي الذي كان اليسوعيون قد أقاموه هناك ، وذلك بعد أن طردت جماعة اليسوعيين على التوالي من البرتغال ، ثم من إسبانيا ، وفي إنتظار أن تقرر روما نفسها أمر إلغائها . ولذلك فإن اليهود من رجال البعثات الهندية ، قد عادوا إلى طريقة حياتهم التقليدية .

وكان عدد كبير من الآمال يقاس دائماً من نظام العمل الإيجارى - السخرة *Mitta* - والذي كان قد فرض منذ وقت الغزو من أجل إستغلال المناجم ، والذي كان إذن في غاية الأهمية بالنسبة ليهود . وكان هذا النظام للقاتل قد أسهم في عملية إضعاف الجنس البشري ؛ وإن كان لم يقض عليه تماماً ، كما ذكر البعض ، في بعض الحالات . وعند نهاية العصور الحديثة ، كانت العناصر البيضاء لا تمثل حتى النصف من بين ثمانية عشر مليون (تقريباً) من سكان أمريكا اللاتينية . فيمكننا أن نضيف ثلاثة ملايين ونصف مليون من المخطئين إلى ما يقرب من سبعة ملايين ونصف مليون من اليهود . ويدل عدد المخطئين على إختلاف سلوك وميول الأوروبيين من جزء إلى جزء آخر من القارة الأمريكية . فتخليط الدماء ، وتداخل الأجناس ، والتي كانت غير مقبولة في الشمال ، أخذت إتساعاً كبيراً في الجنوب . وعلينا أن نضيف كذلك ، إلى هذه اللوحة الجنسية المتداخلة ، أولئك الزوج ، الذين كانوا قد تم إحصائهم بحمولات كاملة إبتداء من منتصف القرن ، من أجل قطع أشجار الغابات ، والمساعدة على تنمية المزارع البرازيلية للسكن وللقهوة .

وفي العلاقات مع أوروبا ، لم تكن التجارة البحرية تستخدم طريق رأس هورن ، والذي كان كبير الصعوبة . وظل المركزان الرئيسيان للتبادل هما ذاتها دائماً ، قرب برونز بيا ، فيدأ كروز على ساحل المكسيك ، وإلى الجنوب أكثر من ذلك بورتو بولو ، والتي كانت تصل إليها السلع الآتية من بيرو أو من شيلي عن الطريق التقليدي المعادن النفيسة . ولقد ذكرنا أن مبدأ الميثاق الاستثماري قد أُلغى في عام ١٧٧٨ . فشأت عنه حرية تبادل تجاري كاملة مع الوطن الأم . ونتجت من ذلك زيادة ضخمة ومباشرة ، للمبادلات .

٧ - شمال إفريقيا :

وأخيراً ، في إفريقية كانت رحلات الاستكشاف قد بدأت بالكاد . فكانوا يصعدون بحاري الأنهار الكبرى التي كانت قد أنشئت عند مصباتها المراكز الأولى : فيدأ البرتغاليون في استكشاف مناطق موزمبيق ، كما بدأ الفرنسيون في استكشاف مناطق السنغال .

وظلت المنافسة على أشدها وحامية بين الدول على طول ذلك الساحل الذي كانوا قد سموه من قبل «ساحل الذهب» ، وحيث كان التعامل في المعادن النفيسة قد فقد تقريباً كل أهميته . وكان الهولنديون والفرنسيون والإنجليز والدايمركيون على التوالي موجودين هناك . وكانت منطقة سيراليون هي التي يضمن التوازن الخاص بشركات التجارة في العبيد قبل غيرها . وحصلت إحدى الشركات الإنجليزية ، ذات الأهداف الإنسانية ، في عام ١٧٨٧ ، على حق إنشاء أول مركز هناك للجوء والإلتجاء ، السود ، الذين خرجوا عن نطاق العبودية . ومن ناحية أخرى ، نجد أن «الرابطة الإفريقية» ، African Association ، والتي تأسست في لندن في عام ١٧٨٨ ، أعطى نفسها ، وكهدف أول ، أن تضع قائمة بإمكانات القارة السوداء .

ولذلك فإن تاريخ تبايات شمال إفريقية بنوع خاص ، تقريباً وحده ، هو الذى سوف يجتذب إنتباهنا ، فى تعاملهم مع الدول البحرية .
وفى الحياة الخارجية لتبايات ، مالت إنجلترا ، وقد أصبحت الدولة البحرية الأولى فى العالم ، إلى أن تلعب دوراً هاماً . وقامت ، فى أثناء حرب ، الوراثة الإسبانية ، بتزويد الجزائر بالأسلحة والذخائر : وهكذا حصلت على تسيلات لتجاريتها كانت ترفض بالنسبة للدول الأخرى .

وكان من الصعب المقارنة بين ظروف معيشة الأوربيين المقيمين فى مدن الجزائر وتونس ، وبين ظروف معيشة الأوربيين الآخرين فى مساكن ومراكز شرق البحر المتوسط . ولقد كتب أحد الفرنسيين الذين أمضى عدة سنوات فى الجزائر ، فى السنوات السابقة لعام ١٧٨٩ ، يقول : « إنهم ينظرون إلى قناصل كل الدول هنا على أنهم رعاياه ؛ فكان لا يمكنهم الذهاب إلى الميناء إلا بتصريح ، وليس لهم حق حمل السيف ... الخ . وبالنسبة للدول الثانوية ، مثل السويد ، والدانمارك ، والاتايلم المتحدة ، لم يكن الجزائريون يشعرون بأنهم مقيدون بأى إرباط ؛ فكانوا حتى يطلبون منهم ، كل عامين ، هدايا قنصلية » . كانت تشمل فى الغالب على معدات حربية ، أو مواد للإنشاءات البحرية . أما بالنسبة للبنادقة ، فإنهم كانوا يفضلون أن يدفعوا جزية فعلية ، من الامسوال ؛ وكانت بعض الصعوبات التى نشأت ، إبتداء من عام ١٦٧٦ ، بين الجمهورية وبين التبايات ، تعود فى أصولها إلى مسألة الهدايا هذه ، وإلى كانوا يسعونها « المنع » .

وفى خلال هذا القرن ، دخل الجزائريون مرات عديدة فى حروب مع المغاربة ، جيرانهم من الغرب ، ومع التونسيين ، جيرانهم من الشرق . وفى مرتين ، زحف جيش جزائرى حتى مدينة تونس ، وأجبر الباي على الحرب ، وشادوك فى تعصيب آخر فى مكانه . ولإبتداء من عام ١٧٥٦ ، أصبحت تونس تدفع حتى الجزائر جزية سنوية .

وكان الإسبانئون كذلك يحدون في بعض الحالات صعوبة في التعامل مع الجزائر . وساءت العلاقات بينهما ، وبخاصة في أثناء الربيع الأخير من القرن . وعندئذ قوت حكومة مدريد ، وتبناً لتوصية حلفائها الفرنسيين ، أن تنهض مع إسطنبول . وحصلت على معاهدة سمحت لإسبانيا بأن يكون لها قنصل في كل موانئ الإمبراطورية ، مثلها في ذلك مثل بقية الدول المسيحية . ولكن الداي لم يوافق بسهولة على إطاعة إقتراحات السلطان ، من نفسه . فوضع أمام إسبانيا صعوبات كثيرة ، وإل حد أنهم قرروا القيام بعملية حربية ضده في شهر يوليو ١٧٨٣ . وقبل كل من ملك نابول ورئيس جماعة فرسان مالطة أن يشترك فيها . ولما فصلت هذه المحاولة في إعطاء النتائج المطلوبة ، اضطروا إلى تجديدهما في عام ١٧٨٤ ، ودون الحصول على نجاح أكبر . وأخيراً ، في عام ١٧٨٥ ، وحين حلوا في الجزائر بأنهم يقرمون باستمدادات في قادس من أجل حلة ثالثة ، زاد منقطع الرأي العام إلى درجة اضطّر معها الداي إلى التفاوض .

أما نيابة تونس ، فإنها كانت أقل ثورية من نيابة الجزائر ، بالنسبة للتفوذ الأوربي ، وخاصة بالنسبة للتفوذ الفرنسي . وكان كثير من الأجانب يقيمون بشكل دائم في مدينة تونس ، ولم يكونوا يخضعون لنفس الشعور بقلة الثقة . كما أن الميليشيا هناك لم تكن كلها من أصل تركي ، كما كان عليه الحال في الجزائر : فكان عدداً كبيراً من المتحولين من المسيحية ، من أجل الحصول على أمر تحرّوم بعد بضع سنوات أمضوها في الأسر أو في السجن ، قد خدم في هذه القوات . كما أن التجارة الأوربية كانت في تونس أكثر نشاطاً عنها في الجزائر . وكانت الصادرات صوب أوروبا لا تقتصر على مجرد القمح والتبغ ، واللوز والشمع . فكانت هناك صناعة تونسية ؛ وكانت بعض منتجاتها تصدر ، وخاصة الطرايش الحمراء ، التي كان المسلمون يضعونها تحت العمامة على رؤوسهم في جميع أنحاء

حوض البحر المتوسط . ومن ناحية أخرى ، استمرت تونس في أن تكون محطة للتجارة الافريقية : فكان يصلها باستمرار ريش النعام وتبر الذهب ، بالقوافل من السودان .

وبعد عام ١٧١٥ ، وكما كان يحدث في كل مرة تكون فيه فرنسا وإسبانيا متحالفتان ، هزت العلاقات بين بلاط فرساي وبين التبايات . وبدأت حتى أنها تسهر صوب الحرب ، في نفس اليوم الذي نهض فيه الإمبراطور شارل السادس في عقد اتفاقيات مع تونس ومع الجزائر . وتمت القطيعة في عام ١٧٢٨ . ولكن سرعان ما خضع باي تونس للمطالب الفرنسية . أما بالنسبة لعربايس فإن الأمر كان يتطلب إستخدام المدافع . وتم ضرب المدينة بالمدفعية طوال أسبوع ، دون الحصول على النتيجة الموجودة . ولم يخضع الباشا هناك إلا في العام التالي ، وحين علم بأمر إعدام أسطول جديد .

وحادت العلاقات بين تونس وفرنسا من جديد ، وأصبحت مشحونة ، قبل حرب الوراثة النمسية بقليل . وكان ذلك بشأن مشروع الحصول على جزيرة بقرقة ، والتي كانت إحدى ممتلكات جنوا ، قرب الرأس السوداء . وكان الباي قد علم بالمفاوضات الجارية ، فأمر بإحتلال الجزيرة . واحتجبت الحكومة الفرنسية ، واستعملت الحرب . وبعد ذلك ، ونتيجة لتشوب الحرب في أوروبا وافقت الحكومة الفرنسية على صلح يقوم على أساس الحل الوسط ، وهو صلح أعاد لها الرأس السوداء ، والتي كان قد تم إحتلالها في نفس وقت إحتلال بقرقة .

وبعد حشرين عام من ذلك ، كان أمر ضم فرنسا لجزيرة كورسيكا سبباً في صدام جديد . وكانت حكومة الباي تهتم دائماً بحصير الجزيرة ، التي كانت تقدم ملاجئ مناسبة لرجال البحر التونسيين . وحين علمت بأمر معاهدة فرنسا مع بنوا ، أعلنت عدم وئائها . فطلبت من حكومة لوى الخامس خضرت تخفيضات

وبلهجة شديدة ، ثم أرسلت أحد الأساطيل لكي يذهب معاليها . وتم صف بنزت وسوسة على التوالي بالمدفعية ، في عام ١٧٧٠ . وتم عقد الصلح في نفس العام ، وجاءت سفارة تحمل إلى فرساي تأسف الباي .

ومن تونس ، نمر إلى المغرب . فنذ الوقت الذي كف فيه الفرنسيون عن أن يصبحوا خصوم الإيبانيين ، لم يحاولوا في فاس أو في مراكش أن ينظروا إليهم على أنهم حلفاء ولا حتى كأصدقاء . وأصبحت الحياة صعبة بالنسبة لتوئك الذين كانوا يعملون في التجارة ، واضطرت الحكومة إلى أن تستدعى قناصلها من سلا ومن تطوان ؛ ولدة تقرب من أربعين عاماً ، لم يعد هناك قناصل لفرنسا في جميع أنحاء السلطنة الشريفة . ولقد أفاد الإنجليز من هذا الموقف الجديد . فحصلوا من جبل طارق ، عززاً تجارياً كبيراً ، في نفس الوقت الذي كان فيه قلعة حربية . وحصلوا من السلطات المغربية على بعض التسهيلات من أجل تموين المرفق ، والذي كانت توجد فيه أساطيل حربية . وفي ميناء سلا ، أصبح عدد السفن الإنجليزية عشرة أضعاف عدد السفن الفرنسية . ومن ناحية أخرى ، أصبح القمح المغربي يصدّر الآن إلى إنجلترا ، بينما أخذت الأصواف الإنجليزية مكان الأصواف الفرنسية في السوق المحلي . وفي خلاف ذلك ، أصبح العلم الوحيد الذي يحترمه رجال البحر المغاربة هو العلم البريطاني .

وبدأت في عام ١٧٥٧ مرحلة جديدة مع حكم المول محمد . وكان معادياً للإنجليز ، الذين أخذ عليهم مساعدة منافسه على العرش ؛ فأظهر رغبة في التقرب إلى فرنسا ، ولذلك فإن المفاوضات بدأت ، بسد عام ١٧٦٣ ، وبعد إتمام العرب في أوروبا وفي أمريكا . وتبع الإيبانيون حلفاءهم الفرنسيين ، وتم التوقيع على معاهدتين في مراكش في نفس اليوم (٢٨ مايو ١٧٦٧) . ورغم المشابهاة القديمة ، فإن هاتين المعاهدتين كانت بينهما بعض الاختلافات : فن ناحية إسبانيا ،

كانت مسائل الحدود، وطروحة حول الأراضي التي تحيط بالمراكز *Présidées* المحتلة. أما فرنسا فإنها حصلت ، لحسابها ، على فترة الأمة الأكثر وداً في الفنون التجارية . ومنذ التوقيع على المعاهدة ، تم إفتتاح القنصلية الفرنسية ، والتي كانت شاغرة منذ وقت طويل ؛ وكان أول مرشح لها هو الأب أندريه شيفيه

• André Chénier

وفي وقت حرب أمريكا ، والحصار الذي فرضه الاسبانيون على جبل طارق ، إمتنع المولى محمد عن أن يظهر أقل ميل إلى الانجليز . وكانت حملته الخاصة بالتصالح مع الدول المحاطة على البحر المتوسط قد تمت بطريقة جيدة للغاية ، حتى أنه وافق في عام ١٧٨٠ على عقد معاهدة جديدة مع إسبانيا توسع من مدى حسن الوفاق الذي كان قد تم في عام ١٧٦٧ ، وتعمل منه تحالفاً فعلياً : فتعهد الملكان بأن يعطى كل منهما الآخر معرفته وحمايته في حالة نشوب حرب ، وضد أعداء كل منهما .

ومن جانب فرنسا ، حدثت أزمة في أحد الأوقات . فكان السلطان قد غضب من أن الملك كان قد رفض أن يرسل إليه ، في عام ١٧٧٤ ، أحد السفراء ، كما كان قد طلب ، بدلا من مجرد قتصل . ولكي يظهر غضبه ؛ حلف ، من خطاب الاعتماد المرسول عن البعثة لدى لوى السادس عشر ، في عام ١٧٨١ ، لقب دسلاطن فرنسا ، ؛ والذين كانوا قد تعودوا ، مرات عديدة أن يضيفوه الملك ، سواء في المغرب أو في الدولة العثمانية . وبناء على ذلك ، لم يتم إستقبال المندوب في فرساي ؛ وقام المولى محمد بإمانة شيفيه علناً . ومع ذلك فإن التوتر لم يستمر بين البلدين لفترة طويلة ، وطادت المحادثات بعد قليل ، ومعاهدة جديدة لكي تمجد وتكمل معاهدة عام ١٧٦٧ . كانت أهم نتيجة لسياسة التقارب مع الدول المسيحية ، والتي سار عليها المولى محمد ، هي إخفاء عمليات الترحنة

(المهاد البحري) من سلا ، وهي التي كنا قد أشرنا إليها في بداية دراستنا للقرن الثامن عشر .

٨ - مصر تجتلب الانتباه :

ولم تكن روح الإستعمار ، التي كانت قد أدت إلى الكثير من عمليات التوطن المختلفة فيها وراء البحار ، قد ظهرت بعد عند نهاية الصور الحديثة ، وفي علاقات الدول العظمى بالبلاد المطلة على البحر المتوسط .

وكانت مصر هي أول من أثار الأطماع . وتاريخ هذه الأطماع ، التي تملأ الريخ الأخير من القرن ، وتنتهي بحملة بوناپرت Bonaparte ، هو على ارتباط وثيق بصعوبات ومآسي الدولة العثمانية . وعلى خلاف نيابات شمال إفريقيا ، كانت مصر تعترف بالفعل بسيادة إستانبول . وكان السلطان هو الذي يختار الباشا الذي يحكمها . ولكن سلطته أصبحت ، أكثر فأكثر ، محدودة بالاضباط الذين كانوا يحيطون به . ولم يكونوا يرفعون غالباً ، وبشكل واضح ، أن كان هو الباشا ، أو معاونوه ، الذين يمارسون السلطة الفعلية . وكان القناصل الأجانب يبدون صغوبة في التعرف عليهم . ولذلك فإنهم إستخدموا التفسير الجماعي من أجل الإشارة إلى الحكومة ؛ كانوا يقولون : « الحكم » .

وبعد قناريديجي ، وحينما أصبحت الإمبراطورية العثمانية مضطرة إلى أن تقوم بمجرد الدفاع عن نفسها وعلى كل الحدود ، بدأ مصر مصر يشهد إهتمام الفرنسيين والإنجليز ، والذين كانوا يتنافسون على النفوذ هناك . وكانت فرنسا قوية بنوع خاص في مصر ، وذلك بسبب أهمية تجارتها ، وعدد تجارها ، الذين كانوا يقيمون في القاهرة ، وفي الإسكندرية ، وفي دمياط ، وهي المدن الثلاث التي كانت توجد بها جاليات فرنسية منظمة . وفي ذلك القرن الذي أتمت فيه القوة أمر غزوها لأوربا ، أخذ الفرنسيون ، والذين كانوا من بين أكبر

مستهلكيها ، دوراً هاماً في تجارتها التي كانوا يحملون الجزء الأكبر منها . ومن جانب آخر ، كان العثمانيون والمصريون لا يسهلون لهم عملهم ، وكان عليهم أن يجددوا دائماً جهوداتهم من أجل تحاشي معوقات التصدير . وفي أثناء سنوات ١٧٧٠ ، عمل الإنجليز من أجل فتح طريق البحر الأحمر ، والذي كان ممنوعاً منماً بآناً على الأوربيين ، بسبب قربه من الأراضي المقدسة الإسلامية .

وفي أثناء هذا الجزء الأخير من القرن ، زاد عدد المذكرات ، في مكاتب وزارة للشئون الخارجية في فرساي ، والتي تشتمل على دراسات الوسائل اللازمة لقطع الطريق ، في وجهه الإنجليز ، المؤدى إلى الهند ، وكذلك بشأن حفر قناة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر . وسرطان ما أصبح الأمر يتعلق بمسألة إرسال حملة عسكرية إلى مصر . ولم يكن هناك شك في أن فهدجين ليس هو الرجل الذي سوف يقوم بتنفيذ ذلك . ولكن الفكرة أخذت طريقها . وبعد أن انتهت حرب أمريكا ، وجدت لها أنصاراً ، وبأعداد متزايدة . وأخيراً حصل أحد المشروعات الخاصة بحفر قناة يروخ السويس على القبول . وحصل أحد ضباط البحرية ، الذي تم إرساله سراً إلى القاهرة ، على إتفاقيه هناك ، وعد بها المصريون بضمان أمن القوافل التي تنقل السلع من السويس إلى الاسكندرية (يناير ١٧٨٥) . ونتيجة لذلك ، أظهر السلطان غضبه ، وكانت قائدة الأسطول العثماني ، القبطان باشا ، بأن يحمل إحدى الحملات وينقلها إلى مصر . وفي شهر يوليو ١٧٨٦ ، نزل ما بين ألف و ١٠٥٠٠ جندي في الاسكندرية ، وإحتلوا الدلتا ، وتقدموا حتى القاهرة . وتم إختيار أحد البكوات المحليين كباشا لمصر ، وذلك في الوقت الذي قام فيه الباشا السابق بالالتهام إلى صعيد مصر ، وإدعى أنه سوف يبقى بالقوة ، وبدأ الحرب الأهلية .

وهكذا تبدو لنا حملة بونابرت على مصر ، ومن بعيد ، على أنها تدخل في خط تلك السياسة الجديدة ، والتي لم تتمكن حكومة لوى السادس عشر ، والتي إجتهدوا الرأي العام ، ومع مرور الزمن ، من أن ترفض الموافقة عليها .

خاتمة الكتاب

في أثناء هذه القرون الثلاثة التي درسناها ، قرون ثلاثة كبرى إذا ما نظرنا إليها من وجهة نظر الفكر - قرن النهضة ، وقرن ديكارت Descartes ، وقرن النور - لم تتغير الصفات العامة للعلاقات الدولية بشكل ملموس . ولقد لاحظنا أثناء هجورنا تنهات لها دلالتها الحقيقية : ولكنها كانت قليلة في عددها وليس لها مدى بعيد . وإذا كانت روح الحرب ، عند الأمم الأكثر تطوراً ، قد أظهرت بعض الميل إلى التراجع ، فإن الحرب ، وبصفتها أداة مميزة للسياسة الخارجية ، قد استمرت رغم ذلك في التحكم في علاقات الدول مع بعضها ، وفي علاقاتها مع الدول غير الأوروبية .

وفي هذا العالم الذي كرس نفسه للحرب ، فإن ما يعطى صفة عامة للمعصور الحديثة - وإستمراريتها المباشرة ، الفترة المعاصرة - هو إستخدام وسيلة القتل البائلة هذه . وهو المدفع ، والذي كان قد ظهر عند نهاية العصور الوسطى ، وإستمرت عملية تحسينه بإستمرار . وإن قرننا العشرين وحده هو الذي سيحمله يفقد هذه السيادة ؛ والتي لم يجرؤ أحد من قبل على تنازحه إياها ، وذلك بأن أحل محل أسلحة أكثر قسوة منه - ودون أن ينقله من ناحية أخرى إلى مصاف المعدات التي فقدت أهميتها تماماً .

وكان المدفع ، منذ ظهوره ، أحد المعدات المكلفة . ولذلك فإنه بدأ أن إقتصاد القوة ، في مثل هذه الظروف ، وكأنه يتطابق مع إقتصاد الأموال . وعند نهاية العصور الحديثة ، كانت أكبر دولة عسكرية وأكبر دولة بحرية - فرنسا وإيطاليا - هما كذلك الدولتان الإقتصاديتان الأولتان في العالم . ونتيجة للمكاسب التي كانتا تحققانها الصناعة ومن التجارة ، كان في وسعهما أن يصنفا

عدداً متزايداً من قطع المدفعية ، الواحدة لكي تدعم بها واجهات المعركة التي يقوم بها المشاة ، والثانية من أجل تحميل جوارب سفنها الحربية .

وفي العصور السابقة ، كنا قد رأينا دولاً صغيرة - البرتغال أولاً ثم الأقاليم المتحدة ، والتي أثرت من التجارة مع الهند الشرقية والهند الغربية ، ترتفع إلى المراكز الفعلية للدول العظمى - وتعامل ، ولفترة من الوقت ، معاملة اللند مع أكبر الدول . ولكن الواحدة والأخرى حادت إلى المركز التابع الذي كان يكرسه لها عدد سكانها غير الكبير . وتركنا نفسيهما تجمان إلى الخضوع لإحتلال وسيطهم المستقبل على تأكيد وتقوية وضعية خضوعهما هذه .

ولقد اعتقدنا أن من حقنا أن نقول : المغامرة البرتغالية ، ، وذلك عندما كنا نذكر بذلك المصير الذي يشهده الدفعة لهذه الأمة الصغيرة ، والتي كانت هي البرتغال ، في القرن السادس عشر . وجملة « مغامرات » أخرى بعد ذلك ، وإن كانت مختلفة عنها شيئاً ما : المغامرة السويدية في القرن السابع عشر ، والتي أسهم إلى حد كبير فيها وجود مواد أساسية ، لصناعة المدفعية في أرض السويد ؛ وكذلك المغامرة البروسية في القرن الثامن عشر وهي التي تشرح السلوك الإستثنائي لأحد الملوك ، أكثر من شرحها لسلوك أمة وسوف نرى دولة بروسيا تستمر في نموها في أثناء القرن التاسع عشر ؛ وإن كان ذلك لن يحدث إلا بعد أن تنجح في أن تربط مصيرها بمصير ألمانيا كلها .

وبما ليس لنا الحق في أن نقدم أن عصر « المغامرات » ، قد إنتهى ، في ذلك الوقت الذي سوف يبدأ فيه في فرنسا عصر الثروة الفرنسية ومع ذلك ، فإن هناك شيئاً قد تنير في العالم فإن نجد بعد ذلك دولا غنية بالمعادن النفيسة ، ولكن فقيرة في الرجال ، تشارك في لقاءات العسكرية الكبرى . ولن نتحدث الصدامات ذات الصدى الكبير ، منذ ذلك الوقت ، إلا بين دول عظمى معينة ، وهي التي أصبحت

تأتمتها من ذلك الوقت بمدة تقريباً . وفي هذه المرحلة الأخرى من التاريخ العالمى ، وإلى جانب الضرورات الاقتصادية ، ستظهر ضرورات أخرى متحركة . هى الضرورات الديمغرافية ، أو السكانية . وسوف يكون وزن أكبر عدد من الجنهيات في ميزان القوى التى سوف تواجه أقل من وزن كبر عدد الرجال . والدول الوحيدة التى أصبح لها وزن ، منذ ذلك الوقت ، هى تلك الدول التى كان في سبها أن تصف على أرض المعركة عدداً هاماً من الوحدات ، إذ أنها لا تمتلك الثروة فقط ، ولكن تمتلك كذلك طاقة سكانية مرتفعة .

وهكذا أصبح قانون العدد ملوماً الآن في عملية تطور المجتمعات الإنسانية ، مع تأخر قاهر . ووجد في أول الأمر تعبيراً عنه في عملية التنظيم الداخلى للدول . وسرعان ما تزايد عدد المجالس التمثيلية المنتخبة ، والتي تتمكن الحكومات عن طريقها من معرفة ميول الشعوب التى تتحدث بإسمها : وسوف يحدد النظام البرلماني ، والذي قامت إنجلترا شيئاً فشيئاً بإتمام صياغته ، والذي سوف يعرف نجاحاً تزايداً في أثناء القرن التاسع عشر ، بتكريس سيادة مبدأ الغالبية .

وفي ميدان العلاقات الدولية ، ليست آثار قانون العدد أقل وضوحاً ، ولا أقل أهمية . وسوف يعبرون دائماً وبدرجة أكثر وضوحاً عن قوة الدول بأرقام من أعداد قواتها العسكرية . وهذه الأرقام تمشي مع أرقام تعداد السكان ، وبخاصة منذ ذلك الوقت الذي سوف تصبح فيه ، وعلى سبيل تقليد ملحة آل هونزورن ، الخدمة العسكرية العامة والإجبارية ، تنظيمياً أساسياً ، ومشاركاً بالنسبة لكل الدول . ومنذ ذلك الوقت سيصبح مستوى القوى الديمغرافية (السكانية) عاملاً له أهمية قصوى في الحياة للدولية . وسوف يمثل هذا سبباً إضافياً ، وسبباً حاسماً ، مقروءاً ، لكي لا نرى بعد ذلك دولا قوية تعرض رغباتها على دول أكبر ، حتى وإن كانت أقل تنمية وجهة النظر الاقتصادية .

ولما كانت إقامة النظام البرلماني تعنى إضعاف — إن لم يكن نهاية — النظام الملكي المطلق ، فإن ذلك يعطى نتائج معينة على الحياة الدولية . فمنذ الوقت الذي أخذت فيه سلطة الملوك تصبح محدودة ومحدودة بسلطة الممثلين المنتخبين للامة ، أخذ صفتها الشخصية في الخفوت . وقددت عمليات الاتحاد بين الأسر الحاكمة ، والتي دعمتها الزيجات ، في فقدان أهميتها . وعلينا أن نذكر هنا تلك الظروف الطارئة — أو غير المتوقعة — والتي أدت ، في بداية القرن السادس عشر ، إلى الجمع بين تاجين عظيمين على نفس الرأس ، وهما تاج الإمبراطورية المقدسة ، وتاج المملكة الأسبانية . وبعد نهاية القرن الثامن عشر ، ستصبح مثل هذه الأحداث في أوروبا بعيدة الاحتمال للغاية . ولن تصبح مصائر الشعوب ، وكذلك مصائر الأراضي التي يسكنونها ، تحت رحمة مثل هذه الإرتباطات ، أو مثل هذه الصنف .

ولكن ، علينا ألا نسبق الزمن . فذلك التطور الذي نحاول رسم خطه البياني ، لم يكن واضحا حينما جاء تاريخ ١٧٨٩ ، تاريخ الثورة الفرنسية ؛ والذي هو في نفس الوقت نهاية الصور الحديثة . وعلينا أن نتساءل فقط ، وقبل أن تنتهي ، عن الإتجاهات التي سوف تتوجه إليها في ذلك الوقت السياسة الخارجية للدول الرئيسية ، وهي التي تتحكم مبادراتها في التاريخ بعد ذلك .

أما السياسة الفرنسية فإنها تخلصت من الميراث الخطير لوى الرابع عشر . ومع فيرجن ، أدارت حتى ظهرها لأحد أهدافه الرئيسية ، وهي ضم الأراضي المنخفضة . ووافق البوربون ، بعد ترددات كثيرة على عملية تقرب مع أكبر خصومهم في الماضي ، وهم آل هابسبورج النمسا . وبالتأكيد ، أنهم لم يقوموا بإعطاء أنفسهم لهذا التحالف التمسوى الجديد دون تمنع . وكانت الصداقة النمساوية قد أساءها ، على الأقل ، شيء من الناس ، وافتتح الطريق أمام عقد إتفاقيات

مع روسيا . وكان الأمر في حاجة إلى الثورة ، لكي تذكر الفرنسيين بضرورة إنجاح ذلك العمل ، والذي إنقطع أكثر من مرة ، بشأن الوحدة الإقليمية .

أما السياسة الإنجليزية فإنها كانت متفرغة ، من جانبها ، لإعطاء أولوية للدفاع عن المصالح البحرية والتجارية للإمة . وكانت قد أصبحت سياسة إمبراطورية ، كانت الاجراء التي تتكون منها موزعة ، عبر الكرة الأرضية ، على مجموع القارات والمحيطات . وأعلنت أنه ليس لها مصالح في أوروبا . ولكنها إهتمت بمسألة إحترام مبدأ التوازن ، والتي كانت هي نفسها البطل المدافع عنه ، منذ أن كان لوى الرابع عشر قد إستوحى من مبادئه واضحة السيطرة .

وأما السياسة النموية فإنها ظلت في أساسها موجهة في إتجاه الشرق ، وبالتالي مغلصة للوفاق مع روسيا ، طوال الوقت الذي لاتتصادم فيه مصالح الدولتين في البلقان . وإستمرت في تقليل أهمية تلك المهالك الخطيرة التي يمكن أن يولدها لها أمر صعود بروسيا ، تلك الدولة المهددة .

وأما السياسة الروسية فإنها ظلت دائماً مغلصة لذلك الإنجاء المزدوج والذي كان قد أعطاه لها بطرس الأكبر ، والذي كان معادياً للسويد ومعادياً للعثمانيين في نفس الوقت ، وبالتالي يقوم على أساس الوفاق مع دول بحر البلطيق من ناحية ، ومع فرنسا من ناحية أخرى . ويبدو أن القفلة البطيئة للقوميات البلقانية قسدت ساعدت على أن تفتح أمامها إمكانيات عمل واسعة في إتجاه البحر المتوسط .

وأخيراً ، في بروسيا ، فإن آل هوهنزلرن ، قد أكدوا كذلك إنصياهم للترسبات التي كان قد تركها لهم الأكبر من بينهم . وإذا كانت هناك نقطة سوداء في أفق أوروبا هذه ، والتي كانت اللبول السلبية تبدو على أنها تزايد فيها ، فإن ذلك كان يرجع بنوع خاص إلى قدرتهم على رؤيتها . وكان مجرد

وجود هذه الدولة المفترسة يمثل تهديداً دائماً لمستقبل وسط وشرق
القارة .

ولكى نظل مخلصين في تفكيرنا لهذا القرن الثامن عشر ، الذى انتهى عنده ،
ليس علينا أن نترك مكاناً لفكرة التقدم ، والى كائت هذه الفترة ، وبقلم تيرجو
Turgot أو كوندورسيه Condorcet ، قد وضعها في نطاق «المودة» ، والى سوف
تزداد قيمتها في أثناء القرن التالى ؟ ألم يعمل الرجال بكل رؤية واضحة من أجل
تحميد الطريق لسعادة هذه الإنسانية التى كانت قد تصالحت في نهاية الأمر مع
نفسها ؟

ونشر إلى أى مدى يمكن أن تصل إليه صعوبة الإجابة على مثل هذا السؤال ،
إذا ما افترضنا أنها تتضمن إجابة موضوعية . ولم يكن إغراء الحرب قد
تناقص عند الحكام ، كما أن وسائل الحرب كانت قد أصابها التعديل ، كما ذكرنا .
ويبقى أن القانون الدولى العام . فيما يتعلق بالسلم وما يتعلق بالحرب ، قد أصبح
أكثر تهديداً ، وكان قد طهر نفسه بأن تخلص من بعض المورسات المنيئة ، والى
كانت موروثة من ماض بعيد ، وأصبحت الآن مرفوضة ، وعلى أنها تسير
البربرية . ولذلك فإننا نجد أن روح «الحضارة» قد مارست ، مع ذلك ، نفوذها
ونماذجها : «الحضارة» civilization ، ككلمة جديدة ، أو على الأقل كان قد بدأ
إستخدامها — قرب عام ١٧٦٠ — وبالمعنى الذى لسطه لها اليوم . وأما فيما
يتعلق ، بالنسبة للعلاقات الدولية — وبخاصة في الحرب — بأن تتم الحضارة
الحديثة أمر إستصدارها على البربرية ، فمن الواجب علينا ، وكرجال
أواسط القرن العشرين ، أن نتنظر وقتاً طويلاً في المستقبل ، لنعرف
مداه .

وعلى أى حال فإنه من الواضح أن سكان أوروبا قد مالوا ، وأكثر من الماضى ،

إلى تشكيل مجموعة أكثر إنساحاً ، بواسطة الثقافة وبواسطة العادات الاجتماعية في الوقت . وكانت الحياة التي نعيشها ، هنا وهناك ، الطبقات العليا ، تمثل بعض ملامح التشابه . ولكي نأخذ مثلاً واحداً فقط ، نقول أن أوقات الفراغ بالنسبة لكل البلاد كانوا يرغبون ويميلون إلى قضائهم في البندقية . فكانت البندقية المغربية هذه ، والتي أسلمها مونتسكيو في أحد الأيام ، للفندق الأوربي المرح ، يجتذب إليها كل أولئك الذين كانوا ، ومن أي بلد ، يتمتعون بأوقات الفراغ وبالمال في نفس الوقت : فكانت تمنعهم ملذات سهلة تحت سماء بهيجة . وكان الإنجليز ، قبل عهدهم ، هم الذين يعطون لها هذا الطعم . فكانوا يسكنون بلاد مليحة بالضباب ، ويشعرون بالتأني بأنهم منجذبين بنوع خاص إلى السواحل المشمسة على البحر المتوسط . وكانوا لا يشعرون بالقرب في البندقية ، وخاصة أبناء لندن ، والذين تعودوا استخدام الطريق المائي لكي يصعدوا نهر التايمز أو ينزلوه ، أو حتى يسبروه على قواربهم .

وفي بعض الحالات ؛ وفي أثناء النصف الثاني من القرن كان هؤلاء الأثرياء من الإنجليز قد بدأوا في النزول في نيس ، وهو ساحل آخر بهيج ، ومرجبط بسافوا ، وسيت وجد كريفال البندقية ، فيما بعد ، منافساً خطيراً له . وكانوا يتوقعون هناك ، في مرورهم ، قول أن يكملوا طريقهم إلى البندقية ، أو فلورنسا ، أو روما . وهكذا بدأت ، قرب نهاية القرن ، وقرب نهاية العهد القديم ، حركة سياحة حولية . أما الإنجليز الذين اخترعوا هذه الكلمة ، فإنهم لن يستخدموها بكثرة إلا في فترة تالية . ولكنهم بدأوا ، منذ ذلك الوقت ، في ممارستها . وكانوا حتى ذلك الوقت قد اقتصروا على إرتياد المحطات الخاصة بالمياه العلاجية الشهيرة ، مثل إكس وبلومبييه . أما الآن ، فإن المادة ، قد انتشرت بالعيشة في المراكز الصغيرة على سواحل البحر ، وسيتلوها ، عند نهاية القرن ، بالإقامة في

الجهال : فأخذ مستقبل شامونيكس في الظهور في سنوات ١٧٨٠ . فزاد عدد الأدلاء والمخيفين والرحلات عند نهاية القرن .

وفيا بين هؤلاء الذين كان الفضول يدفعهم إلى الخروج من بلادهم ، نجد الأنجليز ، ونجد كذلك الألمان . وكانوا في غالبيتهم من الشباب . وكان هدف تقاليم لا يقتصر على مجرد التمتع بالمناظر والمواقع ، بل يتعداه كذلك إلى زيادة تعليمهم . ومنذ قرن مضى ، كان ليبنتز Leibniz قد أخذ على أبناء وطنه هذا التعلق الشديد بالتجوال ، والذي إتهمه بغيانة الروح الوطنية .

وهكذا كانت هناك تجديدات كثيرة تنمو في هذا القرن المضطرب بالآراء الجديدة ، والمشاعر الجديدة . وفي ميدان السياسة الدولية - والتي علينا أن نعود إليها في الختام - علينا أن نتذكر ظهور (وقد أشرنا إلى ذلك في الصفحات الأولى) ، فكرة من المستقبل ، هي فكرة إتحاد ، أو رابطة ، أو عصبة ، للأمم المتحدة : ظهور بسيط وبالكاد ، حتى أن وقت نجاحها لم يكن قريب .

وسوف تدير الثورة الفرنسية ظهرها لهذا المثل الأعلى الجديد ، وذلك بتثمينها الروح الوطنية ، وكمصدر للانانيات القومية . وسنعمل على أن نؤخر ولعدة تزيد على القرن ، تلك المجهودات البناءة التي كانت تتجه إلى هذا الاتجاه . ومن وجهة النظر الدولية ، فإن هذه الحركة الكبرى لتحرر الإنسان وللتجديد سوف تسهر - ونجد أننا ونحن نقررها - في ألحان صارب الماضي ، منذ ذلك الوقت بنوع خاص الذي ستمهم فيه الديناميكية التي نشأت في الأمة ، في أمر تحقيق هذه المناصرة النابوليونية الكبيرة .

بعض مراجع الكتاب

ALTMeyer, J. J. ;

Histoire des relations commerciales et diplomatiques des
Pays — Bas avec le Nord de l'Europe pendant le XVI^e
Siècle. 1840.

AMEROSI, Ch.;

La Corse insurgée et la seconde intervention française,
1950.

BASCHET, A. ;

La diplomatie vénitienne. Les princes de l'Europe au
XVI^e Siècle 1803.

BEDARIDA;

Parma et la France de 1748 à 1789, 1929.

BELLOT, H. H.;

American History and American Historians. 1952.

BLACK, J B ;

The Oxford history, t 8. The reign of Elizabeth
(1558 — 1603).
Oxford, 1945.

BONSEL, S ;

Soldats de la liberté, 1952.

BOURGEOIS; Emile.;

Manuel d'histoire de politique étrangère. 2^e Ed.
Paris, 1897.

BANDRILLART, A. ;

Philippe V et la Cour de France (1700—1715). 1889.

BRAUDEL, F. ;

De l'or du Soudan à l'argent d'Amérique.
Paris, 1946.

BRAUDEL, F. ;

La Méditerranée et le monde Méditerranéen à l'époque
de Philippe II.

Paris, 1949.

BROGLIE, duc de ;

Le Secret du Roi, 2 Vols. 1878.

—————; L'alliance autrichienne. 1895.

CLARK, G. N.;

The Anglo — dutch alliance and the war against french
trade (1688—1697). 1923.

CANU, J.; CIGNOUX, C. J.; GOBERT, A.;

Histoire du Commerce, Tome IV, du XVe au milieu du
XIXe Siècle.

Paris, 1881.

CARMAN et SYRETT;

A history of the american people. 2 Vols. 1953.

CORDIER, H. ;

Histoire générale de la Chine et de ses relations avec
les pays étrangers.

2 Vols. 1920 — 1924.

COTTERILI, R.S. ;

Histoire des amériques. 1946.

DAVENPORT, F. G.;

European treaties bearing on the history of the United
States and its dependencies.

London, 1917.

DE BONNAULT;

Histoire du Canada Français. 1950.

DEHERAIN,

Histoire de la nation égyptienne : t. 5 : l'Egypte turque.

—————, Les rapports entre la France et la Perse de XVII
au XXe siècle 1931.

ESSEN, Van Der;

Alexandre Farnèse, duc de Parme.

5 Vols, 1833 — 1839.

ESSEN, Van der;

Le Cardinal — infant et la politique européenne de

L'Espagne. T. I. (1609—1634).

Paris, 1944.

FRILING, K. ;

British foreign Policy (1660—1672) 1930.

FEITO; Joseph II. 1953.

FRACOIS, Michel;

Le cardinal de Tournon, homme d'Etat, diplomate,

mécène et humaniste (1489—1562).

Paris, 1941,

GAXOTTE; Pierre; Le Frédéric II. 1939.

GIGNOUX, C.-J.; Monsieur Colbert. 1942.

GILLE, B.;

Histoire économique et sociale de la Russie 1949.

GIPSON, L.H.;

The British Empire before the American Revolution,

7 Vols. 1939 — 1946,

GIRAUD, H.;

Histoire de la Louisiane française, 1850.

GODECHOT, J. ;

Histoire de l'Atlantique.

Paris, 1947.

GOWEN, H.;

Histoire de l'Asie. 1929.

_____ ; Histoire du Japon. 1933.

GROSSET, René;

Histoire de la Chine. 1942.

GRUNWALD, C. de;

Trois siècles de diplomatie russe. 1945

HANOTAUX, G et MARTINEAU, A;

Histoire des colonies françaises, et l'expansion de France
dans le monde

Paris, 1929—1933. 6 Vols.

t. 2 : L'Algérie,

t. 3 : le Maroc et La Tunisie,

t. 4 : L'Afrique Occidentale et Equatoriale,

t. 6 : Madagascar.

HARDY, G. ;

Histoire de l'Afrique 1921.

HAUSER, Henri,

La prépondérance espagnole, (1559—1660).

Paris, P. U. F., 1949.

HAUSER, H. :

La pensée et l'action économique du cardinal de Richelieu.

Paris, 1944.

HAUSER, Henri et RENAUDET, A.

Les débuts de l'âge moderne.

Paris, P. U. F., 1940.

HEGEMANN, Werner;

Le grand Frédéric, 1934.

HILL, D. J. ;

A History of Diplomacy in the international
développement of Europe.

London, 1905—1914; 3 Vols

HUME, M. ;

La Cour de Philippe IV et la décadence de l'Espagne.

Paris, 1912.

IORGA, N. ;

Histoire des Etats balkaniques à l'époque moderne.

1925.

JARAY, G. L. ;

L'Empire Français d'Amérique. 1938.

JULIEN, CH.—A. ;

Histoire de l'Afrique du Nord.

Paris, 1931.

JULIEN, CH.—A. ;

Les débuts de l'expansion et de la Colonisation
Française (XVe—XVIIe Siècles).

Paris, P. U. F. 1947.

JUSSERAND.

Histoire littéraire du peuple anglais.

2 Vols. 1894.

KAMMERER, Albert.

La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie.

Le Caire, 1929—1949. 3 Vols.

LA FERRIERE, H. de ;

Le XVII^e siècle et les Valois. 1879.

LANNOY, de, et LINDEN, Van der;

Histoire de l'expansion coloniale des peuples européens.

t. I : Portugal et Espagne, 1907.

t. II : Hollande et Danemark, 1911.

t. III : Suède, 1921.

LA RONCIERE;

Histoire de la marine française. t. I., II, III, IV et V.

Paris, 1909—1911—1918—1920.

LEFAIVRE, A :

Les Magyars pendant la domination ottomane en
Hongrie (1526—1722),

2 Vols. 1902.

LEFRANCE, Abel,

Histoire du collège de France. 1893.

LEGRELLE,

La diplomatie française et la Succession d'Espagne.

4 Vols. 1895—1899.

LEMÂN,

Richelieu et Olivares.

Paris, 1939.

LUBIMENKO, J. ;

Les relations commerciales et politiques de l'Angleterre
avec la Russie avant Pierre le Grand. 1933.

MACKIE, J. D. ;

The Oxford history, t. 7. The earlier Tudors
(1485—1558).
Oxford, 1962.

MALO, Henri; La grande guerre des corsaires (1702—1725).
2 Vols. 1925.

MABCH, J. M. ;

La batalla del Lepanto y don Luis de Requesena.
1944.

MASSON; Paul;

Histoire du commerce français dans le Levant au
XVII^e Siècle.
Paris; 1896

—————, Histoire du commerce français dans le Levant au
XVIII^e siècle. Paris, 1911.

MERRIMAN, R. B. ;

The rise of the Spanish Empire.
London, 1925—1934. Toms 3 et 4.

MERRIMAN, R. B. ;

Suleiman the magnificent.
London, 1914.

MEUVRET, J. ;

Histoire des pays baltes. 1934.

MILLER, J.C. ;

Triumph of freedom (1775—1783). 1948.

MITCHELL, M. ;

Histoire maritime de la Russie. 1952.

NOLHAC, P. de ,

Louis XV et Madame de Pompadour. 1948.

NYS, Ernest,

Le droit international.

3 Vols. 1904—1906.

OLIVER, D.L. ,

Les îles du Pacifique 1852.

PADOVER,

L'Empereur Revolutionnaire, 1934.

PAGES, G. ,

La Guerre de Trente Ans (1618—1648);

Paris; 1939.

PARES, B. ,

History of Russia. 1948.

PARES, Richard ,

War and trade in the West Indies 1739—1763. 1939.

PASTOR, L. ,

Histoire des Papes depuis la fin du Moyen-âge.

5 t. à 16. (Trad)

Paris, 1898 — 1934

PICAVET, C. G. ,

La diplomatie française au temps de Louis XIV

(1661—1715). 1930.

PIRENNE, Henri,

Histoire de Belgique. t. 3 et 4.

PORTAL, R. ,

L'Oural au XVIIIe siècle. 1950.

————— , une route du fer au XVIIIe siècle. 1954.

POTIEMKINE, Vladimir;

Histoire de la Diplomatie.

Paris, 1946.

PRECLIN, E., TAPIE, V —L.;

Le XVIIe Siècle.

Paris, 1943.

PRZCZDZIECKI,

Diplomatie et protocoles à la Cour de Pologne

1934—1937, 2 Vols.

ROBERTSON, Grant,

Chatham and the British Empire, 1946.

ROTT, Edouard,

Histoire de la représentation diplomatique de la France
auprès des Cantons suisses. t. 1 -- 2.

Paris, 1900—1902.

RUTKOWSKI,

Histoire économique de la Pologne avant les partages.

2 Vols. 1946 — 1947.

————— , Les bases économiques des partages de la
Pologne, 1912.

SALOMON, R.,

La politique orientale de Vergennes. 1935.

SEE, H. , REBILLOM, A. , PRECLIN, E.,

Le XVIe Siècle.

Paris, 1942.

SEMIENOV,

La conquête de la Sibirie. 1938.

SOREL, A.,

La Question d'Orient au XVIIIe siècle. 1878.

STAHLIN ,

La Russie, des origines à la naissance de Pierre le Grand.
1946.

STORMBERG, A. ,

A history of Sweden:
London, 1932.

SUMNER, B.H.,

Peter the Great and the Ottoman Empire. 1949.

TAPIE, V.-L.,

La France de Louis XIII et de Richelieu.
Paris, 1932.

The Cambridge History of the British empire.

t. I : The Old Empire, 1929.

TOUSSAINT-BERTRAND, J.,

Histoire de l'Amérique Espagnole 2 Vols, 1929.

TRAMOND

Manuel d'histoire maritime de la France.
Paris, 1916.

WADDINGTON. R.,

Louis XV et la saevrement du alliances, 1896.

TREVELYAN, G.M.,

England under the Queen 3 Vols, 1936. Revolution. 6
Vols. 1899—1917. Anne. , the american.

WELTER, G.,

Histoire de la Russie. 1946.

WILLIAMSON,

A short history of the british expansion,
London, 1836. 2 Vols.

WOLF, J.B.,

The emergence of the Great powers (1685-1715).
1951.

ZELLER, G. ,

Politique extérieure et diplomatie sous Louis XIV.
Rev. Hist. Mod. et Con. 1931.

ZELLER, G. ,

Saluces, Pignerol et Strasbourg, La politique des
frontières au temps de la prépondérance espagnole.
Paris, 1942—43.
(Revue historique, t 193).

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة : ٢

القسم الاول

من كرسنوف كولومب إلى كرومويل . . . ٩

الباب الاول

القرن السادس عشر ١١

الفصل الاول : المعيزات العامة : ١٢

١ - المسيحية والامم ، نحو الانتاجات القومية . . . ١٣

٢ - التقاليد الدولية والقانون الدولي . . . ١٦

٣ - السفارات الدائمة ٢٤

٤ - التنازل والتعصليات ٢٨

٥ - الجمارك ٣٠

الفصل الثاني : الاعضاء الرئيسيون في المجتمع الدولي وأسس

سماستهم الخارجية : ٣٥

١ - الدول القومية الكبرى ٣٥

٢ - الإمبراطورية والبابوية ٣٧

٣ - بقية الدول ٣٩

٤ - عوامل سياسة الدول ٤٣

الفصل الثالث : مشكلات البحر : المحيط : ٥١

١ - رحلات الكشوف الكبرى وأصولها ٥١

صفحة

التفصيل السابع : إمبراطورية شارل الخامس : ١٥٧

١ - شارل الخامس ١٥٧

٢ - الحرب من أجل ميلانو؛ الحرب الثالثة ومعاهدة كريبي ١٦٥

٣ - تحالف هنري الثاني مع أمراء الإصلاح الديني . ١٧١

٤ - استمرار الحرب بين فرنسا وإسبانيا . ١٧٧

التفصيل الثامن : التفوق الإسباني : ١٨٢

١ - الصدامات الدينية بين الكاثوليكية ومذاهب الإصلاح ١٨٢

٢ - نتائج الصدامات الدينية ١٨٦

٣ - إنجلترا بين فرنسا وإسبانيا (الأرمادا) . . ١٩٢

٤ - فيليب الثاني وفرنسا حتى صلح فرانكو . ٢٠٧

٥ - هنري الرابع وسافوا وألمانيا ٢١٢

٦ - الكنيسة واليسوعيون ٢٢٠

التفصيل التاسع : شرق أوروبا وآسيا : ٢٢٥

١ - روسيا في عهد إيوان الثالث : بولندا والمغول ٢٢٥

٢ - الشمانيون ، والمجر ، والنمسا ٢٣٣

٣ - روسيا في عهد إيوان الرهيب ٢٤٠

٤ - بولندا والسويد وموسكو ٢٤٨

٥ - الإمبراطورية الشمانية وبقية الدول الآسيوية . ٢٥٧

التفصيل العاشر : العلاقات الثقافية : ٢٦٩

١ - الجامعات والإتجاه القوي ٢٦٩

٢ - الجامعات والإتجاه الإيطالي ٢٧٢

٣ - تأهل الحضارة الفرنسية ٢٧٩

٤ - دور إسبانيا في الحياة الفكرية ٢٨٥

صفحة

الباب الثالث

القرن السابع عشر (حتى عام ١٦٦٠) . . . ٢٨٩

الفصل الحادى عشر : المظاهر الجديدة للسياسة وللثقافة الدولية : ٢٩١

١ - رؤساء الدول والراى العام ٢٩٢

٢ - الدول العظمى وسكانها ٢٩٥

٣ - حرية البحار ٢٩٦

٤ - الحروب البرية ، و وفردة ، المعارك ٢٩٩

الفصل الثانى عشر : المعط وسياسات التوسع الاستعمارى : ٣٠١

١ - الشركات الهولندية ٣٠١

٢ - التوسع الانجليزى ٣٠٨

٣ - التوسع الفرنسى ٣١١

الفصل الثالث عشر : حرب الثلاثين عاما : أصولها وبداية الازمة : ٣١٧

١ - الأسباب ٣١٨

٢ - الحرب فى بوهيميا وألمانيا ٣٢١

٣ - مصالح هولندا ، وانجلترا ، وفرنسا ٣٢٨

٤ - تدخل الدانمرك ، والسويد ٣٣٣

٥ - سياسة فرنسا ، ودخولها ٣٤٠

الفصل الرابع عشر : حرب الثلاثين عاما ونهاية التفوق الاسبانى :

تطور الازمة وتسوية الصلح : ٣٤٧

١ - عمليات جوستاف أدولف فى ألمانيا ٣٤٨

صفحة

٢ — العمليات الفرنسية ٣٥٤

٣ — الحرب الفرنسية الاسبانية ومعاهدات وستفاليا . . . ٣٦٧

٤ — تأثير إنجلترا في عقد كرومويل ٣٧٧

٥ — نهاية الحرب وصلاح البرانس ٣٨٢

الفصل الخامس عشر : بحر البلطيق وأوروبا الشمالية الشرقية : ٣٩٣

١ — الدانمرك ومضائق بحر البلطيق ٣٩٣

٢ — السويد ، وحرب بولندا ، وحرب ألمانيا ٣٩٧

٣ — بولندا وروسيا والسويد ، وحرب الشمال ٤٠٤

٤ — الفرييون وصلاح أوليفا ٤١٣

الفصل السادس عشر : البحر المتوسط والدول العظيمة عليه : ٤١٩

١ — العثمانيون والحرب على جيبوتي ٤١٩

٢ — الخوض الغربي البحر المتوسط ٤٢١

٣ — التجاوة في شرق البحر المتوسط ٤٢٦

٤ — فرنسا وحماية اللاتين في فلسطين ٤٢٢

٥ — الحرب بين العثمانيين والبينادقة والاستيلاء على

كريت ٤٣٥

صفحة

القسم الثاني

من لوى الرابع عشر إلى عام ١٧٨٩ . . . ٤٤١

الباب الرابع

القرن السابع عشر (بعد عام ١٦٦٠)

عصر لوى الرابع عشر ٤٤٣

الفصل السابع عشر : فرنسا في عصر لوى الرابع عشر ، الملك ،

وأهداف ووسائل سياسته الخارجية : ٤٤٥

١ — السياسة الشخصية ٤٤٥

٢ — الدبلوماسية ، واستخدام الاموال في إنجلترا في ألمانيا ٤٥٠

٣ — وسائل القوة : الجيش ، والبحرية ٤٥٤

٤ — الخوف من طموحات السيطرة ، ونمو روح التكتل في الخارج ٤٥٦

الفصل الثامن عشر : فرنسا وحرب أسبغية الذهب (١٦٦٧-١٦٦٨) ،

وحرب هولندا (١٦٧٣-١٦٧٨) ٤٥٩

أولاً : فرنسا وحرب أسبغية الذهب (١٦٦٧-١٦٦٨) ٤٦٠

١ — الفرنسيون في خدمة الصليب في النمسا وفي البحر المتوسط ٤٦٠

٢ — التنافس البحري بين الإنجليز والهولنديين . . . ٤٦٥

٣ — حرب أسبغية الذهب ٤٧٢

ثانياً : حرب هولندا (١٦٧٣-١٦٧٨) : . . . ٤٧٧

١ — أهميتها ، وأسبابها الاقتصادية والنفسية . . ٤٧٧

٢ — الاستعدادات الدبلوماسية ، والعمليات الحربية . ٤٨٥

٣ — التحول الدبلوماسي ، واتساع ميدان العمليات . ٤٩٠

٤ — المفاوضات ومعاهدات يمينج (١٦٧٨) . . . ٤٩٩

صفحة

الفصل التاسع عشر : فرنسا والصداقة العثمانية - « إتحادات » عام
١٦٨٠ ، وحرب رابطة أوجسبورج (١٦٨٨ - ١٦٩٧) ٥٠٥

أولا : فرنسا والصداقة العثمانية : ٥٠٥

١ - كوليبر ، والتوسع البحرى والاستعماري ٥٠٥

٢ - تجديد معاهدة الإمتيازات الأجنبية في ١٦٧٣ ٥٠٧

٣ - تخويف شمال إفريقيا ، وضرب الجزائر ٥١٠

ثانيا : « إتحادات » عام ١٦٨٠ : ٥١٢

١ - التفكير الجديد ، لوفوا وعمليات الاتحادات ، ٥١٢

٢ - تهديد إسبانيا ، بغزو لوكسمبورج ٥١٦

٣ - محاصرة النماليين لنيسا ٥٢٠

٤ - النتائج ومدة رايسبون ، عام ١٦٨٤ ٥٢٢

ثالثا : حرب رابطة أوجسبورج (١٦٨٨ - ١٦٩٧) ٥٢٥

١ - تكوين الرابطة ٥٢٥

٢ - إعلان الحرب ٥٣١

٣ - الحرب وعملياتها ٥٣٣

٤ - صلح ريزويك ٥٤٠

الفصل العشرون : حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠١ - ١٧١٤) ، وأوج
قوة إنجلترا : ٥٤٦

أولا : أصول حرب الوراثة الاسبانية : ٥٤٦

١ - مسألة الوراثة ٥٤٦

٢ - تحالف لاهاي والتكتل ٥٥١

٣ - إمكانيات الطرفين ، والاستيلاء على جبل طارق ٥٥٤

صفحة

٥٥٨	• • •	ثانيا : الحرب والمفاوضات والصالح :
٥٥٨	• • • • •	١ — العمليات الحربية
٥٦٢	• • • • •	٢ — المفاوضات
٥٦٧	• • • • •	٣ — صلح أوترخت
٥٧٤	• • • • •	ثالثا : أوج قوة إنجلترا :
٥٧٤	• • • • •	١ — إنجلترا والدول التابعة لها
٥٧٤	• • •	أ — هولندا والقوة الاقتصادية
٤٧٦	• • •	ب — البرتغال والميدان الإستراتيجى
٥٧٨	• • • • •	٢ — التجارة والقوة العالمية
٥٨١	• • • • •	٣ — النتائج
٥٨٣	• • • • •	الفصل الحادى والعشرون : شرق أوروبا ، السويد وروسيا :
٥٨٤	• • • • •	١ — الأوضاع الموهودة فى شرق أوروبا ، وفى الشمال
٥٩٣	• • • • •	٢ — بولندا وروسيا والسويد
٦٠٣	• • • • •	٣ — سروب شاول الثانى عشر ، وبطرس الأكبر
٦١٤	• • • • •	٤ — التطور فى روسيا فى عهد بطرس الأكبر
٦١٩	• • • • •	الفصل الثانى والعشرون : خارج أوروبا :
٦١٩	• • • • •	١ — الهند
٦٢٣	• • • • •	٢ — فارس
٦٢٥	• • • • •	٣ — اليابان والصين
٦٣٢	• • • • •	٤ — المسيحية واليهود فى آسيا
٦٣٥	• • • • •	٥ — إفريقيا ، المغرب ، وإثيوبيا
٦٤٠	• • • • •	٦ — أمريكا ، والمحيط الحادى

صفحة

الباب الخامس

القرن الثامن عشر ٦٤٧

الفصل الثالث والعشرون : نهاية العصور الحديثة ٦٤٩

١ - إغناء القرصنة ٦٤٩

٢ - التقدم البطيء في القانون الدول ٦٥٢

٣ - زيادة تعقيد الشؤون الأوربية ٦٥٥

٤ - النمسا : ماضيها ومستقبلها ٦٥٨

٥ - إنجلترا ، سيدة البحار ، والذهب الانجليزي ٦٦٢

٦ - سكان الدول العظمى في أوربا ٦٦٦

الفصل الرابع والعشرون : الانقضاضات الأخيرة لاسبانيا ؛ مشكلات

إيطاليا والبحر المتوسط : ٦٦٨

١ - التقارب الفرنسي الانجليزي ٦٦٨

٢ - التنافس الاسباني النمساوي على إيطاليا ٦٦٩

٣ - النمسا في البحر المتوسط ٦٧٥

٤ - تقارب إسبانيا من النمسا ٦٧٨

٥ - الدبلوماسية الفرنسية (فلهري) ومعاهدة فينا الثانية ٦٨٢

الفصل الخامس والعشرون : وراثة بولندا ، وزيادة العداء الروسي

العثماني : ٦٨٨

١ - ضعف بولندا وزيادة نفوذ روسيا ٦٨٨

٢ - أزمة الوراثة والتدخل الفرنسي ٦٨٩

٣ - الحرب ومعاهدة فينا الثالثة ٦٩٢

٤ - صعوبة العلاقات الروسية العثمانية ، وتقارب روسيا من النمسا ٦٩٧

٥ - إسقيلاء الروس على آزوف ، وصلاح باجراد ٦٩٩

٦ - تجديد الإمتيازات الأجنبية ٧٠٤

صفحة

التصل السادس والعشرون : الصدمات الكبرى في أواسط القرن

٧٠٧	• • • • •	وصعود دولة بروسيا :
٧٠٧	• • • • •	أولا : حرب الوراثة النمسية :
٧٠٧	• • • • •	١ — ألمانيا وبروسيا .
٧١٥	• • • • •	٢ — أوضاع أوروبا ، وتدخل فرنسا .
٧٢٣	• • • • •	٣ — تدخل إنجلترا ، وإستمرار الحرب في أوروبا .
٧٣٢	• • • • •	٤ — إمتداد الحرب إلى المستعمرات .
٧٣٥	• • • • •	٥ — التهديد الروسى وصلاح إكس لاشايل .

التصل السابع والعشرون : الصدمات الكبرى في وسط القرن وصعود

٧٤٠	• • • • •	دولة بروسيا :
٧٤٠	• • • • •	ثانيا : حرب السنوات السبع :
٧٤٠	• • • • •	١ — تنهيه نظام التحالف .
٧٤١	• • • • •	— التحالف الانجليزى الروسى .
٧٤٤	• • • • •	— التحالف الفرنسى النمساوى .
٧٤٧	• • • • •	— النتائج على المعركة النمساوية .
٧٤٩	• • • • •	٢ — الحرب .
٧٥١	• • • • •	— فى أمريكا .
٧٥٤	• • • • •	— فى الهند .
٧٥٦	• • • • •	— فى أوروبا .
٧٥٨	• • • • •	٣ — فردريك وإستمرار الحرب .
٧٦٣	• • • • •	٤ — فرنسا تفقد كندا .

صفحة

- ٥ - تطور الموقف الدولي والصلح ٧٦٤
 - غرب أوروبا ٧٦٥
 - شرق أوروبا ٧٦٨
 - الصلح ٧٢٢

الفصل الثامن والعشرون : التقسيم الأول لبولندا ، ووصول الروس

- للبحر الأسود : ٧٧٥
 ١ - روسيا ونفوذها في بولندا ٧٧٦
 ٢ - فرنسا والدولة العثمانية ٧٧٩
 ٣ - حرب روسيا ضد الدولة العثمانية ٧٨١
 ٤ - بروسيا وفكره لتقسيم بولندا ٧٨٦
 ٥ - النمسا وتقسيم بولندا ٧٨٨
 ٦ - عملية التقسيم وردود الفعل ٧٩١
 ٧ - روسيا ومعاهدة كوجك قيناريدجي ٧٩٢
 ٨ - فرنسا تضم جزيرة كورسيكا ٧٩٥

الفصل التاسع والعشرون : ثورة المستعمرات الانجليزية في أمريكا :

- وتخاصم فرنسا وانجلترا : ٧٩٩
 ١ - فرنسا وانجلترا ٧٩٩
 ٢ - صعوبات انجلترا مع المعمرين في أمريكا ٨٠٧
 ٣ - التعاطف الفرنسي مع الثوار ٨٠٩
 ٤ - التدخل وحرية البحار ٨١٣
 ٥ - الحرب واتساع مداها ٨١٨
 ٦ - الصلح ومعاهدة فرساي ٨٢١

صفحة

الفصل الثلاثون : طموحات السياسة التنموية وفضلها : ٨٢٦ . . .

١ — وراثة بافريا ٨٢٨ . . .

٢ — النسا وروسيا والبلقان ٨٢٢ . . .

٣ — الأراضي المنخفضة ، ومصب الأسكوت ٨٤٠ . . .

٤ — مشروعات تقسيم الإمبراطورية العثمانية ٨٤٣ . . .

الفصل الحادى والثلاثون : خارج أوروبا : ٨٥٢

١ — فارس ٨٥٢ . . .

٢ — الهند وبيروما والهند الصينية ٨٥٦ . . .

٣ — الصين ٨٥٩ . . .

٤ — علاقات آسيا بأوروبا ٨٦٣ . . .

٥ — المحيط الهادى ٨٦٤ . . .

٦ — أمريكا ٨٦٦ . . .

٧ — شمال إفريقيا ٨٧١ . . .

٨ — مصر تجتذب الإنتباه ٨٧٧ . . .

عاصمة الكتاب : ٨٧٩ . . .

بعض مراجع الكتاب : ٨٨٧ . . .

معلومات الكتاب : ٨٩٩ . . .

رقم الايداع ٨٢ / ٣٩٩٠
التقديم الدولي ٢ - ١٤٧ - ٠٢ - ٩٧٧



المطبعة العصرية
• شارع كافور - الحضره القبلية اسكندرية

١ / ١٢٢١٦٣

الناشر منطقة الاسكندرية ٤٢ ش سعد زغلول الاسكندرية